الروايات الاجتماعية

المجموعة الأولى

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

الروايات الاجتماعية

المجموعة الاولى

جمال شاهين

جمع ٢٠٢٢

1ليلة عرس

شمس عمري

ايتام الحداد

صديق امي

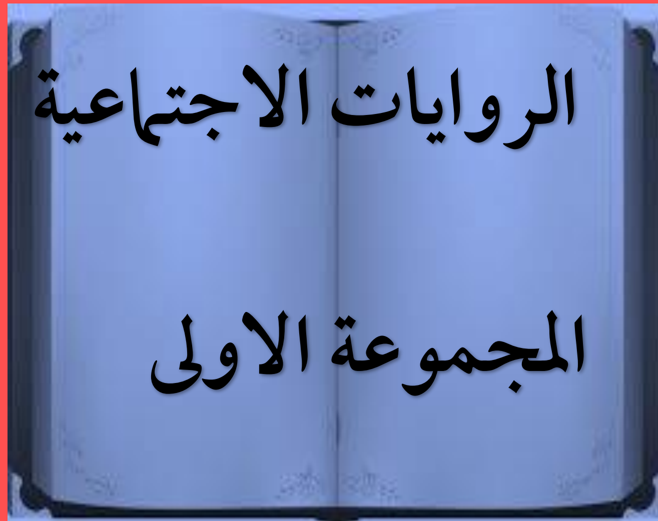
الأخ شريف

أستاذ الفرنساوية

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

جمال شاهين



ليلة عرس

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

منشورات المكتبة الخاصة

١٤٤٤ /٢٠٢٣

روايات اجتماعية

جمال شاهين

ليلة عرس

جمال شاهين

ليلة عرس

محاولة اعتقال

رفع معتصم الغطاء عن جسده النائم على أثر سماعه صوت رنين جرس باب الشقة في تلك الليلة الشديدة البرودة ، مع ما يصاحبها من ظلام دامس ومطر غزير ، فنظر إلى زوجته النائمة بجواره فوجدها هي الأخرى قد استيقظت على رنين الجرس ، فهمس كأنه حالم : هل هو جرس الباب ؟!

فقالت والدهشة مرتسمة على وجهها من السؤال: بالتأكيد أنه جرس الباب .. فجرس الهاتف رنينه مختلف.

فقال وهو يرفع الغطاء كله عن جسده ويستوي جالسا : حق ذلك! .. لقد غفلت عن اختلاف النغمتين ..وها هو يرن مرة أخرى !

وتمطى في الغرفة قليلا ، وأدخل رأسه في طاقية صوفية وقال: سأرى .. من الطارق ؟! بل من هذا المزعج في مثل هذه الليلة الباردة ؟!.

وغادر الغرفة متجها إلى باب الشقة ، وتبعته زوجته وهي في غاية القلق والتوتر ، بل كانت ترتجف خوفا ، فاقترب معتصم من باب الشقة الرئيسي ، وكان يتحرك بخفة حتى لا يسمح لقدميه بإخراج أيّ صوت يسمعه من يطرق الباب ، نظر معتصم من عدسة الباب فشاهد ثلاثة رجال يرتدون ملابس أنيقة ، وتقع هذه الشقة المطروقة ليلا في الطابق الثالث من عمارة مكونة من ستة طوابق في شارع البحر الأزرق ، في حي الزهرة وهو من الأحياء الحديثة في العاصمة .

همس معتصم بصوت فيه قلق ورجة : من بالباب ؟!

فقال أحد الرجال : افتح ـ يا معتصم ـ نحن رجال أمن .

فهمس معتصم لنفسه : أمن ..أمن! .. ويعرفون اسمي ! والتفت حوله فوجد زوجته وراءه ، فهمس قائلا وهو يضع سبابته على فمه: عودي لغرفتك .. إنهم رجال أمن ..لابد أنهم يريدون مهديا .

ورفع صوته مخاطبا رجال الأمن مظهرا الدهشة : أمن!.. شرطة ! .. وماذا تريدون منا ؟!

فقال أحدهم بصوت هادئ أو بدا طبيعيا لمعتصم: افتح .. يا معتصم ! .. نحن نريد أخاك مهديا.. ولدينا معلومات مؤكدة أنه يختبئ هنا .. عندك في بيتك يا سيد معتصم !.. عجل افتح قبل أن نخلع الباب.

فرد عليهم معتصم وقد عادت إليه شجاعته وهدوءه : انتظروا قليلا ريثما أخبر زوجتي ، ثم أفتح لكم .

ولم ينتظر الجواب فهرع مسرعا إلى الغرفة التي يرقد فيها مهدي ، فوجده هو الآخر مستيقظا وقد ارتدى ثيابه ، فقال مهدي : رجال المخابرات يا معتصم ؟

فهز معتصم رأسه بالإيجاب وقال : أجل ، ما أنت فاعل .. يا أخي ؟

قال مهدي وقد حاول أن يظهر شجاعا وهادئا أمام أخيه وزوجته: سأهرب .. سأهرب من نافذة الحمام .. وبواسطة مواسير المياه سأهبط على حديقة البناية .. ولسوف أتصل بك وأطمئنك.. وداعا.

ودخل الحمام ومن شباكه الصغير تسلل إلى الشارع ، واختفى في ظلمة الليل الحالك ، وخلال هروب مهدي عن طريق مواسير المياه ، كانت زوجة معتصم قد أكملت ارتداء جلبابها السميك الفضفاض ، وتهيأت لدخول رجال الأمن البيت، وفتح معتصم لهم الباب معتذرا لهم عن التأخير قليلا من الوقت ، واستقبلهم خير استقبال ، فقدم رئيسهم له بطاقته الرسمية وهو يقول متظاهرا بالأسف : نأسف للإزعاج ؛ ولكن لابد من القيام بواجبنا.. فأخوك مطلوب القبض عليه لإثارته الفتن والشغب يوم الاحتفال الكبير في الجامعة ، ولفعلهم هذا الشغب أيضا أمام الحاكم ، وكذلك للإهانة العظمى التي لحقت بالحاكم في ذلك اليوم .. ولنا أكثر من ثلاثة أشهر نبحث عنه ونطارده ، وقد علمنا أخيرا أنه يختبئ عندك في بيتك .

وكان معتصم يسمع هذا الكلام وتبريرات مداهمة الشقة ـ وقد تناول بطاقة الضابط وتأملها ـ فقرأ بعينيه اسم الضابط عليها النقيب ساري .. من مباحث أمن وحماية الدولة ، فلما أنهى الضابط كلامه ، وموضحا سبب هذا المجيء ، أعاد له معتصم البطاقة التعريفية ، وهو يبتسم

ونادى زوجته : تعالي يا أم محمود !.

ولما أقبلت الزوجة نحو زوجها ، وقد ألقت السلام على القوم بصوت هامس ، قال معتصم :

أيها السادة البيت تحت تصرفكم ، أرجو أن تفتشوا البيت كل البيت لتطمئن قلوبكم .

فنظر الرجال بعضهم إلى بعض ، وقال رئيسهم النقيب ساري وهو يبحلق في عيون معتصم :

هل غادر مهدي المكان ؟!

فرد معتصم بثبات : قوموا بواجبكم كما تقولون .

فقال أحد مساعدي النقيب : فهل تعتقد أنك بكلامك هذا تصرفنا عن تفتيش المسكن ؟

فرد معتصم وما زالت الابتسامة ترتسم على محياه : فتشوا .. أيها السادة !

فأشار لهم رئيسهم بالتفتيش ، وكانت زوج معتصم تلوذ به ، وهو يهز رأسه باستمرار ، ويحد النظر في الضابط المسئول ، وتحرك الرجلان يبحثان في الغرف ، وينظران في خزانات الثياب ، وبحثوا تحت الاسرة ، وفي زوايا البيت الـمختلفة والحمامات ، وتم هذا كله في دقائق مـعدودات ولما انتهى التفتيش السريع تقدم أحدهم قائلا لسيده وهو في حيرة : لا يوجد أحد في البيت سوانا يا سيدي !

ففرك الضابط النقيب أنفه بشدة ، والتوتر والضيق ظاهران عليه ، وقال مخاطبا لمعتصم : ألم يكن مهدي هنا ؟!

فقال معتصم بهدوء : هذه مهمتك يا سيدي النقيب !.. يمكن للأخ أن يزور أخاه!

قال الضابط القائد وهو ينظر في عيني مهدي بغضب خفيف: أرجو أن أراك في الصباح في مركز الشرطة التابع لهذه المنطقة .. مركز شرطة حي الزهرة يا أبا محمود .

فرد معتصم باسما وببساطة قد تكون مصطنعة : أنا تحت أمرك يا سيدي ! أي ساعة تحب أن يكون ذلك ؟

قال رجل الأمن وكأنه حزين لخيبته في اعتقال مهدي بعد كل هذه الشهور من التقصي والتحري : الحادية عشرة صباحا إذا تكرمت علينا !

وغادر الرجال الثلاثة الشقة ، وهم في دهشة وحيرة من فشلهم في القبض على الطالب النشيط والناشط السياسي في الجامعة "مهدي مروان "، فلقد أكد لهم المخبرون أن الشاب الطالب في كلية الهندسة يختبئ في شقة أخيه "معتصم مروان" الكائنة في شارع البحر الأزرق .



لما اختفى صوت أقدام رجال الأمن السري أغلق معتصم باب الشقة بالمفتاح من جديد ، والتفت إلى زوجته التي خلعت الخمار عن رأسها وقال وهو يتنهد بعمق: آه! .. لقد كانت ساعة رهيبة !! .. الحمد لله على كل حال يا أم محمود !

تمتمت المرأة بالشكر للرحمن عزّ وجل، وبدأت تعود لها نضارة وجهها وحيويتها وقالت: فعلا كانت ساعة رهيبة .. يا الله! .. الحمد لله .. الحمد لله على عدم حضور الأولاد هذا الموقف! .. الحمد لله حمدا كثيرا .

فقال معتصم وهو يمشي نحو غرفة النوم : الحمد لله .. ربنا لطف بنا .. لو كان محمود هنا وسأله رجال الشرطة عن عمه مهدي ماذا سيرد؟! أو حتى أمينة الصغيرة .. الموقف رهيب !! من حسن حظنا وحظهم أنهم لم يكونوا هنا الليلة .. مرة أخرى وأخرى الشكر لرب العباد .. الرعب والخوف قاتلان !!

ـ مهدي ؟! أتظنه نجا ؟!

ـ مهدي رياضي ، لا خوف عليه من تسلق المواسير ، لو حدث له شيء أثناء الهبوط لشعرنا به

ـ أرجو له السلامة .

ـ فكرت أن أنزل خلف العمارة لأطمئن عليه عندما ذهب هؤلاء القوم ؛ ولكني قلت لابد أنهم سيبقون رجالهم للمراقبة .. فالمعلومات لديهم دقيقة .. وهم يعرفوننا جيدا .

ـ لابد أن رجالهم بقوا ، .. ربنا يستر.

ـ هذه ليست أول مرة يتعرض فيها مهدي للمطاردة والاعتقال .. ولكنهم هذه المرة أساءوا

لرجال الدولة ولرأس الدولة إساءة كبيرة .. هداهم الله .. سيقبض عليهم آجلا أم عاجلا .. وهو هذه المرة مصرٌ على عدم تسليم نفسه بعكس المرات السابقة كان يسلم لهم نفسه خلال أيام معدودات .

أخذت الزوجة تدعو لوالدة زوجها بالصبر والثبات ثم قالت : كان الله في عون الوالدة أم محمد تبسم معتصم وهو يتذكر اعتقالات سابقة لمهدي وهزّ رأسه وقال : لا عليك يا أم محمود ! ربما أنت أول مرة ترين رجال الأمن يأتون إلينا في هذا البيت ، في بيت الوالد عرفنا ذلك كثيرا أمي تعودت على شغب مهدي ومشاكله مع الأمن السري والاعتقال والتوقيف .



اعتقال في شقة نمر

أما مهدي المطارد من قبل رجال الأمن السري ، فقد هبط عن طريق مواسير المياه على أرض الحديقة الخلفية للعمارة ، وتحرك بخفة وهدوء بين الأشجار ، ثم غادر العمارة من بابها الخلفي ولما أصبح على رصيف الشارع حمد الله على نجاته منهم ، وما زالت الرياح الباردة تعصف عصفا والأمطار تتساقط بغزارة وقوة فهمس محدثا نفسه : أين المفر .. أيها الفارس؟ .. إلى صديقي "نمر حميد" أرجو أن أجده في شقته .

وفي خطوات سريعة اخترق مهدي مروان عدة شوارع ، وفجأة وهو يهم بقطع أحد الشوارع وقفت أمامه سيارة الشرطة الليلة، فارتبك لحظات ، ثم تمالك أعصابه المتوترة عندما حدثه قائد السيارة : أين أيها الشاب! في هذا البرد والمطر والليل ؟!

فقال مهدي ، وكان قد أخفى نصف وجهه بغطاء رأسه موهما لهم أنه يفعل ذلك من شدة البرد : لقد أوصلت أخي للمستشفى القريب من هنا ، لقد أصابه مغص حاد ، فنقلته إلى المستشفى بصحبة أمنا ..وتركت أمي عنده وأنا عائد للبيت ، فأنا أسكن قريبا من هنا في شارع الشريعة وتمعن السائق ومن معه في هيئة مهدي قليلا ، ثم انطلقت السيارة بهم مسرعة ، فأسرع الشاب في اجتياز الشارع ، ثم دخل أحد الأزقة وهو

يقول : لقد نجوت منهم مرة أخرى فلله الحمد يا الله .

ومن شارع لشارع وصل بطل قصتنا الشاب المطارد من قبل مباحث أمن الدولة إلى حي يقطن فيه صاحبه "نمر حميد" ، ولما دخل العمارة ليصعد إلى شقته ارتفع صوت آذان الفجر معلنا عن بداية يوم جديد .. وعندما وقف مهدي أمام شقة نمر يطرق الباب ، وقبل أن يُفتح الباب هبط رجل من الطوابق العليا .. رجل تجاوز الستين عاما ، ولما وجد مهديا أمامه حياه وقال بدون مقدمات : لقد حضر رجال الشرطة مساء أمس وقبضوا على ساكن هذه الشقة يا أخ ! .. لعلك صديقه أو قريبه. رد مهدي باضطراب : قبضوا عليه!.. نعم ..نعم ..أنا صديقه ، كيف قبضوا عليه ؟ ولماذا ؟!

فقال الشيخ : ما اسمك يا بني ؟

فأجاب مهدي الرجل الشيخ : اسمي زكي يا سيدي الشيخ ! أخبرني ما الذي جرى لصديقي

فقال الشيخ : ليلة أمس عند صلاة العشاء ، وأنا صاعد هذا الدرج ، عائد من الجامع القريب كان رجال الشرطة يقبضون على ساكن هذه الشقة ـ وأشار بإصبعه السبابة إلى بابـها ـ وسمعت بعض سكان العمارة يتهامسون ويدّعون أنه رجل خطير ، مطلوب بعدة جرائم ، فمنهم مَن يقول أنه محتال عالمي ، ومنهم مَن يقول أنه مهرب عالمي شديد الخطر ، والله أعلم بالحق أيها السيد ... ! يا سيد زكي ما اسمك قريبك أو صديقك ؟؟

فقال مهدي من غير تردد : اسمه نمر ، فهو الآن بين يدي الشرطة .. أنا في الحقيقة ـ أيها الشيخ المحترم ـ قادم من سفر ، فقلت أمكث عند صاحبي بضع ليالي أبحث خلالها عن شقة أو منزل في أحد الأحياء ، أشكرك يا عم .

فرد الرجل قائلا : عمك أبو أحمد ! .. أسكن في الدور الرابع الشقة الأولى جهة اليمين يا ابني يا زكي !.

فقال مهدي: شكرا لك يا عم أبا احمد !..سأنتظر قليلا هنا ، ثم أذهب باحثا عن فندق أستأجر فيه سريرا .

فقال الرجل : هيا معي إلى المسجد أيها الغريب ، نصلي الصبح سوية ، وتظل في المسجد حتى تشرق الشمس ، ثم تبحث بعد ذلك عن سرير في أحد الفنادق .

رد عليه مهدي : سوف أستريح على هذا الدرج ثوان أيها الشيخ الفاضل ! ثم أتبعك يا عمي أبا أحمد !.

وتابع أبو أحمد نزوله درج العمارة متوجها للمسجد لصلاة الفجر جماعة ، بعد هذه الثرثرة الطويلة ، فلما خف سماع صوت نعل حذاء أبي أحمد قرع مهدي باب الشقة مرة أخرى بطريقة خاصة ، ففتح له الباب ، وتعانق الصديقان مهدي ونمر ، وقال الأول : لـقد دهشت عندما سمعت هذا الشيخ يتحدث عن اعتقالك ، وأنهم قبضوا عليك .. لقد اندهشت حقا ، فلقد

سمعت حركتك أمام الباب عندما طرقت الباب المرة الأولى .

فقال نمر : نعم ، عندما طرقت الباب كنت خارجا من الحمام ، فقد توضأت للصلاة ، فاقتربت من الباب ، وقبل أن أنظر في عدسته سمعت صوتيكما .. وما يقول عنا العم أبو أحمد ؟

قال مهدي : الشرطة .. ما قصة الشرطة ؟!

ـ هو يقول الصدق ، لقد داهمت الشرطة البيت أمس ، وأمسكوا بصاحبنا "علي سالم" معتقدين أنه أنا ، فماذا يتحدث عنا جيراننا ؟

فجلس مهدي على مقعد واسع وذهنه مشغول بكثير من الأفكار ، وربما الأحلام ، وقال مجيبا : إنـهم يقولون عنك مهرب دولي ، وبعضهم يقول إنك محتال عالمي ، وأنا جئت إليك في آخر الليل هاربا من شقة أخي معتصم ، فلقد داهمها الليلة رجال المباحث السرية ، فلقد اكتشفوا مكان اختفائي ، فأرى أنّ الأمر بدأ يضيق علينا ، سوف أستأجر بيتا في حي وضيع مكتظ بالناس ، أما الآن فعلينا بالصلاة ، ثم الهرب قبل أن يكتشف رجال الشرطة أنهم قبضوا على رجل بالخطأ .. فلا أظن يا صاحبي أنّ هناك خطرا على الأخ علي .

فقال نـمر : أعتقد هذا ؛ ولكن المحققين قد يكون لهم قول آخر ، ولا يرون رأينا ، وأنا أيضا سوف أغير سكني اليوم .. يا صديقي ! فهؤلاء القوم مصممون بالقبض على زعماء الطلاب وقادتهم في ذلك اليوم الخالد في تاريخ الجامعة ، كيف يقف الطلبة أمام حاكمهم المسلم يطالبونه بإلغاء القوانين الوضعية ، وترك التبعية لدول الكفر ؟! كيف يكون هذا ؟!

قال مهدي معقبا : قضيتنا تحتاج إلى تضحيات جسام ، وصبر جبابرة ، فإيقاظ الناس من سباتهم أمر عظيم وشاق .

ونهض مهدي واتجه نحو الحمام للاستنجاء والوضوء ، وبعدما قاما بإقامة الصلاة جماعة في داخل الشقة قام نمر بإعداد الشاي ، وأحضر معه بعض قطع البسكويت ، وملأ الكوبين ووضع أحدهما أمام مهدي وهو يقول : اشرب يا أخي ! .. محنة ولسوف تزول وتندثر بإذن الله تعالى لا تهتم .. والصبر ممدوح .

قال مهدي مشجعا لصديقه في الحزب والجامعة : لست خائفا من الحبس والعقاب ..لابد من التضحية والصبر .. ونحن لم نفعل حراما ومنكرا .. وهذه المطالب والشعارات منذ نشأت الحركة الدينية في بلادنا وبلاد المسلمين ونحن ننشرها ونعلنها على الملأ يا أخي نمر .. ليست بدعا من الحديث .. وذاك المنشور الذي وزع يوم حفل التخرج وزعنا مثله أو شبيها له كثيرا في الماضي .. وهذه اليافطات التي أزعجت رجال الأمن .. لا تكاد تخرج مظاهرة حزبية إلا وقد رفعتها أو رفعت مثلها .. أم القضية أنها رفعت أمام الحاكم فأصبحت إهانة للحاكم .. عجيب أمر السلطة اليوم في بلاد المسلمين ! .. ألا تريد أن تصحو السلطة من نومها في العالم الإسلامي وتحكم البلاد بشرع الله ودين الله .. الناس يرغبون بدينهم وإسلامهم .. لماذا نحكم بغير دين الله ؟!

قال نمر حميد : اهدأ أيها الأخ الصديق .. لم نأت بشيء جديد .. ولكنهم اغتاظوا لأنهم طلبوا من قادة الطلاب الهدوء وعدم رفع الشعارات السياسية وخاصة الإسلامية أمام شخص الحاكم وبعض الشعارات المكتوبة على اليافطات كانت حقيقة حادة ومزعجة ، وفيها اتهام جريء بالعمالة للغرب والصليبية العالمية والماسونية ..

ـ كان لابد أن يصل لحكام المسلمين اليوم " أن لا أسرار اليوم " .. إذا كانت صحف بلادنا لا تتحدث عنهم بصراحة فصحافة الغرب وإعلام الغرب يتحدثون بصراحة عن تبعيتهم لهم .. لماذا الخداع والتمويه على الأمة ؟! لماذا ؟! .. عقيدة البراء والولاء يجب أن تكون واضحة لا لبس فيها .. والتعاون والاستفادة من مدنيتهم يجب أن تكون واضحة أيضا .. وعلى الأمة أن تعرف الثمن المدفوع للحصول على مدنيتهم وحضارتهم .. هذا إذا كان لديهم حضارة .

كان هذه الحديث قائما وهم يشربون الشاي ويأكلون قطع البسكويت ، ولما لم يتكلم نمر بشيء قال مهدي : تكلمنا كثيرا بمثل هذا الكلام .. والآن قل لي كيف قبض على الصديق والزميل علي سالم .. ولم يقبض عليك أنت ؟!

ضحك نمر ضحكة قصيرة وقال : القدر!.. وأيضا تضحية من علي ومغامرة !! .. صلينا المغرب

معا في مسجد الصديق أبي بكر .. المسجد القريب من هنا .. وكان عندي صداع شديد .. وقلت له ونحن في المسجد سأمرّ على الدكتور حاتم صديقنا ، فعيادته كما تعلم في نفس شارع المسجد ، واتفقنا على أن نلتقي في البيت ـ هذا ـ للعشاء معا بعد صلاة العشاء ، وهو كما تعلم يحمل مفتاح للشقة منذ تصاحبنا .. وكثيرا ما نام عندي .

وتابع نمر حميد الحديث فقال : لم أجد الدكتور في العيادة ، فقد انصرف لمعالجة مريض في بيته ، فجلست مع الممرض حلمي ، وتحدثت معه بالهاتف من العيادة ؛ لأن هاتف بيت المريض معروف لديهم ، فالدكتور يتردد عليه باستمرار .. فهو زبون دائم كما يقول حلمي .. فأخبرني أنه لن يتأخر ، وطلب مني الانتظار في العيادة .. وهو يحتاجني في موضوع

ابتسم مهدي وهمس : موضوع الزواج ؟!

ـ نعم ، فهو يرغب بالزواج مرة أخرى ، فامرأته مريضة للغاية كما تعلم ، وهي قد رضخت لرغبته بالزواج عليها .. كأنها خشيت الطلاق لما رأت إصراره على الزواج .

وبعد هنيهة عاد يقول: دخل العشاء ولم يحضر الطبيب ، فقد تأخر واضطررت أن أصلي في مصلى داخل العمارة الكبيرة .. ولما حضر تحدثنا في العلاج والزواج .. وكنت قد اتصلت بالبيت لأتحدث مع علي سالم ، وأعتذر له عن التأخير الطارئ .. فلم يرد البيت .. وقبل أن أغادر العيادة تحدث معي علي سالم مخبرا لي أنه معتقل بدلا مني ، وهو موجود لدى قسم الشرطة .. فهم معتقدون أنه أنا ، وهو لزم الصمت لأدبر أمري.. فاعتذرت للدكتور وعدت للبيت متسللا .. أعد نفسي للهرب والاختفاء.

ـ ألم يعرفوه ؟! أيعقل أن يخطئوا ؟!

ـ الذين قاموا بعملية الاعتقال الشرطة ، وليسوا البوليس السري .

علي سالم

بعد أيام من محاولة اعتقال مهدي ونمر خرج السيد علي سالم من دائرة التحقيق الأمني ، ورغم اكتشاف رجال التحقيق أن المقبوض عليه لم يكن نمر حميد حبسوه عندهم بضعة أيام على ذمة التحقيق ، .. لم يعترفوا بخطئهم ، ولولا واسطة عم الشاب الموظف الكبير في أجهزة الدولة لربما ألصقت به أي تهمة، رغم أنهم لم يجدوا في ملفه في الجامعة ، وقبل الجامعة أي نشاط حزبي وسياسي له .

وأعادوا الكرة في اليوم التالي على بيت نمر حميد ولكنهم لم يجدوه ، وأثناء مراقبتهم للمنزل قبضوا على رجال قد حضروا للشقة بسيارة نقل ، وبينما هم ينقلون محتويات البيت أوقفوهم ، ثم تبين لهم أن هؤلاء باعة يشترون الأثاث القديم والمستعمل ولا علاقة لهم بنمر حميد ، وإنما تسلموا مفتاح الشقة من وكيل صاحب العمارة الذي استلم المفتاح من نمر حميد ، وكلفه ببيع أثاث المنزل لتكملة حساب أجرة الشقة .

استمر مهدي ونمر يتابعان حكاية اعتقال علي سالم ، وهما في غاية الدهشة لاستمرار توقيفه لعلمهما الأكيد بعدم وجود نشاط سياسي للسيد علي ، فكان مهدي يقول لنمر : هذه الحكومات وأجهزة أمنها أعتقد أنها ترى كل من صاحب حزبيا فهو حزبي .. على هذا الأساس ـ والله أعلم ـ يطيلون حبس الصديق علي سالم .

تنهد نمر ثم أغمض عينيه وهو يقول : وهم يعلمون أن لنا زملاء من أحزاب أخرى يا أخي الفاضل .. أليس عماد ماركسيا ؟! وغيره كثير .. هم يقصدون الإذلال والتحقير .

ولما علما بالإفراج عنه بعد أيام ، لم يستطيعا زيارته في بيت والده إنما تحدثا معه بالهاتف وهنئاه على سلامته والنجاة من براثن رجال المكتب الأمني والسياسي، واتفقا على لقاء خارج البيت لسماع قصة التحقيق معه .

ولما جرت إحدى مباريات كرة القدم ذات الشعبية الكثيرة الجماهير التقى الشبان الثلاثة في مدرج المباراة ، وانشغل المشجعون بالصياح والصفير والتحدي ، ودارت بينهم بعض

التعليقات والمازحات حول الرياضة والجماهير اللاهية بمثل هذه المنافسات .. ابتعد الشباب الثلاثة إلى مكان يخف فيه الحضور والصياح .. ثم أخذ علي يحدثهم بقصة اعتقاله والتحقيق معه فقال باسما : تركني نمر ذاهبا للعيادة ، ومكثت في المسجد لصلاة العشاء جماعة .. وبعد الصلاة عدت للشقة منتظرا عودة نمر من العيادة ـ عيادة الدكتور حاتم ـ لتناول الطعام كما اتفقنا ، وكنت قدرت أن نمرا تعالج بين الصلاتين وسيصلي العشاء ويأتي سريعا .. فدخلت المطبخ لتجهيز الشاي ريثما يأتي الأستاذ .. وقبل أن أشعل النار وقد ملأت الإبريق بالماء ، وكنت أترنم ببعض أبيات الشعر التي حفظتها حديثا .. رن جرس الباب وأنا مستغرب لرنينه لعلمي بأن نمرا صاحب البيت ومعه المفتاح .. فخطر في بالي أنه أحد الجيران أو الزملاء .. فتركت الإبريق لأفتح للطارق ؛ فإذا هم رجال شرطة بلباسهم الرسمي .. دخلوا الشقة وطلبوا مصاحبتهم لقسم البوليس .. حاولت الرفض والاعتراض ولكنهم أصموا آذانهم .. وقام أحدهم بالبحث داخل الشقة عن أشخاص غيري ، ثم أغلقت الباب وسرت معهم ، وقد كان بعض سكان العمارة أو أناس من الشارع التموا على سيارة الشرطة ، ودفعوني في مقعد السيارة الخلفي .. وأنا أهزّ رأسي بسخرية .. أنا أعرف أنهم يقصدونك يا أخ نمر .. فقلت لنفسي : اصمت لنرى نهاية هذه السخافة .

ولزم الشابان الصمت فتابع علي الحديث : شيء مضحك !.. قلت لهم وأنا في السيارة يا ناس أنا ضيف لست صاحب الشقة ..فيضحكون ويسخرون ويقولون عندما تجلس أمام المحقق قل له ما تريد لعله يصدقك .. وصلنا للقسم ومركز الشرطة .. ساقوني إلى إحدى غرف أحد الضباط كما علمت بعد مكث يسير وسمعت أحدهم يقول : امكث هنا حتى يحضر سليم بيك ولما طال انتظار سليم بك استأذنت أحد الضباط بالحديث بالهاتف وأنا متوقع الرفض حقيقة ولكنه نظر إليّ ثوان وقال : تكلم واختصر . وأخبرني بأني مطلوب لأجهزة المخابرات المدنية ، فتبسمت وهززت رأسي ولم أعقب على كلامه ، وأخذت السماعة وتحدثت معك كما تذكر ، وأنا أعرف مليون في المائة أنه ليس أنا المطلوب .. المطلوب الحقيقي أنت يا نمر ..

عند منتصف الليل حضر الضابط سليم وحياني ورحب بحضرتي وأخبرني بأنني سأرحل لدائرة التحقيق في مخابرات المدينة ، فحاولت أن أبين له هو الآخر أنني مقبوض عليّ بالخطأ فقطع عليّ الحديث قائلا : أن تفاهمنا سيكون هناك .. فعدت للصمت ثانية ..

ثم حضر شرطيان وساقاني إلى سيارة جيب عسكرية ، وانتقلنا لدائرة الأمن السري للتحقيق ولكنهم لم يحققوا معي تلك الليلة ، وقد وعدني حضرة الضابط سليم بالتحقيق في الصباح .. وهكذا نمنا أول ليلة عندهم .

وقبل الظهر في اليوم التالي أدخلوني لمكتب السيد سليم فرحب بي ثم قال : أفطرت ؟ فأشرت برأسي نعم .. فقال : هل شربت شيئا ؟ فذكرت له أنني شربت كوبا من الشاي .. فعاد يقول لي : أتشرب قهوة ؟ .. أنتم الشباب تحبون شرب القهوة بنهم .

لزمت الصمت ، فتركني جالسا في الغرفة الصغيرة وغاب بضعة دقائق ، وعاد ومعه موظف يحمل دفترا ، وقبل الحديث والتحقيق دخل أحدهم بفنجان القهوة ووضعه أمامي فقال لي الضابط سليم : تفضل اشرب يا أخ نمر.

فقلت وأنا أنظر في وجهه باسما : أنا لست نمرا .

ضحك الضابط وقال متهكما : جميل !! أنت نمر في ساحات الجامعة .. أما هنا فهل أصبحت هرة ؟ !!

فقلت بامتعاض وضيق لغبائهم وعجلتهم : لست نمرا ولا هرة يا حضرة الضابط أنا ...!

فقال ساخرا أيضا : لست نمرا ولا هرة فما تكون إذن ؟!

همست : علي !!

فتجهم وجهه وقال : علي !! .. ما معنى علي ؟!

فقلت : اسمي علي سالم .

وقد هيئت بطاقتي الشخصية ووضعتها أمامه على المكتب ، فنهض قائما ـ وقمت مثله ـ يتفرس فيّ والغضب يرتسم على وجه وأخذ الهوية وهو يقول : ماذا تعني ؟!

ـ أعني أن رجالك قبضوا عليّ أنا ولم يقبضوا على نمر .

دقق الضابط في الهوية ثم ضغط على زر كهربائي ، ولما دخل شرطي قال له صائحا : أين نبيل ناظم ؟! فليحضر عاجلا .

ورجع فجلس وهو يقول : أنت لست نمرا ولا هرة .. أنت علي سالم .. الهوية ليست مزورة .. كيف حصل هذا ؟!

ـ كنت في شقة نمر عندما جاءوا للقبض عليه .. ولما قلت لهم إنني لست نمرا ظنوا أنني أسخر منهم ..

ـ وأنت تظاهرت بأنك نمر ليهرب صديقك ؟!

ـ لقد فتشوا الشقة يا سيدي .. لم يكن في الشقة إلا أنا .. ونحن زملاء في الجامعة ، ولدي مفتاح شقته للصداقة التي بيننا .

وبعد تحقيق حول ملابسات هذا الخطأ لم يفرجوا عني ، وأخذوا يتحرون عني في الجامعة ، وهل أنا حزبي أم لا .. ومع خطأهم قضيت عندهم عشرة أيام حتى توسط لي قريب من أقارب الوالد فأعتقوني.. طبعا سألوني عنكم ، وأدليت بما يعرفونه عنكم .. وأنا لا أعرف أكثر من ذلك .. إنكما شابان تنتميان للحزب الإسلامي الذي يدعو لعودة حكم الإسلام في الأرض .. وتبرأت أمامهم من مشاركتي في الاحتفال الصاخب ولا أدري هل صدقوني أم لا ؟ .. والضابط سليم بعد أن اكتشف الخطأ الذي وقع به رجاله لم أره ثانية .. ونقلت لقسم الأمن الذي اعتقلني ، وبعد إجراءات إدارية خرجت إليكم وأنا أحس أنهم معي .. أمامي وخلفي .

قال المهندس مهدي : شعور سوف يفارقك بعد حين .. فنحن لنا سنوات ونحن تحت العين .. الحمد لله على السلامة يا صديقنا الفاضل .. نحن قد تعودنا على الالتقاء بهم ..

فقال نمر : لقد أزعجني القبض عليك يا صديقي .. وأشكر لك تضحيتك .. لولا اتصالك تلك الأمسية لربما صادوني .. لأنه قد لا يخطر في بالي أنك معتقل سأظن أنك انصرفت لأمر طارئ .. ومع ذلك اعلم أني قضيت ليلة اعتقالك الأولى في البيت في الشقة .. لابد يا أخي الكريم من

التضحيات والصبر حتى يقضي الله تعالى أمرا كان مفعولا .

قال علي سالم : كان الله في عونكم .. أنا من عشرة أيام كرهتهم ، وكرهت حياتهم .. وعجبت لصبركم على الاعتقال والتحقيق .

تبسم مهدي وقال : تعودنا على اللقاء بهم .. وتحمل آذاهم .. والدين يحتاج للتضحيات والصبر كما قال نمر ..

قال نمر : ألم يصبر بلال وعمار يا أخ علي ؟!

قال علي : أتمنى لكم تحقيق أحلامكم !

قال مهدي : هذا ليس حلمنا وحدنا ؛ بل حلم الأمة .. ألا تشتهي أن يكون حكم الله ﷻ في الأرض ؟!

ضحك علي وقال : كيف لا أشتهي ؟!



مسلم بالبطاقة الشخصية

في المدينة الكبيرة مصرف معروف ومشهور للناس ، مديره رجل مال وأعمال ذو غنىً واضح للعيان ، هو الاقتصادي الدكتور "سامي سبل نصار " ، يعتبر هذا الرجل في بلدنا رجل أعمال ناجح ، هذا الرجل الكهل لقد تيسرت له الدراسة في إحدى جامعات أمريكا ، فعندما أنهى دراسته الثانوية في قطره العزيز التحق بجامعة أمريكية لدراسة الاقتصاد والتجارة والإدارة ، وقضى من سنوات عمره هناك عشرين عاما ما بين دراسة وعمل ، ولما عاد الرجل لوطنه بكل الخبرة التي يحملها عمل في إحدى المؤسسات المالية الكبرى بضع سنين ، ثم أنشأ مصرفا مع ثلة من الأصدقاء ، وأصبح مديرا له ، فهو يعتبر رجلا ثريا من أثرياء المدينة ، وكذلك يعتبر رجل اقتصاد دولي ، له أهميته في بلده ، وهناك مَن يعده خبيرا عالميا ، فهو اقتصادي أمريكي ، فقد تشرب أيضا مع الاقتصاد أفكار الغرب الأمريكي وثقافة الغرب الأمريكي والأوروبي جميعا ، فهو لا يهمه الدين ، ولا يسأل عن الحلال أم الحرام ما دام الشيء جائزا في القوانين المعمول بها في البلد ، مع أن هذا الرجل في شهادة المواليد التي حصل عليها من دائرة إحصاء وتسجيل النفوس مسلم من أبوين مسلمين .

تزوج سامي سبل هذا فتاة أمريكية جذورها عربية ، قد هاجر أهلها قديما إلى أمريكا ، التقى بها أثناء الدراسة في الجامعة ، وحدث بينهما انسجام ، ولما حصل على الشهادة الجامعية الأولى { البكالوريوس } تزوجها ، ووهبه الخالق الوهاب منها ثلاثة أنفس ، الفتاة الكبرى بكره الآنسة سميرة ، وهي أثناء أحداث هذه القصة تدرس الطب في أمريكا ، فبعد أن أتمت دراستها الثانوية من مدرسة أهلية خاصة ذات مواصفات عالية ، سافرت لتلك البلاد ، وهي الآن تعيش في كنف أخوالها ، وأما الفتاة الثانية فهي الآنسة فوز ، التي تصغر أختها بسنتين ، وقد التحقت في جامعة قطرية ، تتعلم إدارة الأعمال ، وقد أنهت سنتها الثالثة ، أما النفس الثالثة، فهو فريد الابن الأصغر لهذه العائلة ، وهو يتعلم في كلية الشرطة ؛ ليكون ضابطا في المستقبل ، فسامي سبل يرى نفسه بأنه ابن الغرب وابن الثقافة والحضارة الأمريكية وربيب العلمانية ، من أجل ذلك لم

يكن سامي نصار يمارس الشعائر الإسلامية التقليدية من صلاة أو صوم أو حتى الاحتفاء بالأعياد الإسلامية ، فهذه الرموز العظيمة في الإسلام لم يكن لها في حياته شأن أو أدنى اهتمام ، ونفس المعاني والأفكار موجودة في حياة زوجته "شادية"، فهذه الأسرة منذ سنة مضت كانت تمر بها عاصفة ، ويمكننا أن نقول إعصار ، فهم في حالة انزعاج وقلق وتوتر وخوف من المجهول والعجيب أن سبب هذا كله هو دخول نور الإيمان والإسلام إلى هذه الأسرة .

فإن الابنة العزيزة "فوز سامي" تركت التقليد الأعمى للغرب ، وتابت إلى الله ، فالطالبة التي كانت ترتدي أجمل الثياب الفاضحة وأغلاها سعرا ، والتي كانت تتابع صرعات الموضة من لبس وقصات وتصفيف الشعر وزينة مثيرة وتبرج .. من لبس الثياب القصيرة المثيرة للشهوات والأغراء ، والتي كانت تقضي جل أوقاتها في اللهو والمرح البعيد عن لهو ومرح التعاليم الإسلامية .. لقد كانت فوز تختلط بالشباب في الأندية والمقاهي المختلطة ، وتمزح مع الشباب الأجنبي من غير حياء ولا رادع من دين أو عادات وتقاليد ..وكذلك ترافقهم في الحي والجامعة والمسرح ودور السينما، وتسمع للأصوات الموسيقية الصاخبة والأغاني المثيرة للغرائز والشهوات ، وكانت مشغولة في الحفلات الكثيرة الأسماء ، من حفلات أعياد الميلاد لها ، ولأصدقائها ومناسبات أخرى .

الفتاة التي تجد كل تشجيع من والديها للانخراط في هذا النمط من الحياة الماجنة والفاسدة ، لا توجد في بيئتهم قيم الإيمان والأخلاق لتردعهم ، فوالداها والحي الذي تعيش فيه كل ذلك يدفعها للانغماس في هذه الملذات الشهوانية البهيمية البعيدة كل البعد عن تعاليم وأخلاق الدين والإيمان ، هذه هي البيئة التي كانت تحيا فيها الآنسة فوز .

كل هذا قد تغير فجأة .. الفتاة عادت لدينها! .. الفتاة استيقظت من جاهليتها! ثابت إلى الله ، وبدأت تعود للأيمان المفقود من كيانها .. أخذت تتعلم الإسلام ؛ كأنها دخلت الإسلام من جديد .. فهي تقرأ عن الصلاة والإسلام .

فوز سامي اهتدت ورجعت لجلبابها وثوبها الشرعي وعنوان كرامتها وشرفها في هذه الجاهلية

فقد ابتعدت عن أصدقائها المستهزئين بإسلامهم ، وهجرت أبناء وبنات صديقات أمها وأبيها وقد أتلفت آلات الموسيقى وأشرطة الأغاني والموسيقى التي تملكها ، وأخذت تؤب إلى الله تعالى وقد لاحظ والديّ فوز هذا الانقلاب المفاجئ من أول الأمر ، وظنوه بل اعتقدوه لحظة عابرة أو سحابة صيف زائلة .

يتذكر الوالد سامي عندما أخبرته زوجته شادية أنّ فوزا تسألها : لماذا لا تصلي أنت يا أمي ؟! بل لماذا لا يصلي أبي يا أمي ؟! ألسنا مسلمين ؟! وهل يكون إسلام من غير صلاة ؟!

كان الأب يظن ويعتقد أنّ هذه الأفكار دخلت البيت بسبب مرض ووفاة صديقة فوز الآنسة جميلة التي أصيبت بمرض عضال مخيف ، خطفها من بين أحضان أسرتها وأصدقائها ؛ لذلك لم يكترث الوالدان للتغير الذي طرأ على الفتاة ، ولكن فتاة قصتنا كانت على غير ما يظنون ، فلقد تخلصت من ملابس العري والتهتك ، ونبذت أصدقاء الإثارة ، بل أخذت تنطلق إلى بيوت الله والمراكز الدينية لتستمع الدروس والمواعظ ، وأحيانا تذهب إلى صلاة الجمعة في المساجد المنتشرة في طول البلاد وعرضها ، مضت شهور وتلتها شهور والفتاة تزداد تمسكا بتعاليم الإسلام الواضحة ، وأصبحت صديقاتها من الفتيات الملتزمات بآداب الحجاب والصلاة والإسلام ، أشرطة الكاسيت المسجل عليها آيات القرآن تصدح في جنبات الفيلا ، أصبح هناك صراع بين الأسرة المتغربة والفتاة المهتدية التائبة ، باتت فوز كابوسا لهم ، ارتفعت وتيرة التهديد والوعيد ، والفتاة تصر على التمسك بتوبتها والسير على هدي المسلمين الأولين ، لا تبرج ، ولا اختلاط ، ولا مصافحة للرجال الأجانب ، رجعت فوز لفطرتها السليمة .. إلى النور الذي أزال ظلمات الجاهلية الأولى .

ابن أحد الأصدقاء

ذات مساء والسيد سامي سبل يجلس وزوجته شادية في غرفة واسعة مؤثثة بأحدث وآخر طراز من المقاعد والديكورات والتحف والصور الفاتنة ، وبعد أن رشف الرشفة الأخيرة من فنجان القهوة الذي قدمته له زوجه أم فريد ، وقد شربه وهو ملتزم بالصمت ، وهو ينفث دخان السيجارة ، وكانت زوجته تجاريه في الصمت وشرب القهوة ونـفث الدخان ، فلما انتهى من شرب القهوة قال بضيق وألم وحيرة: هذه الفتاة لا يصلح معها إرشاد ونصائح ، وقد ازداد تمسكها بهذه الطقوس القديمة العتيقة ، فأرى أن أزوجها من ابن أحد الأصدقاء قبل أن تنهي جامعتها .. لعلها تؤب وتثوب لنفسها ، وترجع لما كانت عليه من حياة وشباب ومتعة ، لقد صبرنا عليها كثيرا يا شادية! وأعصابي لم تعد تحتمل أفعالها وأقوالها ، فأود أن نفعل ذلك بهدوء لا أدري ما الذي قلب هذه الزهرة الجميلة وغيرها ؟! .. لقد كنت أبني عليها آمالا كبيرة في إدارة البنك .

ردت شادية على زوجها قائلة ؛ وكأنها مستخفة بفكرة زوجها : ومَن يقبل بها من أبناء أصدقائنا؟! .. فكلهم يعرفون أخلاقها الجديدة ، ويعرفون عنادها ، وقسوة قلبها .. فكم من مرة حاولت ردها وردعها عن هذه الطقوس العتيقة ؟!..وكم صديقة من صديقاتها الجدد قد طردتهن من هذا البيت؟!..وكم صرخت وكسرت من هذه الأشرطة التي تصغي إليها؟! .. ولكنها يا دكتور سامي تزداد تمسكا بهؤلاء الصديقات ، وتمسكا بهذه الأشرطة ، وتمسكا بهذه الثياب السوداء الموحشة .. لا أدري كيف تلبس النساء مثل هذه الملابس؟!كيف يتحركن ؟! كيف ينظرن ؟! كيف يتنفسن ؟! كيف يشتغلن ؟! .

فأجابها الأب والضيق جلي على وجهه وحتى في نبرات صوته : أنا ضقت ذرعا من أفعال ابنتك لم نعد نسر في لهونا وسهراتنا ونزهاتنا ، أمست مجالسنا كلها عن فوز ، وآخر أخبار فوز .. هل صحت من جنونها؟.. هل خلعت جلبابها؟ هل استيقظت من سكرتها ؟ يا أبا فريد التدين ليس هكذا.

ثم رفع صوته محتدا : يا شادية .. لقد أصبح البيت دار عبادة .. قرآن .. قرآن .. أريد أن أزوجها وأخلص من شرها .

فقالت الأم وهي تحرك يدها كأنه تدعوه للهدوء: وأنا مثلك قرفت منها ، وجعلت حياتي نكدا وغما .. مَن من أبناء أصدقائنا يرضى بها ؟! .. وهي بـهذه الصفات؟ وكل أصدقائنا حياتهم كحياتنا، من يشتري هم من صاحبه ؟! يا أبا فريد!

فقال الرجل المتمدن والمتغرب أكثر من الغربيين : أنا فكرت كثيرا في أمرها وأمرنا ، ولنا أكثر من سنة نقول اليوم أو غدا يرجع لها عقلها ، ومضى الزمن ولم ترجع لحياتنا الجميلة ، بل تزداد تهورا وحمقا وتعلقا بهذه العادات البالية.

وسكت قليلا يلتقط نفسه ثم قال مصطنعا الهدوء : فكرت بأمرنا ، فبان لي حلول مختلفة لإنهاء مشكلتنا بسلام وبدون مشاكل مضاعفة ، فتبين لي أن الحل الأمثل والأيسر هو زواج ابنتا ، فقد لمست من حديثي المتكرر معها بأنها لن تتغير مع الأيام .. ولن تصحو .. وأنا لا أحب الصراع والقتال ، ولا أحتمل أكثر من سنة .. فرأيت أن الزواج هو الحل الأيسر لنا ولها .

فقالت الزوجة بعد أن تأملت بقرار سامي : حسنا ؛ ولكن من يرضى بها من أبناء أصحابنا يا سامي ؟! أم تريد أن تزوجها لرجل من الشارع ؟! أم المهم أن نخلص من شبحها ، وما تثيره في أنفسنا من تلك العادات والتقاليد البالية التي عفا عليها الزمن وأكل كما أشرت يا دكتور سامي فعندئذ قال سامي بكل هدوء وروية ؛ وكأنه وصل إلى ما يريد وارتاح إليه : لقد كلمت زميلي في البنك الأستاذ عمارا في هذا الموضوع وهذه المشكلة ، فأنبأني أن لديه شابا قد أنهى دراسته الجامعية منذ سنوات ، ويشتغل في مصنع كبير ، وله رغبة بالزواج ، وقال لي بأنه سيحاول إقناعه بفوز ، وسيرد عليّ خلال أيام قلائل .. وأنت عليك أن تهيئ الفتاة لهذا المشروع ، وأن تقنعيها بالقبول بهذا الزوج المنتظر .

ضحكت الأم وقهقهت وهي تسمع كلام زوجها ، ولما كفت عن الضحك قالت : والله يا سامي! أنت رتبت الأمر قبل أن تفاتحني فيه ؛ ولكن هو ما قررت وخططت ، فالأستاذ عمار

صديقنا وكذلك زوجته رامية ..سأكلم فوزا بهذا الأمر العسير .. واعلم الآن بما أننا انتهينا من شأن العاقة ، أنه قد جاءتنا اليوم رسالة من ابنتا سميرة تخبرنا فيها بأنها قادمة إلينا قريبا ، وبرفقتها ابن أخي فارس لقضاء إجازة في ربوع بلادنا ، فعليك أن تنظم وترتب وقتك للتجوال معهم يا سامي!.

فرد سامي بضيق : عندنا موسم عمل كبير يا شادية ! فإما أن تهيئ السائق "يام" للقيام بهذه المهمة ، أو احجزي لهم عن طريق شركة سياحية .. أنا لست مهيأ للسياحة والرحلات هذه الأيام ، فسوف يعقد في البلد مؤتمر اقتصادي مهم ومطلوب مني المشاركة فيه .

فاتحت الأم المتغربة ابنتها فوزا في مشروع زواجها القادم ، فرفضت فوز الفكرة بشدة ، وقالت لأمها بصراحة ووضوح وجرأة: أعلم أنكم تودون الخلاص مني، لقد ضقتم بي ذرعا ، فالانحلال والخير لا يجتمعان في هذا البيت ، وأنا بإذن الله لن أعود للضلال والفجور والخمور أبداً .. أبداً يا أمي ! لقد كنت في ضياع وضلال مبين ، الحياة ليست كأس خمر ، ورؤية فيلم سينما ماجن أو حتى غير ماجن ، أو حفلة رقص وغناء ، وأكل وشرب .. حياتنا هذه طريق إلى الدار الباقية إلى الخلود والسعادة الدائمة التي لا ينغصها مرض وفراق وموت.

وتريثت فوز لحظات ، ثم تابعت الكلام قائلة : واعلمي يا أمي العزيزة ! أنني لن أتزوج إلا من شاب مسلم .. مسلم بمعنى الكلمة ليس صورة فقط أو مسلما في البطاقة الشخصية فحسب إيش مسلم يشرب الخمر؟! مسلم يرقص مع النساء ، يجلس مع هذه مرة ، ومع تلك مرة .. الحمد لله الذي أنقذني من الهلاك والغي .. أتزوج ممن أريد أنا لا أنتم ! ولابدّ أن يكون ذلك بعد إنهاء دراستي الجامعية .

كانت فوز تتكلم بانفعال وحدة مع سيطرتها التامة على أعصابها ، وردت عليها أمها بكلام شديد مع صراخ وحدة وعصبية وسب ، وخلاصته "لابدّ من زواج فوز " ، فقالت فوز : لولا الحياء والسمعة والعيب لرحلت عنكم ، وسكنت في شقة وحدي ؛ لترتاحوا من رؤيتي وسماع جنوني كما تقولون ؛ ولكنني فتاة عزباء لا يحق لها العيش في منزل لوحدها ، فاصبروا حتى أنتهي

من سنتي الأخيرة هذه ، ولسوف يهبنني الله تعالى الزوج الصالح .

فقالت أمها بجفاء وغضب : نحن نزوجك مَن نشاء ومَن نختار.

فقالت الفتاة بشجاعة وصلابة : أين الحرية التي علمتموني إياها يا أمي ؟! أين الحرية التي تتشدقون بها في مجالسكم وندواتكم وسهراتكم ؟!.. "لازم الشاب والفتاة يعطون الحرية الكاملة في كل شيء ".. أين حرية المرأة التي تتغنون بها ليل نهار؟! .. ففي هذه القضية المصيرية كشرتم عن أنيابكم وتتشددون عليّ .. أليس من حرية المرأة أن تختار شريك حياتها ؟ أو ليس من الحرية أن أعيش كما أريد وأرغب وأشتهي ؟! ..أليس من الحرية أن ألبس ما أشاء وأحب وأرضى ؟! أليس من الحرية التي علمتموني إياها أن أفعل ما أريد من غير رقيب ولا حافظ أو حسيب ؟! .. ألستم أهل الحرية كما تزعمون ؟! وهل الحرية والانفتاح فقط هو أن ألبس فستانا قصيرا أو بنطالا مزريا ؟ وهل الحرية أن أعرض شعري وجسدي للناظرين؟! أمي لقد كنت في جاهلية وظلام أسود ..أمي أنا عرفت الدرب والجادة .. هل يعقل أن يترك المرء النور والجمال ويعود للعتمة والجهل؟ أمي ! فلم لا يكون لي الحرية في لباس الجلباب وفي غطاء شعري وحتى وجهي ؟! فلم لا تكون لي الحرية في إكمال جامعتي والزواج ممن أراه مناسبا ؟!.. قولي لأبي العزيز ، لا زواج قبل إنهاء الدراسة .. ولا زواج من مسلم في البطاقة الشخصية فقط ، لا أريد أحدا من أبناء نواديه وحفلاته .

تقبلت الأم ثورة ابنتها بغيظ شديد وسخط وحيرة أيضا ؛ ولكنها أمام اندفاع الكلام من بين فكي فوز كالماء المتفجر، لم تستطع الكلام سوى التلويح باليدين والضغط على الأسنان والشفتين ، ولما سكتت فوز عن الكلام ، قالت الأم : ما كنت أود أن أسمع منك هذه المحاضرة نحن تركنا لك الحرية في الصلاة واللباس والتدين على أمل أن يكون ذلك غمامة صيف زائلة ، واعتقدنا أن ذلك حدث لك متأثرة بموت صديقتك العزيزة جميلة ؛ ولكن هذا التدين زاد عن حده ..ونحن كما تعلمين أسرة منفتحة لا نستطيع الرجوع للوراء إلى عصور الظلام والتخلف.. نحن الآن في عصر الحاسوب والفضاء والذرة .. فما أنت عليه تقاليد بالية

تبسمت فتاة قصتنا من كلام أمها الساذج ؛ ولكنه للأسف كلام كثير من المتغربين ، وقالت بكل ثقة : يا أمي المثقفة ! ما دخل الدين والعبادة في عصر الحاسوب والإيدز والسرطان ، فالدين لكل الأيام والعصور .. فالكفار والغرب عامة أولئك المتحضرون والمتقدمون أولئك النصارى واليهود الذين يعيشون في بلاد التقدم والتكنولوجيا هل ترك كل هؤلاء الناس أديانهم ؟! ..هل أغلقوا كنائسهم ومعابدهم؟! بل ما زالوا يتعصبون لنصرانيتهم ويهوديتهم ، بل نرى يا أمي ! الهندوس والبوذيين يتعصبون لآلهتهم .. نحن فقط الذين انسلخنا عن ديننا وإسلامنا ، فلا نحن متمسكون بإسلامنا ، ولا نحن خرجنا منه .. وما زال هؤلاء الكفار ينعتوننا بالمسلمين مع بعدنا المذهل عنه.. فلم لا نكون مسلمين حقا أيتها الأم ؟! أما فكرت أن تسجدي لله ولو مرة واحدة في حياتك ..آه .. يا أمي! .. إنك ابنة أمريكا.. هل يا ترى والدك عندما هاجر إلى هناك كان يعرف الصلاة والصوم ؟! أليس هناك موت ؟! هل نحن مخلدون في الدنيا؟! ها هي جميلة الجميلة والصغيرة، قد وقف الأطباء عاجزين عن مداواتها وعلاجها ، فماتت بالمرض العضال ، فما نفعها تقدم وحضارة الغرب.

فقالت الأم بغيظ وقهر : آه منك يا فوز ! أصبحنا لا نستطيع الكلام معك .. كم أود أن تفارقي هذا البيت ! نحن لم نتعود على ما أنت فيه .. نحن نعيش في كابوس ، حتى الطبيب النفسي هرب من لقائك ، وخشي على نفسه من أفكارك .. لقد نغصت علينا مرحنا وحياتنا الهادئة الساكنة الجميلة ، لم نعد نلتذ بحفلة وسهرة ..عليك أن تقبلي بالزواج ، فأعصابنا قد تعبت.. كيف نحيا من غير خمر ورقص وطرب لقد أدمنّا على ذلك؟!

ردت فوز بحزن وألم : هذه هي المأساة يا أمي ! .. أمضيت حياتك في أمريكا ما بين ملهى وحانة ومرقص ، فكيف تتغيرين ؟! كيف تتركين العادات السيئة التي تغلغلت في دمك وبدنك ؟! ولكني سوف أظل أدعو لـك بالهداية والتوبة ، لعل الله يهديك للصراط المستقيم أمي الحبيبة ! لقد كان العرب في الجاهلية يشربون الخمر، ويفعلون الموبقات؛ ولكنهم بالإسلام الصادق الصحيح تركوا تلك الأفعال القبيحة والملذات الفانية ..وأول الطريق يا أمي الحبيبة النية

الصادقة

هاجت شادية ثانية ، فأخذت بالصياح والهذيان وتشتم ملاكها الجميل من جديد ، النور الذي بزغ في ظلمات البيت المعتم ، فتركت فوز أمها تصرخ وتولول ، وانسحبت لغرفتها ، وهي تلهج بالدعاء إلى الله أن يثبتها على ما هي عليه من الهداية والأيمان ، وأن يصلح الله قلب أمها المتغرب والمتفرنج أكثر من الفرنجة .



فوز

فوز سامي فتاة تجاوزت العشرين ربيعا أثناء حوادث هذه القصة ، فقد ولدت فوز في ولاية من الولايات الأمريكية الخمسين خلال غربة والدها للدراسة ثم العمل، ودرست سني حياتها الأولى في مدارس الغرب ، وهي فتاة ذكية وجميلة ، ولما عاد والدها لبلده العربي ، استقر في حي لا تكاد تفرقه عن أحياء الغرب الحديثة سواء في فيلاته أو قصوره أو شققه حتى في شوارعه ومتاجره ، وفي الحي الغربي أو المقلد للأحياء الغربية دور للهو ، ونوادي مختلطة ، ومسابح مختلطة ، وفيه داران للسينما ، ومسارح وصالات ومراقص وحانات ، ومدارسه أيضا مختلطة ، صمم وأنشئ على الطراز الغربي حذو القذة بالقذة ، وهذا الحي يقطنه كثير من الأثرياء الكبار في البلد ، وكذلك رجال المال والأعمال ، وكذلك عائلات الدبلوماسيين والغربيين ، فهو حي راق تتوفر فيه الأسواق الحديثة والخدمات التي تتطور سريعا ، وفوز ابنة بيئتها ، وهذا هو الحي الغربي ، فأبوها وأمها ومن يدور في فلكهم من الأهل والأقارب والجيران على شاكلتهم ، الأسماء فقط عربية وإسلامية ، أما الطباع والصفات فهي غربية إلى حد كبير ، الفتيات يلبسن البنطال القصير أو الضيق المجسم العورات من غير حياء وخجل ، احتضان شاب لفتاة لا حرج في تقاليدهم ، إنهم أصدقاء وأجواء حرية.. اللهو مع الشباب جائز وأمر طبيعي ومباح في عرفهم سواء في المسبح أم ملعب التنس أم غير ذلك من الأماكن

الرحلات والاشتراك في الحفلات والمهرجانات بين الجنسين جائزة في شرعهم من غير حرج وضيق وتزمت ، ومنتشر بينهم التدخين سواء من السجائر أم النرجيلة، وشرب المسكرات شائع بينهم ، لا أحد ينكر عليهم ذلك ، بل بعض الأسر في الحي انتشر بين أفرادها تعاطي المخدرات ، وكذلك الأسماء الأوربية شاعت بين فتيان وفتيات الحي ، الغيرة على الأعراض ضعيفة بينهم إن لم تكن ميتة ، الرجل في الحي الغربي يرى ابنته أو أخته أو زوجته في مواقف مريبة فيتظاهر بأنه لم ير شيئا ، اختلاط تام بين الرجال والنساء والشباب والفتيات دون حرج أو عوائق ، هذه هي البيئة والأجواء التي كانت تعيش فيها الآنسة فوز ، ومن يعترض ويحتج على

هذا الوضع يوصف بالرجعي والمتزمت والمتخلف ؛ كأن الحي وسكانه قطعة من حي مدينة غربية أوروبية أو أمريكية ، ومع كل هذا الفساد المحيط بهذا المجتمع الصغير أنهت فوز دراستها الثانوية بنجاح ، وحصلت على مقعد جامعي في إحدى كليات التجارة والاقتصاد ، واختارت تخصص إدارة العمل على أمل العمل في المصرف الذي يملكه والدها ويديره في نفس الحين ، والآنسة فوز سامي كانت تقضي بعض مواسم الصيف والعطلات الصيفية أو الشتوية في رحلات إلى أوروبا أو أمريكا ، فأبوها ذو مال جسيم يوفر لها ذلك ، وأمها شادية تعشق السفر والرحلات السياحية ، فهذه صورة بسيطة للمكان والزمان اللذين نشأت فيهما بطلة هذه القصة فوز سامي ، تلك الفتاة الحسناء .



قد يكون من حسن حظ هؤلاء الناس أنهم يتعلمون في جامعات يتعلم فيها الفقراء والأغنياء والمتدينون والمتحللون .. وتتصارع عادة في الجامعات الأفكار والطروحات المختلفة سواء الدينية أم غير الدينية ، ففتاتنا الجميلة فتاة مستهترة بالحياة ، عندها لهو ولعب وزينة وتفاخر بالأموال والسيارات والرحلات وحفظ أسماء وأخبار نجوم الفن والرقص في العالم العربي والعالم الغربي ، فلباسها لباس فاضح لا حشمة فيه ولا ستر ، وسيارة فاخرة ، وزميل ولهان أو أكثر يحومون حولها كما تحوم الفراشة أو الذبابة حول الفانوس المشتعل ، زينة مثيرة.. عطر فرنسي فواح .. صلاة .. صوم .. طهارة ..إسلام .. هي كلمات تسمع بها أو قد تكون عرفتها من دراستها لمادة التربية الإسلامية أيام المدرسة ، أما تطبيقاتها ومعاني تلك الأسماء فهي طلاسم مجهولة أو رموز مغرقة في الغموض لشاعر من شعراء الرمزية ، وحتى سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فهي لا تعرف منها وعنها إلا النزر القليل .. من هو محمد ؟! ..

قد لا تعرف عنه شيئا مؤكدا أو دقيقا ، قد تقول عنه هو رجل صالح أو مصلح أو هو رجل بعثه الله للعرب القدماء ، فقد كانت فوز تدرس في مدرسة خاصة ، وهذه المدارس كل تركيزها على تحصيل اللغات الأجنبية، فالكوادر التعليمية فيها ـ تلك المدارس ـ أكثر كلامهم أمام الطلاب بتلك اللغات البريطانية الفرنسية ، فاللغة العربية في نظرهم لغة ثانوية ، فالعربية أقنعوهم أنها لا تصلح للرياضيات والعلوم ، وتجد المعلمين في تلك المدارس يودون لو يدرسون مادة التربية الإسلامية باللغة الإنجليزية ، فهم يتقنونها أكثر من عربيتهم التي لا يعرفون فاعلها من مفعولها ، فما أدراك بحروف الجر والشرط !

وفوز ابنة الدكتور سامي سبل كانت نجمة من نجوم حيها وكليتها ، الحياة عندها هي وصويحباتها مجرد لهو ومتع ، فالمال في أيديهم متوفر ، وفي النهاية يحصلون على شهادة جامعية وفرص العمل مهيأة لهم ، فهؤلاء الأثرياء لا بطالة أمامهم وفقر .

ولقد ذكرت لكم أيها القراء الأعزاء آنفا !.. أنّ هؤلاء الموسرين من حسن حظهم أنّ الجامعات التي يرسلون إليها ذرياتهم تحتوي على خليط من أبناء طبقات وفئات المجتمع المختلفة ، ففيها الأغنياء والفقراء والطبقة الوسطى ، ففيها التيارات السياسية المتنافسة والمتصارعة ، فالتيارات والأحزاب تتنازع وتقاتل من أجل الوصول إلى مقاعد البرلمان والحكومات ، وهذا الصراع صداه موجود بين طلاب الجامعات ، فتجد في القطر دعاة لأحزاب وطنية ، وآخرين لأحزاب ماركسية وقومية، وهناك دعاة التغريب والعلمانية الغربية، وكذلك الأحزاب الدينية وما يسمى الجماعات الإسلامية المتعددة الأسماء، المتنافسة مع بعضها أولا ، وثانيا مع الأحزاب الأخرى، باختصار نقول " خليط من الأفكار المتناقضة " ،.. هذا هو جو وبيئة الجامعات في بلاد المسلمين في هذا القرن ، أعود بكم إلى بطلة القصة فوز الطالبة في كلية التجارة ، فلفوز هذه صديقة وزميلة في الفصل اسمها أسماء ، وأسماء هذه لم تكن إلا فتاة ذكية ونشيطة في قسمها وكليتها ، ومثار اهتمام المدرسين والمحاضرين لذكائها وجديتها في الدراسة ، ومهارتها ومشاركتها في نشاطات الكلية المختلفة ، فهي فتاة ظاهرة بارزة في الفصل والكلية،

فهذا ما دفع فوز للاحتكاك بها ومصاحبتها ، بل ساعدتها فوز بالتدرب في مصرف والدها على أعمال السكرتارية والإدارة ، وأحيانا نادرة سمحت لها بزيارتها في البيت ومشاركتها في حفلات عيد ميلادها وغيرها من الحفلات .

وأسماء لم تكن من أبناء الطبقة الغنية والمسيطرة على ثروة القطر والبلد ، فأبوها بقال متوسط الحال ، يقطن في حي متواضع ، وقد لا يكون له سلطة قوية على أسرته في مثل هذا الزمن ، لذلك كانت أسماء فتاة متحررة في مقياس أهل هذا الزمان ، فهي غير ملتزمة باللباس الإسلامي للفتاة المؤمنة حق الأيمان ، ولكنها محافظة في أخلاقها العامة ، ولم تفسح المجال للعلاقات العاطفية العابرة في حياتها كما يفعل كثير من طلبة الجامعات اليوم باسم الحرية ، فزملاؤها الذكور مجرد أصدقاء دراسة ليس إلاّ ، قليلة الاختلاط بهم ومشاركتهم مجالسهم ، وقد تكون ثقافتها الدينية أحسن حالا من فوز ،.. فلقد كانت صداقة بين الطالبتين ؛ وإن لم تكن تلك الصداقة والعلاقة الحميمة بينهما ، فهناك مجاملات وملاطفات ، ففوز تستعين بدفاتر وكراسات أسماء التي تكتب عليها المحاضرات بسبب تغيبها المتكرر أو خروجها عن الاستماع لسبب ما ، ولم تكن أسماء تبخل عليها بجهدها ، لعلها تطمع أن تتوظف في مصرف والد فوز في يوم ما ، فكان في خلدها " أنّ صداقة فتاة مثل فوز لا يفرط فيها ، ولا تخلو من مصلحة " وكانت أسماء تطلع فوزا على أخبار ونشاطات الطلاب والجولات والرحلات وأمور أخرى ، وهذه صورة عن صداقة الفتاتين .



لقاء مهم

وتبدأ حكاية فوز مع الهداية والتوبة من الجامعة ، ذات نهار جامعي كانت فوز وأسماء تتحدثان تحت ظل شجرة فارهة في ساحة من ساحات الجامعة ، فوز جالسة على مقدمة سيارتها ، وأسماء أمامها تتحدث معها عن الدراسة والنشاطات في الكلية ، وبينما هما مندمجتان في الحديث ، الأولى جالسة والأخرى واقفة أقبلت نحوهما فتاة ترتدي جلبابا شرعيا فضفاضا مخفيا لجسدها كله الرأس والوجه والبدن ، وألقت عليهنّ السلام والتحية ، وصافحت أسماء بحرارة ومودة ، وأرادت أن تصافح فوزا ، فأشاحت فوز بوجهها عنها كأنها تنظر لشيء بعيد ولم تر اليد الممدودة إليها أو تظاهرت بأنها لم ترها ، بل أظهرت نـفورها منها بحركات سريعة وتقطيبة جبين ، ولكنّ الفتاة المحجبة لم تكترث للأمر ، وخاطبت أسماء قائلة: كيف حالك؟ ما أخبار الوالدين الطيبين؟

فردت أسماء بعجلة ومن غير ابتسام ؛ كأنها أدركت نـفور فوز من الوقوف مع هذه الفتاة الملتزمة ، فأرادت صرف الفتاة بسرعة فقالت : لا بأس ، لا أخبار جديدة إن الدراسة تمام ، والأسرة بخير ، والحمد لله ، وأنت ما أخبارك ؟

ردت الفتاة المحجبة : الحمد لله ، يا عزيزتي! والليلة سنقوم بزيارتكم، فأخي هلال سوف يطلب يد أختك العزيزة سماء ، وقد وافق والداك على زواجهما.

فقالت أسماء : أعرف ذلك يا هند ، مبارك لنا جميعا .

فقالت هند ، وقد أدركت أن أسماء قلقة لا ترغب في إطالة الحديث ، وهي تنظر لصاحبتها الكاسية العارية بطرف عينيها ؛ وكأنها تأسف لإطالة المقابلة : من صاحبتك هذه يا أسماء ؟؟

فنظرت أسماء لفوز ، ونظرت فوز في عيني أسماء ، وسكتت أسماء كأنها تنتظر الأذن من فوز لتجيب ، فردت فوز مخاطبة لهند راغبة بالتسلية بهذه الفتاة التي تريد التعرف عليها فقالت ونبرة ساخرة مستهزئة في صوتها : ما هذا اللباس يا هند ؟! لماذا تلبسون هذا اللباس المرعب؟! لماذا تخفين نفسك تحت هذه الثياب السوداء ؟ ألعلك قبيحة ؟ إنها ثياب مخيفة ومنفرة وموحشة !

ورسمت فوز انقباضا وضيقا على وجهها ، لم تجب هند سريعا ، فتكلمت أسماء قبل أن تجيب هند ، بعد أن سمعت فوزا تفتح الحوار مع هند ، فتشجعت للكلام فقالت كأنها تريد الجواب على استفهام هند : إنـها يا فوز ! طالبة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، وهي طالبة مجتهدة ، وتحلم بأن تصبح بحرا كبيرا في علوم الشريعة .

ورسمت على وجهها ضحكة قصيرة ؛ وكأنها معجبة بالوصف الذي أطلقته على قريبتها هند ومداعبة للموقف المتوتر المشدود ، وجارتها فوز بالضحك كأنهنّ أحدثن طرفة ، وقالت فوز : وهل للشريعة علوم وبحار يا أسماء ؟!

ظلت هند ملتزمة بالصمت والتفكير ، وأخذت تتابع الحوار الساخر الدائر بين الفتاتين، فأجابت أسماء على سؤال فوز قائلة: أخشى أن أوجع رأسك يا صديقتي! .. فالشريعة لها علوم كثيرة لا أرى أنـه يهمك سماعها.

فقالت فوز ضاحكة : أنا لا أدري ما هي الشريعة أصلا ؟!

وأتبعت كلامها ضحكة هازئة ساخرة ، فجارتها أسماء في الضحك أيضا، وقالت كأنها موضحة لزميلتها ما التبس عليها : كلية تعليم الدين ، الصلاة والصوم والزكاة ..لابدّ أنك تعرفين ذلك ؟!

فردت فوز ساخرة : آه!.. لقد سمعت بهذه الألفاظ في بعض دروس الثانوية العامة .

والتفت إلى هند وقالت : يا آنسة هند ! لماذا لم تردي على سؤالي ؟ أود أن أعرف لماذا تلبس بعض الفتيات هذه الثياب القاتمة والمخيفة التي تثير في النفس مشاعر مؤلمة؟!

فقالت هند بقوة وفطنة وبكل هدوء : ولماذا أنت تلبسين هذه الثياب الفاضحة يا آنستي العزيزة

فقالت فوز وهي تبتسم : نعم ، سؤال بسؤال ، هذه ثياب القرن .. الموضة ..الحداثة .. ثياب العصر .. ثياب الحرية والراحة.

فقالت هند وهي تبتسم: وهذه ـ وأشارت بيدها المخفاة بالقفاز نحو جلبابها ـ ثياب الإسلام ثياب أمر الله بلبسها .. أتعرفين الله؟!

فصاحت فوز منزعجة ومرتبكة : الله!.. ويلك أنا لا أعرف الله!.. وهل ترين أنني ملحدة ؟!
هند : رائع ! .. جواب جميل ! .. إذن أنت تعرفين الله سبحانه .. فالله هو الذي أمرني بارتداء هذه الثياب الموحشة والمخيفة والمقززة .. ثياب الفضيلة والحشمة والعفاف والشرف والعزة .. فأنا أطيع الله في لبس هذه الملابس ، وأنت تطيعين الموضة والعصر .

فردت فوز وقد احمر وجهها من الغضب والضيق : لا.. لا .. يا هند! .. هذه ثياب أجبرك والدك أو إخوتك على ارتدائها ، فلا بد أنهم أناس متزمتون متعصبون يعيشون بعقلية القرون الوسطى ، فلولا ذلك ما لبست هذه الثياب يا آنسة هند .

فقالت هند بهدوء : لا .. يا آنسة! ..ها هي أسماء رفيقتك هذه ابنة خالي لا تلبس مثلي ، مع أن والدها العزيز يصلي ويقوم بشعائر الإسلام الظاهرة ، وكذلك أختها سماء وبعض إخوتها يحافظون على تقاليد الإسلام الظاهرة ، وها هي يا آنسة ! لا ترتدي الزي الإسلامي .. قد يكون لتربية والديّ وأهلي أثر كبير على التزامي بالجلباب واللباس الرباني ؛ ولكن مجتمع كالذي نحيا فيه اليوم يدعو إلى التحرر والانفلات من ربقة الدين والتدين ، فلا أرى فيه سلطة قوية للوالدين كالزمان الماضي ، تجبر فيه الفتاة على اللباس الشرعي ، فذلك السلطان ذهب وضعف هذه الأيام يا آنسة فوز ! فلولا اقتناعي بها أفعل ما أطعت والديّ ، ولوجدت مائة طريقة وحجة للتخلص منه .

قالت فوز بحيرة وارتباك : أمعقول ما أسمع ؟! فتاة تلبس هذه الثياب بملء حريتها واختيارها في عصر تحرر المرأة .

فقالت هند وفي نبرتها تهكم وتعجب : تحرر المرأة .. من ماذا ؟! من اللباس الشرعي .. التحرر من طاعة الله .. فهل التحرر فقط يكون في التعري والتبرج ؟! .. نحن نريد أن نتحرر من العبودية والتقليد للغرب .

حينئذ هدأت فوز أمام الكلمات الدافئة التي سمعتها من هند بحرارة وغيرة .

فقالت باستسلام غريب وربما لحظة صدق : أتعلمين يا آنسة هند أنك تثيرين اهتمامي ؟!..

وهل أسماء ابنة خالك ؟.

ردت أسماء بعد صمتها الطويل ، وانبهار مما سمعت من هند ، وجرأتها في الدفاع عن مبادئها : نعم .. هند ابنة عمتي ، وهي طالبة ملتزمة بالإسلام قولا وعملا وسلوكا ، ومن أنشط فتيات كليتها .

كانت فوز أثناء حوارها الحاد مع هند قد نزلت عن مقدمة السيارة ، وقالت بعد صمت أسماء : أتسمحين لي بمصافحتك يا آنسة هند؟

فردت هند بابتسامة خفيفة : أردت فعل ذلك عندما سلمت عليكنّ ؛ ولكنك تظاهرت بعدم رؤية يدي الممدودة إليك .

اعتذرت فوز اعتذارا كبيرا لهند ، ثم همست بصوت حالم : معذرة أيتها الفتاة الطيبة! إنني تعودت أن أنفر وأشمئز من هذه الأزياء الرهيبة على النفس ، بل أصاب بضيق منها ، وممن يلبسنها ، وأتعجب من كل امرأة ، أو فتاة تعيش في القرن العشرين وفي آخره بالذات ، وترضى أن ترتدي مثل هذا الزي وتلبسه ، فيخيل إليّ أننا ما زلنا نعيش في عصور الرومان السحيقة ، أو العصور الحجرية الموغلة في القدم ..عندما كانت المرأة منبوذة مجرد متاع وسلعة .. ثم صمتت قليلا وعادت تقول : لا أدري لماذا أنفر من الدين ؟!

فقالت هند : يبدو لي أنك ضحية من ضحايا المجتمع والأسرة .

فأجابت فوز بدهشة ، وقد نفرت من كلمة " ضحية " : ضحية !! أنا ضحية من ضحايا المجتمع والأسرة ، بل أرى أنك أنت الضحية ، ضحية لتعصب والدك وأسرتك.. فلماذا لا تتمتعين بحياتك وشبابك ؟! ولماذا تغمرين نفسك بهذه التقاليد العتيقة ؟!

فأجابتها هند أيضا بهدوء وروية : أنت معك سيارة ، وأموال وغنية ، فيمكنك أن تتحصلي على متع الدنيا وملذاتها.. فالفتاة الفقيرة .. وما أكثر الفقيرات! كيف يمكنها أن تتمتع بملذات الدنيا ؟! هل تبيع نفسها وجسدها وروحها لترى الدنيا ومتعها ؟! وماذا تستفيد عندما تهبط عليها أمراض المتع والدنيا ؟ وقد هجرها العشاق وأصحاب المال.. وهل الدنيا فقط لباس

ورحلات وسيارات وخواتم ذهب وعقيق وحفلات وثياب حرير ، وأكل من طبق ذهبي ومن أفخر المأكولات ، وشرب شراب فاتك بالعقل والجسد والروح ؟! وهل هذه هي الحياة يا فوز؟! تمتع الجسد والتذ .. الروح والعقل أين ملذتهما ؟ والموت ..وماذا بعد الموت ؟؟

قالت فوز: الله!! أنا لا أفكر بطريقتك .. ولا أفكر بالعواقب .. ولا أفكر بالآخرين ..أنا أفكر كيف أضيع الأيام ؟ كيف تمضي أوقاتي ؟ كيف أضحك ؟ كيف أمرح ؟ كيف أسهر ؟.. على كل يا آنسة هند ! طال بنا الحديث ، وعلى كل حال سأسمح لنفسي يا آنسة ! بالالتقاء بك مرة أخرى .. فأنا والله أول مرة أصغى لفتاة تلبس مثل هذه الثياب القاتمة ، فأنا لم أختلط في حياتي بفتيات يفكرن بطريقتك .. فالحق أنك أثرت اهتمامي بفطنتك وسرعة كلامك ، فبما أن الأخت أسماء قريبة لك فسترتب لنا لقاء ..أليس كذلك يا أسماء ؟.. ليس خطأ أن يسمع الإنسان كلاما طيبا من مثل الآنسة هند .. فنحن نقرأ عن الفنانين بل عن المجرمين من لصوص ومحتالين .. فلنقرأ عن الإسلام .

فقالت هند بحماس ظاهر : أرجو أن أراك يا فوز ! وألتـقي بك ثانية ، فعندك بذرة خير وفطرة سليمة في داخلك ، وشعرت من مجمل كلامك بأن في حياتك ملل وغم .

فقالت فوز : ألا تصافحيني الآن يا هند ؟!

فقالت هند وهي تمد يدها نحو فوز مصافحة لها : أنا آسفة فهذه يدي .

وتصافحت اليدان والقلبان وقالت فوز : سيكون لقاؤنا قريبا يا هند!.. فلي صديقة مريضة تعاني من مرض السرطان ، وهي عزيزة على قلبي ، وتمضي المسكينة أكثر أيامها على آسرة المستشفيات.. فقد أثر مرضها عليّ ، فأفكر أحيانا بما بعد الموت ..

ثم التفتت لأسماء قائلة : إنها جميلة ، زميلتنا يا أسماء ! فكثيرا ما تكون معي ، فهي منذ شهور أخذت تعاني من مرض السرطان ، لقد ضربها هذا المرض في جهازها التنفسي ؛ لذلك بدأت تغيب عن المحاضرات والجامعة ، وكان الله في عونها .

قالت هند : أحسنت يا فوز ! كان الله في عونها ، لا بأس أن يعلم المسلم أنّ الله هو المعين الحقيقي

عند المرض والبلاء .. شكرا لكم ، والسلام عليكم ، أراك مساءً يا أسماء ! إن شاء الله

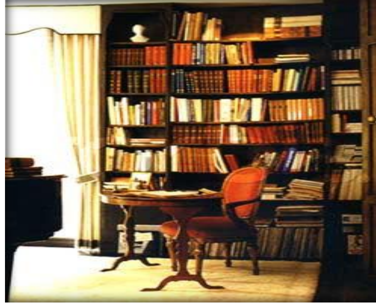
وابتعدت هند ، فقالت فوز معلقة ومبهورة : إنها فتاة مدهشة ! عندها ثقة كبيرة بنفسها .. هل يعقل أن تلبس هذه الملابس عن قناعة وحب ؟!

فردت أسماء قائلة : الحق يا فوز ! أنها من أسرة متدينة .. فأخوها مهدي من الشباب الذين يثيرون القلاقل في الجامعة في كل مناسبة وندوة ، وهم الذين يطالبون الحاكم والحكومة بتحكيم الشريعة الإسلامية وأسلمة الدولة والإدارة ، فهند أخت لذلك الشاب النشط في جماعات التيار الإسلامي ، وهو يثير المتاعب للإدارة والأمن ، واعتقل مرات ومرات ، وهو من الشباب الذين يطالبون ويدعون بالعودة للإسلام حاكما ومهيمنا على الأمة والمجتمع كله ، فهند أخت ذلك الشاب ، وأسرتها من الأسر المحافظة جداً جداً .

فقالت فوز وهي شاردة الذهن : والله يا أسماء ! ما أتعبت فكري ونفسي يوما لأفكر بالإسلام الذي هو ديني ..الحق أيتها الصديقة ! أن حياتي وحياة الكثير غيري هي الأكل والشرب ، والسهر والحفلات والمجون ، والرحلات إلى أوروبا وأمريكا ، وارتداء أغلى الملابس ، وحمل أثمن الحقائب ، وتبديل السيارة كل عام بأحدث موديل ، وحتى موت إنسان في الحي أو قريب لنا يمر في حياتنا من غير اكتراث ، فالعزاء في حينا ومجتمعنا نراه فرصة للاجتماع والثرثرة والدخان ، وحتى المقرئ أو قارئ القرآن الذي يحضرونه في حفلات العزاء ـ دعيني اسميها حفلات العزاء ـ يضعونه الشيخ المعمم في إحدى زوايا البيت أو صالة العزاء ، ويأخذ بقراءة القرآن ، والجالسون لا يكترثون بما يقرأ ، فهم مشغولون بالقيل والقال ، وفي آخر السهرة يعطى قليلا من المال بالنسبة لنا ، ثم ينصرف ، فالموت يعبر سريعا من حياتنا ولا نتعظ منه .. لقد شدتني ابنة عمتك ، فكرت قليلا ، لماذا هذه الصبية تغمر نفسها بهذه الملابس السميكة الواسعة كأننا في شهر الثلج ؟ فأردت عندما رأيتها وهي تتحدث معك أن أتسلى بها وأهزؤ منها ؛ فإذا هي التي أثارت شهوتي للتعرف عليها أكثر ، هل هي جميلة يا أسماء ؟!

فقالت أسماء : إن كنت تقصدين بالجمال بياض البشرة فهي بيضاء البشرة يا صديقتي ! وليست

بشعة لتخفي قبحها تحت نقابـها ؛ إنها تلبس هذه الثياب عن قناعة وطاعة ، وليس عن عادات وتقاليد فحسب ..إنها هند ابنة عمتي وأعرفها جيدا يا صديقتي !



التوبة

هكذا كانت البداية لقاءً عابرا مع فتاة ترى أنها تمثل الفتاة المسلمة الملتزمة بأمر الله ونهيه .. فتاة كلها إيمان ونور، ترك لقاؤها العابر الدافئ أثره الكبير على هذه الفتاة ـ فوز ـ المتحررة المتبرجة المقلدة للمرأة الغربية الضائعة .

فوز ـ ومثلها كثير ـ تعاني من الفراغ الديني الذي يشبع الجانب الروحي من كونها إنسانا مركبا من روح وجسد ، وهي تعاني كذلك من الجهل الكبير في دينها وتعاليم إسلامها .

وتربيتها الغربية ، وتقليد والديها الأعمى للغرب ، حرفا فطرتها السليمة للتعلق بالكافر في علومه وعاداته وثقافته ، وفوز عندما أشارت بأن هدفها في الحياة قتل الوقت بأي طريق لم تجانب الصواب ، مال كثير ، بيت واسع يشبه بيوت الغرب ، عمل متيسر ، جنسية أمريكية متوفرة لأنها من مواليد تلك البلاد ، زوج لن يعجز والدها عن توفيره ، فأيامها مسارح ، مهرجانات ، غناء ، تمثيل ، رقص ، لهو .. عندما قالت لهند ذلك فهي صادقة أيضا ، فهي ترافق أمها غالبا إلى أقطار شتى ، من أجل مشاهدة معرض أو فيلم حديث أو عرض أزياء ؛ لتقول الأم أو البنت أمام الأصدقاء متفاخرة ومتباهية بأنها حضرت العرض الأول للمسرحية أو الفيلم أو معرض الفنان الفلاني ، ولكن لقاؤها العابر بهند ، مع مرض صديقة أحبتها "الحميمة جميلة" ، وما هي فيه من العذاب الغامض ، تحركت نوازع الخير والفطرة في نفسها وروحها ، لذلك لم يكد يمضي يومان على لقائها الخالد بهند حتى طلبت من زميلتها في الكلية والفصل أسماء أن تجمعها بهند مرة أخرى ، وترتب لها معها لقاء جديدا ، مما أدهش أسماء لهذه العجلة ، فربما وقع في نفس أسماء في المرة الماضية أن فوزا عرضت على هند تجديد اللقاء لتصرف هندا بلباقة وأدب وحسن مجاملة ، فقالت معلقة باستغراب ظاهر : بهذه السرعة ترغبين اللقاء بها ؟!

فقالت فوز محاولة التفسير لهذا الطلب : يحق لك أن تسألي هذا السؤال .. هند ابنة عمتك .. لقد سحرتني بقوة جنانها ، وحسن مدحها لديننا ، رغم الحدة التي أبدتها نحوي في بعض الجمل في ذلك اللقاء المبهر .. فأنا أريد أن أجالسها لأنني عطشى للأيمان يا أسماء ! يا أسماء !

إنني أعيش في ظلام وحيرة ، مع توفر كل وسائل الحياة والرفاهية بين يدي ، وأنت تعرفين كل ذلك .. أريد أن أعرف هذا الإسلام الذي هو ديننا ، ودين أبي وأمي .. أريد أن أعرف هذا الدين الذي يدفع فتاة جميلة مثل هند لتخفي حسنها وفتنتها عن أعين الناظرين ، وتدافع عن ذلك بقوة .. أريد أن أعرف لماذا نهرب عنه ومنه؟! .. لماذا نحب الغرب ومحاكاة الغرب لماذا؟! صدقيني يا عزيزتي ! لقد صدف مرة ونحن في جوف أمريكا العظمى أن كنا في حفل كبير لأبناء الجاليات العربية والإسلامية ـ بمناسبة دينية على ما أذكر ـ وأثناء الحفل تعرفت على فتاة أمريكية من أصل أمريكي ، كانت بجواري وكانت تلبس مثل هند ، ظننتها للوهلة الأولى مسلمة من بلاد المسلمين والعرب ؛ فإذا هي أمريكية الجنس ، وتحدثنا قليلا ، فلما علمت أنني مسلمة بالولادة صعقت لمشاهدتي بهذه الثياب التي على آخر طراز ، وأنا بالطبع لم أكترث لدهشتها ، بل أنا التي استغربت منها يوم ذاك ، وهمست لنفسي "أمريكية تلبس ملابس المتعصبات من المسلمين" ، وسكتت فوز كأنها تستذكر لقاءها مع الأمريكية المهتدية .

ثم قالت أسماء بعد لحظات خيم فيها عليهنّ الصمت : متى تريدين أن يكون الموعد واللقاء؟

قالت فوز وهي تتنهد بعمق : أتمنى أن يكون هذا مساء هذا اليوم ، هناك حفلة ستذهب إليها الأسرة ، واعتذرت عنها ، ومنذ فارقتنا هند وأنا أعيش معها .. فتنت بها يا أسماء ! طيفها معي منذ ذلك النهار .. لا أدري لماذا ؟!! سحرت بها ! .. وأود أن يكون اللقاء في منزل هند ، نعم ، أريد أن أراها بين أحضان أسرتها يا أسماء!

فقالت أسماء وهي متعجبة لكلمات فوز ومن إعجابها بابنة عمتها : ألا تخشين وتهابين اللقاء بها ؟! ..أخشى أن تخلعي هذه الملابس الجميلة يا فوز !

قالت فوز وربما فاجأت أسماء بردها : يا ليت ذلك يحدث ! لا تظني يا عزيزتي! أننا نحيا بسعادة السعادة ليست في المال وحده صدقيني .. المحروم من متعة المال يحلم بما حققناه من لهو ومتع ؛ فإني من أعماقي أتمنى أن أتغير .. مللت النادي .. مللت السفر .. مللت الأصدقاء مللت نفسي

فقالت أسماء وما زال تعجبها يزداد من فوز : ولكنك ما زلت صغيرة يا عزيزتي .. ما عشرون

سنة في الحياة ؟!

فقالت فوز وهي تحلق بالأفق البعيد : التعب النفسي والقلق غير محكوم بسن .. اتصلي بي إذا وافقت هند ، وسوف أمر عليك لنذهب سوية ، وأرجو أن لا يكون في ذلك إحراج لك ولها.

فقالت أسماء : اعلمي أنّ هندا سوف تسر وتفرح بلقائك ، فبيتها مدرسة ، صديقة داخلة وأخرى خارجة .



واستقبلت هند الفتاتين بابتسامة بيضاء صافية ، وأبدت سرورها وسعادتها من اللقاء ، ورحبت بهن ترحيبا حارا ، واعتبرته مفاجأة سارة وبشرى خير ، فلما جلسن في غرفة هند قالت فوز بإعجاب واضح : ما أجملك يا هند! فكل هذا الحسن تخفيه تحت أسمالك العجيبة، كنت أظن أن هؤلاء الفتيات المحجبات يتحجبن ليخفين دمامتهن ، أو لأنهن لا يملكن الثياب الغالية ، ولا يستطعن مجاراة الموضة المتسارعة .. كم كنت مخطئة !

فقالت هند باسمة : مالك تكثرين الحديث عن الجلباب يا فوز؟!.. فالإسلام ليس الثوب فقط فالإسلام إيمان وتوحيد وعمل وخلق وسلوك أهلا أسماء ومرحبا ..أهلا بفوز ما أخباركنّ ؟؟

فأظهرن حمد الله عز وجل ، وتحدثن عن الدراسة قليلا ، ثم قالت هند لفوز : لا تعلمين كم سررت عندما أنبأتني الأخت أسماء عن رغبتك بزيارتي ولقائي! وبصراحة أقول وتقبلي ذلك مني .. فقد تأكد لي أنك ضحية الأسرة والمجتمع اللذين تعيشين فيهما .

فقالت فوز وابتسامة صغيرة ارتسمت على محياها الجميل ، ولم تتضايق من كلام هند بأنها ضحية للمجتمع والأسرة كما حدث لما سمعت هذه الكلمة في اللقاء السابق : وأنا مسرورة بك وبصحبتك وسماعك ، لقد أثرت بي كلماتك في ذلك اللقاء العابر والغريب ..

وقالت والجد ظاهر عليها : هند! أريد أن أعرف الإسلام الحقيقي ..أنا لا أعرف شيئا عن إسلامي ، نحن لا نعرف عنه إلا ما نسمعه من الغرب ومن المقلدين للغرب ..حدثيني عن التوبة .

قالت هند متأثرة بعواطف فوز ورغبتها بالتوبة : رائع يا فوز! سأحدثك عن التوبة ـ إن شاء الله ـ ولكن بما أنك خبرت الحياة منذ صغرك ونعومة أظفارك كما يقال ، ورأيت اللهو والنزهات والسهرات ، فاصدقيني القول هل أنت سعيدة في دنياك ؟!

فقالت أسماء مجيبة : وماذا ينقصها يا هند؟! ..القصر موجود ..والسيارة موجودة .. والمال وفير والرحلات متيسرة .. والوظيفة المناسبة جاهزة .. وزوج ثري منتظر .. أليست هذه الأشياء تحقق السعادة للمرء يا هند؟!

فلما لم تجب هند على اعتراض أسماء ، وما زالت تحدق النظر في فوز تنتظر منها الجواب ، فأجابت فوز وابتسامة خفيفة قد رسمت على وجهها الجاد : صحيح نحن أبناء الأغنياء جدا متوفرة لدينا هذه الأشياء التي تفوهت بها العزيزة أسماء ؛ ولكن حياتنا مادية لا غير ، وكما قلت لك يا أسماء! سابقا .. حياتنا لا معنى لها .. مجرد حياة .. ليس هناك أهداف نبيلة نسعى لتحقيقها .. من أهدافنا إمضاء الأوقات في الملاهي في المسرح واللهو ، وشرب الشراب المسكر للهرب من هموم الدنيا .. نفتعل المشاكل ، ونكبر الأشياء الصغيرة حتى نثير الاهتمام ، وننشط عقولنا الملبدة بغيوم سوداء .. نتخاصم على أتفه الأشياء .. لا نحس بمتعة فعل الخيرات من الإحسان ليتيم أو فقير .. بل المريض من حولنا نهتم به أول مرضه ، ثم يصبح نسيا منسيا .. وقد تعشق إحدانا هواية ما ، أو لعبة ما .. ولكن أيضا هذه الهوايات أو الألعاب ليس لها هدف سامٍ نبيل ، وإنما ذلك لتضيع الحياة أو التميز على الأصدقاء .. وماذا أقول أكثر من ذلك ؟.. أين السعادة ؟!

قالت هند : رائع يا عزيزتي! .. توصيف جميل حقا .. على ذكر المرض ما أخبار صديقتك المريضة ما أخبار صحتها ؟؟

قالت فوز ونبرات الحزن واضحة عليها : آه جميلة ! ..هي التي أيقظتني من سباتي يا هند!.. منذ

جئنا من بوسطن ، وتعرفت عليها ونحن نلهو معا.. كم لهونا معا ؟! كم رقصنا معا ؟ كم سافرنا معا ؟ وكم غنينا معا ؟ .. وها هي رغم صغر سنها قد ضربها السرطان .. أوقاتها أيام في المستشفيات ، وأيام في البيت ، بل عجزت عن الدراسة ، والطبيب يزورها يوميا ، والموت ينتظرها .. هذا ما جنته من الدخان والخمر ، والآن الجميع من حولها عاجزون عن مساعدتها بل بعض صديقاتنا مللن الحديث عنها ، ولا يرغبن بسماع أخبارها ، ويخشين ذكرها لأنها تذكرهن بالمرض والضعف ، فما نفع مال والدها ، ولا مال أخيها .. المال لا يعيد الصحة .

وبعد تبادل الفتيات الحديث الحزين حول الفتاة المريضة ، وظهر تأثر فوز الشديد بمرض صديقتها، قالت هند : هذا حقا محزن .. الإنسان لا يعلم متى تهجم عليه هذه الأمراض الصعبة حدثيها يا فوز! عن التوبة والندم .. فدموع التوبة دموع رحمة واستغفار .. فرحمة الله وسعت كل الأشياء ..واعلمي يا أختاه! أنك إذا أحببت الله حق المحبة أحبك سبحانه وتعالى .. فحب الله هو الحب الدائم والباقي أيتها الأخت الصديقة .. إنّ ديننا دين التوبة والندم .. والتوبة في ديننا العظيم لا تحتاج لواسطة أو شفيع ، عليك أن تبدئي عهدا جديدا مع الله سبحانه ، وتتأسفي على ما فرطت في جنب الله ، وتندمي على أفعال الشر التي جرت في غابر الأيام ، وتحاولي وتجتهدي ألا تقعي فيها مرة أخرى ، وتكثري من أعمال الخير، ومن الأعمال التي يحبها الله مالك السماوات والأرض ، وبالنسبة لنا نحن معشر النساء يا فوز ! من المهم للمرأة المسلمة أن تطيع الله في لباسها .. فالتائب أيتها الصديقة! عليه أن يترك المعاصي التي بينها القرآن والسنة النبوية ولا يعد ممارسا لها ، وعليه أن يندم على فعلها ، وعلى التائب أن يقوم بالواجبات المطلوبة منه ، وإن ضعف المسلم أمام الذنوب والشهوات يتوب مرة أخرى وأخرى من غير يأس ، ولا يستسلم للشيطان ، ولا يخجل من التوبة المتكررة .. ومن المهم أيتها الصديقتان العزيزتان ! أن تمتلئ أنفسنا أنّ هذا الدين هو من لدن حكيم خبـير ، من الله الضار والنافع والمعز والمذل ، وليس من صنع البشر ، سأعطيك بعض الرسائل العلمية الخفيفة والقصيرة لعلماء مسلمين أجلاء معاصرين ، فيها دفع كثير من الزيف والشبهات التي يثيرها أعداؤنا وأعداء الله حول

دين الله الخالد ..المهم القراءة القراءة الواعية .. فكما تقرئين مجلات النساء والرياضة بحماس فاقرئيها أيضا بحماس .

قالت فوز باسمة وقد ازدادت حبا لهند وإعجابا بكلامها ، وقد أحست بعواطف جياشة نحوها : كم هو ممتع سماعك يا هند ؟!

ثم قالت متسألة : هل من الممكن أن أتخلص من عاداتي وأخلاقي السيئة ؟! وكيف سأواجه أبي وأمي بعد أن زرعوا فيّ حب الملابس العارية ، وحب السهرات والحفلات ، ومصاحبة الشباب والشابات ، وكذلك حب الكفار وحب الحضارة والمدنية الغربية وحب الغرب ؟؟!

أجابتها هند مشجعة وبكل ثقة : تتخلصين من كل ذلك رويدا رويدا .. فأصحاب رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم) كانوا أهل جاهلية ، ولقد كانت عندهم عادات قبيحة ، من أشهرها وأد البنات ، وإدمان الخمر ؛ ولكنهم بفضل من الله ـ عز وجل ـ وإخلاص الأفئدة له وحده ، أزالوا تلك الحواجز الرهيبة ، وأصبحوا سادتنا وقدوتنا وسلفنا الصالح

تنهدت فوز بعمق وقالت : أريد أن أتوب يا هند! ساعديني يا سيدتي !

كانت أسماء تسمع كلمات هند وفوز وهي في غاية الدهشة والاستغراب للانقلاب الذي حدث لفوز من لقاءين فقط ، فوقع في روعها أنّ فوزا تمر في أزمة نفسية حادة ، وسوف تستيقظ منها بعد أيام ، وسمعت هند ترد على استغاثة فوز بحماس شديد : سأبذل قصارى جهدي لأنقذك من الظلام والضلال والجاهلية ، وسأكون لك أختا وأكثر ، وعليكِ بداية أن تتخلصي من غرورك ، وأنك ابنة رجل أعمال كبير .. مليونير أو أكثر .. تذكري أنك فتاة مسلمة ، وتحملين هذا الوصف العظيم .

همسات عن الإسلام

تجدد اللقاء بين هند وفوز ، وتعمقت الصداقة بينهما ، وما يمر يوم إلا وتزور فوز هندا ، وتسمع منها كلاما طيبا عن الإسلام ، وإن لم ترها بالعين المجردة فتحدثها بالهاتف بالساعات وهي تهمس لها " إن حديثك يا هند! له لذة في وجداني وكياني " .

وما كاد يمضي شهران من العمر حتى عرفت الفتاة الإيمان ، وصفة الاغتسال من الحيض ، فهذا الفعل لا يمارس في البيت ، ولا تعرف أحكامه الشرعية ، وتعلمت الوضوء ، ونواقض الوضوء وهذا فعل لا يمارس في البيت أيضا ، وقرأت سورا من القرآن الكريم ، وقرأت عن حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وبعض صحبه الكرام ، وكيف انتقلوا من حياة الجاهلية الأولى لحياة الإيمان؟ وعلمت حجم وعظم التضحيات التي قدموها لدينهم ، وصبرهم على أذى أهليهم وقومهم ، وتحملهم الكثير من أجل تمسكهم بالإسلام .

فكلما وصل لذهن وعقل فتاة حكايتنا معلومات جديدة عن الدين الخالد كان يصيبها الانبهار لحد عظيم لهذه المعلومات الراقية ، وتتألم غاية الألم لجهلها الكبير هي ومن حولها من الأهل والأقارب والجيران بدينهم العظيم وإسلامهم الكبير.

فتتسأل بينها وبين نفسها : " لماذا كل هذا التجهيل بالدين في بيئتهم ؟!" وقد تقضي الساعات الطوال وهي تحاول الإجابة على هذا الاستفهام .

لقد كانت تتلقن من هنا وهناك ، أنّ الإسلام يحتقر النساء ، ويستعبدهن ويجعلهن خدما وجواري للأسياد ، ويحرمهن من القراءة والكتابة وطلب العلم ، ويمنعهنّ من الخروج من بيوتهنّ ، ويضيق عليهنّ في العمل والمهن ، وتلقنت أنّ الإسلام دين القتل والسفك والسيف ، وأنّه يهدر دم الكافرين به الذين لا يتبعونه ، ويأخذ الجزية والمال من اليهود والنصارى وغيرهم لإذلالهم ، وهو يرخص للرجل بالزواج بعدد من النساء في وقت واحد لمجرد العبث والمتعة . ولكنها اليوم ترى هندا تتعلم مثلها في الجامعة ، وهي في قمة التمسك بتعاليم الإسلام ، ورأت أختها تعمل معلمة في إحدى المدارس ، ولم تمنعها تعاليم الإسلام من العمل والخروج ، وبينت

لها هند أنّ الإسلام يهدر دم الكافر المحارب للإسلام ؛ وليس المسالم والمعاهد ، وأن التعدد في الإسلام ليس لمجرد الشهوة ، إنمـا لحكم وحاجات مهمة ، إن لم يكن ضرورة في بعض الأحيان فهناك الفتاة المطلقة ، الأرملة ، العانس ، والعرجاء ، والقبيحة .. فمن يتزوج هؤلاء النسوة إن لم يكن هناك تعدد ؟!

وعلمت من هند أنّ من فوائد التعدد المحافظة على المجتمع المسلم من الوقوع في الفواحش ، من زنا وشذوذ وانتشار الأطفال غير الشرعيين.. وعلمت فوز أنّ الإسلام لا يحتقر النساء كما يروج المفسدون في الأرض .. بل الله هو الذي كرم بني آدم المسلم والكافر الذكر والأنثى ، وزاد الإسلام المرأة تكريما وتعظيما ، فهو يحترمها ويوجب على والديها حسن تربيتها ؛ لتكون لهما سترا من النار ، ويوجب الإنفاق عليها حتى تنتقل إلى عش الزوجية حيث المودة والرحمة ، فيتحمل الزوج النفقة عليها ، ثم الأبناء حتى مفارقة الدنيا إلى حياة البرزخ .

وعلمت فوز أنّ الحياة الزوجية في الإسلام حياة مقدسة بمعنى الكلمة ، حياة طيبة هانئة ، حياة تفاهم وود وسكينة ورحمة ، وليست مشروعا تجاريا ، ولا حياة خليلات وعشيقات وخيانة زوجية .

وبينت هند لها أنّ العقوبات والحدود التي جاء ذكرها في القرآن والسنة والتي شرعها العزيز الحكيم ؛ ليست لمجرد القسوة والتعذيب إنما هي لحماية الفرد والمجتمع المسلم من الفساد للدين والعقل والمال والنفس والنسل .

لقد تعلقت فوز بهند تعلقا عجيبا ؛ كأنها وجدت كنزا وجوهرة نادرة ، فما يهبط المساء حتى تزورها وتنهل من علمها وثقافتها الإسلامية الواسعة ، وتسمع منها ، وتسألها عما يخطر لها من أسئلة، وإن لم تتمكن من الذهاب إليها تكلمها بالهاتف، وكانت تستعير منها الكتب المفيدة ، وتقرأها إلى أن كان ذات ليلة ، وبعد حديث مشوق عن عظمة الإسلام ، وعظمة أمة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وفضلها الكبير، قالت هند لفوز : ألم يأن للذين أمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله يا فوز ؟؟!

وقالت فوز وهي تمسح دموعها المتساقطة على وجنتيها تأثرا بكلام هند : بلى يا صديقتي!.. بلى يا منقذتي! أنت نور أرسلك الله لي .. لقد أحببتك يا هند ! ولكني خائفة من أهلي وممن حولي .

قالت هند مشجعة صديقتها للعمل : اخط الخطوة الأولى ، وسيكون معك الرب عز وجل .. ألم تقرئي ما واجهه الصحابة في أول الدعوة ؟.. فلن يكون أهلك مثل صناديد قريش الكفرة ، فأهلك أولا وأخرا مسلمون .. فلقد أخبرتني الخياطة أنّ الجلباب الذي فصلته لـك قد جهز ، وهو هديتي المتواضعة لك أيتها الأخت الفاضلة !

فقالت فوز وهي شاردة اللب وتتصور موقف أهلها من توبتها وصلاتها وجلبابها : هل يقبل أبي وأمي أن ينهار ما غرسوه فيّ من بعد عن الدين ؟! وهل يتقبلون أن امتنع عن مصافحة الأصدقاء ، وعدم الجلوس معهم ؟! إنهم ينظرون إليّ طيلة الأيام الفائتة باستغراب ، ويعلقون عليّ التعليقات الساخرة ، وهم يعتقدون أنّ مرض صديقتي جميلة أثر عليّ ، وعلى أعصابي ، وغير أفكاري وأحلامي .

فقالت هند مقاطعة لفوز كأنها التقطت فكرة من كلامها : فوز! اجعلي من مرض صديقتك فرصة للتغيير والبداية ، هذه فرصة من عند الله ، استغلي هذه الفرصة وهذا الظرف وأعلني توبتك .. فهم سيعتقدون أنّ مرض صاحبتك هو الذي غيرك ، وأنـها ساعة عابرة ، ولسوف يغضون الطرف عن تصرفاتك الجديدة .. وأنت تكونين قد اجتزت الحواجز والخوف الجاثم عليك من التقاليد والعادات التي غرست فيك .. هي فرصة جيدة للبداية ، لا داعي للتردد .. مَن يكن مع الله يكن الله معه .. عندما تقطعين مع التوبة أياما ، ستتجمع فيك الشجاعة ، ويذهب الخوف الذي يضخمه الشيطان في نفسك .

ردت فوز بعد صمت عميق وتأمل بفكرة هند : فعلا يا هند! إنـها فكرة رائعة، وفرصة عليّ الاستفادة منها ، عندما آخذ منك غدا الجلباب الذي سأعتز به لأنه منك ، سأبدأ بالصلاة بإذن الله العلي العظيم .. اللهم قوي عزيمتي واشدد أزري.

ثم قالت بذهول وتعجب : عجيب أمري يا هند! كم كنت جريئة على المعاصي والسباحة أمام

الفتيان دون حياء وخجل ؟! أما الصلاة فكلي خوف وتوتر وقلق ؛ كأني مقدمة على معركة .. يا الله! لقد كنت مجرمة وأنا لا أشعر يا أختي الغالي!

قالت هند : هوني عليك .. هي معركة فعلا يا فوز! وليست معركة سهلة ، ولا تنظري للوراء إلا للعظة والاعتبار .

لقد اجتازت فوز الخطوات الأولى ، فلبست الجلباب الشرعي للمرأة المسلمة ، وصارت تصلي ومرت الأيام الأولى في الفيلا ، ولم يجرؤ أحد أن يسألها عن عملها الجديد ، فلقد يسر الله لها الأمر كما تحب وتشتهي ، ووقعت الهيبة والرهبة في قلوبهم من مناقشتها والحديث معها في هذا التغير الجديد ، وكانوا يتوهمون أن هذا الانقلاب ، وهذا التغير حدث بسبب مرض صديقتها الخطير وخوف ورعب الفتاة من المرض ، فتركوها على راحتها ، وهي في نفس الوقت لا تمارس عملا محرما لتلام عليه ؛ ولكنه عمل غير معهود في البيت منذ أكثر من أربعين سنة ، الأب سامي لا يعرف الصلاة ، وكذلك الأم ، وهو عمل يجفلون منه ، ولم يفكروا بممارسته يوما ما ، ربما يرونه من علامات التخلف والعادات البالية ، وسرت فوز لنجاحها الأولي ، وعدم معارضة والديها لخطواتها الجريئة .

فتاة في أول العقد الثالث من العمر ، متحررة لآخر درجة تخرج على تقاليد الأسرة على حين غفلة منها ، وتعود للعصور القديمة عصر الصحابة والتابعين والجيل الأول من المسلمين ، وتتخلى عن عصر الحضارة والمدنية التي تغمر الكوكب ، هذا أمر مهم وخطير ومزعج لهم ، فبدأت بنات العائلات ـ أصدقاء العائلة ـ ينفضضن من حولها ، ولم يعدن يفرحن بأحاديثها والجلوس معها ، وما عدت ترى فوزا في البيت إلا وهي تقرأ أو تسمع أشرطة كاسيت إسلامية وأعادت ترتيب حجرتها بما يتناسب مع هدايتها ، فمزقت عن جدرانها صور الفنانين والراقصين ، وتخلصت من أدوات الموسيقى ، ومن أدوات الزينة المختلفة ، وهي تقرأ بشغف وعشق كل ما تختاره لها هند ؛ لتعرف الإسلام الذي كانت تحاربه وتعاديه من غير أن تشعر وتدرك أنها كانت تقف مع أعداء الإسلام في خندق واحد للتربص بالإسلام الصابر العظيم .



ولقد تمنت فوز بعد أن قطعت شوطا مقبولا مع الهداية والتوبة أن تلتقي بتلك الفتاة الأمريكية المهتدية ، للتحدث إليها بفخر واعتزاز ، وتخبرها بأنها عادت وآبت لإسلامها، وندمت على سنوات الجهل والغي والسير وراء التيار الفاسد التائه.

أصبحت فوز بين عشية وضحاها حديث الجامعة ، وكليتها خاصة ، وعلاقتها الحميمة بأسماء وغيرها قد بردت وخفتت ، وكانت أوقات فراغها من محاضرات كليتها تمكثها عند هند في كلية الشريعة والعلوم الإسلامية ، وتعرفت على صديقات هند ، وسررن لتوبتها ، ودعون لها بالثبات على التوبة والفوز عند هبوب العواصف القادمة .

ومن الذين فرحوا جدا لانتصار فوز على واقعها الفاسد صديقتها المريضة جميلة ، وأعلنت هي الأخرى توبتها وندمها، واستسلمت لقضاء ربها بنفس مطمئنة ، وسألت الله حسن الختام وأن يقبلها ويجعلها من عباده الصالحين .

ولقد قامت هند وبعض أخواتها المسلمات بعيادة جميلة عدة مرات ؛ ليرفعن من معنوياتها أمام هذا المرض الهائل ، ويبينّ لها ثواب وأجر الصبر على الأسقام ، وأنّ مرض المسلم الصادق كفارة لذنوبه وخطاياه ، وماتت جميلة وهي سعيدة بما أكرمها الله به في أواخر أيامها من التوبة والهداية وبكتها الصديقات الملتزمات ، وأكثرهن بكاءً وحزنا عليها كانت فوز ، ورجون الله أن يتجاوز عن ذنوبها وسيئاتها ، ويتغمدها برحمته الواسعة .

وموت جميلة المتوقع لاستفحال المرض ، والمرض ذاته ليس سببا للموت كما هو معلوم ، فالموت سببه انتهاء الأجل ، وكذلك لعجز الأطباء عن فعل أي شيء أمام أمر الله تعالى وقدره كل هذا زاد من تدين فوز ، وصغرت ملذات الدنيا أمام ناظريها ، فكانت تدخل عليها أمها فتجدها تذرف دموع الندم والتوبة ، فتتأملها لحظات ، وتخرج لا تتكلم معها كلمة واحدة ،

وتظن أن ّكل هذا البكاء والحزن على فقد جميلة ، وازدادت الفتاة تمسكا بتعاليم الإسلام ، وما زالت تتردد مساءً على صديقتها هند ، بل أحضرتها لبيتها بضع مرات .

ولقد كان أهل فوز يرون أن الصدمة التي أصابتها بصديقتها جميلة هي التي دفعتها لهذه الأفعال والابتعاد عن السهرات والمناسبات والحفلات المنتشرة بينهم ، وحاولت بعض صديقاتها من بنات الحي انتشالها من وهدة الحزن والأسف على وفاة جميلة ، ولكن بعد الحديث معها وسماع كلامها وحوارها أخذوا يخشونها ويهربون من الجلوس معها ؛ لكثرة حديثها عن الموت والنار والعقاب ، بل اجتهد بعضهم وأدخل عليها طبيبا نفسيا لمعالجتها .

ومضت السنة الثالثة من الدراسة في الجامعة وفوز تحيا حياة جديدة حياة جادة ، حياة الإيمان والنور الإلهي ، حياة لها أهداف سامية راقية .. أليست الجنة هدفا عظيما للمرء المؤمن ؟! وهي الغاية الأولى للمؤمن .

أمسى أهل أصدقاء فوز التائبة يحذرون بناتهم من الجلوس معها، والاستماع إلى مواعظها وحكاياتها عن الصالحين والتائبين ، ويتجنبون دعوتها لسهراتهم ومجونهم ، لقد باتت في نظرهم القاصر فيروسا يخشون أن ينتقل إليهم ، أو كابوسا يؤرق راحتهم ومتعهم ، أو وحشا كاسرا يريد أن يسمم متعهم وملذاتهم وشهواتهم وهواهم في الدنيا .

وكان الوالد سامي سبل يحاول وباستمرار كبح جماعها واندفاعها نحو التمسك بجذور الإسلام الأولى ، ثم يهرب منها أثناء المواجهة والمناقشة ، فهو خاوي العلم من ناحية الدين ، فهو يفهم في الإدارة والمال على الطريقة المادية الغربية ، أما الإسلام فهو مجهول عنده ، فتراه بعد كل حوار ومناقشة مع فتاته يكتشف أنه أمي وجاهل ، لا يعرف شيئا عن الدين ، فيترك النقاش ويدع الأمر للأيام ؛ لتعيد فوزا إلى ما كانت عليه من التمتع بالحياة ؛ كأن المسلم لا يتمتع في نظرهم بدنياه ، فيواسي نفسه هامسا " لابدّ أنّ الأيام ستنسي الفتاة موت صديقتها العزيزة " ؛ ثم بعد حين يعيد الكرة آملا في الفوز والنجاح .. ولكن فوزا أنهت سنتها الثالثة في الكلية ، وهي ما تزال تشرق نورا وإيمانا ، وتزداد حبا وتمسكا في تعاليم دينها ، فانزعج الأب كثيرا حاول

إقناعها برحلة إلى أمريكا أو أوروبا ، فرفضت العرض ، وبينت له أنها ملت من الرحلات والنزهات ، فلاح له أمل جديد بأن يزوجها لابن زميله في المصرف عمار ، فطلب من زوجته أن تعرض الفكرة على فوز ؛ ولكنّ الفتاة رفضت الحديث عن الزواج قبل إنهاء دراستها الجامعية وأن التعليم يجب أن يكون قبل الزواج ، وأضافت بأنها لن تتزوج إلا شابا مسلما ملتزما بالإسلام قولا وعملا .

ولقد كانت فوز عندما يحدث في منزل العائلة سهرة أو حفلة تهرب إلى بيت صديقتها هند ، وتتناجيان عن حلاوة الأيمان ، وزيادة الأيمان ، ومحبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولقد تيقن لفوز ضعف حجج دعاة تحرير المرأة في بلاد المسلمين ، وأنهم ينفذون مشاريع الكفر لتغريب المرأة المسلمة ، وإبعادها عن دينها الحق ، بدل أن يردوها لدينها الجميل الذي يراعي الجسم والروح في الإنسان، وتبين لها أن المرأة المسلمة ليست أمة لأحد من الخلق ، إنما هي شقيقة للرجل ، وأمة لله وحده ، وليس الرجل مالكا لها كسلعة ومتاع ، ولا هو جلادها ، ووضح لها وضوح الشمس في كبد السماء أنّ هؤلاء الدعاة إنما يدعون لعري المرأة المسلمة ، وإلى الفاحشة من زنا وشذوذ ، ويدعون للخلاعة والتهتك بكل صورها، والى العلاقات المحرمة بين الجنسين ، والى الاختلاط المحرم ، والإجهاض ، فهم يشجعون العلاقات الآثمة ، ويبيحون الإجهاض ، وينشرون أدوات منع الحمل بين فتيات الجامعات والمراهقات للاستهتار بالعلاقات الشرعية ، وتسهيل الوقوع في جريمة الزنا ، فهم في واقع الحال يدعونها للتحرر من التمسك بدينها وطاعة ربها ، فالمرأة لا يمكن أن تكون رجلا ، وكذلك الرجل لا يمكن أن يكون امرأة ، فالله هو القائل { ليس الذكر كالأنثى } ، فعلمت فوز أنّه خفف عنها من فريضة الصلاة لنقص خاص بخلقها ، وذلك من باب التيسير ورفع المشقة عنها والحرج ، وذلك ليس تحقير لها وإهانة ، فهذا عذر شرعي يناسب تكوينها ، وعذر متكرر ، فرفع عنها إعادة الصلاة لتكرره ، وبما أن الصيام عبادة سنوية أمرها الله بإعادة ما فاتها من الصوم بعذر الحيض أو النفاس وذا من فضل الباري سبحانه وتعالى ، من يفهم الإسلام حق الفهم وبنزاهة تامة يفهم لماذا

جاءت بعض الفروقات بين الجنسين ؟! فأسقط الله عنها الحج إلا بمحرم ، فالمرأة في السفر تحتاج إلى رفيق وخادم وإلى من يساعدها في عبادة شاقة ، وكذلك أسقط عنها فريضة الجهاد لضعف بنيتها البدنية ولرعاية الأطفال ، وخوفا عليها من الوقوع في الأسر في حال فرار الجيش وغير ذلك من الحكم ، وأكرمها الإسلام أما وبنتا وأختا وزوجة ، وتبين لفوز أنّ تصرفات جهال المسلمين وغفلتهم ليست حجة على دين الله ، فالحجة القائمة على العباد كتاب الله وسنة الرسول .



لابدّ من الزواج

أخبر الزوج سامي نصار شادية زوجته عن موافقة ابن صديقه عمار على الزواج من كريمته فوز وبعد تشاور وتفاهم بينهما قررا التحدث معها مباشرة في الموضوع ؛ ليجري كتب عقد الزواج في أسرع وقت ممكن، ومن ثم تبدأ الاستعدادات لزواجهما ، وليكن ذلك أثناء وجود ابنتهم المهاجرة سميرة التي أرسلت لهم رسالة بأنها قادمة لمشاهدتهم بصحبة ابن خالها .

استقبلت فوز والديها بترحاب وحنان وحزن، ولما سمعت مشروعهما قالت الفتاة وهي تنظر لأمها بطرف عينيها: ألم تخبرك أمي برفضي؟! وعندما أتخرج من الجامعة نتكلم بمثل هذا الموضوع .

قالت الأم بضيق ونفرزة : أخبرته برفضك .

قال سامي بقوة وحدة، والضجر والغضب واضحان في عينيه ووجهه : الزواج لابدّ منه يا فتاتي!

قالت فوز بهدوء وأدب واحتجاج : يا أبي! ..أتريد إرغامي على هذا الزواج ؟ .. أبي! أين الحرية التي علمتموني إياها؟.. حرية الاختيار .. حرية التصرف .. حرية الرأي .. حرية الاعتقاد .. أين الحرية التي تتشدقون بها ؟!.. ألا تريد أن تنتظر وتصبر حتى أنهي دراستي وكليتي .

قطع الأب كلامها قائلا : تكملين الدراسة في بيت زوجك ، لقد اشترطت عليهم ذلك .

هزت رأسها عدة مرات رافضة الأمر، وقالت بقوة وتصميم وضغط على أعصابها : اعلم يا أبي العزيز ! أنني لا يمكن أن أعود للجهل والضلال .. أنا عرفت الصواب ، أبي !! إذا لم يعد لي مكان ومتسع في البيت أفارقه .. لا يمكن أن أعود للفسق والجهل بضغطك عليّ بهذه الفكرة .. الزواج أرفضه بشدة .

قال الأب والوجوم مرتسم على وجهه : فوز!.. حياتك هذه لا تعجبني نهائيا ..أتسمعين وتدركين ذلك ؟!.

همست كأنها تستغيث : إنها حياتي .

فتابع يقول بصوت قد ارتفع : نحن تركنا هذه الأشياء البالية منذ زمن بعيد، منذ غادرت هذا

القطر أول مرة لم أعد أشاهد هذه الطقوس والتقاليد القديمة .. نحن خلقنا للدنيا فقط قال صلاة .. قال جلباب .. قال قرآن .. لم أعد أصبر واحتمل أوضاعك وأحوالك الجديدة هذا تخلف .. تخلف.

فرفعت فوز من نبرة صوتها هي الأخرى وقالت : أبي! هل طلبت منك ألا تشرب الخمر؟!..هل قلت لك يوما ألا تجلس مع النساء؟! ولا ترقص معهنّ ولا تخلوا بهن ..؟

قال واجما وساخطا : وهل أظل أنتظر حتى تقولي لي ذلك ؟!

فقالت: دعوني وشأني، أنا لا يمكن أن أتزوج ابن صاحبك عمار .. أنا أتزوج ممن أريد وأختار وأنا لا أريد زوجا مسلما بالبطاقة الشخصية ، سوف أتزوج مسلما بمعنى الكلمة .. مسلما يعرف ربه ودينه ..لا أريد أن أعود للكفر والجاهلية.

لقد كانت تتكلم الكلام الأخير بغضب ودموع حارة تتساقط على خديها فقالت الأم: عندما ترين ابن السيد عمار تبدين رأيك ، فسند شاب مكافح ، وتقول أخته نداء : " إنه يصلي ويصوم مثلك .. ولا يشرب الخمر " وهو كما قلنا لك ابن صاحب أبيك، وأخو صديقتك نداء ، وهو شاب جامعي لا يعتمد على ثروة أبيه ، فهو يشتغل في أحد المصانع الكبرى ، ويريد أن يكون ثروته بنفسه .

كانت فوز تهز رأسها وهي تسمع كلام أمها، وتمسح في نفس الوقت دموعها، ولما سكتت الأم من ذكر محاسن سند عمار ، قالت فوز: ولكنك يا أمي نسيت شيئا واحدا من صفات الأخ سند صاحت الأم بغضب معتقدة أن فوزا تسخر من مدحها لسند: لم أنس شيئا، فهو شاب مناسب لك ولنا ، وهو يصلي حسب رغبتك.

فقال الأب الحائر : ما الذي نسيته أمك يا فوز ؟!

قالت فوز بحدة : نسيتم أن تذكروا أنه يتعاطى الهيروين .. نداء نفسها كانت تقول ذلك ، ولقد حاولت توريطي في تعاطيها ، إنه مدمن مخدرات يا والدي العزيز!

قالت الأم بوجوم ودهشة : مخدرات!!

وقال الأب مستغربا الخبر : مخدرات ..لا علم لنا بذلك !!

فقالت فوز: نعم يا أمي الحنون ! إنّ هذا العريس المختار يتعاطى المخدرات ، ويروجها أيضا، وأما الصلاة التي تظاهر بها فترة كانت لإخفاء أمره عن الفضوليين، هذا ما أعرفه عن الأخ سند .. ولولا الاضطرار ما تكلمت بذلك .

فقالت الأم ببطء : وهل يعرف أبوه بالأمر ؟!

فصاحت فوز: ولماذا لا يعرف والده؟! فنداء تعرف ، وتحاول بيعها بين الفتيات .

فقال سامي كأنه معتذر : صدقيني يا ابنتي ! أنني لا أعرف ذلك عنه .

قالت فوز بحدة وهي تنظر في وجه أبيها : وماذا تعرفون أنتم ؟! ..أنتم لا تفكرون إلا بقضاء شهواتكم وملذاتكم .. حياتكم خمر منكر نساء .. مللت هذه الحياة المرعبة .

اشتدّ الغضب بسامي نصار عندما سمع كلام فوز الجارح وقال : أنا ضال ..أنا مجرم .. أنا لا أريد هذه الحياة التي تعيشنها في بيتي .. نحن لا يناسبنا هذا .. نحن عشنا في أمريكا ، وعرفنا عادات لا نستطيع التخلص منها ، فأنت تخلصت من ذلك لصغر سنك ، ولم تقطعي شوطا طويلا فيها .. فالخمر لا يمكن التخلي عنها في يوم من الأيام ، وكذلك السيجار ، وكذلك الحفلات ، وغير ذلك مما لا يعجبك يا فوز! لا أحب كلما أراك أن أشعر بالندم والأسف .. لا أريد أن أتذكر أنني عاص .. لقد نسيت يا ابنتي ! هذه الطقوس التي تمارسينها .. لقد نسيت هذا الدين .. وأمك مثلي فهي ابنة الغرب وعادات الغرب .. نحن لا نحب هذا الأمور في بيتنا فرأيت أن زواجك خير لنا ولك .. دعينا نحيا حياتنا التي اخترناها بهدوء ، إنني أحرج أمام أصدقائي وزملائي المتحضرين منك ومن تصرفاتك .

قالت فوز وفي نبرتها رجاء وأمل: بل أنتم دعوني أعيش بسلام وهدوء ، تحملوني حتى أنهي دراستي وسوف أفارقكم .

فقالت أم فوز : اعقلي يا فتاتي ! ودعك من ثياب الغربان ، عودي للحياة الجميلة ، فكل صديقاتك متضايقات منك ، ويسخرن منك ، يقلن وهل تمنع الصلاة الرقص والغناء ؟! ساعة

لله وساعة للترويح عن النفس ، كثير من الفتيات يصلين وهنّ يخرجن بالملابس الحديثة ويجلسن مع الشباب بلا حرج ، ويقلن أنّ فوزا أصابها جنون وهوس الدين .

وتابع الأب قائلا : لقد أصبحنا سخرية لكل الأصدقاء، ويقولون الدكتور سامي لم يحسن تربية ابنته ، ولا نستطيع السيطرة عليك ، وأنك لا تطيعيننا .. أين طاعة الوالد التي في دينك هذا ؟!

فضحكت فوز ضحكة قصيرة وأردفت تقول: رائع كلامكم ! .. طاعة الوالد ! .. طاعة الوالد في ترك الدين.. لا يا أبي ! .. طاعة الوالدين تكون فيما أحله الله وأباحه .

فرجع الأب للزعيق والهياج : فوز!.. عليك أن تتزوجي بأسرع وقت ممكن ، ولو من الشيطان أو تسافري خلال أيام ..أدرسي في أمريكا .. أو أن تتخلي عن كل الجنون والهبل الذي أنت فيه

فقالت باكية ضاحكة : أتريد مني أن أتزوج من مدمن مخدرات .. لم تجد لي إلا شابا فاسقا ؟!

قالت الأم: لا أحد يريدك ، كلهم يقولون إنك معقدة ومجنونة ..لا أدري كيف رضي وقبل ابن الأستاذ عمار بالقران منك؟! لولا ثروة أبيك ما اقتنع بك يا عزيزتي !

قالت فوز : أنا لا أريد الرد عليكم. والتفت لأبيها قائلة : أنتم ترون أن الزواج يبعد شبحي عنكم ..أنتم بذلك تتخلصون من صوت القرآن يدندن في هذا البيت .. تريدون أن يبقى البيت في ظلام الجاهلية .. أنا لديّ حل يا أبي العزيز إن لم يعد لكم صبر على الشهور القليلة الباقية لأتخرج من كليتي ...

فقالت الأم مقاطعة : وأين ستذهبين بعدها ؟! هل ستفارقين البيت؟ الزواج هو الذي يخرجك من البيت اليوم أو غدا ، واليوم خير من غدٍ .

فقال الأب هازا رأسه ومحبطا : عليّ بالحل ، أرجوك تكلمي ، لقد تصدع رأسي من كثرة الكلام

فقالت فوز بروية : أتريد أن أفارق البيت لترتاح من شبحي يا أبي العزيز؟! أعرف أنني أسبب لكم حرجا وضيقا أمام أصدقائكم ورهطكم .. سأخرج من حياتكم ولن أساوم .. لن أتخلى عن إسلامي وطاعة الله حتى تتوقفوا عن مشروع زواجي .. حسنا سوف أتزوج لأخرج من حياتكم ؛ ولكن أنا التي سوف تحضر الزوج والرجل الذي أريد .. سوف أحضر لكم رجلا

يخلصكم مني ؛ ولكن هذا الرجل الذي أختاره لا تسألني عن فصله وأصله .. سأرتب الأمر مع نفسي ومع الرجل المختار، ونكتب الكتاب في هذا البيت وأتزوجه من غير عرس وحفل .. أترضى بذلك ؟؟

اعترضت الأم وقالت : من هو هذا العريس ؟؟!

أمعنت فوز النظر في عيني أمها قائلة ومدافعة عن نفسها : والله يا أمي ! ليس هناك رجل معين في حياتي الخاصة ، لست عاشقة ، وأنت أكثر واحدة متأكدة من ذلك ؛ ولكني سأحدث صديقتي هندا ؛ لعلها ترشدني لزوج صالح ، وهو مطمع كل فتاة تؤمن بالله واليوم الآخر أمهلوني بضعة أيام .. أقل من أسبوع بمشيئة الله تعالى .. ما تقول يا أبي ؟

فقال الأب باستسلام كامل لشروط ابنته : أقبل اختيارك لأي شاب ؛ لكن على أن يكون متعلما ومتخرجا من إحدى الجامعات ، فعندئذ أنا موافق .. هذه حياتك ، وافعلي ما ترينه مناسبا .. خلال أيام أريد أن أنتهي من هذه المشكلة .. أرجوك يا فوز !

مسحت فوز دمعات حارة تساقطت على خديها وهي تسمع ردة فعل والدها ، وقالت بتنهد عميق: الخيرة فيما يختاره الله ..أيام يسيرة وسأحل مشكلتي أيها الوالدان القاسيان!

قال سامي ظانا أنه قد حقق الضغط الكامل على فتاته : اتركي ما أنت فيه من هذه الأحوال، واخلعي هذه الأسمال المقرفة المقززة ، وعودي للحياة الحلوة الجميلة نعرض عن الزواج .

فقالت فوز : صديقتي جميلة ماذا أصابها من الحياة الحلوة ؟! قل ..

فقال سامي مقاطعا وبنبرة حادة وغيظ : دعينا من جميلة.. وعجلي في الأمر الذي اتفقنا.. لم أعد احتمل جو هذا البيت .. حياة عصرية .. وصلاة وصوم لا تنسجم في بيتنا هذا هل تدركين ذلك ؟

قالت فوز : لم تعد تحتمل رؤيتي وسماعي .. ما أقسى قلبك ! أنا قد أعذر أمي وطباعها، فهي قد ولدت هناك ، ورأت تحلل أسرتها واندماجها في حياة الغرب، أما أنت فقد ولدت هنا وترعرعت هنا ، ثم تيسرت لك الدراسة في تلك البلاد فلماذا لم تحافظ على إسلامك ؟!

فهز الدكتور سامي رأسه ونهض قائما وقال : هيا بنا يا شادية !

وغادراها ولم يعقبا على كلامها الأخير .

وعند غروب شمس ذلك النهار ركبت فوز سيارتها منطلقة لبيت صديقتها هند ولما جلست معها روت ما جرى لها مع أسرتها ، وكانت هند قد علمت كثيرا من التفاصيل عن أسرة فوز ، وأحوالهم ورغبتهم العجيبة بتزويجها لإنهاء مشكلتهم مع توبتها وأوبتها ، وكل ذلك علمته من فوز نفسها ، فلما أنهت فوز حديثها عما جرى بينها وبين والديها، والاتفاق الذي تم بينهم ، وكانت تروي الخبر والدموع تتساقط من عينيها والنشيج يخرج من حلقها ، وهند تخفف من مصابها وهمها ومن الضغط النفسي الواقع عليها ، ثم خاطبتها قائلة: هوني عنك أيتها الأخت! فالإيمان تضحية واختبار وابتلاء ، ولا تكرهي شيئا ، فالأمور كلها بيد الله وحده ، المهم يا فوز أنّ أهلك يرغبون بخروجك من مجتمعهم الفاسد ، فقد أصبحت كابوسا يجثم على صدورهم إنّ الشيطان هكذا يصورك لهم ، لا أدري ما هي الحرية التي يتغنى بها هؤلاء الأغنياء ؟! هل تمسك الفتاة بدينها ينافي الحرية ؟! ولكنهم قد طمس على أعينهم المال وفتنة الدنيا وشهواتها ، وهل يوافق والدك على أيّ شاب ترضينه أنت إذا تقدم إليك خاطبا ؟ .

قالت فوز : المهم أن أبتعد عن البيت ، لا يريدون سماع كلام الله ،..إنهم لا يريدون سماع آيات القرآن تتلى في البيت أو أترك التدين.

قالت هند باستغراب: إلى هذه الدرجة لا يحبون شعائر الإسلام ! كنت أرى أنّ هذا النفور موجود في شباب الأحزاب الشيوعية الماركسيين فقط ، أما العلمانيون كنت أظن أنهم لا يبغضون هذه الشعائر من الصلاة والصوم واللباس الشرعي .

قالت فوز بحزن وأسف : للأسف أنا أعرف أنّ والديّ ينفران من هذه الأشياء من قبل أن أتوب إلى الله ؛ ولكن إلى هذه الدرجة فهذا لم يخطر في بالي.. لنا قريب شيخ كبير كان أحيانا يزورنا بصحبة ابن له يعمل في أمريكا ، فعندما يأتي هذا الابن من الغرب يجيء للسلام على والدي ، فيصحبه في هذه الزيارة أبوه الشيخ الكبير ، فيرفع الآذان من مسجد الحي ، فيقوم

الشيخ للصلاة ، فأسمع أبي يعلق ساخرا : يا أبا ناصر! ما زلت تصلي ، لقد نسيت الناس هذه الطقوس .. ويأخذون في السخرية من الصلاة والآذان ومدفع رمضان ، كنت أظن الصلاة يومذاك تخلفا وجهلا ، وأنّ الصلاة للشيوخ الكبار فحسب .. استغفر الله .. مشاهد مؤلمة تمر في مخيلتي اليوم .. كنت لا أكترث لها يا صديقتي العزيزة ! .. هل من حل عندك يا هند ؟

قالت هند بصراحة وبعد برهة من التفكير والصمت : سأكلم أخي مهديا عنك أترضينه يا فوز؟!

حملقت فوز في عيني هند لحظات وقالت وهي في حالة اندهاش : أخوك مهدي ذاك الشاب المتشدد يرضى بي؟!..هل مثل هذا الشاب يفكر بالزواج ؟! هند أنا لم أنس ما فعلوه أمام الحاكم منذ شهور ، وما عرضوه عليه أثناء الاحتفال ، وطلبهم منه تحكيم القوانين الإسلامية والإسلام سلوكا وشريعة على العباد ، وغضب الحاكم عليهم يوم ذاك ، وقد سمعنا عن الشغب الذي حدث في ذلك اليوم .. مهدي يرضى بي أنا فوز نصار ؟!

فقالت هند : ومن ذلك اليوم وأجهزة الأمن السرية تطارده ، وكاد أن يقع بين أيديهم منذ أيام وهل الشرع يمنعه من الزواج ؟! ..صحيح أنه يحمل أفكارا لا تعجب حكامنا ؛ ولكنه إنسان له قلب .

فقالت فوز متفكرة متذكرة : لقد رأيته مرتين .. مرة عندما كنت أتردد عليك وأنا ألبس ملابس الكاسيات العاريات ، فدهش من رؤيتي وحياني بحياء ، ولما سألتك من هذا يومها ؟ قلت إنه مهدي شقيقك ، وكان يومها خارجا من البيت ، وأما المرة الثانية رأيته في الجامعة عندما جاءك لغرض ما.

قالت هند باسمة: نعم ، هو هذا مهدي مروان ، وسيدهش عندما أعرض عليه الزواج منك ، لقد كان يظن في أول الأمر يا فوز! عندما اقتحمت علينا حياتنا وبيتنا أنك تعملين مع أجهزة الأمن ، وأنهم دفعوك للتجسس علينا ، وأنك مجندة للأمن السياسي .

فقالت فوز بدهشة : أوه ..هل هذا هو تفكيره ؟!

قالت هند : أنت تعرفين شباب الأحزاب الإسلامية ، فهم يخشون اختراقهم من قبل رجال الأمن ، فكان مهدي يذهب إلى ذلك التفكير ؛ ولكنه لما حدثته عن قوة توبتك ، وأنك جادة في التغير دعا لك بالثبات والنجاح .. وسوف تكون مفاجأة له عندما أخطبه لك .

فقالت فوز: أشكرك جدا ، فهذا دليل آخر على حبك لي حبك الكبير ، متى أسمع رده يا أختي العزيزة ؟

فقالت هند: فكما تعلمين أنه ما زال مطاردا منهم ، وبيتنا ما زال مراقبا ؛ ولكنه يتصل بي غالبا فعندما يتصل كعادته سأسر له بالأمر ، وأتصل بك لترتيب الأمر .. أمر هذا الزواج العاجل

فقالت فوز : كأنك واثقة من موافقته .

فقالت هند وهي تبتسم : ولـمَ لا يوافق ؟! فأنت فتاة جميلة وذات دين .. وتمرين بظرف صعب وهو يمر بظروف مماثلة ، وهو يسكن في منزل وحيدا فتسكنين معه حتى تكف الحكومة عنه ، ومهدي لي معزة خاصة في قلبه ، ومهما أطلب منه ينـفذ ، وأرجو من الله تعالى أن يتم هذا الزواج يا فوز ! فأنت تستحقين كل خير ومساعدة .. والحمد لله أنّ أباك موافق على زواجك ممن تختارين ، ولا يريد أن ينظر لمال أو غنى أو فقر .. ومهدي شاب جامعي فهو مهندس .. ومشكلته مع الحكومة سوف تنتهي بإذن الله .

وتعانقت الفتاتان ، ومسحت فوز ما تساقط على وجنيتها من دمع ، وبعد أن صلت فوز العشاء جماعة مع هند ، غادرت عائدة لمنزلها ، وقد خفت الثورة التي في قلبها التائب إلى مولاه عز وجل

هند تتحرك

بعد توديعها لصديقتها الجديدة عادت هند لحجرتها ، وقد استغرقتها مشكلة فوز وأهمتها المشكلة ، وشغلتها عن واجباتها الأخرى ، وكانت مستغربة لموقف أسرتها القاسي معها، ورعبهم من توبتها وإسلامها مع أنهم يحملون اسم المسلمين على كواهلهم وأوراقهم الرسمية، حتى أنهم يرغبون بتسفيرها خارج البلاد ، أو تزويجها بأسرع حين لئلا يشاهدونها تعبد الله وتسمع كتاب الله .. يخافون إيمانها؛ كأنها وباء أصاب البيت .. ألهذا الحد يصل النفور من الإسلام عند هؤلاء القوم ؟! لماذا يبغضون الدين ؟! أهذه هي العلمانية والحرية الفردية التي يترنمون ويتغنون بها ليل نهار؟! كان من الأجدر أن يروا ذلك نورا بزغ وأشرق في بيتهم وساحتهم .. هل الانغماس في اللهو والموبقات يفعل كل هذا الكره للدين ؟!

ولكن الناس في هذا الزمن يصدر منهم العجب العجاب من الغرائب والأفعال والأحوال، وعندما تتحدث وتتحاور مع هذه الأنواع من البشر.. وتكلمهم عن الحرية وحرية العبادة والاعتقاد يردون عليك بصلف " أن التدين يشكل خطرا على العلمانية والحرية والديمقراطية والفن " .. لماذا ؟!

ها هم الغربيون الذين يقلدهم هؤلاء الناس ، ويتبعونهم يسمحون للناس بالعبادة وزيارة المعابد والتردد عليها وإظهار شعائر أديانهم إلا في بلاد المسلمين يشكل التدين خطرا على الحرية ودارت في ذهنها ودماغها أفكار كثيرة ثم همست بصوت منخفض : أيقبل مهدي بالزواج وهو في مثل هذا الظرف؟! أيقبل بالزواج من الآنسة فوز سامي؟! هل هي الزوجة المناسبة للمهندس مهدي يا هند ؟! .. فتاة مثلها وفي سنها تترك الملذات والمال تستحق المساعدة .. كل المساعدة .. تستحق أن نقف معها ونشد أزرها .. حبيبتي فوز .. ألقيت حملك عليّ ..لماذا لا يتزوج ؟! ألم ينتهِ من الدراسة ؟ وهل يجب ويلزم العمل قبل الزواج ؟ .. وأمر الحكومة والاختباء سينتهي كما انتهى غيره من الاختباء والاختفاء .. وعندما يعتقل كما اعتقل كثيرا من المرات سيحبس بضعة شهور وينتهي الأمر .

هل هو الزوج المناسب لفوز؟ ربما قبلت اضطرارا وخجلا مني .. فهو شاب يحمل فكرا حركيا يسعى بقوة واندفاع نحو عودة الحياة الإسلامية للمجتمعات الإسلامية .. وكثير من شباب الإسلام في الشرق والغرب يسعون لهذا الهدف .. مجتمعات تعج بالأحزاب العلمانية من قومية واشتراكية لماذا لا يكون هناك أحزاب إسلامية ؟!

أمضت الفتاة ساعة أو أكثر وهي تدرس موضوع اقتران مهدي وفوز .. فظروف مهدي هذه الأيام صعبة وقلقة .. وفوز تمر في ظرف غريب وصعب إما التخلي عن التدين وإما الزواج .. فوز فتاة تابت من عهد حديث وهي بحاجة للدعم .. ولكن هل تناسب مهديا المتمسك بدينه وصلاته منذ نعومة أظفاره ؟.. أخي مهدي يسمع كلامي وآرائي .. وفوز طيبة ومحبة للتدين والدعوة رغم حداثة التزامها بأمر الله ونهيه.. لقد تركت كل هذا الإغراء والمدنية وراء ظهرها وتمسكت بالإسلام .. إنها تريد الإسلام الحقيقي .. لقد كانت سنة عاصفة ومهمة في حياتها .. صحيح أن مرض صديقتها جميلة وموتها أثرا فيها ودفعاها للتفكير بالمرض والموت والبحث عن السعادة الحقيقية ؛ ولكن تأثيرها بعد كل هذه الشهور لابد أنه خف وضعف .. فكم يمرض من الناس يوميا ؟ وكم يدفنون من الموتى ؟! .. إنها تريد الله سبحانه ! ..فزواجها من مهدي سيساعدها كثيرا في الثبات والقبض على دينها .. الفتن كقطع الليل المظلم .. ولكن المشكلة ظروف مهدي وصراعه مع النظام والأمن

اتصلت بأخيها معتصم وطلبت منه إذا اتصل به مهدي أن يتصل بها لأمر هام ومثير .. والتقت هند بأخيها مهدي في منزل إحدى خالتها ، وترك لهم محمد ابن خالتهم حجرته ، فشرحت له سبب هذا اللقاء المهم والمشكلة التي تحاول حلها ، ورغبته بالاقتران من فوز وبينت له أن القضية ليست قضية شفقة وعطف .. والعرسان لدى والدها كثر؛ ولكنها ترغب بزوج صاحب خلق ودين لتحافظ على توبتها ودينها وأخلاقها .. وأنها قد ألقت حملها على هند ورأت فيها الصديقة التي تستطيع مساعدتها والوقوف بجانبها في هذه المحنة والتحدي .. وأبوها لم يشرط عليها إلا أن يكون العريس متخرجا من جامعة فقط .. وعندما يعلم الرجل باختيارها لمهدي سيقبل

باختيار ابنته .

قال مهدي : ومشكلتي مع البوليس السري ؟

ـ فوز تعرف ذلك .. ولم تعترض على اختياري لك ، ولا على ظروفك .. إنما استبعدت قبولك أنت الملتزم والمتشدد في نظرها ونظر الكثير في الرضا بها قرينة .. الوضع ليس طبيعيا مائة بالمائة وبعد مناقشة الأمر من جوانب مختلفة .. والحديث عن حياته المضطربة هذه الأيام ، وقد يعاقب ويحبس هذه المرة أكثر من المرات السابقة .. وهونت عليه هند الأمر ، وأنها ستضع فوزا بالصورة القاتمة.. وأن المشاكل مع الأمن السري ستنهي يوما ما ، وأن الزواج مصير الكائن الحي ، وأن هذه الظروف لا تقف عائقا أمام مشروح الزواج العاجل.. وفي نهاية اللقاء استسلم مهدي لأفكار هند بالزواج من فوز في هذه الظروف .. وتناولوا الغداء مع خالتهم وابنها محمد الشاب الذي يدرس هو الآخر في كلية الهندسة .. ولما عرض الموضوع على محمد ، شجع بدوره مهديا على الزواج رغم ظرفه وقال أيضا : فوز فتاة شجاعة بما سمعت منكم عنها .. فهجر مغريات الدنيا في بيئة كبيئتها شجاعة يا مهدي .. وإن كنت تخشى ما يسمونه المستقبل ففوز لم تتلوث كثيرا ببيئتها .. فمن كلام هند عنها فهي جادة في الابتعاد عن حياة وطباع والديها وجيرانها .. فلا أعتقد أن هندا تتحدث عنها بعاطفة فحسب .

قالت هند : والله أنا أحببتها في الله عزّ وجل .. وأتمنى لها كل الخير.. ولم يخطر في بالي أن تكون زوجة لأخي الفاضل .. ولكن تسارع الأحداث بهذه العجلة ولجوئها إليّ ، ودموعها بين يديّ كل هذا دفعني لعرض الموضوع على مهدي .. فأنا صحيح أعرف كثيرا من الفتيات والصاحبات ولكني لا أعرف إخوانهن .. ولم يخطر في بالي لحظتها إلا مهديا .. فحدثتها عنه فسرت ، ولم ترفض بل وافقت وقالت " متى يكون رده ؟! "

فضحك محمد وقال: هذا من حبها وتقديرها لك يا هند .. لا أحد يتعرف عليك ويكرهك .. كلنا يعرف علم هند وتدينها وثقافتها .

حدث في ليلة الزفاف

هذا ما فعلته هند بعد أن انصرفت من عندها صديقتها فوز التي رمت حملها على هند ، أما ما حدث لفوز بعد لقائها الأخير بهند ، فقد دخلت عليها شادية في الصباح التالي ـ بعد انطلاق سامي سبل إلى مكان عمله ـ دخلت حجرة ابنتها فوز فوجدتها تقرأ القرآن ، فألقت عليها تحية الصباح ، ثم جلست على كرسي في غرفة فوز الخاصة ، فأغلقت فوز المصحف ، ورحبت بوالدتها ، وأخذت بالاستماع لحديث والدتها التي قالت : لقد اعتذر والدك للأستاذ عمار عن الزواج أمس ، وذلك بعد أن بين له رفضك الشديد ، وأن ابنه يتعاطى المخدرات القاتلة ، فأنكر الأستاذ عمار أولا ثم اعترف أنّ ولده أدمن عليها فترة ، ثم أقسم لأبيك أنّه تركها وما عاد يتعاطها ؛ ولكن أباك تمسك بالرفض والاعتذار ، وأنه عندما وافق مبدئيا كان يجهل ذلك الأمر وتعلمين أنّه فعل ذلك من أجل أن ترضي عنا .. وأنت ماذا فعلت ؟.

وضعت فوز المصحف الذي بين يديها على مكتبها وردت على أمها فقالت: أمي!.. أما فكرت يوما بالتوبة يا أماه؟!..أما فكرت بترك حياة اللهو والمجون؟!

فصاحت الأم بغيظ: فات الأوان يا بنيتي! يكفي أننا تركناك تفعلين ما تشائين، ونحن نريد أن نثبت لك أننا مع حرية المرأة الكاملة ، ورخصنا لك باختيار زوجك هل دبرت أمرك ؟.. نريد أن نخلص من هذه المشكلة قبل مجيء سميرة وابن خالك فارس الدكتور مازن .

قالت فوز: أنتم الذين صنعتم من التزامي بديننا مشكلة ؛ كأنني دخلت في الإسلام من جديد نعم يا أمي! الحمد لله ، دبرت أمري ، وكلمت صديقتي هندا في الموضوع .. فلها أخ متدين جدا وهو متعلم .. مهندس قد تخرج حديثا منذ أشهر يسيرة .. ووعدتني هند بأنها سترتب الأمر معه ، وأرجو من الله أن يوافق ، فهو شاب شجاع وجريء ، ويقربني من هند أكثر.. آه يا أمي! كم أحببت هذه الفتاة !

تنهدت الأم وقالت: آه! .. وكم أكرها وأبغضها وأحقد عليها! لأنها سبب فسادك وتمردك علينا فابتسمت فوز وقالت: ألانها أنقذتني من النار؟! أتحبين أن أكون وقودا لنار جهنم يا أمي ؟!

قالت شادية وهي تصر على أسنانها : أيٌّ تفكير تفكرين ؟! كيف تفكرين يا فوز؟!

قالت فوز : هناك حساب بعد الموت ، ولمَ تهربين من الحقيقة ؟!

هزت الأم كتفيها ثم رسمت ابتسامة على وجهها ؛ وكأنها فطنت لشيء خفي من اختيار فوز لشقيق هند : فوز ! ألم ترتبي الأمر مع هذا المهندس من قبل ؟! .. ألا يوجد بينك وبين هذا الشاب علاقة عاطفية ؟! حكاية ما ، وهي التي غيرتك وبدلتك وقلبت كيانك .

قطعت فوز استرسال أمها بالكلام والشك والاتهام قائلة : لا ، يا أمي ! .. لم أتب من أجل أن أصل لقلبه .. بل والذي خلقني وخلقك ما رأيته إلا مرتين ، وما تكلمت معه أبدا ولو كلمة واحدة .. وأجلوا أمر الزواج ، وأنا سأعتذر لهند وله ؛ لأثبت لك أنني لا أهتم بالزواج الآن ، بل أنا أنتظر رده .

فقالت الأم بسرعة وبكشرة : لا تفعلي ذلك .. فأبوك يريد أن ينتهي من الموضوع بسرعة ، فهو متضايق منك جدا .. المهم رضاك علينا ، والزواج أبوك مصمم عليه ؛ لأنه يئس من عودتك لحياة المرح والفرح والرحلات .. فأي إنسان ترينه مناسبا لك ..فنحن موافقون عليه .. نحن يا فوز! لسنا قساة القلوب ، ولكن نمط الحياة التي تعودنا عليها منذ أربعين سنة ، لا يمكن تغييرها من أجل صدمة أثرت عليك ، فكم من الصديقات مرضن بالسرطان وغيره ، أو متن بحادث سير مرعب ، فلم يؤثر فينا ذلك إلا بضعة أيام ، وعدنا للحياة ، فوالدي العزيز مات بسرطان الكبد من كثرة ما شرب من الكحول ، ثم نسيناه ، فالفرح والمتعة أفضل من الحزن واليأس من الحياة .

همست فوز قائلة : الدين لا يمنع الفرح والمتعة ، ولا يقيد الحرية كما يشاع ..ألا تؤمنون بالآخرة ؟! الدنيا تحتاج والحياة الثانية تحتاج .. ربنا طلب منا ألا ننس نصيبنا وحظنا من الدنيا هناك زواج ، فلماذا الزنا ؟! وهناك الشراب المباح ، فلم الخمر ؟! هناك الطيبات ، فلم الخبائث؟! .. فالمؤمن ليس أنانيا ، فهو كما يحب الخير لنفسه ، عليه أن يحبه للآخرين ، فأنا أحب لكم الخير والفوز برضا الله .. ألستم أبواي ؟!

ردت الأم بغير مبالاة كطبيعتها التي تأقلمت وتكيفت عليها : لا تشغلي قلبك علينا ، نحن اخترنا طريقنا وحياتنا، ونحن لن نتخلى عنك ، فستبقين ابنتنا الغالية، فاحيي حياتك كما تشائين وترغبين ، ونحن نعيش حياتنا كما نشاء ونشتهي.. متى سترد عليك الآنسة هند هذه ؟

قالت فوز : اخبري أبي أن الأمر سينتهي قريبا .. أنا متألم ومتضايق للغاية من تصرفكم ، وأكره حياتكم الماجنة وضلالكم .

أجابت شادية بجفاء : لو تركت هذه الخزعبلات التي تمارسينها ، لما جرى ما جرى ، ولا يهمنا كرهك لحياتنا وفسقنا كما تقولين، كلٌ يحيا الحياة التي يرتاح إليها، وعلى الصورة التي تعجبه ويحبها .

وتركت الأم غرفة ابنتها ، واتصلت بزوجها واختصرت له ما فعلته فوز، وعند الغروب تلقت فوز مكالمة هاتفية من صديقتها "هند مروان" تزف لها الموافقة والبشرى ، واستعداد مهدي للزواج رغم الظروف الصعبة المحيطة به ، واتفقتا على يوم يتعارفون فيه ، ويتحدثون مع والدها في الموضوع ، ليتم ترتيب يوم عقد الزواج والزفاف .

ولقد قام مهدي وأخوه معتصم وزوجته أم محمود وأخوهم الكبير محمد وزوجته وهند بزيارة ليلية إلى بيت السيد سامي ، وجرى التعارف بين سامي وصهره مهدي ، ورحب بهم الرجل ترحيبا كبيرا ، وأبدى الدكتور سامي ترحيبه الكبير بمهدي وأخويه ، وبارك له هذا الزواج ، واعتبر اختيار فوز لهذا الشاب اختيارا موفقا ، فهو في قرارة نفسه كان يخشى أن تأتيه بشاب غير متعلم في جامعة فقير معدم طامع بثروته ؛ ولكنه لما تعرف عليهم سر لاختيار هند وفوز ، وخلال أيام قليلة التقوا أمام إحدى المحاكم الشرعية ، وعلى يد قاضي المحكمة تم عقد القران حسب الأصول والأنظمة المرعية ، وتقرر أن يقوم أهل فوز بحفل عائلي متواضع جداً ، حفلة وداع لفوز مساء يوم اتفقوا عليه ، ثم يأتي المهدي ومعه عدد يسير من السيارات ، ويأخذون العروس من غير صفير وتصفيق ، ومن غير ضجة وضجيج ، وبدون أبواق ونفير بناء على رغبة العروسين .

ولما علم أقارب سامي بهذا الزواج الغريب والعاجل دهشوا ، وتقولوا حوله الأقاويل ، واعتبروه زواجا سريا وشاذا ، فهم كانوا يرون الدكتور سامي يحتفل بعيد ميلاد فوز سنويا في فندق ذي خمسة نجوم أو نادي خاص ، وجن جنونه عندما رفضت فوز الاحتفال بعيد ميلادها العام الماضي ، واعتبرت فوز هذا الاحتفال تقليدا للغرب ومحاكاة للنصارى ، ولم يفعله المسلمون الأوائل .

ولقد جهز المهندس مهدي مروان بيته المستأجر بالأثاث المناسب ؛ وذلك بمساعدة والده وإخوته للظروف التي تلم به، وقد أحس بها القراء في مطلع القصة، وفي مساء يوم الخميس ، بعد صلاة العشاء ، خرجت ثلاث سيارات صغيرة من بيت مروان والد مهدي ، تحمل أفرادا من أسرة مروان لإحضار العروس من بيت والدها لبيت الحاج مروان ؛ ليتم الاحتفال بالزواج ثم ترسل العروس بعد الاحتفال لمنزل مهدي المستأجر ، وقد خطط ليكون حفلا بهيجا من أجل خاطر فوز ، وستقوم صديقات هند وأهلها بالواجب .

ولما ابتعدت السيارات عن منزل الحاج مروان ، غيرت إحدى السيارات طريقها نحو مسكن مهدي المختفي فيه عن عيون رجال الأمن السري ، فوجد سائق السيارة التي غيرت خط سيرها باتجاه منزل مهدي مهديا في انتظاره ، فحيا مهدي ابن عمه مالك عبد العزيز الذي طمأنه أنّ الأمور تسير على خير ما يرام ، فشكره مهدي ، ولحقوا بالسيارتين الأخريين قبل وصولهما لقصر الدكتور سامي ، وهناك أمام القصر الكبير وقفت السيارات ، فهبط معتصم وزوجته ، وأخوه هلال وزوجته سماء من السيارة الأولى ، ونزلت من السيارة الثانية هند وأحد إخوتها وبعض أخواتها ، ونزل من السيارة الثالثة مهدي وابن عمه مالك ، ودخلوا القصر ، وكان في استقبالهم الدكتور سامي المالي الكبير ، وكان معه في الاستقبال شقيقه سمير، وتقدمهم الدكتور إلى قاعة واسعة في القصر حيث يجلس ضيوفه من الأقارب والأصدقاء المقربين ، وصعدت هند والنساء اللواتي برفقتها إلى الطابق الثاني حيث تحتفل شادية ولفيف من النساء بوداع العروس .

وقد قام سامي أمام لفيف الأقرباء بتعريف سريع للمهندس مهدي مروان ، وبارك له الأقارب

والمدعوون بهذا الزوج ، وتمنوا لهم التوفيق والسعادة ، وبعد أن شربوا قهوة العرس ، كانت النساء قد هبطت من الطابق العلوي وهن يمشين خلف العروس الجميلة التي كانت تمسك بيد هند ، ولما صرن في القاعة الكبيرة وقفن برهة من الزمن يودعن فوزا ، ويدعون لها بالبركة والتوفيق ، ويباركن لأمها بهذه المناسبة التي ما رؤيت باسمة خلال ذلك الحفل .

ووقف مهدي وإخوانه يشكرون الدكتور سامي وأقاربه، ويتهيئون للخروج، عندما تقدم رجل أشيب فجأة مندفعا نحو مهدي ، ووضع يده على كتف مهدي أمام دهشة الجميع ، وهو يقول بتوتر ووجه عابس : أنت كما قيل منذ دقائق تدعى مهدي مروان .. طالب في كلية الهندسة وكان تخرجك قبل شهور .. أليس كذلك ؟

التفت إليه الجميع واجمين ، وقد خيم السكون على المكان ، وقال مهدي بهدوء : نعم يا سيدي أنا هو المذكور ؟!

فقال الرجل الأشيب بصوت عال نوع ما ، ومسموع لكل من في القاعة ذكورا كانوا أو إناثا : أنا العميد زكريا داود من مرتب الأمن السري .. ألقي القبض عليك باسم الحاكم الكبير للقطر لإثارتك الشغب وإهانة السلطات والحكومة .

ثم صاح بصوت مزعج وبانفعال شديد : أيها الناس ! هذا رجل مطارد ، ولنا مدة نبحث عنه ارتبك الحاضرون للمفاجأة ، وظهر الذعر والقلق على هذا الحفل المتواضع فقال مهدي بهدوء أعصاب : أتريد القبض عليّ .. أنا بين يديك ؟!

طلب العميد زكريا من ابنه أن يتصل برقم ما على الفور ، ويطلب سيارة أمن لاعتقال الشاب وكان سامي في غاية التوتر والقلق والحنق لهذه المفاجأة ، وكان ينظر لفوز بحنق وغضب يكاد أن ينفجر في الجميع

وفجأة تركت فوز يد هند وقالت العروس أمام ارتباك الحاضرين: أيها السادة ! هذا زوجي أولا ، وأنا أعرف أنه مطارد من رجال الأمن والشرطة .. أتعرفون لماذا هو مطارد؟.. لأنه يطالب هو وثلة من أصدقائه حاكمنا العتيد بتطبيق شريعة الله على العباد .. هو ليس لصا أو مرابيا أو

سكيرا أو متعاطيا للهيروين ..إنه شريف يقول الله ربي .

فقالت هند متأثرة بدفاع فوز ومعجبة بها وبشجاعتها : أحسنت يا فوز! وبوركت من الرب عزّ وجل ، وجزاك الله خيرا .

وهنا قال مهدي بصوت مرتفع : يا فوز ! اذهبي مع أهلي ، فأنت زوجتي ، وأنـتم يا معتصم! أتموا الفرح وحفل الزواج كأنني بينكم ، ولن تطول غيبتي ـ إن شاء الله ـ في مظالم وظلام هؤلاء الأتباع ..هيا خذوا فوزا وانصرفوا .

لم يتكلم والد فوز بل لزم الصمت ، وخرجت فوز والأخوة أمام صمت وذهول الجميع ، وركبت فوز مع هند ، وفي ذلك الحين وصلت سيارات الأمن ، وقبل أن يبتعد أهل العريس بعروسهم ، كان ضابط الأمن الذي اقتحم شقة معتصم منذ أسابيع يترجل من سيارته ، ويستلم مهديا من العميد زكريا وهو في غاية الدهشة مما جرى ، وتمنى النقيب ساري كما همس في أذن مهدي "أن لا يكون قد قبض عليه في يوم كهذا" .

وأدرك الضابط أن الصحافة أو صحافة المعارضة ستعمل من الحدث دراما ، يتحدث عنها الناس أياما وليالي ، وسيكتبون مانشتات صحفية مثيرة .



والد مهدي

كان والد مهدي الحاج مروان قد أمر بتجهيز غرفة مهدي في بيته الكبير لتسكن فيها العروس حتى يخرج مهدي من معتقله ، ومع ما كانت فيه العائلة الكبيرة من ضيق وهم من اعتقاله وتوقيفه ، فقد كانوا مسرورين من عروسه ومن شجاعتها وثباتها ؛ فإنها لم تحاول البقاء في بيت والدها ريثما يخرج الزوج المعتقل .. أما هم فقد اعتادوا على المضايقات التي تحصل لهم بسبب نشاط مهدي وحماسه نحو الدعوة إلى عودة الحياة الإسلامية في المجتمعات المسلمة ، وبروز أحكام الشريعة الغراء في حياة الناس، والابتعاد عن مظاهر محاكاة وتقليد الكفار والغرب.

استقبلت فوز وفدا من طالبات كليتها أتين لتهنئتها بمناسبة زواجها من مهدي ، وكان من ضمن الوافدات أسماء قريبة هند كما يعرف القارئ المحترم ، فاستقبلتهن فوز في صالون البيت بيت والد مهدي .. وبعد الترحيب وتبادل التهاني المعتادة أخذن في الثرثرة حول ظروف هذا الزواج العاجل والذي جرى ليلة زفاف العروسين من القبض على العريس واعتقاله ، حتى أن إحدى الفتيات همست في أذن فوز قائلة : "إنهم يشيعون في الكلية والجامعة أن أهلك شاركوا في مؤامرة القبض على مهدي .. وبعضهم يتهمك بالتواطؤ في عملية الاعتقال!"

ضحكت فوز لهذه الإشاعة السخيفة وقالت معلقة وبصوت مسموع للفتيات الزميلات كلهن: وكان زواجي من مهدي مروان من ضمن اللعبة أو المؤامرة .. عقول سخيفة !.. الأمر حدث صدفة إذا جاز استخدام هذا التعبير .. قدر الله وما شاء فعل ..أصلا يا عزيزاتي أهلي لا يعلمون عن مهدي إلا أنه شاب متدين ، وأخ لهند ومتخرج حديثا من الجامعة ..لا يعلمون أنه من شباب الحزب الإسلامي .. على كل أنا سأعود للدوام والحضور مطلع الأسبوع القادم، وأسمع كل هذه الشائعات بنفسي .

فقالت أسماء : والله ألف مبارك يا عروس .. قصة زواج مثيرة .. لم تخبرينا بشيء قبل الزواج .

أجابت فوز باسمة ومعتذرة في نفس الوقت : حدث الأمر بسرعة وعجلة .. وعتبك أنت ليس عليّ إنما عتبك على هند ابن عمتك .. بل الأولى أن يكون على أختك سماء .. زوجة هلال

ضحكت أسماء وقالت: لقد سمعت بذلك في البيت ؛ ولكني لزمت الصمت لظرف مهدي ؛ ولانشغالك بالتجهيز ؛ ولكثرة غيابك خلال الأسبوع الفائت .. أين هند؟ .. كل هؤلاء الحسناوات أتين للتهنئة أولا ثم لرؤية الأخت هند والتعرف عليها.

قالت فوز: أهلا وسهلا .. أخبرتها بأمر هذه الزيارة ، وهي مع عمتي مشغولة بالمطبخ وستأتي بإذن الله .. يا مرحبا بصديقات الكلية .

قالت أسماء وهي تنهض قائمة : اسمحن لي أيتهن الزميلات بالدخول للسلام على عمتي .

وانصرفت للسلام على عمتها أم محمد والدة مهدي .

ولما عاد الهدوء للغرفة قالت إحدى الفتيات : إن شاء الله ، يا فوز ! أن تكون حياة سعيدة ، متى الغداء لقد شبعنا من هذه الفواكه .. لقد أنبأتنا أسماء بأنك هيأت لنا غداء خاصا .

كانت فوز قد أعدت الفاكهة والعصير والقهوة المرة ووضعتها في الصالون قبل مجيء صويحباتها حتى لا تنشغل عن صاحباتها بالذهاب والإياب لإحضار الضيافة والشراب .. كررت فوز الترحيب بهن ثانية وهي باسمة المحيا وقالت : سنتغدى إن شاء الله .. اصبرن رويدا !

ردت الفتاة التي استعجلت الغداء : إنني يا فوز مستعجلة في الانصراف لشأن .. فهذا ما دفعني للحديث عن الأكل.. وأنا لم أحب التخلف عن هذا اللقاء الجميل.

فقالت فوز : الشكر لكنّ جميعا .. اصبري قليلا .. ألا تحبين أن تري هندا ؟

وأخذت فوز تحدثهن عن قصة زواجها العاجل وملابسات هذا الزواج ، وبينما هن يصغين لحديث فوز دخلت عليهن هند تحمل عددا من الأطباق الفارغة فقمن يرحبن بها ، ووضعت هند أطباق الطعام على مائدة كبيرة ، واستدارت ترحب وتسلم عليهن بعد أن أخبرتهن فوز قائلة وقد بدت مسرورة من وجود هند: هذه هي العزيزة هند .. حبيبتي هند !

فتعرفت عليهن هند ، وأظهرت شكرها وامتنانها لهن على مجيئهن ، ودعتهن لأكل المزيد من الفاكهة ، وبينت لهن محاسن تقديم أكل الفاكهة على الطعام ، واختصرت لهن آداب الطعام والضيافة في الإسلام والسنة ، وذكرت لهن طعام أهل الجنة ولباس أهل الجنة ونعيم الجنة

باختصار مبين .. فهند فتاة تجعل من كل مجلس لها مع الناس مجلس دعوة وعلم وتذكير .. وفوز مسرورة منها ، وتعرف هذا الأسلوب منها ، فكانت تبتسم رغم المحنة التي تحيط بها .. وتحدثت هند في ذلك الموضوع مدة عشر دقائق ، كان فيها من التشويق والترغيب مما أسال اللعاب إلى تلك الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ..

وأقبلت أم محمد تحمل بعض الطعام وخلفها أسماء تحمل المزيد منه ، وخلال دقائق كانت الأفواه تشتغل بأكل الطيبات ، وقد تعرفن على حماة فوز السيدة أم محمد خلال تناول الطعام التي سرها اللقاء بهنّ وتمنت لهن السعادة في الدارين .

ولما انتهين من الطعام وفرغن منه ، قالت لهن هند ضاحكة : الآن اسمعن أيتهن العزيزات الغاليات هذه الحكمة ..

فالتفتن إليها مصغيات ، فقالت وما زالت باسمة الوجه: يروى أن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال لابنه الحسن ـ رضي الله عنه ـ يوما: " لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع ، وقم عنه ونفسك تشتهيه ، وجود المضغ ، وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء (الحمام) .. ، فإذا استعملت هذا ، استغنيت عن الطب " .. هذا نصيحة بهذه المناسبة ، وأنا لم أقلها حتى فرغتن من الطعام ، حتى لا تقلن إن هندا روت لنا هذه النصيحة حتى لا نأكل كثيرا ونشبع بسرعة .. وتتهمنني بالدعوة للبخل .

فسرى بينهن الضحك والبسمات وقالت إحداهن : والله مشكورة يا هند .. أنت فتاة دمثة .. أنا اعبر لك عن امتناني لكم وإعجابي بك وبفوز .

وأخذ الحديث هذا المجرى حتى فرغن من نقل الصحون والأوعية للمطبخ ، وعادت هند بهن للإسلام والتمسك به والعمل بتعاليمه الثمينة .

ورجعت فوز للدوام في الجامعة ، وقد مرت أيام وأيام على اعتقال مهدي ، وهو قابع في سجن الأمن السري ، حتى ينتهوا من التحقيق معه ، وقد منعوا عنه زيارة الأهل والمحامين ، وذات مساء كانت هند وفوز جالستين تتحدثان في الأمر.

فقالت هند : أتذكرين أول مرة التقينا فيها يا فوز !..كنت تجلسين على حافة سيارتك ، تتكلمين مع ابنة خالي أسماء ، وقد التقينا في ذاك اليوم بتقدير من الله يا عزيزتي ! هل كنت تظنين أنك ستصبحين من أسرتنا وزوجة لأخي مهدي؟! إنّ قدر الله فيه العجب العجاب .

فهمست فوز وكانت ساهمة النظر والفكر ، تفكر في ذاك اليوم الذي التقت به بهند لأول مرة ، وتفكر بزوجها القابع في سجن الأمن الخاص : مسكين مهدي ! .. نحن نجلس على الفراش الوثير ، وهو الآن مطروح في زنازين النظام الحاكم ..

وتابعت تقول كأنها مواسية لنفسها : ولكن على المرء أن لا يكره شيئا " رب ضارة نافعة " كما يقول المثل ..

ثم عادت لما سمعت من هند فقالت : يا هند! إنّ اللحظات التي تذكرينني بها لا أنساها أبدا ؛ ذاك يوم أصبح خالدا في مسيرة عمري ، لقد كنت في ضياع وحيرة .. الإنسان لا يحيا من غير غذاء الروح .. فأنا أرى أنّ أكثر الناس الضالين يلجئون للخمور والمسكرات للفراغ الروحي الذي يعانون منه ، ولضعفهم أمام معالجة مشاكلهم في الحياة .. أختي العزيزة هند! لقد اتصلت بي أمي أمس ، وباركت لي زواجي بعد كل هذه المدة من الحرد ، وأخبرتني أنّ أختي الكبيرة سميرة قد تصل الليلة من باريس ، فهي قد وصلت إليها بصحبة ابن خالي قادمين من أمريكا .

قالت هند : بالسلامة إن شاء الله تعالى .. كيف حال والدتك يا فوز ؟!

ابتسمت فوز وقالت: تقول إنها بخير ، ولا أدري ما هو الخير الذي ينشدونه من حياتهم! .. هداهم الله ، وأخبرتني أيضا أنّ والدي طلب من أحد محاميّ المصرف الاهتمام بقضية مهدي ، وأن يتعاون مع المحامي الذي كلفه والدي العزيز الحاج مروان الأستاذ القانوني إسماعيل أبو حسن .

ردت هند : شكرا لوالدك العزيز .. لقد تعودنا ـ يا فوز ـ على حبس مهدي بين الحين والحين الآخر ، وأنت سوف تتعودين على هذه الآلام ؛ ولكنهم هذه المرة كما علمت من أبي قد يحاكمونه ولا يكتفون بتوقيفه بعض الوقت ، لقد أساءوا للحاكم مباشرة في ميدان الاحتفال الكبير ،

ورفعوا يافطات تطالب بتحكيم القوانين الإسلامية ؛ وذلك دون إذن إدارة الجامعة ، ووزعوا بيانا على المشاركين في الاحتفال يندد بالظلم ، وترك شريعة الله ، كان يوما مثيرا ، فبعض الشباب اتهموا الحاكم بموالاة الكفار، والتعاون معهم على سحق دعاة الإسلام ، ومهدي من زعماء الطلبة في ذلك اليوم الغريب ؛ ولكن لهم الله ، ولن يصيب المرء إلا ما كتبه له الله.

فأخذت فوز بالدعاء لمهدي بالصبر والثبات ، ثم قالت بعدئذ : أنت عزيزة على قلبي يا هند ! وأنا أحببتك في الله.. وأرجو أن تكوني معي صريحة .. هل يتضايق والداك من خروجي للتسليم على أختي ، ونحن نمر في هذه الظروف القاسية .. أرجوك أن تتكلمي بصراحة ومن دون حرج

تطلعت هند في عيني فوز برهة من الوقت ، وابتسمت لها ابتسامة واسعة ، وهتفت قائلة : أنت مؤدبة جدا يا فوز ! وألفاظك مختارة بدقة ، فعندما تذكرين أبي تصفينه بوالدك العزيز ، فهذا لطف وأدب كبير منك ، وعندما تذكرين زوجك الذي لم تختل به أكثر من بضع دقائق منذ أن تعارفتم تغرقين بالدعاء والابتهال له ؛ كأنك عاشرتيه منذ عشرات السنين ، حقيقة أنّ والديك أحسنا تربيتك على اللطف والمجاملة ، فقط الدين قصروا أن يغذوك به .

قالت فوز : شكرا هند .. الدين وحده هو الذي أدبني يا هند! وهو الذي حسن أخلاقي .. أيُّ تربية في لبس الملابس العارية؟! .. والاختلاط مع المراهقين ومشاركتهم في المسبح ، فأيّ تربية يا عزيزتي ؟! أنا تعلمت منك وحدك يا هند ! أنت قدوة حسنة للفتيات وتتكلمين بأدب وحساسية ورقة ...

قطعت هند استرسال فوز قائلة : بارك الله فيك دعيك مني ، فأنا أحبك في الله يا فوز! وتعرفين ذلك منذ تصاحبنا ، وأما بالنسبة لاستفسارك عن ضيق الوالدين من خروجك للسلام على أختك ، فاعلمي يا أختي العزيزة ! أنك لم تعرفينا جيدا بعد ، نحن لا نتعامل بحساسية زائدة في حياتنا الاجتماعية وعلاقتنا مع الآخرين .. نحن علمنا الوالد منذ الصغر أن نـقدم حكم الله وحكم الرسول صلى الله عليه وسلم علي أي تقليد وعادة وعرف ؛ فلذلك قد تكون بعض تصرفاتنا قد بدت لك غريبة ؛ ولكنها موافقة لدين الإسلام .. فالإسلام لا يمنع الابن أو الابنة

من طاعة ورعاية والديها الكافرين فكيف بالعاصيين ؟!..اذهبي إليهما وزوريهما في كل وقت ترينه مناسبا ، وهذا كلام أبي وأمي .. وليس بالضرورة أن تشرفنا أسرتك بالزيارة لنسمح لك بزيارتها ، لكل ظروفه وأحواله الخاصة .. هل لأن والديك لم يحضرا لتهنئتك بالزواج يغضبنا هذا ؟ .. صدقي يا أختي العزيزة ! أننا لا نعتب على والديك ولا نعتبر ذلك تقصيرا ، ولا نكرههما ، ولا نحقد عليهما .. فظروف هذا الزواج كما تعلمين كانت غريبة ، والتطورات التي جرت غريبة أيضا ، فالأمر غير عادي .. هيا بنا إلى حجرة الوالدين لتسمعي منهما ، واعلمي أنّ القبض على مهدي في منزل أبيك ، ومن قريب والدك العميد زكريا ليس ذنبك ، ولا ذنب أبيك ونحن متأكدون أن الأمر صدفة وقدر ، والأدق أنه تقدير الله سبحانه ، ولا نشك ولو يسيرا أن لك دورا في ذلك الأمر ، ولا لأبيك يا فوز ! وتأكدي أن مهديا يرى ذلك مثلنا يا فوز! وكان لابدّ من مسكه في يوم ما ، فهو مطارد كما تعلمين منذ آخر الفصل الماضي ، ونحن حمدنا الله كثيرا أن مشكلته مع الجامعة والنظام جرت بعد انتهائه من مواد الفصل ، وكان ذلك آخر فصل له في الجامعة .. ومهدي مسرور بك جدا مع أنه لم يجالسك إلا بضع دقائق ؛ ولكنه شكرني كثيرا على اختياري لك ، مع أنّ الظروف هي التي جمعت بينكما ، وقبل كل ذلك تدبير وقدرة الله تعالى

قالت فوز وهي تنهض قائمة ، وقد مسحت دموعا تساقطت على وجهها تأثرا بكلمات صديقتها هند : كم أسر وأنا أسمع كلامك العظيم ! وأتمنى لك السعادة يا أختي ! ويسر لك المولى زوجا صالحا تقر به عيناك

ردت هند بحياء المرأة المسلمة : أشكرك .. هيا بنا لوالديّ ليطمئن قلبك، وتتأكدي أنهم مسرورون بك أيتها العزيزة ! ويحبونك محبة الآباء لذراريهم، ويقدرون شجاعتك وموقفك الكبير ليلة العرس !

رحب الوالدان بالفتاتين، وأبدى الشيخ الكبير أبو محمد وزوجته أشد الترحيب بفوز ، وقال الأب والبشر والفرح مرتسمان على وجهه ، ويلمعان في عينيه : أنت عزيزة وغالية علينا كلنا يا ابنتي! .. نحن قوم لا نحب التشاؤم ، فالذي حدث قدر من الله ، ونحن نؤمن بقدر الله ، فلا

تنظري إلى نفسك وقدومك علينا نظرة شؤم ، حاشا لله يا بنيتي ! أن نتطير من دخولك علينا ، يكفي أنك خرجت معنا ، ولم تبق في بيت والدك ، وربما يحق لك ذلك ، فهذا موقف كبير عندنا فعزيزتنا هند حدثتنا عنك ، وعن أحوالك عندما عرضت علينا موضوع الزواج .. وهذا من فضل الله الكبير عليك أن انتشلك من ضلال الدنيا المفتوحة لك من أوسع أبوابها وحماك من فتنتها .. فنحن أهلك وعزوتك ، وكنت أود أن أقدم لك شيئا تسر به نفسك ونفوسنا ؛ ولكني كما علمت من هند تملكين الكثير منه ، وأعلمي يا بنيتي الغالية! .. أنّ مالي كله تحت تصرفك.. أتبكين يا ابنتي ؟!

سالت دموع فوز من جديد عندما لامست كلمات الحاج مروان قلبها ، ولمست الحنان الذي يكنه مروان لشخصها ، والسعادة التي يظهرها لها ، وأخذت الأم وهند تمسحان دموعها المتساقطة ، وأخذ الحاج بالثناء عليها ، وعلى شجاعتها ، ويدعو لها بالثبات على التوبة في هذا الزمان الصعب ، وأثناء سماع فوز لكلام والد زوجها قامت بتقبيل يده أكثر من مرة ، وهو يرجوها ألا تفعل ، وكذلك أبدت أم محمد حنانها ومشاعرها الصادقة وسعادتها لكنتها الجديدة ثم قال الأب منفعلا بالمشاعر التي ظهرت في هذه الجلسة الدافئة : سأهديك شقة يا بنيتي! في عمارتنا الواقعة في شارع البحر الأزرق ، عندما تزورون بيت أبي محمود سوف ترين العمارة التي تفضل الله علينا بإنشائها ، وعندما يخلي أي مستأجر شقته ستكون تحت تصرفك ، وسأكتبها باسمك لتبقى ذكرى من عمك أبى محمد .

ازدادت فوز شكرا لعمها وقالت بحرارة وحياء : ما أكرمك يا عماه ! .. بوركت يا عماه! .. أنا لا أريد شققا ولا عمارات .. أنا لا يهمني إلا الإفراج عن زوجي وإسعاده ورؤيته بقربي .

فقالت الأم : بارك الله فيك يا ابنتي العزيزة ! وإن شاء الله ستفرحان وتسعدان بحياتكم ، ويهبكم الباري سبحانه البنين والبنات .

وابتهل الجميع بالدعاء لها ولزوجها ، وترضىّ عليهما الوالدان ، ولما انتهى الوالدان من حمد الله وشكره ، قالت هند : أبي الحبيب ! إنّ فوزا الرائعة ترغب بزيارة أهلها .

فقال الأب بعجلة ودهشة : وهل هناك ما يمنع من ذلك ؟!

قالت هند : هي ترى أنّ الظروف المحيطة بنا ، وأنها زوجة بلا زوج ، ترى في ذلك حرجا لنا .

قال مروان: أبدا يا ابنتي ! لا عليك ، ولا يوجد أيّ حرج .. فهؤلاء أهلك أمك وأبوك ، ففي أي وقت اذهبي لزيارتهما يا ابنتي !

قالت فوز : الصدق يا عماه ! أنا لست مشتاقة لهم ؛ ولكنّ لي أختا قادمة من أمريكا الشمالية ، قد تصل الليلة ، فأود التسليم عليها ، فهذا سبب الزيارة ، فلي زمن لم أرها .

ردت الحاجة أم محمد : لا حرج يا بنيتي ! زوري أختك وأمك وأهلك ، فنحن ليس بيننا وبين أهلك أيّ شحناء وبغضاء ، وليس لهم يد في القبض على مهدي، وكان لابدّ أن يمسكوه في يوم من الأيام .

قالت فوز : أشكركم جدا ؛ كأنكم تنطقون عن قلب واحد ، لقد خشيت أن أسبب لكم حرجا أولا للظروف التي أحاطت بزواجنا ، وثانيا لم جرى لمهدي في بيت والدي ، على يد قريبه ، وثالثا لغياب عزيزنا مهدي لنأخذ منه الأذن الشرعي بالخروج أليس كذلك يا هند ؟!

تبسمت هند ، وقال الأب : بارك الله فيك يا ابنتي ! ..الحق أنك ذكية ولطيفة وطيبة ، وأتمنى لك من كل قلبي السعادة الأبدية في الدنيا في حياتك معنا .

واستأذنت الفتاتان من الوالدين، وعلقت فوز وهما تمشيان نحو حجرة فوز : أهلك طيبون جدا يا صديقتي !

ردت هند شاكرة: هذا من لطفك يا عزيزتي ! .. وسلمي لي على والدتك وأختك واطلبي منهم أن يسامحونا على الإزعاج الذي سببناه لهم .

تبسمت فوز ولم تعلق بشيء .



شرق ... ... غرب

انطلقت فوز في ضحى النهار التالي بسيارتها إلى قصر والدها ، لتحيي وتسلم على أختها القادمة من بلاد الغرب ، فأختها سميرة بعد نجاحها في الثانوية ، أرسلها سامي لدراسة الطب في إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية ، ولما التقت الأختان تعانقتا عناقا حارا وبعد الكلام التقليدي المعتاد في مثل هذا المقام ، قالت سميرة متبسمة الوجه في وجه أختها : أوه .. يا فوز! عندما كانت تحدثني أمك عن جلبابك وصلاتك ، كنت أقول لها " أظن يا أمي ! أنها نزوة عابرة أو سحابة صيف زائلة "، لقد كنت مشتاقا لسفرك إلينا ، لقد تغيرت كثيرا .. أنت تغيرت فعلا يا فوز المشاكسة ! ..

ثم قالت مقطبة الجبين: والزواج الغريب والعجيب الذي حدثتني عنه أمك ..لا أدري كيف ترضين بهذا الزواج أو بهذه الحياة ؟!..ما الذي جرى لك أيتها البنت؟!

فنهضت فوز قائمة تتمشى أمام أختها وهي تقول باسمة : ألست جميلة بهذا الثوب الذي يغطي جسدي؟!.. جسدي كله ، ويخفي محاسني عن عيون الناظرين المراهقين ..لا تبحلقي فيّ الحسن والجمال لم يخلق في المرأة ؛ ليكون عرضة لكل الناس .. هو هبة ربانية ، ومن حق الزوج وحده النظر إليه يا أختي! ما أجمل ديننا يا دكتورة !

ثم عادت للجلوس والتحديق في وجه أختها وأمها .

فقالت الدكتورة متجهمة: أمرك مدهش.. فوز عاشقة الملابس الحريرية الثمينة ، والأغاني الغربية تتخلى عن كل ذلك ؟!

أجابتها فوز بسرور وثقة : الحمد لله رب العالمين ، لقد أدركني الله قبل السقوط الكامل في مهاوي الإباحية والمدنية الغربية .. لقد اخترت طريقي واخترت زوجي .. وضميري الآن مرتاح كل الارتياح .. ما أصعب الفراغ الروحي ! ، وأتمنى لك أن تتعرفي على حياة الإيمان والصلاة .. وما أروع المناجاة للرحمن !!

قالت سميرة بجفاء ونفور: لا تتمني لي ذلك .. تمني لي إنهاء دراستي والتخصص في جراحة

القلب أو أي جراحة .. المهم أن أكون جراحة .. قليل من النساء من يتخصصن في الجراحة .. آه ! لو يراك مازن الآن لشبع منك سخرية وضحكا ؛ ولكنه مازال نائما ، ولا يحب أن يوقظه أحد

وتحدثت فوز مع أمها بضع دقائق ، وعادت تتحدث مع أختها ، وتسألها عن حياتها وأخبارها في الغرب الأمريكي ، فأخذت سميرة تتكلم عن الغرب والحياة في أمريكا بكل حماس وحمية ، وتصف الحياة هناك بأنها جنة عدن ، وأن حياة الشرق كلها ظلام وفقر وجهل وتخلف وأمراض وتنمية ضعيفة للبشر والبلاد ، وحكام لا يحترمون الحرية الفردية ، ولا يهتمون بها هدفهم الأمثل المحافظة على كراسي الحكم التي يتربعون عليها بالقوة ؛ وليس باختيار الشعب لهم ، فهم يذلون شعوبهم إذلالا .

ولما انتهت سميرة من مدح وبيان فضائل الغرب الأمريكي في نظرها ، وبينت عدالة الأنظمة والقوانين في تلك البلاد ، وتساوي الناس هناك أمام القوانين صغيرهم وكبيرهم .

ردت فوز قائلة ، فهي كانت تحمل قبل أقل من سنتين مثل هذه الأفكار: هذه مأساتنا نحن المسلمين، ندافع عن الغرب أكثر من الغربيين أنفسهم؛ لأننا لا نحاول أن نرى عورات المجتمعات الضالة ، فيوجد في كلامك حق ، وفيه باطل كثير .. فحياتنا كلها ظلام هذا ليس صحيحا ، فالمتمسكون بدين ربهم بإسلامهم يحيون في نور وسعادة ، والدين لا يمكن أن يكون ظلاما ، بل حياتي السابقة كلها ليل وغفلة ، هدفها الأسمى إماتة الوقت في لهو ومتع زائلة ، والحياة من أجل الحياة ، وهل لهذا خلق الإنسان؟!..

وأما الكفار مهما كان عندهم من نور الدنيا ، فهم في ظلام وحياة ضنكا ، وأما الفقر ففي أمريكا فقر وفقراء وجياع ، ومع قوة أدوات الحماية عندهم فالجرائم الكبيرة والصغيرة شائعة في مدنهم وكل يوم تتناقل وكالات الأنباء عن فظائع الأجرام هناك ، لا تنكري ذلك ، يكفي أن أغنياء تلك البلاد يمشون ولهم حراس أمنيون يتبعونهم في خطواتهم ، فأيّ حياة هذه الحياة ؟! العلم الأرضي هم حقا متقدمون فيه ، ولا يمكن إنكار تفوقهم بذلك ، وهناك أيضا دول في آسيا

متقدمة فيه مثلهم ، بل تنافسهم وتسبقهم في بعضه ، وأما تأخر المسلمين فيه فله أسباب متعددة من أهمها تبعيتهم لدول الاستكبار والاستعمار ، أما علوم الدين والنجاة من ظلام الدنيا ، فالمسلمون لهم السبق في ذلك ، فتراثنا فيه خيرات وميزات ، نجهل الكثير الكثير منها، وهناك الفرص متاحة للأفراد للتميز أكثر من هنا ؛ لصلاح أنظمتهم السياسية ، فقد ابتعدوا أو انتهوا من الثورات والانقلابات ، وأما تواريخهم الماضية فكلها ثورات وحروب عالمية ، وأما الأمراض فهم حقا متقدمون في علاجها ، وبلاد العرب لا تخلوا من تقدم فيها ، وعندهم أمراض وعندنا أمراض .. وأما ظلم الحكام فهذا لا ينكره أحد ، فما زالت بلاد العرب والمسلمين تعاني من تسلط الحكم الديكتاتوري ، وهذا سببه لعلمك الاستعمار والاستعباد الذي خيم على بلاد العرب والمسلمين ، وأكثر هؤلاء الأوصياء من بقاياه .. فإسلامنا العظيم ما زال في صدور الرجال والنساء فقط ، أما في واقع الناس فهو مغيب ، والأدلة كثيرة ، وأشهر هذه الأدلة أنّ المحاكم التي تحكم في قضايا الناس وحاجتهم مـختلفة الأنواع والأسماء .

قالت سميرة سامي التي كانت تسمع لأختها هذا الكلام الكبير والطويل بانبهار شديد : والله يا فوز ! إنك تغيرت واستقام لسانك الأعوج .. أما زلت تحفظين أغاني الشرق والغرب ؟!

ردت فوز: أتسخرين مني؟ .. الحمد لله رب العالمين ، لقد نسيتها كلها ، وقد أبدلني الله خيرا منها ، فقد حفظت سورة البقرة والأجزاء الأخيرة من كلام ربنا من القرآن الكريم .

قالت سميرة : لقد ذكرتيني بفتاة زميلة لي في كلية الطب من أسرة مسلمة تقطن أمريكا ، وهي من أسرة متدينة ، وهي تحفظ كما تدعي القرآن الكريم ، وهي مثلك متحمسة لدينها ؛ بل كثير من فتيات الغرب في الجامعة صححن أفكارهن عن الإسلام بعد مجالستها ..

ثم رسمت سميرة ابتسامة ساخرة على وجهها ، وهي تلتفت إلى أمها الجالسة منذ بداية اللقاء بصمت وقالت : ألم تهدي أمك يا فوز؟!

قالت فوز: أدعو لها ولك بالهداية ، والهادي هو الله ، فالهداية والتوفيق بيده وحده ، يهدي من يشاء إلى ملكوته ، نحن علينا بالدعاء والدعوة وبس .

وهنا قالت سميرة : والآن ، ما قصة زوجك المحبوس ؟!

ردت فوز : شاب متحمس لدينه ، يرغب أن يرى أحكام الشريعة تطبق على مجتمع المسلمين ، فمن أجل ذلك هو محبوس .

ونهضت قائمة وهي تقول: وأريد أن أستأذن، وسوف أتصل بك ، وأنا مستعد لاستقبالك في بيتي إذا رضي والداك .

قالت الأم معترضة على اقتراح فوز : لا داعي لذلك ، فها أنت قد رأيتها ، ولما تشتاقي إليها فالبيت مفتوح لك ، فهذه أول مرة تزورنا منذ تزوجت .

فقالت سميرة : ما دام زوجك البطل مسجونا ابقي عندنا .

ابتسمت فوز وهي تقول : آسف جدا يا أختي الدكتورة ! فلي بيت وأهل ، أتريدين أن أضايق أبي العزيز ؟!.

فقالت سميرة وهي تنظر إلى قسمات وجه والدتها : سوف أزورها يا أمي ! لأرى هندا صاحبتها التي كانت تحدثني عنها في بعض رسائلها الجميلة ، إنها تحب هندا كثيرا .

فقالت الأم بامتعاض : هذا الأمر لأبيك !

وخرجت سميرة تودع أختها الصغيرة ، ولما وصلتا باب القصر قالت: يا فوز ! لم تسلمي على ابن خالك .

قالت فوز : سأكلمه بالهاتف .

قالت سميرة وهي تصافح يد أختها وتشد عليها: أنا بشوق كبير إليك يا فوز! لعلك تقضين بضع ليال معنا .

قالت فوز: أبوك لا يرضى ، ولا يحب رؤيتي ومجالستي ؛ لأني أذكره بمعاصيه وآثامه ، حتى لم يدعوني لطعام منذ خرجت من هذا البيت ، وأنا أرحب بك في غرفتي الخاصة .

ضحكت سميرة لقول فوز "غرفتي الخاصة " وقالت : في غرفتك! أليس لك شقة ؟!

قالت فوز: لي شقة ؛ ولكنها مغلقة، وأنا الآن أعيش عند أهل زوجي المسجون ـ فك الله كربه ـ

يا حبيبتي! على كل حال إذا وافق أبوك لك على زيارتي فاتصلي بي ، وأنا أرحب بك ، وأسرة مهدي يرحبون بك ، وسأطلب من حماتي العجوز الطيبة أن تصنع لك طعاما لذيذا ، لم نأكل مثله في كنف والدنا العزيز، استأذني والدك وأخبريني ، على الأقل تتعرفين على أهلي الجدد .. أناس يعرفون الحب الخالص .

قالت سميرة بمرح وحماس: سوف أفعل أيتها الحبيبة! .. إنك تحبينهم حبا ظاهرا عليك يا فوز!

ردت فوز: أناس طيبون! وبيئة إيمان راقية ، الكبير والصغير ملتزم بالإسلام قولا وفعلا بدون جبر وإكراه ، مجتمع صغير محافظ ، الكبير يرى أنه قدوة للصغير والصغير يحاكي الكبير.

قالت سميرة وفوز تجلس في مقعد السيارة : أنت شجاعة! لقد انتصرت على هواك وشهوات الشباب وهوسه في هذا الزمن المغري .. الزمن الصعب !



حكم القاضي

حكم القاضي في قضية المهندس مهدي مروان ، بعد ستة شهور من اعتقاله والتحقيق معه ، بحبسه واعتقاله خمس سنوات مع التنفيذ ؛ لأثارته الشغب والفتن في مدرجات الجامعة ، ويبدأ تنفيذ الحكم منذ أول يوم أوقفته فيه أجهزة الأمن ، وتلقت فوز وأسرة مهدي الحكم بصبر، صبر المؤمنين ، صبر الابتلاء ، وما كاد والد فوز يصل إليه هذا الحكم في زوج ابنته حتى اتصل بها ، وعرض عليها أن تفارق زوجها السجين ، وتطلب الطلاق منه ، فرفضت العرض بشدة وغضب، وأصرت بالبقاء على ذمة زوجها المتحمس لدينه وإسلامه .

وكان مهدي قد علم قبل جلسة الحكم في قضيته من لقائه بمحاميه أن التهمة ثابتة ، وأنه مذنب فلذلك طلب فوزا ، وعرض عليها الفراق ؛ ولكنها رفضت فكرة الطلاق ، وأصرت على أن تبقى حليلته ، وأن تقف بجانبه ، وأن ما يتعرضان له ، هو من الابتلاء والمحنة المقدرة على عباد الله المؤمنين ، والله بين أنّ العاقبة للمتقين.

وحاولت أسرة فوز أمها وأختها إقناعها بالطلاق والخلاص مما تورطت فيه على حد قولهم ، وأرسلت لها أختها التي تتعلم في أمريكا رسالة تحثها على فراق زوجها ، والسفر إلى أمريكا ، أو العودة لبيت الأسرة ، بعد أن حاولت إقناعها بذلك العرض على الهاتف ، وأيضا والد مهدي لمح لها بعد صدور الحكم بالطلاق من ولده بمثل هذه الفكرة ؛ ولكنها قالت بعزيمة وثبات: أنا ما زلت على مقاعد الدراسة، ودعوني أبقى بينكم ، فقد أحببتكم ، ووجدت لديكم الدفء الأسري ، فلا تحرمونني من ذلك ، وهذا قدري ، ولن أتخلى عن مهدي إلا إذا كان هو لا يريدني وتخلى عني .

فأثنت الأسرة ثناء حسنا على الفتاة الشجاعة إزاء هذا الموقف الكريم ، وانشغلت فوز وهند في الأيام الأخيرة من دراستهما ، وهما تدعوان في جوف الليل وثلثه الأخير بأن يهون المولى سبحانه ظلم السجن وظلامه عن العزيز مهدي .

وأثناء تقديم فوز لاختبارات الفصل الأخير من الدراسة ، مرضت والدة فوز وعادت إليها

بعض الأوجاع التي عانت منها في الماضي ، وسافر بها والدها للعلاج في مشافي أمريكا ، وعندما كانت فوز تستقبل نتائج الدراسة والفصل الأخير وتتهيأ لحفل التخرج السنوي ، جاءها نعي أمها التي ماتت في تلك البلاد حيث ولدت قبل خمسين عاما ، ماتت وهي على ضلال وجهل ، فذرفت فوز عليها الدموع الغزيرة ، ودعت الدعوات الحارة من أجل روح أمها الهالكة ، وقد علمت فوز من رسالة تلقتها من أختها سميرة أنّ أمها ماتت وهي تود وترغب في رؤيتها ؛ ولكن والدها رفض تلبية هذه الرغبة ، وحال دون تحقيقها ، ومع صعوبة الداء الذي ألمّ بها ، كان يرى سامي أنّ الموت ما يزال بعيدا عنها ، ولا يعلم أنّ الأجل إذا جاء لا يتأخر ساعة ، ولو كان حول المريض مائة طبيب وممرض .

وقام أهل مهدي بمواساة وتعزية فوز والتخفيف من ألمها وحزنها ، وصبرت ورضيت بقدر الله ، ولما أهل العام الدراسي قدمت أوراقها اللازمة للعمل في إحدى المدارس الأهلية الكبرى ولما علم مالك المدرسة أنّ فوزا ابنة المالي الكبير السيد سامي سبل مدير أحد البنوك المهمة في البلد ، لم يتأخر في تعيينها في إحدى المدارس التي يملكها ، واندمجت الفتاة في وظيفتها .

وكانت فوز بعد سفر والدتها للعلاج في أمريكا قد خفت علاقتها بقصر أبيها ، ولقد أرسلت لها سميرة دعوة من واشنطن لمشاركتها في حفل تخرجها طبيبة ، وكذلك اعتذرت لأخيها فريد عندما دعاها لحفلة تخرجه من الكلية الشرطية ، وقد أصبح ضابطا برتبة ملازم ، ثم جاءت رسالة لفوز من سميرة تخبرها أنها قررت البقاء في أمريكا للعمل في أحد المستشفيات، ومتابعة الدراسات العليا ، والتخصص في طب القلب أو الكلى ، وعندما تزوج فريد من ابنة أحد الضباط ، دعيت فوز لحفل الزواج ، فاعتذرت عن المشاركة في الحفلة التي أقيمت في أحد الفنادق الكبار ، ثم بعد العرس بأيام ذهبت وباركت لأخيها وزوجته بزواجهما ، في بيت والدها الذي استقرا فيه ، وتمنت لهما السعادة والتوفيق .

وكانت تقضي وقتها بعد عودتها من المدرسة مع كتاب الله ، والأحاديث النبوية ، وأحيانا ترافق هندا في زياراتها لأخواتها أو أقاربها ، وكم شعرت بالألم والحزن مع فرحها الشديد لهند عندما

تزوجت وفارقت بيت والدها ! فقد تزوجها ابن عمها مالك عبد العزيز ، وما كادت تمضي الأيام حتى ولدت هند ، وفوز ما زالت تنتظر زوجها القابع في السجن بفارغ الصبر والرضى ، وبعد أن وهبت هند المولود الثاني بأيام ، خرج مهدي من السجن الذي أمضى فيه ما يقارب أربع سنوات ، وفرحت الأسرة الكبيرة بعودته بعد عذاب السجن .

ولكنه خرج وكله إيمان وقوة ، وقد تمكن من حفظ كتاب الله تعالى ومعرفة الكثير من تفسيره ، وقراءة الكثير من كتب الإسلام العظيمة ، وبعد أن انتهى من استقبال الأهل والأصحاب المهنئين بخروجه من الحبس ، انتقل للسكن في الشقة التي أهداها والده لفوز في عمارة البحر الأزرق .

وكانت فوز قد حفظت أكثر من نصف القرآن في فترة غياب زوجها في السجن ، الزوج الذي لم تجلس معه إلا بعض الوقت قبل الزواج ؛ ولكنها كانت ترى أنّ ذلك اختبار وامتحان لها من الله عز وجل ، فصبرت صبر الموحدين على الفراق ، ولما خرج مهدي من سجنه ، حمدت الله حمدا كبيرا وكثيرا ، ورأت أنّ السعادة قد أقبلت إليها من جديد .

***** *****

بعد خروج مهدي من السجن بأشهر يسيرة جرت في البلاد فتنة ، فقد قام أحد أفراد الأحزاب العلمانية المتطرفة بمحاولة اغتيال أحد كبار رجال الحاكم ، فوجه الاتهام بادي الأمر لشباب الأحزاب الإسلامية ، واقتيد مهدي من شقته في جوف الليل إلى دائرة التحقيق ، ومكث فيها أسبوعين ، وهو يخضع لقسوة العذاب والإهانات والظلم ، حتى تمكن رجال الأمن والشرطة من الوصول إلى بعض المتهمين في محاولة القتل ، فأفرج عن مهدي وزملائه ، فبعد هذه الحادث الصادم قرر مهدي الخروج من وطنه إلى وطن فيه أمان وحرية أكثر.. فقد أصبح العاملون للإسلام في ظل الأنظمة الحاكمة في بلاد الإسلام موضع اتهام في كل ظرف وحين .. فتعاقد مع إحدى الشركات الكبرى في أحد الأقطار الإسلامية الغنية ، ولما استقر في عمله الجديد هنالك انتقلت إليه زوجته فوز ، وطابت لهم الأيام والهدوء في بلاد الغربة .. وكانت تأتيهم أخبار

الوطن المحروق ، فقد تولى مقاليد الحكم والسلطة فيه دعاة القومية والعلمانية ، فازداد التضييق على الشباب المسلم الملتزم في شمال الوطن وجنوبه ، وكثرت حركة الاحتجاجات الشعبية هنا وهناك ؛ ولكن لا حياة لمن تنادي ، فلقد أصبح الوطن في ضنك شديد من هؤلاء المتسلقين .

وأمضى الزوجان عشر سنوات في الغربة ، وهما ينعمان برغد من العيش والسعادة والأمن ، وقد وهبهما الوهاب ولدين خلال تلك السنوات ، وعلم مهدي بعد كل هذه السنوات من السعادة والراحة أنّ والده مروان مريض وهو في أيامه الأخيرة كما يخبر الأطباء ـ وعلم ذلك عند الله تعالى ـ ولكن الأمراض والشيخوخة قد اشتدا عليه ، فأنهى عقد عمله ، وعاد للوطن إلى مسقط رأسه ، وعادت الأسرة لوطنها بعد هذه السنوات الطوال ، وهم مطمئنون ؛ ولكنهم ما كادوا يستقرون في الوطن حتى استدعت أجهزة الأمن مهديا ، وبعد استجواب طويل ، طلب منه إما المغادرة وإما تحمل ما يتعرض له من مضايقات ، فبين لهم مهدي دوافع حضوره لبلده ؛ ولكنهم أصروا على أنه رجل غير مرغوب ببقائه في وطنه ، ووضع تحت المراقبة الدائمة ؛ لأنه تبين لهم أنه كان على اتصال دائم برفاقه وأصحابه أثناء غربته ، ولديهم صور عن عدد من الرسائل التي كان يرسلها لأصدقائه يشجعهم فيها على الثبات والصبر على أذى الطواغيت ، لقد وقع بعضها بين أيدي أجهزة الدفاع عن الحاكم وأعوانه

وبينما صاحبنا مهدي يفكر وينظر بالتحذير الذي تلقاه من رجال الأمن السري ، قد قام أحد المسلمين المتعصبين الناقمين على النظام بإلقاء قنبلة على مركز أمني ، فاضطربت البلد وقامت وما قعدت ، فقامت الحكومة الحاكمة باعتقال أعداد كثيرة من الشباب المتدين والمتردد على المساجد ، وبينما صديقنا مهدي يجلس بين أهله في وسط بيته وحوله زوجته وولداه الصغيران وعنده أخوه معتصم وزوجه وبعض أطفالهما ، وهم يتسامرون في ذلك المساء ، قرع أحدهم الباب باب الشقة ، فنهضت فوز لتنظر الطارق معتقدة أنه أحد أبناء معتصم يريد الدخول ؛ ولكنها لما فتحت الباب فوجئت بأخيها الضابط فريد سامي ، ومعه عسكريان ، وهم في عرض الباب ، فأصابتها الدهشة ، فهذه أول مرة تراه منذ أكثر من عشر سنوات .

فقال : مساء الخير يا فوز!.. كيف أنت ؟

فقالت ببطء وقلق : أهلا فريد .. ما الأمر ؟ فلا أرى أنك زائر.

قال بهمس واضطراب : الحق نعم ، ولسوف أزورك .. أنا لست زائرا أيتها الأخت المتمردة أنا أرسلوني للقبض علي زوجك.

فرددت قائلة وبدهشة : القبض على زوجي !! ويلك ! ويلك ! .. ألم يجدوا غيرك ليرسلوه ؟ حسبنا الله ونعم الوكيل .. ما التهمة هذه المرة ؟!

أجاب قائلا وهو ينكس وجه في الأرض : لست أدري!

ولحظ مهدي تأخر فوز عند الباب ، فاستأذن من أخيه لينظر من تكلم فوز فإذا هم رجال شرطة يقفون بالباب ، فقال : صبرا آل ياسر! .. ما الأمر يا حضرة الضابط ؟ .

فنظر إليه الضابط قائلا : مطلوب .. ولا أدري ما التفاصيل ؟ إنما كلفوني بإحضارك أيها السيد

فقالت فوز وكلها خجل واضطراب وامتقاع وجه : يا أبا عبد الرحمن ! .. أترى هذا الضابط الذي يقف أمامك ؟! ..إنه أخي فريد ..إنك لا تذكره على ما أعتقد !

فقال مهدي والدهشة مرتسمة على محياه : هذا أخوك ؟! للآسف إنني لم أره على ما أذكر إلا مرة أو مرتين .. لقد نسيت شكله .. معذرة !

قالت : نعم يا سيدي العزيز ! هذا أخي البار .

قال فريد بخجل وارتباك : أيها السيد ! أنا أقوم بواجبي .

فقال مهدي : تفضلوا .. سوف ألبس ثيابي وانطلق معكم ، فقد تعودت على استدعاءاتكم وتحقيقاتكم ، لا أدري ما الذي يخيف حكامنا من إسلامنا ؟! .. فها هم المتعصبون من النصارى والطوائف الأخرى يتمتعون في بلادهم بحرية ، ويتحركون ويتشددون ، ويعملون ولا تمنعهم سلطاتهم من العمل لمذاهبهم .

قال فريد بنبرة فيها حدة : أرجوك ..لا داعي لأي كلام .. البس ثيابك فقط ، وامش معنا ، وذلك من أجل خاطر أختي العزيزة ، وإلا فالمفروض أخذك بأي صفة وجدناك عليها .

رد مهدي مداعبا : لست سارقا ولا مجرما ولا قاتلا .

أجاب فريد وهو يتصنع الغضب: أنت أخطر على أمن البلد من كل ما ذكرت، البس بسرعة ولا تكثر من الرغي أيها الفارس !.. أعتذر إليك يا أختي !

فقالت فوز بحدة وضيق : لا عليك ، ما أنت إلا عبد لأسيادك أيها السيد !

صعق فريد لكلمات أخته الحادة ، ثم التزم الصمت ، وقال لنفسه : نعم ، أنا عبد لأسيادي .. ولِمَ لا أكون عبدا لهم ؟!

أطلع مهدي أخاه معتصما على جلية الأمر، وقال : لابد من الذهاب معهم ، خذ بالك من فوز والصبية ..

وسكت قليلا ثم قال بشدة وغضب : سأترك هذا القطر إن نجوت منهم هذه المرة .. إنني فكرت أو بدأت أفكر بالرحيل لبلاد الغرب والكفر ، فأنا أسمع أن فيها حرية لجميع الناس ولجميع الأديان .. يا رجل ! لم نفعل شيئا يضر البلد ، ومع ذلك يضيقون علينا في العمل ، وفي الحركة ، وفي النوم .. قاتلهم الله أنى يؤفكون ألهذه الدرجة يبغضون الدين والعاملين للدين ؟! .. يا أخي العزيز ! .. حتى الرسائل التي كنت أبعثها للصحاب والأحباب ، لقد اطلعوا عليها وصوروها ، وجواسيس الكفار والأعداء يرتعون في بلادنا ، ولا يستطيعون فتح رسالة أو طرد لهم .. حسبنا الله ونعم الوكيل !

فقال معتصم مواسيا: لابد لليل من نهاية! .. فهؤلاء العلمانيون ما صدقوا وهم يتسلطون على الناس والبشر ؛ ولكن فشلهم قريب .. فهم مبغضون من كافة الخلق ؛ واعلم أنّ الله مع الصابرين .

وانطلق مهدي مع نسيبه فريد إلى مركز الشرطة ، وهناك جاءت سيارة من سيارات الأمن السري ، وأخذوه إلى دائرة التحقيقات السرية ، وبعد أيام قضاها عندهم في سؤال وجواب تركوه ليعود إلى شقته ، ولما استراح من عناء ما وجده في ظلمات وسراديب النظام الحاكم قال لفوز ذات ليلة فجأة : يا فوز العزيزة ! .. ما أخبار أبيك .. عمي .. حماي المحترم ؟ .

حملقت فوز في عيني مهدي لحظات ، فقد دهشت لسؤال مهدي المفاجئ عن والدها وقالت : أبي ! ..إنه بخير كما أخبرتني سميرة آخر مرة .

فقال : أما زالت تكتب إليك من أمريكا ، ما أخبارها الآن ؟.

ردت فوز ، وهي ما زالت حائرة من حديث مهدي المفاجئ عن أبيها وأختها : طيبة ، وإنها بخير ، وكما تعلم ، فهي قد تزوجت هناك من أحد أقاربنا ، وما زالت تشتغل هناك ، ولسوف تستقر هناك على ما أعتقد للأبد .. وأما أبي العزيز المحترم يا محترم ! منذ تزوج بعد وفاة أمي لم يكلمني إلا بضع مرات ، أظن أنها تعد على أصابع اليدين.. فلا أعلم أخباره التفصيلية .. فكل المدة التي قضيناها في الغربة لم يتصل بي مرة واحدة ؛ بل أنا التي كنت أكلمه ..

ورسمت ابتسامة على وجهها وهي تقول : هل من شيء تريده منه يا سيدي المحترم ؟!

فقال وهو ساهم النظر: نعم يا سيدتي المحترمة !.. فأبوك رجل أعمال كبير ، ومعروف في البلد وفي وسط رجال المال .. وها هو أخوك ضابط كبير أيضا رتبته رائد رتبة لا بأس بها.

فقالت : المهم ماذا تريد منهما ؟!

فتغير وجهه وتجهم ، وخيم الحزن عليه وهو يقول : فوز ! ..أريد أن أغادر هذا الوطن ، ألا يمكنه مساعدتنا للسفر إلى ألمانيا أو هولندا .. أوروبا مثلا.

فصمتت فوز صمتا طويلا ، وتأملت طلب مهدي بحيرة واستغراب ، ثم نظرت إليه وقالت: والأولاد أليس عليهم خطر في بلاد الكفر والضلال ؟!

فقال مهدي: لقد فكرت في ذلك يا عزيزتي ! وقد علمت أن بلاد الغرب تحسنت أحوالها مع الجاليات الإسلامية ، وثانيا أنّ هناك مدراس إسلامية تتبع للجاليات ، وثالثا نحن بحمد الله أطفالنا ذكور ، ولم نوهب الإناث بعد ، فالخوف على الفتيات أكثر من الذكور في تلك المجتمعات ، والخطر موجود لا أنكره ، ولن يكون احتكاكنا بهؤلاء القوم كثيرا .. وتنهد وهو يقول : وأخيرا لم أعد أطيق الحياة هنا .. وعندما تتحسن أحوال بلادنا نعود إليها .. فأنا مخير بين الرحيل ، أو الاندماج في حركة تمرد لا يعلم مداها إلا الله .. فاعلمي أن صدور شباب الإسلام

تغلي ، فما أحدثه هذا المتهور إلا شرارة صغيرة ، قد تشتعل بعدها النار والانفجار.

قالت فوز وهي تعمق الفكر والتدبر في كلام زوجها وحججه : فالأمر خطير تراه إذن !!

همس قائلا : كما ترين اعتقالات مستمرة ..إهانات مذلة .. فالبركان يكاد أن ينفجر .. والغضب في الصدور شديد .. وأنا أريد الهرب من هذه العاصفة القادمة .. فأكثر قيادات الفكر الإسلامي الآن شباب مندفعون ، وفي صدورهم كبت واحتقان مما يلقون من السلطات ووقت التغيير للأفضل لم يأت بعد .

وبعد حين من الصمت العميق بين الزوجين قالت المرأة : أمقتنع بما تفكر ، وبما تريد يا سيدي المحترم ؟!

رد الزوج المحترم قائلا : لست جبانا يا فوز ! وأنا منذ خرجت من السجن ، وسافرنا للعمل خرجت من قيادة الحزب الإسلامي وأنت تخبرين ذلك ، بل خفت علاقتي بالتيار الحركي ، بل لما ألقي بي في غياهب السجن خمسة أعوام نزعت مني القيادة الفرعية ، وأعطيت لشخص آخر وأصبحت شخصا ثانويا ، ولما سافرنا للخارج أصبحت عضوا مناصرا ..اعلمي يا سيدتي المحترمة ! أنه ما زال الخلل فينا ، فعندما كنت على مقاعد الدراسة كنت عضوا فعالا ومهما ، ولما طرحت في السجن أصبحت عضوا خاملا غير فعال ، فنحن بحاجة لإصلاح وتقويم ، فالأرض التي نقف عليها ليست صلبة، فالجهل بين شبابنا ما زال موجودا .. فالحماس وحده لا يكفي للتغيير .. والقدرة على التحمل لدى الكثير من الشباب ضعيفة .. القيادات مهتزة .. وأيضا هذا الحكم تحميه أيدي خفيه عالمية.. فجمهور الأحزاب الحاكمة جمهور ضئيل ومصطنع فما زالت قوى الاستكبار تربض وتتحكم في مقدرات البلاد بأشخاص منا!.. وأجهزة الأمن عندنا لا تريد أن تقتنع أني شخص عادي مثل كثير من خلق الله ، فهي ما زالت ترى أني رأس مهم في الحزب .. فالخروج من الوطن في هذه الفترة يبدو لي أنه مهم .. هذا دفاعي عن نفسي أمامك .

قالت فوز مستسلمة لدفاع زوجها : سأكلم والدي ـ إن شاء الله ـ قريبا يا سيدي المحترم !

فقال مهدي : بل زوريه .. فهو والدك.. وما أساء إليك منذ فارقتيه .. وأما قصة وفاة أمك ورفضه ذهابك إليها هناك ، فهو معذور ؛ فإنه لم يكن يرى الموت قريبا منها .. فهؤلاء كما تعلمين يا عزيزتي! أكثرهم يهربون من حقيقة نهاية الحياة .. ورحم الله أمك ، وهدى الله أباك.

فقالت : حسن .. سأفعل وأزور أبي الذي لا يسأل عني ، منذ أن سافرنا لم أره .. فكلما أذهب إلى قصره خلال الإجازات التي كنا نقضيها هنا ، لا أجده ، وتصرفني زوجة أبي وتعدني بأنه سوف يتصل بي ، وتنتهي الإجازة ولم أره أو أسمع صوته ، ولم يحاول الالتقاء بي .. وحتى لا أظلمه كما أذكر كلمني مرتين أو ثلاث عن طريق الهاتف .

قال مهدي : ولكنه كان يرد عندما تتصلين به من هناك.

قالت: نعم ، عندما أتصل به أنا ، أما هو لم يتكلم معي إلا بضع مرات .. سامحه الله ، لا يقع في قلبك أني أكرهه .. هو أبي ؛ لكن ما خرج من قلبي هو عتب على تقصيره نحوي .

قال مهدي : لكل ظروفه وأحواله ، وهو قد اتخذ منك موقفا قاسيا منذ البدايات الأولى لتوبتك وهدايتك .. فيا سيدتي الغالية ! .. اذهبي إليه في مكان عمله في البنك .

فقالت: سأفعل يا أبا عبد الرحمن ! وأريد أن أخبرك بأمر حدث أثناء التحقيق الأخير معك .

فقال : تكلمي فكلي آذان تسمع .

قالت : أشكرك !.. وأعلم ما تعاني من آذى نفسي على الأقل ، بعد اعتقالك بيومين اتصلت زوجة أخي فريد فيّ ، وأخذت تتعذر لي عن تصرف فريد معك ؛ فكأن فريدا أخبرها خبرك ، فقالت لي معتذرة "كان على فريد أن يعتذر عن هذه المهمة " ، وهي تعتذر إليك وتتأسف لعدم لياقة ولباقة زوجها .

فقال مهدي باسما : بارك الله فيها ، وقبلت اعتذارها .. وفريد كما قلت له ما هو إلا عبد لأسياده فهو كما يقول الضعفاء أعوان الطغاة دائما " ما أنا إلا عبد مأمور ".. فعليه أن يطيع أسياده طاعة عمياء ..عفا الله عن الجميع ، وعن أخيك المحترم

وقالت فوز: وهناك أمر آخر .. فزوجة فريد والدها ضابط كبير في الجيش .. ووعدتني يومها

أن يهتم والدها بأمرك ؛ ولكنك ـ والحمد لله ـ لم تمكث طويلا لديهم .. وهي ترغب بزيارتي .

رد مهدي وقد عاد يضع رأسه على المخدة : على الرحب والسعة .

قالت : ولكنها أجلت ذلك يومذاك ريثما تخرج من المعتقل ، وها أنت قد خرجت فهل أتصل بها ادعوها ؟

رد قائلا وهو يفكر ويتأمل بها أخبر : افعلي .. ثم رسم على جبينه ابتسامة ، وتابع قائلا كأنه قد تذكر شيئا بعدما تأمل في كلام فوز الأخير : آه ! .. فعلا يا فوز! بعد يومين من التحقيق الصارم معي تغيرت معاملة المحققين والحراس معي ، لم يعودوا يقذفونني بالنعوت القذرة ، يا ابن كذا وكذا ، بل حسنوا من نوعية الطعام المقدم لي ، وسمحوا لي بمخالطة المعتقلين ، والحديث معهم ، بعد أن كنت في زنزانة انفرادية ..آه !.. الآن أدركت سر هذا التغير! .. أوه لابدّ أنّ والدها ضابط كبير ومهم أيضا .. لها الشكر الجزيل ولوالدها ، ورحبي بها ، وجزاها الله خيرا .



الرحيل عن الوطن

لقد أصاب مهدي اليأس والإحباط من ظلم ذوي القربى ، وأراد أن يأخذ بنصيحة رجال الأمن والتخلص من الاعتقالات المتكررة ، ومن ثم البحث عن السكينة في بلاد الكفر والغرب ، ومما دفعه وشجعه للهرب أيضا تشرذم التيارات الإسلامية العاملة لعودة الإسلام حاكما للأمة ، ومما دفع صاحبنا للهرب تدافع وتصارع الأحزاب الإسلامية مع بعضها البعض ، وكل ذلك يصب في مصلحة بقاء الحكم الفاسد ، وبقاء الأحزاب الإسلامية ضعيفة أمام العلمانيين والقوميين وغيرهم ، فلذلك كان القرار الحاسم من مهدي بمغادرة البلد من جديد إلى بلاد الغربة ، إلى بلاد يقال أنّ فيها حرية ؛ ولكن ضمن القانون الذي يسودها .

وفوجئ السيد سامي سبل برؤية ابنته في انتظاره أمام مكتبه في البنك الكبير الذي يديره ، وبعد كلام بارد وفاتر وعتاب خفيف بينهما استمع الأب لمشكلة ابنته، ثم قال شامتا أو متأسفا لحالهم : هذا اختيارك يا جميلتي ! ..أنت التي اختارت كل هذا العذاب .. فأنا لم أقس عليك يا بنيتي!.. فأنت التي اخترت دربا غير دربنا ، ولقد حاولت إنقاذك مما أنت فيه من الأحلام وأوهام القرون الوسطى ، فلا تكرهيني ولا تلوميني .. الناس تتقدم وأنتم ترجعون للوراء .

ولما رأى أنّ فتاته صامتة قال : سأدبر أمر سفركما .. أمهليني أسبوعا واحدا ، وسوف تكون تأشيرات دخول ألمانيا بين أيديكم .. أرسلي جوازات سفركم ، وأرجو منكم قبل سفركم أنّ أراك أنت والأولاد وزوجك الثائر الذي يحلم بأن يكون خليفة للمسلمين .

كانت الفتاة تسمع لكلمات السخرية والتهكم من والدها وهي واجمة صامتة ، فهي تعلم أنّ الجدال والتعقيب على كلامه لا جدوى ولا فائدة منه ، فلا حياة ، ولا فكر له إلا الازدياد من الأموال والكسب المشروع في قانون أهل الدنيا .. قانون الاستعمار والظلم .

وبالفعل لم تمض الأيام السبعة حتى كانت تأشيرات الدخول لدولة ألمانيا الأوروبية بين يدي فوز وزوجها مهدي ، وقال لهما مدير مكتب السيد سامي ، وهو يسلمها لهم : إن الوالد المحترم قد حجز لكم أربع تذاكر إلى هناك ، ويود أن يراكم قبل سفركم ، فهو مساء يوم الأحد القادم

موجود في البيت في انتظاركم .. الساعة الثامنة مساء لا تنسوا ذلك .

تعجب أصدقاء مهدي لما علموا برغبته بالهجرة والسفر إلى ألمانيا ، فتحدث معه أكثر من صديق معترضين على فكرة سفره ورحيله .. ثم نشط لزيارته ثلة منهم يتقدمهم صديقه نمر حميد ، وقد صحبتهم زوجاتهم في هذه الزيارة الخطيرة ، وبعدما تصافح القوم وأخذ كل واحد منهم مجلسه في غرفة الاستقبال قال له نمر مغضبا : أزعجتني جدا .. أنا لست مستوعبا لهجرتك الجديدة والمفاجئة!

وقال آخر : نحن نعرفك شجاعا ومقداما وقويا يا أبا عبد الرحمن!

وقال الثالث : نريد أن نعرف الحقيقة والدوافع لهذا الفرار يا صاحبي ؟!

مسح مهدي جبينه من قطرات العرق التي تجمعت عليه وقال بألم وتخاذل : أنا متألم حائر ومتعب وفي غاية الضيق .. رغم غربة عشر سنوات .. وبروز قيادات جديدة في الحزب ما زالت قوى الأمن تنظر إليّ على أنني زعيم كبير في الجماعة .. وهم أيها الأفاضل يضغطون عليّ ويصرون على رحيلي من البلد .. أنا عدوهم الوحيد على ما يبدو ..

ضحك أحد الأصدقاء وقال : يا رجل كلنا يحدث معه هذا! .. حرب نفسية .. حقد حسد كبر هم يرغبون باختفائنا للأبد .. فالكل منا متضايق منهم .. ولكن بفضل الله ما زال الشباب الناشئ ينضوي تحت لواء الجماعة رغم العذابات والألم الممارس علينا .. يا رجل! الإسلام يسري في دماء الأمة .. مهما بذلوا وحطموا سيبقى الإسلام .. الأمة بخير .. لكن الهرب والانزواء لا يحل مشاكلنا .. أنسيت سنة التدافع الإلهية؟! .. فهؤلاء الناس يدعون أنهم يقومون بواجبهم لحماية الديار والعباد منا .. نحن حملة الرايات الإيمانية .. هل جلبت العلمانية والقومية للأمة أي خير؟ نحن سقم لهم .. فقرار السفر يا صديقنا غير سليم .. وما يحدث لك يحدث لنا أنا لما أخبرني نمر باستعدادك للرحيل لأوروبا صدمت! .. الكل يهرب ويخاف .. أوروبا أوروبا أليست أوروبا وراء كل مصائبنا ومآسينا ؟! .. يا صديقنا ! يا زعيمنا القديم ! مع كل الاضطهاد والإزعاج والخنق لقوانا مازال ـ كما قلت آنفا ـ الشباب يتجمعون تحت راية الإسلام .. الناس

تريد الإسلام .. الإسلام لن يهزم يا صديقي .. أخي مهدي فكر من جديد في قرار سفرك .. ها أنا كم مرة أرسلوا لي لمراجعتهم ؟! أحيانا كثيرة يأتيني البلاغ على المدرسة التي أعمل بها .. وأتعطل عن التدريس وأسبب إزعاجا للمدرسة من إدارة وطلاب .. وأحيانا أخرى أقضي بضعة أيام في ضيافتهم .. ومع ذلك ما فكرت بالرحيل والهرب .. السجن والاعتقال لقد تعودنا عليهما .. وأنت أيضا قد قضيت سنوات عمرك وشبابك في السجن .. ألم تعتقل ليلة زفافك؟! وكنت جبلا ونموذجا شجاعا لشباب الفكر الإسلامي الحي..

قد خيم الصمت والوجوم على الجميع ، وهم يسمعون عتاب زميلهم لمهدي .. وعاد الصديق يقول بعدما لعق لعابه : إذا كانت زوجتك أم عبد الرحمن التي عهدناها شجاعة قد تغيرت فاسمح لنسائنا يتحدثن معها .

عندئذ قال مهدي مدافعا عن زوجه : صدق أن فوزا غير متشجعة للرحيل والهجرة أنا الذي ضغطت عليها لتدبر لنا أمر السفر .

فغر الأصدقاء أفواههم دهشة وتمتموا بغمغمات غير واضحة ثم قال نمر : مهدي .. صديقي أنا أسمع كلاما مدهشا! .. والله أنا وقع في قلبي أن أم عبد الرحمن هي التي تشجعك على الهجرة والسفر .. عندما أعود وأتذكر لأيام زمان أيام الجامعة ونشاطك المحموم أستغرب مما أسمع .. يا أخي كلنا تعرضنا للعذاب والهوان .. يا رجل أصحاب الفكر الدنيوي يثبتون على فكرهم العفن ويقاتلون من أجله .. وأنت سافرت للخارج وبقيت سنوات .. لماذا هذه الهزيمة؟! ما دامت السيدة الفاضلة غير متحمسة وغير مريدة للهجرة لماذا تسافر؟! .. فكر بروية وتأنٍ .. أنت صديق العمر! .. هؤلاء الخصوم سيذوبون كما ذاب غيرهم .

دخل عبد الرحمن مهدي بالشاي الساخن ووضعه على منضدة صغيرة ، وأخذ يسكبه في الأكواب ، ثم قدمه لأصدقاء أبيه ، وأثناء ذلك قال أحدهم : نخشى أن تخسر أبناءك في الغربة يا ابن الحلال .. تلك المجتمعات فيها حرية زائدة .

صاح آخر : بل حرية مدمرة قاتلة !

كان مهدي يسمع وينظر لولده ولم ينطق حتى انصرف الفتى فقال : المسلمون اليوم في أوروبا أحسن حالا يا رجل! إنهم يتحركون بحرية .. يكتبون بحرية .. ألا تقرأ ما تأتينا به صحف العرب المهاجرة من أخبار ومعلومات؟! .. يعبدون بحرية .. يتنقلون بحرية ..

فقال أحدهم قاطعا الحديث : هذا وهم يا رجل .. هؤلاء الناس ما زالوا يبغضون الإسلام والدين .. ولا تنظر لحسنات القوم فحسب.. فالسلبيات كثيرة لا تكاد تحصى .. وكم من الأقارب هاجروا إلى هناك خلف المال والحرية والوهم ! ولكنهم ضاعوا وذابوا وفقدوا السيطرة على زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم .. انظر إلى عمك والد زوجتك مدير البنك عندما درس في أمريكا وعاش بها ردحا من الزمن ماذا أصبح ؟! وغيره كثير ..

فقال مهدي كأنه غير مقتنع بما يسمع : وهل للآباء سيطرة على أولادهم هنا في بلاد المسلمين.. الكل يقلد الغرب .. يقلدونهم في اللباس والعمارات والمجون ..

ـ يبقى الأمر أخف من هناك .. ما زالت التقاليد الإسلامية موجودة وتراعى يا أخ مهدي .. وما زال الفرق شاسعا بيننا وبينهم .

قال مهدي : الفرق صغير ..

قال آخر : أنت مرهق جدا .. كلك إحباط !

رد مهدي معترفا بضعفه : الوضع عندي ليس سلبيا ، لا أنكر ذلك أيها الأخوة .. لديهم مساجد كما لدينا مساجد .. لديهم دور لهو بصورها المختلفة ومثل ذلك عندنا .. المدارس التي تعلم الأبناء لا تختلف كثيرا عنهم .. دروس التربية الدينية ضئيلة عندنا ؛ ربما تكون دروس التربية الدينية عندهم أكثر مع يقيننا أن دينهم منسوخ .

أخذ الشباب الكهول يذكرون ويرون قصصا وأمثلة عن ضياع الأسر المهاجرة إلى العالم الغربي حتى ضجر مهدي مما يسمع فقال : يا قوم ! يا إخوان ! بقائي هنا ماذا يفيد المسلمين ؟! أوراقي كلها محروقة .. إنما أزيد هموم أمي وأبي .. أزيد هموم الأطفال الصغار .. كل اعتقال ولو كان إزعاجا وحربا نفسية ضدنا كما ندعي ونقول .. أليس في ذلك هم وغم ومضايقة للوالدين

والأبناء ؟! وركض إخوتي هنا وهناك ، أليس كل هذا يؤلمهم ويضايقهم ؟ وإن لم يقولوا بألسنتهم ؛ ولكن عيونهم تتكلم ! كلما يحدث همٌ في البلد يحضر رجال الأمن في الليل وفي النهار للقبض علينا كأننا مجرمون ولصوص .. وهناك نسمع كل الألفاظ القذرة .. نحن كبرنا .

ضحك أحدهم وقال : الذي يسمعك يظن أننا بلغنا الخمسين والستين يا رجل .. أنت تتكلم بيأس وإحباط شديدين.. هذا ما عهدناه فيك .. أنت لم تكمل السنة بيننا منذ عدت من الغربة ومع ذلك أصبت بكل هذا الوهن .

وقال ثانٍ: أنت تعودت على الراحة والسكينة والحياة العائلية الهادئة .. يا أخي كلنا لنا أهل وآباء وإخوة وزوجات .. فيؤجرون ويثابون على مشاركتنا همومنا وأحلامنا.. أليس نسعى من أجلهم لتعود حياة المجتمع إسلامية؟!

فعاد مهدي يقول : وهل كنا في غربتنا في راحة ؟! .. كل الدول تتعاون على محاربتنا ومعاداتنا صحيح أننا لم نعتقل أثناء وجودنا هناك .. ولكننا تحت العين .. الرسائل مكشوفة .. الاتصالات مراقبة .. تحركاتنا تحت المجهر.. علينا بالصمت ..عدم الحديث في السياسة والإسلام الحركي

وقال نمر حميد : ومع كل ذلك الهروب ليس هو الحل الوحيد ! مهدي أيها الصديق الحبيب ! لابد من الصبر والتصبر.. إن الفرج مع الصبر .

دخل الشاب الصغير يخبر والده أن طعام الغداء قد جهز وأعدت المائدة .. فدعا مهدي الأصدقاء إليه ، فعلق أحدهم وهم يسعون إلى غرفة الطعام فقال : إنك تريد يا مهدي! أن تحرمنا من هذه الجلسات .

ـ دعوني أجرب أوروبا.. أنا لا أخشى السجن فقد جربته .. والاعتقال الإداري فقد جربته .. دعوني أجرب الهجرة !

ـ عجيب أمرك يا أخ مهدي !.. لا أعتقد أن الحاج مروان يرضى لك هذا الاغتراب .. وأنت عدت من الغربة لشيخوخة والديك .. فكيف تبتعد عنهما ؟!

فقال مهدي : أنا أرهقهما بكثرة حبسي وتوقيفي والتحقيق المتتابع معي .. إني أحس بالألم الذي

أسببه لهما في سنهما هذه .. كلما يسمعان بأمر نقلي للأمن ينزعجان ويتحدثان مع المحامين.. تعب عليهم أيها الأعزاء .. لا أحد يستطيع إخفاء الخبر عنهما .. صدقوا هذا أيها الأخوة.

وتابع الأصدقاء ومن غير ملل ، ولا كلل المناقشة حول سفر مهدي المزمع على مائدة الطعام ، وأصر مهدي على الهجرة ولو لبضع سنين ، مدعيا أنه سيخدم الدعوة والدين من خارج الوطن ولن ينقطع عن التواصل معهم ومع الحزب .. وكشف لهم أنه حاول إنشاء شركة خاصة صغيرة وأن أجهزة أمن النظام حذرته من فعل ذلك ، فقال معقبا على هذا الكشف : أرأيتم ؟! إنهم يتمنون لنا الموت .. بل هؤلاء العلمانيون ربما يعتبروننا أمواتا .. علمانيو الغرب أصلح من هؤلاء التعساء .

قال أحد الأصدقاء : إذا على الشغل أنا مستعد أن أدبر لك عملا في شركة لأحد الأقارب .

قال مهدي : ستسبب له المضايقة والعذاب .. هم يا رجل يضيقون عليّ لأخرج من البلد .

ضحك أحدهم وقال : يا رجل أنت رجل مسالم .. منذ خرجت للعمل في الخارج ولم يوجد لك نشاط خطير ..

فأجاب مهدي: ملفي أسود .. أخذوا عني فكرة رهيبة .. كلما ينظر ضابط التحقيق في ملفي ويجده ضخما يظن أنني أكبر مجرم في العالم .. لا يوجد عندهم تبييض ملفات ، كما نسمع بتبييض السجون .. كل مقالة نشرتها لي الصحف حتى خارج البلد مصورة وموضوعة في الملف ، وأنني أهاجم فيها الحاكم والوزارة والأمن والشعب النائم .. علاقة سيئة بيني وبينهم هذه دول تحارب الدين رغم أنها تتدعي أن دينها الإسلام ..أي إسلام ؟ لا أدري ! هل نعود لتعداد مساوئ حكومات الدول الإسلامية وبما فيها العربية ؟!

قال أحدهم : الرحيل يا مهدي خطأ كبير!

قال مهدي بحدة : سأعود .. هل سأقضي العمر في ألمانيا ؟.. ألم يرحل الصحابة للحبشة مرة ومرتين ؟!

قال نمر بحزن وألم : هذا موقف شديد السلبية منك يا أبا عبد الرحمن .. نحن نصحنا لك كل

النصح .. وبقاؤك في البلد خير لك ولأهلك ولأولادك .. هنا تجد القريب والأب والأم والأخ والعم والخال .

قال آخر وبنغمة آسفة أيضا : نحن يعز علينا فراقك .. فقد صحبناك منذ أيام الجامعة والهندسة ونحن لما أخبرتنا بأنك شبعت غربة فرحنا ، وقلنا ستعود أيام الشباب والنشاط .. أيام توزيع المنشورات وقيادة المظاهرات والاحتجاجات .

ـ أنتم تعلمون أن وجودي في الحزب اليوم شكليٌّ .

ضحكوا وقال أحدهم : حتى لو شطبوا اسمك من قائمة الأعضاء .. ستبقى ابن الجماعة ابن الإسلام .

فقال مهدي وقد شربوا القهوة بعد تناول الغداء : يا قوم ! " قطعت جهيزة قول كل خطيب " فتأشيرات الدخول لألمانيا جاهزة وتذاكر السفر قد هيئت .. دعوني أعيش هذه التجربة الجديدة دعوا الحاج مروان أبا محمد ينام بهدوء ويرحل بسلام ورحمة من الله .. كلما أخرج من توقيف واستجواب وأذهب للسلام عليه يتمزق قلبي حزنا وبكاء .. أرجو أن لا تطول الغيبة .

ـ شيء مؤلم يا مهدي.. نحن بذلنا كل الجهد في ثنيك عن الهجرة إلى أوروبا التي قهرتنا بجيوشها واستعمارها .. وها هي اليوم تستقبل شبابنا ورجالنا وعلماءنا ومهندسينا ومفكرينا بكل صدر رحب .. يا للعجب كم نحب من استعبدنا ؟! يبدو بأنك بدأت تحلم مثل الكثير بالحصول على الجنسية الغربية .

تبسم مهدي وقال : وهل الجنسية الغربية تحمي الناس؟.. إنها تحمي ذوي الأصول الأوربية أما نحن فلا .. صدقوا هذا!

ثم غرق مهدي فجأة في الضحك المرتفع حتى دهش الأصحاب من ضحكته فقال لهم : جن مهدي ، قولوا ذلك ، لا حرج عليكم !



وفي مساء الأحد المذكور التقى الأب بابنته فوز وزوجها مهدي لأول مرة ، منذ رأى رجال المخابرات يقبضون عليه في يوم فرحه وزواجه من ابنته ، وعانق الجد حفيديه عبد الرحمن وأحمد وأظهر فرحه برؤيتهما ، ودفع لكل واحد منهما شيكا بقيمة عشرة آلاف دولار أمريكيا، وأمضى الوالد ساعة من الزمن مع صهره وابنته، ولم يتكلم معه في مشاكله وهمومه ؛ ولكن مضى الحديث بينهم عن الحياة في أوروبا ، وتمتع الناس هناك بحقوقهم المدنية الكاملة ، ومدى احترامهم للقوانين والأنظمة التي صنعتها الأجيال .. ثم غادر مهدي وأسرته قافلين لبيتهم .

وكان الأب أثناء المغادرة قد أعطى ابنته شيكا بمبلغ كبير من المال، وأعطاها بضعة عناوين يمكنها الاتصال بها هناك لمساعدتهم في حياتهم في ألمانيا.

ولما تهيأت الأمور للسفر أصاب مهديا اكتئاب ، وتردد في الرحيل ، وقد فكر كثيرا بإلغاء الرحيل ؛ ولكنه كلما يهم باتخاذ هذا القرار يتذكر جلد الجلاد ، وصفع الجنود ، والبصق على وجهه ، وصور الإذلال المختلفة التي يتعرض لهم المعتقل في سراديب الأمن السري ، وإنه لا فائدة من البقاء هنا ، في هذا الوقت عزم على الرحيل ..إنه يتذكر ، كلما يرتكب متدين عملا أو شغبا يعتقل مهدي مروان ؛ فكأنه مسئول عنه ، وما زاد الطين بلة في نظره تفتت وتصارع الأحزاب الإسلامية مع بعضها البعض .. فغادر بطلي قصتنا هذه أرض الوطن إلى أرض الغرب يلتمسان الهدوء والسكينة وراحة البال .. فبلادهم لا إسلام يمارس فيها ، ولا علمانية الغرب تطبق فيها .. نظام حسب الهوى والمزاج .. وفي ألمانيا استقرت الأسرة المهاجرة حتى تتحسن الظروف والأحوال في الوطن ، فلعلهما يعودان إليه مرة أخرى .. وذلك علمه عند رب العالمين .

" تمت بحمد الله "

جمال شاهين

١	ليلة العرس	٢	شمس عمري
٣	أيتام خليل	٤	صديق أمي
٥	الأخ شريف	٦	أستاذ الفرنساوية
٧	غربتي وابنتي	٨	حي أبو خروف
٩	الشقق السوداء	١٠	حياتي قبل الحياة
١١	الحفل بالقط الأسود	١٢	امرأة نزيه
١٣	رهاب الطلاق	١٤	

ليلة عرس

يزعمون لكم نحب الحرية

الحرية الشخصية

حرية الاعتقاد حرية الراي حرية الملك

كل الحريات

وحين يعود المرء المسلم لدينه ولباسه وإسلامه

فإن ذلك في نظرهم وجهلهم تخلف ورجعية

الحق انهم لا يعرفون الإسلام أبدا

فوز

١٩٩٩

شمس عمري

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

شمس عَمري

رواية

جمال شاهين

دار المأمون
للنشر والتوزيع

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

روايات اجتماعية

جمال شاهين

شمس عمري

بسم الله الرحمن الرحيم

شَمسُ عَمري

تأليف

جمال شاهين

دار المأمون
للنشر والتوزيع

٨١٣,٩
شَمس عَمري / الروايات العربية / / العصر الحديث
جمال شاهين / مؤلف من الأردن
الطبعة الأولـى
١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.

كل الحقوق محفوظة

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ١٧٩١/ ٦ / ٢٠٠٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : ١٧٤٠ / ٦ / ٢٠٠٦

دار المأمون للنشر والتوزيع

العبدلي – عمارة جوهرة القدس
تلفاكس : ٤٦٤٥٧٥٧ – ٦ –٠٠٩٦٢
ص.ب ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun@maktoob.com

ردمك : ٨ – ١٤ – ٤٦٢ – ٩٩٥٧ ISBN

عمري

منذ شهور قد انقضت والشاب عمري ناصح يستيقظ فجرا عندما يرتفع آذان الفجر عاليا في المسجد القريب من قصرهم فيلا ناصح الخابي ، وهذا الصحيان اليومي يتكرر كأنه على موعد معه، ومن النادر أن يفوته سماع صوت المؤذن لصلاة الفجر في مسجد الحي ، فيجلس على سريره بضع دقائق ثم يعود للنوم ثانية وهو يتساءل : أيوجد أحد يصلي في هذا المسجد ؟! ولماذا أصلا بنوا هذا الجامع هنا ؟! ..آ .. فلربما للصلاة على أموات الحي .. ربما

ويغفو وهو يردد هذه الاستفهامات ، ثم تطور هذا الحال بعد حين فصار ينهض من فراشه ويجلس في شرفة مطلة على المسجد، فيشاهد بعض الناس يتحركون نحو بيت الله في ظلام الليل فيصيبه العجب من هؤلاء، كان عمري يرى الدين والصلاة وغيرها أشياء قديمة أشياء بالية .. تراث .. من مخلفات الماضي .. فهو منذ خرج للدنيا لم يشاهد والديه يصليان في يوم ما سافر لبريطانيا بعد نجاحه في الثانوية العامة التوجيهي لدراسة التجارة والإدارة في جامعة لندن، فعرف المدنية والمدينة الغربية، وبعد سبع سنوات أمضاها هناك في بلاد الضباب وأي ضباب ؟ ! عاد لأرض الوطن .

فأخذ مشهد مراقبة المسجد والمصلين عند الفجر يتكرر معه في أغلب الأحيان والأيام .. فتدثر ذات فجر بثياب سميكة ، ومشى إلى المسجد فدخله وصلى مع الناس من غير وضوء ولا طهارة ، فهو لا يعرفهما، وإن تعلم شيئا منهما في الصغر أو سمع به في المدرسة، فهو الآن لا يفقه ولا يعي من ذلك شيئا ، لقد كان يدرس كأبناء طبقته في مدارس أجنبية، فمادة التربية الإسلامية كانوا يمرون عليها مرور الكرام وللنجاح فقط .

بعد أن استقر في البلد على أثر عودته من لندن كان هناك دافع باطني يدفعه للصلاة .. للإسلام الذي هجره بل الذي لا يعرفه .. إنه شغوف بمراقبة وملاحظة بعض عمال المصنع الذين يصلون ويتعاطف معهم ويشجعهم على الصلاة ويسمح لهم بالصلاة في وقتين الظهر والعصر، والتوقف عن العمل للصلاة، ويتهاون معهم رغم تعاليه وكشرة وجهه أمامهم .. إنه يحب

المصلين، وفي قرارة نفسه يتمنى أن يصير مثلهم ، لقد ملّ من حياة العبث واللهو والنساء بل قرف ذلك كله وملّه قبل عودته من بريطانيا من أرض الغواية ..

كان الوضع رهيبا عليه في المسجد رهبة الإيمان وتلاوة القرآن .. أناس من طبقة راقية يفارقون أسرتهم الدافئة ليصطفوا وراء الإمام الذي يشدو بهم بحركات وصوت من القرآن .. القرآن إنه كتاب الله للمسلمين .. فيهمس لنفسه: يوجد إذن في الحي خلق يصلون، لم يكن المسجد فارغا، فيه بشر يعبدون الله ! وتهمس شفتاه أثناء العودة للبيت: أحقا هناك جنة ونار ؟ وكيف هما ؟!

كان كل أسبوع يترك الشرفة مرة واحدة متسللا إلى المسجد، ويردد بين حناياه وهو مفعم بالتوتر والوجل والقلق : لماذا لا أتوب ؟! كيف أتوب ؟! ماذا أفعل ؟ أتكلم مع الشيخ ؟ لا .. أأشتري بعضا من الكتب ؟!

كان عمري الخابي يفكر ويتعجب من حياة الأسرة كلها، وجدها في نظره حياة عبثية، لا أهداف عظيمة ومهمة أمامهم، والده ناصح الخابي هدفه في هذه الحياة المزيد من الثروة .. المزيد من اللهو حسابات تكبر في البنوك .. رحلات سياحية لأوربا وأمريكا .. إشباع الجسد فقط، أما الروح فليس لها شيء .. ولكن والده غير ملحد فهو يؤمن بالله، بل يراه يتبرع لبعض الجمعيات الإسلامية بالمال .. بل يتذكر أنه قد تبرع لتشييد المسجد المقام في هذا الحي .. هذا المسجد المجاور إنه لا يحارب الدين، إنه لا يعادي الإسلام .. ولكنه لا يمارس الإسلام .. لا صلاة ولا زكاة .. ولا حج ولا صوم رمضان .. أليست هذه أركان الدين كما سمعت الشيخ الإمام يتحدث ذات صباح ؟!

فعمري ابن هذا الأب، فلما نجح في الدراسة الثانوية أرسله لبريطانيا للحصول على شهادة إنجليزية بدراسة التجارة والأعمال المالية وكسب وتعلم لغة الإنجليز، وهو الابن البكر، ولقد كان بين يديه هناك المال والحرية المطلقة .. فدرس واشتغل؛ ولكنه خلال تلك السنوات السبع زاد عبثه ولهوه، وتعرف على فتيات وغانيات المجتمع في لندن وضواحيها، فحب وانحب،

شرب الشراب المسكر، سافر فرنسا وجنوبها، فعرف ملاهي ونوادي لندن وباريس، تفرج على مسارح تلك المدن وحاناتها، تعلم العلم الأكاديمي، حصل على شهادة الجامعة، وتعلم معه حياة المجون من شبابها وبناتها، طرد من عمله أكثر من مرة، فطلب منه والده العودة للبلاد فعاد بعدما سدد عنه الأب الغني كل ديونه، فاشتغل مع والده بعد حين، بعد سنة من الإحباط والانهيار استسلم واقتنع بالعمل مع سيادة الوالد ناصح وأخيه ناجح، فالسيد ناصح الخابي يملك عددا من المصانع في البلاد .. فبعد ثلاث سنوات وهو يعمل تحت إشراف الوالد ناصح جعله نائبا له في مصنع إنتاج السجاد والموكيت والخيوط، فأصبح الابن الأكبر لناصح باشا الشاب عمري نائبا للمدير .. نائب والده .. والمصنع بالمقياس التجاري في البلاد ناجح .. إنتاج جيد وتوزيع وتسويق جيد، وقد استطاع عمري أن يقود المصنع بنجاح ، وإن لم يكن النجاح الذي يطمح ويحلم به ناصح الخابي، فقد أمضى الشاب سنتين أو أكثر في إدارة مصنع السجاد، فقد كان والده يطمع أن يضيف خطوط إنتاج أخرى للمصنع ليتمكن من التصدير إلى الأقطار المجاورة ..

كما ذكرنا كان عمري يتسلل لصلاة الفجر مرة واحدة في الأسبوع، يتحرك كما يتحرك الناس خلف شيخ الصلاة .. فذات نهار أدخل إلى مكتبه حيث إدارة المصنع شابا شيخا متدينا من عمال المصنع ذا لحية طويلة، وظن العامل حسن أن هناك شكوى عليه أو مشكلة ما .. فأشار عمري لحسن بالجلوس، ولما أغلق الفراش الباب عليهما، قال عمري للشاب المتدين بعد الترحيب والتحية: يا أخ حسن! .. كيف الصلاة ؟ وماذا تفعلون في الصلاة ؟

بهر حسن لهذا الاستفهام، ووجم لحظات قبل أن يفيق من الدهشة وقال لنفسه وهو ينظر في عيني نائب المدير : مسلم يسأل عن كيفية الصلاة وماذا تفعل في الصلاة ؟! ثم أجاب مديره : ماذا يقصد السيد المدير بكيف الصلاة ؟ !

كان عمري يسأل حسنا وهو قائم فجلس قريبا منه وقال : يا أخ حسن ! .. أنا .. أنا أريد أن أتعلم كيف أصلي صلاة صحيحة ؟!صدق يا أخ حسن أنني لا أعرف كيف تكون الصلاة ؟

أراكم تقفون وتنحنون وتسجدون وتتحدثون عن الوضوء .. ولا تستغرب جهلنا بذلك رغم حملنا للشهادات والجامعات ..

فقال الشاب العامل : ألم تتعلم ذلك في المدارس ؟!

فقال عمري كأنه محتجا : أيّ مدارس يا أخي ؟! .. أنا قضيت ثلث عمري في بريطانيا .. ولكني أحس بحيرة .. بضيق .. أحيا في ظلام .. أريد أن أتوب ..

تألم حسن المدهوش مما يسمع وقال : معك حق ، مدارس هذه الأيام لا تعلم الدين والقرآن لدي كتب عن الصلاة والوضوء .. سآتيك بها ..

فقال عمري : أريد أن أسمع .. لا أريد القراءة الآن

فرد حسن : تسمع وتـقرأ

ـ سوف أفعل

فقال حسن وهو يهم بالقيام : العمل يا سيدي والعمال ؟

ـ لا تقلق .. بضع دقائق كل يوم .. إنني أتألم من داخلي يا حسن .. ضقت بهذه الحياة ومللت الملذات ..

فقال حسن : أنا لي صديق طيب وطالب علم، فما رأيك أن تزوره بعد انتهاء الدوام وتتعرف عليه فهو أقدر مني على مساعدتك

فقال عمري : أريد أن أعرف ما تعرفه أنت الآن .. كيف تتوضأ ؟ كيف تصلي ؟ .. وسوف أقرأ وسوف أقابل صاحبك .. أنا عطش جدا للإيمان والصلاة

أخذ حسن يشرح لنائب مدير المصنع كيف الصلاة ، وحدثه عن صفة الاغتسال من الجنابة ، ثم الوضوء للصلاة ، وعلمه أساسيات الصلاة وهيئاتها ، ثم أخذ يتردد على مكتبه كل يوم مدة نصف ساعة تـقل ولا تزيد يعلمه مما يعلم ويمارس ، وكان عمري قد طلب من حسن أن لا يحدث أحدا بما يعلمه ؛كأنه خائف من الناس أو من نفسه ، فعاهده حسن على ذلك بناء على رغبته ، وعلى أثر تلك اللقاءات فقد أصبح الشيخ حسن العامل صديقا لابن المدير البكر وكثر

تردد عمري على المسجد لصلاة الصبح ، فما زال يستيقظ من نومه عندما يسمع صوت المؤذن ، وكثر الهمس في المصنع حول صداقة عمري نائب المدير بالعامل حسن ، بل كان أحيانا يركب حسن مع عمري بسيارته يوصله لأقرب موقف سيارات ليعود إلى أهله ، وأحيانا أخرى يوصله لبيته بنفسه مما زاد من الإشاعات والتكهنات حول هذه الصداقة سواء في المصنع حيث العمال أم في مكاتب الإدارة ، والكل يتطلع ويتشوق لمعرفة أسرارها ، واستمر حسن يتردد على عمري في مكتبه مدة قد تقترب من الشهرين حتى أصبح السيد عمري متقنا للصلاة والوضوء ، وكان سعيدا بذلك ثم الـتقى وتعرف بصديق حسن الشيخ علي الحمد الذي أخذ يشرح له أركان الإيمان والإسلام ومسائل الاعتقاد والآداب ، مما أدهش عمري عندما سمع بآداب النوم والطعام والسفر والسلام وغير ذلك من مواضيع وفقه ، وكبر تعلق عمري بحسن وصاحبه علي ، وكان مسرورا بصحبتهما ورفقتهما ، وذات يوم عندما عاد عمري للبيت التقى بأمه في صالة البيت فقالت الأم : إيه يا عمري ! .. لم تعد تكثر من الجلوس معنا ..أمس تركتنا والضيوف ودخلت للنوم .. ومتى ينام عمري مبكرا مما أدهش بنات عمك ؟ !

فقال بلطف: لم أعد أحب السهريا أمي ..إنني في حيرة .. لماذا نعيش ؟ ! لماذا نأكل ونشرب ونلهو ؟؟

ردت الأم باستغراب : لماذا نعيش ولماذا نلهو ؟! ما هذه الأسئلة يا بني؟ هل بك مرض ؟؟ أنا لي فترة طويلة ألاحظ عليك الشرود والقلق .. وكثيرا ما أراك عند الفجر تجلس عند الشرفة وحتى في شدة البرد والمطر ..

فقال : إني حائر يا أماه .. هل خلقنا فقط للعبث والمزح والسهر ؟ أليس هناك آخرة ؟!

فقالت الأم بقلق : احذر أن يكون كلام أم سعيد حقا ؟

فقال بشرود : أم سعيد عمتي ؟! وما هو كلامها ؟

فقالت بلهجتها القلقة : إن صاحبا لابنها خالد يراك تتردد على المسجد عند صلاة الفجر

ضحك عمري وقال : وهل هذا عيب ؟! .. لي زمن أتردد على المسجد وأصلي الفجر .. روحي

تطلب الصلاة يا أمي ..

رفعت الأم من صوتها وقالت : ويلك ! أجننت يا فتى فالصلاة للعجايز وكبار السن ؟! .. أنا لما سمعتها تتكلم بذلك ضحكت منها وقلت لها كل الناس يصلون إلا عمريا .. فعمري ابن لندن وابن المدنية ..

فقال عمري مسايرا سذاجة أمه : وهل المدنية تمنع الصلاة يا أمي ؟ ! .. الصلاة شيء مهم في حياة الإنسان .. البوذيون يصلون .. !

فقالت الأم : إنك تتكلم بجد ؟ هذه أمور لا نحب رؤيتها في البيت .. أنا لما حدثتني بدرية عن أشرطة كاسيت القرآن الموجودة في غرفتك ظننتها لأحد عمالك ..

فقال عمري : أمي إنني بحاجة للراحة الآن أجلي الكلام لوقت آخر ..

فقالت : هذا أمر خطير لا يؤجل .. هذا البيت ليس مكانا للعبادة

جحرها عمري بطرف عينيه قائلا : إنك تتكلمين بلسان الشيطان ..

وانسحب إلى حجرته وألقى بنفسه على السرير ثم راح في سبات عميق .

حسن

كان المدير العام لجميع شركات ومصانع الخابي الأستاذ ناصح الخابي يتابع نشاطات مصنع السجاد عن طريق ولده عمري ، وعن طريق التقرير المالي الذي يعده كبير محاسبي المصنع أسبوعيا ويقدمه إلى مكاتب الشركات الرئيسية ، وكان أيضا يتلقى تقريرا إداريا من السكرتاريا للمصنع وشؤون العمال والموظفين ، ولقد كانت الآنسة العانس نسرين غانم من قدماء موظفي المصنع ، فهي بذكائها وخبرتها تعرف كل نشاطات وإنتاج المصنع ، فكان أحيانا يتصل بها السيد ناصح ليسمع منها أخبار المصنع وعلاقات العمال والإدارة ، وكان السيد المدير يحب أن تكون علاقـات العمال بالإدارة علاقـات جامدة في حدود العمل والإشراف فقط ، لذلك كان المدير متضايقا من علاقـات نائبه في المصنع بالعامل حسن وغيره وذات صباح عندما دخل عمري مكتبه وجد أمرا بنـقل العامل حسن إلى مصنع آخر أو فصله من العمل ، فطلب السكرتيرة وسألها من أتى بهذا الطلب ؟ فأجابت وصل مع البريد من الإدارة العامة

فقال باقتضاب : مع السلامة ومزق الطلب ورماه في سلة النفايات كأنه لم يتلقه ، ثم تابع قراءة الخطابات الأخرى ومراسلات الشركات وطلباتها ويشرح عليها باللازم ، ثم نزل ومعه مدير الإنتاج المهندس رياض نحو ماكنات النسيج والتصنيع ، فمكث بين العمال بضع ساعات ، ثم رجع للمكتب ومعه رفيقه حسن فشربا الشاي ، ثم غادر الشركة عائدا للبيت ، ولم يكد يدخل غرفته الخاصة حتى رن جرس الهاتف ، وكان المتحدث والده ناصح وتحدث معه بغضب : لماذا تركت المصنع يا عمري ؟ ! .. لقد دهشت عندما أخبروني بأنك انصرفت للبيت، منذ متى وأنت تترك الشغل للغرباء ؟!

ـ باختصار يا أبي إنني متعب فقلت لمدير الإنتاج المهندس رياض إنني أشعر بإرهاق .. ورياض هو أنا ، ألم تـقل لي ذلك مرارا وهو ليس غريبا عن العمل .. ؟

ـ حسنا .. لما أراك مساء نتكلم ، فأنا لم تعد تعجبني أفعالك هذه الأيام

ضحك عمري وهو يقول : لما تعود إن شاء الله .. أسمع هذه الأفعال التي لا تعجبك

فتمتم الأب بكلمات أخرى غاضبة وأغلق الهاتف ، ووضع عمـري السماعة من جانبه وهـو

يقول : لماذا يكرهون التوبة .. الصلاة ؟؟! .. وهل العلمانية التي يتمسكون بها تمنع الناس من الصلاة ؟ إنهم قوم ظالمون .. ما ألذ الكلام الذي أسمعه من الشيخ علي والشيخ حسن !! إنني عطش وجائع لمثل هذا الكلام الروحاني

ثم نهض فصلى الظهر ورقد ، فهو على موعد مع محاضرة إسلامية في نادي الصلاح ، وتبسم وهو يتذكر ذلك وقال : والله صرت أحضر محاضرات دينية بدلا من حفلات الأغاني والرقص

*****

فعندما عاد عمري من الدرس الديني بعد صلاة العشاء ،كان والده قد خرج هو وزوجته إلى حضور حفلة عيد ميلاد إحدى بنات أصدقائه ، فحمد الله على عدم لقاء الوالد فأخلد إلى النوم وكان من عادته الاستيقاظ فجرا فيتسلل إلى الجامع لصلاة الصبح ، ولما تنقضي الصلاة يعود ويطلب من الشغالة حسنية كوبا من الحليب ، ثم يقرأ حزبا من القرآن ، ثم يخرج من حجرته فيجلس في حديقة الفيلا ساعة من الزمن ، ولما تصل عقارب الساعة إلى السابعة صباحا ينطلق إلى المصنع ، فهذا ديدنه منذ تحرك الإيمان والهداية في قلبه ، فيصل قبل مجيء العمال فيجلس مع رجال الحراسة والأمن ، المكلفون بحماية المصنع ، فيداعبهم ويمزح معهم ، وقد يشرب الشاي معهم مما يثير عجبهم ، لقد كان عمري قبل سنة بل شهور لا يحب إلقاء السلام على أحد ، ولا يحب الكلام مع أحد ، ولهم منذ شهور يحسون ويدركون التغير الذي حدث لعمري ؛ ولكنهم لا يعرفون سر ذلك التحول الحقيقي .. فهناك أقوال وإشاعات تتردد في ثنايا المصنع ، منها أنه سيترك المصنع لإدارة مصنع آخر من مصانع والده فيحب أن يترك طابعا وأثرا حسنا لدى الناس البسطاء في آخر ايامه بينهم ، ومنهم من يقول إنه غضبان من والده فيحب أن يغير التقاليد السائرة بين الإدارة والعمال من الجفاء والصلابة ، ويقولون أقوالا أخرى ، ولم يتحدث أحدهم على أن الدين والتوبة هي التي جعلته يتغير ويتواضع للجلوس والحديث مع الحراس والعمال ويشرب الشاي بصحبتهم ، ويمزح معهم ولا يتطلع إليهم من عل ، وما هو إلا إنسان بسيط مثلهم ؛ ولكن الله ابتلاه واختبره بنعمة المال والثراء والغنى وابن المدير ، هذا لم يدر في خلد أحد من العمال والحراس إلا حسن الذي عاهده على الكتمان وعدم التحدث عن توبته وتركه

للمعاصي ، وكذلك لم يعد يحمل السكرتيرة نسرين غانم في سيارته عند انصرافه من العمل ، بل يتأخر في المصنع أحيانا كثيرة حتى تنصرف الأوانس والسيدات ، لقد كانت نسرين غانم تظهر نفسها مالكة للمصنع لأنها من أوائل الموظفات اللواتي عملن في المصنع وهو قيد الإنشاء والتأسيس قبل أكثر من عشر سنوات ؛ ولأن السيد ناصحا يعتمد عليها فكانت ترى نفسها المديرة الفعلية للمصنع ، ولولا أن عمريا استلم منصب نائب المدير لظلت ترى نفسها في تلك الصورة ، لم يعد الشاب يتكلم كثيرا مع فتيات المصنع أو يغازلهن كما كان يفعل معهن قديما عندما كان يرى فتاة حلوة ، التغير والانقلاب بدأا يظهران على طباع وأخلاق عمري ؛ وحتى الدوام الوظيفي كان من النادر أن يدخل المصنع قبل العاشرة صباحا بعكس هذه الأيام .

إذن أصبح الشاب ابن الثلاثين ربيعا يتابع الجميع بل يتقبل الأخطاء والأعذار بكل سهولة ، لم يعد يصرخ ويرفع صوته ويصب غضبه على من يرتكب خطأ في المصنع ، فقد أصبح يتدبر الأمر ويحاول إصلاحه بدون غضب بل يضغط على مدير الإنتاج للعفو والمسامحة ، والإنتاج لم يتأثر بنقص وغش بهذا الأسلوب اللين .

وفي ذلك الصباح لم يحاول انتظار خروج الوالد لسماع بعض طلباته وتعليماته ، فلما حان وقت انطلاقة الصباح ركب سيارته متجها إلى المصنع كعادته الجديدة ، فجلس مع رجال الأمن والحماية وشرب الشاي معهم ، ولما أقبل الفراشون وفتحوا المكاتب دخل إلى مكتبه ، وقد كان على المكتب مذياع صغير ففتحه على إذاعة القرآن الكريم وشرع يستمع اليه بتأمل ، فلما شعر بدخول موظفي السكرتاريا والإدارة إلى مكاتبهم أغلقه وانتظر دخول السكرتيرة عليه بملفات وبريد وأعمال المكتب لهذا النهار .. وكأنه فوجئ بدخول الآنسة نسرين ، فعادة أول من يدخل عليه صباح كل يوم سكرتيرته ريما ، وإذا كان هناك أشياء مهمة تتبعها الآنسة نسرين .. فرحب بها وعلى وجهه السؤال .. فوضعت الأوراق على المكتب وقالت : الآنسة ريما طلبت إجازة أمس ووافق عليها المهندس رياض .. وربما تستقيل ..

فهتف باستغراب : تستقيل ! ولماذا ؟!

ـ تقول إن هناك مشروع خطبة وزواج والخطيب المتقدم لها لا يحب لها العمل كسكرتيرة

فقال بهدوء : عقبال عندك يا آنسة نسرين ..

وقبل أن يتابع كلامه قالت : يا ليت يا أستاذ عمري !

وتابع عمري قائلا : إن شاء الله .. فريما فتاة مهذبة .. كم أسأت لها قديما ؟ ولا أظن إلا أنها راضية عني في الأيام الأخيرة ..

فضحكت نسرين وقالت : كل العمال يتحدثون عن التغيير الجاري لنائب المدير .. فلم يعودوا يسمعون صوتكم المرتفع وشتمك ونفرزتك ؛ وهم يتساءلون بينهم ما الذي قلب الأستاذ عمري إلى هذه الهيئة الحسنة ..

فتبسم وقال بدون أن يشعرها بما وراء الكلام : الإيمان!!

فقالت باسمة ومتشككة : فكلنا مؤمنون ، وهل نحن كفار يا حضرة الأستاذ ؟ !

فضحك أو تبسم وقال : ماذا في هذه الأوراق التي وضعت على المكتب ؟ بل قبل ذلك .. اتصالات أمس ؟

فأخرجت ورقة من ثوبها وقالت : اتصالات كثيرة أجاب عليها المهندس رياض ؛ ولكن أهمها تلفون حضرة الوالد المدير العام .. فلقد اتصل وسأل عن نقل ذلك العامل ..

فقال عمري وهو ينظر في وجهها : وماذا قلت له يا عزيزتي ؟!

قالت وهي تنظر في عيني عمري بقلق وحيرة : أولا قلت له إنك غادرت المصنع إلى البيت كما أخبرتنا .. وثانيا قلت له إنك لم تنقل العامل ولم يتصرف نائب المدير بـعد ..

هز عمري كتفيه وهو يسمعها ، فلما صمتت قال : ما هي أسباب نقل هذا الشاب أو طرده كما تريدون ؟

فقالت بنبرة تهكمية : كما نريد .. بل كما يريد المدير العام السيد ناصح

فضحك عمري ورد : وهل يعرف حضرة الوالد المدير الشاب العامل حسنا ؟ .. فالوالد المدير يأتي المصنع في الأسبوع مرة ، ويمكث ساعة أو ساعتين على الأكثر ثم يغادر ، وأحيانا لا يرى ولا يقبل مقابلة أي عامل .. يا آنسة نسرين ..

فقالت بقلق وتوتر : ماذا تقصد ؟!

فقال بنبرة فيها حدة : أقصد يا آنسة نسرين ! ما هي الشكوى التي رفعت للوالد عن حسن ليطلب فصله ؟! .. أم لأنني استدعيه لأسأله عن العمال وأحوال العمال ؟

فقالت بدهشة وضيق : أنت تستدعيه من أجل ذلك .. ؟!

فقال وهو يحدق النظر في عينيها : وإلا لماذا أجتمع به كل يوم؟

فقالت بحيرة : لست ادري ! اسأل الوالد عن سبب نـقله أو فصله ؟

فقال : بالتأكيد سوف أسأله .. أنا لم أجلس معه أمس .. على كل حال عودي لمكتبك ريثما أطلع على هذه الملفات والخطابات ..

خرجت نسرين من مكتب عمري محتارة ومدهوشة من كلام عمري وهي تقول لنفسها : يا لك من ولد ذكي !! إذن حسن جاسوسك على العمال .. وأنا كنت أظنه يعلمك الصلاة والوضوء .. آه .. إنك داهية خبيث يا عمري ! ابن أبيك ! .. عرفت كيف تلعب بحسن ؟!.. دخلت عليه من باب الصلاة والتوبة .. أليس بذلك يتحدثان ؟ ! .. هذا ما سمعته أذناي .. عليّ أن اصلح الخطأ حالا قبل أن ينقل حسن أو يطرد

فخرجت من مكتبها واتصلت بالسيد المدير ، ونقلت له الصورة الخاطئة التي نقلتها له عن حسن ، فاستغرب المدير من ذلك وقال : لا بأس .. سوف أتجاهل المطالبة بنقل حسن لمصنع الزيوت ..

وتجاهلت نسرين عين ناصح في المصنع الشيخ حسنا ؛ فهي تعتقد الآن أنه عميل عمري بين العمال ، وما الحديث عن الصلاة والإسلام والتدين والخلوات ما هي إلا غطاء أمام عيون وآذان العمال ولكنها عادت تهمس قائلة مترددة في الاستنتاج : ولكن عمرياً قد تغير فعلا .. هل هذا كله تمثيل في تمثيل ؟! .. الله أعلم .. أمر محير !

زواج نوال

كانت العلاقة الحسنة بين حسن وعمري قد عظمت ، وأصبح عمري ابن المليونير الفتى الثري صديقا للشاب العامل الفقير في مصنع السجاد ، نسي عمري الفارق الطبقي بينهما ، ووجد راحة وحلاوة في صداقة حسن أكثر مما وجدها في أبناء عمه وأبناء أصدقاء أبيه والعائلة ، فقد وجد أن العلاقة بينه وبين حسن علاقة حب في الله ، ليس هناك مصالح مادية تربطهما .. وقد استطاع معالجة مشكلة حسن بسرعة وذكاء، فهو يعرف بكل يقين أن الآنسة نسرين عين والده في المصنع ، وهذا لا يخفى على أي رجل يملك ذرة بسيطة من العقل والفطنة .. لأنها تعطي نفسها أكبر من حجمها في المصنع بحجة أنها من أقدم الموظفات .. وعمري لا ينكر قدراتها الكبيرة في داخل الإدارة والاجتماعات والعلاقات العامة .. فقد استطاع أن يوحي إليها بأن حسنا عين له بين العمال ينقل له أقوالهم ونشاطهم .. وعمري لا يقتنع بجودة هذا الأسلوب في السيطرة على إدارة المصنع .. فكانت القاعدة عنده حسن الإنتاج وحسن التوزيع هما كفاءة العمال والإدارة ؛ فإذا كان هناك إنتاج مقبول فمعنى ذلك أن العمال يؤدون واجباتهم وينفذون خطط العمل المرسومة .. ولكنه يعرف نفسية الآنسة وأنها عين والده عليهم فجاءها من هذا الباب فأوحى إليها أن حسنا عينه ورجله عند العمال ، فتقبلت ذلك بسهولة ، ولذلك أسرعت بتصحيح الأمر مع السيد ناصح ، فسر عمري من نفسه وعلق قائلا : المريض يظن أن كل الناس مرضى مثله .

وهكذا استمرت العلاقة داخل المصنع طيبة بين حسن وعمري ، وأما نسرين فقد قتلها الشك والوسواس بصدق نوايا عمري ، ذات مساء عندما رجع نائب المدير للبيت استقبلته أمه بالترحاب على غير العادة ، أو فقل من النادر أن يدخل البيت ويصطدم بأمه فإنها يجد في استقباله الشغالة حسنية ، فأمه إما في زيارة صديقة أو نادي أو جمعية أو في استقبال صديقة ، فقال باستغراب : أمي في انتظاري .. هذا أمر عجيب يا أم عمري ؟! لابد أن هناك شيئا مهما لتجلسي في الصالة لاستقبالي ؟!

فأخذتها الضحكة وقالت باسمة : دائما أنت هكذا تحب المداعبة .. أهلا بولدي الحبيب ..

فعلا يوجد شيء مهم سيحدث الليلة هنا في البيت ولك أيها الولد الحبيب . .

فقال : على كل حال .. سأدخل الحمام لاغتسل ثم أعود فأسمع هذا الأمر المهم والخطير

فقالت : اذهب فنحن في انتظارك قبل حضور الضيوف

كان عمري غير مقتنع بكل أفعال أمه ، وكان يرى أنها كلها أفعال لتضييع الوقت ولا فائدة ترجى منها ، وإنما هي كلام ودعوات وحقوق النسوان ، فكان يرى كل ذلك كلام ببغاوات لا أكثر ولا أقل ، فقد عاش في بريطانيا وكان يسمع ويرى مثل هذه الجمعيات والحركات ، وكان يردد قائلا : لو أنهم حريصون فعلا على حقوق وحياة الإنسان المغلوب على أمره ما صنعوا سلاحا ولا قنابل ذرية .. وسيطرة وحروب ..

اغتسل عمري وأزال عرق اليوم عن البدن ودخل حجرته الخاصة ، وكان يدرك أن أختيه وربما أمه يعبثون في مكتبه الصغير وأوراقه ، فكان لا يكترث للأمر والتفتيش ويهمله ويراه من باب الفضول ، فنام نصف ساعة من الزمن ، واستيقظ على صراخ أمه فنهض وهو يقول : يا أمي ماذا جرى في الكون ؟ !

فصاحت وهي مازالت تقف عند باب الغرفة : أنا ظننت أنك ما زلت في الحمام .. وأنت نائم هنا .. قد حضرت امرأة عمك عزيزة وبناتها نوال وأنعام فتعال سلم عليهن

فجلس على حافة السرير وهو يقول : بعد قليل

ولكنه رأى البنات قد دفعن الباب ودخلن وهن يعلقن ويمزحن معه فقالت إحداهن : إيه يا عمري .. سمعنا أنك قد صرت شيخا .. أليس ذلك مبكرا ؟ !

فقال بحدة ولم يعجبه دخولهن عليه الحجرة بهذه الصورة : الموت عندما يأتي لا يسأل عن المبكر والمتأخر ..

فوجمت الفتيات العاشقات للمرح ، فكلمة الموت وإن يرددها الناس يوميا ولكن لها في بعض الأحيان وقع على النفوس فهمسن : الموت !!

وقالت نوال : الموت يا عمري .. ما بك نحن نحدثك عن ... عن ماذا ؟ !

فقالت أنعام : عن الشيوخ والصلاة ..

فقال عمري وهو يقف : أهلا ببنات عمي .. أهلا وسهلا ..

فقالت نوال : ألا تصافحنا فقد سمعنا ...

فقال : ما دام قد قلتي عني شيخا فكيف يحق للشيخ أن يصافح النساء ؟ !

فقالت نوال: والله عجيب حالك يا عمري!.. كدت أصدق أنك شيخ ، فعندما تحدثنا بدرية الجميلة عن تدينك أسخر وأهزأ منها وأظن أنها تبالغ .. أنت ناقصك لحية ..

فقال باسما : قريبا .. يا مرحبا .. اسمحن لي بغسل وجهي ..

فقالت أنعام متضاحكة : واسمح لنا بالعبث بمحتويات غرفتك

فقال : افعلن ما تشأن عسى الله أن يتوب عليكن ..

فقالت نوال متضايقة : ويلك .. لم نتمتع بالدنيا بعد ..

فقال : وهل التدين يمنع التمتع بالدنيا .. يا قمر آل الخابي .. ؟

فقالت أنعام ضاحكة : بعدك تردد كلمات حلوة يا عمري بيك

فقال ضاحكا : سأغسل وجهي وأذهب لتحية امرأة عمي السيدة عزيزة

مشى نحو حوض الغسيل وغسل يديه ووجهه ثم سار لتحية امرأة عمه فحياها ورحب بها ثم التفت لأخته قائلا : أين أمك يا قمرية ؟

فردت أخته قائلة : تتحدث بالتلفون مع .. مع ..

فعاد يرحب بامرأة عمه ويسألها عن العم ناجح وابن العم صابر ، فالسيد ناجح شقيق والده له ولد واحد فقط وأربع بنات منهن اثنتان متزوجات نهى ونهال ، وعمري منذ اهتدى وأصبح يحافظ على الصلاة لم يحاول فرض نفسه وما وصل إليه من هدايات وقناعات على أفراد البيت لم يحاول أن يتدخل في لباس أختيه وأمه ، وكان يتجنب الإفاضة بالحديث عن الصلاة والإسلام فقد ترك ذلك للأيام ، ولما حضرت أمه رحبت بابنها البكر وقالت وكلها ضحك : أين البنات يا أمير ؟

فأشار إلى حجرته ثم قال كأنه فطن لشيء ما : أمي العزيزة عندما دخلت البيت ذكرت لي أن هناك أمرا مهما .. فما هو هذا الشيء المهم يا أمي الغالية ؟؟

نظرن إليه جميعهن لحظات وأخذن بالضحك والابتسام ، وسمع أنعام القادمة تقول : إيه يا عمري .. ألم يحدثك العم العزيز بالموضوع ؟!

فالتفت إليها مقطبا وقال : لي أسبوع لم أجلس مع أبي .. ما هي إلا دقائق .. إذا التقينا في المصنع ما هو الموضوع يا آنسة أنعام ؟؟ .. يبدو أنكم كلكم تعرفون بالموضوع إلا أنا ..

فقالت الأم مريم صادق : أنت لم تعد تسمع مشاريعنا وأخبارنا .. أنت تعيش في عالم بعيد عنا كأنك ما زلت في لندن ..

فقالت أنعام : باختصار يا بيك لقد اتفق عمي ناصح ووالدي ناجح على اقترانك بالآنسة المحترمة نوال .. التي توردت وجنتاها من الخجل ، وهي لما سمعت أبي يصارحها بذلك كاد رأسها أن يصل للسماء من الفرح والسعادة ..

فصاحت نوال : اسكتي ما أطول لسانك يا ابنة عزيزة ..

وكان عمري ينظر بعينيه إلى جميع العيون ثم قال : أمعقول هذا ؟! فأبي لم يفاتحني بذلك ولو على الهاتف .. !

فقالت قمرية أخته الكبرى : ماذا تقصد ؟ !

فقال بصوت ناعم : لا أقصد شيئا ولكن كيف تتفقون على أمر مهم كهذا دون أخذ صوتي ؟ أين الديمقراطية ؟!

فأجابت أمه : الأمر حدث بين والدك وعمك منذ يومين ولم أشاور فيه أنا ولا امرأة عمك هم اتفقوا وقرروا وما علينا إلا التنفيذ .. ونوال فتاة تحبك من أيام ذهابك إلى لندن ، وهي قد أنهت دراستها الجامعية وتعمل في مصرف السيد طارق صديق والدك

فقال موجها كلامه لنوال : يا نوال هذا زواج وليس لعبة ..

فقالت أمه : الليلة سنحتفل احتفالا صغيرا بموافقتكم .. لذلك سيأتي أبوك وعمك مبكرين من أجل المشاركة في هذا الحفل

فنهض عمري قائما وهو يقول : سأدخل للصلاة .. فقد سمعت المؤذن ينادي .. ألا تصلين يا نوال يا ابنة عمي العزيز ؟

فقالت بدهشة وهي تنظر في عينيه : أصلي !!

فقال باسما او متهكما : الصلاة .. ألا تعرفينها ؟ألم تدخلن عليّ وتقلن إنني صرت شيخا ؟ .. فالشيخ يصلي .. وزوجة الشيخ أيضا تصلي..

فردت عزيزة : اذهب فصلي .. سوف تصلي نوال يا عمري بيك .. سأعلمها الصلاة يا شيخ عمري

فالتفت إلى امرأة عمه وقال وهو يبتعد : ولا تنسي أن تشتري لها ثياب الصلاة وغطاء شعر الرأس

وتركهن واجمات حائرات فترة حتى قطعت أنعام الصمت قائلة : والله سوف تكونين أجمل فتاة يا نوال وأنت تغطين شعر رأسك ! .. وستخف زيارتك (للكوافير) إن لم تنقطع نهائيا وستتضايق ماري .. إذا فقدت زبونا آخر

فتبسمت الفتيات للتعليق الساخر وقالت قمرية : ومن هو الزبون الأول ؟

فأجابت أنعام قائلة : السيدة رشيدة .. لقد رحلت إلى أمريكا عند أولادها، فماري دائما تتحدث عن خسارتها لهذه الزبونة ، فقد كانت تتردد على الصالون في الأسبوع مرتين أو ثلاث غير المناسبات والسهرات ..

وقالت عزيزة لمريم : يا مريم بدأت أخاف من عمري .. لا أدري كيف أنتم ساكتون عنه لليوم ؟! .. منذ متى ونحن نرى مصلين في بيوتنا ؟

فقالت بدرية قبل أن ترد أمها : وهل الصلاة حرام يا امرأة عمي ؟

فأجابت عزيزة : لا أقصد ذلك ؛ ولكن عشرات السنين مرت ولم نر أحدا يصلي في بيوتنا منذ تزوجت عمك ناجحا ما رأيته يسجد لله سجدة واحدة .. وكذلك أبوك ناصح باشا

فقالت بدرية : أنا أقرأ كل الكتب الصغيرة التي يحضرها عمري .. وقد سمعت بعضا من الأشرطة (الكاسيت) التي ملأت غرفته .. حتى أنني فكرت أن أصلي مثله ..

فصاحت أمها مريم فيها : ما هذا الكلام يا بدرية ؟! فلنحول البيت إلى معبد ونستأجر إماما

فقالت أنعام ضاحكة وهازئة : الإمام موجود .. الشيخ عمري

جرت الموافقة المبدئية من كلا الفريقين وأصبح عمري خطيبا للآنسة نوال ابنة عمه الموظفة في البنك ، كان عمري يتجنب الصدام المباشر مع أبيه في هذه الفترة ، ورضي بالزواج بهذه الطريقة التي رسمها الأخوان ، ولقد كانت نوال الفتاة الحسناء سعيدة بهذا الزواج ، وكانت ترى أن عمريا هو فارس أحلامها وزوج المستقبل ، الحسن والرجولة والثروة كل ذلك موجود فيه ، ولكن التغيرات الأخيرة في شخصية عمري كانت غريبة على البيئة التي يعيشون فيها ، فهم عندهم انفتاح اجتماعي كبير على الأصدقاء والحفلات والنزهات ، وكانت تحلم بزوج يدور ويلف بها في مدن وعواصم الدنيا لترى العالم ، لذلك انقبضت نفسها وهي عائدة للبيت في ذلك المساء ، وهي تعد زوجها القادم بالصلاة ، إنها لا تدري كيف تصلي ؟ منذ ولدت لم تر أحدا في البيت يصلي ويصوم ، هذه الكلمات لا يرونها إلا في الأفلام والمسلسلات فكانت منقبضة ومهمومة وهي تتخيل أنها ستضع على رأسها غطاء خمارا .. نوال صاحبة الجمال والحسن والبهاء تغطي رأسها .. إنها مصيبة .. أخذت تتصور الفتيات المحجبات التي مررن بها أثناء دراستها في الجامعة ، فكانت تستغرب من حملهن كل هذه الثياب على أبدانهن وكانت تحب المزح والسخرية منهن ، فقالت لنفسها وهي تتذكر تلك المشاهد والصور : أخشى أن ألبس هذه الثياب يوما ما .. كنت أرى أن عمريا آخر واحد في الدنيا يتغير .. ولكنه يصلي منذ زمن وها هو رمضان على الأبواب .. فهل سيطلب مني الصيام ؟!

بدأت تفكر بالحياة القادمة وكلها خوف ووجل ، وعادت تقول لنفسها أثناء العودة للبيت في تلك الليلة التي يجب أن تكون من الليالي الجميلة في حياتها : منذ تغير عمري وسمعنا أنه تاب إلى الله لم نعد نسمع أنه ذهب للسينما .. للمسرح .. لم يشاهد في حفلة عيد ميلاد لم نره في مرقص إنني لم أكن أرى ذلك .. هل وقعت في ورطة ؟ .. إنه قد قال لي أثناء الوداع .. نوال هل ستصلين مثلي ؟ .. هل ستتوبين مثلي ؟ فقلت له باستسلام ودون تردد أو حتى تفكير : أنا افعل ما تريد وما تشاء .. أنا سأكون زوجتك وحبيبتك .. فرددت : أتوب .. ما معنى أتوب ؟ وأتوب من ماذا ؟ ثم سمحت لنفسها بالسوأل قائلة : هل عمري الزوج المناسب لك يا نوال ؟ .. الصلاة هل تمنع الرحلات ؟ أليس حلمي أن أزور كل مدن العالم ؟ هذا الحلم بدأ يتلاشى .. أنا لم أتزوج

بعد .. ما زال لدينا وقت لإنهاء كل شيء .. ويذهب عمري من حياتي .. آه يا دنيا .. عمري الذي تمنيته كثيرا .. كم تخيلت نفسي واياه ونحن نحلق حول العالم ؟! .. سنتمتع بثروات الآباء لقد تحدث معي قبل مغادرتهم وأعلمني أنه سيتصل بي عند الفجر لأقوم للصلاة .. كيف هي الصلاة ؟ .. عمري ما تعلمت ذلك ولا فكرت بذلك يوما .

كان تفكيرها بالصلاة يشكل لها هما كبيرا فهي تظن أن الصلاة صعبة ومعقدة أو كأنه صعود جبل عال .. لذلك فما كادت تدخل البيت وتدخل غرفتها مع شقيقتها أنعام وتلبس ملابس النوم وتضع نفسها على السرير الخاص بها فتقول لشقيقتها أنعام التي سبقتها للغرفة : إني خائفة من هذا الزواج ؟!

فقالت أنعام وكانت تدرك الصورة الجديدة لعمري وتعرف أحلام أختها نوال : معك حق لم يعد عمري عمريا الذي نعرفه .. المرح والمزح والكذب والغزل واللعن وحتى الوقاحة

فقالت نوال وكلها تفكير وقلق : ألم نلاحظ نحن كل ذلك كل هذه الشهور الفائتة ؟

فأجابت أختها : كانت عيوننا مغمضة .. فنحن منذ ما يقارب التسعة أشهر لم نر عمريا في فندق في مهرجان في صالة رقص أو موسيقى أو مسرح .. لقد كان على عيوننا نظارات سوداء

فعادت نوال تهمس : إني خائفة منه !

ـ هو ليس وحشا .. هو ابن آدم .. هو حبيب القلب .. كم ألف مرة سمعتك تتمنين الاقتران به ؟ .. ها هي الأمنية قد تحققت .. فاصبري .. وتغيري كما يريد منك .. ألم يتغير هو ؟ .. فهو ابن لندن ..وكم حدثنا عن مغامراته ونزواته هناك ، وها هو قد تغير يا نوال .. لا تفكري بالتخلي عنه .. ولا تدعي هذه الفكرة تكبر في نفسك .. حتى لا تندمي غدا يا حبيبتي .. وأنت يمكنك أن تعيديه إلى التقاليد والعادات التي شببنا عليها

فقالت : إنه يريدني أن أصلي

ـ صلي.. أو كلما سألك صليت قولي صليت

ـ أكذب عليه

ـ الحياة كلها كذب .. وهل هي أول مرة تكذبين ؟ !

ـ قد يعرف .. ولما نتزوج سيعرف كذبي .. سيغضب .. وأنت تعرفين غضبه .. فكيف عندما نكون زوجين ؟

فقالت أنعام : عليك بتغييره يا حبيبتي .. لا تفكري الآن بتركه لأنك تحبينه

فحدقت نوال بنظرها في السقف وقالت : أنا ألبس الحجاب والخمار ؟ ! .. إنني لا أكاد أصدق ذلك !

فضحكت أنعام وقالت : عليك أن تصدقي يا جميلتي .. الدنيا تتغير

ابتعاد عمري

بالتأكيد التغير من التبرج والسفور للحجاب الشرعي في مجتمع أو عائلات كلها على هذا النمط أمر صعب وغريب ، فلم يكن الأمر على نوال بسيطا وهينا كما نكتب في هذه الأوراق ، فأمر الحجاب عندهم أمر يدل على التخلف والرجعية والجهل والتعصب وغير ذلك من الأسماء الكبيرة في بابها ، لذلك إذا لم ينبع التغير من ذات ونفس الشخص ، فأمر الانقلاب صعب وقاس عليه وعلى من حوله ، فنوال لم تكن عندها هذه الرغبة وهذا النمط من الحياة الجديدة ؛ ولكن حبها لابن عمها الشاب لم يسعفها من رؤية ذلك الانقلاب في حياة عمري ، والتخلي عن السفور والتبرج بضغط من الآخرين ليس بالأمر الهين ، وعمري لما بدأ يشتد في قلبه الإيمان لم يكن يرى أن نوالا هي الزوجة المناسبة له ، كان يحلم بفتاة متدينة متمسكة بالصلاة والجلباب الشرعي ، فهو يريد زوجة جاهزة ملتزمة بأمر الله ، هذا عندما كان يفكر بزوجة المستقبل والزواج ، وكم من مرة سمع صاحبيه حسنا وعليا يشجعانه على الزواج .. فيقول : مهلا أيها الأحباب .. كان يريد أن يطمئن على أن توبته ليست نزوة عابرة أو سحابة صيف زائلة ، لذلك كان يشك شكا كبيرا أن تتقبل نوال ما تقبله هو وتخلع عنها ثياب الجاهلية ، فوضع الأسر لا يشجع على ذلك التوجه ، ستجد نفسها شاذة في العائلة ، وكان يحدث نفسه فيقول : أريدها هي أن تطلب فسخ الخطبة ، لا أريد أن يغضب مني والدي وعمي بسببها .. وإذا التزمت بما تعهدت سأقبل الاقتران بها .. وأسأل الله أن يوفقها ويهديها للصواب .. ويجعل في قلبها الشجاعة للصمود

فلما جلس مع حسن وعلي وحدثهما بقصة الخطبة التي رتبها الوالد ناصح ، فقال حسن بعد التهنئة والتبريك : والله جميل هذا يا أستاذ ! فتكون قد أنقذت نـفسا من الضياع والهلاك .. ولكني بصراحة أشك في بنات العائلات الكبيرة الغنيات أن يتركن السفور ويتغيرن بسهولة فحتى عندما تتدين فتاة منهن تراها أو تسمع عنهن .. فتراهن يأتين بموضات غريبة ويلصقن بالشرع موضات غريبة ، ولا يبحثن عن الأفضل والصواب .. وعلى كل حال نتمنى لها التوفيق والهداية .. فأنت تستحق فتاة تقف معك في مشوار الحياة وتكون معك ليس ضدك

وأخذ علي الحمد يتكلم عن أهمية التغير في حياة المسلم العاصي، وإن جرى ذلك التغير تدريجيا ولكن على أن يكون التائب راغبا فعلا بترك الحرام والكبائر ، فالله يسدده وينصره على مخالفيه ومثبطيه فقال ناصحا : عليك أن تتدرج معها يا عمري .. رويدا رويدا فشرائع الإسلام كثيرة فابدأ بالأول فالأول .. فالمرأة الصالحة خير متاع الدنيا

فقال عمري : أرجو أن يستجاب لدعواتكم ، إنني أرغب بامرأة صالحة

*****

كان ناصح الخابي قد علم من زوجته عن صلاة عمري وتردده على المساجد ، فكان يعتقد أن ذلك سينتهي بعد حين ، ولما تحدث مع أخيه ناجح بذلك الأمر ، عرض عليه أخوه أن يزوجه من إحدى بنات العائلة ، فربما الزواج يردعه عما هو مندفع إليه من صلاة وعبادة ، فوقع الاختيار على نوال ابنته لما بينهم من كلام قديم في ذلك الأمر ، وبما أن الشاب كما يعلمون عنه أنه غير متعلق بفتاة معينة ، ومثله الآنسة نوال ، فرأيا تزويجهما على أن ذلك خطوة وأمل قد تعيد الشاب إلى حظيرة العائلة من الاختلاط والمجون ، هذا التفكير البسيط في رأيهم قد يحل المشكلة التي ترفرف حولهم ، ففي نظرهم أن نوالا قد تستطيع إعادة عمري إلى جادة الصواب والأعراف المتبعة في العائلة ، ولكن عمريا كما عرفتم بدأ الهجوم قبلهم فوافق على الزواج ، ومن أول لقاء حث نوالا على الصلاة، بل كان يتصل بها عند وقت الفجر موقظا لها لتقوم إلى الصلاة ، فتتظاهر أنها تفعل ذلك وتشكره على حماسه وحبه .. وبعد حين يسير ضجرت الفتاة من ذلك ، فشكت ذلك لوالدها ، ففكر قليلا قبل أن يرد قائلا : إيه يا بنية ! نحن أحببنا اقترانكما لتنقذيه مما هو فيه من دجل وشعوذة وخبل .. فأخشى الآن أن يفسدك

فقالت بحيرة وامتعاض : لقد خربط حياتي .. أنا لا أعرف الصلاة ، ولا أريد أن أعرفها ، فكلما يتصل بي ويقول صليت أدعي أني صليت .. كلما أذهب لبيتهم لزيارة امرأة عمي والبنات آخذ معي الخمار غطاء الرأس ولا أذهب للكوافير ذلك اليوم .. أبي إني خائفة منه

فقال الأب المتردد : وهل يضايقك بغير ذلك ؟

ـ لا ؛ ولكنه يحدثني عن النهاية والآخرة والتوبة .. والذنوب والربا والمصير الأسود لمن

يعصي الله .. أنحن عصاة يا أبي ؟!

ـ أخائفة أن يفتنك ويعيدك للعصور والقرون الماضية .. أم أنت بحاجة إليه ؟ أنا أعرف ميلك نحوه .. أم تصبرين كم شهر لعلك تمتصين حماسه وتدينه ..؟

فقالت بضيق ونفور : لنا شهران مخطوبان .. لم يفكر مرة بأن يتصل بي ليصحبني في نزهة في رحلة إلى البحر إلى دخول دار سينما .. أنا لا أريد هذه الحياة التي يحياها عمري ..

فنطق الأب بعد تفكير ونظر : هل أتحدث مع أبيه ليتكلم معه .. أم تحاولين مرة أخرى ؟ فربما انصلح على يديك .. فيمكن لناصح أن يضع حدا لهذه المشيخة والدروشة

قالت : لست أدري ! لم أعد أطيق أحاديثه يا أبي ! أفكر بأن نفسخ هذه الخطبة

فوعدها ناجح بالحديث مع أخيه ، وطلب منها التريث في الحديث عن فسخ الخطبة ، فلابد أن عمريا يقصد الوصول لذلك ، فقالت بحزن : لقد قمت مرة فجأة بزيارة المصنع .. فغضب غضبا حادا ولولا الحياء لضربني .. مدعيا أنه يغار عليّ من عيون الناس .. كأنني أول مرة ألبس هذه الثياب القصيرة

ـ حسنا يا ابنتي ! سوف نضع حدا لهذا الحمق والهبل الليلة سنذهب جميعا إلى المسرح فقد اتصل بي والد سميحة وأخبرني أنه اليوم قد بدأ عرض مسرحية أحمق في غابة الشياطين

فقالت : أنا آسفة يا أبي عن مرافقتكم .. لقد دعتني الليلة الآنسة ناريمان لحضور حفلة موسيقية في نادي هواة الموسيقى

فقال مرحبا : رائع ! اذهبي مع ناريمان الليلة وسنسهر غدا في المسرح .. تمتعي بالحياة وبالشباب كنت أظن أنك ستسعدين مع ابن أخي الأهبل..

شكى ناجح الأخ الاصغر لأخيه ناصح تصرفات وجهالات عمري مع ابنته ، ومنذ خطبا لم يدخلا معا سهرة أو حفلة أو فيلما ، ولم يقصر ناجح فقد وضع مئات العيوب في ابن أخيه وخطيب ابنته ، مما هيج ناصح حتى اشتد غضبه على ولده فقال له : هيا بنا إلى المصنع لنوقف هذه المهزلة .

فقال ناجح : عندما يعود للبيت نتحدث معه بروية فيكون ذلك أفضل .. لا داعي لأن

يـعرف القاصي والداني بمشاكلنا

لذلك عاد الأخوان للبيت مبكرين على غير العادة ، وكانا واجمين كاسفين كأنهما فشلا في تحقيق ارباح في صفقة ما ، فأدركت الأم مريم أن وراء الأكمة ما وراءها ، ولم يفصح ناصح أو ناجح بشيء ؛ ولكنها أدركت أن الموضوع يخص عمريا عندما قام ناصح بالاتصال به في المصنع وطلب منه الحضور العاجل ، فلما أتى ملبيا النداء دخلا به مكتب السيد ناصح بالفيلا وكان عمري يظن أن الاجتماع سيكون حول المصنع ، ففوجئ عندما بدأ الهجوم على الصلاة والإسلام والتدين ويصفونه بالحمق والغباء والدروشة ، فلما نـفسا عما في قلبيهما ، قال عمري بهدوء أعصاب فقد تمالك نفسه من الغضب والانفعال : الإسلام أيها السادة لا يمنع الرجل أن يكون غنيا مليونيرا .. الصلاة لا تعطل الإنسان عن العمل والإنتاج .. الصلاة تغطي الجانب الروحي من الإنسان ، تدفعه للإخلاص في عمله .. الإخلاص مع الناس وعدم الغش .. وأنا لم أطلب منكم تزويجي نوالا .. أنتم اتفقتم وقررتم ووافقت مع أن هذا مخالف للأعراف المتعارف عليها في العائلة .. وأنا رغبت أن تكون زوجة المستقبل امرأة تعرف دينها وصلاتها .. وأنا لما زارت الآنسة المحترمة المصنع غضبت عليها ومنها ؛ لأنها جاءتني متبرجة بكامل زينتها كما تقولون والمصنع ليس مكانا مناسبا للقاءات العاطفية ، وثانيا أتت من غير أن تتصل بي .. أنا لا أحب المفاجآت

فهاج الأب المشحون بالغضب فأخذ يسب ويشتم ويهدده بطلاق أمه وطرده من العمل إن لم يترك الصلاة والدين ، فرد عليه عمري قائلا : هذا الصياح لا يؤثر فيّ يا أبي .. أنا بلغت سن الرشد منذ سنين .. أنا مللت الخمر في باريس ولندن ، ومللت النساء والحانات .. هل نسيتم أنني قضيت سبع سنوات في أوروبا بين الشراب والقمار وسيقان الغانيات ؟! .. أريد أن أتوب أريد أن أتوب .. يجب أن تقفوا معي لا ضدي .. هذه حياتي الخاصة .. أليس لكل منا حياته الخاصة .. نوال لا تريدني مع ألف سلامة .. أنا وافقت كما قلت لكما ..لأنني لا أريد زعلكما وليس لي شهوة إلى النساء .. وإن حدث ذلك فطمع بالولد الصالح

فعاد الأب يصرخ ويهدد ويتوعد ، فقال عمري : أنا غدا سأقدم استقالتي من إدارة المصنع

ولا تظن أنك إذا طردتني من العمل لن أجد عملا .. بل قد اضطر وأهاجر من هذا البلد .. وإذا طلقت امرأتك فهذا شأنك .. لست آسفا على هذه الحياة

فعجب الرجلان من كلام الشاب وصلابته وتحديه لهما ، وتغامزا وانهالا عليه ضربا وصفعا وبصقا مما أدهش عمري الذي أخذ بالصراخ ففزعت الأم والبنات وسحبوه من بين أيديهم وقد سالت الدماء من أنفه وفمه ووجهه وهو لم يحاول المقاومة ، فأخذت بدرية تمسح الدماء عن وجهه وتحاول قطع نزيف الأنف وجلس عمري يبكي ويتنهد وأمه تقول : ألم أقل لك دعك من هذا الجنون يا ولدي ؟ !

فصاح بحرقة وضحك مرتفع : أنتم المجانين .. هكذا أضرب .. والله لولا الحياء والدين لضربتهما الاثنين معا

فسمع الرجلان الغاضبان الثائران هذا التهديد فأسرعا إليه من جديد يوجعانه ضربا بالأيدي والأقدام والأحذية ، ودب الصراخ في البيت ثانية حتى كفا عن ضربه ، وسمع أبوه يقول صارخا : خذوه لغرفته ، وغدا صباحا إذا لم يأت للاعتذار والتعهد أمامي بترك خبله وحمقه ثم يذهب ويقبل قدمي نوال ناجح ليرى مني أشد من ذلك ..

فسحبت البنات أخاهن لغرفته وقمن بإسعافه ، وأخذت الأم تصرخ بوجه زوجها وأخيه وتقول : بأن العلاج لا يكون بهذه الوحشية والخشونة

فأخذ الرجل يؤنبها ويلومها على صمتها عليه منذ عرفت ذلك فأخذت تدافع عن نفسها .

وعندما استيقظت الأسرة في الصباح التالي لم يجدوا عمريا فقد غادر البيت ، فظنوه ذهب للمصنع مبكرا كعادته الجديدة ، فاتصلوا بالحرس فأنكروا رؤيته ، تسلل عمري في الليل بعد منتصف الليل من البيت وركب سيارته وانطلق بها بعيدا عن الدار ، ولم يشعر به أحد ولم يسمع أحد صوت ماتور السيارة لأنه عندما عاد مساء أمس تركها على الشارع لم يدخلها مرآب الفيلا ولقد كانوا مستغرقين في النوم العميق بعد أحداث المساء .

هذا يوم مشهود في حياة عمري ، ظل يذكره طول حياته ، فسار إلى أحد المستشفيات وادعى أنه تشاجر مع ناس فضربوه ، وقدم شكوى ضد مجهول لشرطة المستشفى ، وقام قسم الإسعاف

بالإسعافات اللازمة، وبعد ساعة غادر المستشفى ، فنزل إلى فندق شعبي ، واستأجر سريرا وطرح نفسه عليه ، ولم يستيقظ إلا بعدما ارتفعت الشمس ، فطلب الإفطار وبعد أن أكله عاد للنوم ، وفي المساء نزل للسوق واشترى ملابس جديدة وطرح الملابس التي كانت ملوثة بالدم في المزبلة وعاد للفندق ، ولما هبط الظلام والليل نزل عمري المدينة فوضع سيارته بموقف سيارات بالأجرة ، وعاد للفندق الشعبي فندق الأنصار ثانية ، ورقد حتى الصباح ، لم يحاول الاتصال بأحد الزملاء أو الأقارب كان غاضبا على المعركة التي تعرض لها من أبيه وعمه ، فلقد تعاملوا معه تعامل أولاد الشوارع والسوقية ، فكان مذهولا ومصعوقا من تصرفهم هذا، أمضى ثلاث ليال في الفندق صامتا يأكل وينام ، لقد كان مذهولا من الإهانة التي تعرض لها ويقول : زعران الحارات لا يفعلون مثلهم .. حسنا يا عمي .. حسنا يا نوال دلوعة أبي .. صبرا آل الخابي صبرا

بعد الأيام الثلاثة وضحت في ذهنه الخطة التي سيسير عليها، غادر الفندق وقد دفع إيجار الغرفة أو السرير ، وسار نحو موقف السيارات وأخذ السيارة وانطلق بها نحو مدينة أخرى وقد وضح الهدف أمامه .

زواج عمري

بداية أشاع المدير العام لمجموعة شركات الخابي في مصنع السجاد أن السيد عمريا مريض وعاجز عن ممارسة العمل ، ولما كثرت الهواتف التي تصل البيت تسأل عن نائب المدير للأطمئنان عن صحته ، اضطرت الأم أن تقول كاذبة : إنه سافر لإجراء بعض الفحوص الطبية في خارج القطر فسكتت الهواتف أو خفت عن البيت ، وجميع الاتصالات التي قامت بها الأم بحثا عن عمري لم تجد شيئا ، فاتصلت بأصدقائه من المهندسين والأطباء ورجال الأعمال ، وأكثرهم رد بأنه لم يره منذ شهر أو شهور أو أسابيع .

فقد كان عمري منذ اتخذ أهم قرار في حياته وهو الالتزام بالصلاة والدين قد خفت علاقته بالآخرين ، كان متعطشا للإيمان والحياة الروحية.

حاولت نسرين ـ التي استلمت إدارة المصنع مؤقتا ريثما يظهر عمري ـ مع حسن بناء على حديث خاص بينها وبين ناصح ، فسألته : هل اتصل بك عمري خلال الأيام الماضية ؟ فنفى الاتصال ودهش بالطبع لهذه السؤال لمعرفتهم أن عمريا مسافر للعلاج خارج البلاد ، ولما أدركت استغرابه من سؤالها عن عمري ، قالت له بكل صراحة : لقد أخبرني عمري بيك صاحبك عن علاقته القوية بك وثقته الكبيرة بك .. فاعتبرني مكانه وحدثني عن كل شيء يدور في وسط العمال ؟

فقال حسن بحيرة وتعجب : أحدثك بكل شيء لم أفهم ؟!

فقالت وهي تتصنع الابتسام : كما كنت تفعل مع عمري .. ألست مخبرا له يا حسن ؟ مالك تنكر .. هو قال لي ذلك ؟!

غضب حسن وقال بحدة وهو ينظر في وجهها : إنك حمقاء .. مجنونة .. أنا جاسوس !

فصاحت وهي تقف عن مقعدها : أنا مجنونة ؟!

فصاح هو الآخر : وهذا الكلام الذي تتكلمين به عني وعن عمري .. أليس كلام مجانين ؟

طردته من المكتب بعدما وقف وتجمهر عدد من الموظفين على بابه ، فخرج منتفخ الاوداج وهو يهدر قائلا : إيه والله إنها لمجنونة تقول عني إنني جاسوس للسيد عمري اسمعوا هذه المجنونة

أحست نسرين أنها تسرعت بالمكاشفة معه ثم قالت لنفسها متسائلة : أيهما الصادق ؟ هل سخر مني عمري عندما أوحى لي بأنه عينه بين العمال ؟ إنه ماكر ! .. والله لن يبقى حسن هذا في المصنع بعد اليوم

فلما انصرف الموظفون إلى مكاتبهم اتصلت بالسيد المدير وأخبرته عن تهجم حسن عليها في مكتبها ، فأمرها بطرده على الفور ، فأرسلت وراء أمن المصنع وأمرتهم بطرد حسن بناء على أمر صادر من المدير وهو آت في الطريق ، فبلغ الأمن الخاص حسنا أمر فصله وطرده ، وكان حسن قد لبس ملابسه التي يأتي بها وخلع ملابس العمل قبل طلب رجال الأمن منه مغادرة المصنع ، فدخل على المحاسب متوترا ومحتدا وقال : بعد أسبوع سأمر عليك ، أرجوك يا مروان أن تكون قد جهزت لي حسابي حتى لا تروا وجهي ثانية

أخذ مروان يلاطفه ويهدئ من انفعاله ويقول له : لما يأت الأستاذ عمري ستعود للعمل وتتصالح مع هذه المديرة

شكره حسن وغادر المصنع ، وكان العمال قد علموا بالقصة واهتزت أعصابهم لـمَ سمعوا ، وفكر بعضهم بترك العمل تضامنا مع حسن ، فخاطبهم المهندس رياض وأعاد لهم الصواب فقال : يا جماعة لما يأت حضرة نائب المدير الاستاذ عمري .. سيصلح الأمر .. هو قد سافر لإجراء فحوصات طبية في بريطانيا وخلال أيام سيكون هنا .. لا تتعجلوا وتكبروا المشكلة وأنا سأتحدث مع الآنسة نسرين في شأن الأخ حسن

فهمس أحدهم بانفعال : قصدك المدير العانس نسرين

ولما هدأ انفعال العمال وتعاطفهم مع حسن ، عاد العمال للعمل آملين بعودة عمري لحل الإشكال والتصرف مع هذه المرأة التي تتهم حسنا بالجاسوسية ، وأنها قد نسيت نفسها بأنها هي الجاسوسة ، فعلق أحدهم : الملدوغ من الأفعى يخاف من الحبل .. والذي يعمل جاسوس يظن أن كل الناس مثله !

لقد استطاع المهندس رياض السيطرة على الموقف ، وتوقف العمال عن التمرد وتعطيل العمل ودخل على نسرين بعدما اشتغلت الماكينات من جديد وقال : يا نسرين كدت أن تعطلي الشغل

عليك بحل المشاكل بهدوء وذكاء .. لو أجلت قرار الفصل لبضع أيام حتى تهدأ نفوس المتعاطفين معه .. فيفصل بهدوء ..

فقالت : الملعون يقول عني مجنونة ..

فقال رياض ضاحكا : أنت في هذا التصرف فعلا كنت مجنونة

فقالت : أتسخر مني يا حضرة المهندس ؟!

فقال : سلام .. قبل أن تفصليني .. سلام

وغادر المكتب مسرعا ، فمشت نسرين نحو مرآة ونظرت فيها إلى وجهها وعينيها ثم أصلحت من شعرها ومكياجها وقالت : أحقا أنا مجنونة ؟ ! .. قاتل الله العنوسة .. لو أنا الآن أم ولي أولاد .. أيحدث لي هذا أو أتصرف مع هؤلاء هكذا ؟ .. أين الرحمة يا نسرين ؟ يبدو أنني تسرعت كما قال المهندس رياض .. ألم يقل لي عمري إنه جاسوسه على العمال ؟ .. لا لم يقل لي ذلك .. أنا استنبطت ذلك من كلامه يا له من ذكي عبث بي ! .. متى يأتي ابن الحلال وأخلص من هذا الشغل والدوام .. متى ؟؟ ..ولكن كبرت سني وصرت في الأربعين لا .. ثمان وثلاثون سنة فقط .. لقد بقي سنتان للأربعين .. قاتل الله الوحدة .. ما أجمل الأمومة كما يقولون !

*****

مضى أسبوع على بيت ناصح ولا حس ولا خبر عن عمري .. لا اتصال ولا سؤال ولا حتى اتصال في المصنع ، ولا حتى مع حسن ، وقامت الأم بنفسها بزيارة حسن في بيته وسألته عن عمري واعترفت له بما جرى بين عمري وأبيه ، فاستغرب حسن مما حدث ، وأقسم للسيدة بأنه لم ير عمريا منذ ذلك اليوم ، ولم يتصل به منذ غاب عن المصنع ، ووعدها إن تحدث معه أن يخبرها حالا وفورا .

وكان ناصح الخابي يتظاهر بأنه غير مهتم بغياب ولده وغير مكترث لإختفائه ، ويرى أنه يستحق ما فعله به من أذى وهوان ، وكانت الاتصالات بين الأخوين ناصح وناجح لا تنقطع بالسؤال عن الولد الهارب ، وحتى نوال شاركت في السؤال عنه ، وفي إحدى المرات ردت عليها بدرية وصاحت فيها غاضبة : أنت السبب يا نوال .. كله من تحت رأسك .. أنت تعرفين أن

عمريا قد تدين وترك الماضي وراء ظهره فلماذا تقبلين الزواج منه ؟ .. فأخذت نوال تبكي على الهاتف ثم تركت السماعة مفتوحة وهرعت إلى حجرتها تواصل البكاء وإظهار الندم و هي تصرخ : أنا السبب .. أنا السبب ! .

لقد توترت العلاقات بين الأسرتين وخصوصا النساء والبنات ، فعمري هو الابن البكر للسيد ناصح وابنه الآخر سمري ما زال يدرس في أمريكا ، وطفقت مريم تطلب من زوجها إبلاغ الشرطة ، فيضحك من طلبها ويقول : يا حمقاء .. لو حصل له شيء لاتصلت بنا الشرطة .. هل هو طفل لنخبر الشرطة لتبحث عنه ..؟

فتسكت الأم ، وقد مضى شهر على اختفائه عن البيت فزاد الوجوم والحزن كأنهم فقدوا شخصا وواروه التراب ، وبدأت أعصاب ناصح تضعف وتنهار وارتبك دوامه ونشاطه وتحركاته ، وذهب بنفسه لحسن وترجاه أن يحدثه عن مكان عمري ، فأقسم له حسن كما أقسم من قبل لأم عمري أنه منذ غاب عن المصنع لم يره ولم يتصل معه ، فعاد للبيت كئيبا وهو يقول : لقد ضاع الولد يا مريم ! .. ماذا كان يضرني من صلاته وصومه ؟! لقد اضطرب فكري ليلتها .. لقد ساهمتم بتضخيم الأمر لديّ ..المصنع نصف العمال تركوا العمل تضامنا مع هذا المنحوس حسن .. فنسرين هذه يبدو أنها خرفت ، ولم تعد تحسن السيطرة والقيادة .. المهندس رياض يشكو من قلة العمال المهرة .. وحسن مصر على عدم العودة ، لقد مشى إليه رياض أكثر من مرة بل ترك الشغل في المصانع ويشتغل مع معلم كهربائي .. أنا كنت أطمع أن يكبر المصنع ونصدر لـعدد كبير من الدول .. سأحتاج إلى ترتيب أموري من جديد .. بدأت أشعر بكبر خطئي لقد كان تصرفنا تصرفا ولدانيا .. لعنة الله على الشيطان .

*****

تقع على ساحل البحر مدينة عظيمة تكاد تعادل العاصمة في كبرها؛ ولكن ينقصها الكثير من الدوائر الرسمية والوزارات ، فرحل إليها بطل هذه الرواية ، وقرر السكن والحياة والاستقرار والعمل فيها ؛ ولكن كان يقلقه أن يلتقي بأحد معارفه ثم يصل الخبر لأسرته ..كانت خطة عمري الفرار بدينه والبعد عن التلوث وفساد الأسرة ، كان في نظره أن مجتمع الأسرة مجتمع

فاسد .. فرأى أن هذه المشكلة هيأت له فرصة لبدء حياة جديدة .. يريد أن يعتمد على نفسه ويجمع ثروته بعرق جبينه ، لقد كان يملك رصيدا جيدا في المصرف ، فهو له أكثر من خمس سنوات في السوق وكان يقبض راتبه كبقية الموظفين والعمال ، وهذا رصيد خاص لا دخل للأسرة فيه .. وهو يملك سيارة حديثة أهداها إياها والده عندما استلم إدارة المصنع .. فكان يرى أن الحياة بعيد عن الأسرة والمجون وليل السهر والحفلات الكثيرة خيرا له .. فهو لا يستطيع أن يقول لأمه لا تخرجي بثيابك القصيرة إلى أي مكان .. لا يستطيع أن يزجرها أن لا تضع الأصباغ والألوان على وجهها وتخرج للسمر مع الرجال .. لا يستطيع منعها من قضاء عدة ساعات عند الكوافير الرجل .. لا يستطيع منعها من مصافحة الرجال الأجانب والاختلاط بهم .. لا يستطيع منع الرجال من الجلوس معها في البيت وخارجه .. وحتى أختيه لا يستطيع منعهن من مخالطة الأقارب الرجال والأصدقاء وغيرهم .. لا يستطيع إنكار ذلك المنكر .. إنهن يسهرن مع الرجال مع النساء مع الأصدقاء .. حياة مجرمة آثمة .. أين ذلك من طهارة الإسلام والمحافظة على طهارة الرجال والنساء ؟

فهو يرى أن هذه الجريمة التي ارتكبها والده بحقه لصالحه .. فقد أصبح حرا طليقا .. يصنع لنفسه بيئة صالحة طيبة .. لا يرى الآثام والمعاصي ويسكت عليها .. يصلح نفسه إصلاحا جيدا فاختار مدينة البحر الريحانة لتكون مدينته ومأواه .. واختارها أيضا لكثرة الأغراب الذين يترددون عليها من رجال أعمال وسياح وسواقين وبحارة .. فالوجوه الغريبة في هذا الميناء الكبير غير مريبة ، فلا أحد يهمه قصته وحكايته ، فبعد أيام قضاها في الفنادق وجد مسكنا أنيقا وجميلا في حي الصخرة ، وكانت أول خطوة بعد سكنه في البيت الجديد أن اشترى بعض قطع الأثاث المهمة والضرورية للحياة الطيبة .. ثم قرر أن يبيع السيارة الحديثة ويشتري غيرها قديمة نوعا ما ، فنزل بها إلى حراج لبيع السيارات ، وخلال أيام وفق لبيعها واشترى سيارة متواضعة لقضاء الحاجة ، وبعد حين فكر بالزواج ، ففكر بالاتصال بحسن ؛ ولكنه قال : علاقتي بحسن كانت مكشوفة..لابد أن يتصل به أهلي .. أنا لا أريد أن أعود إليهم قبل أن أسمع أنهم تركوا وهجروا منكرهم وفجورهم .. فبعد حين سأزور المدينة وأتحدث مع الشيخ علي الحمد .. فقد

كان يحثني على الزواج كثيرا قد أجد لديه فتاة تناسبني وتقبل ظروفي ..

أطلق عمري منذ رحل وهجر بيت العائلة لحيته ، وأخذ يضع على عينيه نظارة ملونة ، ورأى أن ذلك يساعده على إخفاء شخصيته عن الفضوليين الذين يلتقى بهم ، وترك لبس البدلات وربطات العنق .. واشتغل في أحد المصانع الكبيرة في قسم المحاسبة ، وكانت مصانع الشركة بعيدة عن مكاتب الإدارة .. قضى عندهم شهرين ثم تركهم ، لم يرتح للعمل معهم ـ فقد وجد أن هناك عمليات تلاعب وخداع تحدث داخل قسم المحاسبة ـ فقدم طلب استقالة فوافقوا عليه سريعا ، فقد لمس الإداريون عنده لمسة صدق وعدم رضا عن التلاعبات التي تجري .. فانتقل للعمل في شركة تخليص ضخمة وصبر فيها ثلاثة أشهر أخرى ، ثم فكر بالاستقلال بالعمل .. فأخذ يفكر بمشروعه الخاص ، وكان خلال هذه الشهور قد نسي أهله ومشكلة هجره بيت العائلة ، وما زال يحلم بالزواج ، فخاطب نفسه قائلا : عندما أفتح مصلحة تدر دخلا مناسبا سأتصل بصديقي علي الحمد وأطلب منه أن يبحث لي عن فتاة مناسبة متفهمة لظروفي .. فالزواج لابد منه حتى يعف الإنسان نفسه ويبتعد عن شهوة النساء وينشغل بآخرته ويدبر أمور دنياه

فاهتدى صاحبنا عمري إلى إنشاء معرض لبيع الأثاث ، كغرف النوم والمقاعد والكنبايات والخزائن ، وقد وفقه الله سبحانه فوجد متجرا في أكبر سوق بالمدينة قام مستأجروه بإخلائه لظروف مالية تعصف بهم، فوقع عقد الاستئجار مع مالك المحلات في المجمع الكبير ، وخلال شهر واحد كان المعرض قد تهيأ للعمل والبيع والشراء .. واشتغل لديه شابان غريبان عن المدينة واختارهما من أهل الصلاة والطاعة ، ثم نزل عمري العاصمة الكبيرة للالتقاء بالشيخ علي الحمد ، ولما خلا البيت من الضيوف والزوار كشف نفسه للشيخ ، دهش الشيخ من ظهور عمري فعلق قائلا : يا رجل الدنيا مقلوبة عليك منذ اختفيت !

فقال عمري : قبل أن أقص عليك قصتي سأقول لك بالذي أتى بي إليك .. والعودة لأهلي لا تحدثني عنها ..

فقص عليه علي الحمد عن زيارة أمه لحسن ثم زيارة أبيه والمهندس رياض لحسن ، والأسف

والندم والبكاء ، فقال عمري : بل هذا كان خيرا لي .. حسنا سأقص عليك قصتي قبل ذكر حاجتي إليك ..

فتحدث عن الإهانة الكبيرة التي أصابته من عمه وأبيه ، وما تعرض له من الضرب والبصق والصفع مما أدهش علي ، وبين له أنه قد حصل على تقرير طبي من المستشفى بما أصابه من اللطم والأورام ، ثم حدثه أنه بحاجة لهذا الهجر والابتعاد ، وأن طريقه غير طريقهم ، ولما سمع علي كلامه تعاطف معه وقال : فعلا أنت بحاجة للحياة وحدك .. فهؤلاء أصحاب الملايين حياتهم سيئة ولنقل أغلبهم .. فالخمر والنساء والتبرج والخلوات كل ذلك موجود بينهم ؛ ولكن لو حاولت دعوتهم وتغييرهم ..

فرد عمري قائلا : أنا وضحت لك وجهة نظري .. وأنا ضعيف أمامهم ولا قدرة لي الآن على إحداث أي تغيير .. فها أنت قد رأيت عندما حاولت تقويم فتاة تحلم بأن تكون زوجتي وتدعي أنها محبة لي ما حل بي .. وأنا الآن يا صاحبي قد فتحت محلا تجاريا ، والأمور تسير بفضل الله على ما يرام .. ولا أريد أن أذكر لك مكاني لأسباب خاصة ولأرفع عنك الحرج إذا أخبرهم أحد أنني التقيت بك .. فأنت اجتمعت بي ولكنك لا تعلم مكان سكاني

ثم حدثه عن رغبته بالاقتران بفتاة صالحة وتعرف ظروفه ، فوعده الشيخ خيرا ، فقال عمري مودعا : ثق بي يا أستاذي ! .. وسأمر عليك بعد شهر .. فإذا دبرت الأمور سأتزوج خلال يومين أو ثلاث ثم أعود إلى حيث أقطن ..

فقال علي متأثرا : اسمع يا صديقي أنا أحببتك في الله ، ومسرور منك منذ تعارفنا ، وأعرف مدى مجاهدتك في قوم يرون الجاهلية حقا وصوابا .. فما رأيك أن نشرك حسنا معنا ؟ .. لا نريد معرفة منزلك الآن لنستطيع أن نقسم صادقين بأننا فعلا لا نعرف مكانك .. وحسن قد ترك المصنع وكثير من أصحابه بعدك بأيام والأهم أن للأخ حسن أختا فاضلة ..

صمت عمري بضع ثوان وقال : لا بأس .. المهم فتاة ترضى بالحياة معي وسأطل عليكم بعد شهر وهذه ألف دينار تصرفوا بها حتى أعود

فقال علي : خذ فلوسك ، عندما تأتي في المرة القادمة سيكون الأمر بإذن الله مهيئا ، ولن نحتاج

لكل هذا المبلغ ..فحسن رجل مؤمن وأخته وأسرته كذلك ولا نزكي على الله أحدا .. وأقلهن مهورا أكثرهن بركة

فشكره عمري معانقا له وانصرف عائدا لمدينة الريحانة .

رسالة لم تقرأ

مضى عام كامل على غياب عمري عن أسرة الحاجي ناصح ، فظهرت العصبية الشديدة على أخلاق ناصح ، وقد أثر هذا الغياب على نفسيته وصحته ومزاجه ، فعندما حادثه أخوه ناجح بأن عريسا يطلب يد ابنته نوال تحدث معه بعصبية وأمره أن يزوجها على الفور ، ولما دعي لحفلة الخطبة لم يذهب وأرسل زوجته وبناته نيابة عنه .. بصعوبة أدرك إنهيار مصنع السجاد ، فقد نـقل نسرين إلى مصنع آخر ، ووضع ابن أخته جبرا نائبا عنه في إدارة المصنع ، وقد اكتشف خلال هذه السنة أن ابنه كان محبوبا من العمال وغيرهم ، وأن الاختلاط بالعمال ومشاركتهم عواطفهم وأحلامهم ومشاكلهم أفضل من التعامل معهم من فوق .. فكان عندما يتذكر آذاه وغضبه على ولده وهو يرفسه بـقدمه ويلكمه بيديه يعض على شفتيه من الندم والأسف ..ثم يحقد عليه لغيابه عنه بهذه القسوة والإهمال وكأنه ما صدق أن يتعرض لهذه الإهانة ليرحل .. ندم وحقد .. كيف يعيش بدون أبيه ومال أبيه ؟ .. كان يتمزق ناصح من الداخل بسبب هرب ابنه البكر ، ويتمزق قهرا عن تخليه عنه وهو السيد المطاع .. ورغم الجرح الغائر في النفوس فالأيام تنسي الغياب ، وعندما يسمع ابنته بدرية تقول : يا أبي افرض أنه ما زال في لندن

فيجيبها قائلا بأسف : هناك فرق يا بنية بين الغائب باختياره وبين الغائب المجهول .. كنت أضع كل آمالي الكبار عليه في المستقبل .. والله لا أدري لماذا نحن نكره هؤلاء المتدينين ؟! .. نتحدث عن الحرية الشخصية والحرية الدينية وغير ذلك من المسميات الكبيرة ولا نمارسها .. نريد أن نكون مثل هؤلاء الأجانب في كل شيء ولكننا لا نستطيع .. إني جد آسف على ضربي لذلك اللعين .. كيف يهون عليه فراقنا كل هذه المدة ؟ ألهذه الدرجة قلبه قاسي علينا .. أين الإيمان والإسلام الذي يتحدث عنه ؟.. إنه دجال .. لن أغفر له هذا العمل سوف يرى مني شيئا كبيرا أنا وإياه والزمن

قالت بدرية البنت الصغرى : لا تقل ذلك يا أبي فقلبك كبير .. فهو منذ أن تعلق بالإسلام والتوبة .. تغير فكره .. فهذه الكتب التي كان يقرأها تتحدث عن الصدق والوفاء والمنجيات من النار وعذابها .. وفيها تحريم الخمر والربا والميسر والصور والتماثيل وتحريم خروج المرأة

بثياب جميلة سافرة وإبداء زينتها للرجال والاختلاط والخلوة والسفر بدون رجل يحميها وغير ذلك .. فهذه الأشياء وغيرها قد قرأتها في تلك الكتيبات التي كان يقرأها .. فعندما يقارن بين ما يقرأ وحالنا يجد الفرق شاسعا .. فوجدها فرصة للابتعاد عنا ..

فقال ناصح ساهما وقد تأمل بكلام ابنته : إيه والله هو ما تقولين .. وجد أننا في واد وهو في واد لذلك عندما أراد أن يفرض أوهامه على نوال اشتكت لوالدها الذي أقنعني بأن نمنعه من إفساد حياتنا وتقاليدنا وحريتنا قبل أن يبدأ أن يقول لنا هذا حرام هذا لا يجوز هذا ممنوع فظننت أن كفين منا ينقلب صاغرا ذليلا هاجرا لما هو فيه .. لقد أخطأت التقدير .. فما صدق اللعين أن تصرفنا معه ذلك التصرف الاهوج ليهرب .. على كل حال سوف يعود كالأرنب يوما ما .. مصيره أن يحتاج الينا .. عندما تخلص الفلوس التي معه سيعود ..

فقالت بدرية بحزن : أرجو ذلك يا أبي ! فعمري ذكي وإذا اقتنع بشيء فمن الصعب التراجع عنه لقد عاش في الغرب سبع سنوات تعلم فيها أشياء كثيرة من هؤلاء الأجانب

فضحك ناصح وقال بحقد وغضب : ماذا تعلم ؟! تعلم الزنا والسكر .. ماذا تعلم ؟!

فقالت قمرية التي كانت تسمع هذا الحوار بين والدها واختها الاصغر منها : معه شهادة يا أبي

فقال بتوتر وحقد واضح في نبرات صوته : لا أدري كيف نجح هذا الملعون ؟ .. كان يشتغل هناك ليلعب القمار في صالات ونوادي القمار .. أين أمكم ؟

فأجابت بدرية : في جمعيتها اجتماع يفكرن بعمل حفلة للتبرعات لأحد المشاريع الخيرية

*****

ذات يوم وبينما الآنسة بدرية تجلس في حجرتها وقد رجعت من العمل ، دخلت عليها الخادمة حسنية وهي تقول : هذه رسالة لك يا سيدتي .. لقد وجدها عمران في صندوق البريد وهي باسمك

استغربت بدرية فهي كسولة في كتابة الرسائل ، ولا تظن أنها كتبت عشر رسائل في حياتها ، فمن هذا الذي يكتب إليها ؟! فقالت مخاطبة الشغالة : ممن يا حسنية ؟ !

فردت الأخرى : لا يوجد عليها اسم

خطفت الرسالة من يد الخادمة وهي تظن أن أحدا يريد العبث معها، فشكرت حسنية ووضعتها تحت الوسادة وهي تقول : إذا فطنت لها قرأتها عند النوم ..مَن مِن الأصدقاء يحب إرسال الرسائل والسخرية منا ؟! ثم رددت بعض الأسماء ثم قالت : في الليل سأقرأ سخافته .

كانت بدرية ناصح موظفة في مكاتب إدارة شركات الخابي ، وكذلك أختها قمرية ، فهن قد درسن في كلية التجارة ، وحصلن على بكالوريوس في العلوم الإدارية ، وبينهن ثلاث سنوات وهي البنت الصغرى للعائلة ، وكانت بدرية متعاطفة كثيرا مع أخيها عمري ، وإن كانت تخاف من تدينه .. فقد كانت تلحظ أنه ينظر إليها وأختها بنوع من الاحتقار بعد تدينه .. وكثيرا ما يستهزء بثيابهن القصيرة والأصباغ اللواتي يلطخن بها وجوههن وعيونهن وتسمعه يقول : هذا الجمال وهذا التزين خلق ليراه رجل واحد فقط يا بدرية .. لا يجوز أن ينظر إليه الأوباش والذئاب من البشر .

كانت تشعر بتعاطف معه ولكن العادات والتقاليد التي ربيت وشبت عليها من لبس وزينة وخلاعة لا يمكن الخلاص منها بسهولة .. وكانت تتعجب من قدرته وقوته على خلع الماضي عن كتفيه ، فتأخذ تدافع بقوة وحرارة عن مجتمعهم وبيئتهم وحياتهم ؛ ولكنه يهزمها بأسلوبه الجديد وبأفكاره الحديثة ، فتستسلم له في النهاية وترى أنه هو الصواب وأن أفعالهم هي تقليد أعمى لبنات الغرب الأوروبي والأمريكي وملاحقة الموضات وصرعات اللبس والكوافير ، وجدت أن الجانب الروحي لديهم ضعيف وهزيل ، حياتهم كلها مادة ، أموال تدخل وأساليب لإنفاقها ، تشتري الثوب بالثمن الغالي تلبسه لبسة واحدة أو اثنتين ثم يظهر غيره ويلقى في المخزن مخزن الأشياء القديمة ليس البالية لأنه لا يبلى لم يعد له مكان في خزانة الثياب فقد جاء غيره ، تتنافس هي وصديقاتها وبنات أصدقاء أمها ووالدها في ذلك .. هذا أغلى .. هذا أجمل وهذا فرنسي وهذا ألماني وذا إنجليزي .. هذا من معرض فلان وذا من معرض فلان .. كانت تستسلم لأفكار عمري أن حياتهم فارغة .. وأن الحياة ليست كلها عبث ولهو .. بين بين .. ساعة لله وساعة للنفس .. كانت تقرأ كل كتاب أو كتيب يدخل به عمري البيت وكانت تندهش مما فيه من أقوال وكلمات ونصائح .. فترى أن هذه الكتب فقط للناس الفقراء المحتاجين .. أما

هم فلهم الرحلات والنزهات والنوادي الخاصة والسينما والمسارح والسفر .. والرقص والموسيقى والحفلات الصاخبة .. أما الفقراء فلهم المساجد والزوايا ودور العبادة وإخفاء الأبدان والأوجه والأيدي ..

فلما استراحت من تعب العمل وشربت بعض العصير ودخل الليل وقد ارتدت ثيابا جديدة قد حصلت عليها حديثا قالت لحسنية : قولي لأمي إنني ذاهبة لسهرة عند الآنسة المحترمة سهير

وخرجت بكامل زينتها وتبرجها وركبت سيارتها التي ما زالت أمام الفيلا لم تدخلها موقفها الخاص داخل كراج الفيلا ، ذهبت لتقضي سهرة ممتعة مع شباب وشابات بمناسبة ولادة أخت سهير لمولودها الأول .. فرقصت مع الراقصين وشربت قليلا من الخمر كما علماها والدها ألا تفرط في تناول الكحول ..كأس صغيرة تكفي .. هذا أمر طبيعي يلعبن القمار عن مال يسير هذا أيضا أمر عادي .. ولو عانقها شخص مندفعا لموقف ما .. فهذا أمر طبيعي .. وكانت لا تشعر بالخجل إن حصل ذلك فهذا انـفتاح وحرية .. وكانت تتعرض لمواقف أكثر حرجا من ذلك وتتقبل الأمر .. كل ذلك مباح وجائز في شريعتهم ، رجعت بعد منتصف الليل لم يشعر أحد بدخولها .. لم تجد أحدا ينتظرها ليقول لها : أين كنت وماذا فعلت ؟ ولكنها فوجئت أن أختها قمرية لم تنم بعد وجدتها تطرب على أغاني أجنبية غربية حديثة وصلت البلد ثم أخذت بدورها تحدثها عن جمال وحسن هذه الأغنيات والموسيقى ، ولما انتهت من إظهار إعجابها بأغاني السوق الجديدة قالت : ماذا عند سهير لتعمل حفلة ؟ كما تقول حسنية

فردت بدرية : ولدت أختها فأحبت أن تعمل لنا حفلة جميلة بهذه المناسبة .. فسهرنا ورقصنا وتسلينا .. وكانت مناسبة لإلتقاء الأصدقاء وأخذت تعدد أسماء نجوم ونجمات الحفل .

وكانت خلال ذلك الحديث قد خلعت ملابس السهرة ولبست ثياب النوم البيجامات الحريرية المستوردة من باريس .. ولما انتهت من ذكر سخافات حفلتها سألت هي بدورها أختها عما فعلت في يومها الهالك فقالت : خرجت مع جبر .. ابن عمتي ، فقد يحدث بيننا مشروع زواج فهو شاب لطيف ، ذهبنا لمسرح الغرباء وتعشينا في مطعم الغرباء أيضا وأخذت تتكلم عن

المطعم والمسرح حتى استغرقت بدرية في النوم ولم تسمع بقية الكلام ، فغضبت قمرية ورفعت صوت الاستيريو (مسجل الصوت) ولكن النوم قد غلب بدرية .. فلما رأت أن الصوت العالي لم يؤثر بأختها فأغلقته وحاولت النوم .. فلم تستطع ذلك فأخرجت قرصا من أقراص النوم وبلعته وبعد قليل غرقت في سبات عميق ..

زواج ناصح

لم تفطن الآنسة بدرية لقراءة الرسالة التي تلقتها أمس إلا وهي في العمل فحدثت نفسها قائلة : لقد نسيت أن أقرأ تلك السخافات.. لازم أن أعرف من أرسلها من الشباب

ولكنها لما عادت في المساء للبيت وجدت أن الأسرة مشغولة ، فأخبرتها أمها مريم أن والدها قد وافق على اقتران قمرية بابن أخته جبر النحام ، وأن أسرة النحام قادمة الليلة للحديث في الموضوع ولتحديد يوم الخطبة .. وجبر هذا ابن أخت السيد ناصح السيدة رباب .. وجبر هذا أصغر اخوته الثلاثة وهم سعيد وخالد لا إناث بينهم ، فسعيد قد تزوج من ابنة خاله ناجح السيدة نهى منذ سنوات ، وأما خالد فقد اقترن بابنة أحد كبار الموظفين الذين يعمل معهم في دائرة الجمارك ، وأما جبر فقد كتب عقد الزواج على امرأة ؛ ولكن قبل ليلة الزفاف هلكت بحادث سير ، فأضرب عن الزواج ، ولكنه لما استلم الشغل مع خاله ناصح في إدارة مصنع السجاد بدلا من الابن الهارب أخذت أمه رباب ترغبه وتحثه على مصاهرة خاله ، وبعد عدد من اللقاءات والسهرات مع قمرية ناصح نسي خطيبته الأولى منى ، ووجد أن قمرية فتاة مناسبة وثروة أبيها كبيرة ، وأنه الآن رجل العائلة بعد اختفاء عمري منذ أكثر من سنة .. فانشغلت بدرية مع قمرية في تهيئة البيت لاستقبال عمتها وزوجها وأولادهم .

وعند الثامنة ليلا وصل عبده النحام وأفراد أسرته وزوجاتهم ومعه أخوه الأكبر ، واستقبلهم ناصح بيك ورحب بهم وجلسوا في قاعة واسعة، ودارت عليهم أكواب العصير والمثلجات وامتلأ المكان بسحب الدخان من الرجال والنساء ، وبدأت النكت تنطلق من هنا وهناك ثم اتفق الجميع على زواج قمرية وجبر وقرأوا الفاتحة .. ثم مسحوا أيديهم بوجوههم .. لا نعلم هل يحسنون قراءة الفاتحة أم هو تقليد لم يستطيعوا التخلص منه ؟ .. واتفقوا على حفلة الخطبة وأما حفلة الزواج فتركوا أمر تحديدها للخطيبين حسب رغبتهم ، ولما شربوا شراب الاتفاق سأل أحد الأولاد خاله عن عمري ، فوجم الرجل وخيم الصمت على القاعة مما أدهش السائل فقال مستغربا : ما بكم صمتم هل أخطأت في السؤال عن ابن خالي المفقود ؟

فمسح ناصح دمعة سقطت على وجهه وقال : أبدا يا ولدي ؛ ولكنك ذكرتنا بإنسان لا

نعرف عنه شيئا .. لقد ترك غيابه جرحا في قلوبنا .. سامحه الله .. لقد تركنا ونحن في حاجة إليه فأخذت عبارات المواساة والصبر تخرج من الأفواه ، وعند منتصف الليل انصرف القوم ، وقد تجدد الحزن في بيت ناصح الخابي ، وقال الرجل لإمرأته : هذا النحام من أبغض الناس اليّ ها هو اليوم قد صار صهري ثانية .. قاتل الله النحام وآل النحام

فطفقت مريم تدافع عن آل النحام وتعدد مناقبهم وخيراتهم ، وناصح يعدد معايبهم وكفرهم وإلحادهم ، فقد كان عبده النحام من كبار الملحدين في القطر ومن دعاة الشيوعيين .. وما زال فتحدثت مريم عن صهرها جبر وأن أفكاره بعيدة عن أفكار أبيه ، فرد عليها : إن الولد ابن أبيه .. ولكن الظروف تضغط علينا .. والبنت كبرت فعمرها سبعة وعشرون عاما كما علمت منها .. أتمنى أن يكون زواج موفقا .. فأنا أعرف بغض النحام لي .. لقد كنت غير موافق قديما على زواج رباب منه وقد حاولت التفريق مرة بينهما ولكنها الملعونة فقد كانت تهواه

فقالت مريم : تلاقت أفكارهما معا .. فقد كانت أشد منه إلحادا وكفرا .. وليس الحب الذي جمعهما وحده يا ناصح .. ونحن لا يهمنا ذلك الآن .. الولد قلت إنه يشتغل جيدا ويدير الأمور في المصنع بإتقان .. وهو ابن أختك رغم كل الأشياء .. وكما قلت فالبنت كبرت ورغم كثرة أموالك لم يطلبها أحد من أبناء أصحابك

فرد قائلا : والله قد حدثني بعض الأصدقاء في ذلك ولكنهم كبار في السن .. فكيف أزوج ابنتي لرجال كبار .. فالدكتور موسى لما ترمل حدثني عنها .. فاعتذرت وها هي المسكينة تتزوج رجلا أرملا سبحان الله ..

*****

بعد أيام فطنت بدرية للرسالة مرة أخرى فاتصلت بالشغالة حسنية وأرسلتها إلى حجرتها تتفقدها ثم ردت عليها : هي حيث وضعتيها يا سيدتي

- يا حسنية الطيبة .. لما أدخل البيت ذكريني بقراءة الرسالة .. سلام ..

بدرية تحب القراءة أكثر من قمرية ، فتقرأ في الكتب ومجلات المرأة والأزياء ، وتقرأ عن قصص المغنين والراقصين والممثلين ، وتستمتع بقراءة مغامراتهم وأسرارهم وأخبارهم ، وقلنا

إنها قرأت كثيرا من الرسائل العلمية الصغيرة التي كان يدخلها عمري بيت العائلة ؛ ولكنها لم تغير من حياتها شيئا ، ولم تترك أثرا في نفسها يذكر كما يبدو لنا الآن .. فما زالت تحيا الحياة التي ألفتها وتعودت عليها ، وهي لم تقرأ الرسالة الشخصية التي وردت إليها لأنها لا تحب كتابة وقراءة الرسائل .. فكان أيّ كلام جميل تحب أن تسمعه فتحب أن يكون على الهاتف أو وجها لوجه ؛ لذلك لم تكن تتذكر وتفطن للرسالة إلا وهي أثناء العمل .. فتتذكرها فتشتاق نفسها لمعرفة كاتبها أكثر مما فيها من كلام .. وبما أن كاتبها لم يذكر اسمه على غلافها ، فهي تعتقد أن أحد السخفاء من الأصحاب والزملاء كتب لها كلاما ثقيلا وغزلا صارخا .. والفضول يدفعها لقراءتها ومحاولة تخمين اسم كاتبها .. فهي رغم معرفتها لكثير من الشباب فلم ترتبط بعد بأي علاقة عاطفية مع أحدهم .. كلهم أصدقاؤها ومحبوها ، رغم أنها لم تكن بالفتاة الدميمة المنفرة ولكن بين رفيقاتها كثيرا من الفتيات الأكثر منها جمالا وحسنا وممن يستهوين الشباب الماجن .. ولم تعد للبيت مبكرة كما آملت ، لقد اتصلت بها صديقة قبل انتهاء يوم العمل ودعتها للعشاء في مطعم ومن ثم الذهاب لشراء بعض الثياب التي ظهرت حديثا في متجر أحد كبراء التجار ، فوافقت على الفور لا يجب أن يسبقها أحد بشراء الفساتين والتنانير الحديثة .. نتيجة لذلك تأخر أمر قراءة الرسالة ؛ لأنها عادت في وقت متأخر ليلا والشغالة حسنية قد رقدت على فراشها فلم تذكرها بالرسالة .

وبدأت عائلة الخابي والنحام الاستعداد لإعلان الخطبة في حفلة كبيرة ، فقد حجز النحام صالة كبيرة في فندق ضخم ، فقد رفض ناصح إقامة حفلة الخطبة في حديقة فيلا النحام .. وتوافد المدعوون من أصدقاء العائلتين لتلك الحفلة التي أنفقت عليها الأموال الكثيرة ، فقد تعاقدوا مع فرقتين موسيقيتين .. وانشغل الناس باللهو والشراب والاستماع ، والشباب بالرقص على أنغام الموسيقى الغربية .. وقد نهض العروسان للمشاركة في الرقص مع الراقصين .. وأثناء اندماج القوم في طربهم ومرحهم دخلت القاعة امرأة شقراء سبقها عطرها الفواح ثم زينتها الفاتنة للمكان ، فنهض السيد ناصح أمام نظرات الساهرين لاستقبالها والاحتفاء بها أمام دهشة الحاضرين وخصوصا زوجته مريم وبدرية وعيون الفضوليين ، ثم ساقها إلى أحد الموائد

وجلس معها كأنهما كانا على موعد واندمجا في الحديث .. وهنا اندفعت امرأة السيد ناجح السيدة عزيزة للانتقال إلى مائدة مريم لتسألها عن هذه المرأة فردت عليها بحيرة : لا أدري هذه أول مرة أشاهدها كأنها صديقة حديثة لناصح ولابد أنه هو الذي دعاها .. إنها أنيقة وفاتنة

فقالت عزيزة : يقول ناجح إنها أرملة وإنها زوجة الدكتور ساري دكتور الطب النفسي

قالت مريم : إنني أعرفه وقد زرت عيادته أكثر من مرة فلم أصادفها مرة واحدة .. رحمه الله قد هلك بمرض السرطان ..

فقالت عزيزة : ظننتك تعرفينها .. فناجح يقول إنها منذ ترملت بدأت تخرج للناس .. لقد كان الدكتور لا يحب رؤيتها في المحافل .. ويقول إنها ورثت ملايين الدنانير عنه ..

فتبسمت مريم بعد وجوم : صفقة إذن .. فناصح يشم رائحة الملايين من بعيد ..

فقال عزيزة : أخشى أن يكون الأمر أكبر من ذلك يا مريم ..

- ويحك ماذا تقصدين ؟ !

- زواج

ضحكت مريم ضحكة قصيرة وقالت ساخرة : ناصح يتزوج ! .. إنه رجل عجوز لا يصلح للنساء منذ سنوات يا عزيزة

فقالت عزيزة محذرة : خذي حذرك

وانسحبت وعادت حيث يجلس زوجها ناجح وقد أثارت القلق والتوتر في نفس مريم ، فأخذت تتابع زوجها العجوز كما تقول وهو يتحدث مع المرأة الشقراء بانسجام واندماج كأنهم أصدقاء منذ عهود .

فقالت بدرية التي سمعت همسات زوجة عمها : أظن أنهما يتحدثان عن مشاريع ومصانع أبي لا يحب الحديث إلا في ذلك يا أمي .. لا تهتمي بكلام عزيزة ..

فقالت مريم : والله إنهما مندمجان ولا يحسان بالعيون التي تسترق النظر إليهم وهل هذا وقت حديث في مشاريع وصفقات ؟!

ردت بدرية قائلة : أبي صياد ماهر لا يهمه الوقت ، قد يريد تعاونها في إنشاء مصنع الأدوية

فهي زوجة دكتور ..

بعد الثانية ليلا انتهى الحفل ، ورجع السكارى إلى بيوتهم منهكين من الرقص والطرب والشراب ، وما كاد ناصح يدخل حجرة النوم التي تخصه ـ لكل واحد منهما حجرة نوم خاصة للزوج غرفة وللمرأة غرفة ـ حتى دخلت مريم خلفه وقالت بنبرة غيرة وغضب : ما الذي فعلته الليلة يا سيد ناصح تركت الناس وانشغلت بتلك الحسناء الشقراء ؟

فالتفت إليها متضايقا وقد خلع ربطة العنق وطرحها على السرير ورد: ها أنت قلت بلسانك حسناء وشقراء.. أرجو أن لا تكوني غرت؟

فردت باستهزاء يشوبه حنق: أغار ممن يا عجوز منها إنها أرملة ؟ !

ـ ولكنها جميلة يا مريم ومعها ملايين

ـ تترك الناس .. ضيوفك وتقضي سهرتك كلها معها .. بماذا كنتم تتكلمان ؟

فضحك ضحكة قصيرة ورد : عن الحب وأيام الشباب

فقالت بغضب وبلهجة من يأمر : أريد أن أعرف كل شيء .. لقد أكلني الناس بعيونهن ونظراتهم وهمساتهم .. بل إن عزيزة ترى أن هناك أكثر من ذلك ..

فصاح غاضبا : وماذا قالت عزيزة الحمقاء ؟

فردت مريم غاضبة : تقول إنك تريد الزواج منها

فقال هازئا : وهل في ذلك ما يغضبك ويثيرك لتحمر عيناك يا مريم ؟ أينقصك شيء ؟ .. أليست لديك الأموال والسيارات والعمارات ؟

فقالت بصوت هامس غير مصدقة لم استقر في الذهن : أحقا تريد الزواج يا ناصح ؟

فقال بوضوح وصراحة : أجل يا مريم ! .. أريد الزواج .. لا تريد أن تكون عشيقة تريدني زوجا وأنا أريدها إنها فاتنة وناعمة

فصاحت بغضب : هذا لا يمكن أن يصير أيها الرجل .. هانت عليك عشرة هذه السنوات أين ما ننادي به من حرمة التعدد ومن ظلم المرأة العربية والشرقية أين ؟؟

فقال هازئا ومحقرا : هذا كلامك أنت وصويحباتك وجمعياتك .. فالتعدد مشروع في ديننا

فقالت بحنق : الآن صار لك دين

ـ هل سمعتيني يوما ما أويدك في دعواتك وخرافتك .. فإن لم نعدد بالقانون والشرع فنحن نعدد من غير قانون أتريدين أن تقولي لي إنك طاهرة عفيفة ولم تختلي برجال غيري يا مدام ؟

خيم الصمت القاتل ثم ردت : ولكنك زوجي ولا يجوز لك أن تتزوج عليّ .. اتخذها عشيقة كغيرها من العشيقات وبنات الهوى

فقال : رفضت ذلك .. قالت لن أكون لك إلا بزواج شرعي وشهود رغم الاغراءات التي بذلتها لها من مال وعقار وأرصدة .. وهي عاقر لا تنجب فلا تخافي على الورثة .. وأعلم أن أرصدتك كبيرة ولكنك طماعة .

صمتت مريم ثم قالت : منذ متى التقيتم ؟

فقال بصراحة : أنا كنت أحوم حولها قبل موت زوجها ؛ ولكنها كانت تصدني وتظهر الوفاء لزوجها ، وكانت مشاركتها لاجتماعاتنا ضئيلة ، فلما مات زوجها منذ سنة مضت كنت معها ثم عرضت عليها عشقي وغرامي ، فرفضت ووافقت على الصداقة وأما الجسد فقالت بالزواج فقط .. فشاورت ناجحا أخي بالزواج منها فرفض ، وقال كما قلت الآن اتخذها عشيقة فالتعدد في العائلة ممنوع فحاولت معها مرة أخرى .. ولكنها مصرة على الزواج إن كانت لديّ رغبة إليها .. والليلة تناقشنا حول هذه المسالة .. فيا مريم الطاهرة عليك بالرضوخ للأمر والواقع .. أنا كنت أريد أن اقترن بها بدون علمك .. ولكن أولاد الحلال احبوا أن يخبروك بسرنا هذه الليلة وما هو بسر

فهزت مريم صادق رأسها باستسلام ويأس : أيضا .. تريد أن تتزوج من ورائي ..

ـ لا أحب إحراجك

فهاجت وقالت بضيق شديد : قتلتني ! إنك تهدم شغل سنوات وسنوات يا مجرم .. أنت تسمح لي بالجلوس مع الرجال والآن تتهمني وتعيرني يا شريف يا محترم

فقال : يا مريم كما أسمح لنفسي بالجلوس مع نساء القوم .. فمن الطبيعي أن أسمح لك بذلك العين بالعين ولكني لم أسمح لك بأمور أخرى ..

فقالت بحدة : أما أنت فتسمح لنفسك من النساء الأخريات

فقال ببرود : مهما يكن .. فأنا رجل ولا يعيبني ذلك

فقالت هي الأخرى متحدية وهائجة : وأنا لا يعيبني ذلك .. ما دمت تسمح لنفسك بالزنا يجب أن تسمح به لغيرك .. إنك حقير .. اسمع يا ناصح أنا أعرف أنك نذل .. ولكن إذا أردت الزواج فعلا من تلك الفاجرة ..طلقني لا أريدك

فقال بغضب : ولماذا الطلاق .. هذه الفيلا أكتبها باسمك وظلي عند الأولاد ؟

ـ أيّ أولاد ؟ ! فقمرية قريبا ستتزوج كما فهمت من جبر ، وسمري في أمريكا وعمري ضاع ولا نعرف عنه شيئا ولا في أي البلاد هو .. وبدرية غدا ستتزوج .. أنتم الرجال لا أمان لكم وأنت رجل عجوز وما زلت تعشق النساء

فصاح محتجا : هناك من هو أكبر مني وتزوج ثانية وثالثة .. لا تظلي متعلقة بشعارات جمعيات المرأة والنساء .. هذا كله كلام في كلام .. أنا لم أكن أحب وأرغب في مصارحتك برغبتي بالزواج كنت سأخفيه عنك أما الآن بما أنك تدخلت في حياتي الخاصة .. سأعجل بالزواج وأعلن به .. وإذا أحببت الفراق سيكون لك ذلك .. تدبري وفكري ؟

فعاد إليها الهياج وقالت شاتمة : حقير .. نذل .. أناني

ـ لا يهم قولي عني ما شئت .. أعلم أن الخبر عليك مؤلم فقولي ما شئت

ـ سأتحدث مع أخيك ناجح لعله يردعك مع معرفتي لضعفه معك

ضحك ناصح وقال هازئا : هو يعرف كل شيء .. لا داعي لحشر الآخرين في حياتنا الخاصة هذا البيت لك بما فيه وأكثر ودعيني وشأني

فقالت ساخطة : لن تتزوجها يا ناصح قبل أن تطلقني ، ولسوف أرحل عند ولدي سمري وأعيش باقي عمري في أمريكا ..

فقال بهدوء وفرحا بانتصاره عليها كما يظن : اذهبي للنوم .. وغدا نتفق على كل شيء

خرجت مـقهورة ؛ ولكنها لما دخلت غرفتها أخذت تبكي وتبكي ، ثم همست قائلة وهي ترى صورة عمري ماثلة أمامها : أجل !.. حياتنا شهوات وشهوات .. نتخلص من شهوة لنبحث

عن غيرها .. صدق ولدي عمري بكلامه .. ليتني أراه .. أريد أن أعيش معه .. حياتنا ضحك وسخرية .. نحرم أشياء ونحن نعمل بها بصورة أخرى

تدخلت قمرية وبدرية وناجح ورباب في منع السيد ناصح الخابي من الزواج فلم يفلحوا فقد غلبه الصبا والهوى ، فكانت النتيجة طلاق مريم ، ثم سافرت إلى أمريكا إلى حيث يتعلم ولدها الأصغر .. ثم تزوج ناصح من الأرملة الشقراء قبل زواج ابنته قمرية من ابن عمتها رباب .

اختي بدرية

اضطر ناصح الخابي لشراء قصر لزوجته الأرملة الشقراء ، وبعد زواجه بشهور تزوجت قمرية وتقرر أن يسكن جبر في الفيلا ؛ لأنه لا يجوز أن تخلو الفيلا من رجل ، وعلى أثر تلك التطورات في تاريخ الأسرة تم تغيير ديكور الفيلا ، ولما وصلت هذه الأخبار للسيدة مريم ـ التي رحلت إلى أمريكا قبل زواج طليقها من حسنائه الجديدة ، وقبل زواج ابنتها الكبرى قمرية ـ أرسلت وراء ابنتها بدرية تحثها على الرحيل واللحاق بها والحياة معها ، فوجد هذا الاقتراح هوى لدى بدرية، فقدمت استقالتها من شركة والدها ، وبدأت تتهيأ للسفر ، ولما تمت الموافقة على سفرها وأتتها تأشيرة الدخول لأراضي الولايات المتحدة فاتصلت بأبيها بالهاتف مودعة في آخر لحظات السفر ، وكان والدها لما أخبر برغبتها بالسفر لأمريكا الشمالية قد عرض عليها زوجا يعمل معه فرفضت واختارت اللحاق بأمها ، وودعت أختها وزوجها جبرا ، وسافرت بدون ضجيج ورفيق ، وفي ولاية فيرجينيا نزلت على أمها حيث يعيش ويدرس أخوها سمري للماجستير بعدما أنهى البكالوريوس في الإدارة والاقتصاد ، وتعانقتا وهما تبكيان ، ولما هدأت روحها سألتها أمها : ألم تسمعي خبرا عن عمري ؟

فقالت وباستغراب للسؤال : لا يا أمي ! ..ولم تسألين عنه بعد كل هذه السنوات ؟!

فقالت بحزن يشوبه ندم : أرى أنه خيركم يا ابنتي ! .. عرف اختيار الهدف .. لقد كانت حياتنا هواء وهراء وما كنا أحرارا كما نغني .. فقد وجدت أن أخاك متزوج من فتاة أمريكية لا اشتريها بفلسين .. لا أدري كيف تزوجها ورضي بها شريكة حياة ؟ ! إنها تكره العرب والمسلمين كما تقول وتزعم .. أما كيف رضيت بسمري لحتى اليوم لا أعرف ؟ ستعرفينها

فأظهرت بدرية الغضب وقالت : لماذا لم تخبريني بذلك قبل السفر ؟

فقالت كأنها معتذرة : إنني أشفقت على وحدتك فأنا على اتصال ببعض الصديقات .. ولن نبقى هنا ، لقد طلبت من سمري أن يجد لنا شقة قريبة منه لنرحل إليها ، وهذه الفتاة قد تزوجها من قبل حضوري بأيام .. صديقة له يدعي أنه زواج مصالح ..

استسلمت بدرية للواقع وبلعت الطعم على مضض وهي تقول لنفسها : لا أظن يا أمي

أنك أشفقت على وحدتي بل أشفقت على وحدتك أنت .. أرسلت ورائي تسلية لك .. أرجو أن أجد الوضع هنا خيرا من هناك .. ما أبشع حياتنا ! مع كل ما نملك من أرصدة وأموال .. نحن نعيش في تعاسة .. كل واحد يغني على ليلاه ..الأنانية ..كل يعشق نفسه .. منذ أن اقترنت قمرية بجبر ما دعتني لعشاء أو غداء معهما .. كأنني غير موجودة معهم في البيت .. أو لعلها خائفة أن أسرق جبرا منها ..!!

ولما سألتها أمها عن زوجة أبيها قالت : من يوم خطبة قمرية لم أرها .. تزوجها زوجك السابق في حفل صغير بناء على طلبها ، فاعتذرت عن الذهاب ، فلم يهتم ولم يلح ، ولا حتى جبر وقمرية أظن أنهما ذهبا ، أعتقد فقط أن عمي ناجحا وحده رافق الزوج الفحل في ذلك اليوم

ضحكت مريم صادق وقالت : من أين له الفحولة ؟ .. لقد كان يتعالج عند الدكتور بستان من الضعف الجنسي وغيره ..

قالت بدرية : دعينا منه يا أماه ! .. المهم فليعجل سمري بإيجاد شقة لنا ندفن أنفسنا فيها

فقالت الأم : الحياة هنا جميلة وممتعة .. سوف ترين ذلك حين ترتاحين من تعب السفر والطائرات

فعادت بدرية تحدث نفسها : من أجل ذلك بعثت ورائي ثم رفعت صوتها قائلة : سوف نرى ذلك على الطبيعة مع أنني لم أر شيئا حلوا في الحياة .. فزوجك بعد عشرات السنين استبدلك وأنت لم تتركي فتاة صالون ماهرة إلا وترددت عليها لتظلي غزالا في عين ناصح الخابي ..

فقالت الأم بحسرة : اكتشفت بعد فوات الأوان يا ابنتي أنني لم أكن أتجمل لأبيك بل لأصحاب أبيك .. فها هي امرأة أرملة شقراء عاقر تخطفه مني بلمح البرق .. الرجال ماكرون خادعون

فقالت بدرية : والنساء يا أمي .. أليست الشقراء امرأة ؟

عندما عاد سمري وزوجته ليلا رحبا ببدرية ، وكان سمري قد استقبل أخته في المطار ولما أدخلها مدخل العمارة تركها وعاد إلى جامعته ـ فهو يدرس الماجستير الأكاديمي ويشتغل عند والد سيزانا في متجر كبير ـ أظهرت سيزانا العطف والشفقة على بدرية ، ولما انتهوا من التعارف

والمجاملات سألته الأم عن الشقة التي وعدها أن يستأجرها لها ، فذكر أنه اتصل بالمالك أو محامي المالك وسوف يوفران لهما شقة في أقرب وقت أو عند رحيل أول مستأجر ، وبعدما هبط الليل قال سمري: هيا بنا يا سيزانا نحتفل ببدرية في أحد المطاعم

فهبطوا للعشاء في أحد المطاعم الأمريكية ذات الصيت والسمعة العالمية ، كانت سيزانا ودودة جدا مع بدرية ، وكانت تظهر النفور من أم بدرية .

*****

بعد أن سكنت مريم وابنتها في شقة خاصة بهما أخذتا حريتهما أكثر من الحياة مع ابنها وزوجته الأمريكية ، ومنذ فارقتا سمري منذ اسبوعين لم يحاول دعوتهما للغداء أو العشاء كأنه لا يعرفهما وليستا أمه وأخته ، فكانت بدرية تقول : هذه حياة الأجانب التي كنا نركض لنصل إليها .. المهم نفسي .. إيه لقد كان عمري أصلح منه كثيرا .. أين أنت يا عمري ؟

وبينما هما تتذكران أيام عمري وتوبة عمري رن جرس الباب ، فدهشت بدرية وقالت : منذ سكنا هنا ما رن جرس الباب علينا في المساء إلا بائع الصحف أو اللبن في الصباح

ولما فتحت الباب فوجئت بسمري وزوجته فتصافح الجميع وقالت سيزانا : قلت لسمري زمان ما رأينا بدرية هيا بنا نسمر معها .. رغم تعبنا هذا النهار

وأخذت تشتكي من تعب العمل وإرهاق ساعات الدوام والدراسة ، وبعدما شربوا القهوة ، قال سمري لبدرية : وجدت هذه الرسالة لك يا بدرية وأظن أنها من الشغالة حسنية

أدركت الأم وابنتها حينئذ سبب زيارة سمري لهن ، كان يكتفي بالاتصال بهن في الهاتف ، وكانت قد نظرت في عيني أمها وابتسمت ابتسامة خاطفة لا تكاد ترى ، وتناولت بدرية الرسالة من يده الممدودة ، وفضتها فوجدت بداخلها رسالة ومظروف آخر من غير عنوان فتذكرت على الفور الرسالة القديمة التي وضعتها تحت الوسادة منذ شهور ولم تقرأها فقالت لنفسها بسرعة : أين ذهبت يا ترى ؟! وقرأت رسالة حسنية التي كانت تشتمل على السلام على الأسرة وأنها تلقت رسالة من مجهول لبدرية فلما انتهت من القراءة ، ذكرت لهم تحيات حسنية وعمران البواب وقمرية وجبر ، ولم تقرأ الرسالة الثانية بل وضعتها في جيب قميصها ، وبعد

وقت يسير انصرف الزوجان ، ولما أغلقت بدرية الباب وراءهما قالت باسمة : هذا ما دفعهما لزيارتنا يا أمي وأخرجت الرسالة ثم تابعت الكلام قائلة : لقد تلقيت رسالة مثلها منذ سنة تقريبا .. اليوم تذكرت أنني لم أقرئها .. لقد ظننت أنها من شاب سخيف .. وها هو يكرر المحاولة

فقالت الأم : افتحيها واقرئيها لنرى ما بداخلها .. ومن هو السخيف الذي أرسلها ؟

مزقت بدرية الغلاف وأخرجت ورقة بيضاء مسطرة وعليها كتابة .. فقرأت بصوت مسموع

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي العزيزة بدرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

فقالت الأم : ما هذا ؟!

ارتبكت بدرية وقالت : هذا خط عمري إنها رسالة من عمري .. ها هو توقيعه في ذيلها

خطفت الأم الرسالة وهي تقول بلهفة : عمري .. ولدي وضمتها إلى صدرها وقد سقطت قطرات دمع من عينيها وهمست : ما أقسى قلبك يا عمري ! .. ثلاث سنوات لم نرك ولم نسمع عنك خبرا

فقالت بدرية : على مهلك على الرسالة يا أمي .. إذن تلك الرسالة التي لم أقرئها كانت من عمري .. لا أدري ما مصيرها ؟! .. قد تكون حسنية ألقتها في سلة المهملات لكنها مغلقة سأكتب إليها لتبحث عنها وترسلها إلي .. هات يا أمي أقرأ ما كتب الأخ العزيز

قالت مريم : إقرئي يا بدرية .. أنت بصرك أصلح من بصري

أخذت بدرية الرسالة وقرأت بعد السلام ..

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي العزيزة بدرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد علمت بما صنع أبي المسكين ، ولقد أسفت لم حصل لأمي من طلاق وفراق ولكني حزنت

عليك أنت كثيرا ، كنت أحب الناس اليّ في البيت ، كنت أريد أن أعيد لك الصواب لِم أرى من تعاطفك معي ، ومن قرائتك ما أقرأ وكثرة مناقشتك لي ، أحببت إنقاذك من النار ، وقد كتبت لك ذلك في رسالة سابقة ولم أتلق ردا عليها .. فلا أحب أن أزيد في التذكير .. كنت أود يا أختي العزيزة أن تعيشي معي ، فقد علمت بزواج قمرية وسكنها في الفيلا . وأنا وإن كنت بعيدا عنكم لكني معكم وأحبكم وأخاف عليكم .. فإذا أخذت طريق الهداية والحياة بكنـفي وبعيدا عن الشرور والفجور فاكتبي لي على هذا العنوان (الريحانة ص. ب ٣١٤٥٦٧) وستجدينني بقربك .. ولقد حدثت صديقا طيبا لي بظروفك ، وهو طبيب فسره الاقتران بك ومستعد أن يكون لك زوجا وطبيبا ، إنني في انتظار جوابك أخوك المحب عمري محمود

وكان في ذيلها التاريخ والتوقيع .

وقرأت الرسالة مرة أخرى وقالت وهي تحلق في الخيال البعيد : هذه الرسالة كتبت قبل سفري بيوم واحد يا أمي

فقالت مريم : إنه لا يعرف بسفرك إلى هنا عند كتابتها وإلا ذكرني في الرسالة

ـ أجل يا أمي .. إنه أشفق عليّ شفقة حقيقية .. إنه يحبني .. سأكتب له رسالة إنني مشتاقة إليه أخي الحبيب .. وسأرسل وراء الرسالة الأولى لعلها لم تفقد بعد .. حبيبي عمري أرجو أن يكون نعم الأخ ..فها نحن قد عرفنا الأخ سمري ناصح

كتبت رسالة للشغالة حسنية تطلب منها البحث عن الرسالة القديمة وإرسالها على شقتها التي ذكرت رقمها واسم الشارع والحي ، وظلت على نار وهي تنتظر تلك الرسالة التي لم تقرئها منذ سنة ، ولكنها وصلت أخيرا ، فقد وجدتها حسنية الذكية بأغراض بدرية التي نـقلت لمخزن الأشياء القديمة والمهملة ، فلما تسلمتها بدرية من ساعي البريد شكرته ، وأغلقت الباب وكادت تطير من الفرح والسعادة ، وكانت أمها قد خرجت لزيارة الطبيب لألم ألم بها في صدرها وقبل أن تقرأ الرسالة قبلتها فرحا وجلست في الصالة تقرأ الرسالة القديمة .. وكان فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي بدرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوك المحب يكتب لك من أعماق القلب .. يكتب إليك وكله شوق لمشاهدتك وسماع صوتك ومناقشاتك وتعليقاتك .

أيتها الأخت .. لولا حبي الكبير ما كتبت لك هذه الكلمات .. فالحياة جحيم من غير إيمان وتوحيد وتوبة .. لماذا خلقنا يا بدرية ؟! .. أخلقنا فقط للأكل والشرب والشهوات ؟ .. أليس هناك روح مستقرة في أبداننا ؟ وهذه الروح تحتاج لأكل وشرب وشهوات ، فطعامها العبادة كالصلاة والصوم ، وشرابها الذكر والدعاء والأخلاق ، وشهواتها التحليق في عجائب ملكوت السماوات والأرض ، فأكثر الناس حطب جهنم .. وجهنم مكان رهيب يمزق الأفئدة ويحطمها تحطيما .. فلماذا لا ينقذ المسلم نفسه من النار ومن العذاب الأليم ؟! فالنار مثوى الظالمين والكافرين .. انقذي نفسك أيتها العزيزة .

والإسلام لا يحرم ملذات الدنيا ، فهناك ملذات مباحة ، فالزواج بدلا من الزنا ، وجميع ألوان الطعام مباحة إلا القليل ، والكلام كثير .. ولكنك قد تتسائلين لماذا يكتب لي عمري بعد أكثر من سنة من الاختفاء وما الذي فطنه بي ؟! تيقني أنني دائم الفكر بكم وأتمنى أن أصحو من نومي وأجدكم حولي أسرة ثانية عائدين إلى ربكم .. ولكن هناك سببا آخر دفعنني للكتابة إليك وحدك .

فاعلمي أيتها الأخت الحبيبة .. أنني قد تزوجت من فتاة ، هي أحلى امرأة في العالم ، وأجمل من كل فتيات لندن ومرسيليا ، ومن تعرفين من بنات طبقتنا وأقاربنا ، وهي متاع صالح كما أشار نبينا محمد (ﷺ) ، تزوجتها أيتها العزيزة ومنذ أشهر أخبرتني بأنها حامل ، ففرحت فرحا عظيما لهذا الأمر .. والإنسان لا يعلم متى يأتيه الموت .. وهذا المولود القادم سوف يحمل اسم أسرة الخابي سواء كان ذكرا أم أنثى ، ورغم الأوراق الرسمية فقد أحببت أن تكوني بعلم بهذا الزواج حتى إذا حدث لأخيك المحب ما منه مهرب أن تقفي مع زوجتي وولدها .. من أجل هذا وذاك أكتب إليك .. وأرجو أن تكتمي أمر هذه الرسالة عن الأهل جميعا .. أنا خصصتك بها وحدك السلام عليكم يا أختاه .

أخوك عمري

تاريخ كتابةالرسالة

عنوان المراسلة

بكت بدرية أثناء تلاوتها لسطور هذه الرسالة ، ولم تكف عن البكاء إلا عندما سمعت جرس الشقة ، فذهبت وغسلت وجهها وفتحت لأمها ، التي لاحظت على الفور احمرار عينيها من كثرة البكاء فقالت بقلق : ما بك يا بدرية ؟

تنهدت الفتاة وقالت : وصلت رسالة عمري القديمة .. تخيلي يا أمي لو قرأتها قبل زواج أبي وطلاقك لما أتيت هذه الديار الواسعة ولكنها موحشة ، الإنسان بدون أهل وأحباب وأسرة وأصدقاء كأنه ميت .. نفرح لمن يطرق الباب علينا .. والله ما أدري ماذا كان يعجبنا بهؤلاء الأجانب .. لا أحد يطرق باب جاره .. ؟!

فقالت الأم : دعينا من الأجانب ومن عاداتهم وطباعهم .. إقرئي لي ما كتبه الابن العاق

قرأت بدرية الرسالة على أمها التي شاركتها البكاء ثم قالت وهي تكفف دموعها : لقد اختار حياته .. واستغنى عن مال أبي وأمه .. الله يسعده .. إني مشتاقة إليه يا بنيتي .. يجب أن تكتبي إليه وتخبريه بأحوالنا أنا ضقت ذرعا بهذه البلاد .. أنت من شهر أو شهران مللت فكيف أنا ! .. أكل وشرب ونوم .. كنا نظنها جنة الله في الأرض عندما كنا نأتيها سائحين ، كان يخيل إلينا أن هؤلاء الخلق أسعد البشر .. ولكننا لما أخذنا نقرأ صحفهم دهشنا من كثرة جرائمهم والحوادث عندهم .. لم نكن نراها في بلادنا .. لقد سمعت أثناء وجودي عند الدكتور قبل ساعات عن جريمة تقشعر لها الأبدان .. امرأة اغتصبها عدة رجال ، وبعد ذلك قطعوها بالسكاكين ، ثم حرقوها بعد ذلك .. والشرطة قد قبضت على بعض القتلة الذين اعترفوا بفعلتهم الوحشية ، والبعض الآخر مازال طليقا .. والرجل هنا لا يستطيع أن يخرج في الليل بدون أن يحمل مسدسا أو رشاشا .. والمصيبة انتشار جرائم القتل والعنف في المدارس .. والله أشياء رهيبة تظهر على الشاشات والصحف بدأنا نعرفها عن هذه المدنية والحضارة !

فقالت بدرية : معك حق يا أمي ! نحن عندما كنا نأتي سائحين كنا نرى الصور الجميلة الملاهي

المسارح .. السينما .. المسابح .. الحدائق .. كنا نرى الوجه الذي تقدمه لنا شركات السياحة .. أماكن الجذب السياحي .. أما اليوم فنحن نقلب صحفهم صفحة صفحة .. لدينا متسع من الوقت ؛ فلذلك نرى الحياة الحقيقية في المجتمع .. نرى ما فيها من جرائم قتل واغتصاب وأمراض جنسية وعنف وعنصرية

فقالت الأم : اكتبي لعمري الغالي لعلنا نرحل ونعيش في رعايته .. فالحياة مع سمري قاتلة ومظلمة

فقالت بدرية بنوع من الاستغراب : أتستطعين الحياة مع عمري يا أمي ! .. الشيخ عمري فأنا أرسل لي ليزوجني من صديق له شاب متدين مثله إذا اخترت طريق الهداية والتوبة كما يقول أخي الحبيب.. يا الله كما أحلم برؤيته والحديث معه .. ؟ !

فعادت الأم تقول : الحياة مع عمري أظن وأتصور أنها خير من الحياة مع سمري وسيزانا الملعونة .. لا يستطيع الواحد أن يتكلم معها من تعاليها وانتفاخها وأخوك ذليل أمامها ..

ـ ألم يقل لك مرارا وتكرارا المصالح تتطلب ذلك ؟ .. العمل والحصول على الجنسية الأمريكية يا أمي .. دعيه .. سأكتب لعمري بكل أحوالنا وننتظر ماذا يرد علينا ؟!

رد عمري

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الحبيب أخي المحب والشفوق عليّ عمري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اكتب إليك من حي { القديس يوحنا } فيرجينيا الأمريكية

أشكرك على حبك الكبير لي ، وأشكرك على السعادة التي تتمناها لأختك الضعيفة الضائعة الحائرة .. اعلم أيها المحب أنني للأسف قد قرأت رسالتك الثانية قبل الأولى ، قرأتها وأنا أسكن في شقة مع أمك المطلقة في أمريكا .. لقد وصلت اليّ بعد سفري بأيام .. ولو أنني تلقيتها قبل السفر ربما لم أهاجر إلى أمريكا روبنسون كوروزو وتمثال الحرية وسوبرمان وحرب الاستقلال والشيخ والبحر ..

أخي الحبيب .. أبارك لك الزواج رغم التأخر في هذه التهنئة للظروف التي تعلمها ، وأظن أنك الآن قد رزقت بمولود آخر ، وسلامي الحار والدافئ لزوجتك أحلى امرأة في الدنيا .. لقد كان رحيلك عن البيت دمارا وسوادا ، حزنا ولم نمل من السؤال عنك ، وندم أبي وبكى على فراقك وبعدك ، ولكنّا أيقنا أنك اخترت الطريق المناسب لك ، كما كنت تحلم يا عمري نسيناك بعد حين أو تجاهلناك ، عادت الحياة كما كانت للبيت حفلات سهرات مقابلات رقص مجون سكر .. كل ما تعرفه عنا .. تزوجت نوال سبب كل هذه المشاكل ، ولما خطبت أختك قمرية ابن عمتك رباب الأستاذ جبر الذي استلم مكانك في مصنع السجاد والخيوط ، كان أبوك المحترم قد وقع في غرام أرملة شقراء زوجة الدكتور ساري إنك تعرفه لقد قام بمعالجتك عندما عدت من لندن منهارا مدمرا من الديون والقمار والشراب .. وقع أبوك في حبها وأبت أن تكون له عشيقة أو زوجة سرية ..أمك لم تتقبل الوضع ، وهي التي تردد مع نساء جمعيات حقوق النساء أن التعدد ضار ومنكر وحرام مما تعرفه عنها وعن نساء تلك الجمعيات والنوادي الفارغة أبي لم يتردد في طلاقها رغم توسلاتنا ، فتم الطلاق بسرعة مدهشة ، وهاجرت إلى بلاد العم سام إلى بلاد تمثال الحرية .. والحرية كما تسمع ونسمع .. عند ولدها الصغير سمري .. وبعد زواج

أبي من أرملة الدكتور رحل عن البيت واشترى لها بيتا آخر قصرا كبيرا يليق بحفلاتهم وسهراتهم .. ثم تبع ذلك زواج قمرية وجبر وسكنا الفيلا .. فأصبحت بينهم غريبة ، لا أحد يتحدث معي .. الخادمة تدخل عليّ على خوف وقلق .. آكل وحدي .. فلما تلقيت دعوة أمي للهجرة إلى أمريكا فرحت ، ولما علم أبي بذلك عرض عليّ زوجا شفقة عليّ ، فرفضته ورحلت لبلاد الحرية والحب ، فوجدت أمي تريد من يفك وحدتها فكرت بالعمل ثم عكفت عنه .. كرهت هؤلاء الأجانب وعاداتهم وغرائبهم .

ووجدنا أخاك سمريا متزوجا فتاة أمريكية .. لا أشتريها بخمسة فلسات .. وهي لئيمة مع أمك وإن كانت تظهر لي بعض الود والميل .. المهم تركنا سمريا ونسكن شقة وحدنا .. مضى علينا فيها شهر وأيام ولم يطرق علينا الباب .. أحيانا يتحدث معنا بالهاتف .. مشغول بين عمله ودراسته للماجستير وزوجته أيضا .. إننا عندما حولت حسنية المخلصة رسالتك لنا إلى أمريكا كانت مفاجأة طيبة وبلسما لنا ..

أخي الحبيب

أمي مشتاقة لك وتريد أن تعيش عندك ، إنها تائهة حائرة .. بغضت مثلي لهذا المجتمع مجتمع التفكك الأسري .. نحن بحاجة إليك يا عمري .. انظر ما تراه مناسبا .. ونحن في انتظار ردك .. سلام إلى زوجتك الطيبة أحلى امرأة في العالم .. سلام إلى ابنك أو ابنتك .. تحيات وقبلات أمك للجميع .. لا تنسانا أيها الأخ الحبيب

أختك المحبة

بدرية الخابي

التاريخ

فيرجينيا ـ أمريكا الشمالية

ثم ذكرت عنوان المراسلة ورقم الهاتف .

****

قرأ السيد عمري هذه الرسالة ، وأخذه البكاء والنحيب ، وكان صاحبنا لما استلم الرسالة ترك عماله وعاد للبيت ، فاستغربت الزوجة الشابة زينب من عودته المبكرة قبل الغداء ، فقال لها مزيلا حيرتها : تلقيت رسالة من أختي الحبيبة .. فجئت اقرأها على هدوء ..

فصنعت له فنجان قهوة وتركته يقرأ وحده ، فلما سمعت بكاءه هرولت إليه من غرفتها وقالت بلهفة : ماذا حدث أيها الزوج الطيب ؟ ! أخبرني يا عمري ؟

فقال وهو يبكي ويتشنج : إقرئي هذه الرسالة يا زينب

تناولت الخطاب بقلق واضطراب وقرأتها ، فبكت كما بكى عمري وقالت بقوة وحزم : عليك بأن ترسل إليهن فورا بالمجيء .. فهؤلاء أهلنا وأحب الناس إلينا .. أسرع يا عمري بالكتابة إليهن .. إنهن يستنجدن بك .. بل اتصل بالهاتف فها هو رقم الهاتف مذكور في الرسالة .

لقد ذكرت بدرية رقم هاتفها في الرسالة ، فقام إلى الهاتف واتصل بأمريكا وبعد دقائق كان يتحدث مع بدرية فلما حياها وحيا أمه وبكى تحت سمعها واعتذر لها طلب بدرية ثانية ثم قال : إنني بشوق إليكن وأنا في انتظاركن .. اكتبي هذا الرقم ـ وأملى عليها رقم هاتف المنزل ـ وعندما تركبنّ الطائرة اتصلي بي فأنا لا أحتمل بعدكن عني .. وأنا في انتظار الاتصال

كانت الفرحة كبيرة لم يسعها قلب مريم ، وسرت من تلهف ولدها إليهنّ وبكائه ، فهو منذ قرأ الرسالة اتصل بهن ، فأخذت تدعو له بالتوفيق والرضا وتتحدث عن شوقها الكبير لرؤيته بعد كل هذه السنوات ، وقالت بدرية متأملة الموقف: أرأيت يا أمي ماذا يفعل الدين الحقيقي بأهله ؟! .. أنا ما زلت أذكر عندما عاد عمري من إنجلترا.. سلم علينا من طرف أنفه كأنه ما غاب عنا يوما واحدا .. أما الآن كان يتكلم والدموع والشهيق في لسانه ولهجته الدين يرقق الأفئدة .. لا يريد منا إخبار سمري بمسيرنا إليه .. فنـقول له : إننا مللنا الحياة هنا وسنعود للحياة بين الأهل والأحباب وأظن أنه سيرحب بذلك سريعا ويفرح أيضا

وهذا ما حصل فعلا ، فلما سمع سمري رغبتهن بالعودة للوطن أغلق الهاتف ، وأقبل إليهن مسرعا ومعه سيزانا بالطبع ، فأخذت الأم تحدثه عن ضجرها من الحياة في المجتمع الأمريكي ، وأنها تفكر بالعودة للحياة عند أهلها وأحبابها ، وطفقت سيزانا تشجعها على العودة ، وبعد

حين يسير تحمس سمري وبين لهنّ محاسن العودة للبلاد ، وخلال أسبوع كان سمري قد حجز لهن تذكرتين إلى نيويورك ومنها لأوروبا وبعد ذلك لأرض الوطن ، وليلة الرحيل اتصلت بدرية بشقيقها عمري وأخبرته بتاريخ السفر وساعة الرحيل ، وأنها ستتصل به من روما أو مدريد حسب رحلة نيويورك .. ولما أوصلهن سمري للمطار ودعهن بعجلة لكثرة أشغاله ، ولم ينتظر معهن لحين إقلاع الطائرة ؛ ولكنهن لم يكترثن بذلك ، فقد كان شوقهن لعمري كبيرا ينسيهن الانتباه لهذه المواقف.. وصلت الطائرة مدينة نيويورك عاصمة المال والتجارة العالمية ، ومنها إلى أوروبا ، وبعد يومين في أوروبا حجزن تذكرتين ، ولما رحلن من أوروبا كانت بدرية قد تكلمت مع أخيها عن تفاصيل الرحلة ، ووصلت الطائرة الجامبو مطار البلاد في الليل قبل الفجر ، ولما خرجن من الطائرة كان عمري في انتظارهن ومعه زوجته زينب وولداه اللذان تركهما نائمين في السيارة ، فلما أخذن الجوازات أخذن يتطلعن يمينا وشمالا فلم يعرفن عمريا ابتداء فهو كما يعلم القراء قد ترك لحيته على سجيتها وكان يضع على عينيه نظارات ملونة ، فلما اقترب منهن خلع النظارة واندفع نحوهن وهو يهتف : أهلا بأمي الحبيبة

وتعانقت الأم وولدها الذي هرب من البيت قبل سنوات قليلة ، وكانت الدموع تنساب من العيون وتسمع الزفرات والتنهدات ، ثم عانق أخته ، فلما انتهى من عناقهنّ والترحيب بهنّ ، وكانت زينب تقف خلفه ـ وهي في ارتباك وتأثر ـ فأشار إليها قائلا : زوجتي زينب يا أمي قبلت الأم كنتها واحتضنتها ، فسلمت عليها الأخرى بحرارة وقبلت يديها، ثم عانقت بدرية ، وكانت الحقائب قد وصلت فتناولها عمري وقال : الأطفال في السيارة

استيقظ الطفلان على فتح صندوق السيارة ، فعانقت الجدة حفيدها ذا السنتين وحفيدتها ابنة الأشهر وهي مسرورة مما وجدته من حرارة اللقاء ومن شوق وحنان لدى ولدها وزوجته .. وكان عمري قد أحضر معه ساندويتشات وزجاجات العصير البارد فقدمها للجميع ، وكانت مريم قد انشرح صدرها كما قالت لكنتها الفتاة الرقيقة المجلببة ، وكانت قبل رحيلها لأمريكا إذا رأت فتاة تلبس الجلباب وغطاء الرأس تشمئز نفسها وتكاد أن تقيء من القرف والجهل من هؤلاء الفتيات اللواتي يلبسن هذه الأسمال ، أما الآن فلا ، فقد تهيأت زينب لهذا اللقاء ، قد

كانت زينب طيبة ولسانها جميل وحلو كالعسل ، بل بدرية سرت منها ، ورأت أن أخاها صادق بوصفها بأنها أحلى امرأة في الدنيا ؛ لأن كلامها يشفي الجراح ، ويرفع من نشوة الروح ، فالمسافة بين الريحانة والعاصمة تحتاج لثلاث ساعات لقطعها ، ووصلوا مدينة الريحانة مع شروق الشمس، فقامت زينب على الفور بتهيئة الحمام للأم والبنت وانشغلت وزوجها بصلاة الفجر .

زينب

وكان عمري قد هيأ حجرة بأثاث جميل ، فيها سريران لحياة أمه وأخته معه ، فلما اغتسلن كانت زينب قد أعدت لهن الطعام ، ثم طلب منهن عمري الرقود والراحة وبعد الراحة والنوم يبدأ التفكير والحياة ، فكانت مريم تقول لبدرية قبل أن تستغرقا في النوم : إني لا أكاد أن أصدق ما أرى .. عمري صاحب هذه الأخلاق .. بل زينب هذه الفتاة الرائعة أكثر منه حنانا وعطفا وذوقا من غير إشعارنا بحرج أو ضيق .. لقد سحرتني بنبلها وأخلاقها وحبها مع أننا أول مرة نتقابل .. ولا أظنها تنافق لا يوجد ما يدفعها لذلك ..

فقالت بدرية : منبتها حسن يا أمي .. نحن كنا في جاهلية ..المرأة تحب زوجها وتخدمه وتخدم أهله وترى ذلك عبادة وقربى إلى الله أخي عمري محظوظ وقد عرف دربه .. وفقه الله

فقالت الأم بحسرة : علينا أن نتغير يا بدرية .. الدنيا ماكرة ولا تدوم على حال .. أنا في السنة الأخيرة عرفت الدنيا والناس أكثر من الخمسين التي مضت من العمر

فقالت بدرية:تحول الإنسان مثلنا يحتاج إلى إرادة وعزيمة قوية يا أمي

فعادت مريم تقول : والله يا ابنتي بعد تلك البهادل ما عاد في الدنيا شيء حلو .. فمنذ طلقني أبوك وأنا أحس بالمرار وأقول ليس للدنيا أمان ، فبعد عشرة أربعين سنة رماني كما يرمي الناس الجيفة .. فشددت ظهري بولدي البعيد ؛ فإذا هو غارق في دنياه وهواه ، ولا يستطيع الجلوس معي ساعة من نهار .. وها هي قمرية منذ سافرت إلى أمريكا لم تتصل بي وتواسيني وتشد من أزرى .. وأنت لأنك نفرت من الرجال قبلت العيش معي على مضض .. إنك تحبين الحياة والحركة وما زلت في مقتبل العمر، فعندما يذهب عنك الذهول وصدمة الأحداث ستعودين لما كنت عليه .. لا تظني أنني جاهلة يا ابنتي ! .. الحياة تجارب وخبرة عندما يكون الشخص قويا الكل يحسب حسابه ، واعلمي أنه رغم معرفتي لحياة أبيك الفاسدة كان صمتي على ذلك لتسير السفينة .. فعندما غمزته امرأة تظاهرت بأنها تعشقه صدق نفسه أنها واقعة في هواه ، وغدا ستعلمين من أخبارهما ما يحزنك على والدك .. لقد حدثتني عنها إحدى معارفها فقالت : هي ثعبان أملس يحمل بين نابيه السم القاتل أبوك يظن أنه كسب امرأة ومالا فأخشى يا

بنيتي أن يخسر المال بعدما خسرنا ..

فقالت بدرية بحزن وأسف : ماذا سنفعل بالمال ؟! ها نحن نملك الأموال والأرصدة ولا نستطيع إلا أن نبحث عن رجل نحتمي به ونعيش في كنفه..

فقالت الأم : سنة الحياة .. لا الرجل يستقل عن المرأة ولا المرأة تستغني عن الرجل سواء الأب أو الأخ أو الابن .. طبيعة الحياة .. ومن يستغني عن ذلك يره جميع الناس شاذا .. المال لابد منه للحياة ولكنه ليس كل شيء

أمضت الأم وابنتها أسبوعا هادئا في كنف ولدها البكر عمري ، ورأت ولمست منه حنانا لم تكن تراه عندما كانوا يعيشون في بيت السيد ناصح ، وكانت زوجته في غاية المحبة والظرف معهنّ ، فلمست الأم السعادة والوفاق الذي يغمر هذه الأسرة ، فكانت زينب لا تخطو خطوة إلا بالاتفاق والتفاهم مع زوجها ، ذات يوم قال عمري : يا أمي ! .. إنني أبحث عن بيت واسع .. ليحلو لكم المقام معي .. فطاعة الأم بالمعروف واجبة وليس منّا أو تحميل جميل ..

فقالت مريم : في هذه الأيام القليلة والله يا ولدي إنك عوضتني عن كل الأيام التي قضيتها عند أخيك في أمريكا ، لم يحسسني يوما أنني أمه ، وكان يعاملني بخوف وقلق من أبيه كأن أباه معنا .. تصور يا ولدي ذات يوم قلت له يا ولدي إنني أملك ملايين الدولارات لا تخاف أن يقطع عنك أمواله .. فسخر مني وقالماذا تفعل ملايينك مع ملايين أبي ؟! .. والآن حان وقت سماع قصتك منذ رحلت عنا .. فلنا أكثر من أسبوع ننتظر

قص عليها قصته باختصار وسبب اختياره لهذه المدينة ، ومحاولته العمل في الشركات الخاصة ولم يستطع الصمود أمام الغش والتلاعب ، ففتح محلا لبيع الأثاث ، ثم فتح محلات أدوات منزلية .. ثم نزوله العاصمة بعد عام ، واتصل بصاحبه علي الحمد وحسن فوفقه الله بالزواج من أخت حسن ، وقد تزوجها بأقل من ألف دينار ، فباركت له الأم اختياره وتمنت له السعادة الدائمة وقالت : يا ولدي الحياة بدون أولاد تعيسة ومؤلمة .. أيها الحبيب .. اشتري أكبر بيت في الريحانة فأموال أمك تحت تصرفك

فقال : الأمور تمام يا أمي .. لا أريد أن أشعر أنني احتضنتك لأجل الأموال التي معك

فأموالك لك .. فهذا البيت مناسب قبل مجيئكم فنحن بعد أسرة صغيرة .. وقد اشتريت قطعة ارض في ضاحية جديدة ستنشأ في الريحانة يا أمي ! وعندما يبدأ الناس بالبناء سأفعل مثلهم .. وأنا أبحث عن بيت أكبر من هذا من أجلكم ولتأخذوا راحتكم في البيت والمطبخ وأنا يسرني جدا أن تأكلوا من تحت يدي زوجتي ؛ ولكن قد لا يعجبكم اختيارنا لأصناف الطعام .. وزينب لا تتضايق أبدا من صحبتكم ومن أكلكم معنا

فقالت الأم متأثرة : صدق يا عمري يا حبيبي أن طهي زوجتك طيب ولذيذ .. ونحن كنا نأكل كما تعلم من طهي حسنية المسكينة ، فكيف زينب الأميرة الرقيقة الطيبة ؟! .. اسأل بدرية لقد أثنيت على حسن طعامها وإتقانه كثيرا .. إنها سيدة فاضلة وتحبك كثيرا وسعيدة بك هنيئا لك بها ..

فقال عمري : حق هذا يا أماه .. من أعماق قلبك أنت راضية عنا

قالت بفرح غامر : أجل يا حبيبي .. لقد بلغت الخمسين سنة ماذا جنيت من حياة الملاهي والسهر ؟ .. إنني طلبت من زينب أن تعلمني فروض الصلاة .. وأفكر بالحج يا ولدي لأعاهد الله على التوبة والندم .. إن كلام زينب بلسم .. تعرف واجباتها ودينها وحقوق زوجها وأولاده وأقاربه .

فقال باسما : كل ذلك عرفتيه في أسبوع فردت باسمة : بل عرفته منذ التقينا بالمطار .. احرص عليها يا ولدي .. إنها فتاة مؤمنة .. يا عمري قبل أن تحضر بدرية وزينب ، أما حدثتنا عن الطبيب الذي أشرت له في رسالتك لأختك .. فإذا كان مناسبا زوجناهما ولا داعي للإنتقال من هذا البيت حتى تبني بيتك الجديد في الأرض الجديدة ..

فرد عمري فقال : عندما كنت أعيش في كنف أبي يا أمي .. كنت أحس وأشعر أن بدرية تريد أن تسير معي وتصلي ولكنها خائفة مترددة ليس لديها الشجاعة والتحدي للانعتاق من الخوف والقيود .. فلما أتيت الريحانة تعرفت على الطبيب فائز في المسجد ، فهو يعمل في مستشفى الحكومة هنا ، ووجدت أنه يسكن في حي الصخرة هذا الحي ، فتصادقنا وأحببته في الله ، وهو أحبني في الله سبحانه ، ومن حبي له ذكرت يوما حبي لأختي بدرية ومحاولة إنقاذها من النار

ومن تقاليد العائلات ، ونتيجة الكلام أبدى رغبته بالزواج منها حبا لي ولإنقاذ نفس من النار فإذا بدرية لديها استعداد للزواج فعلينا تدبير ذلك ، فالطبيب فائز إنسان لطيف وشاب ممتاز .. وهو صديق مخلص

فقالت : سأفاتحها بالموضوع .. يجب أن تتزوج فقد أصبحت ابنة ست وعشرين سنة .. والعمر يجري

ـ هناك مشكلة بسيطة إن شاء الله .. وهي أن البكر في بلادنا إذا أرادت الزواج تحتاج لموافقة والدها إذا كان على قيد الحياة .. فدبروا ذلك إذا رضيت بدرية بالزواج من صاحبي فائز لطفي وطبعا سوف استدعيه ليراها وتراه .. فالنظر مطلوب بين الخاطبين .. وهو منذ عرف بعودتكما وهو مشتاق للسلام عليكم ورؤية العروس ..

فقالت الأم : بارك الله فيك يا ولدي .. هذا من حبك لأختك وحرصك على طهارتها وعفتها هذه أشياء لم نكن نهتم بها كثيرا ونحن في بيت الأسرة .. والله إنني أسمع كلاما من زينب فأتعجب من جهلنا ومناداتنا بحرية المرأة العربية ، ومساواة الرجل والمرأة ، وإلغاء القوامة والتعدد ، ووضع التعقيدات في طريق الطلاق .. اكتشفت أننا نحارب الإسلام والدين ونحن جاهلون به ، لا نعرفه ، نظن أن أعراف الناس وعاداتهم كلها دين وهي بعيدة عن الدين .. فأتحفتنا زينب بقصص لطيفة عن زوجات النبي (ﷺ) ومشاجراته في البيت ومداعباته وحياته الخاصة ما يكاد يصدق .. حتى أنها تقول إنه تسابق مع زوجته عائشة مرتين هات لي رجلا يتسابق مع زوجته في عصرنا هذا ، ورخص لها وأذن لها بمشاهدة الأحباش يلعبون في المسجد بل هناك قصة أن إحدى زوجاته طلبت من ضرتها أن تركب هودجها لتسمع ما يقول الرسول (ﷺ) لعائشة.. قصص مدهشة لم نكن نسمع بها ونعرفها .. بل حدثتني عن هجر النبي (ﷺ) لأزواجه شهرا .. بل أيضا لما أراد طلاق إحدى زوجاته الكبيرات في السن تنازلت عن ليلتها في القسم والمعاشرة من أجل أن تبقى على ذمته وزوجته في الجنة .. قصص وحكايات حلوة وجميلة غير منتشرة بين الناس .. فزينب هذه رائعة .. بل تقول لو تزوج عليها عمري ثانية فلن تمانع ، وإن قد تتألم وتتضايق ابتداء لطبيعة النفس البشرية ؛ ولكنها طائعة لله ترضى بذلك ..

وتقول إن الناس يظنون أن الحجاب والجلباب يفرضه الرجال على النساء .. لا .. إنما هو أمر الله فرض من الله .. والله لا يفرض شيئا ضارا ومشوها وفاسدا لأنه هو الحكيم الخبير العليم .. رائعة .. رائعة زينب ! ظهرت أمامها يا ولدي من أجهل الناس، لقد دهشنا أنا وبدرية من حكاياتها وفهمها لسيرة الرسول (ﷺ) تبكي يا ولدي نحن الذين يجب علينا أن نبكي ، نحن لم نكن نعرف التربية نحن فقط نقلد ونتشبه ..

فقال عمري وهو يمسح دموعه : إنني سعيد بكل ما تقولين يا أمي .. فهذا يدل على أن الإيمان قد دخل قلبك وكبر .. أنت تسمعين ذلك بقلبك المؤمن فمن أجل ذلك تقبلت كلمات زينب فأنا سعيد ..

فقالت وقد تأثرت ببكاء عمري : يا بني كنا نعيش في الوهم ، وتظن الواحدة أنها ملكة ، وتظن أنها أفهم النساء بمعاشرتها لنساء وسيدات المجتمع .. ثم ترى نفسها يوما مدحورة مطرودة .. فهل تأسف على ملك زائل ؟ فامرأة شقراء أنست أباك عشرة عمر ، ورمى عليها يمين الطلاق بدون أسف وحسرة وندم .. أنا أحسدك على زينب مع أنها تركت المدرسة بعد الثانوية العامة فلم تدخل معاهد أو كليات ولكنها تقرأ جيدا وتفهم جيدا ..

- وأسرتها طيبة يا أمي .. أبوها ملتزم وأكثر أهلها كذلك وهذا عامل مهم في التنشئة .

*****

كانت بدرية هي الأخرى منشرحة الصدر لكلام زينب وتقارن نفسها ابنة الجامعة مع ثانوية زينب ، فترى أنها أمية درست أربع سنوات لتحمل شهادة ، وتعمل موظفة في شركة تكتب بعض الأوراق والملفات يدرسهن طفل في أسبوع ، وأما الدين الأمر المهم في حياتها الدنيوية والأخروية فهي فيه لا شيء .. لا تحفظ آية من كتاب الله ، وعندما تسأل عن دينها فتجيب السائل الإسلام أو أنا مسلمة ، وهي لا تعرف أبجديات الإسلام ، إذن صحبتها لزينب غيرت من نظرتها لدينها ، وأن الحياة ليست كلها لهو وعبث وقضاء شهوات ورغبات ، فعرفت أن الإسلام لا يمنع المرأة من طلب العلم ودراسة المحاسبة والسكرتاريا والإدارة والتجارة ، وجدت أن الإسلام لا يمنع الأنثى من الخروج للترفيه والبساتين والمياه ولا يمنعها من العمل

وهناك مجالات للعمل تكون أفضل من غيرها للمرأة ؛ ولذلك قد عزمت على التمسك والتفقه بدينها ، واعتبرت أن الأحداث التي جرت كانت خيرا لها ولأمها ، وأن المال لا يغني عن الاهتمام بالحياة الأبدية بعد الموت ، فازداد حبها لأخيها وزوجته ، فلما فاتحتها أمها بموضوع الطبيب ، قالت بانبساط وسرور : أنا راضي باختيار أخي وراضٍ بصديق أخي .. وأرى أن الحياة في هذه المدينة جميلة وطيبة رغم أنها مدينة بحرية فتنظيم المدينة تنظيم ممتاز ومجاورة زينب فيها خير كثير

فقالت الأم : على بركة الله يا حبيبتي .. وعليكما أن تنظرا لبعض كما يقول عمري .. فالنظر في هذا الموضع جائز بين الرجل والمرأة ، وإن كنت أحسب أن الشاب موافق من قبل أن يراك لحبه لأخيك كما شعرت من كلام عمري رضي الله عنه

ابتسمت بدرية وهي تسمع كلام الأم ، وأخذت تقارن بين صورة أمها في العاصمة وأمها اليوم في الريحانة ، وهمست : الإنسان عجيب! وأرسلت الأم وراء عمري وزينب وأطلعتهم على موافقة بدرية على الاقتران بفائز لطفي .

فقال عمري مسرورا : غدا بمشيئة الله سبحانه سيأتي ومعه أخته ، فأمه ميتة منذ زمن منذ كان طفلا ، وأبوه بعدما ربى الأولاد تزوج من امرأة تصغره بسنوات لتقوم على خدمته ورعايته .. فله أخت فاضلة متزوجة ولديها أطفال وغدا ستتعرفون عليها

تمت المشاهدة الشرعية بين الشاب والفتاة ، ووافق الاثنان على الزواج في نفس السهرة والجلسة ولكن عمريا طلب من صديقه أن يرد عليه بعد أيام ، وأن يـفكر بالموضوع على هدوء بعيدا عن الخجل والإحراج

زواج بدرية

كانت المشكلة التي تواجه العروسين هي موافقة الأب ناصح الخابي على هذا الزواج أو قل توقيعه على عقد الزواج ؛ لأنه لا يتم زواج البنت البكر في قانون الزواج إلا برضا ولي أمرها ، وهو ابتداء الأب وهذا مطلب شرعي أيضا ، فبعد تأمل ونظر قال عمري : عليك يا أمي باستئجار شقة مفروشة في العاصمة ، وعلى بدرية الاتصال بوالدها وتخبره بعودتكم ـ ولابد أن سمريا أخبرهم بذلك - وتخبره بأنها وجدت الزوج المناسب ، ثم نتفق مع الكاتب الشرعي المعين من قبل المحاكم الشرعية ، وفي اليوم المحدد يحضر والدك يا بدرية لوضع توقيعه ، وإن حاول الاعتراض قولي له لن أتزوج الا من هذا الشاب ، لا تحدثيه عني فلكل أجل كتاب .

وبعد أن تدارسوا خطة عمري والموضوع من جوانبه وجدوه هو الحل الأمثل ، وإذا رفض ناصح هذا الزواج وصمم على الرفض ستلجأ بدرية للقاضي ليكون ولي أمرها ، فقام عمري وأسرته بزيارة العاصمة فترك زوجته وولديها عند أهلها ، واتصل بمكتب عقاري فحصل على شقة مفروشة لمدة شهر واحد ، ونزلوا فيها وعلى الفور اتصلت بدرية بقمرية التي عتبت عليها مجيئها البلد ولم تتصل بها لتكون في استقبالها ، فضحكت بدرية وقالت متهكمة : كم تلفون رن علينا في أمريكا ؟! .. المهم أنا ساكنة مع أمي .. وذكرت لها اسم الشارع والحي

واسم العمارة ، وذكرت لها أنهن قضين عدة أيام في أوروبا ، ثم ذكرت أنها وجدت شابا مناسبا للأقتران به ، وطلبت منها أن تتصل بأبيها وتخبره بموضوعها ، ثم ختمت حوارها قائلة : غدا سأتحدث معك

تحدثت قمرية مع والدها ، ثم قامت بزيارة أمها وأختها في الشقة المستأجرة ، وجرى بين الجميع عتاب ، وأبدت قمرية اعتذارها لأمها وأختها وأظهرت سرورها بعودتها ، ولما سألتها بدرية عن رأي والدها بموضوع الزواج فقالت : إنه راغب برؤيتك في الفيلا

ومشت بدرية للفيلا بزيارة ، وسلمت على حسنية والحارس عمران ، والتقت بجبر زوج أختها الذي أخذ يسألها عن العريس ، فقالت : هو طبيب وشاب جيد ومقبول

ولما جاء الأب تعانق الأب وابنته وعتبت عليه بدرية وقالت : يا أبي منذ سافرت لم تتصل بي

ولو مرة واحدة ..

فتظاهر بالانشغال والنسيان ، ثم حدثته عن الزوج الذي اختارته واتفقت معه ، وأنها وأمها لم تطب لهما الحياة في أمريكا فقررتا العودة ؛ ولكنهما امضيا ردحا من الزمن في ربوع أوروبا ومن يومين وصلوا المدينة ، ولما سألها كيف تعرفت على الشاب العريس ؟

قالت : أنا لم أعرفه إلا منذ وصلت فقط .. ونحن في فرنسا التقيت مع أسرة عربية سائحة وتصاحبت مع فتاة ، وخلال الكلام حدثتني عن أخيها الطبيب ، وأنه يبحث عن عروس منذ عهد وهكذا كانت البداية .. فلما استأجرنا الشقة حضر مع أخته واتفقنا .. وذهبنا للقاضي الشرعي فقال لنا يا بنية ما دام والدك على قيد الحياة فعليه بالموافقة والتوقيع على العقد الشرعي فقال ناصح بنبرة غاضبة : كنت تريدين الزواج من ورائي ؟

فقالت بخبث ومكر : لا يا أبي إنما فعلت ذلك من أجل عيون أمي .. فأنا كنت أعرف ذلك فلما تيقنت أمي أن الزواج لا يتم إلا بموافقة الأب قالت لي افعلي ما شئت .. فاتصلت بقمرية لتخبرك بوصولي .. فأمي مسكينة يا أبي ! .. إنها بحاجة إليك وإلى عطفك وودك ..

فانتفخ رأس ناصح تيها وقال : الآن لا أستطيع أن أفعل لها شيئا .. وزوجتي الجديدة امرأة قوية ولا تقبل بعودة أمكم .. ولقد انتهى ما بيننا .. وأنت غدا ستتزوجين وتنسين أمك وأباك ولما يجهز المأذون اتصلي بي وسآخذ قمرية ونأتي اليكم لنضع التوقيع والموافقة على الورقة وألف مبروك يا ابنتي فهذه حياتك واختيارك وأتمنى لك السعادة ، وما دام هذا اختيارك فهو خير وسيكون بين يديك شيك بعشرة آلاف هدية العرس والزواج

وودعهن وانصرف وعلى أثره انصرفت بدرية ، وقد أدركت أن والدها لم يبق لأمها في قلبه ذرة ود أو عشرة ، فعجبت من ذلك ، وقالت معزية نفسها : لابد أن امرأته الجديدة مسيطرة عليه سيطرة تامة .. حتى من أجلنا لم ينافق ويداهن .. حسبنا الله ونعم الوكيل

فلما استمع عمري ما قصته بدرية اتصل بالدكتور فائز لطفي وحثه على المجيء غدا صباحا ، وذكر له عنوان الشقة ، وفي الصباح الباكر تحرك عمري ونسيبه حسن إلى المحكمة الشرعية، وهناك ذكر لهم الموظفون اسم المأذون الشرعي وعنوانه فساروا إليه واتفقوا معه وأعطوه عنوان

الشقة ورقمها ، وفي الخامسة مساء كان المأذون الشرعي والطبيب وأخته ومريم وبدرية وصديقان لحسن في انتظار السيد ناصح الذي أتى حسب رغبة ابنته بدرية ، كان يريد زواجها تبرئة لذمته نحوها ولتنشغل في بيتها وذريتها ، فلما دخل الشقة وخلفه قمرية ، ورأى زوجته الأولى فحياها ببرود وغضب ، ولما عرف أن الطبيب صاحب اللحية هو صهره كاد يفرط الزواج ؛ ولكنه لما سمع هدير مريم ورغبة بدرية به واقتناعها به ، وقع على مضض ، وتمت كتابة عقد الزواج ، ثم شربوا مشروبات العقد ، وانصرف المأذون ومعه الشاهدان ، وعلى الفور قال ناصح : مبارك يا بدرية .. مبارك يا دكتور فائز

فشكروه على تعاونه وتساهله ، ثم تحرك للخروج بعدما ودع فائزا ومطلقته ، وخرجت بدرية تودعه ، وقبل أن تركب قمرية بجوار والدها قالت لها : أين عمري ؟

نظرت إليها بدرية : ماذا تقصدين ؟ !

فردت باسمة : أصابع عمري في هذا الـعريس .. سلام بدرية سلام

وفي الصباح الباكر كانت مريم تسلم مفتاح الشقة للبواب ، وأنهى عمري العقد مع صاحب العقار بحجة السفر العاجل ، وعادوا لحي الصخرة ، وخلال أسبوع كانت بدرية قد سكنت في بيتها المستقل ، وأصبحت حليلة شرعية للطبيب فائز لطفي .

وأما قمرية فقد حاولت الاتصال بالشقة فلا أحد يرد ، ولما ملت من الاتصال ذهبت للشقة بنفسها ، فأخبرها البواب بسفرهم المفاجئ .. فأدارت عجلة السيارة وعادت للبيت ثانية .

*****

استطاعت زينب الفتاة البسيطة المتدينة أن تفرض نفسها وشخصيتها المتواضعة وسلوكها الحسن على حماتها أم زوجها ، فاندمجت المرأتان معا ، وكانت زينب تعامل أم زوجها كأنها أمها فتعاملها برقة ورفق ، والسيدة مريم لم تكن بالمرأة العنيفة أو الشرسة ، فهي قد وجدت نـفسها بحاجة لهذه الحياة الهادئة ، فطابت لها الحياة مع ولدها عمري وزوجته ، وكانت تحب الطفلين وتستمع باللعب معهما .. ولما أتى موسم الحج حجز عمري لنفسه وأمه وزوجته وترك الأولاد عند أخته بدرية التي سرت ورحبت بصحبتهما ، ولما اقترب موعد السفر تحركوا إلى المطار

وبالطائرة إلى جدة ومنها لمكة الكرمة ، فقاموا بأداء عمرة الحج ، وبعد يومين قضوها في ربوع مكة المكرمة مشوا إلى منى في اليوم المسمى يوم التروية ، وفي اليوم التالي المعروف بيوم عرفات صعدوا مع الصاعدين للجبل جبل عرفات ، وظلوا عليه يدعون مع الداعين حتى الغروب ، ثم انحدروا نحو المزدلفة حتى أصبحت وأشرقت شمس يوم النحر يوم الحج الأكبر ، فعادوا لمنى وشاركوا الناس فرموا الجمرة الكبرى بسبع حصيات ، فذبحوا هديهم ، وحلقوا شعورهم ثم تحولوا لمكة للطواف والسعي ثانية ، وفي المساء عادوا لمعسكرهم في جبال منى، وكانوا يتنقلون بين منى ومكة حتى انتهت أيام التشريق الثلاثة، ثم طافوا طواف الوداع ، وانتقلوا إلى مدينة الرسول الأعظم (ﷺ) فصلوا في مسجده وزاروا قبره وسلموا عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر ، وزاروا بقيع الغرقد ثم عادوا لمكة ثانية ومنها لجدة ثم عادوا للريحانة ، ورغم تعب السفر والمناسك ، فقد استفادوا شيئا جديدا وحققوا ركنا عظيما من أركان الإسلام ، وأخذوا شحنة كبيرة من الإيمان ، وتعرفوا على أماكن بدايات الدعوة العظيمة ودين الله الخالد ، ولما سمعت بدرية أمها تتحدث عن مكة والمدينة زاد شوقها إلى تلك الديار ، ووعدها زوجها برحلة حج في الموسم القادم ، وكانت مريم صادق تقارن بين رحلاتها الكثيرة إلى ربوع أوروبا وأمريكا وبين رحلتها الدينية إلى الصحراء والرمال والجبال الشاهقة ، فتلمس الفرق الكبير ، فترى أن الرحلة الدينية فيها انشراح صدر وابتهال وشوق للرحمن ، وأما رحلتها لفرنسا أو سويسرا إنما كانت للمتعة وإضاعة الوقت واللهو وتبذير المال ولتقول لمعارفها : زرنا باريس زرنا فينا زرنا زيورخ وجدت أن العبادة في الصحراء ممتعة ولها رهبة على القلب ، وفيها ذكريات عظيمة، في هذا المكان كانت دعوة إبراهيم وذبح إسماعيل وظهور نبي الإسلام محمد (ﷺ) فتمنت رحلة أخرى ، فتحمس ابنها عمري لحماسها وتشوقها لتلك البقاع المقدسة والمباركة فوعدها عمري بعمرة في كل سنة ، فلقد بدأت المرأة تتخلص من أدران الماضي ورواسبه ، وتحس بلذة وطعم الإيمان ، وتسر لسماع كلام وفتاوى العلماء ، وتقارن بين حالها في بيت زوجها ناصح وحالها في بيت ولدها ، فترى الفرق الكبير بين بيت النور وبيت الظلام ، كانت عندما تفتح جهاز التلفاز وترى جلسة لشيخ أو عالم تقلب المحطة إلى أخرى أو تغلق الجهاز وهي تتمتم أما زال هناك

من يسمع لمثل هذه البرامج ! .. أما الآن فمن أحب الأشياء إليها سماع الدروس العلمية والتثقف في دينها ، وكانت زينب تساعدها وتعلمها تلاوة القرآن ، بل قام عمري بإحضار معلمة خاصة لتعليمها حسن القراءة الصحيحة ، وبعد رحلة الحج التي تحدثنا عنها بشهور يسيرة أتمت البلدية لمدينة الريحانة تجهيز البنية التحتية للضاحية السكنية الجديدة ، فقد انتهت من إنشاء الشوارع وأعمدة الإنارة وخطوط الماء والهواتف والصرف الصحي (المجاري) ، فبدأ أصحاب الأراضي ينشطون بإقامة مساكنهم حسب ما هو مخطط لتلك الضاحية (ضاحية الصالح) ، وعلى الفور باشر عمري وصهره فائز بالبناء ، فقد كان لكل واحد منها قطعة يفصل بينهما شارع ، فأقسمت مريم على مساعدة الطرفين ورغم ترجي عمري لها أن لا تدفع أو تساهم ولكنها أصرت فأعطت لكل واحد منهما خمسين ألف دينار ، فقال عمري : عليك أن تعطي قمرية وسمريا مثلنا يا أمي ! فهم أولادك مثلنا .. والعدل بين الأبناء مطلوب

فقالت الأم : ما أخبار قمرية ؟

فقال : أرسلنا لها بعض الهدايا أنا وبدرية وبعضها باسمك مع أحد السواقين العاملين بين الريحانة والعاصمة ، وقد تحدثت معها بدرية في الهاتف ، وهي راغبة بالحديث معي ومعك .. سنتصل بها في وقت مناسب وهي بخير ، وقد قالت لبدرية إن صحتها مع الحمل صعبة وإنها تراجع الطبيب كل يوم

ـ من الضروري الحديث معها .. وعندما تبني بيتا بإذن الله تعالى سأهديها خمسين ألف يا ولدي كما أعطيتكم

ـ بارك الله فيك يا أمي ! فالمساواة في العطية سنة نبوية يا أماه .. الليلة سنسير للبحر فقد دعانا حبيبنا فائز للعشاء على شاطئ البحر في كازينو الريحانة وهو يترجاك أن ترافقينا

نجاح عمري

مضت عشر سنين على زواج بدرية وفائز لطفي ، وقد أصبح لديها ثلاثة أطفال ولدان وبنت وقد طاب لهم العيش في الريحانة وأصبحوا من أهلها ، وكثرت مشاريع عمري فاستثمر أمواله في مشاريع شتى ، في النقل والاستيراد وإعادة التصدير ، فأصبح من كبار التجار ، ثم قام بإنشاء شركة مقاولات وإعمار ، فلمع اسمه في المدينة الشيخ عمري محمود ، لم يكن يحب صاحبنا ذكر اسم الخابي منذ بدأ حياته في الريحانة ، كان يتفقد أصحاب الحاجات ، ويقيل أهل الجوائح ويحسن للمساجد والمشافي ودور الأيتام ودور العجزة والمسنين ، وكان يرى أن الله سخره لخدمة هؤلاء الناس فلم يكن يبخل عليهم بشيء ، كان يرى أن الله ابتلاه وامتحنه بالمال ، ولقد استعان باخوة زينب في إدارة بعض المشاريع وأعمال الخير ، فالمال فيه حق لله وحق للضعفاء والفقراء ، فقد جعل موظفا خاصا لترتيب أمر الزكاة وتوزيعها ،كانت أمه تشجعه وتشاركه في العطف على المحتاجين ، وتفعل ذلك وهي مسرورة سعيدة ، وكانت تحس بروعة الإنفاق الصالح عندما تسمع دعاء أرملة فقيرة محتاجة أو طفل يبتسم أو شيخ فاني يمد يديه للسماء داعيا لها ولأولادها فقد عجبت لهذه المعاني والمشاعر التي تجتاحها اليوم لقد كانت غائبة عنها أثناء عضويتها لكثيرمن الجمعيات الخيرية أيام السيد ناصح ، فهناك لم يكن العمل لوجه الله ، إنما كان للدعاية والافتخار والقيل والقال ، كان عمري سيدا للمال ، ولم يكن عبدا له أو حارسا عليه ، كان يكره البخل والتقتير ، فكم كبوة كاد يسقط فيها أثناء الشحن للمواد والبضائع وغير ذلك من الحوادث فكانت الصدقات والدعوات ترفع البلاء وتخففه .

أنشأ عددا من المدارس الخاصة وقد استأجر لها المباني المناسبة، وكان يتكفل بدفع أقساط ومصاريف عددا من الأيتام والفقراء ، كان يحب أن يرى الابتسامة البيضاء على وجوه ذوي الحاجة ، وعندما ينصح بالاعتدال في الإحسان والنفقة يبتسم ويقول : لماذا ؟! لماذا ؟! أليس هو مال الله ونحن مستخلفون فيه ؟ وبتوفيق الله وفضله تحفظ الشاحنات والبواخر القادمة من الأحداث والأعطاب ، وإذا حدثت مصيبة يخفف الله عنا من الضرر والكارثة .. أو ليس في الإنفاق حسنات وخير وبر ؟

ولقد كان صاحبنا عمري محمود يمارس الصدقة الخفية التي لا تعلمها شماله ، ويعشق التعاون الجماعي والتآزر فلم يبخل على طلبة المعاهد الشرعية والعلمية .. وكان يحسن إلى بعض الطلبة الأذكياء الفقراء الدارسين في الجامعات ، حتى أن مريم كانت تحسد وتغبط ولدها على سخاءه وجوده ، وتتعجب من ذلك ، وتقارن بينه وبين شح والده وعمه في مثل تلك المواضيع ، لقد وجد نفسه محبا للأستثمار والتنمية ، فما يذكر له نشاط تجاري الا هم به واندفع اليه بقوة ، كما تقول القاعدة الاقتصادية التي تنص على أن المال يولد المال ، قام صاحبنا بإنشاء عيادات طبية بإشراف صهره فائز وبعض زملائه الأطباء ، ينفق عليها دواء وإدارة لمعالجة المحتاجين والفقراء والعاملين في مشاريعه المختلفة ولمن يطرقهم ، ثم تشجع فيما بعد وأنشأ شركة طبية لاستيراد الأدوية والأدوات الطبية ، وكان شريكه فيها حبيبه وزوج أخته فائز لطفي وكذلك أخته بدرية وأمه ، ثم تطور الأمر فتم إنشاء مصنع دواء يديره الدكتور فائز بعدما ترك خدمة المستشفى الحكومي ، وقد بدأ في بناء وتأسيس مستشفى متوسط الحجم في المدينة ، فكلما كثر المال تكثر مشاريع عمري لا يحب كنز المال ، وقد سخر الله له أصدقاء ورفاق مخلصين متعاونين على البر والتقوى وبين أعينهم مخافة الله .

كل ما أشارنا اليه من نجاحات تحقق بعد مضي خمس عشرة سنة من تركه للعاصمة ، فتحت الدنيا على عمري الذكي ، فقد كبر ابنه محمود فأصبح ابن أربع عشرة سنة وعائشة تصغره بسنتين ثم أسامة ثم حسن ثم محمد ثم مريم .

ولقد كان كبار رجال المدينة وكبار التجار بالذات ورجال الأعمال يحثون ويرغبون عمريا في الاشتراك في التنافس على رئاسة وعضوية الغرف التجارية ، فيعتذر ، وحاولوا تشجيعه لترشيح نفسه لرئاسة وعضوية البلدية لمدينة الريحانة ، فيعتذر عمري أيضا ، بل حاول محبوه ترشيحه لمجلس النواب الوطني في أحد دوراته ، فيصر على الرفض ، فكان يحب أن يخدم بدون أن ينتظر جزاء من أحد أو طمع في سمعة وشهرة ورئاسة ، كان هو وأمه يديرون وينفقون على أكثر من سبعة دور أيتام منتشرة في المدينة وما حولها من القرى ، فسمعته الطيبة كانت تسمح له أن يفوز ويتقدم على الآخرين ؛ ولكنه كان يحب الآخرة وثواب الآخرة ، فلم يضعف أمام اغراءات

الشهرة وحب الظهور والسعي للقاء الشخصيات السياسية الكبيرة .

وكانت قمرية قد عرفت منزل أختها وأخيها وأمها في الريحانة ، وأخذت تتردد عليهم بين الحين والآخر ، وكانوا هم يصلونها ، وكانت لا ترى والدها إلا في بعض المناسبات ، ولا يتحدث معها إلا بكيف حالك؟ وقبل أن يسمع الإجابة يأخذ بالحديث مع الآخرين ، ولا يوجد بينها وبين زوجة أبيها زيارات منذ تزوجت جبر ، وأما سمري فقد رجع من أمريكا يحمل شهادة الدكتوراه واشتغل مع والده بضعة أشهر ثم رحل ثانية إلى أمريكا حيث أولاده وزوجته الأمريكية ، فهو لم يندمج في الحياة العربية ، وخلال هذه الشهور التي قضاها في ربوع الوطن لم يسأل عن أمه أو أخيه أو أخته بدرية ، ولم يحاول الالتقاء بهم عيانا ، فقط تحدث معهم بالهاتف فتعجبت قمرية من ذلك البرود ، ولم تحاول الحديث معه في هذا الموضوع ، وقد نزل الفيلا بضعة أيام ، ثم نزل شقة مفروشة من عمارات والده ناصح ، وسافر غير مأسوف عليه من أحد من أفراد العائلة ، وطفقت قمرية في السنوات الأخيرة تقنع زوجها بالرحيل إلى الريحانة وتضغط عليه للرحيل فيقول لها : نحن مع ناصح لم نتوفق ونتواصل فكيف مع عمري بن ناصح دعينا يا امرأة ؟!

فقالت : سمعت أن أبي يريد بيع هذه الفيلا .. وأمي تقول إن لي في ذمتها خمسين ألف دينار ، وأنت لك سنة تارك للمصنع ، فهناك نشتري فيلا صغيرة أو شقة ، وتعمل لك مشروعا وأخي عمري لن يقصر بمساعدتنا

وأخذت تحدثه بحماس واغراء عن الطبيب فائز زوج اختها ومشاريعه مع عمري ، وبعد طول جدال والحاح منها استسلم جبر لضغط الزوجة واقنع نفسه بترك العاصمة للريحانة ، ولما استشار والديه قالت أمه رباب : اذهب من غير تردد فعمري ولد مبارك .. فقد خسره ناصح فابن أخيك سعيد يقول عنه إنه كما يقال ملك غير متوج في الريحانة .. ينفق بسخاء غير معهود في آل الخابي ، وتدخل عليه الأموال من عدة جهات .. وابن أخيك سعيد يعمل محاسبا في إحدى مشاريعه الكبيرة .. ثم قالت بأسف وربما حسد : لقد خسره أخي خسارة كبيرة ! .. بل لما شاهدت أمه مريم ذهل قلبي من تقواها وعبادتها وإنفاقها .. ولم أصدق أنها كانت زوجة أخي

ارحل يا ولدي .. فخالك لا يريد لأحد منا أن يكبر .. يريد أن نظل ونبقى عصافير صغيرة من غير أجنحة.. ثم تنهدت بعمق وهمست : عمري الخابي !!

تحدثت قمرية مع أخيها عمري بهواها ورغبتها بالحياة قربهم واطلعته على رضا زوجها بالمسير اليهم .. فقال بحماس وسرور : على الرحب والسعة .. والفيلا هدية مني والخمسون ألف افعلوا بهن مشروعا وأنا تحت أمركم .. المهم أن يأتي جبر وقد تاب إلى الله وخلع ثياب الجاهلية والإلحاد .. اليوم أهل الإلحاد والكفر تركوا هبلهم في بلادهم

ولما سمع جبر هذا الكلام الساخر تردد في الرحيل ؛ ولكنه استسلم ثانية لزوجته وقال : الله موجود .. أنا لا أنكر وجود الله !

فقالت ضاحكة : يا مجنون دعك كما يقول عمري من هذا الحمق والهبل .. أنت تعرف أن عمريا يحب المصلين ولو كانوا مخادعين فأول سوأل يسأله لمن يعمل معه هل تصلي ؟

فقال جبر ساهما : بيني وبينك أنا من زمان وأنا أفكر بالتوبة .. زهقت من حفظ المصطلحات الكبيرة التي لقنني إياها أبواي منذ نعومة أظفاري .. معاداة الرأسمالية وحب الاشتراكية والشيوعية والعمال والفلاحين والحمراء والصفراء وغير ذلك من المسميات الساخرة .. لا تظني أنني أتكلم بهذا الكلام لإرضائك وإرضاء عمري .. أنا ترددت على المسجد هذا ـ وأشار للمسجد المجاور للفيلا ـ أكثر من مرة ؛ ولكنني أخاف من أبي ، فأبي ملحد كبير ، وجعل الإلحاد لنا دينا .. وقد عجبت من عمري عندما زار أمي قبل سنوات ، والتقى بأبي وأخذ يحثه على التوبة وترك الشيوعية لأصحابها والابتعاد عن الماديين وأهل الانحلال والفسق ، وأحسست يومها أن أبي سينهض مستسلما ويغتسل ويدخل الإسلام .. كان ينقصني التشجيع والدعم سنبدأ من الآن يا قمرية واعتقد أن صحبة عمري ستساعدنا على الثبات ..

فقالت قمرية بحماس : هذا هو الكلام العاقل .. أمي يا رجل التي تعرف من هي ؟! ..

أصبحت من حبها للآخرة وزهدها في الدنيا ملكا من الملائكة .. تبكي عندما تحدثها زينب عن الجنة والنار .. أسمعت ؟! .. والله زينب هذه تحفة .. فعندما كانت تحدثني بدرية عنها أشم رائحة النفاق والمصالح وأسخر منها ، وأقول هذه الفتاة الأمية تعرف الكلام والوعظ .. ولكن

فمن بضع جلسات كادت تقلب حياتي وتجعلني كرابعة العدوية التي نسمع عن زهدها وتصوفها .. إنها رائعة في ذكر القصص والأمثال وتستل الألفاظ والتعابير بروعة وحب .. تدفعك للإصغاء والاستسلام الكامل لها لولا أنفة النفس وعزتها لأصبحت درويشة .. فهي تقنعك ببساطة وسهولة أن الإسلام دين ممتع وليس دين فقر وعذاب وتسول .. بل هو دين ضحك وإمتاع ورياضة ومعروف وبذله .. إنها ساحرة .. وتقوم بواجبات البيت ورعاية أمي الكبيرة وأولادها وزوجها وضيوفهم من غير تقصير في واجب أحد .. وتقرأ وتقرأ إنها شغوفة بالقراءة تستغل كل وقتها في القراءة .. إنها تحسد يا جبر ..

فقال متعجبا من زينب ومن شغف قمرية بامرأة غيرها : شوقـتينا لمعرفتها وستزداد معرفتنا بزينب يا أخت زوج زينب !!

لقد كانت زينب الفتاة ذات الثقافة التعليمية المتوسطة تترك انطباعا حسنا على كل من يجلس معها ، وذلك بفضل السجايا التي جبلت عليها من الطيبة والحنان وحب الناس والرحمة ، وثانيا مما تعلمته من أسرتها المكافحة الصابرة ، وثالثا قد وفق الله لها زوجا محبا تائبا ، ورابعا طلبها للعلم وحبه ، وميزات أخرى لا ندرك كنهها ، فكانت متاع صالح ، وفضل الله يؤتيه من يشاء فبعد أن اتخذ جبر وقرينته قمرية الخطوة الأولى وتعلما الوضوء والصلاة وقد استعانا بكتاب صغير ، كانت بدرية قد أعطته لقمرية في إحدى الزيارات ، فلما مسكا بطرف الخيط اتصلت قمرية بعمري وحدثته عن توبتها وصلاتها ، فسر الشيخ عمري وهو يسمع ذلك الكلام فقال بحماس : منذ تكلمت معي سابقا وأنا ابحث لكم عن فيلا حتى وجدتها فمرحبا بكم .. الأثاث دعوه فهي فيلا مفروشة بكل ما تحتاجون إليه وما ينقص تجدونه في محلاتنا فقط الملابس والذهب .. والبيت في انتظاركم

فشكرته الشكر الجزيل ودعت له بالمزيد من الخيرات والنعم والعافية ، ثم خيرت حسنية بالمسير معها أو البقاء في الفيلا فاختارت البقاء ، فلما جهزوا أنفسهم استأجروا سيارة لحمل الحقائب والأمتعة التي أحبوا أخذها معهم ، وتركوا سيارة قمرية في موقف الفيلا ، وركبوا سيارة جبر وانطلقوا نحو الريحانة تتبعهم سيارة العفش ، ولما وصلوها بعد ثلاث ساعات كان

بعض عمال عمري في انتظارهم أمام قصر عمري في ضاحية الصالح ، فنزلت قمرية وابنها وابنتها ـ فهي لم تنجب منذ تزوجت إلا ولدا وبنتا ، ثم أصابها مرض كان يؤدي للإجهاض ثم امتنعت عن الحمل لأسباب ودوافع طبية وصحية فاقتنعت بالولد والبنت ـ ضيفة على أمها وأخيها ، وأخذ العمال سيارة النقل وجبرا إلى الفيلا ، ودفع العمال الشباب المفاتيح لجبر بعدما فتحوا الأبواب الرئيسية وقاموا بإدخال الحقائب والأمتعة والكتب وانصرفوا ، ونقد جبر السائق خمسين دينارا وأغلق الفيلا بعد أن استلمها من عمال عمري ، وعاد حيث تسكن حماته وزوجة خاله قديما ، فقبل يدها فدعت له وباركت له البيت الجديد والعودة للأسلام ، وقالت : خيرا صنعت .. فالحياة بجوار الطيبين طيبة ومن جاور أهل السعادة سعد .. مرحبا بك يا بني تم نقل ملكية الفيلا باسم قمرية بيسر وسهولة ، وتقبلت هدية أخيها بشكر وامتنان .. وعرض عمري عددا من المشاريع على السيد جبر صهره الثاني للاختيار منها ، وعرض عليه أيضا إدارة أحد المشاريع إذا لم يرغب بإنشاء مشروعه الخاص ، فطلب جبر التفكير والنظر .

قضية مخدرات

ذات صباح وبينما عمري يجلس في مكتبه الكبير يراجع بعض ملفات إحدى الشركات أخبره السكرتير أن ثلاثة رجال أمن يبغون مقابلته ، فأمر بإدخالهم ، وطلب لهم قهوة ، وترك كرسيه مستقبلا لهم بابتسامة ووجه طلق ، وأشار لهم بالجلوس ، ولما حيوه قال أحدهم : أستاذ عمري نحن بوضوح وصراحة ضباط أمن مخدرات .. وبصراحة فقد وجد رجالنا كمية من المخدرات في أحد مخازنكم

لمعت عينا عمري وتريث قليلا ولزم الصمت ، ولما لم يرد تابع الضابط قائلا : الحقيقة أن المدير استغرب ذلك لم عرف عنكم من الخير وحب الخير .. وسمعتكم الطيبة في كل مكان ؛ فلذلك أرسلنا المدير لنسمع منك رأيك فماذا تقول ؟!

قال عمري باسما ومفكرا بما التقطت أذناه : جزاكم الله خيرا .. أنتم خير من يعلم أن كل ذي نعمة محسود .. فلا يخلو الإنسان ممن يحقد عليه ويكرهه ويحسده من غير أن يعرفه .. فأنا لا أريد أن أحلف أيمانا إنني لا أتعامل بالمخدرات .. فأنا الدخان والسجاير أكرهها وأبغضها ولا أحب أن تباع في محلاتنا ومتاجرنا سواء بالاستيراد أو التوزيع .. وثانيا أنا تحت أمر العدالة لأنه يهمني أن أعرف أعدائي ـ هداهم الله وأصلح الله قلوبهم – فأخبرونني بتفاصيل القضية ..

فقال الضابط منير : يا أبا محمود .. اتصل بنا مجهول فاعل خير ، وقال لنا إن المخزن في شارع كذا فيه مخدرات .. بالطبع نحن نأخذ أي إخبارية على محمل الجد وإن كانت كاذبة .. لأن كثيرا من الناس يخافون من الظهور في قضايا بوليسية ومحاكم .. فوضعنا المكان المذكور تحت المراقبة مدة أربع وعشرين ساعة ، ولقد تأكدنا أنه لكم فعلا ، والعجيب أنه مخزن مهجور .. بل لما دخله رجالنا وجدوا فيه كميات من أوراق الصحف رولات ورق بيضاء وعليها الأتربة والغبار

فقال عمري : عرفته ! .. مخزن في شارع الراية العربية .. مرت علينا فترة كنت استورد فيها أوراق طباعة الصحف والمجلات ، ثم صارت إشكاليات مع بعض الموردين فتركنا استيراد ذلك .. وهو فعلا مخزن مهجور .. أكمل يا حضرة الضابط وآسف للمقاطعة

ـ المهم دخلنا المخزن فوجدنا فيه الأوراق المكدسة والمتراكم عليها الغبار والعناكب وأثناء البحث وجدنا صندوق ورق كبير مملوء بأكياس البودرة .. تركناه لنرى من سيأتي ويأخذه وزادت رقابتنا للمكان على مدار الأربع والعشرين ساعة ، واستطعنا أن نلقط سيارة كانت تأتي في الليل وتأخذ بمراقبة الشارع ثم تنصرف ، المهم لما تكررت الحركة تابعناها وألقينا القبض على شابين فيها ، وأمام التحقيق اعترفوا أنهم من رجالك ، وأنهم مكلفون بإخراج البضاعة ونقلها لمكان آخر ، وذكروا اسم متجر في سوق الربيع وهو لحضرتكم ، وقد وجدنا معهم مفاتيح الأقفال للمخزن المهجور ؛ ولكنهم لشعورهم وإحساسهم بنا لم يقتربوا من أبواب المخزن

فقال عمري وقد اشتغل ذهنه بما سمع : قالوا إنهم من رجالي ويعملون معنا ؟ !

ـ أجل .. بل قال أحدهم إنك أرسلتهم لإحضار (الكرتونة) .

فتبسم عمري وهو يقول معلقا : أتصدق لو أنني كنت تاجر مخدرات أنني قد أتعامل مع رجال من هذه النوعية ، يقرون عليّ من أول صفعة .. أترى أن تاجر المخدرات يسقط بهذه السهولة

فتبسم الضباط بدورهم وقال منير : هذا ما علق به المدير ونقول به ، فكبار رجال المخدرات لا يقعون بهذه السهولة كما في قضيتنا هذه ؛ ولكن غلطة الشاطر بألف .. ولكن نحن أيضا نقر أن السيد عمري معروف بالذكاء وبإدارة مشاريع متنوعة ومختلفة ومتشابكة وكثيرة

ـ جزاءك الله خيرا هذا من لطفك .. على كل حال أنا ذاهب معكم ، ولن يؤثر ذلك على سمعتي أنا لا تهمني إلا طهارتي ، ولا يهمني كلام الجرائد والخصوم والمنافسين .. فأنا لا أحمل ضغينة لأحد في قلبي .. هيا لنقابل المدير وهذين الشخصين

نهض الجميع بعدما شربوا القهوة ، وساروا نحو قسم الأمن في المنطقة ، وصعدوا إلى مكتب مدير مكافحة المخدرات في هذه المدينة البحرية ، وتقابل الرجلان وأبدى المدير اعتذاره الشديد وهو يقول : منذ أتيت هذه النقطة وأنا أسمع عن الشيخ عمري من الخير ومشاريع الإحسان والخير مما أدهشني من هذه الفرية ؛ ولكن لابد من الإجراءات يا أبا محمود

فقال عمري : نحن مع الأمن ومع الاستقرار .. وهذا واجبكم ، ولا أحد فوق القانون ، ولعل

بين رجالي والعاملين معنا تجار مخدرات ويستغلون ثقتي وطيبتي يا عميد جلال

فقال العميد جلال : شايا أم قهوة ؟

ـ أيهما تشاء .. واسمح لنا برؤية أحبابنا فإني في شوق إليهما

طلب العميد الشاي للجميع ، وأرسل العميد جلال وراء الرجلين اللذين اعترفا وأقرا بأن عمريا كلفهما بنقل صندوق المخدرات ، أتى الرجلان ، فلما شاهدهما عمري نهض عن كرسيه وقال وهو يحد النظر في وجهيهما : أنتم تعملون معنا ؟! .. في أي مشروع تعملان ؟ .. بل اذكرا لي اسميكما ؟ إني لا أذكركما

فتضاحك أحد المتهمين وقال : أتريد أن تتظاهر بأنك لا تعرفنا يا سيد عمري؟! أتريد أن تتخلى عنا .. أنا عيد بوري .. العامل في مصنع الدواء الذي يديره صهرك زوج أختك الدكتور فائز وأختك بدرية محمود .. وهذا زميلي عبده سليمان يشتغل معي في المصنع أيضا

فقال عمري : رائع .. جيد يا عيد .. أمتزوج أنت ؟

ـ طلقت .. ولم السؤال ؟ !

ـ طلقت ! حسنا ، أنا يا سيد عيد طلبت منك إخراج المخدرات أو الصندوق من مخزن شارع الراية العربية ؟

فقال عيد بإصرار : نعم

فقال عمري وقد أدرك من نظره في عيني الشاب أنه ساذج التفكير وجاهل : متى طلبت منك ذلك ؟ وفي أي مكان تحدثنا بذلك ؟

فكرر عيد : متى ؟ متى ؟ وأين وأين ؟ عبده تكلم مالك ساكت ؟

فقال عبده وقد أدرك غباءهما:سأتكلم ولكني سأتكلم بالحق

فصاح عيد : اسكت لا تتكلم

فقال العميد جلال ضاحكا ومكررا سؤال عمري لهما : في أي مكان كلفكما عمري بنقل الصندوق يا عبده ؟ .. في الشركة ، في المصنع ، في المكتب ، في الشارع ، في التلفون .. تكلم يا عبده وسيكون ذلك في مصلحتك ؟

فانهار الشابان على الفور وأخذا بالبكاء وقالا : لا ندري كيف خدعنا ذلك الرجل ؟ !

فقال العميد : واحد يتكلم

فقال عمري عندئذ : أتسمح لي يا سيدي بالانصراف أنا لا أحب أن أعرف عدوي حتى لا أحمل له في قلبي حقدا ويبدأ بيننا صراع وقتال

فقال العميد : من حقك أن تسمع أيها الرجل الطيب .. نحن أدركنا حمقهما من أول التحقيق

فقال عمري : أظن ـ يا سيدي العميد ـ أن الرجل الذي قابلهما وكلفهما بمراقبة المخزن ليروكم وأنتم تأخذون البضاعة ليس هو الخصم الحقيقي، وأيضا لابد أن أحدهم دفعهم لإثارة الشبهة حولي إذا وقعا بين أيديكم وأعطاهم مفاتيح مقلدة للمخزن .. وكان يغلب على ظنهم أنهم لن يقعوا في قبضة البوليس .. كانوا يرقبون أخذ رجالكم للبضاعة والانشغال بي ولكن ذكاءكم فوت الفرصة على محرضهم من النجاح .. وأما الرجل فقد توقع حدوث خطأ منهم فدفع لهم المفاتيح لتأكيد التهمة علينا والاعتراف بأني أنا الذي طلب منهما نقل البضاعة

فقال عيد : هذا ما أراده السيد عامر .. نحن لم نضع الصندوق يا سيدي .. إنما طلب منا المراقبة للمخزن ، ونرى متى تقتحمون المخزن وتأخذون الصندوق .. ولكنكم لم تأخذوه على الفور فأمرنا الرجل بالمتابعة ؛ ولكنكم قبضتم علينا من حيث لا ندري ، وكان الرجل قد قال لنا إذا قبض عليكم رجال المكافحة فقولوا إن عمريا هو الذي كلفنا بذلك ولا نعرف ماذا يوجد في الصندوق

فقال العميد : أتظنون الشرطة بهذه السذاجة ؟ ! .. نأخذ الصندوق ونطارد ونتهم عمريا بكل بساطة .. يبدو لي أنكما أحمقان مغفلان .. من هو عامر ؟

فأجاب عبده : رجل تعرف علينا في مقهى البحر الشرقي

فقال عمري : أظنه ـ يا حضرة العميد ـ قد اختفى منذ قبضتم عليهما .. وكم دفع لكما ؟

فقال عبده : أعطى كل واحد منا خمسمائة دينار ووعدنا بالمزيد وتعهد بمساعدتنا إذا وقعنا في قبضة الشرطة ، ولنا أربع أيام هنا ولم يظهر

فتبسم جلال وقال : وأرى أنه لن يظهر .. انتم أحمقان ، ولو اعترفتم من البداية عن الرجل لربما

تمكن رجالنا من مطاردته .. ولكن ـ يا أخ عمري ـ التضحية بكمية كهذه من المخدرات يدل على أن العدو شديد .. على كل حال سنفرج عنكم ونضعكما تحت الرصد والمراقبة فلربما حاول الاتصال بكم إذا كان غبيا مثلكم .. نأسف يا أخ عمري عن هذا الإزعاج والإحراج .. ونحن كنا واثقين من براءتكم ، ولكن كان لابد من الحديث معكم لنستفيد جميعا من المعلومات وعليك

ـ يا صاحبي ـ أن تأخذ حذرك فهذه البداية

رغم ثبات عمري أمام هذه الطعنة وثقته الكبيرة بمدبر الأحوال سبحانه وتعالى فقد أحس وشعر بخطر يحوم حوله ، فذكاؤه يدفعه للانتباه والاستعداد ، فكل هذه السنوات مضت من غير منافسة قاتلة ، كان هناك تنافس طبيعي وسلمي ، أما دخول المخدرات فهذا ينذر بالخطر القادم ، وهو بنفس الوقت لا يريد إدخال الجانب الأمني في تعيين واختيار الأشخاص والعمال فهو لا يحب الجاسوسية فحينئذ تذكر نسرين غانم ومصنع والده ناصح ، وقال لنفسه : لم أسمع أخبارها منذ رحيلي ؛ ولكني سمعت من عهد قريب من جبر أنها نقلت من مصنع السجاد

سمح لتفكيره وذاكرته أن يقلبا الرجال الذين يمكن أن يتآمروا عليه .. ثم وجد أن السوق يتسع لاعمال كبيرة .. فلماذا يثيرون الشبهه عليه ؟! ويستغلون مثل هؤلاء العمال السذج البسطاء في آلاعيبهم .. عبد السلام رجل محترم وفاضل .. وهناك السيد مجدي براتوكا لا يحبنا كثيرا ولكنه لا يحب أن ينغمس في مشاكل ومقالب وفكر .. أخذ يعد ويستعرض أسماء كبار رجال المدينة والمنافسين ولم يستقر عقله على شخص لديه دوافع للخلاص منه أو ضربه في السوق ، فمجالات عمله متعددة .. مواد غذائية .. نقل .. استيراد .. أدوية .. تصدير ..

ملابس .. أثاث خشبي ومعدني .. أجهزة .. عقارات .. مدارس .. مستشفى على الطريق ..

طال تفكير عمري الخابي ولم يستطع تحديد من هو العدو والحاسد .. فلجأ إلى الله ثم الصلاة ، وكان صاحبنا الفاضل لا يترك صلاة الجماعة إلا لعذر قوي وشديد ، وكانت علاقته مع أهل العلم والمشايخ طيبة ، ويتعاون معهم في إيصال الزكوات لمن يستحقها ومن هم أولى بها من غيرهم ، وكان يحب أن تصل زكاته لأهل الإيمان والصلاة .. ويساهم في بناء المساجد ويتبرع

لها .. وكان يشارك في تنظيفها والتبرع لها بمكانس الكهرباء وفرشها بالسجاد والمدافيء .. وكان يتنقل في أداء الصلاة في عدة مساجد رفعا للحرج الذي يلقاه من الضعفاء عند مغادرته المسجد وهذا دفعه للإعلان عن مكتب خاص في مكان معروف وعام في المدينة لمن هو بحاجة مالية أو علاجية .

وبعد أيام يسيرة تحدث مع العميد جلال عن قضية المخدرات ، فأخبره العميد أن المدعو عامر شخص مجهول ، وقد اختفى عن المسرح، وأن الشابين تبين أيضا أنهما من أصحاب العقول الضعيفة ، وصادهما الرجل المجهول في مقهى البحر الشرقي ، ووضع المقهى تحت المراقبة ، وأن التضحية بكمية من المخدرات ليس بالأمر الهين ، وهذا يدل على أن المهربين يملكون كميات أكثر ، وقد تم تعزيز قوات السواحل ومتابعة المنافذ الفرعية والتهريب ، وأكد عمري بدوره للضابط الكبير عدم توصله لإتهام شخص معين أو جماعة ، وأن السوق واسع ويحتاج إلى رجال أعمال أكثر من الموجود ، فليس هناك من دافع تجاري لإزاحته عن الطريق ، ربما تكون أسباب شخصية وراء هذه الجريمة ، وشكر الضابط ووضع سماعة الهاتف وغرق ثانية في التفكير .

أدرك عمري أن قضية دس المخدرات في مخزن مهجور إما أن فاعلها يريد الانتقام منه لأمر يجهله ، أو شخص يريد التشويش عليه ويحرجه مع الشرطة ، ثم يسيء لسمعته عندما يجد رجال الأمن مخدرات في مخزنه ، والعوام تصدق كل شيء ، وسيقولون إنه يجمع هذه الأموال من تجارة المخدرات ، وما مشاريع الإحسان والصدقات إلا تغطية للملايين التي يلهفها من التجارة بالمخدرات والممنوعات ، فحمد الله على اعتراف الشابين السريع ، وعلى ذكاء رجال الشرطة ، وحسن تعاملهم معه ، وعدم استغلال القضية للدعاية والشوشرة والصحافة والإثارة ، وحمد الله ثانية على أنه ليس له خصوم بانتخابات الغرف التجارية أو النقابات أو المجالس النيابية وإلا استغلوها وعملوها موضوع تسلية وتشهير حتى وإن كانت كذب ، فهم يستغلونها لتهييج الناس عليه .. فقام وتوضأ وصلى لله ركعتين شكر ، فقد سلم الله من هذا المكر .

لم يمض على هذه الحادثة بضعة شهور حتى دخل مدير المشاريع عند عمري الدكتور الاقتصادي يوسف حسان ويخبره بخبر مزعج مفاده أن هناك أشخاصاً يضربون السوق بمواد

غذائية رخيصة ، وكذلك مواد الإنشاء من الحديد والإسمنت مما يؤثر على أسعارهم ومستورداتهم ، فأدرك عمري حينئذ وزاد يقينه أن هناك من يكيد له ، ويريد تدميره شخصيا فطلب من مديره مسايرة السوق رغم كل الخسائر التي ستترتب على ذلك ، واتصل به كبار تجار المواد الغذائية في المدينة فأخبرهم أنه مثلهم ضحية أناس حاقدين ومجهولين ، وأطلع بعضهم على تقارير وفواتير المشتريات والمبيعات ، وأنه يتعرض للخسارة مثلهم ، فاستغرب التجار كما استغرب مثلهم ، فعرفوا أن هناك خصوما لهم من خارج المدينة ، فقد أصاب عمري حساسية من قطاعات مختلفة ، فأصحاب المقاولات والبناء من شركات وتجار الإسمنت والحديد يثيرون حوله الشبهات والطمع والأراجيف ، وأصحاب الحبوب كذلك ، وحتى معارض الأثاث والأدوات المنزلية تعرضت للأذى وضرب وحرق الأسعار ومنافسات غريبة ، وعقد عمري اجتماعات ومعه كثير من التجار مع كبار رجال المدينة والمدير الإداري للمدينة فيقولون : إن هذا سوق فيه تنافس

فينصرف التجار على مضض وغضب ، وعلى أثر فشل التعاون طلب عمري من مدير المشاريع وقف التعامل مع المواد الغذائية والأشياء المضروبة الأسعار عدة أشهر ، وقد تعرض الشيخ عمري إلى خسائر فادحة ؛ ولكنه تحمل ذلك عن رضا واستسلام لقضاء الله وحكمه ، وشعر بأن مؤامرة تحاك حوله ، ورجال البلد من حكومة وبلدية عاجزون عن وقف ذلك التدهور ، فاضطر أمام هذه الخسائر إلى إعفاء الكثير من العمال وخفض أعدادهم في مشاريع مختلفة ، وإغلاق عدد من المحلات والمتاجر إغلاقا تاما ، وبعضهم نقلهم للمشاريع التي لم تتأثر بهذه الحرب كمصنع الدواء والمستشفى الذي بدأ يعمل وقطاع النقل ، ورغم انسحابه من السوق ظلت الأسعار مضروبة وهابطة ، وعقد عمري اجتماعا مهما مع مدراء المشاريع المختلفة وتقرر فيه أن يفصل القطاعات عن بعضها البعض ، وتفصل الشركات عن بعضها البعض ، فكل شركة ومشروع وحدة واحدة مستقل عن المشاريع الأخرى حتى لا يؤثر أي قطاع يتضرر بغيره .. فالمدارس قطاع مستقل ، وكل مدرسة وحدة واحدة ، والدور الخيرية من دور رعاية الأيتام والمسنين والعجزة قطاع ، وكل دار مستقلة إداريا وماليا .. قطاع النقل قطاع مستقل

فالسيارات الكبيرة وحدة واحدة ، والسيارات الصغيرة ونقل الركاب وحدة واحدة ، وهكذا أعاد عمري وصديقه يوسف حسان وسكرتيره أحمد ترتيب المشاريع ترتيبا جديدا ، وقد أوقف العمل بالمشاريع المضروبة التي تعرضت للصراع ، وقد أدرك وشعر عمري نتيجة هذا العام الذي مر أن محاربيه ومنافسيه من خارج المدينة ولكنه لم يعرفهم ولم يعلم لماذا فعلوا كل ذلك فترك ذلك للأيام وتجمل بالصبر ..

رصاص وخطف

دخل عمري ذات مساء أولا على أمه كعادته عندما يعود من العمل فسلم عليها وتناول العشاء معها ، هو وباقي أفراد الأسرة ، ثم جلسوا يتسامرون حتى أتى موضوع إغلاق كثير من المحلات فقالت الأم مريم مستفسرة منه : لقد حدثنا جبر ابن عمتك على أنك تواجه أزمة هذه الأيام فإذا كنت بحاجة لأي أموال فأموال أمك كلها تحت تصرفك ..

فتبسم عمري وقال : أشكرك يا أمي وجزاك الله خيرا !.. هذا سوق أحيانا يشتد التنافس على بعض الأصناف وتكثر هذه المواد في السوق فترخص الأسعار حسب قانون السوق العرض والطلب ؛ ولكن هذه المرة كانت الأسعار غريبة ، فهناك منافسون يحرقون الأسعار .. فلما رأينا أن الخسارة فيها كبيرة تخلينا عنها إلى حين .. فالمشاريع كثيرة بفضل الله يا أمي

فقالت بتكدر وضيق : ولماذا يفعلون ذلك ومن هم ؟

فتبسم ثانية وقال : ربما يريدون الإيذاء الشخصي .. وربما يريدون افتعال معركة .. ولا داعي لأن نخوض معركة معهم ، نصبر ونترك لهم السوق ، فهم يريدون أن نندفع إلى هذه المعركة لتزداد الخسائر ، فهم يضحون بعدة ملايين مقابل تدمير خصومهم لأسباب مجهولة بالنسبة لي ولكني توصلت في تفكيري إنهم يقصدونني من غير أن أعرفهم

ـ ألا تعرفهم ؟!

ـ ليس مهما هذا .. فقد تركت لهم السوق ، وليس هذا هروبا أو جبنا بل لأني أدرك أن هذه زوبعة وحرب شخصية فتركت لهم الميدان لأنني أخاف على ديني وآخرتي يا أمي

فقالت الأم : الصبر جميل يا ولدي .. والحسد لا ينتهي .. وأبواب الرزق كثيرة ..

ـ أجل يا أمي .. أنا لا يحزنني ويؤلمني في هذا الموضوع إلا العمال الذين اضطررنا لصرفهم للظروف القاسية التي عصفت ومرت بهذه المشاريع

ـ الله لن يتخلى عن عباده .. الرزق على الله يا ولدي فهو يتولاهم

ـ فقد قمنا بنقل بعضهم لمواقع أخرى حتى تتغير الأحوال .. وحدثها عن قضية المخدرات التي حاولوا توريطه بها .

ففزعت الأم وقالت : الله أكبر ! الله أكبر ! ألهذا الحد يكرهونك ؟ ! من هم هؤلاء الأشقياء ؟ فتبسم عمري ورد قائلا : لا تجزعي يا أمي .. الشرطة لم تصل للفاعل الحقيقي لأنه أذكى أن يقع لأول وهلة .. ولكن هذا يدل على أنني أنا شخصيا مقصود بالعداء

فأخذت أمه تدعو له وتبتهل إلى الله أن يحميه ويقيه شر الناس والفتن ، وكانت زينب تسمع للحديث بين الابن وأمه وهي مندهشة ، فعمري من النادر أن يتحدث عن مشاكل العمل وهمومه أمامهم ؛ لذلك أخذتها الدهشة وقالت كأنها مستهجنة هذه المعارك : يا أبا محمود .. ألهذا الحد الشر في السوق ؟!

فابتسم عمري لزوجته الطيبة وقال : ألم تسمعي وتقرئي قول النبي ﷺ { خير البقاع المساجد وشر البقاع الأسواق } [1] .. وأن الشيطان ينصب راية في الأسواق .. ولكن لا مفر للناس من الأسواق .. لذلك هناك ذكر ثبت عن الحبيب محمد ﷺ ويسميه أهل العلم دعاء أو ذكر السوق وثوابه ملايين الحسنات والدرجات

فقالت زينب بفرح : صدقت .. وكلما ننزل أو نمر من السوق أنا وأمك الغالية نردده لنحصل على ذلك الثواب والأجر العظيم [2]

فقال عمري : نعم ؛ لأن السوق مكان شر وغفلة وحلف كاذب لإنفاق السلع ، فذكر الله فيه عظيم وكثير الأجر .. فالتاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين .. والسوق مكان الربا والغش والغرر والمكر والخداع والعينة ، من اجل ذلك هو مكان شر ولكن لابد منه للناس لشراء أقواتهم وحاجاتهم ولباسهم وشرابهم وبيع محاصيلهم وصوفهم ولبنهم وجبنهم .. نسأل الله سبحانه أن يرزقنا الرزق الحلال والطيبات من الرزق

فقالت زينب : والله يا عمري لازم تنتبه للحلال والحرام وما تضع في اجوافنا وأفواهنا ..

---

١ – صحيح الترغيب "٣٢٧١" عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وهناك حديث {عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا} مسلم .

٢ – قال عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَو : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ " ٣٣٥٠ الترمذي

فالحلال سبب مهم لإجابة الدعاء

فقال : لا أنسى ذلك بمشيئة الله سبحانه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب .. ،، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ،، إنني أبذل أقصى جهدي لنأكل الحلال المباح .. وادعوا لنا أن يحفظنا الله من الغفلة والطمع والحرص

فأخذت الأم وكنتها زينب يدعوان له بذلك فقال باسما : ببركة دعائكما ورضا أمنا عنا سيحفظنا مولانا العظيم .. لا تقلقي يا أمي ، وأنا إن احتجت مالا سألجأ إليك

فقالت الأم : جبر ، كيف شغله ؟

فأجاب عمري قائلا : الأستاذ جبر مجال عمله لحتى الآن بعيد عن المعركة .. فهو يستورد الطابعات والأدوات والآلات التي تتعلق بها ، وهذه أول تجربة لي في مثل هذه البضاعة .. وهذه بداية يا أمي ..

التقى عمري من جديد مع كبار تجار المواد الغذائية في الريحانة بناء على رغبتهم ، ثم تكلم كبيرهم وقال : أيها السادة نحن في الآونة الأخيرة تعرضنا لمؤامرة رهيبة من أيد خفية ضربت قطاع المواد الغذائية المستوردة والحبوب والطحين والذرة والسكر والعدس والأرز .. وكلنا ثبت أنه ليس له يد في تدني الأسعار للحضيض والسوق السوداء .. فلذلك اجتمعنا هنا لندافع عن أنفسنا أمام خصمنا المجهول الخفي .. وهؤلاء التجار الصغار يريدون أن يكبروا في يوم وليلة ؛ لذلك سوف نستورد هذه المواد بالاتفاق والتفاهم ولن نسمح لأيدي غريبة أن تحطمنا.. ومصيرنا معرفة الجهات المجهولة .. والسيد عمري أبو محمود لا يحق له ترك هذا السوق بهذه الطريقة ..

فدافع عمري عن نفسه وأنه انسحب ليس لأنه لا يحب المخاطرة ، فالتجارة مخاطرة ؛ ولكنه لا يحب الغش والخداع والقتال بهذه الأساليب وإغراق الأسواق ببضاعة قديمة ومنتهية الصلاحية .. وأكد أن هناك أيدي خفية تريد الإساءة لجميع تجار المواد الغذائية والحبوب وغيرها ، والفائدة التي يريدها هؤلاء المنافسون ويرجونها غير واضحة ولا معلومة فالكل خسران .. وبعد ضغط شديد من كبار التجار وافق عمري على المساهمة في الاستيراد المشترك

وكان القصد من ذلك الاتفاق حتى لا يحاول أحد من كبار التجار التلاعب بالأسعار وحده وقد استطاع التجار بهذا الاتفاق من السيطرة على الموقف المضطرب ، ولم يسمحوا لصغار التجار إلا بالأخذ من مخازنهم الكبيرة ، فلم يستطع التجار الصغار الاستيراد من العاصمة بالأسعار الرخيصة لأن الكبار اتفقوا على أنه من امتنع من الأخذ منهم عدم التعامل معه .. المهم فقد استطاع التجار التخفيف من هذه المضاربة ، ويبدو أيضا أن الذين لهم مصلحة في ضرب هذه البضائع قد فشلوا بعد هذه الشهور من المغامرة ، فلما وقف تجار الريحانة وقفة واحدة أمام الدخيل استطاعوا أن يحصروا التجار الذين يجلبون بضائعهم من العاصمة لمنافسة أسعار الريحانة ، بل أصبحوا معروفين للتجار ، وتبين أنهم عدد قليل من التجار ومن المغامرين .. والغريب أنهم لا يدرون من هو المورد الأصلي لهم .. فاستردت تجارة المدينة عافيتها بعض الشيء وكان الإحساس لدى عمري يكبر أنه هو المقصود بهذه اللعبة أيضا .. ولكن لماذا ؟ ! .. فهو حائر ممن يكن له كل هذا العداء والبغض ويسعى إلى خراب بيته

ذات ليلة كان عمري وأمه وأصهاره يجلسون في حديقة الفيلا التي شيدها في ضاحية الصالح الضاحية الجديدة في الريحانة ، وقد تناول القوم طعامهم ، وجلسوا يتسامرون ويشربون المثلجات ويطعمون الفواكه فرحين بما أنعم الله عليهم من السكينة والإيمان والنعم ، وبينما هم على ذلك الانسجام والانبساط سمعوا صوت رصاصات تنطلق من قرب السور في اتجاههم أو قريبة منهم ، فذعروا واتصل عمري برجال الشرطة الذين هرعوا على الفور ، واستمع الضابط المحقق لأقوالهم ، وتحرك رجال البحث الجنائي نحو السور والجهة التي أطلق منها الرصاص فوجدوا آثار أحذية قرب السور وآثار عجلات سيارة ووجدوا أغلفة أو أظرفة الرصاصات التي أطلقت على الساهرين .. وبعد سماع أقوال الحاضرين انصرف رجال الشرطة وقرروا العودة في الصباح للبحث عن أماكن سقوط طلقات الرصاص .. وكان عمري يقول لأمه : لي عدو أو أعداء مجهولون .. ماذا يريدون مني ؟ لست أدري .. ومن هم ؟ لا أدري يا أمي .. إنهم لا يريدون قتلي وإلا اختاروا موقعا أسهل من البيت أو الحديقة ولكني لا أذكر أنني أسأت لإنسان دفعه للحقد عليّ كل هذا الحقد القاتل .. فهم أو هو يحاول إشاعة الرعب والذعر

حولي ويدفعني للخوف والانفعال الأحمق لأتصرف تصرفا أحمق ولكن بمشيئة الله سبحانه سوف أتحمل وأصبر ولن أشهر سلاحا ضده { لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ } ..يا رب ثبتني على الإيمان والتوبة

فقالت الأم : ما تقول في السفر ؟.. سافر يا ولدي ..أرح أعصابك

ـ أسافر؟! أسافر إلى أين ؟

ـ إلى بلد كبير تريح أعصابك فيه من هذه العداوات والحركات الإبليسية

ـ قد يلحقون بي

ـ تحرك بالسرية .. ولا يعرف أحد وجهة سفرك وأنت اتصل بنا .. والدكتور يوسف حسان نعم الأخ ونعم الصديق ، وأصهارك لن يقصروا في رعاية الأموال والأولاد

فقال : إذن نسافر أنا وأنت وزينب .. فماليزيا بلاد جميلة وساحرة لقد زرتها مرتين لعقد صفقات تجارية وفيها كثير من الصناعات اليابانية

فقالت : والأولاد .. والمدارس ؟

فقال : ألا تستطيع أم مالك القيام بهم أسبوعا أو أسبوعين ؟

فقالت الأم : تستطيع ذلك ؛ ولكن الأم أفضل وأنا صحتي لا تساعدني يا ولدي ! فماليزيا بلد بعيد سافر وحدك حتى لا تنشغل بنا

فقال مستسلما لفكرة أمه : سأفكر بالأمر يا أمي .. أنا فعلا بحاجة لإراحة أعصابي والابتعاد عن المشاريع .. أشكرك على هذه الفكرة وقد أقضي شهرا فيها ثم أسافر إلى الحج فقد اقترب شهر ذي الحجة فأنا بحاجة لجرعة إيمان قوية ..

فقالت الأم وقد هفت نفسها للديار المقدسة ، فلا ننسى حب مريم القديم للسفر ولكن شتان بين سفر العبادة والقربى وسفر السياحة والمتعة : فكرة طيبة يا بني ! وقد نلقاك هناك إذا وافق الدكتور المحترم فائز وناسب ذلك ظروفه

ـ جيد .. اقنعيه

أسر عمري لزوجته بهذا الحديث فوافقت زينب وتمنت له رحلة سعيدة فقال : هي ستكون

رحلة لإراحة الأعصاب ، ولسوف أقوم بزيارة بعض المصانع والشركات الكبيرة لعقد عدد من الصفقات

فعمري ـ منذ توسعت مشاريعه التجارية وأصبح من رجال الأعمال الكبار ـ كان يذهب بنفسه للأقطار المختلفة لعقد الصفقات ومشاهدة البضائع ، فأمر السفر معروف لديه ؛ ولكنه هذه المرة أخفى جهته إلا عن ثلاثة أمه وزوجته ويوسف حسان فقط .. ويوم السفر كان مجهولا ، ولما أصبح في المطار اتصل بالدكتور يوسف وقال : أنا الآن مسافر

*****

بعد سفر عمري بأيام يسيرة تلقت الأسرة هاتفا مخيفا ، طلب المتصل السيد عمري ، فلما قالت الشغالة أم مالك إنه غير موجود سألها أين ؟ فقالت : مسافر .. إلى أين ؟ لا أدري فأخبرها المتصل أن ابنه حسنا في عداد المختطفين ، فذعرت الشغالة أم مالك ، وأعطت السماعة لزينب التي كانت تقف قريبا منها وردت بانزعاج : نعم .. أنا أمه .. مخطوف ولماذا ؟ ماذا تريدون ؟ حسبنا الله ونعم الوكيل

ووضعت السماعة وهي تردد حسبنا الله ونعم الوكيل .. إنا لله وإنا إليه راجعون .. لا حول ولا قوة إلا بالله

ثم اتصلت بأخيها حسن ، فهو يعمل مع نسيبه ، وهو المسؤول عن إدارة الشاحنات والبرادات الكبيرة ، فلبى النداء مسرعا ، وأخذ زينب وانطلق إلى مدرسة حسن ، فحسن ابن تسع سنوات وترتيبه الرابع بين أبناء الأسرة ، فدخلت الأم وحسن على المديرة وسألتها عن حسن فقالت المديرة بدهشة وهي قد لاحظت الذعر والتوتر عليها : انصرف ، ألم ترسلوا خلفه ؟ !

فقالت زينب بصبر وثبات : لا حول ولا قوة إلا بالله .. لم يعد حسن للبيت يا أستاذة أم محمد

قالت المديرة بخوف وانتظار تفسير : ماذا قلت يا سيدتي الفاضلة ؟ !

روى حسن للمديرة الاتصال الغامض ، فقالت المديرة بقلق : عند العاشرة صباحا وقفت سيارة كبيرة وحديثة أمام باب المدرسة ـ وهي ترى من مدخل الادارة المرتفع عن باب المدرسة وكنت لحظتئذ أقف مع إحدى المعلمات ـ ونزل منها شخص يضع على عينيه نظارات حمراء

وذي لحية كبيرة تملأ وجهه وكما قلت كنت آنئذ أقف أمام المدخل فألقى السلام وقال : أنا سائق عند السيد أبي محمود .. عمري محمود والد حسن أرسلتني الوالدة لأخذ حسن للبيت لأمر طارئ .. مع أن هذه أول مرة يرسل السيد عمري أحدا لأخذ أحد أولاده قبل انتهاء الدوام لم أشك في الرجل وحسن نواياه ، فكل أبناء العائلات يفعلون ذلك .. فدخلنا الإدارة وشربنا القهوة ، وأتى حسن ، فقلت له : هذا الرجل جاء من طرف أبيك يريد أخذك للبيت .. هل تذهب معه ؟ فقال الرجل لحسن : أرسلتني حضرة الوالدة أنا أعمل في شركة الدواء يا حسن أنا عمك خميس .. فقال حسن وإن بدا لي مترددا : أذهب .. هل من شيء ؟ إني تركت أمي بخير .. فرد الرجل لا شيء .. كأنها تريد أن تخرج مشوارا ..كنت مع زوج عمتك الدكتور فائز في بيتكم .. فأرسلني لإحضارك وخرجا والبواب تجدون عنده رقم السيارة كما هو معتاد في نظامنا .. فهل نتصل بالشرطة ؟

قال حسن : اتصلي

ضربت المديرة رقم شرطة المدينة ، وتحدثت مع ضابط القسم ، وبعد دقائق كانت دورية شرطة تقف أمام المدرسة ، ونزلوا حيث مكتب المديرة التي تشرب القهوة مع ضيوفها ، فتكلمت زينب مع الضابط عن الهاتف الذي حدث عند الساعة الحادية عشرة ونصف ، ثم اتصالها بأخيها، ثم مجيئهما المدرسة ، وتحدثت المديرة بدورها عن قصة الرجل والسيارة ، ثم أرسلوا وراء البواب الذي أتى ومعه دفتر كتابة أرقام السيارات التي تأخذ الأولاد ، ولما أخذوا المعلومات قال البواب مضيفا : لقد كان في السيارة رجل آخر على شاكلة صاحبه لحية ونظارات شمسية

مشى رجال الأمن وراء سيارة حسن إلى بيت السيد عمري ، فاستقبلتهم والدة عمري التي اطلعت على الأمر من أم مالك العاملة في البيت ، فلما عرفوا البيت طمأنوا الأسرة ووعدوهم بمتابعة الأمر ، وقال الضابط : يا حجة أم عمري .. قد يتصلون مرة أخرى لطلب الفدية إن كان قصدهم الفدية ؛ ولكن نريد الحديث مع الدكتور فائز لنتأكد أنه لم يرسل أحدا

فقالت زينب : يا سيدي الضابط ! الرجل ادعى أنني أنا التي أرسلت سائق المصنع الذي كان

مع الدكتور فائز للمدرسة ..

فقال الضابط : أعرف ذلك يا سيدتي ؛ ولكن دعونا نتكلم معه عن طريق الهاتف ونسأله عن الرجلين

ضرب حسن رقم المصنع وطلب الدكتور ، وتحدث الدكتور مع الضابط ، ولما سمع بخطف حسن صاح : إني قادم انتظرني يا سيدي ووضع الضابط سماعة الهاتف وقال : إنه قادم .. والله ظننته أبا الطفل من لهفته وجزعه

ابتسمت مريم رغم قسوة الموقف والجريمة وقالت : إن ولدي عمريا محبوب ممن يعاشرهم يا سيدي الضابط .. يبدو لي أنك جديد على الدائرة

فقال الضابط باسما : نعم ، لي أسبوع أو عشرة أيام في هذه الدائرة

فقالت مريم : فولدي عمري معروف للجميع

فقال الضابط وهو يهز منكبيه متذكرا : آ .. تذكرت لقد قال لي مدير القسم اهتم بالموضوع فهذا ابن رجل مهم في المدينة .. أين والد الطفل ؟!

ـ مسافر

وما كاد الضابط ومساعدوه يشربون عصير الليمون المبرد حتى كان الدكتور فائز وزوجته ، وجبر وزوجته في البيت يسمعون الحكاية من السيدة مريم ، وبينما هم يستمعون دخل الدكتور يوسف حسان يسأل هو الآخر عن الأمر ، وقد سمع الضابط أقوال الجميع ، ولما لم يجد لديهم معلومة مهمة انصرف وهو يقول : سنضع هاتف المنزل تحت المراقبة فلابد لهؤلاء الخاطفين أن يتصلوا ليتضح لدينا هدف هذه الجريمة وأخذ رجاله وانصرف ، فقال يوسف حسان : ماذا سنفعل ؟

فقالت زينب بثبات وشجاعة : نشكر لكم حبكم لنا ووقوفكم معنا ؛ ولكن أرى أن تنصرفوا لأشغالكم فلا داعي لإثارة القلق والتوتر في الأعمال حتى تتضح لنا الغاية من خطف حسن

دخل الليل ولم يتصل الخاطفون ، وبينما الأسرة مجتمعة في بيت عمري على توتر وانتظار وترقب هاتف المجرمين فتح الباب الكبير للفيلا ودخل منه حسن .. فهرعوا إليه وقد لمحوا سيارة

زرقاء قد ابتعدت عن البيت .

فاحتضنت الجدة حفيدها وقبلته وهي تبكي وتذرف الدموع ، فقال حسن لمن حوله : إنكم خائفون عليّ

ـ بالتأكيد يا ولدي

دخل الجميع بالطفل إلى الداخل ، وقام الدكتور بفحصه واطمأن على سلامته ، وكانت زينب قد اتصلت بالبوليس فأتوا فورا ، ولما هنأ الضابط حسنا على سلامته ونجاته قال : أخبرنا أيها الشجاع عما جرى معك ؟

فقال حسن : أتى رجل إلى المدرسة وقال إنه من رجال أبي في المصنع، وإن زوج عمتي الدكتور فائز أرسله لأن أمي تريدني ، فصدقت وخرجت معه وأنا مستغرب ؛ ولكنه لم يترك لي وقت للتفكير ، فلما جلست في المقعد الخلفي وجدت أن هناك رجلا آخر يجلس في المقعد الخلفي ، ولما مشت السيارة قال الرجل الذي يجلس بجواري : قبل أن نذهب للبيت فلنمش إلى ميدان عيسى لأشتري ما طلبه الدكتور فائز ، وقبل أن نصل دوار عيسى أخرج الرجل زجاجة تشبه قناني العطر ورش على وجهي وأنفي فظننت أنه يريد تطيـيبي ؛ ولكن كما ظهر لي فيما بعد أنه مخدر فإني فقدت الوعي لأنني لما استيقظت وجدت نفسي في غرفة مغلقة فيها نور خفيف ، وقبل أن أدرك الوضع دخل الرجلان وقالا لي : هيا أيها الطفل وأمسك أحدهم بيدي وكانت ساحة البيت مظلمة وفتحوا الباب ، فوجدت سيارة زرقاء داكنة غير التي رأيتها في الصباح ، فدفعوني في المقعد الخلفي ، وكان شخص غير الذي رأيته صباحا يجلس مكان السائق ، وانطلقوا بي حتى اقتربت من البيت ، فطلبوا مني النزول فأتيت للبيت وأنا مذهول .. لم أسمع شيئا ولا أدري أين كنت ؟ !

فقال الضابط : رغم صغر سنك فأنت فتى ذكي وفطن .. ألم تعرف شيئا يساعدنا في الوصول إليهم ؟

ـ لا .. فما كدت أركب في السيارة حتى خدرني الملاعين ولم أكد استيقظ من التخدير حتى أعادوني للبيت

فقال الضابط : قصة عجيبة .. ولماذا اتصلوا ظهرا ؟ ماذا يريدون ؟!

فقال الدكتور فائز : أمر محير يا حضرة الضابط ! منذ الظهر ونحن ننتظر اتصال المجرمين

فقال الضابط متسائلا : قد يكون خطف بالخطأ ؟!

ـ ولكنهم لم يتكلموا معه ، ثم اتصلوا بنا ، فهم يعرفون هاتف البيت وأن حسنا ابن السيد عمري .. وأنني زوج عمته !

فقال الضابط : على كل حال سنأخذ اجراءتنا المناسبة اطمئنوا واسمحوا لنا بالانصراف

عمري في العاصمة

كانت حادثة اختطاف الطفل حسن غريبة في مكانها ؛ ولكن زينب وحماتها أدركن أن المقصود هو إيذاء عمري شخصيا ؛ ولما عرف الخاطفون بسفر عمري من الشغالة أم مالك انتظروا الليل ثم أخلوا سبيل الفتى .. إذن استنتاج أوكلام عمري في موضعه الصحيح أن هناك خصوما يريدون إثارته وإزعاجه .. لماذا ؟! هذا مما لم تصل المرأتان إليه بشيء يذيب عنه كل هذا الغموض والظلام والعداء الخفي المخيف .. مخدرات .. ضرب السوق المحلي بالمواد الرخيصة الرصاص على البيت ثم الخطف .. أمضى عمري شهرا في ربوع ماليزيا وولاياتها الجميلة .. فماليزيا تتكون من اتحاد فيدرالي يضم ثلاث عشرة ولاية ، وفيها ولاية سلنجور دار الإحسان غربي ماليزيا عاصمتها شاه علم ، وقد أصبحت هذه الولاية قلعة الصناعة في ماليزيا ، وفيها أكبر ميناء بحري في الولاية ، وعموما تقع ماليزيا في قلب جنوب شرق آسيا ، وعلى هضبة في شبه جزيرة الملايو تقع العاصمة كوالالمبور ، في غرب ماليزيا على نهر كلانج ونهر جومباك ، ومليئة بالحدائق الوطنية والمحميات الطبيعية ، هناك حديقة تامان نيجارا على قمة جبل جوننج تاهان ، وحديقة تمبلر وتبعد ٣٠ دقيقة عن العاصمة ، وتوجد قريبا منها شلالات كانسينج ، ومحمية غابات سيرندا ، ومحمية غابات بوكيت لاجونج ، وتضم أماكن للتنزه بالقرب من الشلال ، وحديقة جوننج مولو وهي أكبر حدائق سرواك ، وماليزيا خليط من السكان الماليز والصينيون والهنود والاورانج ، وهم السكان الاصليون لشبه الجزيرة ، ومهرجانات ماليزيا كثيرة حسب جنسيات شعوبها ، وفنادقها كثيرة بل فيها أطول برج في العالم برج بتروناس .. في ربوع تلك الجزيرة استمتع السيد عمري ردحا من الزمن ، ولما اقترب موسم الحج أو قل دخل شهر ذي الحجة سافر من كوالالمبور إلى الرياض عاصمة المملكة السعودية ، ومنها إلى جدة المدينة الساحلية المطلة على البحر الأحمر بحر المرجان ، واستقر في أحد الفنادق الضخمة وحجز جناحا منتظرا قدوم الأسرة من مدينة الريحانة ، وكله شوق لرؤية أمه وزوجته وأخته بدرية وصهره الطبيب فائز لطفي .. ولما اقترب الموعد نزل الأهل في الفندق فوجدوا عمريا في انتظارهم فتعانق الأحبة ، ولما استراحوا تجمعوا في إحدى الحجرات يسمعون أخبار بعضهم ،

فذكرت زينب لزوجها حادثة الخطف فانزعج عمري قليلا ولكنه حوقل ثم قال : قاتلهم الله سوف يـسقطون يوما ما .. ونعرف من هم هؤلاء الأوغاد الأوباش القتلة ؟ !

ثم انشغل القوم بأداء العمرة وكان عمري قد سبقهم بأداء العمرة ، وبعد حين انشغلوا بمناسك الحج مع عباد الله ، وبعد انتهاء الموسم عادوا لجدة ، ومنها للريحانة بسلام وبمزيد من الإيمان .. لقد كان عمري يبذل جهدا كبيرا في عدم اشغال نفسه بعدوه الخفي إنه يخاف على إيمانه والدخول في متاهات التجسس والتحسس والغيبة ، وكان عمري قد تعلم دروسا كثيرة مما تعرض له في السوق ، ومن إغلاق بعض المحلات والمتاجر ، وتوقفه عن التعامل بمواد البناء وغيره ، فلذلك بعد أن استراح من رحلة الحج وعاد الهدوء لنفسه وزادت ثقته بالله العظيم اتخذ قرارا مهما ، وبدأ يفكر في تنفيذه .. فهو يريد نقل بعض نشاطه إلى العاصمة حتى إذا ضرب ثانية في الريحانة تحول المواد إلى أسواق العاصمة فتباع فيها من غير خسارة كالتي أصابته في الريحانة ، ولما تشاور مع الدكتور يوسف حسان أعجبته الفكرة والتفكير والحل الذكي ، فعلق قائلا : رغم كبر أسواق الريحانة .. فالعاصمة سوق كبير لا يمكن ضربه بسهولة وإغراقه بالسلع ، ويمكننا أيضا أن نصنع أسواقا في مدن أخرى أو شركاء لنا في مدن أخرى ؛ فإذا تأثر سوق نتيجة المكر والخداع أو هبوط أسعار مقصود فنجد أماكن متنوعة لتوزيع البضائع والمواد وحتى شركة الإنشاءات يمكن تضخيمها إذا فتحنا فروعا لنا في العاصمة وعدد من المحافظات الكبيرة

لقد بدأ صاحبنا عمري يتطلع لعاصمة البلاد وتضخيم مشاريعه ، فقال عمري بعد موافقة الدكتور يوسف واقتناع سكرتيره احمد بأفكاره ووجهة نظره : الحمد لله رب العالمين .. إذن اتصلوا بكل إخواننا الذين اضطررنا للاستغناء عنهم نتيجة الأزمة الضارية ، فهؤلاء أولى الناس بالعمل معنا من وجوه عديدة .. وانظر يا يوسف من يحب منهم الرحيل للعاصمة وترك هذه المدينة .. وفكرا بالموضوع جيدا لنباشر العمل به قريبا جدا

سر كثير من العمال والموظفين الذين تم الاستغناء عنهم بسبب المشكلة منذ سنة لهذا الاقتراح واستبشروا خيرا ، ورغب الكثير منهم بالعودة والعمل مع السيد عمري ، وقد التمسوا له عذرا

فقد خسر أموالا كثيرة تلك السنة ، فقد ذهبت مئات الالوف نتيجة المؤامرة .. فرحل الدكتور يوسف حسان للعاصمة برفقة عمري ، وأغرب شيء وجده وهو يبحث عن شقة أو فيلا صغيرة عند سماسرة العقارات ، فقد وجد عند أحدهم فيلا والده ناصح معروضة للبيع منذ سنة ، فتحدث عمري مع مدير المكتب عنها فقال الرجل : رغم أنها فيلا جميلة ولكنها قديمة بعض الشيء ، فهي من أقدم المنازل في ذلك الحي .. ولم يتقدم للسؤال عنها إلا أنتم وصاحبها قد طلب فيها مائة ألف ثم تنازل إلى خمس وسبعين

فقال عمري : قل لمالكها على خمسين فنأخذها اليوم قبل الغد

فقال صاحب المكتب : قد يوافق هي بناء قديم عمرها أكثر من ثلاثين سنة

فقال عمري وهم يغادران المكتب العقاري : سجلها باسمك يا يوسف

فاستغرب الدكتور ذلك الطلب ، فلما غادرا المكتب العقاري ، شرح عمري له الصورة فقال : إنك مستغرب ، فهذه الفيلا لوالدي الذي حدثتك عنه .. وبعدما تشتريها يا يوسف من المالك وهو ابي ناصح سننقل ملكيتها لأمي .. سأتحدث معها الليلة هيا بنا إلى الفندق

بعد أن أكلا ما تيسر لهما في مطعم الفندق ، صعدا إلى الغرفة ، ثم اتصل عمري بوالدته التي وافقت على شرائها بعد أن رأت تشجيع عمري لها بفعل ذلك ، وفي الصباح ذهب الدكتور يوسف حسان مدير مشاريع عمري وصديقه إلى مكتب العقارات ، وكان الرجل قد تحدث مع محامي السيد ناصح الخابي وحدثه بعرض الدكتور يوسف ، فجاء المحامي عوض سامي إلى المكتب ، وبعد أخذ ورد استسلم لبيعها بخمسين ألف دينار بعدما أجرى اتصالا بالسيد ناصح وتمت الصفقة ، وذهبا لدائرة الأراضي وكاتب العدل لإجراء اللازم ، وكان عمري قد أعطى يوسف شيكا بالمبلغ المطلوب ، وكان عمري قد أودع المال المطلوب على حساب يوسف ، وعادت ملكية الفيلا بعد أشهر للسيدة الفاضلة مريم صادق .

المهم أن يوسف وعمريا قد وضعا نواة المشاريع التي ستقام في العاصمة .. مخازن لشراء الحبوب من قمح وذرة ، العمل بتجارة الأقمشة والملابس .. الأدوات المنزلية كالثلاجات والتلفزيونات وغرف النوم والمكاتب .. المعلبات المختلفة الأسماء والأشكال .. فخلال شهور قد بدأت

الانطلاقة في العاصمة ، وكانا يقضيان آخر كل أسبوع الخميس والجمعة في ترتيب محلات وتجارة العاصمة ، وقد تم جلب كثير من الموظفين السابقين للعمل معهم في العاصمة وقد تمكنا من فتح معارض أخرى ومتاجر في بعض المحافظات القريبة من العاصمة ، فخلال سنة مرت استطاع يوسف وعمري والسكرتير أحمد نقل خبراتهم التي اكتسبوها في مدينة الريحانة لأسواق العاصمة المدينة الكبيرة ، وبدأت تظهر أسماؤهما في سماء العاصمة ، فأكثر من خمسين مشروع ظهرت خلال السنة التي انصرمت ، من أهمها المواد الغذائية الحديد الأسمنت تجارة السيارات الجديدة ، وكانت الخطة فصل المشاريع نظريا عن بعضها ، إدارة محاسبة مستقلة لكل مشروع ، وقامت مشاريع مشتركة مع كبار التجار الذين يعرفون عمري محمود ويوسف حسان قبل مجيئهم للعاصمة ، فسنة التأسيس كانت موفقه كما أخبر الدكتور يوسف الأستاذ عمري .. وبدأ التخطيط لإنشاء عمارات وشقق سكنية تقوم بتنفيذها شركاتهم ، والإعداد لمستشفى خاص وعيادات طبية ، وإنشاء مصنع أدوية كالذي في الريحانة، وتم ترخيص عدد من المدارس ودور الأيتام .. هذا النجاح الصاعد كان يضغط على شخص أو شخصين أو ربما أكثر .

كانت أنعام تتحدث مع شقيقتها نوال – ولابد ان قارئنا الفاضل يذكر هذه الاسماء ، فهما بنتا عم صديقنا عمري محمود – فقالت : إيه يا نوال أتسمعين أخبار ابن عمك عمري ؟!.. لقد ظهر وبرز اسمه في مجتمع العاصمة ..فعمي ناصح يكاد يتميز من الغيظ ، وكذلك أبي .. يقول : هذا الصعلوك يتمدد ويتضخم .. كان لا يعرف إدارة مصنع سجاد .. فها هو يترك الريحانة للعاصمة ..

فقالت نوال : كفى يا أنعام ! إنني أنا أيضا أكاد أن أتمزق من الغيظ .. ألا يكفي أن قمرية تمزق افتدتنا بكلامها عن أخيها .. التقيت بها عند عمتي رباب ، ففقدنا عقولنا وتصدعت من كثرة إعجابها بأخيها وزوجته حتى جبر قال : إن العمل بجوار عمري سعادة وبركة الغيظ يكاد أن يقتلني .. أنا سبب كل هذا الخير .. لولاي ما ترك عمري البيت وحصل على كل هذا السعد

لا تتأسفي على ما فاتك .. هذا نصيبه وقدره .. عمري تغير من قبل أن يخطبك .. ما أخبار

زوجك المخمور ؟

فقالت بحزن عميق وتحسر : لم يصح بعد .. ينام على خمر ويستيقظ على خمر .. ملايين أبيه خسرها بالقمار والورق .. آه كم أكرهه وأبغضه ! أحيانا تراودني نفسي بقتله ! .. مرة تركني مع ضيوفه الرجال قائلا : هذه نوال معكم تابعوا سهرتكم إنني متعب أريد أن استريح .. لعين لا يهتم لشرف وعرض .. يغازل أي امرأة تعجبه أمامي لا يستحي مني ولا يراعي شعوري

فقالت أنعام : تستحقين ذلك .. ألم أقل لك يا بنية اصبري اصبري ؟! .. فها هي فتاة ثانوية عامة تملك كل هذه الملايين ، والكل يحلف بحياتها .. من كثرة ما حدثتني قمرية عنها على الهاتف اشتقت إليها ، ولولا غضب والديّ وزعلهما لزرتها في الريحانة ؛ ولكن قمرية كانت تقول أن عمريا بدأ بنقل مشاريعه للعاصمة ، وقد تعود العلاقات القديمة بيننا .. وها هو قد فعل .. أنا مشتاقة لبدرية وحتى لأمرأة عمي السيدة مريم صادق .. فتقول قمرية عن اختها : إنها ملكة بعد زواجها من الطبيب صديق أخيها ..

فهاجت نوال وقالت بحدة : أخوها .. أخوها .. أخوها .. صرعتم أرواحنا فيهم

فتبسمت أنعام وقالت : لا تغضبي .. عمري معجزة يا امرأة ! عرفت من جبر أنه يدير مئات المشاريع .. ماذا أقول لك أيضا ؟ ! يا أختي المحترمة ! إنني لما سمعتهم يتحدثون عنه ظننت أنه عفريت من عفاريت ألف ليلة وليلة .. لديه أعمال وشركات قد يزيد عدد موظفيها عن عشرة آلاف إنسان ، إن لم يكن أكثر ، وقد دعتني قمرية لزيارتها في الريحانة.. ما رأيك أن نفعلها يا نوال ؟ .. نزور السيدة مريم وبدرية ونتعرف على الفتاة التي وراء عمري .. هل تصدقين أن قمرية ناصح تقول أن زينب تحث زوجها على الزواج عليها وهو يرفض .

ـ ماذا قلت ؟!.. أمعقول هناك امرأة ترغب زوجها بأن يتزوج عليها ؟! .. لقد طلبت الطلاق من نادر ألف مرة ليته يطلقني وأتزوج عمريا

ـ أتقبلين ذلك وترضينه ؟ !

ـ والله إنني أقبل ما زال له في القلب لوعة وهوى .. قاتل الله الغضب والطيش

ـ وابنك الوحيد من نادر أفندي ؟

ـ أتركه لأبيه

ـ وتصلين وتصومين يا نوال ؟

فقالت وهي ساهمة الذهن : أصلي وأصوم يا أنعام .. لقد كبرت وقفزت عن الاربعين دخلت في العقد الخامس .. الزمن يقفز بسرعة

فقالت أنعام : إياك أن يسمع أبوك منك هذا الكلام ، فلك أكثر من خمس سنوات تطلبين الطلاق من زوجك ومن أبيك ، وهم يرفضان ، فكيف لو يسمعون مثل هذا التمني ؟! سينفجران في وجهك

فتنهدت بألم دفين وهمست قائلة : هو كلام .. لقد خسرت عمريا ونفسي قبل ذلك .. ورضيت بهذا المخمور الذي لا يصحو من الخمر ..

*****

كان ناجح أيضا يتحدث مع أخيه ناصح في صالة أحد الفنادق الضخمة في العاصمة ، فهما كانا في انتظار ضيف أجنبي ، فقال : أسمعت يا ناصح باشا أخبار ابنك المطرود والمفقود ؟

نظر ناصح الخابي في عيني أخيه وقال : لا تذكرني به يا ناجح .. أنا لما هجرت قمرية الفيلا استغربت ، ولما حدثت رباب بذلك ، قالت ساخرة إنها ذهبت لحضن أخيها .. لم تجد حضنا يتسع لها وللمرأة الشقراء ، فذهبت حيث الأم والأخ والأخت عرفت عندئذ مكان عمري ، فإذا هو سيد المدينة هناك .. الناس يا رجل يدعونه ويرغبونه لترشيح نفسه لمجلس النواب .. أرأيت ؟! .. إنني أبغضه أكرهه أتمنى موته .. إنه عاق حقير

فقال ناجح وهو يتذكر الماضي : والله إنها كانت ساعة مرة علينا عندما نزلنا به ضربا وصفعا هل يغفر لنا ذلك ؟! إنه قد فتح مشاريع كثيرة في المدينة ، واشترى الفيلا القديمة التي بعتها

فقال ناصح باستغراب : ماذا قلت ؟ ! اشترى الفيلا .. أبدا لقد ذكر لي المحامي أنه باعها للدكتور يوسف حسان

فقال الآخر : ألا تعرف من هو يوسف حسان ؟ ..هو يد عمري اليمنى ، مدير المشاريع رجل ذكي وخبير فطن .. ليس هذا فحسب يا ناجح بل أخبرتني رباب التي علمت من ابنتك قمرية

وزوجها جبر أن الفيلا أصبحت باسم زوجتك السابقة مريم صادق

صاح ناصح وقد هاج : ماذا تقول ؟! ماذا تقول ؟! مريم تشتري الفيلا .. لعنها الله .. لعنه الله إنه ولد عاق سأدمره سأحرقه

ـ ماذا تريد منه ؟ هل أخذ منك دينارا واحدا ؟ ترك البيت هاربا فارا .. فدعه

فقال ناصح بحقد قديم : أنت السبب ،.. أنت السبب وابنتك الملعونة لعنها الله .. اسمع إنني أعرف كل شيء عن عمري من قبل أن يغزو المدينة ، لما رحلت قمرية أرسلت رجلين من رجالنا فجاءوني بكل شيء عنه ، فجننت من نجاحه .. فإنني مغلول ومعلول ومقهور منه .. فأرجوك يا أبا صابر أن لا تحدثني عنه ثانية .. أين هذا الرجل ؟ أليس هذا الفندق الذي ذكروا لنا ؟

ـ أجل .. أجل يا ناصح .. اصبر سيأتي .. ما أخبار الزوجة الشقراء ؟

ـ إنها فاتنة .. أنا صريع الشقراوات والحسناوات

فقال ناجح باسما : أنا سمعت أنها طلبت منك خمسة ملايين

غضب ناصح وهو يسمع الغمز وقال : ممن سمعت ؟

ـ سمعت كما يسمع الناس

فقال : لا أحد يعلم ويدري بالموضوع الا أنا وهي

ـ منها هي .. ارتحت يا باشا

ـ أنا لست باشا يا ناجح .. الباشا اليوم عمري محمود !

ناجح في الريحانة

كانت عزيزة زوجة ناجح الخابي عندما تسمع أخبار عمري الخابي لا تصدق ما يقال عنه وعن مشاريعه وغناه والأيدي العاملة عنده ، ولما تسمع رباب تحدثها بذلك وتقسم لها ، تكاد تنفجر من الغيظ والقهر ، فهذا الخير في نظرها كان يجب أن يكون لابنتها نوال ؛ ولكنها تعود فتقول مواسية لنفسها : إنه رجل معقد مريض ؛ ولكن للأسف ها هي صحف العاصمة بدأت تبرز فيها صورة عمري ومدير مشاريعه يوسف حسان ، وأحيانا عندما تجلس مع ابنتيها ينحرف الكلام للحديث عن عمري الفتى الهارب قبل عشرين سنة تنقص قليلا ، فتأخذ أنعام بالحديث عن تقواه وصلاحه رغم كثرة المال الذي بين يديه ، وأنه بدأ من غير أن يأخذ من أرصدة والده شيئا فتمدحه ، وعزيزة ونوال ينهشن لحمه وينتقصنه ، وأنعام تزيدهن غيظا بالثناء عليه ورعايته للأيتام والفقراء وأصحاب الحاجات ، وتختم كلامها وتمنيها بالجلوس معه وسماع صوته ، فهي منذ هجر بيت الأسرة لم تره ولم تتكلم معه ، فتزداد نوال حنقا عليها فقالت بتهكم : دعي قمرية ترتب لك لقاء معه ألست ابنة عمه ورحمه وأرملة ولديك أيتام ؟ .. فبدلا أن يصرف عليك ناجح الخابي فليصرف عليهن راعي الأيتام والفقراء

فقالت أنعام بغيظ واستياء من تهكم اختها : والله يا حبيبتي أبوك أولى بالصرف عليّ ، وأموال زوجي رحمه الله تكفي وإن ذهب أكثرها لوالديه .. وأنا أقبل أموال أبي لأنه هو يصرفها عليّ ، وزوجي كان موظفا عنده ومات أثناء العمل ، وصدقي سوف أحاول وأسعى للوصول إليه وأسمع صوته ليزداد حنقك وغضبك

وقامت بحماس وحمية واتصلت بقمرية ؛ ولكنها لم تجدها في بيتها فقالت لها نوال : مجنونة أنت خذي الإذن من أبيك

ـ وهل زيارة ابن العم تحتاج لإذن من الأب ؟ .. ومتى كان هذا في قانون العائلة ؟

فقالت عزيزة بغضب : لابد من ذلك .. فأنت تعرفين ما بيننا وبين عمري

فقالت أنعام بقوة وتحد : لا شيء بيننا وبين عمري ، هو أوذي من أبيه وعمه ليس منا .. ونحن تألمنا لم حصل ؛ ولكنه كان خيرا كبيرا له ، ولم يخطبني لأثير الناس عليه كما فعل بعض

الناس

فهاجت نوال واشتد غضبها وقالت : ويلك ما أقسى قلبك ! كنت جاهلة صغيرة .. أليس كذلك يا أمي ؟

فقالت عزيزة : دعينا من كلامك يا أنعام .. هل نامت بناتك ؟

قالت : لا ..صعدوا عند خالهم صابر عند أولاد خالهم

فقالت نوال : أما ابني فقد ذهب يلعب مع جدته قالت ذلك باستهزاء وتهكم .

فقالت عزيزة : ضروري يتعرف على جدته حتى إذا حصل طلاقك من هذا المخمور يستطيع العيش مع أم أبيه في المستقبل

فقالت نوال بحيرة : وأعيش بدونه ؟ !

فقالت عزيزة : ألا يكفي بنات أنعام ؟

فقالت أنعام : وما بال بناتي يا أمي .. أيزعجنك ويلعبن فوق رأسك .. اعتبريهن مثل أولاد وبنات صابر

فقالت نوال ساخرة : صابر ذكر يا أنعام ؟

فقالت أنعام ساخرة أيضا : لا فرق بين ذكر وأنثى في بيوت العائلات الكبيرة والمنفتحة على الشرق والغرب

فقالت عزيزة بغضب : أتسخرن مني ؟! انظري إلى نهى ونهال يحضرن لزيارتنا بدون أولادهن خوفا من إزعاجنا ومضايقتنا ، نحن كبرنا لم نعد نطيق شغب الأطفال ؟

فقالت أنعام : أولاد نهى ونهال شباب يا أمي ! نهى لديها ولدان ونهال مثلها ، ثم إن أولاد نهى لا يحبوننا يرون أنهم أبناء أسر عريقة في الغنى والجاه

فقالت عزيزة الغاضبة : ما أطول لسانك !

فقالت نوال : إنها تقول الحق يا أمي .. أهل أزواجهن لا يحبون لهم الاختلاط بنا

فقالت عزيزة : دعوهن في بيوتهن .. كأن والدكن أتى

طلت أنعام من الشباك ثم قالت : أجل سيارة أبي وصابر وراءه .. لقد أتى الديوك

فضحكت عزيزة وعادت تقول : ما أطول لسانك يا ابنة ناجح !

فقالت نوال : أمعهم زوجي الشجاع ؟ !

قالت أنعام ضاحكة ساخرة : لا .. ذهب لمقاتلة السكارى في حانات المدينة ليثبت لهم شجاعته وفروسيته يا امرأة الشجاع نادر

فصاحت نوال : فعلا لسانك يحتاج إلى تقصير .. ففيه طول أكثر من اللازم

فتظاهرت أنعام بالضحك ثم قالت : نكتة قديمة

دخل ناجح وصابر وألقيا تحية الليل ، وقال الأب مداعبا : بماذا يتحدث الناس في بيتنا ؟

فقالت عزيزة : لا شيء .. بس عن لسان أنعام الطويل

وقبل أن يعلق أحد قال صابر : تصبحون على خير

فقالت أمه : مع السلامة يا ولدي ..أرسل بنات أنعام فهن مع أولادك

فقالت أنعام : مالك في بناتي .. ينزلن وحدهن يا أمي

ـ لا نريد أن يزعجن صابرا

ـ قلنا يا أمي لا فرق بين الذكر والأنثى أتتضايق منهن يا أخي العزيز ؟

فقال صابر وهو ينصرف : أبدا يا أنعام .. إنهن بنات أختي وصديقنا ماهر

فقالت نوال بمكر : ولكن فريدة لا تحب معاشرتهن لأولادك

فقالت عزيزة بحدة : دعينا من فريدة المرأة حرة فيما تفعل .. اذهب يا ولدي .. اذهب ..

صعد صابر للطابق الثاني حيث شقته .. وعادت عزيزة تسأل ناجحا قائلة : ما أخبار أخيك العزيز ؟

فقال ضاحكا : إنه مغلول ومقهور من ابنه عمري

فتظاهرت أنعام بالجهل وقالت: ولماذا هو مقهور ومغلول من ولده ؟ !

فقال ناجح باختصار مفيد : من نجاح ولده .. لا يحب له النجاح

فردت أنعام : عليه أن يفرح يا أبي .. هذا شيء يفرح القلب

فقالت عزيزة بضجر وامتعاض : عدنا لسيرة عمري ابن مريم .. هو لا يوجد في الدنيا إلا

عمري يا ناجح ؟

فقالت نوال بخبث مرة أخرى : أبي ! .. أنعام العاقلة تفكر بزيارة السيد عمري .. تريد أن تسلم على ابن عمها نصير الفقراء والأيتام والأرامل

تنهد ناجح من أعماق قلبه ثم قال وهو يهز رأسه : يا ابنتي ! عمري ولد مبارك ، لديه مشاريع يحتار المرء بكيف يدير هذا الرجل تلك المشاريع ؟! .. مدارس .. أيتام .. استيراد .. بيع .. تصدير .. بناء .. سيارات .. أنا ذهبت اليوم بنفسي لمكتبه هنا في العاصمة لأصالحه وأرمم ما بينه وبين أبيه بعد كل هذه السنين من البعد والجفاء .. فلم أجده .. عمري منا ونحن منه .. والحقيقة أن لديه رجالا مخلصين ، وفهمت منهم أن شعار عمري .. لا كنز للمال .. المال يجلب المال مشاريع مربحة مقابلها مشاريع اجتماعية تكافلية .. المال يشتغل أناس تعمل وتكسب وتنفق

فقالت أنعام بحماس : ما رأيك يا أبي بأن نزورهم في الريحانة ؟ .. نزوره في البيت ، ونرى امرأة عمي والبنات ، قد يكون لزيارتنا في بيتهم وقع في نفوسهم وأثر في الصلح الذي تسعى إليه

ـ فكرة طيبة !

فقالت أنعام بنفس الحماس والاندفاع : غدا نذهب .. نأخذ البنات معنا يا أبي .. سأتحدث الليلة مع قمرية لنعرف عنوان امرأة عمي مريم .. أتذهبين معنا يا أمي ؟

فردت بجفاء : لا .. أنا ونوال سنبقى هنا ، لما تتصالحوا مع عمري نتصالح معه .. أليس كذلك يا نوال ؟

فعلا ذهب ناجح لزيارة عمري في مكتبه في شارع قطز ، وجلس مع الموظفين وأخبرهم أنه عمه ، فرحبوا به وأحسنوا استقباله ودردش معهم ، وكان ناجح يفكر بجمع الولد مع أبيه بعد كل هذه السنوات ، وهو يتصرف بدون علم أخيه ناصح ، لذلك لما أصبح الصباح ولبست أنعام ثيابها هي وبناتها انطلقوا ، وأنعام منذ ترملت تركت التبرج السافر ، وبدأت تلبس ثياباً فيها بعض الحشمة ، وأحيانا تغطي رأسها بمنديل رقيق وتحاول المحافظة على الصلاة ، انطلق ناجح بحماسة نحو الريحانة، وهي مدينة معروفة له وتردد عليها كثيرا أيام الصبا ، وحتى أيام

الشيخوخة ، وبعد ساعات ثلاث دخل المدينة وسأل عن الطريق المؤدية للضاحية الجديدة ضاحية الصالح ، ومشى نحوها حتى أوقف السيارة أمام فيلا السيد عمري محمود ، فقال ناجح وهو يطفيء محرك السيارة : ابن عمك لا يذكر اسم الخابي على أوراق مشاريعه وشركاته ومتاجره .. هيا انزلوا

هبطوا من السيارة وضغطوا الجرس الكهربائي ، فسمعوا صوت الشغالة أم مالك ، فتحدث معها ناجح ، ففتحت الباب بضغطة زر ، فدخل ناجح وابنته وبناتها مدخل الفيلا فاستقبلتهم أم مالك ، وأدخلتهم لقاعة استقبال جميلة وقدمت لهم العصير البارد وهي تقول : إن والدة سيدي آتية بعد قليل

وبعد قليل ظهرت مريم من إحدى الأبواب ، وكان بين يديها عكاز، ولما رأت ناجحا هتفت : السلام عليكم .. أهلا بالسيد ناجح

فنهضوا يرحبون بها وأراد أن يصافحها مادا يده ، فقالت معتذرة : آسف يا سيد ناجح

فقال : عفوا يا سيدتي ! .. إيه لقد تغيرت يا مريم أم تخفين الشيب ؟

صافحت أنعام امرأة عمها سابقا وعانقتها وقبلت يدها ، وأظهرت ودها وحبها لامرأة عمها ورأت الهيبة والوقار والتورع في وجهها ، وفعلت الصغيرات كما فعلت أمهن ، فمسحت مريم على رووسهن برفق وحنان ورحبت بهم ، ونادت أم مالك وقالت : اذهبي بهن ليلعبن مع أولاد عمري في غرفة الألعاب ، وأطعميهن من الفاكهة .. فالمشوار طويل

ولما انصرفن تابعت مريم قائلة : أنا حزين لك يا أنعام .. العمر الطويل لك ولبناتك

فقالت أنعام وقد عادت للجلوس : أشكرك يا أم عمري .. أين زينب ؟

ـ ستأتي بعد قليل لتسلم على عم زوجها .. أهلا بكم

فقال ناجح وهو يتأمل مريم : والله تغيرت يا مريم .. إنني أتذكر الصور القديمة وصورتك الآن .. والله عمري ولد مبارك يا مريم ..

ـ الحمد لله .. الشكر لله .. كان ضربكم لولدي خيراً كبيراً لنا ..

وتحدثا وتذكرا وأكلا الفاكهة ، ثم أتت زينب التي كانت ترتب أمر الغداء مع زوجها القادم ،

وحيت الرجل بأدب وحياء وعانقت انعام بعاطفة وحب ، ثم سألت ناجحا عن صحته وأهله وسألته عن عمها ناصح، فتطلع إلى مريم فقالت : رد عليها يا ناجح .. أنا رأيت ناصحا بعد طلاقي ، عند زواج بدرية تقابلنا .. وهو والدها ، والمؤمن لا يبغض إلا أعداء الدين والعصاة المصرين

فعاد ناجح يتحدث عن إعجابه بهم وبإيمانهم ، فقالت مريم : أنت قد دخلت السبعين ماذا تنتظر ؟ .. لماذا لا تدرك نفسك ؟ فقال : يا ليت هذا يحدث يا مريم !

فقالت : باب التوبة مفتوح .. وما يمنعك ؟

فقالت أنعام : والله يا أبي عليك أن تسمع كلام الحاجة أم عمري

وأخذت مريم تتحدث مع السيد ناجح وزينب مع أنعام التي قالت لها: أحببتك يا أنعام مذ رأيتك .. لما أخبرتنا قمرية بمجيئكم سررنا وملأ الفرح قلوبنا .. وقلنا هذه خطوة لمصالحة عمي مع عمري .. مالك تنظرين إلى عمتي ؟ عمتي تدعو ليل نهار ليتحقق ذلك .. فعمي ناصح والد عمري بغض النظر عما جرى بين الأم وزوجها .

قالت أنعام بإعجاب : أنت رائعة يا زينب .. أنت شجاعة !

قالت زينب : أرجوك يا أنعام ! أنا لا أحب سماع مثل هذا الكلام ..

دخلت قمرية فصافحت عمها وعانقت أنعام بحرارة وشوق ، وعلق ناجح : والله يا مريم لملمت الأولاد حولك .فقالت : ذكرتني يا ناجح .. سمري ما أخباره ؟

فقال باقتضاب : لا أخبار .. أتى قديما وقضى كم شهرا بيننا ، ثم انصرف إلى هناك .. فلم نستفد من دراسته وشهادته شيئا .. وأسمع أحيانا أنه يتصل بوالده أثناء احتفال الناس بأعياد الميلاد

دعت مريم لولدها بالتوبة والهداية وتساقطت بعض دمعات من عينيها على ضياع ولدها سمري ، وبعدما تحدثت قمرية مع عمها قليلا اندمجت الفتيات بالحديث ، وعاد ناجح ومريم يتحدثون عن الماضي ، وكانت قمرية تخاطب أنعام فتقول بسرور واعجاب : هذه زينب التي كنت أحدثكم عنها عند عمتي رباب .. إنها قمر ونور لنا وبركة .. أهلا بأنعام .. أين البنات ؟

ـ مع أولاد زينب

توبة ناجح

وجد ناجح حفاوة كبيرة من أبن أخيه ، حفاوة لم يكن يتوقعها ، وكان يعتقد أن عمريا ما زال يحمل له أحقاد تلك الليلة المشؤومة كما يقول ، ولمس أخلاق ابن أخيه وحلاوة لسانه وصدق لهجته ، وهنأه على مشاريعه ونجاحه المشهود ، وتناول العم ناجح مع أسرة ابن أخيه وأختيه قمرية وزوجها جبر وبدرية وزوجها الطبيب فائز لطفي وأولادهم الغداء، مما أفرح قلبه وعرف معنى السعادة في الاجتماع والإيمان ، ولما اقترب موعد العودة أبى عمري وأصر وصمم على مبيت الجميع معهم في الفيلا ، وبعد تمنع رضخ ناجح للأمر ، وخلال السهرة كان ناجح يحدث عمريا عن الصلح مع أبيه ، فقال عمري بدون تشنج : أنا مستعد لذلك يا عمي إذا لم تمح كل هذه السنوات تلك الصفعات والإهانات ..فالإيمان الذي نحمله في قلوبنا يدعونا إلى ذلك .. أنت رتب ذلك وأنا جاهز .. وأنا في الغالب أقضي الخميس والجمعة عندكم في العاصمة .. حتى أمي مستعدة لئن تكون علاقتها بأبي علاقة إنسانية طبيعية.. فالطلاق لا يعني الحقد والغل فالطلاق عندنا في الاسلام حل لمشكلة ولبقاء الإيمان .. فهل إذا طلق الرجل ابنة عمه يهجرها ولا يصلها .. لكل شيء حدود ونظام متناسق وواضح ، فالقريب يبقى قريبا ، والرحم تبقى رحما رغم المشاكل والمشاجرات .. قديما يا عم كانت المطلقة تتزوج مرة واثنتين وأكثر من غير أي إحراج ونظرة قاسية نحوها من قبل المجتمع ، فالرسول الحبيب ﷺ تزوج مطلقات ومارس الطلاق ، فهذا الصحابي زيد بن حارثة [٣] ﷺ كان كثير الطلاق وكثير الزواج ، والأرملة كذلك هذه القضايا كانت سهلة الحل .. وأنا عرضت على أمي الزواج منذ أتت إلى هنا ؛ ولكنها قالت بكل صراحة لم يعد بي رغبة للرجال

فقال ناجح : أنت فعلت ذلك ؟!

من حقها يا عمي أن يكون لها زوج إذا رغبت ، فكما عند الرجل شهوة فعند النساء شهوة

---

[٣] – "كان النبي (ﷺ) قد زوجه مولاته أم ايمن فولدت له أسامة ولما تبناه زوجه زينب بنت جحش فلما طلقها للقصة المشهورة زوجه أم كلثوم بنت عقبة فولدت له زيد ورقية ثم طلقها وتزوج درة بنت ابي لهب ثم طلقها وتزوج هند بنت العوام أخت الزبير .. الإصابة ١ / ٥٦٤ "

فكما من حق الأرمل أن يتزوج فمن حق الأرملة أو المطلقة أن تتزوج ؛ ولكن هناك نساء يصبرن عن الزوج ، وهناك رجال يصبرون عن الزوجة ، حسب قدرات وطاقات الإنسان

كان ناجح يسمع هذا الكلام وهو مبهور من ابن أخيه ، فلم يكن عمري كذلك قديما ، كان لا يسمح لنفسه بالحديث معه أو مع أخيه ناصح عشر دقائق على بعض ، ولما سمع كلام ابن أخيه عن الأرامل والمطلقات تذكر ابنته التي كانت تجلس مع البنات داخل الفيلا يتحدثن فتشجع ، وقال : يا ابن أخي كما ترى أنا رجل كبير وابنة عمك أنعام منذ سنوات وهي أرملة ، فكلامك هذا شجعني لئن أقول أمامك بكل صراحة أن تحاول إقناعها بالزواج من رجل من أصحابك ومعارفك الطيبـين

فوعده عمري خيرا ، وأخذ يعيد الحديث عن التوبة والصلاة ، فقال ناجح لما سمع تشجيع عمري له مرة أخرى على التوبة : والله لما رأيت أمك يا بني أصابني ذهول .. لقد غيرت في عائلة الخابي .. عندما تتصالح مع أبيك بمشيئة الله سترى مني ما يسرك ، وسأقوم ببناء مسجد كبير من حر مالي

فقال عمري : سأصبر على ذلك يا عمي رغم أن الموت لا ينتظر .. فنيتك بالتوبة مهمة يا عم

ـ كنت آتيا وكلي خوف وقلق من مقابلتك

ـ لأ ، يا عم .. أنت تظل عمي .. وسأزوركم قريبا إن شاء الله .. فلقد تملكت أمي فيلا أبي زوجها السابق ، ونحن نفكر بهدمها وبناء فيلا جديدة مكانها والسكن فيها أيام نزولنا للمدينة فقد بدأت مشاريعنا في العاصمة تكبر وتمتد حتى للمحافظات الأخرى ، وكثير من الإنشاءات أخذت تنتهي .. وابني محمود سيلتحق قريبا بالجامعة وهو راغب بدراسة الطب في جامعة ابن النفيس فربما نسكن فيها حينا من الزمن

ـ يا ألف مرحبا .. من المهم أن لا تنسى يا أبا محمود أختك أنعام ، فهي منذ فارقتنا وتكن لك المحبة والتقدير ، وكم نصحت أختها المنحوسة بالصبر والرضا بالمقدر .. فهي تسمع كلامك ، فرغبها بالزواج مرة أخرى ؛ وليكن رجلا صالحا من جماعتك وأصحابك

حاول عمري عند الصباح الضغط على عمه لقضاء عدة أيام في ضيافته ، فأبى ناحج وأثنى على

ابن أخيه كثيرا وقال : والله يا عمري ! لقد غيرت من نظري نحو هؤلاء المشايخ وأصحاب اللحى .. فالذي يعرف عمريا وأم عمري يصاب بالدهشة ويقول سبحان الله ! لله في خلقه شئون لقد أضعنا عمرنا في الهواء والهوى .. الحق على والدينا .

فقال عمري مقاطعا لتأوهات عمه : أدرك نفسك يا عم ! التائب من الذنب كم لا ذنب له التوبة تجب ما قبلها

ـ إنني مقتنع بما تفوهت به يا ولدي ! ..سترى مني ما يسر قلبك .. أين أمك الحاجة ؟ نريد العودة قبل اشتداد الحرارة

ـ أتحب أن أبعث معك سائقا ؟

ـ لا داعي يا ابن أخي ، ما زال بي قوة لقيادة المركبة

وأتت مريم وزينب والأولاد فسلموا على عم أبيهم ، وحيوا بنات أنعام ، وأظهرت أنعام شكرها الكبير للسيد عمري وأمه ، ودعت لهم بطول العمر والصحة ، فشكرها عمري وقال مودعا : أنت رحمي يا أنعام .. وبناتك بناتنا .. ونحن لدينا مشاريع في العاصمة لرعاية اليتامى ومدارس أهلية .. وأنا أحب الأيتام وأعطف عليهم لقول النبي (ﷺ) أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بالسبابة والإبهام .. أنا أعرف ومتأكد أن عمي غير مقصر في رعايتهم .. وأنا لك أخ كصابر ..

فقالت : أنت عزيز يا عمري ورجل فاضل وشهم .. وزوجتك امرأة فاضلة أو كما تقول أختنا بدرية عنها أحلى امرأة في العالم

كانت زينب تخجل من كثرة كلام الإطراء لشخصها وأفعالها ، فهي طيبة بالسجية ، فأحنت رأسها بالشكر ، ولما ركب ناجح في السيارة وصعدت البنات في المقعد الخلفي ، وجلست أنعام بجوار أبيها بعدما عانقت أم عمري والنساء ، قالت مريم : يا أبا صابر .. حنن قلب ناصح على ولده واسعً بالصلح بينهما .. فعمري لا تكتمل سعادته في هذه الدنيا الا بالصلح مع ابيه وعودة المياه لمجاريها .. لا تقصر في هذا المسعى الطيب

فقال : هذا أمر يا أم عمري .. إني سعيد بهذه الزيارة .. سنلتقي قريبا . شكرا لكرمكم

وضيافتكم وحبكم الغامر لنا

وانطلق بالسيارة وهو منشرح الصدر ويقول لأنعام : إيه يا أنعام ! .. أرايت العز الذي فيه القوم

فقالت : نحن عندنا أموال مثلهم يا أبي

فتبسم وقال : لا أقصد ذلك .. نحن ولدنا ونحن نأكل بمعالق الذهب ونشرب بأكواب الفضة العز الأمان .. الحب .. الصفاء .. الكل يحب الكل .. أنا مريم أعرفها منذ خمسين سنة ، عندما دخلت الأسرة كانت ماكرة ماجنة ساحرة ، أما الآن فنور الهداية يشع من بريق عينيها ، لقد غيرها نور الإيمان .. وعمري أنت تعرفينه وتعرفين أخباره هنا وأثناء وجوده في لندن وأوروبا وبعد عودته .. أما الآن فهو ملك وملاك ، ولا يظهر عليه ذلك ، أقول له يا ابن أخي هذه المشاريع كل هذه المشاريع كيف تتابعها وتراقبها وتديرها ؟؟ فضحك وقال تريد أن تحول اللقاء لدروس في الاقتصاد والتجارة الأمر هين .. القاعدة الأولى عندي عدم كنز المال ، طرحه في السوق ، فالمال إذا تحرك أنتج قد يكبو أو يخسر لكنه ينهض ثانية .. فالمال يزيد والناس تعمل وأما مراقبة المشاريع .. يكون باختيار كوادر وعناصر العمل الصالحة .. فإذا كان عندهم ضعف في الإيمان ـ لئن الناس تتفاوت في ذلك ـ تشحذ وتقوى ونحفز القوي .. وإذا وجدنا الضعيف لا يتقدم نغير موضعه .. والمراقبة تتم عن تقارير النفقات والمصروفات والإيرادات .. مقارنة الموازنة مع السنوات السابقة، ثم مقارنة الموازنة مع مشروع مشابه مع مراعاة الظروف والأحوال لكل مشروع ، ويكون ذلك بأيدي خبراء وثقات فبذلك نستطيع معرفة جدوى المشروع أو الشركة .. هذا ببساطة كلام دقيق ورائع منه يا أنعام وقال أيضا أما وضع الجواسيس وفصل التعاون بين الإدارة والعمال بقصد إثارة القلق والرعب بين الأطراف فهذا أسلوب أراه ضعيفا .. فالإنتاج يتبع راحة العمال وقناعاتهم التامة بالعمل وتوفير أسباب التمكين والراحة لهم وحل مشاكلهم ومراعاة أحوالهم النفسية ، ووجود محسنات العمل ومكملاته عوامل مساعدة .. فالعامل مهما كان عندما يجد من يساعده إذا مرض ويصبر عليه إذا استلف فسوف يشعر بالمسؤولية وتجده محبا للورشة ومكان العمل ، وأن يقصد الإنسان بذلك وجه الله سبحانه وأن يكون الإحسان في المشروع .. أكيد سيتحقق النجاح ولا ينظر للخسارة على أنها كارثة

ومصيبة .. بل عليه أن يراجع ما بينه وبين الله من صلات ودعاء ، وما بينه وبين العباد من عدل وظلم ودعاء مظلوم ..وترك الحرص والطمع وحب زيادة المال من غير فائدة ، فقط للزيادة وزيادة رصيد الحساب فحسب ..

قالت أنعام : كل هذا حفظته منه يا أبي ؟ !

ـ ألم أقل لك عمري عجيب ؟! .. بهذه الأفكار والخطوات تمشي المشاريع .. عنده فريق عمل مهمته دراسة المشاريع ورعاية مشاكلها ، وهناك مستشفى تابع لشركاته ، وهو يبني آخر في العاصمة ، فهو يوفر العلاج بشكل رمزي للفقراء وعمال الشركات والمحلات والمدارس فهو يملك مجموعة من المدارس الخاصة كل من أحب الدراسة فيها من أبناء العاملين معهم له تسهيلات خاصة ، وهناك دور الأيتام لمن يموت من العمال فتقوم الدور على رعاية أسرته إذا رغبوا بذلك .. مشاريع إنتاج مقابلها مشاريع خيرية إنسانية ، بل عندهم مشاريع ترفيهية نوادي تعليمية ورياضية متواضعة وحدائق ترفيهية للأطفال وفيها الحيوانات الممتعة .. عجيب هذا الولد عجيب .. لا أكاد أصدق .. لقد جاءنا من بريطانيا مسطولا .. ولكنه ذكي منذ صغره

فقالت أنعام بإعجاب : صدق يا أبي .. تـقول امرأة عمي وزينب أن لديه رجالا يحبونه حبا كثيرا .. بالحب والتفاهم الكبير بينهم والأخلاق الإسلامية تدار كل هذه المشاريع

فعاد ناجح يسأل بعد أن أكد كلام أنعام قائلا : كيف رأيت زينب يا بنيتي ؟

فقالت باسمة : ماذا أقول عن زينب ؟ ! .. كلام لا يصدق .. عندما كنت أسمع عنها يا أبي كنت أظن أن الناس يكذبون أو لأن مصالحهم مع زوجها .. لكن في يوم وليلة تبين لي أنها مظلومة معهم .. أتصدق يا أبي أنها لا تتدخل في مشاريع زوجها ؟ !

فضحك أبوها وهو يقول : عمري نفسه لا يتدخل في مشاريعه

ـ معك حق .. المهم أن مهمتها العظمى رعاية زوجها وأم زوجها وأولادها ، وأنها تحب عمريا حبا لم ألمسه في امرأة أعرفها .. وأتذكر أمي وامرأة عمي قديما عندما كن يحببن أن يدسسن أنوفهن بكل شيء ..

فضحك أبوها مرة أخرى وقال : صح كلامك .. المشكلة كن يحببن حشر أنوفهن في كل شيء ولا يفعلن شيئا .. إنما للحديث أمام نساء المجتمع بأسرارنا ومشاريعنا وأحلامنا .. آ .. أكملي يا أنعام

ـ زينب أدب راق !.. ثقافة رائعة .. تحدثك عن الدين والإسلام بكلام حسن ميسور واضح تلمس فيه الحكمة والموعظة ، تدهش للمعاني التي تراها من قصصها وحكاياتها .. أولادها كلهم أدب وتفاؤل .. وأعجب شيء علمته عنهم أن حماتها تقول إن زينب تعرض على زوجها الزواج من امرأة أخرى كصاحبه الدكتور يوسف حسان .. فهذا الرجل متزوج من ثلاث نساء ويعشن في عمارة واحدة وحدثتني الحاجة مريم عنهن كلاما جميلا وهو عجيب.. وتقول الأخت زينب أهم شيء يجب أن يكون في حياة الناس الحب .. لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. هذا كلام النبي (ﷺ) إنهم يحيون بالحب ، ليس كحبنا يا أبي .. فالحب عندهم غير الحب عندنا ، فلما سمعت كلام أم عمري قلت لزينب أمعقول هذا ؟ ! فهزت رأسها بالإيجاب وقالت هذا أمر عادي في عائلتها ، أبوها متزوج مرتين ، وكذلك اخوتها ، ولهم أخ عنده امرأة واحدة فهم يعيرونه ويعيبون عليه ذلك فلما سألتها لماذا ؟ قالت : إنهم يرون أن المرأة إذا كان لها شريك بزوجها .. تفكر مليون مرة قبل أن تزعله منها .. فهناك البديلة فتحفظ نفسها وتحفظ زوجها وتكسب الجنة .. لأن الرجل الزوج مفتاح دخول المرأة الجنة ، وذكرت لي جملة من أحاديث النبي (ﷺ) في حق الرجل على المرأة ، وختمت كلامها بأن التعدد لصالح الأمة وأباحه الله ، وهو هدي النبي وخلفائه الأربعة ، ولولا أن فيه خيرا للأمة المجاهدة المحسودة من أعدائها ومن كفار الدنيا ما شرعه الله ﷻ .. وكنت أحاول الدفاع عما كنت أسمعه من أمي وأم عمري فتضحك وتقول المسلمون يعددون بشرع الله ، والكفار يعددون بالزنا والشذوذ ومما هو منتشر في بلادهم حقيقة كلامها منطقي إذا لم يغلب الهوى والتعصب ، بل أردفت خاتمة الكلام أمام امرأة عمي والله أنت يا أنعام امرأة جميلة وابنة عم عمري ! .. وقد يكون اقترانه بك من مصلحة العائلة غير المصلحة الشرعية . فقلت وكلي استغراب أترضين بذلك ؟ فقالت بدون تردد : أرضى ولم لا أرضى .. كلام لا يصدق عندنا أليس كذلك يا أبي ؟

ـ بلى ولكن هؤلاء الشيوخ لهم أفعال وتصاريف مدهشة ومحيرة .. ولو فعلها عمري أتقبلين به وتكونين زوجة ثانية مع ضرة يا أنعام ؟!

فقالت : بصراحة قد لا أقبل الآن يا أبي ! ولكن عمريا لا يريد ، ورأي البنات مهم .. وعند الجد لا ندري ما يكون موقف أمي مريم وأمي عزيزة وأنت وأختي نوال وزينب نفسها

ـ أنا أرى أن أهم موافقة بعدك طبعا موافقة الحاجة مريم .. أنا بصراحة جرى بيني وبين عمري كلام بهذا الموضوع .. عن زواجك مرة أخرى ولكني لم أشر إليه .. بل أشرت لصاحب وصديق عزيز عليه .. مطلق أو أرمل .. أنت لست صغيرة يا ابنتي .. ولم يبق من العمر قدر ما ذهب والأموال لن تغنيك عن الزواج وابن الحلال .. تكلمي مالك ساكتة ؟

فقالت : ماذا أقول يا أبي ؟ نحن قدمنا لنتصالح أم نتزوج ؟ !

ـ الكلام جر بعضه بعضا يا أم سهام ، وهؤلاء الناس لا حرج معهم ولا تكلف يتكلمون ببساطة وحرية وحسن نية

فهتفت أنعام بفرح : صدقت يا أبي .. العفوية في تعاملهم ، لا يحبون تعقيد المسائل والكلام والأحاجي

وقضى الرجل الشيخ الطريق إلى العاصمة وهو يتحدث عن عمري ومريم والأسرة ، ولما اقتربوا من المدينة قال : قد يغضب ناصح من هذا اللقاء .. فهو حاقد على ولده حقدا كبيرا ولكن كان لابد من هذه الخطوة يا أنعام

قالت : إنها خطوة شجاعة ومباركة بمشيئة الله

ـ لا تتحدثي عن الزواج أمام اخوتك حتى يتم الصلح الأكبر بين الابن وأبيه .. أيقظي البنات .. كأنهن لم ينمن الليلة

غضب الاب

قد علم السيد ناصح الخابي بزيارة أخيه ناجح للريحانة لمقابلة ابنه عمري ، عرف ذلك من عزيزة ، اتصل بها يسأل عن أخيه ، فذكرت له أمر الزيارة ، وناجح لم يطلب منها إخفاء جهة الرحلة ، فاجتاحته موجة غضب وهيجان على ولده وأخيه ، وأمرها أن تتصل به عندما يعود ودخل الليل ولم يعد ناجح كما يعلم القراء ، وقد كرر الاتصال في بيت أخيه عدة مرات ، ثم أخبرته عزيزة أن أخاه اتصل وأعلمهم بأنه سيقضي الليل عند السيد عمري ، فاستشاط غضبا وقهرا على ولده وأخيه، وأخذ يسب ويشتم مما لفت انتباه الأرملة الشقراء ، فسألته عن الأمر فاختصره لها فقالت : ولماذا أنت هائج كالثور وغاضب كالشيطان الرجيم ؟!

فصاح بغضب : كيف لا أغضب ؟ ابني يهجرني منذ عشرين سنة ، ويتخلى عني بسببه وسبب ابنته ثم يسير إليه على حسابي ، وقد حذرته من التدخل في هذا الموضوع ؟

فقالت وفي نبرة صوتها تهكم : عشرون سنة ! أعتقد أنها كافية لإصلاح ما بينكما ، فناجح راغب بإصلاح ما بينكم ، وها هو اتخذ الخطوة العملية الأولى .. وعمري كما علمت قد نـقل مشاريعه للعاصمة .. فالصلح مطلوب يا ناصح هذه الأيام لن أصالحه .. إنني أبغضه .. لن اصالحه أبدا

فقالت : أنت تبغض نجاحه بدونك ، بدون أموالك .. فعمري اسم يتردد في المدينة منذ أشهر وبدون أن يكون للسيد ناصح الخابي يد في ذلك .. بل لا يعرف كثير من الناس أنه من آل الخابي عزيزي ناصح أنت رجل كبير ، لا تدع الحمق والجهل يتغلبان عليك ، فابنك الآن رجل كبير قد اقترب من الخمسين عاما ليس طفلا ..

ـ لماذا تدافعين عنه وأنت لم تريه ولم تعرفيه ؟ !

فقالت : أنا رأيته منذ شهر .. هو لم يعرفني بل قد يكون لم يرني .. كانت هناك حفلة خيرية في مدارس رزق الله حمالصي ، ودعي لها رجال أعمال معروفين بمشاريع الخير والبر والإحسان فكان من ضمنهم ولدك عمري ، وتخلل الحفل خطابات قصيرة لإثارة الحاضرين بالتبرع ، فتكلم رجل بضع جمل ترحيبية ، ثم أشار للسيد عمري ابن الريحانة الذي صعد للمنصة ،

وتكلم بضع كلمات ونزل ، ثم علمت أنه تبرع للمشروع الذي أقيمت الحفلة من أجله بخمسين ألف دينار من ماله الخاص ..

فصاح ناصح مستهجنا هذا التبرع الكبير : أرأيت إنه ولد خائب ؟! .. ألا يكفي ألف دينار أو بضع مئات ؟.. إنهم متسولون بأدب وحيل ناعمة؟

فعادت تقول : المهم رأيت عمريا .. الذي أسمع عنه منذ زمن بعيد .. وقلت صراحة خسارة أن يكون هذا الرجل ابنك

فصاح بها : لماذا يا عاقة يا ناكرة الجميل ؟ !

قالت ساخرة : لماذا ؟ .. أنت قبل قليل أجبت على لماذا ؟ .. إنك تعبد المال أو قل الأرصدة فقط ؛ لأن المال في البنوك هنا وهناك ، ولسوف تموت ولن تراه .. أرقام في دفاتر .. أما أنت فتتبرع بمائة دينار أو بخمسمائة ، أليس بينكم فرق ؟! .. اسمع يا ناصح إذا أتاك أخوك يصلحك مع ولدك فلا تتردد ولا تكابر هذه نصيحتي إليك وأنت حر

ـ إنه ابن عاق ومجرم ونسيته منذ عشرين سنة

ـ هذا شأنك وشأنه .. تصبح على خير ..

تركته حائرا منهارا غاضبا عليها وعلى ولده ؛ ولكنها لا تخشاه ، فهو كالخاتم في يدها لا يستطيع أن يمنعها من فعل شيء ـ مهما كان هذا الشيء ـ منذ تزوجها مدعيا حبه وولهه بها ، وهي أيضا تعامله باحتقار وإذلال ، ولقد نـقل إلى رصيدها أكثر من خمسة ملايين بدون أي كلام أو اعتراض ، وهي التي تسمح له بلقاء فلان أو فلان ، وإذا تمرد تهجره بالشهر والشهرين فيعود إليها باكيا ذليلا مدعيا إنه محب ولهان عاشق ، ومع كل ذلك وتلك السيطرة كانت الأرملة الشقراء لا تحرجه مع موظفيه والذين يعملون معه ، فقط تظهر سيطرتها عليه أمام أصدقائه وزوجاتهم ، ورضي بالذل والخضوع ، فكان يخشى من عودة ولده ، ويعرف بهذا الذل والعار ، فتصير المشاكل ، وقد يرغمه على طلاق هذه المرأة التي أذلت أمه ودفعته لطلاقها وذلها ، فهو خائف من لقاء ولده رغم ما كان فيه من القسوة والتعصب والحقد ، فلذلك لما اتصل به ناجح وأخبره بعودته قال : لا تخرج من البيت إنني قادم

وترك مكتبه وأسرع مسرعا إلى فيلا أخيه ، ولما التقيا أخذ يسب عليه ويشتمه ويعاتبه ، وناجح صامت ومتوقع لهذه الثورة والهياج من أخيه الأكبر ، فلما خفت صوت ناصح وأفرغ ما في جعبته من سب ولعن، خاطبه ناجح بهدوء : ماذا تريد ؟! أنا ذهبت لرؤية ابن أخي الذي أهنته في يوم من الأيام وضربته ، فذهبت إليه معتذرا نادما .. فأنا في أيامي الأخيرة

أخذ ناصح يضحك ويضحك ضحكا عاليا وقال ساخرا : نادم يا ناجح أنت تعرف الندم ؟

ـ ألست إنسانا ؟ .. ألا يندم الإنسان ؟!.. اعتذرت له وقبل اعتذاري وقبل رأسي ويدي وانتهى ما بيننا .. والولد راغب بالاعتذار إليك رغم ما فعلته به ؟

فصاح ناصح بغضب : لست راغبا باعتذاره وندمه ، فات الوقت .. أي اعتذار ينفع بعد عشرين سنة يا مجنون ! .. هو استغنى عنا فيجب أن نستغني عنه .. إنه ليس ابني .. إنه ابن مريم الشيخة مريم

وخرج ساخطا ناقما حاقدا ، فلم يكترث ناجح لذلك الغضب والخروج ، بل دخل حجرة النوم لينام من تعب الطريق الطويلة .

*****

دخلت عزيزة وراء ناجح الغرفة بعد أن انصرف ناصح غاضبا ساخطا ، فقالت باستغراب لموقف ناجح مع أخيه : أغضبته يا رجل ؟ ! .. أنت تعرف غضب أخيك

فقال بغير اكتراث وشجاعة لم تعهدها فيه من قبل : لا تقلقي بعد اليوم .. لقد كان لقائي بابن أخي أعظم لقاء في حياتي .. لقد وعدته بالتوبة والصلاة ، فمن يرافق عمرياً لا يخشى إلا الله .. كفى طول أمل .. رائع للغاية ابن أخي ! لقد قلب حياتي رأسا على عقب في ليلة واحدة عرفت منه لماذا خلق الله المال ؟ ! .. الحلال طيب يا عزيزة .. اذهبي اغتسلي وتوبي إلى الله .. اذهبي لإنعام لتعلمك الصلاة والتوبة

فقالت عزيزة باستغراب : مالكم ؟ ! أذهبتم إلى ساحر ؟ ! .. فأنت مذهول بابن أخيك ! وأنعام مفتونة بزوجة ابن أخيك وحماتها ! .. وها أنت لا تسأل عن غضب ناصح بل تتركه ينصرف غاضبا ولم تلحق به معتذرا متاسفا ؟ !

فقال وهو يهز رأسه وقد أدرك أن هذه أول مرة لم يبال ببرودة فعل أخيه: يا عزيزة ! لم يبق من العمر بقية ، ولو لم أفعل ما أردت قبل أخذ الإذن من ناصح ، فلن يقبل ، ولم أذهب ، وقد أخسر نفسي وإنقاذ روحي من النار .. اذهبي يا امرأة وافعلي ما طلبته منك لم نعد صغارا يا عزيزة

فقالت عزيزة وهي تغادر الحجرة : ماذا جرى لهؤلاء الناس ؟! .. ناجح يريد أن يصلي .. الله أكبر .. إن هذا لشيء عجيب .. نحن لو لم نر أنعام تصلي في هذا البيت بعد ترملها لحلفت وأنا صادقة أنني ما شاهدت أحدا يصلي في هذا البيت منذ خمسين سنة أو ستين سنة ؟ ! هذا مفتون بابن أخيه وتلك مفتونة بزينب وحماة زينب !

وقد جلست في الصالة تدير في ذهنها الصور الأخيرة التي مرت عليها خلال الأيام الأخيرة ، وسمعت أنعام تقول بنبرة فيها تهكم كما بدا لها : هل غضب عمي ؟

التفتت إليها وقالت : ألم تسمعي صراخه وسبه وشتمه وهياجه ؟! .. إنه ناصح إذا غضب وأنا خائف على أبيك منه .. ناصح حقود وحسود ولا يغفر الأخطاء .. والمصيبة أن أباك غير مكترث لسخطه وغضبه .. ولم يلحق به لإرضائه والاعتذار إليه كما تعودنا .. يبدو أن عمريا سحركم وقلبكم على ناصح

ضحكت أنعام لسذاجة أمها وقالت : وهل عمري ساحر أو حاوي يا أمي ؟! .. ذهب أبي الطيب لمصالحة ابن أخيه والاعتذار عن ذلك اليوم السيء ، ثم تشجيع عمري ابن أخيه على مصافحة أبيه .. وتحقق ذلك فقد سامح الرجل أبي ، ووافق على أي لحظة يسمح له والده بلقائه إنه راض بالصلح وتقبيل يدي والده وفرضت أخلاق عمري الحسنة نفسها على أبي .. أم صالحة ابن صالح .. زوجة صالحة .. أولاد صالحون .. أنت تعرفين من هو عمري قبل توبته ؟ .. وتعرفين مريم أيضا ؟ .. أما زينب فهي صالحة من بيت أبيها فقد ربيت على الإيمان والتقوى منذ نعومة أظفارها .. وفقهم الله وأسعدهم الله في الدنيا والآخرة

فقالت على استحياء ورهبة : أبوك يطلب مني الاغتسال والصلاة

ـ افعلي يا أماه .. وهل أنت طفلة ؟ ! ألم تشبعي بعد من متع الحياة وزينتها ؟ !

ـ إني خائفة ؟

ـ خائفة ؟ ! .. خائفة بما ستقول عنك العجائز .. كل واحدة مشغولة بنفسها يا أمي .. هيا أعلمك الاغتسال للعبادة

ـ وهل أنا لا أعرف الغسل يا شيخة ؟ !

ـ لا .. غسل العبادة يختلف عن غسل النظافة العبادة لها أركان وواجبات وسنن وآداب

رن جرس الهاتف فمشت عزيزة نحوه وردت : آ .. نعم أهلا ناصح .. إنه نائم .. حقك عليّ تعب السفر .. لا ، لم يتغير إنما هو تعبان .. لا تزعل حقك عليّ .. مع السلامة

وضعت السماعة وقالت : عمك صدره كالمرجل على ناجح يقول والله يا عزيزة صار زوجك لا يهتم ولا يسأل عن غضبي ونكدي أسمعت ؟ أيعجبكم هذا ؟

فقالت أنعام بأسف : مسكين عمي !

فقالت عزيزة : أنا خائفة على أبيك من جنونه

فقالت أنعام غامزة : امرأته الشقراء موجودة

فقالت عزيزة وقد عاد لنفسها بعض الاطمئنان عندما ذكرتها أنعام بزوجة ناصح الشقراء كما يسمونها : صدقت .. عندي زيارة للست سعدية

ـ الدكتورة ؟! .. لمَ ؟!

ـ زيارة روتينية .. لا تقلقي لإجراء الفحوص الضرورية والاطمئنان على صحة القلب .. ومن ثم شراء الأدوية اللازمة هل تذهبين معي ؟

ـ لا .. خذي نوالا .. إنني أريد النوم فرأسي فيها صداع مؤلم

*****

كان السيد ناجح قد ترك ممارسة العمل منذ سنوات ، فقد دهمه مرض فسافر للخارج للعلاج ولما عاد معافى أعفاه ناصح من الدوام والعمل في المكاتب ، فهو له أكثر من خمس سنين لا يتردد على الشركات والمكاتب إلا كزائر وضيف ، ويتابع أعماله بواسطة ابنه صابر ، فلذلك وجد أن كلام عمري عن التوبة وترك السيئات غير أنه حاجة ملحة له فقد وافق هوى في نفسه ، فلذلك

تحمس للصلاة .. وأخذ يتردد على المسجد القريب من منزله ، ولما علم ناصح بهذه الأفعال زاد حنقه وغضبه على أخيه بل طلب من عزيزة أن تحثه على الذهاب للعمل وأن الشركة بحاجة إليه .. ولما علم ناجح بهذا غضب من أخيه ، واتصل به وطلب مقابلته ، ولما التقيا دار بينهما حوار حاد ومتشنج هدد على أثره ناجح بالانسحاب من جميع الشركات والمصانع .. فلم يتردد ناصح بقبول ذلك .. فقد زاده الحقد ضلالا ، فطلب من فريق المحاسبة على الفور إعداد أوراق الفسخ فسخ العقود المشتركة بينهما ، فتحدث ناجح مع ابن أخيه حول ذلك ، وأن والده يصر على العداوة ، ولا يريد الصلح معه الآن بل يحاربه لأنه سعى في ذلك ، فطيب عمري خاطره ، وطلب لقاءه في مكتبه يوم الخميس في شارع قطز قص ناجح على ابن أخيه القصة منذ التقيا بالريحانة ..

فقال عمري : أنا معك يا عم ! ولست ضد أبي أيضا .. فأنا أعرف أبي وعناده وقسوته إذا قسى ألا يقبل الاجتماع بي ؟

ضرب ناجح رقم هاتف الشركة وطلب من عاملة المقسم السيد ناصح ولما رد عليه قال : ابنك يريد مقابلتك الآن

كان عمري يسمع السب والشتم من جهة أبيه ، ثم إغلاق السماعة بغضب فوضعها ناجح بحزن وأسف وقال : آسف يا ابن أخي .. يقتلك إن اقتربت من أبواب ومكاتب الشركة .. ويقول لي إن العقود الجديدة جاهزة

فقال عمري : تصرفات غريبة .. على كل حال الصبر مفتاح الفرج .. تصبر يا عمي ! .. فالقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء .. وأنا جد آسف لما سببته لك من متاعب وعداوة أبي

فقال ناجح : أبدا يا ولدي أنا أتيتك برغبة مني ، ولا تظن أنني حزين على فسخ عقود الشراكة والشركات .. أنا لم أكن أحب أن تكون هذه النهاية وبهذه الصورة القذرة بين أولاد الخابي .. لكنك أنت الآن أملنا ورجاؤنا .. أنت ابن مبارك .. سأعود للبيت ، وأحب أن تذهب معي للغداء ، وتلتقي مع ابن عمك صابر ، فهو منذ حدثت هذه المشاكل وهو معتكف وحابس نفسه في البيت ، ويلومني على زيارتي إليك بدون موافقة ناصح .. اعمل خيرا تلق شرا

اتصل ناجح بالبيت وتحدث مع عزيزة ثم قال لابن أخيه : هيا

تحدث عمري مع السكرتير أحمد والدكتور يوسف حسان وذكر لهما رقم هاتف منزل عمه ، وكان ناجح قد ركب سيارته فأشار عمري لسائقه وحارسه وطلب منه السير وراء سيارة عمه ناجح ، وخلال نصف ساعة كانت السيارتان تقفان أمام الفيلا ، توقف عمري قليلا أمام الفيلا قبل أن يدخل من الباب كأنه يتذكر سنوات مضت وقال : كم من السنوات مضت لم أطرق هذا الباب يا عماه .. أما زال عميش عندكم ؟

سلم عمري على البواب أو الحارس عميش الذي لم يعرفه ابتداء ، واستغرب لدخول هذا الشيخ الملتحي مع سيد الفيلا ، فلما عرف أنه عمري ناصح عانقه ثانية عناق الأحبة والصداقة ودخل ناجح وخلفه عمري وسائقه وحارسه ، وكان عمري لا يحب اتخاذ الحرس ؛ ولكن بعد حادثة إطلاق الرصاص عليه في منزله في الريحانة طلبت أمه منه أن يكلف رجلا بحمايته مع اعتقادهم أنه لا يرد من القدر شيئا ؛ ولكن الأخذ بالأسباب لا يمنع من ذلك .. في مدخل الفيلا كانت تقف عزيزة في انتظار وصولهما .. فلما شاهدت عمريا اضطرب قلب عزيزة هيبة من رؤيته .. فلما وصلوا إليها حياها عمري بتحية الإسلام وأشار لها بيده ، وأخذ يسألها عن صحتها وحالها وهي ترد بانبهار ورهبة وتقارن بين عمري القديم الشاب وعمري الشيخ الكهل ، ولما دخلوا صالة الاستقبال وجلسوا على المقاعد أتت الخادمة بالقهوة العربية المرة .. فأخذ السائق الدلة تيرموس منها ، وسكب للجميع ، وكانت الخادمة تحيي السيد عمري وتسأله عن أمه وأخواته فهي منذ الصبا وهي تعمل لدى الأسرة ، ولما شربوا العصير وحدث عمري امرأة عمه عن أخبار أمه وأنها تهديها السلام والتحية وتدعو لها بالخير والإيمان ، واستأذن السائق والحارس بالخروج والانتظار في السيارة ، فأذن لهم عمري وناجح ثم قال ناجح : أين صابر يا عزيزة ألا يريد تحية ابن عمه ؟

فقالت وهي تنهض : سأصعد إليه .. فالمسكين منذ بدأت المشاكل وهو لا يخرج من الغرفة فقال عمري : أزمة وستمر يا امرأة عمي !.. وليس إغلاق شركة أو خسارة مشروع نهاية العالم ونحن أهل .. ولديّ بفضل الله سبحانه كما يعلم عمي مشاريع ضخمة في العاصمة وهي

بحاجة لرجال طيبين مثل ابن عمي صابر .. لا تبكي يا امرأة عمي .. نحن أقارب وبيننا صلة رحم .. وأبي يتصرف بعصبية وغطرسة .. وإنا قبل أن نأتي إلا هنا تحدثنا معه لأزوره .. فرفض وهددني بالموت أليس كذلك يا عمي ؟

ـ بلى .. ولا أدري لماذا يتعامل معنا بهذه الصورة المخيفة ؟! .. ابن يريد مصالحة أبيه لماذا يعقد الأمور ؟ !

ـ الله أعلم ، الأيام ستظهر سبب شدة هذه العداوة .. توكلي على الله يا امرأة عمي وأرسلي لنا أخانا صابرا فأنا مشتاق لرؤيته

ولما انصرفت الأم للمجيء بولدها الوحيد ، وأثناء ذلك دخلت نوال وأنعام فألقتا السلام على أبي محمود وقالت نوال : كيف أنت يا عمري ؟

فرد بحياء وهو ينظر إلى الأرض : بخير يا ابنة العم كيف أنت ؟ كيف حالك يا أنعام ؟

فردت كلاهما أنها بخير ، وسألته أنعام عن أمه وزينب والأولاد وبدرية وزوجها وقمرية وجبر وعمري يرد عليها بإيجاز ، ثم أخذت نوال تعتذر عما سلف منها معه قديما فقال : أوه .. هذا شيء ذهب مع الماضي يا غالية .. لولا الحساسيات لأتيتكم قديما .. فصلة الرحم مهمة في شرع الله .. أرجو أن تكوني سعيدة بحياتك

فبكت وذرفت الدمع ، مما أدهش صاحبنا عمري فاستفسر فقالت أنعام : لا تهتم بذلك يا أبا محمود .. هكذا هي

فقال ناجح بغضب : يا ابن أخي .. تريد الطلاق من زوجها بحجة أنه مخمور ولا يترك القمار وأنا لم أجبرها على الزواج منه .. فبعدما فارقتنا بسنة تقدم لها هذا الشاب نادر ، وهو من أبناء الأغنياء فهو غني بثروة أبيه وبثروته ، وفرحت به وسافر بها في عدة بلدان كما كانت تحلم، وهي تعرف أنه سكير ولاعب قمار قبل الزواج ، وكانت مقتنعة به وتظهر إعجابها به ، وأنجبت منه ولدا واحدا فقط ، ومنذ سنوات تدعي أنها تبغضه ولا تطيقه ، وأصبحت تقضي أكثر وقتها عندنا ، وخصوصا بعدما ترملت أنعام ، ولا تذهب للبيت إلا باليوم أو الساعات ، فيتشاجران فترجع ثانية ، ويأخذ الرجل ابنه إلى أمه ، وينصرف للزنا والحانات والنوادي الليلية ، وتريد

الانفصال عنه ، وهو لا يريد وكذلك أهله يرفضون الطلاق ولا أنا أرغب فيه

أسف عمري لحالها ورثى لها ؛ ولكن مجيء صابر غير الموضوع، وتعانق أبناء العم ، ورحبا ببعضهما ، وأسفا لتدابرهما كل هذه السنوات وأبدا كل منهما عذره ، وبدأ الحديث عن صابر وغضبه من أبيه لإغضابه عمه ناصح ، وتكلم عمري بأحاديث كلها أمل وتفاؤل وحب، وأن الأمور كلها بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ويفقر من يشاء ويغني من يشاء ، وتحدث عن الرزق مما ترك أثرا حسنا على نفس وروح صابر ، فاندفع للبكاء وأن يعترف قائلا : أنت عظيم يا عمري ! .. لقد كافحت وصنعت لنفسك أمرا عجزنا عنه .. مع ما نملك من رأس المال والثقافة

فرد عمري : أشكرك ، فهذا كله بتوفيق الله وليس بشطارتي .. أليس هو الذي يلهمنا الأفكار الصائبة ؟ .. أنا إنسان فرد ولكن الله هو الذي وفق لي أصحابا ورجالا قاموا معي بإخلاص وتفان حتى تحقق هذا النجاح الذي تراه أو تسمع عنه .. فكل الفضل لله وحده .. هو يدبر الأمر وييسره سبحانه .. ونحن ندعوه ونسأله أن ييسر لنا الخير حيث كان ويديم علينا النعم ويحفظها بفضله ومنه وبركته عز وجل

كانت نوال جالسة بينهم – وقد كفكفت دموعها – تسمع وهي مفتونة بكلام ابن عمها ، وتنظر لإنعام بطرف عينها كأنها تقول لها إنك على حق بوصفك أن عمريا معجزة .. فهو في قمة التواضع والأدب وحتى النظر

ولما شرع صابر يستسلم لأفكار وخواطر عمري ، قالت الأم : هيا يا بنات ! فأم أحمد تقول أن الطعام قد جهز

فنهضت البنات وأمهن من المجلس ودخلن المطبخ .. وكانت عزيزة تقول لابنتيها : هل هذا عمري ابن مريم يا أنعام ؟!

فهزت أنعام رأسها ضاحكة ، وكانت تضع الأواني على مائدة المطبخ لتملئها بالطعام الذي أعدته الخادمة أم احمد : نعم هو عمري يا أمي ! .. ابن مريم .. لا يتحدث إلا عن الإيمان والذكر وحتى أثناء حديثه عن المشاريع يكثر من ذكر الله وأسماء الله وفضل الله وتوفيق الله وبركة الله

ورضا الله وحب الله .. هذا عمري الخابي ابن عمنا ناصح !

فقالت نوال : يصلح أن يكون طبيبا نفسيا .. صابر لم يبتسم منذ شهر .. منذ عاد أبي من الريحانة

فقالت عزيزة : لا أكاد أصدق أن هذا الولد الشقي عمري الذي عرفناه .. لقد كنت أسمع شكاوي أمهات البنات لأمه من عبثه وطول لسانه وقذراته مع بناتهن ..سبحان مغير الأحوال ! .. إيه والله يا نوال لقد أفلت زوج باهرا من بين يديك

فقالت نوال : لم يفت الوقت يا أمي طلقوني .. ولسوف أجد ذرة حب في قلبه .. إنه يعرف أنه كان فارس أحلامي أيام الصبا

فقالت عزيزة : إنه متزوج .. وزوجته تحبه ويحبها .. وهي أحلى امرأة في الدنيا كما نسمع أترضين أن تكوني ضرة ؟

ترددت قليلا قبل الإجابة وقالت : قد أقبل يا أمي عزيزة

فضحكت أنعام وقالت : الله أعلم !!

صابر يستريح

كان من عادة عمري عندما يعود من سفر أو من العاصمة إذا دخل البيت تراه يبدأ بحجرة أمه فيسلم عليها ويقبلها وتقبله ، ويطمئن على صحتها ، ويجلس متحدثا معها ، وبعد حين تأتي الزوجة والأولاد فيسلمون عليه ، ويجلسون في حجرة الجدة مريم ، فلما سألته أمه عن أخبار الأهل والأقارب في العاصمة قال : الأمر لا يسر يا أمي!.. فأبي تشاجر مع عمي بسبب زيارته لي ومحاولته الإصلاح بيننا وقص عليها مشاكل عمه مع طليقها ، ولما وصل الكلام للقتل قالت الأم باستغراب : ولماذا كل هذه الحماقة ؟ !

فقال بحيرة : لا أدري يا أماه ، أنا ابتداء ظننت أن عمي أتى بتصرف وحركة من أبي لمعرفتي الشديدة أن عمي العزيز لا يفعل شيئا إلا بإذن أخيه الأكبر سيد العائلة .. أنا رغم معرفتنا بكره أبي الشديد لزوج عمتي رباب ورباب نفسها لم أكن أتصور أن تكون العداوة والحقد والبغض في نفسه إلى هذا الحد الكبير

فقالت : كبر .. أبوك حقود .. أنا أعرف الناس به .. واستغفر الله من زلة اللسان ومن الغيبة ولكن القتل أمر مخيف يا ولدي .. لا تذهب إليه، لا تغامر قد يفعلها بحمقه

ـ إنني قلق .. هل تركت هذا السنين جرحا حادا في قلبه لهذا الحد عليّ .. أنا فكرت قديما وحديثا أن أتصالح معه ؛ ولكني أعرف بطر أبي للحق وعجرفته

ـ الأيام يا بني دواء لكل الجروح هو لم يحاول البحث عنك يوما ما

ـ أخشى أن يسيء لعمي أكثر فأكثر .. فالسيد صابر حزين مما حدث ، وأخشى أن أمد له يد المساعدة فيشتد حقد أبي علينا ، ويتصرف تصرفات حمقاء تفسد كثيرا ، وفي نفس الأوان لا أريد أن أدع عمي وابنه في هذه المحنة ولا أقدم لهما المساعدة والعون .. لا يجب أن يبقى صابر من غير عمل ، قد يجن فهو رجل هادئ ، ويحب الروتين ، فقد تعود على الخروج صباحا والعودة مساء منذ عشرات السنين هل من حل يا أمي ؟

ـ سيلهمك الصواب والحق مولاك العظيم يا عمري .. ماذا فعلتم بالفيلا القديمة ؟

ـ نعم ، لقد تم هدمها ، وقريبا سنبدأ بالبناء فقد أعد مكتبنا الهندسي الرسومات والتصاميم

المناسبة وستكون الفيلا تحفة فنية وواسعة يا أمي إن شاء الله

فقالت الأم بسرور وإعجاب بولدها : الجميل فيك يا عمري رغم المشاكل والقضايا الشخصية التي تعصف بك أن أعمالك لا تتوقف !

أشكر ثقتك بي يا أمي فلدينا رجال مخلصون ـ جزاهم الله خيرا ـ يفرقون بين العمل والقضايا الشخصية .. والحمد لله كثيرا .. التفاهم والألفة والتوفيق بيننا

فدعت الأم قائلة : دامت المحبة بينكم

ـ خلال أشهر يسيرة سيتم البناء الجديد .. وسوف ننتـقل للعاصمة الكبيرة كما اتفقت مع الدكتور يوسف حسان ، وسنجعل ثلاثة أيام في الشهر نقضيها في الريحانة في بيتنا هذا .. حتى تكتمل مشاريعنا في العاصمة وتستـقر ، ثم نختار المكان الأهدى للاستقرار والراحة بمشيئة الله فدراسة الأولاد في العاصمة ستغير من نمط الحياة بضع سنوات

كانت الزوجة زينب والخادمة أم مالك قد أعدتا مائدة الطعام ، فنهض الجميع إلى غرفة الطعام فأكلوا ما قسم الله لهم من الرزق والطعام والشراب ، وجلسوا يشربون الشاي والعصير كل حسب رغبته وصحته، ويتحدثون في أحوالهم ومشاكلهم وأحلامهم ، ثم انصرفوا للنوم آمنين ولربهم شاكرين حامدين .

التفكير يشغل قلب وبال عمري ، كيف يتجنب الصراع مع أبيه ؟ وفي نفس الوقت يكسب عمه التائب والذي رمى حمله عليه ، وهو لا ينقصه المال ؛ ولكنه يريد عملا لابنه صابر الذي صدم من أفعال أبيه معهم ، فوفقه الله إلى فكرة تتلخص بشراء مصنع من غير أن يظهر هو في الصورة ، هو ولا كبار أصدقائه وشركائه في المشاريع المختلفة ، فتحدث مع عمه في الفكرة ، وطلب منه عدم الحديث عن دوره أمام النساء أو حتى صابر نفسه ، فاقتنع ناجح بفكرة عمري وأظهر امتنانه وقال : فكرة صائبة .. فوالدك قد جن ..

تم شراء مصنع كبير بملايين الدنانير بمواده وعماله ، وكان ناجح وصابر هما اللذان يتحركان أمام الناس ، وعمري وفريق العمل معهما من وراء الكواليس ، وتم نقل ملكية المصنع إلى السيد ناجح وشريكه ابنه صابر ، وتسلم صابر إدارة المصنع الضخم .. ولما وصل الخبر لناصح أصابه

الذهول فقد حاول قديما شراء هذا المصنع ففشل ، فكيف استطاع أخوه شراءه ؟ فأرسل رجاله وأعوانه وعيونه فلم يصلوا إلى ما كان يرجوه ناصح من أن لعمري يدا في الموضوع أو لأعوانه وقد حاول معرفة ذلك عن طريق عزيزة ، فأنكرت بشدة أن لعمري يدا في عملية الشراء ، بل أظهرت امتعاضها منه ، وأقسمت على ذلك ، وتحدث ناصح مع صابر مباركا ومتعسسا ، فأكد صابر عدم تدخل عمري في الموضوع ، وقال له : هي جهود أبي وعلاقاته القديمة قبل تقاعده في البيت

لم يطمئن ناصح بل ظل الشك في قلبه ، فهو يذكر كم محاولة بذلها لأصحاب المصنع حتى يتملكه ، وكانت عزيزة ونوال تظهران الغضب أمام ناجح على ابن أخيه عمري فيقول : يا عزيزة .. عمري ابن ناصح .. عليك أن تفهمي ذلك ، فهو بين نارين زعلنا وزعل أبيه .. ها أنت ترين اتصالات ناصح لما علم بشرائنا للمصنع ؛ لأنه حاول كثيرا تملكه وفشل .. فقلت لابن أخي دعنا نتـصرف وحدنا فتـصرفنا

أما أنعام فقد كانت تحس وترى أن عمريا له يد في شراء صابر للمصنع ، وأدركت كما أدرك والدها من قبل ثقل عمري في السوق ، واستنتجت أنه لا يحب أن يظهر في الصورة حتى لا يزيد من غضب وكره والده نحوه ، وصارحت أباها بذلك ، فابتسم واضطر أن يقر بفطنتها وطلب منها عدم التحدث بذلك أمام أحد سواء أمها أو أخيها أو أختها ، فوعدته بالصمت ، فكانت نوال تتعجب من ثبات أنعام على مدحها لابن عمها كلما يتحدثون عنه أو تأتي سيرته عرضا في أحاديثهم فكانت نوال تقول : رغم حاجتنا لمساعدة عمري خلال الأيام الماضية في شراء المصنع فابتعد عنا مدعيا أنه لا يستطيع مساعدتنا للحساسية في الموضوع

فقال أنعام بهدوء : أليس هو أباه ؟ وأبوه يريد أن يظل علينا واليا وسيدا، ونحن لن نتمكن من تدبير أمرنا بدونه .. أليس هذا ما يهدف إليه ناصح من حربه علينا ؟

ـ إنك تدافعين عن عمري بحماس وتعاطف كبير.. ما بينكم ؟ !

ـ ماذا تقصدين ؟ !

ـ أقصد هل عمري شريك لنا في المصنع ؟

ـ لا .. فالمصنع باسم أبي وصابر فقط

ـ أنا غير واثقة بكلامكم .. فأبي ما زال محبا ومعجبا بعمري .. وأنت كذلك ، وهذا ما يثير قلقي واستغرابي اصدقيني القول هل من مؤامرة ؟!

ـ لا .. ستثبت لك الأيام غير ما تظنين .. وعمري اعتذر لأبي كما تعلمين من التدخل في الصراع القائم بين أبي وأخيه وقد قبل أبوك العذر .. وعمك هو رحم عمري

*****

ولما علمت امرأة ناصح الشقراء بما حدث بين الاخوة حاولت التدخل ، فمنعها ناصح من ذلك وقال بحدة وسخط : أنا لا أحب تدخلك بيننا ، وقد انتهى ما بيننا ، فقد فضل ابني عليّ .. وأنا نسيت ابني الذي تخلى عني منذ عشرين سنة .. أنا ليس لي أبناء .. فأرجوك ألف رجاء لا تحشري نفسك بيننا .. أنا لا أهل لي

أخذت الأرملة الشقراء توبخه وتذمه وقالت في النهاية : ماذا فعلت لابنك عندما هرب ؟ لم تبحث عنه ؟ ادعيت أنه سافر للعلاج ألم يحصل ذلك ؟ أنا لن أتدخل بينكم ؛ لأنك رجل أحمق وأصلا أنا لا أحب كل أقاربك ولا أطيـق رؤيتهم والحديث معهم

فقال : جيد هذا جيد .. فلتظلي في مشاريعك وأوهامك وأحلامك أنت في واد وأنا في واد أنا بدأت أكرهك

ضحكت وصرخت فيه : تكرهني !! فأنا أكرهك منذ أصبحت ظلي يا رجل .. أنت رجل غبي .. إنني لا أدري كيف وافقت أن أكون لك زوجة؟

فأظهر غضبه عليها وغضبت هي الأخرى وتطاير الكلام البذيء بينهما ، ثم قالت : أنا مسافرة سأغيب عدة أسابيع .. فحل مشاكلك مع أخيك .. وأرجو أن لا أسمع أحداً يتحدث بهذه المشاكل أمامي ..

ـ أين ستسافرين ؟

ـ لا يهمك أين سأسافر ؟

ـ مع من ؟

ـ مع نفسي

ـ أخشى أن أخنقك بيدي هاتين .. للصبر حدود يا ملعونة

أنت رجل هرم خرف .. منذ البداية وافقت وحلفت أنك لا تسألني مع من أجلس مع من أسهر مع من أسافر

ـ أنا لست حيوانا

ـ بل أنت أكبر حيوان

ـ إنك شر امرأة عرفتها

ـ ها أنت تدين نفسك بلسانك .. فكما سمحت لنفسك بالنوم مع العشيقات .. وأنا أعرف أغلب الشقق التي تقضي فيها شهواتك الحيوانية .. فأنا أسمح لنفسي بالجلوس والنوم مع المعجبين بي وعشاقي

كان يضغط على شفتيه من القهر والغل ؛ ولكنه يدرك أن كلامها صحيح ، ألم تدخل عليه ليلا في إحدى الشقق وقد وجدته مع صبية صغيرة قد استطاع إقناعها بالفاحشة والزنا ؟ .. فعاد يقول مستسلما : افعلي ما شئت يا ابنة الملاعين والشياطين

فقالت : نظف نفسك قبل أن تنظف غيرك

لقد أدمن الرجل رغم شيخوخته على ارتكاب الفواحش وزيارة علب الليل ونوادي الليل وتصيد الفاجرات وبنات الهوى ، فلذلك كان يخاف من عودة عمري إليه يخاف على هذه المتع والملذات .. فأشياء كثيرة يخافها من مصالحة ولده .. ولكنه مقهور ومغلول من نجاح ولده وكثرة مشاريعه، وتردد اسمه على الألسن رغم حداثة سنه في العاصمة .. وكان يعرف كثيرا من عشاق زوجته الشقراء ويجالسهم على مضض ويتظاهر بالانفتاح وعدم الضيق والغيرة .. ولكنه جبان ..

*****

مضت سبع سنوات أخرى وقد هلك في آخرها السيد ناجح ، وقد هداه الله في آواخر عمره على يد ابن أخيه ، وكانت عزيزة قد عرفت دور عمري في شراء المصنع لولدها صابر ، وكذلك

صابر عرف ، اعترف أمامهم ناجح بعد سنوات بجهود ابن اخيه ، ووصاهم على محبته والسير في ركبه .. وقبل الموت طلب وترجى ناجح ابن أخيه أن يتزوج من ابنته الأرملة أنعام ، وقد وافق عمري على ذلك ؛ ولكنه أجل ذلك بعد شفاء عمه ؛ ولكنه كان مرض الموت .. ولما انتهت فترة الحزن تحدث عمري مع عزيزة وأنعام عن موضوع الزواج وخيرها بالبقاء على ذمته أو الفراق ، فقبلت بالزواج منه وتحقيق رغبة ابيها والحياة معه في الفيلا ومع زوجته زينب المحبوبة التي لم تمانع بهذا الزواج .. وكان زواجا بسيطا حفلا صغيرا في الفيلا ، فانتقلت على أثره أنعام وبناتها للحياة مع عمري وأمه المريضة وزوجته زينب .. وكان محمود الابن البكر لعمري قد أنهى دراسته الجامعية وأصبح طبيبا ، والبنت الكبرى على الطريق وسافر محمود لأوربا للتخصص والدكتوراة فزوجه أبوه قبل سفره .. ورفض ناصح خلال هذه السنوات السبع كل التدخلات للجمع بينه وبين عمري ، ورحل لأمريكا وأمضى فيها سنة يتداوى ويتعالج .

سهام ابنة انعام

كان عمري يتمنى أن يصحب أباه معروفا في آواخر حياته ، وقبل رحيله إلى أمريكا للعلاج تحدث عمري مع أكثر من صديق لوالده ليسمح له بمرافقته في رحلة العلاج ، فأبى وأصر على السفر وحده ؛ لأن زوجته الشقراء رفضت السفر معه ، فهذا ما كان يقض مضجع عمري يومئذ وخلال السنة التي مضت لم ييئس عمري من المحاولات ، لقد كان على اتصال دائم بالممرضة الخاصة التي رافقت أباه ويطمئن عليه منها ، وقد حاول الحديث معه مرارا بواسطة الهاتف في لحظة ضعف ؛ ولكنه كان يصرخ في وجه الممرضة ويهدد ويتوعد بالويل والحقد .

كانت حياة السيدة أنعام مع زوجها الثاني حياة طيبة وهادئة ، وكانت ترى زينب أختا وصديقة لها فهما متقاربتان في السن ، لم تشعر بأنها ضرة لها ، وحتى بناتها الثلاث لم يشعرن باغتراب أو إحراج أو ضيق في بيت الأسرة الكبيرة ؛ ولكن الفتاة الكبرى سهاما كانت قد اقتربت من إنهاء دراستها الجامعية ، وكانت تظهر امتعاضها وألمها من اللباس الإسلامي ، فهي لم تلبسه إلا عندما تزوجت أمها من ابن عمها عمري .. وكانت لا تتحمل سخرية بنات العائلات وزميلات الجامعة من لباسها المحتشم .. وكانت تحدث بينها وبين أمها المشاجرات حول ذلك الأمر .. فالسيد عمري لا يتهاون في مسألة اللبس ، فكل بناته وبنات أختيه قد أصبح هذا اللباس لديهم أمرا طبيعيا ، أما سهام كبرى بنات أنعام لم تستطع الانسجام معه .. فكانت تتذمر منه كثيرا .. حتى فكرت أنعام أن تعيد ابنتها للحياة مع أمها عزيزة لتحررها من ذلك الحرج والضيق .. فالتربية ابتداء لم تكن إسلامية .. فمن المعروف أنهم أسر متحررة في هذا الأمر وإذا لم تقتنع الفتاة المتبرجة اقتناعا عقليا ووجدانيا فلن تستمر على ذلك .. وكان ذلك يزعج أنعام ، وكان عمري يشعر بذلك الحرج والضيق ؛ ولكن فتح هذا الباب فيه إثم وحرج، وأيضا لم يستجب لفكرة إرسال البنت الكبرى والوسطى للحياة عند جدتهم عزيزة .. فرقابة الأم لبناتها وأسرتها في هذه السن ضرورية وحاجة ملحة ، ورأوا أن الزواج هو الحل الأسلم لذلك ولكن أين الزوج المناسب ؟ .. لقد كان في سيرة حياة سهام شاب يدرس معها في الجامعة وفي نفس الكلية ، وكان بينهما ود متبادل ؛ ولكنه لم يتطور إلى علاقة عاطفية حميمة .. صداقة كما

يدعون ، وكانت الفتاة تخشى تطور ذلك إلى حب وغرام كما تفعل كثيرات من بنات الجامعة ، فزوج أمها رجل تراه متعصبا ومعقدا رغم حبها الكبير له ، فهي لم تنس ذلك اليوم الجميل عندما ذهبت مع جدها ناجح وأمها لزيارتهم في الريحانة ؛ ولكنها كانت صغيرة ابنة ثلاث عشرة سنة ؛ وكان زواجه من أمها كان مقبولا أيضا في البداية ومرحبا به .. فأنعام كانت معجبة بابن عمها وتراه الزوج المناسب لمن هي في سنها امرأة تجاوزت الأربعين .. هذا كانت الفتاة تدركه ولكن لما جاء الوقت كانت تدرس في الجامعة ، فعارضت ذلك الزواج ولكن بضعف ، إنها لا تريد أن تقف أمام سعادة أمها .. ولكن الذي كان يثير دهشتها أكثر حب خالتها نوال لعمري وكانت تريد الانفصال عن زوجها أملا في تحقق هذا الزواج والحلم القديم .. فشاء الله أن يلزم العم ابن أخيه وهو يموت بالزواج من ابنته الأرملة .. هذا كله كانت سهام تعلمه .

وكان صديقها في الكلية يضيق أيضا من لباسها الشرعي ويجعله مادة للسخرية والتخلف والعصبية .. فكانت حائرة وحتى أنه قال لها يوما : يا سهام ! لو تخلعين هذه الثياب قد أفكر بخطبتك وأرتبط بك

فتشرع بالحديث عن زوج أمها وتدينه ، وتظهر له المعزة في قلبها والاحترام ؛ وتخشى أن يرفضه بسبب عدم تقبله اللباس الشرعي ، فيتعجب من ذلك ويقول : أدبك رائع يا سهام وأخلاقك مع الشباب رائعة أيضا ، أهلي وخصوصا أمي لو تسمع أنني أرغب أن ارتبط بفتاة تلبس ثوبا طويلا لتضربني وتقيم الدنيا عليّ ،إن أختي منالا تحبك ومعجبة بك وبتعقلك

ـ هذا من لطفك يا فواز ! ومن لطف أختك منال .. أنا لو لم أكن أعيش عند زوج أمي لخلعت هذه الثياب .. فأنا غير محب لها ؛ ولكن أمي تجبرني على ذلك ، وبنات خالتي زينب ضرة أمي يلبسن اللباس الإسلامي الشرعي

فيقول : على كل حال لنبقى أصدقاء .. السنة نتخرج من الكلية فتبدأ حياتنا العملية فلربما تيسر لنا الزواج يا سهام .. فالبنات كثيرات معنا يا سهام ولكن جمالك وأدبك جذاب

ـ أذكر أنك قلت سابقا أن والدك يحب أن تدرس الماجستير والدكتوراه مباشرة بعد البكالوريوس

ـ هم يريدون ذلك ، وأما أنا أفكر بالعمل مباشرة والاستراحة من الدراسة .. مللت لي ثماني عشرة سنة أدرس يا سهام ألا يكفي ؟!

ـ أنا أيضا بدأت أفكر بدراسة الماجستير .. فخالي صابر قال ستعملين معنا وسيسمح لي بالدراسة على نفقته أيضا

ـ خالك هذا رائع يا سهام !

ـ شكرا لك أيها الصديق .. أفكر أحيانا بالحياة مع جدتي وابنها صابر ، ولكن زوج أمي يبدو لي أنه يعارض هذه الفكرة .. لذلك أمي لا تحبذ ذلك ولا تريد إغضابه .. فهي تراه ملاكا يمشي على الأرض

ـ هذا تعصب وتشدد

وأخذ الشاب يعيب على الشيوخ والمحجبات ، وتظهر سهام تأييدها وتعاطفها مع كلامه وتعليقاته الحادة .

كانت أنعام ترى زواج سهام حلا مناسبا ، ولكن من أين يأتي هذا الزوج ؟ .. وهل يوافق عليه عمري الشيخ المتدين ؟ .. لذلك كان يراودها شعور بالندم أحيانا من موافقتها على زواجها من عمري ، وترى أنها نسيت البنات في غمرة ميلها لابن عمها ، فتشجع نفسها لتطلب منه الطلاق ، ثم تضعف عن ذلك ، وكان هذا الهدف قد كبر في وجدانها عندما علمت أنها لن تحمل منه فعندها ضعف شديد في المبايض ، ومشاكل أخرى في الرحم ، وكان عمري مشغولا عن فهم ظروفها لاهتمامه ومتابعته لصحة والده ، ولديه إحساس أن والده قد يفارق الدنيا قبل أن يتسامحا ؛ وأما زينب الذكية كانت تدرك ما عند أنعام من هموم وصراع داخلي ، وهي حائرة بالخطوة المناسبة لأن أي حركة خاطئة ستدمر البيت ، وتثير حولها الشبهات والغيرة والحسد من ضرتها ، فكان جل اهتمامها تلك الأيام برعاية أمها مريم التي لم تعد تستطيع مفارقة السرير وحدها ، لها سنوات تعاني من أتعاب وأسقام الشيخوخة المبكرة .

وتخرجت سهام من الجامعة وفرحت أمها لها فرحا كبيرا ، وأقامت لها حفلة جميلة في الفيلا ، سمح لها عمري أن تدعو لها كل من تشاء من صاحبتاها ورفيقاتها وأقارب أمها وجدتها عزيزة

وحاولت سهام أن تدعو بعض أصدقائها الشباب ، فرفضت أمها بشدة هذا الأمر ، ولم يشارك في الحفلة إلا النساء والفتيات من أقاربها وبعض زميلات الجامعة ، وقد تألمت وحزنت سهام من ذلك الموقف المتشدد ، كانت تود وتطمع بحضور فواز لهذه الحفلة ليتعرف على أمها .. وقضت سهام بعد الحفلة ثلاثة أيام مريضة ومرهقة بدلا من الفرح ، وحضر الطبيب من أجلها ثلاث مرات .. حرارة صداع عدم رغبة في الطعام ، وقد احتار الطبيب في تشخيص المرض ، وأخذ يفكر بعمل التحاليل المخبرية لها ..

وتحدثت زينب مع أنعام فقالت : ألم تعرفوا بعد سبب المرض يا أنعام ؟

فقالت بحزن : للأسف فالطبيب لم يقل شيئا مهما .. ويفكر بإجراء تحاليل دم وبول وغير ذلك

فقالت زينب : اجلسي معها يا أنعام ! وتحدثي معها بصراحة فأنا أرى أن تعبها نفسي فعندها هموم ومشاكل شخصية

دهشت أنعام لتحليل زينب فقالت : ماذا تقصدين ؟ !

ـ المفروض أن تقابل سهام النجاح والتخرج بفرح وسعادة ؛ ولكنها كانت حزينة يوم الحفلة ولم تكن مسرورة ومرحة

ـ لاحظت ذلك ، وأظن أن ذلك سببه عدم موافقتي على مجيء بعض زملاء الكلية

أحسنت يا أنعام .. كانت سهام ترغب بذلك ، فلابد أن سببا مهما دفعها لذلك ، ولما فشلت بتحقيق ذلك المطلب أصابها المرض والانهيار

ـ ماذا تقصدين مرة أخرى يا زينب ؟!

ـ أقصد أن هناك شابا في حياتها ربما كانت ترغب أن يتعرف عليك بهذه المناسبة

ظهر الضيق على وجه أنعام فقالت : وما يدريك ؟ ! هل صارحتك بذلك ؟ ..لم تحدثني بشيء من ذلك خلال السنوات الأربعة التي مضت يا زينب

فقالت زينب بهدوء وثقة : لا .. لم تصارحني بشيء ؛ ولكن إصرار البنت على حضور الشباب أو الزملاء تلك الحفلة ، وتشاجرها معك وإغلاقها الغرفة على نفسها عدة مرات محتجة يدل على أن في حياتها شابا و ..

فصاحت أنعام وهي تظهر الغضب : ولماذا لا يتـقدم لخطبتها هذا الشاب ؟

ـ هذا ما يجب أن تعرفيه منها .. دعيها تفتح قلبها لك

ـ والله يا زينب أنت تتكلمين كلاما غريبا

ـ يا أنعام الطيبة ! .. بنت ليس عندها مشاكل عائلية خاصة .. وأسباب الراحة متوفرة لها فلماذا تبدو حزينة متألمة وسارحة ومهمومة؟!

تبرمت أنعام وقالت : تعالي يا زينب لنتحدث معها .. أنا حقيقة مندهش ومستغرب وأعجب من كلامك الغريب .. سهام تحب شابا ولم تخبرني بهذا ؟ !

ـ اذهبي وحدك

ـ لا .. اذهبي معي

سارت المرأتان إلى سرير سهام ، فقبلتها زينب ودعت لها بالشفاء والعافية ، وذكرت بعض أحاديث وأدعية عيادة المريض ، ثم قالت أنعام : يا ابنتي لك ثلاثة أيام راقدة .. لا تأكلين إلا القليل .. والطبيب لا يرى تحسنا في صحتك هل أنت غاضبة من تلك الحفلة ؟

هزت رأسها نافية ذلك ، فتطلعت أنعام بزينب ثم قالت : بصراحة يا سهام ! أمك زينب تقول إنك متضايقة ومتعبة لعدم موافقتي على حضور أصدقائك الحفلة ؟

فأغمضت عينها ولم تتفوه بكلمة فعادت أنعام تقول : يا حبيبتي ! أنا رفضت ذلك لأننا لسنا في عالمنا الماضي .. وعمك عمري الطيب يضيق بذلك ، وأنت لست في بيت أبيك ـ رحمه الله ـ ولا في بيت جدك .. فالاختلاط هنا ممنوع .. وإذا كان لك صديق أو زميل يحبك ويرغب بك فليأت من الباب ..

ففتحت عينيها وقالت هامسة : كنت أحب أن يتعرف عليك إنه ..

نظرت أنعام لزينب وهي مصعوقة وقالت مقاطعة بتوتر : أحدثت خالتك بشيء من ذلك ؟ فقالت زينب : لا .. أبدا يا أنعام .. يا حبيبتي يا سهام أنا أعرف الحيرة التي تعيشين فيها في هذا البيت .. هذا بيت طباعه وعاداته تختلف عن عادات بيت جدك ناجح .. ومن حقك أن تحبين وتهوين .. فإذا كان هذا الشاب يحبك حبا صادقا وراغبا بك زوجة فليتحدث مع عمك عمري

أو أمك مباشرة

فقالت الفتاة : لم يصل بيننا الحب إلى هذه الدرجة يا خالتي ! هو صديق لي كان يسمح لنفسه بأن يحدثني عن الخطبة والزواج ولكن هناك أشياء أخرى ..

فقالت أنعام بقلق : حبيبتي سهام .. هل خنت ثقتي بك ؟

ـ لا .. يا أمي .. أنا ابنتك ، لا يذهب عقلك لشيء قبيح

فقالت زينب : الحمد لله على سلامتك يا سهام .. تأكدي أننا نحبك ولا نضغط على حرية اختيارك .. فإذا كان الشاب فقيرا فنحن لا ننظر إلى المال

فقالت : لا .. بل هو شاب ثري .. أخ لمنال لقد عرفتك عليها يا أمي

فهزت أنعام رأسها بنعم .

فقالت زينب : تكلمي بكل آلامك لأمك يا حبيبتي.. فسوف يرتاح قلبك ويصح بدنك إنني ذاهبة إلى أم عمري

فقالت أنعام : أشكرك يا زينب ..والله أنا ما خطر في بالي مثل هذه الأفكار لأنها لم تحدثني يوما عن علاقتها بشاب

فقالت الفتاة بحدة : لا توجد علاقة يا أمي .. مجرد زميل

ـ حسنا .. مجرد زميل .. حدثيني عنه

تركت زينب ضرتها مع ابنتها البكر ، ومشت نحو حماتها تشرف على أحوالها .

*****

فلما عاد عمري مساء من العمل ، وتعشى مع والدته كعادته ، وتحدث وسمر الجميع في حجرتها طلبت أنعام من زوجها الحديث على انفراد فاستغرب عمري طلبها ، فقالت موضحة السبب امام السامعين : سأتحدث معك عن سهام

فقال قـلقا : قد مررت عليها ، فهي طيبة ، وأحسن حالا من أمس .. عن إذنك يا أمي

فأشارت له برأسها أن نعم ، اذهب ، فخرج إلى مكتبه الواسع في الفيلا الجديدة ، فوجد ابنته عائشة التي تدرس في كلية الطب تجلس فيه ، فقال بعد السلام : عفوا عائشة أنت هنا .. لماذا

لا تجلسين في المكتبة ؟

ـ أهلا أبي الحبيب ، وعليكم السلام .. أهلا خالتي .. أحببت الجلوس هنا يا أبي

ـ أتسمحين لنا بالحديث هنا وحدنا ؟

أخذت تلملم الكراسات والأوراق والأقلام وقالت : أنا آسفة

ـ المكتب تحت أمرك ؛ لكن خالتك أنعام تريد أن تحدثني بموضوع خاص فهذا سبب إزعاجنا لك

فقالت وهي تبتسم : أبدا .. إنما هو تغيير جو ، أنت تعلم أنني أحب القراءة والجلوس في المكتبة الرائعة التي كونتها يا أبي

فتبسم وقال : الفضل لزينب بعد فضل الله سبحانه

قبلت الفتاة رأسي أبيها وخالتها ، وأغلقت الباب وراءها ، وقد سمعت والدها يقول : لتصنع لنا أم احمد القهوة يا عائشة

قالت أنعام : أنا لا أدري يا سيدي كيف أبدأ ؟ !

فضحك عمري وقال : أنعام الحبيبة حائرة من أين تبدأ ؟! .. ابدئي من حيث شئت .. أليس الموضوع بشأن سهام كما قلت .. فابدئي من حيث تشائين من الأول من الآخر .. فأنا أحب سهاما وهي كابنتي عائشة

قصت عليه حكاية الفتاة وبغضها للملابس الشرعية والجلباب ، وحدثته عن زميلها فواز ورغبته بخطبتـــها لولا خوف أهله من هذه الثياب وبغضهم للزي الشرعي .. ولما انتهت أنعام من تفصيل قصة فواز وسهام لزمت الصمت ، تنتظر كلام عمري الذي لزم الصمت بدوره منذ بدأت الحديث ، وإن كان يتغير لون وشكل عينيه ووجهه وجبينه أثناء سرد القصة ولم يتكلم رغم صمتها ، فقالت أنعام : أسمعت كل ما قلت ؟

فهز كتفيه قائلا : سمعت بالطبع .. هذا يؤرق الفكر والقلب .. الشاب لا يريد التقدم إليها إلا إذا خلعت هذه الملابس

ـ هكذا هي تقول .. شاب معجب بها ، وكذلك أخته ؛ ولكنهم يبغضون هذه الثياب ..

ـ والصلاة .. هل يعرف أنها تصلي ؟

ـ لم تذكر من ذلك شيئا

فقال : هي الآن أنهت الكلية .. كيف ستراه ؟

ـ سألتها عن ذلك ، فردت أن هنالك أخته ستنقل له الصورة الجديدة لها ، من خلعها الثياب الطويلة وعودتها للبس البنطال والثياب القصيرة .. فتقول إذا وجدتها تفعل ذلك ستشجع أخاها على الاقتران بها

فقال عمري بعد تدبر : يطلبها ويكتب كتابها ، ولما تنتـقل لبيته أو بيت أهله يلبسها ما يشاء أما أن تفعل ذلك قبل الزواج فأنا غير مطمئن لذلك ولا ارتاح لمثل هكذا شرط .. أنا ليس من حقي أن أفرض عليها شيئا؛ ولكن هنا نظام عام في البيت علينا مراعاته .. فأنا صحيح فقط زوج أمها لست أباها ، وأعرف أن زواجنا قد أثر على نفسيتها ، وأنا لم أحب أن تعيش في بيت عمتي عزيزة حبا لها ، وعدم إبعادها عن حضنك ورقابتك وعن أختيها

فقالت : وما الحل في نظرك ؟

قال : الحل سهل .. يتـقدم لطلب يدها إذا كان صادقا في إعجابه وعواطفه نحوها ثم يقترنان نحن فعلنا ما يليق بها وبنا .. أو نصبر شهرا أو شهرين ؛ فإذا اندمجت في العمل واندمج فواز بذلك قد ينساها وتنساه ، وإذا كانا متمسكين ببعض ستحدث تتطورات .. فالبعد يحدث النسيان والجفاء ، ومن ثم تظهر حقيقة المشاعر

ـ إنها لا تريد العمل الآن

ـ لا بأس ، فخالها صابر في انتظارها..وكل شركاتنا ترحب بها ، فالشاب بعدما تبتعد عنه سيظهر صدقه من كذبه ، ومن حقها أن تختار من يرتاح له قلبها .. أما التـعري في البيت لا تساهل فيه .. وهذا ليس تعصبا ، ولكن هذه مملكتنا قد بنيناها وشيدناها بصبر وجهاد طويل وأنا أيضا على استعداد لاستقبال هذا الشاب والتعرف عليه

ـ إذن الحل الزواج

ـ هل من حل غيره ؟

ـ أسكن أنا والبنات في فيلا أخرى .. نستـقل عنكم

وقف عمري غضبا ونهضت قائمة مثله وقال : ويلك ، ما هذا الكلام ؟! أتعيشين وحدك وأنت ذات زوج ؟ .. لو كان هناك ابن أو أخ لربما رضيت بذلك ..

ثم خفض من صوته محاولا إعادة الهدوء لنفسه متابعا كلامه : سيدتي يا أنعام ! .. المشكلة ليست بهذا التـعقيد .. الدين أولا ، ومهم في حياتنا ، وأنت خير من يعرف هذا ، ولا يجوز أن نستسلم لنفاثات الشيطان ، ونفخات الجهل ، وأنا قلت قديما واليوم إنه لا سلطة لي على سهام وأختيها ، ولست محملا لهن جميلة لحياتهن معنا في هذه الفيلا ، فمن حقهن العيش والحياة مع أمهن .. ولكني اليوم لهن بمقام الولي والوصي

فقالت أنعام والدموع تنساب من مقلتيها : إنني حائرة يا ابن عمي

ـ ولم الحيرة ؟! .. وهل إذا خلعت ثياب الحياء والدين تزول الحيرة والمشكلة ؟! .. دعيها تتصل به ليقابلنا أنا وأنت ، ونجتمع به هنا في هذا المكتب ونتعرف على حضرته؛ فإذا كان جادا فلسوف يأتي

ـ اطلب منها ذلك

ـ هيا يا عزيزتي .. اذهبي اغسلي وجهك .. أما أن تسكني وحدك وبدوني فهذا لا يجوز ولا يحل يا عزيزتي

بعد أن غسلت وجهها ، ذهبا سوية إلى حجرة البنات ، فوجدا سهام وحدها نصف نائمة ، فالقيا التحية ، وقالت أمها : يا سهام استيقظي .. فهذا عمك أبو محمود قد حدثته بكل شيء

فمسحت الفتاة عينيها الذابلتين وقالت بخجل وصوت ضعيف : تأكد يا عمي أنه ليس بيني وبينه شيء يشين .. إنما تعارف وزميل في الكلية وليس بيننا حب عنيف أو قصة حب فقط إعجاب وميل وتفاهم ورغبة بالاقتران وأنا أحبك يا عماه وأحترمك وأسمع كلامك

ـ بوركت يا بنية ! فأنا بمقام والدك ـ رحمه الله ـ وتأكدي أنني لست طاغية أو جبارا في الأرض ولا أنكر هذه العواطف والهوى بين الناس ، وسمعت كل ما قلتيه لأمك ، فقلت لها مقترحا أن تتصلي به ويأتينا لنتـفاهم ونتـفق بعدما نتعارف .. فأنت ابنتنا كما أنت ابنة أنعام .. وأعلمي أن

أحق شخص له الموافقة على زواجك إخوة أبيك أو جدك والد أبيك .. فهؤلاء هم أولياؤك الشرعيون .. ولكن سؤال بسيط خطر على بالي .. هل يعلم هذا الفواز أنك تصلين ؟! اصدقيني القول ؟

فقالت : لا أدري .. ولكن أخته منالا تعرف عني ذلك ولا بد أنها حدثته عن ذلك .. ولكن لماذا هذا السؤال ؟

ـ فالصلاة مهمة جدا في حياتنا كما تعلمين ، وهي أهم وأخطر من اللباس .. فبعض الناس من الفساق وتاركي الإسلام وراء ظهورهم ينـفرون ممن يصلي ويصوم ويذهب للمسجد ، فقلت ربما لو عرف أنك تصلين لابتـعد عنك .. فعلى المرء أن يتأكد من عواطف الناس نحوه في أحيان كثيرة .. وأنا قلت لأمك أن تتحملينا شهرا أو شهرين .. فإذا الرجل يودك ويرغب بك شريكة حياته سيديم جسور الوصل والاتصال معك .. لأن البعد ينسي العواطف المزورة يا سهام .. فأنت بالخيار ، أخبريه بموافقتنا على مقابلته والجلوس معه والتعرف عليه .. أو تتركين الموضوع إلى حين من الزمن .. فكري بما قلت .. سامحيني يا بنيتي عما نسببه لك من ضيق وحرج .. تحملي هذه الظروف والفرج قريب

فشكرته سهام وقد تناولت يده وقبلتها وهي تقول : أعرف أنك سيد فاضل .. كريم .. إنسان رائع .. أعرف حرجك من خلعي لهذا الجلباب ؛ ولكن يا عماه لا تلمني قد تعودت على السفور والتبرج ، وقد مرت عليّ هذه السنة والنصف كأنني اصعد جبالا شاهقة ..

الموت لا مفر منه

بعد اللقاء الصريح البين بين عمري وبنت زوجته انعام الآنسة سهام، تشجعت الفتاة وتحدثت مع منال وشقيقها فواز بالهاتف ، ورحب فواز بلقاء زوج أمها واستعد لهذا التعارف ووعدها أن يتصل بها ليحدد يوما للتعارف ، وقد حدث ـ قبل أن يتصل فواز هاشم بسهام لتعيين يوم للتعارف بأهلها ـ أن تلقت أسرة عمري هاتفا من الدكتور سمري ناصح الخابي المغترب منذ عقود في أمريكا ، وكان الاتصال يطلب من عمري السفر لأمريكا لأن والده يريد مشاهدته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لما علم عمري بذلك تحدث مع سمري على الرقم الذي تركه لهم وكانت ممرضة ناصح قد أخبرت عمري بسوء حالة والده قبل اتصال أخيه ، وقد ذكرنا سابقا أن عمريا قد كان يتصل بها بين الحين والآخر .. حصل عمري على التأشيرة لدخول أراضي الولايات المتحدة الأمريكية ، لم يكن ناصح الخابي يعالج في فيرجينيا حيث يعمل ويحيا سمري إنما كان يعالج في ولاية تكساس الجنوبية وقد دفع آلاف الدولارات للدواء ولإعادة الصحة فلم ينفع ذلك ، تتحسن أحواله أياما ثم تنتكس أحيانا أخرى ، قضى أغلب تلك الأيام على أسرة المستشفيات الأمريكية ، أمواله الكثيرة لم تمنع من تدهور صحته وانحداره نحو الموت .. أخبر بهذه الحقيقة .. ظهرت على بدنه آثار الكحول والدخان والمعاصي ، فطلب سمري وطلب منه أن يرسل وراء أخيه عمري ، أتى سمري بعد حين من الأيام وسمع من أبيه كلاما قاسيا وجارحا ، وأخبره أنه سيحرمه من الميراث ومن أمواله إذا لم يأخذ إجازة ويظل هذه الأيام عنده فوق سريره .. بداية لم يكترث سمري لهذا التهديد ؛ ولكن سيزانا حثته على البقاء بجوار أبيه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة .. وتيسر سفر عمري إلى أمريكا فدخل تكساس بعد أيام قضاها في السفر ، ذهب إلى المستشفى الراقد فيه ناصح الخابي يتلقى العلاج والعناية الطبية ، وجد الأب عودا أو هيكلا عظميا ، لقد ذابت اللحوم والشحوم ، والتقى الأخوان عند سرير الأب المريض بعد أكثر من عشرين سنة ، فتح الأب عينيه على عناق الأخوين فهمس الأب الواهن :

عمري !

حيا عمري الممرضة الخاصة ، وانحنى فقبل جبين أبيه والدموع تنسكب على خديه وقال

بحرقة وتأثر : كنت أتمنى يا أبتي أن أراك وأنت قويا وفي غير هذا الظرف والحال

أشار الأب لسمري والممرضة بالابتعاد والخروج من الحجرة ، وقال بصوت واهن : أنت قتلتني تخليت عني .. اخترت أمك

فقال عمري الباكي : لا تتعب نفسك بالكلام والعتاب .. دعوت الله أن ألقاك يا أبي قبل أن نفارق هذه الدنيا الفانية العاجلة .. ولكن لم أحب أن يكون اللقاء في مثل هذه الحال والظرف

ـ كرهتك يا ولدي بقدر ما كنت أحبك .. تمنيت موتك .. ودمارك ، غرت منك وآلمني نجاحك الكبير .. كنت أنا ناصح الخابي خائفا منك .. لا أريد قربك .. أردت توريطك في المخدرات لتعود إليّ ذليلا مهانا صاغرا .. أنا الذي أحببت خسارتك فأغرقت أسواق الريحانة ببضاعة معدومة

ـ أنت فعلت ذلك ؟! لماذا فعلت كل ذلك يا أبي ؟ !

ـ حسدت نجاحك بدوني ، حسدت استغناءك عن ثروة أبيك .. حسدت إيمانك ، وخشيت أن تبعد عني امرأتي الفاجرة المومس التي ابتليت بحبها ، فخشيت إن تصالحنا وتتعرف عليها وأحوالها أن تفرق بيننا وتعيد إليّ مريم .. الملعونة .. ولكني طلقتها قبل سفري الأخير بساعات تزوجتني لأكون غطاء لفجورها .. هذا كنت لا أريدك أن تعرفه عني يا ابن مريم .. والآن ما أخبار أمك ؟

ـ إنها في أيامها الأخيرة ..سامحها يا أبي

ـ وأنا في ساعاتي الأخيرة .. لما علمت أنك تعيش في الريحانة ، وكان ذلك بعد رحيل قمرية جن جنوني .. ولما علمت بنجاحك الكبير هناك فقدت عقلي ، وصممت على تدميرك لتعود إليّ ذليلا ، ففشل أعواني بتلبيسك قضية المخدرات .. نظافتك حمتك وكثرة مشاريعك حمتك من ضرب الأسواق في الريحانة .. وأما الرصاصات التي أطلقت على بيتك .. لم نقصد بها قتلك .. إنما كان ذلك لإزعاجك والتشويش عليك .. وخطف الرجال ابنك حسنا لإيذائك وقذف الرعب في قلبك .. فلما علمنا من أهل بيتك بسفرك أعادوا الصبي .. وأنا أرسلت وراءك لأقل لك كل هذا وغيره .. ثم أقول لك نم هادئا .. فقد هلك عدوك .. واغفر لأبيك الحسود الحقود

وقل لأخواتك أن يسامحنني .. وكذلك أولادكم لم أسمح لهم برؤيتي ومقابلتي رغم سعيهم المتكرر لذلك .. كنت أنانيا ومتكبرا ومحبا لنفسي وكارها لكل من يقف في طريقي ولا يرضخ لحمايتي .. قل لأمك أن تسامحني يا عمري .. ولو بنيت عن روح والدك مسجدا لعل الله يقبله ويغفر له ذنوبه التي لا تحصى .. كم من الناس أفسدتهم ،كم من البنات أفسدت ، كم شربنا من الخمر .. أهلكت عمري في الفجور والشرور .. واعلم الآن وأنا أموت يا ولدي أن زوج أنعام التي زوجها لك أخي ناجح أنني أنا السبب في قتله .. لـقد اكتشف بعض الوثائق الخطيرة وأراد اللعين ابتزازي .. فدبرنا التخلص منه ..

فكان عمري مدهوشا ومصعوقا لم يسمع؛ ولكنه يدرك أن هذا اعتراف مودع فهمس رغم شدة الكلام : هل كان عمي ناجح على علم ؟

ـ ناجح ليس بالرجل الحازم الفطن ، فهو كابنه صابر ينفذ ما يؤمر به ؛ ولكنه شك فيّ ولزم الصمت ؛ وهو ضعيف أمامي .. هو يعرف غضبي وسطوتي .. وجرائم كثيرة ارتكبتها يداي خلال كل هذه السنوات .. هل يغفر ربك يا عمري ؟!

ـ نعم إنه يغفر .. يغفر كل شيء إلا الكفر

ـ أمعقول هذا ؟!

ـ معقول ونصف

ـ عمري أريد أن تظل بجواري حتى تفيض روحي ، فالأطباء لا يرون أن بقائي سيطول فالأورام انتشرت في جميع البدن ، وضعفت الأدوية عن أداء مهمتها

ـ سأبقى بجوارك يا أبي .. رغم ما أسمع منك من الأهوال والذنوب .. واستغفر ربك وتب إليه وأكثر من قول لا اله إلا الله محمد رسول الله ، لـعل الله يرحمك ويختم لك بها .. سأتركك تستريح الآن وأذهب للحديث مع سمري

ـ المهم ألا تسافر قبل موتي .. أنا أرسلت وراءك لأقل لك هذه الحقائق التي فعلتها معك ليهدأ بالك ، وتتابع مسيرتك وأنت مطمئن .. وسأقول لك الكثير في يوم آخر حتى لا يستغلك الرجال الذين تآمروا معي خلال السنوات الهالكة ، وتكون على حذر منهم .. سيدعون أشياء

كثيرة فلا تصدق إلا ما أتفوه به

ـ سامحك الله يا أبي .. لم يخطر ببالي أنك سبب كل الأذى الذي لحق بي وإن أشارت أمي ذات مرة إليك ، فقد قالت قد تكون هذه أفعال أبيك فاستغربت من قولها فهي قد صدقت

ـ إنها تعرفنني ، وتعرف ماذا أفعل إذا حقدت على شخص أو كرهته ؟ سلم لي عليها إذا أدركتها حية كما تقول .. انصرف وعد غدا .. ودع رقم هاتف الفندق الذي تنزل فيه مع الممرضة وعند استعلامات المستشفى

لم يكن عمري يتصور في يوم من الأيام أن أباه بهذه الوحشية والإجرام ، فهو كان يسمع عن قسوته وشدة معاملته لموظفيه وخصومه ، وكان يظن أن ذلك من طبيعة العمل ، ثم سافر لبريطانيا للدراسة ، فلم يعد يسمع جنون وطيش أبيه والتهى بالمدنية الغربية ، ولما رجع بعد الدراسة وقضى معه خمس سنوات ، لم يكتشف خلالها شيئا مخيفا في حياة والده لعدم اهتمامه بحياة وأسرار والده ، وأمه لم تكن تتحدث بشيء من ذلك العنف ، أو أنها تجهل ذلك كله ، أو تراه تنافسا بين أفراد ورجال شركات ، ولم يطفو منه شيء على صفحات الجرائد والصحف ثم هربه وخروجه من حياة الأسرة واجتهاده في بناء بيئة جديدة .. فلذلك لما عاد للفندق بما سمع من اعترافات ناصح كان مصدوما ومذهولا، وإن بدا متماسكا أمام الرجل المحتضر ، فذرف الدمع الغزير .. فقد رآه وحشا هائلا ، أو لا يعي ما يقول ، ولكن الأحداث التي جرت معه كقضية وضع المخدرات في مخزنه المهجور تدل على عقلية إجرامية ماكرة .. وكذلك إغراق الأسواق ببضائع زهيدة الثمن للانتقام يؤكد صدق الاعترافات ، وأن له يدا ومعرفة بذلك .. ويدل على ذكاء وتخطيط وتفكير .. وإطلاق الرصاص عليه في البيت .. هل هو صادق بأنه لم يشأ قتله إنما أراد تخويفه كما ادعى ؟ .. الواقع يدل على صدق هذا الادعاء ، وخطف الصبي بضع ساعات لماذا كان ؟ .. فحسن يذكر أنهم لم يتحدثوا معه .. فيبدو أنهم كانوا يرغبون بكسب المال تعويضا لخسائرهم في المخدرات والبضائع وإرهابنا .. وهمس وأنا متألم لمقتل زوج أنعام ابنة عمي .. آه ما أقساك يا سيد ناصح !.. تمزق قلب عمري وهو يسمع ويكرر هذه الاعترافات بين حناياه وفؤاده .. وأدرك أن أباه لم يحن للصلح والمصالحة وإنما أرسل وراءه من

أجل هذه الاعترافات الرهيبة ، وتمنى أنه لو لم يأت لسماع هذه الأخبار المخيفة .. وحمد الله أن أنـقذه من هذه الظلمات ، ولم يكسب عن والده شيئا من طباعه وإجرامه .. وقد اغتم قلبه وحزن حزنا شديدا وهو يتأمل بكل ما سمع ، ودهش من وحشية بني آدم .. ما أقسى الإنسان ! وما أصبر الرحمن على هؤلاء العصاة الأشرار ! .. فكر بالهرب والعودة قبل سماع المزيد ؛ ولكنه رأى توسل رجل يحتضر ، وهو أبوه رغم كل هذا الإجرام والوحشية ، ولما آفاق من ذهوله سأل في الفندق عن سمري ، فقيل له إنه غادر إلى فيرجينيا وسوف يعود .. قضى عمري الساعات ساهما حزينا ذارفا للدمع وداعيا إلى الله أن يغفر لأبيه العاصي الفاجر وقال بألم شديد : يا ليتني لم آت إلى هنا لأسمع هذه الاعترافات المرعبة ..

ولما ذهب في اليوم التالي للمستشفى وجلس بجوار أبيه ، وقد تظاهر أمام والده بالثبات والصبر ولكن والده قال له : لا تحزن يا عمري على ما سمعت من سيرة والدك المحتضر فأنا كنت في غابة كلها وحوش ، فكان عليّ أن أصير وحشا مثلهم وإلا أهلكوني ، ولما درست أنت في بريطانيا ، ولا درس أخوك في أمريكا ، ولما سكنت في فيلا كبيرة ، ولما ركبت سيارة أو طائرة ولما احتضنت فتاة أو خائنة ، ولما أحنت لك الرؤوس رأسها ..اغفر لأبيك يا عمري .. كنت أريدك أن تكون مثلي وحشا إنسانيا ؛ ولكنك نجوت وعرفت الطريق فتولاك مولاك .. وانتصرت على أبيك وعلى أفكار ابيك .. وكسبت كل من حلق حولك .. كنت أعجب من أفعالك والتفاف الخيرين حولك .. كنت أرى أن كل الناس شر وشياطين ولا خير في الدنيا .. إنما هي صراع وقتال ومال وقوة .. قتلتني من الداخل بنجاحاتك .. هزمت مبادئي التي ترعرعت عليها وشبت عليها .. أدركت أنني كنت أعيش على الوهم والمرض والشهوة .. اغفر لأبيك جنونه ووحشيته .. سلم على بدرية وقمرية وكل أحفاد ناصح محمود الخابي .. لا تبكي أمامي أنا أبغض الضعفاء

ـ اسأل الله أن يغفر لك ، هو وحده غفار الذنوب .. سوف أسلم لك عليهم .. إنهن بشوق إليك وحمّلنني كثيرا من السلام والتحيات .. غفر الله لك يا أبي ! ما كنت أعرف كل هذا الشر عنك

ـ ألم أقل لك إنك نجوت ؟ ارسلت لبلاد الانجليز لتكسب جبروتهم وقسوتهم وطباعهم الانجليز حكموا العالم مع قلة عددهم .. كنت أريد أن ترث كل شيء عني ؛ ولكنك فلتّ بسبب تلك الفتاة .. وبسبب ذلك الجامع الذي أنشي قريبا منا

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله

كان عمري لا يحب سماع اعترافات أبيه وهو متضايق من معرفة المزيد ؛ ولكن الأب عندما يراه لا يحلو له إلا الحديث عن قبائحه وسيئاته، كم امرأة أفسدها على زوجها ! كم رجل تخلص منه إما قتلا ذكيا أو إعاقته ، كم امرأة ادعى حبها وضجر منها ! كم عملية احتيال ونصب مارسها فوجد أو اكتشف في هذا اللقاء الذي كانت تهفو نفسه اليه منذ سنوات طوال أن أباه كتلة شر ، وأن الثياب الجميلة البراقة التي يرتديها كانت تخفي وراءها إنسانا شريرا ثعلبا ماكرا .. ذكر أمامه أسماء مديرين وموظفين وموظفات تعاونوا معه .

قضى عمري شهرا صعبا علقما ، كل جلسة عند سرير أبيه يتجرع فيها سما زعافا ، فما صدق أن لفظ الرجل أنفاسه الأخيرة .. لـقد أوهى قلبه ومزق روحه بما أفاض أمام ولده من الاعترافات والغدر والخيانات .. فاستعان ببعض المسلمين الموجودين هناك ، وقام بما يلزم الميت المسلم ، وقد سوى حسابات المشفى ، ونـقد الممرضة أجرها وصرفها للبلاد ، وأرسل لأخيه سمري برقية يعزيه بأبيه ، وبعد أيام قليلة ركب الطائرة عائدا لبلاده ، وهو يحمل هموما كالجبال من الصفحات السوداء التي قدمها والده بين يدي الله .

خطبة حسن

قبل أن يحط عمري قدميه في بلاده تلقى وهو في إيطاليا نبأ وفاة أمه منذ أيام ، كان عمري قد نزل إيطاليا ليقضي فيها أسبوعا من الاستجمام والراحة ، ولما استراح من تعب الطائرات اتصل بالبيت فأخبر بالخبر ، وأنهم اتصلوا بالفندق بتكساس ، فعلموا أنه قد غادر الفندق ، فتـقبل تعازي الأسرة واسترجع وذكر دعاء مصيبة الموت ، وأخبرهم بدوره بوفاة والده ودفنه هناك في مقابر الجمعيات الإسلامية ، وحدثته زوجته زينب بعدما عزته بوالديه أن الدكتور يوسف حسان قام بكل إجراءات الدفن والعزاء ، وحثته على البقاء حيث هو ليريح أعصابه قبل نزوله المدينة ، فشكرها واثنى عليها وعلى الأخ يوسف حسان صديق الريحانة والمشاريع ، كان تعب عمري الحقيقي مما سمعه من أقوال أبيه ، فقد قتله في أحلى اللحظات التي ينتظرها من مصافحة ومعانقة والده ، استدعاه ليقول له تلك الصفحات السوداء من حياته ، وكان السؤال المهم ماذا يفعل من أجل أبيه ؟ممن أساء لهم أبيه ؟هل يفتح دفاتر أبيه وملفاته العتيقة ؟ فوجد أن الوضع مـعقد وبعض القضايا مضى عليها عشرات السنين .. فقضية زوج أنعام ماذا يستطيع أن يفعل إن نبشها ؟ أبوه لم يتحدث عن تفاصيل الحادثة .. ولماذا ؟ ! وما هي الأوراق الخطيرة التي عجلت بقتله وتدبير مكيدة له ؟ ! .. وبعد نظر وتدبر وتفكير عميق رأى أن أفضل حل لما سمع أن ينساه .. فالاعترافات وحدها لا تكفي .. أين هم الذين شاركوا في هذه الجرائم ؟ الأعوان مسؤولياتهم التفصيلية ، هل هم عصاة لليوم ؟! أم تابوا بعد ذلك ؟ أم هل هم أحياء ؟ .. ليس هناك تفاصيل واضحة أستطيع الاستفادة منها .. ذكر أسماء رجال أحياء وأعوان ونساء مجهولات .. ولكني لا أعرفهم شخصيا .. فليس من السهل نبش أي قضية .. فبعد عشرة أيام من التفكير والتدبر والنظر اتخذ قرارا مهما وحاسما ، وهو عدم فتح ملفات الماضي وتسليم أمرها لله ؛ ولكن إن صدف والتـقى بضحية من ضحايا أبيه سيحاول التكفير عنه .. وسينفذ وصية والده ببناء مسجد عن روح والده ، فبعدما انشرح صدره لهذا الرأي نزل البلاد ، وما كاد يجلس في البيت حتى أقبل الأصدقاء والمعارف لتعزيته في والديه ، فتقبل التعازي وقدم الشكر لصديق العمر الدكتور يوسف حسان وولديه على ما بذلوه من جهد على جنازة أمه من غسل وتكفين

ودفن والقيام بواجبات الميت ، وقدم الشكر لسكرتيره العتيد احمد ، ولأخوة زينب ولصديق العمر الأخ حسن ، ومكث عمري أياما يتقبل عبارات المواساة والصبر في البيت وفي العمل .. ثم شرع بتصفية شركات أبيه ، وحصر أمواله لتسديد ديونه وتنفيذ وصاياه وتوزيع ميراثه ، وعرضت عليه البنات ضم شركات أبيه إلى شركاته فرفض ، وقال : يجب أن يعرف كل وارث حقه وحصته

وأيضا لم يرض بشراء أي شركة أو مصنع من مصانع وشركات ناصح الخابي ، فكان يرى أنها مغموسة بالظلم والدم والحرام ، فكلها عرضت للبيع أو التصفية ، وكذلك تم حصر ثروة أمه ودفع ما عليها من ضرائب ومستحقات للدولة ، وتم توزيعها على الورثة للذكر مثل حظ الانثيين ، وتم تحويل حصة سمري إلى أمريكا الذي أعادها لعمري معتذرا عن قبولها ، وطلب منه أن ينفقها على مشاريع خيرية عن روح أمه ، وحثه على التعجيل بحصر ثروة أبيه وارسال حصته له ، فوعده عمري خيرا .. وقبل أن ينتهوا من حصر ثروة الوالد وتصفية شركاته قام بتشييد المسجد عن روح والده من ماله الخاص ..

وذات مساء عاد مبكرا للمنزل ، والتـقى بسهام في حديقة الفيلا فحياها ، وجلس يتحدث معها ويسألها عن صحتها وأخبارها ، ورغب أن يدخل السرور على قلبها ، فسألها عن فواز ، فاستغربت ذلك السؤال واعتقدت أن وقته غير مناسب ، فقال باسما : الموت والأحزان لا توقف الحياة يا حبيبتي ! فأنا كما أفكر بنفسي أفكر بكل من هو في فلكي ، وصدقي أنك لم تغيبي عن بالي خلال هذه الشهور التي انقضت ، وأنا في أمريكا وإيطاليا وهموم الإرث وبيع أموال أبي وأنا ما زلت انتظر اللقاء

فقالت بحياء : لقد تحدثت معه قبل سفرك الأخير ، ولما اتصل بي لتحديد موعد لم تكن أنت هنا ، ورفضت أمي مقابلته بدونك .. فاضطررت أن أشرح له الموقف وأعتذر له

فقال : لا بأس .. خيرا إن شاء الله ! .. ألم يعلم بمجيـئي بعد ؟ فإذا كان الشاب راغباً بك زوجة سيتصل ثانية وثالثة .. أو اتصلي به

فقالت : أخبرت منالا بعودتك .. لا تتعب نفسك معي يا عمي

ـ يا بنية هذا واجب ، نحن يهمنا سعادتك واقترانك بشاب يحبك لتدوم الحياة الزوجية .. فالحب الحقيقي سلاح يقضي على كثير من المشاكل الزوجية ، فتوكلي على الله سبحانه ولا تحملي الهموم والنكد من الآن

وبينما هما يتحدثان أقبلت نحوهما أنعام ـ فإنها لما سمعت أن زوجها يجلس في الحديقة مع ابنتها لبست ثيابها ، وخرجت إليهما ، وقد تبعتها الخادمة بفناجين القهوة ـ فرحبوا بها وقالت أنعام لما أخذت موقعها وجلست بالقرب من عمري : سهام تحبك كثيرا يا عمري ! .. وترى أنك في هذه الشهور عوضتها عن رعاية الأب وحنانه ، وهي معجبة بثباتك وعدم جزعك وعدم تظاهرك بالمبالغة بالحزن رغم وفاة والديك في زمن متقارب ، فهي تذكر ما حدث عندما مات جدها ناجح ، وما فعلنا من اللطم والصراخ والبكاء والحداد ؛ ولكن عندما ماتت الحاجة مريم - رحمها الله تعالى وغفر الله لنا ولها ـ لم يظهر صراخ في البيت وعويل وندب ، فقد كانت زينب سيدة الموقف .. حزن ودموع وبكاء هادئ ، وبالمثل فعلت بدرية وقمرية والبنات ..لم يفعلوا كما فعلنا من النوح واللطم .. فقلت لها يا بنية هؤلاء قوم مؤمنون يتحرون السنة ، سنة النبي ﷺ في أفعالهم وأقوالهم ، وذكرت لها قصة حزن النبي ﷺ على وفاة إبراهيم ابنه ، وموت ابن ابنته ﷺ ، وعمه حمزة رضي الله عنه ، وأن الصراخ والبكاء المرتفع من فعل الجاهلية ، وأكثره نفاق ومجاراة ومماراة أمام الآخرين .. فقد سرت من ذلك التواضع وعلقت يومذاك الحزن في القلب هو الحزن الحقيقي

قالت سهام كأنها تذكرت ذلك الحديث : أجل يا عمي !.. الحزن حزن القلب ، وإن يظهر على الوجه بعضه ، ولكن هل هذا الحزن حقيقي أم وهمي متكلف ؟ ولما حضرت وعزيناك كنت طبيعيا لم تظهر أمامنا بحزن مزيف وأنك وأنك ..

فابتسم عمري وقال معجبا بكلامها : دقيقة الملاحظة يا بنية .. فأنا بكيت أبي هناك ، وفي إيطاليا بكيت أمي إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول ونتكلم إلا بما يرضي الله سبحانه .. فالإنسان عارية مستردة .. كتاب مؤجلا ففي فعلنا الصواب نأخذ الثواب والحسنات ، وفي اللطم وضرب الخدود وقد الجيوب نأخذ السيئات ، ونؤلم الميت ، ونتشبه بأهل الجاهلية .. فأيهما

خير ؟ .. أنا قلبي ممزق على أبي الضال يا سهام ! كنت أتمنى وأحلم ليلا ونهارا أن أراه مهتديا تائبا .. فأمامنا درب طويل بعد الموت .. وهذا الدرب يحتاج لزاد ، وخير الزاد التقوى، ويتحصل عليه المرء في سنوات هذه الدنيا ، فالتزود بالتوبة وهدي نبينا محمد ﷺ سيساعدنا على قطع الطريق ، والنجاة من النار ، وأنفاس النار، والموت غاية ونهاية كل كائن حي .. وفقك الله يا سهام الطيبة وأطال الله عمرك

رعش قلبها لكلمات عمري الدافئة ، وتمتمت الفتاة بالشكر ، وقالت أنعام : أخبرتني أمي أن السيدة نوالا قد رفعت طلبا للقاضي بطلب الطلاق من زوجها نادر ، وقد غضب صابر منها لو تتدخل يا ابن العم يا أبا محمود

فقال عمري : طلاقها خير لها يا أنعام ! عمي كان يمنع ذلك ، ولا يريده لاعتبارات الصداقة الحميمة بينه وبين والد زوجها .. والرجل ليس ممن يتاجر به ..

ـ والله لو تسمع هذا الكلام لتتـعلق بعنـقك وترحل إليك وتأخذك مني

فضحك عمري وسهام ، فهم يعرفون تعلق نوال القديم بعمري ، فقال : لا تخافي إنها لا تحل لي .. لا يجمع بين أختين في إسلام .. ولكن لعلنا ننـقذها من ذلك المخمور .. ساعديها يا أنعام وليتركها صابر تفعل ما تشاء .. أبوه وقد مات ، وابنها قد كبر ودخل الجامعة ، وهو لا يحبها ، وهو يعيش مع عماته وجدته

فقالت سهام : هذا رأيك يا عمي ؟

فقال ملتفا إليها : رأيي ورأي الشرع .. فالشرع إذا كان الزوج فاسقا يحق للمرأة أن تطلب التفريق إذا خشيت على دينها ونفسها .. ثم هي ليست المرأة الوحيدة في حياته ، فله كثير من الخليلات وبنات الهوى .. فهؤلاء المتغربون للأسف لا يرون الزنا عيبا وذنبا وعارا بل هو متعة ولذة منشودة .. المهم موافقة الطرفين على الفاحشة

ـ شيء مقرف ومهين

فقال عمري : لكل ذي لب وعقل كبير ، وأما من يحيا حياة الحيوان فلا .. حتى أن بعض الحيوانات تأبى ذلك .. فطلاقها خير لنفسها ولدينها .. وهي تبغضه وتراه جلادا لها .. تحدثي

يا أنعام مع صابر وانـقلي له قولي ورأيي .. فأنا مشفق عليها
فقالت أنعام : إنني أغار من هذا الكلام .. أخشى أن تسلبك مني
فقال عمري مستنجدا بسهام : اسمعي أمك يا سهام ! .. ويحك ! .. كبري عقلك فنوال أكبر منك وقد تجاوزت الخمسين على ما أظن .. فهل يطمع فيها رجل ؟!
كانت سهام تبتسم وهي تسمع أمها وزوج أمها يتحدثان أمامها بهذا الكلام ، وعادت أنعام تقول : كلما التـقي بها تقول لي سرقت عمريا مني ألم تكوني تعلمين أنني سأصل إليه ولو آخر يوم في عمري فقالت سهام : والله يا عمي إنها تتكلم بذلك ، وتكرره أمامنا بدون خجل أو حياء
فقال : الكلام ليس له ثمن .. أنا أنعام رغم معزتها في قلبي كنت أخجل أن أتقدم إليها كزوج ولولا وصية عمي ناجح لما تجرأت على الزواج ثانية .. فأنا أخاف النساء
فقالت أنعام ضاحكة ضحكة قصيرة : يبدو أنك فعلا نسيت سنوات المراهقة ولندن ومرسيليا
فقال ضاحكا : أيام جاهلية وجهل .. أسأل الله أن يعفو عني كنت ابن أبي .. ما أروع طهر الإسلام يا أنعام ! ونظافة الإسلام وعفة الإسلام !
وقضى الثلاثة سهرة ممتعة في حديقة الفيلا ، بل طلبوا العشاء فيها، فحضر باقي أفراد الأسرة ومعهم السيدة زينب ، وسمروا وانبسطوا بتلك الجلسة العائلية ، ولما رأت زينب حبور القوم وسعادتهم ، وقبل انقضاء السهرة العائلية وانفضاضها ، أحبت أن تزيد الفرح بينهم ..
فقالت فجأة وبدون تمهيد : يا أبا محمود .. ابنك حسن راغب بالزواج
التفت الجميع لزينب وقالت أنعام : حسن .. أين حسن ؟ وكانت تبحث عنه ، فلم يكن حسن موجودا ، وبينما أنعام تبحث وتتسأل عن حسن ، نهضت ابنة أنعام الصغرى الآنسة ريمان مغادرة ـ وهي تنظر لامرأة زوج أمها بنظرات فيها تهديد خفي باسم ـ فقالت زينب مخاطبة لها وهي تبش في وجهها : أين يا ريمان ؟ !
فقالت والخجل يملأ وجهها : سأقضي أمرا في البيت السلام عليكم
كانت أنعام تنقل نظرات عينيها بين زينب وريمان وأحست أن بينهما كلام فقالت لزينب بهمس

: ما الأمر يا حبيبتي ؟

فقالت زينب هامسة : الآن ستعرفين الأمر

فلما عاد الهدوء للمجلس بعد انصراف ريهان ، قال عمري : يا زينب لم تكملي كلامك عن حسن.. هل حقا صارحك عن رغبته بالزواج ؟ .. هل بلغ ثمانية عشر ربيعا ؟

فقالت : هكذا سمعته يحدث خاله حسنا وهو يقول يا خال علمت أنك تزوجت صغيرا قبل أن تبلغ العشرين سنة هل صحيح ذلك ؟ فضحك أخي حسن وقال أتريد الزواج يا حسن ؟ فقال حسن الصغير بدون تردد نعم يا خالي ! .. عسى أبي أن يزوجني فقال أخي حسن عاشق يا خال ؟ من هي سالبة لبك ؟!

فقال عمري : وهل أتى حسن اليوم ؟

فقالت أجل أتى ومعه زوجته وبعض الأولاد وانتظرناك على الغداء ؛ ولكنك اعتذرت لقيامك بزيارة مريض كما قلت في المستشفى .. كيف حال مريضك على ذكره ؟

بخير إن شاء الله .. عامل سقط عليه قضيب حديد فشج رأسه ، ووضعه مؤلم ومحزن ولكن الطبيب أخبرنا فقال : إنه تماثل للعافية وزالت مرحلة الخطر .. ونسأل الله سبحانه أن يشفيه ويذهب البأس عنه والأمر بيده سبحانه .. آ .. أكملي من هي معشوقة الشاطر حسن ؟ !

فعادت زينب تقول : فلما أقر حسن بذلك أمامنا صراحة قلت له والله يا حسن كبرت وصرت تفكر بالبنات والزواج .. أخبرنا من هي فتاة أحلامك ؟! ـ ثم نظرت لإنعام نظرة ضاحكة التي قالت ضاحكة: ويحك !

زينب تضحك ثانية وهي تقول ريهان .. ريهان يا أبا محمود !! ؟

وأكدت زينب بابتسامة رقيقة : نعم الآنسة ريهان

فأخذت الفتيات بالتعليق الهادىء على هذا الحدث اللطيف ، وقالت الطبيبة عائشة التي أنهت دراسة الطب وتستعد للتخصص : هذا آخر خبر أن تدور في الفيلا قصة حب ونحن نائمون

فقال محمد وهو صبي أصغر من حسن : لا تظلموا القوم .. حسن يحافظ على الفروض ، وكذلك ريهان ؛ ولكن بينهما انسجام وإعجاب

فقالت زينب بجد : لم أغفل عنه يا عمري ! فهو ابنك وتربيتك ، وحسن طيب ، وهو كما قال محمد أصابه ميل لريهان ، فقال لي : يا أمي زوجوني من ريهان أنا قلبي يميل إليها وهي لا ترفضني .. فقلت له يا ابني أنت ما زلت صغيرا على الزواج غدا لما تدخل الجامعة سوف تقابل بنات أخريات فقد يتغير هواك فاصبر ؛ ولكنه مصر على حب ريهان ، فقلت أكشف لكم الأمر قبل فوات الأوان وهو من أجل ذلك رفض أن يشاركنا العشاء ؛ لأنني قلت له سأخبر أباك ، فقال أخبريه وأرجو أن يوافق .. ومن أجل ذلك انسحبت ريهان الجميلة غاضبة مني ..

فقالت أنعام ضاحكة : والله يا حسن ! أليس هذا الولد الذي خطف صغيرا يا زينب ؟!

فقالت زينب : بلى .. وهو لليوم لا ينسى ذاك الحادث

فقال عمري لنفسه وهو يسمع ذلك : كيف لو يعرف ويدري أن جده هو الذي خطفه ؟! وأن جده شارك في الخلاص من والد الفتاة التي يهواها .. يا لله من هذه الدنيا !

وقالت زينب : أين سرحت يا أبا محمود ؟

فقال : نعم الفتاة ريهان .. وهذا الأمر يعود لها ولإمها أولا ، وقبل أن نتوسع في ذلك ننتظر حتى ننتهي من موضوع سهام الغالية .. وقد نكتب كتابهما الشرعي إذا رغبا بذلك ، ونؤجل الزواج بعد انتهاء امتحان الدراسة الثانوية فقد بقي بضعة أشهر للامتحان النهائي أليس كذلك يا عائشة ؟

فردت عائشة : بلى .. والله يا حسن تريد أن تصبح عريسا وزوجا !

فقال عمري : والله يا ابنتي كان الناس قديما يزوجون أولادهم صغارا ، وكذلك بناتهم ؛ ولكن أحوال الناس في هذا الزمان وخصوصا أهل المدن تختلف عن ظروف وأحوال ذاك الزمان ، وكذا تختلف أحوال أهل البادية والقرى عن أهل المدن .. والتعلم والجامعات والمال والمهور كل ذلك يؤخر سن الزواج هذه الايام

فقال محمد وهو ينهض : سأذهب لأبشر حسنا وريهان ، فلابد أنهما يجلسان في المكتبة ينتظران النتيجة

فقالت زينب : لم نسمع رد أم سهام بعد ؟

فقالت أنعام باسمة : ويحك يا حبيبتي !.. لقد قلتم وفصلتم فهل يبقى لي كلام ؟ .. والكلام الأول والأخير للبنت ثم عمها عمري .. أما أنا فأقول إذا كان لها رغبة بالزواج ومؤهلة لذلك تتزوج .. فريهان لا تحسن صنع كوب من الشاي أو فنجان من القهوة

فقالت أحلام ضاحكة : ولماذا تصنع الشاي أو القهوة يا أمي والشغالة أم احمد موجودة ؟ ثم تتعلم .. فامرأة عمي ماهرة في الطهي فسوف تلقنها ذلك .. عقبال عندي يا أمي

فقالت عائشة بعدما ضحك القوم على تعليق أحلام : لا تخافي يا حبيبتي ، سوف يأتي العريس وفارس الأحلام .. فابن عمتي بدرية ينتظر إنهائك الجامعة ليطلب يدك من خاله العزيز ..

فقالت أنعام مقطبة : والله أنا هنا كالأطرش في الزفة كما يقولون يا أبا محمود فقال عمري ضاحكا : وأنا مثلك

فقالت عائشة شارحة خبرها : هو قال لنا ذلك يا أبي ! منذ زمن عندما ذهبنا مرة للريحانة ودعتنا عمتنا بدرية للغداء معهم ، وكانت أحلام معنا في تلك الزيارة ، فلما رآها ادعى أنه رأى أجمل امرأة في العالم

فتبادلت أنعام وزينب وعمري النظرات والابتسامات وتذكروا عباراته الخالدة في زينب أحلى امرأة في العالم ، ثم رسموا على وجوههم الضاحكة ابتسامة أخرى ، وقالت زينب : سنة الحياة سبحان الله ! .. أدام الله علينا العافية والسعادة والنعم وبارك الله لنا في كل ذلك بفضله وجوده

فرددوا جميعهم آمين

وانصرفت الشابات إلى حجر النوم ، وظل عمري وزوجتاه يتأملون القمر المكتمل في نصف رجب وتمتم عمري قائلا : من عاش رجب شاهد العجب

رصاص مرة اخرى

بعد تلك السهرة الممتعة لعمري بين زوجتيه وأفراد العائلة بأيام ، حدث لعمري حدث كاد يورده المهالك ، وينتقل به من الدار العاجلة إلى الدار الآخرة ؛ إنها ساعة الأجل لم تأت بعد ، فقد لطف الله وخفف البلاء، ولم تكن ساعة المنية قد حانت .. و للحق فصاحبنا عمري لم يغفل عن هذه الساعة ، فكانت أموره المالية مرتبة أحسن ترتيب ، ووصيته مكتوبة عند رأسه ، فالموت يأتي بغتة ، فالذي حدث كان مفاجأة للجميع .

عند ظهيرة ذاك اليوم عند مكاتب الشركات الرئيسية في شارع قطز في العاصمة الكبيرة والجميلة ، وقف شاب في العشرين من عمره أو دون العشرين سنة على الرصيف المقابل لتلك الشركات ، وكان يضع على رأسه كوفية حمراء ، وعلى عينيه نظارة خضراء ، وبين شفتيه سيجارة وكان يرتدي جاكيتا أسود وبنطالا ازرق ، وأخذ هذا الشاب الصغير يقرأ اليافطات المعلقة حتى شاهد يافطة أو لوحة كبيرة كتب عليها مجموعة الشركات العمرية ، كانت لوحة كبيرة على مساحة من واجهة العمارة الكبيرة ، فانبسط الشاب لما قرأ تلك اللوحة ، وكأنه وجد ضالته التي يبحث عنها ، وادخل البطاقة (الكرت) في جيب الجاكيت ، وتحسس مسدسا يخفيه على وسطه تحت الصرة ، ثم قطع الشارع المزدحم بالسيارات يمينا ويسارا ، وتوقف أمام مدخل العمارة ورفع النظارة عن عينيه وسأل أحد الحراس الواقفين أمام مدخل البناية فقال : هل هذه شركة السيد عمري الخابي ؟

صفن الحارس لحظات قبل أن يرد وقال : عمري الخابي آ .. قصدك عمري محمود الخابي ؟

الشاب : نعم

فرد الحارس متفحصا للشاب : هذه البناية كلها للسيد عمري محمود .. ماذا تريد ؟

تململ الشاب قليلا وقال وهو يخرج الكرت ثانية ويمد به نحو الحارس : هذا كرت باسم الشركة .. فقد أرسلني قريب لمقابلة السيد عمري الخابي لمساعدتي في إيجاد فرصة عمل

فقال الحارس بعد نظره في الكرت التعريفي واعادته للشاب : هنا مكتب للتوظيف .. اصعد إلى الطابق الأول .. واسأل عن مكتب الأستاذ جلال خليل .. خذ هذا الكرت معك

دخل باب العمارة فوجد حارسا آخر يسأله : أين يا شاب ؟ فأخرج الكرت من جديد ـ فكأنه اعتبر هذا الكرت بطاقة هوية ـ وهو يقول : أرسلني قريب لي للعمل هنا في شركات عمري الخابي ، وقال لي الحارس في الخارج أن أذهب لمكتب الأستاذ جلال خليل

فقال الحارس : اطفىء السيجارة يا شاب .. فالتدخين ممنوع في داخل الشركة

طرح الشاب السيجارة في مكان مناسب ، ثم عاد وسأل الحارس : هل السيد عمري موجود في مكتبه ؟ .. فالرجل أرسلني إليه شخصيا ، فأنا يتيم ، وأبي كان يعمل عندهم قديما عند عمه ناجح أبي صابر

فقال الحارس : يا ابني .. اذهب حيث الأستاذ جلال ، وسوف يهتم بك وتشتغل بدون أن تقابل السيد عمريا

صعد للطابق الأول ، ولم يذهب لمكتب الأستاذ جلال ، بل سأل أحد الفراشين عن مكتب السيد عمري فقال له : إنه في الطابق السابع يا ابني

فتركه وركب المصعد إلى الطابق السابع ، وأخذ يقرأ لوحات الغرف حتى قرأ لوحة عليها مكتب المدير العام لشركات ومؤسسات المجموعة .. ووجد صالة فدخل فيها ، فكان فيها رجلان يتحدثان ، فسأل: هل هذا مكتب المدير العام عمري بيك ؟

فالتفتا إليه وقد قطعا حديثهما وقال أحدهما : أجل .. انتظر حتى يخرج السكرتير

كان السكرتير يتحدث مع المدير في الداخل ، والحارس الشخصي كان في دورة المياه تلك اللحظات القاتلة ، وعاد الرجلان للحديث معا ، فقام الشاب بالوقوف أمام الباب لحظات ، ثم دفع الباب بهدوء وأدخل رأسه ، فالتفت السكرتير والمدير إليه وقال السكرتير مخاطبا له : انتظر

ولكنه دخل ولم ينتظر ، وقد أشهر مسدسه ، وهو يصيح وبانفعال شديد : إني قاتلك يا عمري بيك .. فلتمت يا ابن الظالم

وأطلق الرصاص سريعا قبل أن ينهي كلامه ، فأصاب ذراع عمري الذي رمى نفسه على الأرض وفعل السكرتير مثله .. وكان الشاب يطلق الرصاص بهياج وغضب وصراخ وعصبية

وكان الحارس قد عاد لتوه، ففزع لما سمع صوت إطلاق الرصاص ، فدفع الباب سريعا ، ورمى الرصاص على القاتل الذي سقط على أرض باب المكتب ، فهجم عليه الحارس ، وكان عمري رغم إصابته قد ضغط على جرس الإنذار والحماية ، وصارت فوضى في المكاتب ، وتم نـقل السكرتير المصاب وعمري المصاب أيضا إلى المستشفى ، وكذلك الشاب الجريح ، وبدأ التحقيق وكانت رصاصتان قد استقرتا في كتف وذراع عمري ، وأصيب السكرتير برصاصات في فخذه وبعد انصراف البوليس والأمن .. أعاد الدكتور يوسف حسان الأمور إلى نصابها ، وطالب الجميع بالهدوء والانصراف للعمل حتى يعلم رجال الشرطة سبب ودوافع هذا الاعتداء الغادر على السيد الفاضل عمري ناصح محمود الخابي .

نشرت صحف المساء تفاصيل الاعتداء على شخصية السيد عمري في مكتبه الكائن في شارع قطز .. وأعادت هذه الحادثة الذكريات القديمة يوم تعرض بيت عمري في الريحانة لإطلاق الرصاص ، وحادثة خطف حسن ، والكل يتسأل عن سبب هذا الاعتداء ومحاولة القتل الغادرة، فالسيد عمري رجل مشهور بنظافة اليد ، ومعروف بالعطف والإحسان ، وأعماله تقوم على الإحسان أكثر منها على كسب الأموال ، وتوفر فرص العمل للعاطلين ، وتدعم وتمول المشاريع الخيرية والاجتماعية ، فجانب كبير من الأموال يذهب لدور الأيتام والمعوقين والمستشفيات والعيادات الطبية .

وأما بيت الأسرة فكانت الدموع تنسكب من عيون أهل البيت صغيرهم وكبيرهم ، فهل لهذا الرجل الطيب أعداء لهذا الحد من العداوة والبغضاء ؟ .. ولما اتصل بهم الدكتور يوسف ليلا طمأنهم على صحة عمري وصديقه احمد ، وأن فريق الأطباء نزع الرصاصتين ، وأنهما بعيدتان عن القلب ، دب الفرح في قلوب المحبين ، وكثر الدعاء ، ولجأت الزوجتان للصلاة والدعاء والابتهال إلى الرحمن بأن يفرج الكرب عن عبده عمري محمود .. وكانت ريهان تجلس في صالة من صالات الفيلا ومعها أختها أحلام ، وحسن وأخوه محمد وأختهم مريم الصغرى ، فكانت أحلام تقول بحيرة واستفهام : لماذا يكرهون عمي عمري ؟ !

فيقول حسن : لماذا خطفوني قبل عشر سنوات ؟ !

وأخذ حسن يتذكر يوم جاءه الرجل إلى المدرسة وركب السيارة معهم ، ثم خدروه وساقوه إلى مكان مجهول ، ولما أفاق من تأثير المخدر أو المنوم أركبوه في السيارة ثانية ، وتركوه قرب البيت ثم عاد يقول : لماذا يكرهوننا ؟ ماذا فعلنا لهم ؟

فتقول مريم : من هم هؤلاء يا حسن ؟ !

فيقول باسما لأنه هو نفسه لا يعرف منهم هؤلاء الاعداء : أعداء الخير .. أعداء السلام .. أعداء الأمن ..لم يبق سوى بضعة أشهر ثم التحق بكلية الأمن والشرطة .. ولسوف أحارب المجرمين بغير هوادة .. سوف أفعل بهم وأفعل ..

فقال ريمان : على هونك يا بطل !.. قبل أن تفعل بهم كذا وكذا عليك أن تعرف سبب فعلهم لهذه الجرائم .. لماذا انحرفوا ؟ لماذا أجرموا؟ لتنـقذهم من إجرامهم قبل أن تفعل بهم ما تحلم به من الأفعال

فقال محمد : معها حق يا حسن .. لماذا يسرق هؤلاء اللصوص ؟ لماذا يقتل هؤلاء القتلة ؟

فعاد حسن يقول : صحيح أن هناك دوافع وأسبابا للجرائم المختلفة؛ ولكن على الإنسان ألا يستـغل هذه الدوافع للانحراف والشذوذ والشر ، عليه أن يضبط نفسه ويتمالك أعصابه ولا يستسلم لنوازغ الشر والشيطان .. الحقد له علاج .. والغضب له علاج .. ولو كل شخص تربى تربية فاسدة أصبح قاتلا ومجرما ولصا لاختل أمن الناس وأحوال معيشتهم .. كثير من الناس فقراء ولكنهم لا يسرقون .. كثير من الناس يربون تربية سيئة لا يقتلون .. فليس بالضرورة أن كل فقير عليه أن يسرق وينصب ويحتال ويمكر فهناك العمل الشريف والصبر والأمل

فكان السامعون مبهورين من كلام حسن ، فعلقت أحلام قائلة : كلامك أكبر من سنك يا حسن ! ولكن لا تنسى أن عند كل إنسان نقاط ضعف قد تدفعه في لحظات معينة لفعل أشياء يرى فيها أنها دفاع عن نفسه .. فعلينا أن لا ننسى الرحمة والعطف بيننا ، وأن نتعامل مع المجرم على أنه مريض ، ونعالجه كما نعالج المريض ، فهناك أمراض يتمكن الطب من علاجها ومنها أمراض لا يستطيع علاجها ، يعجز الطب عنها .. وبعضها بين بين .. فهناك منحرف يمكن

تقويمه وإعادته للجادة والصواب ، وبعضهم لا يمكن تحقيق ذلك معه .. ومنهم بين بين أيضا يتحسن تارة وينحرف تارة أخرى

فقالت ريهان : فلسفة مهمة يا أحلام ! .. ولكنها قريبة من الصواب ؛ ولكن أسباب الجرائم أحيانا تأتي فجأة .. أحوال ظروف عواطف مشاعر .. انفجار .. أليس كذلك يا أخ حسن ؟

ـ بالتأكيد يا ريهان .. فالأمر ليس بهذه البساطة التي نتحدث فيها ، فالإنسان كائن معقد ، ليس كالمواد التجريبية والعناصر الكيميائية نتحكم فيه بالتصنيع والتغيير حسب المعلومات والصفات .. غدا سنذهب لزيارة الوالد .. من سيذهب معنا ؟

فقالت أحلام : كلنا سنذهب .. فقد قال الدكتور يوسف إن الأطباء غدا سيسمحون للناس بزيارته .. فكلنا نحب الأستاذ عمري يا حسن ! هو أبونا كما هو أبوكم

ـ الشكر لكم .. نحن نعرف حبكم لنا ولأبينا وحتى لأمنا

فقالت ريهان : ماذا تقصد ؟ ! أتشك يا ولد بحبنا لأمنا زينب ؟

فقال ضاحكا : أقصد أن الناس يقولون كثيرا على أبناء الضرائر وبناتهم..

قطعت ريهان استرسال حسن عن أبناء الضرائر قائلة : يا حسن .. نحن لسنا أبناء ضرائر .. كانت أمي تتمنى لو يهبها الله ولدا من أبيك .. إنها خائفة علينا فـتريد أخا ليربطكم بنا أكثر في المستقبل

فقال باسما : أيّ مستقبل ؟! المستقبل عند الله .. فها نحن سنتزوج يا قمر .. فهذا أفضل رباط أليس كذلك يا أحلام ؟

فقالت أحلام : بلى .. لم يسع أمي الفرح لما علمت بذلك الحب والزواج، ولما دخلنا البيت قالت لنا الآن اطمئن قلبي عليكن .. فحسن ولد مبارك كأبيه .. لا يحمر وجهك ولا يصفر .. فأمي تحبكم كلكم مثلنا ، وربما أكثر وترى أنكم ملائكة أو تشبهون الملائكة

فقال حسن : نحن بشر ؛ ولكن دعوات الأب والأم مستجابة يا أحلام ! وأنا سأكون لكن كالأخ وزيادة .. وأنا أحب أمي أنعام ـ وريهان تعرف ذلك ـ من قبل أن أضعف أمام نظرات العيون الساحرة .. وأمي زينب تحبكم ، ولا أريد التدليل على ذلك ، بل فرحت بالمصاهرة كفرح

أمكم إن لم يكن أكثر

كان حسن ذكيا وهو يحلم بأن يصبح ضابط أمن وشرطة ليلاحق ويطارد الخارجين عن القانون والنظام .

*****

لم تكد زينب وأنعام يعدن من زيارة عمري الراقد على سرير الشفاء حتى أخبرتهن الخادمة أم احمد أن البواب حارس الفيلا أخبرها أن رجلا شرطة يرغبون بالحديث مع السيدة انعام ، فقالت أنعام : أمتأكدة مما تقولين لي يا أم أحمد ؟!

ـ هكذا أخبرني عمران

فقالت زينب : أدخليهم قاعة الاستقبال نحن قادمتان إليهما وهيئ لهما القهوة والتفتت لأنعام قائلة : لا تقلقي بعد قليل سنعرف سر قدومهما

أدخلت الخادمة الضابطين الشرطيين لصالة الزوار ، وذهبت للمطبخ لإعداد القهوة لهما ، ثم أقبلت المرأتان وألقتا السلام ورحبتا برجال الشرطة ، وقالت زينب بقلق : مرحبا بكم .. ما الأمر يا حضرات الضباط ؟!

فتبسم أحد الضباط وقال : السيدة أنعام ؟

ـ لأ وأشارت لضرتها ، فقالت أنعام بخوف وتوتر : أنا أنعام ما الخبر يا سيدي الضابط ؟!

فابتسم الضابط المتكلم ثانية وقال : نأسف للإزعاج ؛ ولكننا نحقق بموضوع الاعتداء على السيد عمري محمود

فقالت أنعام بحيرة وارتباك : وما دخلنا في الموضوع ؟!

ـ لا تقلقي يا سيدتي ! .. الآن ستعرفين وتذهب عنك الدهشة والحيرة

فقالت مقاطعة : عفوا سيدي الضابط .. فالتحقيق معي في هذا الموضوع خطير ومخيف .. أليس كذلك يا زينب ؟

فقال الضابط باسما : لا يذهب بالك بعيدا .. أنت لست متهمة بشيء يا سيدتي ..نريد بعض المعلومات

قالت انعام وما زالت الدهشة تسيطر عليها : معلومات !

فقالت زينب : اصبري قليلا يا أم سهام !.. الضابط سيوضح لنا القضية؟

فقال الضابط : أنت كنت متزوجة قديما من رجل يدعى ماهر خلس؟

تطلعت أنعام بعيني زينب ثم نظرت في رجل الأمن وقالت بحيرة : نعم ، وهو والد بناتي الثلاثة سهام وأحلام وريهان .. وقد مات قديما بحادث سيارة .. وأنا منذ سنتين أو ثلاث تزوجت زوج هذه السيدة الأستاذ عمري وهو ابن عم لي

فقال الضابط مفكرا بكلام أنعام : هل كنت تعلمين أن ماهرا هذا كان متزوجا قبل الزواج منك

فقالت : نعم ، كان متزوجا من ابنة عم له ، وقد طلقها ثم تعرفنا وحصل النصيب .. ولقد كان موظفا في مجموعة شركات عمي والد عمري وأبي ناجح الخابي

فعاد الضابط يسأل : هل كنت تعلمين أن له أولادا من زوجته الأولى ؟

فقالت بدهشة : أولاد .. ماذا قلت ؟!

ـ ألم يخبرك ويقل لك أن له أولادا من زوجته الأولى ؟

ـ لا ، لم يخبرني أو يحدثني بشيء من ذلك ، ولما تزوجنا لم أسمعه مرة واحدة يذكر أولاده أو أن له أولادا حتى ما سمعته ذكر مطلقته في حديث دار بيننا

فقال الضابط : يا سيدتي ! اعلمي أنه كان لزوجك المرحوم ماهر ثلاثة أطفال عندما اقترن بك والذي أراد قتل زوجيكما هو الابن الأصغر للسيد ماهر

فهتفت أنعام برعب : فظيع هذا الكلام ! .. ولماذا يريد قتل زوجنا ؟

ـ يقول انتقام .. يدعي أن والد عمري قتل أباه فهو يريد أن ينتقم لمقتل أبيه ماهر

فقالت بصوت مرتفع شيئا ما : زوجي الأول لم يقتل يا حضرة الضابط .. مات في حادث سير عادي ..

فقال الضابط : هذا ما أدلى به الشاب رامي ماهر خلس .. عمري كما أخبرنا أنه لا يعرفه ، ولا يعرف حتى زوجك السابق لظروف شرحها لنا .. فذهبنا لقرية زوجك الأول فالتقينا بمطلقة السيد ماهر فقالت أن ابن عمها تزوجها أثناء دراسته في الجامعة ، أحبها وطلبها من عمه

وتزوجا ، وبعد الجامعة طلقها وهاجر للمدينة ، وكان يتردد على البلدة في المواسم والأعياد فقط ثم قالت علمنا بأنه تزوج ببنت من بنات المدينة ، ثم علمنا بأنه مات بعد سنوات من الزواج بحادث سير رهيب ؛ ولكن عرف والده من بعض أصدقائه في العمل أن السيد ناصح الخابي كان وراء الحادث .. ولما وصل خبر موت السيد ناصح للقرية قبل شهور عن طريق الصحف التي نشرت النعي المصحوب بالصور الكبيرة ، سمع رامي ابن ماهر أمه تقول لهم عندما شاهدت صورته في الجريدة وعلمت اسمه إن هذا قاتل أبيكم ثم حدثتهم عن هجرة والدهم للقرية وعمله مع السيد الخابي ، ثم زواجه من ابنة ناجح الخابي ، ثم موته بحادث سير مدبر .. هذه هي القصة يا سيدة أنعام .. فهل ترين فعلا أن لعمك الخابي يد في مقتل زوجك ؟

ـ لا أصدق ذلك ، مات ماهر بحادث صدم ولم أسمع شيئا على أنه مدبر .. أنا كنت اشتغل وماهر في إدارة واحدة .. كان شابا وسيما وطموحا ، وكان قد حصل على الماجستير في الإدارة المالية والمحاسبة عندما اشتغل في الشركة ، وكان مسؤول قسم التوثيق والتدقيق ، بل كان ماهرا في إعداد الموازنات العامة الحقيقية والوهمية ، لقد حاز على رضا عمي وأبي .. وكنا نتكلم نتيجة العمل والمجاورة في المكتب ، فحدثني عن طلاق امرأته في القرية وزواج أهل الريف ، ووضح لي أن أسباب الطلاق هي التي دفعته إليها ، وأهمها الجهل والأمية ، وبعد سنوات من التعارف لمح لي بالزواج .. فقلت له تحدث مع والدي ، وفعلا تحدث مع أبي ناجح ـ رحمه الله ـ وكنت يومها ابنة خمس وعشرين سنة ، ولما شاورني والدي بأمره وافقت وتزوجنا وسكنا في شقة في إحدى عمارات عمي ناصح .. ولم يخبرني أن له أولادا من زوجته الأولى قط لا قبل الزواج ولا بعده .. وكان عمي يكلفه بمهمات حساسة ودقيقة لثقته الكبيرة به إلى كان يوما عائدا من مهمة وعلى منعطف إحدى الطرق اصطدم بسيارة كبيرة .. نقل على أثرها إلى المستشفى ، وبعد أيام توفاه الله ، ويوم الوفاة التقيت بأمه وبعض أخواته، ولما انتهى العزاء لم نعد نرى منهم أحدا ، وهي كانت المرة الأولى والأخيرة التي التقي بأمه وأهله .. حتى إنهم لم يسألوا يوما ما عن بنات ابنهم المرحوم .. ثم تركت الشقة وسكنت أنا والبنات مع والدي وأمي حتى تزوجني ابن عمي عمري .. ولكن لماذا ينتقمون من عمري ما داموا يشكون ويظنون أن قاتل ابنهم السيد ناصح

ـ لئن عمري ابن ناصح ، وناصح قد مات ، ولولا موته ونشر صورته في الجرائد ما عرف الشاب بذلك .. هذا سبب زيارتنا لك يا سيدة أنعام ..

وأحضرت الخادمة أكواب العصير ، ولما انتهيا من شربها قال الضابط وهو ينهض : الحمد لله على سلامة أبي محمود .. أشكر لكم تعاونكم ، ونأسف على ازعاجنا لكم ، وندعو الله أن يعافي لكم السيد عمري فهو رجل فاضل

اخوة البنات

قد بان الآن علاقة المجرم بالسيد عمري وسبب الاعتداء عليه ، الأب يرتكب الجريمة والابن يدفع الثمن ، ماهر خلس كان متزوجا من ابنة عمه التي هويها في أيام المراهقة ، وأثناء الدراسة في الجامعة تزوجها ، وأنجبت له بنتا وولدين أصغرهما رامي ، ولما تخرج من الجامعة بشهادة علوم محاسبية لم يرتح لحياة القرية أو التنقل بين القرية والمدن الكبرى لمزاولة العمل والشغل فلماذا يعمل في القرية بشهادته ؟ ، فطلق ابنة عمه التي أحبها ، وهاجر للمدينة الكبرى العاصمة طمعا بفرصة عمل أو وظيفة في دواوين الحكومة ، فهو من حملة الشهادات الجامعية ، ثم تيسر له العمل في شركات الخابي وخلال ست أو سبع سنوات كان رجلا مهما في شركات الخابي أو في مكاتبها المهمة .. وهناك ـ بعدما أنهى الماجستير ـ في المكاتب الرئيسية التقى بأنعام ابنة ناجح بيك شريك ناصح في هذه الشركات والمصانع ، وكانت أنعام فتاة هادئة بطبيعتها ومرحة ، فتعرف عليها واحتك بها كأي موظف يعمل في الشركة ، وقد عملا في مكتب واحد وإدارة واحدة ، ولم تأكد أنها غير مرتبطة بشاب من أبناء العائلات الكبيرة والثرية ، وقد كان بحكم الزمالة والعمل قد حدثها قديما في جلسة من الجلسات عن زواجه ، وتركه القرية ، وتطليقه لامرأته ، .. وكانت أنعام تعلم ثقة والدها وعمها الكبيرة بالسيد ماهر ، فتشجع الشاب وحدثها أو جس نبضها حول الاقتران بها ، فلم تمانع ولم تنظر للفارق الطبقي بينهم ، إنما طلبت منه أن يكلم والدها بذلك ، وتكلم ماهر مع أبيها بذلك الأمر ، وتزوجا كما قالت أنعام زواجا تقليديا ، وعاشا سعيدين بضع سنوات ، ثم مات بحادث اصطدام مع مركبة كبيرة ، وقدمت الشركة لأهله مبلغا قدره عشرة آلاف دينار مواساة لأبيه وأمه ، وكان راتبه أثناء العمل وراتب أنعام بالكاد يصرف على البيت والبنات الصغيرات ، ووجدوا رصيدا يسيرا في البنك باسمه ، فدفعوه لأهله ، وكان السيد ناجح قد تكفل بأنعام وبناتها ، فهو ينفق عليهن بعدما نقلن لبيته .

ولما نشرت الصحف نعي السيد ناصح وصورته بناء على رغبة مديري شركات ناصح الخابي حتى قبل عودة عمري من إيطاليا ، فهم منذ التقطوا خبر موته الذي كانوا يتابعونه منذ سفره الاخير قاموا بالاعلان عن وفاته وتعزية أولاده في الصحف المختلفة دون مشاورة أسرة عمري،

فصدف أن رأت القروية امرأة ماهر الاولى الصورة الكبيرة في إحدى الصحف بين يدي ولدها رامي ، سألت عمن هو صاحب هذه الصورة ؟ فلما ذكر لها الشاب من هو صاحب هذه الصورة التي تملأ صفحة الجريدة تذكرت هذا الاسم ، وتحدثت عما أشيع عن قتله للسيد ماهر ، ولم تستطع كتم ما اشيع في تلك الايام ، وأخذت تنقل ما سمعته للأولاد عن تلك الحادثة القديمة فاحتدم الغيظ في قلب رامي وأخذته الحمية الريفية ووعد أمه بقتل ابن الخابي الذي تقوم الصحف أو إعلانات النعي بتوجيه النعي له ، ولم تأخذ الأم كلام ابنها بجد واهتمام .. وكان رامي قد فشل في الدراسة ، واتجه للعمل مبكرا فعمل بالقرية حينا من الزمن ، ثم انتقل للعمل في أقرب مدينة لقريتهم ، وكان في بعض الاحيان ينزل العاصمة للشغل أيضا ، فلما سمع قصة موت أبيه فهدد وتوعد ، ولم يكترث أحد ممن سمعه لزمجرته ، واعتقدوا أنه انفعال طاريء بعد أن سمع حكاية أمه والقائها اللوم على ناصح الخابي بموته فنزل الشاب المدينة كالمعتاد ؛ لأنه في تلك الايام كان يعمل مع أقارب له في المدينة ، فأخذ يجمع المعلومات عن أولاد الخابي ، فعلم أن للخابي ولدين فقط عمري وسمري ، وأن سمريا في أمريكا ، فأراد أن يجعل انتقامه ممن حرمه من أبيه من عمري الخابي ، ثم خطط لجريمته فاشترى مسدسا ، وقام بفعل الجريمة كما تحدثنا عنها في صفحات سابقة، ولما أصيب رامي بطلقات الحارس غير القاتلة نقل للمستشفى مصابا في فخذه وساقه ، ولما أفاق بعد الجراحة ، وأصبح قادرا للادلاء بأقواله تحدث بدوافعه للجريمة بدون تردد أو مماطلة ، وانتقل المحققون للقرية، ثم اجتمعوا بالسيدة أنعام إكمالا للموضوع ، ثم تم تحويل أوراق المتهم للنيابة العامة .

ولما علم عمري الراقد على سرير الشفاء هو وسكرتيره الأستاذ أحمد بهذه التفاصيل ، قال عمري لنفسه : حسبنا الله ونعم الوكيل .. قاتل الله الجهل .. لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .. أبي يقتل وأنا أدفع الثمن .. لا بأس .. ماذا سأفعل مع هذا اللعين ؟ ! .. إن عفوت أنا لم أعلم من حقائق فالسكرتير أحمد كيف يعفو ؟ ! .. وهو أخو سهام وأحلام وريهان .. وحسن يحب ريهان أخ ريهان كان يريد قتل والده ! (وابتسم) .. سلم الأمر لصاحب الأمر سبحانك ربي ما أعظمك ارحمنا برحمتك الواسعة يا أرحم الراحمين ولا تكلنا لأحد غيرك .. وقنا شر خلقك وشر أنفسنا

لذلك لما أتت أنعام وزينب يعودانه بعد مقابلتهما للضابط ، حدثته أنعام عن شخصية المجرم فقال : لا تهتمي يا أنعام أخبرني رجال الأمن

فقالت باكية : أنا والله لا أعرف أن للبنات إخوة .. هو لم يحدثني بأن له ذرية ، وحتى أنا لم أحاول التعرف على أهله خلال مدة الزواج أو بعد موته ، منذ مات لم يصدف أن التـقيت بأحد منهم ، ولا هم حاولوا التعرف على بنات ابنهم .. ماذا أقول للبنات يا عمري ؟! .. هل أقول لهن أن أخا لهن أراد قتل زوج أمهن ؟!

ـ اهدئي لا تنفعلي ستحل هذه القضية .. وسيتـعرف الأخوة على أخواتهم .. وهذا لن يغير من الواقع شيئا .. فبناتك كبيرات وفي سن زواج، وستذهب كل واحدة لبيتها بإذن الله سبحانه ، ولكن لابد من تعارف الجميع والتقائهم لعلاقات الرحم التي بينهم .. أما هذا المعتدي فقد حولت أوراقه للنائب العام لتحويل ملفه للقضاء .. وتأكدي أن هذا الحادث لن يغير من حياتنا كثيرا ..فقد أخبرني صابر أن السيد ماهرا قد قسمت ثروته اليسيرة وميراثه ، وتنازل والدك ناجح عن حصتك وحصة البنات لأهله قديما ، ودفعت لهم الشركة عشرة آلاف تعويضا لما حدث وغير الأموال التي حصلوا عليه من شركات التأمين وصاحب السيارة الصادمة .. ليس لهم عندنا شيء بل نحن الآن لنا عندهم شيء .

*****

لقد وضح وعلم سبب الاعتداء على المدير العام لشركات الخابي الأستاذ عمري محمود ، وتحسنت صحة السيد الخابي والسكرتير أحمد ، فعاد الخابي للفيلا تغمره باقات الدعاء والشفاء والورود والفرح والحب ، ولما استكمل فترة النقاهة رحل للريحانة ، وهناك تفقد دور الأيتام التي كان يرعاها هو وأمه مريم ، وتصدق عليهم ، وتفقد بعض الأسر المعوزة والتي تتلقى إعانات منه ، ومن صناديق الشركات التعاونية ، وزار بعض الموظفين القدماء الذين تركوا العمل لعجز أو مرض أو شيخوخة ، وأهداهم المال والهدايا ، وقضى ثلاثين يوما وهو في هذه الأحوال الروحانية ، ثم أخذ زوجتيه وسافر لجدة ومنها لمكة لأداء العمرة ، وقضى شهرا آخر في ربوع مكة والمدينة ، وبعد استراحته بضعة أيام وليال عاد للعاصمة ثانية ، فزار السكرتير أحمد

ودعا له بالعافية التامة ، وقد وجده قد عاد لصحته ولممارسة العمل ، فعرض عمري عليه عملا آخر مريحا أو تقاعدا في البيت ، وأن يتـقاضى راتبه كاملا ، فاختار إدارة دار من دور الأيتام ، فهو يحب هؤلاء الأطفال ، ويرجو الثواب من ربه ، فخطب عمري في ختام الزيارة ابنته لولده أسامة ـ الشاب الثالث في ترتيب أبنائه يصغر عائشة بسنتين ـ وكانت الفتاة التي يريدها لابنه ما زالت طالبة في كلية الإعلام ، فترك أحمد الأمر للشابين ، فاستدعاها عمري ورغبها بالاقتران من ابنه أسامة ـ المهندس في الشركة المعمارية القائمة في مدينة الريحانة ـ فقالت بأدب : الأمر لك يا عماه .. ما رأي أبي في الموضوع ؟

فقال : أنا أحب أباك منذ أيام الريحانة ، وهو من أصدقاء العمر .. ونحن سنغادر هذه الدنيا مع أننا نجينا من هذه الحادثة الرهيبة ، فالموت قادم يا بنية .. وأنا في هذا الزواج لا أريد أن أسدد دينا لأبيك ، إنما أريد أن أزيد أواصر الحب بين الأسرتين أكثر ، وتقوية الأواصر الاجتماعية ، فإذا كان لديك قبول بهذه المصاهرة والنسب فدعينا نتصل بولدي هناك ليأت سريعا ، ويتم كل شيء بمشيئة الله .. فنحن اخوة وأحباب

فقالت : ظل عليّ سنة في الكلية يا عماه

ـ الزواج لن يعيق هذه السنة

ـ أخشى الحمل ومشاكله .. فأنتم تحبون الأولاد بسرعة .. نخطب فقط

ـ أنا لا أحب أن تطول هذه الخطبة يا بنية .. فأنا عندي حسن ابن الثماني عشرة سنة يريد الزواج

فقالت باستغراب : حسن الصغير يريد الزواج !

فقال موجها كلامه لأحمد : يا سيدي يريد ابنة خالته أنعام الصغرى يدعي أنه محب ولهان بها

فقال أحمد : أخشى أن يكون حب صبيان يا عمري

ـ هو فعلا يريد الزواج ، والبنت كذلك ، ولكن هذه الحادثة عقدت الأمور .. فقد ظهر للبنات الثلاثة أخت وأخان .. والمجرم أحد الأخوين

فقالت هند : وهل هذا يؤثر على زواجهما ؟

ـ هو أخوها .. قد لا يؤثر على طباعنا وحياتنا كثيرا ؛ ولكن دينا وشرعا هو أخ لها سوف يزورها

ويتـعرف عليها .. فهي أخته شئنا أم أبينا .. وقد لا يمكث في السجن طويلا قد يمكث بضع سنين .. فها هم أهله وأهل قريته يطلبون ويلحون اللقاء بنا أنا وأبوك للصلح ونحن حائران في ذلك ؛ ولكننا في النهاية سنرضخ لتوسلاتهم وبكاء أمه ، وسيقضى في السجن الحق العام حق الدولة فحسب .. فقد زارت أمه البيت أكثر من خمس مرات ونحن في مكة والمدينة والريحانة

وقال أحمد : وزارني جده وبعض أفراد أسرته وعشيرته ، فقلت لهم لما يرجع أبو محمود نتكلم في الموضوع .. ولكن يا عمري هل يعقل أن يكون والدك قتل زوج ابنة أخيه كما يدعون ويتمتمون ويتهمون ؟ !

سكت عمري لحظات قبل الرد ، ثم قال بعدما مسح جبينه بمنديل قماش : مما علمت فهو قتل بحادث سير ، وقد أثير فعلا حول الموضوع لغط وإشاعات .. هكذا تقول امرأة عمي عزيزة .. ولكن لا يستغرب مثل ذلك عن أبي

ـ أمعقول هذا الكلام ؟ !

ـ أنا لم أعاشر أبي كما تعلم كثيرا .. للأسف كان أبي وحشا في صورة إنسان يا أحمد

فقالت هند : إنك تقول كلاما قاسيا يا عماه في حق أبيك ؟!

فقال : للأسف أقول ما تسمعين .. أبي لم يسجد لله سجدة واحدة ، وهو يموت أحثه على قول لا اله إلا الله فيقول دعني ، فعلنا كل المعاصي وكل الجرائم وتريد أن نقول هذه الكلمة دعنا ليوم الحساب .. أنا خرجت قبل العشرين إلى بريطانيا للدراسة ، ولم نكن نرى الجانب المظلم في حياة ناصح الخابي ، وكنت غارقا في الشهوات والملذات لم أكن أكترث لو سمعت شيئا ..كل شيء مبرر ، ولما عدت بعد سبع سنوات عدت متعبا نفسيا ، لقد خسرت أموالا كثيرة على الموائد الخضراء في باريس ولندن ، فلما تراكمت عليّ الديون والخسائر أتى أبي وسددها عني، وأعادني معه ، وقضيت سنة أو أكثر لا أخرج من البيت إلا للطبيب النفسي ، ثم عملت مع أبي سنتين أو ثلاث ثم سلمني قيادة مصنع للسجاد .. كان الوضع غير طبيعي فيه ، أبي كان يغرق مشاريعه بالجواسيس سواء من العمال أو الإدارة ، لا يثق بأحد ، ومع ذلك كان يسرق ويسلب

فلا أستغرب منه أي شيء يا هند .. كلام مؤلم ولكنه هو الحقيقة .. ثم قدر الله لي الهداية والتوبة ثم الهرب من البيت ...

فقالت : الهرب .. !

فقال مؤكدا : الهرب .. إيه يا هند لقد ذكرتيني بعقود وعشرات من السنوات قد ذهبت

فقال أحمد : كفاك أسئلة يا هند

فقالت هند بحماس : ما رأيك يا عماه ! أن أكتب لك قصة حياتك كما يفعل المشاهير ورجال المال والاقتصاد ؟

فضحكوا لأقتراح هند ، وقال عمري : لا يوجد لي قصة تستحق الكتابة يا ابنة أخي .. لما هربت كان معي أموالي التي كنت أقبضها من أموال الشركة ، فشغلتها بعدة مشاريع في الريحانة وكل مشروع تولد عنه مشروع أو أكثر وهكذا

فقالت : لابد أن هناك لقطات مهمة في حياتك وفواصل

ـ أهم فاصل في حياتي يا حبيبتي التوبة والبداية مع الله سبحانه .. سنحاول تسوية موضوع رامي .. آ .. يا هند هل أتحدث مع أسامة ؟

فقال أحمد باسما وهو ينظر لابنته الوحيدة : اتصل به يا عمري فعيون هند تقول اتصل

فضحكت هند لمداعبة ابيها وقالت : والله عمي عمري لا يكسف ولا يفشل .. نسمع رد أسامة أولا فإذا قبلني زوجة على سنة الله ورسوله فأنا لا أمانع ، أما أن تجبروه على ذلك فلا أقبل .. وأيضا لابد من مشاورة أخي وأمي بذلك

فضحك أحمد : المهم أنت .. حمزة يريد الدكتورة عائشة ، وهو ينتظر إنهاءها الاختصاص وهذا تكلمنا فيه قديما

فقالت : أموافقة عائشة ؟

ـ أبوها الموافق .. عائشة لا ترى مثيلا لأبيها في الدنيا ولا تعصي له أمرا

فتبسمت هند وقالت : وأنا لا أعصي لأبي أمرا .. كلي طاعة لكما

قال عمري : جزاك الله خيرا .. هات الهاتف لتسمعي قول المهندس أسامة عمري

لما دخل عمري للمنزل وتناول العشاء مع أفراد الأسرة ، وأخذ يرشف فنجان القهوة كعادته في غرفة الاسترخاء والجلوس ، وتفرق بعض الأولاد في حجرات الفيلا ، فقد كان أبو محمود يحافظ على مشاركة الأسرة العشاء بالذات ، وكان أفراد الأسرة يحبون الجلوس حوله والسمر معه ،فلما انتهى من شرب القهوة ، سمع زينب تسأل : مالك لا تتكلم ؟! .. منذ دخلت البيت وأنت قليل الكلام .. هل صليت العشاء ؟

ابتسم عمري وقال : صليت العشاء بمسجد قريب من بيت أخي أحمد أبي حمزة .. فقد كنت أطمئن على صحته

ـ ما أخباره وأخبار أم حمزة وهند وحمزة ؟

ـ صحته تمام بفضل الله ، وهو يفكر بأداء العمرة قريبا .. وأم حمزة خرجت مع الأولاد في عيادة أحد اخوتها وكانت هند هناك

فقالت أنعام : إنها فتاة لطيفة وذات مشاعر حساسة ورقيقة كيف هي ؟ .. لقد كانت تبكي يوم الحادث بكاء مزق القلوب

ـ الجميع بخير وقد طلبتها من أبيها ؟؟

فقالت زينب مداعبة لزوجها : لك يا أبا محمود ؟!

فقالت عائشة الصامتة : ليت أبي يفعلها يا أمي لنرى ماذا ستفعلين ؟

فقالت أنعام : أبوك شيخ كبير بعد أنعام لا يفكر بالزواج .. وهو تزوجني على استحياء

فقال حسن مازحا : ربما بعد الحادث دبت فيه قوة الشباب والحياة

فقال عمري وهو يعدل من قعدته : تذكرت أين قمرية ؟

فرد محمد أصغر أبناء عمري : ذهبت عند عمتك رباب .. فقد اتصلت بها عصرا .. طلبت هندا لمن يا أبي ؟

فأجابه عمري ضاحكا : لك يا ولدي .. ما رأيك ؟ !

ـ إنها أكبر مني .. إنها تصلح للمهندس أسامة

فضحك عمري والحضور لأعتذار محمد وقال : أسامة ! .. نعم، هو أسامة يا زينب ، ولما

أبدت الموافقة والرضا تكلمنا مع أسامة من بيت عمكم أحمد ، وقلت له القصة ، فقال هو الآخر إذا هي موافقة فأنا موافق فقلنا على بركة الله سبحانه.. وستكون الخطبة خلال يومين وهو قادم غدا أو بعده فاستعدوا لذلك .. أنا أقدر وأحترم الصديق أحمد ، فهو من أوائل الرجال الذين قامت على أكتافهم شركات عمري محمود وهو رجل فاضل

فقالت زينب : وموضوع عائشة ؟

فقالت عائشة مازحة : أمستعجلة يا أمي على فراقي . ؟! فقالت زينب : دراسة الطب طويلة يا ابنتي .. وأنا في سنك كنت قد خلفتك وأخاك محمودا وأسامة أيضا

فقال عمري : حمزة جاهز .. ينتظر إنهاء الدكتورة الاختصاص .. وهو من الرجال الذين يعتمد عليهم .. وهو ابن أبيه وجراح ممتاز

ولما انتهى التعليق والتعقيب والتبريك والتهنئة ، وقام بعض الحضور للنوم ، التفت عمري لسهام وقال بحب وعطف : ماذا حدث معك يا سهام ؟ ومالك لا تشاركينا فرحتنا ؟

فقالت : إنني فرحة بما أسمع من أخبار يا عمي ! ولكن منالا تقول إن فوازا صرف نظره عن الزواج وانشغل بدراسة الماجستير

فقال عمري : لا تحزني يا بنيتي .. هذا خير لك صدقيني .. هذا من لطف الله بك .. لا يريد لك أن تعيشي في بيئة قد تخلص منها الجميع .. لقد كان منذ البداية مترددا في تحديد الموعد .. فالموعد لا يحتاج لكل هذا الانتظار

وقالت أنعام التي على دراية بذلك : وتسألها منال هذه بتهكم واستهزاء .. هل صحيح أن الذي أطلق النار على زوج أمك أخوك ؟ .. انظر إلى هذا الكلام الجارح والقاسي ممن تدعي أنها صديقة لها ..

أخذت الفتاة تبكي بهدوء فقال عمري : دعي الدموع .. لا تبكي يا سهام ! .. دموعك عزيزة علينا .. ربنا يقدر هذه الأشياء لأشياء خيرا منها .. فلو لم تحدث هذه الحادثة لما عرفت حقيقة هؤلاء الناس .. وما ذنبك بجريمة أخ لك ؟! .. أنت متضايقة من اللباس الشرعي لأنه طارئ عليك، وطبيعة الكلية التي درست فيها كلها سفور وتبرج ، فكنت ترين نفسك شاذة في السنتين

الأخيرتين .. أما الآن بعد تحررك من ذلك الجو الفاسد سترتاح نفسك رويدا رويدا وبعدما ترتاح نفسك فلدي شاب ممتاز ولائق بك وسيسرك الاقتران به .. لن اذكره الآن حتى لا تظني أنني أفرضه عليك .. بس حاولي مع فواز مرة أخرى وأخرى .. وتأكدي أننا نحبك وتهمنا سعادتك .. اذهبي بها يا عائشة إلى حجرتها

مسحت الفتاة دموعها وقالت : لا .. أحب البقاء أنا كما قلت لك يا عمي ليس بيني وبين فواز عهود ووعود .. زمالة كلية وكنت أظنه الرجل المناسب لي ولا أدري لماذا يتهرب ؟!

فقالت زينب : يا ابنتي ! أنت ابنة العائلة .. ولا تهتمي وتتأثري من أخيك رامي ، فهو فتى طائش جاهل .. وستتعرف على هؤلاء الناس وتنصلح الحال .. وهم في حال وأنتم في حال وهو كان يظن أن عمريا كأبيه له يد في موت والده .. وتقاليد القرى والفلاحين فيها نوع من الخشونة والقسوة وروح الثأر والانتقام .. وتربيتهم تقوم على الخشونة والكرامة المبالغ فيها والجاهلية .. فعندما يتعرفون على عمك ستظهر من نفوسهم طيبة الفلاح طيبة القروي .. وهم اخوتك مهما حصل وسيبقون اخوتك ولا تزر وازرة وزر أخرى

فقالت أنعام : أنت طيبة يا زينب ! .. لنا أكثر من عشرين سنة لم نسمع بهم .. أي اخوة وأي أقارب ؟

فردت زينب : زوجك ماهر - رحمه المولى ـ لم يحدثك عنهم فهو المخطئ .. لماذا كتم ذكرهم عنك لما رغب بالزواج منك ؟ ! فقالت بحيرة : لا أعلم لماذا فعل ذلك ؟

ـ ولما مات كان الأولاد أطفالا ، وأخبرتنا أمه أن ابنه فائق ابن ست وعشرين سنة ، وهو سائق في مصنع قريب من البلدة ، والبنت ميسون متزوجة في القرية من قريب لها ، وأما رامي فهو أصغرهم وهو ابن عشرين سنة ، وبينه وبين أخته خمس سنوات ، فيظهر مع احترامي لمشاعر الجميع أنه لم يكن مطلقا زوجته كما قال لكم أو أنه ردها بعد زواجكما ؟!

تمهلت أنعام قبل أن تجيب ثم قالت وكأنها تتذكر تلك الأيام الخوالي : هو كان يحدثنا عن طلاقه قبل أن يفاتحني بالزواج بحكم الزمالة في المكتب والشغل ، ونحن يومئذ لم نتأكد من ذلك ؛ لأن الأمر لم يكن يهمنا لا في قليل ولا كثير ، ولما دار الحديث بعد سنوات عن الزواج لم نسأله

عن ذلك للمعلومات السابقة المستقرة في أذهاننا عن طلاقه وهجرته ولحياته في المدينة ولا أنكر أنه كان أحيانا يغيب عن الشغل والدوام بحجة أعمال خاصة يقوم بها لحساب عمي ناصح ووالدي ، لم ادقق في غيابه وتحركاته ، كانت الحياة طبيعية وهادئة ، لم يكن بيننا مشاكل وريب حقيقة أنه كانت هناك حركات غامضة بينه وبين عمي ناصح ، ولما أسال أبي صدفة عن ذلك فيجيب لا تتدخلي فيما لا يعنيك ، فإنها صفقات سرية فاصمتي خيرا لك ولنا فاصمت ، ولا أهتم كثيرا لغيابه لأنني واثقة أنه يعمل لعمي .. وكنت أيضا مشغولة بالبنات والحمل والولادة والطبيبة والعيادة حتى الشغل أيامها أنا كنت أتغيب عنه كثيرا

فقال عمري : سنعرف عندما يأتي أهل الولد كثيرا من المعلومات عن هذه القضية .. لقد أطلعني والدي في أيامه الأخيرة على أشياء تقشعر منها الأبدان عن النشاطات السرية للشركات وقد ذكر هذا الرجل على لسان أبي أكثر من مرة ، وقد كان شخصا محبوبا من أبي وعمي وإلا لما زوجوكما يا أنعام .. ابنة ناجح الخابي تزوج لفلاح قروي !

فهمست أنعام : هذا ما أقوله ؟! .. لولا رضا والدي وعمي عنه ، لما وافقا على زواجنا بسهولة وخصوصا عمي ناصح .. وأنا لم أر منه سوءا، بل كان نعم الزوج ، ولم أر منه تقصيرا يوما ما ، وحياته الخاصة لم أتدخل فيها هكذا تعودنا ، وسنتعرف على هؤلاء الاخوة يا سهام

فقال عمري ملتفتا لسهام : لا تجعلي يا حبيبتي ! قضية هذا الأخ قضية كبرى في حياتك وحياة أخواتك ، فهذه الاخوة باقية ، وليست باختيارنا فحتى لو تدابرنا وتعادينا ستبقى الاخوة .. فهي اختيار رباني ، وكل إنسان مسؤول عن نفسه .. فانظرن أنا ابن من ؟ !

قرية ماهر

تنازل عمري ناصح وأحمد عبد القادر عن حقهما في قضية رامي ماهر من أجل خاطر بنات أنعام فقد أتت أم الشاب وجدته وكبار رجال القرية إلى السيدين عمري وأحمد واعتذروا لهم عما سببه لهم الولد الطائش من ضرر وإصابة ، وتحدث جده كثيرا مبديا أسفه على الحادث وقال معتذرا : أم الولد حمقاء يا أبا محمود ويا أبا حمزة ! .. وموت ماهر له سنوات وسنوات فلما شاهدت تلك الحمقاء أم فائق الصورة في الجريدة ، سألت الولد صورة من هذه ؟ فذكر لها اسم الوالد ناصح الخابي ، فتذكرت الماضي وما قيل في تلك الأيام حول الحادث ، وقد كان المرحوم ماهر قبل أن يموت بأيام قد أتى القرية وتحدث أمامي وأمام غيري ، وقال لنا إن حياته باتت في خطر وأخبرنا أنه ارتكب غلطة مع صاحب الشركة فلن تغتـفر وأوصاني على الأولاد ، وكان المرحوم قد طلق زوجته صبيحة ، وهرب إلى المدينة ، وبحثنا عنه ، فلم نجده حتى علمنا أنه متزوج من ابنة أحد أصحاب الشركة ، صبرنا إلى حين ، ثم أرسلنا له أخاه وائلا ـ وأشار لرجل في المجلس ـ فتكلم معه وأمره بالعودة للأهل وإلا فضح أمره للسيدين ناصح وناجح .. وكان لا يستطيع الاختفاء من جديد بعدما أصبح من رجال السيدين ناصح وناجح الخابي .. فأتانا وتصافحنا وتصالحنا واتفقنا على أن يتزوج ابنة عمه مرة ثانية ، فبعد تمنع واحتجاج بزوجته في المدينة ، قلنا له لن نخبر أحدا بزواجك .. فبعد ضغط مني ومن عمه والد زوجته عقد عليها من جديد ، وأصبح يتردد على البلدة كلما سنح له ذلك أو كلما كلفه أبوك بمهمة خارج العاصمة ، إلى أن جاء في الأيام الأخيرة له من الدنيا وحدثنا عن الخطر الداهم المحيط به .. وفي الحقيقة لم يكشف سر هذا الخطر وأسبابه، إنما كان يظهر خوفه من ولي نعمته فحسب .. نحن بالطبع لم نأخذ الكلام على شكل جدي للمشاكل التي بيننا وبينه من طلاق ابنة اخي وهربه للعاصمة وعدم الاتصال بنا .. إلى أن جاء الخبر بالحادث المروري ، فقد اصطدم ذات يوم بمركبة كبيرة ادعى سائقها أن عطلا فجائيا حدث لها .. ونحن اتهمنا السيد ناصح بتدبير الحادث للخوف الذي حدثنا عنه قبل موته بأيام ؛ ولكن الشرطة نـفت أي علاقة أو معرفة بين صاحب الشاحنة والسيد ناصح ، وقد ثبت أن عطلا فنيا حدث للمركبة .. فنحن في تلك الأيام ظل الشك

مسيطرا علينا ، وذهب دم ماهر غدرا .. والله أعلم بالحقيقة .. وحاولنا الحديث مع بعض زملائه وأصدقائه في العمل فلم نتوصل بطرقنا إلى شيء .. حادث عارض ، وقامت الشركة بدفع أموال لنا ، فاضطررنا إلى اللجوء إلى الصمت حتى تظهر الحقيقة، وقد حاول بعض الأشخاص من معارف والدكم مساعدتنا والتأكيد لنا أن السيد الوالد له يد في حادث السير .. سيارة ماهر بالشاحنة .. ولكنه كلام من غير دليل ، وقد قام السيد ناجح بما يلزم الميت ، ودفع فواتير المستشفى والعزاء وعدنا للقرية ونسينا دم ابننا بعد زمن ، وكبر الأولاد إلى أن دخلت تلك الجريدة البيت ورأتها أم الأولاد ، وسألت عن صاحب هذه الصورة ، فقرأ لها رامي اسم الميت الذي تملأ صورته صفحات الجريدة .. فتذكرت وقصت حكاية الرجل على أبنائها من زوجها الثاني ـ فقد زوجناها بعد ترملها ـ وكان بينهم رامي ابن المرحوم ماهر ، فغضب الولد وهدد وتوعد ؛ ولكنها لم تحمل كلامه محمل الجد .. وهو يشتغل في المدينة ،ولم نعلم بعمله المجنون إلا عندما اتصلت بنا الشرطة .. فهذه هي القصة يا أبا محمود .. ونحن لا ننكر تقصيرنا اتجاه بنات ابننا ؛ ولكننا كنا مطمئنين لغنى والد أمهن وعمها .. والحضانة كما هو معروف من حقها ، وكذلك ابتعادنا منذ البداية عن هذا الزواج ، وعدم معرفتنا به إلا صدفة .. دفعنا للسكوت، وكنا نرى من المستحيل من أن نتمكن من أخذهن للقرية فأهملناهن .. ونحن أيضا لا نريد منهن شيئا سوى التعارف ، ولولا الحادث لظل الأمر نسيا منسيا

فقال عمري : ونحن أيضا نريد هذا التعارف وسوف نسعى إلى تزويجهن ليستقللن في حياتهن وهن لا ينسين اخوتهن وأهلهن وأنا قد أصبحت بمثابة الأب لهن بعد زواجي من أمهن .. واعلموا أن البيت يرحب بكم في كل وقت .. وإذا كانت قريتكم بحاجة إلى مدرسة أو أي مساعدة فأنا جاهز ومستعد لذلك

فانهال عليه الحاضرون بالشكر والثناء والاعتذار ، وتحدث كبير القوم فقال مشيدا بتسامح عمري وأحمد : غمرنا صفحكم وشهامتكم .. بارك الله فيك يا ابا حمزة .. وبارك الله فيك يا أبا محمود .. كفيت ووفيت ووصلت الرحم ولم تقطعه .. وكنا نود أن نتـعرف عليك بظرف أجمل من هذا .. ونحن نعتذر ونتأسف عما سببنا لكم من أذى وإزعاج وأنتم أبرياء من أفعال لم

تعاصروها ، وسيبقى حبل الود متصلا بيننا ، وسنستـفيد من مشاريعك الخيرية وطيبـتك في قريتنا ، فقد علمنا عنكم الشيء الكثير من الخير يا أبا محمود

فقال عمري : نحن نرحب بكم ، وسترون منا ما يسركم بإذن الله .. والبنات الآن قد تعرفن على جدتهن وعماتهن وأختهن ميسون .. فنحب أن يذهب الأعمام وأبو ماهر وفائق لمعرفة بناتهم بهذه المناسبة

وتعهد عمري لأهل القرية ببناء المسجد القديم بعد هدمه بآخر جديد ، وإنشاء دار أيتام ومدرسة لهم بجوار المسجد ، واستعد لإنشاء معصرة زيتون للإنفاق على المدرسة ودار الأيتام فتفاجأ القوم بكرم السيد عمري ناصح ، وتحمس رجال ومختار القرية لدعوته لزيارة بلدتهم فوعدهم بزيارة ، وأنه سيأتي وبناتهم للتـعرف على قرية أبيهم ، ثم أخبرهم بأنه سوف يزوج ابنتهم ريهان لولده حسن ، فغمرهم السرور والفرح ، وظن بعضهم أنهم يحيون في حلم حتى أن بعضهم وسوس له الشيطان أن هذا كلام في الهواء ، واندفع إليه السيد عمري للمشاعر والموقف الذي يحيونه تلك اللحظات ، ولما تناولوا العشاء على مائدة السيد عمري عادوا لقريتهم يلعنون الساعة التي حاول ابنهم فيها قتل هذا الرجل الجواد ، وقبل أن يفيق القوم من الحلم كان فريق من المهندسين وكبار الموظفين لدى شركات الخابي يدهمون بيت المختار في الصباح الباكر .. فتجمع أهل القرية عليهم ، وساقهم المختار حيث يقبع المسجد ، وهو مستغرب من سرعة عمل الخير لدى السيد عمري محمود ، فشاهد القوم المسجد القديم ، فقام المهندسون بدراسة الموقع نظريا ومكان المعصرة .. وتقرر إقامة مكتب لمساعدة الفقراء ومد العون لهم ، وخلال شهر كان المسجد قد شيد مكان القديم ، وتم إقامة دار للأيتام ، وبناء مدرسة للأطفال ، ومكتب مساعدات حول المسجد ، وكان على المختار تدبير الكوادر الذين سيعملون في هذه المرافق ، وكمل ترتيب كل شيء ، وخلال ثلاثة شهور تم إنهاء كل شيء ، وكان الناس يلهجون بذكر السيد عمري ، ويرقبون في شوق زيارته التي وعدهم بها ، ولما زار القرية حل ضيفا على المختار الذي صنع وليمة لأهل القرية جميعهم ، فشكرهم عمري وبارك لهم كرمهم وهنأهم بإتمام المسجد وملحقاته والمعصرة ، ثم أخبرهم برغبته إقامة مشاريع

إنتاجية ، ووقف أرباحها على المسجد والمدرسة ودار الأيتام ومساعدة الضعفاء والفقراء لأن الظروف قد تتغير، والموت قادم ، والأشخاص نفوسهم تتـغير ، ولا يكن الحماس لديهم كحماسه .. فاشترى أراضي شجرية وأوقفها على تلك الأشياء ، ووعدهم بإرسال مهندسين زراعيين لتحسينها ، وتوفير الماء لها بحفر الآبار وتسبيلها ، وقبل مغادرة القرية أخبرهم بقرب قران ابنه حسن من ابنة ابنهم ، وأنهم قد كتبوا الكتاب الشرعي بحضور والد ماهر ، فبارك القوم هذا الزواج ودعوا للسيد عمري بالمزيد من العطاء والعافية ، وعند المساء أخذ البنات وعاد للمدينة ، وقد ترك في قرية والدهن ابتسامة بيضاء وقال : لعل الله سبحانه يغفر لأبي .. فقد اعترف لي بأنه هو الذي دبر مكيدة قتل ماهر خلس .. رحم الله والدي

جرى الاحتفال المتواضع بزواج حسن عمري الشاب الصغير الذي أنهى الثانوية العامة بنجاح على الفتاة الحسناء ريهان ماهر الصاعدة لامتحان الشهادة الثانوية العامة بفيلا الوالد عمري التي أصبحت من حصته بعد تقسيم ميراث أمه ، وقد أعد وهيىء لهم مسكن في الفيلا ، فالسيد عمري بدأ يفكر بإنشاء طابق جديد في الفيلا أو الرحيل للريحانة ، وبعد الزواج بزمن يسير التحق حسن بكلية الشرطة ليصبح رجل أمن في المستقبل حسب رغبته وهوايته .

*****

كانت الشهور تمضي ولا تتوقف وتلد الأيام أحدثا ، وعمري مشغول الفكر والذهن بابنة زوجته أنعام الآنسة سهام ، فكان يسأل أنعام عنها كثيرا ، فلما فرغ من زواج حسن كرر استفهاماته عنها فأخبرته أنها تعيش على وهم وأمل فقال : من الضروري أن تتزوج الفتاة يا أنعام .. فأنا لدي عريس مناسب لها وستجد السعادة معه إن شاء الله تعالى ، وقد تحدثت معه ومع أبيه فسروا بذلك ، وهم ينتظرون إشارة منا .. فقد تزوجت ريهان وأحلام على الأبواب

فقالت بحرقة الأم : تكلم معها أنت .. فعندما أسالها ما أخبار فواز ؟ تلزم الصمت وترد أحيانا قائلة إنه مشغول بالماجستير كما تقول منال أخته فتصدق المسكينة

ـ أعتقد أنه شاب عابث وساخر ، لا يهتم بعواطفها ، إنما كان يسخر من شعورها وميلها نحوه

فقالت أنعام : وأنا مثلك اعتقد هذا الاعتقاد .. فهل صحيح أنك سترحل إلى الريحانة وتستقر

فيها كما تتحدث زينب ؟ !

فقال : أجل أيتها الحبيبة ! .. أمس كنت في زيارة عمتي عزيزة ومعي زينب ، وتحدثت بهذه الرغبة .. لقد فكرت بدلا من البناء وجمع الأولاد كلهم في هذا المسكن الواسع أن أرحل وأسكن في ضاحية الصالح إنني أحن إلى ذلك المكان .. وليس هذا فحسب بل أفكر بتسليم المهندس أسامة إدارة المشاريع ، وأعتكف في البيت وانشغل في العبادة .. فقد زهدت في هذه الدنيا .. فالأحلام قد تحققت والأولاد كبروا .. ونحن كبرنا يا أنعام .. فبعد زواج أسامة من هند سأتخذ القرار الحاسم .. فما رأيك ؟

ـ والبنات يا عمري ؟

ـ أحلام سيتزوجها ابن بدرية كما جرى بيننا من كلام ، والبنت مسرورة بذلك ، ومحمد ابن فائز يكاد يطير من الفرح بموافقتها .. وسترحل معنا إلى الريحانة وتتزوج هناك ، وقد ترحل معنا سهام أيضا إذا أعرضت عن ذاك الشاب ، فنحن لا نريد الضغط عليها .. أما أنت أين ستكونين معها أم معنا ؟ وضحك

فجارته في الضحك وقالت : أنا سوف أكون حيث تكون .. وأعرف أن أمي تنتظر ساعاتها الأخيرة فقد كانت واهنة والطبيب يتردد عليها صباحا ومساء

فقال عمري : إذا رحلنا وأحببت البقاء هنا عند الأولاد عند صهرك حسن فلك ذلك .. حتى يتوفى الله أمك ويتغمدها برحمته .. فلست متضايقا إذا حدث هذا

ـ سوف أنظر في الأمر لما تقرروا الانتقال ، متى سيكون عرس أسامة ؟ ـ عندما تنتهي هند من اختبارات هذا الفصل ، وقد نزوج عائشة في نفس الحفل من حمزة أحمد .. أين زينب ؟

ـ مريضة راقدة في الفراش

فنهض ملهوفا وهو يقول : لم لم تخبروني عندما دخلت ؟ .. ظننت أنها ذهبت لزيارة أمها مع أخيها الحبيب حسن ومحمد

ـ لا ، لم تذهب .. قامت عائشة بتطبيبها ، ثم اتصلت بطبيبة صديقتها .. قامت بفحصها للاطمئنان أكثر ، وقالت بعض الإرهاق والتعب

ـ تعب وإرهاق .. من ماذا ؟ زينب تظن أنها مازالت صغيرة .. تحب العمل

ـ الحبيبة زينب .. ما زالت تعامل الأسرة كأنهم أطفال وصغار ، ولا تركن على طعام أم أحمد تحب الطهو بنفسها

فقال وهو يمشي نحو باب الفيلا : هيا نطمئن عليها .. زينب قصة حياة يا أنعام

فقالت انعام مازحة : أليست أحلى أمراة في العالم ؟! واليست أخت حسن صديق العمر ؟!

تمهل عمري بعدما سمع مداعبة زوجته انعام ، ونظر الى يمينه حيث تمشي زوجته أنعام ، وقال متنهدا : يا الله ! ما أسرع الزمن يا أنعام ! .. حسن كم أحببت هذا الانسان ! .. لما طلبت منه أن يعلمني كيف الصلاة لأول مرة ؟ نظر اليّ دهشا .. وقال مستفسرا ماذا يقصد السيد المدير بكيف الصلاة ؟! .. لي ذكريات جميلة مع حسن أيام مصنع السجاد في حياة والدي - رحمه الله تعالى ـ ومع الشيخ علي الحمد ـ رحمه الله تعالى ـ العمر يسير بنا ركضا .. حسن عندما جئت خفية للعاصمة بعد شهور من الاختفاء جئت لاتزوج أخته .. كان قد شرح لأهله ظروفي لما حدثه الشيخ علي بأمري .. وافق أهله بدون أي شروط أو طلبات .. كان زواجي من ابنتهم يومذاك مغامرة .. مغامرة كبيرة ؟ .. أليس قد يرغمني أبي لوحدث الصلح مبكرا على تركها ؟ أيناسب ناصح الخابي عامل المصنع البسيط .. يا إلهي !

ترك الحديقة ومشى مسرعا نحو غرفة زينب الراقدة من الوجع والألم ، فوجدها ممددة على سريرها والأولاد حولها ، فألقى السلام وتقدم فقبل جبينها وقال : كيف حالك يا زينب ؟ انزعجت كثيرا عندما أخبرتني أنعام بتعبك لماذا لم تخبروني بالهاتف ؟

فقالت زينب بضعف : لم نحب إثارة قلقك وخوفك .. وعكة بسيطة .. تقول الطبيبة إنما هو قليل من التعب ونقص في الأملاح .. انظر إلى الأولاد حولي يريدون أن يشعروني بأنني عجزت وهرمت يا عمري

فقال عمري : لا ، يا زينب ! نحن كبرنا فعلينا مراعاة صحتنا وجهدنا ، من الصباح سنذهب إلى المستشفى وإجراء صور طبية وتحاليل

فابتسمت وقالت : الأعمار بيد الله مولانا العظيم

فقال : المرض يا زينب ليس له دخل بالموت والحياة .. الحياة بيد الله والموت بيد الله .. والعلاج من الأخذ بالأسباب ، والمرض بيد الله وهو الشافي إذا مرضنا ؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قد تداوى ، وأعظم الدواء كتاب الله سبحانه .. غدا بمشيئة الله يا عائشة سنذهب سوية .. فزينب أمنا واختنا وحياتنا

دمعت العيون من الجميع ، وقالت زينب : أبكيتنا يا أبا محمود ! .. بارك الله فيك يا عمري أنت نعم الزوج والأهل .. منذ جمع الله بيننا لم يغررك المال يوما ما ، لم يغررك الجاه ، وفي مملكتك آلاف العمال ، منذ عرفتك وأنت عمري .. لقد ثبتت على العهد .. تركت الثروة الكبيرة والملايين لتثبت على الإيمان .. ولتصنع مجدك الخاص .. أعطاك الكريم عطاء الكريم .. ولم يفتنك الدرهم ولا الدينار .. آلاف الدعوات تصعد إلى السماء تبارك لك مالك من أفواه اليتامى والأرامل والأصدقاء

كفكف عمري دموعه وهو يردد : كفى .. كفى يا ابنة الأكارم ! .. فأنت ابنة الأخيار والاجواد فقد ربوك تربية طيبة ، فأنبت نبتة طيبة .. فكنت خير عون في السراء والضراء. . لم أنس دموعك ولهفتك يوم تلقينا رسالة بدرية .. كنت لي نعم الزوجة والأهل .. آه ! كم دعوت للشيخ المرحوم علي الحمد الذي أشار عليّ بهذا النسب ! فكان نعم الاختيار والتوفيق

فتنحنت أنعام وقالت : لا تنسوا أننا هنا يا أهل الخير ..

فقالت عائشة : والله يا خالتي ! إننا نسمع كلاما عظيما اليوم يثير الرهبة في النفوس

فقالت زينب : أنت وردة يا أنعام ! لقد أحببناك في الله .. وكنت نعم الأخت والصديقة .. رائعة وطيبة .. ولم أشعر في لحظة أنك غريمتي أو ضرتي .. أخلاقك رفيعة وطيبة ومنبتك حسن .. وكم أثنيت عليك امام سيدنا عمري ابي محمود !

نهضت أنعام وعانقت زينب وهي تبكي من حرارة ألفاظ زينب وقالت : اسكتي يا حبيبتي ! بل أنت الأميرة .. أنت شيء عجيب .. لا غيرة ولا خوف إلا من الله .. مخافة الله بين عينيك في كل مقام وكلام .. كلك حب وأمل .. الحلال أولا .. الحكم الشرعي أولا .. الثقة الكبرى برضا الله .. الزوج هو الجنة .. الأولاد هم العمل الصالح .. السعادة تغمر الجميع من حبك ودعواتك

الصادقة للجميع

كانت زينب تبكي بحرارة وحرقة من كلام شريكتها في زوجها ، والحاضرون تذرف دموعهم غزيرة لصدق المشاعر التي تتحدث بها الزوجتان .

ابن نوال

شخصية من شخصيات الرواية تركنا الحديث عنها مع أن ظهورها على مسرح الأحداث كان مبكرا ومن بداية القصة ، وهذه الشخصية هي أخت أنعام السيدة نوال ، نحن ذكرنا أنها بعد زواجها بزمن شرعت تطلب الطلاق من زوجها نادر بحجة أنها غير مرتاحة وغير منسجمة معه ، وأنه رجل شراب مدمن خمر ، ولا يأتي البيت إلا مخمورا ، وصاحب ميسر يخسر الكثير الكثير من الدنانير ، ووالده يسدد عنه خسائره ، ووالدها ناجح يرفض طلاقها لصداقته الكبيرة لوالده المليونير، وأخوها صابر بعد وفاة أبيه كان يصر على عدم الطلاق ما دام زوجها لا يريد ذلك ، لها ولد واحد فقط ، أكثر أيامه قضاها عند جدته وجده من أبيه ، وكنا قد اشرنا في صفحات سابقة أنها قدمت شكوى ودعوى وطلبا للمحاكم الشرعية والقاضي الشرعي للتفريق بينها وبين زوجها .. وكان أخوها صابر يعارضها ، وكان القاضي يؤجل البت في القضية ، واستمر هذا الحال أكثر من سنة ، وكانت كل أيامها تقضيها في بيت والدها مع أمها المريضة عزيزة ، فذات يوم اتصل بها ابنها الشاب قائلا : أمي ! أنا في البيت ، وأنا مشتاق إليك لي شهر لم أرك تعالي فزوجك ليس هنا

فردت قائلة : تعال أنت ، أنا لا أحب أن أراه إنه أصبح أقبح مخلوق على وجه الأرض

فقال متوددا : صدقي أنه ليس في البيت ، وأنا أريد أن أتحدث معك بموضوع مهم .. جدتي تريد تزويجي .. ألا تريدين أن تذهبي معي لرؤية العروس ؟ .. وسأقنع أبي برمي يمين الطلاق عليك تعالي بس وسترين ما تحبين

وضعت السماعة وركبت سيارتها وانطلقت إلى بيتها ، فوجدت ابنها الوحيد يجلس مع فتاة ، فلما زالت عنها الدهشة سألت : من هذه يا شادي ؟ !

ـ أهلا أمي .. اجلسي ، هذه ستكون زوجتي يا أمي .. هذه أمي يا لينا

نهضت لينا تتلوى وتتمايل ومدت أطراف أصابعها وصافحت المرأة المكشرة وقالت بهزء : أهلا حماتي .. مرحبا أم شادي

فقالت نوال مخاطبة لشادي : ألم تقل لي إنك ستأخذني لرؤية العروس؟!

فضحك لحظات وقال : العروس جاءت بنفسها يا أمي ! .. كتبنا الكتاب وطلبت مني حماتي أن أعرف لينا الحلوة على حماتها أمي الرائعة

فقهقهت نوال وقالت ساخرة وقد صدمت بالخبر : ممتاز ! .. يعني حماتك هي التي طلبت منك تعريفي على ابنتها .. حماة طيبة ؟

ـ آ .. يا أمي لا تزعلي منا .. أنت تعيشين عند أمك .. وأنا أعيش عند جدتي .. وأبي يعيش مع أصدقائه .. وغدا ستعيش لينا عند أمها .. فنحن عائلة اقتصادية جدا نريد أن نوفر في المصروفات ونأكل من جيوب الآخرين .. أليس كذلك يا لينا الحبيبة ؟

ـ لا يا حبيبي وحبيب أمك .. أنا أرفض هذا التوفير وهذا الاقتصاد .. أنا سأعيش على جيب حبيبي وروحي شادي .. والتفتت لحماتها وقالت : ولم تطلبين الطلاق من عمي يا عمتي العزيزة الغالية؟

فقالت نوال بحدة وغضب : شأن لا يخصك .. إلزمي حدودك

فقال شادي ضاحكا من نفرزة أمه : أم شادي تكره زوجها يا لينا .. لأنه يشرب الخمر ويلعب القمار ويعشق النساء .. كأن أمي لم تكن تشرب الخمر ، وأتت من بيت أولياء .. ولم تلعب القمار مع بنات العائلات .. نسيت أمي كل هذا يا لينا الغالية

فصاحت أمه بحدة : أخرس يا ولد ! .. أنا إذا شربت الخمر لم أشربها بشراهة ووحشية أبيك وأنا إذا لعبت القمار لعبتها للتسلية .. لم أخسر كل أموالي وأعيش على جيب أبي وأمي ولم أعط جسدي للرجال .. أنت ولد فاجر مثل أبيك .. ألا يكفيك عقوقا أنك تتزوج دون أخذ رأيي ولو على التلفون

ـ لا تغضبي يا أمي ! راعِ صحتك .. صدقي أنني ترجيت أبي كثيرا ليطلقك ويعطيك حريتك ولكنه لا يريد أن تصبحي زوجة لغيره فقلت له ليلة كتابة عقدي على لينا الجميلة إن أمي عجوز هرمة ، لا يمكن أن يغامر أحد بالزواج منها بعد ...

فجأة صفعت نوال ابنها على خده ، وهي هائجة ، وقد احمر وجهها غضبا وزاد تنفسها ارتفاعا وهي تقول : إنك ولد فاجر .. مجرم كأبيك .. أيقول ابن عن أمه هذا ؟!

وضع يده على مكان الصفعة ، وقد تفاجأ بالصفعة فهذه أول مرة تمد يدها عليه ، ونظر إلى لينا التي صرخت فزعا ، وقال بصوت مصطنعا فيه الهدوء : يبدو أنني نسيت أن أمي شابة حسناء آلاف الشباب يبتغونها للزواج .. أمي هائجة وغاضبة .. لا أدري كيف صابر أبي على أخلاقك التعسة ؟! .. إنك امرأة سيئة .. لماذا أنت أمي ؟ !

ارتفع الصياح بينهم واحتد الكلام والسباب ، وبينما هما على هذا الحال دخل الوالد يصيح : ما هذا الصراخ ؟ ! ووقف في فتحة الباب وهو يقول : نوال هنا ! .. ظننتك يا شادي تشاجرت مع فاتنتك لينا .. هل من شيء يا شادي ؟

فقالت لينا : يا عمي .. أرأيت ؟! .. لقد صفعت امرأتك ابنها الوحيد صفعة تألم لها قلبي ـ وأخذت وجه شادي وأشارت لمكان الصفعة ـ وأنا حزينة لم أرى ؟!

فصاح أبو شادي وقد هاج : أتضربين الولد يا مجنونة ؟

ورفع يده ليهوي بها على وجه نوال التي ابتعدت عنه وصاحت وهي تهدد بيدها : أضربه .. وأضربك يا قليل العقل يا فاسد .. ابنك غير مربى ؟

فقهقه نادر وهتف ضاحكا : تربيتك يا هانم

ـ تربية أمك جدته

اقترب الزوج السكران منها وكان يلوح بيديه وقال : أمي تربيتها أحسن من تربيتك ألف مرة ومرة .. لن تفرحي بالطلاق مني يوما ما ، ستبقين ذليلة مهانة .. وهذا ابن عمك المدعو عمري اطلبي منه أن لا يتدخل في قضيتنا ومشاكلنا أحسن أحرقك وأحرقه

فقال شادي : ماذا فعل هذا الرجل يا أبي الحنون ؟

فخفض يديه والتفت لشادي قائلا : تصور يا ولدي الطيب .. أنه أرسل لي محاميه يساومني على طلاق هذه الحمقاء

ـ يساومك ؟!

ـ نعم .. دفع لي عشرة آلاف دينار لأطلق هذه الحمقاء

ـ وهل قبلت يا أبي ؟

ـ لا .. فزادني اللعين عشرة أخرى .. فصممت على لا .. فانصرف وهو يقول العرض سار ففي أي وقت تقرر اتصل بي وترك لي بطاقة عليها أرقام هواتف مكتبه .. تصور يا ولدي يريدون أن يشتروها مني بهذا المبلغ الزهيد

فهاجت نوال وصاحت : حقير .. حقير .. حقير

وأخذت بالبكاء والتشنج بحرقة وألم ، فقال شادي : والله يا أبي لو أخذت الفلوس أحسن لك منها .. هذه امرأة حمقاء خرقاء .. ولن يتزوجها أحد بعدك فهي كبيرة في السن

فقهقه نادر وقال : أتريد أن تضحك عليّ يا ولد ؟ .. أنا منذ ثلاثين سنة .. وأنا أقول لها لن أطلقك .. قلت لها اهربي .. عيشي عند أمك .. ولكنك ستبقين على ذمتي حتى أموت .. فلا تحدثني يا شادي عن طلاقها البتة

ـ يا أبي ! العشرون ألف أفضل منها ، بعها .. أنا لا تعجبني حياتكم .. تستطيع أن تتزوج فتاة صغيرة مثل لينا الساحرة

فقالت لينا مشجعة عمها : نعم .. نعم يا عمي .. عندي صديقة أحلى مني ستقبل بك وستعيد لك الشباب والرونق

ـ لا .. إنني أحبها ، ولا أستطيع أن أضحي بحبي ولو دفعوا لي ملايين الدنيا

أخذت نوال تشتمه وتحتقره وتبصق عليه وعلى جذوره ، فاستشاط غيظا وهجم عليها غاضبا كالثور الهائج وأمسك بكتفيها فدفعته عنها بكل عزم ، فسقط على الأرض ، فازداد غضبا وهو يقول : يا ملعونة تريدين قتلي يا .. تريدين قتلي والخلاص مني .. وتناول تحفة زجاجية كانت على منضدة وسط الغرفة ، وقذفها على نوال بسرعة قبل أن يدرك أحد خطر الرمية ، فجاءت برأسها ووجهها ، وقد تقهقرت للخلف ، وارتطم رأسها بجدار البيت فوقعت ، فصاحت وفقدت الوعي وارتمت على الأرض كأنها ميتة ..

معالجة نوال

نقلت نوال إلى المستشفى ، وسيق الزوج إلى قسم الشرطة ، وانصرف شادي ولينا بعد أخذ أقوالهما إلى بيت جده وجدته ، وحدثاهما بجريمة ابنها ، فطلبت من زوجها أن يتصل بالشرطة لإخراج ابنها من الحجز ، فاتصل الأب بابن له متقاعد من الشرطة ، فذهب شقيق نادر للقسم وحاول إخراج أخيه بالكفالة ، وأن هذه مشاجرة كغيرها من المشاجرات التي تحدث بين الأزواج ، وبين هذين الزوجين بالذات ، فقال ضابط القسم لزميله المتقاعد : عندما ينتهي التحقيق ونرى التقرير الطبي .. فالطبيب يقول أن وضعها صعب ، ولديها مشاكل في الجمجمة والدماغ .. فأخوك ضربها بمزهرية زجاجية ثقيلة ثم ارتطم رأسها بحائط الغرفة .. فوضعها الآن حرج .. فعندما يظهر التقرير الطبي وعلى ضوئه نـقرر قبول الكفالة أم لا .. أرجوك .. أرجوك يا مقدم عزام .. لا داعي للإحراج

ـ كما تشاء يا رائد فراج

قضت نوال عدة أسابيع تعالج من الجروح والصدمة ، ولما خرجت من المستشفى لم يكن وضعها الصحي وحالها الدماغي كما كان سابقا ، فقد تأثر دماغها من الضربة ، فكان لابد لها أن تستمر بالعلاج ، وأخذ العقاقير الطبية ومتابعة الدماغ ، ولكنها بعد هذه الضربة الشديدة حصلت على ورقة طلاقها من القاضي ، بعدما قدمت التقارير الطبية للقاضي ، وتحررت نوال من زوجها بعد ما يقارب ربع قرن من الزواج قضتها في صراع وشجار وغضب ونكد وتعب ، فكانت ترقد على سرير في بيت والدها وحيدة ، أمها عزيزة مريضة ترقد هي الأخرى في غرفتها ، أخوها منشغل بمشاكله ومصنعه ومعه أولاده وبناته ، وكانت لا ترى خلال النهار إلا الشغالة الخادمة تدخل عليها بالطعام والشراب ، وأحيانا تجلس تواسيها وتشد من حيلها في مواجهة صعاب الحياة وهمومها ، ولم ترى ولدها من يوم الحادث ولا زوجته ، وكانت أنعام تتردد عليها كلما زارت أمها المريضة ، فتـقضي بعض الوقت عندها والبعض الآخر عند أمها ، لقد كانت الحالة النفسية لنوال مؤلمة وحزينة ، وقد أصابها الاكتئاب الشديد فأخذت تراود نفسها بالانتحار وتجاهر به ، فتقول لها أنعام : ويلك ألا يكفي شقاء الدنيا .. ولتكوني من الأشقياء في الآخرة ..

لا أريد أن أسمعك تتحدثين بيأس .. لقد وعدني عمري أنه سيرسلك إلى أوروبا أو أمريكا لإكمال العلاج .. ولكنه يتوسل إليك أن تتوبي إلى الله وتحسني من علاقتك مع الله ولا تـفكري بقتل نفسك .. فهناك صديق لأبي محمود خبير في الطب النفسي سيتردد عليك ..

فبكت وانتحبت وقالت : أخي لا يسأل عني ، وأنا أسكن معه في بيت واحد وحتى زوجته تمر أيام ولا أرى وجهها .. أخواتي يحيينني من الباب وهن مارات على أمهن ، ولا يجلسن بجواري بضع دقائق .. أشكرك يا أنعام أنت الوحيدة التي تشفق عليّ .. أنا شغلتك عن زوجك وبناتك

فقالت أنعام : أبدا يا نوال أنت أختي .. حبيبتي .. وعمري عندما أحدثه عنك يتألم وتسقط دموعه حزنا وأسفا لما حل بك من كرب .. وقلب عمري رقيق مع الضعفاء .. ووعدني خيرا بأن يهتم بك .. ولكن عليك أن تنقذي نفسك من النار .. فها أنت قد خبرت الحياة وعرفت تعاستها بدون إيمان وحب وعرفت الناس

فمسحت دموعها وتنهدت وقالت : كلما أتذكر الأيام الخوالي .. أيام خطبتي لعمري تلك الأيام القصيرة أصاب بالجنون .. وأتذكر كلماتك لي بالتحمل والصبر أبكي .. لقد كنت أرى أبي وعمي ملوكا في هذه الدنيا ، وأن السعادة بكنفهم وبجوارهم .. وها هم قد ماتوا وتركونني مهضومة ومكسورة الجناح .. ابني الوحيد منذ دخلت المستشفى لم يطل عليّ .. أنا لا ألومه .. أبغضه كما أبغضت أباه اللعين

قالت أنعام : ادع له بالهداية .. أنت قصرت في حقه يا نوال ! أنت عجولة لاتصبرين ولا تتأملين في العواقب .. وعلى كل ليس هذا وقت الندم .. عليك أن تراعي صحتك ، وتتوبي إلى الله ولا تقنطي من رحمة الله سبحانه .. وإذا أحببت أن أنـقلك لبيتي فأنا مستعدة لذلك

فقالت نوال بعد تدبر يسير : جزاك الله خيرا . دعيني عند أمي .. والخادمة جزاها الله خيرا لا تقصر إنها سيدة محترمة وفاضلة

كان عمري فعلا يفكر بتسفير نوال ابنة عمه إلى أوروبا للعلاج هناك ، وإنما الذي كان يؤجل ذلك هو الرجل المحرم الذي سيرافقها ؛ لأن المرأة في الإسلام لا تسافر إلا بمحرم كزوج وابن وأخ ، فصابر لا يبدي ارتياحا لسفرها ـ رغم نصيحة كبار الأخصائيين في أمراض الأعصاب

بعلاجها خارج القطر ـ أو حتى إرسال أحد أبنائه معها ، ففكر أن يأخذ أنعام وابنا له ، ويسافرون بها ولكن من سيذهب ؟ فمحمود ما زال في الغرب يدرس ويشتغل ، وأسامة سيسلمه إدارة الشركات والمشاريع ، وحسن في الشرطة يتعلم ويتدرب ، ومحمد على مقاعد الدرس ، وكان يستعرض أفراد الأسرة فوصل لرأي أن يعقد اجتماعا لمحارم نوال ، وينظر من يحب الرحيل والسفر معها ، وكان قد كلف عائشة بالاتصال بمستشفيات متخصصة في ألمانيا أو سويسرا ، وهو الذي اقترح على أنعام أن تحضر أختها للسكن معهم في الفيلا لتظل قريبة منها لأنه مدرك لحالتها النفسية المؤلمة بعد الحادث ، وهي رحم بالنسبة له ، فهو يتعاطف ويشفق على الغرباء والأجانب ، فكيف بابنة عمه ناجح ؟ وكان خائفا ومنزعجا مما نقلته له أنعام عن يأسها وتفكيرها بقتل نفسها من الألم والحالة النفسية التي تعصف بها ، فلذلك اتفق مع طبيب نفسي كبير ليهتم بها ويراعيها ، وكان يرى أن الإيمان الصادق يمنعها من الضعف والاستسلام لليأس والانتحار ؛ ولكن نوالا ضعيفة الإيمان ، تكره الصلاة واللباس الإسلامي وغير ذلك .. قضايا كثيرة تهم عمري وتشغله ولكن القضايا الإنسانية تشغله أكثر من قضايا ومشاكل العمل وكان قد اقترب موسم الحج ، وهو يحن ويشتاق لتلك الديار ، ففكر بالحج هذا الموسم ، واعتذرت زينب عن السفر معه ، وكذلك أنعام لمرض أمها وأختها فعرض الأمر على عائشة فوافقت ، فقال : إن شاء الله بعد عودتنا من الحج سنتمم زواجك بحمزة وهند بأسامة

فقالت : إن شاء الله .. ما رأيك أن نأخذ سهاما معنا ؟

ـ حبذا ذلك يا عائشة .. فعندما تتزوج ممن هو في بالي ستحج إن شاء الله .. فسهام طيبة وقد بالغت في حسن ظنها بالمدعو فوازا .. فربما اخذناها عمرة اذا قبلت في ذلك

ـ لم تخبرنا عمن اخترته لها ؟

فقال ما زال عندها أمل في ذلك الشاب ، وكلما اتصلت بأخته اعتذرت لها عنه .. لا يريد الحديث معها .. وما زالت تنتظر

فقالت بشفقة : تكلم معها من جديد يا أبي ؟

فقال سأفعل الليلة .. لقد طال انتظارنا

ـ اذكر لها اسم العريس المختار يا أبي أثناء الكلام .. ربما وجد هوى في نفسها وغيرت أفكارها إنها كثيرة الزعل مع أمي أنعام لا تطيق الكلام معها

ـ أمعقول هذا ؟

ـ أنا أقول ذلك ليس من باب النميمة .. أرجو أن تنهي حزنها يا أبي ليعود الوئام والحب والسلام للبيت ، فأمي انعام متوترة وذهنها مشغول بين أمها المريضة وأختها نوال وابنتها التي تضع اللوم عليها بابتعاد فواز عنها

ـ أمرك .. ما أخبار صهرنا حمزة ؟

ـ بخير ، وكان أمس هنا زارنا وجلس مع أمي ثم غادرنا

ـ أخبري حبيبتي سهام أن لا تنام قبل أن ترني .. لي يومان أسأل عنها فيقال إنها نائمة كأنها تتهرب من اللقاء بي

ـ هي حزينة لعدم اهتمام ذاك الشاب بها كما كان أيام الكلية .. فهي تقول لقد كان يهمس أمامي أن اليوم الذي لا يراني فيه كأنه خسر يوما من عمره أهذا كذب وضحك ؟ !

فقال عمري : أنا متأكد أنه شاب عابث .. لو كان يحبها حقيقة لتقدم إليها على أي صورة كانت وعندما تستقر في بيته يطلب منها ما يشاء من التبرج والسفور ؛ ولكنه اتخذ ذلك ذريعة للخلاص منها في أي وقت يشاء .. أنا أعرف أن أناسا على هذه الشاكلة يحبون التبرج والسفور والزينة السافرة ؛ ولكنهم لا يطلبون ذلك من الآخرين ، فهذه أمور شخصية وخاصة ، فهو لم يسألها يوما عن الصلاة .. إنما تركيزه على التبرج واللبس .. وأنا راض عنها لأنها لم تعش معنا صغيرة .. فلبست الشرعي خجلا منا ومن أجل أمها .. وليس لي عليها ولاية إلا بالمعروف وحسن الصحبة

بعد أن شارك الأهل طعام الغداء انصرف عمري لمكاتب المجموعة والمشاريع في شارع قطز ، فدخل المكتب والتقى بعدد من كبار الإداريين، وعند العصر غادر الشركة كالمعتاد ، ولم يذهب للبيت كالمعتاد ، إنما أخذ الدكتور يوسف ومشوا إلى السكرتير أحمد أبي حمزة صديقهم الحميم وظلوا عنده ساعة من الزمان ثم ودعوه وقال عمري : ما رأيك أن نزور دار أسامة بن زيد ؟

ـ في مثل هذا الوقت ؟!

ـ في مثل هذا الوقت

ـ ألا يغضب منا مسؤول الدار ؟

ـ ولم يغضب منا مسؤول الدار ؟! .. هو لازم أن تكون الزيارة في أول النهار .. هيا فالأستاذ حابس رشيد رجل محترم يقوم بواجبه خير قيام

مرا على دار أسامة للأيتام ـ كانت الدار ترعى حوالي أربعين إلى خمسين يتيما ، ما بين أكل وشرب ومنام ومدرسة ونظافة ، والدار هذه تأوي الأيتام من سن ثلاث سنوات إلى اثنتي عشرة سنة ثم ينقلوا لمدرسة داخلية متوسطة ـ ومسحا على رؤوس الأيتام ، وتفقدوا الأطفال الصغار، واطلعوا من القائم على ادراتها الاستاذ المربي حابس رشيد عن المشاكل التي يواجهها هؤلاء الضعفاء .

ضيوف من امريكا

لما رجع عمري بيك للبيت وتناول العشاء الخفيف مع أفراد الأسرة الراغبين في الطعام كعادته في الحديقة ، وخصوصا في ليال الصيف والخريف ، وتحدث الحاضرون بما يحلو لهم من أطيب الكلام ، ثم دخل البعض إلى البيت وبقيت أنعام التي أشار لها بالبقاء وسهام ، وبعد مقدمات سأل عمري : ما آخر أخبار فواز يا بنية ؟

فقالت بانكسار وضيق : لم أتكلم معه إنه مشغول وغير موجود في البيت كلما اتصل بهم ؟

أدرك عمري أن سهام متضايقة من الحديث في هذا الموضوع ؛ ولكنه أصر على الكلام ، فهو يتمنى أن يصحو ويجدها قد نسيت هذا الحلم أو الوهم المسمى فوازا فقال : ولماذا لا يتصل هو ؟ .. ألا تبلغه أخته كثرة اتصالك ؟

فقالت باختصار : لا أدري

فقال : ما الحل في رأيك ؟ ألا تريدين الزواج ؟

ـ لا أفكر فيه الآن

ـ أنا ذكرت لك سابقا أن لدي شابا محترما .. ورجل يحب مصاهرتنا ، وهو مهندس معماري مثل أسامة ، وهو ابن رجل فاضل .. وستجدين عنده الحب والرحمة والمودة والسكن يا بنيتي لا تنتظري سرابا

فقالت بنبرة مرتفعة : دعني يا عمي بحريتي .. عندما أفكر وأقرر الزواج سأصارحكم بذلك ونهضت كأنها محتجة على اسلوب الضغط الذي يمارس عليها ، فقال : لا تغضبي منا .. افعلي ما شئت .. وتأكدي أننا لا نكرهك أو نحب التخلص منك .. فهذا شأن خاص بك .. ونحن ما زلنا نقول أننا لا نمانع بمجيء هذا الشاب لنتعرف عليه ويحصل ما تريدين

فقالت : سلامتكم من التقصير ؛ ولكني متعبة نفسيا .. سامحني يا عمي العزيز

ـ بارك الله فيك

وأتت الخادمة تحمل الهاتف ، ووضعته في مكانه المناسب وهي تقول : فندق النهضة العربية يريد الحديث معك يا أبا محمود

ومشت سهام نحو مدخل الفيلا الداخلي وقد همست تصبحون على خير بعد أن تناول عمري السماعة من أم أحمد وهو يردد السلام عليكم .. فندق النهضة .. نعم أنا السيد عمري الخابي .. شاب أجنبي يريد الكلام معي .. هات

أخذ عمري يتحدث بالإنجليزية بضع دقائق ثم وضع السماعة فقالت أنعام : من ؟

فقال : هذا ابن أخي سمري ينزل الفندق ومعه أخته ، ينزلان منذ يومين .. ويريدان زيارتنا والتـعرف علينا

فقالت مبدية استغرابها من تصرفهما : ولماذا لم ينزلوا البيت منذ جاءوا؟! .. أليس هذا بيت العائلة وعمهم عمري ؟

فقال بحيرة مثلها : لا أعلم لماذا ؟ .. حتى أنه لا يتكلم العربية ولا يعرفها .. وسمري لم يحدثني بنزولهما وخبرهما .. ذكريني في الصباح أن أرسل السائق حمادا وحسنا ليأتيا بهما .. أهنا حسن ؟

ـ نعم ومعه إجازة ثمان وأربعين ساعة

فطلب من أم أحمد أن تأخذ الهاتف ، وترسل له حسنا ، فقالت وهي تبتسم : خرج مع عروسه في مشوار .. وقد يمرا على خالتهم نوال

قالت أنعام : نعم ذكر لي ذلك ظهرا فشجعته لقد نسيت .. سأنتظر مجيئهما وأبلغه رغبتك

وانطلق الجميع نحو الفيلا ، فصعد عمري لغرفته ، ثم توضأ وصلى عددا من الركعات صلاة الليل أو القيام ، ثم دخل غرفة المكتبة فوجد عائشة جالسة فيها تقرأ ببعض المراجع .. فسلم وجلس بعدما أخرج كتابا عن حياة الصحابة ظهر في الأسواق حديثا ، فقلب صفحاته ، وقد طلب من الشغالة كوبا من القهوة ، فقرأ عدة صفحات من الكتاب الجديد ، وكانت الساعة قد اقتربت من نصف الليل عندما انتهى من قراءة تلك الصفحات ، فعاد لحجرته وقرأ بعض الآيات من المصحف ، ثم تمدد على فراشه يذكر أذكار النوم والرقود ثم راح في سبات هادئ .

*****

وعند صلاة الفجر سألت أنعام زوجها متى نرسل السائق للفندق ؟ فقال عمري : هل أخبرت حسنا بذلك ؟

ـ لما مرا عليّ عند عودتهما أخبرتهما ، وستجد حسنا أمامك في المسجد .. ذهب للصلاة في المسجد

ـ إني ذاهب .. السلام عليكم

ولما ارتفعت الشمس عند الضحى ذهب حسن بنفسه للفندق ومن دون السائق ، وخلال نصف ساعة كان يقف أمام مدخل فندق النهضة ، ويدخل صالة الاستقبال ، ويسأل موظف الاستـقبال عن شابين أمريكيين مايكل سمري وروبيكا سمري ، فنظر الموظف في دفتره وقال : نعم هما نزيلان هنا .. ماذا تريد منهما ؟

ـ أنا على موعد معهما .. أخبرهما أن حسن عمري في انتظارهما

وجلس حسن على أحد المقاعد الكبيرة منتظرا مجيئهما ـ مجيء أبناء عمه الذي يسمع به ، ولم يره منذ وجد على هذه الأرض ـ ثم سمع الموظف يخاطبه : إنهما نائمان ، لا أحد يرد .. أتشرب القهوة ؟

ـ ماشي .. ننتظر بعض الوقت .. فأنا ابن عم لهما يا ..

ـ نذير رمح

ـ أهلا أخ نذير .. ومرحبا

ـ قهوة يا حسونة للأستاذ حسن .. أهلا وسهلا بك يا حسن بيك

ـ أهلا أستاذ نذير بيك .. هل هما قادمان من أمريكا مباشرة ؟

ـ لست أدري بالضبط ، ولكن أظن أنهما آتيان من بريطانيا

أتت القهوة ، ورشفها حسن ببطء ، وأخذ يقرأ في صحف الصباح المعروضة على المنضدة ، ثم اتصل بالبيت وأخبرهم بتأخر الضيوف ، فهما نائمان ، وبعد مضي ساعة اتصل الموظف ثانية فردت عليه الفتاة ، ثم وضع السماعة فقال : إنهما قادمان يا سيد حسن

ـ شكرا لك .. سامحنا على الإزعاج يا أخ نذير

ـ أبدا ، هذا واجبنا أيها الأخ المحترم

*****

أقبل الأخوان إلى صالة الاستقبال ، شكلهما وهيئتهما هيئة الأجانب، قميص قصير وبنطال

قصير ، شعر مايكل سمري أسود منفوش وهو طويل القامة ، وأما الفتاة شقراء البشرة عيون زرقاء شعرها يميل للحمرة ممتلئة الجسم بعكس أخيها النحيف الطويل البدن ، فأشار الموظف إلى حسن المستغرق في تقليب وقراءة الصحف ، فاستدارا نحو حسن عمري ـ وقد نهض قائما وقد ترك الصحف عندما سمع همس صوت نذير ـ الذي حياهما وصافحهما وقال معرفا بنفسه وهو يستغفر ربه لمصافحته يد ابنة عمه : حسن عمري الخابي

فذكرا اسميهما ، وقالت الفتاة : أين عمي عمري ؟

ـ إنه في انتظاركما .. أين حقائبكما ؟

ـ في الحجرة

كان كلامهما باللغة الأجنبية ، فهما لا يحسنان اللسان العربي ، وإن كان والدهما عربي ، ربما يرطنان ببعض كلمات عربية تتردد أثناء الحوار ، فتقدم حسن من الموظف ، وطلب منه الحقائب والجوازات ، ودفع فاتورة الفندق كاملة ، وحاول الشابان الاعتراض ، فقال لهما : أنتما الآن في ضيافتنا ، وأبي يغضب إن دفعتما شيئا .. وهو غضبان ومتضايق لنزولكما الفندق قبل لقائه

ذهب الفراش لإنزال الحقائب السفرية ، وكان حسن يقول للموظف : هم أبناء عمي ، ولكن أمهما أمريكية ، فهذه أول مرة أراهما في حياتي .. شكرا

وتقدمها حسن نحو سيارته الرابضة على مدخل الفندق ، ووضع الخادم الحقائب في السيارة ، ونقده حسن ما تيسر من المال ، وركب مايكل بجواره وركبت الفتاة في المقعد الخلفي ، وأخذوا يتحدثون عن جمال هذه البلاد والأماكن التي تفرجا عليها خلال اليومين الماضيين ، وكان عمري في انتظارهما ، واعتذر عن الذهاب للشركة ، ولما وصلت السيارة ، وفتح لهما البواب الباب ، وحيا السيد حسنا وقال : أبو محمود في الانتظار في قاعة الاستقبال

كان الشابان قد اندمجا بالحديث مع حسن رغم صغر سنه ولحسن لغته ، وقد ذهلا عندما علما سنه ، وأنه متزوج منذ عهد قريب ، ولما شاهدا عمها عمريا وجداه صورة قريبة من والدهم ، وتصافح الجميع ، وعتب عليهم لعدم اتصالهم به منذ خرجوا من فيرجينيا ، ولام عمري والدهم الذي لم يعلمهم لسانه اللسان العربي ، وتألم أكثر عندما لم يقابلهما عندما قضى حينا من

الزمن مع أبيه ناصح أثناء مرضه ، سر الشابان من الاستقبال الدافئ ، ولما سأل مايكل عن باقي أفراد الأسرة ، قال عمري : لا يوجد إلا نساء .. والنساء لا ترى هذه العورات وهذا اللحم عيب هذا في ديننا قبل تقاليدنا ـ ضحك الشابان لكلام عمهم وتابع ـ أنتم أكيد لا تعرفون شيئا عن دين أبيكم ؟

ضحكت روبيكا وقالت : أبونا ليس له دين .. الدين عندنا كلمة مجردة فقط .. لا نعرف دين أبينا ولا حتى دين أمنا .. وأنا ما أتيت إلى هنا إلا لأعرف الدين

ـ لماذا ؟

فقال مايكل : روبيكا .. تدرس في كلية علوم الاجتماع وديانات العالم .. فأحبت أن تعرف دين المسلمين لتكتب رسالة الماجستير عنه .. فأرسلها السيد سمري إليكم

ـ وأنت ؟

ـ جئت رفيقا وسائحا وللتعرف على أقاربي

قدمت لهما الخادمة العصير المناسب ، وقال عمري : يا مرحبا بكم .. عندنا النساء لا ترى عورات الرجال والرجال لا يرون عورات النساء .. آنسة روبيكا .. الآن سيذهب بكم حسن إلى معرض الثياب ويشتري لكما الثياب المناسبة لتتعرفوا على باقي أفراد الأسرة .. هكذا اللباس ـ وأشار لثيابه وثياب حسن ـ ما رأيكم ؟

فقالت روبيكا : لا بأس

ـ قبل الذهاب ما أخبار سمري أبيكم ؟

روبيكا ردت : لا نراه كثيرا .. هو دائما في الجامعة .. لا نعرف عنه شيئا

فساقهما حسن مرة أخرى إلى السوق ، وتناول معهم الإفطار في أحد المطاعم ، وكان حسن قد شرح لهم قواعد اللباس في الإسلام وأهمية ستر العورة خصوصا الساق والفخذين ، وأن هذا الثوب القصير غير إسلامي ، وإنما هو تشبه وتقليد للغرب وتقاليدهم ، فاشترى لهم حسن ثيابا مناسبة وأكثر من ثوب ، فاشترى للفتاة عدة تنانير طويلة بعض الشيء ، وبنطالات لمايكل وقمصان وبدلات ، ثم عاد بهم للمنزل ، ووجدا عمهما ما زال في انتظارهما مرة أخرى فلما

لبسا ثيابهما الجديدة أتت البنات والزوجات ، فسلمن على مايكل بالإشارة من غير مصافحة وصافحن روبيكا ورحبن بهم ، فسرت روبيكا وأخوها من عائلة عمهما المحافظة حيث لا ترى أذرعا ولا سيقانا ولا حتى أقداما ولا شعرا .. الوجوه والأكف فقط .. فتعجب مايكل من ذلك الزي ، وظن أنه لا توجد أنثى تلبس هكذا ، فالنساء عندهم عاريات ، وحتى النساء اللواتي صادفهن في الفندق والمدينة أغلبنهن متبرجات وسافرات ويلبسن البنطالات ، فشرح له عمه بإيجاز عن ذلك التناقض بين تعاليم الإسلام وأحوال المسلمين المنفلتين عن تعاليم الدين ، وتناول الضيفان الغداء على مائدة عمهم ، ثم قالت روبيكا لعمها : تكلف أبي بكتابة رسالة لكم

وأخرجت من حقيبة صغيرة بين يديها مظروف رسالة ، فتناوله عمري شاكرا ، وكانت الرسالة مكتوبة بالأمريكية، وكان فيها توصية بالأولاد ومساعدة روبيكا في معرفة الدين الإسلامي ، وأهم المراجع التي تساعدها عن الكتابة عن الإسلام والمسلمين ، ومساعدتهما أيضا في السياحة في البلاد ، فلما استوعب الرسالة أعطاها لعائشة ، وقال موصيا لها : اهتمي بابنة عمك يا عائشة وأما السياحة سأتصل بمكتب شركة سياحية ليرتب لهما رحلة سياحية ممتعة ، ويشاهدا الأماكن الأثرية في البلد والصحراء .. عجيب أمر هؤلاء الأجانب يحبون مشاهدة الحجارة القديمة !

وضحك على التعليق الذي ابداه ، وأبدت عائشة استعدادها الكامل لتعريف ابنة عمها بالإسلام ، ومراجع البحث ، فساقتها للمكتبة الداخلية ، وتبعتها البنات الحاضرات ، وأخذوا يسألونها عن أمريكا ، وكانت سهام تترجم للآخرين عباراتها ، وقد كان وجود هذين الضيفين عند عائلة عمري حدثا مثيرا مع أنهم أبناء أب عربي ، فلا عروبة لديهم ولا إسلام ، ولما سألت عائشة روبيكا عن سبب اهتمامها بالإسلام بالذات .. قالت الفتاة : أصدقك القول ؟

فلما أجابت بنعم قالت روبيكا وقد بدت على ملامحها الجدية : دكتورة عائشة .. قبل أن أتكلم عن السبب الذي دفعني للكتابة عن الإسلام دون الأديان الأخرى ، والمرأة في بلاد المسلمين .. أنا مستغرب مما نسمع عنكم ، وما نقرأ عنكم في كتبنا .. فقد قيل لنا أن النساء العربيات لا يتعلمن ولا يدرسن ويشتغلن بالرعي والحلب والزرع ولا يخرجن من البيوت ..

ولكنك دكتورة .. وسهام كلية الإدارة وأحلام مازالت في الجامعة وريهان في الثانوية العامة ومريم الجميلة في المدرسة .. وعمي عمري كما رأيت رجلا محافظا ومتزمتا في نظرنا .. فكيف هذا ؟ ! كيف سمح لكنّ بالدراسة ؟!

فقالت عائشة بحماس وقوة : الإسلام مشوه كثيرا في بلادكم .. المستشرقون يكتبون عنه بكره وحقد وجهل ولإغراض أخرى .. يدّعون أن الإسلام ضد العلم ، وهو دين العلم والنور ومحاربة الجهل والظلام .. وليس العيب في الدين الإسلامي ذاته ، إنما العيب في الذين يمارسون ويطبقون الدين الإسلامي .. وهؤلاء الناس قد يكون لديهم أعذار في تطبيقه التطبيق الصحيح لانتشار الجهل والخرافة بينهم .. وبسبب ظهور تيارات فكرية ونزعات مختلفة تحمل الإسلام اسما وأفكارها متضاربة ، وفهمها للإسلام متناقض في فكر وعقل وفهم الآخرين .. وقد يكون هذا التناقض والاختلاف متقبلا بين المسلمين للتعايش ، وأيضا لاختلاف الفتوى في المسائل الشرعية لاختلاف الفهم والمكان والأحوال .. وهذا لابد من مراعاته في فهم المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم .. وهناك خلط مقصود وماكر بين الإسلام وعادات الشعوب التي اعتنقت الإسلام ومع توالي الأيام صعب التمييز بين ما هو إسلامي وبين ما هو عادات متوارثة وتقليد .. فالإسلام الحق يعرف من مصدريه القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ وسيرته ﷺ

أبدت روبيكا تفهما لملاحظات عائشة ودفاعها الحق ، وأثنت عليها ثناء حسنا ومشجعا ثم قالت بعدئذ : دكتورة عائشة .. الأمية متفشية في بلاد المسلمين ، وانتشار التخلف الفكري والاقتصادي والديمقراطي والحرية الفردية .. والنساء عندكم محرومات من كثير من الحقوق الشخصية والاستقلالية .. وعندكم الرجل يتزوج اثنتين وثلاث .. أطفال الأسرة الواحدة كثيرون .. ودخل محدود جدا وقليل يضر بالزوجة ، ويؤثر على رعاية الأطفال بالتغذية والتنمية والمرأة تغمر بدنها من رأسها إلى قدميها .. حتى لا يراها الناس إذا سمح لهن الرجال بمغادرة البيت ، أليس في كل ذلك هضم لحقوق النساء والصغار ؟

ردت عائشة قائلة وهي تبتسم : قضية المرأة ! .. حقوق المرأة العربية والشرقية ! حقوق تحديد النسل ! طفل واحد أو اثنان .. زوجة واحدة .. حقوق اقتصادية .. حق ظهور جسم المرأة ..

هذه قضايا وغيرها مما تثيره جمعيات حقوق الإنسان ، وجمعيات المرأة والأسرة في بلاد المسلمين وغيرهم .. للتحريض ضد الدين والانفلات منه ، وإظهار أن الدين الإسلامي دين قديم دين صحراوي .. هذا أيضا يا آنسة روبيكا جهل بالإسلام ، ومعاداة عن حقد وحسد ، قال الله سبحانه في القرآن { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ... } .. هل المرأة إذا خرجت عارية أصبحت حرة وديمقراطية ومتطورة ومتقدمة ؟ ! .. هل الحرية التعري والسفور ؟! .. هل هذه هي الحرية التي قامت من أجلها الثورة الفرنسية ؟! .. هل يحق للرجل المسلم أن يخرج عاريا يتمشى في الشوارع مدعيا ذلك باسم الحرية الشخصية ؟!.. فجاء الإسلام بلباس خاص للرجل ولباس خاص بالمرأة ، كل حسب شروط واضحة ، راعاها المسلمون كل القرون بشكل مجمل .. وهناك تفاصيل بين لباس الشرع الإسلامي ولباس العادات والمدن والأرياف والبوادي .. شروط عامة تقوم على ستر البدن والعورة لكل من الذكر والأنثى ، وهذا نتيجته طهارة للمرأة والرجل .. فلماذا تتزين المرأة للآخرين ؟ ! أليس في الزينة إثارة وإغراء ؟! .. فمن تريد المرأة إغراءه ؟! .. أليس الزوج أم كل الرجال ؟! .. فالمرأة المسلمة تتبرج وتتزين إلى زوجها .. أما نساء السفور يتبرجن ويتزين لرجال الحفلات والحانات وللناس شهوات { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ } هذا جزء من آية قرآنية من كلام الله .. فهذا اللباس أو الحجاب الخاص بالمرأة حكم وتشريع من خالق هذه المخلوقة ..خالق هذه المرأة العزيز الحكيم الذي يعلم ما يليق بها ويناسبها .. والحديث طويل وذو شجون حول هذه الشبهات الهزيلة التي تثار بين الحين والاخر .. وسأترجم لك فقرات مما رد به علماء المسلمين على شبهات المستشرقين حول التعدد وتحديد النسل وغير ذلك ..

فقالت روبيكا : حديث لا يمل منه .. يكفي هذا اليوم .. هيا نخرج للحديقة نتنزه فيها .. بلادكم شمسها ساطعة

كانت سهام تستمع لحديث عائشة كأنها تسمعه أول مرة ، وفعلا هي أول مرة تسمعه ،كانت مدركة لم تقول عائشة وإن كان باللغة الإنجليزية ومعجبة بدفاع عائشة الهادىء والمنطقي كما

يقال .

شرحت عائشة لابنة عمها الأمريكية نظام الغرف والبيت ، ودلتها على غرفتها التي تستطيع أن تستريح فيها إذا رغبت ، فحقيبتها فيها ، فقالت الفتاة : لا .. أريد أن أرى الحديقة وأشم عبير الأزهار .. الدفء العائلي ممتع لديكم .. فنحن يعيش كل منا وحده .. كل في عمله .. أحيانا نلتقي في مناسبة أو عطلة إن لم يكن أحدنا مرتبا لسهرة .. عزيزتي عائشة .. أنا معي إجازة شهر فأريد أن أعرف كل شيء عن الإسلام وعن المرأة المسلمة ..

ـ أنا سأبذل جهدي معك خلال هذا الشهر رغم زواجي

وحدثتها عن زواجها باختصار فقالت روبيكا : زواج مبارك .. وستساعدني سهام

فقالت سهام مرحبة : أنا تحت الطلب ؛ ولكن ليست لدي الثقافة التي تملكها الدكتورة .. فقراءاتي عن الإسلام ضئيلة ..

لم ؟

تحدثت سهام عن زواج أمها بابن عمها عمري ، وحياتها في بيت جدها ، فقالت روبيكا : لا بأس سهام .. سيسمح لنا زوج عائشة السيد حمزة بالاستعانة بها

قضى الأخوان أسبوعا ممتعا في ضيافة عمري ، وتعرفوا على بعض عاداتهم وأدبهم ، وسمعت روبيكا خلاله كلاما كثيرا عن الإسلام ، وعن رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعرفت على الحكم والغايات من إباحة الزواج للرجل بأكثر من أنثى ، وعرفت حقوق الرحم والنفقة والرضاعة والسكن ، ومحاربة الإسلام للفقر بفرض الزكاة .. ولماذا يكون الطلاق ؟ وأشياء أخرى كثيرة ، ولما بدأ القوم الاستعداد لحفل الزواج للأخوين أسامة وعائشة، طلبت عائشة من ابنة عمها إجازة ثلاثة أيام فقط ، فقالت روبيكا : جيد .. بعد حضور حفل الزواج سنذهب مدة أسبوع إلى الصحراء لنرى الآثار القديمة والمحميات الطبيعية

وتم حفل زواج الأخوين ، وذهبت عائشة مع زوجها الدكتور حمزة، ورحل أسامة بزوجته هند إلى شقة في إحدى العمارات التي أشرف على تشييدها ، وفي الصباح التالي التحقت روبيكا ومايكل في إحدى شركات السياحة التي حجز لهم فيها عمهم عمري ، ولما ركبوا الباص

السياحي ، وبدأ الدليل السياحي يحدثهم عن مخطط الرحلة فاستمعوا له حتى أنهى كلامه ، فقال مايكل : عمي عمري رجل مؤمن .. متدين يحافظ على الصلاة ويقرأ القرآن ويذهب يوميا للمسجد .. ويقول إنه تعلم في بريطانيا وعاش فيها سبع سنوات درس واشتغل .. وهو صاحب مشاريع كثيرة ويرعى دور أيتام وفقراء

فقالت روبيكا : أسرة عمي متماسكة .. الصغير يحترم الكبير ، بل زوجتاه رائعتان جدا جدا تحبان بعضهما حبا صادقا ومدهشا ، فقد حدثتني سهام ابنة أنعام عن ذلك .. وأن الأولى سعت وشجعت في تزويجه من الأرملة بدون غيرة وخوف .. والله التعدد يا مايكل أحسن من كثرة العشيقات كما هو معمول به عندنا .. ما أكثر الخيانات الزوجية عندنا ! .. لا أظن أن أحدا لم يخن زوجته في بلادنا .. والعكس صحيح .. أسرنا متفككة غير مترابطة تحمل اسم العائلة فقط .. انظر أمك لا تزور والدها إلا إذا احتاجت لشيء منه ، وأحيانا في أعياد الميلاد ونحن نعمل مثلها .. علمت أشياء مهمة عن الإسلام .. نحن نجهل الكثير عن هذا الدين .. ولا نفهمه بطريقة هؤلاء الناس .. إنني أفكر بإضافة شهر آخر للرحلة

فقال مايكل : أما أنا لا أستطيع يا روبي .. زوجتي لا تحتمل أكثر من ذلك .. ابني جاك أنا مشتاق إليه

ـ عد كما تشاء ، سيرحب عمي ببقائي يا مايك .. أرجو أن نقضي إجازة ممتعة في هذه الصحراء

ولزموا الصمت فقد أخذ الدليل السياحي يخاطبهم ، فأصغيا إليه يتتبعان ما يردده أمام الفوج السياحي ، بعد أسبوع من التفرج على الأحجار القديمة وآثار الرومان واليونان وغيرهم من الأمم البائدة عاد الأخوان إلى قصر عمهما عمري ، فقام بمرافقتهما في جولة خاصة على دور الأيتام ، وبعض المدارس الخاصة التي يقوم برعايتها ، فتعجبا من قدرة عمهما على إدارة هذه المشاريع والمدارس ، فرأى الشابان الجانب الخيري الكبير من حياة عمها ، وأنه يتعاطف مع الأيتام والفقراء وأصحاب الحاجات والمرضى من غير منة وطلب شهرة ، فاكتشفا أشياء مثيرة للأحاسيس ومشاعر المحبين له وحب العاملين بجواره له ، وقال مايكل لأخته معجبا بحياة عمه وأعماله الانسانية : هذا الجانب الذي يجب أن يركز عليه كل غني ، كل مشروع ناجح

يقابله مشروع خيري وإنساني

ولما علمت عائشة بعودة روبيكا استأذنت زوجها بمصاحبتها حتى تغادر البلد ، فساعدتها بتوفير أهم مصادر العلم الإسلامي من كتب الحديث النبوي والتفسير والسيرة والتاريخ والعقيدة والفقه ، واشترى لها عمها كثيرا من المراجع العربية ، وما وجده من الكتب الإسلامية باللغة الأجنبية ، وشجعها على تعلم العربية حتى تستطيع فهم الدين الإسلامي ، واختارت لها عائشة عددا من المراجع العربية المهمة في اللغة ، ورغبها عمري على العودة ثانية بعد نيل شهادة الماجستير ، وكان يستميلها للحياة بقربه ليحاول عودتها لحظيرة الإسلام بعد كل هذه الضياع فهم لا يعرفون عن الإسلام شيئا ، فقد أخبرت روبيكا أن الذي حبب إليها الكتابة عن الإسلام والمرأة المسلمة .. أنها اكتشفت على كبر أن دين والدها الإسلام .. لقد كانت تقرأ في مكتبة الجامعة عن الإسلام فلا تجد شيئا في أسرتها من الإسلام ، وأحيانا عندما تلتقي بوالدها تسأله عن الإسلام ، فلا تجد عنده شيئا إلا بعض الكلمات العامة المبهمة ، والسبب الثاني أن لها زميلات في الجامعة مسلمات وأكثرهن من القارة الهندية وإندونيسيا .. فتلاحظ صلاتهن وصيامهن ولباسهن ؛ ولكن لا معلومات كافية لديهن عن الإسلام سوى طقوس تعلمنهن من أسرهن ، وعندهن القليل من اللغة العربية الركيكة .. وكانت تحاول أن تعرف الإسلام من الدكاترة المختصين في الجامعة ، والمهتمين بالاستشراق والمسلمين ، فاقترح عليها أحد الدكاترة الكتابة لنيل شهادة الماجستير عن المسلمين والمرأة المسلمة ؛ لتتعرف على الإسلام وتكسب الشهادة ، فوافقت وبدأت تعد نفسها لذلك .. فحاولت أن تستفيد من إسلام أبيها ، فوجدته أميا في دينه لا يعرف الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا شيء عن الدين ، وأنه كان يعيش في أسرة لا تفقه عن الإسلام شيئا ، ولما أتى هذه البلاد كان فارغا من الثقافة والمعرفة الدينية ، فانصهر في المجتمع الأمريكي انصهارا كاملا ، وبعد زواجه من سيزانا نسي أمته وجذوره ، فلم يفدها سمري بشيء سوى أن نصحها بالسفر إلى بلاد العرب ، ومقابلة عمها عمري شقيقه ، وأن عمها شيخ ويعرف الدين ، فسيفيدها في أطروحتها علميا وعمليا ، وشجعها مدرسوها على هذه الخطوة ، وقالوا لها : ترين المسلمات على أرض الواقع .. فكانت هذه الرحلة ، وكانت

تسمع من عمها ، ومن عائشة كما ذكرنا ، وساقها عمها إلى بعض المنتديات العلمية والمفكرين الإسلاميين ، وقامت بزيارة لبعض الجمعيات المختصة بالنساء والأسرة ، ورافقتها عائشة إلى بعض الجمعيات الإسلامية وكانت تقول لعائشة بعدئذ : إسلام متناقض في بلادكم .. ولما تسألها لم ؟! فتقول : الناس يجهلون الإسلام .. فعندما ندخل جمعية مهتمة بالمرأة وأحلامها وتحريرها وحقوقها .. تجديهن يتكلمن عن الإسلام بعموميات .. الإسلام مع حرية المرأة .. الإسلام مع استقلال المرأة .. الإسلام مع عمل المرأة .. ويرددن ما نقرأه عنكم في الغرب .. القوامة والتعدد الحجاب والميراث الكبت الجنسي العقد النفسية .. وعندما أجلس مع امرأة مسلمة محجبة مثقفة أجد لديها دفاعا جيدا ومقنعا لهذه الطروحات المختلفة وما تسمونه الشبهات .. ويقلن أن طبيعة المجتمع المسلم يخالف طبيعة المجتمع الكافر المجتمع الغربي .. وهذه الأعمال منسجمة - في رأيهنّ ـ مع طبيعة المجتمعات الإسلامية ولا يوجد اضطهاد للمرأة أو احتقار أو نقص من كرامتها أو عقلها وجمالها .. فيحق لها التملك والعمل والعلم واختيار الزوج المناسب الكفء كما هو عندنا .. وتجدينها موظفة وعاملة في المكان الذي يناسبها فسيولوجيا ونفسيا .. وعندنا النساء تعمل في المكان المناسب والذي ترغب ؛ ولكن هناك إشكاليات في النظام الاقتصادي عندكم ، فعندنا الربا مباح والاحتكار وكل ما يباح بالقانون فهو مشروع .. وعندكم النظام الاقتصادي مهلهل بين الرأسمالي والاشتراكي والإسلامي

قالت عائشة : نحن الممنوع عندنا حق لله ولرسوله .. فما أحله الله وأجازه الله فهو المباح ، وما حرمه الله فهو حرام .. مهما تحايل الناس على تحليله .. فهو حرام .. فأيهما خير قانون الله خالق الإنسان أم قانون البشر الذي هو مخلوق زائل ؟! .. وهل يكفي يا روبيكا أن نتحدث عن عدالة وجمال الإسلام ولا نطبقه ؟! .. فنساء الجمعيات في بلاد المسلمين أي المتخصصة بالمرأة ووضع المرأة يأخذون من الإسلام ما يوافق هواهم لدعم مقولاتهم في الندوات والمحاضرات ، ويأتون بشواهد شرعية في قضايا معينة ، والشاهد للأسف بعيد عن ذلك الاستدلال ..فأصحاب الهوى هكذا يطبقون القضية أو الشيء ثم يأتون بما يناسبه من الكلام العام .. مثلا قضية الحرية الشخصية يأتون بأقوال إسلامية مأثورة لا إكراه في الدين فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

للتدليل على حرية الدين والعبادة .. وينسون أنه محرم على المسلم تبديل دينه .. وقيسوا على ذلك مسألة السفر والمحرم ، فيدّعون أن هذا ضد الحرية الفردية ، ولم يبحثوا بالحكمة والفائدة من وجود المحرم أثناء السفر .. الإسلام دين كامل متكامل .. جماله وحسنه في ممارسته .. ممارسة الصلاة تغطي جانبا مهما من حاجات الإنسان البدنية والروحية ، وقبل ذلك طاعة لله الآمر بها والزكاة طاعة أولا وثانيا تسديد حاجة الفقراء والضعفاء، ولها حكم أخرى من طهارة النفس ونمائها وتزكيتها ، وحتى لا أطيل عليك فخذي إقرئي قصة هذه الفتاة العالمة في الذرة وهي فتاة إنجليزية ، وكيف اعتنـقت الإسلام .. فقصص المهتدين فيها لطائف جميلة ومثيرة

أخذت روبيكا الورقة المطبوعة من يد عائشة وأخذت تقرأ قراءة ذاتية صامتة :

((قصة إسلام الدكتورة كريستين جاك هيلين عالمة الذرة البريطانية

ولدت هذه العالمة الانجليزية لأسرة نصرانية ثرية ، ألحقها والدها بأرقى المدارس .. ، وهذه الطفلة التي ولدت ، وتربت في مجتمع نصراني ، لم تعلم شيئا عن الدين الإسلامي دين الله الخالد ولكن قدرة الله تعالى وعنايته ورعايته شاءت أن تذهب هذه الطفلة الجميلة ـ وهي دون العاشرة من عمرها ـ في رحلة سياحية إلى بلاد الهند التي تلتـقي في أراضيها أكبر مجموعة من الملل والنحل ، بلاد كانت تخضع لبريطانيا العظمى ، علمت أن هناك دينا عالميا اسمه الإسلام يعتنقه ملايين الناس ، وشدها ما رأته من وجود علاقات من نوع فريد تربط بين الأسر المسلمة .. الود والإخاء ، ومع حداثة سنها أدركت الفرق بين مجتمعها النصراني والمجتمع المسلم المتماسك ، وكان أكثر ما شدها ، وقوفهم في صفوف متراصة في سكون وخشوع حين يؤذن المؤذن للصلاة وأحست كريستين في قرارة نفسها أن هذه الطقوس التي يمارسونها غير غريبة عنها ، وأنها تعرفها منذ ولادتها ، ووجدت نفسها منجذبة إلى تعلم صلاة المسلمين ، وتؤديها معهم كأنها واحدة منهم ، وبدأ كأن نداء خفيا يدعوها للتردد على المساجد التي تعلق بها قلبها دون أن تدري سر هذا التعلق ، والأسرة أسرة كريستين عدت ذلك شقاوة أطفال ولعب ولهو أو هواية يمارسها طفل ، ولكن حب الإسلام تغلغل في أعماق الفتاة الصغيرة ، فلما شبت عن الطوق أخذت تسعى إلى معرفة هذا الدين القيم ، فأخذت تقرأ عنه ، وبدأت تدرك أن دين الإسلام هو

الدين الحق ، وأن الله اختاره لعباده .

عندئذ أحست الأسرة وأدركت أن ابنتهم تجاوزت مرحلة اللهو ، وأن تعلقها بالمساجد الاسلامية ليس هواية بل صار عقيدة تؤمن بها ، فتملك الأسرة رعبا وخوفا أن تهجر الفتاة دين آبائها وأجدادها وتعتنق هذا الدين الوافد من الشرق .. دين أهل الصحراء والبادية ، فهنا عمد الأهل إلى إقناعها بتحويل دراستها الجامعية إلى الجانب العلمي البحت ظنا منهما أن دراسة العلوم بما فيها من جفاف مادي ربما يبعد بابنتهما عن متابعة التعلق بالجانب الروحي للإسلام ، وينأى بها عن خطر التحول عن دينها النصراني ، وهذا التوجيه من الوالدين لم يجد معارضة لدى كريستين لأنها في أعماقها كانت تحب العلم ، وأن طلبها له لم يكن ليعارض ميولها ، لمعرفتها من خلال قراءتها أن الإسلام يدعو إلى العلم ويحث عليه ، فاستجابت لتوجيه الوالدين بسرعة فاستراح قلباهما وابتساما ابتسامة رضا ظنا منهما أنهما نجحا واستطاعا أن يبعدوا بها عن الإسلام .

لكن العلوم العلمية ساعدتها كثيرا في معرفة الله تعالى ، فوجدت نواحي العظمة والإعجاز في خلق الكون ... وزادها ذلك قربا من الله تعالى ، وحين رأت الأسرة أن سعيها قد خاب وأن كريستين زاد قربها من الإسلام بدراستها العلمية ، فحاولوا بشتى الطرق أن يعيدوها للظلمات ثانية ؛ لكن هيهات أن يدع القلب المؤمن النور إلى الظلمة مرة أخرى .. وكمحاولة أخيرة لردها عن الإسلام ، أحضرت الأسرة لها شابا نصرانيا ليتزوجها لعل في زواجها منه ما يردها إلى عقيدة النصارى ؛ لكنها رفضت الشاب بشدة ولم تقبل الارتباط به ، وسعت لأن تجد زوجا مسلما يحمي روحها من الردة ، فجاء ذلك على يد شاب مسلم هندي ، تزوجته على سنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأشهرت إسلامها ، وغيرت اسمها إلى أمينة محمد كيرال .

أمينة محمد كيرال تحيا اليوم حياة زوجية آمنة مطمئنة ، وتنعم روحها بالسلام والهدوء والسكينة وقد أنعم الله عليها وعلى زوجها بثلاثة ذكور أسمت أولهما محمدا وثانيهما عمر والثالث عبد الله وحرصت هذه المرأة المسلمة على تربية أولادها على قيم الإسلام وتعاليمه ، وهذه قصة إسلام عالمة الذرة البريطانية الشابة الدكتورة كريستين جاك هلين .. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء

وهو الهادي إلى سواء السبيل))

كانت عائشة وسهام ترشفان الشاي ، ويتتبعان حركات وتفاعلات روبيكا المسلمة بالاسم لقصة كريستين النصرانية التي دخلت في دين الله الخالد الإسلام ، فلما أنهت الفتاة قصة عالمة الذرة وضعت الورقة على الطاولة التي يجلسون حولها ونظرت للفتاتين وقالت : قصة عظيمة يا عائشة ! .. واعلموا أيضا أن من أسباب اهتمامي بالإسلام .. إسلام أحد دكاترة الجامعة أستاذ كبير في الفلسفة .. فبهرني ذلك لأنني أعرفه شخصيا ، فقلت لنفسي الكفار يسلمون ، ونحن نبتعد عن الإسلام .. لماذا؟ هل من جواب يا عائشة ؟!

أخذت سهام الورقة المكتوبة بالإنجليزية ، فقالت لها عائشة : أنا ترجمتها عن مجلة عربية لتقرأها الأخت روبيكا .. فهي موجودة باللغة العربية يا سهام

قالت سهام باسمة : سأقرأها أنا أعرف الإنجليزية جيدا

ـ إقرئي يا حبيبتي

فقالت روبيكا وهي تشير لسهام التي أخذت الورقة وابتعدت عنهما : إنها فتاة ساهمة حائرة هل من شيء يقلقها ؟ .. أراكم بيتا مسلما نموذجيا طيبا رائعا .. لا أقول ذلك مجاملة

تبسمت عائشة وقالت : هل لاحظت ذلك على سهام ؟

ـ أجل

ـ لا يخلو إنسان من مشاكل وهموم ، مع ما فيه من السعادة والنعيم .. كيف عرفت ؟

ـ إنها تتحدث بمواضيع متقطعة .. نتكلم بموضوع ثم تنتقل لغيره .. فهذا يدل على انشغال البال .. فالانتقال من موضوع إلى آخر بسرعة وبدون أن ينتهي الأول يدل على عدم التركيز وانشغال الذهن

ـ ملاحظة مهمة !

الريحانة من جديد

عقد السيد عمري اجتماعا كبيرا ومهما حضره كبار رجال مجموعة عمري محمود في قاعة الاجتماعات في بناية الشركة في شارع قطز ، وقد أطلعهم على رغبته بالاعتزال والتقاعد وترك الإدارة والعودة للريحانة والاستقرار فيها والتفرغ للعبادة فيما بقي من سنوات العمر ، وأعلمهم أنه سينقل كل صلاحياته الإدارية والمالية لابنه المهندس أسامة عمري ، وحثهم على التعاون الصادق معه كما تعاونوا معه هو شخصيا لتستمر هذه المشاريع في العطاء والإنتاج ، وشكرهم وحثهم على الوفاء لابنه ، وطمأنهم بأنه رغم تخليه عن المسؤوليات الهامة فإنه سيكون قريبا منهم بوجدانه وملاحظاته ، وبعد خطابه المتواضع صافحهم فردا فردا ، وتم نـقل الإدارة والقيادة للمهندس الشاب أسامة الذي وقف أمامهم شاكرا لوالده على ثقته الكبيرة به ، ووعدهم بأن يظل وفيا لمبادئ وسياسة والده في السخاء والعطاء وزرع الخير في كل مشروع ومؤسسة .. وأن الحلال الطيب والأخلاق الحسنة من أهم مقومات النجاح ، وأن رضا الله سبحانه أهم من رضا العبيد وإغراءات المال والدنيا ، وأن العفو والمسامحة من طباعه كما كانت من طباع والده الفاضل ، وأمل أن لا يجدوا تغييرا كبيرا في تسلمه لمنصب والده ، وشكرهم وحثهم على التعاون على البر والتقوى كما تعاونوا مع أبيه بصدق وإخلاص ، ثم تناول الحاضرون ما أعد لهم من طعام وحلويات بمناسبة وداع رفيقهم ومديرهم عمري ، وصعد أسامة إلى مكتبه في الطابق السابع ، ومر عمري على المكاتب مودعا للموظفين ، ثم خرج مع سائقه مودعا مكاتب مجموعته التجارية والاستثمارية ، وكله أمل باستمرار أسامة بقيادة السفينة بنجاح وتقوى ، ولما وصل البيت ودع الحارس والسائق وأكرمهما ببعض المال ، ووصاهما على ولده أسامة ، فبكى الرجلان من حسن معاشرته لهمـا خلال السنوات الماضيات ، ووعداه أن يكونا عند حسن ظنه مع فلذة كبده المهندس أسامة .

ولما دخل البيت وجد مايكل وشقيقته روبيكا يستعدان للسفر بعدما أمضيا شهرا في حضن عمهما الدافئ ، فقال لهما : ألا ترغبان بالبقاء في بلاد الآباء حيث الدفء العائلي والإسلام والحب ؟

فقال مايكل ضاحكا وغامزا : لا أرى اختلافا كبيرا بين مسلمي بلادكم عن إسلام مهاجريكم إلى الغرب ، فكثير ممن التقت بهم روبيكا من رجال الجمعيات ونسائها لا يعملون بطقوس الإسلام .. يريدون تحرير الناس ، وهم لا يمارسون الإسلام العملي .. وتقول حتى أنهم لا يعرفون مبادئ الإسلام الأساسية .. وتقول أن الداخلين في الإسلام في أمريكا ربما يكونون أفضل منهم ، فهم يمارسون شعائر الإسلام بحرارة ، ويدافعون عن الدين أكثر منهم .. أما هؤلاء فهم المسيئون إليه بجهلهم وظنهم أن لسانهم العربي يظهرهم حملة لدعوة الإسلام .. ولكنها مسرورة منك ومن أسرتك يا عمي .. وشتان بينك وبين أبينا ، فهو رحل للغرب ، ولا يحمل شيئا من دين الآباء .. لا صلاة ولا صوم ولا إيمان .. هذه أعمال لم نعرفها إلا هنا خلال هذا الشهر .. حتى بدأنا نفكر بدخول الإسلام من جديد يا عمي

ـ ادخلوا ولماذا لا تدخلون ؟ ! .. المفروض ألا يسافر للغرب إلا من كان مسلما حقيقيا ليؤثر في الآخرين ؛ ولكن أكثر المسلمين يذهبون إلى هناك وهم عصاة في بلادهم وغايتهم المال أو الشهادات العلمية وتعويج اللسان بلغة هؤلاء يا ولدي .. وفاقد الشيء لا يعطيه .. فوالدك ذهب للدراسة كما ذهبت أنا من قبل لبريطانيا ، ولم أكن أنا ولا هو عندما سافرنا نعرف شيئا عن الصلاة .. فلم نسمع أن والدينا ذاك الزمان صليا لله ركعة أو سجدة .. فماذا سنعطي من نجلس معهم هناك من ديننا ؟ .. بل عشقنا النساء والعبث ، فأنا عدت وبعد ضياع تبت ، وأخذت أتعرف على ديني ، ووفقني الله سبحانه بفضله وكرمه .. وأما سمري فانغمس في حياة الأمريكان وأعجب بها وغرق في العمل والمحاضرات .. كما تعرفون .. ولم يفكر يوما بدينه وتعاليم دينه وقيمه .. فعلا يا أبنائي أنتم محتاجون للدخول في الإسلام من جديد .. ذكرتموني بقصة هندوسي متزوج من مسلمة وهذا حرام شرعا .. المهم أن الرجل أسلم وأعاد زوجته للإسلام

فقالت روبيكا : أنا سعيدة بكم يا عمي ! ولسوف أفكر بما قلت وقلتم .. فالتخلص من رواسب الماضي وعادات اكتسبناها ليس بالأمر الهين .. سنبقى على اتصال دائم ، وأنا قد أعود إليكم ثانية يا عمي بعد إنهاء أطروحتي .. فقد أحببتكم وأحببت أخلاقكم .. فأريد أن أتعلم

لغتكم ، لا أدري لماذا لم يحاول أبي تعليمنا لغته العربية ؟! .. لقد انصهر انصهارا كاملا في مجتمع الغرب .. حتى اللسان الأمريكي أخذنا أكثره من المربية الأمريكية التي كنا نقضي معها أكثر الوقت .. فلم نكن نسمع ألفاظا عربيا لنفكر بالعربية والعرب ، لقد كان أخوك جاحدا للغة الأجداد .. فهناك من الطوائف والملل في أمريكا رغم العقود التي مرت عليهم ما زالوا يحافظون على لغتهم الأصلية فيما بينهم يتعلمونها ويتكلمون بها .. وحتى بعض الجاليات العربية تفعل ذلك

وتناولوا العشاء الأخير مع الأسرة ، ولما اقترب موعد الطائرة عانقت الفتاة عمها وقبلت يده كما يفعل الأبناء ، وسلمت على نساء عمها وعلى عائشة وأحلام وسهام وريمان ومريم وهند وحيت الدكتور حمزة والمهندس اسامة ، وعانق مايكل عمه ، ودعاه لزيارة أمريكا ، وصافح ابن عمه اسامه وقبله ، وفعل مثل ذلك مع صهرهم حمزة وعانق محمدا ابن عمه ، وحيا النساء والبنات ، وكان حسن في انتظارهم بسيارته أمام مدخل الفيلا ـ وكانت عائشة قد أرسلت الكتب التي اشتراها والدها لروبيكا بطرد كبير إلى فيرجينيا قبل السفر إلى عنوان روبيكا ، وكانت روبيكا ومايكل قد قبلا الهدايا التي قدمها لهم عمهم وأولاده وبناته ، لهم ولوالدهم ولأمهم ولزوجة مايكل وابنه الصغير جاك ، ووضعت الحقائب بما فيها من أوراق وكتب قليلة في صندوق السيارة ـ وسار بهم حسن نحو المطار ، ولما جاء موعد ركوبهم الطائرة ، ودعهم حسن وتمنى لهم رحلة سعيدة ، وحثهم على العودة في أقرب فرصة ، وودعوا حسنا ، ودعوه لزيارتهم في أمريكا ، فقال : قد يحصل هذا .. ولكن بعد إنهاء الدراسة

*****

بعد مغادرة الضيفين خاطب عمري أفراد العائلة الحاضرين وأطلعهم على رغبته بترك العاصمة والعودة ثانية للريحانة والاستقرار فيها ، فهو قد أحبها وبدأت حياته الحقيقية منها ، وما زال لها محبة في قلبه ، وما زال يتردد عليها بين الحين والآخر ، ويقضي بين ربوعها عددا من الليالي والأيام ، وكانت زينب وأنعام على علم بهذا القرار آنف الذكر ، وكان الترتيب أن تبقى مريم ومحمد في الفيلا تحت رعاية الشغالة أم احمد ، وأيضا تحت حماية الأخوين أسامة وحسن ،

فأسامة سوف يرحل للحياة في الفيلا ، ولم يكن هناك إلا مشكلة سهام ، ولكن سهام ماهر حسمت الأمر ووافقت على الرحيل معهم ؛ لأن بقاءها قد يؤدي لبقاء أمها ، وأما أحلام فهي في الأيام الأخيرة من الجامعة ، وخطيبها ينتظرها في الريحانة مع أمه بدرية .

رجع عمري بعد أكثر من عشر سنين قضاها في العاصمة ، عاد إلى المدينة التي بدأ منها حياته العملية ومشاريعه التجارية والخيرية ، واستقر في الفيلا التي بناها في ضاحية الصالح ، وكان العمال قد نظفوها وأعادوا صيانتها ودهانها من جديد وهيئوها لعودة السيد الكبير ، وكان في استقبالهم أختيه قمرية وولديها وبدرية وأولادها وأزواجهما ، واحتفل القوم بعودة خالهم احتفالا متواضعا ، وسر عمري بعودته للريحانة للبقاء فيها حتى النهاية ، فكان يستيقظ في جوف الليل ليصلي عددا من الركعات تهجدا لله وشاكرا لأنعمه سبحانه وتعالى ، ثم يرقد حتى توقظه زينب أو أنعام لصلاة الفجر ، فينهض ويتوضأ ثم يسير ومعه الخادم أو الحارس أبو خالد نحو المسجد الذي لا يبعد عن البيت أكثر من مائتي خطوة ، فعمري يحب مجاورة المساجد ، فيصلي مع الشيخ الإمام ، وإن جلس المصلون لصلاة الضحى والشروق جلس ، وإن انصرفوا انصرف ، فإذا عاد للبيت يجلس لتلاوة القرآن ، وأحيانا يستمع لتلاوة المشايخ من جهاز التسجيل ، ثم يصلي ركعتي الشروق ، وتحضر زوجتاه أو إحداهما للحديث معه ، ويشربون اللبن الحليب أو القهوة ، ثم يدخل المكتبة للقراءة أو يدخل حجرة النوم فينام ساعة أو ساعتين ثم يصلي الضحى ويجلس مع زينب أو أنعام حتى الظهر فينطلق لصلاة الظهر ثم يعود للبيت ويعود للقراءة في كتب التاريخ والسير .

كانت حياة صديقنا الاستاذ عمري هادئة طيبة كما رسم وخطط ، وفي المساء يسير حول الفيلا أو داخلها أو يقوم بزيارة لصديق أو صاحب، وبعد صلاة العشاء يجلس في الحديقة إذا كان الطقس دافئا ومنعشا ، ويتعشى عشاء يسيرا مع زوجتيه وسهام أو ضيوفه من أخوات وأصهار وغيرهم ، ولقد كان سعيدا وفرحا بحياته هذه وشاكرا لله وراجيا منه سبحانه دوام العافية والغنى ويسأله حسن الختام ، وكان يدعو الله من أعماق قلبه أن ييسر لابنة أنعام زوجا صالحا ليرتاح ضميره وقلبه ، وذات مساء عندما أتت أحلام من العاصمة ، وأتى زوجها محمد الذي

لم يدخل بها بعد ـ فكتابهما الشرعي قد كتب في العاصمة ، ولم يبق إلا تحديد يوم الزفاف فقد أنهت أحلام اختبارات الفصل الأخير ، ولم يبق إلا الحصول على الدرجات وترك العاصمة ـ أتى محمد وأراد أن يخرج بخطيبته زوجته للعشاء في أحد المطاعم البحرية ، وبينما هم يأخذون الأذن من السيد عمري والسيدة انعام ، أحبت سهام أن تخرج معهم ، فرحبا بذلك وفرحا بهذه الرغبة ، وركبوا سيارة محمد وتجولوا في شوارع المدينة ساعة من الزمن ، ثم اتجهوا إلى أشهر مطاعم المدينة وأكبرها وتحت شجرة على مائدة جلسوا ينتظرون الطعام الذي طلبوه ، ولما بدأوا يأكلون لمحت سهام على مائدة قريبة فتاة كانت تدرس معها في الجامعة اسمها فايزة ومعها فتاة أخرى ، ولما أتمت أكلها استأذنت من زوج أختها لتسلم على زميلتها في الجامعة ، ولما رأتها فايزة دهشت بداية ثم عانقتها عناق الأحباب والأصدقاء بعد طول غياب ، وفايزة كانت من زميلات سهام ورفيقاتها في الكلية وفي المناسبات والرحلات ، ولقد كانت تعرف ما بينها وبين فواز من الود ، بل كانت من الصديقات المقربات لفواز ومنال ، فكان فرحها كبيرا بلقائها ، فبعدما انتهت المجاملات والابتسامات ، وعرفتها فايزة على الفتاة التي معها فهي قريبة لها ، وأشارت سهام لأختها وزوجها بعروسين ينتظران ليلة العرس ، وشرعن يتذكرن أيام الكلية والزملاء وأخبارهم حتى وصلت سهام إلى الذي تريده ، فأتت على سيرة فواز فقالت مظهرة عتبها ولومها على فواز : رغم ما كان بيننا من الانسجام والود يا فايزة .. ولكن منذ تخرجنا لم أره .. ما أخباره هذه الأيام ؟

ضحكت الفتاتان ، وقالت فايزة : هو بخير يا حبيبتي .. هو التحق ببرنامج الماجستير كما كان يحدثنا ، ووالده أصر على دراستهما للماجستير هو ومنال .. ومنال تريد أن تصير دكتورة وكذلك فواز .. هكذا رغبة الوالد

ـ أنا أحيانا أتصل بمنال .. وكلما أحاول اللقاء بها تتـعذر بمشوار والعمل

ـ هي بخير ، وقد تخطب قريبا .. فهناك شاب من العائلة راغب بالاقتران بها .. وقد يحدث ذلك قريبا

ـ رغم اتصالي بها من فترة يسيرة لم تخبرني بذلك .. ثم جاءت للسؤال الخطير وقالت :

وفواز ألم يتزوج أو يخطب ؟

فكان الجواب قاسيا ومؤلما وقالت فايزة ببرود : تقريبا تزوج

فايزة تعلم ما كان بين فواز وسهام ، فلذلك لم تستغرب من تلون وجه سهام ، بل ربما كانت مشفقة عليها في تلك اللحظة وهي تصارحها بذلك ، ولما قالت سهام : كيف تقريبا هذه

حركت فايزة خاتما بإصبعها أمام عيني سهام ، وقالت بهدوء مفتعل وهي تنظر في عيني سهام : نحن خطبنا يا سهام .. وأنت ألم تخطبي ؟

بلعت الفتاة ريقها وهمست : أنتم خطبتم ؟!

ـ أجل ، ولم أنت مستغربة ؟ .. لقد كنا متـفقين على ذلك من أيام الكلية

فقالت باستغراب واضطراب : متفقون من أيام الكلية ! .. هذه أخبار جديدة ؟

تبسمت فايزة وقالت : أنت طيبة يا سهام .. فواز كان يعبث بعواطفك كان يخبرني بذلك كان يحب السخرية من البنات ، فكان يقول لي إن سهام متعلقة بي وتظن أنني قد أتزوج فتاة مثلها ويأخذ بالسخرية من ملابسك الطويلة والغريبة

ـ إنك كاذبة يا فايزة

ـ أنا أعرف بكثرة اتصالاتك بمنال ، وطلبك من فواز أن يسعى لمقابلة زوج أمك وأمك .. ولكن تردده وعدم تلبيته لهذا الطلب كان يجب أن ينسيك يا سهام .. أنا أتكلم معك بهذه الصراحة لتنسي ولا يبقى عندك الأمل والوهم .. وأنا لمت فوازا كثيرا ، وطلبت منه من أيام الكلية أن يصارحك بحقيقة مشاعره

ذرفت سهام الدموع وقالت كأنها ما زالت متشككة بما تسمع : أين الألفاظ والكلام الذي كان يسمعني إياه ؟! .. وما دام بينكم حب كما تدعين لماذا تسمحين له بذلك ؟

ـ لم استطع منعه .. كنا طلابا ، والظرف لا يسمح لي بتحديه وتحدي رغباته ونزواته .. ولم يكن بيننا عقد زواج أو خطبة ، إنما هي وعود كالتي كان يوحي بها لك ولغيرك

ـ لماذا لم تقولي لي ذلك ؟!

ـ كان يهددني بالتخلي عني .. أنا آسف وأنا أقول لك ذلك ، وكان عليك أن تدركي أنه غير

جاد معك .. ألا ترينه يكون معي وعندما يراك يستأذن وينصرف وهو يتوعدنني

ـ وأخته منال ؟

ـ لا أدري ماذا أقول لك ؟! ولولا هذه الصدفة وسؤالك عن ذلك لما تكلمت ، لنا أكثر من سنة متخرجون ..ولم يظهر لك ودا ، ويتهرب من هواتفك، ألم تقتنعي بعبثه وسخريته ؟!

ـ لا أدري ، يبدو لي أنني حمقاء ساذجة ، ولا أعلم أن في العواطف سخرية ومقالب

ـ أنا أعجب من تعلقك به .. فصدقي أنني أكثر من مرة قلت له كفاك استهزاء بسهام فإنها رقيقة لا تعرف اللف والدوران فلم يقتنع بل ادعى أنك تعرفين عبثه

مسحت الدموع المتساقطة وقالت : أشكرك يا فايزة .. أشكر الله أن سخر لنا هذا اللقاء لأعرف الحقيقة التي كان يجب أن أدركها قديما ؛ ولكنكم ظلمتموني .. أنت ومنال شريكتان في المؤامرة لماذا سكتم كل هذه السنوات ؟

ونهضت وقبل أن تنصرف قالت بغيظ وحزن : الله يقتص من الظلمة ومن الذين يعبثون في عواطف البسطاء

ـ أنت مسكينة جدا يا سهام .. قد يأتي فواز واسمعي منه .. ولا تظني أنني مغرمة به ، قد تكونين أنت مغرمة به أكثر مني .. ولكني أعرفه قبل الجامعة فوالدي صديق والده .. ولم تتم هذه الخطبة بسبب ما يدعيه من الحب .. فواز لا يعرف الحب الحقيقي هو عابث ، وكان يحب أن تظل الفتيات حوله في الجامعة وأمام الزملاء .. وصدقي لو تقدم لي شاب غيره لقبلته ورفضت فوازا غير مأسوف عليه .. ولكن إرادة ورغبة الأسرتين .. لا تدعي عليّ يا سهام

فقالت سهام : إنك صريحة جدا

ـ اتصلي بمنال وخذي الحقيقة منها

فقالت سهام : لا داعي للحديث مع منال .. تجربة مؤلمة .. ولكن الحمد لله على كل حال .. فحياتكم كلها عبث .. وتؤكد لي أن أفكاركم وهم في وهم .. كان يريد مني أن أتبرج وأخلع ثياب العفة ليتـفرج على محاسني ويلهو بي .. لقد تغير حقا لما بدأت ألبس الجلباب .. كان يظهر الاشمئزاز والنفور من ثياب البدو والتخلف .. أشياء كثيرة الآن فهمتها .. لعنه الله ، قولي له

إنني سوف ألعنه وألعنه .. العابث بمشاعر الناس وأحاسيسهم والمخادع والممثل .. إنني ألعنه

وانصرفت باكية تمسح دموعها ، ولما عادت حيث تجلس أختها أحلام وزوجها محمد لاحظا الدموع على وجهها فاستغربا ذلك ، فقالت أحلام : أنت ذهبت تتحدثين مع زميلتك فعدت باكية .. هل من ميت ؟!

وقال محمد قلقا : سهام .. أقلقتنا ما سبب هذا البكاء ؟

جلست وأخذت تبكي وتتنهد ثانية وقالت : أريد العودة للبيت .. إنني أحس بدوار في رأسي وصداع

فذهب الشاب نحو البنات بسرعة وقال : مساء الخير .. معذرة .. لماذا تبكي سهام ؟

نظرن إليه بدهشة وقالت فايزة : لا شيء

ـ كيف لا شيء ؟ ! .. هل يبكي الإنسان بدون سبب ؟!

ـ ألم تقل لكم شيئا ؟

ـ لم تقل شيئا

وكانت سهام وأحلام قد تبعتا محمدا وقالت سهام : هيا يا محمد .. دعك من البنات .. آسف جدا يا فايزة

ـ ولا يهمك .. نحن أيضا آسفون

وأخذت سهام وأحلام محمدا وخرجوا بعد أن ترك محمد مبلغا من المال على مائدة الطعام وهو يقول : لماذا لا تريدين الكلام يا سهام ؟

فقالت وهي ما زالت تمسح دموعها وتشرق بنفسها : أمر خاص يا محمد أرجوك

فقالت أحلام : يبدو يا محمد أن فايزة هذه أتتها بخبر سيئ عن صاحبها فواز

فصاحت سهام بحدة وضيق شديد : أرجوك يا أحلام أن تصمتي .. شيء لا يخصك ولا يعنيك فواز أو الشيطان لا دخل لكم

أخذ محمد يتعذر لها ويهدئ من روعها ويقول : نحن آسفون ، حقك علينا .. لا تغضبي منا

ولما وصلوا الفيلا والصمت قد خيم عليهم طول الطريق ، كان عمري وزوجتاه ما يزالون

يجلسون في الحديقة يتسامرون ويأكلون الفواكه ، فأتت إليهم أحلام ومحمد ، ودخلت سهام إلى حجرتها ، فلما ألقيا السلام وجلسا ، سألهم عمري عن سهام لماذا لم تأت معهم ؟ فقال محمد : لسنا ندري .. كنا نتعشى في المطعم البحري وأثناء الأكل شاهدت فتاة قالت أنها زميلتها أيام الجامعة والكلية وبعد الطعام مشت إليها وجلست معها ، وبعد حين عادت إلينا باكية ، وحاولنا أن نعرف السبب ، فلم تتكلم، ومنعتنا أن نعرف من تلك الفتاة .. وادعت أنها مريضة لا أدري يا خالي ما حكاية هذه البنت

فقالت انعام : هل عرفت شيئا يا أحلام ؟

ـ لا يا أمي .. ولكن يبدو أن هذه الفتاة المسماة فايزة .. تعرف ذاك الشيطان فوازا

فقال عمري : هونوا عليكم .. سهام أحاسيسها مرهفة ومشاعرها رقيقة .. اذهبي يا أنعام وتكلمي معها .. أصحاب الحس المرهف يتأثرون بسرعة ويبكون لأي خدش يلمس مشاعرهم

فنهضت أنعام وقالت زينب : لا تتأثروا بما صار .. متى سنفرح بكم يا محمد ؟

فقال : أمي مستعجلة .. ونحن ننتظر تحديد خالي لليلة الزفاف

فقال عمري مبديا عجبه : أنا .. ولماذا ؟!

ـ هكذا تقول أمنا الغالية .. أنت كبير العائلة الآن

ضحكوا لهذا الوصف ، وقالت زينب : متى تحبان أن يكون ؟ .. نهاية هذه الأسبوع يوم الجمعة ما رأيك يا عمري ؟

فقال عمري : أحلام ماذا تقول ؟

فقالت أحلام : أنا علمت أن محمودا قادم من أوروبا ، فقد أنهى الاختصاص كما علمت من أمي زينب ، فعندما يصل بالسلامة نحتفل بالزواج

فقال عمري : الجمعة إن شاء الله ؛ لأن محمودا قد ينزل النمسا لقضاء عدة أيام هناك ويقابل بعض الأطباء الكبار في فينا .. الجمعة مناسب يا محمد ؟

فقام فرحا يعانق خاله وهو يقول : الآن سأذهب وأخبر أمي وأبي .. السلام عليكم .. احلمي أحلاما سعيدة يا أحلام

في الصباح التالي تلقى عمري رسالة محمولة إليه من العاصمة ، وكانت رسالة من ابن أخيه مايكل وشقيقته روبيكا ، وكان فيها سلام وأشواق وشكر وإعجاب شديد به وبأسرته صغارا وكبارا ذكورا وإناثا ، وكان فيها أنهما التحقا بمعهد لتـعلم اللغة العربية ، فضحك عمري من ذلك ، وقال معلقا أهل اللغة يتعلمون لغتهم ! قاتلك الله يا سمري .. جنيت على نفسك وعلى وذريتك ثم تابع القراءة ، فقرأ أنهم يرغبان بعد إنهاء الدراسة في المعهد السفر إليهم والحياة بينهم لإتقان اللغة العربية ، وأن زوجة مايكل الأمريكية جان سمري متحمسة لذلك ، وأنها تحب الآداب العربية وقد تجعل رسالتها في الدكتوراه حول الأدب العربي القديم ، وفي الرسالة أيضا أن روبيكا قد تتقدم قريبا لمناقشة رسالتها وربما تأتي مع مايكل .

فكتب إليهم عمري رسالة مرحبا بهم وبمجيئهم في أي وقت ، وأنه سعيد بقدومهم جميعا ، ولا حرج ولا ضيق لديه من مجيئهم ، ثم اطلع على باقي الرسائل والبرقيات والمراسلات من الأصدقاء والأحباب .

ولما دخلت عليه زوجتاه يشربون معه القهوة ، حدثهم عن رسالة مايكل سمري وأخته روبيكا ثم سأل أنعام عن سهام فقالت بحزن : أمضيت ساعة أو أكثر أراودها فيها أن تتكلم عما جرى بينها وبين فايزة والفتاة الأخرى .. فتصرخ فيّ وتطلب مني الصمت وعدم حشر نفسي فيما لا يعنيني .. تصور أن حياتها لا تهمني ولا تعنيني ولا تخصني .. أنا يوم المنى عندي عندما أراها عروسا في بيت زوجها .. من هو الشاب الذي حدثتنا عنه مرة يا عمري

فقال بأسف : للأسف طال الانتظار فتزوج ، كان يحب الارتباط بأسرة الخابي من أي جهة كان النسب .. إنه المهندس وائل ابن الدكتور يوسف حسان .. شقيق امرأة محمود

فقالت بدهشة وربما صاحبتها حسرة : المهندس وائل ! .. وصديق أسامة الحميم .. كان كثيرا ما يكون مع أسامة إنها تعرفه

ـ أجل يا أنعام ! لما عرضت الموضوع عليه وعلى أبيه كادوا يطيرون من الفرح فاستمهلتهم إلى حين ، ثم قلت لهم بعدئذ إن الفتاة مضربة عن الزواج فتزوج وفقه الله سبحانه

فقالت زينب : قدر الله وما شاء فعل ، كل شيء نصيب مقدر .. نحن يجب أن نعرف ما حدث

لها مع تلك الفتاة الزميلة فايزة .. تكلم معها يا أبا محمود

فقال : أنا لا أحب أن تتحدث بشيء بالحياء والخجل يا زينب .. دعوها بضعة أيام .. اتصلت عائشة تقول أن أوراق خالتها التي أرسلتها لبعض مشافي ألمانيا وسويسرا قد جاءت الردود عليها .. فهناك مستشفى في إحدى ولايات سويسرا يرحب بمتابعة مرضها وعلاجها وأرسلوا لنا تكاليف العلاج التي يتقاضاها المستشفى والمصحة التابعة للمستشفى فماذا تقولين يا أنعام

ـ لا أعلم ما أقول .. يقول صابر إن حالتها النفسية تزداد سوءا وتدهورا .. وآلام الرأس تشتد عليها حتى تدفعها لخبط رأسها بالحائط ، ونقلها إلى إحدى المستشفيات فقضت سبعة أيام حتى هدأت ثم عادت للبيت .. وأمي هي الأخرى متعبة لآخر درجة .. وزواج أحلام على الأبواب بعد يومين .. وسهام أيضا .. استغفر الله .. حسبنا الله

فقال عمري مواسيا : أكثري من الاستغفار .. فالاستغفار رحمة وفرج .. سأتحدث مع الدكتور فائز صهرنا الحبيب إذا سمح لابنه محمد بقضاء رحلة مع حماته أنعام في ربوع سويسرا .. تذهبين أنت وأحلام ومحمد وسهام إذا أحبت .. فمنها تشرفون على متابعة حالة نوال وتتفرجون على تلك الجبال والأنهار والثلوج .. ومحمد شاب ذكي ويحب الحركة ونشط وتعلم في أوروبا

فقالت : وأمي ؟

فقال حازما الأمر : بقاؤك هنا لا يقدم ولا يؤخر على صحة أمك .. بعد الزواج سيكون السفر بإذنه تعالى .. اتصلي يا زينب بعائشة واطلبي منها أن تحول المال المطلوب إلى المستشفى وتؤكد الحجز لمدة ثلاثة أشهر .. وتوكلوا على رب العباد

فقالت أنعام : ثلاثة أشهر وقت طويل

ـ احتسبي ذلك عند الله .. قد نطل عليكم أنا وزينب بعد عودتنا من العمرة .. وقد نذهب إليكم من هناك

فتبسمت أنعام وقالت : الآن أنا متشجعة على السفر .. أنا لا أحب فراقك يا عين أنعام

فتبسم الجميع على غزل أنعام ، وقال عمري : نحن كبرنا يا أنعام على هذا الكلام .. والفراق قادم .. وكأس الموت لابد من شربه أيتها الحبيبة

ـ الحبيبة .. وأمام زينب يا عمري

فتبسموا مرة أخرى ، وقالت زينب : أنعام تحبك كثيرا يا عمري .. فهي تقول إن اليوم الذي يمر ولا ترى فيه عمريا أو تسمع كلامه تحس أنها خسرت يوما من عمرها وحياتها .. وتقول أن اليوم الذي ألزمها والدها بالزواج منك كان يوما مباركا ، ومن أفضل أعمال أبيها رحمه الله

وضحكوا قليلا وقال عمري : هذا من فضل الله سبحانه علينا مع أنها تزوجتني عجوزا

فقالت أنعام : والله إنني أحبكما جميعا .. فزينب سيدتي وأميرتي وملكتي .. هي أحلى امرأة في العالم يا عمري ! .. لم أشعر يوما أنها تغار مني وأني لها ضرة .. فقلبها أبيض وقانعة بالحياة قنوعا جميلا وعجيبا .. ولكنه الإيمان الذي يملأ قلبها .. وحبها لله سبحانه وحبها للرسول صلى الله عليه وسلم والسيرة العطرة .. وأنا لست مثلها

فقالت زينب وهي متاثرة بكلام شريكتها في زوجها : بل أنت الخير والبركة .. والسعادة بالإيمان والتفاهم والحب الشرعي .. وزوجنا رجل واعي وواسع الصدر

فقال عمري مقاطعا : دعونا من هذا الكلام المثير للمشاعر .. واستعدوا للعرس ..هل اشترت أحلام كل ما يلزمها ؟!

فقالت أنعام باسمة ومسرورة : أحلام !.. أختك من قبل تحديد العرس اشترت لها كل شيء الذهب واللؤلؤ والثياب .. والشقة جاهزة تنتظر العروس .. الله يديم النعم على الجميع فلم يبق إلا الاتفاق مع فتاة الصالون حتى تأتي للبيت كما تريد يا أبا محمود .. وقد أضعف لها محمد الأجر حتى قبلت بالمجيء لتزيين العروس صباح الجمعة

ـ ولم صباحا .. ألا تريد الصلاة ؟ .. بعد الظهر أفضل

ـ لا تقلق سندبر الأمر .. هل هي أول عروس ستتزوج ؟

وقالت زينب : سأقوم لاتصل بعائشة وأسمع صوتها فلها يومان لم تتكلم معي

دعي الأهل والأصدقاء والأحباب إلى منزل الدكتور فائز لطفي ، وفي حديقة القصر تم الاحتفال بليلة الزفاف ، وانتـقلت أحلام إلى بيت زوجها محمد .. وحمدوا الله على هذه الخيرات والنعم وسألوه المزيد منها ، وأكثروا من الشكر لله .

وكان من عادة عمري إذا زوج ولدا أو بنتا يخصه يتصدق بآلاف الدنانير بهذه المناسبة على الضعفاء والأيتام والمحتاجين ، فيحب أن يدخل عليهم البهجة والفرح ليفرحوا كما هم يفرحون .. وليس سرا أن نقول إنه لم يقصر يوما في مد يد العون لكل شاب يتصل به محتاجا للنكاح ، فيمده بالمال أو الأثاث،ولا يحب أن يطلع أحد على ذلك العون ، فكان ماله وأرباحه يحب أن يشاركه فيها ضعفة المسلمين عن طيب نفس، فهو قد ورث عن أمه وأبيه كثيرا من الملايين ، ولم يبخل يوما بإخراج الزكاة في وقتها كما هو معلوم ، فصاحبنا عمري لا ينسى حق الله ولا حق العباد المستخلف فيه { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ } .. و يذكر آية القصص { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } .. فكان له أسوة بعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وأبي الدرداء رضي الله عنهم ، ولما تم الفرح واطمأنت أنعام على ابنتها الوسطى ، أخذوا يترقبون موافقة السلطات السويسرية لدخلوهم أراضيها للسياحة والعلاج ، وكانت أحلام وبعلها محمد قد وافقوا على هذه الرحلة التي أبى الدكتور فائز إلا أن يساهم فيها بنفقات العروسين، فبعد رفض رضخ عمري ووافق ، وأحب فائز وزوجته أن يسافروا معهم للعمرة ويرافقوهم لمشاهدة جبال الألب وأوروبا البيضاء .

وبينما هم ينتظرون ـ وقد وافقت نوال على هذه الرحلة العلاجية بعد تمنع شديد من الذهاب للعلاج في أوروبا بعد أن قبل ابن شقيقها صابر علي على الرحلة معها بناء على طلب من أبيه وقريبه عمري ـ أتت مكالمة لعمري من العاصمة فيها خبر صغير ، وهو أن ابن ماهر خلس السجين قد خرج من السجن ، وتطلب منه الشرطة الحذر من هذا الولد ، رغم العفو الذي قدمه عمري فقد كان الشاب داخل السجن يتهدد ويتوعد وتأخذ الشرطة حمقه بجد .. بل شرطة الريحانة اتصلت بالسيد عمري من أجل هذه القصة ، وكان عمري منذ تقاعد من أعمال الشركات قد صرف السائق الخاص والحارس الخاص ، فما كان رده على ذلك التحذير إلا أن قال : توكلنا على الله سبحانه .. لا مهرب للإنسان من قدره

بل قدم لزيارته في الريحانة المختار ووفد من رجال القرية يحذرونه من طيش ابنهم وجنونه ، فقال لهم عمري شاكرا حبهم : يفعل الله ما يشاء .. ولا يصيب الإنسان إلا ما قدر له .. وإذا عدد سنين سجن لم تفعل به شيئا ماذا أفعل له أنا ؟! .. حسبنا الله ونعم الوكيل .. أنا على وجه سفر لأوروبا وإلا ذهبت معكم والتـقيت بهذا الشاب وحاولت تعقيله

فقال المختار : هدده أخوه وأخته وجده وحتى اخوته من أمه وأنا ، ولكنه راكب رأسه كما يقولون .. يتهدد ويتوعد .. ونحن يا سيد عمري نتمنى لك العافية والحفظ ، وأحببنا أن تتأكد من صدق حبنا لك ، والحمد لله أياديك البيضاء وإحسانك السخي يملأ البلدة .. فالمزارع تشتغل وتنتج، والمعصرة على خير ما يرام ومزارع العجول .. كله تمام وأفكارك كبيرة ونيرة .. نسأل الله تعالى أن يحميك .. هذا ولد أحمق نخشى أن يفسد علينا صحبتكم

قال عمري : الحماية والحفظ من الله سبحانه .. فالمال مال الله يا أبا عمر .. والخير من فضل الله وأي شيء تحتاجونه فولدي أسامة هو أنا ..

ـ هو ابن أبيه ، شاب فاضل .. ما أرسلنا إليه شابا من البلدة إلا يسر له عملا كما يحب .. حقيقة جهودك خيرة ومباركة بفضل الله .. هكذا يجب أن يكون أصحاب الأموال .. في مالهم نصيب للخير .. ليس الربح والزيادة فقط .. زيادة الأرصدة في أوروبا وأمريكا

ـ أصلح الله الجميع

وتناول الوفد الطعام على مائدة الشيخ عمري ناصح محمود ، ولما أرادوا الانصراف عرض عليهم المبيت ، ولما اعتذروا عن ذلك أوصاهم برامي خيرا ، فهو أخو البنات ، وطلب منهم أن يحثوه على التوبة والتردد على المسجد ، ويتعاونوا مع الشيخ في إصلاحه ، وإذا كان بحاجة لزوجة وبيت ومال فمروا على أسامة ، وسيحقق له ذلك وأعطاهم شيكا بخمسمائة دينار لرامي ، ففرحوا بكلام عمري ، وأخذوا هداياهم كما عودهم ، وقفلوا لديارهم شاكرين يدعون له بظهر الغيب أن يزيده الله من نعيمه .

ولما أتت موافقة المستشفى السويسري النهائية وتأشيرات السفر سافرت أنعام مع زوج ابنتها أحلام محمد وأختها نوال وابنتها أحلام وعلي ابن صابر ، فأمضوا يوما في العاصمة ، ثم ركبوا

الطائرة إلى أوروبا ، وكانت عائشة قد رتبت أمر الفنادق التي سينزلون فيها ، ولما وصلوا للمطار في بال كان في استقبالهم مندوب المستشفى ، وبعد التـعارف ساقهم لأحد الفنادق للاستراحة ، ووعدهم بالعودة لنقل المريضة إلى المستشفى الخاص .

زواج سهام

وبعد أسابيع من سفر القوم للعلاج أخذ عمري زوجته زينب وابنة أنعام سهام وصهره الدكتور فائز وأخته بدرية وعشرة أفراد من قرية ماهر خلس ، من بينهم زوجة ماهر وزوجها وابنها فائق ووالده ومختار القرية وآخرين في رحلة العمرة هذه على نفقته الخاصة ، وسافروا للحجاز بالطائرة فنزلوا جدة أولا ، ثم هبطوا مكة لأداء مناسك العمرة ، ثم زاروا مدينة الرسول ﷺ المدينة الشريفة .

وكانت سهام ـ التي وافقت لأول مرة على الذهاب معهم لأداء العمرة والتعرف على هذه العبادة ـ تحلق بالخيال البعيد أثناء وجودها بمكة .. فلما لامست حرارة مكة وشمسها ، تذكرت دعوة النبي (ﷺ) وسيره ومشيه على هذا التراب المبارك في عز الحر يدعو قومه إلى لا إله إلا الله وأنه رسول الله .. تذكرت ما قرأته عن بلال العبد الحبشي مبطوحا على رمضاء مكة وعليه الصخرة وجلادوه يضربونه بالسياط ليكفر برب محمد ، ويعود لعبادة الأوثان والأصنام التي كانت حول الكعبة .. كانت قرأت أن حولها ـ الكعبة ـ أكثر من ثلاثمائة صنم كيف ذلك ؟ كيف كان هؤلاء العقلاء يعبدون الأحجار ؟! تخيلت المكان الذي قتلت فيه سمية بنت خياط أم عمار وزوجة ياسر .. تذكرت صراع الصحابة الكرام ـ الذين آمنوا بربهم وبهذا الدين الجديد الذين تركوا دين الآباء ـ مع صناديد الشرك والكفر بمكة .. وكيف تحملوا الأذى والعذاب الشديد للثبات على دين الإسلام .. رأت أبا جهل سيد قريش وصنديدها يعذب هؤلاء وهؤلاء على رمال وبطحاء مكة .. رأت الأمهات تحبس الأبناء لتفتنهم عن دينهم الجديد .. رأت أم أنمار تعذب خبابا وتطفئ الحديد المحمى في ظهره وبدنه رأت الرسول (ﷺ) يدب على أرض مكة المباركة يطوف حول الكعبة ويصلي .. يدافع عن الدين ، ويحرر الناس من عبادة العباد الى عبادة رب العباد ، صور كثيرة من السيرة التي قرأتها مرات قبل سفرها تتخيلها .. تخيلت الشاب الجميل فتى مكة مصعب بن عمير الذي كانت تقف حسناوات قريش لمشاهدته عندما يخرج لشوارع مكة .. ويستنشقن أريج طيبه .. الشاب الزاهد السفير الأول لأهل المدينة .. جاهدت أن تعيش روحانيات جميلة وبراقة .. أحبت الفتاة مكة رغم حرها وصيفها .. ورأت أن الحياة

زائفة وخداع وكذب .. أربع سنوات وهو يطمعها بالزواج وهي مصدقة .. يتسلى بها وبعواطفها .. يلعب عليها وعلى فايزة وربما أخريات .. ثم اختار فايزة الجارة ونسيها .. لقد صدق عمري عندما حدثها أن الأيام ستنسيه ذلك .. وأن حب المدرسة أو الجامعة حب أطفال وصور عابرة .. طردت هذا الخيال ، وعادت تحلق في سماء مكة في الجاهلية وأول الدعوة ، حيث بدأت دعوة النبي (ﷺ) على جبل الصفا .. وصلت لجبل النور حيث غار حراء .. غار الوحي والرسالة .. صعود متعب إلى ذلك الغار .. ولكنه بعيد عن أهل مكة وتجارتهم وقوافلهم ثم رأت بعين الخيال عمر بن الخطاب يريد قتل النبي (ﷺ) ثم يسلم ثم يصبح خليفة للمسلمين أبو بكر صاحب رسول الله وصاحب الغار .. حاولت تذكر كل الصحابة الأوائل .. عبد الله بن مسعود يجهر بالقران أمام الملأ من قريش .. أبو ذر الغفاري يجهر بالإسلام .. حمزة بن عبد المطلب يشج أبا جهل لاعتدائه على ابن أخيه محمد (ﷺ) .. مشاهد مثيرة ترسمها بعين الخيال هذه هي مكة وجبالها مهبط الوحي التي يحبها الله .. وفي هذا المكان عاش إبراهيم وإسماعيل وأمنا هاجر .. إبراهيم ترك فلسطين الجميلة الأرض الخضراء أرض بيت المقدس أرض الأنبياء ليسكن ولده في هذه الجبال القاحلة .. مشاهد عظيمة .. إسماعيل الصغير عطشان هاجر تركض بين جبل الصفا وجبل المروة .. يا إلهي إن هذا لشيء عجاب ! .. صغير يريد الماء .. لا ماء .. لا ناس .. ولكن تخرج زمزم بمشيئة الله .. زمزم الباقية آلاف السنين .. ما زالت ليومنا هذا لا تنضب ويزيد الشاربون منها .. إنها آية .. آية من آيات الله سبحانه .. يا عماه .. إنك تعيش في هذه السعادة الكبيرة .. آه يا دنيا كم أنت فاتنة؟! .. الناس تحج إلى أوروبا وأمريكا والثلج والمطر وهنا تهوي أفئدة الصالحين والمسلمين من جهات الأرض الأربعة .. إليها يتوجهون بصلاتهم مكة أو الكعبة المعظمة بأمر الله .. الحجر الأسود .. من زمن إبراهيم وهو قرين زمزم .. إلهي تب عليّ واجعلني من القانتات الصالحات .. إلهي اصلح لي دنياي وآخرتي .. إلهي لا تتركني لهواي ونفسي .. أحبك يا الله يا خالق الكون والأسرار .. ارحم يا الله أمتك سهام التائهة الحائرة ذرفت دموع التوبة والندم عند الكعبة عند البيت العتيق .

ولما نزلوا المدينة لزيارة مسجدها.. رأت المسجد النبوي .. حيث كان المسجد القديم .. حيث

الروضة الشريفة حيث كان أيام النبي ﷺ والصحابة الطاهرين .. هنا كان العلم والجهاد والحب محمد مشى على هذه الأرض .. الصحابة دبت أقدامهم على هذه الأرض ..هنا صلوا هنا عاشوا هنا ماتوا .. الله أكبر الله أكبر .. هذا بقيع الغرقد حيث دفن عدد كبير من الصحب الطيبين .. سلام عليكم يا أسيادنا سلام عليكم يا من علمتمونا الإخاء والحب .. أنتم الأسوة الحسنة لمن بعدكم .. أنتم نجوم الهدى .. أنتم الذين بايعتم محمدا ، وحفظتم لنا الإسلام والقرآن والسنة والسيرة .. وتلك قباء التي كانت أول مكان وطئه محمد عند دخوله المدينة حيث استـقبله الأنصار ـ رحمهم الله ، وغفر الله لهم ـ .. طيبة الطيبة .. هنا كان يجلس أمير المؤمنين عمر يستـقبل بشائر الفتح من الشرق والغرب .. هنا كان يتربع الرجل الزاهد الفاتح العظيم رحمهم الله كانوا خير سلف لنا .. اللهم احشرنا معهم ..آمين .

لقد كانت سهام سعيدة برحلتها الأولى للحجاز ، لقد صممت أن تبدأ حياة جديدة .. حياة كلها طاعة لله .. فلماذا تشذ عما هيئه الله لها من أهل طيبين أخلاقهم إسلامية .. أحكام الشرع مـقدمة على كل شيء .. لماذا تترك هذا الخير لتعود للجهل والهوى .. فهذه هي النعمة الحقيقية العظيمة ؟ !

فالإنسان عندما تتهيأ له فئة صالحة بيئة طيبة ، فهذا من نعم الله تعالى ، فعليه أن يشكره على هذه النعمة الكبرى .. حمـدت الله سبحانه على عدم ارتباطها بفواز .. كان يريد أن يعيدها لحظيرة الجاهلية والتشبه بالكفار والفجار .. فسألت الله وهي تصلي في مسجد رسول الله (ﷺ) أن يهبها زوجا صالحا تقر به عينها .. يعينها على اجتياز هذه الدنيا بسلام إلى الدار الباقية ولا يفتنها عن طاعة ربها سبحانه .

لذلك لما عادوا لجدة كانت سهام قد صممت على تغيير نفسها وعاهدت الله على التوبة النصوح وسافر ضيوف السيد عمري إلى وطنهم ، واستعدوا هم للسفر لسويسرا قال عمري لرفيقتهم في العمرة الآنسة سهام : كيف كانت الرحلة يا أميرة ؟

فأخذت يده وقبلتها وقد تساقطت بعض الدموع وقالت : يا عمي .. أنا أسعد مخلوقة في العالم اليوم .. لقد عشت في عالم آخر خلال هذه الأيام .. نسيت الماضي كل الماضي .. نسيت أيام

الكلية .. أنا ولدت حديثا .. أنا كنت بحاجة لهذه الرحلة .. السعيدة .. عندما ترى هذا المكان العظيم .. تتذكر الرسول والصحابة وإبراهيم وإسماعيل وهاجر .. وترى هذه الوجوه القادمة من بقاع العالم .. والألسن المختلفة .. يطوفون عن طيب خاطر .. يسعون عن طيب خاطر .. رجال نساء .. أطفال شيوخ .. شيء عظيم .. كل هؤلاء يحبون الله ..

وأخذت تتحد عن إعجابها بمكة والمدينة والطواف والسعي ومسجد الرسول محمد ﷺ بقلب منشرح فرح ، فقال عمري وقد انبهر فعلا من تأثير العمرة والأماكن المقدسة على مشاعر سهام : لو كنت أعلم أن هذه الرؤية والزيارة ستفعل بك ما نسمع في هذه اللحظات العظيمة لفعلنا ذلك منذ سنوات .. ولكنها مشيئة الله سبحانه .. أنا فرح بما أسمع يا ابنتي العزيزة .. بعدما تعودين من رحلة سويسرا .. سأذهب بنفسي لفواز هذا وأجبره على الزواج منك

جفلت سهام لذكره وقالت : لا يا عمي .. مات فواز في قلبي قبل صعودي الطائرة .. هذا أول مخلوق نسيته .. كما أحببته يوما ما وتمنيت الاقتران به فأنا اليوم أبغضه

ـ المؤمن لا يبغض ولا يحب إلا بالله .. دعيه للخالق .. لا يجب أن ينشغل قلبك بحب زائل هل حدث منه شيء نحوك لتبغضيه ؟

فقالت : علمت أنه قد خطب

ـ خطب ! .. هل هذا ما قالته لك تلك الفتاة قبل زواج أختك بأيام ؟

ـ نعم يا عمي .. في تلك الليلة عرفت بخطبة فواز .. وكانت تلك الفتاة زميلتي في الكلية وصديقتنا .. فاعترفت لي بكل شيء ، فقد كانت على علاقة عاطفية بفواز ، وأنه كان يمثل عليّ دور العاشق الولهان فارس الأحلام ، وكان يسخر من عواطفي بمساعدة أخته منال .. ولما انتهت الدراسة خطبها فهذا ما أبكاني تلك الليلة .. أرأيت خداع البشر ؟

ـ الحمد لله على كل حال .. أنت تستحقين زوجا خيرا من فواز .. ولكن هل تأكدت من صدق معلوماتها ؟

ـ بالتأكيد هي صادقة لقرائن كثيرة كنت أراها أيام الكلية ؛ ولكن لم أرها بعين السخط فأتجاهلها ، وثانيا تهربه من الكلام معي منذ تخرجنا ودهلزات أخته ، وثالثا ليس بيني وبينها

شيء لتكذب عليّ .. وإنما كان قصدها إراحة نفسي من الوهم ، وقد تقابلنا من غير ميعاد .. والحمد لله على هذه الزيارة لمكة والمدينة ، فقد أعادت اليّ الاتزان لنفسي وروحي

ـ هنيئا لك هذه العودة الطيبة .. وأنت تعلمين مقدار حبي لك ، وإذا قبلت أن تتزوجي على طريقتي يا سهام ستجدين ما يسرك .. الحب ليس بالضرورة أن يسبق الزواج ، فكل الناس أو أغلبهم يتزوجون بدون سابق معرفة وحب ، ويأتي الحب والشوق فيما بعد .. القليل من الناس من يتزوج عن حب وعشق كالذي تشاهدونه في الأفلام والقصص والتلفاز .. وأكثره بعيد عن واقع الناس .. وما هو إلا لإتمام الحبكة والدراما .. أنا لا أنكر أنه قد يحدث مثل ذلك ولكنه القليل ولا يقاس عليه .. قد يرى إنسان فتاة في شارع أو حديقة أو حفلة .. ويحبها ويتـقدم لأهلها وينتهي الموضوع إذا قبلوه زوجا .. وإذا لم يقبلوه يبحث عن غيرها .. فالحب عاطفة سامية تكون بين الناس ، وبينهم وبين الله سبحانه يحبهم ويحبونه

فقالت سهام بشجاعة : أنا موافقة على الاقتران بمن تختاره لي وعلى طريقتك يا عمي .. أمي تنظر مني هذه الكلمة

ـ كلنا ننتظر يا أميرة هذه الموافقة .. يقال خير البر عاجله .. عندما نستقر في الفندق في بال سويسرا ، سأرتب لك من هناك من ستدعين لعمك طول عمرك باختياره لك .. وأمك تحب لك الخير والسعادة، وإن بدا منها الجفاء في بعض الساعات .. الزواج سنة الحياة ، وهو حاجة ضرورية للإنسان العاقل سواء الرجل أو المرأة ، وإن ينصرف بعض الناس عن الزواج ، فهذا لظروف فردية خاصة بهم ، وهو في الإسلام ستر وعفة وطهارة وقناعة وذرية إذا شاء الله .. واختيار الزوج الصالح مهم ، كما هو اختيار الزوجة الصالحة مهم .. وكل أم تحب أن ترى ابنتها في بيت زوج حتى تطمئن عليها ، لئن الموت ذاهب بالجميع الكبير والصغير .. رضي الله عنك يا فتاتي

وصلوا سويسرا ، وكان محمد في انتظارهم بمطار العاصمة وركبوا معه السيارة حتى الفندق فرحبت بهم أنعام وأحلام وعلي صابر ، وحمدت الله على وصولهم سالمين ، وبعدما سمعوا منهم أخبار نوال الطيبة سرهم ذلك ، انصرف محمد واحلام مع الدكتور فائز وقرينته بدرية بعد

سماعهم اخبار نوال ، واستاذن الشاب علي بالخروج في مشوار خاص ، ولما بقي عمري وزوجتاه وسهام ، بشر عمري أنعام بآخر أخبار سهام ، فلما سمعت منه تلك البشرى قامت وعانقت ابنتها البكر مرة أخرى ، وغمرها الفرح وطفرت الدموع من عينيها وهي تقول: الحمد لله رب العالمين ، لي سنوات انتظر هذه الكلمة منها .. لو كنت أعلم أن العمرة ستفعل بك ذلك لأعمرناك منذ زمن

فقالت زينب وهي تشاركهم فرحهم بسماع آخر أخبار سهام : كل شيء بقدر يا أنعام .. هنيئا لك يا سهام التوبة الصادقة الآن أنت ابنتنا حقيقة

فقالت سهام باسمة : وهل لم أكن ابنتكم قبل ذلك ؟

ابتسمت زينب وقالت : ليس ذاك أقصد .. أنت ابنتا الآن وقبل .. ألم تسمعي قول الله لنبيه نوح إنه ليس من أهلك .. لأننا كنا خائفين عليك من الضياع والعودة لحياة السفور والتبرج هذا قصدي يا حبيبتي ، واحتضنتها وقالت : ألم تعلمي كم أحبك ؟

ـ أعلم يا أمي حبك الكبير لي ولأختاي ولأمي ولكل البيت .. وأنا أفهم قصد كلامك وفرحتك لي ومشاعرك الكبيرة نحونا

ـ أحسنت يا ابنتي العزيزة .. صدقي أنني منذ عرفتكم أحببتكم كأبنائي ، ولم أفرق بينكم في معاملة أو قول .. وأكيد وعدك عمك عمري بعريس جميل مثلك رقيق المشاعر والأحاسيس وكان محمد رجع اليهم لحاجة يسأل عنها ، فسمع كلام امرأة خاله الاخير ، وأحس بمشاعر الفرح التي عمت القوم فعلق باسما وهو يحدق النظر في سهام شقيقة زوجته ثم يحوله لخاله قائلا : آ.. يا خالي من هو الفارس الجميل الذي سيصيد هذه الحمامة أو الغزالة ؟

تبسم القوم لمداعبة محمد وقال عمري : سأستعرض أبناء العائلة، وأحباب العائلة المقربين و ستـفرحون جميعكم لسهام إن شاء الله تعالى

*****

خضعت السيدة نوال للعلاج البدني والنفسي في المستشفى ، ثم نـقلت لمصح لقضاء فترة النقاهة وقضى الدكتور فائز شهرا بصحبتهم ، ثم عاد لأرض الوطن ومعه بدرية قرينته ، ولما مضت

الشهور الثلاثة استأذن عمري وزينب بالعودة وخيرت سهام فاختارت السفر معهم ، وكان الأطباء يعتقدون أن ثلاثة أشهر كافية للعلاج ، فمددوها ثلاثة أشهر أخرى ، فوافق محمد وأحلام وأنعام وعلي على البقاء حتى تنتهي فترة العلاج ، وإن نصحهم الأطباء بالسفر فربما يطول الوقت ، فاستجابة المريضة للأدوية ضعيفة ، بل وجدوا ضعفا شديدا في الذاكرة ، فشجعهم عمري على البقاء ثلاثة شهور أخرى ، وإذا لم تتحسن شيئا ـ فلا حول ولا قوة إلا بالله ـ ستنقل بطائرة طبية إلى الوطن ، ويتابع علاجها فريق من أطباء البلاد ، وكان الألم يعصر قلب عمري على ابنة عمه .

ولما وصل عمري البلاد وجد أن زوجة عمه ناجح قد رحلت منذ شهر ، ولم يرغب الأهل بإخبارهم ريثما يعودون حتى لا يؤثروا عليهم ، و يضطروهم للعودة خصوصا أنعام ، فشكرهم عمري على هذا التـفكير والتصرف وقال : خطوة جيدة .. رحم الله أمنا عزيزة ثم زار قبرها ودعا لها الله سبحانه أن يتغمدها بالعفو والصفح والرحمة ، وتصدق عنها ثم عاد للريحانة وبصحبته زينب وسهام ، وبعد أن قضوا في الفيلا عدة أيام يستريحون من آثار السفر انشغل عمري بالعريس الذي وفق لاختياره لسهام ، ولقد كان السيد عمري قد رتب الأمر مع صديقه حسن أخو زوجته زينب والذي يعرفه القراء في أوائل القصة ، فقد كان لأخي زينب الصغير أحمد ولد متدين ، وقد تخرج من كلية الطب ، ويعمل في مستشفى الدكتور فائز في الريحانة ، فلما تحدث عمري مع حسن في أمر زواج سهام بنت أنعام رشحه حسن ، فتحدث حسن مع أخيه أحمد الأصغر في الموضوع ، فأبدى الوالد أحمد ترحيبه وموافقته على الفور ومن غير تردد ، ثم زار الريحانة وتحدث مع ولده الدكتور هشام ابنه ورد خبرا بالموافقة لأخيه حسن فلذلك لما وصل عمري المدينة واستراح بضعة أيام ، قام بزيارة خاصة لهشام في المستشفى ، وخلا به بعض الوقت ، ولما تأكد أنه لم يتعرض لضغط من أبيه وعمه حسن دعاه لزيارة عمته زينب ولرؤية الفتاة بدون مـقدمات ؛ كأن اللقاء حصل عرضا ؛ فإن استحسنها جرى ما بعد الرؤية من خطبة وقران .

وذات ليلة حضر الدكتور هشام زائرا لعمته من غير ميعاد معها ، وهشام كان من الشباب

الذين يرون أن السيد عمريا نموذج للرجل الغني المسلم الحي الذي يجعل المال في خدمة الأمة والناس .. فكان ينظر إليه أنه رجل موفق مبارك ، فالزواج عن طريقه ويده يراه من سعادة المرء وبركته ، وهو زوج عمته زينب السيدة الطيبة ذات الحنان والقناعة والزهد رغم ما لديها من أموال وأرقام من مال زوجها .. زينب لم تعلم القصد الخفي من زيارة هشام ، فكانت تظنها بمناسبة عودتها من العمرة ومن أوروبا فأولاد اخوتها يودونها باستمرار ، ويظهرون لها إمارات التقدير والحب .. فسلم هشام وقبل يدها ويد السيد عمري زوجها فقد اعتاد على ذلك منذ الصغر ، ولا يرى في ذلك غضاضة رغم أنه طبيب ماهر ، وكانوا يجلسون في الحديقة كعادة عمري ، ولما شربوا القهوة أرسل عمري وراء سهام فأتت ملبية لنداء عمها عمري ، فلما رأت الضيف كادت ترجع ، فنادها عمري فقال لها : تعالي يا سهام .. هذا ابن أخ زينب الدكتور هشام

سهام تعرف هشاما ، فهي تسمع باسمه يتردد داخل البيت ، وهو يتردد على البيت لزيارة عمته والسمر مع عمها عمري ، أما الجلوس معه فهذا لم يحدث ، لذلك ارتبكت واستغربت من تصرف عمها لأنه لا يحب الاختلاط ، ولكنها اقتربت وهي مترددة وألقت التحية فقال لها عمري مرة أخرى : الدكتور هشام مهتم بمرض خالتك نوال .. وكلفته بالاتصال بعدد من الأطباء الماهرين في جراحة الدماغ وعيوبه .. فغدا اتصلي بأمك واسأليها عن آخر أخبار خالتك اجلسي

فجلست باستحياء وقالت : أهلا بالدكتور هشام

ـ أهلا آنسة سهام .. الحمد لله على سلامتك .. عمرة مقبولة إن شاء الله .. كيف حال خالتك

ـ بخير .. كان الله في عونها .. كيف أنت وكيف الأم والوالد ؟

فقال هشام بجرأة : الحمد لله كلهم بخير .. يا عمتي العزيزة .. أمتزوجة هذه الحسناء ؟

احمر وجه الفتاة لجرأة الشاب أمام زوج عمته ، ولم تستطع رفع بصرها عن الارض حياء ، فقال عمري بفرح : أموافق يا هشام ؟!

فقال هشام بفرح وبابتسامة : يا أبا محمود .. هل يرفض أحد اختيارك المبارك ؟ .. أرجو أن

تقبل بي هي

نظرت زينب لعمري وقالت : هل هناك مؤامرة ؟؟

فقال هشام : أبدا يا عمتي ..أتاني أبي الفاضل خصيصا من العاصمة ؛ ليقول لي أن زوج عمتك وجد لك عروسا جميلة .. فكما وافق أبي قبل أن يأخذ رأيي ، أنا أيضا وافقت على الفور ومن غير تردد .. فالأستاذ عمري رجل مبارك وأنا أحبه وأقدره ؛ ولكنه أصر على النظرة فقال زرنا وانظر الفتاة نظرة الخطيب ، فأتيت وكلي شوق وهوى بابنة عمتي أنعام .. لم نسمع قول العروس يا عمتي تدخلي ؟

نظرت سهام لعمها عمري بامتنان وتقدير وقالت بشجاعة وقد خف ارتباكها وأدركت المقصود من هذه الزيارة : فكما وافقت أنت على اختيار عمي عمري بسرعة فأنا راضية وموافقة على اختياره .. عمي سريع في عمل الخير

فنهضت زينب فرحة واحتضنت سهام وقبلتها عدة مرات وهي مسرورة وهي تقول : ألف مبروك وألف بركة .. جزاك الله خيرا يا أبا محمود .. مبارك يا ابن أخي

وقبلت ابن أخيها الشاب المرح ، وبارك لهم عمري ، وشكراه وقال عمري فرحا : على بركة الله سبحانه .. أم تحبون التفكير قبل الاندفاع وراء العواطف والمشاعر ؟

فقال هشام : أنا راض بكل مشاعري وعقلي وأفكاري

وقالت سهام فرحة : وأنا دعوت الله ونحن بالمدينة المنورة أن ييسر لي زوجا صالحا يسعدني وأسعده السعادة الدائمة .. فأنا أيضا موافقة على الدكتور هشام بعقلي ووجداني .. وأشكرك يا عمي الشكر الجزيل

فقال عمري : مبارك لكما مرة أخرى ونحن سعداء بما يجري ، والآن قومي اتصلي بأمك واسأليها عن خالتك وأخبريها بهذا الاختيار لتكسبي منها دعوة صالحة

فحيت الفتاة المنفعلة وانطلقت بفرح وعجلة للاتصال بسويسرا ، وأخذت زينب تشكر زوجها وتحدث ابن أخيها عن مشاعر سهام المرهفة وتوصيه بها خيرا فقال هشام : هي في قلبي وعيناي يا عمتي .. وأرجو من الله أن يوفقني إلى تحقيق السعادة لها والمحافظة على مشاعرها الرقيقة

فقال عمري : ستتم الخطبة قريبا وقبل عودة أمها ؛ لأن أمها قد تمكث ثلاثة أشهر مع أختها وهناك مشوار إلى قرية أهلها لإخبار أخيها الأكبر وجدها من أبيها .. قد تضطر للنزول إلى العاصمة لتحقيق ذلك يا دكتور هشام

ـ لا بأس يا سيدي .. أنا جاهز

فجاءت سهام بعد قليل تقول : السلام عليكم .. أمي على الهاتف يا دكتور هشام تريد أن تبارك لك

فقال عمري : اذهب يا هشام ! فحماتك تريد أن تظهر لك مشاعر الحب والفرح

فقال هشام : عمتي أنعام على سلامتها .. هي سيدة محترمة وفاضلة وملكة لفؤادي

سارت زينب خلفهم وتحدثت زينب مع أنعام التي شكرتها على مباركتها لهذا الزواج ، فتمنت أنعام لو أنها معهم في هذه اللحظة لتشاركهم فرحهم ، وتحدث هشام مع أنعام التي دعت له وباركت له ، وأظهرت له حبها وامتنانها وسعادتها بزواجه من ابنتها البكر ، فأثنى عليها وأخبرها بأمر الخطبة وكتابة الكتاب قريبا ، وسألها مباركتها ففعلت، وطلبت منه سهام التي كان البشر والفرح ظاهرين على محياها الباسم ، وتناولت السماعة من هشام بلطف ، واستمعت لنصائح أمها ودعواتها لهما بالتوفيق والهناءة الزوجية ، ثم وضعت السماعة وقالت وهي تنظر في عيني هشاما : قبل أن نتزوج أمي توصيني عليك ، أرأيت كيف الحموات يا دكتور هشام ؟

ـ الله يحفظ لي حماتي وعمتي زينب ، وإن شاء تعود أمك بالسلامة وحفظ الله تعالى .. عمي ظل وحده في الحديقة .. هيا بنا إليه نشرب الشاي معه من أيدي ساحرة القلب والفؤاد .. ما رأيك يا عمتي ؟

فقالت سهام : فورا أيها العزيز

سارت سهام نحو المطبخ ، وهي تكاد تطير من الفرح ، وخرج هشام وعمته نحو الحديقة وهما فرحان بما تم هذه الليلة من الخير ، ولما وصلا إلى الحديقة وجدا السيد عمري مغمض العينين ، ويجلس أمامه شاب منكوش الشعر نحيف البنية بين يديه مسدس .. فنظرا إليه باستغراب وقال هشام : من أنت ؟ !

فقال الشاب بهدوء : اسمي رامي ماهر خلس

فقالت زينب بصوت هلع : هل قتلته ؟!

فقال بصوت هادئ : لم تستطع يداي فعل ذلك .. إنه رجل صالح .. استيقظ يا عماه

فتح عمري عينيه ، لقد غفي عند ذهابهم للحديث مع انعام ، وقال : عدتم .. من هذا الشاب ؟

ردت زينب : هذا أخو خطيبتك يا هشام

ماذا قلت يا عمتي ؟ !

تمت الرواية بفضل الله تعالى

صدر عن دار المأمون

- ربنا وتقبل دعاء
  - خولة بشير عابدين
  - ٢٠٠٥/١٤٢٦
- الموت وأحكامه/ أحكام الجنائز والعدة
  - خولة بشير عابدين
  - ٢٠٠٥/١٤٢٦
- تفسير سورة الكهف
  - خولة بشير عابدين
  - ٢٠٠٥/١٤٢٦
- تفسير سورة الفاتحة
  - خولة بشير عابدين
  - ٢٠٠٥/١٤٢٦
- معجم ابن بطوطة في رحلته
  - د. مأمون فريز جرار
  - ٢٠٠٥/١٤٢٦
- حوار الإسلام والغرب
  - د. عبد الله أبو عزة
  - ٢٠٠٦/١٤٢٧
- السياسة الاقتصادية للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز
  - بشير كمال عابدين
  - ٢٠٠٦/١٤٢٧
- محجّبات ولكن !

- د. مأمون فريز جرار
- ٢٠٠٦/١٤٢٧

- ذكريات الوطن والغربة
  - حسني أدهم جرار
  - ٢٠٠٦/١٤٢٧

- السلاسل المضيئة للشفاء
  - زهرة مصطفى الزيات
  - ٢٠٠٦/١٤٢٧

- أحاديث الفتن والفقه المطلوب
  - د. مأمون فريز جرار
  - ٢٠٠٦ / ١٤٢٧

- **THE UNSOLD COMMODITY** / ديوان شعر
  - أمين محمد حماد
  - ٢٠٠٦ / ١٤٢٧



١	ليلة العرس	٢	شمس عمري
٣	أيتام خليل	٤	صديق أمي
٥	الأخ شريف	٦	أستاذ الفرنساوية
٧	غربتي وابنتي	٨	حي أبو خروف
٩	الشقق السوداء	١٠	حياتي قبل الحياة
١١	الحفل بالقط الأسود	١٢	امرأة نزيه
١٣	رهاب الطلاق	١٤	

شمس عمري

عَمري يستيقظ كل يوم عند سماع آذان الفجر

نعم الفجر ..

تغير أسلم تاب

اشتعلت الحرب الشعواء

اختفى في مدينة الرتحانة

ثم عاد عملاقا منتصرا ملتزما محبوبا

فأصبح شمسا منيرة لأسرته ومن حوله

وأقاربه

إنه صديقنا عَمري

هذا ما سنقرأه في هذه القصة

جمال ٢٠٠٢

أيتام الحداد

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

روايات اجتماعية

جمال شاهين

أيتام الحداد

جمال شاهين

أيتام الحداد

حزن خليل

توقفت السيارة الصغيرة على مدخل الشارع الصغير المؤدي لمنزل السيد فرفر ، فرغم صغر السيارة الأجرة ؛ فإنها لا تستطيع الاندفاع في ذاك الشارع للمشقة التي قد يواجهها السائق ، فالشارع لا يتسع إلا لسيارة واحدة فقط .. فتح الشاب الذي يجلس بجوار السائق الباب ونزل منها بعجلة ليفتح الباب الخلفي حيث قام بمساعدة الرجل المريض خليل فرفر وأنزله رويدا رويدا ، ثم نزلت زوجته جميلة التي كانت تجلس بجواره في المقعد الخلفي ، وقد اتكأ عليها الرجل المريض .. وكان الشاب اليافع يمارس العمل مع زوج أمه وهو يتمتم ويدعو له بالشفاء والصحة والسلامة .. ولما اتكأ المريض على أم الشاب قام الشاب بإغلاق أبواب السيارة ، ونقد سائق الأجرة أجره ، وشكره على تعاونه وصبره معهم ، ثم وضع يد المريض فوق عاتقه ليسير به ، وتهادى الرجل المريض بينهما حتى وصلا لمدخل البيت في نفس الشارع الفرعي الضيق ، ويبعد البيت عن الشارع شارع السيارات الرئيسي حيث توقفت سيارة التاكسي حوالي خمسين خطوة وقد تزيد قليلا .

وكان كل من مرّ عليهم من أهل الحي والشارع أثناء الوصول للبيت يحييهم ويدعو للسيد فرفر أبي أحمد بالسلامة ، حتى أن بعض النسوة فتحت أبواب بيوتهن يحيين أبا أحمد ويتمنين له العافية والسلامة .

ولما استقر الرجل الكهل في بيته وفي حجرته الخاصة حمد الله وشكر أولاد زوجته .. الابن مالك الذي كان برفقته عند خروجه من المستشفى .. وشكر زوجته أم الأولاد أم ربيع .

وجاء ربيع الشاب وسلم على زوج أمه ودعا له بالعافية والشفاء ، وكذلك أتت حنين أصغر أفراد العائلة وقبلت يد عمها زوج أمها ودعت له بالشفاء والسلامة ، فهو بمقام الأب ، فشكرهم ودعا لهم ، وأثنى عليهم ، وتمنى لهم كامل السعادة والتوفيق في الدنيا والآخرة .. ثم خرجت الأم بعدما التقطت أنفاسها لتصنع لهم طعام الغداء .

ولما شرب الرجل المعافى بعض الماء سأل عن البنت البكر لزوجته جميلة صلاح أم ربيع

فقال الشاب ربيع : لم تعد يا عمي من الجامعة.. بعد قليل ستحضر .. أما أنا فقد أنهيت محاضراتي مبكرا حتى فكرت أن أذهب إليكم في المستشفى ؛ ولكن غلب على ظني أنكم خرجتم فعدت للبيت .

فقال فرفر: جزاك الله خيرا يا ولدي ، تأخرنا لبعض الإجراءات ، ولما دفعنا الأجرة ، ولملمنا أوراقنا وحصلنا على الأدوية اللازمة عدنا .. وأحيانا إن لم يكن غالبا تأخذ هذه الإجراءات بعض الوقت .

فقال الشاب : الحمد لله على السلامة يا عم ! أذهب الله عنك البأس .. شدة وتزول بإذن الله .

ـ شكرا يا ولدي .. وبارك الله فيك ، وفي إخوتك ، لقد قمتم بالواجب وزيادة .

وقال كأنه متحسرا : أولاد أمي وأبي لم يفعلوا ما فعلتم .. بوركتم وبوركت أمكم .. لقد صبرت معي الصبر الجميل .. إنها بركتنا ..

وأغمض خليل فرفر عينيه ؛ وكأنه أنـهك وتعب من الكلام ، فسمع الأولاد يستأذنون بالخروج وتركوه ليستريح .. فتمتم ببضع كلمات وأخلد للنوم ، فقد تعب من مشوار الطريق ومن جلسة السيارة ، فقد كان البيت بعيدا عن المستشفى ، ولكنه تحمل وشكر الله وحمده على تخفيف المصاب الذي ألم به .

ولما دخل المساء والليل توافد الجيران على بيت أبي أحمد لتهنئته بمناسبة خروجه من المستشفى سالما بعدما أمضى فيه سبعة أيام بلياليها ـ وكان قد أغمي عليه أثناء وجوده بمحددته ، فنقله العمال إلى مستشفى الحكومة ، فوجدوا أن لديه مشاكل في الصدر والقلب والأوعية ـ رحب الرجل بزائريه وجيرانه وطمأنهم على صحته وشكر لهم خطواتهم ، ورغم البشاشة التي كان يظهرها لعائديه ، كان منقبض النفس، وتظهر بعض الأحيان لمحات الحزن والضيق عليه .

فلما انصرف العائدون وعاد السكون للبيت وانصرف أولاد زوجته جميلة لحجراتهم قالت له الزوجة : مالك يا أبا أحمد كنت تسرح وأنت تتحدث مع هؤلاء الناس والزوار .. أيوجعك شيء ؟!

فهرش رأسه وهو سارح الذهن وقال : الحمد لله على كل حال يا أم ربيع .. أنا بخير ؛ ولكن يؤلمني ويحز في نفسي أنني لم أر أحدا من إخوتي وأخواتي أو بنيهم يزورني في المستشفى رغم مكثي الطويل .. حتى في المرض يا جميلة لم أرهم بقربي .. أنا لم أقصر في تعليمهم ، ولا في زواجهم ، ولم آكل من خيرات أبيهم مليما واحدا ..

فقالت الزوجة: يا أبا أحمد لا تشغل بالك ، ربما لم يسمعوا بمرضك ، فأنت تعلم أنهم يسكنون في أماكن بعيدة عن الحي ، ولا علاقة لهم بالحي منذ كبروا ورحلوا

ـ وأختي صبرية .. لا يبعد بيتها عن بيتنا هذا إلا بضعة شوارع .. أمعقول لم تسمع هي الأخرى بسقمي وقضائي عدة أيام في المستشفى؟! .. ابن عمي أبو شريف القاطن في آخر الدنيا سمع وزارني يا أم ربيع .

ـ الغائب يا ابن الحلال عذره معه .

ـ هذا ما يحزنني يا جميلة ويسرح بي في حال هذه الدنيا .. بارك الله فيك وفي أولادك لقد قمتم بالواجب وزيادة .

فقالت : الأولاد أولادك يا ابن الحلال .. فهذا أقل حق يقدمونه لك .. ألم تحضنهم صغارا وتستر على أمهم؟ .. أنت بركتنا يا أبا أحمد !.. شفاك الله وأبقاك لنا .

فقال وما زال الألم يسيطر عليه ، وكذا الحزن ويحز في نفسه: مهما كبر الإنسان يا جميلة ، ومهما ارتقى العلا في هذه الدنيا لا يجب أن يكبر على أهله .. هل لأنني أصررت أن أبقى حدادا يكرهونني ويقاطعونني ؟!.. فأبي كان سيد الحدادين في زمانه ؟! .. فهل الإنسان إذا تزوج ابنة عائلات انسلخ من جلده ؟! ونسي أخاه الأكبر منه .. الأخ الذي شقي وجاهد حتى يتعلم إخوته في الجامعة .. عيب يا زمن عيب ..!!

وتساقطت دموع خليل فرفر الحداد وهو يتذكر مقاطعة إخوته له أخذت الزوجة تمسح دموعه وتواسيه ، وتهون عليه الأمر ، وترفع من نفسيته المتعبة وتخفف من ألـمه ، ومن ثم قالت : يا أبا أحمد ما الذي ذكرك بهم؟ فهم منذ سنوات لم تلتقِ بهم وتتحادث معهم .. وصبرية ألم تتشاجر

مع زوجها ؟ أنسيت أنك ضربته لما غلط عليك .. فهي معذورة ومغلوبة على أمرها يا أبا أحمد أتريدها أن تترك الأولاد اليوم ؟!

فقال وهو سارح الذهن في ماضي الأيام : أنا ضربت المنحوس من أجلها .. لم أحتمل دموعها فتضايقت منه لما صار يشتم فيها وفيّ من غير خجل ولا حياء .. آ .. كان باستطاعتها أن تخطف رجلها وتزورني في المستشفى .. حق الإخوة .. أنا عفنت هناك .. ولكنها لا تريد .. فأولادها اليوم شباب ، وبعضهم تزوج كما سمعت .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. أمري إلى الله ..

بعد مضي أسبوع آخر قضاه خليل فرفر في البيت تعافى ، وعادت له صحته التي كان يباهي بها أهل السوق والحي إلى ما كانت عليه قبل المرض ، وذلك كما أخبره الطبيب المعالج ، ورخص له الطبيب مزاولة العمل .. فعاد لمحددته في شارع (نهر الربيع) حيث تكثر الحوانيت والدكاكين لمثل هذه الأعمال .. ففتح المحل وقد وجد الشابين اللذين يعملان معه في انتظاره ، فهما بعد مرضه بأيام أغلقا الدكان لقلة أعمال الحدادة ، ولغياب المعلم خليل أحمد فرفر .



فهذه أول مرة منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة مضت من حياته يضطر خليل أحمد لترك المحل كل هذه المدة ، وحتى هذه أول مرة يمرض هذا المرض ويدخل المستشفى ويبيت فيه ، فلذلك كان متألما جدا من عدم وجود إخوته وأخواته حوله ، فيبدو أن هذه أول مرة يشعر بأنه وحيد لا أهل له ، أو كأنه اكتشف أنه لا أهل له .. حتى أولاد مطلقته الأولى وزوجها عادوه وزاروه واطمأنوا على صحته ، فقد كان خليل قد تزوج قديما ، ولم تأكد له عدم قدرته على الإنجاب طلق زوجته التي تزوجت رجلا من رجال الحي ، وخلفت منه بنين وبنات .. وعجب أيضا من عدم زيارة أولاد إخوته له ، فأسف لهذا الوضع والحال ، وشعر أنه وحيد في هذه الدنيا .. وشكر الله أن سخر له أولاد زوجته جميلة للوقوف بجانبه في هذه المحنة الكبيرة .. فهو منذ سنوات

تزوج الأرملة جميلة على أمل أن تنجب له بنين وبنات ؛ لأنها ترملت على أربعة أطفال لما ارتفعت شمس النهار بدأ يهل أصحاب المحلات المجاورة للسلام على المعلم خليل أقدم حداد في سوق نهر الربيع ، له تاريخ قديم في السوق منذ حياة أبيه أحمد .. فكانوا يهنئونه على سلامته وعلى عودته للعمل .. فشكرهم وقدم لهم المشروب المناسب ، وقضى يومه الأول في العمل في استقبال وتوديع الجيران في العمل .. ومع ذلك عندما عاد ليلا للبيت عاد مهموما حزينا .. وعاد للحديث عن أهله الذين تخلوا عنه في هذه الأزمة مما دفع زوجته جميلة لأن تقول : يا ابن الحلال .. انس من ينساك .. لماذا تشغل فكرك فيهم هذه الأيام ؟! فأنتم لكم سنون لا تلتقون .. وأنت يا خليل مقصر معهم .

فاحتد الكهل الحداد وصاح : أنا مقصر معهم يا جميلة ! .. من علمهم ؟ من رضي بالفقر من أجلهم .. خالد .. من علمه ؟ وأدخله الجامعة .. منير باشا من صرف عليه حتى صار باشا .. البنات فاطمة وسعيدة .. وصبرية .. !

ـ صبرية قلنا زعلانة لزعل زوجها .. وهي أحسن واحدة كانت معك رغم عتبها الدائم عليك أنك لم تدعها تتعلم كما تعلمت أختاها ..

فقال محتجا : أنا .. لم أعلم فاطمة ولا سعيدة إخوتهن خالد ومنير هما اللذان صرفا عليهنّ .. كنت أريد تزويجهنّ بعد الثانوية .. ولكن الأخ خالد هو الذي علمهنّ .. فأنا لست مع تعليم البنات في الجامعات في تلك الأيام يا جميلة.. ثم أن صبرية تزوجت بعد وفاة أبي بفترة قصيرة حرام أن تلومني على التدريس .. ثم ما كنت أقصر معها في أي مناسبة أو في مال .. في أول حياتها الزوجية .. رحم الله أمي تعلم كما كنت أساعدها لتستقر حياتها الزوجية مع ذلك المعتوه جابر .. لنا أكثر من خمس سنين متشاجرين مع زوجها ، لقد حاول بعض أولاد الحلال بالصلح بيننا ؛ ولكنه أقسم الأيمان المغلظة على عدم الصلح وعلى عدم دخولي بيته ، وأنني إذا دخلت بيته سيطلق صبرية .. فهذا ما يمنعني من زيارتها يا جميلة .

فقالت : ربما حالف عليها أن لا تزورك .

فقال: ولكني مريض .. كدت أن أموت ولا أحد حولي إلا أولاد امرأتي .. يا عار ! يا عار على الأهل !

فقالت وكأنها يئست من إقناعه بعدم التأثر عن تفقد إخوته له : والله ما أدري ماذا أقول لك يا عزيزي؟! .. لا تشغل بالك كثيرا حتى لا تتعب ثانية .. فالهم يمرض القلب يا أبا أحمد .

فاستغفر خليل ربه واحتسب ثم قال : أنا أول مرة أشعر أنني وحيد في هذه الدنيا يا جميلة .. لا تزعلي من كلامي ، أنا لا أنسى فضلكم ووقفتكم معي يا أم ربيع ..

ـ يا رجل نحن أهلك وأنت أهلنا أنت زوجي وأبو الأولاد .. من علمهم ودرسهم ورباهم ؟ أولادي وإن لم يكونوا من صلبك ؛ ولكنك أبوهم بالتربية والتعليم .. هم أبناؤك أنا فقط راغبة أن أعرف لماذا أنت وأهلك أقصد إخوتك وأخواتك متعادين ومتخاصمين منذ تزوجنا بل من قبل أن نتزوج ؟! .. لماذا أنتم هكذا ؟! أما آن لك أن تخبرني بسبب هذه العداوة والهجر يا أبا أحمد ؟

فقال وهو يفكر بجواب جميلة : صدقي أيتها العزيزة أنه لا شيء في نظري لهذا الهجران والعداوة إذا كان هناك عداوة !



مصالحة

كانت صبرية أحمد فرفر تجلس مع زوجها جابر حامد في صالة البيت يتفرجون على التلفزيون عندما دخل ابنهم الشاب عدنان جابر ، وكان متجهم الوجه ، الضيق في محياه ، وقد لاحظ الجميع ذلك ، مما دفع إحدى البنات الجالسات لتسأله عن سبب نكده وتجهمه ، فلم يرد وتجاهل السؤال ، وسأل عن العشاء ، فأشارت صبرية لإحدى البنات أن تذهب لتسخن الطبيخ والأكل فنهضت المشار إليها وهي تقول : اتبعني إلى المطبخ يا بطل .. واحد يجيء في نصف الليل ولا يتعشى في مطعم أو في السوق!

فقال بغضب : لم تتجاوز الساعة العاشرة يا ست الحسن بعد .. وإذا تريدون أن أتعشى في الخارج فلماذا تطبخون في الدار ؟!

فسمعوا جابر يقول : لماذا الصراخ يا أولاد؟.. خلونا نتفرج على هذا المسلسل بهدوء ..

فقال عدنان وهو يقف غضبا : ظلوا تفرجواألا تزهقون وتملون من الأفلام والمسلسلات ؟!

فصاح الأب جابر بغضب : أحسن من سماع أفلامك ومسلسلاتك يا ابن صبرية .

فتدخلت الأم صبرية وقالت : ومالها صبرية يا أبا الأسود ؟!

وخرج عدنان غير مبالي ، وترك الزوجان يتشاجران ويتناقران ، ولما أكل نصيبه من الطعام عاد لصالة البيت فقال له أبوه : آ ، يا عدنان ملئت كرشك !

فقال الشاب المتجهم الذي يبدو أن الطعام لم يذهب نكده وضيقه : طعام كالزفت .. لا أدري كيف نأكل هذا الأكل ؟!

فارتفع صوته أمه ثانية تقول : لا يعجبك طعام أمك يا ملعون .. تزوج كما تزوج أخوك .. تزوج أفضل طباخة في البلد .. أكل المطاعم أحسن من أكلي ..

واحتدم الجدال بين أفراد العائلة ، ثم سمعوا عدنان يقول في نهاية الجدل حول الطعام والطهي الجيد والسيئ : سأتزوج يا أمي الحبيبة ، وستكون زوجتي أمهر طاهية وطباخة في البلد ، ولن تروا وجهي بعدما أتزوج ..

فقال جابر محتدا: مع ألف قلعة .. على من ستطلع ؟.. على أخوالك يا أستاذ.

ـ على أخوالي على أعمامي المهم أخلص !

فصاح الأب جابر : من الآن اخرج واغرب عنا .. لماذا تنتظر حتى الزواج ؟! .. اخرج من الآن يا ملعون .

فعاد عدنان يقول وهو يخفض صوته : ها هو نسيبك دخل المستشفى ، ومكث أياما فيها .. وكل أهل الحارة زاروه إلا أنتم .

فقال جابر كأنه كسب المعركة في جدله : لما يزرنا نزره !

ـ الناس تزور المريض .. وأنت حالف يمين أن لا يدخل بيتك .

ـ آ .. حالف يمين ! .. يا رجل خالك نذل .. يا رجل في واحد في الدنيا يهين ويضرب زوج أخته ! صهره .. امش اخرج من هنا قبل أن ترى ما لا يسرك ..

فقال عدنان الغاضب : يا رجل الناس تستغل هذه المناسبات للتصالح والتسامح والتصافي .. يا عالم الكل يلوموننا على عدم زيارتنا لخالنا.. أولاد الأرملة يقفون معه ، ونحن أقرب الناس إليه حرمتمونا من زيارته .. اليوم التقيت به في السوق .. في البداية تظاهرت بأنني لم أره .. وهو فعل مثلي .. يا للعار!

فقالت صبرية : ماذا كنت تفعل هناك ؟!

فقال : ذهبت أصلح السيارة عند كراج خميس .. فهو قد فتح محلا قريبا من محددة أبي أحمد .. بينما أنا أجلس معهم أتى خالي ، فلما لمحني تظاهر بأنه لم يرني ، وأنا كنت من قبل قد فعلت مثله فتكلم مع المعلم خميس بأمر وخرج مسرعا ، وبعدها قال لي خميس أصحيح أن أبا أحمد خالك يا عدنان ؟ وقبل أن أجيب كان ابن ابن أخيك الذي يتدرب عنده قد قال : آ يا معلمي ، المعلم خليل خال الأستاذ عدنان بس لا يتكلمون مع بعض من زمان .. وكل الحارة تعرف ذلك .. حتى أنني سمعت أبي يقول إن المعلم خليلا دخل المستشفى وخرج منها ، ولا أحد من أهله زاره أو جاء يسلم عليه بعد طلوعه منها .. فعضضت على شفتي حرقة ، فقال لي خميس

أصحيح ما قال الصبي يا عدنان ؟! أقررت بسوء العلاقة بيننا منذ عهد بعيدأيرضيكم هذا ؟!

فقال جابر بصياح : لماذا يضربني ويعمل عليّ عنتر؟!

ـ الناس تتشاجر وتتحارب وتتعادى ؛ ولكنهم في نهاية المطاف يتصالحون .. لا عداوة للأبد

طيب أنت زعلان منه للأبد وامرأتك أخته لا تزوره .. هذا حال سيئ يا أبي! أمي أخته الشقيقة بنت أمه وأبيه .. وهو الذي رباها بعد وفاة أبيها وصرف عليها وزوجك إياها ..

فقال الأب بحقد واضح على خليل ومن غير وعي : كان يوما أسود !

فانفجرت الأم صبرية وصاحت هائجة غاضبة : يوم زواجنا يوم أسود يا جابر؟! .. آه منكم يا رجال !

ثم عادت وخفضت من صوتها قائلة: على كل حال لا أريد التدخل في الحوار بينكم ، لا أريد أن يكبر الموضوع ، فعدنان شاب متعلم ويعرف يتكلم ..

فتنهد عدنان وقال: ما فائدة التعليم ونحن لا نعرف أن نحل قضايانا ومشاكلنا وعلاقاتنا الاجتماعية؟! .. الحق أنني قد خزيت هذا النهار .. عليكم بتصحيح هذه العلاقة .

فقال جابر بهدوء : يا ولدي دعك من هذا الأمر ، فنحن قد طاب لنا العيش فلنا أكثر من خمس سنين مرتاحون من خليل وحمق خليل .

فقال عدنان مستنكرا : أنا لا أدري لماذا علاقة أخوالي وخالاتي ببعض سيئة وأي عداوة بينهم لماذا خالي خالد لا يزورنا ؟ ولماذا لا تزوره أمنا ؟!

فقال جابر معلقا أو متهكما : هؤلاء أولاد كبارات ونحن أولاد مقاطيع !

فقال عدنان هازئا : المعلم خليل أولاد كبارات .. هو رجل مسكين فقير لا يملك شروى نقير فهو مدين للمعلم خميس بخمسمائة دينار.

فقال صبرية بقلق ودهشة : مديون ؟! هو لا يشتغل ؟!

ـ لا ، هو يشتغل إنما توقف عن الشغل بسب المرض، وقد عاد وفتح المحل؛ ولكنه احتاج المال كما أخبرني خميس ليكمل تعليم أولاد الأرملة أم ربيع .

فتسألت صبرية وكأنها تلوم أخاها لاستقراضه المال فقالت : وماذا يستفيد من أولاد الأرملة جميلة ليستدين من أجلهم ؟!

ـ ها هم احتضنوه خلال مرضه ، وما قصروا معه ، وغدا لما يتخرجوا من الجامعات ويتوظفوا سيعوضونه عن هذا ...

فدخل جابر على خط الحوار وقال بحقد واضح : غدا سيرمونه ، ولا يهتمون به، ويبحثون عن أنفسهم ويتزوجون وينسونه ..

فقال عدنان كأنه محتجا على حقد والده : لا يا أبي .. الناس يثنون على زوجته وعلى أولادها ، والبنت الكبرى للأرملة أنـهت الجامعة منذ أيام ، وقد علمت أنـها أنـهت آداب إنجليزي ولسوف تجد فرصة عمل بسرعة

كانت صبرية تنظر في عيني ولدها عندما قالت له : ومن قال لك كل هذه المعلومات ؟!

تبسم الشاب وفطن لغمز أمه فقال : المعلم خميس .. فهو صديق للمعلم خليل ، ويسمع منه أخباره وأخبار أولاد زوجته .. وهذا ليس سرا .. كل الناس في الحارة والحي يعلمون أن خليلا يعلم أولاد زوجته .. وهل في الأحياء الشعبية أسرار يا أمي ؟!

فقال جابر : صحيح .. وأنت ما الذي رماك على المعلم خميس ؟

ـ السيارة ! وأعطال السيارة .. أخو المعلم خميس زميل لنا في المدرسة وعرفنا على ورشة أخيه فكلما تخرب وتعطل العروسة نذهب إليه ونمكث عنده حتى يصلحها ، وخلال ذلك يجر الحديث بعضه البعض .. وغدا خميس يحدث أخاه بعداوتنا لخالنا ، والأستاذ جمعة ينشر الخبر في المدرسة بين الأساتذة ، فيقال الأستاذ المصلح عدنان جابر حامد المرشد النفسي والاجتماعي في المدرسة متدابر مع خاله .. آخ إني أتألم لهذا الحال العجيب؟!

فقال جابر: ماذا تريدون أن نفعل؟!نذهب لخالك نعتذر له أم هو يأتي للاعتذار ؟ حلها يا ابن صبرية .

فقال عدنان: لابد أن هناك حلا أو حلولا .. كان يجب أن نستغل هذه المناسبة لمرض خالي

لتصحيح الوضع وفتح صفحة جديدة بيننا ؛ ولكننا سمعنا وأغلقنا آذاننا كالمعتاد .. كان عليّ أن أتصرف ، وإنما خشيت زعلكما وخشيت أن تتهم هذه ـ وأشار لأمه ـ أنها أرسلتني لخالي .. لماذا نحن نصلي ونعبد الحي القيوم ؟! .. وقلوبنا فيها بغض وكره لبعضنا البعض .

ـ لا تدخل الصلاة في الموضوع .. لا أدري ما الذي فتح علينا هذا الديوان؟! فخالك الملعون له شهر مريض فلم يعد الوقت مناسبا للزيارة فات الأوان ..

فتمتم عدنان قائلا: فات الأوان ولم يفت الأوان .. حتى أولاد أخوالي خالد ومنير وخالاتي فاطمة وسعيدة لا نعرفهم ولا يعرفوننا .. تقول أمي إنها كانت قديما تزورهم ثم انقطعت الزيارات منذ عهد بعيد .. لماذا هذا؟! خليل وتشاجر معك وأهانك .. والآخرون ما بيننا وبينهم ؟!

فقالت صبرية كأنها حالمة في المجهول : خليل هو السبب في العداوة بيننا وبينهم .

فقال الشاب دهشا ومستغربا : خليل! وهم أيضا كما نعلم لا يزورونه ، ولا أظن أن أولاده أيضا يعرفونه ! .. فأنتم متهاجرون .. هنا شيء غامض بينكم ! .. أتعرف شيئا يا أبي؟ أم أنكم لستم إخوة يا أمي ؟!

فقالت صبرية : ماذا تقصد ؟!

ـ لا أقصد شيئا .. عجيب أمر أسرتكم يا أمي ! .. والعجيب أنني أفكر بذلك اليوم .. لهذه الدرجة أثر فيّ عتاب الأخ خميس أم كلمات ذلك الصبي .. الصبي يعرف جفوتنا لخالنا .. كأنني كنت نائما واستيقظت ، سأتكلم مع أخي الكبير لعلي أجد عنده حلا مناسبا لمشاكل العائلة .

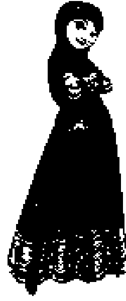
فقال الأب: يا ولدي هذه دفاتر قديمة لا داع لفتحها ، ودع أخاك في حاله، وخلينا نبحث لك عن ابنة الحلال وتستقر في بيتك .

فقال عدنان : وما دخل هذا في السعي في لملمة تشتت أولاد جدي أحمد وأحفادهم .. عار هذا ! عيب هذا! .. نحن مدرسون مربون أجيال! ألا يكفي كل هذا الزمن؟! ونحن نرى ولا نرى ونسمع ولا نسمع .. تمزق قلبي اليوم يا أبتي على هذا الحال .. أبناء الغريب يقومون بالمعلم

خليل في هذه الأزمة ، ونحن وضعنا في آذاننا قطنا .. ولما كنت أسمع بعض جارات أمي يحدثنها عن مرض أخيها كنت أظن أن المريض رجل آخر .. رجل لا يقرب لنا ، وليس بيننا معرفة ورحم وقرابة وجيرة .. قال المعلم خميس إن المعلم خليلا يبكي ويتكلم بحرقة لعدم وجود أحد من إخوته حوله في هذه الأزمة .. أثناء المرض هذا كلام خميس قاله ليس لي وحدي.. فقد جعلني الرسول والبريد بينكم وبين خالي ..

فقال جابر: لا حول ولا قوة إلا بالله .. افعل ما تراه مناسبا يا ولدي .. أنا ما كنت أظن يوما أن أسمع مثل هذا الكلام .. سأكفر عن أيماني المغلظة .. وسوف أتحدث مع شيخ المسجد واستفتيه في كفاراتها فقد مزقت قلبي رغم قسوته على المعلم خليل العيال كبرت يا صبرية !

فنهض عدنان وقبل رأس أبيه ، وبدأ مرتاحا لنجاحه فيما قصد وقال: بوركت يا أبي قال النبي محمد ﷺ أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما .. والآن يا أمي الحبيبة يا أمنا الغالية نريد أن نعرف سبب هذه العداوة المديدة بين الإخوة بينك وبين خالي منير وخالد وخالاتي فاطمة وسعيدة .. فالعداوة بينك وبين خالي خليل نعلم أن سببها المشاجرة الكبيرة التي حدثت بين أبي وبينه.



وظيفة لمنى

وقفت الشابة الحسناء منى ربيع على مدخل العمارة الضخمة ، وتلفت يمينا وشمالا ثم دخلت البوابة الرئيسية وتوقفت عند لوحة كبيرة تظهر عليها أسماء ومواقع الشركات والمكاتب التي تشغل هذه العمارة في شارع ابن رشد الأندلسي ، فلما وجدت الاسم الذي جاءت من أجله إلى هذه البناية ، تحركت نحو المصاعد لتصعد حيث مكتب الشركة التي قرأت إعلانها في الجريدة وركبت المصعد إلى الطابق السادس ، ثم وجدت نفسها في رواق فاتجهت حيث رأت مكتب الشركة التي ترغب بتقديم أوراقها للعمل فيها ، وصلت للشقة التي تشغلها شركة التجارة العالمية .. كان باب الشقة مفتوحا .. فدخلت فرأت فراشا أو موظفا قد نهض عن كرسيه يسألها فقالت : أريد تقديم طلب استخدام فقد قرأت ..

فرحب بها الشاب وقال : حسنا .. ادخلي إلى هذه الغرفة .

وطرق لها الباب الذي أشار إليه فشكرته منى ربيع ، ودخلت الغرفة المكتب فوجدت فتاة تجلس وراء مكتب واسع ، فأشارت لها الفتاة بالجلوس على أحد المقاعد الموجودة في الحجرة ثم أخذت ترحب بها ، وعلمت من الفتاة الزائرة الهدف الذي أتت من أجله للشركة وقالت منى : لقد قرأت في الجريدة حاجتكم لموظفة تجيد وتتقن اللغة الإنجليزية .

- نعم ، أيتها الآنسة .. ما اسم الأخت ؟

- منى ساعد ربيع .. خريجة آداب إنجليزي منذ شهرين تقريبا .

- أوه ! خريجة جديدة .. عزباء أكيد؟

- نعم .

- رائع آنسة منى .. يا هلا .

- شكرا

- أهلا وسهلا مرة أخرى .. هات أوراقك لأكتب لك طلب استخدام .. نحن الآن بحاجة لموظفة واحدة يا آنسة منى ، وقد تقدم لنا لحتى الآن خمس فتيات طيبات مثلك .. وخلال أيام

ستتصل بك لمقابلة المديرة أو نائبها .. ولكن لماذا لم تتقدمي بأوراقك للمدارس أو الوزارات ؟ ردت منى على فضول الفتاة قائلة : رأيت العمل في الشركات التجارية أفضل من التدريس .. وأنا أحب الترجمة .. فهذا ما شجعني للمجيء إليكم .

طلبت الفتاة الموظفة قهوة لمنى وخلال شربها لها أتمت إجراءات تصوير الأوراق والوثائق اللازمة وتعبئة طلب الاستخدام ، وتحدثت الفتاة حول نشاط الشركة وعملها في السوق .

&&&

ثم انصرفت منى عائدة لبيت زوج أمها ، وحدثت أمها بما فعلته من تقديم طلب استخدام ، وكان أخواها يرغبان بالتحاقها بالتدريس ثم دراسة الماجستير للعمل في الجامعات ، ودافعت منى بقوة عن وجهة نظرها ورغبتها للعمل بالقطاع التجاري ، وقد وافق زوج أمها خليل على مثل هذا العمل على مضض واستحياء، وكان يدعو الله ليلا ونهارا أن يتقدم للفتاة شاب وتتزوجه ، فالسيد خليل لم يكن يحب التدريس والعمل للبنات ما زال يحمل الأفكار القديمة والتقليدية .

لم يطل انتظار منى فقد دعيت لمقابلة المديرة وجرى الفحص اللازم لها وللفتيات الأخريات اللواتي تقدمن للعمل في هذه المهنة .. الترجمة .. وقد تقدمت إحدى الفتيات على منى فاعتذرت لها المديرة ، فعادت منى للبيت كاسفة البال حزينة ، ومضت أيام في ألم وقراءة للإعلانات من جديد ، وبينما هي على هذا الحال اتصلت بها الشركة للتجارة العالمية وتحدثت معها موظفة الشركة وطلبت حضورها ثانية لمقابلة المديرة ، فلبت الآنسة الدعوة ، وعلمت أن الفتاة التي تم اختيارها قد تركت العمل واعتذرت بعد أسبوع من الدوام ، وعجبت منى من ذلك ، ولم تعرف سبب ابتعاد تلك الفتاة بهذه السرعة ؛ ولكنها وافقت على العمل ، فأدخلتها السكرتيرة على المديرة التي كانت تجلس مع شقيقها نائبها فرحبت بها المديرة ، وتحدثت معها عن النصيب والقدر ، ووقعت معهم على عقد العمل ، وعادت للبيت مسرورة مرحة تحمل الحلوى ، وتستعد لمباشرة الشغل .

كانت جميلة أم ربيع مسرورة لعمل ابنتها البكر ، بل أنها كانت تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر وبشوق وسعادة ، فهي تعرف ما يلقى زوجها خليل الحداد البسيط من معاناة من أجل تدريس وتعليم الأولاد ، وتعلم أنه يقترض المال من أصحابه ليصرف وينفق على ذلك القصد فهو منذ تزوجها قد تعهد لها بأن يبذل قصارى جهده وعرقه لتعليم أولادها ، وقد مانعت من الزواج بعد ترملها لهذه الغاية النبيلة ، وعلى هذا الشرط وافقت للزواج منه ، وهو عبء آخر على المعلم خليل سوى نفقات البيت والعائلة ، ومضت الحياة سعيدة حتى بلغت منى الثانوية العامة ونجحت نجاحا كبيرا ، فحاول خليل التملص من تعليمها لبغضه تدريس الفتيات ، وكاد يحصل شقاق بين الزوجين ؛ ولكنه استسلم وتذكر تعهده لها ، وواسى نفسه بأن البنت ابنة زوجته وليست ابنته الصلبية .. فقبل دخولها الجامعة مكرها أو مغلوبا على أمره ، ثم بعدها بعام نجح ربيع الذي يحمل اسم العائلة عائلة ربيع والتحق هو الآخر بالجامعة ، فزاد الضغط على جيب أبي أحمد ؛ وهو من أهل الوفاء فتحمل الديون عن رضى وصبر وأمل، وكانت أم ربيع تعلم قدر هذه التضحيات ، بل أفراد الأسرة كلهم يعرفون ذلك .. فلذلك لما باشرت منى العمل كانت الأم من أسعد الناس ، وصار لديها أمل كبير بتعليم الآخرين من غير الحاجة لأبي أحمد ومال أبي أحمد ، فلسوف تنتهي حاجته للاستدانة من ذا وذاك ، ولم تكن الفتاة الشابة قليلة الوفاء وناسية للمعروف ، فلما استلمت أول مرتب وضعته في حجر أمها الصابرة ، فأشارت عليها بأن تقدمه لزوج أمها ، وتقبل أبو أحمد هذه الحركة بسرور وتقدير وفرح ، وشكر البنت وأمها ، وبعد جدال تقرر أن يبقى المال مع الأم مع جميلة بعد أن يئست من قبول أبي أحمد له ، وأبى أيضا أن يسدد بعض الديون منه .

ولم تكد تمضي سنة ونصف على عمل منى حتى تخرج ربيع من الجامعة ، وبدأ هو الآخر يبحث عن عمل ، لقد درس في قسم الهندسة الكهربائية في كلية الهندسة ، وخلال أشهر يسيرة التحق بإحدى الشركات الكبرى العاملة في مجال الهندسة الكهربائية .. وكبر فرح جميلة ، فها هو جهادها وصبرها بدأ يؤتي أكله وثمره ، وعرضت على قرينها التوقف عن العمل وإغلاق

المحددة والاعتناء بصحته، فقال لها خليل: صحيح أن صحتي لم تعد كالماضي ؛ ولكن يا جميلة لا يليق بي الجلوس في البيت كالنساء.. فحتى بنات اليوم يشتغلن ، ولا يحببن البقاء في البيوت ولا تنسي يا عزيزتي أن الأولاد كبروا وبحاجة لكل دينار وقرش .. أولا لشراء أرض حتى يبنوا لهم بيتا ، وثانيا الزواج ألا تريدين أن يتزوج ربيع كما يتزوج خلق الله؟ .. والعمل الحياة بالنسبة لي يا جميلة ..

وقد حاولت جميلة إقناع خليل فقالت : ربيع لن يتزوج قبل إنـهاء مالك وحنين الجامعة ويعملان وبعد ذلك نفكر بتزويجه .. فأنت كافحت وجاهدت معنا وصبرت معنا يا أبا أحمد فالأولاد راغبون بأن تتقاعد وتستريح فهم يعلمون ويقدرون فضلك عليهم وجهادك معهم .

ـ أنا أقدر تعاطفهم ؛ ولا أستطيع يا عزيزتي القعود فالعمل حياتي .. منذ الطفولة .. وأنا ابن عشر سنين وأنا اشتغل في المحددة مع حياة المرحوم أبي ، ولما مات كنت شابا صغيرا وتحملت المسؤولية ، واستمريت في العمل ، وتعلم أخواي من وراء هذه المحددة ، وأحد أسباب زعلهم مني استمراري للعمل في محددة الوالد رحمه الله .. وسأبقى اشتغل يا جميلة حتى الموت فالأولاد عليهم أن يحافظوا على ثروتهم ويزوجون بعضهم .. ومن حقك عليهم الرعاية والمساعدة .. ولكني أرغب بالاستمرار بتعليم مالك وحنين والمساعدة في تعليمهم يا جميلة كما فعلنا مع ربيع ومنى كما تعهدت لك قديما .

ـ أنا أعرفك جيدا يا أبا أحمد .. بارك الله فيك .. كفيت ووفيت يا سيدي .. ولم تقصر معنا .. وجزاك الله عنا كل خير .. والأولاد لا يمكن أن ينسوا معروفك وفضلك وحسن رعايتك وحبك لهم .

ـ وأنا لا أنسى وقفتكم معي عندما مرضت قبل سنوات ، فكنتم نعم الأهل ، ونعم أهل الوفاء نسأل الله أن يديم علينا النعم والعافية .. الآن فلنفكر بشراء قطعة أرض لبناء بيت مناسب لربيع ولأخيه ثم يفكر بينت الحلال .. خلينا نفرح بأبنائه يا جميلة ..

اعتدلت في جلستها وقالت جميلة : يا أبا أحمد! صبرية أختك منذ أيام قد التقينا وحدثتني عن

منى وأنها ترغب بطلب يدها لابنها عدنان ..

فقال خليل : أنا تكلم معي عدنان مباشرة بهذا ، ونصحته بالابتعاد عنا ، وأنا يا جميلة لا أنصحك بتزويج ابنتك من ابن صبرية .. صحيح نحن تصالحنا بفضل هذا الولد ؛ ولكننا لم نرتح لنسبهم فأنا غير متشجع لذلك .

فقالت : ولكن عدنان شاب محترم ومدرس نشيط .

فقال خليل : ما زلت لا أراه المناسب لكم .. وإذا تكلمت مع البنت في ذلك فأكدي لها أنني لا أرى ابن أختي المناسب لها والبنات كثير .

ـ ما زال في نفسك شيء من صبرية ؟!

ـ لا شيء في نفسي نحوها ونحو زوجها جابر ؛ ولكن زوجها وعائلته لم أرتح لهم ، ولا أحب لكم أن تكرروا التجربة .. وعلى كل حال الأمر يعود لمنى، ولا أظنها ترضى به، فمنى تتطلع إلى فوق أكثر من اللازم .. وأتمنى لها التوفيق .

كانت جميلة قد فاتحت ابنتها بالموضوع قبل أن تفاتح زوجها بالموضوع ؛ ولكنها أحبت أن تسمع رأي قرينها .. وكانت الفتاة قد رفضته فعلا ، وادعت أنها مهتمة بتعليم أخويها والمساعدة في مصروف البيت .. وهل هذا صحيح ؟

الحقيقة أن أحلام منى كانت أكبر من عدنان ، ومن الاقتران بشاب في حي فقير أو يغلب على سكانه الفقر وقلة المال ، حي شعبي غير منظم أنشئ عشوائيا .. حي برقوقة .. كانت تتطلع إلى فوق إلى أعلى .. كانت على علاقة عاطفية مع نائب مدير الشركة الشاب حازم ناصر .. فقد سمحت لنفسها بالارتباط به عاطفيا وعلى وعد بالزواج ، وكان العائق أمامها ليتحقق الزواج منه حياتها في ذلك الحي المتواضع هكذا ترى منى .. وكان حازم هذا يخشى أن يرفضها أهله لأنها تسكن في ذلك الحي .. حي الضعفاء .. فهم يطمعون أن يقترن بفتاة أرستقراطية من بنات الأسر الغنية ؛ لذلك كان هناك قصة حب دافئة تجري فصولها داخل الشركة للتجارة العالمية .. وكانت المديرة أخت حازم تعرف ذلك ، وكانت تحاول كبح جماح أخيها من الاندفاع في عاطفته

وتعلقه بالفتاة .. بل فكرت أن تصرف منى من العمل ؛ ولكن حازما كان يهددها ويصبرها .. فكانت تنظر للموضوع على أنها تسلية وقصة عبثية مصيرها الفشل للفارق الطبقي الكبير بين العائلتين .. فمن أين جاء الفارق الطبقي الاجتماعي ؟ الله أعلم .

وكانت منى ترى أنها ستصعد للطبقة الثرية وأصحاب الملايين على أكتاف حازم العاشق الولهان .. فكانت تنتظر الساعة التي سيرحل فيها المهندس ربيع من حارة الفقراء والتطلع إلى أعلى بفارغ الصبر .. وكانت تحركه وتثيره رويدا رويدا ؛ ولكنه أمام رغبة عمه خليل زوج أمه للبقاء في حي برقوقة ، ولتربيته لهم ونفقته عليهم صغارا أيتاما يضعف عن الرحيل ، ويعود ويطلب منها الصبر والتريث.. كانت منى ترى أن هذا العامل هو الذي يؤخر حازم من الارتباط بها رسميا .. فهو قد حدثها عن أهله وطبقته وصعوبة قبولهم للزواج من فتاة تعمل من أجل الراتب لتنفقه على أهلها .. وقد استرقت السمع على بعض مشاجرات الأخوين من أجلها .. فالشاب متمسك بها ، والأخت ترى أن منى ليست أهلا للزواج من حازم .. وكانت تهدده بكشف الأمر لوالديها فيصبرها حازم ويقول : لما أتزوج أو ترين أني ذهبت للمأذون فتتكلمين مع أمي ..

رغم معرفة منى لهذا الكلام فقد أصرت على أن تكون صديقة للسيد حازم وكانت واثقة من ميله وحبه لها .. هذا السبب الرئيس لرفض منى ساعد ربيع للسيد عدنان جابر ابن أخت زوج أمها خليل ، كل شاب يتطلع للزواج من فتاة محترمة ، وكل شابة تتطلع إلى مثل ذلك .. وكانت منى تدفع حازما لمكاشفة والديه بحبهما عندما كانت تيأس من ربيع أخيها ، فذاك يصبرها حتى يتخرج مالك وحنين مثلهما ، وذاك يصبرها حتى ترحل من حي برقوقة أشهر حي شعبي ربما في العاصمة .

زواج رغم أنف الجميع

لم يمض بضعة أشهر حتى تلقت عائلة خليل بطاقة دعوة لحضور حفل زواج عدنان جابر من ابنة أخت السيدة جميلة صلاح السيدة عزيزة صلاح الآنسة الفاضلة حليمة توفيق ، فقال خليل لزوجته بعدما انتهى من قراءة بطاقة الدعوة : ها هم اتفقوا يا جميلة .. لقد كان أخوك عمار رافضا لهذا الزواج .. لا أدري لمَ؟! فوالد الفتاة كان راضيا وموافقا وقابلا وحتى أختك عزيزة وحتى الفتاة نفسها كما علمنا كانت راضية بالزواج من ابن أختي إلا عمارا لماذا ؟! أسمعت شيئا ؟!

فقالت جميلة الأرملة التي ترملت على أربعة أطفال ، وتزوجت من صاحبنا الحداد خليل المحروم من الذرية لعلل فيه، قالت مجيبة لأسئلة زوجها: عمار رفض؛ لأننا نحن رفضنا أن نزوجه من منى مع أنه ابن أختك ، فظن أن في الشاب عيبا نعلمه نحن ولا نريد إظهاره .. فكيف جميلة زوجة خليل أخو صبرية يرفضون عدنان؟! لابد أن هناك شيئا منعهم.. لم يقتنع أن البنت ترفض الزواج .. فهذا سبب رفضه ومعارضته وإصراره على الرفض .. والله عدنان ولد جيد نحن أبناء حارة واحدة ونعرف بعضنا بعضا .. فهذا حسب علمي سبب الرفض .

ـ هو زارني في المحددة أكثر من مرة راغبا بمعرفة سبب رفضنا لعدنان قريبي فقلت له ما قلت الآن ؛ ولكنه كان يخرج ثم يعود بعد أيام ليسأل نفس السؤال ..

ـ الحمد لله رب العالمين أنه وافق في النهاية .. فعمار مجنون وموسوس مع أنه ليس والدها ولا أخاها وكاد أن يفض السامر .. هداه الله .

ـ العجيب في الموقف يا جميلة أن جابرا والد عدنان لم يغضب ولم يثر وصبر وتحمل .. فجابر رجل عصبي وسريع الغضب والحقد .

ـ جابر كبر يا خليل .. لم يعد جابر الذي تشاجرت معه وحرد عليك سنوات .. الناس تتغير والأولاد أصبحوا كبارا ، وقد أصبح جدا لقد ولدت زوجة ابنه البكر علي .. وهل سيسكن عدنان بعروسه مع أهله ؟

ـ لا ، حدثني بأنه سيستأجر بيتا ، هنا في حي برقوقة .. لا يريد أن يخرج كما فعل أخوه .

ـ كل شيء نصيب وقدر .. أنا كنت أحب أن تتزوج منه منى ، فهو شاب وأستاذ محترم ؛ ولكنها تتدعي أنها لا تفكر بالزواج ..ولن تتزوج حتى يتخرج مالك وحنين من الجامعة .

فقال خليل كأنه محذر من سن زواج الفتاة : كبرت البنت يا جميلة .. المهندس ربيع يستطيع القيام بالواجب وأنا .. فالزواج محمدة وستر يا جميلة .

ـ أعرف يا خليل ؛ ولكني ربيتهم على الحرية والاختيار والقناعة .. فلا أريد أن أهدم ما بنيت فكذا امرأة من الجارات طلبنها لأولادهن وهي لا تريد الزواج .. وقد فهمت من كلامها أنها ترغب برجل من خارج هذا الحي ، ولم يقسم النصيب بعد ..

تبسم المعلم خليل وقال: أحلام منى الكبيرة !..على كل حال وفقها الله ويسر لها ابن الحلال حتى تحقق أحلامها .. فالبنات هم يا جميلة.. ومالك بقي له سنتان ويتخرج ، وحنين السنة تنهي الثانوية العامة بنجاح إن شاء الله .



بعد هذا الحديث بأيام يسيرة كانت سيارة حديثة وفخمة تدخل سوق الربيع وتقف قريبا من محل خليل الحداد ، فلما توقفت تماما هبط منها شاب أنيق ممتلئ البدن يلبس ثيابا تدل على أنه من أبناء الذوات أي الأغنياء سكان الأحياء الراقية جدا ، ومشى نحو دكان خليل وقال : السلام عليكم.

وكان خليل والعاملان اللذان يعملان معه يرمقونه بأعينهم منذ وقفت سيارته الأمريكية ؛ فوقع في نفوسهم أنه زبون قد أتى لحاجة ، فردوا التحية بأحسن منها ورحبوا به ، وتقدم منه خليل مستقبلا ومرحبا فقال : نعم يا أخي .

خلع الشاب نظارته الشمسية وتطلع في شخص خليل ـ خليل تجاوز الأربعين عاما وهو بدين

الجسم إلى حد ما ، منتفخ الوجه يغلب عليه السمرة ، وخفيف شعر الرأس وليس طويلا ـ وقال الشاب بعد تأمله لهيكل المعلم خليل الذي يرتدي ثياب الحدادة : المعلم خليل .. أليس كذلك ؟!

بحلق خليل ثانية في الرجل الذي يراه أول مرة ويعرف اسمه فقال : نعم .. أنا خليل يا أخ ؟!

ـ أنا اسمي حازم .. أنا أتيت إليك في موضوع خاص يا أخ خليل .. لا أريد صنع باب ولا شباك .

ـ لا بأس .. أهلا وسهلا كيف عرفتني ؟!

قال الشاب: سوف تعرف .. أين تحب أن نتكلم ؟

دهش خليل وقال : أين نتكلم ؟! هنا .. تكلم .

تلفت الشاب حوله وقال: هنا يا سيدي! .. ألا يوجد مطعم هنا أو مقهى ؟ موضوع خاص يا أخي العزيز ؟.

ـ أعرف وأنت ذكرت أنه موضوع خاص .. ألا ينفع الكلام فيه هنا ؟ .. هيا نجلس في مطعم حسني يا أخي .

وألـقى بعض الأوامر على العاملين وساق الشاب حازما نحو مطعم حسني .. إنه مطعم سوق وورشات فنية متنوعة ، يوفر للعمال داخل السوق الحمص والفول والخبز والشاي وغير ذلك من المأكولات السريعة النقل .. لما جلسا على إحدى موائد المطعم العتيقة قال حازم: أنا آسف لإزعاجك يا أخ خليل ..أنا صاحب الشركة التي تعمل فيها منى ربيع ابنة زوجتك أم ربيع .

استغرب خليل وعرف أنه يعرفهم جيدا ، وظن أن شيئا جرى لمنى، ووضع وهيئة الشاب لا يوحي بذلك ، وكذلك أدرك لو أنه حصل لمنى مكروه لاتصلوا بالبيت فهاتف البيت معروف للشركة ، فلابد أن الأمر أهم من الاتصال ، فلزم الصمت فعاد الشاب يقول لما رأى خليلا قد صمت ولم يرد بشيء: أنا يا سيدي لديّ رغبة بالاقتران بها ، ولما حدثتها بذلك طلبت مني الحديث معك ؛ لأنك أنت بمقام والدها ـ رحمه الله ـ فهذا سبب زيارتي إليك ومعرفتي بك

بشخصك الكريم واسمك الفاضل .

فكر خليل لحظات بما سمع وقال : هي أرسلتك إليّ ؟ .. هل يعني هذا أنها موافقة على الزواج منك .. يا أخي ؟!

ـ أكيد ؛ ولكنها تكن لك الود والاحترام ، فجعلت الأمر إليك ، وسأكلم والدتها وأخاها ربيعا أيضا ؛ ولكنها أحبت أن أبدأ بك .

فتمتم وغمغم خليل ببضع كلمات ثم قال : عرفنا بنفسك وبأهلك ، ثم فليأت أهلك للحديث معنا في البيت ..هكذا الأصول يا ابن الأصول !

ـ منى ربيع لها ثلاث سنوات تعمل معنا في الشركة يا أخ خليل ! فنحن نعرف بعضنا بعضا من سنوات .. فهي ستذكر لكم شيئا عني وعن أهلي وسنتعرف على بعض أكثر يا أخي أبي أحمد

تبسم خليل ابتسامة كلها امتعاض وقال : تعرفون بعضا بعضا .

ـ نحن زملاء عمل لا يذهب ظنك بعيدا يا سيدي .. نحن أشراف لا نحب العبث والتغرير بالبنات.

قال خليل : آ .. أكيد الإنسان عندما يسمح لأخته أو ابنته بالعمل والشغل لابد أن يدرك أنها تزامل وتصاحب الشباب وتختلط بهم .. أكيد .. حسنا أيها الشاب بارك الله فيك .. سأتكلم الليلة مع منى وإخوة منى وأم منى .. والنصيب هو الذي يغلب في النهاية .

قام حازم وهو يصافح الحداد خليلا قائلا : أشكرك يا سيدي ، وقد سهلت عليّ الكثير من الأمر تأكد يا أخ خليل أن منى فتاة محترمة وطيبة وذكية .

هزّ خليل منكبيه وهو يصافح الرجل وقال : أكيد .. أيضا .. بارك الله فيك عندما يأتي أهلك ونتفق سندعها ترد بنفسها عليك .

خرج الشاب من المطعم شاكرا وزائحا عن كتفيه عبئا كبيرا ؛ لأنه أخذ يجفف عرق جبينه وهو يسير نحو سيارته ، وظل خليل يهز رأسه مرات ومرات وهو يتابعه بعينيه وقال متبرما : بنات اليوم أمرهن عجيب يخطبن في العمل! .. لماذا لم تطلب منه أن يرسل أهله للبيت اختصارا

للوقت ؟! .. أيام وسأكتشف لغز هذه الزيارة .

تعمد المعلم خليل أحمد التأخر في العمل ذلك المساء ، ودخل البيت بعد صلاة العشاء ، ولما تناول العشاء مع أم ربيع جلسا في صالة البيت ، وتناسى موضوع منى وتشاغل بالحديث عن آخر أخبار العالم من انقلابات وثورات وحوادث جسام ، وبعدما انصرف الأولاد لحجراتهم ودراستهم تطلعت جميلة بعيني خليل بضع مرات ثم لم تعد تصبر فقالت : يا أبا أحمد أزارك أحد اليوم ؟!

كان خليل يدرك أنه آخر من يعلم في موضوع منى ، وكان يرى أن جميلة هي التي طلبت من ابنتها أن تطلب من حازم أن يذهب إليه ويجامله ، كان لديه إحساس قوي أن الأمور جاهزة ، وأن جميلة تعلم ، وأنهم يريدون مجاملته وإشعاره بأنهم لا يعملون شيئا إلا بإذنه ؛ ولكنه يعرف حجمه وأنه هو مجرد زوج لأمهم ، والأمر كله بأيديهم أو لمنى نفسها ؛ لأنها منذ تخرجت واشتغلت وأصبحت تملك المال وتحملت المسؤولية ظهرت شخصيتها المتمردة والآمرة ، وكان خليل يتجنب الصراع العائلي ، وكان حكمته أنها أيام وسينصرف كل مخلوق لحياته ودنياه ، ستتزوج منى وحنين وربيع ومالك وسيصفي البيت خاليا منهم خلال سنوات ، فهو والدهم بالتربية والنفقة ، فتظاهر خليل بالتجاهل عندما سمع السؤال ؛ ولكنه أمام إلحاح زوجته قال: أتقصدين شخصا معينا يا جميلة؟ فأنا زارني عشرات الأشخاص والناس .. من جيران العمل وأصحاب شغل كما تعرفين .

ـ ليس هؤلاء .. قالت منى إن صاحب العمل أو الشركة التي تشتغل فيها راغب بالزواج منها وإنها أرسلته ليتحدث معك .

ـ آ .. الأخ حازم ! نعم لقد أتانا هذا الشاب صاحب السيارة الأمريكية الفارهة .. نعم تذكرت لقد جاء يا جميلة وقلت له لما نتشاور؛ ولكني أرى أن الأمر لا يحتاج لمشاورة .. فالبنت ما دامت قد بعثته إلينا فهي موافقة ، وقد قال لي إنه صديق أو زميل لها منذ ثلاث سنوات.. والأمر لكم يا جميلة .. أنا كل هذه اللفلفات لا أحبها .. ما دامت هي منسجمة معه وتراه مناسبا ، فلماذا لم

تطلب منه أن يرسل أهله لنتفق ونخبر أعمامها وأخوالها ونخلص الموضوع ؟

قالت بارتباك واضح في كلامها : ما المشكلة هي في أهله يا خليل !

ـ أهله ما لهم ؟!

ـ الشاب راغب بالاقتران بمنى ، ومنى لا تمانع بذلك ؛ ولكنّ أهله وأخته مديرة الشركة يرفضون هذا الزواج ويعارضونه .. لأننا من سكان حي برقوقة .. أسمعت بمثل هذا العيب والعذر يا خليل؟! .. شهادة البنت لا تكفي عند هؤلاء البشر.. وهل الناس بأماكن معيشتهم ومنامهم ؟!

فقال خليل وهو ممتعض مما يسمع : هؤلاء الأثرياء يا جميلة لا يعتبروننا بشرا مثلهم ، كما نحن لا نحبهم ، فالأفضل للإنسان أن يلبس من ثوبه .. شبان الحي أفضل وأحسن .. وأنا لو منى ابنتي لا أقبل لها الاقتران بمثل هذا الرجل ، فهؤلاء ينظرون إلينا من فوق.. وما دام أهله ممانعين وغير قابلين للزواج فلتنساه وتشتغل في مكان آخر ..

ـ المشكلة الكبرى أن منى تريده ! .. وتريد الزواج منه بدون موافقة أهله .. كما هو مصر ويتحدى أهله ..

فاستغرب خليل من هذا المنطق وقال بنبرة غاضبة : يا سلام!.. يا سلام!.. أنا أرفض هذا الزواج بهذه الطريقة .. أهله يجب أن يأتوا لطلبها منا ومن إخوتها حسب عادات الناس .. هل شاورت المهندس ؟!

ـ المهندس محتار وترك الأمر لك فأنت أبو العائلة ؟

ضحك خليل كأنه سمع نكتة وقال: لي!.. أنا زوج أمها لست وليها ، فأولياؤها إخوتها وأعمامها .

ـ دعنا من أعمامها .. اليوم سيصير لها أعمام! أنت عمها وخالها وأهلها .

ـ إذا جاء أهله يخطبونها ربما نوافق يا جميلة! زواج من وراء الأهل غير صحيح وخطأ كبير لا يقبل به عاقل سليم المخ ..

ـ أنا تكلمت معها بكل هذه الأفكار ؛ ولكنها تتدعي أن سعادتها ستكون مع ذاك الإنسان ..
صاح فقال : أي سعادة يا امرأة ؟!.. نحن في مجتمعات شرقية .. للأسر دور في حياة الزوجين فكل خلل سيعود علينا ؛ لأنها ستعود إلينا .. ففشل هذا الزواج سيكون كارثة للبيت ولنا .
ـ قالت إن الأوراق الرسمية تحفظ الحقوق والتبعات.
ـ أي حقوق؟! السمعة يا امرأة سمعتنا ! .. أنا غير مقتنع بزواج بدون رضى والديه وأسرته ..
الأم قلقة وخائفة فقالت: تقول منى إن الحياة تتطورت، والمهم رضا الزوجين ، وهو له زمن يحارب أهله ويتحداهم ، وهو متمسك بها ، وله زمن طويل يقنع فيهم وهم متمسكون برأيهم
ـ نصيحتي لك ولابنتك أن تنسى هذا الزواج .. حتى لو عاشا في بيت بعيد عن أهله .. فالحياة الاجتماعية ستكون لصيقة بهم زيارات مناسبات أعياد .
تحدثت منى مباشرة مع زوج أمها لما نقلت لها أمها رفضه على الزواج بدون مجيء أهله لطلبها وحاولت إقناعه بوجهة نظرها بالزواج بحازم الذي تحدى أهله من أجلها ، فلم يقتنع خليل بكل حججها، وغضب منها حتى اضطرته أن يرفع صوته فيها ، وتكهرب الجو في البيت مما دفع المهندس أن يستسلم لرغبتها عندما سمعها تهدد بالزواج منه دون موافقتهم فوقف معها ، فزاد التوتر داخل البيت وعلى أثر ذلك قرر المهندس أن يرحل من البيت ، وحاول مالك وحنان تهدئة التوتر والغضب ؛ ولكن منى رفضت الانصياع لرغبتهم ، وأصرت على الزواج بالطريقة التي تناسبها دون تدخل من أحد .. وأمام هذا الواقع الجديد انفعل خليل ورمى يمين الطلاق على جميلة .
وخلال أيام يسيرة رحلت الأسرة من الحارة من بعد أن تتطورت الأمور بين خليل الحداد وجميلة التي لن تتخلى عن الحياة مع أولادها .
ثم تزوجت منى من صديقها في الشركة الشاب حازم ناصر شاكرني .
لقد اختارت جميلة الأولاد على زوجها الذي كافح معها حتى علم لها أولادها .. هل هذا وفاء

أم عقوق؟ أم أن الظروف قست على الجميع؟ وليس القبول بطريقة منى بالزواج مقبول لدى المعلم خليل .. هل هذا السبب ؟!



اهتز حي برقوقة لطلاق الحداد خليل وجميلة ، فقد كان ينظر لهذه الأسرة بعين الاعتبار والمثالية وكانوا يقولون عن أولاد جميلة أيتام خليل فقد رعاهم صغارا وأنفق عليهم حتى شبوا ودخلوا الجامعات ، فقد كان الانفصال ضخما هزّ الناس ، ولاموا أيتام خليل عن تخليهم عنه والانصياع لرأي أنثى .. ولكن أمام هول الحدث في نظر خليل كان لابد من الفراق .. الأم اختارت الأبناء لا يربطها بخليل أي رباط إلا رباط الزواج ، فليس بينهما أولاد يربطونهما معا ، فضحت بزوجها من أجل خاطر أولادها .. وقد لامها كل أهل الحي حتى أخواتها ، وعابوا زواج ابنتها بدون رضا وعلم أهله .. وهم رضخوا للأمر الواقع خوفا من الفضيحة ، وتمرد منى على تعاليم الأسرة ، ورميها التقاليد والاعتبار لفلان وفلان في عرض الحائط ، فهي مصممة على الزواج من السيد حازم معتقدة أنها مضحية مقابل تضحية حازم وتمرده على رفض أمه وأبيه ، أمام هذا الإصرار والعناد استسلم المهندس ربيع ساعد ربيع لزواج أخته من حازم ناصر شاكرني ، وأمام عناد خليل كان الانفصال بين الزوجين ليتم زواج أخطر من طلاق جميلة عندهم ، فالأولاد لا يمكن لهم الحياة بدون أمهم ، فبلع خليل الضربة والتضحية ، وعاش مصدوما بضعة أيام ؛ ولكنه في قرارة نفسه انتصر لكرامته وتقاليده ، ولا يقول عنه الناس إنه إمعة لا رأي له .. وبدأ حدادنا يبحث عن امرأة جديدة ، فلم تكن جميلة الزوجة الأولى في حياة المعلم الحداد خليل .. فمشكلته الكبرى عدم قدرته على الإنجاب ، وكان سببا لزواجين فاشلين قبل جميلة ، سعى بعض الأصحاب والأحباب والجيران لتزويجه لما رأوا حزنه على فراق الزوجة والأولاد الذين كانوا يطلقون عليهم أيتام خليل لحبه لهم وتربيته لهم ، وقد رفض الحداد الخضوع للواقع

والاستسلام لزواج مثير وقلق، فكان يقول لمحبيه قدر الله وما شاء فعل .. الذل كفر وملعون
ولم تمضِ على تطليقه أم ربيع بضعة شهور حتى كان أهل الحي قد زوجوه من امرأة اقتربت من
الخمسين ؛ لتقوم على رعايته وخدمته وتغسل ثيابه وتصنع طعامه ، فعادت الحياة رتيبة وطيبة
في بيت خليل ؛ وكأنه نسي مأساته أو تضحيته بجميلة ، ولم يندم على أي فلس أو قرش أنفقه
عليهم جميعهم ، فقد احتسب كل ذلك عند الله ، فهو عندما تزوجها قصد كفالة أيتـامها
وكان وضع خليل وقصته مع أيتامه يشف صدر شخص حقود وناقم على خليل ، وهذا
الشخص معروف لكم وهو جابر والد الأستاذ عدنان ابن أخت خليل ، وقد مر ذكرهم الذي
كان يقول لابنه عدنان : أرأيت يا ولد ما فعل أولاد الأرملة بخالك ؟ أرأيت البررة ؟! ألم أقل
لك غدا سيرمونه وينبذونه نبذ النواة .. خالك رغم قوته مسكين طيب ومغفل كبير .
فيجيب عدنان : مأساة! بل كارثة كبرى هزت كل حي برقوقة .. وعلى كل حال خالي جمل
المحامل يا أبي .. لقد علم إخوته وكبرهم وأنكروه ولم يتعرفوا عليه .. قلّ الوفاء في هذا الزمان
يا أبي .. لقد صدمت وأنا أسمع أخبار خالي .. ولكنه صبر صبر الرجال .. إنه جبار يا أبي ..
هذه الفتاة التي فكرت يوما بالزواج منها دمرت العائلتين .. الحمد لله الذي نجاني منها .
ضحك جابر وقال : يا ولد لا تنسى أنك متزوج ابنة خالتها فانتبه لنفسك .
ـ ليس كل الناس واحدا يا أبي .. والله الأمر عجيب وغريب ! .. كانت جميلة مضرب المثل في
الحارة يا أبي وكذلك أولادها .. البنات مشكلة وبلاء !
فأعجب جابر بتعليق عدنان فقال منفسا عما يكتمه في النفس عن البنات : البنات يا ولدي
يقصمن الظهر.. والاختلاط بالرجال وأصحاب المال يفعل المصائب، والقصص والحكايا
كثيرة ؛ ولكن خالك العرة تزوج هذه المرة من امرأة لا أولاد لها .
ـ هي عاقر كما يقال ، تزوجت من قبل ثلاث أو أربع مرات ، ويقال إنها امرأة محترمة ومتدينة
ولكن صحتها ليست كما يرام.
ـ خمسون سنة ولا تكون متدينة! مسكين أبو نسب ! مسكين يا أبا أحمد والله مسكين! .. أنا لا

ألوم البنت منى .. فالهوى غلاب كما يقال ؛ ولكن أخوتها ربيع ومالك كيف رضخوا لرغبتها وهواها .. أين الرجولة ؟!

ـ يا أبي هم خشوا الفضيحة أن تتزوج رغم أنوفهم ودون مشورتهم.. فالفتاة كما فهمت من بعض الناس وحتى زوجتي كانت مصرة على الاقتران من المدعو حازم تحديا لأهله وتمسكا به فالشاب يريدها مع شدة رفض أهله من زواجه من حي برقوقة .. كأن حي برقوقة من دنيا أخرى وسكانه من كوكب المشتري .. وأيضا يقال إنهم أصدقاء وعشاق منذ أول يوم اشتغلت فيه بنت جميلة في الشركة .

ـ الناس يا عدنان تسمع وتتحدث.. وربك هو الستير.

ـ ما هم إلا جيراننا وأصدقاؤنا ، وربيع مجروح ، والله يوفقهم ، وقد رحلوا من الحارة ، ولكن قصتهم للأسف على كل لسان ولم ترحل معهم.. فالناس لا ترحم ولا تعذر .. فتقول زوجتي إنهم استأجروا فيلا في شارع الخضر في حي رحمات وهو من الأحياء الحديثة والراقية في العاصمة الكبيرة.. سهل الله لهم الأمور.



تزوجت منى من الشاب حازم ناصر في حفل صغير ، حضره قليل من الأصدقاء والمعارف ، فهم يعرفون ظروف هذا الزواج ، فلم يحضر والداه ولا إخوته وأخواته حتى أخته عبير مديرة الشركة لم تستطع أن تحضر وتخالف أوامر الأم فاطمة ، ولا أحد من أقارب الزوج ، وذكرنا أن خليلا تزوج من امرأة اسمها حسنية طلقت بضع مرات ، وذكرنا تزوج عدنان من ابنة أخت جميلة ، وكان زواجه خلال العاصفة التي عصفت ببيت الحداد خليل .

ولما تزوجت منى رحلت لبيت زوجها ، وهدأت المشاكل والكلام الحاد الذي كان يجري بين مالك وحنين من جهة ومنى من جهة أخرى ، ويتهمونها بالأنانية والنرجسية ، وكان الشاب

ربيع يفكر بعد زواج منى بإعادة المياه لمجاريها بين والدته والسيد خليل فرفر ؛ ولكنه لما علم بزواج خليل قفل على الموضوع والتهى بشغله وتعليم مالك وحنين ، ولما علمت جميلة من ابنة أختها التي تزوجت عدنان ابن أخت خليل بزواج خليل أحست بغلطتها الكبيرة ، وشعرت بالندم وأصابها الاكتئاب والألم ، فهي كان عندها أمل بأن خليلا بعدما يسمع بزواج منى سيأتي ويصالحها وتعود معه لحي برقوقة ، فهي قضت معظم عمرها فيه ولادة وزواج وأولاد.. وأنه بعد زواج منى لا يلومه أحد بإرجاعها لذمته وعصمته ، ولكنها مع انتشار خبر زواج خليل تباطأت بالمصالحة ولزمت الصمت والحزن .. فهي تدرك كم من التضحيات قدمها خليل لها ولأولادها حتى يكبروا ، بل منى أكثر واحدة أنفق عليها حتى تتعلم لأنها البكر.. أعمامهم تخلوا عنهم، وأخوالهم ساعدوا بالشيء اليسير.. خليل كان لهم نعم الأب والرجل .

كانت تفكر بطريقة ترد له الجميل والمعروف ، ورغم ما شجر بينهم لم يقل لهم هاتوا ما أنفقت عليكم من مال .. فكرت ولم تتوصل لطريقة لائقة ، فخليل رغم طيبة نفسه ؛ ولكنه عنيد وعزيز النفس ، وأمام هذا الهم الذي غمر تفكيرها فاتحت ولدها ربيعا لعل لديه طريقة ما يردون له بعض المال مقابل المعروف الكبير الذي تركه في أعناقهم .

فقال: كنت أفكر يا أمي بأن أردك إليه عندما تسكن العاصفة التي صنعتها منى ؛ ولكن أهل الحي وأصدقاءه أسرعوا فزوجوه ، ولو أرسلنا له مالا فلن يقبله، فأنت تعرفين عزة نفس المعلم خليل يا أمي .. لا أعلم طريقة أو حيلة نرد له فيها بعض فضله علينا .

ـ فكر يا حبيبي ـ رضي الله عنك ـ بطريقة بحيلة بوسيلة .. أنا لست نادمة على الطلاق ، فأنا بعد وفاة والدكم رفضت الزواج ، ولم تعد بي رغبة للرجال يا ولدي.. كنتم أنتم حياتي ودنياي ولما تعهد لي خليل أمام إخوتي بتعليمكم وافقت على الاقتران به والزواج ثانية ؛ ولكن أختك وضعتنا في موقف حرج وصعب.. على كل حال هي تزوجت.. الله يستر عليها ، وأتمنى لها ولكم التوفيق ؛ رغم أن هذا الزواج الغريب حصل ما زلت أجد في نفسي منه قلقا وخوفا .. فأخشى أن يجبره أهله بعد حين على طلاقها، ويعتبروها نزوة شاب وانتهى الموضوع بالنسبة

لهم ، وتبقى منى ونحن بحسرة هذا الزواج القلق.. فهؤلاء الأثرياء ليس عندهم أمان .. فهم ينظرون إلينا من أعلى .. ولكن منى مفتونة به ؛ كأنه لم يخلق رجل غيره في الدنيا .

تنهد المهندس ربيع ربيع وقال: سامحها الله يا أمي .. وهذا الشعور يراودني أنا أيضا يا أمي .. فمنى تعتبر حازما سلما للصعود لطبقة رجال المال والأعمال ، لو اشتغلت بالتدريس وبحثت عن زوج وبيت هادئ لكان خيرا ..هي لا تفكر بالأمومة والأولاد تحلم بالفلوس الكثيرة والطائرات .. أنا كنت أظن أن هذه أحلام يقظة ومراهقة ، عندما كانت تحلم أمامنا بالقصور والعمارات وأخبار رجال المال في المجلات والصحف .. على كل حال يا أمي زوبعة ومرت ، وسامحينا عما سببناه لك من ألم وجرح خلال هذه الشهور الصعبة .. فلم أجد أمامي إلا أن أقف مع منى .. فمنى كانت ستتزوج من المحترم حازم شئنا أم أبينا .. فلو رفضنا وتزوجت رغم أنوفنا .. فسيكون عار علينا أشد مما حصل ، وسيلازمنا طول حياتنا .. فهذا ما دفعني للتحيز لها أمام والدنا أبي أحمد وأعمامنا وأخوالنا وحتى مالك وحنين ، قد وضعتنا في موقف حرج للغاية .. فخليل أحمد ركب رأسه رغم أنني ترجيته ألف مرة ، وحاولت تهدئة ثورته وإقناعه بالحسنى ؛ ولكنه غلط في حقنا ووصف هذا العمل بالزنا والفاحشة .. زواج بدون رضا الأهل ما هو بزواج في رأيه وكان يقول هل نحن في أوروبا في أستراليا في أمريكا ؟!

مسحت جميلة دمعة نزلت على خدها وقالت : كانت أيام صعبة يا ولدي.. وليس أمامي إلا اختياركم والانحياز إليكم .

ـ منى كانت وجهة نظرها أن حازما قد ضحى من أجلها تضحية كبيرة ، تحدى أهله وأصر على الزواج منها ألا يستحق أن تضحي هي من أجله وترفس كل التقاليد والعادات البالية ؟

ـ المهم يا ابني ألا تترك هذه الزيجة في نفسك شيئا نحوها ، فأنت الكبير وسيد العائلة ، فمالك ما زال صغيرا خبرته بالدنيا قليلة .. فالبنات تغلبهنّ العاطفة .. فهي رأت تحدي الشاب لأهله أمرا كبيرا وخطيرا .. فهو في عينها قد رفض الاقتران من بنات أصحاب والده المليونير ولا من قريباته .. هؤلاء الأغنياء الكبار وأصحاب الملايين كما نرى في المسلسلات والتلفزيون لا يحبون

الفقراء والزواج منهم .. فنحن عندهم قوم متخلفون جرب وهم آخر طراز أو موديل أدعو الله تعالى أن تستقر في حياتها الزوجية ؛ ولكن يا أمي يا حبيبي أموال أبيه وأمه لا يستطيع أن يتخلى عنها من أجل امرأة ..

رد ربيع : هذا ما يقلق .. ميراث كبير لدى أبيه وأمه ! ولا شيء لدى منى منها !

ـ سلم أمرنا إلى الله .. هي التي اختارت ورضيت رغم الحجج والأمثلة التي سردناها على مسمعها أنا وخالاتك وعماتك ولكنها أبت أن تسمع ..



سقوط الحلم

كانت منى ربيع الشابة الحسناء ذات الخمس والعشرين سنة ترى نفسها فتاة مثقفة خريجة جامعة لغة أجنبية ، عانت من الفقر وظلم المجتمع عند وفاة أبيها ، أهل أبيها تخلو عنهم إلى حد ما ؛ لأنهم فقراء مثلهم ، والوالد تركهم من غير ثروة وميراث ، فكانت تحلم بأن تصنع مستقبلها بيدها، وأن لا تعمل موظفة في مدرسة براتب محدود ، وهي كانت تنتظر تخرج أخوها من الجامعة لتبدأ في تحقيق بعض ما رسمته في مخيلتها ، فلما التقت بحازم ابن مدير إحدى الشركات التي يملكها والده رأتها فرصة لأن تصير شيئا ما في هذا المجتمع الذي يحترم أصحاب المال ، بل في كل زمان لأهل الثروة احترام وتبجيل .

كانت تريد أن تتحدى التقاليد التي درج عليها الناس ، وكانت ترى أن حازما المحب لها قد تحدى أهله الأثرياء ملاك الأموال الكثيرة ، وأنه قد عاداهم من أجلها فلماذا لا تكافئه على الأقل بالخروج على التقاليد؟ وقد بادلته الحب ، فهي تقول لنفسها إنها لم تر أنها تعشقه العشق الذي يتحدث عنه العشاق والشعار ؛ ولكنه في نظرها مشروع زواج جيد ، ويضعها على طريق تحقيق الأحلام الكبيرة وتزوجت بفتى الأحلام .. وكان الشاب الذي قضى ثلاث سنوات بقربها محاولا أن يعيش معها قصة عشق وغرام قد فشل في ذلك ، وأن لا سبيل له على جسدها إلا بالزواج الشرعي .. وكان حازم في أول الأمر عند الزواج بعدما سكنت نفسه إليها مقدرا لها هذه الشجاعة والقوة ؛ ولكنه كان في قرارة نفسه يخشى ردة فعل العائلة أمه وأبيه .. أمه فاطمة كانت أشد رفضا لزواجه من فتاة فقيرة مع أنها لم تكن فقيرة عند الزواج ، كان لها ثلاث سنوات تعمل في شركتهم.. ووافق قول أمه هوى في نفس أبيه ناصر .. فهو ابن رجل ورث الثروة والمال الكثير عن الأسرة .. فوالده صاحب مشاريع وصناعة ، وهو كان دكتورا يدرس في الجامعة ثم استقال من التدريس وبدأ يعمل في السوق .. وكان قد تزوج امرأته فاطمة أخت أحد أصدقائه الكبار وأحد زملائه في الجامعة عندما كانا يدرسان معا ، وهي أيضا تحمل شهادة عليا .. فزادت ثروته وثروة العائلة ، فكل إخوته يماثلونه في الشهادات العلمية والمال .. فكانت فكرة زواج

أحد أبنائه الأربعة من فتاة بسيطة موظفة لديهم فكرة عقيمة وسيئة .. ولم يقتنع بوجهة نظر ابنه فنفرت العائلة من هذا الزواج ، واعتبروا الفتاة صائدة رجال طامعة في مالهم ، وأنها افترست ولدهم حازما .. فحاولوا صد ومنع هذا الزواج بالحوار والجدال .. ولكن الشاب المتعلم لم يقتنع بأي حجة لهم ، وأصر على أخذ حريته الكاملة في الاختيار لشريكة العمر .. وتم الزواج كما ذكرنا آنفا رغم أنف الأسرة ولم تشارك العائلة ولو مجاملة بفرح حازم حتى أقاربه وأعمامه فهم ليس على استعداد لعداء ناصر وفاطمة فقاطعوا حفل الزواج .. فغضب حازم منهم ، وكان يظن أنه عندما يضعهم تحت الأمر الواقع سيستسلمون وينصلح الحال .. فاستمر العناد من الفريقين ، وظل على تحديه للكبار وتزوج فتاة الأحلام ، واستأجر شقة واسعة في إحدى الضواحي .. ولما حصل الزواج ، ورأت العائلة ذلك الواقع فاعتبروا ذلك هزيمة لهم .. طلب الوالد ناصر الغاضب منه بعد حين من زواج ولده بأن يترك العمل في الشركة وكل شركاته الأخرى ، ففصل هو وزوجته .. فقامت منى باختلاس زيارة للوالد في عمله فطردها شر طردة واتهمها بسرقة ولده ، ولم تجدِ دموعها نفعا .. وقام حازم بفتح شركة باسمه الخاص مصنع مواد غذائية .. استأجر أرضا وأنشأ عليها مخازن كبيرة واشترى ماكينات وسيارات نقل وتوزيع .. ولكن هذه الشركة بعد أشهر تعثرت ، فهو وإن وجد المخازن والمال فالاستثمار ليس هينا ويحتاج إلى صبر ودراية ؛ وعندئذ بدأت عواقب تحديه للعائلة تظهر أمامه .. هل يستسلم للعائلة ولوالديه ؟ .. حاولت منى قدر استطاعتها أن تقوم مع زوجها بما يلزم ، بذلت كل أموالها لمساعدة حازم ، وكانت تقترض من أهلها وخصوصا أخيها ربيع ، ولما انهارت الشركة ذهبت الأموال .. وصل الأمر بين الزوجين للانفصال .. ولكنهما أصرا على العناد ، فكابرا وفكرا بالهجرة إلى أمريكا الشمالية .. وأخذ حازم يسعى في ذلك ، وبواسطة قريب له هناك تمكن من الرحيل وحده .. وترك منى عند أهلها بعد أن أخلى الشقة التي عجز عن سداد أجرها لبضعة شهور.

كانت جميلة وأولادها يتعجبون من تصرفات أسرة حازم وتعاليهم وعدم وقوفهم مع ابنهم ،

وفوق ذلك كان الشاب حازم يرفض فكرة الإنجاب المبكر، فلم تحمل منى خلال هذه السنة والشهور الصعبة .. فبعد سفر زوجها إلى أمريكا عادت تبحث عن عمل مؤقت حتى يرسل لها حازم أمرا بالسفر ويرسل لها تأشيرة دخول تلك البلاد .

وقد استفادت منى خلال شهور الزواج ، ومن عشرتها لحازم شرب الخمر والتدخين.. فلما استقرت في البيت عند العائلة وقف أهلها ضد هذه الأفعال الخبيثة بشدة .. ولما أصرت على ذلك طلب منها أخواها مالك وحنين الحياة وحدها بأن تستأجر بيتا وتسكن وحدها .. وفعلا استأجرت شقة بعدما استلمت عملا يدر عليها دخلا .. وكانت الشقة المستأجرة قريبة من بيت إخوتها .. وكانت منى ترى أحلامها تتحطم ، وأن الصعود على أكتاف حازم قد فشل .

كانت جميلة حزينة وحائرة في أمر ابنتها وما وصلت إليه من الضعف والهزال والكآبة ، وما تحمله من هم ، ولم تفرح بزواجها الذي ضحت من أجله ، فهي حزينة لحزن ابنتها وجرحها الأليم وحائرة في تصرفاتها وتعلقها بالخمر الذي لم يعهد في بيتهم من قبل زواجها ، وبين الأولاد الذين لا تعجبهم تصرفات منى ، فهي حائرة ماذا تفعل ؟!

وبعد رحيل منى وحياتها في شقة وحدها قريبة من بيت أمها في حي رحمات .. سافر المهندس ربيع بعد أن عقد قرانه على ابنة خاله سعيد .. فتاة تعمل مُدرسة في مَدرسة .. فقد سافر إلى إحدى دول البترول العربي للعمل في إحدى الشركات .. فهل هو يهرب من مشاكل العائلة أم بحثا عن دخل أفضل ؟

فلما كانت منى تزور أهلها بعد سفر ربيع لم تعد تلقى الترحيب الذي كانت تلقاه من ربيع ، فكان مالك يقابلها بوجه متجهم يتكلم معها بنبرة غاضبة إن لم يكن فيها احتقار ، وهذا تراه أيضا من أختها الصغيرة حنين ، وجل كلامهم يدعوانها للعودة للصواب وترك التبغ والخمر والسكر ، فتثور وتنفعل وتطلب منهم بحدة وضيق أن لا يتدخلوا في حياتها وأن ذلك شأنها ، ثم تغضب في نهاية الجلسة وتنصرف لشقتها ودعوات جميلة تلاحقها داعية لها بالهداية والسكينة كل زيارة مشاجرة ، وتحتج عليهم بأنها تصرف على نفسها وشهواتها من مالها وتعبها ، ولا تأخذ

منهم مليها واحدا ، ويغضب منها أيضا الأخوان حتى أن مالكا في إحدى المرات لطمها على وجهها وهو يقول غاضبا : أنت أنانية ودمرت حياتنا وسمعتنا بزواجك المهين والتعيس .
فتبكي وتهيج ثم تحرد على البيت بضعة أيام أو أسابيع ثم تعود.. وكانت جميلة ترى ما يحدث لهم عقابا لهم لنبذهم خليل وتخليهم عنه.. فتلزم الصمت والبكاء .



وكانت أخبار حازم المهاجر التي تأتي لا تسر بعد ، فهو لم يوفق في عمل مناسب.. وتعلق الشاب بالمخدرات والنساء حتى أن حالته الصحية تدهورت بسرعة وساءت ، فأرسل قريبه أخباره لوالديه ، ثم هو أرسل يستجدي والده وأمه أن يصفحا عنه.. فصم الوالد العنيد أذنيه وأرسل إليهم قريبهم ثانية أخباره السيئة وتعلقه بالمخدرات والماريجوانا وعصابات المخدرات فطلبت فاطمة الأم بعد صمم من ناصر التصرف.. فوافق الوالد على عودته وعلاجه إذا تخلى عن زوجته منى وطلقها قبل عودته للبلاد.. ولما علم حازم بذلك الشرط وافق عليه .. وعاد للبلد بعدما أرسلت ورقة الطلاق لمنى عن طريق المحامي .
تلقت منى ورقة الطلاق بهدوء وسكينة فهي كانت تتوقع هذه النتيجة ، وكادت أن تحصل قبل سفره ؛ وذلك عندما فشل مشروع الشركة الذي أغرق حازما بالديون ، فهو قد كان يحملها مسؤولية فشله ومعاداة والديه لهما.. ولكنهما كانا يكابران ويعاندان .. أما الذي تأثر وتألم كثيرا بطلاق منى أمها جميلة مع إحساسها القديم بذلك ؛ فهي التي ذرفت الدمع الغزير.. أضحت الأم مطلقة والبنت مطلقة .. وعرفت حينئذ معنى إصرار خليل أحمد على عدم زواجها بدون موافقة والديه ومجيئهم بأنفسهم لطلب يدها .
منى لم تعرف أن حازما قد عاد من أمريكا ليعالج من المخدرات والكحول التي أفرط فيها ، فهي ظنت أنه طلقها وظل هناك عند قريبه ومعارف أبيه ؛ ولأن إجراءات طلاقها قام بها محامي

ناصر شاكراني .

حاول مالك الشاب الذي تخرج من كلية الحقوق حديثا ليكون محاميا انتشال منى أخته من صدمتها ، وفتح صفحة جديدة مع الحياة والعائلة ؛ ولكنها أبت العودة للبيت والحياة مع مالك ومواعظه وتوبيخه وحتى تجريحه وسخريته.. ورفضت ترك الخمر والدخان والسهرات وأصرت على الاستقلال بحياتها ، ولو كانت وحيدة .. وقد أرسل إليها ربيع عددا من الرسائل المواسية والحاثة على التوبة وترك المكابرة والعودة للبيت ، ولكنها اعتذرت لأخيها ربيع بلطف لم تكنه له من احترام خاص ، وأعلمته أنها ستبقى مستقلة عنهم عن الأسرة ، وعرض مالك عليها عرضها على طبيب نفسي فرفضت بشدة ، وزاد غضبها منه مع أن قصده شريف وهو مساعدتها للخروج من أزمتها النفسية .

وذات يوم وبينما هي في مقر عملها في إحدى الشركات دخلت أخت طليقها حازم عبير ناصر وبينما عبير تبحث بعينها في أطراف القاعة تفاجأت المديرة السابقة لمنى برؤيتها ؛ ولكنها أمام الموقف حيتها وابتسمت لها ، فتركت منى مقعدها وخرجت ترحب بها وتسلم عليها وصافحتها قائلة : كيف حالك يا عبير ؟ ما أخبار حازم اليوم ؟ وكيف أمريكا ؟!

ردت عبير قائلة : الحمد لله .. كيف أنت ؟ وهل لك زمان تعملين هنا ؟

ـ الحمد لله أنا بألف بخير .. أعمل هنا فقط منذ سافر أخوك أمريكا ..

ـ مسكين حازم يا منى! .. لقد دمر وهلك .. ألم أنصحك يا منى أن تبتعدي عنه؟! .. أنا أدرى منك بأمي وأبي يا منى .. ولكنك للأسف شديدة العناد والتحدي إذا صممت على شيء لم تكوني الفتاة الأولى في حياة حازم .. ولكنك استطعت أن ترغميه على الزواج منك .. لا تنكري أنا في البداية كنت أظن أن السيد يعبث بك كما عبث بغيرك .

كانت منى مقهورة مما تسمع وتغض من طرفها وهي تسمع عتاب ولوم عبير الحاد ثم قالت منى محاولة تغيير الحديث : مضى وزال ومات يا عبير .. أي خدمة تريدين ؟

ـ أشكرك .. أنا على موعد مع مديرك شفيق حسين .. اعلمي أن حازما هنا في البلاد لقد رجع

محطما منهكا من الكحول والمخدرات ، وأدخل مركزا لعلاج السموم البيضاء أو السوداء .. وهو اليوم مريض طريح الفراش ..

لقد تفاجأت منى بوجوده فقالت بدهشة : حازم هنا ؟!!

ـ نعم هنا وهو سقيم .. وأرجو ألا تفكري باللقاء به أو الكلام معه بالهاتف .. هو ما زال يردد ويهذي باسمك ويلوم والديه على إجباره على تطليقك ..

حاولت منى تكلف الابتسام فقالت : لقد انتهى حازم من حياتي يا عبير! .. وأتمنى له الشفاء والصحة.. شكرا على هذه المقابلة اللطيفة وعلى النصائح وعلى المعلومات التي سمحت لي بسماعها .

ـ لا شكر على واجب.. أنت عملت معنا سنوات يا منى ! لا يمكن نسيانها بسرعة .. كنت أتمنى لو ظللنا أصدقاء ؛ ولكنك خربت كل شيء بزواجك من حازم .. شكرا .

ـ قدر الله وما شاء فعل .. سلام . تذكرت هذه العبارة التي كانت تسمعها كثيرا من مالك يقولها وهو مواسٍ لها .

ـ قبل انصرافي نصيحة أخيرة يا منى .. لا تلبسي ثوبا أكبر منك ولا يناسب مستواك الاجتماعي حتى لو استمر زواج حازم منك فمصيره الفشل .. أنا أعرف من أخي ومن هو حازم ؟؟! مع السلامة .

كانت عبير كما يعرف قارئ هذا السفر لا تستحي من منى منذ أيام عملها موظفة في الشركة وهي ما زالت تنظر إليها على أنها مجرد عاملة بسيطة في الشركة العالمية للتجارة .. موظفة في قسم الترجمة .. ورغم الأحداث العاصفة في حياة منى التي تعرفها عبير لم تكترث لقسوة الكلام الذي تفوهت به .. فهي المديرة وتلك مجرد موظفة لديها .

عادت منى لمقعدها منهارة ، وقد أخذت تدخن ، وربما مسحت دموعا سالت على مكياجها وزينتها التقليدية ، وتتذكر تفاصيل علاقتها مع عبير ، ثم همست مخاطبة نفسها : إنك ملعونة كنت تريدينني مجرد عشيقة وخليلة لشقيقك ! .. حازم في المدينة ويعالج من المخدرات

والكحول .. ناس مجرمون .. قساة القلوب !! تنهدت وقالت : لقد دمرني معه ..هو يجد من يعالجه أما أنا فلا .. الكل يتفرج عليّ .. على مأساتي .. أكيد زوج أمي خليل شامت بما جرى لي لابد أن ابنة خالتي زوج السيد عدنان جابر تنقل لهم كل شيء عني .. بل ما زال ربيع وعدنان أصدقاء .

تنهدت ثانية ومسحت دموعها التي سالت على خديها وقالت : يا الله ! ماذا أفعل ؟! إني جريحة وأمي جريحة وكانت تحدثني بخوفها من هذا الزواج .. اعتقدت أنني أتعامل مع رجل مع بطل لا أدري لماذا هؤلاء الناس يكرهوننا ؟! .. هل نحن في عصر الظلمات والعبيد والهنود ؟! نحن في قرن الحريات وحقوق النساء .. ألم تتزوجي يا منى كما شئت ومن اخترت؟! أليست هذه الحرية التي تنشدها النساء؟! دخان .. سكر .. حفلات .. سهرات ورحلات ونزهات مع الرجال والأغراب .. ألم أفعل كل ما أراده حازم؟! ومع ذلك أهله لم يقبلوني.. لماذا لماذا يخافون مني ويكرهونني؟!.. هل أنا حقا صائدة رجال ؟! هل كان حازم يحبني حقا ؟ أم لحظة ضعف واشتهاء جسد ؟! لقد قاوم معي وتحدى أهله وخسر أمواله من أجلي من أجل حبنا وحياتنا.. ولكنه كان يرفض الأولاد .. لا يريدني أن اخلف .. هكذا عادتهم كان يقول .. الأولاد بعد حين .. لابد أنه كان متوقعا وحاسبا لهذا الفشل ؟ سنتان مكثت على ذمته ولم أرَ أمه .. يا لها من امرأة قاسية القلب! لم تشفق على عواطف ابنها ، لم تفكر مرة بزيارة ابنها لتفتح معه صفحة جديدة .. وتتقبل الأمر الواقع .. تتعرف على كنتها ..إنها أقسى من ناصر والد حازم ! من أي عائلة هذه المرأة المجرمة؟! ألسنا بشرا مثلهم؟! عبير هذه التي دخلت على مدير المحل .. لماذا هي عانس لليوم؟ لماذا لم تتزوج بعد رغم الثراء العريض المحيط بها ؟! وهي جميلة ليست دميمة لابد أن أهلها وراء عنوستها ، هي أكبر مني ببضع سنوات .. كان حازم لا يحب الكلام عنها إيه كنت أتمنى أن اقتحم هذا العالم وأصعد بسرعة الصاروخ للمال والجاه ؛ ولكنهم وقفوا سدا أمام دخولي لعالمهم .. هل أنا أخطأت بحق إخوتي وأمي وزوج أمي ؟! أنا كنت أرى السعادة مع حازم إنهم لا يرون ما أرى .. ألم يكونوا يريدون تزويجي؟ وتذكرت ابنة خالتها فرددت بين

جوانحها هل ابنة خالتي سعيدة مع عدنان الذي سعى ليكون لي زوج ؟ .. سأعمل لها زيارة وأنظر حياتها في حارة برقوقة .. لا داعي لذلك .. انتهى حي برقوقة من حياتنا وأحلامنا.. لماذا كان هذا المكان سببا في عدم قبولهم زواجنا ؟! ..أليس هو مكان كغيره من الأماكن ؟ والله إن فيه أغنياء ربما عددهم أكثر من أحيائهم !

وبينما هي مستغرقة بهذه الأفكار والتساؤلات رأت عبير تشير إليها مودعة .. فانتبهت إليها في اللحظة الأخيرة ، ورفعت يدها محيية بالإشارة ، وعادت تفكر بحياتها وأحوالها .



زواج حنين

لما رجع ربيع من سفرته الخليجية في موسم الصيف كعادة المغتربين قضى أيام الإجازة يعد للزواج من ابنة خاله أمينة ، وخلال هذه الفترة حاول إقناع أخته بالعدول عن العادات السيئة التي تعلمتها من حازم بترك الدخان والخمرة والعودة لبيت الأسرة ، وأن الطلاق والفشل في مشروع لا يعني هذا نهاية الدنيا ، وحثها على عدم المكابرة ، فلم تر منى من كلام أخيها شيئا جديدا ، فقالت لكم حياتكم ولي حياتي

وقبل سفره بأيام تزوج ، ومكث ثلاثة أيام ، ثم سافر وصحبته زوجته لشغله في تلك البلاد .

تخرجت حنين من الجامعة ، وقد درست مثل أختها في كلية الآداب تخصص إنجليزي ، وقبل أن تبحث عن عمل كان أخ لصديقة لها اسمها عائشة يتقدم لخطبتها من أهلها.. فقد رآها عدة مرات وهي تزور أخته ، فأعجب بها وبحسنها وأدبها ، وكان قد تحدث مع أخيها مالك المحامي وكانت حنين تحب عائشة كثيرا خلال فترة الجامعة ، وجرى بينهم كلام أثناء الجامعة في موضوع الزواج ، وأمهلوهم حتى تنتهي من الجامعة.. وكان مالك على علم بذلك ولم يبدِ أي معارضة.. وقبل أن تبحث حنين عن عمل عقد قرانها على الشاب سعد الدين .. وأرادت منى أن تفسد هذا الزواج الذي لم يرُق لها بحجة أن الشاب غير متعلم في الجامعة، واتهمته بالجهل والأمية ؛ ولكن حنين رفضت حجة أختها منى ، وقالت لها كما أنت اخترت زوجك أو من كان زوجك حسب هواك ، فأنا لا اعتراض لديّ على سعد الدين .. فأهله أناس طيبون ، وأعرفهم ووالده رجل ميسور ، ولهم محلات كبيرة تبيع مواد الإنشاء والكهرباء والماء .. والشهادة في نظري ليست كل شيء

لم تقتنع منى بحجج حنين ، وتكلمت بكلام قاس بحق زوج أختها ؛ ولكنهم كتبوا الكتاب الشرعي رغم شدة كلامها وثرثرتها ومعارضتها وسخطها ، وترجونها أن لا تتدخل في شأنهم كما هي تحب أن لا يتدخلوا بشأنها ، فلم تقبل هذه المعادلة وحاولت دفع الشاب للابتعاد ؛ ولكنه اتخذ قراره ، وكان يعرف عقدة منى وقصة زواجها وطلاقها، فتحمل سلاطة لسانها ،

وصمم في قلبه أن يمكر بها مكرا يمنعها في يوم من الأيام التدخل بحياة أختها وحياته .

وبالفعل لما رجع ربيع من سفره ـ وكان بين يديه طفل صغير ، فرحت به جميلة فرحا كبيرا ـ تم زواج حنين من سعد الدين ، وكان والد سعد الدين يملك عمارة مؤلفة من عدة طوابق في شارع إبراهيم حي الجزيرة ، وكان هذا الرجل كلما تزوج ولد من أولاده أسكنه في شقة من شقق العمارة بعد رحيل مستأجرها.

ولقد وجدت حنين ربيع الاستقرار والهدوء في بيت زوجها ، وهذا ما تنشده المرأة العاقلة .

كان سعد الدين يعمل ويشتغل مع والده في محله الكبير ، وكان موفقا والعمل مزدهر، وكان محبا لزوجته حنين ، ويرثي لم حصل لأخت حنين من زواج فاشل ، ويأسف لم هي عليه من خمر لأن أسرتها أسرة كريمة لا يوجد بينهم هذه الحاجة .. فحتى الدخان وإن كان يجد قبولا لدى الناس اليوم ، ففي أسرة منى لا أحد يدخن ، فيُرى الأمر مستهجنا وشاذا ، وبعد تزوجه حنينا ذهب الخوف منها ، ومن أن تفسد مشروع زواجه ، فأخذ يحاول إقناعها بالسير على خط العائلة ويشجعها للعودة إلى حضن الأسرة الدافئ ، حضن الأم جميلة .. فتسخر منه ، فهو في نظرها رجل جاهل عامي لم يستطع النجاح في الثانوية العامة ، وكانت تغتاظ من حنين كلما تذكرت ذلك ، كيف ربطت نفسها بهذا الإنسان ؟! .. يبدو أن للشهادة العلمية في نفسها شيئا كبيرا .. ثم تنهره وتصده أن يتحدث معها ناصحا مرشدا ، وتترجاه في بعض الأحايين أن لا يتدخل في شأنها ، فيستحي الشاب من فظاظتها ويعتذر لها، ويلزم الصمت ، ورغم تدخل حماته لصالحه فيتضايق ثم يختصر الزيارة ، وينصرف ومعه زوجته التي ربما تتكلم بكلمة قاسية مع أختها .

وكان كلما فتح موضوع منى أمامه يظهر حزنه لحنين ورغبته في إنقاذها وإخراجها مما هي فيه ، فيقول بحزن وألم : هي معقدة أو هي عقدت نفسها .. هي ليست أول امرأة تتزوج وتتطلق .. وليست أول امرأة تفتح مشروعا ويخسر ويفشل .. آلاف الرجال والناس يعملون في مشاريع وتغلق وتدمر .. هكذا قانون التجارة والصناعة والزراعة .

ـ هي التي عقدت نفسها .. إنها تشعر بعقدة الذنب ؛ لأنها لم تسمع كلامنا ونصحنا .. ليس

لفشلها في الزواج وتحطم أحلامها الكبيرة التي بنتها على الزواج من ابن مليونير .. إنها تشعر بعقدة الذنب ؛ لأنها كانت السبب في طلاق أمها من السيد خليل أبي أحمد .. الرجل الوفي الذي ساعدنا حتى كبرنا ، وأنفق علينا حتى تعلمت منى وتخرجت من الجامعة ، وشارك في تعليم ربيع الهندسة .. فلما جاء زمن الوفاء والجد خذلته، ودفعته لطلاق أمها من أجل الزواج من حازم نائب المديرة في شركة التجارة العالمية .. لقد عشنا يا سعد أيام مؤلمة ومرهقة للأعصاب ومتعبة .. لقد كان أخي ربيع يفكر بعد زواج منى وهدوء العاصفة التي عصفت بنا أن يصالح أمي على زوجها خليل ؛ ولكن أهل حي برقوقة يحبون المعلم خليلا فعجلوا بزواجه من امرأة من حيهم ، سمعنا من ابنة خالتي التي تزوجها ابن أخت خليل أنها مريضة وأكثر دخل خليل ينفق على علاجها .. لقد حزنّا كثيرا لم حصل ؛ ولكننا كنا ضعفاء أمام تمرد منى على تقاليد الأسرة والناس .. تعودنا أن نحسب ما سيقول الناس .

ـ لله الأمر من قبل ومن بعد يا حنين! وكما هو معلوم أنه لا يأس مع الحياة .. فالإنسان يكبو ويسقط ويتعثر ويقوم من كبوته وسقطته وتعثره .. وهذه الخمر والسهرات لا تغني ولا تسمن من جوع ، فالحياة مجاهدة وكفاح وتعب ونجاح وفشل .. أنا سعيد بك يا حنين ولا أنسى موقفك معي عندما حاولت أختك عرقلة زواجنا بكل ما أوتيت من قوة ، حتى أدهشتني ، حتى كنت أظن كأنني سأتزوجها هي .. أنا لم أتعلم لأنني لم أكن أحب المدرسة والدراسة ، وأنا ما صدقت وأن أنهي الإعدادية ؛ ولكن الأهل دفعوني بقوة حتى وصلت الثانوية ولم أفلح .. فليست الحياة كلها دراسة وجامعات وشهادات .. هذه أقسام وأرزاق ، فأنا دخلي من المحل يا حنين كما تعلمين أكثر من دخل مهندس حكومة أو طبيب حكومة ودولة .

ـ يا سعد الإنسان بأخلاقه وطيبته ، والمال وسيلة لتحقيق أهداف وغايات صالحة .. فها هو خليل أحمد زوج أمي السابق حداد بسيط وقديم .. استطاع أن يصرف علينا كل هذه السنوات كانت منى أكبر إخوتي عندما تزوج أمنا ، عمرها عشر سنوات أقل أو أكثر قليلا بدخله البسيط صرف علينا طعاما وشرابا ومدرسة ولباسا ، ما كنا نشعر بأننا أيتام ، كل عيد يكسونا أحسن

الثياب ، وعند دخولنا المدارس يكسونا ويشتري لنا الحقائب والدفاتر والمصروف المدرسي ، ولم نسمعه يمن علينا بذلك يوما ما ، قدم لنا الكثير دون أقاربنا من أعمام وأخوال ، مع أننا نسكن في نفس الحي ؛ ولكن ظروفهم صعبة .. وتعلمت منى سنواتها الأربع من جيبه وحده ، وكان يستلف دون علمنا ليكمل تعليم منى وربيع ، وكان يعتبر ذلك من العهد الذي قطعه لأمنا عندما تقدم للزواج منها بعدما ترملت بسنين .. ورغم حرمانه من الأولاد وابتعاد أهله عنه أقصد إخوته وأخواته إلا واحدة وهي أم عدنان زوج ابنة خالتي كان شاكرا لله صابرا محافظا على الفرض والعبادات ، ويحبنا ولا يبخل علينا بشيء .. تكلمت أثناء المشكلة يا سعد ؛ ولكنني يومذاك كنت صغيرة غير مسموعة الصوت .. وقد كان الوضع حرجا جدا .. منى مصممة على الزواج كما تشاء ولو احترقت الدنيا كلها وخربت مائة مالطة ، كانت مصممة على الزواج بدون موافقة وطلب أهل حازم .. وخليل أبى ورفض ولما رأى ربيع الأمر المعقد اختار الوقوف مع منى ؛ لأنه الكبير وولي الأمر حتى لا تتزوج بدون إذنه وخشي الفضيحة .. ولما بكيت أمام منى لتصرف النظر عن هذا الزواج ، فكانت تدفعني بعنف وتقول: أنت صغيرة يا حنين ! .. لما تكبري وتعرفي تعذريني .. فلما كبرت كما ترى منى حتى رأيتها مطلقة ، وذهب الزوج الذي قاتلت من أجله .. وأغرقت ربيعا بالديون أي عذر أعذرها به اليوم لا أدري ما هو؟ فقط أقول إنها متأثرة بأفكار حرية المرأة والخروج على التقاليد والمناضلة لأخذ الحقوق المزعومة .. فهل إذا تزوجت المرأة رغم أنف أهلها أصبحت حرة ومتمدنة ؟ .. هناك جهل كبير في فهم الحقوق والحرية .. المرأة ألا تعمل ؟ إنها تعمل وتشتغل وتدرس وتُدرس وتربي وتزرع وتحصد .. فهل كل رجل يصلح لعمل كل شيء ؟ لا ، هناك أعمال لا يقوم بعملها إلا بعض الناس ، فكذلك أعمال النساء .. وهناك أعمال بالتأكيد لا تناسب بعض النساء.. تناسب البعض ولا تناسب البعض .. فهل هذا تمييز بين النساء؟! .. فرجل يعمل في الجيش ورجل آخر لا يرتاح للعمل في الجيش .. امرأة تشتغل ممرضة ، وأخرى لا تميل إلى ذلك العمل ..أتفهم عليّ ؟ ضحك سعد الدين وقال : أنا أفهم قصدك .. لا يعني أنني لم أصل للجامعة لا أعرف القراءة

أنا أعرف القراءة والثقافة والحسابات والمبيعات والمشتريات .. الأخت منى متأثرة بما حصل معها ، فعندما تعرفني جيدا ستحسن استقبالي والحديث معي يا حنين .. أنا لست حاقدا عليها البتة .. أقدر ظروفها وحالتها النفسية .. وأنا سعيد بكل ما أسمع منك .. كانت عائشة تحدثني عنك كثيرا ، وعن أدبك وأخلاقك وتواضعك رغم ذكائك المشهود في الكلية.. كنت أخشى أن تكون الجامعة حاجزا بيني وبينك وترفضينني ؛ ولكن الأخت العزيزة كانت دائما تطمأنني على موافقتك ، وأنك لا تنظرين للشهادات والمال نظرة علو وتكبر .

ـ الحمد لله الذي وفقنا يا سعد .. فأمك امرأة فاضلة وطيبة لقد أحببتها قبل أن يخطر ببالي الزواج منك .. وعائشة تعرف ذلك.

ـ وهل تغير هذا الحب بعد الزواج ؟!

ـ أبدا ، يوميا أشرب معها القهوة ، فبعد خروجك للمحل أذهب إليها ونجلس معا .

ـ أنا حزين لأمك فهي دائما حزينة تبتسم رغم عنها .

ـ أمي حزينة من أجل ما حصل لمنى ، وما حصل منا نحو السيد الكريم خليل الذي بذل كل شيء من أجلنا ، فإنها لا تستطيع نسيانه ليس كزوج فحسب وإنما كرجل ربانا ، حتى أن أهل الحي كانوا يسموننا على اسمه فيقول أيتام الحداد خليل .. أمي مشغولة جدا تبحث عن طريقة ترد له معروفه ، ففكرنا أن نهبه مالا ولكننا نعرفه فلن يقبله ؛ لأن ما قدمه لنا من باب الواجب والعهد والثواب فلا يرتقب ثوابا منا .. وهذا أيضا يزعج الأخ ربيع يريد أن يعطيه شيئا .. ومتألمة لم حدث من طلاق لمنى ، ولتمرد منى على طباع الأسرة ، والانحراف الخطير الذي تسير فيه .. لقد حاولنا ، وأنت حاولت إقناعها بالحياة مع الأسرة مع أمها ومالك وترك الفسق من خمر وسهر وأفلام وحفلات .. نترجاها بالأوبة لحياتنا الماضية الهادئة ، حياتنا القديمة ولتبدأ من جديد .

هنا وهو يسمع شكواها من منى خطر لسعد فكرة كانت راودته قديما منذ اصطدم بمنى فقال : لي صديق ماهر وحاذق في التعامل مع البنات والنساء لعله يستطيع نشلها من الأوحال التي

دخلتها ؟

فكرت حنين للحظات وقالت : ماذا يفعل معها ؟ ومن هو؟!

ـ من هو؟ هو برهان صاحبي وغير متزوج مع أنه قريب من الثلاثين سنة .. لا أدري هل تعرفينه؟ هو لم يزرنا هنا زارنا عند أمي ، جاء مع أمه ليبارك لنا .. فأمه صديقة لأمي .. كنا جيرانا قبل أن نعمر في هذا الشارع .. إنه شاب ذكي ، وله قدرة على مساعدة الناس وعلى حل المشاكل .. فربما لو التقى بمنى استطاع إصلاحها وإقناعها بالعودة لبيت أمك .. وعلى كل سأتشاور معه في القضية التي تؤرقنا ، فنحن خائفون على منى من السقوط في براثن الرذيلة يا حنين .. والبنت أن تعيش وحدها بدون أهل أو زوج هذا عيب عندنا كما تعلمين .. صحيح هي قريبة من بيت والدتك .. ولكن ألسنة الناس لا ترحم ..

ـ كل هذا فكرنا فيه أنا ومالك وأمي .. فسمعتنا أغلى شيء عندنا يا سعد

ـ ربما استطاع الأخ برهان أن يصل لقلب منى ويتزوجها ، فمنى جميلة ليست بشعة ، وإذا لم يوفق لذلك الزواج قد يستطيع إبعادها عما هي فيه .. فهي تمشي للضياع والدمار!

ـ عرفني عليه قبل أن يتصرف أي شيء يعود علينا باللوم يا عزيزي سعد.

ـ آخر مرة التقينا بها حدثني أنه يفكر بالزواج مثلي ، وأنه يبحث عن عروس ، قد تكون أختك يا حنين ! ونصبح عديلين بعد الصداقة والجيرة القديمة.

كان سعد يعلم قصة منى قبل زواجه من حنين عن طريق أخته عائشة التي كانت حنين تطلعها على مشاكل البيت والعائلة لتسمع رأيها ومشورتها .. ولكنه لم يشعر بخطر منى على زواجه إلا عندما اعترضت على الزواج بشدة ، وأحس بخطرها ومرضها ، ولما تزوج حنينا أدرك أنه نجا من تمردها ؛ ولكنه ما زال خائفا منها ويخشى من أي مشكلة تحصل بينه وبين زوجته كما يحصل مع أغلب الأزواج إن لم يكن كل الأزواج ، فتتدخل فيها منى وتتدخل في حياتهم.. لذلك أحب أن يفاتح حنينا بما جال في فكره خوفا من حدوث أي تطور لا تحمد عقباه ويحسب عليه .. فهو يعرف قدرات صديقه برهان وسرعة تكوينه علاقات عاطفية مع البنات والنساء ورغم ذلك لم

يتزوج لليوم .. فهو يريد أن يدفعه للزواج من منى ، ربما تمكن من الحياة معها وإيعادها لحظيرة العائلة وتخليصها من عقدة الطلاق .. هكذا فكر سعد الدين وكان جادا بفكرته ، فلما طلبت حنين التعرف على برهان أخذ يفكر بالموضوع جديا وعقليا .

فلم تذكره حنين ولا تذكر أنها رأته منذ تزوجا فقال لها : سأناقشه بدوري في الموضوع ، قد يوافق المحترم على الزواج منها إذا وفق في الوصول لقلبها ورضيت به، لعله يساعدها في محنتها فهي في محنة وعذاب صامت .

ـ لقد حاول ربيع ومالك إقناعها بالدخول على طبيب علاج نفسي لكن نفخة الكبر التي لديها تمنعها من الاعتراف بأنها مريضة نفسيا ، والله أنا أحب لها الزواج والاستقرار ببيت بزوج محب لها .. فحياتها بين الخمر والحفلات والسهرات والمسارح حياة لا تسر الصديق قبل العدو ، ونخشى خشية حقيقية أن تنزلق للفجور والفاحشة .. فماذا سيحدث لأمي وأخواي إن سقطت في الرذيلة ؟! .. فالخمر كما هو معروف مفتاح كل شر وخبيث .. فنحن لليوم لا نعلم لها مثل هذه الأفعال الشنيعة ولكن الأيام والانهيار مرعبان .. ونحن لا نستطيع أن نراقبها كطفلة صغيرة طول اليوم .

ـ الله يستر! .. على كل حال الحافظ هو الله وهو صاحب الستر.

ـ السقوط مريع يا سعد .. أتمنى من كل قلبي أن تعود أختي منى لحيويتها وواقعها .. لقد حلمت بأن تكون من رجال الأعمال وأصحاب الملايين بسنوات .. كانت ترى بزواجها من حازم الدرجة الأولى والمهمة للصعود في سلم الثراء الفاحش .. هل أنت واثق من صاحبك هذا ؟ ومن أخلاقه ؟!

ـ كل الثقة ، برهان أمره عجيب مع الحسناوات اللاهيات طبعا ، ما وضع نفسه في طريق فتاة إلا هويته وعشقته ، فكثير من أصحابنا قديما كانوا يحذرون من إدخاله بيوتهم لم يتركه من أثر على قلوب الفتيات .

ـ أمعقول أن يوجد إنسان فاتنا للنساء بهذه الصورة كما تقول؟!

ـ برهان بهاء وحسن وطول قامة ووسامة مثيرة حقا ، ولولا أخلاقه وأسرته المحافظة لفسد منذ زمن .. ولعل منى تكون من نصيبه وترضى به .

ـ أنا أبدو خائفة على منى منه يا سعد ! أخشى أن تتعلق به كما تصف وتقول ثم لا يتزوجها .



برهان صاحب سعد هو شاب جميل الصورة حقا قوي البنية ذو عيون خضر أبيض اللون جميل الشعر ، هو صاحب صورة حسنة فعلا ، ومنذ كان في المدارس الثانوية وهو مقبول من قبل المراهقات المتحررات ، وله قصص طريفة معهن، ولما انتسب للجامعة استغل هذه الصفات في التفاف البنات حوله ؛ ولكنه لم يدع أنه يحب واحدة منهن أو يعشقها .. إنما هنّ صديقات وزميلات ، فهذه إحدى مساوئ الاختلاط في الجامعات ، ومع عبثه معهنّ فلم تتمكن فتاة لعوب من إقناعه بالزواج ، وقد تخرج من كلية التجارة بمهنة محاسب ، واشتغل في أحد البنوك وحصل له من موظفات البنك العزباوات الطامعات بالاقتران به مثل ما حصل له في أيام المراهقة والثانوية والجامعات ، وكان يستغل هذه الخصلة للعبث بهن والتسلية ، كان يدعي أنه أفهم رجل في نفسية وطبيعة النساء ، وكان سعد الدين قد اشتكى له وحدثه عن منى وأحلامها وأوهامها ، ولم يترك شاردة وواردة يعرفها عنها لم يذكرها له حتى يقنعه بهذه المغامرة الحساسة كان سعد يرغب بأن يقوم برهان بدور فارس الأحلام الجديد في حياة منى لعلها تنسى فشلها في الزواج وتقترن به أو حتى بغيره .

هو كان يعرف أن صاحبه يدعي أنه لا يريد الارتباط بامرأة ، وأنه ما زال صغيرا على الزواج مع أنه يقترب من الثلاثين سنة ، وأصابه فرح لما لمح له في اللقاءات الأخيرة بأنه بدأ يفكر في الزواج ، فشجعه على هذه المغامرة الكبيرة والخطرة ، وصارح زوجته بفكرته خوفا من تطورات سيئة فيجد لديها العذر ، فهو يعرف قدرة صاحبه وغروره وتصميمه .

وكانت حنين تحب إنقاذ أختها ، وكانت تخشى عليها الانزلاق في مغامرات ولهو قبيح ، والسقوط في براثن الفجور والشرور ، ومع ذلك كان متوجسة من حيلة سعد أو خطته ، فاللعب والعبث بالعواطف البشرية ليس أمرا محمودا وهينا وسهلا .. فمنى لم يعهد عليها الحب والهوى ، فلولا المصلحة والحلم الكبير الذي كانت تحلم بتحقيقه من وراء حازم ما قبلت به زوجا ، فقد كانت تراه درجة لعالم المال والغنى ورجال الأعمال وغير ذلك من الأسماء الكبيرة فمنذ دخلت في سن المراهقة في حي برقوقة لم تسمع لها حكاية أو عبث مع شباب الحي ، بل كانت تحتقر كل فتاة تجعل ذلك هدفا ووسيلة للتسلية .. وحتى عندما التحقت بالجامعة وصحبتها لزملاء الكلية لم تتحدث يوما ما عن غرام وعن إعجاب بشخص ما .. كانت حياتها جادة ولديها أحلام ومشاريع .. ولما بسط سعد الدين المسألة لزوجته فرضيت بهذه المغامرة حرصا على عودة أختها لما كانت عليه قبل الزواج ؛ ولكنها مع قبولها للفكرة كانت قلقة أن تصبح هذه الحيلة حقيقة وينسحب برهان ولا يتزوج بمنى.. جرى لقاء قصير بين برهان وحنين وسعد وأعطته فكرة عن أختها وقصتها ، ووعدها الشاب إن تعلقت به ورضيت به زوجا سوف يتزوجها حقا ، وعلى أثر هذا الاتفاق قام سعد الدين ذات مساء بانتظار منى حتى خرجت من مكان عملها الذي اشتغلت فيه بعد سفر زوجها إلى أمريكا ، وكان يجلس هو وبرهان صديقه في سيارة .. فلما مشت نحو سيارتها الخاصة ـ أشار إليها ـ قائلا : هذه العروس يا سيد الفرسان !

فتأملها برهان من بعيد حيث تقف سيارتها ، ولما اختفت الفتاة وعد صاحبه خيرا .. وهو يقول مطمئنا صاحبه: إن ارتاحت لها النفس يا سعد سأفكر بالزواج منها ..لا تنسى يا سعد أنها امرأة مطلقة.

وافترق الرجلان بعد ذلك ، كان هدف خطة برهان خدمة سعد والفتاة أيضا، وأما الزواج فتركه للظروف والقناعة .. وكانت الخطة في فكره التعرف على منى كما تتعرف على الآخرين ثم يأتي دور العاشق المحب ، قد يتزوج وقد لا يتزوج ، هذا واضح بالنسبة له ولسعد ، أما حنين فكانت

ترى أنه دور للزواج من أختها .

كان عليه أن يتعرف على الفتاة ثم يقوم بدور المحب ليقوم على تغيير أفكارها نحو الرجال والمال وأن تترك الخمر والعادات السيئة التي تعلمتها من زواجها بالسيد حازم.. المغامرة دقيقة وحساسة هـي تدخل في المشاعر والعواطف.

استهوته المغامرة التي أوحى بها سعد الشاب ، فهو دائما المحبوب المطارد من قبل الجنس الآخر أما أن يحب هو فهذا لم يحدث معه من قبل .. فبدأ يدرس القصة والموضوع ويسأل عن عمل الشركة وتفاصيله ومحاولة التعرف على بعض أفراد الشركة ، وقبل أن يباشر المهمة التي كلف بها .. أخبره سعد بتردد زوجته وتخشى تعلق أختها ببرهان حقيقة ، ثم يظهر لها أن هذا مكر وحيلة إذا لم يحصل زواج ، فتصاب منى بصدمة جديدة مدمرة تقضي عليها وأنها ترجوه أن يكف عن فعل أي شيء .

فقال برهان وقد استوعب مخاوف حنين : أنا راغب بالزواج ولكن قد لا تكون هي المناسبة لي ومع أنني كما تعلم لم أوكد رغبتي بالزواج ، ربما هذه الفتاة تحقق لي هذه الحاجة والرغبة وأعزم على الزواج .. وكما تعلم يا أخي الفاضل أن كل إخوتي تزوجوا ، الأكبر والأصغر والذكر والأنثى ولم يبق إلا أنا ، والكل ينتظر الساعة التي أتزوج بها .. فصدق يا سعد! لو أن السيدة منى ربيع أخت زوجتك الفاضلة أحبتني فعلا ، وتأكد لي هذا الحب وقبلت شروطي فسأعقد قراني عليها .. وأنا متأكد يا صاحبي لو أن الفتاة أحبتني كما أريد ستترك ما هي عليه من خمر ودخان وسهر وملابس عارية .. قل لزوجتك أنا مستعد للزواج منها حقيقة .. لا أدري لماذا اعترف بذلك ؟ هل هو الغرور يا سعد والتحدي أم الحمق والجنون ؟!

ـ وعد أن تتزوجها ؟!

ـ وعد أن أتزوجها فعلا إن حدث اتفاق ووفاق .. هي ليست بشعة كما نظرتها وليست جميلة جدا .. هي مقبولة لديّ ، صدق ذلك ، وهي مغامرة حلوة بالنسبة لي ، أنا لديّ أحلام كبيرة ربما تتحقق على يد هذه المخلوقة التي دمرت ولم تعط الفرصة المناسبة .. مما سمعته منكم عن زوجها

فهو شخص ضعيف ومتردد ، ولم يحسن المغامرة والمخاطرة .

وعاد سعد يقول : وأنا قلق على النتائج التي ستحدث .. لقد كبر الخوف في نفسي أيها الصديق أتعدني ثانية أنك إذا فزت بقلبها أن تتزوجها فعلا ولم تدعها يا برهان؟

فكر برهان لحظات وقال : لا أستطيع أن أعدك يا صاحبي بشيء إلا إذا رضيت بالشروط التي ذكرتها لك .. فربما لا تعجبني أفكار البنت ، وأن يكون عنادها شديدا.. فأنا أقول إن صار بينا ود وتفاهم أحسم أمر الزواج .. فأنا التقيت بكثير من النساء اللواتي يشربن الخمر والدخان والحبوب المخدرة ويقضين حياتهن في اللهو والمسارح والسهر والمهرجانات ومع ذلك ما زلت عفيف الفرج يا صاحبي .. أنا الظروف إذا جاز الاحتكام إليها حكمت عليّ أن أكون فاتنا ومقبولا لبنات حواء ؛ ولكنّ أخلاقي لا تسمح لي بالتغوط في علاقات محرمة .. وأنت أكثر الناس يعرف ذلك عني رغم ما أثير حولي من قصص وإشاعات!

قال سعد كأنه يتذكر شيئا : ربما كلام أختي عائشة عنها ، ثم أثناء خطبتي لحنين ، وعندما يتحدثون عن طباعها وحياتها الخاصة كنت تخطر في بالي وأتسأل هل يستطيع برهان تكوين علاقة عاطفية مع هكذا امرأة ؟! .. امرأة تنفر من الرجال مع أنها تعيش وسط الرجال وترفض الزواج ثانية .. ألحت عليّ هذه الفكرة فحدثتك عن تلك الفتاة المتمردة ، ولما شرحت فكرتي لزوجتي تحمست بداية ثم بدأ القلق والخوف يتسرب لقلوبنا .. وأن تعرف منى بهذا العبث فتدمر حياتنا .. أرأيت كيف اندفعنا في هذا الأمر من غير أن نتروى؟ من أجل هذه الخواطر وغيرها أطلب منك صرف نظر يا أخي العزيز .

ـ أنت تحرجني يا سعد ! .. على كل حال أنا لم أبدأ بعد أمهلني بضعة أيام أعيد تفكيري في الأمر ، أنا لا أستطيع أن ألزم نفسي بزواج غامض وغريب فعلا .

ـ فكر يا صديقي ، الزواج مسؤولية وليس لعبا.. والله أن أسرة زوجتي أناس طيبون ويستحقون كل خير ، وأشعر بالضيق والحرج الذي تسببه لهم تلك الأنثى بتصرفاتها الانفعالية فنحن بعدما فكرنا بالمغامرة خشينا إن صدقت منى بالزواج والحب ولم تحسم أمرك أن تصاب

هذه المنحوسة بانهيار عصبي فوق ما هي فيه من اكتئاب وتمرد .. خوف في محله.

ـ حسنا أيها الصاحب سأفكر أمهلني يومين أو ثلاثة .

بعد أيام عاد برهان يقول لصاحبه سعد الدين : انتهى الأمر أيها الصديق .. قل لزوجتك إنني أنسحب من هذه المهمة ، لا أستطيع أن أربط نفسي بزواج قد لا أرتاح له ثم يفشل ؛ فسيكون دمارا على منى وعليّ أيضا.

شكر سعد صاحبه برهان عن تخليه عما اتفقا عليه، وأخبر سعد زوجته بانسحاب برهان عن طريق منى.

وهل حقيقة صرف برهان نظرا عن القضية وما كان يخطط له من اصطياد قلب منى ربيع ؟!



برهان لم ينسحب كما ادعى وزعم لصاحبه ، فهو أحب المغامرة وحده وأن يعمل بدون مراقبة ومتابعة من سعد وزوجته ، لقد أعجبته المغامرة وربما غروره استيقظ نحو ما كان يراه من تهافت بعض الفتيات حوله ، وأحس براحة كبيرة عندما علم وتأكد أن سعدا وزوجته اقتنعا بتركه ما اتفقوا عليه ، فهو يعرف ضعف النساء وقلوبهنّ المتقلبة والكثيرة التبدل في الآراء والقناعات ، وهو يعرف حب سعد لحنين، فكم كان يحدثه عنها وعن هواه لها وتمنيه ورغبته بالزواج منها والحياة معها؟! .. فالمغامرات تحتاج لقلب قوي ولعدم تردد واقدم إذا حق اللقا في الأول .. فلماذا لا يغامر؟ كان يرى أنه لن يخسر شيئا إذا صدته منى ورفضت هواه ، وربما يستطيع أن يفوز بقلبها وإنقاذها بهذه الطريقة الغريبة قبل أن تسقط من كبرها وتعجرفها في حفر النوادي الليلة والخمارات ، لو أنها اصطدمت برجل صاحب مال ووعدها بمال كثير ربما سقطت وهوت ثانية.. إنها مغامرة وقال : أحس بأنها مغامرة جديدة بالنسبة لي في السابق كنت كالمصباح الملتهب تحوم حوله الفراشات ، أما الآن فستكون منى ربيع المصباح وأنا أحوم حولها، فهي

مغامرة من نوع جديد.. عليّ أن أعطي نفسي مزيدا من الوقت قبل الدخول في هذه المغامرة الغريبة ، وسأتابع جمع المعلومات عن البنت قبل أن أضع نفسي في طريقها .. هي صحيح فتاة مطلقة ألا تفكر في الزواج ثانية ؟! أيعقل هذا ؟! ألا تحلم بأن تصير أما ؟ أليس كل أنثى تحلم بأن تكون أما ولها أطفال؟! إذن لابد من رجل .. ومن أجل ذلك يبحث الرجل عن أنثى ، والأنثى تبحث عن رجل .. وليس كل فتاة يطرق بابها الرجل المناسب وإلا تعقد الزواج في حياة البشر .. ومنى أليست أنثى مها حاولت التشبه بالرجال؟!.. ربما لو كان عندها ولد من طليقها لصرفت النظر عن الزواج الجديد والرجل الجديد ألا يقال ظل رجل ولا ظل حيط .. نحن نسمع ونقرأ أن نساء متزوجات يسقطن في الحب والعشق .. ألم تترك فلانة زوجها الذي خلفت منه ست أولاد من أجل غمزة وهمسة من رجل ادعى الوله بها؟! خصوصا إذا لم يكن هناك أخلاق وقيم عزيزة وكبيرة عند أولئك النسوة .. سأتابع دراستها ثم أغامر هذه المغامرة منى ربيع اسم جميل .. لها أخ مهندس يعمل في الخليج اسمه ربيع .. ولها أخ آخر اسمه مالك محامي غير متزوج ، وحنين زوجة لصاحبي سعد الدين.. وعاشوا أيتاما تحت رعاية رجل حداد اسمه خليل أحمد .. رجل فاضل محروم من الخلفة والذرية مع تزوجه أكثر من مرة ..وبسبب زواج منى من ابن الثري ناصر أحد أصحاب الأموال الكثيرة في البلد طلق خليل الحداد أم الأولاد التي تزوجها ليكفل أولادها ، وعاشوا سعداء حتى تخرجت منى من الجامعة وتبعها ربيع .. وهذه الشركة التي عملت بها منى أعرفها وأعرف مديرتها ، ولهم معاملات وأرصدة في البنك الذي أعمل فيه مجرد محاسب متوسط ، لست صغيرا معي بكالوريوس محاسبة من جامعة معتبرة في البلاد بسبب هذا الزواج في نظرهم طلقت الأم ثم البنت .. ثم .. ثم ماذا؟ أتتزوجها يا برهان وتطلقها ؟! .. يا لها من كارثة !! بدأت أرجف من هذه المغامرة أو اللعبة .. الفتيات كثيرات يا رجل فابحث عن حليلة بينهن ودعك من مطلقة.. هل الطلاق جريمة ؟ بالتأكيد لأ دعك من هذا الخيال الذي يمخر دماغك ويذهب بك شمالا وشرقا .. منى ربيع ولم لا تكون زوجتي ؟! هل لأنها مطلقة ؟! فالمطلقات كثر هذه الأيام .. هل لأنها انحرفت عن عادات

الأسرة وجارت زوجها فتعلمت السكر والدخان لا أتزوجها ؟! .. فتاة لها أحلام كبيرة .. لماذا لا تحلم؟ هل الحلم فقد خاص بالرجال ؟ الطموح أليس هو ممدوح في نظر العقلاء ؟ آه! كم أتمنى أن أجلس معها وأسمع أحلامها وأفكارها ربما تلاقت مع أفكاري وأحلامي وعبثي لابد من الوصول لقلب منى ربيع وأتعرف عليه.. قد تكون نصيبي في هذه الدنيا وتكون زوجة الغد أنا أول مرة أفكر بالدوران حول امرأة ! كانت الإناث تدور وتلف حولي.. يا سعد قلبت كياني.. ما زلت على البر أيها الإنسان .. اذهب لوالدك محمود صالح وقل له يا أبي اذهب واطلب لي يد منى ربيع .. قد ترفض وتطردننا ، فسعد أعطاني فكرة رديئة عنها .. أقول له يا أبي أريد أن أتزوج ، ابحثوا لي عن فتاة ، تحركي يا أمي يا أختي يا عمتي يا خالتي.. برهان الذي تنتظرون زواجه يريد الزواج .. ابحثوا لي عن عروس مللت حياة العزوبية .. أريد الاستقرار.. الاستقرار ما هو الاستقرار؟ .. هل إذا تزوج الإنسان استقر؟! بل المسؤوليات العظام تزداد.. مصروف زيادة .. مراجعات للأطباء زيادة .. مناسبات اجتماعية زيادة .. زيارة فلان وفلانة .. الاستقرار.. ربما يقصدون فيه العودة من العمل للبيت ، ومن البيت للعمل.. لا سهرات ولا حفلات .. ولعلهم يقصدون السكن النفسي وعدم النظر إلى هذه وإلى تلك .. وقد يقصدون بالاستقرار أشياء أخرى .. لا ، سأذهب للبحث عن قلب منى ربيع .. الفتاة المطلقة أخت حنين زوج صاحبي وجاري القديم سعد الدين.. الله يا ملهم الناس التوفيق وفقني لم فيه الخير؛ فإن كان الطريق إلى قلب منى خيرا فيسره لي يا الله !

الخطوة الأولى

كان عدنان جابر على اتصال دائم بالمهندس ربيع رغم كل المشاكل التي مرّ ذكرها، وكان يلتمس دائما لصاحبه عذرا بما جرى، وكان عدنان يرسل زوجته حليمة إلى زيارة خالتها جميلة باستمرار وحسب الظروف ، فما زال بينه وبين ربيع ود قديم من أيام الحي وبسبب مصاهرتهم لأقرباء جميلة ، فعدنان متزوج من ابنة أختها، وربيع متزوج من ابنة أخيها ، فكان بينهما مراسلات ومجاملات وعلاقات أسرية ، وكان ربيع قد كاشف عدنان برغبته بمساعدة خاله خليل بأي طريقة لرد بعض جميله ومعروفه القديم عليهم ، فيصبره عدنان ويقول له دع ذلك للأيام.

فقد جاءت الأيام ، فذات ليلة اتصل عدنان بربيع المتغرب بالهاتف وأخبره أن زوجة خاله خليل في المستشفى وتعاني من مرض شديد وقديم .. فالموت في انتظارها كما تنتشر الشائعات في الحي ، وكان عدنان قد سمع من ربيع مرة أو أكثر يقول لو لم يتعجل خالك بالزواج لكنت رددت أمي إليه .. فهي تشعر بأنها ظلمت الرجل بتركه من أجل ابنتها منى .. ولكن الظروف حكمت يومها

وكان عدنان عندما يلتقي بخاله يحدثه عن أخبار جميلة ، ويلمس في نفس خاله الحنين لهم ، فأحب أن يعرف رأي ربيع إذا حدثت وفاة امرأة خاله المتوقعة ، وهل لدى أمه الرغبة بالعودة لخاله خليل .

فقال ربيع: لا أدري ـ يا عدنان ـ بعد هذه السنوات رأي أمي!.. سوف أتحدث مع أخي مالك ليجس نبض أمه ورأيه أيضا.

ـ ومنى؟

ـ لا تهتم ، فهي اختارت الانفصال عن العائلة ، وتتصرف تصرفات حمقاء ، فنحن ننتظر حتى تتدعثر بابن الحلال وتعود إلى حياة العائلة ، كلنا مستاؤون من سلوكها وانتقامها من نفسها.. لا يهمنا رأيها .. المهم رأي أمي يا عزيزي .. ولنبقَ على اتصال ، فخالك رجل لا يمكن نسيان

فضله ، وهو معذور جدا بما فعل وتصرف تلك الأيام ، وأنا بينت لك ضعفنا وحرجنا الشديد يومئذ في ذلك الموقف الغريب .. أشكرك على هذا الاهتمام .

وما تحدث به عدنان عن تعب زوجة خاله كان صحيحا ، فبعد هذه المكالمة بأيام قليلة رحلت تلك المرأة من الدنيا إلى دار خير منها ، وتلقى خليل قضاء الله بروح المؤمن الصابر ، وتقبل فيها العزاء ، وعاد يعيش وحيدا في البيت الذي ورثه عن والده منذ عقود ، وبعد حين يسير فاتحه عدنان بما همس به في أذن ربيع .. فرفض خليل الحديث في هذا الموضوع ابتداء ، ثم بدأ يفكر ويسأل ابن أخته عدنان هل يمكن تحقيق ذلك ؟.

فوعده عدنان خيرا وأنه سيتكلم مع ربيع ومالك في الموضوع ، فبعد تمنع رضي خليل بأن تعود له زوجته جميلة إذا رضيت بالعودة إلى برقوقة ، فهي أكثر امرأة عاشت معه ، فنشط عدنان جابر في الموضوع ، وفعلا استطاع ربيع ومالك أن يقنعا والدتهم بالعودة للسيد خليل ، وجرى تصالح بينهم وعتاب ، ودافع كل شخص عن وجهة نظره وتصرفه تلك الأيام ، ثم تم عقد زواج خليل من جديد على زوجته السابقة جميلة ، وعادت للحياة من جديد في حي برقوقة ، وقد حاولت منى بدورها إفشال هذا المشروع ؛ ولكن مالكا وقف أمامها بحدة وقوة وساندته حنين بذلك ، فتركوا حي الرحمات وهجروه وعادوا لحيهم القديم .. وأما منى بعدما فشلت من صرف أمها من العودة لخليل فرفضت العودة للحياة والسكن في حي برقوقة ، وظلت تسكن في الشقة التي تستأجرها .. وقد بذل مالك جهده الجبار لتعود للحياة معهم ، وأن العم خليلا ليس بينهم وبينه ثأر فأبت أشد الإباء ، وحاول عدنان زوج ابنة خالتها معها ، ووعدها بأن يسعى بالبحث لها عن زوج صالح مناسب لعل الله يهبها منه ذرية طيبة يعيد لها نضارتها وشبابها فكانت تحدثهم بحدة وغضب وعدم احترام أحيانا ، ولم تسمع لكلامهم وأفكارهم الضعيفة ، وسخرت منهم ومن كل الرجال ، وختم مالك حواره معها في النهاية قائلا : ماذا أفعل لك يا أختاه؟! تزوجت كما شئت وسكتنا .. وهل حازم هو آخر الدنيا وآخر المطاف ؟ والذي خلق حازما لم يخلق غيره؟ .. وبذل الربيع كل ماله ومدخراته لمساعدتكم في المصنع الفاشل

وسكتتنا.. وها هو حازم قد تزوج بعدما تعالج من المخدرات ، وسمعنا أنه خلف ولدا

فصاحت ضجرة : أعرف كل ذلك.. وحازم انتهى من حياتي .

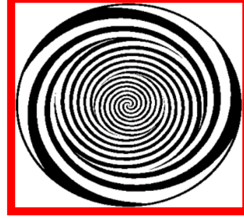
ـ إذن انظري أنت لحياتك ومستقبلك.. فالحياة ليست ضيقة بهذا الشكل .. افترضي هلاكه وموته .. تفكري في نفسك يا أختي! ها هي حنين قد أصبح عندها طفل .. فنحن أناس يحيون على سمعتهم وشرفهم .

فقالت بحدتها : أنا شريفة يا سيد مالك .

ـ وأنا لم أقل غير ذلك .. وأطمئن من هذه الناحية .

ـ وأنا أعرف الشرف أكثر منكم .. اسكن في برقوقة ، وكن مطمئنا من هذه الناحية ، أنا لا يمكن أن أدخل رجلا لشقتي خلسة .. إنني اكره كل الرجال والناس فدعوني .

وحاولت حنين إقناعها بأن تعرض نفسها على طبيب نفساني وتتعالج عنده ، فرفضت وأصرت أنها في عافية ، ولا أمراض نفسية تعاني منها، ولا تحتاج لطبيب نفسي ولا بدني .



هذه الأحداث الأخيرة في حياة الأسرة علمها برهان محمود من صديقه سعد الدين ، فكان يرى أنها تصب في صالح المغامرة التي هو مقبل عليها ؛ ولكن الذي يخيفه في هذه المغامرة أن تتعلق به منى تعلقا حقيقيا رغم ما يقال عنها من قسوة قلب أو بغض لجنس الرجال ، وأنها لا تدع العاطفة تملكها وتسيطر عليها.. فالطموح إذا كان لدى الأنثى لا يدفعها للتصرف كالرجال .. المرأة تبقى امرأة مهما حاولت محاكاة ومشابهة الجنس الآخر بقص شعر ولبس بنطال وتدخين سيجارة .. فكل ذلك تمثيل وتزوير وتشبع بما لم يعط .

لما اكتملت خطة برهان في ذهنه كان قد حسم أمره فقال لنفسه : إذا جرى بينا قبول وانسجام وتعلقت بي هذه الفتاة سأحقق حلم صديقي سعد الدين وأتزوجها .. ألم يحلم ذات يوم بأن

أكون عديله ؟ رغبتي أن تكون عديلي يا برهان ، أنت صديق غانم هكذا تمنى يوما .. ثم إنها تتحدى غروري وجمالي .. سوف أتزوج وستوافق أمي وكذلك أبي .. مطلقة مطلقة لن يعترضا على اختياري.. سأبدأ بتنفيذ الخطة .

لما انصرف برهان من البنك بعد الظهر اتجه إلى الشركة التي تعمل فيها منى ربيع ، فكانت شركة للتجارة العامة ، كانت الشركة تتعامل بأشياء كثيرة ؛ ولكن أكثر نشاطها في استيراد الأثاث المكتبي الأوروبي والثريات الضخمة والفخمة التي تعلق في المساجد والصالات الكبرى وصالونات البيوت الكبيرة والواسعة اسمها شركة شفيق للتجارة العامة .. الشركة ضمن بناية تتكون من عدة طوابق تشغل الشركة بعضها .. كان مكتب منى في الطابق الأرضي وهو في قسم المراسلات التجارية .. دخل برهان الشركة واتجه حيث تجلس منى مباشرة وحياها ، وكان يتظاهر بأنه جاهل لأي مكتب يسير ويتجه ، وعرفها بنفسه قبل أن تفكر بسبب دخوله عليها دون الآخرين ، وحدثها برغبته بشراء أثاث لمكتب وشقة سيتخذها مكانا لعمل خاص به ، هو وبعض شركائه سينشئها حديثا .. بالطبع دهشت منى لمجيئه إليها مباشرة حتى أن العاملين والعاملات في نفس القسم ظنوه صديقا ومعرفة لمنى ، وهي قد ارتبكت بداية ، ولم تفكر أن هذا المجيء كان مقصودا ، فرحبت به وقبلت السيجارة التي دفعها إليها من غير تردد فبعد أن شرح لها حاجته التي ذكرنا بسرعة قال مبررا دخوله عليها : لما دخلت القاعة تطلعت هنا وهناك فلم أر نفسي إلا وأنا مندفع اتجاه مكتبك.. فأريدك أن تفيديني بالأثاث المناسب والأرخص .. أنا أريد أثاثا جيدا وأنيقا لأنني في بداية مشروعي ورأس مالنا على قد الحال .. فمن الجميل والمستحسن أن لا يدفع الإنسان الكثير منه على أثاث ربما لا ينجح المشروع .

فقالت وقد تمالكت أعصابها : نعم هذه ملاحظة جديرة بالاهتمام .. ماذا تعمل وما نوع العمل الذي ترغب به ؟!

ولما مرّ الفراش قريبا منهم طلبت منى منه قهوة للزبون ، فشكرها برهان وهو يحس بنفسه أنه اجتاز الخطوة المهمة .. فشرح لها طبيعة عمله في البنك وأنه مجرد موظف صغير ولديه أمل بفتح

مكتب تدقيق محاسبي خاص به مع بعض الشركاء ، أبدت سرورها منه وتمنت له التوفيق ، وطلبت من إحدى زميلاتها مجموعة من دفاتر الإعلانات ويسمونها الكتالوجات للأثاث المكتبي ، فقال برهان مستدركا موهما لها بجهله عندما دخل عليها دون الآخرين : إذا لم يكن هذا عملك فأذهب إليها أنا آسف يا سيدتي أنا قصدت النصيحة والاستفادة من خبرتك .

تبسمت منى لاعتذاره اللطيف وقالت : أبدا أنت رجل لطيف .. كلنا في خدمة الشركة.. أنا عملي هنا الترجمة والمراسلات التجارية للشركات الأوروبية أو الصينية والمحلية .. وأهلا بك

ـ أنا اسمي برهان محمود الدين .. كما قلت لك موظف في بنك المدينة الخضراء .

ـ أهلا وسهلا اشرب قهوتك .

لما أقبلت الفتاة التي تقوم بعرض الأثاث على الزبائن ، تناولت منى منها كتيبات الإعلان والنماذج وشكرتها بهز رأسها ، وأخذت تقلب الصفحات أمام برهان الذي قال : أرجو نصيحتك بإخلاص.

ـ أكيد سأساعدك قدر الإمكان .. وسوف أتكلم مع مدير المبيعات من أجلك فأنا أشكر ثقتك بي.. فكل هذه العيون تنظر إلينا يظنون أنك قريب لي وتريد أن توسطني في شراء أثاث

لاحظ برهان نظرات العيون إليهم ، وهو كان يقصد ويسعى لهذا المعنى الخفي فقال شاكرا : بارك الله فيك .. آسف لإزعاجك

وأخذ يقلب الصفحات وهي تحدثه عن هذا الأثاث وثمنه وذاك حتى استقر على أثاث معين وقال : قد يكون هذا مناسبا .. ما رأيك ؟

تأملته لحظات وقالت : جيد وأعتقد أن ثمنه مناسب لمكتب متواضع .

ـ أيوجد مثله في معرض الشركة ؟

ـ ممكن .. سوف أسأل .

نهضت عن مكتبها حيث الشخص المختص بالموجودات مما يعرض في هذه النماذج ، فقالت الفتاة المسؤولة عن ذلك بعدما نظرت في أوراقها : الآن لا يوجد من هذا النموذج يا منى ؛ ولكن كما أعلم أن صفقة منه في الطريق ربما وصلت الميناء وبقي إجراءات التخليص ثم الشحن

فقال برهان: ألا يوجد هنا معرض يا آنسة بدلا من النظر إلى هذه الكتالوجات والصور؟

ردت منى : يوجد يا ... في الطابق الثاني معرض كبير ؛ بل لدينا عدة معارض منتشرة في العاصمة سوى العملاء .. تفضل إلى فوق .

لا شعوريا أرادت منى أن يبدو لزملائها أن الشاب الذي دخل مكتبها دون مقدمات قريبا لها أو صديقا، فاستأذنت شركاءها في المكتب بضع دقائق ، وصعدت ببرهان إلى الطابق الثاني حيث المعرض الكبير لنماذج وعينات من الأثاث المكتبي والكريستال الثمين والتحف.. وتفرج برهان وتأمل ثم هبطا ثانية وهو يقول : شكرا .. سأمر ثانية .

وعدها بالمجيء ثانية بعد أيام قد يكون وصل النموذج الذي اختاره فوعدته منى خيرا ، وعندما يستقر على الشراء سوف تساعده وتتحدث مع مدير وصاحب الشركة ليعطيه نسبة خصم.

وعاد للبيت مسرورا من مغامرته، وأخذ يفكر بكل ما جرى بينه وبين الفتاة المعقدة ، فوجدها كغيرها من الفتيات ، فقد تعاملت معه بلطف وأدب وهدوء ، وليس كما تصورها من كلام أختها وزوج أختها سعد الدين ، فقد تقبلته سريعا ومن غير نفور ، صحيح أنها تعاملت معه كزبون ، وتعاطفت معه معتقدة أنه إنسان بسيط وساذج يحتاج لخبرة الآخرين ، متحمس لشراء أثاث أنيق ولائق بمكتبه .. ولم تحاول إرشاده لمن يهمهم الأمر للتخلص منه ، بل حاولت خدمته كغريق لجأ إليها ، وبعد أن تذكر كل المقابلة والحركات والكلمات قال : هناك ملاحظتان على هذا اللقاء .. الأولى أنها فتاة لطيفة كأي فتاة عرفتها تحب المساعدة والتعاون ، لم تكن متكبرة ولا متعجرفة هي عاملتني بأنني إنسان ضعيف ، وليست عنده خبرة شخص يريد شراء أثاث مكتب مناسب ورخيص .. والثانية أنها كانت مشغولة بنظرات وحركات زملائها في القاعة والذين في نفس مكتبها .. هل هو قلق المطلقات ؟ فهؤلاء يظنون أن كل من تحدث معها عريس

المستقبل .. وهي تحسب لنظراتهم ومراقبتهم أمرا .. الآن عليّ الاستعداد للجولة التالية .. هل سأضطر لشراء أثاث فعلا أم اعتذر بأي حجة ؟ لابد من الاعتذار .. زيارة ثانية وثالثة وينتهي الموضوع ، إما أن نصبح أصدقاء أو أعداء .. فسلم أمرك يا إنسان لخالق الأكوان صاحب الشأن الله العلي المتعال . هذه خطوة برهان الأولى ، لقاء سريع مع منى حول الشراء والبيع والأثاث وفتح مشروع أو الحلم بفتح مشروع ، ألم تحلم هي بفتح مشروع ؟ بل فتحت مشروعا ولكنه فشل .. لماذا فشل ؟!



تجدد اللقاء

منى ربيع هل ترك في نفسها هذا اللقاء العابر شيئا ؟! إنها تلتقي في العمل الكثير من الرجال والنساء والعاملين ..هل ساءلت نفسها عنه عندما انصرف هذا العابر أم انتهى من فكرها بمجرد مغادرته المتجر؟ .. هو أحبها أن تكون وسيطة وناصحة له.. وهي أبدت استعدادها لذلك رغم أن هذا ليس من اختصاصها في أعمال المتجر المختلفة.. هل كانت تنتظر عودة برهان إليها ثانية كما وعد ؟ .. هل ذكرها طموحه بعمل مشروع بمشروعها القديم ؟ .. هل ذكرتها لفظة آنسة عندما لفظها أثناء الحوار بشيء؟.. يبدو لنا أن السيدة منى لم تحمل هذا اللقاء أكثر مما يحتمل .. فهي لم تكترث لهذا اللقاء الذي اعتبرته صدفة وعابرا وعارضا وغير مخطط له بدقة وعناية وتأن وصبر .. فلو كل شخص تلتقي به في المحل أو الدكان أو المسرح ستجعل من لقائه سببا فسترهق بدنها ونفسها منشغلة به وبأحواله وتؤلف له قصة وتفكر بها فلن تنته من ذلك.. ويؤكد لنا أن شيئا من هذا الاهتمام والاحتفاء بهذا اللقاء لم يحدث ، وأن اللقاء تجاري فحسب فإنها لم تحاول معرفة هاتف الرجل وعنوانه ، وحتى عنوان المكتب الذي سيفتحه ، أو سؤاله أي سؤال شخصي سوى معرفة عمله واسمه ، ولم تعلق على أحلامه ومشروعه بأي كلمة مهمة إنما كان همها مساعدته في شراء الأثاث ، ومحاولة الظهور أمام العاملين بأنه معرفة أو أرسله إليها شخص تعرفه ؛ لتستطيع مساعدته عند عقد الشراء وتحصل له بعض الخصم التجاري.. فحتى عندما صعدت به لمعرض الأثاث في الطابق العلوي كان كل كلامهما حول الأثاث والمواصفات التجارية للمنتج والأنسب لمكتب صغير ومن صنعه؟ أصناعة محلية أم كلها أوروبية ، ومن الأجود ؟ وانتهى كل شيء بالنسبة لمنى بخروج الرجل من مكتبها .

ومنذ تزوجت أمها ثانية ، وعادت لحي برقوقة لم تزرها ولم تحاول الذهاب إليه ؛ كأنها على عداوة وحقد وبغض لهذا الحي ومن فيه ، مع أن الحي لم يفعل لها شيئا .. لماذا تكرهه؟! لذلك كانت كلما تحدثت معها الوالدة تدعوها لزيارتها والسلام على عمها خليل ، وتتسأل عن عدم مجيئها للسلام على الرجل الذي رباها وصرف عليها حتى تعلمت وتخرجت من الجامعة ، فتعتذر

وهي غير مهتمة برضا أحد ، وتدعوها لزيارتها هي ومالك ، فتسكت الأم وتدعو لها بالهداية وتسلم وتغلق الهاتف ، وكان خليل يرغب رغبة أكيدة بعودة منى لتقر بأنه كان على حق في معارضة زواجها من حازم ناصر بدون موافقة أهله .

فلما تكلمه جميلة عند نهاية الاتصال تراه يبدي رغبته بعودتها ، ويبدي استعداده للذهاب إليها ومصالحتها ، فتشكره جميلة على هذا الاستعداد والهم وتقول له: إن منى التي كان يعرفها وديعة أليفة قد تغيرت بعد الزواج والطلاق .

فيلوذ الأب الروحي لمنى بالصمت ، ويعودون للحديث عن مالك وحثه على الزواج والارتباط بفتاة تقر بها عينه ، فيحدثهم مالك عن رغبته ببناء بيت واسع كبير ، وهو يفكر بشراء بيت قديم وهدمه وإنشاء مكانه عمارة كبيرة من عدة طوابق ، وأنه يتشاور مع ربيع في هذا الموضوع ويطلب من عمه زوج أمه أن يساعده في البحث عن بيت في الحي معروض للبيع ، فيعده خليل خيرا وأنه سيبذل قصارى جهده .

لقد كان الهدوء يسم حياة مالك وأمه وخليل ، فقد عاد الصفاء والود القديم ؛ ولكن خلا البيت القديم من ثلاثة أنفار ، ربيع تزوج وسافر للخليج العربي ، وحنين تزوجت وتسكن عند أهل زوجها ، وبقيت منى تعيش وحيدة في حي رحمات .

ولكن كان يقلقهم ويزعجهم عناد منى وإصرارها على الحياة بعيدة عنهم ، وحياة المرأة وحيدة من غير بعل وأهل في بيت مستقل كان يعتبر عيبا في عرف الأسر المحافظة التي ما زالت متمسكة بأهداب التدين ، فمن العيب أن تعيش المرأة العزباء بعيدة على الأقل عن بيت أقاربها وأهلها درءا للشبهات والقيل والقال ، ودفعا للحرج عن سمعة العائلة وشرفها فكانوا يرون حياة منى المطلقة في شقة وحدها أمرا غير طبيعي وغير سوي فهذا ما يزعج الأسرة الصغيرة ، والإنسان الشريف عنده سمعته وشرفه وكرامته تعادل حياته فأي انزلاق يحدث في أسرة مسلمة أو عربية ولو كانت بعيدة عن الدين الحقيقي سيترك أثره على سمعة العائلة كلها ، وليس الفرد الذي قام بالعمل المشؤوم وخصوصا أهل الأنثى.. فهذا مثير للخوف فعلا في بيت خليل ،

الحياة طيبة ، خليل يخرج في الصباح لمحددته التي ورثها عن والده ، وينطلق مالك إلى شركة المحاماة التي يعمل فيها ، وهو يفكر بفتح شركة خاصة مع بعض الزملاء عندما يشتد عوده في سوق المحامين ، وتبقى الأم جميلة لتنظيف البيت وإعداد الطعام ، وتجلس تشاهد التلفاز أو تستقبل بعض الجارات للثرثرة ونقل الأخبار أو تقوم هي بالذهاب لبيوت الجارات أو تزور أخواتها القاطنات في الحي حي برقوقة ، وأحيانا أخرى تزور صبرية أخت خليل أو تستقبلها ، وقبل عودة مالك تعود للبيت وكان مالك يغادر دوامه بعد الظهر بساعتين .



ذهب برهان للشركة التي تعمل فيها منى ربيع كما وعدها بعد يومين، واتجه كالمرة السابقة إلى حيث تجلس منى ، وكان دخوله هذه المرة في الصباح قبل الظهر، فقد أخذ إجازة قصيرة من البنك ، فوجدها تتحدث مع شخص ، فحياها فرحبت به وأذنت له بالجلوس على أحد الكراسي التي أشارت إليها فجلس ، وعادت تتابع حديثها مع الرجل الذي قطعه برهان بدخوله عليهما ، فسمعها تعد الرجل بالمساعدة قدر الإمكان ، فصافحها الرجل وانصرف شاكرا ، ثم استدارت إلى برهان وقالت : أهلا بالأستاذ .. آه لقد نسيت اسمك يا أخي .

ـ إنك تذكريني على كل حال .

ـ أذكرك بالطبع ، لقد جئت راغبا بشراء أثاث لمكتب تدقيق حسابات مالية ولكني للأسف نسيت اسمك فقط لما يمر علينا من كثرة الأسماء .

ـ لا حرج عليك يا أختي العزيزة اسمي برهان محمود .. لقد رأيت في المرة الماضية أثاث مكتب جميل ومناسبا لمكتبي الناشئ في أحد كتالوجات الإعلان ا لتي عرضتيها عليّ ، ولما سألت الموظفة المسؤولة عن ذلك النوع قالت لا يوجد الآن منه ، وبعد أيام سيكون موجودا ويصل من الشحن والتخليص للمعرض .. فأسرعت إليكم ربما يكون قد وصل وأكون زبونا .

ضحكت منى وقالت : أهلا وسهلا .. انتظر لحظات حتى أسال لك عنه

غابت بضع دقائق ثم عادت تقول : للأسف لم يصل بعد يا أخ برهان .. على كل حال أعطني رقم هاتفك ولما تصل الكمية وتجهز للبيع أتصل بك .. ما رأيك ؟

ـ أخشى أن يكون في ذلك إزعاج لك .. وأخشى أن تنسيني أثناء أشغالك الكثيرة .. لا بأس سأمر عليك مرة ثالثة ..

ـ أبدا لا تعتذر عن إزعاجي .. نحن في خدمة الناس المحترمين يا سيد برهان .. لا يكلفني الاتصال شيء ، فأنا أحببت خدمتك ونصحك كما طلبت مني، والنسيان وارد ولكني سأبذل جهدي ألا أنساك. وكتبت شيئا على ورقة أمامها .

وأخذ الشاب يشكرها ، ويثني على خلقها وتعاونها ، ويتعذر من إزعاجه لها، وهي أيضا تبادله التعذر، وأنها تقوم بواجبها ولا تنتظر جزاء ولا شكورا ، إنما تقصد المساعدة والمعونة والنصيحة وتظاهر بأنه لا يريد إعطاءها رقم الهاتف ، مبديا استعداده للمرور كل يومين أو ثلاثة مرة ، فأصرت منى على أخذ رقمه وأنها ستتذكره فور وصول هذا النوع من الخشب والأثاث للشركة فأعطاها رقم هاتف البنك حتى تتصل به في النهار ؛ لأنه لا يكون في البيت أثناء عملها لتتصل به ، وذكر لها أنه أعزب بعد ، فعندما ينهي عمله يذهب هنا وهناك مبررا لها بذلك عدم إعطائها هاتف منزله ، وقدم لها السيجارة وأسقته هي القهوة مرة أخرى ، وحاول الاعتذار عن شربها ، ولما رأى ترحيبها وإصرارها تظاهر بالاستحياء ، وشرب القهوة وغادر الشركة وعيون الموظفين ترمقه باستغراب ، ولما انصرف قالت إحدى العاملات لمنى : من هذا ؟!

تطلعت إليها منى بطرف حاجبها وقالت : صديق يا عزيزتي أمل .. معرفة موظف في بنك المدينة الخضراء يريد تأثيث مكتب ، له أصدقاء يحاولون إنشاء مكتب تدقيق حسابات .. فأرشدته لأثاث معين عندنا ؛ ولكنه للأسف غير متوفر هذه الأيام .. لا أدري لماذا ؟!

ـ أنا آسفة إذا ضايقتك بالسؤال .

ـ لا يا حبيبتي ، أنا كما تعلمين ليس من اختصاصي البيع والعرض ؛ ولكنه يخصني فيأتيني فأنا

أقوم على خدمته مجاملة للمعرفة فلا تشغلي فكرك .

ـ أشغل فكري ! أنا متأسفة مرة أخرى يبدو أن الحديث معك معصية.. سلام.

ـ مع ألف سلامة يبدو أن الصراحة قاتلة سلام وخبري الجميع بما قلت .

ـ أنت حساسة أكثر من اللازم يا منى .. أنا لم أقصد سوءا عندما سألت عنه قد يكون الفضول آسف .

ـ حياك الله .. قصدك سوءا أو خيرا حياك الله

ـ والله أنت عجيبة يا منى وتتعصبين بسرعة !

وأخرجت علبة الدخان وأشعلت سيجارة وتظاهرت بأنها مشغولة بأوراق أمامها فتيات اليوم يدخنّ كالرجال ، وربما أكثر من الرجال، فتقليد الرجال أصبح لديهن دين وتقدم ، حتى لو كان التقليد قتل النفس، فلم يكفيهنّ التقليد باللباس وقص الشعر، فتقليدهن بأشياء كثيرة بالدخان والخمر والسهر ولعب الورق وكرة القدم .. عافانا الله وإياكم من الجهل والتقليد الأعمى .

انتظر برهان ثلاثة أيام أخر ولم تتصل به منى ، فأدرك أنه لم يترك لديها أي تأثير حتى ولو للثرثرة فهي تتعامل معه بحدود الصفقة والعرض والزبون ، فقال مفكرا : أنا ظننت أنها طلبت رقم الهاتف لتبدأ علاقة جديدة معي .. صداقة .. أنا فعلا مغرور.. أنا لاحظت اختلاس نظراتها نحوي وأشرت لها بأنني عازب .. كل هذا لم يحرك ساكنا في قلبها .. أنا لم أتعود أن أطارد الفتيات ، تعودت أن تطاردني الفتيات يدرن حولي .. لماذا لا تحوم هذه حولي؟! هل تعرف عني شيئا؟ هل حدثتها حنين بهذه الفكرة الجنونية وأنها تعرف أنني ممثل ؟ لا تفعل حنين ذلك ، فهي تخاف أختها بل مرعوبة منها.. فعندما تتحدث عنها كانت تتحدث وكأن وحشا أمامها .. تتكلم عنها بخوف وقلق.. أنا وإياك والزمن طويل كما يقولون .

ظهر اليوم التالي اتصل برهان بالشركة من البنك ، وطلب منى وذكرها بنفسه فقالت : أهلا بك ولكن كيف عرفت اسمي ؟!

تضاحك وقال : سألت أحد العاملين عندما كنا في المعرض في الطابق الثاني عندما لاحظت أنك لا ترغبين بتعريفي بنفسك .. أنا آسف إذا أزعجتك ولكن لي ثلاثة أيام أنتظر الاتصال فلم يحصل فظننت أنك نسيتيني من تكاثر العملاء.

ـ لو حصل شيء يا أخ برهان لاتصلت بك ، فأنت أصبحت معرفة وصديق .. أهلا وسهلا وإذا وصلت تلك البضاعة سأتصل بك .. سبحان الله ! اخترنا شيئا فإذا هو غير موجود .. ما رأيك أن تختار نوعا آخر من الموجود ؟ وسوف ادع أبا محمد شفيق أن يخصم لك ويساعدك على أنك قريب لي.. نحن المشكلة عندنا أننا لا نبيع بالقسط يا أخ برهان

ـ أشكرك يا أخت منى حتى لو لم نشترِ من عندكم ، فتكفينا معرفتك وصداقتك وشهامتك أشكرك الشكر الجزيل ، وعندما نفتح المكتب إذا أحببت أن أدعوك لحفل الافتتاح المتواضع فيا مرحبا بك فلن أنسى مساعدتك .

ضحكت على الهاتف وقالت : لم أفعل شيئا يا أخ برهان ، أنت رجل محترم ، وأنا في خدمتك ، على كل حال ابحث في معارض الأثاث الأخرى قد تجد ما لم تجده عندنا ، وإذا لم توفق فاتصل بي حتى إذا جاءت الشحنة المنتظرة سأتصل بك .. أما إذا كنت تريد نموذجا غير الذي شاهدناه في الكتالوج .. تعال وسأساعدك عند صاحب الشركة شفيق .

ـ لا ، أنا أعجبني اختيارك ومتفائل به ، فشكله جميل وحجمه جيد ورخيص في نفس الوقت آ .. أأدعوك لحفل الافتتاح الذي سيكون قريبا إن شاء الله .. فأنا عاجز عن شكرك .

ضحكت ثانية وقالت : أنا لم أفعل شيء بعد

ـ لا ، لقد فعلت الكثير ، يكفيني أنك لم تكشري في وجهي ، وهل أنسى فناجين القهوة التي قدمتيها لي .. لا أعتقد أن أي زبون يدخل عليكم يحصل له ما حصل لي .

ضحكت منى أيضا وقالت: هذا لطف منك يا سيد برهان ! على كل حال معرفتك مكسب كيف سيكون هذه الحفل الذي تدعوني إليه ؟

ـ كما يحتفل الآخرون .. ولكن حفلنا سيكون صغيرا ومقصورا على بعض الأصدقاء من

أصحاب الشركات والمصانع .. وأنت اعتبري نفسك منهم .

ـ شكرا أخجلتني يا برهان! .. كأننا نعرف بعضنا منذ سنوات.. إنهم يريدون الهاتف آسف يبدو أن الحديث طال .. هات رقم بيتك سأكلمك في البيت .. شكرا لك وربما أدعو نفسي لحضور حفل الافتتاح ـ نقلت الرقم ـ شكرا .

ووضع كلا الطرفين السماعة ، وأخذ يمسح العرق المتصبب عن جبينه ، وهل هذا بداية علاقة غرامية؟.. لحتى الآن لا ندري ، ممكن أن يكون ذلك ، وممكن أن يكون غير ذلك .. فالكلام كله يدور حول العمل والأثاث وحفل الافتتاح .

دعيت منى لمكتب المدير وعاتبها على طول مدة الاتصال ، فتأسفت له وأخبرته أن المكالمة أتت إليها من الخارج ، ليست هي المتصلة ، وأنها استحت أن تقطع الحوار ، فصرفها المدير منبها على اختصار المكالمات سواء الواردة أم الصادرة ، أما برهان فكان الاتصال عبر مقسم فلم يثر إزعاج لدى البنك ، ولما عاد الهدوء لنفس برهان قال : هل وقعت السمكة في السنارة أم لا ؟ الأنثى ستبقى أنثى .. أي صبية من غير زوج يحلو لها الكلام والحديث مع رجل ، ولو لم يكن في الهوى والغرام والزواج .. أعود للسؤال الكبير.. هل أتزوج من تلك المرأة ؟ من تلك المطلقة؟ من سيعترض من الأهل والأصدقاء؟

بعد أيام من الاتصال الأخير اتصلت منى ببيت برهان ، ولم يكن في البيت تلك الساعة ، ولم تترك له لحتى الآن رقم هاتف بيتها ؛ فإنها ما زالت المكالمات متعلقة بالتجارة والبيع وفتح المكتب.. لما أنهى أعماله في الصباح التالي في البنك اتصل بالشركة واعتذر لها عن عدم وجوده في البيت ، فقبلت اعتذاره وقال لها: إنه سينتظر مكالمتها في التاسعة ليلا حتى لا يطيل عليها .

فرحبت بذلك وأغلقت الهاتف وهي مسرورة بهذا التصرف ، فهي خشيت أن يطول الحديث كالمرة الماضية ويحدث إحراج وإشكال .

في التاسعة ليلا كانت منى تتصل ببرهان وأخبرته أن الأثاث المنشود قد وصل بعد أن سألت عن أخباره وصحته فلما قالت ذلك ، قال بنغمة حزن : هذه الأيام حدث إشكال ، ربما يتأخر

فتح المكتب وشراء الأثاث بضعة أيام ، ولما سألت عن سبب ذلك .

قال لها : إن أحد الشركاء انسحب ، فبقي هو وشريك آخر وقال أيضا : إن تأخير هذا الأثاث كان خيرا لهم ، ولو اشتروه لأصبح من الصعب انسحاب الشريك الثالث لظرف طارئ يمر به.. فنحن كما تعلمين يا أخت منى بالكاد دفعنا الإيجار لنصف سنة وخلو رجل المأجور .

فأبدت أسفها لما حدث وعقبت قائلة : كما يقال كل تأخيرة فيها خيرة ..

ـ يظهر هذا .. أنا قد قمت بإجراءات ترخيص المكتب ، وعلى وشك الحصول على التصريح اللازم لمزاولة المهنة .. على كل نحن نبحث عن شريك ثالث ، فنحن نحاول إقناع زملائنا في البنك ، كان يسرنا أن تشرفيننا في حفل الافتتاح الذي كنا نحلم به.. أحيانا الأحلام لا تتحقق بسهولة ويسر يا أخت منى

ـ أكيد

ـ ولكني استفدت من هذا المحاولة أنني تعرفت عليك يا أخت منى .. رغم أنني لم أرك إلا مرتين ؛ ولكنها تركت في نفسي أثرا لا ينسى يا آنسة منى .

ضحكت منى وقالت : أنا لم أفعل شيئا يا أخ برهان ولكنك شاب نبيل .. أنا مستعدة لأي خدمة ، ولو كان لديّ معرفة بالمحاسبة لربما شاركتكم في مشروعكم .. فعندما تستقر أموركم فأنا على استعداد لأي مساعدة تطلبونها مني وشكرا .

ـ انتظري يا أخت منى! أنا راغب بشكرك بطريقة عملية إذا تكرمت عليّ بالموافقة على عشاء بسيط في مكان جميل .

عشاء عمل

منى لقد كان لقاؤها بالسيد برهان بالنسبة لها أمرا طبيعيا ، فهي لم تفكر بعلاقة عاطفية .. كانت تراه صديقا وزميلا مثلما كانت تفعل أيام الجامعة وأيام عملها في شركة عبير ناصر ، فهي مهيأة لقبول أي صداقة بريئة ، ولم تنظر لبرهان على أنه يدور حولها أو يقوم بدور معين لتحبه وتهيم به .. فكلامهم كله حول العمل والصداقة .. فهي منذ التقت بزوجها السابق حازم وهي تعرف الذهاب للمطاعم والمسارح ، فمنذ أن أصبحا صديقين كما يقولان وهي ترافقه وتصحبه بزيارة لبعض مصانع والده ، وأهلها لم يحاولوا الاعتراض ، فكانت ترى هذا من طبيعة الانفتاح على الجنس الآخر ، ولا فرق بين رجل وشاب ما دام كل شخص ملتزما حدود الصداقة ، فهي لم تعتد لبس الثوب الشرعي بل تخرج سافرة متبرجة ، لم يكن التدين وتحكيم أمر الله نبراس الأسرة فهم كعامة الناس متساهلون في حدود الدين بل يمكننا القول أن التدين أضحى أمرا شخصيا فقط ، كتبت هذا الكلام ليعرف القارئ أن قبول منى للعشاء مع برهان وغيره أمر اعتيادي.. فهي منذ دخلت الجامعة ودخلت سوق العمل وتقابل وتتحدث مع الرجال دون حرج وتمييز وحتى لما أحبها حازم نائب مدير الشركة تعاملت معه بعاطفة باردة ، وإنما كان حبها له مصلحة وأملا وهي لم تنكر ذلك ، ولما اقترنت به كانت تجلس مع أصحابه وزوجاتهم وتتقبل دعواتهم وسهراتهم ، فلم تكن تشعر بحرج وضيق وتردد .. فتجلس مع الرجال وتتحدث معهم براحة تامة ، بل تعلمت منهم الدخان والسكر واللهو والرقص ، فهي لما تلقت دعوة برهان وقبلتها كانت عندها من هذا الباب .. دعوة صديق وليس دعوة غرام وعشق ، فهي لم تكن حتى هذه اللحظات تدرك أنها تسير إلى قصة حب وزواج .. فلقاؤها بالرجال منذ سبع وثمان سنوات أمرا غير مثير لها.. فالاختلاط مباح وحتى الخلوة ليس لها اعتبار عندها.. فكما هو معروف للإنسان إذا اعتاد الجلوس والحديث مع الجنس الآخر ذهب الحاجز النفسي والخوف من هذه اللقاءات .

لذلك ذهبت للموعد المضروب بينهما بكل ثقة وطمأنينة ، وعلى إحدى موائد المطعم التقيا ،

وجرت بينهما المجاملات التي تحدث بين الأصدقاء منذ زمن بعيد .. وبذل برهان قصارى جهده ليقدم لها أفضل مأكول ، وهي مستغربة لهذا الكرم والجهد في الحقيقة .. فهي لم تعمل له شيئا مهما سوى أنها حاولت مساعدته في شراء أثاث مكتب ، وعندما وصل الأثاث المعين تأجل أمر شرائه ، وتقبلت الأمر دون ريبة وشك ، حتى لم تفكر بالطريقة التي دخل عليها برهان ابتداء هل هي صدفة أم مرتبة ومقصودة ؟ .. ودار الحديث بينهما أيضا أثناء الأكل حول المكتب والمشروع ، فعاد يشكو لها انسحاب أحد الشركاء والشريك الآخر ازداد تردده بعد انسحاب الزميل الثالث فسمعته يقول : يبدو لي أنه يفكر بالانسحاب ولكنه مستحي مني للزمالة والصداقة ولبعض الأموال التي قمنا بدفعها .. فأنا بدأت أفكر بتأجيل المشروع وأن أتحمل جميع الخسائر وأصبر بضع سنين أخرى وأفتح مكتبا وحدي .. فالشركة تركة .. أليس هكذا يقول أصحاب الأمثال ؟ مع أن أكثر الشركات اليوم شركات مساهمة فيها آلاف الشركاء .

ضحكت منى لخاتمة كلامه وقالت : هذا مثل موديل قديم قبل أن يعرف الناس البنوك والشركات المساهمة الكبيرة .. ولكن شركتك ينطبق عليها مثلك القديم

فتبسم الشاب وقال : جائز .

فتابعت منى قائلة : الشركة اليوم مهمة ، فالمشاريع غدت ضخمة بل هناك شركات تتكون من مجموعة من الشركات .. الآلة كبرت المشاريع ؛ ولكن ضبط الإدارة والنظام والتعليمات يؤدي كل ذلك لحسن الإدارة والنجاح .. المهم الإدارة القوية.. وألا تكون تحت ضغط الشركاء فقد تنجح يا سيد برهان .. ولولا قلة ما أملك يا سيد برهان وجهلي بالمحاسبة لشاركتك ، فأنت إنسان محترم وقد ارتاحت نفسي إليك ، وأنا أحب الشباب الذي لديه طموح ، ولا يكتفي براتب آخر الشهر والراحة .. ولولا أنني لا أحب القروض البنكية لنصحتك بأخذ قرض من البنك ولكن القروض إذا لم يوفق الإنسان في البداية وسريعا تكون عليه نقمة وعبء شديد ؛ ربما تحرقه وتدمره .. هذه البنوك وأنت ابن البنوك تعلم أكثر مني أنها لا ترحم العميل إذا خسر أو فشل العمل .

تظاهر برهان بمعرفة خطر القروض البنكية وقال : أعرف ! .. كم بكى بعض العملاء عندما خسروا مشاريعهم وعقاراتهم وأحلامهم عند المدير .. فالقرض البنكي إذا لم يسدد حسب الاتفاق يزيد ويتضاعف ومن ثَم المحاكم .. فتحجر على عقار الشخص وأملاكه وماله .. فالقروض البنكية مصيبة.. وأنا شاكر لك جدا نصيحتك .. فأنا أقول أن أكبر فائدة استفدتها من محاولة فتح المكتب القانوني .. المكتب الحلم هي أنت التقائي بالأخت منى ، وتعرفي على إنسانة مثلك.. مع عدم معرفتنا السابقة لبعض أبديت أريحية لمساعدتي والتعاون معي دون سابق لقاء .. وأنا أيضا أعبر لك عن سعادتي لهذا اللقاء وقبول هذا الغداء المتأخر.. فأنا أحب حقيقة سد بعض معروفك .

ابتسمت منى وقالت : يا رجل ، أنا لم أفعل شيئا لأسمع الكثير من الشكر ، وأنت لم تشتر الأثاث ولكن كما قلت أحسن فائدة من وراء هذه المحاولة أن تعارفنا.. وأنا ليست لديّ عقدة للتعرف على الرجال والنساء .. فأنا اشتغلت في شركة غير التي تعرفنا من خلالها ، وكذلك فتحت مرة مشروعا كالذي تحلم به ؛ ولكنه خسر وتورطنا مع بعض الشركات والبنوك .

كان برهان كما نعلم يمثل ويكذب ، ولم يشرع في أي مشروع ، إنما اتخذ المشروع ذريعة لفتح حوار مع السيدة منى ربيع ، وقد نجح في ذلك وها هو يدعوها لغداء أو عشاء فسمه ما شئت أيها القارئ العزيز فتقبل ، فلما أشارت منى لمشروعها الفاشل تساءل صاحبنا برهان متصنعا الدهشة فقال: مشروع وفشل ! فإذا لم يكن لديك مانع فإني أحب أن أسمع .

سردت عليه قصة المصنع الذي أنشأته مع زوجها السابق حازم ، ولما انتهت القصة ، قال برهان متصنعا الدهشة ثانية لأنه يعرف الجواب : أمتزوجة أنت ؟!

نظرت إليه وصمتت لحظات وقالت : كنت !.. فشل المشروع الذي بنيت عليه آمالا كبارا ، وفشل الزواج الذي أيضا بنيت عليه آمالا كبارا أيضا .. هؤلاء الأثرياء الكبار عندهم حقد وحسد مخيفان .

ـ لك حكاية يا أخت منى ..وهل أفهم أنك تعيشين من غير زوج ؟

ـ لقد أجبره أهله يا سيدي على طلاقي ، أنا آسف لحديثي معك في أمور خاصة ؛ ولكن توقف مشروعك آثار أشجان عندي أيها الصديق .. فأحيانا العجلة وعدم التفكير المتأني في المشاريع الكبيرة والأحلام الكبيرة يفسدها ولا تحقق المرجو منها.. الصناعة تحتاج يا أخ برهان إلى معرفة شاملة بالمشروع .. وتحتاج لفهم جيد ومتقن للتسويق .. ربما أمور المكاتب المحاسبية تختلف عن الاستشار الصناعي ، حتى لا تعتقد أنني أحاول إحباطك عن مشروعك أو حلمك كما تقول .

ـ أكيد فالمكاتب لا تحتاج إلى آلات كثيرة وكبيرة .. هي طاولة وخزانة وهاتف وقطع من الكراسي وآلة كاتبة وعلاقات عامة مع الأصدقاء وأصحاب الشركات وقليل من الدعاية والسمعة .. ورأس مال صغير .

نهضت منى بعدما وضعت علبة سجائرها وقداحتها في حقيبة اليد النسائية وهي تقول : شكرا يا أخ برهان على هذا الطعام والغداء بالنسبة لي ، وربما يكون عندك عشاء ـ وضحكت ضحكة قصيرة ـ والآن اسمح لي بالعودة للعمل والشركة

ـ تتأخرون في الدوام ؟

ـ للتاسعة ليلا في أيام الصيف هذه .

فنهض برهان وهو يقول : شكرا لك أيضا على قبول غداء العبد الضعيف برهان .. وأنا أرغب فعلا أن نصبح أصدقاء إذا لم يكن لديك مانع .

ضحكت وقالت : ها نحن قد صرنا أصدقاء .

ـ قصدي أن يتكرر اللقاء.. فربما استفدت من أفكارك وخبرتك ، وربما تشاركنا معا في مشروع

ـ أنت تعرف عنواني ، وعندما تحتاج لمشورتي وخبرتي كما تتدعي فاتصل بي إن شئت .

ـ أنا ممنون لك يا سيدتي !

ـ إلى اللقاء ..

ـ أهلا بك وشكرا مرة أخرى على قبول الدعوة .

انصرفت منى إلى عملها وهي تعتقد أنها اكتسبت صديقا جديدا أضافته إلى قائمة المعارف والأصدقاء ، وعاد برهان لبيته مفكرا بما حصل من تطورات ، وهو يقول محدثا نفسه: إنها تحب الحديث عن المشاريع والعمل أكثر من الزواج والعواطف ألا تفكر بي عاطفيا؟! .. لم ألحظ شيئا في هذا الاتجاه ، هي أقرت أنها مستعدة لعمل أي صداقة مع أي شخص يروق لها وليس مع برهان وحده .. فهل أنا مجرد رجل في حياتها ؟! ألم أترك في نفسها أي أثر عاطفي ؟! أعندها برود عاطفي شديد ؟! .. لم تتحدث عن حب وزواج وكيف تزوجت حازما ؟ المشاريع إنها تفكر بالمغامرة معي بالمشروع ؛ ولكنها مترددة بحسم الأمر .. هل أصارحها بأمر المشروع ؟ وأن المكتب ليس مشروعي الآن ، وإن راودني حلم أن أفعله ذات يوم ، وأقول لها إنك أنت مشروعي الحقيقي ؟ هل تتقبلني وتغفر لي هذه الوسيلة للوصول لقلبها ؟!

بعد هذا اللقاء على الغداء اتخذ برهان فرصة للمراجعة والانتظار عدة أيام لحسم الأمر معها ، لقد قرر الزواج منها إذا قبلت به زوجا .

هل ترك هذا اللقاء وهذه الدعوة وما قبلها من مقابلات في المحل واتصالات أثرا في نفس منى؟ هل خطر على بالها الحب والزواج من برهان ؟ هي تحدثت عن زواجها الفاشل ولو باختصار ، ولم تبدِ نقمة وحقدا إلا على والديّ زوجها ، وهي تحملهم فشل الزواج وفشل المصنع .. أراد الانتظار بضعة أيام لينظر ويرى هل ترك هذا اللقاء الطويل أثره على السيدة منى ربيع؟ هل تتصل به منى وتسأل عنه وعن أخباره أم أنها نسيته وتجاهلته بعد خروجها من باب المطعم؟!

مضت عشرة أيام ولم يحصل ويحدث أي اتصال بينهما ، هو لم يتصل بالشركة ، ومنى لم تتصل به في البيت ؛ لأنها تعرف رقم هاتف البيت ، ولم تتصل به في البنك ، فعقب برهان على هذا بعد هذا الصبر فقال لنفسه : أنا مجرد رجل عابر سبيل كأي رجل التقته في سنواتها الماضيات.. لم أترك لديها فكرا .. هل تعرف شيئا عن علاقتي بسعد الدين زوج أختها وتمثل دور الجاهل والماكر معا ؟ هل أتصل أنا ؟ يبدو أن الطبخة لم تستوِ ولم تنضج الثمرة .. المشكلة أنني أريدها هي أن تحدثني عن الحب والهوى كما كانت تفعل بي الفتيات من قبل .. ولكني المرة هذه أنا

الذي يريد إيقاعها في حبي .. دنيا ماكرة ..الصبر جميل .. هذا زواج أيها الإنسان وليس قصة غرام أو مسلسل في تلفزيون .

وانقضت أيام أخرى ولم يأت الاتصال المنشود والذي يتوقعه برهان ، وقد يكون حلم به أيضا في منامه ويقظته .. أليس هو فارس الصبايا والوسامة والمصباح الذي تحوم حوله الفراشات لتحترق؟! .. إذن منى فكرت به كصديق فحسب ، فقرر أن يتصل بها ؛ ولكن قبل أن يتخذ القرار الجازم توعكت صحة أمه ، ودخلت المستشفى، فأجل المغامرة النهائية .. قضت الأم أكثر من عشرة أيام في المستشفى .. ومع مرور هذه الأيام العشرة لم يحدث اتصال من منى ببرهان ؛ ولكن ذكرت له إحدى أخواته مرة أن امرأة اتصلت تسأل عنه مساء ولم تذكر اسمها ووعدت بالاتصال ثانية .. فوقع في نفسه أنها منى ربيع فظل على أمل الاتصال .. وقد شعر فارسنا شعورا غريبا وهو أن وسامته وجماله اللذين كانا محل افتخار وغرور منه لم يؤديا ما يطمع منهما .. فمنى غير كل البنات اللواتي صاحبهنّ والتقى بهنّ ..فهما لم يؤثرا بتلك المرأة مع أنها مطلقة فها هو شهر يكاد أن ينصرم ولم تسأل عنه.. ولم تفكر بالاتصال به .. ربما فكرت ولكنها مستحية وهو يقاوم .. وفي قرارة نفسه كان سعيدا بفعلها هذا ، وأن منى ليست ساذجة وسهلة الاصطياد ، ورغم ما تمارسه من انحلال فلديها جدية .. وبعد أن هدأت عاصفة مرض والدته وخرجت من المستشفى سالمة وانشغالهم بها كل هذه الأيام.. التقى بسعد الدين الذي عتب عليه لعدم إخباره بوجع أمه ، فاعتذر له برهان بالنسيان والانشغال ، وظن أن بعض أخواته لابد أنها تحدثت مع والدته لمَ بينهم من الصداقة والجيرة وإن تباعدت المساكن منذ سنوات .

وساق برهان الحديث عن منى وأخبارها ، وهل تزوجت ثانية ؟ فأعلمه سعد أنه منذ رحل أهلها من حي الرحمات ، وعادوا لبيت خليل في حي برقوقة لم يرها ولو مرة واحدة .. لأنها رافضة الحياة معهم وترك ما هي فيه من سكر وسهر وسينما .. فلم يعد يصادفها كما كان يحدث معه في حي رحمات .. لأنه كلما كان يذهب بزوجته لزيارة أمها وأخيها ، تحضر منى للسلام والجلوس مع أختها فيلتقيان .. فأخبارها كما هي ؛ ولكنها مازالت عازمة ومصرة على الحياة

بعيدا عن أهلها أو حي برقوقة بالذات لماذا؟ لا أحد يعلم سبب حقدها على برقوقة .

ثم أخذ يحدثه عن الحداد خليل وطيبته وبساطته وسماحته ، وكيف ربى أولاد أم ربيع ، ودرسهم حتى كبروا وصاروا يعتمدون على أنفسهم؟ وما زال لا ينتظر منهم جزاء ولا شكورا.. وحدثه عن حي برقوقة وحب الناس فيه لبعضهم وتعاطفهم مع بعض بشكل ملفت للنظر، وحدثه عن مالك شقيق منى وحنين زوجته وانشغاله بشراء بيت لإنشاء عمارة كبيرة عليه.. ولما انصرف سعد بوالدته التي كانت تقوم بزيارة أم برهان التي تعافت من سقمها ، قال برهان لنفسه : لا جديد في حياة منى ، لا أخبار عنها .. حسنا يا ابنة الكرام ! سأستمر في هذه اللعبة

لم يأتِ الاتصال من الفتاة التي حدثته عنها أخته ، فذهب ظنه أنها فتاة أخرى لم تكن منى .. فاستعد للقاء آخر مع منى ربيع الفتاة المتمردة على تقاليد العائلة ، وتحاول أن تستفيد من الحرية التي شاعت بين نساء القرن العشرين بأكبر مساحة وطاقة .. ثلاثة لقاءات وعدة اتصالات لم تحدث شيئا .. اتصل كعادته من البنك ، وجرت المجاملات والاعتذارات اللازمة ودار الحديث من جديد حول المشروع التجاري الذي يرغب السيد برهان بإنشائه ، وادعى أنه وجد شريكا ثالثا وهم يستعدون لفتح المكتب من جديد وربما يشترون الأثاث المزعوم قريبا ، وأنه اتصل بها ليعلم إذا ما زالت راغبة بمساعدتهم على الحصول على ذلك الأثاث السابق الذكر ، وفي نهاية الحديث دعاها لغداء آخر، فحاولت الاعتذار ابتداء ولكنه أصر وأنه سيتحدث معها في موضوع مهم.. فرحبت بذلك .. ولما طال الحديث تعرضت لعتاب جديد من صاحب الشركة وغادرت الشركة غاضبة وهددت بتقديم استقالتها ..

وكان أبو محمد شفيق قال لها : أنت عصبية أكثر من اللازم اليوم يا منى .. هذا شغل .. لو كل مكالمة منا أو مستقبلة تأخذ هذا الوقت لتعطل الشغل .. وإذا أنت غير مرتاحة للعمل معنا قدمي استقالتك وبدون تهديد ، واذهبي لحسام وخذي حسابك.. نحن نقدر ونحترم قدرتك على العمل ومتابعة المراسلات أرجو أن يكون كلامي واضحا لك .

ولما انصرفت غاضبة مكثت يومين غائبة عن العمل ، ولما رجعت سألها المدير عن سبب تغيبها،

فزعمت أنها كانت مريضة ، واعتذرت له عن سبب عصبيتها قبل يومين وعن تصرفها ذلك .. فقبل الرجل عذرها وطلب منها العودة لمكتبها، كانت منى تحلم بالاستقلال عن العمل كمخدومة ، وأن يكون لها مشروعها الخاص ، وأن تكون هي صاحبة المصنع أو الشركة ؛ ولكن المال الذي تملكه لا يكفي لمغامرة جديدة ، حتى ولو باعت سيارتها الصغيرة ، وما حصلت عليه من مؤخر صداقها بعد طلاقها لا يكفي في نظرها للمخاطرة من جديد ، فإنها ما زالت مدينة لربيع ، فهو لليوم لم يطالبها لا هي ولا زوجها بدرهم واحد .. لذلك لما التقت بالسيد برهان نفست له بمشاكلها في الشركة ، وتعاطف معها برهان وحثها على الصبر وعدم الاستقالة ، وكانت هذه أول مرة تحدثه عن مشاكلها الخاصة شاكية له همها ، فسر من ذلك واعتبر أنها بدأت تثق به ، وتطمئن إليه أكثر، واعتبر ذلك تقدما.. ولما انتهت من عرض مشكلتها مع المدير الذي يضيق عليها عند استعمال الهاتف بحجة ضيق وقت العمل .. ثم تحدث برهان من جديد عن المشروع الخاص ووجود الشريك الثالث ، وأنهم قريبا سيفتحون المكتب المحاسبي ، وأنهم إذا نجحوا في مشروعهم ربما يستعينون بها في إدارة المكتب والقيام بأعمال السكرتاريا إذا لم تمانع في ذلك .

فقالت ضاحكة من فكرة برهان التعاطفية مع مشكلتها الخاصة : عندما يحين الوقت سوف أفكر ، أنا قرفت من شفيق ومعاملته ، هو يفكر بأنني بنت صغيرة .. فعندما يقف مشروعكم الحلم على قدميه ويشب قائما سأفكر بالعمل معكم وربما أساهم معكم بمبلغ معين إن نجح مشروعكم

ـ على الرحب والسعة يا أخت منى .. أنا سعيد باللقاء بك ثانية يا أخت منى .. لقد انشغلنا بمرض أمي ، فقد مرضت ومكثت أياما في المشفى ، وكل أولادها متزوجون إلا أنا.. الصغير متزوج والكبير متزوج وهي تريد تزويجي قبل موتها ومغادرتها الدنيا.. وحدثها عن الأسرة ثم قال في نهاية الحديث عن الأسرة والزواج : أليس حولك فتاة تقبل بي زوجا ؟ .. فأنا لا أريد فتاة من العائلة .

غرقت منى بالضحك قالت : هذه المهمة الوحيدة التي لم اشتغل بها يوما يا برهان .. على كل حال أذكر لي مواصفات الفتاة التي تحلم بها زوجة لك ، رغم اختلاطي بالفتيات والعوانس لم يخطر ببالي أن يطلب مني أحدهم شيئا مثل هذا..

ـ فليكن أنا أول طالب .. فتاة جميلة ، فتاة عاملة ، أنا صحيح لست بحاجة لدخلها ؛ ولكن الحياة كما تعلمين اليوم مشاركة ومصروف وتحمل مسؤوليات وإيجار بيت وغير ذلك مما تعرفينه ، وأنت خبرت الحياة الزوجية كما ذكرت لي المرة السابقة .. قبل شهر .. هذا هو الموضوع المهم يا أخت منى !



اعتراف منى

لما عادت السيدة منى لبيتها بعد لقائها الأخير ببرهان همست لنفسها كأنها أول مرة تفكر بالزواج ثانية: هل يخطبني من نفسي هذا الشاب؟! وأنا لم أفكر بذلك منذ التقينا.. ولكني ذكرت أمامه أنني متزوجة ، وبعدها لم يعد يخاطبني بآنسة التي تشير وتدل على العزوبية في عرف الناس .. ثم أخذت تتذكر وتعيد صور التقائها ببرهان منذ البداية .. أفعال بريئة! وقد التقى بي في مكان العمل.. وتعرفنا من أجل شراء الأثاث ، وعرفني على مكان عمله .. وعلى هاتف أهله ..هل يقصدني أنا بالزواج؟ .. إنه يعرف أنني امرأة تزوجت وطلقت ؛ ولكني ذكرت له أيضا أن سبب فشل زواجي أهل الزوج وليس مني .. برهان الذي لم يسبق له الزواج يتزوج مني أنا ! .. ما موقف أهله بالزواج من مطلقة ؟! هل يرضونني لابنهم زوجة ؟ لماذا يريدني أنا زوجة ؟ هل خلت الدنيا من النساء؟ أوه! هل عنده مشكلة معينة أو عيب ما ؟ الأسئلة كثيرة يا منى .. هو أخبرني أنه لم يتزوج من قبل ولا حتى خطب فترك .. هل أكرر تجربة الزواج ثانية ؟ حازم أين أنت يا حازم؟! لقد تزوج بعدما تخلص من المخدرات .. وولد له كما علمت ؟ لقد نسيني تماما وقد نسيته ، ليس هناك أمل ولو ضئيل بأن يعود إليّ حتى لو قبر والديه .. فهو قد تزوج ابنة خالته .. عندما يموت أبوه ربما ذكرني .. أمه ستمنعه .. عندما تموت أمه سيذكرني ويتذكر أنني ضحيت بكل شيء من أجله .. تزوجته رغم أنف أهلي .. ورغم رفض والديه للزواج .. قدمت له كل ثروتي وثروة أخي ربيع .. عبير تكرهني ووقفت ضد زواجنا .. ستمنعه أيضا .. فلمَ لا أنساه كما نسيني؟! ولم يكترث بي ، لم يتصل بي ليعتذر عمّا سببه لي من دمار وجرح .. منذ افترقنا لم يحصل بيننا أي لقاء .. بإمكانه أن يتصل ويعتذر ويأسف ويشكو ضعفه .. لابد أنه يحملني سبب شقائه .. انتهى هذا المخلوق من حياتي ، قالت ذلك وهي تضغط على أسنانها غلا وقهرا سأذكر لبرهان أنني امرأة مطلقة مرة أخرى حتى يقطع أمله من التفكير بالزواج مني .. هو يعرف ذلك .. ولسوف أوكده له .

تنهدت بعمق وعادت تردد : الزواج والحب .. أيحبني برهان وأنا لا أحس؟ .. لم نقف قليلا

عند الحب .. رجل دخل المتجر لشراء أثاث .. جاهل بالسوق فالتجأ إليّ .. فعظم عنده تعاطفي معه وعدم طرده من مكتبي أو أنني اعتذرت وقلت له ليس هذا من اختصاصي اذهب إلى ...
تنهدت مرة أخرى وقالت: هو والله رجل حسن الهيئة ، بل جميل جدا .. لماذا لم يتزوج بعد وهو بهذا الحسن والبهاء ؟! الناس أمرها غريب .. وهو موفق بالعمل وله أخ طبيب وأخ مهندس لقد تحدث معي عن الأسرة .. أكيد أنه يتحدث عن الزواج مني .. لست حمقاء ليطلب مني أنا أن أبحث له عن زوجة .. ماذا الذي أعجبه فيّ ؟ انفتاحي على الجنس الآخر .. جمالي .. لست بالفاتنة بل هو أجمل مني إذا كان الجمال بالبياض .. أخلاقي .. أي أخلاق؟! وهم يرون جلوسنا مع الرجال حرام وعيب .. لعله ليس منهم .. لم يعلق يوما على شربي للدخان أو على لبسي البنطلون وقص شعري .. هما لقاءان في المطعم كيف سيسمح لنفسه بمثل هكذا نقد؟! .. أمر هذا الزواج غريب .. ربما فعلا يقصد امرأة غيري .. ولكن ما أدراه أني أعمل خاطبة.. فهذا لم يحدث بيننا ليقع في ظنه شيئا من ذلك .. عيناه كانت تخاطبني أنا .. كانت تتكلم ؛ ولكنه أراد أن يترك فرصة للتفكير بما أشار إليه .. شاب ذكي ولطيف .. منى ساعد تتزوج من جديد !.. إنني أشرب الخمر .. هل هو سكير مثل صاحبي القديم ؟ آه! هذا ما جنيته من صحبة حازم وأصحابه الخمر .. قارورة الخمر في ثلاجة البيت باستمرار .. آه !.. حنين عندها ولد ، وبعد حين سيأتي الثاني ، وأنا البكر والكبيرة في عائلة ساعد ولم اخلف بعد لم أحب الأمومة التي يتحدثون عنها .. لا ، لأنك لم تجربيها.. الأمومة فطرة يا منى .. لا تكابري في هذه .. الدابة تحب الأمومة .. إنني أحب الأفلام والسهرات والاختلاط ولعب الورق ، ولا أتحرج من اللعب والجلوس مع الرجال.. هل يقبلني الرجل بهذه الصفات ؟!
أخذت تتذكر أحداثا جرت بينها وبين برهان ، وأعادت التفكير مرات ومرات .. وهمست لنفسها : كان رزينا معي مؤدبا، وكما كنت أنا كذلك ، لم يكن بيننا تهتك ليطمع بي ..



قررت الاتصال به ودعوته لعشاء ليلي ومصارحته بأمرها مفصلا.. وقبل برهان الدعوة بسرور ورضا ، وتعجب أن تكون قد وجدت له عروسا بهذه السرعة .. فلما التقيا وأنهيا الطعام ورفعت الأواني ، وأحضر لهم العامل أو النادل الشاي ، سألته منى عن مشروع المكتب فلما حدثها عن ذلك الحلم بضع جمل قال باسما: لا أعتقد أنك دعوتني وخسرت هذا المبلغ لتسأليني عن المكتب الحلم هو حلم .. يبدو أنه يريد أن يتعثر من جديد .. الناس تخاف ولا تحب الإقدام والمخاطرة .. أنا توقعت أن تحدثيني عن الطلب الذي طلبته منك في آخر مرة التقينا وحتى أنني ظننت أنك أتيت بالعروس معك .

تأملته لحظات وقالت باسمة : العروس ستأتي قريبا إن شاء الله ، وربما خلال هذه الجلسة .. وأنا أحببت أن أكرمك كما تحب إكرامي ، وليس دفع الأموال من أجل الأصدقاء خسارة يا سيد برهان .. فأنا كما تعلم متزوجة .

ـ ذكرت ذلك وأنك قد طلقت بسبب والديه .

ـ لقد ذكرت لك فشلي في الزواج وفي المشاريع .. فأنا أحمل لقب مطلقة يا أخ برهان إذا كنت تفكر بالزواج مني.. أنا لما عدت للبيت فكرت بطلبك الغريب والمفاجئ أن تطلب مني أنا أن أبحث لك عن عروس .. فماذا كنت تقصد بطلبك؟! ألم تقصدني أنا ؟!

كان برهان يتابعها بعينيه بانبهار، ولما سألته سكت لحظات ثم قال : أنت صريحة جدا وشجاعة

ـ الصراحة راحة .. أنا فكرت بكلامك اللطيف ، وحديثك عن أمك ورغبتها بتزويجك وأسرتك أيضا ، ثم طلبك الأخير مني ، فلما تأملته وقع في نفسي أنك تخطبني بطريقة ذكية وغير مباشرة ، وقلت لنفسي ربما أنك خلال الشهر الذي لم نلتقِ فيه قد نسيت أنني متزوجة وفاشلة في الزواج .. فكان لابد من هذا اللقاء لأذكرك .

ـ ذكرت أنك فشلت في زواجك ولم انسَ ، وذكرت أن أهل زوجك رفضوك، وأن هؤلاء الأثرياء لا يحبون الفقراء الذين يحلمون بالصعود لفوق .. اسمعي يا أخت منى.. إن طلاقك لا يعيبك بشيء .. ولا يجب أن ينظر للطلاق دائما أنه شر.. ولكن تعقد المجتمعات المعاصرة

لكثرة مشاكل الحياة اليومية والاستهلاك وأمور أخرى عقدت قضية الطلاق في حياة الناس ، مع أن الطلاق كما هو معروف للجميع حل لمشكلة تعقدت بين الزوجين .. المهم أنا لا أرى أن هذا عيب فيك .. وأنا معجب بك منذ أول مرة رأيتك فيها.. لا تقولي حب من أول نظرة أنا شاب مثقف ومتعلم ولست مراهقا.. والأحداث تطورت وأعلم أنك من غير زوج .. ولي رغبة حقيقية بالاقتران بك إذا وافقت ؛ ولكني خجلت أن أصارحك بذلك في المرة الماضية.. خشيت أن تظني أن ذلك شفقة وعطف عندما حدثتيني بمرارة عن صاحب المعرض وأنك فكرت بالاستقالة .. خشيت أن تفهميني أنني أخطبك عاطفيا ومتأثرا بما رويت وليس بعقلي وفكري وإنما طلبي ردة فعل لضيقك .. وبما أنك تحبين الصراحة فأنا أطلبك من نفسك قبل أن أقابل والديك أو أهلك .

التزمت الصمت وهي تسمع هذه الكلمات والتبريرات وبعد لحظات من سماعها طلب برهان قالت متسألة: أأنا أتزوج مرة أخرى؟ لا أدري ماذا أقول لك أيها الإنسان ؟ أأنت حر مثلي ؟

قال دهشا: حر؟!

ـ نعم

ـ وهل أنا رقيق؟!

ـ لا أقصد الرق القديم .. أنا فتاة أدعي أنني متحررة يا برهان .. وجلوسي معك أكثر من مرة وقبولي دعوتك للغداء أكثر من مرة يؤكد لك هذه الحرية .. وقد لا تعلم يا برهان أنني أشرب الخمر .. لم تفاجأ بالخبر؟!

هزّ رأسه ضاحكا ، ولم ينبس بكلمة فتابعت شرح حريتها : وأحضر آخر الأفلام .. وألبس ما أشاء من الثياب الطويلة والقصيرة .. وأقص شعري حسب الموضة .. وأضع على وجهي كل المساحيق والبودرة والمكياج كما ترى عليّ الآن

ضحك ولم يعقب فتابعت قائلة : والدخان ، إنك تعلم أنني أدخن وأكثر من مرة أشعلت لي السيجارة ، وأنت تدخن سيجارة وأنا أدخن عشرة مقابلها.. وسأقص عليك شيئا من أمري أنا

أكبر أفراد الأسرة .. عائلتي .. مات أبي وأنا صغيرة قبل سني المراهقة ، وولدت ونشأت في حي قديم من أقدم أحياء العاصمة ، ونشأ الحي فوضويا واسمه حي برقوقة، ربما على اسم شخص أو عائلة سكنت فيه ، كان المهاجرون من المدن والقرى الأخرى يسكنون فيه لرخصه وعدم تبعيته لبلدية حتى كبر.. وهو من أشهر أحياء المدينة التي تكبر كل يوم .. أنشئ من غير نظام ثم تطور وتحدث بعد ذلك .. تزوجت أمي رجلا حدادا من الحي بعد وفاة أبي بسنين ، وقام هذا الرجل فينا مقام الوالد.. مشكلة حي برقوقة في نظري أنه لا أسرار فيه ، فالناس يعرفون عن بعض كل شيء.. لا أسرار داخل البيوت وخارجها .. المهم أن هذا الحداد بعد أن وافقت أمي على الزواج منه بعدما طلبها من إخوتها الذين يعيش بعضهم في حي برقوقة ، كان قد تعهد لها بتعليمنا إذا كبرنا ونجحنا في الثانوية العامة حتى نتخرج من الجامعات .

اقترب منهم جرسون فقال برهان مقاطعا : أتشربين شيئا آخر ؟

ـ لا ، شكرا ، دعني أعرفك بنفسي أكثر ؛ لأن هذا الكلام سيكون له ما بعده يا أخ برهان .

طلب لنفسه قهوة ولما ابتعد العامل قال : تابعي ، إنني مصغ إليك .

ونحن نعلم أن الذي ستقوله منى يعرفه برهان أو يعرف أكثره من سعد الدين صديقه ، بعد هدوء يسير قالت منى : تزوجت أمي الحداد خليلا، وأخذ سكان الحي يسموننا بـ أيتام الحداد خليل، وانتقلنا معها إلى بيت خليل أحمد عامل حدادة قديمة.. وكان الرجل عند كلمته فقام برعايتنا أحسن رعاية ، وكان يعتبرنا أولاده لأن المسكين قد حرم من الخلفة والذرية .. فكنا كأبنائه حقيقة .. المهم نجحت ودخلت الجامعة رغم معارضته بداية للأفكار السيئة التي يحملها عن الجامعات وتعليم البنات والأشياء التي تسمع بها ونعرفها نحن أليس كذلك ؟

ـ بلى ؛ ولكن لابد من الدراسة .

ـ ولكنه أمام ضغط أمي والعهد القديم وأنا أول الوفاء بالعهد تكفل بالصرف والنفقة على تعليمي حتى تخرجت من الجامعة .. وبعدي بسنة دخل أخي الأصغر مني الجامعة .. فالحق أن الرجل بذل وسعه وجاهد معنا ، وخلال شهور يسيرة كنت موظفة في شركة وتحملت عبء

المساعدة في تدريس أخي حتى يتخرج من كلية الهندسة ، وظل الرجل يشارك في تعليم أخي ، ويصرف هذا الحداد الفاضل على البيت ويتحمل تكاليف الحياة دون شكوى وأنين .. ولما عملت في إحدى الشركات الكبيرة التقيت بابن صاحب الشركة ، وصار بيننا انسجام خلال شهور .. وأنا كنت فعلا متحررة ، ولا تهمني التقاليد والعادات ولا حتى الاعتبارات ، وقد عشت قصة حب معه حتى تخرج أخي من كلية الهندسة.. وفعلا أصبح أخي ربيع مهندسا وخف العبء أكثر عن خليل وعني .. وكنت خلال هذه السنوات أرفض أي زواج بحجة تعليم أخي والعائلة.. والصحيح أني كنت مرتبطة بمن أصبح زوجي السيد حازم .. هذا الرجل كان فعلا يريدني زوجة صالحة ؛ ولكن أسرته ترفض فكرة الزواج من فتاة معدمة مثلي لا ثروة ولا رصيد لديها .. مع أنني أحمل شهادة مهمة آداب إنجليزي ، وجهدي كان واضحا في الشركة ؛ ولكن مديرة الشركة التي كنت أعمل بها وهي أخت الشاب الذي يرغب بي زوجة كانت من رأي والديها في رفضي دخول عالمهم الغني . وبعد ثلاث سنوات لا أذكر بالضبط وافقت على الزواج والارتباط الجسدي بحازم يا أخ برهان .. كان يريد الزواج مني دون موافقة أهله ، فهم مصرون على رفضي رغم أنهم لا يعرفونني بشكل جيد ربما رأوني أثناء سنوات العمل .. وأمام هذا الموقف الشجاع منه في نظري وافقت أنا على الزفاف منه دون رضا أهله كلهم، ودون اعتبار لتحذيرات أخته مديرتنا أنا وإياه .. قابل الشاب أهلي، ورفض زوج أمي الزواج بهذه الصورة ، وأصر على حضور والديه لخطبتي كما يخطب البشر.. ولكن أمي وأخي المهندس خوفا من زواجي دون أمرهم ورضاهم وافقوا ، فاضطر خليل الحداد أن يطلق أمي ، ورحلنا لحي الرحمات أحسن أحياء المدينة تلك الأيام ، فطلقت أمي من أجل زواجي أنا يا برهان .. وتم زواجي رغم أنف خليل وأنف والديّ زوجي وأخته .. ولكنهما أصرا العناد والتحدي ودفعوا حازما للابتعاد عن شركات والده .. فلحبه الكبير لي ، وربما للتضحية التي قدمتها له من أجل الزواج دون موافقة أهله وتطليق أمي من خليل بعد عشرة تلك السنوات ، وما بذله الرجل من أجلنا أصر على بقائي على ذمته .. وجمعنا ما نملك من مال ، واقترضتنا من

بعض البنوك التي لحازم علاقة ومعرفة بها ، وفتحنا مصنعا ولكنه لم يكمل السنة فقد خسر وانكسر وفشل المشروع وكثر الدائنون.. فدفعنا ما فوقنا وتحتنا لبقاء عش الزوجية ، وكان قد طلب مني من أول الزواج عدم الإنجاب المبكر .. فهؤلاء الأكابر لا يحبون الولادة مبكرا كما نحب نحن البسطاء .. المهم يا برهان أمام ذلك الواقع المؤلم راسل ابن عم له في أمريكا ليسافر إلى هناك ؛ فهو لم يحسن تدبير نفسه، فقد كان هنا يعتمد على سمعة أبيه وأعمامه وأخواله الكبار ولكنّ أباه دمره وحطمه ، وهو كان وراء فشل مشروعنا بمكره وخبثه.. وأنت تعلم أن بضاعة لا تسوق ولا تجد لها زبائن ستفسد إن كان مواد غذائية المهم أيها الأخ برهان سافر صاحبي البطل في نظري إلى أمريكا بعدما غرقنا في الديون ؛ ولكنه اشتغل هناك كما علمت بالمخدرات والهيروين .. فمرض بسرعة ولم يتحمل جسده المخدرات واستسلم لأمر والديه وضعف لطلب والديه وطلقني من هناك ، ودفع لي أحد محامي والده مؤخر صداقي وزادني خمسة الآلاف دينار أخرى لتسهيل إجراءات الطلاق .. وعاد الزوج من هناك دون أن أعلم ، وعالجوه هنا ، وفور تعافيه زوجوه ليقطعوا الأمل لديه بالعودة إليّ ، ولم يحاول الاتصال بي ولو للاعتذار؛ ولكني علمت من أخته عبير وبعض أصدقائنا أنه تزوج فتاة من العائلة ، وأنجب منها ، وهو اليوم مجرد موظف في إحدى شركات أبيه وأمه .. عايش على الهامش يأكل ويشرب ويسكر .. لا رأي ولا مال .. فهو دمر وحطم وذهبت أنا في الرجلين

ولما سكتت وطال الصمت هنيهة قال : يا لها من أيام عصيبة عليك يا أخت منى !

ـ لم تنتهِ القصة يا برهان .. المهم أنني تعلقت بعادات سيئة في نظر أهلي إخوتي وأمي .. الدخان والخمر واللباس العري .. والأنانية فلما طلقت وعدت للحياة معهم بعد إخلائي الشقة التي عشنا فيها .. حاولوا إعادة تأهيلي كما يقول مالك أخي ، ولما أرادوا منعي مما تعودت عليه خلال حياتي مع الزوج حازم صارت مشاكل عائلية اضطررت بعدها للحياة في شقة وحدي ؛ ولكنها قريبة من شقتهم في رحمات .. ثم سافر أخي المهندس للخليج للعمل هناك وتزوج من ابنة خالي وتزوجت أختي الصغيرة رابع العائلة .. ثم أعادوا أمي لزوجها الحداد ورحلوا لحي برقوقة ،

وأنا رفضت العودة لبرقوقة لما كان من أثره السيئ على مسيرة زواجي ، فتعقدت منه وزاد بغضي له .. فأنا اليوم فتاة مطلقة تسكن في شقة وحدها ولديها عادات سيئة كثيرة ويصعب فراقها.. والآن بعدما أسمعتك سيرة حياتي الخاصة .. ادع لك التفكير فيها ؛ فإن رأيتني بعد ذلك المرأة المناسبة لك وللحياة مع أسرتك سأفكر أنا للاقتران بك.. أنا صريحة معك للغاية يا أخ برهان.. واعلم لليوم أنني لم أفكر بك عاطفيا .. فيبدو أن ما يسميه الناس اليوم الحب قد مات في قلبي ربما يتغير ذلك فيما بعد أو كما يقولون حب بعد الزواج .. وأنت إذا أحببت أن تحدثني عن نفسك أكثر فأنا مستعدة للسماع والجلوس معك لآخر الليل .. وأما إذا أحببت أن لا تتكلم بشيء حتى تفكر بما سمعت مني عن نفسي فلك ذلك أيها الصديق .

ـ فعلا أنت صريحة وشجاعة يا منى والصراحة راحة .. نحن نكره النفاق وأنا لا أحبه سأفكر بكل كلمة نطقت بها ، ولي عندك طلب صغير ..

ضحكت منى وقالت : الخمر ؟!

ـ نعم الخمر.. أنا لا أبخس ذكاءك أيضا .. أنا قد أغفر كل شيء لزوجتي إلا الخمر .. أنا لم أشرب الخمر وعمري كله ما شربتها ولا فكرت فيها ولو على سبيل المزح ومجاراة الأصحاب.. فهل تعدينني بالتفكير في هذا الأمر؟ ويمكنك التخلص من الخمر.. وباقي الأمور هينة وقد أقبلها وندعها للأيام ، وأعدك أن لا أجبرك على ترك أي شيء تحبينه من هذه العادات .. دخان سينما سهرات رقص .. الخمر يا منى حتى احسم أمري الذي كان محسوما بالزواج منك .

ـ أنت فعلا لطيف يا صديقي العزيز .. لا تتخيل أيها الإنسان إنني مدمنة خمر .. إنما هي أمر عادي في حياتي بعد زواجي من حازم .. ولتعلم أنني لم أتعلم شرب الخمر أثناء العمل معه في الشركة لم أكن أشربها البتة ، لا هي ولا حتى الدخان .. إنما حصل ذلك بعد الزواج ، لقد كانت رائحته كريهة جدا فجاريته حتى لا أتأفف منه ومن رائحته النتنة فتعاطيت الخمر والدخان.. ولما حصلت المشكلة وتبعها الطلاق عن بعد زاد تعلقي بهما أكثر ظانا كما يظن الكثير أنهما يزيلان الهموم والغموم ، وما ذلك إلا ضحك على اللحى كما يقولون .. إنما هما شهوة كباقي الشهوات

السيئة .. على كل عندما أسمع رأيك الحاسم فيّ ربما أعدك بترك الخمر .. أما الحب إذا كنت تنشده عندي فهو لليوم غير موجود .. إنني أبغض الرجال رغم ما تراه من صداقة بيني وبينك.. ربما لوالد حازم وما فعله بي عندما دخلت عليه مكتبه بعد مطاردة شاقة ، وقد ترجيته أن يصفح عن ابنه وكلي دموع واستجداء ، فما كان منه إلا أن طردني وحطمني ودمرني .. إنه يوم شؤم ..

رق برهان لما تعرضت له من الإهانة والطرد فقال : يبدو أن هذا موقف عنيف لا ينسى .

ـ من يومها كرهت جنس الرجال مع أنني موقنة أنهم ليسوا سواء .. الذل والهوان دمار للإنسان يا سيد برهان .. أنا ليست لديّ عقدة قديمة نحوهم ، وإن بدا لك ولغيرك أنني أحب تقليدهم في قص الشعر ولبس البنطال وغير ذلك .. على كل سيكون لنا كلام إذا حدث توافق بيننا ؛ ولكن قبل الانصراف ليفكر كل منا بالآخر لماذا أنت لليوم غير متزوج ؟! رغم أنك قريب من الثلاثين يا سيدي .

ـ فعلا قريب من الثلاثين .. بالضبط ثمانية وعشرون إلا أشهرا .. وأنا التقيت بمئات الفتيات سواء في الجامعة أو البنك أو في الحياة كلها .. لليوم لم أتزوج ربما لتكوني قدري ونصيبي أنت يا منى .

ـ أوه! .. أنا .. أنا لم أكن أظن أن أحدا سيفكر بي كزوجة يا برهان .. ولكني أبيت أن أعيش عشيقة أو خليلة.. ورغم خوف أهلي عليّ من الانزلاق والوصول إلى ذلك .. فقد حاول البعض الحياة معي هكذا ، فرفضت لم أقبل أن أعيش كدابة .. وإن كنت غير مبال بالتقاليد والطقوس فللشرف شأن عندي رغم طول علاقتي بحازم الزوج السابق لي قبل الزواج ، فهو لم يستطع لن ينال مني ولو قبلة واحدة رغم محاولاته الكثيرة .. مع تأثري ببنات أوروبا وأمريكا في هذا الجانب لم أتهاون وأتحلل .. وأنا ذكرت لك سبب تعلقي بالخمر والدخان ، ولا أقول هذا الكلام مبررا لك ومشجعا لك للاقتران بي .. صدق حتى لو لم يحصل بيننا ما عرضت عليّ من زواج سأحتفظ بك صديقا حتى أنت تخرج من حياتي أو تطلب مني هجرك

ـ اسمعي أنا أريد أن أقول لك أنك أول فتاة أو امرأة تؤثر فيّ .. لا أدري لماذا؟! أنا منجذب إليك بقوة مع ما ذكرته عن نفسك من صفات وعادات لا تروق لي.. ومع أن الناس لا يحبون الوضوح والصراحة في مثل هكذا قضية ولكني معجب بصراحتك وشجاعتك ، رغم أن العقل قد يعتبر ذلك فضائح ؛ ولكننا نعيش ظروفا خاصة ، وقد يعتبر هذا مبررا لهذه الاعترافات الخاصة .. وخط دفاع في المستقبل .

ـ أنا كانت أحلامي كبيرة يا برهان .. كنت أحلم بأن أكون ملكة غير متوجة كما يقال .. كنت عندما التقيت بحازم ناصر اعتبره الدرجة الأولى في سلم الوصول للتاج .. ولكنه دمر أحلامي وأعادني لحي برقوقة .. فتاة لا أحلام لها ولا طموح .. كان الزواج عندي مجرد عادة وتقليد وديكور لابد منه ..

ـ والآن؟!

ـ والآن .. أمل في الحياة من جديد .. أمل في تحقيق الأمومة التي تتحدث عنها النساء والأمهات لي أخت متزوجة وإنها ما لقيتني إلا حدثتني عن حلاوة الأمومة وضم رضيع إلى صدر أمه.. إنها تحاول بذلك تشجيعي على الزواج من جديد .. أنا لم أُبدِ لهم اعتراضي يوما على الزواج ثانية إنهم يريدون تزويجي من أي رجل وهذا لا يصح عندي يا برهان .. طال الحديث أيها الصديق لا أنكر أنك هززتني في المرة الماضية بعرضك وهذه المرة ، وها نحن وضعنا النقاط على الحروف وعلينا التفكير بروية بما جرى بيننا.. هيا ننصرف وأشكرك كل الشكر على إصغائك لي .. وأنت أول رجل يسمح لي بسماع همسات قلبي وقصة هلاكي .. لعلك الملاك المرسل لإنقاذي أيها الصديق .. إلى اللقاء .

منى تعرف الحقيقة

دخل برهان بيت العائلة ودخل حجرته الخاصة ، وأغلق بابها بالمفتاح على غير العادة ، وذهب في تفكير عميق في نهاية مغامرته ، وأن الفتاة تنتظر رده بعدما أعاد إليها الأمل في السعادة من جديد .. الزواج حدث كبير ، ومن أهم الأحداث الخاصة في حياة الإنسان مهما حاول البعض من التقليل من أهميته وشأنه .. هل يضحي ويتزوج من مطلقة؟ عاداتها القبيحة هل تتخلص منها ؟.. إنه يريد امرأة صالحة.. منى لديها بذرة وخامة طيبة .. ستعود أنثى طبيعية.. ستتخلص من تفكير الرجل .. من سيعارض هذا الزواج من العائلة ؟! .. أمه ستعارض هذا الزواج .. كيف يتزوج فتاة مطلقة ومن سنه؟ أما أبوه فإقناعه سهل وميسور .. وهل يتزوج بدون موافقتهم كما حصل مع زوجها السابق؟!.. هو يختلف عن حازم.. فهو مستقل في عمله ومصروفه وحركته .. لا يتدخل أبوه في حياته الخاصة .. ترك لهم حرية التصرف .. المهم عنده احترام الناس.. أمه ستعارض الزواج بس لأنها امرأة مطلقة ، ولسنها القريب من سنه وربما تكبره بأشهر .. أو ستعارض لأنه لم يطلب منها البحث عن عروس ، بحث بنفسه وطلب من منى أن تبحث عن عروس ، كان يمهد بذلك لطلب يدها ، وأدركت أنها المقصودة بطلبه ، وفتحت له قلبها وقصت عليه أخطر أحداث حياتها ليكون على بينة من ماضيها ؛ ولتكون الحياة بينهما واضحة وضوح الشمس ..وهي صادقة لم تحدثه عن حب وغرام وغزل ، فمنى لا تعرف ذلك ، واعترفت له أن حياتها وزواجها لحازم لم يكن عن حب وعشق إنما لمصلحة وبحكم العادة .. إنما المحب كان حازم .. واليوم المعجب والمحب برهان لقد طمعت بالزواج مني ، ولها رغبة بذلك ؛ ولكنها تحب أن تعطيني فرصة للتفكير ، لا تريد العجلة ثم نندم .. إنها تريد أن تكون أنثى وأم .. وهذا تفكير جيد وطبيعي .. وقال : إذا رفضت الزواج منها بعدما زرعت الأمل في قلبها من جديد سيدب في قلبها اليأس ، وسأساعد في تدميرها بعد ذلك الأمل الذي كان يلمع ببريق عينيها .. إنها فتاة عاشت في أحلام وأوهام الثروة ، ولما اصطدمت في الواقع الصعب أحست أنها وقعت في بئر عميقة ولا تستطيع الخروج منها .. فأصرت على التمرد

والعناد والبقاء على عادات السوء .. كيف سأقنع أمي بها ؟ ليس بعد الصراحة راحة .. الصراحة راحة .. أنا عن نفسي ليس لديّ مانع من الزواج من منى ربيع حتى ولو كانت مطلقة أمي العقبة الآن !

قضى أياما وهو يقنع والدته بمنى ، وهو يريد أن يحقق لها أمنيتها ورغبتها بزواجه ، وأعلمها أنه تعرف على فتاة وأعجبته غاية العجب ؛ ولكنها تزوجت من قبل وطلقها زوجها بعد سفره إلى أمريكا.. وهي تشتغل براتب جيد ، وليس لديها أولاد من زوجها .. وأخطر ما قاله لأمه أنه اعترف بأن قلبه يميل إليها .. وأنه يرى سعادته معها وإذا لم يتزوجها لن يتزوج أبدا ..

وبعد تردد ورفض من قبل أمه ، وقد رأت أم عبد القادر والدة برهان عزمه وتصميمه استسلمت لرغبته .. وأحبت أن ترى هذه الفتاة المطلقة التي أسرته وجذبته ودفعته ليتفوه أمامها بهذا الكلام الخطير والتهديد الصريح .. وأن تتعرف على أهلها .. والأب محمود الدين لم يعترض فقد ترك الأمر لولده ، وأنه هو الذي سيتزوج وهذه حياته ، وكان برهان يعرف والده وسياسته .. فوالده لا يحب تعقيد الأمور .. وكان برهان يريد صناعة منى من جديد ، وتعود ابنة صالحة للمجتمع، ولا تظل متعلقة بالغرب والانفلات ، واعتبر هذا الهدف غايته المهمة .. وإن أعجب بها وحريتها في الاختيار ؛ ولكنه يحب لها أن تختار الأجمل والأحسن ، وليس فقط التشبه بالرجال لتصبح من رجال الأعمال وأصحاب الشركات .. المرأة يجب أن تبقى المرأة .. فهل الحرية فقط أن ألبس وأسهر ؟ فقال ساخرا : يتشبهنّ بالرجال بلبس البذلات وقص الشعر والاجتماعات .. ثم يضعن أدوات الزينة على حواجبهنّ وخدودهنّ وأجفانهنّ .. قاتل الله الجهل !



رتب صاحبنا برهان أمر الأسرة قبل أن يحسم الأمر مع منى ، ثم اتصل بصديقته منى وحدثها

عن سبب تأخره في الرد .. فسرت من رده ومن موافقة أمه وأبيه ، واتفقا على عشاء آخر ، وكالعادة وفي نفس المطعم الذي دخل تاريخ حياتها التقيا ، وبعدما تناولا الطعام ورفعت الصحون والأواني وأحضر الشاي كالعادة أيضا قالت منى وهي تحاول أن تظهر طبيعية ، وليست منفعلة أو قلقة لأن برهان أعلمها بالهاتف موافقته : هل فكرت جيدا يا برهان باختياري زوجة لك وكنة لأمك ؟!

ـ فكرت بعمق يا أخت منى ، وقضيت الأيام الثلاثة أقنع أمي .. فزواج شاب أعزب لأول مرة من امرأة مطلقة مرفوض شيئا ما لدى الأسر كما تعلمين .. فمن الشائع لدى العوام أن المطلقة يتزوجها أرمل .. كبير في السن .. أو رجل متزوج امرأة ويريدها ضرة .. وغير هذا .. الناس يحبون أن يتزوج البكر بكرا .. ووالدي كما ذكرت لك على الهاتف لقد ترك للإخوة وحتى الأخوات أن يتزوجن حسب رغبتهنّ ، ولحتى الآن لم تطلق واحدة من زوجات الإخوة ولا الأخوات .. فالمهم أن تكوني أنت مقتنعة بي وميل القلب سيأتي فيما بعد .

ـ أنا لم أكن أتصور أن تصل هذه المعرفة بيننا إلى هذه النتيجة ، ربما لأن الرجال كانوا يمرون في حياتي كأرقام وأعلام ..وقلت لك سبب تعاستي وحقدي على جنس الرجال والد حازم .. لقد كان قاسي القلب معي .. فتراودني صورة وخيال .. أن أكون سيدة كبيرة ومهمة في البلد فيدخل عليّ الرجل مستعطفا متوسلا .. فأذكره بنفسي ثم أطرده شر طردة .. آه !

وقال برهان مقاطعا : وقلب أمه ألم يكن قاسيا ؟ أم حازم .

تفكرت لحظات وقالت : ممكن !!.. هي كانت رافضة كما علمت من حازم وأخته عبير .. فأنا لم أرها يا سيدي ولم أفكر بمقابلتها .

ـ قد تكون هي التي قست قلب زوجها عليك .

ـ هي لا تعرفني .. وكما أعلم فهي لا تتدخل في عمل زوجها ولا عمري رأيتها في الشركة .. ومع ذلك لم يخطر في بالي أن أقابلها ..غيرة .. تكبر .. ممكن .. كنت أعتقد بأنني سأفتح الصين والهند كما يقال بمسكي بزمام حازم .. في رأيك كان عليّ أن أحقد على النساء أيضا .. فلماذا

أحمل والد حازم كل الفشل ؟ لا أدري.. كنت أحلم بغرور .. كنت أرى أنني سأصبح سيدة ثرية وصاحبة مال كثير أنا والسيد حازم ، ربما الجلسات الشاعرية لم تدعني أعرفه جيدا ، هو يحدثني عن الحب والنساء ومغامراته الكثيرة مع البنات المتزوجات ، وأن أحدثه عن الشركات والأموال .. كنت أراه درجة في الصعود إلى هؤلاء الكبار أصحاب الملايين .. غدا سأجلس مع المليونير ناصر ومع المليونير فلان وفلان .. ولكني سأصعد اليوم على كتفيّ السيد برهان لا أدري إلى أين ؟ إلى أين يا سيد برهان ؟

ـ على الرحب والسعة ، فكتفايّ قادران على حملك لتري العالم من فوقهما .. لن أقصر يا عزيزتي سأضع كل ثروتي التي لا تتجاوز عشرة آلاف بين يديك .. وربما أنفقتها على زواجنا .

ـ والمكتب ؟!

ـ المكتب !! المكتب !! .. منى! منى ! هل أنت جادة بالزواج مني وموافقة وراضية بي ؟

دهشت منى للسؤال وللحركات التي بدت منه بعد كل هذه الحوارات واللقاءات فقالت بدهشة : ماذا تقصد أيها الإنسان؟! تسرب لقلبي قلق من سؤالك .. بعد كل هذا الكلام تسألني عن الرضا والموافقة ؟!

ـ أسمعي يا منى ولابد أن تسمعي ، أولا أحب أن أقسم لك يا عزيزتي بأنني راغب بك زوجة على كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

اضطرب قلب منى لهذا القسم وقالت: إنك تثير الحيرة والخوف في نفسي ! ما الأمر ؟! .. إن قلبي يدق بعنف؟! وكانت قد وضعت يدها على صدرها .

ـ مهلا أيتها العزيزة .. أنا سأكشف لك سرا وأرجو ألا يتغير رأيك فيّ ..

ـ أوه إنك تخيفني الآن وارتفعت دقات قلبي !!

ـ أنت شجاعة وصاحبة تجربة .. أحب أن تعلمي يا منى حتى لا تتفاجئي في يوم ما بأنني مخادع ومنافق وكذاب ومحتال ..

وكان لون وجهها يتغير مع كل كلمة يتفوه بها برهان ، وزادت دقات قلبها ، كانت تنتظر

مفاجأة قاسية ، فقالت باضطراب وقد حاولت أن تبدو هادئة : سر ! .. قل ما هذا السر ! .. هل أنت تسخر مني بالحديث عن الزواج وموافقة أمك وأبيك؟!

ـ يا عزيزتي .. أنا تعرفت عليك ودخلت حياتك من أجل الزواج منك ! .. ولم أكن أريد فتح مشروع أو مكتب تدقيق وإن كان هذا حلمي حقيقة .. ولكني فعلت ذلك لأصل لقلبك والزواج منك .. اهدئي لا تغمضي عينيك ..

فتحت عيناها وحدقت به وقالت بحيرة : لم أفهم منك شيئا بعد .. أين الخداع ؟!

ـ حسنا ستفهمين إن أصغيت إليّ جيدا .. أنا أريد أن أقول لك ذلك حتى إذا جرى الزواج الذي رسمت له وخططت له ، وتكتشفين فيما بعد أنه بدأ مزحا وأصبح جدا فتقولين عني مخادع منافق .. أوكد لك رغبتي بالزواج منك زوجة شرعية ، ولم أفكر يوما بأن أضحك منك واتخذك خليلة أو عشيقة ثم غيرت رأيي بعدئذ .. أتسمعين من البداية وتغفرين إذا كان في الأمر أي خطأ شنيع ؟!

أشعلت سيجارة وأخذت تنفث عليها بتوتر وما زالت ممتقعة الوجه وقالت: عجيب أمرك الليلة يا برهان !.. لقد سقط قلبي بين قدمي .. تؤكد لي بأنك راض بي زوجة وتقول أن هناك سرا .. اكشفه .. تكلم .

ـ سأتكلم .. كان باستطاعتي يا منى أن أتابع الزواج معك بدون كشف السر ووضع الحقيقة بين يديك ؛ ولكني رجل أخاف من الغد ومن كلام الناس غدا ..

ـ إنك ما زلت تضعني في دوامة ولغز .. تكلم يا إنسان ولا تخش شيئا

ـ سأتكلم بصراحة لأن الصراحة راحة كما قلت قديما.. أنا منذ مراهقتي ويراني الأصدقاء والأصحاب فتنة للنساء .. كثير من مراهقات الحي تعلقن بي وأغرقنني بالرسائل والهدايا .. ولما انتقلت للجامعة حصل لي مثل ذلك ، التفت حولي فتيات كثيرات من سنوات مختلفة ومن كليات مختلفة ، فكنت بين معارفي ألقب بفاتن النساء وأحيانا أخرى المصباح لتساقط بعض البنات عليّ أملا بالزواج مني .. لا ينقصني جمال وشباب وقامة ومال أيضا .. ومع ذلك لم أتزوج

لليوم واحدة منهنّ ، وأنا شريف مثلك يا منى ، ولا تسمح لي أخلاقي أن أكون زير نساء .. ولا تسمح لي أخلاقي وإن كان فيها سوء بالزنا والفاحشة ، فهذا أمر قبيح لدينا في الأسرة ، ولم يحدث أن وقع فيه أحد من إخوتي ولا أخواتي ..ولا نرضاه لأخواتنا وأهلنا ولا نقبله لبنات الناس .. حدثني أحدهم عنك وأنك عاصية على الرجال بعد طلاقك من السيد حازم فقبلت التحدي وعرفني عليك .

ـ عرفك عليّ .. متى ؟!

تبسم برهان وقال: أشار إليك وأنت مغادرة من الشركة والمعرض .. هكذا سار وهكذا كانت البداية .. ثم خاف الشخص عليك وسحب التحدي فيما بعد ، وخشي أن تتعلقي بي كالمراهقات التي ذكرت لك أمري معهن ، ثم أصدمك بعدم الزواج ؛ ولكن المغامرة استهوتني وأظهرت له أنني انسحبت وجرى الذي تعرفين تفصيله .. أنا دخلت حياتك عن علم ومعرفة وإرادة وتخطيط .

طرحت السيجارة وقالت : أمعقول ما أسمع ؟! ..

ـ ولِمَ لا يكون معقولا ؟!

ـ يعني أنك رسمت وخططت ووصلت لهذه النتيجة .. أريد شراء أثاث .. أريد مساعدتك إنك لجريء يا برهان .. أين كان عقلي وفكري؟!

ـ كان عقلك وفكرك معك.. وأنت تعاملت معيّ طبيعيا دون اهتمام بالحب والعشق الذي أردتك أن تقعي فيه من غروري وبناء على ذكريات المراهقة والجامعة وحتى البنك الممتلئ بالفتيات الأوانس والعوانس.. كان قصدك مساعدتي في الحصول على أثاث جيد ورخيص خدمة إنسانية للنصيحة التي طلبتها منك .. لم تنظري إليّ على أني فارس أحلامك .. أنت تعاملت معي كصديق ومعرفة تحبين خدمته .. وأنا عرفت ذلك وكل هذه المشاعر .. فقررت أن أتزوجك إذا وافقت ، فأنا أقر بأنني فشلت بأن أجعلك تعشقينني كما تعودت من فتيات غيرك ، وكما طلب مني من أجلك أنت ولأنهم يحبونك !

صفنت لحظات كأنها مذهولة ثم قالت : فعلا هذه مفاجأة كبيرة ..!!

ـ أنا أريدك يا منى ، وقد وافق أهلي فعلا على طلب يدك .. وأرجو أن أكون لك نعم الزوج .. والحب يأتي .. ولولا اقتناعي بك ما قمت بهذا الدور والاستمرار به ..لا أحد يضغط عليّ إنما بدأت فكرة وراقت لي وسلمت أمري للباري في علاه .

ـ عجايب الناس ! ومن الذي سلطك عليّ ؟!

ـ لن أقول الآن ، لأنه هو يعتقد أنني صرفت نظر عن التحدي وعن الفكرة الغريبة .. فإذا لم تقبلي بي قد تغضبين منه .. فأنا يا أخت منى أريدك زوجة .. هل توافقين عليّ بعدما سمعت اعترافي ؟ وإنني لم أوضع في طريقك صدفة ، وإنما كان بترتيب من نفسي .. لأتزوجك .

ـ مغامرة وجهد كبير بذلته يا برهان .. حيرتني يا رجل! أتريدني زوجة بصدق ؟! .. وليس تتمة للفِلم .

ـ أريدك زوجة بصدق .. ولو لم أردك زوجة بصدق ما تابعت التحدي .. وكان باستطاعتي الاختفاء من حياتك كأي رجل تعرفت عليه واختفى .. ولو لم أردك بصدق لما ظللت ثلاثة أيام أقنع أمي بالزواج من منى ربيع .. وأنا سأصعد وأحقق لك أحلامك وتصبحين بمشيئة الله صاحبة أموال وقصور .

ـ أنت ؟ أنت الذي ستصنع لي ذلك ؟!

ـ نحن معا .. لا تستهيني بقدراتي يا منى ، وأنا رضيت بك دون نساء العالمين .. سنبني أحلامنا معا ، فالذي وصل إلى قلب منى سيصل بها إلى كل الأحلام والسعادة . . وقبل المغادرة من هذا المكان الليلة سأسمع ردك ؟

ـ وهل تظن أنني سأرفض بعد هذا الاعتراف وكل هذا الحب ؟! .. أنت كما قلت لك سابقا ورغم ما حدثتني به الليلة إنسان ذكي وفطن .. ومع أن هذه حيلة كبيرة ؛ ولكنها تدل على عقل كبير وصبر جميل .. وأنا سعيدة يا برهان أن تقبل بي زوجة رغم أن هذه مغامرة عجيبة للوصول إليّ .. إليّ أنا ومع ما تعرفه عني من سيئات .

ـ أنا اعترفت لك بهذه المغامرة أو الخديعة للقصد الشريف ، وها أنت رأيت برهان .. إني أريدك فعلا لا مزحا ولا مقلبا ، وأيضا اعترفت ؛لأنه ستكون مفاجأة عندما نعلن الزواج .. عندما يعرف أحدهم أني خدعته أيضا بادعائي الانسحاب من التحدي .. ثم تعرفين الحقيقة من غيري فهذا مؤلم لي ولك ، فلربما لطباعك العنيدة كما قيل عنك ترفضينني غدا كزوج إذا عرفت هذه الحقائق وتظنين أني ضحكت عليك .. فالاحتياط واجب .

ـ ما زلت تثبت لي ذكائك وبعد نظرك.. معك حق وقد غلبتني ؛ ربما الأنفة تدفعني للغضب والثورة .. أنا معجبة بك وبطريقتك المدهشة للتعرف عليّ ، وأريدك كما تريدني ؛ ولكن اسمع لا تطمع بحبي وهواي الذي فعلت كل هذا من أجله .. نحن سنكون زوجين فقط .

ـ سأسعدك يا منى .. لأني اخترتك بكامل حريتي ، وإن كانت طريقة التعارف غريبة .. ولكن الظروف والأحوال بعد مشيئة الرحمن تحكم الإنسان أحيانا .. فلولا رغبة ذاك الرجل الغريبة ما عرفت منى ، ولا أكلت أنا ومنى معا ..ولا سهرنا معا .. القدر والنصيب أراد لنا ذلك ويحكم الله ما يريد .. أنا لست أصغر إخوتي ومع ذلك تزوجوا إلا أنا أليس هذا من قدر الله تعالى ؟!

ـ ماذا تريد مني ؟ وأنا معجبة بك وليس إعجاب العشاق .. افهم ذلك .

ـ أفهمه يا سيدتي .. أمي تريد أن تتعرف عليك وعلى أهلك قصدي أمك وأخوك مالك وربيع وحنين .

سرحت منى قليلا ثم قالت : رائع ! أنت تعرف كل أسماء العائلة .. أمك تريد أن تتعرف عليّ على كنتها وزوجة ابنها الباقي من غير زواج .. هكذا يفعل الناس .. أليست هي موافقة وما فائدة المعرفة ؟!

ـ عادات .

ـ نعم عادات .. ومن أجل هذه العادات طلقت أمي ، ثم طلقت أنا .. أنت تعرف عني كل شيء من قبل أن أشرحه لك يا خبيث ..

ـ ليس كل شيء .. أهمه فقط ..

ـ من هو مصدر معلوماتك ؟ .. مالك ؟!

ـ أخوك ؟! .. لا تشغلي بالك ، هو غدا سيفرح وغيره سيفرح ويتباهى أمامك بأنه السبب في دفعي إليك .

ـ لا يخطر في بالي أحد .. خليل ؟

ـ من خليل ؟! زوج أمك الحداد الغلبان المسكين .

ـ لا يمكن لخليل بفكره البسيط وطيبته أن يفكر بهكذا طريقة وحيلة ، ولا يعرف مكان عملي وسط هذه المدينة .. من يا سيد برهان ؟!

ـ ستعرفين قريبا ـ إن شاء الله ـ وستكون مفاجأة طيبة له .. أمي كيف ستراك ؟

ـ هل تحب أن نذهب إليها سويا الآن في هذا الليل البهيم ؟

ـ أوه ! .. أفعلها إذا شئت.. أنا أعرف أنك لا تحبين حي برقوقة ، وأنك ما زلت في شقتك المستأجرة .. فأرى أنه لابد لك أن تتصالحي مع حي برقوقة حتى نتزوج كما يتزوج البشر.. بضعة أيام وتكونين في بيت زوجك السيد برهان محمود الدين .

ـ حي برقوقة!! .. نعم .. لتعلم إنني لست كما قيل لك عنيدة ومتكبرة ولا أتخلى عن رأيي ولو كان خطأ كبيرا .. سأتصل بأمي وأفرحها بهذا الخبر ، وأني رضيت بالزواج من رجل مثلك يا برهان من أجل خاطر أمي .. وسأفتح صفحة جديدة مع السيد المحترم خليل .. آه يا برهان ! لقد سحرتني بنبلك وحبك .. هل تعلم أنك ستدخل السعادة بهذا الزواج على قلوب كثيرة ؟ ستجعلني أسيرة لك بفرحهم وحبهم لي .

ـ أنت عاقلة ومهما حاول الإنسان تغيير جلده سيعود إليه في يوم طال الزمان أو قصر .. ولكن القوم ربما لم يحسنوا التعامل معك أو أن التجارب الفائتة صقلتك بأسرع وقت .. رتبي الأمور حتى أقوم أنا ووالديّ وبعض أخواتي بزيارة برقوقة ونتعرف على برقوقة وخليل سيد برقوقة ثم نرتب اللمسات الأخيرة من هذه المسرحية أو الفِلم على قولك أو الرواية أو القصة الأسماء كثيرة هذه الأيام .. اختاري ما تشائين .. بس أرجوك أن تحذفي زجاجات الخمر من ثلاجتك

قبل تسليمها لصاحب العمارة .

ـ وحتى هذه تعرفها .. فمصدر معلوماتك قريب مني جدا .. أنا تخلصت منها منذ اللقاء الماضي وكنت واثقا من قبولك بي رغم أنني لست بالفتاة الجميلة البيضاء الطويلة القامة النحيفة ولست بالغنية لا أدري كيف قبلت بي يا برهان؟ هل هي شفقة وعطف وإحسان ؟!

قهقهة الشاب جزلا وقال : زواج يكون هكذا مصيبة في نظري مع أنه يحدث في ظروف معينة أرملة عندها أولاد .. يتيمة فقيرة .. أنا قد عرفتيني جيدا من هذه اللقاءات المتكررة أنا مقتنع بك بكل جوارحي وعقلي .. أنا معجب بك ليس عاطفيا فقط .. المهم أنت أن تقتنعي فيّ !

ـ أنا لا أنسى أنك أخرجتني من أزمة كبيرة عصفت بي يا برهان .. لقد لعبت دورك جيدا ، فأنت أول إنسان تعامل معي بأنني إنسانة.. وكان حديثك جادا وعمليا فأنت ممثل بارع على كل حال .

ـ هو ليس تمثيلا وإن بدأ كذلك .. هو حقيقة ولكنه أتى هكذا وبهذه الصورة .. كيف سأتحدث معك بالزواج ؟!.. أمن أول مرة أدخل عليك المكتب وأقول لك أريد أن أتزوجك بدون معرفة رأيتك في الشارع وأحببتك فتزوجيني .. كان لابد من حوار وجدال وقيل وقال .. هيا بنا طال سهرنا وتعجلي بالأمر .

ـ يقولون في العجلة الندامة .

ـ هذا في الشر وليس في كل شيء والله أعلم .

ـ ألا تريد أن نعيش فترة خطوبة ؟

ـ وهذه الأيام ألا تكفي فترة خطوبة؟!.. نحن خالفنا فيها كل الأعراف والأذواق ولكننا نعلق كل ذلك على شماعة الظروف .

قالت : ليس أمامي إلا أن أقول شكرا لك ، وأرجو أن تكون الزوج المناسب يا برهان، وأن تكون أول وآخر رجل في حياتي بعد ذاك الضعيف .. وسيكون لك مني الاحترام اللائق بك .

ـ سامحيه يا منى وأخرجيه من حياتك .. سنبدأ معا ، وسأضع على رأسك في يوم من الأيام التاج

الذي تحلمين به مع أن زمن التيجان ولى ، فاليوم أكثر دول العالم جمهوريات ..

ضحكت منى: ما أحلى كلامك يا برهان! .. أنا خائفة أن نقف بعد حين قصير أمام المحكمة لينصرف كلٌ منا إلى بيت أهله .

ـ هذا في علم الغيب .. نحن الآن منسجمان ومتفقان والسعادة في أيدينا ويمكننا أن نحافظ عليها ونقويها .. إذا تفاهمنا وتحملنا بعضنا بعضا ، ولا ننسى أننا نعيش في أسر ما زالت محافظة وإن تراخت قبضتها بعض الشيء بسبب الغزو الثقافي والاقتصادي والسياسي والتقليد الأعمى ونحن فتحنا أوراقنا أمام بعضنا البعض ، وهناك بعض الهنات ستزول بمشيئة الله سبحانه .

ـ لن أكون معك عنيدة .. أحس هو إحساس أنك تفهمني .. سترى منى الفتاة التي تخرجت من الجامعة فقط .

ـ لا ، أريد منى التي استفادت من تجربتها الأولى .



عجبت منى وهي تقود سيارتها تلك الليلة عائدة للبيت من قصة برهان ، ولم تغضب وتثور ؛ بل أعجبت بحيلة برهان ، وأعادت ترتيب الأحداث ، فوجدت كلامه منطقيا وصحيحا ، وأنه دخل مكتبها زاعما الحاجة لشراء أثاث مكتب لفتح مكتب محاسبي .. أأحد يجهل سؤال الموظفين الذي أمامه ؟.. لم تفكر بهذه النقطة إلا الليلة .. وكانت تتذكر وتبتسم .. لم يتحدث معها عن الحب والعشق لتنتبه لمكره ، كان ينتظر أن تهيم به .. وفي النهاية سرت من هذه الطريقة والحيلة وأرضت غرورها ، والأهم من ذلك في نظرها أن هناك من يرغب بها زوجة صالحة.. واعترفت بأنها ساذجة ، وليس كما تتدعي بأنها ذكية وفطنة وتستطيع تفسير كل شيء وكل حركة وكلمة ، وقالت لنفسها : والله لم يخطر ببالي أن هذا الرجل جاء ليطرق باب قلبي وليس باب مكتبي .. لقد كان ممثلا بارعا ؛ ولكني ارتحت إليه ووجدته ناضجا وعاقلا وغير متعصب

للتقاليد والأصول .. ولم يقع في قلبي أنه يفعل ذلك للزواج مني إلا تلك المرة عندما طلب مني أن أبحث له عن زوجة .. فطنت لمغزى كلامه وأنه يلمح للزواج مني .. لكن من ذا الذي كلفه وأرسله إليّ وعرفه بي ليقوم بهذه الحيلة الكبيرة ؟.. سوف أعرف قريبا !

وظلت مشغولة الفكر والذهن وتراجع ما جرى بينها وبين السيد برهان منذ أول لقاء .. وأنها وافقت على الزواج دون مشاورة أحد من أهلها ، ولا مجال للتراجع .. ومن حسن حظها تلك الليلة الهامة أن السيارات كانت خفيفة في الشوارع وإلا صدمت في إحداهن وهي مشغولة الفكر ، وكانت الساعة قريبة من منتصف الليل عندما وصلت موقف سيارات العمارة التي تسكن فيها .. فلما أطفأت نور سيارتها ونزلت منها ، وقد تأكدت من إغلاق كل أبوابها ، لمحت سيارة قد أضيئت ووقف عندها شبح كان ينظر إليها وهو صامت ، فدققت النظر فيه لحظات فظنت للوهلة الأولى أنه مستأجر مثلها عائد من سهرة ، فلم تعره أي انتباه ؛ ولكنها لما وجدته ينظر إليها أعادت التحديق فيه ثم همست بصوت مسموع : مالك !

فقال بنبرة فيها حدة : نعم ، يقال إنني أخوك مالك .

مشت نحوه مرحبة ومصافحة: أهلا بك .. ما الذي أتى بك.. ونظرت للساعة على معصمها وقالت : بعد الثانية عشرة والربع .. ؟!

ـ نعم ، الساعة نصف الليل ، لي ثلاث ساعات أنتظرك يا ابنة المحترمين .. أين كنت ؟ هل يوجد سينمات لم تغلق أبوابها بعد ؟

ـ أين كنت؟! أين كنت؟! السؤال التقليدي .. تفضل لا داعي للثرثرة هنا .. هل من شيء خطير لتنتظرني ثلاث ساعات؟!

تنهد بعمق وقال : آه منك يا منى !

لم تثر منى في وجهه كعادتها عندما يحتج على تصرف وفعل لها ، فكان لا يعجبها احتجاج أو اعتراض أو حتى أي كلام ، لم تغضب ولم تثر في وجهه المحتج كالمعتاد منها دائما ، ويبدو أن مالكا قد دهش لعدم ثورتها وكذلك لهدوئها ، وقد يكون علله بالليل والوقت غير المناسب

للثورة والغضب ، ثم سمعها تقول ثانية: تعال ندخل ونتكلم في الداخل .. فأريدك أنا في أمر مهم وخطير .

تعجب مالك من هدوء أخته الغريب بالنسبة له فقال مرددا : أمر مهم ـ ومشيا نحو مدخل العمارة للصعود إلى شقة منى بعدما أغلق هو الآخر سيارته ـ على كل حال نحن اتصلنا بك أكثر من مرة ، ولما زهقنا من كثرة الاتصال ولم تردِي أمرتني أمك المسكينة بالمسير إليك .. خافت عليك ، خافت أن يكون أصابك شيء ولا تستطيعين الرد ، وأنا أقول لها صدقي يا أمي الطيبة أن منى خارج البيت في سهرة في مسرح في دار سينما .. وبعد انتظار ومحاولات نفذت أمر أمك المسكينة .. وجئت ولم أجد أختي الفاضلة المرأة المتحررة والتي لا تحسب للناس أي حساب ولا لأمها .. فعدت وجلست في سيارتي انتظر ؛ لأني لو عدت للبيت ستطلب مني الأم المسكينة العودة .. آه .. القلق .. قلق الأم ، وأكيد أمي الآن على نار ، ولو عند خليل أبي أحمد سيارة قد تكون أرسلته ليبحث عني أنا الآخر ..

سمعت منى تأنيب وعتاب مالك بصمت وهدوء ، كانت شقتها في الطابق الثالث فركبا المصعد إليها حيث الشقة ، وفتحت الباب وأنارت الإضاءة وقالت : أهلا بأخي العزيز مالك ! ادخل

ـ سأدخل مع إنني لا أحب زيارتك كما تعلمين ، ولا أحب دخول شقتك !

قالت مداعبة : ادخل .. من اليوم فصاعدا ستزورني وتشرب عندي الشاي وتأكل الطعام .

ظن مالك أن أخته سكرانة مع أنه لم يشم رائحتها منذ وقفا عند السيارة في موقف العمارة ، فقال متهكما : أشرب الشاي وآكل الطعام .. منذ تزوجت منى لم أرها تصنع الشاي وتصنع الطعام أنا خائف أن أشرب الخمر والدخان .

ضحكت وقالت : أنا أعرف أنك مالك! .. لا ، لن تشرب الخمر ، الخمر تخلصت منها .. اذهب إلى الثلاجة ولن تجد فيها خمرا .

أصيب بالدهشة التي لازمته منذ بداية هذا اللقاء . وهمس لنفسه إنها صاحية .. وهادئة بشكل غريب هذا اللقاء ورفع الصوت قائلا: منى ماذا تقولين؟!

ـ هذا ما حصل هجرت الخمر.. يا أخي المحامي ! ماذا تريد أمي الفاضلة من ابنتها الفاضلة ؟!

ضحك مالك لسخريتها وقال : أنا لا أدري لماذا أنت معقدة يا منى ؟ أنا اليوم مع ذلك أرى عجبا ! ألم يحن الوقت لتشفقي على أمك وتعودي للحياة معنا ؟ .. وما دمت ذكرت أنك تركت الخمر فالمشكلة انتهت وانحلت .. سنخصص لك حجرة خاصة لتنامي فيها وتدخني فيها كيفما يحلو لك .

ـ ماذا تريد أمك لترسلك إليّ في الليل ؟.. أم أنها بعثتك لترى هل أدخلت رجلا بيتي ؟!

ـ مسكينة أمك! لا تفكر بهذا الخاطر، فالأم ترى ابنتها أشرف فتاة تمشي على الأرض .. ربما وقع في قلب مالك مثل هذا ؛ ولكنه يعرف أخته جيدا.. أتهزئين من قلقنا وخوفنا ؟؟ لولا معرفتي الجيدة بك من هذا الناحية لاحترقت أعصابي يا منى .. والفجور لا يحتاج لشقة اليوم فالنوادي الليلية وصالات الفجور كثيرة وميسرة .. أمك أرسلتني .. أين ذاهبة ؟

ـ سأصنع لك القهوة ، وأنت تكلم مع أمك بالهاتف لقد نسينا طمأنتها علينا .

كان مالك متعجبا جدا من أخته الليلة فقال : أتصنعين القهوة ؟! .. اصنعي القهوة .. وراء القهوة الليلة سر!

دخلت منى مطبخها ضاحكة ، واتصل مالك بأمه التي لم تنم حتى تلك الساعة ، فهدأ من أعصابها وقال : الآن وصلت ولم تخبرني لحتى اللحظة أين كانت ؟! .. ربما كانت في حفلة عرس لإحدى صديقتها وتأخرت السهرة .. أنت تعرفين أين تسهر منى ؟ .. ألم نتجاور شهورا ؟!.. وها هي قد صنعت لي قهوة يا أمي أتسمعين يا أمي ؟ منى عملت لأخيها قهوة !

وذلك على مسمع من منى التي كانت تضع أمامه منضدة صغيرة وفنجان القهوة ثم قال مكررا : أتسمعين يا أمي ؟ منى صنعت لي القهوة ؛ فإذا حصل لي شيء فمن قهوة منى .. آ .. تتكلمين معها.. خذي كلمي أمك

تناولت منى السماعة من يد أخيها الممدودة وقالت : أهلا أمي .. أنا بخير .. أين كنت ؟ لم أكن في السينما ولا في حفلة عرس كنت أتعشى في أحد المطاعم مع أحد الناس .. لا تثوري ولا

تغضبي ستفرحين قريبا ، وسأعود للحياة معكم في حي برقوقة .. أجل والله وسأتصالح مع العم خليل .. سلمي عليه ..

خطف مالك السماعة من يد منى وقال لأمه : يبدو أن منى قد جنت يا أمي .. فأنا أسمع كلاما غريبا الليلة ! .. منى التي تريد أن تعيش على القمر ؛ لتكون فوق الناس ستعود لحي برقوقة .. يبدو يا أمي أن هناك زوجا في الطريق .

تطلعت منى في عيني مالك وقالت : أتعرف شيئا ؟

ضحك مالك وقال : سلام يا أمي يبدو أن قصة مهمة سأسمعها .

ووضع الهاتف والتفت لأخته وقال : أأعرف شيئا ؟! ماذا أعرف ؟!

قالت منى : اشرب قهوتك .. وقل لي هل تعرف شخصا اسمه برهان ؟!

- برهان .. من برهان هذا؟!

- مالك احلف بالله إنك لا تعرف شخصا بهذا الاسم

- من غير حلفان لا أعرف شخصا بهذا الاسم .. وحتى ولا زبون وعميل لنا في المكتب القانوني بهذا الاسم

فقالت كأنها تحدث نفسها: وهو قال إنه لا يعرفك .. من وضعه في طريقي؟! .. أخي مالك هناك شاب أو رجل يريدني زوجة.. ماذا تقول ؟

- أقول في ماذا ؟! من هو هذا الرجل ؟

- إنه برهان !!

- برهان .. من برهان هذا؟! تحدثي بالتفصيل الممل .. سأقضي الليلة هنا يبدو أن تغييرات كبيرة ستحدث في الدنيا

- بس في دنيا منى وأسرة منى .

أوجزت القصة بكل صراحة لأخيها فقال : والله هذا إنسان عجيب! .. يفعل كل ذلك ليتزوج منك .. ليصل إلى قلب منى ، وأي قلب قلب منى ؟! لف كل هذه اللفة الطويلة ليقول لك في

النهاية أتقبلين بي زوجة ؟ ..

ضحك مالك همهمة وقال : ومن أرسله ليقوم بهذه المهمة العظيمة والتمثيلية الغريبة؟!

ـ لا أدري ، ولم يذكر لي اسمه ، خشي أن يوغر قلبي عليه إن لم يحصل النصيب وإذا حصل النصيب سيكون مفاجأة لي ولهذا المحرض .

ـ منى أنت طبعا موافقة عليه!.. فأنت الليلة في ساعة تجلي وسعادة بينة ، الآن فهمت كل تصرفاتك ، والعجيب أنك تقولين لا تحبينه ومصدقة نفسك .. على كل ليس هذا مهما على رأي السيد برهان ، سيأتي الحب بعد الزواج فليأت كما يشاء .. مع أن في نظري كل عملكم هذا هو الحب الحب منكم الاثنان .. منى يا أختي الفاضلة أنت الليلة يجب أن تنامي في حي برقوقة وتتحدثي مع أمك.. فهي لن تصبر للصباح لتراك وتسمعك فأخشى أن تطلب مني أن آتيك ثانية .. وأنت طبعا مقتنعة به بعدما لف حول العالم ليصل إليك وبناء على طلب وتكليف من بعض الناس .. من يكون مرة أخرى أحد الناس ؟!

ـ وأنت ما رأيك ؟

ـ أنا أحب لك الزواج .. وأنت تعرفين ما يعني الزواج في حياة فتاة شرقية ، وفي أسرة تزعم أنها ما زالت محافظة .. أنت أعلم مني بفلسفة ذلك الأمر .. ورغم أن ذلك مريح لنا ؛ ولكننا نحب أن يكون زواجا متكافئا ومناسبا .. فلو لا سمح الله فشلت في الاختيار مرة أخرى ستبكين الدم بدلا من الدمع .. فإذا أنت راغبة بالسؤال عنه وعن أهله ؛ فأنا مستعد للقيام بهذه المهمة التقليدية التي لم تعد تغني ولا تسمن كثيرا في أيامنا هذه لقلة الصدق عند الناس في مثل هذه الأمور .

ـ لم يبق وقت للسؤال ، وتحدثنا عن أنفسنا بما فيه الكفاية .. وقد حدثتك عن الترتيب الذي جرت فيه الحكاية ، وقد وافقت وهو وافق ووافق أهله وبالذات والديه ؛ ولكن أمه تريد أن تراني قبل الزواج وتتعرف عليّ وعلى أهلي.. فأنا سأعود إليكم مؤقتا بضعة أيام .. فسيكون الزواج قريبا ربما بعد أسبوع أو شهر على الأكثر .. فهل عندك اعتراض ؟

ـ وهل إذا اعترضت ستعبرين اعتراضي يا منى ؟! .. رغم هذا فكلامك الليلة جميل وعقلاني وهادئ .. فأنا لما سألت السؤال العادي أين كنت؟ لم تثوري مع أنني كنت أستعد للمعركة ولهيجان أختي منى.. ولكنك فاجأتيني حقيقة ، لم تتعصبي ولم تنفعلي مما أثار دهشتي ، فوقع في نفسي أنك قد شربت كأسا أو أكثر قبل مجيئك .. ولكن لا رائحة بادية منك .. فزادت دهشتي.. وهذا جميل وعظيم من هذا البرهان أن قلبك وغيرك بسرعة! ومع ذلك تدّعين أنك لا تحبينه ، مجرد مشروع زواج جديد يا منى ! الزواج أعظم من مشروع إنه حياة جديدة .. دنيا جديدة .. فأنا كم قبلت يديك وترجيتك لتدعي الخمر والدخان .. فلم تفعلي.. فاعلمي يا شقيقتي الغالية أن الرجال ليس كلهم واحد ومثل بعض ..

ـ أنا فرحانة ولن أتوقف كثيرا عند عتابك .. ولكنك تفكر مثل برهان .. عندما تحدثت عن حقدي على الرجال وبغضهم ، ومع ذلك تقبل الاتهام بروح طيبة ، بل قال لم لا تكون أمه سبب قسوة أبيه عليك .. جنس النساء .. فكابرت وحاولت أن لا أقر بذلك .. مع أنني أعرف رفض أمه الشديد لي ..

ـ أحسن الرجل! فهناك رجال طيبون ورجال سيئون والنساء مثل ذلك .. وحتى ممكن أن يكون في الرجل الواحد جانب طيب وجانب خبيث .. وهذا الرجل رائع من غير أن أعرفه الذي شككك في قناعاتك في فترة وجيزة .. أتعرفين لماذا ؟ لأنها لا تقوم على أساس صلب وقاعدة صلبة .. أنا أحب هذا الرجل بدلا عنك !

ـ فعلا أعترف لك أنني تغيرت يا مالك.. وأعترف أن هذا الإنسان فتل لي مخي بسرعة كبيرة .. هو جعلني أن أقتنع أنه ما زال في الدنيا خير وحب .. فأنا أعترف أمامك أن بعض الرجال ، وحتى من كانوا يسمون أصدقاء لنا أنا وحازم حاولوا توريطي في علاقات آثمة وليالي حمراء وصفراء .. وأن الزواج لم يعد مهما في حياة الناس.. ولما يشتاق الإنسان للأولاد فيذهب للملاجئ وقرى الأطفال فيتبنى ما يشاء منهم .. ولولا التربية التي ورثتها من الأسرة لانزلقت ولبغضي للرجال أيضا .

ـ الحمد لله على حفظه ، والله هذا ما كنا نخشاه جميعا عليك يا منى .. انبهارك بالغرب، وما يقال عن الحرية الواسعة كان يخيفنا ، وكم دعوت الله في جوف الليالي أن يحفظك الله .. فأنا ابن المدنية المعاصرة ، ونعرف الحفر الموضوعة لإفساد نساء المسلمين وبيوت المسلمين ..جزاك الله ألف خير يا برهان .. وحفظك الله يا اختنا الفاضلة .. ما أروع العفة والشرف؟!

ـ أشكرك .. على دعواتك الصادقة .. أنت لا اعتراض عندك ..

ضحك قليلا وقال باسما: على ماذا أعترض وأنتم موافقون؟! .. وستتعرف على النسيب والصهر قريبا .. هيا بنا فأمنا بانتظارنا .. وقبل الشاب أخته من رأسها قائلا: أنت الآن أحسن أخت في الدنيا .. كيف ستنامين الليلة في حي برقوقة بعد كل هذه السنوات ؟ وهل سيحصل نوم الليلة أصلا ؟! .. نحن سعداء وفرحون أكثر منك .. نحن أناس بسطاء يا منى سمعتنا وشرفنا أغلى ما نملك .. هيا أسرعي خذي ما يناسبك من الثياب ، وأنا بشوق لأرى وأقابل هذا الرجل الذي أعاد لك عقلك وقلبك القديم قبل أن نتعرف على أصحاب الملايين .

ـ وأنا أريد أن أعرف من أرسله إليّ .

قامت منى وأدخلت الفناجين الفارغة إلى المطبخ ، وتبعها مالك وفتح الثلاجة وقال : فعلا لا يوجد فيها المشروب الخبيث .. كادت أمك مرة أن تشرب من إحدى الزجاجات معتقدة أنها قنينة ماء لولا رائحتها الكريهة التي ملأت خيشوم أمك .

تبسمت منى وقالت : والله تألمت يومها .. وعجزت عن التصرف ..

ـ أنا سعيد بما حصل يا منى رغم أنه في عرفنا غير لائق ؛ ولكنه في عرف منى مشروع وحق .. لا تغضبي دعيني أتكلم بحرية .. أختك حنين ستفرح فرحا لا يعلمه إلا الله .. وأمك وكل الناس في حي برقوقة وحتى خليل الأب الروحي لنا .. أين أنت يا سيد برهان؟.. لأقدم لك ألف تحية وتحية عما صنعت .. دائما الأزواج يصنعون النساء ..

كانت منى تضحك من شدة فرح مالك ، وهي كانت تتوقع ذلك وتعرف الخوف الذي كان يخيم عليهم من أفعالها وتصرفاتها ، ولما سمعت كلام مالك الأخير قالت : يجب أن تقدم التحية

للشخص الذي أرسله وأقنعه بهذه المغامرة أو المصيدة التي ورطته بالزواج مني ، بالزواج من منى ربيع .

ـ هو أيضا يستحق مليون تحية .. ولماذا فعل ذلك؟! وما يهمه من أمرك ومن زواجك ليطلب منه خوض هذه المغامرة الغريبة .

ـ أنا في البداية عندما كاشفني برهان بهذه الحقيقة دهشت وعجبت .. ولكن برهان شجاع وذكي، وهذا يثبت لي أيضا تعوده على مجالسة البنات وفهم خباياهنّ، فلم أشعر أنه يمثل دورا ما في أي لحظة ما.. ولولا ذلك ما قام بهذه المغامرة الغريبة .. فهو دائما كما قال كان يقوم بدور المصباح كما كان يسميه أصحابه لمطاردة البنات له.. فهو هذه المرة قلب الأمر .. أنا أصبحت المصباح وهو الفراشة .. فقام بمطاردة امرأة ومطلقة .. ركز على مطلقة يا مالك.. مع أنه عازب لليوم ولا يوجد عنده عيب يمنعه من الزواج .. فلما حدثني بالحقيقة العجيبة مساء اليوم الفائت ظننت أنك تعرفه، وأنك متآمر معه وسلطته عليّ ؛ ولكنه نفى معرفته بك ، وقال سيكون ذلك مفاجأة لنا ولمن طلب منه ذلك ثم سحب تحديه .. فالرجل المكلف خاف على مشاعري من الصدمة إذا لم يقتنع بي برهان زوجة .

فقال مالك مخمنا : ربيع .. أخونا ربيع ولكن من أين عرف برهان هذا؟! عدنان زوج ابن خالتك؟

ـ عدنان ابن أخت خليل .

فكرت لحظات ثم قالت : والله ممكن !.. ولكنه لا يعرفني شخصيا ، ولا أذكر أنني رأيته ليهتم بي وبمشاكلي .

ـ عدنان .. ممكن عن طريق ابنة خالتك إذا حدثته عنك وعن أحوالك الشاذة في نظرنا فأشفق عليك وأرسل صاحبه هذا .

ـ على كل سنعرف قريبا هذا المحب لنا .. ولكنك يا أخي يا مالك لم تخبرني للآن لماذا أرسلتك أمي إليّ ؟!

ضحك مالك وهما يغلقان باب الشقة ويركبان المصعد وقال : لم يعد الكلام مناسبا بما جئت به إليك ؟

ـ أزوج آخر؟!

ضحك كثيرا وقال: لا .. وهل نستطيع نحن أن نأتيك بعريس؟! يا سيدتي هذا أخوك ربيع وجد لك عملا حيث تعلمين ، فتحدث مع أمي ، فاتصلت بك لتقول لك ذلك فلم تجدك ، ثم اتصلت عدة مرات فخافت عليك فأرسلتني .



العودة لبرقوقة

قالت منى لمالك: إذا صار نصيب وتزوجت من المدعو برهان .. بالتأكيد سنرحل لبيت خاص به .. فأي شيء من أثاث وأغراض هذه الشقة يلزمكم فخذوه قبل بيعه .

قال مالك: لما يحصل النصيب نفكر بالخلاص من هذه الأغراض والذي يريد شيئا نرسله له .. امش .

وركب كل واحد منهما سيارته منطلقين لحي برقوقة بعد ساعات من نصف الليل ، وساروا على أضواء الأعمدة الكهربائية والسيارات والسماء نحو برقوقة .. وكانت مشاعر وخواطر تدور في رأس ودماغ منى وهي تعود إلى ذلك الحي الذي ولدت ونشأت وترعرعت فيه .. فلما وصلت أمام بيت خليل أصابها اضطراب مفاجئ فلها سنوات هاجرة لهذا المكان وهجرته بغضا له.. همست لمالك الذي وقف بجوارها عن اضطرابها فقال : هي أيام معدودات وستغادرين حي برقوقة الذي تستائين منه.. ألم تقولي لي ذلك يوما ؟ بس احذري التشاؤم منه فنحن نحبه . فتح مالك الباب الخارجي بمفتاح يحمله معه، ودخل وتبعته منى ، وقد أغلقت الباب وراءها وكانت إضاءة البيت تنير مدخل البيت .. البيت عبارة عن طابق واحد مكون من عدة حجرات.. كانت جميلة تقف على باب صالة البيت تنتظر رجوع مالك .. فمنذ سمعت صوت ماتور السيارة تهيأت وخليل لاستقبالهم .. هرعت إليها منى وعانقتها ؛ وكأنها لم ترها منذ عهد.. وتقدمت من خليل الذي كان يقف قريبا من زوجته وسلمت عليه وقبلت يده وهي تتمتم بكلمات الاعتذار والعفو والأسف ، فاحتضنها مقبلا رأسها ومداعبا لشعرها وسامحها وقال : أهلا بك يا ابنتي .. البيت بيتك .. الحمد لله الذي أحياني ورأيتك تعودين إلينا فأنتم دنياي .

ـ أنا آسفة جدا يا عمي بما سببته لك من آلام وهموم .

ـ ما فات مات .. نحن أبناء اليوم ، فمرحبا بك يا منى ، ولا نقول إلا قدر الله وما شاء فعل.. والحياة تجارب ، وتجارب الناس تتفاوت في هذه الدنيا .. يا ألف مرحبا وسهلا .

وروت لهم ما جدّ من حياتها ، ففرحت أمها بما سمعت ، وقال خليل : هذا والله ابن حلال ويعرف الأصول .. أتمنى لك التوفيق والعزة يا ابنتي .. وسنتعرف على الأستاذ برهان وأهل برهان .. فهذا هو الصحيح يا منى .. فوسائل التعارف بين الناس كثيرة ولله الحمد .. والأهل درء لحل المشاكل الزوجية إذا استعصت على الزوجين ، كلمة من الأم ، وكلمة من الأب ينصلح الحال.. مع أن كثيرا من المشاكل اليوم بين الأزواج من الأهل .. ولكن الأهل لهم دور مهم في حياة الأولاد .. الأهل لازم أن يتعرفوا على بعض ، ويوافقوا على الزواج لاستمرار الزواج والحياة الزوجية .. العداوة مرة .. لن نعود للحديث في الماضي اطمئني .. صفحة وطويت .

قالت منى: تحدث كما شئت يا عمي .. وكما قلت الحياة تجارب .. كانت الظروف يومها قد دفعتني لقبول الزواج الغريب .. فتحدي حازم لأسرته والإصرار على الزواج مني رغم رفضهم الشديد .. هذا ما دفعني لتجاوز الحدود واللياقة .. وحازم إنسان رائع ؛ ولكنه ضعيف أمام أهله ولم يحتمل الصراع والمعركة .. تكلم بما شئت واعتب كيف شئت .. !

فقال خليل أبو أحمد بحماس: أتحبين أن أذهب واسأل لك عن عائلة برهان وأهله ؟

ـ الشكر لك .. تطوع مالك للقيام بالمهمة ، وقلت له لا داعي فهو قد حدثني عن أهله بالتفصيل فهم أناس مثلنا ماليا واجتماعيا .. ولما يحضروا تحدث معهم بما شئت واسألهم عن أنفسهم بما شئت .. فكلمة جميلة سمعتها منه واصفا للعائلة طربت لها هو ليس أصغر الأسرة .. تزوج أخوته ، ولم تطلق زوجة ، وتزوجت أخواته ، ولم تطلق واحدة منهن .. فهو سيسعى أن لا يحصل ذلك في حياته .. رغم أنني المرأة المطلقة التي ستكون بينهن .. الشاب مقتنع بي جدا ، ونحن تعرفنا منذ أقل من شهرين قد مضيا ..

ـ كلام جميل ووعد حسن ، والتوفيق بأمر الله سبحانه ، وهذا فال حسن .. وأنت تستحقين كل خير وسعادة وحب .. وأنا جاهز للقائهم في أي وقت تحبينه .

ـ بوركت يا أبا أحمد أيها الوالد الطيب .. فأنا ابنتك مهما حصل بيننا .

ـ أكيد .

في مساء اليوم التالي ذهب برهان ووالداه وأخت له لزيارة بيت أبي أحمد الحداد خليل، واستقبلتهم العائلة خير استقبال ، وتم التعارف بين العائلتين ، ولمست أم برهان طيبة جميلة وزوجها الحداد خليل ، وانشرح صدرها لهم ولهذا النسب كما قالت وكأنها تعرفهم منذ زمن وتم الاتفاق على الزواج على حسب رغبة الزوجين برهان ومنى ، وتركوا أمر ترتيب إجراءات عقد القران والزواج للشابين ، وبعدئذ غادر الضيوف البيت فرحين متفقين لولادة أسرة جديدة يتمنون لها الحياة والديمومة والسعادة .

وعند انصراف القوم قالت منى لبرهان وهو يصافحها مودعا: لم تحصل المفاجأة التي حدثتني عنها .

ضحك وقال لها ولمالك القريب منهما : ستحصل .. ربما بعد أيام .. ربما بعد انصرافي ، سوف تحصل وتعرفين من رماني عليك .. شكرا يا مالك .. أنا أتشرف بكم وبهذا النسب .

فقال مالك خجلا : بل نحن نتشرف بك وبأهلك .. حياك الله يا برهان .. أنا أحببتك قبل أن أراك منذ سمعت القصة .. إذا منى لم تحبك بعد كما تدعي فأنا أحبك .. ولا يهمك فما زال عندها بعض بواقي الماضي .. لي كلام كثير معك .

كان مالك يتكلم ومنى تنخز فيه ليصمت فقال برهان : شكرا ، وسيكون بيننا كلام ولقاء فنحن قريبا سنصبح أهلا .

ـ نحن أصبحنا أهلا منذ ليلة أمس .. حياك الله وبياك ..

ورفع برهان صوته مودعا أبا أحمد الذي عقب بعد انصرافهم : هؤلاء هم الناس يا جميلة !!

ضحك الجميع على تعليق خليل ، وأدركوا أنه مبسوط من هذا الزواج ، ودخلوا للبيت مسرورين ، ثم اتصلت جميلة بابنتها حنين فور دخولها ، وأخبرتها بخطبة منى ، فاستغربت من ذلك فهي لم تسمع شيئا عن الأمر ، واستغربت أكثر لما ذكرت لها اسم العريس وعائلته وقالت بلهفة : أنا قادمة الآن وسأتصل بسعد الدين .

فلما سمع سعد الدين كلام حنين استأذن من والده للعودة للبيت فعاد مسرعا، ولما تناول عشاءه

كان يقول : برهان صاحبي يا حنين ؟!

قالت : أنا لما سمعت اسم برهان قلت لفسي إنه صاحبك برهان .. هل حدثك بشيء ؟!

ـ لا ، منذ عهد قريب التقينا بعدما خرجت أمه من المستشفى ، زرته مع أمي وأبي كما تذكرين ولم يحدثني عن زواج ولا غيره .

ـ هل تظن أن هناك برهان آخر .. هيا أسرع .. تكلمت معي أمي وقالت إن أناسا أتوا لخطبة منى ، وإنهم اتفقوا قبل قليل ، ولما سألتها من هو العريس وعائلته ؟ ذكرت اسمه واسم عائلته ولكن اسم العائلة ذهب عن بالي لما سمعت اسم برهان .. وهم من سكان حي (أبو حسبة) فلما سمعت الاسم قلت لعله صاحبك برهان الذي عرفتني عليه مرة فقلت لها إنني آتية واتصلت بك .

ـ صدقي أنني لا أعرف شيئا.. يبدو أن الأمور جرت بسرعة .. هيا بنا نذهب ونسمع .. وهذا اسم حينا القديم إذا كنت تذكرين .

قالت: المهم أن منى عادت لحي برقوقة وتصالحت مع عمنا خليل .. أتصدق ؟

ـ منى ؟ وأين تعنتها ؟! .. لابد أنه برهان صاحبي .. فهذا إنسان ساحر .. سوف ترين منى أخرى غير التي كنت تعرفينها إذا كان الرجل فعلا هو برهان محمود الدين ..

ـ والخمر ؟!

ـ لا أدري ؛ ولكنها ستهجرها بالتأكيد ..

ـ اتصل بصاحبك برهان لنتأكد هل هو العريس ؟

كان سعد يهز رأسه وهو يفكر بما سمع من معلومات وهو يقول : أكيد برهان.. لقد سخر منا عندما تظاهر بالانسحاب .. عندما رأى خوفنا وقلقنا أظهر لنا انسحابه .. أنا أعرف برهان جيدا .. إنه ماكر!

اتصل سعد في بيت صديقه برهان فلم يجده ، فتحدث مع أمه التي أكدت له أنهم قبل قليل عادوا من حي برقوقة ، وقد طلبوا لبرهان فتاة من ذلك الحي ، فشكرها وبارك لها ، ووعدها أن

يتصل مرة أخرى ببرهان ليبارك له ، والتفت لزوجته بعدما وضع الهاتف قائلا : عملها المنحوس! .. نعم عادوا قبل قليل من حي برقوقة وقد اتفقوا على الزواج .. سنذهب لأمك ونسمع منهم الحكاية .. ولا تتكلمي بشيء حتى نرى برهان ونعرف منه تفصيل كل شيء يا حنين .. ولابد أن أحداثا حدثت لتغير منى من أفكارها وعنادها وتعود لحي برقوقة بالذات ، وهي التي كانت تقول عنه عندما نتناقش في ذلك إنه جهنم الحمراء

ـ معك حق .. نلزم الصمت حتى يتضح كل شيء أمامنا .

غادروا العمارة بعد أن مروا على والدة سعد وأخبروها بأنهم ذاهبون لبيت الحداد خليل عم حنين استقبلت جميلة ابنتها بالأحضان كعادتها وبفرح ظاهر للعيان ، وقبلت زوج ابنتها، وفعل مثلها المعلم خليل ، ورحبوا بهم ترحيبا كبيرا ، وحتى مالك ومنى التي كانت تضحك لأختها وهي تستعد لسماع الكثير من الكلام والغمز شاركوا في الفرحة من جديد، وقال سعد مخاطبا لعمته : يبدو يا عمتي أن أمورا كثيرة حدثت في البيت !

قال مالك : معك حق يا سعد !

فقال خليل : أرأيت يا منى يا ابنتي كم يحبك الناس ؟!

فقالت حنين : حدثونا بكل شيء .

فقال مالك : لا شيء ، شاب اسمه برهان من حي (أبو حسبة) يعمل محاسبا في أحد البنوك تقدم لخطبة يدها ، وقد وافقت منى على الزواج منه عن رضا وطيب خاطر ، وجاء أهله لمقابلتنا حسب الأصول وقد وافقنا .

قالت حنين متضاحكة : لا ، لا .. لابد أن هناك تفاصيل كثيرة حدثت لتوافق أختي الغالية منى تعالي يا حبيبتي إلى حجرة أمك لتشرحي لي كل شيء .. لقد بكينا وترجينا من أجل أن تعود لعقلها ولحي برقوقة يا مالك .

أمسكت منى بيد أختها الأصغر منها، ونهضت قائمة ومشتا نحو غرفة أمهم، وفيها سمعت حنين تفاصيل تعارفها على برهان، ولما انتهت منها قالت حنين بحماس وفرح : والله ولد جدع

لقد استطاع أن ينشلك من الضياع والغربة .. يا له من مقدام !

ـ أتعرفينه يا حنين ؟!

سكت حنين لحظات وقالت: أأعرفه؟! من أين سأعرفه ؟ هل ترين أنني أسمح لنفسي مثلك بالجلوس مع الرجال الأجانب ؟!

ـ نسيت أنك شيخة .. هيا نخرج أكيد سعد الدين زوجك مشتاق لمعرفة أسرار هذا الانقلاب لقد كان يتضايق مني كثيرا !

ـ ويلك ، وهل في العائلة أحد لم يتضايق منك حتى ربيع ؟!

وكان هؤلاء خلال خلوة البنات يتحدثون عن الحياة والسعادة والانسجام وأهمية التكافؤ بالزواج .. ولزم سعد الدين التجاهل من حيث معرفته ببرهان رغم انفعاله الشديد لم حدث ، ولما عادت البنتان كانوا قد شربوا القهوة والشاي ، وما زالت الفواكه موضوعة على منضدة أمامهم ، فتناول سعد واحدة ودفعها لمنى وهو يقول : مبارك يا عروس ..

ـ أهلا سعد ، وبارك الله فيك وقد أعلمت امرأتك بتفاصيل المعركة التي دارت بيني وبين السيد برهان وستنقلها لك ..

ـ معركة !! وهل كنتم يا منى في معركة ؟!

فقال مالك غامزا: يظهر يا سعد أنك من الفرح نسيت منى.. ونسيت قساوتها عليك وأنت تحاول تليينها علينا .. ونسيت محاولتها عرقلة زواجك من حنين .

نخزت منى مالك بقوة وقالت : أما زلت تذكر؟! لقد سامحني سعد ، أليس كذلك يا سعد ؟

ـ لقد نسيت .. منى تحبني وتحترمني ؛ ولكنها كانت تكابر وتظن أن القوة بالجاه والغنى فقط فالأخلاق قوة .. أنا مسرور لما حدث لك يا منى .

ـ هل سامحتني يا سعد ؟ .. ربما كنت قاسية عليك في تلك الأيام .. أنا فعلا كنت أمر بعاصفة وأحوال صعبة ؛ ولكن هذا الشاب استطاع قلب تفكيري وردي للحياة البسيطة التي عقدتها اليأس مشكلة .. انهيار الأشياء الكبيرة مشكلة أكبر .. وبالفعل ليس الطلاق والفشل هو نهاية

المطاف أو الدنيا .. أنا جد سعيدة بمشاعركم التي أراها نحوي .

ـ أنا سامحتك اليوم وأمس يا أخت منى .

فقال مالك مداعبا : واعلموا أن منى قد حرمت على نفسها الخمر ، رغم ما بذلنا من جهد وعرق وكلام ونصح وتهديد لترك هذا الجرم ، ولم تكترث لنا ؛ ولكن كلمة من الفارس الشجاع برهان عادت لعقلها الذي حاولت إذهابه بالخمر.. بقي الدخان وستتخلص منه قريبا هكذا وعدني برهان .

ضحكت منى وقالت : الدخان أنتم تعلمون أنني لم أدخن ، ولم اسكر إلا لما ارتبطت بذلك المدعو حازم ، وذكرت لبرهان سبب تعلقي بهما .. والأحداث أثرت فيّ .. ولست بالشرهة والمدمنة في كليهما .. هؤلاء القوم عندهم الخمر والقمار جزء من الحياة .

فقال خليل : الحمد لله على نجاتك من ذلك ومنهم أيضا .

فقال سعد مشجعا : ألف مبارك يا أختي يا منى .. وإن شاء ستتركين الدخان كما تركت المنكر.. أنت على وشك ولادة جديدة .. فكلنا كان خائفا عليك من الضياع والمزيد من الانحراف .

وقضى القوم سهرة رائعة وممتعة فرحين بعودة منى لحظيرة العائلة ، وشاكرين لهذا الشاب الذي استطاع أن يحدث فيها هذا التغيير الذي كان بعيدا في نظرهم ولم يستطيعوه .. وبينما هم في سرورهم اتصل ربيع من بلاد الغربة وعبر لهم من هناك عن سعادته وفرحه الغامر ، فقد كان مالك قد اتصل به فلم يجده ، وتحدث مع زوجته وحدثها عن خطبة منى مرة أخرى ، فلما عاد للبيت روت الزوجة له الخبر السعيد فبان الفرح على وجهه ، واتصل بهم وشاركهم فرحهم وسعادتهم ، وتكلم مع أمه وزوج أمه ثم مع منى وبارك لها العودة للبيت وزواجها وأبدى شوقه لمشاركتهم سهرتهم والتعرف على زوج منى والالتقاء به .. وتحدث مع حنين أيضا وزوجها سعد .



عقد قران منى وبرهان بحفلة صغيرة تمت في بيت الحداد خليل ، واتفقوا أن يكون الزفاف في وقت قريب .. فعرضت منى أثاث بيتها من ثلاجة وغسالة وأواني على برهان فاعتذر عن ذلك وقال : لست متكبرا على ذلك .. ولكني أحب أن أشتري كل شيء جديدا .. فاهديها أو تصدقي بها ..

ولما انتهى كلامهم عن تأثيث البيت ، وعن مكان السكن ، قالت منى : لي زمن منذ جئت بأهلك إلينا لا أراك تدخن يا برهان .. حتى أن مالك قال لي إنك لا تدخن، فأقسمت له أنك تدخن ، وقد كنت تشعل لي أحيانا السيجارة .. وقد قدمت لي مرات السجائر نفسها .. في الشركة وفي المطعم .

ضحك برهان وقال : للأسف لا أملك ثمن الدخان.

ـ أتسخر مني؟ أنا كنت أريد أن أسألك عن ذلك منذ ذلك اليوم .. ولكني قدرت أنك لا تريد أن تدخن أمام أمي وعمي خليل لكرههما للدخان .. وعدم حبهما الدخان والتدخين .. فلذلك عندما أريد أن أدخن أدخل حجرتي الخاصة التي أنام فيها.. فهم يكرهون رائحة الدخان مع أنهم يستنشقون رائحة دخان السيارات والباصات .

ـ هناك فرق .

ـ صدق لا فرق كله دخان .. ولكن ليس هذا مهما الآن .. فيمكنك أن تأخذ راحتك في بيتنا هذا ، وتدخن كما تشاء وخذ هذه السيجارة هدية مني .

تناول برهان سيجارة منى وأخذ يمزقها ، ومنى تنظر إليه بغضب وحيرة ، ثم رماها في منفضة سجائر موضوعة أمامه فقالت : لماذا أتلفتها ؟ ألا تدخن هذا النوع ؟ أنا لم انتبه لنوع وماركة سجائرك.

ـ أنا لا أدخن فعلا كما قال مالك .

أخذت منى بالضحك العالي وقالت : أنت لا تدخن لو لم ترك عيناي هاتين ـ وأشارت لعينيها

ـ لربما صدقت أنك لا تدخن .

ضحك برهان وقال جادا : صدقي يا منى بأنني لا أدخن .. إنما دخنت مضطرا .. فأنت تعرفين أن السيجارة أصبحت اليوم وسيلة للقلوب والحديث . وزاد في الضحك .

صرخت قائلة : ماذا أسمع ؟!

ـ دخني يا منى .. إذا الإنسان ما امتنع من نفسه لن يمنعه أحد .. فمرضى القلب المدخنون يمنعون عن التدخين فيدخنون .. بس أنا لم أكن أدخن ، إنما كان ذلك وسيلة وأداة من أدوات المغامرة التي قمت بها لغزو قلب الفاضلة منى ربيع ونجحت .

ـ فعلا نجحت يا برهان .. ولكني لم أعرف من رماك عليّ لحتى اليوم .

ـ لليوم ؟! .. ألم يحاول كشف نفسه ؟

ـ أأعرفه أنا ؟

ـ نعم تعرفينه ؛ ولكن يبدو أنه لا يريد إظهار حماقته ، لا أدري خوفا منك أم مني يا سيدتي الكريمة !

أمالت رأسها قريبا من رأسه وقالت : اهمس في أذني من هو ؟

ـ سأهمس عندما يأذن لي .

ـ يا رجل فكرت بكل الناس ولم أعرفه .. أتعرف شخصا اسمه عدنان جابر؟

ـ عدنان جابر .. ابن أخت خليل ؟

ـ آ ..

ـ نعم ، تعرفت عليه وهو شاب محترم وناضج وفاضل ، وهو صديق لأخيك ربيع كما فهمت من أختك حنين وحتى من مالك .

ـ هم أبناء حارة واحدة .. وكلاهما ربيع وعدنان تزوجا من أقارب أمي .. فربيع أخذ ابنة خالي وخاله .. والأخ عدنان جابر تزوج ابنة خالتي .. عرفتك عليها يوم كتب الكتاب .

ـ أجل وقد دعانا عدنان لغداء أو عشاء حسب رغبتنا .. فشكرته .

ـ نعم هو رجل محترم فعلا .. هل تعلم أنه فكر يوما بالزواج مني ؟.. عندما أراد الزواج ذكرني

ولكني كنت مرتبطة بالمدعو حازم من غير عقد فأخذ ابنة خالتي .

ـ الزواج كما يقال قسمة ونصيب ، مع الاختيار الكامل للإنسان فهو قدر من الله .. لماذا اختار فلان فلانة ؟ ولماذا رضيت فلانة بفلان ؟ .. فهذه قدر مقدر.. كنا تحدثنا مرة عن المشاريع ، وقلت لك فكري لنا بمشروع تجاري نتشارك فيه .

أدنت رأسها من أذنه ثانية وهمست قائلة : مكتب تدقيق كما تحب وتحلم

تنهد قائلا : إيه، والله إنه حلم لي ! وهو حلم بسيط ليس كأحلام منى كما أعتقد .

ـ خلاص أنشئه ودعني أعمل مديرة له حتى تتقاعد من البنك .. أم تفكر بالاستقالة ؟

ـ المكتب المشكلة يا منى لا يحتاج لغة إنجليزية وترجمة .. كل الحسابات تجري بالعربية ربما نكتب الأرقام بالإنجليزية .. سأفكر لك بمشروع تقر به عينيك وتعرفين من هو برهان ذاك المغامر الصعلوك الذي دخل حياتك رغم أنفك .

ـ أحسنت رغم أنفي فعلا ! .. أنا لما تعاملت معك صدق أن الزواج لم يخطر ببالي .. لم أقف مفكرا طويلا عند اقتحامك لمكتبي ذلك النهار ، ولم أسأل نفسي لماذا دخلت عليّ بتلك الصورة البريئة ؟ الرجل الساذج البسيط الذي يخاف أن يشتري مكتبا وأثاثا بدون مشورة أحد .. ويخشى أن يضحك عليه ، وأتعاطف معه وأصدق أنه إنسان طيب مسكين بحاجة لمساعدة ومشورة .

ـ كان لابد من فعل ذلك في نظري لتتعاطفي معي .. دخلت فتظاهرت أنني حائر لا أدري أين أذهب ؟.. ثم دفعت باب مكتبك ودخلت وبصوت ناعم ضعيف أذكر حاجتي وكلي خجل وحياء .. وكنت أحسب أنك رأيتني ولو بطرف عينك عندما دخلت المتجر من وراء الزجاج ولو من غير شعور أو اكتراث ..فاعتقدت أنني إنسان حائر جاهل بالمعرض .. واتجهت إليك من دون الآخرين عفويا وبدون قصد .. فدبت فيك الحمية العربية وأحببت مساعدة هذا المسكين ـ وسكت لحظات ـ وكذلك لإرضاء غرورك .. لا تنكرين .. فكل عيون العاملين كانت تراقبنا وتريد أن تعرف ما الذي جرى؟ .. ولماذا دخل هذا الرجل الأنيق الوسيم مكتب

منى وتحدث معها ؟

ـ داهية ماكر يا رجل! لابد أن ذلك حصل معي .. منحوس أنت.. بل تشاجرت مع بعض العاملات من أجلك .. ثم تشاجرت مع المدير من أجل هواتفك .. أقر لك بأنك مغامر جيد وتفكر بردة فعل خصمك .. أو الشخص المقابل لك .. وأكيد أنك قارئ جيد .

ـ أنا قارئ جيد حقا.. وأحب قراءة الكتب المثيرة ولدي الكثير منها .. ستجدينها في شقتنا إن شاء الله تعالى .

لما حضر المعلم خليل من شغله ، وتناول الجميع العشاء ، واندمج خليل وبرهان بالحديث ، ونسوا منى التي تحضر لهم ساعة فاكهة وساعة تصنع شايا وساعة قهوة ، ولحظ مالك غيظها لإهمالهم لها ، وكان مالك السامع أكثر منه متكلما تلك السهرة ينظر إليها وهو يضحك ثم عقب فقال لها : يا منى .. اهدئي .. لك أكثر من ساعتين ترغين مع برهان .. أعطينا فرصة نتحدث معه .. فبرهان رجل عجيب ومثقف ولديه قصص وحكايات مدهشة .. وفي كل شيء يتحدث فحتى العم خليل معجب به جدا ويراه نوعا فريدا من الرجال في الدنيا ، وقد شرحت له قصة اصطياده لك بالتفصيل .. فهو قد فعل الذي عجزنا عنه في شهور وسنوات وغدا ستتركين الدخان كما وعدنا السيد برهان ..

كانت منى تتحمل تعليقات مالك اللاذعة ، وهي تعرف ربما أكثر من غيرها كيف يكسب برهان الأصدقاء بسرعة وحذاقة ؟ فردت على مالك ببعض الغيظ وردة الفعل فقالت : اسمع أنا تفاهمت معه على كل شيء .. أفعل ما أريد وأترك ما أريد .. والدخان الذي ما زال يزعجك ويثيرك ويهيجك ..حسنا لن أدخنه ، مبسوط يا سيدي مالك .

ـ صحتك غالية علينا ..

وذهبت لحجرتها وأحضرت علب السجائر والتبغ ، وأخذت تتلفها وهي تقول لمالك : ارتحت الآن .

وألقتها في سلة النفايات، وارتفع الصياح في الحجرة مباركا هذه الخطوة الشجاعة ، ورمت على

أمها القداحة قائلة : هذا تصلح لإشعال الغاز .

وقالت جميلة لما هدأت الأصوات والفرحة والنكات والتعليقات التي قيلت: والله هالبرهان ولد مبارك ! والله يا منى نتعجب عندما نتذكر عنادك الماضي وأحوالك وبعدما عرفت هذا الشاب نلمس الفرق الكبير .. رضى الله عنك يا ابنتي وبارك الله لك في زوجك المحترم .

غرق برهان طبعا بالخجل والعرق وهو يسمع كلمات الثناء والمدح ويرى نظرات العيون من منى ومالك فقال : بوركت يا أمي .. هذا من فضل الله علينا .. ومنى إنسانة عاقلة ؛ ولكن النفس تضعف أحيانا فتحتاج لدواء ، وربما يكون الدواء كلمة طيبة ، ربما نظرة حانية فيها عتاب خفيف تفعل الأعاجيب .

قالت منى بابتسامة واسعة : شكرا لك برهان .. أنا يا أمي مع ذلك لم أحبه بعد ؛ ولكني معجبة بطبيبي فالحب غير الإعجاب في نظري ، وقد يكون في نظر الآخرين ، وأنا لست عنيدة كما تشيعون عني .. أنا إذا اعتقدت شيئا لا أتزحزح عنه إلا إذا اقتنعت فعلا بضعفه وبطلانه.. وأنا لليوم لا أعرف برهان جيدا ولكنني مقتنعة به وبأفكاره .

واختلط الحديث بين الجميع ، حتى أن جميلة تمنت وجود ربيع بينهم ليشاركهم السعادة ، فهو كم دعا وتوسل إلى الله أن يهدي أخته ويحفظها مما انزلقت إليه بزواجها من حازم من عادات سيئة ورديئة ، فقال مالك عندما سمع تمني أمه: سأخبره بكل شيء يا أمي .

وأمضى القوم سهرة ممتعة ، واستأذن برهان بالانصراف وهم يحثونه على المجيء غدا وأن البيت بيته حقيقة لا مجاملة ، فيقول : هو أكيد بيتنا ، والله لا يمل من سماع الشيخ أبي أحمد وأم ربيع والأخ مالك وإنني اندمجت معكم في هذه المدة الوجيزة اندماجا كاملا .. حتى بدأت أفكر بالحياة والسكن في حي برقوقة.. فقد لمست عواطف ومشاعر وحنانا عجيبا في ناس الحي .. فهم يحبونكم كأنكم أهل ، وهم ينظرون إليّ كبطل أنقذ ضحية .. مع أني طالب زواج فقط .. فهم يخجلونني بالثناء والمجاملات كلما التقينا بأحد في المسجد أو في الطريق .. وهذا من حبهم لكم .

فتحمس خليل وقال: كلامك دائما سكر وحلو يا برهان .. تفهم في كل شيء وسكنك هنا مكسب لنا وللحي .

فقال برهان : بارك الله فيك يا عم ؛ ولكني وعدت منى بأن أطير بها من حي برقوقة عند الزواج فأمي تريدني أن أجاورها وأسكن معها في العمارة يا عم خليل .. لا أعلم ما القصة التي بينها وبين هؤلاء الناس الذين يحبونها أكثر مني وكانوا خائفين عليها كخوفهم على أبنائهم .

فهتف خليل : أرأيت يا منى ؟! كلام هذا الإنسان .. على كل نحن نتشرف بك يا ابني يا برهان يا ابن الأجواد والله كأننا نعرفك من أربعين سنة .

فتبسم مالك وقال : لم يكن مولودا يا عم أبا أحمد .

ـ رجل يدخل المخ يا ابني يا مالك!

فقال برهان : شكرا لك يا عمي ، أنا مسرور بصحبتكم ومعرفتكم وأرجو أن أكون عند حسن ظنكم جميعا .. دعواتك يا أم ربيع .. ادعي لنا وأنت تسجدين بين يدي ربك .

فقالت جميلة : لم انقطع عن الدعاء يوما ما يا ولدي .. ومنذ تصاهرنا وأنا أخصك بالدعاء .

فقالت منى : والله يا برهان كما يقال أكلت بعقل الناس حلاوة !

فتبسم لمعاكستها وغمزها وضغط على يدها مودعا : أو لم أفعل ذلك؟! .. إنهم أناس طيبون يا مجنونة ! .. هكذا الناس .. البساطة والأمل والحب .. أبغض شيء إليّ النفاق والمجاملات الكاذبة .. سلام الله عليكم نلتقي قريبا .

وركب مالك بجوار برهان الذي جلس في سيارته فقالت أمه : أين ؟!

ـ سأمشي معه لرأس الشارع .

وقالت منى معاكسة : ماذا تريد منه ؟ اطلب مني أولا وأنا أوصل له الرسالة .. جاملني يا أخي على الأقل !

فقال مالك ساخرا وجادا وبصوت مسموع لهم : يريد مني بعض المال ليكمل مشروع الزواج اكتشف برهان أن ثروته لا تكفي فناشدني المساعدة فدبت فيّ النخوة والشهامة .

ـ أنا أولى منك بأسلافه .. على كل سيقول لي برهان ما ستقوله له .

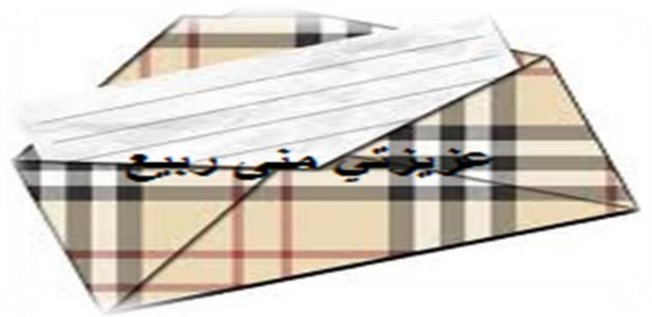
ـ لا أظنه يكشف السر .

أشار لهم برهان مودعا بيده وتحرك بسيارته ، ولما أصبحا على رأس الشارع الصغير أوقف برهان السيارة والتفت لمالك الذي قال : يا أخ برهان أنت أكثر من زوج أخت وأكثر من صديق أنت أخ كريم وكما يقال رب أخ لك لم تلده أمك فنحن إخوة في الدين والعقيدة وإخوة في الصداقة والحب والصهر .. فإذا كنت محتاجا لأي فلوس فلديّ ما يساعد

قبله برهان وقال : أنتم أحلى ناس .. مستورة يا رجل ! والحمد لله أنا لي سبع سنوات اشتغل في البنك ، ولست بالمبذر ولا المدخن ، وعلمنا حضرة الوالد حفظه الله لنا أن نحتفظ بأموالنا لمثل هذه الظروف .. فلا يقبل منا المشاركة في مصروف البيت إلا ما ندخله خفية عنه ، وهو يقول لنا : لما احتاج سأطلب منكم .. فالحمد لله وأشكرك جدا على هذا الموقف النبيل .

ـ نحن فرحون بك جدا جدا يا برهان .. أنت قدمت لنا فضلا ومعروفا كبيرا .. أنت قدمت للعائلة تضحية كبيرة وإيثار كبير .. أنت أنقذتنا كلنا من الضياع وليس منى فقط .. والله لو سقطت منى في الرذيلة لوصمتنا جميعا في العار ، وأنت خير من يعرف أهمية هذا عندنا نحن أبناء مثل هذه الأحياء .. آه لو تعلم كم عانينا في السنوات الأخيرة ؟! منذ تزوجت ونحن نعاني ألما نفسيا وبدنيا ننظر إلى بعضنا في حزن وأسى .. ونحن اليوم نضحك من أعماق قلوبنا كنا عاجزين معها لآخر درجة ..

ـ القدر .. الله يحكم ما يريد !.. فابحث لك يا مالك عن زوجة صالحة تقر بها عينك .. فمنى رغم ما بدر منها وما حصل هو أمر طبيعي .. البيئة لها دور مهم كما تعلم في تكوين الفرد مهما حاول التحرر من قيودها .. البعض منا يحلم أحلاما كبيرة ..ولا يعرفون كيف يكون تحقيقها بسرعة ؟.. منى يا أخي لم تحب زوجها حازما يوما ما إنما كانت تراه جسرا أو درجة في سلك طويل وربما سلك قصير لتصير من أصحاب الثروات الهائلة .. ولكن هذه الدرجة انكسرت بسرعة ، ولم يتحقق شيء من الحلم .. فصدمت فزاد تمردها .


عزيزتي مني ربيع

رسالة حازم

ولما وصلت منى صباح أحد الأيام إلى الشركة ، وذلك بعد كتابتها كتاب الزواج بزمن يسير أخبرها أحد العاملين أن رسالة أتت إليها مساء أمس ، وهي كانت قد تركت الشركة بعد ظهر أمس للقاء برهان والذهاب لمعرض ومتجر أثاث لحجز أثاث غرفة النوم والبيت فتسألت : أين هي ؟

فأخبرها الموظف أنها عند المدير فشكرته ، وطلبت منه فنجان قهوة ، ولما شربت القهوة ، ورتبت مكتبها صعدت إلى مكتب المدير في الطابق الثاني .. وصبحت عليه ، وذكرت له سبب مجيئها ، فتطلع على سطح مكتبه يمينا وشمالا وفتح جوارير أو أدراج المكتب وتطلع فيها فلم يرها فقال : نعم جاءت رسالة للسيدة منى ربيع أمس .. كيف تمشي أمور الزواج يا أخت منى ؟

ـ تمشي بتوفيق من الله .. أنا أول مرة تصلني رسالة خاصة هنا .

ـ فعلا وأنا مثلك دهشت .. ربما تكون تهنئة من أحد الأصدقاء أو الصديقات بمناسبة عقد قرانك .

وبينما هو يقلب في الأوراق والملفات التي أمامه وجد الرسالة فقدمها لمنى وهو يقول بجد : ها هي يا سيدة منى .. هل ستستمرين في العمل بعد الزواج ؟

ـ زوجي لا يمانع من العمل لحتى الآن .. ولما أنوِ ترك العمل سأخبرك قبل استقالتي يا سيدي

ـ أشكرك يا أخت منى .. وحقيقة قد يكون حدث بيننا في الشهر الماضي بعض الحدة ولكن من معرفتي بك إنك تقدرين وضعنا .

ـ بل أنا التي تأسف لما حدث .. آسف جدا يا سيدي .

ـ بارك الله فيك .. وشكرا لك أرجو أن تدعينا عند حفل الزواج .

ـ ولا يهمك ، سأفعل إن شاء الله .

ـ أطلب لك قهوة .

ـ لا ، شربتها قبل أن أصعد إليك .. إن الفراش باسم هو الذي ذكر لي أمر الرسالة .. فأنا لم

أعتد على الرسائل الخاصة ؛ ربما تكون تهنئة كما قلت

وكانت منى قد تناولت الرسالة من المدير ، ووضعتها في حقيبة اليد التي تحملها كما تفعل النساء في هذه الأيام .

ولما انتهى الكلام مع المدير هبطت إلى مكتبها ، ولما جلست وتطلعت على العاملين الذين يرمقونها بعيونهم الفضولية وقد انشغلوا بواجباتهم ، أخرجت الرسالة فكان مظروفها كبير الحجم ومعطر ومن النوع الثمين ، وكان عليه عنوان الشركة التي تعمل فيها ، ويسلم ليد السيدة منى ربيع ، وأما المرسل فلم تجد له اسما معينا إنما عنوان فقط .. تحسستها لحظات ، ونظرت للخط المكتوب به العناوين فارتعش قلبها ويدها وهمست : إنه خط حازم ناصر .. زوجي الأول خطه لا أنساه أبدا !

وضعت الرسالة على المكتب وأخذت تحدق النظر إليها بضع دقائق ولم تفتحها ثم وضعتها في الحقيبة ثانية وهي تقول : سيفتحها العزيز برهان أولا .. أمعقول عرف بزواجي فأحب أن يهنئني بذلك ؟! .. ما الذي ذكره بي ؟! وكيف عرف أني وجدت رجلا قد يكون خيرا منه بل هو خير..؟! لابد أنه يعرف أنني أعمل هنا من عبير من بعض الأصدقاء القدامى .

نظرت في أوراق الشغل التي أمامها دقائق ، ثم رفعت سماعة الهاتف وتحدثت مع البنك وطلبت برهان وطلبت اللقاء به ليلا ولما سألها عن السبب قالت : لما نلتقِ ستعرف السلام عليكم .

وضعت السماعة ، وراحت في تفكير قديم أيام زواجها الأول أيام حازم .. وعادت بعد حين تنظر فيما أمامها من ملفات ومراسلات .

كالعادة زار برهان حي برقوقة ملبيا دعوة واتصال منى حيث وجدها ومعها أمها في انتظاره ، وأن السيد خليلا ذهب للصلاة في المسجد ، وأن المحامي مالكا عند أخته حنين ، وكان برهان قد أتى بأمه معه ، فانشغلت جميلة بأم برهان ، ودخل برهان حجرة منى التي قدمت له العصير الذي يحبه بعدما قدمت منه لحماتها وأمها ، ولما جلست قبالته وسألها عن صحتها وحالها وفعلت مثله ، ثم سألها : هل دخنت منذ مزقت علب الدخان ؟

فتبسمت وقالت : أتريد الصدق ؟

ـ نعم !

ـ ضعفت في الشغل وتسولت بضع سجائر .. لم اشترِ علبة واحدة منذ تلك الليلة .. سأتخلص منه .

ـ إن شاء الله .. ما الذي جد وطلبت زيارتي لبيتكم .. وأنا أمس عندكم لنصف الليل .

ـ أمر مهم وغريب .

ونهضت وأتت بحقيبة اليد الصغيرة ، وأخرجت منها الرسالة التي وجدتها في انتظارها صباح اليوم في الشركة فقال : ما هذا ؟!

جلست وناولته الرسالة ، أمسك بالرسالة وقلبها بين يديه ، وقرأ ما عليها ، وتسأل بدهشة عما تريد ، فقالت: اليوم صباحا عندما دخلت الشركة ومكتبي أخبرني الفراش باسم أن رسالة وصلت أمس بعد الظهر لي شخصيا وهي مع المدير .. فاستغربت وشربت القهوة كالمعتاد وصعدت لحضرة المدير شفيق وطلبتها منه وهو مستغرب مثلي .. فهذه أول مرة تصل رسالة شخصية باسم منى للشركة منذ عملت معه بعد سفر حازم زوجي السابق .. مالك أتغار ؟!

ـ لا .. لا .. دعينا منه الآن أكملي .

ـ تحدثت مع السيد شفيق ، وتسامحنا عن مشاكلنا السابقة ، وطلب مني أن أدعوه لحفلة الزواج فوعدته بذلك ، فاجعله على رأس القائمة .. وأخذت الرسالة ونزلت إلى مكتبي ، وأنا أظن كما ظن المدير أنها تهنئة وتبريك من أحد أو إحدى المعارف .. لما نظرت إليها وإلى اسم المرسل فلم أجد له اسما كما تلاحظ ، فيوجد عنوان ولا يوجد اسم المرسل حتى العنوان ربما يكون وهميا .. أما عنوان الشركة التي أعمل فصحيح .. ولكني لما نظرت الخط ودققته عرفت أنه خط من ؟.. إنه خط حازم !

ـ حازم ؟!

ـ نعم ، حازم يا سيدي العزيز ، فاضطربت وارتعشت وتسألت ما الذي ذكره بي بعد هذه الأيام

والشهور؟! وكيف عرف بزواجي وخطبتي إلى آخره ؟ .. فهو منذ سافر أمريكا تحدث معي من هناك مرتين أو ثلاث على ما أذكر ثم أرسل ورقة الطلاق أو وكالة بالطلاق ، والمحامي محامي والده بلغني ذلك .. وانتهى ما بيننا .. فانزعجت ولم أفتح الرسالة ، وتركت أمر فتحها لك يا سيدي فمن أجل ذلك اتصلت بك.

كان برهان يقلب الرسالة ، وهو يسمع تفاصيل مجيء الرسالة ، وموقف منى منها فقال بعد صمتها : أخائفة من شيء ؟!

ـ أنا رغم انحرافي الذي تعرفه يا سيد برهان .. عندي إخلاص ووفاء وأحسب لكل شيء .. فهذا الرجل لا حق له اليوم ليكتب لي أو أن يتحدث معي .. لا أحب أن أجرح مشاعرك .. ولو كان الشيء تافها .

ـ هل اتصل بك منذ عاد للبلد ؟

ـ أبدا .. هذا أول اتصال، أنا علمت بعض أخباره وبعودته من أخته عبير ومن بعض الأصدقاء لنا الذين ابتعدوا عني بعد سفره لأمريكا الشمالية .. فنلتقي صدفة فنسمع أخبار بعض .

ـ أنا أقدر لك هذا التصرف الحسن .. ولكني لست حساسا لهذه الدرجة .. أقرئيها يا منى ولا تقلقي .

ـ هل أمزقها ولا أقرأها ؟!

ـ أخائفة من شيء ؟!

ـ عندي قلق ما ..

ـ أنا أقدر شجاعتك يا منى !.. وكان باستطاعتك قراءتها وأتلافها دون إعلامي وبدون أن أعلم فهذه شجاعة وأدب راق .. فأنا لما اقترنت بك وصممت على الاقتران بك فعن معرفة وعن دراسة .. ليس اعتباطا كما يتبادر إليك ، فأنا أعرفك جيدا ، وأعرف أهلك جميعهم من قبل الزواج سماعا طبعا ، فلدي معلومات مهمة عنكم .

ـ من مصدرك الخاص .. ليتني أعرف ذلك المصدر !

ـ مصادر كثيرة على كل حال .. أنا أسمح لك بقراءتها .

ـ نقرأها معا ؟!

ـ وحدك أفضل .. فهي رسالة خاصة لك أنت أنت .. وهل أنت متأكدة أنها من حازم ؟

ـ اشتغلنا معا سنوات ، فأعرف خطه جيدا ، وأعرف ضعفه ، فهو خائف أن يضع اسمه ، وحتى عنوانه الصحيح ، حتى إذا فقدت أو ردها البريد ولم تصل لي وردوها لا تعود إليه .

ـ أنا لا أريد قراءتها يا عزيزتي .. أقرئيها أولا وإذا رأيت من المناسب قراءة ما كتب لك ، فربما أسمح لنفسي بقراءتها ..لا تتحرجي من قراءتها

وطرق على الباب طرقا خفيفا فنهضت منى وفتحت الباب : أبا أحمد .. تفضل يا عم.. أنا فكرت أمي أحضرت الشاي الذي يحبه زوج ابنتها .. عمي خليل يا برهان .

نهض برهان مسرعا ومصافحا للعم خليل وهو يقول : أهلا وسهلا بالرجل الفاضل ، وقال برهان لمنى : أقرئي الرسالة ثم الحقي بنا .. هيا يا عمي أبا أحمد نجلس في الصالة .. كنا نتحدث في موضوع خاص وإلا جلسنا مع العجائز .

ذهب الرجلان حيث الصالة وحيث تجلس المرأتان ، وظلت منى في الغرفة حائرة بين القراءة للرسالة أو تمزيقها ، فعندما تغلب أنها مجرد مباركة وتهنئة تهم بتمزيقها .. وعندما تغلب أنه قد يكون فيها شيء غير ذلك ربما معلومات مهمة ترغب بفتحها .

وأما برهان فتحدث مع السيد خليل بضع دقائق ثم التفت إلى أمه قائلا : آ يا أمي كيف أنت وحماتي ؟

ضحكت الأم لسؤال ولدها الساذج ، وأخذت تكيل لهم المدح والثناء والطيبة والصبر على تعليم الأولاد وتربيتهم ، وتثني على همة خليل ، وجميلة تشكرها وتثني عليها وعلى أصلها وجذورها .. وخليل وبرهان يبتسمان ويرشفان الشاي ، ودخلت عليهم منى وأخذت تتحدث مع حماتها وترحب بها ، وقد سمعت آخر الثناء فشكرت حماتها على إهدائها لهم لفلذة كبدها برهان ، ثم تطلع برهان في منى وسألها : أقرأتيها ؟

هزت رأسها بالنفي وقالت : إنني مترددة وسأقرأها فيها بعد .

ولما سأل خليل عن الموضوع غير الشابين مجرى الحديث والحوار بعدما قالت منى : رسالة لي يا عم .

وبينما هم منسجمون بالحديث دخل مالك وخلفه حنين وزوجها سعد الدين الذي قال مازحا : والله يا برهان أنت مرابط هنا !.. منذ متى وأنتم هنا يا خالتي أم العبد ؟!

قالت أم العبد ـ ابنها الكبير اسمه عبد القادر ـ والدة برهان: والله يا ابني منذ ساعة أو أكثر .. كيف أمك وأخواتك ووالدك الحاج ؟

رد سعد فقال : الكل بخير يا خالتي وبشوق لكم .. وكيف أنتم ؟

ـ الحمد لله .

ـ كيف صحتك اليوم ؟ أكيد مع خطبة برهان تحسنت أكثر !

ضحكت وقالت : الحمد لله يا ابني .. ها هو أصبح عديلك .

قالت منى مخاطبة حماتها : أتعرفون بعضا يا خالة من زمان ؟!

ردت المرأة بسرعة وبراءة : طبعا يا بنية .. كم مرة طلبت من برهان أن يتزوج من بنات أم سعدي ولكن النصيب حكم في النهاية لنتعرف على هذه الوجوه الطيبة .

تمتم الجميع بالشكر ، وكانت منى تتطلع في عيني برهان ، وكأنها اكتشفت سرا ، وقالت بنبرة مثيرة : برهان !

هتف وقد فهم مقصدها : نعم يا سيدتي !

فدخل مالك على الخط فورا ، وقال : يبدو أن اللغز يريد أن يحل يا سيد برهان .

أدرك سعد ما يتغامزون حوله ، فنظر في عيني برهان لحظات ، ثم نقله لمنى قائلا : وهل قال لك إنه لا يعرفني قبل تعارفكما ؟

ـ لا .. أنا ما سألته ؟

فقال برهان مريحا لأعصاب الجميع وهو يبدل نظره بين منى ومالك وسعد : أنت لم تسأليني

عن سعد الدين يوما ما .. فسعد الدين هو سبب تلاقينا وزواجنا .. إنه يحبكم جدا ويبغي لكم الخير فألقاني عليكم .. لنصير كما يحب عدايل .

همست منى كأنها مذهولة وهي تحملق بسعد : أنت يا سعد الدين ؟!

قالت حنين : هذا من حبه لك كما قال برهان .

قام مالك واحتضن سعد الدين قائلا : جزاك الله خيرا يا سعد ..

قال سعد متحمسا ومرتبكا في نفس الحين : لم استطع أن أقدم لها شيئا .. فقلت برهان صاحب هذا الشأن .. مع أنني تراجعت من خوف حنين وقلقها على مشاعر أختها وأعلمني المحترم أنه انسحب ولكنه مكر بي .

فقالت منى: أنا أصبحت مدينة لك يا سعد الدين بهذا الزواج.. وبهذا الزوج .

ـ ولحنين .

فقالت : ولحنين ...اسمحوا لي الآن بأخذ حنين لغرفتي بعض الوقت .. تعالي يا كذابة !



سعد الدين

تبعت حنين منى ، وجلستا في حجرة منى التي فارقتها قبل دخولهم بقليل ، وقالت لها : هو الأخ سعد الدين المتآمر عليّ ؟

ـ نعم سعد الدين أبو زكي هو المتآمر على أخت حنين .. هو برهان لم يقل لك ذلك ؟! .. أنا فهمت من سعد أن برهان ذكر لك ذلك .

هزت رأسها وقالت : ذكر برهان كل شيء .. وأنه لم يلتق بي صدفة إنما كان عن قصد وتخطيط وأن أحدهم دفعه لذلك ؛ ولكنه لم يذكر اسمه .. وما توقعت أن تكونا أنتما .. ولما سألتك ذات يوم تعرفين برهان أنكرت معرفتكم به .

ـ أنا لم أنكر .. فأنا لا أعرفه يا أختي فهم جيران قدامى .. سعد الدين كان خائفا وقلقا عليك كالآخرين .. فتحدث معه برهان ذات يوم عن رغبته في الزواج .. فأشار سعد إليك وحدثه بقصتك الرائعة .. وتكبرك على جنس الرجال .. فبدأت مزحة .. ولم هو معروف عن برهان من كثرة التفاف البنات حوله أيام الحي والصغر وكذلك أثناء الدراسة الجامعية.. استغرب طبعا هذه المعلومات وهذه الوسيلة .. وبعد تردد وافقنا على الفكرة والمحاولة .. ثم قبل بداية المغامرة المثيرة طلبنا منه الانسحاب ، خشينا على عواطفك الغالية علينا من الصدمة إذا لم يقتنع بالزواج منك .. لأنه لم يكن حسم أمره بالزواج بعد .. وكان سعد قد تعجب كثيرا من رفضك زواجي منه .. وكنت أنا قد ذكرت لعائشة أخته بعض ظروفك يا حبيبتي .. فكانت مشكلتك مشكلة لسعد .. وهم جيران وأصدقاء قبل أن يبني والد سعد ويرحل من حي أبو حسبة، وبقيت العلاقات والجيرة بينهم مستمرة ، فأشفق عليك وأراد أن يتحدى برهان بك ، وأنك لا يمكن أن تتحدي غروره ، ولما أقنعني بالفكرة طلبت منه أن يعرفني بصاحبه برهان هذا .. واتفقنا على المغامرة .. رغبة منا لإنقاذك من مرضك ، نحن كنا نرى أنك مريضة ولكن خفنا عليك بعد الاتفاق مع برهان ، خفنا أن يحدث شيء ليس بالحسبان فهذه عواطف ومشاعر .. ونحن ظننا أن المهمة انتهت .. لأنه وافق على الزواج وقبل بالزواج إذا لمس عندك قبول للتغير ، أما إذا لم

تقبلي فسيعتذر .. ورفض أن يربط نفسه بوعد مجهول العواقب .. فوافق على الانتهاء من المهمة وانتهى دورنا.. ولكن ظهر لنا أن برهان أخلف الوعد وتظاهر بالانسحاب خوفا علينا .. وتابع مغامرته حتى اصطاد السمكة ونجح في الوصول إلى منى ربيع .

هزت رأسها وقالت : اصطاد السمكة ! أنا سمكة في رأيكم ! والله يا سعد! لا يوجد أحد في الدنيا غير مهم .. من معرفتي بسعد لم يخطر في بالي أبدا .. خطر في بالي في الأول مالك .. وسبحان الله لما عدت للبيت في ليلة اتفاقي مع برهان وجدت مالكا في انتظاري فاضطرب مخي وتسألت: هل بينهما اتفاق مالك وبرهان؟ .. وكان برهان قد أنكر أن يكون لمالك يد في اللعبة ثم فكرت بعدنان ابن أخت خليل .. أما سعد فكنت أراه حاقدا عليّ ولا يطيقني ومنذ رحلت أمي ومالك لبرقوقة لم أره .

ـ سعد لا يعرف الحقد .. كان قد قلق من تدخلك في منع زواجه ، وصعب عليه موقفك الحاد واللئيم منه ؛ ولكنه لما شرحت له قصتك بالتفصيل طبعا أشفق عليك وخشي عليك الضياع ، مثلنا يا عصفورة ..

ـ عصفورة .. سمكة .. على كل حال برهان رجل لا بأس به ومقبول .. فيوجد كثير من التوافق بيننا .. والقدر حكم بيننا .. أنا شاكر لك ولزوجك وأعرف محبتك لي وستبقين أختي الصغيرة مع أنك اليوم أم لطفل والثاني على الطريق.

واحتضنت أختها لدورها ولو البسيط في زواجها وتعرفها على برهان ، كانت منى تشعر وتدرك مشاعر القوم اتجاهها ، ويبدو أنها بعدت عنهم كثيرا في السنوات الأخيرة ، ولما أنهت حنين ما عندها التفتت للرسالة التي ما زالت مطروحة على المنضدة وقالت : من ربيع ؟!

ـ لا .. انظري إليها

أمسكت بها حنين وقرأت ما عليها ثم قالت : ليست من ربيع .. ممن ؟

ـ حازم !

ـ من حازم ؟!

ـ الله ! زوجي السابق .

ـ أوه ..! لقد نسيته ! عمره ما دخل مخي .. والله ما أدري كيف تعلقت به ؟! .. عفوا ، أنت تعلقت بأموال أبيه .. وماذا يريد ؟! ألم ننتهِ منه لليوم ؟! وهل يعرف برهان بهذه الرسالة ؟ وماذا فيها ؟!

ـ ما زلت كما أنت لا تحبين المذكور ؟

صاحت حنين فجأة : خلاص انتهى من حياتنا ، صدقي أنني لم ارتح له يوما ولم يدخل عقلي منه شيء .. دعينا منه .. آ ماذا يريد منك اليوم ؟

ـ لا شيء .. وجدت هذه الرسالة في الشركة صباح اليوم ، ولما رأيت الخط عرفت أنه خط السيد حازم ناصر ، مع أنه لم يكتب اسمه عليها ، فوضعتها في الحقيبة ، واتصلت ببرهان ليفتحها فاعتذر وأذن لي بقراءتها .. فوضعتها لأقرأها وما زلت مترددا في النظر فيها .

ـ مزقيها .

ـ الفضول يا حنين ، قد يكون فيها شيء غير التهنئة كما أتوقع ، فنحن عشنا مع بعض سنوات قبل الزواج وبعده والمحير لي كيف عرف بزواجي بهذه السرعة ليبادر بهذه الرسالة والتهنئة ؟ وهو يعرف مكان عملي من أخته عبير ، دخلت شركتنا مرتين أو ربما من أحد أصدقائنا القدامى الذين يعرفون مكان عملي .. أما الزواج وعقد القران كيف عرف به ؟!

ـ لك أكثر من أسبوع كاتبة لكتاب الزواج ، والناس تنشر الأخبار بسرعة !

وفتحت الرسالة وهي تقول : ها أنا فتحتها ، وسأقرأها نيابة عنك يا منى .. ترى ماذا سيكتب الحبيب السابق ؟!

ـ حنين !

ـ منى !

ـ أنا أختك الكبيرة سأبقى .

ـ أعرف وأنا سأبقى أختك الصغيرة !

وأخرجت الرسالة المكونة من صفحات أنيقة يفوح منها العطر ، فقالت : يا سلام يا سلام ! هذا مجنون إذا ما زال يفكر بك عاطفيا .

كانت رسالة يتحدث فيها عن أيام الشركة ، أول أيام تعرفه على منى ، وكيف تولع بها وهام بها دون كثير من فتيات العمل؟.. ثم يعتذر لها عن فشلهما، وتحطم أحلامها معا.. ثم تهنئة بالزواج وذكر أنه عرف ذلك من بعض الأصدقاء، وتمنيات بالسعادة ، ويطلب منها المسامحة والعفو.

ولما انتهت حنين من القراءة بصوت مسموع صفنوا ببعض وقالت حنين : هل أمزقها أم تحبين أن تحتفظي بها ذكرى ؟!

ـ مسكين يا حنين! حازم .. ضحى من أجلي ..

صاحت حنين : لم يضح بشيء .. فالطلاق كان واردا حتى لو رضي والده .. فهو ضعيف الشخصية عابث ، ومن أجل هذا لم يجعله والده في منصب مدير شركة مصنع .. كان يعمل تحت إدارة أخته لضعفه وحمقه.. وأنت تعلقت به واستغللت هواه لك ليكون درجة وسلما لتصلي لعرش أحلامك الخيالية .. تقفزين مرة واحدة .. وكنت ترين أن ضعفه سيجعلك تحكمينه كما تحبين .

سكتت منى ثوان معدودات ثم قالت : أنا أعرفك ! وأعرف رأيك فيّ وفي حازم .. وتنهدت وقالت : دعينا منه هل اطلع برهان عليها ؟

ـ كما تشائين .. برهان رجل متزن وعاقل وطموح مثلك ، ويستخدم عقله وفكره قبل عاطفته أنا سأرسله لك

خرجت حنين وأرسلت برهان الذي دخل قائلا وقد وجدها تمسك بالرسالة بعد أن رمتها عليها حنين : آ ؟

ـ فتحتها حنين وقرأتها عليّ فإذا أنت تحب قراءتها فافعل .

ـ شكرا يا عزيزتي .. قالت لي حنين ملخصها .. واحتفظي بها إن شئت .

ـ إن شئت ماذا تقصد ؟!

وطفقت تمزقها قطعا قطعا وكان برهان يقول : يا منى! هذا جزء من حياتك ، أيام عمر، لا يمكن نسيانها بسهولة ستبقى تاريخ .. المهم أن يبقى تاريخ ولا أطلب منك عدم تذكرها .. فالإنسان يتذكر مواقف من طفولته .. فكيف من شبابه وأعصابه ؟! .. ولكن راعي مشاعري واعلمي أنني لا أكن لهذا الإنسان أي حقد وبغض ؛ لأنني لا أعرفه .. فالزواج قدر رباني .. ممكن غدا أموت ؟ وتتزوجين غيري هذه سنة الحياة

ـ أنت كما تراك حنين عقلانيا تستخدم العقل أكثر من العاطفة يا سيدي البطل

ـ ولو حدث العكس ، هل تقبلين أن أبقى من غير زوجة ؟ .. هكذا العقل يقول .. بطل لا بأس .. صراحة حنين ناضجة أكثر منك مع أنها الصغرى آسف لقول ذلك .. ربما لأنها لم تخضع لتجربة عاطفية في حياتها ، فرغت عاطفتها بعد الزواج ، فلذلك تحكم عقلها في فعلها واختيارها لا تغاري من أختك أنا لم أرها إلا بضع مرات بحكم زيارة سعد لبيتنا ، وذلك بعد كتابة كتابنا فلمست فيها رجاحة العقل .. ولا يعني ذلك أنك لا تفكرين .. بل تفكرين ولكن للأحلام والخيال دور كبير في حياتك .. الواقع غير الخيال .

ـ لولا أنني أعلم أنك تحبني وتموت فيّ لصنعت لك مشكلة .

ـ وأنا أعرفك وأعرف أنك تحبينني؛ ولكنك ما زلت متمسكة ببقايا من الماضي .. هيا نمشي للقوم .. سأجلس قليلا وآخذ أمي وانصرف .. المهم أنك علمت الليلة من كانوا وراء تعارفنا وارتاح قلبك .

تبسمت قائلة : سعد الدين .. صدق أنه لم يخطر في ذهني .. لأنه لم يدخل كما يقولون لي من زور ما أحببته يوما ..

ـ ليس مهما أن تحبيه أنت ، المهم أن تهواه وتحبه امرأته .. هو أيضا لا يهمه حبك له ولا يسعى إليه .. مشكلتك أنك لا تحبين أحدا .

ضحكت وقالت : مالك عصبت ؟! .. كنت أراه إنسانا مهملا ، وأعجب من رضا حنين به زوجا .. فهو غير متعلم لم يأخذ الثانوية .

ـ الشهادة ليست كل الدنيا يا سيدتي .. ولكنه تاجر ماهر ، هذا الذي ترينه نجح في التجارة أكثر منك .. ويدير حسابات المحل مثلي أنا المتعلم في الجامعة محاسبة .

ـ عظيم ! .. إنك مغرم به وتدافع عنه بقوة .. هدئ أعصابك ، أنا أقول لك رأيي فيه قبل أن أتعرف عليك ..

ـ لست غاضبا ، وأنت تعرفين أنني لا أغضب بسهولة ولا استفز .. ولكنه صديق وأخ عزيز وأريد أن أبين لك من هو هذا الذي لم يملأ عينيك ؟

ـ خلاص يا سيدي الآن عرفت من هو سعد الدين ؟.. وسأحسب له ألف حساب .. وفعلا وحق أنه نجح في التجارة والبيع مع والده وأنا لم أنجح في التجارة .. يبدو لي فعلا أنني كنت مغرورة .. لا تضحك .. ولا أحسن الفهم والتقدير ..

ـ سعد الدين لا تحسبي له ألف حساب ، فهو صديق وأخ ، ولن يتدخل في شيء بيننا كما أنا لا أسمح لنفسي بالتدخل في حياته .. فنحن اليوم أسرة واحدة .. وأنت تحسنين التفكير والتقدير ولكن الخبرة العملية عندك نظرية أكثر مما هي في واقع السوق والحياة .. وكذلك تتعجلين النتائج ولا تكملين التقدير ، وحصول الانحرافات خلال الممارسة وارد ، ثم تقويمها ومعالجتها مهم ..

ـ على كل أنت زوجي وحبيبي وأميري ، وستعلمني من جديد وتجعلني ملكة غير متوجة .

ـ رائع .. رائع استسلامك يا سيدتي ! وأنا أحب فيك الاستسلام للواقع الجديد وعدم التشدد للماضي .. لقد قالوا لي إنك تحبين الرفض والعناد .. فمنذ التقينا لم ألمس هذه الصفة ولا هذا الطبع .

ـ أنت محاور بارع .. لا أجد مجالا للمكابرة أمامك .. فما أريده تعدني بفعله !

وأحنت رأسها للأسفل وقالت صادقة : غيرتني يا برهان .. جعلتني أعرف من أنا .. كلما أفكر بكلماتك وأفكارك أقر بين وبين نفسي أنك فاضل وخيّر وتبسط الحياة جدا .. لم أكن أظن في يوم من الأيام أن رجلا عاقلا مثلك ومن سني يقبل بالزواج وبفتاة مطلقة مثلي .

ـ هذه عقدتك يا فتاتي .. لست أول إنسان في الدنيا يتزوج امرأة تزوجت من قبل .. فما الفرق بين الأرملة والمطلقة كليهما من غير زوج ؟! .. النساء تضخم هذه الكلمة حتى أصبحت كلمة مخيفة وظلالها مرعبة .. فالطلاق كما يقال ليس نهاية الدنيا والمطاف .. إنما هو حل لمشكلة بين زوجين .. ولكنّ الإعلام وحقوق المرأة في زماننا جعلت منه قضية كبرى وفضيحة ومأساة .. وتحمل عادة المرأة المسؤولية عن الطلاق .. فيخافها الرجال .. فلا يتقبلها كزوجة إلا الناس المتزوجون من قبل على أساس أن لديهم خبرة ومعرفة للتعامل مع هذا النوع من النساء .. وكل هذا وهم.. إنما تسلك المرأة في الزواج الثاني خوفا من الطلاق من جديد .. فترضى بكل هوان وذل ليبقَ الزواج ، فيصبح الزوج الثاني سيد الموقف ، وأنه استطاع ترويضها .. مع أن الأوائل كانوا يتزوجون ويطلقون ويترملون ولا يعتبرون ذلك قضية كبيرة فالحياة وجدت لتستمر حتى حين .

ـ ها أنت صرت فيلسوفا وواعظا عليّ يا سيدي !

ـ نحن أبناء الثقافة الإسلامية.. ومنذ التقينا لم أتحدث معك عن الحلال والحرام ، إنما من الأعراف والعادات والعرف الشائع بيننا أتعامل معكِ يا سيدتي .

ـ أنت كنز حقيقي يا سيدي! ولست مجاملة أو لأنك زوجي.. كلما أتحدث معك أستفيد شيئا كثيرا .. مع أنني ابنة جامعة ؛ فكأنني لم أتعلم شيئا .

ـ لا ، أنت تعلمت ولكن الجامعة لا تعلم إلا العلم الأكاديمي والنظري .. أنا درست كذا مادة في المحاسبة والبنوك والشركات العامة وغير ذلك من فروع البكالوريوس ؛ ولكني عمليا أمارس جزءا صغيرا جدا من المحاسبة ، ربما طفل إذا مرن عليه قام به .. ولا أعني بكلامي هذا التقليل من العلم الأكاديمي .

فرح منى

انتقلت منى لبيت زوجها بعد أسابيع قليلة من عقد قرانها ، وبدأت الحياة الزوجية الثانية لمنى ربيع ، ومرت الأسابيع الأولى من حياتها العائلية طيبة وهادئة، وقد لمست الفرق الكبير بين أيام زواجها من حازم وزواجها من برهان ، كان زواجها الأول كله هموما وتوترا ونكدا من جهة أهله ومن جهة أهلها ، كان يوم زفافها من حازم كيوم إخراج جنازة ، الكل مكشر ومنقبض وينتظر انتهاء حفل الزفاف بفارغ الصبر ، فقد كانت الوجوه واجمة وحزينة ، ويوم زفاف برهان كانت المشاعر الرقيقة والصادقة والابتسامات والفرح واضحا لكل الناس ، وكان الناس كأسرة واحدة ، وكان خليل من أفرح الناس كأنه قد زوج ابنيه برهان ومنى .. وشارك كثير من الجيران وأهل برقوقة العروسين والأسرتين حفلهم وفرحهم ، فحضر عدنان ووالده وأمه صبرية وزوجته ، وخالتها لمنى وأخوالها وأعمامها ، مما دفعها لأن تسكب الدموع تأثرا ، وعجبت من مشاعرهم وحبهم لها ولأهلها ، فعندما تزوجت والناس راضون عن العريس وأهل العريس خرجت عواطفهم محبة .. ورأت الفرح أيضا في عيون أخوات زوجها وزوجات أخوته فقد كانوا جمعيهم مسرورين ، كأنهم يزفون بكرا لأخيهم ، وكأنها تتزوج أول مرة ، حتى أنها لم تشعر بأنها امرأة مطلقة من فرح الناس بزواجها ، فقدرت هذا كله لبرهان ، وعرفت فضل الله عليها ، ثم فضل هذا الرجل الذي اقتحم عليها حياتها ليخرجها من البؤس والشؤم الذي أحاط بها فيزداد تساقط الدموع تأثرا .. وأدركت حب الناس لبرهان وبهذه السرعة .. فقد فرض نفسه على الجيران وأهل الحي بأسابيع قليلة ، ومن مصاحبته لخليل للصلاة في المسجد ، فأصبح كأنه من أهل الحي .. فبدأت تعرف أهمية الناس في حياة بعضهم البعض .. وأن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بمعزل عن الناس وإن حاول صنع ذلك .. لابد من الأصدقاء والأهل والأصحاب .. رأت أشياء جديدة في احتفال الناس بزواجها .. وكانت تحاول فهم ذلك ثم قالت : هو نفس السر الذي شدني إليه وجعلني أقف ضعيفة للغاية أمامه .. كأنه مغناطيس .. أتمنى أن أحقق له السعادة التي أملها مني .. أنت حياتي يا برهان .

مرت أسابيع على الزواج ، وهي تعيش هذه الخيالات واللمسات التي مضت من عمرها .. أحست أنها مدينة بهذه السعادة والفرح والمشاعر لزوجها برهان ، أعادها للحياة من جديد .. كانت تهرب من جمال الحياة لتسكب لنفسها كأس خمر لتتوه في ظلمات الشراب ، لتنسى نفسها ومشاكلها التي صنعتها بيدها وبيد من اختارته شريكا لها .. الرجال يتفاوتون في المواهب والقدرات .. تريد أن تسد زوجها الذي صنع لها كل هذه السعادة وغمرها بتلك الأيام الجميلة ولو شيئا يسيرا من المعروف ؛ لذلك كانت تلح عليه منذ زفا لبعضهما بأن يفتح مكتبا للتدقيق المحاسبي كما كان يحلم وكما ادعى لها فيقول : إن شاء الله سأفتح هذا المكتب يا عزيزتي .. ولكني لست بعجلة من أمري .

فقطعت عليه اعتراضه قائلا : أنا أعلم أن العرس كلفك مالا كثيرا ، ورفضت أي مساعدة مني مع أنك قلت لي إننا أصبحنا شيئا واحدا.. فاعلم يا عزيزي أن كل من مالي وسيارتي هو لك من غير منة .. أنا لو قدمت روحي لك ما وفيتك معروفك .. أنا عندي كلام كثير أحب أن أسمعك إياه .

ـ جميل منك هذا الكلام .. والاعتراف بالفضل أجمل وأرقى !

احتجت بأن هذا ليس كلاما بل أنها تريد وتقصد تحقيق ذلك .. ولتعبر له عن مقدار سعادتها به وبأن أحلامه هي أحلامها .. وأقرت له أنها تحبه من أعماق فؤادها ، وأنه أسرها بأخلاقه وفضله وتحس أنها تريد أن تعبر له عن ذلك بشيء عملي ، فأخبرها أنه لا يوجد بين الزوجين فرق فهما جسد واحدة وروح واحدة .. وأن الحياة تفاهم وتحمل وقناعة ، وكادت أموال منى أن تجعل بينهم فتنة ، وتغضب منه منى ، فرفضه الاستفادة من ثروتها يعني أن يعاملها بحساسية وحذر فيصبرها قائلا : يا ابنة الحلال .. اصبري .. ليس المكتب هو أن نشتري الخشب ولوحة يكتب عليها اسم المكتب .. الشغل هذا يحتاج لعلاقات عامة مع أصحاب الشركات والبنوك .. مكتب بدون زبائن لا شيء .. سيغلق بعد أول إيجار لصاحب العمارة .. سأضع الأمر جديا في دماغي وسأعمل في مكتب تدقيق بعد دوامي في البنك حتى أتمرن وأعرف أسرار عمل مثل هذه

المكاتب ، حتى أتقن المهنة ، وبعد سنة على الأقل أكون قد تعلمت أهم أسرار العمل ، ثم أبحث عن شركاء وأنت منهم ، وإن شاء الله تعالى نفتح هذا المكتب .. الكلام كما تعلمين سهل أنا صحيح دارس محاسبة وأحمل بكالوريوس فيها ومن كلية تجارة واقتصاد .. فالتدقيق جهد وتعب ومسؤولية أمام الشركة وأمام أجهزة الرقابة وأمام أصحاب الشركة من مساهمين وغيرهم .

اقتنعت منى في النهاية بوجهة نظره ، ووضح لها أن العلاقة الزوجية ليست شركة تجارية وليست علاقة امتنان وهبة ، وأن الزوج إذا فعل شيئا حسنا لزوجته ينتظر أن تكافئه عليه وهو يفعل مثل ذلك .. فكلمة طيبة ودعاء أفضل من ذلك .. والحياة الزوجية أكبر من التعزيز والحوافز .. هي حب وانسجام وتفاهم .. فتقر له باسمة : يكفيني نجاحا في هذه الدنيا أنني امتلكت قلبك في أسابيع يسيرة .

ـ أنا لا أنكر ذلك .. رغم العيوب التي صورت عنك أو كانت فيك ، فكنت معي غير ما قيل وأحسست أن سعادتي الدنيوية عند قلبك .

فتقر له معترفة أنه ملك قلبها منذ طلبها تلك الليلة للزواج ، وتعترف أنها

كانت تغالط نفسها في ذلك ، فيفرح من صدقها ويقول : من سعادة المرء أن يجد امرأة تفهمه وتقدره ويفهمها ويقدرها .. وإذا خيم عليهم الحب بظلاله الكبيرة فهذا خير وسعادة ؛ لأن الحب الحقيقي يذلل الصعاب والمشاكل ، وتظهر علامات صدق الحب عند المشاكل الدقيقة .



وبعد حملها عرض برهان عليها ترك العمل إذا رغبت في ذلك للتفرغ للحمل ومتاعبه التي ظهرت عليها ، ووعدها أنه عندما يفتح المكتب الذي بدأ يخطط له سيكون لها عمل فيه حتى ينصرف من البنك فتعود هي للبيت .. التناوب في إدارة المصلحة ، ترددت في البداية لقبول هذه

الرغبة ، ثم تركت معرض شفيق للأثاث والتحف والثريات .. وبعد شهور وضعت منى ربيع مولودها الأول ، وعندئذ عرفت معنى الأمومة والولادة والرضاعة والحضانة وبكاء الطفل في أي ساعة من ساعات اليوم والليل .. تستيقظ في نصف الليل لترضع الطفل الباكي لتنظف الطفل الشاكي .. وكانت تتذكر أحاديث أختها حنين لها عن رسالة الأمومة ، وهذه العاطفة بين الأم والطفل .. فتحتقر أفكارها الرديئة ، وتضع اللوم على حازم ، ثم نفسها ، وتتعجب لعدم حبهم لسرعة الحمل الذي يقوي الروابط الزوجية بين الزوجين ، ويدفعهم للتنازل عن كثير من الأخطاء والمشاحنات من أجل هؤلاء الصغار .. واستغربت أكثر عندما أطلق برهان على ابنها اسم زوج أمها خليل ، فلما تسألت عن سبب ذلك الاختيار، فهو لم يسم على اسم أبيه أو أخيه أو جده ، فقال باسما : هذا الرجل كبير عندي يا منى رغم أنني لم أعرفه إلا عندما تزوجتك ؛ ولكني أحبه حبا كبيرا ..وأحبني هو نفس الحب .

ـ الكل مستغرب منكما ، حتى والدتي تتعجب من حبه لك وكثرة سؤله عنك .. متى سيزورنا برهان ومنى ؟ .. متى سيأخذنا مالك إليهما ؟ .. ولما سألته أمي عن سبب هذا الحب الكبير بينكما فلم يقل سوى أن هذا الولد دخل مخي ..

فكر برهان لحظات ثم قال : هذا رجل مجاهد .. علم إخوته وتنكروا له .. أنا أعرفهم .. لقد درسني أحدهم في الجامعة .. ولما أتذكره وأتذكر خليلا استغرب لكليهما أحدهم متواضع بسيط والآخر معقد منفوخ .. لا يزورونه ولا يودونه وهو أكبرهم .. وهم المتعلمون المثقفون الكبار وهو مع ذلك صابر ومتحمل لجفائهم وقال لي لولا أنهم لا يحبون رؤيتي لمشيت إليهم، ولو ذهبت لا يخرجون لمقابلتي، يتركون معي بواب القصر أو إحدى الخادمات والأخ الثاني عرفته من تردد اسمه في البنك وأعرف بعض أبنائهم يا منى .

ـ لست قليلا يا برهان .. نحن عشنا في بيت خليل دهرا ولم نعرفهم ولم نلتقِ بهم .

ـ أنا تعجبت في البداية لما حدثني عنهم .. فظننت أن في عقل الرجل شيئا .. ولكنه لما بين لي أنهم بعدما تعلموا وتزوجوا من بنات أكابر البلد انسلخوا من جلدهم .. أدركت عظمة هذا

الرجل وصبره وإيثاره ، وكان يزورهم قديما ، وكانوا يعاملونه كمتسول أتى إليهم .. ولما عرف ذلك الواقع السيئ وطفح الكيل نسيهم ، ولما تزوج أمكم أصبحوا أسماء يعرفها فقط وهو يحبكم حبا جما ، وذكر لي مرة أنه مرض وكيف وجدكم حوله دون أهله ؟ .. فهو لم ينس لكم هذه الجميل الذي ربما لا يأبه له كثير من الناس .. يا منى الناس في الشارع لو وقع أحدهم مغمى عليه لأخذوه المستشفى وعطفوا عليه وانتهى الموضوع ، ولكنه يراكم خيرا من أهله الأقربين .. وعرفته على أخي الدكتور عبد القادر ، فهو طبيب أمراض صدرية ، وطلبت منه أن يهتم به ، وترجيت خليلا أن يمر عليه باستمرار .. فعبد القادر طبيب يحب الخير والمساعدة أكثر من المال أم أنا غلطان .

ـ أبدا ما شاء الله! .. أنتم عائلة رائعة يا برهان! تعلمتم جميعا ذكورا واناثا ، وقد تفاوت تعليمكم ، وتحبون بعضكم وتحترمون بعضكم احتراما واضحا وحبا واضحا للعيان .. ولا تمايز بينكم.. فالدكتور عبد القادر متواضع جدا لآخر درجة .. بل لا تحس أنه طبيب إلا في العيادة كلكم بركة حتى عمتي الحجة ووالدك الفاضل .. أنا محظوظة بكم جميعكم ..الألفة والانسجام يجثمان عليكم.. وحتى أخواتكم المتعلمات قد علمت منهن أنه لم يصدف أن حردت إحداهن عن بيت زوجها ولو بضعة أيام .. مهما حدث بينها وبين زوجها من شجار وعتاب .

ـ نحن نعتبر هذا عيبا كبيرا يا منى وخطرا كبيرا على الأسرة ، فأبي يأمرنا ويحثنا على الصبر والتحمل للأخطاء وأنه لا كمال بشري .. والحرد وترك بيت الزواج مفسدة .. والتي لا ترتاح مع زوجها تذهب به إلى المحكمة ، وتتنازل عن حقوقها وتعود لبيت أبيها .. والحمد لله حمدا كثيرا أن وفقنا جميعا في اختيار زوجاتنا ، وكذلك الأخوات اختار الله تعالى لهنّ من الأزواج الصالحين والطيبين .. ونسأله تعالى أن يديم هذه النعم على الجميع .

ـ آمين .

ـ وأنا سميت ابني البكر والأول خليلا لحبي لخليل ، ولفضله الكبير عليكم ، وهو لا ينتظر منكم شيئا إنما فعل ما فعل لوجه الله .. ولأن منى جرحت قلبه يوما ما ، فبهذا الاسم نعيد لقلبه

الطيب الحنان والعطف اللذين فقدهما أثناء تمرد منى .. وأيضا لأنه محروم من الذرية ؛ فلعل هذا الاسم يرد له شيئا معنويا هو يبحث عنه ويأمله .. ولقد رأيت كم فرح وتعجب من اختيارنا لهذا الاسم المبارك !

ـ أنت دائما رائع يا برهان !.. والله ما فكرت بهذه التفكير .. وأنا أقر أن المعلم خليلا له أكبر الفضل علينا وعليّ أنا بالذات ، كل تعلمي وشهادتي بفضل إنفاقه وسخائه ، وكان يكرمني بالمصروف أكثر من إخوتي حتى لا أشتهي شيئا في الجامعة ولا أحصل عليه .. لقد غلبتني أحلامي وجعلتني جاحدا لهذا الرجل ، ولم أحسن أن أشعره أنني ابنة حقيقية له .

ـ إذن هذا الاسم شيء رمزي نقدمه يا منى لهذا الرجل .

ـ جزاك الله خيرا يا برهان .

مع ولادة خليل الصغير بدأت منى تستعيد حيويتها وروحها ، وصارت تنظر للحياة نظرة جديدة وآمالا جديدة ، وتتخلص من أفعالها الماضية ، وتعيد ترتيب حياتها وعلاقاتها الاجتماعية مع أهلها وأقاربها من خالات وعمات وأعمام وأخوال وأولادهم ، وكذلك مع أهل زوجها ، ومنذ انتقلت لبيت برهان لم تعد تسمح لنفسها بالجلوس مع الرجال إلا في حدود ضيقة وبوجود زوجها.. وابتعدت أيضا عن الدخان والخمر وهجرت الملاهي والسهر مع الأصدقاء والصديقات خارج البيوت كما كانت تفعل.. ابتعدت أيضا عن السينما والتعلق بالأفلام والمسرح والمهرجانات .. فلما تقارن بين هاتين الحياتين ، الماضية مع حازم الشاب الغني ابن الأموال الكثيرة .. وحياتها مع الشاب الميسور الحال ، فتلمس السعادة الحقيقية مع برهان وحياة الأسرة الممتعة ، وأن السعادة لم تكن بكأس خمر وقهقهة تملأ المكان وغمزة من هذا ولمسة من ذاك .. فحازم يحب اللهو والمزح والخمر ، وبرهان يحب البيت والأسرة والحياة داخل الأسرة .. داخل البيت .. الحنو والاهتمام بمشاكل العائلة والتعاطف والتعاون الإيجابي ففكر برهان ناضج ويعتمد على نفسه .. فحياتها مع برهان ساكنة وهادئة .. تفاهم ونقاش وإقناع .. ليس فقط عرض الفكرة ثم تنفيذها كيفما طرحت .. والاعتماد على التمويل فقط .. شكرت الله كثيرا

على تداركه لها قبل السقوط والهاوية .. كان الأصدقاء من حولها أثناء حياتها مع حازم لا يرون فيها إلا جسدها ، ومحاولة الوصول لهذه الجسد ولو رويدا رويدا ، ولولا المقاومة الفطرية الموجودة في داخلها لسقطت منذ تعلق بها حازم .. ألم يراودها عددا من المرات قبل الزواج منها ولكنها وإن كانت تساير الرجل السابق فهو كالخاتم بيدها.. أما برهان يستخدم ذهنه وفكره ثم يطيع ، ووجدت أن أهلها وإخوتها يحبون هذه الحياة .. يحبون المرأة أن تكون امرأة وبس طائعة للزوج .. تذكرت دموع ربيع وهي تقارن بين حياتيها عندما أتى من الخليج ولمس التغير الذي طرأ عليها ، لقد تفاجأ بالانقلاب الكبير ، فبكى بين يديها حتى أبكاها.. أدركت كم كان في قلبه من الألم والحزن الذي تظاهر بإخفائه وكتمه .. وأدركت أن الانتقال من بيئة تراعى التقاليد والعادات التقليدية ليس سهلا ربما يحتاج لجيل أو أكثر حتى يستقر التغير ولا ينتكس . فهمست وهي تتذكر ذلك: مسكين ربيع ! تحمل المسؤولية صغيرا وكان يخاف مني وعليّ .. لا زالت المرأة أسيرة مجتمعها مهما تطور وتحدث .. الانفلات يعني النبذ ولو من أقرب الناس .. كانت تمر عليّ لحظات عندما أدخل في جدل مع مالك أشعر أنه سينقض عليّ صفعا ولطما وضربا وإهانة؛ ولكنه يسمع كلام أمي ويخشى عليها العوارض .. لم استطع أن أصنع عالمي الموهوم .. والله الولادة حلوة وجزء من حياة الأنثى ولِمَ المكابرة ؟! .. بكاء الرضيع أجمل موسيقى على قلب الأم إنه نداء إليها .. هناك ظلم في الجامعات وكلام كثير عن البنات والتحرر والمجتمع الذكوري .. مع أن أكثر الرجال مساكين في هذا الزمان .. يصارعون ويطاردون من أجل لقمة العيش .. ها هو ربيع يتغرب من أجل المال والطعام ..

أختي حنين الصغرى بيننا كانت أنضج مني تعلمت في الجامعة مثلي، وتحقق حلم أمي وهدفها الأهم وتعلم الجميع بفضل الله .. ولكنها لم تحاول التمرد على ما تعارف عليه الناس في بلادنا.. الناس لا يحبون ولا يرتاحون للمرأة التي ترتدي ثياب الرجال.. ولو تماشوا معها وسايروها.. التقليد الأعمى نحن من نقلد ؟! الشرق أم الغرب .. فالبنات في اليابان وكوريا يفعلن مثلنا ولم يخرجها من أفكارها وخواطرها إلا بكاء خليل الصغير فانتبهت وعادت للواقع ، وهرعت

للسرير سعيدة ومفعمة بالشعور العبق من صياح الطفل .

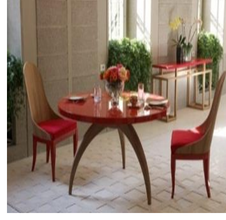
الأمومة كنز لا يعلمه إلا من يعرفها حق المعرفة .. الأمومة عواطف جياشة .. تجديد للحياة جزء من الأم كيف ستصبح أما بغير أبناء ؟

وعادت الخواطر إليها وهي تلقم ثدها للوليد الذي كف عن الصياح وانشغل بالرضع فتممت : أنا أسمي ابني خليلا .. لم أعترض صمت عندما علمت ذلك .. كم فرح خليل للاسم ودفع مائة دينار نقوطا وهدية للصبي .. حتى أمي فرحت ، ولم تصدق ذلك وسرت لاختيار برهان هذا الاسم ، مع أنه لم يكن اسم زوجها الأول .. والدنا الحبيب رحمه الله .. أهل زوجي فرحوا ولم يعترضوا ويحتجوا على الاسم .. وبرهان أكثرهم سعادة ، وكان سعيدا باختياره الاسم وصمتي وعدم اعتراضي .. أبو خليل .. أم خليل .. اسم عظيم .. والله في الدنيا أناس ذو أخلاق كبيرة .. يرغمونك على الخضوع والرضا والاستسلام .. حتى أخي ربيع كان مسرورا لاختيار برهان لهذا الاسم مع أنه هو لم يسم ولده على اسم خليل .. أنا منى التي سببت المشاكل للعائلة تسمي ابنها خليلا .. مع أنه ليس بالرد الكافي لمكارم خليل علينا فرحوا بذلك الاسم .. إنه اختيار سيدي وحبيبي برهان ؟ أسرني هذا الرجل بدماثة أخلاقه .. أخي كان أولى أن يطلق اسم خليل على أحد أبنائه .. هل أنا كنت وحشا وعنيدة ورديئة قبل لقائي بهذا الإنسان؟ .. هل في التمرد على التقاليد ومسايرة الحداثة والمعاصرة قساوة قلب وعناد ؟ لم أكن شريرة أبحث عن المشاكل والشر .. ولو لم يقم والديّ حازم بمحاربتنا هل حصل هذا الانقلاب ؟ هل نصنع نحن أقدارنا بأيدينا ؟! هل أنسى يوم دخلت عليه مكتبه ؟ مكتب ناصر ! وجرحني وشتمني وحقرني واتهمني بسارقة وخاطفة ابنه وأنني دمرته وأغرقته بالديون وطامعة في ثروته وطردني شر طردة .. تذكرت منى كل ذلك وهي ترضع وليدها الأول .. فسقطت الدموع بحرقة من غير أن تشعر وهي تتصور ذلك المشهد الذليل بين يدي رجل لا يرحم مشاعر الآخرين .

وبينما هي في هذه الحالة دخل برهان وانتبه لاحمرار عينيها فهمس : أأنك وجعة ؟!

ـ وجعة !

وتنهدت بخجل وقالت : قلبي مجروح يا برهان!



كما وعدها برهان ، فعلا الوعد دين عند الرجل الحر ، بعد سنة وشهور قليلة وقد عمل في مكتب تدقيق كمتدرب بعد انصرافه من البنك تشجع على إنشاء مكتب صغير للتدقيق المحاسبي للشركات الصغيرة والمتوسطة ، وحصل على الترخيص اللازم له من الدوائر المختصة في البلد ووضع زوجته مديرة للمكتب خلال فترة دوامه في البنك ، ووضع عندها سكرتيرة فتاة متخرجة من الجامعة حديثا .. ولما يرجع من وظيفة البنك يجد زوجته قد عادت من العمل وأعدت الغذاء فيأكلان معا ، ثم يذهبان للعمل ، وتنصرف السكرتيرة في المساء عند الرابعة بعد الظهر .. وبعد حين أدخل زميلين للعمل معه في الفترة المسائية ، ولزمت منى البيت في الفترة المسائية .. ومن خلال علاقاته الشخصية وعلاقات إخوته الآخرين تحرك نشاط المكتب وحصل على عقود محاسبية وتدقيق لكثير من الشركات العاملة الصغيرة الحجم ، وكان يتقدم عمل المكتب ويتوسع وكثر الموظفون ، فقد أضاف فراشا للمكتب ومندوب علاقات عامة متجول .. عدا السكرتيرة وزميليه .. وما مضت سنوات ثلاث على المشروع حتى قدم استقالته للبنك ، وأصبح مديرا للمكتب وعلت شهرته بين الناس ، وكما هو معروف في القطاع التجاري أن الموازنات المالية للشركات سنوية ومستمرة .. فهذا يعني عملا محاسبيا دائما ومستمرا ، وخلال هذه السنوات ولدت منى ابنتها الأولى ، وكانت منى أيضا تدير العمل باقتدار ، وحصلت على دورات في المحاسبة المالية والبنكية وإعداد الموازنات العامة وحسابات الأرباح والخسائر .. وكان الدوام في المكتب على فترتين صباحية بإدارة برهان وزوجته وفراش وموظفة السكرتارية .. والثانية بعد الظهر ينصرف برهان وزوجته للبيت .. وعند العصر في الرابعة مساء يحضر صاحبا برهان للعمل في المكتب والقيام بالمهام الموكولة لهما .. وتنصرف موظفة

السكرتارية عند الثالثة مساء ، ولما يحضر حسن وعمران ينصرف المراسل أبو غسان ، وعندما يشتد الضغط في العمل يداوم برهان معهم مساء وبعض الليل .. كانت الأمور تسير على ما يرام ، والعمل يتقدم والدخل يزيد ، وخلال فترة الصباح كان برهان يترك زوجته منى في المكتب ويتحرك إلى الشركات المتعاقد معها لمراجعة سجلاتها التجارية والمحاسبية قبل أن يعود بها يلزم من تلك السجلات والدفاتر التجارية للمكتب لدراستها وتصحيحها ليقوم بوضع التقرير المالي لها أو تصحيح الأخطاء المحاسبية الموجودة فيها ثم إعادتها للشركة .. ولما استقل برهان بالعمل كانت منى تضع مولودها الثالث .. فانقطعت عن الدوام بإجازة ولادة خاصة ، فقام برهان وحده بالأعمال التي كانت تقوم بها ..وعندما يخرج للمرور على الشركات المتعاقد معها كان يعتمد على السكرتيرة في إدارة المكتب ريثما يعود .. ولكنه كان يعاني من تبدل السكرتيرات .. فلأن أي سكرتيرة إذا وجدت فرصة عمل أفضل انتقلت إليها ، فكانت هذه مشكلة عند برهان ولم يتمكن من حلها بعد ، فما تكاد العاملة تتأقلم على نشاط المكتب حتى تترك العمل .

انتهت إجازة منى بعد شهر من الولادة ، ورجعت للدوام في المكتب بضع ساعات صباحية حتى يرجع برهان من جولته الصباحية على الشركات ، وتعود للبيت لرضاعة مولودها الذي تتركه عند والدة زوجها .

ذات يوم وبعد ولادتها الثالثة التي أشرنا إليها وقد انتهت إجازاتها ، وكانت تجلس في المكتب لتقوم ببعض الأعمال ريثما يأتي برهان الذي خرج بعد قيامه ببعض الأعمال داخل المكتب .. وبينما هي مستغرقة بما كلفت به من مراجعة دخلت عليها فتاة ، فلما رأتها عرفتها ، ولا يمكن أيضا نسيانها رغم مرور هذه السنين ، إنها عبير ناصر أخت حازم الزوج الأول لمنى ومديرتها السابقة مديرة الشركة العالمية للتجارة .. كانت مفاجأة للاثنتين بعد كل هذه السنين .. لقد التقتا مرة عندما كانت منى تعمل في شركة الأثاث المستورد ، فقالت عبير بدهشة كانت واضحة :

منى ! .. مرحبا .. ماذا تفعلين هنا وراء هذا المكتب ؟!

نهضت منى وقد زالت دهشتها وسلمت على عبير، وأذنت لها بالجلوس ورحبت بها وقالت :

أهلا بك .. ها نحن التقينا من جديد .. أي خدمة نقدمها لك يا سيدتي ؟!

ـ خدمة .. أين برهان ؟!

ـ قهوة .. شاي .. ماء ..

ـ لا شيء شكرا .

ـ يا أبا غسان فنجان قهوة للأخت المحترمة .

قالت عبير: أتشتغلين هنا ؟ تركت معرض شفيق .. أذكر أننا تلاقينا هناك في الشركة مرة .

ـ هذا زمان .. منذ خمس سنوات .. اليوم أنا أعمل هنا .

قالت عبير مستفسرة: لقد جئت مرتين خلال الأسابيع الماضية ولم أرك .. أاشتغلت حديثا ؟!

ـ أهلا بك .. لي سنوات هنا ؛ ولكنني كنت ألد .

ـ كنت تلدين ! الحمد لله على السلامة .. آ ، قد علمنا بزواجك .. مبارك يا منى ربيع ..إن شاء مرتاحة مع زوجك الجديد ؟

ـ جدا على أفضل زوج وقعت والحمد لله .. عندي اليوم ثلاثة أطفال بفضل الله .. وأنت هل تزوجت بعد؟

ـ حظي تعيس يا منى .. يبدو أن حظك أحسن .. تزوجت مرتين ، الأولى فشلت قبل ليلة الزفاف.. والثانية عشنا تحت سقف واحد مدة سنة ، ثم حدث الانفصال .. أنا حظي سيئ مع الرجال .. وأنت كيف وزوجك الحالي ؟

ـ كما قلت لك قبل دقائق أفضل الأزواج .. تمام .. أتردين شيئا من المكتب قبل عودة السيد برهان أم تنتظرينه ؟.. هو الآن موعد عودته .

ـ والله الزواج رائع يا منى ! خصوصا الأطفال .. عندك ثلاثة أطفال .. أكيد الحياة حلوة معهم كيف حياتك اليوم مع زوجك الجديد ؟

ـ هي بالتأكيد أفضل من الحياة مع أخيك .. فأنا في قمة السعادة والحياة .. تركت الدخان والخمر والتبرج والسفور والمكياج خارج الدار .. الحمد لله أنا سعيدة .

ـ أنا نصحتك يا منى .. ولكنك لم تفهميني جيدا تلك الأيام .. نحن رغم ملكنا الكثير فحياتنا تعيسة يا منى .. الحياة ليست المال فقط .. فأنا خطيبي الأول بعد كتابة الكتاب طلقني ؛ لأنني رفضت أن أضع في حسابه آلاف الدنانير .. أرأيت المال ؟ هو تزوج المال كما قال لي مودعا .. والآخر مثله صديق لأبي تزوجني من أجل مال أبي .. ولما طلب من أبي المال ، ورفض والدي في قصة لا داعي لسردها هو الآخر قال أنت لا تصلحين لي .. نحن تزوجنا لنستفيد من مال أبيك لفتح مصنع ، فرفض أبوك ، وطلب مني أن أعود لبيت أبي وخلال أسبوع كان الطلاق .. أرأيت طمع الناس ؟!.. وأنا أعترف أنهم تزوجونني من أجل المال .. ولكن طمعهم كبير ..

وبينما هما تتحدثان بحكم صداقتهما القديمة أقبل برهان ، ولما رأى عبير رحب بها وقال لها : معذرة لم أتأخر كثيرا ؟

ـ أبدا .. هذه الفتاة الحلوة ـ وأشارت لمنى ـ كانت تعمل عندنا في يوم من الأيام يا سيد برهان ومضى الوقت بدون أن نحس بتأخرك إذا تأخرت . ونظرت للساعة التي على معصمها .

والتفت برهان نحو منى زوجته ؛ وكأنه دهش من قولها تعمل عندنا وقال : عندكم ؟!

ـ مالك دهشت ؟! منى فتاة جبارة .. وتتقن الإنجليزية بطلاقة .. وتحب العمل وتجتهد فيه .

تطلعت منى في عيني برهان وقالت : أيام شركة التجارة العالمية.. حدثتك عنها ، وكان ذلك عندما تخرجت من الجامعة ، كانت أول شركة أعمل فيها .. أوه ذكريات حلوة ! وهزت رأسها بغيظ .

قالت عبير: فعلا ، كان لمنى هناك ذكريات حلوة ..أليس كذلك يا أخت منى؟!

تبسمت منى وقالت : أكيد والسيد برهان يعرفها بالتفصيل الممل .. أليس كذلك يا سيد برهان؟!

وقبل أن يرد برهان قالت عبير باستغراب : أمعقول هذا يا برهان ؟!

مشى برهان نحو مكتبه وجلس على كرسيه وقال : أتعرفين منى يا عبير؟

ـ ألم تسمع ما قلنا ؟ أول عمل كان لها عندنا .

قال برهان لمنى : أتدرين يا منى؟ .. أن هذه الفتاة كانت معنا في الجامعة ، وكانت تسبقني بسنة أو سنتين .. أتذكرين كم يا عبير؟

ـ سنتان على ما أذكر .

قال برهان وهو ينظر لمنى ويبتسم: أتدرين يا أخت منى أن عبير هذه ـ وأشار بإصبع السبابة إليها ـ التي اشتغلت عندها سنوات كانت تطاردني لتتزوجني مع أنني أصغر منها بسنتين أيام الجامعة ؟ ولكني رفضت .. صح يا عبير؟!

ضحكت المرأة وقالت : صح يا برهان أما زلت تذكر؟! .. لقد كنت شابا جميلا ومثيرا ! ولست الوحيدة على ما أذكر التي كانت هائمة بحسنك .. لقد كنت مثار اهتمام الكثير من البنات ، وكلنا تحلم بأن تفوز بقلب البطل .. ولكنك سخرت منا وخرجت من الجامعة بلا واحدة منا

وكان برهان يبتسم وهو يسمع الرد ، ولما صمتت عبير قال : أتدرين يا أخت منى ؟.. هذه عبير كانت تترجاني لأشارك في حفلة عيد ميلاد لها أو لأخواتها أو مناسبة ما.. كانت تراني مثل هؤلاء الأوروبيين طويل وأبيض وعيون ملونة .. وتسعى لأتعرف على والدها .. فأرفض كل هذا .. صح يا عبير!

كانت هي مستغرقة بالضحك وقالت : صح .. آه .. إنك ما زلت تتذكر .. أيام ممتعة .. لا تنسى .

وتنهدت ثانية وهي تقول : فعلا لا تنسى ها أنت لم تنسها يا برهان .. كنت أسعى لأتزوجك رغما عنك .. فلو تعرفت على والدي ربما أجبرته على أن يزوجني منك .. ولكنك كنت تخاف من لقاء والدي صاحب الملايين .

فقالت منى غامزة بقصتها مع حازم : ولو وافق برهان على الزواج منك يومذاك أيقبل أهلك ووالداك على الخصوص ؟

ضحكت عبير وفهمت مقصد منى الخفي وقالت: كنت أعتبر نفسي أنني ما زلت في فترة المراهقة ، ونحن نعتبر الجامعة امتدادا لتلك الفترة ، ويحق لنا أن نفعل ما نشاء من لهو وحب

وغزل .. وفي تلك الأيام كان لا يستطيع ناصر أن يرفض لي طلبا .. ولنا طرقنا في إجبار والدينا على الاستسلام لرغباتنا .. ولو وافق اللئيم لكان الآن يملك نصف شركات أبي ؛ ولكنه يحب الفقر والتعاسة .. وأنا أرى أن الأخت منى محل ثقة كبيرة عندك يا برهان .. فأتحدث أمامها بكل شيء وبصراحة.

طبعا برهان أدرك منذ أول الحوار أن منى لم تكشف لها أنهما زوجان فلزم الصمت في هذه النقطة فرد على الفتاة : طبعا .. ومنى جزء كبير ومهم من العمل وأكثر من ثقة وتكلمي بكل راحة .

ردت وهي ترمقه هل هو ساخر متهكما أم جادا ؟ : تستحق ذلك فأنا أعرف كفاءتها.. هل تعلم أن الأستاذة الفاضلة كانت في يوم من الأيام زوجة لأخي حازم ؟

تبسم وقال : أعرف ذلك .. حدثتني بذلك منى ؟

ـ حدثتك ! كيف حدثتك؟ هي فاجأتني بوجودها هنا .. لما زرتك في المرتين السابقتين لم أرها وذكرت لي أنها كانت في ولادة ورضاعة .. وهي اليوم عرفت أنني أتيت لشغل معك .. وأنا عرفتك وتذكرتك كما تعلم من الإعلان في إحدى الصحف .. فلما قرأت اسمك على الفور عرفت اسمك وتذكرتك وتعارفنا من جديد .. فكيف حدثتك عن أخي حازم ؟!

ـ صدقي أنها حدثتني بقصة زواجها من شخص اسمه حازم ؛ ولكن لم أكن أعرف من هو حازم ؟ أي شخص هو حازم بالذات فقط رجل ، ولم أكن أعرف أن لحازم زوج منى السابق أختا اسمها عبير إلا الآن .. وأن هذه العبير هي زميلتنا أيام الجامعة ..وهل لك قصد آخر؟!

ـ أتزوجك مثلا ؟! أنا أعرفك؟ وهل أنت لليوم بغير زوجة ؟ .. حتى أفكر بالزواج منك .. صدق أن الذكرى والعمل جمعتنا هذه الأيام .. ولا بد أنك متزوج .. أنا غير محظوظة في الزواج يا سيد برهان يا أبا خليل .. أذكر أنك قلت إنك تنادى بأبي خليل وهذا يدل على أنك ذا زوجة وقبل حضورك كنت أشكو حظي لمنى .

ـ حسن هذا ، ألا تريدين أن ندخل في موضوع الشغل ؟

ـ انسَ يا رجل! أنا جئت لأتحدث مع برهان الصديق الغزال المحبوب .. الشغل لا ينتهي أنا

آتيك للتسلية وقليل من الشغل .

فهز برهان رأسه ضاحكا وهو يقول لمنى : اسمعي بنات الأكابر .. نحن فتحنا المكتب للشغل وهي تريد أن تعود للوراء عشر سنين كانت يا منى السيدة عبير قديما تحاول أن تكتب بي شعرا. وأخذ يرتفع صوته بالضحك فقالت وهي تضحك معه : هل تنكر أنك كنت أوسم شاب في الجامعة ؟ وأننا كنا لا نراك إلا أحد أبناء الأوروبيين .. كانت ابتسامة منك تذيب قلوبنا ، وكل منا تدعي أن الابتسامة كانت لها.. هند قتلت نفسها لتحظى بعلاقة عاطفية معك .. كنت غريبا يوم ذاك يا برهان.. كنت تقترب منا .. وفجأة تبتعد .

ـ عبير.. دعينا من الماضي حتى لا تتضايق منى من كلامنا وذكرياتنا القديمة .

ـ أنا لما شعرت أنك تتحدث أمامها بحرية وراحة ، وأنها حدثتك بكل شيء عن حياتها الخاصة فرأيت أنه لا شيء يخجل منه إذا سمعته مني.. فمنى معرفة قديمة وأخت عزيزة رغم فشل زواجها من أخي حازم ، لو لم يحدث الزواج لربما أصبحت موظفة كبيرة في شركاتنا اليوم .. والله لقد نصحتها بعدم الزواج من أخي .. ليس عن حقد وغيرة ؛ ولكنني أعرف أخي أكثر منها ، وطلبت من أخي أيضا بالوقوف عند حده ؛ ولكن غلبتهم العواطف ونسوا العواصف أمي لما سمعت أن الفتاة التي يريدها حازم تسكن في حي برقوقة كادت تنتحر لتمنع هذا الزواج

ـ يا عبير.. يا سيدة عبير ندخل في الشغل ما الذي تريدونه بالضبط مني؟ .. أنا راجعت حسابات الفرع كلها ، هناك بعض الأخطاء ، وهناك فقد لبعض الفواتير

فقطعت منى استرسال برهان قائلة : ربما وجودي يشوش على عبير .. أنا سأجلس في مكتب السكرتيرة .. انتظرك يا عبير . ـ شكرا لك .

قال برهان مخاطبا منى : منى إذا أحببت الانصراف فافعلي ، لابد أن الرضيع الآن يحتاج لحليبك

ضحكت عبير وقالت : الله ! الله ! حتى في الحليب تتدخل !

ضحك هو ومنى وقال باسما : حتى في الحليب يا عبير ! .. منى ربيع ـ يا أخت عبير ـ هي زوجتي أم أولادي!!

دعوة عبير

كانت كلمات برهان الأخيرة مفاجأة صاعقة ومذهلة لعبير ناصر، فبحلقت لحظات عميقة بعيني برهان حتى استوعبت الحقيقة وقالت : منى هذه ـ ورفعت يدها مشيرة لها ـ زوجتك أنت؟!

لم تتكلم منى ، فقال برهان المبتسم : أجل ، منى ربيع زوجتي ، وأعلم أنها كانت زوجة لشخص اسمه حازم ناصر ، واليوم عرفنا أنه أخوك .. ومنى شريكتي في هذا المكتب يا مدام عبير .

كانت تحرك رأسها وتنقل بصرها بينهما دهشة وعجبا وتقول : دنيا عجيبة يا منى !!

همست منى وقالت محاولة التقليل من دهشة عبير واستغرابها : ما العجب؟! هل الزواج ثانية عجيب لهذا الحد؟!

قالت عبير: ليس الزواج هو العجيب .. فكل يتزوج مرة وثانية ولكن الزواج من برهان هو العجيب .. هل تزوجت قبلها ؟!

رد بصراحة : لأ .. هي أول امرأة ارتبط بها .. وهي سيدة فاضلة ومن عائلة فاضلة كريمة.

قالت عبير : ولكنها مطلقة !

ـ وماذا تعني مطلقة ؟! ها أنت طلقت مرة وتزوجت ثانية وستتزوجين ثالثة إن شاء الله .

قالت بحسرة : إنهم لا يتزوجونني أنا .. إنهم يتزوجون مالي ومال أبي ! قلة بنات غير متزوجات فقال بحزم وثقة : وأنا أتزوج أخلاقا أهلا كراما .. فربيع أخوها مهندس يعمل في دول النفط العربي منذ سنوات .. وأخوها مالك محام نشيط وله مستقبل باهر في سلك المحاماة والصحافة وبما إنك تحبين قراءة الصحف فسوف تجدين له مقالات موقعة باسم مالك ربيع وربما يكبر ويصبح نقيبا للمحامين ذات يوم .

ـ أنا فعلا أقرأ لهذا الاسم وتعجبني مقالاته يا برهان .. بس اليوم أكتشف وأعرف أنه شقيق منى ربيع ونسيبك يا أخي .. وأنت غارق في الحب لأذنيك .

ـ لنا خمس سنوات متزوجون تقريبا .. وأنا فرضت نفسي عليها .. وهذا هو الحب الحقيقي ..

تعرفنا على بعض فترة ربما امتدت لشهرين وحصل النصيب .. أليس كذلك يا أم خليل ؟!

تبسمت منى لكل كلام برهان ، والتفتت نحو عبير وقالت : أتمنى لك التوفيق يا عبير .. وكل الكلام الذي سمعته منك قبل دخول برهان وبعده لا يهمني كثيرا .. فالحياة عجيبة كما قلت .. وتسرني صداقتك .. وأنا سعيدة بزوجي هذا .. والله ييسر لك زوجا تقر به عينك رغم النكد الذي كنت تسببيه لنا أيام الشركة فهو أصبح من التاريخ .

ـ سامحيني يا منى .. ربما كنت أسيء إليك ولكن من أجلك ، وقلت لك ذلك مرارا ، وإن أخي حازما ليس الرجل المناسب لك .. والأخ برهان أعرفه جيدا منذ أيام الجامعة وهنيئا لك به وهنيئا له فيك .. فهو إنسان يستحق الحب والحياة السعيدة .. وأنا لمست التغيير الذي في حياتك من هذه الجلسة .. لحظت لباسك الجديد وتغطية شعرك ، ولم أرَ المكياج الذي كنت تبالغين في وضعه على وجهك وعيونك .. ولحظت أيضا تركك للدخان ، فلم تدخني أي سيجارة منذ التقينا قبل ساعة أو أكثر .. والآن أدركت مصدر هذا الانقلاب وأنكما متوافقان وستوفقان .. فبرهان رغم ما سمعتي مني عن التفاف البنات حوله ومطاردتهنّ وعبثه بهن أيام الدراسة لم يكن فاسدا وهاملا ،ولم يكن من أهل الدخان والتبغ ، وإن كان يومها ينفق على الحسناوات بسخاء ، ولابد أنه تخلص من هذه العادة .

ضحك الزوجان وقال : تسرنا صداقتك يا عبير أنا ومنى ، ولا تحسس لدينا من جهة زواج منى من أخيك ، فهذا تاريخ كما قالت منى ، والإنسان لا يهرب من تاريخه .. ولكن لا تدعيننا لحفلاتك وسهراتك .

قهقهت عبير وقالت: أنت أيام العزوبية ولم تفعلها ! .. ولم يعد لتلك الحفلات بهجة وروعة ، بل صارت كلها مللا وضجرا وإرهاقا ، وسأحتفظ بصداقتكما .. واسمحوا لي الآن بالانصراف لقد تأخرت عن الشركة .

ـ والعمل ؟!

ـ سأعود .. ألم نصبح أصدقاء؟!

وصافحتها وخرجت مسرعة ، وهي مستغربة للقدر الذي جمع بينهما ، ولما خرجت أغلق أبو غسان الباب خلفها، وكان برهان يقول لمنى بعد مغادرتها مكتبهما : مفاجأة لك !

ـ ولك !

ـ نعم ، عندما كنت تذكرين اسم عبير على لسانك لم يخطر في بالي أنها تلك الفتاة التي أعرفها في الجامعة .. كانت معروفة بثرائها ولهوها .. وفتيات اسمهن عبير كثر في هذه الدنيا .. فأنا أصلا بعدما تخرجت نسيتها فهي تخرجت قبلي .. وكيف سأفطن أن السيد حازما أخ لعبير إحدى زميلات الكلية .. وهي اطلعت على عنوان المكتب كما قالت اليوم وقبل اليوم من أحد الإعلانات في الصحف .. فإذا كان يا منى في العمل معها ما يزعجك ويذكرك بالماضي سأعتذر لها عن الشغل الذي بيننا وأرسلها لمكتب آخر .. ولكنهم أصحاب شركات وأموال والتعامل معهم مفيد .

ـ لا ، لا أنظر للقضية يا صاحبي من هذه الزاوية وبحساسية .. العمل عمل يا رجل .. ولا أخاف منها ولا من أخيها .. فالماضي كما أخبرتني وعلمتني سابقا هو ذكرى لا يمكن نسيانها بسهولة ولا تجاهلها وهي كامنة في النفس .. ولن تشوش على حياتنا ، وأنا واثقة بك ، ولم يخطر في بالي يوما أنك ستسيئ إليّ .. وحتى ولو فعلت ، فأنا سأسامحك ، فأنت غيرت دنياي وطريقة نظري وتفكيري للدنيا .. ودفعتني لأنظر إليها بمنظار وعين أخرى ... وأنت والد ثلاثة أطفال فهذا أمان آخر .. أنت أعز إنسان عندي يا أبا خليل .

ـ آه ما أقسى هذا الكلام يا عزيزتي وأحلاه ! .. الحياة الزوجية سكن ومودة ورحمة واندماج هذا كلام ربنا .. أنا قصدي حتى لا تشعري بالضيق والنفور والتوتر من دخلوها المكتب أو ذهابنا لشركاتهم لمراجعة السجلات والدفاتر .. هذا تعامل واحتكاك .

ـ افعل ما تراه مناسبا ولا يهمني أمرها .. واعلم أن هذه ليس أول مرة التقي بها بعد طلاقي من أخيها وتركي للعمل معها ..

ـ هذا عمل ليس لقاء فحسب .

ـ لا تخشَ على أحاسيسي ومشاعري من الغيرة والخوف أيها العزيز.. صدق أنني تعاملت معها بأريحية ، وغضضت الطرف عن كثير من إشاراتها فأنا أعرفها .. فعبير إنسانة بسيطة يا برهان ولكن الثروة والأرستقراطية الواهمة تظهر هؤلاء الناس بثياب أخرى .

ـ معك حق .. هيا اذهبي يا عزيزتي للبيت لابد أن محمدا أزعج جدته بالبكاء .. وأنا أحببت أن أعبث بها أمامك .. فأنا لم تهزني أموال أبيها وهي صغيرة لم تعرك الحياة ، مع أن المال أصبح في هذا الزمان كل شيء عند الكثير من الناس .



عادت منى للبيت ؛ ولكنها لم تنسَ هذه الساعة التي قضتها مع عبير، وهمست لنفسها وهي تركب السيارة عائدة للبيت: أنا أثق ببرهان ثقة كبيرة وعمياء ، ولا يمكنها أن تهز شعرة في شاربه ، وإن فهمت من مجمل كلامها أنها جاءت للمكتب لتدور وتلف حوله .. فهي ما زالت تفكر بعقلية الطالبة التي دخلت الجامعة .. فبرهان رجل عاقل ولا يسمح لعواطفه في القضايا ولا يحكمها في قضاياه .

ولكن قلقا ما خيم في باطن منى .. فقالت لنفسها : هل صدفة لقائها في المكتب أم أنها تعرف أنني زوجة برهان وتريد بي شيئا ؟! .. عبير ليست ذكية لقد تعاملت معها سنوات .. هي تقليدية في عملها وإداراتها إنها تنفذ تعليمات والدها وأعمامها ليس عندها إبداع مميز ..

ولم تكن حقيقة قلقها من علاقة بين زوجها برهان وعبير.. فبرهان يتعامل مع عدد كبير من النساء العاملات .. إنما كان قلقها من جهة حازم أن يعرف مكان عملها ، ويحاول اللقاء بها لصنع المشاكل لها ، عندما يعلم بأنها دخلت مشروعا جديدا مع زوجها الجديد ، ولكنها تهمس لنفسها منذ افترقنا لم نتصل ببعض إلا تلك الرسالة اللعينة التي تحدث فيها عن ماضينا الأسود ، وكانت بعد عقدي على حبيبي برهان ، ولأنه يعتبرها كما قال مرات أثناء الزواج إنها

سبب تدمير حياته وفشله .. جعلها السبب .. من هذه الجهة كان القلق الذي لمس قلب منى وتفكيرها وهي تعود للبيت ذلك النهار .. ربما تفكر عبير بوضع أخيها في طريقنا ثانية لتعكير صفونا .. فأنا أعرف حقدها الماضي عليّ ، وإن كانت تتظاهر أن ذلك لمصلحتي.. إنها عادتنا بشدة ، وكم مرة سمعتها تهدد أخاها وتحذره من التورط معي ؟.. قبل أن يعرف والداها شيئا بل هي التي عرفتهم على هذه العلاقة والصداقة .. ولابد أنها هي التي ملئت قلبيهما علينا .. فكيف الفتاة الفقيرة التي أتت من حي برقوقة تتزوج من حازم الثري ابن الثري بسرعة وسهولة وعلى طبق من فضة ؟ وغدا يسيطران على الشركة ويطردانها ..

كانت هذه الأفكار والخواطر والخيالات تمر في ذهنها وهي تعود للبيت مغادرة المكتب حيث أولادها خليل وزهرة ومحمد .

ولما وصلت البيت وأدخلت السيارة الخاصة بها لمكانها مشت إلى أم زوجها ، وجلست معها بعض الوقت ، وحملت أطفالها ودخلت شقتها ، وكانت قد شعرت أن لقاءها بعبير هذه المرة ترك في نفسها هما غامضا .. ولكن معرفتها لبرهان الزوج الذي اختارها دون النساء لا يمكن أن تؤثر به فتاة لعوب ، وإن كانت أموال أبيها تملأ الأرض .. فيسكن القلب ويهدأ من جديد .

بعد هذا اللقاء بين عبير ومنى في مكتب برهان الذي ألقى ظلالا وتوجسا في قلب منى كانت عبير ترسل إحدى موظفات الشركة للمراجعة مع السيد برهان ، ولحظ برهان ذلك وأنها تحاول تجنب اللقاء به شخصيا .. فلم يكترث لذلك فهو يهمه في معرفته بها العمل والشغل ، ولا تهمة العلاقات الاجتماعية الأخرى .

وبعد حين يسير تلقى المكتب دعوة من عبير ، تدعوه فيها وزوجته للمشاركة في حفل افتتاح مصنع جديد .. وذكرت في الدعوة موقع المصنع ومكان الاحتفال الذي سيحدث وساعة الاحتفال ..وكانت هذه الدعوات مهمة لرجال المال والأعمال للالتقاء والتعارف والدعاية والإعلان وأخذ عقود عمل .. فهي ليست أول مرة يتلقى مكتب برهان دعوة لحضور افتتاح أو احتفال .. فسبق له أن دعي لمثلها .. أما من عبير فالأمر يختلف وخصوصا منى المدعوة

باسمها وزوجها برهان وزوجته .. لأنه من الممكن الالتقاء بحازم زوجها السابق ، وليس بينهم رابط من ولد أو قرابة .. فتشاور برهان مع زوجته فقالت : اذهب أنت كالمعتاد ، وأنت تعرف أنني قليل ما رافقتك لمثل هذه الاحتفالات ولا أشارك فيها كثيرا .. والأخت عبير تريد التعبير لنا بهذه الدعوة عن صداقتها لنا.. وصدق لو أرى حازما سيكون الأمر كرؤيتي لأي رجل ..

تبسم برهان وقال: العاطفة مشكلة يا سيدتي .. فأنا لا أعتقد أنك عندما ترين طليقك ستشتاقين للماضي ، فهذا ذهب ومات ؛ ولكنّ الرؤية تجدد الذكريات والجروح ، وقد تسبب لك إحراجا من نوع ما وألما وضيقا .

ـ قد يحدث ذلك ، وأنا في غنى عنه .. اذهب وحدك فهذه المناسبات تفتح لك عملا ومعارف جددا من رجال المال والعمل .

ـ هذه هي الفائدة المرجوة وحدها من مثل هذه الدعوات ، وهي التي يسعى إليها المكتب .. ولكنني قررت الآن أن لا أذهب .. ليس خوفا من رؤية من كان زوجا لك أو حرجا منه .. الإنسان يتزوج ابنة عمه ويطلقها ويزورها ويصل رحمه .. وقد لا نرى حازما هناك .. ولكني سأرسل حسنا وعمران .

ـ هذا جيد ، ولكن عبير تريدك أنت وأنا فخصتنا بالدعوة .

ـ هي تعرفهما .. لقد أرسلتهما للشركة مرات .

ـ على كل حال الأمر سيان عندي يا برهان ذهبت أنت أو غيرك .. أنا لا أتعامل معهم بحساسية التي قد تبدو لك .. فأنت حياتي ، وثقتي بك أكثر من ثقتي بنفسي .. فلولاك لضعت ، ولا يمكن أن أنسى اقتحامك لحياتي ، وجودك في حياتي غيرني يا برهان .. من المهم أن أذكرك أن اليوم سيأتي ربيع من السفر كما أخبرتني أمي.. أراغب أن تذهب معي لنكون في استقباله كما تعودنا أم على تسهيل المولى؟

ـ ربيع ! بل سأكون أول الناس ، فالعم خليل اتصل بي وقال لي إني مشتاق للقياك وللحديث

معك ولخليل.. وهذه فرصة لنراه ونسمر معه .. ثم نرى مالكا فهو يفكر بالزواج كما علمت ويريد أن يطلق العزوبية .

ـ الزواج ؟! هذا خبر سعيد ومفرح .. لم أسمع أمي تتحدث عنه .. متى قال لك ذلك ؟!

ـ زرته من زمن قريب في مكتبه.. وربما ينقل مكتبه إلى حي برقوقة عندما ينتهي بناء العمارة التي أوشكت على التشطيب كما أخبرني .

ـ من سيتزوج ؟!

ـ لم يقل لي شيئا عن الزوجة .. إنما يفكر بالزواج بعد انتهاء البناية .. ولا أدري هل التقى بفتاة أم لا ؟!

ـ على كل هذا خبر يستحق النشر الليلة .

وعاد برهان يقول : أنا أظن أنها فتاة بنت أحد المحامين الكبار .

ـ تظن .. كيف ذلك ؟!

ـ قديما منذ سنة أو أكثر .. تحدث مالك أمامي بشيء عن فتاة ، وأنه يفكر بالاقتران بها إذا وافق أهلها .. ثم انقطع الحديث عنها وعن أهلها ، وبعد ذلك لم يذكر شيئا فاعتقدت أن الموضوع قد انتهى ، وأن تلك الفتاة رفضت أو أهلها رفضوا .

ـ ومن هو هذا المحامي الكبير ؟!

ـ أظن أنها ابنة النقيب الحالي أو الذي قبله .. لا أدري بالضبط .

فغرت منى فاها استغرابا وقالت: أوه ابنة النقيب!.. هذه قصة كبيرة يا برهان!

ـ مالك شاب نشيط في النقابة كما تعلمين ، وصاحب ثقافة وعلم .

في بيت خليل

سبقت منى زوجها إلى بيت أهلها ، واتصلت ببرهان تعلمه أن الطائرة التي تقل ربيع وعائلته قد تتأخر عن موعدها المقرر، كما يتكرر ذلك عادة وباستمرار في مطارات الدول العربية ودول العالم النامي ، ولقد كان الترتيب أن يذهب مالك وزوج أخته سعد الدين لانتظاره في المطار .. ولما دخل الليل أتى سعد الدين بزوجته حنين عند أهلها ومع أولادها الأربعة ، ولما حضر مالك وشربوا الشاي ، وكان قد أتى بعدد من الساندويتشات معه فأكلوها ، ولما أراد الخروج للمطار التفت لعمه خليل وعرض عليه الذهاب معهم ومرافقتهم فقال كأنه معتذرا : علمت من منى أن الأخ برهان سيأتي الليلة أيضا .

ـ آ ، فهمت عليك ، حبيب القلب سيأتي .. أنت لا تحب أن تفوت الحديث مع برهان .. الله يجزيك الخير يا عم أبا أحمد .. سلام عليكم ادع لنا يا أمي .. هل جهزت الشاي لهم يا منى ؟

ـ نعم يا حضرة العريس ! هو على طاولة المطبخ .

نظر إليها مستغربا وقال : العريس ؟! إن شاء الله .. سآخذ لهم ساندويتشات خفيفة عن الطريق سلام عليكم . . هل يلزمكم شيء قبل الخروج ؟

ردت جميلة بالنفي ودعت لهم بالسلامة ، وخرج الشابان في سيارة مالك وسيارة سعد الدين نحو المطار لاستقبال ربيع وعائلته ، ولما اختفى الشابان قالت منى بصوت مسموع لأختها وأمها وزوج أمها : هل صحيح أن مالكا سيتزوج ؟!

تطلعت إليها حنين وقالت: أسمعت شيئا ؟ سمعتك تقولين له يا حضرة العريس .. فاستغرب وقال إن شاء الله ..ألديك أخبار؟

وقال خليل : وممن سمعت يا منى ؟!

فقالت منى : يا أم ربيع مالك صامتة ؟! أتعرفين شيئا ولا تريدين قوله ؟! هل طلب منك مالك أن لا تتحدثي بذلك ؟

أصغت جميلة لابنتها ، وهزت رأسها نافية علمها بشيء دونهم ، ولم يخصها مالك بسر وطلب

عدم إذاعته ثم قالت : منذ بدأ يبني في العمارة وهو يقول سأتزوج ولليوم لم يتزوج .. والله يا بنات لم أسمع شيئا .. تعال يا خليل ! فقد كان خليل في حضن السيد خليل .

فنهض الفتى الصغير من حضن خليل إلى حضن جدته التي اعتنقته وقبلته وأجلسته في حجرها وهي تدعو له ولأبيه بالصحة وطول العمر .

فعادت حنين تتساءل : آ يا منى أخبرينا بما وصل إليك من علم !

قالت منى: اليوم هذا .. أخبرني برهان وأنا أغادر المكتب ظهرا أن مالكا يفكر بالزواج وربما قريبا .. وها هي العمارة التي أشارت إليها أمي على وشك الانتهاء منها ، وهو كما يعلم الجميع كان يؤجل موضوع الزواج حتى ينتهي من البناء والعمران .

قالت جميلة : ما دام حدث برهان بشيء من هذا فلابد أنه سيفعل .. فمالك لا يحب الإفصاح كثيرا عن مشاريعه .

فاحتج خليل وقال : لأ يا جميلة ! فمالك لا يكتم عنا شيئا .

قالت مستدركة : قصدي أنه يقول الشيء ولا يدخل في التفاصيل .

وقالت منى : وأخبرني أبو خليل أن مالكا سينقل مكتبه للعمارة الجديدة .

ضحك خليل وقال : هذا أخبرنا به مالك يا جميلة ! .. بل أخبرنا أنه سيفتح مكتبا في العمارة وسيبقى مكتبه القديم حيث هو ؛ لأن له زبائن هناك يريد أن يحافظ عليهم وخصوصا القدامى ومن ثم يتعرفون على المكتب الجديد .. فمالك شاب فطن يا منى ويخطط بهدوء .. فهذه العمارة التي قامت فمنذ تزوجت أمك ثانية وهو يرسم ويخطط لها .. وقد تشارك كما تعلمين مع ربيع أخيك فيها .. ولا أدري هل اشتركتم أنتم فيها ودار حنين أم زكي ؟!

ردت منى قبل حنين فقالت : عرض الأمر علينا .. وكنا أيامها نخطط لفتح المكتب فاعتذرنا يا عم أبا أحمد .

وقالت حنين : وكذلك اعتذر سعد الدين لمالك وشكره على عرضه .

فقالت جميلة : ولكني علمت من مالك أنه مدين لكم ببعض المال .. كم هو المبلغ يا خليل ؟

فحاولت منى وحنين عدم ذكر الدين ، وكم هو المبلغ ولكن أبا أحمد قال : يا بنات ليس هناك أسرار .. فمالك أخبرني أنه استلف من سعد الدين خمسة آلاف ومن برهان مثلها .. والدنيا حياة أو موت .

فقالت منى : ليست أسرارا يا عمي .. فنحن أهل وأسرة واحدة ..

فقال خليل : أخبرنا مالك بذلك لحوادث الدهر .. فلدي ورقة فيها هذه الأرقام وغيرها ، وستجدونها في أوراقي يا جميلة إن حصل لي شيء .. فالإنسان المسلم المتدين بالذات عليه أن يوضح ذلك للأقربين لعوارض الزمان .

قالت جميلة : بارك الله فيك يا أبا أحمد لم تقصد البنات الإساءة إليك

قال خليل : أعرف وأفهم ذلك .. إنهن فعلن ذلك من باب الأدب ليس من باب الإساءة يا جميلة .

قالت حنين: هذا قصدنا يا عم .. رأينا من العيب أن نتحدث عن ديننا لأخوتنا .. ولا نقصد إخفاء شيء عنك .. فأنت بركتنا ، ولا ننسى أفضالك الكثيرة والكبيرة علينا .

فقال خليل : ولكن الحقوق المالية من المهم أن يعرف بها الأقربون يا أم خليل ويا أم زكي .

ـ بارك الله فيك يا عم أنت بركتنا وخيرنا .. يا منى لم تخبرينا عما قاله برهان عن زواج مالك متى وممن ؟!

ـ هو لم يحدد زمان إنما قال لبرهان إنه يفكر بالزواج قريبا .. ويعتقد برهان أنها فتاة من بنات كبار المحامين .

ردت حنين : كبار المحامين !! من هو ؟!

رن الجرس الخارجي للبيت فقالت منى : برهان!

وقفزت مسرعة لفتح الباب ، وفعلا كان برهان الذي دخل مسلما على الجميع وقال : ذهب الشباب للمطار.

قال خليل : نعم انطلقوا منذ وقت قصير .

وتحدث الجميع سوية بضع دقائق ثم خرج خليل وبرهان لصلاة العشاء ، فقد ارتفع صوت المؤذن يعلن للناس دخول وقت صلاة العشاء آخر صلاة في اليوم .

وقامت النساء أيضا بعد انتهاء النداء للصلاة ، وتركوا أطفالهم يلعبون ويحبون ، ولما أنهين أداء الصلاة دخلن المطبخ لأعداد الطعام والعشاء للضيوف والقادمين .



ولما رجع أبو أحمد وضيفه من الجامع جلسوا في غرفة الاستقبال يتسامرون وينتظرون ، ووضعت أمامهم أم ربيع بعضا من الفواكه المختلفة الأشكال والألوان والأحجام، وجلست تسمع حوارهم وكلامهم ، ومع الفارق الكبير في السن بين الرجلين فهما كانا كأنهما صديقان حميمان من أيام الطفولة ، تحدثوا في السياسة والأخبار والأسعار ، والانحراف الفكري لدى فئات الشباب ، والميوعة التي تغلب على كثير من الشباب والإناث في هذا الزمان .. وتكلموا حول مشاكل التجار والصناع والاقتصاد والفساد ، كلمة هنا وكلمة هناك ، ولما سأل برهان العم خليل عن سبب تمسكه بالحدادة القديمة وإصراره على ذلك مع ظهور مادة الألمنيوم وكثرة استعمالها في العمران الحديث ، وأن الحدادة التقليدية خف سوقها وقلّ استخدامها في النوافذ والأبواب

فرد خليل وهو يضحك : العادة والإلف يا أبا خليل .. ألفت هذه الحرفة منذ الصغر ، والشغل ما زال مستمرا وإن قل الطلب .. فصناعة الأبواب الحديدية موجودة .. والأسوار ذات الأشكال والزخرفة ما زالت موجودة .. والعرائش والمراجيح وغير ذلك .. صحيح أن العمارات والشقق لم تعد تستعمل شبابيك وأبواب الحديد ولكن ما زال السوق قائما .. وحتى هذه العمارات ما زالت تستعمل في الأبواب الخارجية الحديد الصلب ، وكذلك أبواب المواقف الخاصة بالسيارات ومداخل العمارات الرئيسية .. فالحديد ما زال سيد المعادن

والصناعة .. فالألف والعادة والوراثة كما تعلم سبب تمسكي بالحدادة القديمة .

ـ رائع جدا يا أبا أحمد .. ما رأيك أن تصبح معلما في مصنع كبير أو محددة كبيرة .. مجرد مشرف لا تعمل بيدك ، فأنت مع قوتك وحبك للشغل فقد كبرت يا أبا أحمد

ـ لا أستطيع .. هذه المحددة منذ عهد وحياة أبي ـ رحمه الله ـ وأنا أعمل فيها .. غيرنا فقد البناء عندما جرى تحديث وتطوير المنطقة ، أنا لا أجد راحتي إلا فيها .. فلو تركتها قد يصير بي كما يصير في السمك إذا خرج من الماء .

ـ حسن هذا ! .. تعمل فيها وفي المصنع .. الصبح في المصنع وعند العصر تعود لمحددتك .. وأنت كما أعلم يعمل عندك شابان .. أنا عارف أنك قانع وراض بما يدخل عليك من المال والرزق ، ولم تعد كما أخبرتني بحاجة لكثير من الأموال ، فأولاد أم ربيع كبروا واعتمدوا على أنفسهم .. وفضل الله علينا كبير ؛ ولكن العمل سنة الحياة ألا ترى أصحاب الملايين يعملون ويديرون الشركات .. فهل هم بحاجة لمال وراتب آخر الشهر؟ العمل مطلوب للرجال في كل وقت .. ونحن أخي المهندس عبد الرحيم أبو بلال والعائلة نريد أن نساهم في إنشاء مصنع للحديد ، فرن ضخم للصهر ولتكوين الحديد بأشكال مختلفة .. مصنع في المعادن والصلب وهو يحتاج لمراقبين ومعلمين مثلك .. فأبو بلال الذي سيكون مالك ومدير المصنع سيعجبه عمل رجل أمين مثلك معه .

وأخذ برهان يشرح لخليل أحمد نشاط المصنع وطموحه ثم قال : ولما حدثت أخي عبد الرحيم أن يجعل لك مكانا في المصنع رحب بذلك ، وقمنا بزيارتك في المحددة وعرفتك عليه .. فعبد الرحيم كما تعلم مهندس معادن .

فقال خليل : أعرفه جيدا .. بل زارني مرات بعدما تعارفنا ، وكلفني بصناعة عدد من الأبواب والقواعد لخزانات المياه العلوية وللمكيفات المعلقة .. نحن أصدقاء وأخوة يا أبا خليل .

ـ عظيم جدا !! إذن الأخ العزيز بحاجتك فهو سيُكون شركة خاصة ، نساهم فيها نحن الأخوة والأقارب والأصهار .. وسأكون له شريكا بمبلغ حوالي عشرة آلاف دينار وهكذا الأخوة أقل

أو أكثر .. وأنت إذا أحببت المساهمة ، وسأطرح الأمر على سعد الدين إذا أحب أن يساهم في رأس المال .. فالمشروع واعد بإذن الله يا عمتي ويا عمي وعبد الرحيم منذ سنوات يخطط له .. ليس فكرة خاطفة .

ـ الحدادة المعاصرة لست بارعا فيها .

ـ يا رجل نحن نريد خبرتك.. فالمصنع سيعمل به مهندسون وفنّيون وسيتكون أكثر من خط إنتاج .. ستصنع فيه قضبان الحدادة والبناء والخزائن المعدنية .. مصنع ضخم ربما يتجاوز رأس المال الأولي المائة ألف دينار يا سيدي في مراحله الأُول .

ـ والله مبلغ كبير!

ـ هو مصنع على مستوى المنطقة ؛ وربما يكون هناك تصدير لخارج الدولة .. وكنت يا عمتي أحب أن يساهم فيه الأخوان ربيع ومالك ، ولكني أعرف ظروفهما وقد أنهك العقار جيوبهما ؛ ولكنه الحمد لله قد انتهى وقريبا سيتم تأجيره وسيدر عليهما دخلا جيدا .. وإذا أحبا المشاركة في المراحل القادمة سندخلهم في المشروع

وقبل أن ترد الأم دخلت منى وحنين وألقيتا التحية ، وجلستا واستمعتا آخر الكلام فقالت حنين : تحدث معهما يا برهان في الموضوع ربما ساهما بمبلغ يسير.

ـ أكيد سأتكلم معهما في ذلك ، ولكن أقدر وضعهما الحالي .. والأخ مالك له علم بالموضوع ، فهو الذي سيرتب لنا العقود والأوراق اللازمة للمنشأ .

فقال خليل : والله هذا مشروع ضخم !

قالت منى : طبعا يا عمي .. هذا مصنع حديد .. عبد الرحيم الأخ عبد الرحيم لديه طموح كبير وسيجعله مصنعا ضخما وعلى مستوى المنطقة ولكن على عدة مراحل كما فهمنا منه ..

فقال خليل: الله يوفق يا إخوان .. أنا وجميلة سنساهم بمبلغ بسيط إذا أحببتم أو إذا ساهم الأولاد سنضع رأس مالنا في حصتهم يا جميلة .

قالت جميلة شاكرة : إن شاء الله .. الطعام جاهز يا بنات ؟

ردت حنين : نعم يا أمي .

فالتفتت جميلة لخليل وبرهان: هل تتعشيان يا أبا أحمد أنت وبرهان .. أم تنتظران باقي الناس؟

قال خليل ضاحكا: أنا عن نفسي شبعت من كلام برهان .. وأستطيع أن أصبر .. وأنت يا أبا خليل .. ألا تريد أن تأكل؟ .. لا تجامل عمتك إذا كنت جاهزا للأكل فتفضل .

فتبسم السيد برهان لكلام الحداد خليل ومداعبته البريئة ورد عليه : شكرا يا عمي .. أنا تغديت متأخرا ، فلما أخبرتني منى عن تأخر الطائرة أخرت الغداء .. وهذه الفاكهة قد ملئت بطوننا .. المهم يا أخ أبا أحمد فكر جيدا بالعمل معنا في المصنع ، فأنت صديق عزيز وخبرة لا يستهان بها

ـ هذا من فضلك يا أستاذ برهان .. أنت أحسن إنسان تعرفت عليه في حياتي كلها رغم فارق السن بيننا .

ـ السن ليست عبرة يا صديقي! المهم الانسجام وتلاقي الأفكار والخواطر وقبل كل ذلك المحبة وتدخلت منى قائلة ومعقبة على كلام أبي أحمد : والله مناي أن أعرف سر تلاقيكما لهذه الدرجة يا عمي يا أبا أحمد .

تطلع إليها ضاحكا وقال : لا أدري يا عزيزتي يا منى !.. منذ دخل هذا الرجل بيتنا في اليوم الذي تعرفينه انشرح له صدري ، ووقع حبه في قلبي ونفسي كأنني أعرفه منذ سنوات ، وحدث انسجام بيننا وأنا أفضله على إخوتي من أبي .

فقال برهان : على ذكر إخوتك يا أبا أحمد ، ذكرت لنا قديما أن لك إخوة من امرأة أبيك الحاج أحمد فرفر .

تنهد الحداد خليل وقال : نعم ، نعم ، يا أخي يا برهان .. عندما تزوج أبي أمي خلفتني أنا وصبرية ، ثم مرضت ولم تعد تستطع الحمل ، وبعد يأس تزوج امرأة عليها أنجبت منه ولدين وابنتين ، ثم ذهبتا إلى الموت هما الاثنتان رحمهما الله .

العمارة

عند منتصف الليل أقبل مالك وسعد الدين بربيع وعائلته ، وتعانق الأحباب واجتمع الشمل في بيت السيد خليل فرفر، وكان لقاء طيبا ظهرت فيه العواطف الرقيقة والمشاعر الناعمة والود والحب بين هذه الأسر الأربعة .. وبعدما استراح المسافرون قليلا وضع بين أيديهم العشاء المتأخر ، وتناول الجميع طعامهم ، ثم أخذ برهان أولاده الثلاثة خليلا وزهرة ومحمدا وزوجته قافلين لبيتهم بعدما استقبلوا ربيعا وأسرته كما اعتادوا على ذلك سنويا ، وبعد مغادرتهم بقليل انصرف سعد الدين بعائلته الأولاد والزوجة مغادرين لبيتهم وقد قاموا بواجب الترحيب بأخ زوجته ، وقضت العائلة ساعة أخرى في الحديث والترحيب ، ثم انصرف كل منهم إلى حيث يرقد وينام ، ورقد القوم سريعا في نوم عميق بعد السهر والعشاء.

وفي الصباح التالي انطلق خليل لمحددته وهو يفكر بعرض صاحبه برهان ، ولم يتخذ القرار الحاسم بعد ، فهمس لنفسه محاولا إنهاء ما يدور في نفسه من تردد .. كان الأمر صعبا على روحه ونفسه ، فهو قد اعتاد على المحددة الصغيرة والعمل البسيط ، بل كان عندما يطرح عليه عرض كبير من الشغل يستعين ببعض المعارف من الحدادين الآخرين لإتمام المهمة والعطاء .. كانت حياته بسيطة لا تعقيد فيها .. أجرة بيت لا يدفع ، فهو يملك البيت ، والأمور ميسرة ، وكان أخوته قد تنازلوا له عن البيت قديما قبل أن يهجروه وقد قام بتوسيعه وتحديثه .. والفواتير الأخرى من ماء وكهرباء وهاتف لا تكلفه كثيرا ، ومنذ كبر أولاد زوجته قل الإنفاق على البيت فالأولاد قد تحملوا المسؤولية كاملا .. فمالك وربيع يرسلان المال لأمها باستمرار ، وحتى البنات يدفعن المال لأمهن بسخاء فكان أكثر ماله يدخره .. وحياته هادئة والأيام طيبة .. والأولاد دائما حولهم في البيت ، وهم لا يشكلون أي عبء مالي على جيبه رغم محبته لفعل ذلك .. فمالك لا يمر يوم إلا وهو يدخل صناديق الفاكهة المتنوعة للبيت .. فكان يرى العمل في المصنع مشقة وتغيير ما تعود عليه .. ولكن برهان حبيبه يحب تعاونه معهم .. إنه يريد أن يكرمه بطريقة لطيفة فهمس قائلا لنفسه المترددة : عندما يتم بناء

المصنع وصنع الفرن سأقرر وأتخذ قراري الأخير .

فلما وصل لهذه النتيجة ارتاحت نفسه ، فخفت حدة التوتر بينه وبين روحه فهو يقدر برهان ويعتبره أكثر من ابن وأخ .



وأما مالك فبعد أن صلى الفجر جلس في المسجد كعادته ، ولما صلى صلاة الشروق عاد للبيت فوجد أمه قد صنعت له القهوة بالحليب وطعاما يسيرا ، فأكل الطعام وشرب قهوته ، حتى أتى وقت الذهاب للعمل فودع أمه وسألها كالعادة إذا كان يلزم البيت شيء هذا النهار فقالت : سأشترى ما نحتاجه من هنا من دكاكين الحي وإذا اضطررنا لشيء سأتصل بك .. فبعد قليل سيأتي إخوتي للسلام على ربيع وابنتهم .. وربما تأتي صبرية أخت خليل ، فقد تحدثت معي على الهاتف قبل دخولك تسأل عن وصول ربيع وزوجته وأولاده .. المهم أن البيت سيظل اليوم مشغولا طول النهار.. وإذا رغبت أن تتغذى مع أخيك فافعل .. فمنى وحنين ستحضران بعد الظهر .

ـ إذا صار لدي وقت سأحضر الغداء يا أمي .. لا أدري ماذا سيحدث اليوم ؟ . . فالقضايا تملأ المكتب وشركائي لهم رأي .. أحيانا الجلسات تأخذ منا وقتا غير مخطط له .. السلام عليكم يا أمي .

ومشى نحو الباب الخارجي للبيت ، ولكنه بعد لحظات سمعها تنادي عليه : انتظر يا مالك .

توقف والتفت إليها فقالت : هل صحيح أنك ستتزوج قريبا ؟

تبسم وقال : قريبا ! .. من قال ذلك ؟!

ـ منى سمعت برهان يتحدث بذلك !

ضحك وقال : سأتزوج إن شاء الله تعالى يا أمي ! أما قريبا فصدقني أنني لا أدري يا أمي ! كما

قلت لك سابقا عندما ننتهي من العمارة ونؤجر ما نريد تأجيره سيكون الزواج .

ـ بل سمعنا أنها ابنة أحد كبار المحامين .

تعجب مالك وقال : برهان قال ذلك ؟!

ـ قاله لمنى ، ومنى أخبرتنا به .

تبسم مالك وقال لأمه : يبدو أن برهان هذا يعلم أكثر مني يا أمي .

ـ لا تمزح

ـ هو في كلام يا أمي ، ولكن قبل أن يحصل شيء جدي وحقيقي فالكلام غير لائق .. فكما تعرفين الكلام يمشي وأنت تعرفين كيف يمشي ؟ .. فعندما يحدث شيء ستعلمون به .. فبرهان هذا عجيب فعلا من أخبره بذلك ؟!

ـ أنت ؟!

ـ أنا ؟! ممكن ولكن متى كان ذلك ؟! .. أنا تحدثت فعلا منذ عهد قريب مع برهان بفكرة الزواج وأنني قد أتزوج خلال العام ؛ ولكن لم أقل بالضبط متى ؟ ولم أقل من هي المرأة ؟

ـ هذا ما سمعناه من أختك أم خليل .. هو للحق لم يتكلم أمامنا بشيء .

ـ على كل ادع لي يا أمي بالتوفيق .. كلام برهان فيه كثير من الدقة بس الذي أدهشني معرفته بأمر العروس وكبار المحامين!

ـ أنت لم تقل له ذلك ؟! ما بك يا ولدي ؟! وكيف عرف إذن ؟!

ضحك مالك لحظات وقال : لا أذكر أننا تحدثنا بشيء من ذلك .. السلام عليكم يا أمي سلمي على ربيع وامرأته وعلى كل ضيوفك اليوم .. أنا وصيت أبا خضر صاحب المطعم على كمية من الحلويات الشهية لتقديمها لضيوفك اليوم وتكريمهم بها .. لقد صلى الفجر معنا وسيرسلها لكم .

ـ وصيت ، جزاك الله خيرا .. والله أنا نسيت أمر الحلويات ..

ـ أنا لا أنسى .. ألم يعد هذا تقليدا عندنا ؟ كلما يرجع الأخ الكريم من السفر نقدم للناس

الحلوى والفاكهة .. وإذا نقصت الفواكه فخذي من عند سعدي وأنا سأمر وأدفع له إن شاء الله

ـ توكل على الله رضي الله عنك ، لقد عوضني الله خيرا بكم يا ولدي الحمد لله على توفيقه .. وهذا الرجل الصالح ـ تعني خليلا ـ ماله حلال جزاه الله خيرا قام عليكم أحسن قيام .

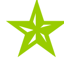
ـ الحمد لله يا أمي.. فأبو أحمد بركتنا وسيدنا وخيرنا، وكسب أجرنا ، فالساعي على الأرملة واليتيم كالمجاهد في سبيل الله.. ونحن بودنا لو نقدم له أفئدتنا ؛ ولكنه بفضل الله تعالى مرتاح منا ، ودائما يثني علينا ، ونحن نقدر له كل شيء ..

ـ صحبتك السلامة يا ولدي .. انتبه وأنت تسوق سيارتك فحوادث السيارات تزداد وتكثر في المدينة .

ضحك الشاب وقال : الأعمار بيد الله يا أمي بسيارة أو غير سيارة .

ـ الحذر مطلوب ..

ـ لا مفر من القدر يا أمي ! سأفعل بنصحك .. المهم رضاك علينا وأكثري من الدعاء لنا ، فدعاء الأم عظيم ومسموع عند الله الرب العظيم .



لما استيقظ ربيع عتب على أمه على أنها لم توقظهم للصلاة فقالت: قد فعلت ولكن يبدو أن النعس والتعب حط رحاله عليكم ، فرحلة الطائرة رغم الراحة المتوفرة فيها ففيها مشقة وإرهاق نفسي .

صلى الصبح هو وزوجته ، وما كاد يخرج من الحمام ويتناول الإفطار حتى كان خاله والد زوجته وزوجة خاله حماته يجلسون مع أمه ، وقام الترحيب والعناق والسؤال عن الصحة والعافية والسفر والغربة .

بدأ أقارب ربيع يهلون للسلام عليه كعادتهم عندما يرجع كل سنة من سفره .. وانقضى النهار باستقبال وتوديع ، وفي المساء زاره بعض أعمامه وزوجاتهم وأبنائهم الكبار .. وقام بهذا الواجب أيضا بعض الجيران ، وقضت الأسرة بضعة أيام على هذه الحال والمنوال .. فقد اعتاد أهل برقوقة

على هذه المجاملات للتعبير عن حبهم للمغترب .

ولما عاد مالك أحد الأيام مساء مبكرا وقد خفت الرجل عن البيت فجلسوا جلسة عائلية في صالة البيت ، وكانت زوجة ربيع قد أخذت بعض أولادها لزيارة أهلها والمبيت عندهم ليلة قال ربيع مخاطبا أخاه مالكا : ما أخبار العمارة ؟

ـ ألم تذهب إليها بعد ؟!

رد ربيع باسما وقال : الناس ، وأنت عارف ناس برقوقة .. لي أربعة أيام لم أخرج من البيت إلا للمسجد .. وذهبنا فقط لمنزل خالي والد زوجتي للغداء عندهم فقط ؛ ولكن أمي حدثتني عنها بعض الشيء .

ـ الحمد لله رب العالمين شهر ونصف أو شهران سينتهي كل شيء بمشيئة الله .. الطابق الأول تم تأجيره كما اتفقنا محلات تجارية ، والطابق الثاني كما تعلم ثلاث شقق استأجرت شقة لمكتبنا الجديد ، وشقة استأجرها الدكتور حسن عيادة وهو صديق لنا ، والثالثة شبه محجوزة لأحد الأصدقاء وهم يعملون في الطباعة والورق .. والطابق الثالث شقة لك وأخرى لي والثالثة لم تؤجر بعد ، والطابق الأخير كما تعلم عليه شقتان يا سيدي ، هناك بعض الناس حدثوني عنهما ولكن أجلت الأمر للتشاور معك ، فربما يريد أحد يخصك السكن فيهن ، وسمعت أمك تقول إن أخ زوجتك حسني ابن خالنا ربما يرحل ويسكن في الحي

فقالت جميلة : أنا قالت لي ذلك امرأة خالك فاطمة حماتك يا ربيع .

فقال ربيع : لا حرج يا أمي .. لك الشكر يا مالك على المجهود الكبير الذي بذلته خلال هذه السنوات الماضيات .

ضحك مالك وقال : سامحك الله يا أبا ساعد! هل بين الأخوة مجهود ؟ ولو أن المال متوفر بين أيدينا مرة واحدة لانتهى المشروع منذ سنوات أو من سنة واحدة .. ولكنني أحببت أن نعمل حسب الإمكانيات حتى لا نغرق بالديون كثيرا ، ونحن ما زلنا مدينين لسعد الدين وبرهان وبعض المحلات لها بواقي حسابات ، وكذلك والد سعد له علينا باقي ثمن حديد وإسمنت

ومواد طلاء ودهان وهو رجل فاضل قال لي على أقل من مهلك يا بني .. فنحن أهل ولولا أنني أخشى أن يزعل لسددته فورا ولكن قلت رويدا رويدا ، فالرجل طيب ومحترم ، ولو دفعتهن له مرة واحدة لظن أن في النفس شيئا فيزعل ويزعل سعد .. وحنين طلبت مني فعل ذلك ، فالرجل يحب أن يخدمنا ويفعل من أجلنا شيئا ، إنه يريد أن يجاملنا .

فقال خليل : الحمد لله يا أولادي.. الله فضله كبير علينا .. والحقيقة أن أصهارنا أناس أصحاب فضل ومروءة ، وأنتم يا أولاد طيبون وتستحقون كل خير

قالت جميلة: الحمد لله على فضله.. والشكر لله .. كل هذا ببركتك يا أبا أحمد .. ومن حرصك على الحلال وإطعامنا الحلال ، الله يسر لنا أولاد الحلال .

ـ بوركت يا أم ربيع .. أنت أصيلة وطيبة يا أم الجميع .

قال مالك : بارك الله فيك يا عم أبا أحمد.. غدا إن شاء الله عندما أرجع من المكتب سنذهب للبناية ونتفرج على ما سميته يا ربيع المجهود .. نحن منا المال أما الذين قاموا بالجهد والإنشاء هم العمال والمقاول وأهل الحرف .. وإذا أحببت اذهب في الصباح وخذ معك أمك وزوجتك وتفرجوا .. فستجدون الحارس أدهم فهو ما زال يعمل معنا ، وقد نبقيه بوابا للعمارة إذا أحب البقاء معنا .. ففي الطابق الأرضي سكن قد يصلح لبواب أو حارس عازب .. وظل شيء واحد بعد تشطيب العمارة وقد أجلته إلى أجل غير مسمى كما تعلم وهو المصعد الكهربائي .

واختلط الحديث بينهم في مواضيع شتى حتى جاء ذكر الزواج ، فعاد ربيع يسأل : ألم تقرر الزواج بعد ؟ .. أصحيح ما يشاع عن زواجك ؟

ضحك مالك ووضع كأس الشاي من يده وقال: كما يشاع ..حلوة هذه الكلمة! .. فعلا هي الكلمة المناسبة .. أنا ذكرت قديما أنني عندما أنتهي من العمارة وأستلم الشقة الخاصة بي سأبدأ بتجهيزها ، وعندما أجد بنت الحلال سنتزوج كما يتزوج خلق الله سبحانه .. فالحمد لله والشكر لله والفضل كله لله الأمور تسير تمام لليوم .

وقطع ربيع استرسال مالك قائلا: وهل صحيح ما يشاع أنها ابنة أحد المحامين الكبار؟

ـ هذا الغريب في الأمر يا ربيع! والعجيب أنهم ينسبون القول لبرهان ولا أدري من أين أتى به برهان ؟!

تبسم ربيع وقال: وبرهان حبيبنا لا يرمي الكلام كما تعلم جزافا .. ربما صارحت صاحبا بذلك وألقاه في أذن برهان .

ضحك مالك لحظات وقال : معك حق .. من سيكون ؟!

تبسم ربيع وقال: معناه صحيح .. هناك كلام يبدو في ذلك .. وهذا الكلام وصل لبرهان الحبيب .. هذا الرجل لو ذهب معي للخليج لصار مليونيرا .. فهو رجل فهمان في المحاسبة والشركات والدراسات ؛ لكنه قنع بهذا المكتب الصغير .

ـ الرجل فعلا عجيب عرضت عليه الملايين فرفضها .



قام ربيع كعادته عندما يرجع من السفر كل سنة بزيارة أعمامه وعماته وخالاته وأخواله وبعض الأقارب وأختيه ، فيمكث شهرا في ربوع الوطن بين الأهل ومحبيه ، وبين مستقبل وزائر ومودع ولم ينس زيارة صبرية أخت خليل ، فكان يعتبرها كعمة له ، وكذلك يخص بزيارة صديقه عدنان جابر وزوج ابنة خالته ، وكان يتمنى لو يزور أخوة خليل وأخواته الأخريات ، ولكنهم لا يعرفونهم ولا يعرفون سكناهم ، فهو يقدر ويعظم دور خليل زوج أمه في حياتهم وتربيتهم وتعليمهم ، ولما انتهت الإجازة السنوية سافر من جديد للخليج ، وعاد السكون والهدوء لمنزل السيد خليل فقد سافر الضيف العزيز .

ربيع لم يعادِ ويجافِ أهله وأقربائه وخصوصا أعمامه اللذين تخلو عنهم صغارا .. ولكنه عذرهم ولم يجافهم أو يفكر بالانتقام منهم ؛ بل قدر ظروفهم وحياتهم ، وكان يصل عماته بالمال ، وكذلك أعمامه المحتاجين ؛ بل ساعد بعض أبنائهم للعمل حيث يعمل ، وقد تحسنت العلاقات بينهم خصوصا بعد سكناهم ثانية في حي برقوقة ، وأصبحوا كبارا بل يتطلع بعض

أعمامه وعماته لتزويج بناتهم من أخيه مالك ، وهم مستغربون لتأخر مالك بالزواج لهذا اليوم ، فقد كان ولدا بارا بالجميع، وحتى مالك المحامي لم يكن يقصر في هذا الجانب الاجتماعي والإنساني، فكثير ما يأخذ أمه ويشارك أعمامه وأولادهم في مناسبتهم من فرح وترح ، ويساعدهم بما استطاع ، فعلاقته طيبة مع الجميع بل كانت أسرة خليل مجال فخر لأهل الحي فهم يستفيدون من عمله في سلك المحاماة في حل مشاكلهم وقضاياهم ، وكانوا يفخرون به أيضا بأنه كاتب بارع في الصحافة والمجلات .

وكان مالك الشاب القوي البنية الأنيق دائما يقدر زوج أمه خليلا التقدير اللائق به والكبير كان يراه رجلا عظيما ، ويتمنى من أعماق قلبه أن يقدم له شيئا ولو يسيرا من بعض دينه ومعروفه معهم .. فلليوم هم عاجزون عن سداد شيء ، فهو لم يحتاجهم في شيء مهم .. وكان يحترم زوجي أختيه أيضا الاحترام اللائق بهما ، ويرى أنهم من خير الناس وأحبهم إليه ، ويقدر لبرهان العمل الكبير من زواجه بأخته منى ، لقد كان خائفا عليها جدا من الضياع ، وتؤرق فكره منذ كان يدرس في الكلية الجامعية .. كان يخشى على أخته من هذا المجتمع الذي يتفتت وينفلت كل يوم .. ويزداد فيه تمرد الإناث على تقاليد العائلات ، ومع ذلك الانفلات المعروف إن أصابت الفتاة شيئا سيئا يبقى عار على العائلات ، رغم ضعف الروابط الأسرية والعائلية مقارنة بعقود مضت .. ورغم ترك الناس لبناتهم بالانخراط والتقليد الأعمى والبعد عن الدين.. ما زال يعاب الآباء والأخوة والعشيرة بتصرفاتهنّ المشينة والمنحرفة .. فكان خائفا من انفلات منى وكان يرى ذلك بأم عينيه لقد أصبحت تدخن وتشرب الخمر وتلبس الملابس الفاضحة وتجلس مع الرجال والنساء دون حياء ، وتتكلم مثلهم بسخيف الكلام باسم المدنية والحضارة والحرية والتعليم .. فكان ينظر لبرهان على أنه بطل صنع لهم معروفا عظيما ، ويتمنى من أعماق قلبه أن يجزيه بعض الجزاء .. فكان يرى برهان أكثر من صديق وزوج أخت ، كان يراه أخا لم تلده أمه

دخلت منى المكتب بصحبة زوجها كالمعتاد صباحا ، وبعد حين يسير استأذن برهان للمرور على بعض الشركات للمراجعة والمتابعة والتدقيق ، وبينما منى تقوم ببعض أعمال العمل التي

طلب منها برهان القيام بها ريثما يرجع رن جرس الهاتف فرفعت السماعة وقالت : نعم

ـ عفوا .. ألم تعرفيني يا منى ؟!

ارتبكت وهي تسمع السؤال وقالت : آسف ، أرجو ألا أسمع صوتك مرة أخرى!

ووضعت السماعة وتوترت أعصابها ، وظهر الغضب على محياها ، وتغير لونها واكفهر وجهها غضبا.. ورن الهاتف ثانية فرفعت صوتها للعاملة التي في المكتب المجاور أن ترد على الهاتف : ردي عليه يا سلام !

تحدثت سلام مع المتصل ثم قالت لمنى وهي مستغربة رفض منى للحديث مع المتصل: إنه يريدك أنت .. يريد أن يسألك عن سبب عدم حضورك حفل المصنع الذي دعيتم إليه من قبل السيدة عبير ناصر!

ردت عليها بغضب قائلة : أغلقي السماعة في وجهه .. إنه رجل حقير!

عجبت سلام بالطبع لهذا الكلام ، واعتذرت للرجل ووضعت السماعة ، واقتربت من منى الغاضبة وقالت : مالك يا أستاذة منى ؟! عفوا طبعا للسؤال !

عادت منى للجلوس على مكتبها ونظرت إليها لحظات ثم قالت : أنا آسفة يا سلام لرفعي صوتي في وجهك .. المتصل استفزني ، ولما اتصل ثانية أذنت لك أن تردي عليه لأنني أغلقت السماعة في وجهه ولا أريد سماع صوته .. معذرة يا أختي

ـ أتعرفينه ؟!

ـ نعم ، أشكرك .. أين أبو غسان ؟

ـ ذهب للفطور .. هل تريدين شيئا ؟

ـ كنت أرغب بشرب كوب من القهوة .

ـ أصنعه لك .

ـ لا .. أرجوك عودي لمكتبك .. أنا بنفسي سأعد القهوة .

مشت نحو المكان الذي تصنع فيه القهوة والشاي ، وصنعت لها ولسلام القهوة ، شكرتها سلام

على تواضعها ، وكررت منى الاعتذار ثانية وهي تقول : اعذريني يا سلام .

ـ لقد عذرتك يا أختاه .. بس لو أعرف سبب انفعالك الشديد فقد احمر وجهك للغاية .

ـ ستعرفين .. وليس الآن .

عادت الفتاة ترشف القهوة وتنظر في الملفات التي أمامها ، وأما منى فدخلت لمكتبها وهي تقول : اللعين ماذا يريد ؟! ليس هناك شيء يربطنا ؟! إنهم يريدون تدمير حياتي .. عبير شيطانة .. إنها تحلم ببرهان! غبية جدا .. فهو أيام الجامعة لم يهتم بها .. فاليوم تتصور أن يقع في حبالها !

لما رجع برهان أدرك بحسه المرهف وهو يدخل المكتب قلق وتوتر منى ، فشحوب وجهها واضح فسألها عم بها فلم تكتمه شيئا وكانت تحدثه بغضب وهيجان ثم قالت : أرأيت تلك الملعونة ؟! ماذا ستفعل ؟!

ـ اهدئي أولا يا عزيزتي .. فالتوتر يوهن التفكير.. سأتكلم مع عبير .. وأيضا سأقطع علاقتي العملية معهم .

ـ لا تفعل أنا لا أخوض حربا معها !

ـ هذا لا أسمح به يا منى .. هذا عبث ولعب عيال وسخافة .. أنا عند الضرورة سأتكلم مع ناصر نفسه ، ونحن في غنى عن الشغل معهم .. اهدئي أيتها العزيزة .

ـ أفكر أنا بترك العمل !

ـ الهروب .. لا يا حبيبتي .. فالهرب لا يحل دائما المشاكل .. فالسخفاء ..

دمعت عيناها وهي تقطع كلامه قائلة : أنا لا أريد أن أخسرك !

استغرب برهان التصريح وضحك وقال : نحن لنا سنوات متزوجون يا ابنة العم .. أنا لا تؤثر فيّ حركات الصبيان ، ونحن كبرنا على لعب العيال ، وأنت لم تعرفي لماذا اتصل ؟ هل فقط اتصل ليسأل عن سبب عدم حضورك حفل الافتتاح .. ولماذا يريدك أن تحضري ذاك الحفل ؟!.. أنت تفاجأت بالاتصال فتوترت بسرعة وخانتك الحكمة .. وأنا أستطيع أن أوقفه عند حده ، ولكني خائف عليك على أعصابك .

ـ فعلا تهيجت أعصابي .. عندما قال ألم تعرفيني يا منى؟ فما كدت أعرف وأتحقق من صوته حتى ارتبكت ووضعت السماعة .

ـ صدقي لو أراد التعامل معي كعميل ربما لا أهتم ، فسيكون كأي زبون وعميل .. أنا أحب أن تكوني طبيعية وحتى مع حازم ، وأنا واثق بأنه أصبح ماض في حياتك .. على كل حال لا تقلقي سأتحدث مع عبير بداية وأعرف منها سر هذا الاتصال ، وأعرف أيضا مدى دورها في هذه اللعبة إذا كان هناك لعبة ، وإذا وجدت أي عبث سأنهي كل الأعمال التي بيننا وبينهم ، فنحن في ألف غنى عن شركاتهم ومشاريعهم وحفلاتهم .. عودي للبيت الآن ، وسوقي السيارة بكل هدوء ، فأمي تريد زيارة أمك فخذيها وانسِ هذا الهاتف وسأتصرف .

أثنت عليه منى لسانا وقلبا ، وهدأت أعصابها قليلا ، واعتذرت لسلام ثانية وهي تغادر، وانصرفت قافلة لبيتها ، ومع كل حديث برهان المطمئن لها ما زال القلق من المجهول ، وكانت ترى أن هذه بداية لتحرشات جديدة ، فهي تعي بشكل جيد أن حازما ابتعد عنها لخاطر أهله وضغطهم ، وحتى زواجه من قريبته كان رغم أنفه .. وكانت تعتقد أن مجيء عبير بعد سنوات من فتح المكتب لم يكن صدفة وقراءة إعلان في جريدة .. كانت ترى أن عبير لما عرفت من هو برهان صاحب المكتب طمعت فيه ، وظنت أن الأيام والحياة الصعبة غيرته .. ولكنها فوجئت بأن زوجته هي منى زوجة شقيقها حازم .. فإدخال عبير حازما بطريقة ما سيكون فيه خراب لبيتها ، هذا ما كانت تتخيله منى من الاعتقادات والتخيلات .. بل ذهب بها التفكير أن عبير كانت تعرف بزواجها من برهان للرسالة التي جاءت لها من حازم بعد كتبها كتابها على برهان بأيام .. وإنما تظاهرت بأنها تفاجأت بزواجهما من بعض .. كانت خواطر تروح وتجيء في ذهن فتاة قصتنا هذه .

لما خرجت منى قام برهان ببعض الأعمال ، ثم تكلم مع عبير وحدثها عن اتصال أخيها حازم بمنى فقالت عبير : لا تزعل يا برهان .. أنا كنت قد حدثت أخي عن زواج امرأته السابقة منك وكان المسكين يأمل برؤيتها في حفل افتتاح المصنع ليعتذر لها عما سببه لها من ألم وعذاب وخذلان

ـ يا عبير .. هذا كلام فارغ وسخيف .. فهي على ذمة رجل اليوم .. وهي لا تريد اعتذارا ولا أسفا ..أنا أعرف أنه ما زال لها في نفسه شيء لأنه طلقها مكرها ومجبرا .. ولكن كل شيء انتهى فليحترم نفسه .

ـ لا .. لا .. يا برهان .. حازم مسكين محطم شخص من غير إرادة .

ـ لا ، هو ما زال في نفسه من ناحيتها شيء .. عندما أعلنت زواجي منها كتب لها رسالة تهنئة ، وفيها كلمات حنين وأسف وغير ذلك ، ولما لم يحدث بعدئذ شيء نسيت الأمر .. فحذار من غضبي .

ضحكت المرأة وقالت ساخرة : ماذا ستفعل ؟!

ـ اضحكي ما تشائين .. أنت تعرفين برهان ماذا يفعل إذا غضب ؟! لقد عرفت بعض حكاياتي أيام الكلية .

ـ هل نحن في العصور الوسطى !

ـ العصور الوسطى .. عصور شيكاغو .. المهم إذا أحببت أن نبقى أصدقاء فلتكن صداقتنا العمل وحده .

عادت عبير للتهدئة والاعتذار وقالت : قلت له دعنا من هذه الدعوة .. دعنا من منى ربيع .. فهي تعيش في كنف غيرك وأنت عندك امرأة .. فالملعون كان مغرما فيها .

ـ كلام سخيف يا عبير .. هذا حب مراهقين .. ساعة هنا وساعة مع تلك .. أليس هو الذي طلقها ؟! والآن أنا زوجها ..فليفهم ذلك وإذا اتصل مرة أخرى سأتكلم مع والدكم مباشرة

ـ خلاص يا سيدي .. أنا آسفة .. سأفعل ما تشاء .. لن يعيدها بل أنا سأتحدث مع الوالد إذا علمت بشيء .. اطمئن .

ـ أنا أقبل منك هذا الكلام.. فنحن عرب ونغار على أعراضنا يا عبير .. نحن ما زلنا نعيش في تقاليد وعادات الماضي .. لسنا مثلكم نتزوج ونترك نساءنا على حل شعورهن ومصاحبتهن للرجال مهما كانوا.. أو الزوجة تترك زوجها يصاحب من شاء .. نحن عرب مسلمون .

ـ ما أقسى كلامك !

ـ هذا واقعكم لم نأت بالكلام من دورنا .. أرجوك أن تنصحيه أن ينسى هاتف المكتب .. رجاء يا أخت عبير .

ـ ولا يهمك يا عزيزي .

شكرها ووضع السماعة ومسح العرق المتصبب على جبينه وقال لنفسه : أرجو أن تكون قد فهمت الدرس .. أنا إذا غضبت وحقدت أدمر الدنيا .. لعنة الله تعالى عليه .. سم بدني وأعصابي .. مسكينة منى !!

وما كاد برهان يضع السماعة ويتكلم بهذه الكلمات حتى رن الهاتف فإذا هي عبير ثانية ، فاستغرب وقال : آ .. يا عبير ؟!

قالت : حازم عندي ويريد أن يعتذر لك ؟

ـ لا أريد اعتذاره .. المهم أن ينسى أنه كان يعرف أنثى اسمها منى ربيع ، فليكن تعاملكم معي في الشغل فحسب ، وإذا شئتم اسحبوا العقود التي بيننا .. فأنا بغنى عن مشاريعكم .

ـ يا ابن الحلال لا تغضب .. فنحن معرفة وزملاء قبل أن نعرف كلينا منى .. ولكنّ حازما مصر على الحديث معك لديه كلام خاص كما يقول

ـ لا أريد أن يكلمني ، أنت فهميه كل ما قلته لك يا عزيزتي يا عبير .. مع السلامة

أعاد سماعة الهاتف لمكانها وقال : لو كان هذا الرجل صادقا بعلاقته بمنى لما انشغل بالمخدرات للهروب من الحياة ومن زوجته .. لكان قد كافح وعمل أي شيء لتدوم الحياة مع منى ، أليس معه شهادة جامعية ؟! كان باستطاعته أن يعمل في أي شركة ويفتح بيتا .. لكنه اعتاد على التبذير والسكر والقمار .. وأنا متأكد أن أكثر أمواله هلكت على موائد القمار .. ولكن يبدو أن منى لم تكن تعرف ذلك .. فإذا عبير وهي في الجامعة كانت تمارس الميسر .. فكيف بحازم المدلل الضعيف الشخصية ؟! ولو كان يحب حقيقة ما طلق متظاهرا بالاستسلام لوالده .. إنه صاحب منى أصلا محاولا الضحك عليها بالحب والعشق ، ولما فشل في تحقيق مأربه الشهواني رضخ

لأمر الزواج اضطرارا وهي أرغمته على ذلك ؛ لأنها كانت تريده سلما للمجد والمال ، فشخصية منى قوية وحذرة .. أنا أعرف هؤلاء الناس !

عكف برهان على العمل من جديد وهو مشوش الذهن وسارح الفكر بما حدث ، فالاتصال هذا عمل اضطراب في هذه الأسرة الوادعة الحالمة .. وقبل أن يغادر المكتب رن الهاتف في الثانية ظهرا ، رفعت سلام السماعة وردت ونادت عليه فهو يقف بالباب لينصرف وقد ارتدى جاكيتته فقال : من ؟

ـ رجل يريد الحديث معك لم يذكر اسمه .

عاد لمكتب سلام وأخذ السماعة من يدها وقال : نعم .. نعم .. أنا برهان

ـ أريد أن أقابلك أنت شخصيا يا أخي .

ـ تقابلني من أنت ؟!

ـ أنا حازم !



لقاء مع حازم

لما عادت منى من بيت والدتها بصحبة والدة زوجها أم عبد القادر ، وتعشى الزوج والأولاد ، وجلسا في حجرة التلفزيون يسهران ويسمران ، ولما خيم الصمت على الحجرة قالت منى : أكلمت عبير يا أبا خليل ؟

ـ نعم ، اتصلت بها وبهدلتها وهددتها بالحديث مع والدها ، وترضتني ألا أفعل ، ثم أنهيت الاتصال ، ثم عاودت الاتصال مخبرة أن حازما يرغب بالحديث معي ، فرفضت وأكدت تحذيري .. ولكن قبل مغادرة المكتب رن الهاتف ، وأنا أقف على الباب مغادرا ، فردت سلام ونادتني للرد على المتصل ، فإذا هو حازم ناصر، ويطلب مقابلتي أنا شخصيا ويترجاني لقبول هذه المقابلة .

ـ مقابلتك ! .. ما أوقحه ! لا حياء عنده !

ـ المهم أننا اتفقنا على اللقاء يا منى .

ـ اتفقتم !.. ماذا تريد منه ؟!

ـ سأسمع ما الذي يشاءوه منا.. ولا تخافي ولا تحزني يا عزيزتي .. هذا إنسان ضائع.. هناك مشكلة كما يقول ويطلب مساعدتي في حلها .. أريد أن أعرف ماذا يريد منا ؟!

ـ أمرك غريب يا عزيزي!

ـ علينا أن لا نأخذ الأمور بحساسية كبيرة يا عزيزتي الغالية.. فحياتنا

وسعادتنا وتفاهمنا أكبر منه .. وأنا مستغرب لهذه التصرفات الصبيانية .

صفنت منى لحظات ببرهان ثم قالت: أنا سأقول لك هاجسا في نفسي واستحيي أن أقوله .

اهتم برهان بكلامها وقال: هاجس ! .. احكي ؟!

ـ أنا منذ رأيت عبير في المكتب وأنا متوجسة خيفة منها .. وأظن أنها لم تدخل المكتب عن جهل وحسن نية .. فأخشى أنها تريد منك شيئا خاصا

ضحك برهان لهاجس زوجته وقال : أتعنين أنها تقصد الزواج مني ؟!

ـ يعني !

ـ لا ، هل هي غبية لهذه الدرجة يا منى ؟

ـ هذا ليس غباء .. هي امرأة فاشلة في الزواج .. وهي تريد زوجا وهي تظن بالاقتراب منك وبدعمها المالي لك سيكبر المكتب ورويدا رويدا تتزوجك .

قهقهة برهان لأفكار زوجته وخوفها وقال : هذا كلام أفلام يا منى ! .. يظهر أن الأفلام القديمة التي كنت تكثرين من حضورها تشوش عليك وتضع هذا الوهم في نفسك .. فخيالك القديم يستيقظ .

صفنت منى بكلام زوجها ثم قالت : أترى ذلك ؟!

ـ بكل تأكيد يا عزيزتي .. أنا لست طفلا لتغرر بي فتاة وتافهة مثلها .. أنا فلوسها لم تشتريني وأنا طالب ضعيف يأخذ مصروفه من أبيه .. ومعها سيارة وعطر وشلة .. فكيف اليوم وأنا مرتاح نفسيا ومبسوط وسعيد بزوجتي منى وخليل وزهرة ومحمد ؟.. لا تخافي أيتها العزيزة .. صحيح النساء ذات مكر وحيل ولكن ليس لهذه الدرجة .

ـ حسنا ، ومقابلتك لهذا الرجل؟!

ـ أقصد أن أعرف ما الذي يريده من طلب المقابلة ؟! .. لا أعلم بالضبط لماذا أنت خائفة وقلقة من هذا اللقاء يا عزيزتي ؟!

ـ أنا لست خائفة من المدعو حازم .. فهو ضعيف الرأي والشخصية أنا خائفة ممن يحركه ويسره

ـ لا أعتقد أن عبير بهذا الذكاء والتخطيط الذي تتحسسين منه .. إنها لا تفكر جيدا إنها تعمل وتنفذ فقط ، أنا راغب أن أعرف ماذا يريدون وما الذي إليه يسعون؟ .. هل يفكر هذا الغبي بأنه الممكن أنك سترجعين إليه ؟ وأين أبوه يا صاحبتي ؟

ـ إنه يعرف أنني متزوجة كما تذكر من رسالته السخيفة قبل سنوات ، ويعرف من هو زوجي عبير تسعى لشيء منا يا برهان !

ـ الأيام ستظهر ذلك .. وأنا فكرت بما حصل ، ومنذ التقيت بعبير أول مرة ولليوم بالهاتف

الأخير بيننا لم ألمس مكرا وحيلة .. يبدو لي أن في البيت عندهم مشكلة ما ، فدخول منى على الخط فجأة .. ربما يحدث شيئا ما .

ـ لم أفهم عليك !

ـ تخيلي معي لو أن مشكلة أو مشاكل بين حازم وزوجته التي هي قريبته كما سمعت منك يوما ما .. بل ابنة خالته أو لا أذكر ربما ابنة عمه ناسي الآن .. المهم أنها قريبته.. وهذه القريبة بالتأكيد تعرف قصة زواجه من منى ، ومحاربته لأهله من أجل الزواج منها والتفاصيل المعروفة لك .. هذه الزوجة غضبى من حازم .. فلقاء مع منى يوم افتتاح المصنع أمامها وأمام الآخرين .. ثم اتصال ثم لقاء .. تسمع هذه القريبة والأهل بذلك .. سيحدث قلق داخل العائلة .. فتعود للهدوء والسكينة وترقيع الموضوع .. ممكن أن يكون هذا صحيحا ؟!

ـ معقول ما تقول! .. فبمثل هذه الحركات والبلبلة تحدث ضجة وكلام وإشاعات عن محاولة السيد حازم العودة إلى مطلقته القديمة .. سخفاء !

ـ معقول ، وهذا الكلام ليس تخيلي أو من عندي ، أنا تحدثت مع فتاة عاملة في مكاتب الشركة عند عبير .. تعرفت عليها أثناء ترددي على دفاتر المحاسبة في الشركة .. فلما عدت للبيت قبل عودتك أنت وأمي تذكرتها وتحدثت معها مباشرة ، وبطريقتي الخاصة علمت منها أن حازما لديه مشاكل كثيرة داخل البيت وكثيرا ما تصل أخبار مشاكله مع زوجته أو أمه للشركة .. وكثيرا ما غضبت منه وهجرته لبيت أهلها ثم تعود ، تصلحهما الأختان أمه وخالته .. بل صرحت لي أن الأمور مرة وصلت بينهما للطلاق .. مشاكل كثيرة داخل البيت.. فرتبت الأمور على ضوء هذه المعلومات فوقع في نفسي أنه يحاول الاتصال بك لإرباك العائلة .. فأقنع أخته بدعوتنا لحفل الافتتاح ، ولكننا خيبنا رجاءه بعدم الذهاب، فلو ذهبنا للحفل لقاء عابر معك باسم الاعتذار تسري إشاعات معينة .. ففكر بعد الفشل بالاتصال .. تحدث إشاعات أن حازما جدد الاتصال بزوجته السابقة .. تصل المعلومات للزوجة والأم .. تعود الزوجة الغاضبة منه خاضعة خوفا من عودة منى لحياتهم من جديد .. فربما اتصل ممهدا لطلب لقاء.. الأخلاق

إذا فقدت عند الناس مشكلة، ويستسهلون كل الوسائل لارتكاب ما يشاءون .

ـ كلامك معقول إلى حد كبير .. وهذه سهلة إذا أحببت أن أتصل ببعض الصديقات القديمات وستحدثني بكل شيء مفصلا ولكن لماذا يريد اللقاء بك ؟!

ـ سؤال مهم .. ومربك لم رتبته وتخيلته .. وهذا سنعرفه من اللقاء .. وأنت اتصلي بمن يستطيع أن يمدك بمعلومات صحيحة وواضحة .. وعندما أذهب إلى اللقاء الذي سيكون يوم الخميس الآتي في نادي السبع بجعات المعروف تكونين جمعت لي معلومات مهمة .. للخميس باقي يومين حاولي .

وبعد صمت قالت منى : غريب تفكيرك ! .. ودور عبير في الموضوع ؟!

ـ بعد اللقاء سيتضح دور عبير وغير عبير .. فاصبري أيتها الحبيبة .. فحبنا أكبر من هذه التفاهات .. نحن لا نعيش في مسلسل أو فيلم يا حبيبتي .

ـ معك حق .. الوسواس مخيف أحيانا .

ـ هل ترين أنني أفرط بك بسهولة ؟ تضحك في وجهي امرأة لعوب أنسى منى وأضحي بسعادتنا .. فنحن نعيش حياة طيبة بفضل من الله تعالى .. هؤلاء أبناء القصور العالية والحدائق المعلقة حياتهم ضحلة بحث عن الملذات والمفاسد إلا من رحم ربك .. هدئي قلبك المضطرب منذ سماع صوت ذلك الرجل .. ما أخبار العم خليل ؟

تبسمت وهي تقول : عاتب عليك لأنك لم تأتِ معنا .

ـ معه حق لي أكثر من أسبوع لم أره .. سندعوهم الجمعة للغداء معنا ما تقولين ؟

ـ لا مانع لديّ وجاهزة لصنع أحسن وأطيب الطعام .

ـ لا ، سأوصي على طعام من المطعم .

احتجت منى على الاقتراح قائلة : لا ، لا .. أبو أحمد يحب طهي البيوت يا أبا خليل !

ـ أعرف ذلك ؛ لكني لا أحب إتعابك هذه الأيام ، فالحمل في أوله وهو متعب ومرهق ، وهنا يقولون يكون خوف على الجنين في مراحله الأولى .

ـ لا تهتم .. فسوف تساعدني أمي .

ـ كما تشائين .. أنا أستطيع أن أطلب من أختي أم محمد المجيء والمساعدة ، ولكن هذا سيضطرنا لندعوها للغداء معنا .. وأنا أريد أن أقصر الدعوة على أسرتك فقط أمك وأخوك وأبو أحمد .

ـ ادعها إذا شئت ، ويسرني فعل ذلك .

ـ لا ، أنا أريد أن أتحدث وأجلس مع أبي أحمد وحده .

ـ والله أنا أتعجب من هذه المحبة بينكما .. فكلما أجلس مع أمي ساعة يتردد اسمك على لسانه عشرات المرات .

ـ مسكين فقط يا منى !! رجل وحيد في الدنيا .. أهله تخلو عنه لما أصبحوا بشوات وكبار .. فلمس فينا الحنان والحب والإحسان والسماع والإصغاء لحديثه عندما يتكلم .. فأحبنا وأحس أنني كأخ أصغر له .

ـ بارك الله فيك ، فأمي دائما تدعو لك لحب أبي أحمد لك وفرحه بك .. والله يا برهان لقد عرفت رجالا كثرا شبانا وأصحاب أموال في حياتي القديمة قبل أن ألقاك وأتعرف عليك فوجدتك رجلا عجيبا فريدا كأنك لست من طينتهم .. مع أنك طبيعي في تصرفاتك وأقوالك وأفعالك وسلوكك .. لقد كنت قبل أن تتحدث عن عبير وحازم كنت أتخيل أن مؤامرة تحاك حولي .. مع أنهم لا يربطني بهم شيء .. قدر الله أن لا أخلف منه حتى لا يكون بيني وبينه رابط في يوم من الأيام ، ولا يوجد بيننا أي قرابة .. ومع ذلك لما سمعت صوته وتذكرته .. اشتعلت نار في قلبي وتهيجت مما يجري حولي ، ولكن تبسيطك للأمور أراح نفسي وروحي .. أنت رجل مختلف عن الآخرين .

ـ أنا رجل مثلهم ، ولكني زوج وحبيب وأستخدم عقلي قبل قلبي .. ربما لو إنسان غيري سمع أو حدث عن اتصال بين زوج وطليقته وهي على ذمة رجل آخر لهاج الشك والريب في نفسه ولعب الفأر في عبه كما يقال .. وظن أن شيئا يدور من ورائه .. فأنا إذا لم أعرف زوجتي وأخلاقها

وطبيعتها فهذا إقلال لعقلي .. المحاسبة والرياضيات مادة عقلية يا منى .. الحساب مادة عقلية معنوية فهي أفادتني في حياتي الواقعية .

ـ الله يجزيك الخير .. سأتصل ببعض الصديقات القديمات إذا استطعت أن أصل إليهنّ بعد كل هذه السنوات ..ثم أتحدث مع والدتي وادعوها للغداء .

ـ جيد .. وأفضل أن لا تذهبي للمكتب هذين اليومين لترتاح أعصابك.. لأ اذهبي .. اذهبي سأغير ترتيب خروجي من المكتب .. أنا خائف أن يأتي فجأة ويصيبك شيء .. انفعال غضب فيضر بك وبما تحملين في رحمك .. أنا أعرف من هي منى ؟! أما إذا كنت معك ستقوى عزيمتك وشجاعتك .

ـ أنا لا أخافه .. لكني لا أسمح لنفسي أن أتحدث معه بعدما غدر بي وتخلى عني وأصبحت زوجتك ..

ـ مشكلتك معه نفسية ، صدقي لو رأيتيه مرة واحدة ، ولم تكترثي به سينتهي كل هذا الإشكال النفسي يا حبيبتي .. الإنسان يخاصم ويعادي كثيرا من الناس ويراهم ويجالسهم ، فقط أول مرة بعد المشكلة يتوتر ويكثر من اختلاس النظر لخصمه .. وبعد حين ينتهي الموضوع ويصبح الأمر عاديا ؛ كأنهم لا يعرفون بعضهم بعضا .. فالإنسان يحضر جلسة ندوة يرى كثيرا من الأشخاص الذين يحضرون تلك الجلسة ، ربما رأى بعضهم أثناء الدخول والجلوس ، وبعد حين لا يعرفهم إلا إذا كان أحدهم لفت النظر خلال الندوة بسؤال ، بظهور موقف منه أو صورة من أحدهم تبقى عالقة في مخيلة الإنسان .. الإنسان يتزوج قريبة ابنة عمه ابنة خاله أو خالته وينفصلان بسبب معين فيلتقيان ويتحدثان ، وربما يتناسبان في يوم من الأيام بأولادهما طبعا .. حركة الحياة والعمر فيها صور وخيالات لا تخطر على البال .. فلو التقيت بذاك الرجل مرة فاجتهدي أن تكوني عادية غير متوترة لحظات ودقائق ولسوف يختفي من حياتك .. فإذا فعلت ذلك لسوف ترتاح نفسك وخوفك يزول .. وأنت كما كنت تقولين الشخصية الأقوى فلا تهابي .

ـ أنا خائفة على مشاعرك ، وأن تسيء فهمي ، وتظن سوءا ، ويدخل الريب والشك لقلبك

نحوي .

قال : لا ، هذا تفكير ساذج للغاية ، فأنا أكبر من ذلك ، وأنا أبني قراري كما تعلمين ـ وقد جربت ذلك ـ على يقين ودراسة وفهم .. ليس اعتباطا .. الموقف والمشهد المريب معروف .. لو ـ لا سمح الله ـ لو رأيتك مع رجل ، حازم أو غيره في وضع مريب ممكن أن يقوى الشك لديّ كأن أراه واضعا يده على شعرك على جبينك .. تجلسين جلسة مبتذلة .. فهذه صور تثير القلق وتزرع الشك في نفس الرائي .

ـ لا سمح الله أن أفعل ذلك . وضحكا معا .



ذهب برهان يوم الخميس عصرا حسب الموعد المضروب بينه وبين حازم إلى نادي السبع بجعات ، وفي إحدى صالات النادي جلس ينتظر ويبحث عن السيد حازم ناصر في المكان المتفق عليه ، ولم يطل الانتظار فبينما هو يراقب الداخلين والخارجين دخل شاب من سنه يتطلع ويتلفت يمينا وشمالا حتى تلاقت الأعين فاقترب منه الشاب وحياه باسما : السيد برهان محمود قام برهان وسلم على الرجل وقال : نعم .. تفضل يا أخ حازم .

جلس وقال : كيف أنت؟!

ـ تمام وأنت ؟!

ـ بخير.. أنا آسف جدا لهذا الإزعاج .. أكيد الأخت منى انزعجت وتضايقت من ظهوري المفاجئ في حياتها .

ـ أكيد يا أخ حازم .. ولا تنسى أنك تتكلم مع زوجها ، وأنت تجلس مع والد وأب أولادها .

ـ أعرف كل شيء يا سيدي! .. أعرف أنها زوجتك وأن لديك ثلاثة أطفال ، وأنها سعيدة بحياتها الزوجية معك .. الإنسان لا يستطيع أن يتخلى عن ماضيه بسهولة ويهمله !

ـ ماذا تريد منا يا أخ حازم ؟!

ـ ألا تشرب شيئا ؟!

ـ سنشرب .. المهم لماذا اتصلت بمنى ثم بي يا سيد حازم يا محترم ؟!

ـ لا تظن بي سوءا ، وإني أريد أن أخرب البيوت .. ولو كان لدي نية سوء لما سعيت للقائك .. أنا كنت أحب أن أسمع رأي منى في أمر دون علمك.. لا أريد أن يحصل بينكما مشاكل وزعل ولكنها خافت وأبت أن تفتح حوارا بينا .. منى تغيرت!

ـ رأي منى ! أفصح !

ـ اصبر يا أخي .. فمنى شكت لك ، أظن أنها خافت مني ، وظنت أني أريد أن أعيد الماضي .. أتحدث عن الحب الذي كنت أتحدث عنه قديما ، الحب قد مات في أمريكا مع الماريجوانا والكحول .. أنا آسف لهذا الكلام .. فاطمئن يا أخي .. فأنا أعرف أنها زوجتك ، ولكما أبناء ولا أسعى لشقاق بينكما ، فأنت علمت بالاتصال ، وأنا كنت أحاول رؤيتها في يوم افتتاح المصنع أحد مصانع أبي الجديدة .. علمت من عبير علاقتك بالشركة .. فلما لم تحضرا سعيت للاتصال فرفضت التجاوب ، وأنت لما علمت تحدثت مع عبير بعصبية وتهديد.. فاضطررت أنا للحديث معك ، وتم هذا اللقاء بناء على ذلك الاتصال .

كان برهان يسمع ويظن أن الشاب غير واع لما يقول مع أنه لم يشم منه رائحة خمر .. فكان دهشا ويصبر نفسه ويراقب حازما ويترقب ماذا سيقول ؟.. أشعل حازم سيجارة جديدة وقال : سأشرب شيئا .. أتشرب شيئا ؟

ـ قهوة إذا ممكن .

نادى حازم على النادل وطلب منه قهوة لهما ، وعاد ينظر لبرهان وهو شارد البصر، وتابع الحديث قائلا : اطمئن أنا لا أفكر بالعودة لمنى إذا تبادر لذهنكما شيء من ذلك القبيل .. ولا تظن أنني سأترجاك لتطلقها ، فهذا غير منطقي وغير سليم يا أخ برهان وصعب .. فالأسرة التي أنا منها ما زالت تكره منى .. بل يبغضونني لليوم بسبب هذا الزواج .

احتار برهان بعقل هذا الرجل ، وأحضرت القهوة فرشف رشفة وقال : ولماذا اتصلت بها إذن؟!
إذا لا يوجد عندك مثل هذه الخواطر الرديئة !

ـ الرديئة !.. المشكلة يا سيد برهان كما قلت قبل دقائق إنني كنت أرغب أن يكون الموضوع بيني وبينها .. هو لا يخصك ولكن الأخت عبير طلبت مني أن أتحدث معك مباشرة قائلة منى القديمة التي تعرفها يا حازم ليست منى التي تزوجت برهان .. فاتصلت بك بعد تفكير وتردد وقلق خاشيا أن تسيء فهمي وقصدي

يكاد الصبر أن يفقده برهان فقال : يا رجل ادخل على المشكلة التي تريد أن تتحدث عنها .. ها نحن تقابلنا لنرى ونسمع .

ـ جيد! .. لابد أن منى ربيع زوجتك اليوم ، وزوجتي سابقا حدثتك عن ماضيها وكيف تزوجنا وكيف تطلقنا ؟

قال برهان بضجر وضيق : نعم ، أعرف كل شيء .. وأنك كنت مغرما بها وضحيت برضا أهلك من أجل الزواج منها .. أعرف كل هذا .

ـ لا تتعصب يا عزيزي.. المهم أنك تعرف ، جيد هذا .. ولابد أنك تعرف أيضا أن والدي ناصرا حاربنا بعد الزواج مباشرة وطردنا من العمل في شركاته .

ـ أعرف هذا أيضا .. وإنكم قمتم بفتح مصنع مواد غذائية ، وإنه فشل بعد زمن يسير .

ـ جيد .. جيد .. أنا أريد الوصول لهذا المصنع التعيس .. المصنع يا حبيبي هو المشكلة ، وكنت أريد الحديث مع السيدة الفاضلة منى ربيع من أجل المصنع .. كنت أريد أن أسمع كلامها من دون علمك حتى لا أسبب لها مشاكل ومعاناة معك .

ضجر برهان وقال بغضب مكتوم : ما هي المشكلة يا سيد حازم ؟!

ـ المشكلة .. هي مشكلة .. سأقول ما هي المشكلة ؟

ـ لا تتردد إذا كانت هناك مشكلة سأساعدك قل ما هي المشكلة ؟!

ـ جيد .. لما أنشأنا هذا المصنع ـ يا أخ برهان ـ احتاج لمال لاستئجار المبنى ، ومال لشراء سيارات

توزيع .. مال للعمال والفنيين .. مال لشراء الماكينات .. مال لدفع الأجور .. مال لشراء المواد الخام .. وأنا ومنى لم نكن نملك المال الكافي لمشروع طموح .. فبعد تفكير كامل أخذنا بعض القروض من مؤسسات مالية .. وتم إنشاء شركة بيني وبين منى ، وسجلت رسميا واستأجرنا أرضا صناعية ، وتم تركيب مباني جاهزة عليها وقيام عنابر فوقها .. وتم شراء الماكينات بالتقسيط ، وكل ذلك بالقروض التي حصلنا عليها.. واشترينا أربعة سيارات للنقل والتوزيع وبالتقسيط أيضا ..وكانت القروض والمشتريات تزيد عن مائة ألف يا صاحبي ، منها قروض نقدية حوالي خمسين ألف .. خلال أربعة وخمسة شهور بدأ العمل والإنتاج ؛ لأن ماكينات العمل اشتريناها من السوق المحلي .. وهذا الإنتاج مطلوب منه كما تعلم ولأنك تشتغل بالمحاسبة والتدقيق مطلوب منه أن يغطي تسديد القروض البنكية وأقساط الشركات الأخرى ، الشركات التي أخذنا منها السيارات والماكينات ومواد التصنيع وأجور العمال والمهندسين .. وبعد حين تبين لنا ضعف التسويق للمنافسات الأخرى في السوق ، ولكثرة الصيانة في ماكينات المصنع فقد صار عندنا عجز في التسديد ، وبعد سنة فشل المصنع فشلا ذريعا ، ولم نغطِ الديون فأحبطنا إحباطا كبيرا .. ترك العمال والمهندسون المصنع المنهار لتأخرنا المتكرر في صرف رواتبهم .. شركات توريد مواد التصنيع امتنعت عن التوريد إلينا .. بعنا بقايا المصنع .. آلات المصنع أصبحت مستعملة وبيعت بهذه الصفة .. سيارات المصنع أصبحت مستعملة.. أرض أعيدت لأصحابها .. المهم بقي لشركة السيارات حوالي عشرة آلاف من ثمن السيارات .. وشركة استيراد الماكينات حوالي عشرين ألف .. سددنا باقي حساب القروض البنكية من تصفية المصنع .. أمام هذا الواقع المرير هربت إلى أمريكا آملا بالعمل والنجاح في بلاد الدولار.. كانت كل القروض والمشتريات باسمي الشخصي وحدي يا برهان .. اتفقت مع هؤلاء الدائنين أن تدفع لهم منى الأقساط حتى أرتب أمري في أمريكا ..وهناك وبسرعة تعلقت بالمخدرات ، فلم أتمكن من العمل ، ودبت بي الهموم والأسقام .. اتصل ابن عمي الذي ساعدني بالوصول إلى هناك بأهلي لأني دخلت المستشفيات كذا مرة .. أهلي طالبوني بتطليق زوجتي

لإعادتي إلى حضن العائلة ، لم يكن أمامي إلا الاستسلام لهم ، فحصل الطلاق هناك حسب طلبهم ، وقام محامي والدي بالاتصال بمنى وجرت إجراءات الطلاق المعروفة .. وأحضرت إلى هنا وتمت معالجتي في أحد مراكز علاج الإدمان مع أنني لم أدمن بعد .. وأنا في فترة الأحداث والهروب نسيت قروض السيارات الأربعة والماكينات .. ومنى التي اشتغلت وتعهدت بالسداد حتى أدبر أمري ، فبعد الطلاق لم تسدد أي دفعة ، ولم تهتم ولم تشعرني بذلك ، وأنا لم انتبه لذلك مع تسارع الفشل والحياة عندي يا سيدي المحترم .. وبعد حين اتصلت بي هذه الشركات .. ولم علموا بإدخالي مركز المعالجة تريثوا إلى حين ، وطلبت منهم عبير أن يصبروا حتى أتعافى.. فصبروا على أمل تحصيل حقهم وأموالهم .. ولما تعافيت من تعاطي المخدر وخف تعلقي بها .. رتبت الأمور معهم وبالمبلغ البسيط الذي يهبه لي والدي آخر كل شهر أسدد هذا وهذا .. ثم زوجوني بقريبة لنا .. وأمضيت سنوات وأنا جليس البيت والملهى إذا سمح لي بالخروج .. ثم علمت بزواج منى من بعض الرفاق .

ـ لم نصل للمشكلة بعد ؟

ـ اقتربنا يا سيدي .. لشح ما أحصل عليه من أبي لم أعد أسدد كثيرا من الديون المكتوبة عليّ لهذه الشركات .. ورفض والدي مساعدتي أكثر من مرة ، وكذلك أمي وعبير وكل إخوتي .. وحتى زوجتي وأهلها .. الكل يقول لي من ورطك في الديون والمصانع فليسدد عنك .. أمام هذا المنطلق كنت أدفع شهرا لهذا وشهرا آخر لذاك .. وبعد تفكير وضغط اقتنعت يا سيدي أنه يجب على منى أن تساعدني في تسديد الديون لأننا شركاء وهي تعرف هذا .. فأنا حاولت أن أتحمل تسديد الدين وحدي .. ولكنني ضعيف وعاجز .. فهذه المشكلة التي دعتني أحاول اللقاء بمنى ربيع .. يا أخ برهان .. علينا ديون قديمة ونحن اشتركنا في الحصول عليها ، فلا يجب أن أتحملها وحدي ، وهي التي دفعتني لهذه المغامرة الكبيرة .. وهذا سبب محاولتي الاتصال بها دون علمك وبعد هذه السنوات الخمس أنا لم أسدد لليوم إلا خمسة آلاف دينار ، والباقي مبلغ كبير يزيد على العشرين ألف .. جزء منه لشركات بيع السيارات وجزء آخر لشركة بيع

الماكينات الصناعية .. فهم يقولون منى شريكتي في الشركة فعليها أن تساعدك في تحمل هذا الدين ! .. أنا يا سيدي لو كنت أملك هذا المال لدفعته ، ولم تسمعا صوتي أنت ولا منى .. فنحن مستعدون ـ قصدي أهلي ـ لخسارة مليون على طاولة القمار ولا ندفع فلسا لآخر ولو إحسانا .. ماذا يا سيدي أفعل؟! أنا لا أعمل منذ عدت من أمريكا .. أنا مريض منهك البدن .. جلسات علاج طبيعي مستمرة .. مراجعات للطبيب النفسي كل شهر .. راتب ضئيل صدقة من الوالد لا تستغرب ما أقول !.. أنا بزواجي من منى غصبا عنهم وهم يعادونني ؛ كأنني ارتكبت جريمة كبرى .. لا أدري لما يكرهوننا لهذه الدرجة .. يرون أنها هي التي دمرتني وعلمتني تعاطي الأفيون والحشيشة وحب الهلوسة .. وحتى الخمر التي تملأ بيوتهم.. هذه هي المشكلة يا سيد برهان .. علينا أموال وعلينا تسديدها.. فقل لمنى إن هذا سبب محاولة الحديث معها أو اللقاء بها .. لا سبب غيره .. كنت أحب سماع رأيها وقولها دون أن تعرف أنت .. لنتصرف .. ولكنها تحسب لك ألف حساب وتخاف أن أثير في نفسك الشك فهربت من الإجابة .

فكر برهان تفكيرا عميقا وهو يسمع المشكلة ، وقد أدركها عقله واستوعبها، ثم قال: أخ حازم حذرها مطلوب .. والحل بسيط أنا سأزور هذه الشركات التي اشتريت منها الماكينات والسيارات وأنظر كما دفعتم وكم بقي .. المهم أن البنوك حساباتها مغلقة .

ـ البنوك حسب علمي أن حساباتها قد سكرناها من المبيعات الأولى ، ثم من تصفية أموال الشركة.. ومن حقك أن تتأكد من ديون الشركات ، وأنا في خدمتك .. وحاول أن تساعدنا في حل المشكلة ، فكما أنا عليّ دين فعلى منى مثله .. فنحن شركاء يا سيد برهان .

ـ لا أنكر أنكم شركاء في الدين .. دع المشكلة عندي.. سأعرف مقدار الدين بالضبط أنت عليك النصف وعلى منى النصف .. أليس كذلك ؟

ـ نعم يا سيدي الشركة باسمينا ، المتبقي يزيد على العشرين ألف .. وأنا سددت خلال هذه السنوات ما يقارب الخمسة آلاف دينار .. وكانت منى قد سددت بعض الدين عند سفري لأمريكا.. ولما حصل الطلاق لم تعد تدفع شيئا .. سأعطيك عناوين الشركات وأسماءها

التجارية وانظر في دفاترهم .

ـ أعطني فقط أسماءها ، فكثير من الشركات أعرف عناوينها ومقراتها ومواقعها .. ستتعاون معك في حل المشكلة مشكلة هذه الديون يا أخ حازم .. وهذا من حقك أيضا ..

ـ صدق أتيت إليك وكلي خوف وحرج .. وأنت لا ذنب لك في هذه الديون .. وستقول أصحاب الملايين يعجزون عن تسديد مبلغ بسيط تافه .

ـ لا حرج عليك يا صاحبي .. وهم لا دخل لهم في تسديد ديون قديمة .. ولو فعلوا لكان كرما منهم .. ستحل المشكلة بمشيئة الله .. إن شاء الله أنت مرتاح في حياتك الزوجية ؟!

ـ حياتي الزوجية !

ـ نعم .

ـ أنا حي ميت يا أخ برهان .. أنا مثل الدابة أو قطة عند أمي .. آكل وأشرب وأنام .. أنا زوجوني بعد تحسن صحتي من ابنة أخت أمي ابنة خالتي ويا ليتني لم أتزوج .. إنهم بعدما عالجوني من تورطي في المخدرات زوجوني سريعا حتى أنسى امرأتي المطلقة حتى لا أفكر في يوم من الأيام بالاتصال بها والعودة إليها ، هذا قبل أن تتزوجك .. خافوا أن أعود إليها .. زوجوني بهذه الفتاة التي كانت أبغض امرأة عندي في هذه الدنيا .. نحن نعرف بعض بحكم القرابة .. المهم يا سيدي أني رجل بغير إرادة .. مسلوب الإرادة عليل .. زوجوني وسكنت مع أمي وزوجها .. تخرج هي للعمل ، وأظل أنا الرجل في البيت حتى تعود في المساء .. نخرج لزيارة أمها .. أختها وأحيانا كثيرة تذهب وحدها.. إنها فقط شريكة في غرفة النوم وأحيانا كثيرة أهجر هذه الغرفة وأنام في زاوية من زوايا البيت الواسع .. ولدت لي ولدا سميته جلالا أو قل هي سمته .. من جلال لا أدري قد يكون اسم صديق لها ، وقد يكون اسم عشيق لها .. لا أدري .. لم أحبه .. لا أدري لماذا ؟ وقبل أيام ولدت لي المولود الثالث وسميناه ناصرا .. تريد أن تنافق لأبي ؛ ولكنها ولدته عند أمها .. فلها شهور أو قل منذ حملت وهي تعيش عند أمها .. طبيب داخل وطبيب خارج ..المهم أنا اسمي زوج .

وصمت لحظات يتأمل فيها برهان وعاد يقول : أكيد أنت سعيد جدا مع منى .. فهي امرأة نشيطة ومخلصة !

ـ الحمد لله رب العالمين .. سأهتم بمشكلتك يا أخ حازم واعتبرني صديقا لك .. وستكف الشركات عن مراسلتك والاتصال بك .. ولكن قل لي .

ـ ماذا أقول ؟!

ـ قل لي .. هل تملك ما تسدد به حصتك من الدين ؟

ـ ليس لدي رصيد .. رصيدي صفر مكعب ..أنا يصرف لي خمسمائة دينار آخر كل شهر يا أخ برهان .. لا تكفيني خمرا وسيجارا .. جلسة واحدة في مطعم تكلف خمسين دينارا أو تزيد

ـ ألا تلعب القمار؟!

ضحك حازم وقال : هذه المشكلة الكبرى يا صاحبي .. القمار مرض أشد من الخمر .. القمار تعلمتها منذ المراهقة .. وما الذي ساعد في تدميري إلا القمار!

ـ أكانت منى تلعب القمار عندما كنتم تديرون المصنع ؟

ـ لا أدري .. صدق أنني لا أعلم .. أنا ألعب القمار وأمارسها ولكن ليس باستمرار وشراهة قماري هي مبالغ بسيطة .

ـ أتمارسها اليوم ؟

ـ عندما تسنح لي فرصة للالتقاء بالأصحاب .

ـ نعود للدين ، كيف ستسدد حصتك من الدين يا صاحبي ؟!

ـ سأسدد كما أسدد اليوم .. أدفع شهرا وشهرا آخر لا أدفع .

ـ لأ ، يا حازم نحن نريد أن نخلص من هذا الدين حتى لا يعد لديك حجة للاتصال بمنى .

ـ صح معك حق ! .. تحدث مع عبير فهي تتدعي أنكما أصدقاء قدامى !

ـ صديق أيام الجامعة فقط يا حازم .. درسنا في كلية واحدة .. وأخذنا بعض المواد الدراسية معا .. وهي كانت تسبقني بسنتين .

ـ تكلم معها .. تسلفني حصتي وتخصمها من راتبي .. فهي التي تعطيني الراتب ؛ لأنني كنت ضمن كادر الشركة التي تديرها .. فهم يعتبرون أنني ما زلت أحد موظفي الشركة !

ـ جيد ! .. سأتفاهم وأتفق مع عبير إن شاء الله .. فلما أعرف المبلغ المتبقي عليكما عند إغلاق المصنع وتصفيته سأتصرف.. لو أنكم بعتم المصنع نفسه بماكيناته وسيارته وخسارته لإدارة جديدة ربما هم تحملوا الدين .

قال : لم يتيسر يومذاك مشتر يا سيدي الفاضل .. وكان الوضع النفسي لنا سيئا والفشل والإحباط كانا قد دمرانا .. ومعاداة أبي كانت أهم أسباب الفشل الذريع لنا.

ـ حسنا يا حازم سأدقق الحسابات القديمة، وأنظر كم دفعت منى قبل أن تطلق وتكف عن الدفع ؟ وكم دفعت أنت خلال هذه السنوات وبعد الطلاق .. وأرتب الأمور مع عبير ومعك فإذا دفعت عنك عبير انتهى الموضوع بيننا وبينكم .. وإذا لم توافق عبير على إسلافك المبلغ لتغطية دينك وحصتك .. سأضطر أن أذهب بك للشركتين وأدفع أمامك حصة ونصيب منى لكل منهما ، وأنت تسدد ما عليك كما تشاء ، ولا دخل لمنى في دينك الباقي يا سيد حازم .

ـ افعل ما تراه مناسبا .. ولنبق أصدقاء يا أخ برهان .. أنت رجل عملي وفهمان .. وأنا حقيقة كنت قلقا من اللقاء بك ومترددا أقول لنفسي ما دخلك في دين قديم على امرأة لم تكن زوجتك أيام إنشاء الدين ؟

ـ أنا وزوجتي اليوم شيء واحد .. وهي مسؤولة الآن مني.. وهذا حق ودين عليكما معا .. نحن لا نرض بأكل الحرام .. وشكرا على ثنائك لشخصي .. ولكن صداقتنا لا تنفع يا أخي فأنت من بيئة وأنا من بيئة .

ـ مضبوط يا سيدي ، ولولا أن تفهمني خطأ لقلت إنني أتمنى أن أكون لك صديقا دائما ، لكن عدني واسمح لي أن أتحدث معك كلما احتاج لمساعدة منك .

ـ افعل يا حازم أنا تحت أمرك .. كلما تواجه مشكلة وتحتاج لمشورة اتصل بي .. وإذا تحب أن أتحدث مع والدك من أجل أن يساعدك في تسديد الدين عن حصتك فأنا مستعد .

ـ لا .. لا .. تكلم مع عبير ، وإذا لم توافق فالحل الثاني مقبول عندي .

ـ والآن سأدعوك للغداء معي يا حازم .. ولولا الحساسية التي قد تسببها لنا يا سيد حازم لاتخذتك صديقا وقبلت صداقتك .. أنت إنسان مسكين .. بس تعلقك بعادات قبيحة من شرب خمر وقمار وتدخين يضعفك ويضعف إرادتك ، وما تراه من علة وهوان هو بسبب ذلك فلو أنك تبتـعد رويدا رويدا عن هذه الرذائل ستتحسن صحتك ويصحو عقلك وتصبح رجلا بمعنى الكلمة .

ـ فكرت بذلك ونصحني بعض المخلصين .. ولكن لا حياة لي إلا بالخمر والدخان .. ألا تسكر منى زوجتك ؟! .. على علمي أنها تعلمت ذلك .

ـ الحمد لله لقد تابت عن كل ذلك ، تابت عن الخمر والتبغ والعري.. بل تركت الخمر قبل عقد القران ..

ـ تحسد على ذلك ، لقد تخلصت من هذه السموم .. الحمد لله منى إنسانة عظيمة .. أخ برهان أنا أزداد بك إعجابا .. بل صبرك عليّ كل هذا الوقت زاد من اعترافي بشهامتك وتحملك .. ألم تتزوج قبل زواجك منى ربيع ؟!

ـ هي أول امرأة تدخل قلبي .

تنهد الشاب العليل بعمق وقال : ليتنا كنا نعرفك أيام زواجنا يا برهان ؛ ربما وقفت بجانبنا .

ـ لا تأسف على ما فات .. الحياة أمامك يا أخي .. من المهم أن تتوب وتترك هذه الأشياء القبيحة التي تهلكك وتدمرك ، وابدأ من جديد بعزم وقوة وستتغير وتتحسن صحتك وإرادتك

ـ ولكنهم يفعلون مثلي يا برهان ومع ذلك هم أقوياء وأثرياء وأشداء .

ـ الناس قدراتهم متفاوتة ، وأنت تعودت أن تعتمد على غيرك .. فلما حاولت أن تعتمد على نفسك لم تنجح ولم تفلح .. لضعف القدرة التفكيرية عندك وتعودت أن توجه من قبل غيرك

ـ كانت معي زوجتك !!

ـ صحيح يا حازم ، ولكن منى كانت موظفة مكتب! ..لا تدري ما السوق وما المصنع ؟ .. وكانت مغامرة كبيرة منكما في ظروف نفسية حادة وشرسة .. وربما الأشخاص الذين استشرتموهم لم يكونوا ذوي خبرة كافية .. ولا يعني كلامي أن كل من يسكر لا يدير شركة وفاشل .. فكل هؤلاء الأجانب يسكرون ويملكون ويديرون شركات ضخمة .. فأحيانا الذكاء والمستشارون عندهم ذو فهم في الإدارة والنجاح .. وهناك عباقرة في الذكاء ولكنهم فاشلون في جمع المال .. فأنا أطلب منك ذلك شخصيا لأنك ضعيف الإرادة والتفكير، وذكاؤك مع الاحترام اللازم يا أخ حازم ضعيف كذلك .. فالاعتماد على الآخرين في إدارة حياة الفرد يضعف التفكير ويصبح مجرد متلقيا ومنفذا للأوامر والتوجيهات ..

ـ لا يسعني أيها الأخ إلا أن أشكرك وأنتظر تدبيرك .

ونهض الرجلان إلى حيث المطعم في نادي السبع بجعات ، وعلى إحدى موائد الطعام تناولا وجبة طعام على نفقة برهان الذي أصر على الدفع رغم محاولة حازم أن يدفع ، ولما انتهيا من الطعام كباقي البشر قال برهان : سأنصرف الآن .. وتحدث معي واذكر لي أسماء الشركات يا أخ حازم .

ـ أعرف أسماءها .

وذكر أسماءها لبرهان الذي دونها على قصاصة ورقية وعرف موقعهما ، وتصافح الرجلان ثانية واتجه كل منهم حيث تقف سيارته .

وهكذا افترق زوجيّ منى ربيع الأول والثاني بعدما التقيا ، وصل برهان البيت بعد العصر وقبل الغروب بساعة ، فقد طال اللقاء بمن كان زوجا لامرأته التي كانت تنتظر عودته على جمر ، فما كادت تراه يدخل مسلما حتى ازداد اضطرابها وهي لا تدري كيف تفسر هذا التوتر ولما خلع الجاكيت قالت : تكلم !!

ضحك من توتر أعصابها وقال : بماذا أتكلم ؟! اطمئني لا شيء مما تحدثنا به .. فهو إنسان مسكين ، وما زال يعاني من زواجه بك .

ـ يعاني ! لم أفهم !

ـ سأفهمك بكل شيء . قال: هل تغديت ؟!

ـ نعم ، مع زوجك السابق .

ـ مع زوجي السابق ؟!

ـ أليس هو زوجك السابق وشريكك السابق في المصنع ؟

ـ برهان ! .. تكلم لترتاح أعصابي .

ـ فلترتاح يا سيدتي .. هناك مشكلة قديمة من أيام الشركة .

ـ مشكلة قديمة من أيام المصنع لم أفهم ؟!

ـ حسنا ، سأفهمك ولكن بعد إحضار كوب من الشاي المعروف لك .

احتجت وقالت: هذا وقته يا سيدي العزيز! تلعب بي! تكلم قبل أن تشرب الشاي .. لنشربه معا .

ـ جائز !

جميلة في المستشفى

نهضت منى لصنع الشاي بعد أن طمأنها برهان ، وقبل أن يشرع برهان بالحديث مفصلا عن مقابلته لحازم رن جرس الهاتف في البيت ، وكان المتصل مالك شقيق منى وبعدما استمع لكلام مالك قال : نحن قادمون .

وضعت منى صينية الشاي على منضدة وتسألت برأسها فقال : الحاجة جميلة ما زالت مريضة

ـ تحدثت معها ظهرا وطمأنتني .. هل حدث شيء؟!

ـ لا أعلم ..المهم أن مالكا يريدنا.. وقال إن الطبيب المعالج خرج من عندهم قبل قليل .

قام برهان فارتدى الجاكيت وجلس يشرب الشاي وهو يقول: جهزي نفسك للخروج وجهزي الأولاد .. أو دعيهم عند أمي أو أختي .. ثم الحقي بي عند السيارة سأشرب الشاي وأنزل .

ـ إنني خائفة على أمي يا برهان!

ـ مم؟! .. هو إذا دخل الطبيب على أمك ستخافين .. ما هو كل يوم يدخل .. الكل يمرض يا عزيزتي .

انصرفت منى لتلبس ثياب الخروج ، وتجهز الأولاد وتخيرهم إما مرافقتهم عند جدتهم المريضة جميلة ، وإما بقاؤهم عند جدتهم السليمة ، شرب برهان الشاي وخرج يجهز السيارة .

وبعد عشر دقائق أو ربع ساعة كانت منى تجلس بجواره وهما ينطلقان نحو حي برقوقة ، وفي الطريق فصل لها برهان لقاءه بحازم ، فتذكرت منى ذلك الدين، واعترفت بوجوده وأنها نسيته وأهملته بعدما أتتها ورقة الطلاق ، وقالت : أنا لما طلقت نسيت أمر هذا الدين .. ولم يخطر ببالي لليوم ، والآن عندما سمعته منك تذكرته .. وعبير لم تشر إليه كما حدثتني عندما عاتبتها .

ـ هي أكيد تعرف بالمشكلة وتركت الأمر لحازم .

ـ لو أنها ذكرت شيئا لذهبت كل الظنون التي خيمت على عقلي وقلبي .. وماذا ستفعل؟!

ـ سأدبر الأمر، ووضعت الحل بين يدي حازم .. ولما نطمئن على الحاجة جميلة ـ إن شاء الله تعالى ـ نحل مشكلتنا الخاصة ، وهي محلولة بمشيئة الله تعالى .

ـ جزاك الله كل خير أيها الأمير .. لولاك لكنت ...

ـ لا داعي للولاك .. فنحن شيء واحد ، ودينك هو ديني ، وجزاك الله أنت خيرا .. ألم تأتيني بثلاثة أولاد والرابع على الطريق .. ؟

ـ المبلغ كبير!

ـ سعادتنا أهم من المبلغ .. وأنت عاملة عندنا ولا تأخذين راتبا لليوم بل جعلته من الأرباح ..لا تنزعجي ولا تتألمي أحسن أتضايق أنا .. فالمال خلق لقضاء الحاجات وحل المشاكل .

ووصلوا لحي برقوقة ودخلت السيارة الشارع الضيق الذي وصفناه في أول القصة ، فوجدوا سيارة سعد الدين أيضا أمام البيت ، فركن السيارة بجوارها وهبطا منها واتجها إلى بيت المعلم خليل ، فتلقاهم مالك باسما ومعتذرا عن الإزعاج ، ولما دخلوا على الحاجة المسجاة على سريرها حيوها ، وتقدمت منها منى وقبلت يدها ، وكان خليل يجلس على كرسي قريبا من رأسها ، ولما رأى برهان نهض مصافحا ومعانقا له ، ثم سلم برهان على أم زوجته داعيا لها بالعافية والصحة ورافعا من روحها المعنوية ، ثم بعدما صافح سعد الدين ، وحيا حنين جلس على كرسي قدمه له المعلم خليل الذي عاد يجلس بالقرب من رأس جميلة التي كانت تهمس بصوت ضعيف تعتذر عن إزعاجها لهم ، وهم يجاملونها ويدعون لها بالخير والسلامة ، ثم خرجوا يجلسون في صالة البيت ، ولما هدأ المكان قال برهان مخاطبا مالكا وسعد الدين : ما دام الدكتور قال ادخلوها المستشفى فلتفعل يا مالك وأنت يا عم خليل

قال مالك: إنها ترفض ، وترى أنها وعكة عابرة .. أمي تنسى السن والضعف البشري، وتقول إنها ستذهب في الصباح للمستشفى ، وتأخذ الصور والتحاليل الطبية المطلوبة وتعود ، لا تريد المبيت بأي مستشفى .. والطبيب يرى أنها تحتاج لإدخال الليلة للمتابعة تحت الأجهزة فالقلب ضرباته غير منتظمة .. ويضيق النفس عندها كثيرا .. حاول يا برهان ! فقد حاول سعد وحنين منذ دخلا إقناعها بالذهاب وتهز رأسها بالنفي .. ونحن ما زلنا في المساء وعلى وشك دخول الليل حاول يا برهان !

قالت منى وقد خرجت من عند أمها من لحظات فقال برهان : آيا منى .. كيف عمتي ؟!

ـ لا تتكلم .. بعدما خرجتم لزمت الصمت ، وتحرك شفتيها فقط ، وتفتح عينها وتغمضها ، وحنين تقول إن الطبيب طلب إدخالها المستشفى وهي ترفض .

التفت برهان لخليل أحمد وقال : يا أبا أحمد ما رأيك أنت؟!

ـ أنا ؟!

ـ طبعا أنت!

ـ أنا يا ابن أخي لا مانع عندي ، فصحتها غالية عليّ ، كما هي غالية على مالك والبنات وعليكم كلكم .. أتشكون في ذلك؟

ضحك برهان وقال: أيشك أحدنا؟! فكلنا يعرف ما تعني لك العمة جميلة .. ولكن لو أنك أنت ترجيتها أن تفعل ستطيعك .. فلك معزة عندها يا أبا أحمد .

ـ لقد فعلت قبل أن تأتي ولكنها خائفة .

ـ أنت زوجها لو ضغطت عليها بكلامك ستفعل.. أتقصدون مستشفى معينا ؟

قال مالك: الطبيب عسيب محمد يعمل في مستشفى (الإيمان) وهو الطبيب الذي تراجعه أمي منذ سنوات إلا إذا كان عندك مستشفى آخر .

ـ أنا سأتحدث معي أخي عبد القادر ، وأسأله عن أفضل مستشفى لمتابعة مشاكل القلب والتنفس .

قال خليل : تكلمه قبل موافقة جميلة .

ضحك برهان وقال : يا عم خليل ! موافقة جميلة قصدي عمتي جميلة عليك أنت .. صح يا سعد ؟!

قال سعد : هذا أقل شيء يقوم به العم أبو أحمد البركة .

قال خليل مستسلما : أمري إلى الله سأحاول مرة أخرى .. عسى أن توافق عندما أنقل لها قرار أولادها وأنسابها .. تعالي أنت يا منى فلنحاول وها هي حنين عندها

فقام برهان وهو يقول : وأنا ذاهب للحديث مع الدكتور عبد القادر .

فقال مالك : أين ستذهب ؟. التلفون موجود هنا .

ـ أنا عارف أنه موجود هنا سأذهب إليه .

اقترب برهان من جهاز الهاتف المركون في إحدى زاوية الحجرة ، واتصل بأخيه الطبيب عبد القادر ، وحدثه بضع دقائق ، ووضع سماعة الهاتف والتفت لمالك وسعد الدين قائلا : يقول أخي عبد القادر إن المستشفى (الإيمان) لا بأس به مقبول وفيه أجهزة حديثة .. قوموا ندخل على العمة لنرى هل يقنع أبو أحمد حرمه بالدخول للمستشفى بضعة أيام ؟! .

لما دخلوا وجدوا الجميع صامتين وبعد السلام قال برهان : مالكم صامتون ؟! .. هل فشل العم أبو أحمد بإقناع زوجته الفاضلة أن تهتم بصحتها وعافيتها وتدخل المستشفى بضعة أيام لمراقبة قلبها الحنون ؟

قالت حنين وهي تمسح دمعة خرجت من بين رموشها : للأسف يا أبا خليل أمي مصرة على البقاء في البيت ، وأن وضعها لا يحتاج لمستشفى .. لا تريد أن تفهم أن القصة هي إجراءات وقائية ومراقبة لمشاكل في القلب بضع ساعات تحت أجهزة عناية دقيقة .. حاول يا برهان !

فرفع برهان من صوته قائلا لتسمع عمته : أخشى أن تكسفني عمتي الطيبة فدعوها على راحتها أو لننقل المستشفى للبيت .

فتحت جميلة عينيها المسبلتين من الإرهاق أو النعس وغممت ببضع كلمات تبين فيها أن برهان لا يكسف ولا يرد طلبه ، ففرحوا بذلك الكلام فهتف سعد الدين: ما دام يا خالتي الطيبة أن البرهان هذا لا يكسف ولا يفشل .. ولا يرد فقومي البسي ولنذهب بك للمستشفى حتى نطمئن عليك ، ويطمئن مالك وأم خليل وأم سعدي .. وأولنا الحاج أبو أحمد .. فنحن سنبقى في قلق وسهر ، وهناك بعد مراقبة ضربات القلب وعضلة القلب فهم أهل الاختصاص سيقررون أن تباتي أو لا تباتي .. فنحن نريد أن نطمئن عليك يا أم ربيع كيف سنعود لبيوتنا وننام؟ ونحن لم نطمئن على صحتك الغالية يا أغلى حماة في العالم .. وأنت تعرفين خوف الأبناء

والبنات .. فعندما نعود للبيت ستبقى حنين على خوف وقلق اتصل يا سعد اتصل يا برهان .. وتقول أمي أمي .. سأقوم وأتصل .. آ يا مالك آ يا عمي خليل كيف الحاجة ؟!..سنقضي الليل في إزعاج لكم وسيظل التلفون يرن طول الليل .

قال برهان : والله يا عمتي بعد كلام أبي زكي لم يبق لك حجة .. وهو كلام منطقي يا أم ربيع وإذا اتصلنا بربيع سيضطر لأخذ إجازة .. أنت كنت ترين كم كان يوصينا عليك كلما أراد السفر.. هيا يا عمة يا بركة .

أمام إلحاح الأسرة استسلمت الحجة جميلة لرغبة الجميع ، فدمعت عينيها من التأثر بكلامهم ومشاعرهم ، وركبت سيارة مالك بعدما جهزت للخروج ، وأغلقوا الدار وانطلقوا للمستشفى ، وبعدما تحدث مالك مع الطبيب عسيب الذي قال لهم: سأتحدث مع الإدارة وأنا قادم .

قاموا بإجراء اللازم مع هيئة الاستقبال من تقديم المعلومات الأولية للسيدة جميلة ، ولما وصل الدكتور عسيب المشرف على متابعتها ، قام هو وزملاؤه بإجراء المناسب وتركيب الأجهزة اللازمة .. وجلس الأخوة في قاعة قريبة من الغرفة التي ادخلوا جميلة إليها ، وكان القوم يتحدثون ويهمسون ويلهجون لها بالشفاء ، وبعد زمن خرج لهم الدكتور المختص عسيب وطمأنهم ، وطلب منهم توديع أمهم والعودة لبيوتهم ، ففعلوا وشجعوا الأم على الصبر، ولما خرجوا من الحجرة قال برهان لخليل: ما دام يا أبا أحمد أن الحاجة جميلة البركة سترقد هنا للصباح ما رأيك أن تذهب معي أنا ومنى للمبيت معنا الليلة وتحل علينا ضيفا ؟.. وأنت يا مالك ما تقول ؟

فقال سعد الدين : واحد عندك وواحد عندنا .

فقال مالك : لا أستطيع أيها الأحبة.. فعندي قضايا وملفات في البيت تحتاج لمراجعة .. أما يمكنني بعد اتفاقكم أن أذهب للعشاء عند أحدكم .. أو نتعشى عندك يا سعد ، ويذهب العم خليل مع برهان .. فالعم خليل لن يعرف الليلة النوم .. ولسوف ندعه يزعج برهان ومنى الليلة

لأنه كل وقت سيقول يا برهان يا منى اتصلوا في جميلة .. اتصل يا برهان في حماتك .
تبسم الجميع لمداعبة مالك وقال خليل : والله صحيح يا ولد ! .. عشرة عمر يا بني .. اقتراح مالك جيد ما رأيك يا أبا خليل ؟ .. خلينا نرى العم خليل .
ضحك الجميع فهم يعرفون حب خليل لسميه ابن برهان ومنى خليل الصغير كما يقولون عنه
فقال أبو خليل : وماذا ستفعل منى بالطعام
الذي صنعته اليوم ولم نأكل منه بعد؟!
قالت حنين : ألم تتغذيا منه ؟! آه يا منى ألم تغذي زوجك اليوم ؟!
ردت منى ضاحكة قائلة : اليوم قد تغذى البطل مع من كان زوجي السابق حازم ناصر!
دهش القوم للخبر وقال مالك : حازم ناصر .. ما الأمر يا برهان ؟!
وقال برهان وكأنه عاتب على منى : نعم .. نعم ، اليوم التقيت به في موضوع .. فأنتم تعلمون أن عملنا المحاسبي يدفعنا للتعامل مع كثير من الشركات والمصانع والمحلات والمتاجر .. ولنا علاقات عامة مع أشخاص .. وحازم ابن صاحب كثير من هذه الشركات ، فالتقينا به في نادي السبع بجعات وقسم الله لنا أن نأكل معا .
فقال مالك : مع حازم زوج منى السابق ؟!
قالت منى : نعم يا مالك مع السيد حازم شخصيا .
تبسمت حنين وقالت : هناك شيء يا أبا خليل ؟!
قال سعد الدين : طال وقوفنا .. تكلم يا برهان .
تكلم برهان بالموضوع صراحة، وكان يتكلم والقوم ينظرون لمنى ، وختم قائلا: هو ليس سرا إنما كنت أريد أن أحل الإشكال أنا ومنى ؛ ولكنها يبدو أنها تريد نشره للعائلة .
فقال خليل : وماذا ستفعل يا أبا خليل؟!
ـ اتفقت معه على الحل .. سأذهب يا عمي إلى أصحاب الشركات الدائنين وأعرف مقدار الدين كاملا ، وما دفع منه من قبل منى وحازم ؛ لأنه قبل طلاقها سددت جزءا منه ، وهو بعدما

رجع سدد جزءا آخر خلال هذه السنوات .. وسنرى كم حصة منى من هذا الدين وندفعها إن شاء الله .. والأخ حازم يسدد حصته ونغلق هذا الملف إلى الأبد إن شاء الله .

فقال سعد : لقد ذكرت أنه لا يملك شيئا .. فكيف سيغطي نصيبه ؟!

فأجاب برهان : هو يأخذ راتبا شهريا مقداره كما يقول نصف ألف من أخته عبير مديرة الشركة التي كانت تعمل بها منى عندما تعرفت عليه ، ولكنه يبذرها على لهوه وعبثه .. وسأتفق مع عبير أخته أن تدفعها عنه مرة واحدة لتغلق حسابه وتخصمها من راتبه .. وإذا لم توافق سأذهب به للشركة وأدفع حصة منى أمامه والباقي يدفعه هو بطريقته الخاصة .. المهم نحن نبرئ ذمتنا أمام الله .

قالت حنين وهي منفعلة من موقف برهان : أنت إنسان رائع جدا يا برهان ! .. أخلاقك عالية ومرؤتك كبيرة .. لو أن أحدا غيرك ربما تخلى عن امرأته في مثل هكذا ظرف وأزمة .. لأن المبلغ الذي سيدفعه سيزوجه مرة أخرى .. بارك الله فيك .. ونحن وسعد الدين سنساهم في تسديد المبلغ فمنى حبيبتنا .

أثنى الجميع على شهامة برهان بعد كلمات حنين مم أبكى منى وسقطت دموع بعضهم تأثرا ، وشكر برهان حنينا على كلامها في شخصه ، وأبدى امتنانه لهم جميعا على مشاعرهم واقتراحهم وقال : لا تنسوا يا إخوان أن منى تعمل في مكتبنا موظفة وهي شريكة في الأرباح مثلي ، وإن لم يكن لنا راتب محدد كباقي العاملين .

قال مالك مداعبا ومستفزا لمنى : أي شغل لمنى يا أستاذ برهان ؟

ـ إنها موظفة، ولها حق مالي ، وإن كان وقت دوامها قليل للرضاعة والحمل !

فقالت منى : نعم يا أخوة .. أنا أعرف أن هذا عبء جديد ألقيه على سيدي برهان ، ويمكنني أن أرفض الدفع ولو فلسا واحدا ؛ لأن الدين كله مسجل باسم السيد حازم وفي عنقه ، ولكن علمني برهان أن أضع مخافة الله بين عيني ، وأنا كنت شريكة لذلك الرجل في ذلك القرض وإن لم يكن باسمي .. وزوجي الفاضل والله وعد بتسديده قبل أن يحدثني بشيء ويستشيرني والله

ما علمت بتصرفه إلا بعد رجوعه من مقابلة الرجل ونحن سائرون إليكم ؛ لأن مالك اتصل ليخبرنا عن تعب أمي في دخول زوجي الفاضل البيت ، وأنا آسف لكشف الأمر لكم ولكن رأيتها فرصة لتعرفوا بأمر هذا الدين الجديد والذي يضعه برهان في عنقي

فقال برهان : يا ابنة الحلال لا داعي لمثل هذا الكلام ، فنحن شيء واحد وإن كنا جسدين .

فقال مالك : ونحن أهل .. ورضي الله عنك يا أخ برهان .. وقد طال بنا المكث أمام المستشفى وركبوا سياراتهم منطلقين لبيت سعد الدين ، وعنده تناول الجميع عشاء خفيفا وشربوا الشاي وأكلوا الفاكهة وسهروا لقرب نصف الليل ، وكانت منى أثناء السهرة قد تحدثت مع ممرضات المستشفى تسأل عن أمها فطمأنوها على وضعها ، ولما حان الانصراف قالت منى لبرهان : الآن الأولاد قد ناموا .. وشبعوا نوما .

وخرج مالك وخليل وبرهان ومنى عائدين لبيوتهم ، ولكنهم مروا على المستشفى قبل التوجه إليها ، فقيل لهم أن جميلة نائمة ، فأخذ برهان العم خليلا ضيفا عنده ، وانصرف مالك وحيدا للبيت معتذرا لأخته وصهره

وقضى خليل ليلة في بيت زوج بنت امرأته ، وفي الصباح حمله برهان إلى عمله ، ثم عاد للبيت وأخذ زوجته وانطلق بها إلى مكتب العمل ، ولما جلسوا قليلا قامت منى بالاتصال بالمستشفى ثانية ؛ لأنها اتصلت صباحا مبكرا فقيل لها إنها نائمة بعد أن صلت الفجر ، واطمأنت على أمها بالحديث معها ، ولما اطمأنت عاتبها برهان على كشف أمر الدين فقالت : أنا أعلم بما في قلبك من حب لي ولأهلي ، وأفضالك كثيرة والمجهول منها أكثر من المعروف.. وهذا جميل كبير يا برهان .. ولقد عبرت حنين عن امتناني لك ، كان باستطاعتك التجاهل أو التزوج على رأي حنين .. فلا تزعل من ذكر هذا الفضل يا أبا خليل .

ـ أنا كنت سأتحدث مع مالك بذلك ، لأعرف هل يحتاج الموضوع لأجراء قانوني أم لا ؟!

ضحكت وقالت : اختصرت عليك الطريق.

تبسم وقال : الأمر ليس سرا .. ولما تعلم أمك بذلك ستقول لمالك ادفع لا يجب أن يدفع زوج أختك كل المبلغ عيب و .. و .. ومالك كما تعلمين لا يقصر بذلك ، ولكنه مقبل على زواج كما تعلمين قريبا .. فالعمارة قد انتهت بفضل الله ، وبعض المستأجرين سكن ، وبعضهم بدأ يعمل ديكورات محلاته وتجارته .. ولنا عليه مبلغ فسيزداد الضغط عليه .. على كل حال طلبت من خليل ليلة أمس أن لا يتحدثوا بالموضوع أمام أمك يا منى .. وسأتحدث مع مالك بذلك ، وأنت حدثي حنين أن تكتم عنها الأمر هي وسعد وألا يفشو هذا الأمر أمام الناس والحاجة جميلة .



كان جابر زوج صبرية أحمد ووالد عدنان المدرس المعروف لكم يجلس أمام بيته على رصيف الشارع ، ومعه زوجه صبرية ، وبعض الجيران يجلسون حوله، ويتحدثون عن الحفلة والدعوة التي أقامها مالك لأهل الحي بمناسبة إنهاء أعمال العمارة الكبيرة بالنسبة إليه ، وامتد إنشاؤها ما يقارب خمس سنوات كما يعلم قرائنا الأفاضل .

وكان الحديث يدور عن وفاء أبناء جميلة للحي ، وعن التوفيق الذي يحيون فيه ، وكان الأكثر منهم معجبا بهم وبمالك على الأخص فقال جابر : والله أولاد جميلة صاروا وصاروا !!

فقالت صبرية: هذا وفق من الله ..الله سبحانه لا يضيع الأيتام .. بس ها المالك لو أنه يتزوج كباقي إخوته .. المسكين لليوم عازب !

قالت امرأة جالسة معهم : سمعت أكثر من مرة جميلة أم ربيع تقول إنه سيتزوج بعد انتهاء العمارة .. وها هي العمارة قد انتهت!

وأكد ذلك أكثر من رجل حاضر وأكثر من امرأة وقال أحدهم : بل في العمارة شقة له وشقة لأخيه ربيع .. والله إنهم أولاد حلال وبركة وصاروا كما قال زوجك يا صبرية ! .. وحتى

أصهارهم ناس طيبون ، فزوج منى أستاذ فهمان وعارف بكل شيء .. وأخذ الناس يكيلون المدح لبرهان وعائلة برهان وأهل برهان ، ثم لحق سعد الدين وأهله شيئا من ذلك المدح والثناء وما ساعدوا به مالكا من مواد البناء والإسمنت والدهان والمواسير بأنواعها المختلفة

فقالت صبرية: ما هو بفلوس ! صحيح هي دين وبطيء السداد كما سمعت من أخي أبي أحمد وشرق القوم وغربوا في قيل وقال .. فإذا عدنان وزوجته آتيان نحو بيت الوالدين فقالت امرأة : ها هو الأستاذ عدنان قادم يا صبرية ومعه زوجته ابنة أخت جميلة وأولادهم .

اقتربت عائلة عدنان منهم وألقوا عليهم السلام ، وصافح عدنان الرجال وأمه وصافحت زوجته النساء وعمها جابر، ثم قال عدنان: خير يا ناس.. مالكم مجتمعون على باب الدار .. هل من شيء ؟!

ضحكوا كأنهم استغربوا سؤال عدنان ، وقال أحدهم : كنا عائدين من وليمة ودعوة مالك ربيع .. ورأيناك هناك مثلنا .. فوقفنا هنا على باب داركم نتحدث عن هذه الدنيا وعجايبها!

تبسم عدنان وقال مداعبا الجيران: آ .. تتحدثون عن الطعام وحسنه أم العمارة وآل ربيع ؟!

جابر : عن الجميع .. نتحدث عن العز الذي صار لأولاد ساعد ربيع زوج خالتك يا حليمة .. الذي مات ولم يترك لأولاده شيئا يذكر !

فقال عدنان : ترك لهم الله يا أبي! .. الله لا ينسى عبيده وخلقه فهو الذي يرزق الطير والنمل والسمك .. فكيف هذا الإنسان؟!.. الحق أن أولاد أم ربيع صبروا وتحملوا فظفروا .. وفضل الله يؤتيه من يشاء .. فهم يستحقون كل خير وسعادة ألا تريدون أن تدخلوا البيت يا أمي ؟!

وقبل أن ترد الأم صبرية قالت إحدى النساء : إيش يا أبا رفيق ألا تحب أن تقف معنا ؟!

ـ أبدا يا أم محمد .. فأنتم بركتنا .

فقالت صبرية : تفضل يا ولدي .. تفضلوا يا نسوان !

فقالت امرأة مستفسرة : شكرا يا أم علي ألا تريد أن تبني لك عمارة يا عدنان مثل أقاربك ؟!

تبسم الشاب وقال : إن شاء الله .. بس أنا اشتريت بيتا وهو من دورين .. ألم تسمعي بذلك؟!

ـ أخبرتنا أمك يا عيني !

ـ ها أنا أخبرتك ، وقد أجرت طابقا ، وأعيش أنا والأولاد في طابق ، وهو يا خالتي في شارع (النعسان) غرب برقوقة .. قريب من بيت المختار الأحمدي أبي عز الدين إذا أحببت زيارتنا .

ـ يا ابني ألف مبارك .. والله يوفقك يا ابني .. هل صحيح يا أبا رفيق أن مالكا سيتزوج بعدما أنهى تشطيب العمارة وأجرها ؟!

ـ طبعا يا خالتي .. مالك شاب ناجح بمعنى الكلمة .. وسيفرح أهل برقوقة بجميع شوارعهم ودورهم بزواج مالك ، وسيكون زواجا مهما يتحدثون عنه إلى المات .

ضحك البعض بصوت عال ، وبعضهم أبدى دهشته فقال جابر : إيش يا عدنان .. هل سيتزوج مالك ربيع ابنة الحاكم والسلطان ؟!

تبسم عدنان ونظر لزوجته وهي ابنة خالة مالك وقال : علمت أن سيتزوج من ابنة نقيب محامين البلد .

هتف أحدهم : ابنة النقيب مرة واحدة ؟!

ضحك عدنان لسذاجة الناس وقال : مرة واحدة .. مالك محامي مثل أبيها .. قريبا ستسمعون مثل هذا الكلام .. فمالك ابن حيكم سيصل إلى فوق .. ربما ترونه في يوم ما وزيرا !

فقال جابر : والله يا عدنان كلامك ثقيل اليوم !

ـ لا تستغرب يا أبي! .. فمالك خلال هذه السنوات شق طريقه بنجاح رغم أنه لم يبلغ الثلاثين من العمر؛ ولكنه نشيط جدا في النقابة والانتخابات ..وهو متواضع للغاية ، كلكم تعرفونه وتعرفون ذلك عنه.. فرغم نشاطه فما زال يسكن في بيت خليل بيت زوج أمه .. ولكن الذي أشرت إليه من التوقع ربما يحدث بعد سنوات عشر .. خمس الله أعلم .. لأنه إذا تزوج ابنة النقيب القانوني الكبير عبد الكريم سيدفعه لرئاسة النقابة في المستقبل ، فلربما يصبح نائبا للنقيب في السنوات المقبلة ، وبعدها نقيبا ، وهؤلاء كما تعلمون تعرض عليهم الوزارة .

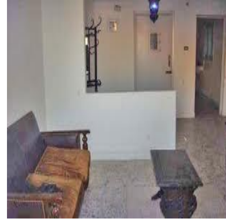
قال أحدهم : والله ممكن ! .. الله على كل شيء قدير .

ـ وأيضا الأخ مالك سيجعل له مكتبا في هذه العمارة .. فقد استأجر مكتبا .

فقالت صبرية بدهشة : استأجر ! .. أليس هو صاحب العمارة ؟!

ـ هي له يا أمي ولكن أخاه ربيعا شريك له ، ودفع كما دفع مالك .

تمتم بعضهم بأنهم فهموا القصد ، ودفع عدنان باب البيت ودخل وتبعته أمه أم علي ، وبدأ الناس ينفضون من أمام البيت وهم يقولون : والله يا جميلة عرفت أن تربي !.. أيتام المعلم خليل بركات الحداد خليل أبي أحمد .



لم يكد يمضي أسابيع على هذا الكلام الذي تحدث به عدنان أمام بيت والده حتى أعلن في الحي عن خطبة الشاب مالك ربيع على ابنة السيد عبد الكريم نقيب المحامين في المدينة ، وكان مالك قد تعرف على الفتاة قدرا فقد عمل متدربا عند والدها قبل أن يصبح النقيب نقيبا بزمن فأصبح معرفة وصديقا للأستاذ القانوني الكبير في البلد ، ولما تخرج من الكلية الحقوقية عمل في أحد مكاتب الأستاذ عبد الكريم ، فقد كان

للرجل عدة مكاتب منتشرة في المدينة الكبيرة وضواحيها ، والمكتب الذي مارس فيه العمل كان يديره ابن النقيب الذي صار نقيبا فيما بعد ، وأصبح صديقا لابنه نضال ، وتصادف أن تعرف على الفتاة أثناء حفل زواج نضال ، وأعجبت الفتاة الطالبة بعد بالشاب ، وظهر لمالك أنها تعرفه أثناء تردده على بيت أبيها مع نضال أيام الكلية ، ووعده نضال خيرا .. وهي كانت تدرس الطب في بريطانيا فهي أنهت الثانوية وسافرت لبريطانيا للدراسة في جامعات بريطانيا لأن أخوالها يعيشون منذ زمن في تلك البلاد .. ولما عادت وجدت الشاب ما زال في انتظارها وكان لديه أمل وكان الأستاذ عبد الكريم محبا لمالك ويرى له مستقبلا مهما في النقابة لنشاطه الفردي الكبير ، ولنشاطه الواضح في الحزب رغم صغر سنه ، ولقوة كتاباته في الصحف والمجلات العامة

والحزبية .. فهو شاب نشط متحرك واجتماعي معروف .. ورغم دخوله الحزب مبكرا منذ التحق بكلية القانون فقليل من سكان برقوقة يدركون هذا النشاط الحزبي .. كانوا يرونه إنسانيا مساعدا متعاطفا مشاركا.. ومكافحا ومحبا لهم جميعهم وابن حيهم الوفي ولم يقصر في مساعدة يستطيع ويقدر عليها ولا يفعلها.. فبعضهم كان يرى أنه جدير بأن يصل لأي مركز في البلد.

المهم لنا أنه بعدما عادت الفتاة الطبيبة من أوروبا وقد حصلت على شهادة كبيرة في الطب وأخذت تستعد للتخصص في أمراض النساء.. وأنهى مالك مشروعه الخاص تم القران المنتظر وسعد أهل الحي بهذا القران ، وسعد خليل وأم ربيع بهذا القران ، وذكره بإخوته الذين عندما تزوجوا من بنات الأكابر نسوا أهليهم وحيهم ، فذا مالك يتزوج من ابنة رجل كبير ومعروف في البلد وما زال ابن برقوقة ويسكن عند زوج أمه ولم يستعر ويخزَ من ذلك ، وظل بيت جميلة وخليل أياما في استقبال المهنئين والمادحين ، وكانت منى تقول لبرهان : والله يا برهان أنت تعرف مالكا أكثر منا !

ـ مالك عندما كنت أجلس معه أسمع منه بعض الهمسات ، وبطريقتي التي عرفت بعضها أجمع هذه المعلومات وأصل لحقيقة ما .. هو قديما تكلم معي عن ابنة النقيب قبل أن يصير نقيبا عندما كانت تتعلم في كلية الطب وكانت طالبة .. وحدثني يومها عن الأمل الكبير لقوة علاقته بأخيها نضال .. وجاءت الأيام ومضت الأيام .. وأحيانا أسأله فجأة عن العروس مازحا فيقول إنها في بريطانيا ثم يفطن للسؤال ويقول الله أعلم ، نحن لم نتفق على شيء هو مجرد وعد منها ومن صديقي نضال .. ولما لم يتحدث عن الزواج خلال هذه السنوات توقعت وحسبت أن الأمل ما زال لديه .

ـ الحقيقة الفتاة رائعة الحسن وأديبة جدا .. رغم أنها طبيبة متخرجة ومن أوروبا ، وهي ابنة النقيب بالنسبة لنا ولو لم تحمل هذه الشهادات .. وأنا رغم ما حدثتني عنه سابقا حول هذا الزواج يا برهان لم أكن أتصور مالكا يفكر بهذا الطموح ، ويصبر هذا الصبر .. كنت أظن أنني أنا الوحيدة في حي برقوقة أو قل أسرة ربيع لديها طموح في العائلة .

ضحك برهان وقال مداعبا : عادت منى لغرورها القديم !

ـ اضحك ومعك حق في أن تضحك .. كان مالك منزعجا مني قديما .

ـ كان مالك منزعجا منك قبل أن يتعرف على النقيب وعلى ابنته!

ـ أيضا كلامك حق!! .. نسيت أنني تزوجت وهو في الكلية بعد .. اعلم يا عزيزي أني سعيدة بذلك .. ولا تظن أنني أحسد أخي وإن كان يحسد ويغبط .. فأنا أحب أهل الطموح !

ـ مالك هادئ وصبور.. هو أثناء تدريبه في مكتب الأستاذ الكبير عبد الكريم وأثناء الدراسة وبعد الجامعة حدثت الصداقة بينهم ، ويومها كان السيد عبد الكريم من كبار المحامين ومن أقطاب الحزب ، وكما فهمت من مالك فيما بعد أن السيد عبد الكريم يصادق كل من رغب في صداقته شابا كان أم كهلا .. يصادق كل الناس .. ليس مالك خاصة.. وهو رجل شعبي مع أنه قانوني كبير ومعروف في ذاك الوسط .. حصل التعارف بينهم والزمالة في المهنة والنقابة والحزب ، المهم أن الرجل أعجب بأخيك مالك .. ولما أنهى الدراسة شغله في مكتب ابنه نضال ونضال زميل لأخيك في الكلية وهو أقدم من مالك بسنة على ما أذكر .. تعمقت صداقتهما لتوافقهما في كثير من الأفكار .. وكان نضال هذا يحب مالكا جدا ويثق به ثقة كبيرة ، واستطاع دمجه وإدخاله في الحزب فقويت الصداقة أكثر.. وكانت الفتاة هناء تتردد على المكتب للقاء أخيها ، وكانت قد دخلت كلية الطب وتأتي في العطل من بريطانيا.. فتعرفت على مالك في تلك الفترة وتعرف عليها .. احذري أن تتخيلي أن قصة حب وغرام حصلت بينهم .. هو مجرد تعارف عابر .. فمالك شاب متدين منذ صغره كما تعلمين ويعرف نفسه جيدا ، وهي ابنة السيد عبد الكريم الرجل الذي يحترمه ويقدره .. وأخت صديقه نضال .. والفتاة أيضا متدينة وربما أكثر من مالك وتلبس الثوب الإسلامي إذا يحق لنا أن نسمي هذا الاسم .. المهم أن الفتاة أبدت اهتماما بمالك بمعرفة نضال .. ولما تزوج نضال اقتربت المسافة بينهما أكثر وتشجع مالك ساعد ربيع وتحدث مع نضال عن أخته .. فسر الشاب من ذلك ووعده بأن يتحدث معها .. ويوم زفاف نضال حدث لقاء عابر بين الاثنين ووافقت الفتاة على الزواج منه إذا لم يمانع والدها

وباقي إخوتها .. وأخبرته أنها تدرس خارج البلد ودراستها طويلة .. فذكر لها ظروفه ومشروعه وأنه سينتظر .. وانتهى الموضوع سنوات وهذا كلام مالك ، وكان أحيانا يسألني : هل تغير رأيها يا برهان بعد عودتها ؟! أنا نضال يطمئنني وأنها تسأله عني وعن أخباري .. وحتى أن بعض أولاد خالها الذين يعيشون في بريطانيا فكروا بالزواج منها فاعتذرت لهم ، وأنها تحب الحياة في بلدها العربي.. كانت الفتاة تريد مالكا .. ولما عادت قبل سنة تقريبا كان مالك يستعد لإنهاء العمارة .. وظهرت الأخبار التي سربتها لكم ، كان مالك قلقا من ناحية أنها ربما لا تريد الزواج منه بعد رجوعها .. فلما شجعه نضال .. وقوت هي بنفسها قلبه صارح والدها بذلك فلم يمانع نهائيا بل أثنى على أخيك ورحب به صهرا له ، ويبدو أن نضالا كان قد مهد له عند والديه .. وهذا نتيجته ظهرت اليوم .

كانت منى تسمع وهي تسرح أحيانا ولما صمت برهان قالت : رغم ثرائهم الواضح يا برهان عندهم تواضع كبير .. فقد تعرفت أثناء الحفلة على بعض أخواتها لأن بعض الأخوات الأخريات متزوجات في بريطانيا ..

ـ ونحن تعرفنا على إخوتها الشباب قبل الحفلة ويوم الحفلة ..

ـ المهم أنني لمست فرقا كبيرا بينهم وبين أهل زوجي القديم ، وقلت شتان بين الثرى والثريا ، مع أنهم أصحاب أموال كثيرة وأصحاب شهادات .. مع أنني كانت لديّ فكرة سيئة عن كل الأغنياء ..

تبسم برهان وهو يرد عليها : أنت تعاملت مع طبقة أغنياء غير طبقة هؤلاء الذين تعامل معهم مالك .. ليس كل الأغنياء انسلخوا من جلدهم وتغربوا وتفرنجوا على رأي بعضهم .. فكل شخص له تجارب شخصية خاصة .

ـ عندي سؤال خجلت أن أسأله لها ولمالك! وهو هل ستسكن في حي برقوقة ؟!

ـ بالتأكيد .. أليس لمالك شقة هناك ؟!

كان أكثر سكان حي برقوقة ينظرون لخطبة مالك نظرة إعجاب وتقدير مع أنه زواج كأي زواج والقدر جمع بينهما بين مالك وابنة المحامي الدكتور عبد الكريم ، فحي برقوقة الذي يتردد اسمه كثيرا في سطور هذه القصة لا يذهب بك الظن للوهلة الأولى أنه حي فقراء وعميان وعجزة ، إنما هو حي شعبي أي نهض ابتداء على غير ترتيب وتنظيم إداري مدني ، كان البناء فيه عشوائيا وبدون ترخيص من البلدية والإدارة العامة للعاصمة .

كان كلما قدم فقير من مدن وقرى البلاد المختلفة للعمل في العاصمة أو للعلاج إذا كان مريضا ينصب بيتا أو خيمة في ذلك المكان ، ثم تزايدت العائلات المهاجرة من الأرياف والقرى البعيدة إلى العاصمة ، ولا يستطيعون السكن في الأحياء المنظمة لعجزهم عن دفع الضرائب مقابل الخدمات المقدمة لهم ، فينزلون الحي المذكور ، فكبر الحي وتمدد شيئا فشيئا ، ويبدو أن أول من أقام فيه إنسان اسمه برقوقة أو عائلته تحمل هذا الاسم فاشتهر بذلك ، ولما اهتمت به الدولة والبلدية ظل يحمل هذا الاسم الشائع، ثم دخلت عليه بعد زمن خدمات البنية التحية، ونظمت شوارعه ، وهدمت بعض أبياته لتوسيع وإعادة تنظيم الحي ، فأدخلت عليه خدمات الكهرباء والماء والصرف الصحي والهاتف والبريد ، وتحدثت بنايته وعماراته ، وشوارعه أنيرت بالكهرباء بعدما أنشئت الأعمدة اللازمة ، لقد جرى تطوير الحي ولكنه ظل يحمل اسم الحي الشعبي ، وظلت بعض شوارعه ضيقة إلى حد ما ، وبقيت أكثر عمارته ومبانيه متلاصقة وتخلو من الحدائق الجانبية ، ومع الأيام ورحيل البعض من العائلات توسعت المباني بالنسبة للذي تمكن من شراء بيتين متجاورين فأكثر ، فمالك عندما قام بإنشاء العمارة التي مر ذكرها قد تمكن من شراء بنايتين قديمتين وهدمهما وأقام العمارة مكانها ، وهكذا كان يفعل غيره إذا تمكن من شراء مبنيين هالكين .. ندخل منزل صبرية زوجة جابر وعندهم عدنان وأولاده وأهله ، وكان جابر يقول مخاطبا عدنان : والله مالك صار وصار يا عدنان ! .. لقد كان في الحفل من رجالات البلد!

قال عدنان باسما لأنه هو الآخر حضر الحفل ورأى ما رآه أبوه : آ .. يا أبي .. حتى زوجته طبيبة

في البلد ، وتقول عنها أم رفيق فتاة مؤدبة للغاية ، وتحسن المجاملة ، وكانت فرحة بزواجها من مالك ابن حي برقوقة .. فهي قد درست الطب عند أخوالها في بريطانيا ، وتخصصت في أمراض النساء أو بدأت دراسة هذا التخصص ، ولها أكثر من سنة في البلد وهما يرتبان لهذا الزواج .. فقد كان بينهما معرفة منذ سنوات .

ـ يعني كانوا يحبون بعضهم كما نرى في التمثيليات .

ـ ليس بتلك الصورة .. مالك شاب على خلق طيب كما يعلم الجميع .. والفتاة مثله متدينة ولا تخالط الأجانب .. وقد تعرفوا على بعض صدفة ، وعمره طبعا ما جلس معها في خلوة .. لم يلتق بها في منتزه أو مسرح أو سينما .. هذا كلام فارغ بالتأكيد .. هو كان يعمل عند أبيها قبل أن يراها أثناء فترة التدريب المعروف .. وقبل أن يفتح مكتبه الخاص مع بعض الزملاء .. ولما تخرجت الفتاة من الجامعة الطبية تحدث مع أخيها نضال زميله في المحاماة .. وجرى ما يمكن أن نسميه خطبة ووعد ، ولما عادت من لندن حصل النصيب والقدر .. هذه هي القصة لا حب وعذاب وسوالف .. والفتاة ليست دميمة أو جاهلة بل هي متدينة وتلبس الملابس الشرعية الكاملة !

وأخذت صبرية تكيل لها المدح والثناء واللطف ، وتتحدث عن حسنها وتواضعها وحلاوة كلامها وعلى أدب أخلاق أمها وأخواتها ، وتدعو لمالك بالتوفيق وقالت متحسرة : أما أنا إخوتي لما تزوجوا بنات الأكابر لم نعد نعرفهم .. لعنة الله عليهم !

وقال جابر : يا أم علي دعينا من إخوتك وأخواتك .. وما هو الحزب الذي يشتغل فيه مالك ابن جميلة ؟

تطلع عدنان في وجه أبيه وقال : الحزب جماعة يهتمون بالسياسة وأوضاع الحاكم والمحكوم ، ويتجمعون على مبادئ معينة ، ويشكلون هيئة تسمى حزبا .. والكلام واسع في ذلك يا أبي .. أهم شغلهم الاهتمام بالحكم والسياسة .. ومالك لما كان في الجامعة التقى ببعض أفراد الحزب لأنهم ينشطون في الجامعات وبين الطلبة ، فنشط ودخل الحزب ، والحزب لا يعطي راتبا بل

الأعضاء يدفعون اشتراكات في الغالب يا أبي .. فبعض الشباب الجامعي يستهويه العمل الحزبي للحركة والنشاط وتحقيق الأحلام والهوايات.. والسيد عبد الكريم من كبار رجال الحزب وهؤلاء دعاة للحفاظ على النظام الحاكم والبعد عن التبعية للغرب والدول الكبرى فدخل مالك الحزب أيام الجامعة ، وتعرف على هؤلاء الناس وأصبح منهم ، ولما تخرج ساعدته مهنته للبقاء معهم لنشاطهم في النقابات ودفاعهم عن الحريات وحقوق الضعفاء ، والسعي لتحقيق ما نسميه العدالة الاجتماعية لكل رعايا الدولة .. وله مستقبل إن عاش معهم فربما كما قلت سابقا وعشنا أن نرى ابن حارتنا وزيرا .. فعندما تنشأ حكومة حزبية تحكم البلد تزداد فرصة هؤلاء الشباب في الوصول لكرسي الوزارة .. لأنه لما تشكل حكومة حزبية أو من عدة أحزاب يتوزعون المناصب بحسب اتفاقهم .

فتعجب جابر وقال : والله مالك ممكن أن يصل ! .. فهو ذكي وصبور كما عرفنا من قصة زواجه من بنت النقيب .. فهو يعمل بهدوء وأناة .. والله عظيم يا أولاد ! .. الله أنقذهم بعد أن كادت أختهم منى أن توسخ سمعتهم كما تذكرون .

قالت صبرية : إيه منى اليوم سيدة فاضلة وأم لأربعة عيال .. زوجها ابن حلال استطاع أن يعيد تربيتها من جديد .. فهي تصلي وتلبس مثل أختها حنين .. ولم تعد تدخن منذ تزوجت ذاك الشاب المحترم .. لقد التقيت به أكثر من مرة في بيت أخي خليل .. والله شاب بطل ..

أخي خليل لا يحب في الدنيا أحدا سواه .. وهو قد سمى ابنه على اسم أخي خليل .

فقال جابر : فهو صديق خليل الوحيد في الدنيا .. أنا كنت خائفا على خليل لما يكبر أولاد جميلة

فقال عدنان : برهان أخ كريم ، وحتى أهله ناس طيبون كرام .. فإخوته كلهم متعلمون فأخوه الأكبر طبيب ، وأنت تعرفه يا أبي أخذتك مرة إليه

ـ أعرف يا ابني .. الدكتور عبد القادر هو طبيب وإنسان أيضا ، ويحترم كل من يأتيه من طرف برهان وحتى أولاد جميلة ، فيهتم بهم ضيافة وعلاج .

فقال عدنان : وله أخ مهندس فتح مصنعا كبيرا للحديد وصهره ، وحتى خالنا خليل التحق

بالعمل معهم فيه .. وأي شاب من الحارة أحب العمل فيه يسهل له برهان الالتحاق بالعمل

فقالت صبرية كأنها تسمع ذلك أول مرة : خليل معقول وسكر المصلحة ؟!

ـ لأ .. المحددة مفتوحة ؛ ولكنه يعمل مراقبا ومشرفا على بعض نشاط وخطوط إنتاج المصنع وعماله .

فقال جابر : آ ..سمعنا بذلك .. بل قال لي إنه ساهم بمبلغ في المصنع .

فتبسم عدنان وقال : نعم هو مبلغ زهيد ، وإنما هو من باب المشاركة والتعاون يا أبي .. فالمصنع كلف عشرات الألوف .. ففيه فرن ضخم لصهر الحديد وتحويله لعجينة لإعادة سكبه

قالت صبرية : الله يوفق الجميع .. كل إنسان يأخذ نصيبه في هذه الدنيا .. أولاد جميلة قصة نجاح جميلة في الحي .. أنا أذكرها أيام ترملت المسكينة ، كان حالها مؤلما جدا .. فأهلها لم يستطيعوا تقديم اليسير لها ولأطفالها الأربعة .. حتى أفرجها الله عليهم بزواجها من أخي خليل فتحسنت حالهم قليلا قليلا .. ونياتهم صالحة .. يا عدنان يا ابني هذه العروس التي سيتزوجها مالك ستسكن هنا في حي برقوقة كما يشاع ؟

ـ ولماذا يشاع يا أمي ؟!.. هذه الحقيقة .. ألم يخص مالك نفسه بشقة في العمارة التي بناها هو وأخوه .

ـ بنت عائلات كبيرة .. من بنات القصور والفيلات تعيش هنا !

ـ تعيش يا أمي كما نعيش نحن من عشرات السنين.. المهم أن يقنع الزوجان ببعضهما البعض فمالك لا يستطيع في الوقت الحالي أن يعيش بعيدا عن أمه وزوج أمه .. فليس له إلا هذه الأم والزوج الذي كبرهم وعلمهم وصبر حتى اشتد عودهم .

قال جابر : الصحيح أولاد جميلة أبطال وجدعان ويستحقون كل خير .. ويحبون بعضهم بعضا ومتعاونون مع بعض إلى أقصى درجات التعاون ويعملون يدا واحدة .. ويستحقون كل إعجاب وتحية .. فكل أهل الحي من أوله لآخره يحبونهم ويحترمونهم .. كثير من أبناء الحي لما كبروا ووسع الله عليهم كثيرا رحلوا وأخذوا أهليهم ونسوا الحي .. وحتى بعضهم نسوا أهليهم

..فأولاد جميلة ثبتوا على حبهم لهذا الحي وناس الحي رغم خروجهم منه أيام طلاق أخيك لأمهم عندما حدثت تلك الفتنة .. ولكن الله لطف بهم بظهور ذاك الشاب الكريم في حياتهم .

ـ صح .. متى سنذهب لنبارك لهم يا أبي ويا أمي .

قالت صبرية : أنا باركت لجميلة وخليل .

ـ نريد أن نبارك لمالك نفسه .. الناس لا تنتهي من المباركة لأمه ، فكما قال الوالد أهل الحي يحبونهم .. فتقول أم رفيق أن أهل الحي يوميا يمشون لبيت أم ربيع ونحن نريد أن نبارك لمالك نفسه .

قال جابر : وقتما تشاءون يا أبا رفيق .. فالعادات الحسنة يفضل أن تبقى حية بين الناس .

ـ جيد .. سأكلمه بالهاتف .

وطلب من رفيق أن يحضر له هاتف بيت جده من صالة البيت ، فأحضر

الفتى الهاتف من الصالة وغرزه في موضعه داخل الحجرة التي يجلسون فيها واتصل بمكتب مالك فردت عليه موظفة فقال : مالك موجود ؟!

ـ نعم من يريده ؟!

ـ صاحبه عدنان !

ـ لحظات

أخذ مالك الهاتف ورد على عدنان : آ .. يا أبا رفيق !

ـ كيف حالك ؟

ـ بخير يا عدنان .. كيف أنت وعمتي صبرية ووالدك وأم رفيق ؟

ـ الكل بخير .. والكل يسلم عليك .

ـ أي خدمة يا صديقي المحترم ؟!

ـ نحب أن نراك لنبارك لك بمناسبة عقد القران .

ـ بارك الله فيكم .. أهلا وسهلا مساء اليوم بعد صلاة العشاء سأكون في البيت يا أستاذ عدنان

وأحلى عدنان .. وأنا في انتظاركم وبارك الله فيكم .



لم يتغير مالك بسبب هذا الزواج الكبير في نظر الآخرين ، واستقبل زوج صبرية أخت المعلم خليل السيد جابرا وبعض أفراد أسرتهم وابنة خالته التي أتت أيضا بصحبتهم استقبلهم في بيت زوج أمه خليل ، ورحب الجميع بهم ، وشربوا الشاي والقهوة وتمتعوا بالطيبات من الفواكه والحلوى التي لم تنقطع من البيت منذ إشهار الخطبة والقران .. وسهر القوم سهرة ممتعة حتى عقب جابر قائلا : ما شاء يا جميلة يا أم ربيع ! صبرت ونلتي .. مالك بطل لم يتغير به شيئا ابنك ابن مبارك

ضحكوا وقال خليل : يا أبا علي مالك يحب أهل برقوقة ، ويحب الحي أكثر مني ، وسيبقى الابن الوفي مهما ارتفع في هذه الدنيا الهالكة ، فكثير من هؤلاء الناس الكبار يعرفهم مالك شخصيا بحكم أنه عضو في هذا الذي يسمونه الحزب .

قال مالك : يا أبا علي الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فرق بين أسود وأبيض إلا بالتقوى ، وكما تعلمون هذه أقدار يقدرها العلي القدير .. يعني لو التقيت بفتاة أخرى خلال هذه السنوات ربما تزوجتها.. فأنا لم اسعَ للزواج من ابنة مسؤول كبير .. ولو رفضتني عندما التقينا أول مرة لربما تزوجت قديما ؛ ولكنها زرعت عندي أمل ، وتحقق هذا الأمل .. وكل هذا بفضل الله تعالى .. لا هو بشطارتي ولا بقوتي .. والحمد لله على أفضاله التي لا تحصى ولا تدرك ولو سكنت في أي أرض سأبقى ابن الحي والأهل والجيران يا أبا علي يا بركة !

قالت صبرية: هل ستسكن هنا يا مالك بعد الزواج ؟!

ضحك مالك وقال: أكيد يا عمتي أكيد .. أمي هنا وزوج أمي هنا .. فأنا معهم حتى الممات وأمد الله بأعمارهم .

فغمغم خليل قائلا : مالك ولد بار بنا يا صبرية .. وأمير!

مالك رد فقال : شكرا لك يا عم! .. أنت بركتنا ولولاك بعد فضل الله لم نكن شيئا .. فالله سخرك لنا .. ونحن مهما فعلنا لك سنبقى مقصرين ، ونحن معا حتى يفرق بيننا ما يفرق بين الأحباب .. سأتزوج في الحي يا أم علي ، وسأسكن في شقتي التي تعرفونها في عمارة الربيع .. ولو رضي العم خليل بالبناء هنا لبنينا طابقين أو حتى ثلاثة لهم واحد ولربيع واحد ولي واحد

فقالت صبرية : ولماذا لا يرضى أبو أحمد ؟!

فقال خليل : هذا عبء كبير على الأولاد .. فالعمارة كلفت يا صبرية .. ويريد أن يكتب البناية إذا بنوها باسمي من أجل أن يأتي أخوتك العاقون خالد ومنير غدا يطلبون ميراثهم .. وعندما نموت يبنون كما يشاءون !

فقال جابر : أصيل يا أبا أحمد ..

قال عدنان : يا خال .. أمد الله في عمرك .. لا أعتقد أن الشباب سيرحلون من برقوقة .. من الميلاد حتى الممات آ يا مالك !

قال مالك : أكيد هذا يا عدنان ! أنا قد عشت كم سنة خارج الحي في حي راق جدا في العمران والخدمات والنظافة .. كما تعلمون في حي الرحمات ، ولم أكن فيه سعيدا .. آه كم فرحت لما عدنا إلى هنا ! .. ولست متكبرا على غيره من الأحياء والشوارع .. الناس هم الذين يصنعون حلاوة المكان والحي أو تعاسته .. لو كان جيراننا أشقياء وسيئين لربما هجرنا المكان ، وأقنعنا العم خليل بالرحيل ، رغم أن هذا صعب علينا ومؤلم.. ولكن الحمد لله الناس هنا كالأهل .. فالعم أبو أحمد أيضا من الميلاد حتى الممات .

قالت صبرية : أبو أحمد لم يولد هنا مثلك !

قال خليل باسما : فعلا أنا لم أولد هنا يا مالك ! .. أنا ولدت في مدينة أخرى .. ثم رحلنا إلى هنا وأنا صغير، كانت أمي ـ رحمها الله ـ بعدما ولدت صبرية قد مرضت ، فجاء أبي إلى هذه المدينة لعلاجها .. ولما طال العلاج وكان يحتاج للتنقل بين المدينتين .. اشترى هذا البيت ، وكان عبارة

عن حجرتين من الطين القديم .. واستأجر محددة في شارع الربيع الذي تعرفونه يا أبا علي .. واستمر العلاج لأمي ، ولم تستطع الخلفة بسبب المرض ، فتزوج أبي عليها .. صبرية تذكر ذلك لأنه استمر في علاجها حتى كبرت صبرية ، وصار عمرها قريب من العشر سنوات ، وأنجبت امرأة أبي أربعة من أبي ، ثم هلك أبي وأنا شاب صغير دون العشرين .. فتحملت المسؤولية الكاملة ، وكنت قد تركت المدرسة صغيرا وتعلمت الحدادة من أبي .. ثم ماتت أمي بعد حين بعد زواج صبرية بأيام .. وتكفلت بإخوتي الأربعة الصغار وأمهم ، وربيتهم وتعلموا وهاجروا لأمريكا والبرازيل وغيرها من البلاد ، ولكن قبل هجرتهم وبعدما أنهى منير الجامعة رحلوا وسكنوا في منطقة أخرى قريبة كما ادعوا من مكان عمل خالد ، وكانوا قد أصروا على تعليم البنات في الجامعات وصار بيننا مشاكل بسبب هذه الموضوع.



عبير ناصر

كانت صحف الحزب قد نشرت خبر عقد قران السيد مالك ربيع على الآنسة هناء عبد الكريم الذي كان في تلك الأيام نقيبا لمحامي البلاد ، ومالك نفسه معروف شخصه في الوسط الحزبي قبل ظهور هذا النسب والمصاهرة ، فلذلك كان من الأمر الطبيعي أن تنشر مجلات الحزب وصحيفته اليومية خبر هذا الزواج ، وإن لم يكن مجاملة لمالك فللنقيب نفسه .. وكذلك لكتابات مالك الصحفية ، فهو منذ أيام الجامعة وهو يكتب للصحيفة اليومية للحزب ، وباستمرار للمجلات المختلفة من أسبوعية شهرية نشرات توعية .. فلذلك جاءت صور مختلفة ومشاهد من الحفلة في تلك الصحف .. منها العريس مع حميه أبي عزام النقيب .. صور للعريس مع بعض رجالات الحزب .. وصور لوالد العروس مع شخصيات معروفة وعامة .. فبعد نشر هذه الصور اتصلت ذات صباح عبير ناصر بمكتب السيد برهان وبعد التحية والسلام قالت :

يا برهان .. أليس هذا الشاب الذي ظهرت صوره في بعض الصحف نسيبك ؟!

كان برهان يعرف أنها تدرك الجواب ، وإنما للتأكد وللحديث في الموضوع ، فاسم مالك ظهر واضحا في الصحف التي نشرت الخبر والصور .. وعبير رأت مالكا وتعرفت عليه أثناء قضية تسديد دين حازم ومنى ، فقال برهان وهو يستحضر هذه المعلومات : نعم هو يا عبير .. لقد زرناك مرة .. لابد أنك تذكرينه ؟!

ـ هذا هو الذي دفعني للحديث معك .. فصوره والتهاني تلفت النظر .. وخصوصا عندما تكون العروس ابنة النقيب وهو من شخصيات البلد .. إيش القصة ؟!

ضحك برهان وقال : تكلمي بصراحة !

قالت باسمة وغامزة : صعود غريب وسريع فالذي فشلت فيه منى سوف يحققه مالك أخو منى !! .. إنهم يتطلعون لفوق أكثر من اللازم !

استمر برهان في ضحكه وقال : وما الذي يضيرك أو يضيركم ؟

ـ ثم أنها طبيبة ومتعلمة في لندن .. كيف التموا على بعض ؟!

ـ ألم تذكر الصحف القصة ؟!

ـ لا .. الصحف لا تذكر قصص التعارف يا أبا خليل .

ـ الصداقة يا عبير .. فالأخ مالك صديق للعائلة .. وهو رجل فاضل وخلوق ونشيط في عمله ومهنته .. وهو ابن الحزب أيضا ..

ـ الحزب !! هذا واضح من كثرة التهاني الحزبية .. إنه ابن الحزب ؛ ولكن هذا صعود مبكر !

ـ كيف مبكر ؟! له عشر سنوات في الحزب .. والأمور ليست بالسنين إنها بالبروز والنشاط !

ـ اسمع قل بصراحة ألا يوجد قصة حب بينهما ؟ .. ليرضخ النقيب وأسرته لهذا الزواج!

ـ لا ، صدقي ذلك وإلا لأشارت الصحف المعارضة لذلك ، وغمزت في هذا الزواج .

ـ معقول !.. حتى أن بعضها تبارك له شخصيا ، فكثير من زملاء العمل السياسي يهنئونه ويكبرون خطوة النقيب ، ثم يتبعون التهنئة للنقيب بالتهنئة لمالك والعروس الدكتورة .. أكيد زوجتك منى سعيدة من ذلك؟!

ـ أليس العريس أخاها ؟! ولم لا تفرح يا سيدة عبير!

ـ أين سيسكن الفتى ؟!

ضحك برهان وقال : أنت مثل سكان حي برقوقة .. يسألون أين سيسكن ويعيش ابن الحي عند الزواج ؟.. ليس هناك أسرار سيقطن العرسان في حي برقوقة

ـ أوه !!

ـ مالك صعقت وصرخت ؟! .. هذا الشاب سوف ترونه يوما ما على كرسي الوزارة .. وقولي برهان قال! .. أنا أعرف مالكا جيدا وذا قدرات عجيبة في التفكير والإدارة والتخطيط .. فلتة من فلتات الزمان ، وإن يظهر للمتعرف عليه ابتداء أنه ليس كذلك !

ـ شكرا لك! والله يوم عرفتني به كان يوما سعيدا .. عندما يعلم أبي وأعمامي وأخوالي بذلك سيندمون على تطليق منى .

ضحك برهان ، ولم يغضب منها بالإشارة لزوجته وقال : هذه هي الدنيا يا عبير!

ـ شكرا ثانية أنت شجاع .. خفت أن لا تشبع فضولي .. سأقول لأبي وأنظر ماذا يكون رد فعلهم فأبي له علاقة بالنقيب عبد الكريم قبل أن يصبح نقيبا وقد التقوا كثيرا في حفلات خيرية .. بارك للأخت منى هذا الإنجاز .

ـ ابشري !

لما علم والد حازم من عبير من هو مالك نسيب الدكتور القانوني الكبير والمعروف عبد الكريم أبي عزام ، وأنه شقيق زوجة حازم الأولى والمطلقة دهش وعجب من ذلك ، ولما نظر في الصور التي قدمتها له عبير من بعض المجلات والصحف التفت لزوجته وقال : أرأيت يا فطوم ما تقول عبير؟!

قالت نافرة : عرفت قبل أن تقول عبير .. فبعض النساء تطوعن وقلن لي ذلك!

فالتفت ناصر لعبير وقال : وما أخبار تلك البنت يا عبير؟! .. هل تزوجت أم ما زالت مطلقة عزباء ؟!

ـ تزوجت زميلا لي أعرفه عندما كنت في الجامعة .

ـ زميل لك ، كيف ؟!

ـ بالصدفة عرفت .. شاب أنت تعرفه مدقق حسابات له سمعة طيبة في التدقيق .. الأستاذ برهان محمود .

رفع صوته استغرابا ودهشة وقال : برهان هو الذي تزوج منى ربيع طليقة حازم ..!!

ـ نعم يا أبي .. تعرف عليها أثناء عملها في شركة الثريات والأثاث وتزوجها، وهي سعيدة معه للغاية ، وأنجبت منه لليوم أربعة أطفال أو ثلاثة لا أدري بالضبط

ـ السيد برهان أعرفه والتقيت به عدة مرات في مناسبات مختلفة ، وهو شاب طموح وذكي في المحاسبة ، لقد عرفني عليه بعض الزملاء والعملاء .. هو نفسه زوج منى ربيع ؟!

ـ نعم يا أبي .. وهو الذي أغلق دين منى مع حازم .

هز رأسه وقال : علاقتكم جيدة !

ـ الشغل ، ثم يجر الشغل الأمور الخاصة .. إعلان قرأته في عدة صحف إعلانية تذكرته .. فاتصلت به فوجدته فعلا الزميل الذي درس معي في الجامعة ، ثم التقيت بمنى في مكتبه ذات صباح فظننتها عاملة عنده ؛ فإذا هي زوجته وشريكته في المكتب .

ـ إذن مالك الذي ناسب الأستاذ القانوني عبد الكريم هو شقيق منى ؟!

عبير : أجل يا أبي !

تنهد وقال: إذن هو يعلم أنني والد حازم زوج منى الأول ! نتمنى له التوفيق ونحن انتهى ما بيننا وبين منى ربيع .. أليس كذلك يا فاطمة ؟!

قالت الأم بضيق : بالتأكيد هؤلاء الناس من طينة ونحن من طينة .. اهتمي بعملك يا عبير وابحثي لك عن زوج ، فها أنت قفزت على ثلاثين وليس عندك ولد ولا بيت .

ـ الأبطال الذين يتطلعون إليّ ليسوا من طبقتنا .. أناس مثل برهان ومالك .. أولاد أصحاب الملايين لا ينظرون إليّ .. كم لأبي من الأصدقاء؟ ولك أنت أيضا ومع ذلك لليوم لم تتمكنوا من إيجاد رجل يقبلني زوجة دائمة !

صاحت أمها فيها : أنت خائبة كل أخواتك تزوجن وخلفن .. التهي بشغلك ودعيك من هؤلاء الناس .

كانت كلما تفكر بكلام أمها تتعجب من بغضها الشديد للفقراء أو أبناء الفقراء حتى ولو أصبحوا ميسوري الحال ، وأصبحوا من أهل المال والشهادات والأعمال .. ومع ذلك يبقون عند أمها فقراء .. فتلزم الصمت وتعود للإلتهاء بشغلها والمهمات التي تكلف بها من قبل والدها وشركائه .



وعندما دخل الصيف ورجع ربيع ربيع إلى بلده في إجازته السنوية كالمعتاد تم حفل زفاف السيد مالك ربيع على كريمة السيد عبد الكريم علي ، وتم الاحتفال في قاعة من قاعات النادي

للحزب الكبير، وشارك أناس كثير في هذا الحفل ، فمحبو مالك في برقوقة وغيرها حضروا حفل الزفاف ، وأصدقاء ومحبو النقيب والزملاء أيضا تواجدوا في قاعة الحفل ، وانتقلت الطبيبة هناء عبد الكريم إلى بيت زوجها في عمارة الربيع في شقة مالك في الطابق الثالث من العمارة ، ولقد كان الحفل مشهودا من الصحافة العامة والخاصة ، وكان فرح أهل برقوقة لا يوصف بزواج ابن حيهم من ابنة النقيب وكانوا يرونه زواجا نادرا من وجهة نظرهم .

كانت منى تنظر لأخيها قبل أن تعرف أنه يفكر بالزواج من ابنة النقيب القانوني المعروف في البلاد شرقا وغربا على أنه إنسان يكافح ويبحث عن المستوى الاجتماعي اللائق به ، وهي بلا شك تذكر موقفه الحاد معها ومنها عندما قررت الزواج بحازم .. كان رافضا لهذا الزواج بقوة ولكنه استسلم لقول ربيع وأمه .. وهي كانت لا تعتبر كلامه معها شيئا يستحق الاهتمام والرد والإقناع وأنه مجرد طفل ، وحتى عندما أصبح محاميا كانت ترى أن عمله مجرد وظيفة لتدر عليه دخلا ثم سيتزوج فتاة يلتهي بها كباقي البشر .. وأنه منغلق الفكر ، وربما تشبهه بزوج أمها خليل لحبه لحي برقوقة .. وحتى بعدما تزوجت برهان كان مالك بالنسبة لها الطفل الذي يصغرها بسنوات ، وأنه إنسان ليس لديه طموح رغم كثرة كتاباته للصحف والمجلات ونشاطه الحزبي ؛ لأنها لا تؤمن بالأحزاب وما تنادي به هذه الأحزاب ، وما فكرت مرة بقراءة مقال لأخيها ربما تقرأ عنوان المقال فقط .. فلما سمعت بمشروع زواجه من ابنة أحد كبار المحامين .. تغيرت الصورة النمطية في ذهنها قليلا .. رأى فتاة حسناء وأعجب بها .. وها هو بنى عمارة ليكون له بيت كباقي الشباب .. أما لما عرفت من هي الفتاة وما تحمل من شهادة طبيبة كبيرة ودراسة في الخارج وصبر سنوات على وعد أدركت أن أخاها رجل بمعنى الكلمة وأنه يتطلع للمجد وأنه صبور.. وأن ربيعا الذي جاراها قديما في أحلامها ومغامرتها لا شيء أمام مالك ، وأنها كانت جاهلة أو متجاهلة لقدرات مالك وطموحاته المعقولة .. وعجبت من قدرته الكبيرة على إخفاء شخصيته الحقيقية الشخصية القوية عن الناس ، والظهور أمامهم بالشخص البسيط الساذج .. وأخذت تدرك عمق تفكير مالك وسياسته وتفاعله مع الناس وأهمية انضوائه

للحزب الكبير أحد أهم أحزاب البلد .. ومع ذلك كان قليل الكلام عن ذلك النشاط والطموح وجعل أعماله وأفعاله تدفعه للإمام وتعرف به.. وأن أمامه مستقبل زاهر.. فبرهان يقول قد يصير وزيرا في يوم ما عن طريق الحزب والنقابة .. ومع هذا الطموح الموجود لديه كما يقول برهان ، وله هذه القدرات ، ومع ذلك يسكن في حي قديم حي تاريخي.. شوارعه الداخلية ضيقة .. فميله السياسي وحسن خلقه واهتمامه بالناس وقضاياهم يدفعون به للبقاء في حي قديم .. قاعدة شعبية بالمفهوم السياسي .. إذا فكر بالانتخابات ومقاعد البرلمان ستكون قاعدته أهل حي برقوقة أولا .. وكانت تنزعج جدا عندما تسمعه يتحدث مع حنين عن الحكم والمحكوم والحاكم والعدالة الاجتماعية فتعتقد أنه شاب فارغ.. أما هي فكانت تفكر وتحلم بالقصور والمال الكثير والرحلات العالمية والسهرات في أنحاء العالم .. وأما هو فيحلم بتحسين أحوال البلاد ، أحوال الناس ، رفع دخل الفرد في البلاد ، رفع مستوى الخدمات المقدمة للشعب في كل ربوع البلاد .. تحسين حال الضعفاء تحسين الحياة الاجتماعية للجميع رفع مستوى الطبقات الفقيرة

بعد زواج مالك عرفت من هو مالك ؟ فكانت تهمس لبرهان ببعض هذه الأفكار فيقول لها برهان : مالك فارس صادق مع نفسه ومع الآخرين .. وما هو انتهازي .. والحزب يحقق الطموح السياسي للفرد ، فاستفاد سريعا من فرصته عندما دخل الجامعة ، وربما يكون أحسن الاختيار والحزب المناسب لأفكاره وأحلامه .. فهو أحب برقوقة قبل التعرف على الحزب ، ثم أحب أن يصنع لنفسه قاعدة شعبية ، فكما يحب الحي فيريد أن يستثمر هذا الحب لنفسه ولأهل الحي .. فعندما يكبر ويصبح مؤهلا للانتخابات البرلمانية يكون مقبولا من العامة بشخصه وحيويته .. ليس بماله وشراء الأصوات كما هو معروف .. وها هو الحظ خدمه فتعرف على النقيب عبد الكريم ثم أصبح صهرا له ، وهو غير مزور بل واضح وشجاع .. والفتاة التي تزوجها ليست ساذجة وقليلة الثقافة ؛ بل ربما تكون ثقافتها أكبر من ثقافة مالك أو تعادلها.. وهي قد مالت إليه وتجاوزت كل التقاليد المتبعة عندهم فأعجبت به وبطموحه ، ولم تنظر ماذا

كان قديما؟ وهل يليق به أن يناسب عائلتهم الكبيرة والمعروفة ؟ فما دام والدها يجله ، وكذلك صديقه نضال يجله ويراه مناسبا لها ، فلم تتردد ولم تختر عليه من الآخرين .

ـ أنا لم أعرف أخي مالكا إلا عندما خطب ، وأظهر الخطبة على الملأ ، ثم عرفت من هم أهل برقوقة ؟ .. وكم يحبونه ؟! فالحب من الطرفين .. ليس مجرد ساكن بينهم وابن فلانة وفلان .. فعرفت معنى مهتم بقضاياهم ومطالبهم وسعيه معهم والتصاقه الكبير بهم ، أدى كل هذا ذلك اليوم ثماره ، وأن حياته المتواضعة في بيت خليل الحداد أكدت للناس أنه منهم ومثلهم .. أنا الآن قد أكون بدأت أفهم ابن أمي وأبي .

ـ مالك بسيط يا منى .. غير معقد .. يسعى لتحقيق أهدافه ككل إنسان يضع أهدافا نصب عينه لتحلو الحياة ؛ ولكن ببطء وهدوء وحسب الحاجة ، ويمكن أن يعدل ويغير في الأداء .. فمع تحزبه ونشاطه في الحزب فمن النادر أن يطلب من أحد أن يتحزب ، هو يحب نشر الوعي السياسي بين الشباب ، والشاب بنفسه يتجه للحزب المناسب .. هو إذا سنحت له الفرصة ذكر الحزب وأهدافه وأحلامه أمام الحاضرين .. فمن راق له الكلام خصه وتوسع معه في الموضوع فيما جرى ويجري في البلد بدون تضخيم وتكبير لموقف الحزب ، عرف الناس الحزب من الأفعال والنتائج .. هو معهم في كل قضية .. في دار البلدية في دار كذا وكذا .. مشكلة في مدرسة جاهز للمساعدة .. طالب عمل مشكلة مع أستاذ أو مديره ، طلبوا منه المساعدة ضحى بوقته وساعد في حل المشكلة أو التخفيف من أضرارها ونتائجها .. امرأة فقيرة تحتاج مساعدة يقوم ويرسلها للجهات المهمة .. وبمعرفته يساعد قدر الإمكان دون مبالغة .. هذه هي حيوية مالك ربيع .. قضايا سيئة يبتعد عنها .

ـ أتعرف كل ذلك عنه من أين ؟!

ـ أنا أُسأل عن ذلك .. عجيب أمرك يا منى ! .. من معاشرته .. من الجلوس معه في جلسات بعيدة عن النساء .. عن أم منى ومنى وغيرهن .. فمالك يعرف كيف يتكلم ؟ ومتى يتكلم ومن يخاطب ؟ فأمه لا تهمها سياسة واقتصاد ، فلماذا يملأ رأسها ويزعجها بالسياسة والاقتصاد

وقضايا وعواصف الوطن ؟! خليل يجب أن يتكلم عن الحدادة ومشاكل الحدادين والسوق والجيران .. فيتحدث معه عن الحدادة والجيران .. فلان مريض يذهبان معا لعيادته والسؤال عنه فلان في المستشفى اركب يا عم خمس ..عشر دقائق .. فلان عاوز مساعدة .. يساعده ، ما عنده كبر وتعالي ! ولما يجلس معي ونتحدث بالسياسة يتحدث معي بالسياسة ، ويبين رأي وموقف الحزب في القضية وتعليقهم وتحليلهم .. نتحدث عن الاقتصاد وسوق العمل .. يفعل فهو قارئ جيد للغاية .. يكتب كما تعلمين للصحف الكبيرة مقالات وأفكار وتعليقات جيدة .. صحيفة الحزب يكتب بها باستمرار من أيام الكلية فظهر وبرز اسمه .. الإعلام دعاية للشخص مجلات الحزب المتنوعة يكتب فيها أيضا باستمرار ومنذ سنوات .. ها هو يستعد بعد هذا الزواج للماجستير والدكتوراه !

فغرت منى فاها دهشة وقائلة : يريد أن يدرس ثانية ؟!

ـ هكذا تريد منه زوجته هناء .. وهذا ضروري حتى يصبح خبيرا كبيرا في القانون المحلي والدولي .

ـ والفلوس ؟!

ـ العمارة المؤجرة له نصيب فيها .. والمكتب .. والزوجة الطبيبة .

ـ لماذا لم يدرس قديما ؟!

ـ حاول الدراسة فترة ثم انقطع لظروف معينة .

ـ ظروف أي ظروف ؟! لم أسمع بذلك .

ضحك برهان ؛ لأنه يدرك أن منى لم تكن في هذه الفترة تهتم بإخوتها

وقال باسما : أعتقد بناء العمارة .. وأنا عرضت عليه المال يا منى فقال يكفي ما أخذنا منك .. واعلمي أنه دفع ألفين من جيبته في موضوع حازم .

ـ ألفان ! لم تقل لي ذلك ؟!

ـ حلفني أن لا أقول .

ـ ولماذا قلت ؟!

ـ انفعال ولتعلمي ذلك ، وليبق معلوما لديك للزمن ..هذا زمن يا منى أحداثه كثيرة ومتلاحقة وسأكفر عن يميني إن شاء الله تعالى .

قالت بتأثر وندم على ماض مازال يعشش في مخيلتها : أنا يا برهان كلما أتذكر صراخ مالك في وجهي واحتجاجه على تصرفاتي تدمع عيناي ، أيام كنت أظن أني عاقلة وعارفة الدنيا وأنها للأغنياء فقط .. أتسكرين يا منى وتحششين؟ ويصرخ في وجهي وهو يهدد بقبضته غضبا ، وأنا أصيح في وجه ابتعد عني لا دخل لك في حياتي وتصرفاتي .. اسكر .. احشش .. اسهر .. ولولا احترامه لأمي وخوفه من حدث لها ، وكذلك خجله من ربيع الأكبر منه كنت أظن أنه سيخنقني ويتخلص مني .. بل كنت أتخيله أو أحلم به يضغط على عنقي ، كنت أخاف وأصاب بالرعب من عصبيته .. ولكن كانت طباعي حادة .. ولما طلقني حازم .. سمعت منه كلاما يمزق ويدمي القلب وأشد من الطلاق كان عليّ هذا حازم الذي تاجرت فيه .. كم سمعت منه من الكلام القاسي ؟ .. ماذا استفدت من حازم أفندي ؟! .. سكر .. دخان .. سهر .. رقص .. عودي لأصلك .. انظري إلى حنين الصغيرة التي تفهم أكثر منك ، تعرف من هم أهلها وعاداتهم ؟ .. فأصفه بالغباء والتخلف والرجعية والعقد .. لي أيام وأيام أتذكر مثل هذه المشاهد والصور .. كان يخيل لي أنه يكرهني بشدة ، ويحقد عليّ ويريد الخلاص منى وربما كان أسعد بني آدم عندما عرف أنني تركت الخمر .. كان قلقا عليّ أن أسقط سقوطا مريعا في براثن الفجور والنوادي الليلة ..لأنني أخذت حرية أكثر من اللازم في نظره .

ـ ومع ذلك لم يحاول يوما أن يراقبك .. سلم الأمر لله ولدعاء أمه .. عندما يتكلم عن تلك الأيام يا منى تكاد الدموع تطفر من عينيه .. إنه يتألم عندما يسمع عن سقوط امرأة أو فتاة في مهاوي الشيطان ، وخصوصا إذا كانت عفيفة وشريفة وأهلها كذلك .. وكان يخشى أن لا تكوني عرفتيني على نفسك جيدا ، قصده على الأشياء التي اكتسبتيها من معاشرة حازم وأصحابه .. فلما عرف أنني أعرف كل شيء كاد لا يصدق أني إنسان عاقل .. وأخذ يعانقني ويبكي ، وسألته

مرة ألم تحاول التجسس عليها ؟ .. أتدرين ماذا قال ؟!

مسحت دموعا تساقطت على خديها وقالت : أيام سوداء .. ماذا قال ؟!

ـ قال أخاف .. كنت أخاف يا برهان أن أرى شيئا قبيحا لا أحب أن أنطق به على لساني لهوله فأفقد أعصابي وروحي ، فافعل شيئا لا تحمد عقباه وأنا له كاره .. أو لا أفعل شيئا .. كانت أيام عصيبة مرت في حياتي .. أخاف أن تضيع منى انتقاما من الحياة والفشل .. تضيع كما ضاعت آلاف الفتيات .. ولكن الله سلم وجاء المنقذ الأستاذ برهان محمود .. البطل .

فعلا كان مالك يرغب بالحصول على الشهادات العليا في القانون والمحاماة ، وحاول قديما أن يدرس الماجستير المرحلة التي تسبق الدكتوراه ، ثم انسحب للضغط المالي وانشغاله في بناء العمارة ، وأخذ يفكر بجد بعد زواجه أن يأخذ هذه الشهادات من سوربون فرنسا أو كامبردج بريطانيا إن تيسر له ذلك ، فشهادة الدول الأجنبية خاصة الأوربية الغربية لها قبول لدى العالم ، فالشهادة من بلاد العرب في هذا الزمان قيمتها ضعيفة عالميا داخل البلاد وخارج البلاد ، فترى الذي يحمل شهادة من أوروبا أو أمريكا له احترام وتقديم على غيره ممن يحمل نفس الشهادة ولو من بلده .. فتخلى مالك عن الدراسة أو المحاولة وانشغل بالبناء وانتظار الزواج ، ولما حصل الزواج وفرح بزوجه هناء ، وكانت الفتاة تعلم رغبة مالك تلك من أخيها نضال .. وأنه راغب بالدراسات العليا .. فلم يكد يمضي على زواجها أيام معدودات حتى ذكرته بتلك الرغبة ، وأن أموالها وما تملك من ثروة بين يديه .. فهي قد اشتغلت أثناء حياتها في لندن ، وبعد عودتها ، فهي تملك ثروة جيدة .. فوافق مالك بعد نقاش وحوار وجدال بالتي هي أحسن على الدراسة للقانون الدولي العام ، وهي تعمل في مستشفى على تدريب كاف في قسم النسائية والتوليد لتحصل على التخصص ، فراسل بعض الجامعات الأوروبية ، وجاءته عدة موافقات ، ومنها موافقة من إحدى جامعات بريطانيا بمساعدة أخوال هناء .. بقيت مشكلة أمه من سيبقى عندها ؟ صحيح هي عند زوجها ؛ ولكن لها حق كبير أن يبقى على الأقل أحدهم قريبا منها .. فتحدث مع ربيع بذلك الأمر .. فأبدى استعداده للاستقالة والعودة للوطن ، وأن لأمه حقا عليه

وأن لمالك الحق بالمزيد من العلم، وإنما هي سنوات معدودة ، فهو لم يخرج من البلد إلا في رحلات قصيرة .. وفعلا خلال أسابيع يسيرة كانت العائلة تستقبل ربيع وعائلته وذلك أمام دهشة الجميع ، وتفاجأ الأهل والمحبون بهذه العودة ، ووضح لهم مالك الأمر ، فأكبر الجميع هذه التضحية والإيثار من ربيع نحو أخيه مالك .. واعتذر مالك من أمه وزوج أمه وأختيه وبين لهم وجهة نظره .. فاقتنع الجميع بطموحه وأثنوا على ربيع أبي ساعد خيرا .. وودع الأهل والأحباب مالك ربيع وزوجته هناء عبد الكريم المسافرين لبلاد الإنجليز ، ولم يعترض أحد ، وقال ربيع : نعم ، من حق مالك أن يسافر وأرعى أمي .. فهو قد قام بالواجب وزيادة .

فشكروه على موقفه الشجاع والنبيل وحبه لأخيه ، فهما لا يحبان أن يتركا أمهما وزوجها بدون أحدهما .. فقدر لهم الناس والمعارف هذا الموقف .. وخلال أيام يسيرة كان المهندس ربيع يمسك عملا في إحدى الشركات الكبار .. وساعد في ذلك خبرته خلال هذه السنوات ، وكذلك والد هناء كما أوصاه مالك وابنته هناء ، فقام بالاتصال بمعارفه قبل عودة ربيع ، وكان مالك قد قام بفرش شقة ربيع حسب طلب ربيع ، فلما حضر ربيع صيف هذه السنة عندما تزوج مالك نزل في شقته المفروشة .. فلما رجع كانت الشقة جاهزة للسكن فيها مباشرة .. ولما يريد المولى سبحانه أن يصير أمر ما يسره ولا يرده أحد .. له الأمر من قبل ومن بعد !

بعد سفر مالك كانت منى ربيع تقول لبرهان : الأمور تسير سريعا يا أبا خليل .. إلى بريطانيا ابن أمي وأبي يرحل !

ـ الله يوفقه فمالك رضى الوالدة .. دائما أسمعها تدعو له وتثني عليه .. والأيام تمضي سريعا قبل هذا القرار العاجل والرحيل العاجل كانت قيادة الحزب تفكر أن تجعله في أكبر هيئة قيادية لنشاطه وكفاءته ولمصاهرته زعيم كبير من رجال الحزب .. فالسيد عبد الكريم من مؤسسي هذا الحزب منذ كان شابا متخرجا من الجامعة حديثا.. ولكنهم لما عرفوا رغبته بالسفر لبريطانيا والدراسة أجلوا القرار .. وأنا عن نفسي معجب بأخيك إعجاب لا يعلمه إلا الله سبحانه ، وقد يغيب عنا خمس سنوات ، وأنا من الآن أشعر بأنني فقدت جزءا من روحي وبدني .. نعم

الأخ والحبيب مالك .

ـ الله يجزيك الخير يا أبا خليل .. ومالك دائما يوصيني عليك ، ويذكرني بك وبطاعتك ، فهو يحبك في الله .. ويفرح عندما يراك في البيت ويهمس في أذني : برهان سيد وملك ! لما أره ينفتح له قلبي ، احذري أن يتضايق منك ولو عن مزح .. فأهمس له : إنه سيدي وأنا أسيرة عنده!.. هو حياتي يا رجل!.. فيفرح ويقول: أنت فعلا أختي وهذا العشم فيك .

فهمس برهان متأثرا : شعور متبادل إن شاء الله ، وأنا أحبكم في الله الذي لا إله إلا هو الفرد الصمد .. أنا يا منى كلما أراك معي وتحدثينني أستغرب عم كان يقال لي عنك. آه ! عندما أتذكر كلام سعد الدين عندما طلب يد أختك وهو يتحدث عنك بخوف ورعب ، وأنت تتحدثين معه بعجرفة وتعالي .. وإنك وإنك .. أتخيل أنك جبار يسعى في الأرض .. ولا رحمة ولا شفقة فقالت باسمة : ما أقسى ما حمل عني! .. لا أنكر أنني كنت غبية وعصبية أكثر من اللازم .. كنت أرى أنَّ أفكاري وثقافتي خير الفكر والثقافة .. أنا أتكلم لغة الإنجليز أقرأ ما يكتب بلسانهم .. كان تأثير المدرسين عليّ في الجامعة كبير .. كانوا يغرسون فينا أفكارا سيئة عن التخلف العربي والإسلامي ، ويحدثوننا عن محاسنهم والديمقراطية والحقوق .. فأرى كل تصرف من مالك وأمي وخليل تصرفا عبيطا وغبيا .. وأن الحياة الثروة الكبيرة والمال الكثير حتى صدمت عند الزواج الأول كيف رفض أهله المتحررين المتغربين دخولي حياتهم ؟! .. فتحديت التقاليد وصممت على الزواج على طريقتي الخاصة .. ولما حدث الطلاق بالصورة التي تعرفها زاد ارتباكي وتشتتي .. وجاء زواج حنين من سعد الدين الجاهل الأمي يومذاك في نظري هدما لكل أفكاري ..

ـ سألته ذات مرة بعد زواجنا عنك فيقول ضاحكا منى التي عرفتها عندما تقدمت للزواج من حنين غير التي تزوجتك ونأخذ بالضحك ، وأقول له صدق أننا التقينا بضع مرات وكل كلامنا كان عن الأثاث وفتح المكتب وشركاء .. لم ندخل في قصة غرام وغسل دماغ فلا يصدق وربما لليوم لا يصدق .

ـ أنا اعتذرت له عن تلك الساعات المرعبة، وعن موقفي الحاد منه .. وشكرته ألف مرة على فكرته الغريبة التي أنقذتني فعلا من الحيرة ووهم الحرية وعلى اختيارك عريسا لي .. كثيرا ما تسحرنا تلك الأفكار الكبرى والشعارات الواسعة الرنانة .. فنتمسك بها ولا نمحصها .. أنت أمير حياتي يا أبا خليل ! وتستحق الشكر في كل ثانية .. شكرا لله الذي رماك عليّ ..

ـ منى عندي فكرة تراودني منذ زمن وأنا متردد في طرحها عليك !

ـ فكرة ! وما هي الفكرة هذه؟!

ـ الدراسة !

ـ الدراسة ! من يدرس أنا أم أنت ؟!

ـ أنت طبعا .. أفكر أن تدرسين دراسات عليا حتى تحصلين الدكتوراه ، وخلال هذه السنوات سأقوم وبمساعدة إخوتي وإخوتك بإنشاء شركة خاصة لإنشاء وبناء مدرسة خاصة .. ولما تنهين دراستك تكون المدرسة قد جهزت .. فأنت شابة ناضجة .

ـ آه .. كم بغضت التعليم والتدريس يا برهان ؟

ـ الشهادة العليا تعطيك قوة ومركزا في الوسط التعليمي ، وصدقي أن خير قطاع لعمل النساء هو التدريس .. يكون أغلب المجتمع الذي تتعاملين معه من النساء والبنات.. فيكون هناك العمل بحرية وانطلاق وابتعاد عن تقليد ومراعاة الجنس الآخر .

ـ فلسفة إذن ؟!

ـ فكري بجد .. فأنت ذكية وتقرئين بالإنجليزية وتجيدينها، وهذا شهادة تفتح الأفق أمامك ، وستكون الدراسة أمامك سهلة .. المهم الإرادة الصادقة .. صدقي لو الشهادة العليا تفيدني شخصيا في عملي لسعيت إليها .. فعمل المكتب عندي عال للغاية كما تعلمين ..

وعدته منى بالتفكير وبعدما فكرت وتناقشت بالفكرة مع أختها حنين التي شجعتها لآخر درجة فقالت لها منى : ولماذا لا ندرس معا ؟!

قالت حنين : أحب ذلك ؛ ولكني رضيت بمهمة ربة بيت أكثر من الدراسة .. فأنا أحب

الأمومة والبيت ، وربما إذا أنشأتم مدرسة قد اشتغل معكم .. مع أنني لم اشتغل بالتدريس منذ تخرجت .. البيت حياتي وسري ، أنا مشكلتي ـ إذا كانت مشكلة ـ لا أحب العمل خارج البيت وحتى أناس يطلبون مني تدريس أبنائهم دروس خصوصية فاعتذر .. ولا تظني أن زوجي يمنعني من العمل والتدريس .. فكل أخواته المتعلمات يشتغلن بشهادتهن .

فبعد تشجيع حنين لمنى وافقت على فكرة برهان ، وطلبت منه أن تدرس بدون علم أحد إلا هو وحنين حتى ترى نفسها هل تستطيع الدراسة والاستمرار فيها أم لا ؟ .. فبعد نظر قال : لا بأس ؛ ولكن إذا عرف أحد لا تتعاملي مع الموضوع بحساسية .. فهذه سنوات وليس ساعات وليعرف الناس ! ثم عندما تندمجين في الدراسة لن تهتمي بالناس وحديث الناس .

سجلت منى للماجستير في إحدى الجامعات المحلية ، وبعد حين يسير سجلت لدراسة تربوية عليا تسمى الدبلوم التربوي لمدة عام واحد .. وكان برهان ينفق عليها بسخاء .. فعمله يدر عليه دخلا جيدا .. بل كان يفكر بتوسيع المكتب قبل أن يقنع منى بالدراسة العليا .. هو يعلم طموحات زوجته الكبيرة وأحلامها الكبيرة وأنها استسلمت لأفكاره وسيطرته عليها .. وأنها تراه ملاكا هبط عليها من السماء .. فما يقوله ويعرضه تقبله وتسلم له تسليما كاملا وإن تناقشا حوله .. فهي ترى أن أفكاره صائبة وملهمة .. فهي اعتبرته الفارس الذي هبط عليها لينقذها من الضياع والحيرة ، ويحفظ سمعة عائلتها وشرفها من السقوط .. فما أوحى به إليها تنفذه عن رضا وحب ودون تردد .. مع أنها لم تحب وتهوى التدريس يوما مع أنها تحمل بكالوريوس لغة إنجليزية ، وهذا تخصص مقبول في كل المدارس العامة والخاصة .. لم تفكر بالعمل معلمة بل تبغض هذه الوظيفة .. فلما حثها على الدراسة العليا وأنه يفكر بتكوين مدرسة .. أقنعت نفسها بالقبول والرضا بها ، ونفذت رغبته ، إنها كثيرا ما تحاول فهم سيطرة برهان عليها لدرجة أنها لا تقول لا .. فلم تفهم السر ؛ ولكنها كانت سعيدة ، وترى أن زوجها أنجح زوج في العالم .. هي عندما فارقت زوجها الأول وطلقها اعتقدت أن حياتها كامرأة صالحة ونافعة انتهت ، ولا تظن أن رجلا يفكر بها كزوجة وحبيبة .. قد يتزوجها مطلق لتربي له أطفاله أو أرمل لنفس

الغاية ، أما أن يتقدم لها رجل بكر لم يتزوج فكان احتمالا ضئيلا .. وإن فكرت بشيء من ذلك فترى أن رجلا عجوزا له عدة نساء يرضى أن يضمها لنسائه عطفا وإحسانا .. فكان الزواج الجيد من جديد في نظرها بعيد المنال .. فالبنات كثير، وربما أكثر من الذكور في المدينة .. فلذلك كان كلام برهان وطلباته أوامر لا تقبل الرد .. ومع ذلك الانقياد التام لم تره زوجا متسلطا أو جشعا أو بخيلا .. إنما تراه يبحث عن سعادتها وسعادة أبنائه الأربعة .. ويعمل من أجلها وأجلهم .. لم يتعامل معها خلال هذه السنوات على أنها مطلقة أو أنه تصدق عليها بهذا الزواج وأنه يريد إذلالها وتحقيرها .. إنه يتعامل معها على أنها حبيبة وصديقة وأم أطفاله وأنها امرأة فاضلة .. فحتى الدين الذي سدده عنها لم يقف عنده كثيرا ، وتعهد بسداده قبل أن يشاورها .. فقد دفع الجزء الأكبر منه دون تردد واستبطاء .. إنه دائما يقدم سعادتها على سعادته وإن حياتها كأم لم تكن مرهقة .. تعمل ساعات قليلة ثم تعود لبيتها .. وأمه تقبل حضانتهم أثناء غيابها بكل أريحية وحب مع أن أحفادها كثر فهذه أفعال ومشاعر تأسر الإنسان ..

تقدمت للدراسة المزدوجة بقوة وحذر وترقب أيضا .. فهي لم تفكر بعد تخرجها الجامعي الأول بالدراسة العليا .. كانت تريد المال سريعا .. ولكنها تتذكر الظروف عندما تخرجت وأسرعت لسوق العمل من أجل الأسرة ، كان عندها هذا الهم .. فالعم خليل لم يقصر خلال كل هذه السنوات ، الأقربون صمتوا ولم يفعلوا شيئا لهم .. كان خليل الحداد ينفق بدون ضجر وملل ومنة .. عجيب هذا الإنسان .. علم إخوته وقابلوه بالجحود ولم تره يعيب عليهم إلا عندما مرض ذات سنة ، يومها شعر بأن لا أهل له إلا هم أولاد جميلة .. لم تكن أنانية ، هي تعلم حجم الجهاد الذي قدمه خليل زوج أمها لها ولأخوتها .. ومع ذلك لم يأخذ منهم شيئا لحتى اليوم .. وما زال كما تقول أمها يشارك في مصروف ونفقات البيت ولو بشكل رمزي .. إنه إنسان رائع يعادل برهان في الطيبة والشهامة والإيثار.. فلما كانت منى تفكر بخليل تتعجب من بعد أهله عنه ، وهو بهذه الأريحية والطيبة .. فتتسأل لماذا إخوته خالد ومنير لا يتعرفان عليه ؟! .. أليس هو أخاهم ؟ .. صحيح هو أخوهم من جهة الأب فقط ؛ ولكنه الأخ الأكبر لهم ! .. فخليل

إنسان طيب ويحب الناس .. ولا يكره ولا يعادي .. هل فقط لأنه اعترض على تعليم أخواته في ذلك الزمان يكرهونه ؟!

غرقت في تفكير عميق في هذه النقطة .. فلم تجد سرا أو شيئا غامضا .. فهو رجل ذو سلوك حسن ، يحترم الآخرين والجيران وإن كان فيه حدة وعصبية لكنها تذهب سريعا .. لم تذكر أنه تشاجر مع جيرانه يوما ما .. فقط مرة تشاجر مع زوج أخته صبرية وتقاطعوا سنوات على أثرها فلم تصل إلى معرفة شيء ولسبب مقنع لهذه العداوة بينهم .. فكرت أن تتحدث مع عمها خليل لعله يوضح لها السر .. فكانت أمها تحبذ ألا يتحدث معه أحد بذلك .. فإنه يتضايق .. تذكرت المرة التي مرض فيها وأدخل المستشفى ورقد فيها أسبوعا .. كم كان غضبه عليهم شديدا ؟! وكم كان ممنونا لهم يريد أن يضع الدنيا بين أيديهم ؟! .. إنهم وقفوا معه بأنهم نقلوه للمستشفى وعادوه فيه .. فاعتبر ذلك معروفا كبيرا .. وهذا المعروف يقدم لكل محتاج وجار ..

أقدمت منى على الدراسة بتردد وقلق ، وبعد حين بدأت تتأقلم مع القراءة والمراجعة والاستذكار .. وقف معها برهان بكل جدية وتعاون .. وأخذ هو يدرس فكرة إنشاء مدرسة بشكل جدي كذلك .

فكان بين أمرين إما البناء أو الاستئجار .. الاستئجار أسهل وأخف ماليا في المرحلة الأولى .. فتشاور مع إخوته أو بعضهم ، فبعضهم شجع وبعضهم توقف وفضل عدم إبداء رأيه.. فهم يحبون التعاون والمشاركة في المشاريع .. فالمهندس عبد الرحيم مكث سنوات وهو يخطط لبناء مصنع المعادن وها هو ينهض على قدميه .

فكانت فكرة بناء مدرسة فكرة مشجعة ولها سوق واعد .. فطلبوا من برهان إعداد دراسة أولية عنها ، وعن الموقع المناسب لها .. وهل تكون للذكور أو الإناث أو مدرستان واحدة للذكور وأخرى للإناث ؟ .. مراحل التدريس .. جميع المراحل أم التدرج .. فأخذ برهان جميع الملاحظات ، وبدأ يفكر بالأمر ويشاور ويناقش مع الأصدقاء ورجال المال .. حتى أن أحدا من أصحاب المال عرض أن يفتح له مدرسة ويكون هو المسؤول عنها .. فاعتذر عن ذلك وهو

يقول : أنا أريد أن يكون هذا المشروع خاصا بي يا سيدي .. أنا لا أبحث عن ممول واحد ، وربما أنا لا أعمل في المدرسة إلا مدقق حسابات فقط .. ولكنه وعده إن فشل في تدبير الشركاء أن يستعين به في إقامة المشروع .



شراء مدرسة

أمضى برهان شهورا يدرس مشروع بناء مدرسة ، وقام بدراسة الأمر .. مدرسة كبيرة أم مدرسة صغيرة جنس واحد أم جنسان .. وذات يوم اتصلت امرأة ببرهان وذكرت له أنها تملك مدرسة صغيرة وترغب ببيعها ، وذكرت له أيضا أنه هنالك إمكانية لتوسيع هذه المدرسة ، فأخذ منها العنوان وذهب للقائها ببيتها وبصحبته زوجته منى .. ولما وصل لبيتها فوجدها تسكن في فيلا كبيرة .. وفتح لهم بواب الفيلا ، ورحب بهم وساقهم لسيدة الفيلا وعاد لبابه .. وجلسوا في الصالون ينتظرونها ، وبعد دقائق أقبلت عليهم امرأة فوق الأربعين هكذا قدرها برهان ، وعليها مسحة كبيرة من الحسن والجمال والاحترام ، وبعد التحية والترحيب قالت : أنا نازك حاتم مربية ومعلمة ولي أخ يعرفك يا أخ برهان .

تنحنح برهان بصوت هادئ وقال: تشرفنا .. ومن هو؟! فعملي يا سيدتي الفاضلة يسمح لي بالتعرف على أشخاص كثر .

ـ إنه مراد حاتم !

ـ نعم ، أعرفه حق المعرفة ! صاحب شركة سيارات ، ومعه وكالة مهمة في شارع زرياب .. صح ؟

ـ نعم هو .. يبدو أنك ذكرت أمامه حاجتك لشراء مدرسة ، لتستثمر أموالك فيها .. فتذكرني ؛ لأنني منذ فترة قد قررت بيع مدرستي ، وأن أسافر لأوروبا عند ابني .. فأنا منذ سنة واحدة قد فقدت زوجي وترملت .. وأصبحت في البيت وحيدة ، فدعاني ابني للحياة معه في أوروبا .. فأعطاني مراد رقمك رقم هاتفك لأتصل بك .

قام الزوجان بالتعزية والمواساة والدعاء وقال برهان: أعرف الأخ مراد ، وبارك الله فيك .. فمراد أعرفه معرفة جيدة .. أين هذه المدرسة وكم فصل دراسي فيها ؟

قالت المرأة : ستراها على الطبيعة أنت وزوجتك الأخت منى كما ذكرتم لي .. يا مرحبا بكم .. بعدما نشرب القهوة سنذهب .

ودخلت الخادمة أو الشغالة بصينية عليها ثلاثة فناجين للقهوة ، ورشف الجميع فناجينهم ، وكان برهان يعرفها على نشاطه وعمله بأنه صاحب مكتب تدقيق مالي وحسابات منذ سنوات ثم ركبت المرأة سيارتها ، وانطلقت أمامهم إلى المدرسة التي أنشأها لها زوجها قبل وفاته بسنوات ؛ لتكون هي المسؤولة عنها ومديرة لها .

رحبت نائبة المديرة والمعلمات بالمديرة نازك وضيوفها .. وتفرج برهان ومنى على بناء المدرسة وكانت مدرسة صغيرة تتكون من خمسة فصول دراسة ، فقط أطفال صغار .. ومكاتب إدارة ومكتبة ومختبر وساحة صغيرة .. وتبين لبرهان أنه يمكنه تحديثها وإنشاء طوابق جديدة ومسموح البناء في تلك المنطقة .. ولما عادوا للإدارة شكرها برهان وقال : يوم أو يومان أرد لك خبرا .. فهي صغيرة ولكن كما ذكرت يمكن توسيعها ، وبجوارها أرض خالية لم يبنَ عليها ، ربما تمكنّا أيضا من شرائها .. فنصنع عليها ساحة للعب .. وكم تريدين ثمنا لهذا البناء والترخيص؟

ـ عندما توافق مبدئيا على الشراء سنتفق .. فأنت صديق مراد وأوصاني أخي عليك ، وإذا اشتريتم فهؤلاء العاملات حافظوا عليهن ، فلهن سمعة طيبة عند التلاميذ والأهالي .

ـ أكيد يا سيدتي الفاضلة .. قريبا سأتصل بك ثانية .

ـ آ يا منى لم تتكلمي منذ دخلنا هنا ؟!

تبسمت منى وقالت : لا شيء لديّ يا سيدتي .. لا بأس بها ، كخطوة أولى لنا جيدة يا برهان .

شربوا العصير المثلج ، وشكروا السيدة والمعلمات الأخريات ، وانصرف برهان وزوجته عائدين للمكتب ، وخلال العودة استطلع رأي منى فكررت العبارة التي قالتها في المدرسة .

فقال برهان : ممكن تحديث المدرسة أو هدمها وبنائها من جديد وبتصميم جديد إذا تم الشراء للقطعة المجاورة .. عندما أسمع وأعلم كم تطلب سأحاول تطويرها لمدرسة متوسطة الحجم للإناث ، وربما اجعل المشروع خاصا بنا فقط واعتذر لأخوتي .. فلي قطعة أرض اشتريتها قديما قبل أن نتعرف على منى ، وبعد أن اشتغلت في البنك .. وهي حوالي خمسة دونمات .. فسأعرضها

على أخي المهندس فهو شريكي في المكان له خمسة ولي خمسة .. أو نُكون شركة ونبحث عن بناء آخر ونجعله مدرسة للذكور ، وإذا نجح المشروع نفتح فروعا أخرى في مناطق أخرى في المدينة فالتعليم الخاص يحقق نجاحا لدى الناس في هذه الأيام

ـ هذا أفضل من الانفراد الكامل .. فأنتم ما زلتم تتشاركون في المشاريع الضخمة والكبيرة يا أبا خليل .

ـ أعرف هذا .. أنا لا أفكر بالتخلي عن الشراكة مع الإخوة ، لكنّ بعضهم غير متحمس للمشروع لا أريد أن يشاركوا خجلا .. وستحل المشكلة إن شاء الله إذا كان هناك مشكلة .. المهم إذا اشترينا هذه المدرسة ستصبحين مديرة عليها فورا بدلا من المديرة نازك .. وتبقين الكادر كما هو اعتبري نفسك بينهم ضيفة حتى تنتهي الدراسة العليا وتصبحين دكتورة .

ـ رائع هذا !.. أتدرب على الإدارة المدرسية ، وأتعلم كيف التعامل مع المعلمات والأهالي والطلبة الصغار؟

ـ إن شاء الله سنتفق على السعر .. حتى أعرض الأرض للبيع

ـ على بركة الله .

تشاور برهان مع بعض إخوته في أمر المدرسة التي عرضت عليه ، فقال له أخوه الدكتور عبد القادر : ممتاز ! قبل أن نبني مدرسة كبيرة تكون هذه نواة .. أنا أعرف أن التعليم قطاع تجاري واعد والاستثمار فيه جيد ، ولكن الكثير من الناس يدبون عليه .. نحن نساعدك في شراء هذه المدرسة كقرض حسن لك ولأم خليل .. وعلى ضوء تجربتكما ونجاحها نكبر المشروع وننشئ مدرسة فخمة ، ونضم لها هذه المدرسة وندفع لك المبلغ المناسب .

قال المهندس عبد الرحيم : هذا أحسن من الدخول في مشروع كبير ، شراء وإنشاء مباني وشراء باصات وتعاقد مع مدرسين فرأي أبي حسن جيد .. لما تعرف الثمن نقرر كيف سيدفع الدين ولا داعي لبيع قطعة الأرض اليوم .

وعلق باقي الأخوة وكلهم أبدى استعداده للمساهمة في قرض حسن لأخيهم برهان وزوجته

منى .. وترك بيع الأرض ، ثم تقوم التجربة للمشروع الأكبر في المستقبل .

ولقي هذا الاقتراح هوى وراحة لدى برهان ومنى أيضا .. فهي فرصة لامتلاك مدرسة صغيرة وتدريب منى على إدارتها ، ووافقوا أيضا على دعمه لشراء الأرض المجاورة لها على سبيل القرض الحسن .. فشكرهم برهان الشكر الجزيل وعانقهم فردا فردا معربا عن امتنانه لهم جميعهم ولنسائهم اللواتي شاركن في المشاورة ، ثم قال الوالد : وأنا سأكون معكم في القرض الحسن .. وأنا مستعد للتنازل عنه إذا قبل أبو خليل .

فشكرت منى والد زوجها وأخوته ، وأثنت على تجمعهم وحبهم واتفاقهم ، فشكروها بدورهم وهم يرجون لها النجاح التام في إدارة هذه المدرسة .

عندما اتصل برهان بالسيدة نازك وأخبرها بأنه فكر ودرس الموضوع ، وأنه أصبح جاهزا للشراء إذا ناسبه الثمن المعروض ، فدعته لزيارتها في الوقت المناسب له والعاجل بالنسبة لها للحديث حول الثمن ، فلبى الدعوة وساق منى وانطلق إليها ثانية ، وبعد مجاملات طلبت المرأة ثمن الأرض والبناء والرخصة عشرين ألف دينار .. فوافق برهان دون تردد وجدال ، فقد كان يضع ويقدر لهذه المشروع خمسين ألف من الدنانير ، وهو قد دهش من هذا السعر ؛ لأن المدرسة تعتبر في حي من أحياء المدينة الراقية ، وعادة تكون أثمان الأراضي والمباني والإيجارات فيها مرتفعة .. وأمام الدهشة التي أصابته من السعر صمت ولم يفاصل ويساوم ، وخلال أيام كان مكتب صديقه مالك يوقع له عقد البيع والشراء مع السيدة نازك ، حتى أن برهان بعد إتمام الصفقة اتصل بأخيها حاتم وسأله عن سبب بيع أخته للمدرسة بعد أن عرفه بنفسه وأنه اشترى العقار منها ، فقال له حاتم : بارك الله لك يا صديقي ! أختي منذ مات زوجها قد زهدت في الدنيا والعمل .. وهي ليس لها إلا ولد وبنت .. البنت ماتت بحادث منذ سنوات ، وعلى أثر موتها تعب زوجها وقبل سنة لحق بابنته .. وهي قد ورثت ثروة كبيرة عنهما .. وهذه المدرسة قديمة يا صاحبي فباعتها على سعرها القديم ، وهي ستسافر إلى ابنها في أوروبا للحياة عنده بقية العمر .. ومرة أخرى بارك الله لك .

ـ إنها سيدة فاضلة .. شكرا لك .

تم نقل ملكية المدرسة للسيد برهان محمود الذي رفضت شريكته منى أن يكتبها باسمها فتعجب برهان من ذلك .

ورحبت المعلمات بالصديقة منى ، وأبدين الاستعداد التام للتعاون معها كما كن يتعاملن مع أم شريف ، وتعرف برهان وزوجته على السائقين العاملين في المدرسة ، وعلى الحارس ، وعلى خادمة المدرسة ، وطلبوا منهم الاستمرار على ما كانوا عليه ، وأنه لن يحدث أي تغيير حتى نهاية الموسم الدراسي ، ثم تجدد العقود في الإعداد للموسم الدراسي القادم .

وأخذ برهان يسعى لشراء الأرض المجاورة .. لم يقترض برهان من إخوته أي مبلغ ، واستغرب إخوته لزهد المبلغ المدفوع مع أن المدرسة تقع في ضاحية راقية .

وتفاجأ أهل منى بالمشروع الجديد بعدما قصت عليهم منى أنها صارت مديرة مدرسة صغيرة وشاركوها الفرحة والابتهاج ، وأبدى ربيع لصهره برهان المساعدة بأي مبلغ عند شراء الأرض المجاورة .. وكان ربيع ومالك قد سددا دين برهان ، وبقي القليل من دين سعد الدين ووالده وكان ربيع يفكر بتركيب المصعد الكهربائي للعمارة الذي أجلوه لحين .

وأرسل مالك تهنئة خاصة لمنى وبرهان، وكان مما قاله في رسالته لمنى ... كنت أحب لك هذه المهنة منذ أول يوم تخرجت فيه من الجامعة ؛ ولكن أقول سبحان الله !! ولله في خلقه شؤون ، وقدر الله وما شاء فعل أيتها الأخت الحبيبة .. وخطوة جيدة وإلى الأمام يا ابنة الكرام ...

وتلقت تحية واتصال من هناء .. وقد فرحت منى بتعليق مالك الحبيب .. وكانت منى تذهب للمدرسة في الصباح ساعتين من الزمن ، ثم تعود للبيت والاستعداد للذهاب للجامعة .. ثم تفاجأ ربيع والعائلة مرة أخرى بعودة منى للدراسة من جديد ، فأثنى ربيع على زوجها برهان الثناء الجزيل واعتبره عملة نادرة في هذه الأيام .. فمنذ اقترن بمنى لم تشكُ منه يوما ما ولو شكوى بسيطة .. بل كانت تعترف أنها عاجزة عن شكره إلا باللفظ دون الأفعال ، وتود أن ترد ولو شيئا من معروفه وكرمه معها ، فتعجب لضعفها وعجزها من تقديم الشكر ورد الجميل

له ولزوج أمها خليل .. فهم لا ينقصهم المال والسعادة .. فتدعو لهم بقول جزاكم الله خيرا ، وكان صاحبنا برهان من أسرة طيبة يعرفون

الأدب والحلال والحرام ، ويعرفون العيب ، وهو رجل ناضج .

خلال شهور تمكن برهان محمود الدين من شراء الأرض المجاورة للمدرسة ، وطفق يتصل بالمهندسين والمصممين لإجراء تصميم مقبول ولائق بتحديث المدرسة الصغيرة .. وهذا لم يكن صعبا على ابن السوق .. وتقرر بدء الإنشاء عند بداية العطلة الصيفية للطلاب.. ورصد الأموال اللازمة كما بينها ووضحها له المهندسون المعماريون والمدنيون .. وأرسل له مالك خمسة آلاف جنيه إسترليني هدية منه لأخته .. وبعدد تردد قبلها برهان على اعتبار أنهم أسرة واحدة ، وسرت منى لتصرف أخيها ولفة ذكية وكريمة ، وعرفت قيمة الأخوة أكثر من ذي قبل رغم ما كان بينهم من جفاء قبل زواجها من برهان ، وهو كما علمنا قد أصبح من ضمن الماضي الذي ذهب مع حازم ناصر .. وفوجئت منى أيضا بمبلغ آخر من مالك أرسله إليها خاصة لما علم بدراستها للماجستير والدبلوم المهني في التربية ، مما دعا برهان أن يتحدث معه بالهاتف ، فأقنعه مالك بقبوله وأن لا يأخذ الموضوع بحساسية ، وأن منى غالية عليه ، وأنه مهما دفع من مال لها فهو يسير، فهي التي ساهمت بدراسته ودراسة حنين مع ربيع أيضا .. وبين له أن يعمل في بريطانيا منذ وطئت قدماه البلاد فأخوال زوجته أصحاب مصالح وأعمال مهمة وكبيرة في البلاد فالأموال كثيرة ، وأنه أرسل لحنين مالا وحثها على الدراسة مثل منى ؛ ولكنها تصر على حياة الأم داخل بيتها ، وربة بيت كأمها وأنها سعيدة بأطفالها وزوجها .. وأنه أرسل لها ثمن سيارة والمال قد وصل لربيع .

كان كرم مالك مثيرا للدهشة مع أنه كريم منذ عرفوه ؛ ولكن أموال بريطانيا كثيرة ، وأخوال هناء وفروا لهم العمل فور استقرارهم ، فوجدوا العمل والراحة والدراسة .. بل أحبوا مالكا واستلطفوه وهنئوا هناء على حسن اختيارها ، وأنجبت له المولود الأول هناك وقد سموه برهان فلم علم برهان بذلك سجد لله شكرا ، وزاد حب مالك في قلبه وعلم أكثر صدق ومقدار حب

مالك له ، وأما منى فلما سمعت من زوجها الخبر ذرفت الدموع تأثرا بتسمية مالك لمولوده الأول على اسم زوجها .. فقام الزوجان بشراء هدية خاصة وثمينة وإرسالها بطرد بريدي للمولود ، واتصلوا بالهاتف شاكرين ومتأثرين فقال لهم مالك : والله هذا أقل القليل .. فبرهان حبيبنا وأخونا الكبير والفارس الجميل في حياتنا وأسرتنا.

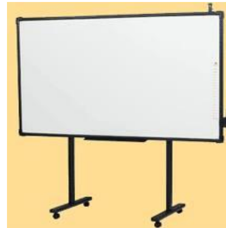
كانت أخبار مالك وتقدمه هناك تفرح أهله ومحبوه ، والكل ينتظر عودته بفارغ الصبر.. وحتى صحف الحزب التي كان معها على اتصال بالمقالات والخواطر والأفكار ذكرت نجاحه وتقدمه في أبحاث الجامعة وهنئوه بالمولود وتمنوا له المزيد من التوفيق والنجاح والعودة لتراب الوطن سالما عالما .

قالت عبير مرة لأمها مناكفة : أرأيت يا أمي نسيبنا السابق .. يدرس في بريطانيا القانون الدولي وولدت له امرأته ولدا فسماه برهان تيمنا باسم صاحبه وصديقه وزوج أخته منى ربيع ؟!

فتمتمت الأم بحقد وضيق وقالت : يا عبير! ألم أقل إنني لا أحب سماع اسم هذه المرأة أمامي

ـ المهم أن الصحف تتحدث عن نشاطه وأخباره هناك ، وهو يعيش في بريطانيا .

ـ وما يعنيننا هذا ؟!



خليل في بريطانيا

مالك ربيع منذ سافر كما ذكرنا آنفا ظل على اتصال دائم بصحف الحزب وغيرها، ويمدها بأفكاره ومقالاته ومشاهداته في بلاد الإنجليز ، وتنشر له الصحيفة اليومية والمجلة الشهرية والصحيفة الأسبوعية .. فقد ظل على تواصل مع قرائه ومحبيه ، وكما هو بارع في المحاماة ، وكذلك في الصحافة التي نشط فيها منذ أيام الكلية ، فقد كان خطيبا مفوها في مهرجانات وحفلات الحزب وفي قاعات المحاكم .

وكما يقال غائب بجسمه حاضر بروحه ، ولا ننسى زوجته هناء ، كانت تكتب بين الحين والآخر للصحف المختلفة ، ومنذ الصغر وهي تشارك في الكتابة ، فقد نشرت بعض القصص القصيرة الشائعة في هذا الزمان .. فقد نشرت لها عدة صحف متداولة في البلد قصصها ، بل كانت تكتب لمجلات ثقافية خارج القطر والمصر .. ولديها أيضا محاولات شعرية ، وإن لم تكن بالقوة والبراعة التي في كتابة القصص القصيرة والخواطر والنشرات العلمية .. وقد حاولت كتابة الرواية الرومانسية ولكنها لم توفق .. وكانت تقرأ لكثير من الشعراء ، وكان لها مقال دائم في مجلة طبية يرعاها الحزب ، ولها صداقة قوية مع مديرة التحرير لتلك المجلة ، وحتى لما ذهبت لبريطانيا قبل سنوات ظلت تواصل الكتابة والنشر لمجلتها المفضلة ، وتكتب أحيانا لصحف الحزب الأخرى ، وكانت أثناء الجامعة عضو مهم في الحزب ونشيط بين النساء المثقفات ، فهي معروفة وإن كانت شهرة والدها تغطي عليها وعلى إخوتها العاملين مثلها في الحزب .. فقد كانت تعلق وتنتقد .. وكان والدهم له تأثير كبير عليهم في دفعهم للانخراط في العمل السياسي مبكرين وعاملين ليسوا خاملين .. فنضال شخص مرموق في الحزب لا يقل عن مالك همة ونشاطا وظهورا .. فحياتهم في الغرب الأوروبي لم تمنعهم من الحياة وجدانيا وعاطفيا مع وطنهم وهمومه ومشاكله الكثيرة التي لا تنقضي ولا تنتهي .

ولما تعرف أخوال هناء على مالك زوج بنت أختهم معرفة حقيقية فرحوا به ، وكان أكثرهم فرحا خالها سامي وهو بروفيسور وأكاديمي معروف في إحدى الجامعات الإنجليزية ، وحثه

على البقاء في بريطانيا وأن يسعى للعمل الأكاديمي فيها . وبين له مالك تعلقه الكبر بأهله وببلده وأمه وإخوته .

لقد كانت دراسة مالك في بريطانيا تمشي بكل توفيق من الله تعالى ، وكان يتحرك بين المحاضرات والمحاكم ومكاتب المحاماة ، والمستشفى الذي تشتغل فيه هناء ، وللمزيد من الشهادات الطبية والعلمية ، وقد تعرف مالك على أخوال زوجته المهاجرين منذ عهد بعيد ، وتعرف على كثير من أبنائهم ، وكان يشاركهم في دعواتهم ومناسباتهم ، وسعد جدا عندما وضعت هناء مولودها الأول ، فسماه برهان على اسم زوج أخته السيد برهان محمود ، وكان فرحا به وعق عنه يوم سابعه ، ودعا بعض المعارف وبعض أخوال زوجته وأبنائهم وزوجاتهم وملأ الطفل عليهم البيت صياحا وبكاء وأعطى للحياة مذاقا آخر، وكانت هناء في غاية السرور بهذا المولود رغم مشاق الحمل والولادة ، فهو حياة جديدة ، وأجمل شيء في الكون أن تصبح المرأة أما ، فهنا تكون التضحية والإيثار والسهر والإرضاع بدون مقابل إلا بسمة بريئة تتكون على وجه الرضيع .

وكان مالك فرحا بما يصل إليه من أخبار أخته منى واشتغالها بالتدريس الذي كان يتمناه لها قديما ، فلم يجد ليعبر لها عن حبه لها وفرحه بمشروع شراء المدرسة إلا المال ، فقدم ما تحدثنا عنه وأهدى لأخته حنين محاولا العدل والبر مقابل ذلك ثمن سيارة كلف ربيع بشرائها .

ولما أنهى الشاب الماجستير في القانون نزل البلاد في إجازة قصيرة مدة شهر للكرة الثانية والحصول على الدكتوراه كما خطط ورسم .. وأمضى الشهر في أحضان الأم والأهل والأصدقاء والأصهار ، وقبل أن يغادر للندن عرض على أمه والحداد خليل السفر معهم لزيارة بلاد الإنجليز والنظر للبلد التي استعمرت الكثير من البلاد في القرون الخالية .. فوجدت الدعوى قبولا لدى السيد خليل .. وبعد تردد يسير راقت الفكرة لجميلة أم ربيع .. فليس كل حين يلوح للمرء زيارة تلك البلاد ، وقد وعدتهم هناء بإجراء فحوصات طبية لهم في مشافي بريطانيا ذات الشهرة العالمية .. وبالفعل سافر خليل وجميلة إلى بلاد الضباب والبرد والبلاد التي يقال عن حريتها الواسعة .

ووجدا الود من أقارب هناء ، وامضوا عدة أسابيع ممتعة في بريطانيا ، بلاد الاستعمار والحضارة الإنجليزية .. ولما عادوا لبلدهم كان في استقبالهم في المطار الدولي ربيع أبو ساعد وسعد الدين أبو سعدي وبرهان أبو خليل وزوجاتهم وأولادهم الغلمان .

وقد لمحوا الفرح والسعادة عليهم من هذه الرحلة التي لم تخطر لهم في بال في يوم من الأيام خليل الحداد يدخل بريطانيا بلد تشرتشل ومونتغمري والملكة فيكتوريا وشارل ديكنز .



بريطانيا هي مملكة تسمى المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية .. وتتألف هذه المملكة من إنجلترا وويلز وإسكتلندا وإيرلندا الشمالية ، يزيد سكانها على الخمسين مليون .. ومناخ بريطانيا معتدل رغم تعرضه لتقلبات جوية متكررة ..الحرارة لا تتجاوز الثلاثين مئوية ولا تقل عن عشر درجات تحت الصفر .. يوجد فيها ثمانون ميناء بحريا تجاريا ، وأهم مطاراتها مطار هيثرو في لندن ، وأشهر جامعتها أكسفورد و كامبردج .. وقصر باكنجهام مقر إقامة ملوك وملكات بريطانيا ، لندن هي عاصمة المملكة وعاصمة إنجلترا خاصة ، عملة بريطانيا الجنيه الإسترليني ويقسم إلى مائة بنس ، واللغة الرسمية هي اللغة الإنجليزية .

تزخر العاصمة لندن بالحياة والمباني الأثرية التاريخية ، فهناك متحف لندن الذي يحكي تاريخ هذه المدينة منذ العهود القديمة ، ومن أشهر حدائقها حديقة هايد بارك مساحتها ٥٥ هكتارا تضم أكثر من ٣٠٠٠ نوع من الأشجار والنباتات البريطانية الغريبة .



كان مالك عندما يجلس مع زوجته تسمعه يكثر من الحديث عن خليل ويثني عليه ، ويذكر ما قدمه لهم وهم صغار أيتام ، فحينئذ تدرك فضل هذا الحداد عليهم ورعايتهم صغارا .. وترى كيف سخره الله ليكون لهم أب ؟ فوالدهم مات ولم يترك لهم شيئا يذكر ، وأعمامهم تخلوا عنهم

لفقرهم هم الآخرون ، فإعالة أسرة عند الفقير لأمر قاس .. والأخوال قدموا النزر اليسير جدا فقد كان أولادهم صغارا مثل أولاد جميلة ، ولديهم أسر كثيرة العيال ، ودخلهم المادي ضيق ، فجاء الفرج على يد هذا الحداد ، وقدم الغالي والرخيص دون ابتغاء جزاء منهم .. فأعجبت وأكبرت الفتاة هذا الرجل الذي قدم ولم ينتظر جزاء ولا شكورا ، وكانت تعرف حب مالك لبرهان ، ومع ذلك لما تسأله عن برهان فيقول باسما شاكرا حامدا : برهان !.. هو الذي أعاد لنا حلاوة وجمال الحياة يا هناء .. أنا كنت أعيش في كابوس دائم ، في توتر وقلق على منى لا يعلمه إلا الرب المعبود .. منى كانت قد اختارت طريقا كاد أن يهلكنا لم تحسن اختيار الزوج .. نظرت فقط للمال والثروة التي يملكها والداه .. هذا الكلام عن زوج منى الأول .. وإن كان هذا الزوج مجرد موظف صغير ويحمل لقب نائب المدير .. وكنت أنا صغيرا في أول سنوات الجامعة .. وعندما عرضت هذا الزوج على العائلة حاولت الاعتراض والرفض ؛ ولكن اعتراضي لا قيمة له عند منى يومذاك وضعيفا ، ومنى البكر وعمرها وصل لربع قرن وقد رفضت كثيرا من شباب الحي من أجلي أنا وحنين والعائلة .. مع أن ربيعا أنهى الجامعة بعدها بسنة وشارك في تحمل أعباء العائلة ، والعم خليل ما زال ينفق علينا بسخاء كعادته .. وللأسف كان أخي الأكبر ألعوبة في يدها ويخاف ويخجل ويغير رأيه بسرعة ، وساعدت في تعليمه في السنة الأخيرة مع العم خليل فكان أسيرا لها .. المهم حكمت علينا بأن نخرج من حي برقوقة لإتمام زواجها من ذلك الشاب ، واستأجرت لنا بيتا في حي الرحمات أجمل أحياء العاصمة ، فعلت الكثير للزواج ممن كانت تراه أنه سيضعها على سلم رجال الأعمال والمال .. لقد كانت مبهورة بالحرية التي يتحدث عنها مدرسوها في الجامعة .. فرأت تطبيقها علينا ونسيت واقعنا وأين نعيش ونسكن أهل هذا الشاب الغني بغنى أبيه وأمه حاربوا هذا الزواج بشدة وقوة ؛ لأنه لم يرق لهم ولا يناسب مستواهم الاجتماعي .. لماذا لليوم لا نعلم ؟! ولكن الشابين أصرا عليه وتزوجا رغم أنف الجميع ، هو رغم أنف أهله ، وهي رغم أنوفنا ، وإن تظاهرنا بالرضا خشية هربها أو تتخطى دور ربيع القائم بمقام الولي والأب .. ورغم طلاق أمنا من خليل .. بالطبع رفض عمي

أبو أحمد هذه الطريقة وطلق أمنا ومع ذلك لم تهتم منى وتزوجا .. وتعلمت منه شرب الخمر والدخان والسهر والمجون من رقص وغيره .. المهم فشل وتحطم هذا الزواج بضغط من أسرة الشاب ، فتحطمت منى معه ولم تقبل أي علاج نفسي .. وهرب الزوج لأمريكا مثقلا بالديون والهموم آملا بالثروة في بلد الدولار .. سكنت معنا ولسوء أخلاقها تلك الأيام رفضت أنا وحنين حياتها معنا وهي تشرب الخمر والدخان .. وبعد مشاكل وشجار ولسع كلماتنا ، وأمام تكبرها وتعجرفها وعنادها استأجرت بيتا قريبا منا .. وكانت بعد سفر الزوج المدين والهارب تعمل في معرض أثاث مكتبي وغيره .. آه يا هناء كانت أيام سوداء ومخيفة للرجل الشريف ، ونخشى عليها السقوط والانحدار في الفواحش والملاهي وخاصة لما أعلن طلاقها من أمريكا بواسطة محامي والد الشاب .. ولكن الله سلم ولطف .. كانت مستقلة عنا لها حياتها الخاصة .. حتى تخرجت أنا وحنين .. وكان العم خليل قد تزوج بعد طلاقه لأمنا ؛ ولكنها ماتت بسبب علل فيها وانتهاء الأجل المحتوم ، فتدخل ابن أخت خليل الأستاذ عدنان ـ وهو متزوج من ابنة أخت أمي ـ وربيع أخي فتزوج خليل أمنا ثانية ، وعدنا لحي برقوقة الذي أحببناه صغارا وكبارا وتزوجت حنين من سعد الدين ونحن في المهجر في حي رحمات .. وظلت منى وحدها في حي الرحمات .

كانت هناء تسمع باهتمام لهذه المعلومات الجديدة ، هي كانت قد سمعت أن منى تزوجت وطلقت ثم تزوجها برهان ؛ ولكنها لم تسمع مثل هذه التفاصيل إلا اليوم ، ولم تسمع عن طلاق جميلة من خليل ثم عودتها إليه ثانية ، فقالت وهي مشدوهة بهذه القصة الإنسانية : أين دور برهان الذي فتح عليك كل هذا الكلام ؟!

ـ أنت أكيد تسألت كثيرا .. لماذا اقترح هذا الزوج تسمية بكره برهان ؟ .. هل فقط لأن زوج أخته اسمه برهان وبينهما ود وحب واحترام ؟! .. برهان ظهر دوره بعد زواج حنين من سعد الدين .. كانت منى تريد عرقلة زواج حنين من سعد الدين من شاب غير متعلم في الجامعة ؛ ولكن حنين الطيبة أصرت على الزواج منه عن رضا وقناعة .. وسعد هذا دهش من اعتراض

منى الحاد على شخصه ، وأنه طلب الزواج من حنين ليس منها لترفضه .. وجلس معها عدة جلسات فتعقد من أفكارها ومنها أيضا ، وخشي على زواجه منها .. فخطر في باله خاطر غريب يتلخص بأن صاحبه برهان معروف بين الأصدقاء بالمصباح .

ـ المصباح ؟! .. ماذا تعني بالمصباح ؟!

ضحك مالك وقال ضاحكا : نعم المصباح .. أنت رأيت برهان ، فلن أصفه لك .. فمن حسنه ووسامته كانت فتيات الحي المراهقات يطاردنه ويتلقى رسائلهن وإشاراتهن ويتسلى بهن ، الفتى المحبوب .. ولما انتقل للجامعة كانت أيضا فتيات الكلية طبعا اللواتي ما زلن مراهقات يدرن حوله وكل واحدة تحاول صيده ، وأن تحبه أو تعيش معه قصة عاطفية .. القصص المعروفة لديك.. فصار عنده خبرة بالغزل والمشاكسة والجلوس معهن في ساحات الجامعة وغابات الجامعة .. وكان له صديقات أيام المراهقة والثانوية ثم أيام الجامعة ، فشبهه أصحابه بالمصباح الذي تحوم وتدور حوله الفراشات ، تشبيه لطيف إلى حد ما .. فخطر لسعد صهرنا العزيز أن يجرب برهان غزلياته القديمة مع منى ربيع لعلها تهواه وتقع في حبه ويتزوجان .. سعد يريده أن يلعب اللعبة القديمة ، بعد تفكير وتردد رضي برهان بلعب هذا الدور .. وأطلع سعد حنين على هذا الدور والفكرة وبعد الموافقة وإقناع برهان بها سحبا العرض ؛ خشيا على منى أن تتعلق بالشاب ويستنكف عن الزواج بأن لا تروق له منى .. وكان برهان لذلك السن لم يتزوج بعد ولم يخطب .. فلغوا الاتفاق ، وتظاهر برهان بالرضا والاستسلام لرغبتهما .. ولف حول منى التي عرفه سعد عليها قبل إلغاء العرض على شخصها عندما خرجت ذات مساء من مكان عملها فتعرف برهان بحيلة ذكية على منى وتصادقا دون أن تقع في هواه كما كان يظن ويرسم .. بل هو الذي أحبها واقتنع بها كزوجة .. ولكنها لما عرض عليها الزواج منه قبلته ، بعدما اتفقا على أن تترك الخمر قبل حدوث الزواج ففعلت .. وبعدما كتبا كتاب الزواج تخلت عن الدخان لما عرفت أنه لا يدخن .. ثم أخذت تتغير شيئا فشيئا .. والحمد لله عادت للحياة من جديد .. وتخلت عن كل تلك العادات التي اكتسبتها من عملها السابق وزواجها الأول .. كان انقلاب

كبير يا هناء ! .. وكانت منى تفعل كل ما يوحي به برهان ولا تقول لا ، ومع ذلك تدعي أنها لا تحبه .. وبعد ولادتها لابنها خليل الذي سماه سميا لزوج أمنا .. أقرت له بالحب .. أما أنا وحنين فقد غمرنا الفرح وعادت إلينا الحياة الضاحكة وشكرنا مولانا عزّ وجل الشرف غالي يا هناء .. سقطة واحدة تخرب الدنيا !

فعلقت هناء التي اندمجت بسماع القصة : هو فعلا بطل .. سمعت اعترافها بحبها الكبير لبرهان منها وأنه أعطاها حياة جديدة .. ولكنها تفاصيل مثيرة يا أبا برهان .. وحنين تحدثت بشيء يسير عن برهان وهي مثلك تراه ملاكا هبط عليكم .. وتقول نحن فرحنا وسعدنا بزواج برهان ومنى أكثر من منى نفسها .. مع أن منى شخصية هادئة ومحببة .

ـ أنت عرفتيها بعد زواجها من الفارس الصديق والأخ الكبير برهان .. لو كنت تعرفينها قبل لقائها ببرهان لكنت تندهشين وربما لا تصدقين .. كانت دائما تحب الرفض والمعارضة .. فلو بقيت على ما كانت عليه قبل لقائها ببرهان ، فقد تكون ستعترض على زواجنا ، كانت تعتبر المجلببات فتيات مريضات ومعقدات ومقهورات من الكلام الأجوف والفارغ المعروف عند دعاة الانحلال والفسوق .. كانت بوقا لهم .. فلما صارا زوجين لعمري ما سمعتها تقول له لا وهو ذكي وفطن أيضا لم يدعها تحتاج لهذه الكلمة يوما ما .. فلليوم ما زلت أنا وحنين مستغربين من شخصيتها أمام برهان .. وحتى نسيبنا سعد الدين يقول لي منى التي عرفتها في رحمات غير منى التي عرفتها في برقوقة ، ولا يقع في خلدك أنه جبار وقاس .. لا .. لا .. إنه إنسان بسيط ، ولا يحب تعقيد الأمور ؛ ولكن له أسلوب ذكي في عرض الأمور ومناقشتها للوصول للنتيجة التي يرغب فيها هو .. ولا يقع في قلبك يا هناء أن الرجل كان زير نساء .. رغم ما حدثتك عنه من مغامراته العاطفية .. إنما كان يراها نوعا من اللهو والتسلية في تلك الأيام .. أنا أقول ذلك حتى لا يذهب بك الظن إلى خلق سيئ في الرجل .. حتى قبل الزواج من منى كانت بعض عاملات البنك العازبات يحاولن التغرير به .. فلم يكترث ولم يتزوج أي واحدة منهن .. وأقسم لي أنه ما زنى بامرأة قط ، رغم الفرص والفتن التي وقع فيها ولكن الله حفظه ونجاه .. والحافظ

هو الله تعالى .

وأخذت هناء تثني على برهان ومنى ، وتدعو الله لهما بالثبات وحسن الختام ، فشكرها بدوره مالك ، وعرفت حينئذ لماذا اختار مالك هذا الاسم لابنه البكر؟ ثم انتقل الحديث بينهما لموضع آخر فقالت : الكتاب .. ماذا فعلت بالكتاب؟!

ـ ذهبت مع ابن خالك محمد إلى دار نشر هنا ، وبعد أيام سيردون عليّ ، وهم يرغبون بترجمة الكتاب إذا وافقوا على النشر .. فما رأيك بأن تترجميه للإنجليزية أنت ؟ إذا كان لديك وقت .. فهم يريدون أن يصدر بطبعتين إنجليزية لتوزع في أوروبا وعربية للشرق العربي وعرب أوروبا

ـ لي ابنة خال إنجليزية أكثر من الإنجليز سأتشاور معها ونترجمه معا إذا حصل أي تفاهم بينك وبين دار النشر ، ولسوف أتحدث معها قريبا .. فهي مغرمة بالأدب الغربي ، ونشرت العديد من الترجمات لكتب وقصص عربية .. وإنجليزية للعربية .. وأنت تعرفها .. فزوجها طبيب جراح في المستشفى الذي أعمل فيه .. علا ابنة خالي عماد .

تذكرها مالك وزوجها وقال: خيرا إن شاء الله .. اذهبي لزيارتها ، نحن نباشر بالترجمة قبل موافقة دار النشر .. فإذا رفضوا سنعرضه على غيرهم .. قال لي ابن خالك محمد إن دور النشر كثيرة هنا ، ربما يحتاج الإنسان لطبعه كتابه أو ديوانه أن يعرضه على عشرين أو ثلاثين دار نشر حتى تقبله واحدة .. فقلت له لي سنتان أصنف فيه وأكتب فيه منذ سكنت لندن فلسنا بعجلة .

ـ دور النشر كما تعلم عندها أولويات .. أنا قرأته كله كما تعلم ، فالكتاب ممتاز ، فالعلم والحديث عنه مهم فالكتاب يوضح للناس الاهتمام بالعلم ، وكيف كان العلم عند المسلمين إبان حضارتهم التليدة ؟ ومشجعا للشباب المسلم وغير المسلم على مواصلة رسالة العلم .. بل قرأت كل المسودات قبل أن تبيضه .. ولسوف يلقى قبولا إن شاء الله عند المثقفين .. وسأدفع بعض الأصدقاء الإنجليز إذا ترجم وطبع للحديث عنه في صحفهم ومجلاتهم

ـ كنت أريد نشره في البلاد ، ولكن صاحبنا زياد نبهني أنه لا يجوز نشر الكتاب في أكثر من دار للنشر إلا بالاتفاق بين الناشرين لحفظ حقوق النشر والتأليف.. فأنا أعرف هذه الإشكالية ؛

ولكن في بلادنا يتساهلون فيها مع أن القوانين تمنعها .. فيمكن نشر المصنف في بلدين دون اتفاق دور النشر .

ـ إذن أنا سأهتم بترجمته مع ابنة خالي ـ إن شاء الله ـ قريبا ، خلال شهر واحد سيكون مترجما الترجمة الأولى ثم تراجع وتكتب على الآلة الكاتبة ثم يصور .. وفي أي لحظة يحصل الاتفاق مع أي دار نشر ستكون ترجمته جاهزة .

ـ وها أنا قد بدأت أضع خطة لكتاب عن الأدب العربي في أول الحضارة الإسلامية وعهد الصحابة الأوائل والأمويين .. وقد نصنف أنا وأنت كتابا مشتركا عن بعض الشعراء نذكر فيه قبسا من حياتهم وقبسا من أشعارهم .. فننشره أولا في الصحافة المهاجرة ثم نحوله لكتاب

ـ إذا وفقت في نشر بعض أعمالك هنا سأحاول أن أفعل مثلك .. فلدي الكثير من الكتابات الأدبية والعلمية .

ـ ما رأيك بأن ننشئ دار نشر ومكتبة كبيرة عندما نعود للبلد ؟

ـ تحتاج لتفرغ يا أبا برهان .

ـ يا سيدتي لن نعمل فيها بأنفسنا .. لعلي أجد من الأحباب من يقوم على إدارتها ، ولي أصحاب عشاق للأدب والذوق الفني والأدبي .. سأكتب لبرهان زوج أختي في هذا الموضوع

استقالة معلمة

كانت المدرسة التي اشتراها برهان تتكون من خمسة صفوف بين روضة أطفال والتعليم الابتدائي الأساسي ، وهم خليط من الجنسين .. وتم إنشاء عشرة فصول أخرى ، فأصبح بإمكان المدرسة تدريس سنتين قبل المرحلة الأساسية الإلزامية ، ثم الصف الأول والثاني والثالث والرابع فقط .. وبقيت صفوف خالية تستوعب الطلاب كلما تقدموا حتى الصف الرابع الابتدائي .

أبقت منى المعلمات الخمسة العاملات ، وأبقت نائبة المديرة السابقة ، وعينت مجموعة أخرى من صديقات المعلمات العاملات في مدرستها ، وكانت نائب المديرة المعلمة سلمى خليل معلمة قديرة وذات علاقة واسعة في المنطقة .. وكانت منى تعتمد عليها اعتمادا كليا.. فكانت تأتي صباحا وتمكث في المدرسة حتى خروج التلاميذ الصغار ذكورا وإناثا للاستراحة ، ثم تنصرف للبيت أو غيره بعد عودتهم للفصول .. فكل اعتمادها كان على السيدة سلمى ، وكانت هذه المعلمة عند حسن ظن برهان ومنى .. وكانت منى تعود للبيت قبل الظهر رغم أن دراستها كلها مساء .. ولكنها أحبت أن تبقى تقوم بدورها في البيت كما كانت في المكتب.. فهي عندها أربعة أطفال .. ثم أنهت الماجستير، وناقشت الرسالة العلمية وحققت النجاح المطلوب ، وكانت قبله قد أنهت بشهور دراسة الدبلوم التربوي ، وقد بذلت جهودا جبارة خلال السنتين الماضيتين ؛ ولكن تمكنها من اللغة الأجنبية تمكنا ممتازا قد ساعدها في تحقيق الإنجاز والنجاح.. فهي قد عملت سنوات في الشركات في قطاع الترجمة فظلت على اتصال باللغة الأجنبية .. وحتى لما نكحت السيد برهان لم تنقطع عن قراءة الأدب الأمريكي والإنجليزي بلغة القوم .. فظلت على تواصل مع تلك اللغة .. فلما أنهت دراسة الماجستير وسجلت للدكتوراه كانت تقضي الأيام التي لا تذهب بها للجامعة كاملة في المدرسة .. ومع ذلك كان اعتمادها كبيرا على سلمى التي كانت تشتغل كأن المدرسة لها، وهي التي كانت علاقتها قوية بالأهالي، ويرسل الناس أبناءهم للمدرسة على سمعتها وشهرتها ..وهي التي تأتي بمعلمة مكان معلمة انتقلت أو استقالت..

فهي صاحبة الاختصاص، ومنى تقر كل تصرفاتها وتبدي سرورها لهمتها وقدرتها ونشاطها وإخلاصها ، ولم تقصر معها في الجانب المادي والحوافز .. وكان الأهالي أكثر معرفتهم وعلاقتهم خلال السنوات بسلمى أكثر من منى .. فكانت منى تعتبر نفسها ضيفة عليهم وعلى المدرسة ومشرفة تربوية .. كانت المدرسة ناجحة كما تبين لبرهان من تدقيق ومتابعة حسابات المدرسة حتى بدأ يتشجع لإنشاء مجموعة مدراس بأن يشكل شركة تعليمية ضخمة ؛ ولكن إخوته طلبوا منه التريث ، فمدرسته ليس لها إلا سنتان ودخلت في الثالثة ، وهي تقع في منطقة أغلب سكانها من ذوي الدخل المرتفع ، والمدارس دعاية وشهرة .. بل طرح عليهم أخوه عبد القادر أن ينشئوا مصنع دواء .. فالدواء له سوق كبير في الداخل والخارج ، وكان ابنه البكر قد تخرج صيدلانيا منذ سنوات ، وهو يستعد لأخذ دكتوراه في الصيدلة .. فوجد عبد القادر تشجيعا من الأخوة ، وطلبوا من الصيدلي محمد الاهتمام بالموضوع فالاستثمار في القطاع الصحي له سوق نشيط هذه الأيام .. فاستسلم برهان لرغبتهم وقال : أنا خلال هذه السنة سأسدد لكم ديونكم إن شاء الله تعالى ، وعندما تنشئون المصنع أنا مستعد لشراء أسهم أم سيكون شركة خاصة مثل مصنع عبد الرحيم ؟

ـ نفكر بأن يكون شركة خاصة كما فعلنا في مصنع الحديد والمعادن .. الأقارب والأصدقاء فحسب .

ـ أنا معكم ؛ ولكنني سأستمر في نشاطي بقطاع التعليم ، ربما أستعين بإخوة منى وأشاركهم في بناء مدرستين كبيرتين .

فقال المهندس عبد الرحيم : لا بأس .. افعل ما تشاء .. المهم اعمل مدرسة واحدة كبيرة إما للذكور وإما للإناث .. ونحن في المستقبل إذا رأينا تقدما واضحا ومفيدا للجميع نشارك معكم في تضخيم المشروع .



أخذ برهان موافقة إخوته على مشروعه في إنشاء مدرسة كبيرة ، ويريد الآن شركاء بعدما

رفضوا المشاركة في هذه المرحلة أيضا .. فتحدث مع ربيع ومع سعد الدين ابدوا استعدادهم للمشاركة بنسب معينة ، حتى إن مالكا عندما تحدث معه برهان بمشروعه الجديد قال : سأساهم أنا وزوجتي وأولاد حماي عبد الكريم .

فسر برهان من مشاركة الجميع ، وبدأ يخطط لشراء الأرض في المكان المناسب .

ذات صباح بينما المديرة منى تجلس في مكتبها المدرسي تشرب الشاي دخلت عليها مساعدتها سلمى وبعد المجاملات التقليدية قالت لها : المعلمة التي تم تعيينها حديثا منذ أسبوع المعلمة سلوى فراس ..

ـ ما بالها ؟ .. هل تريد أن تستقيل ؟

ـ لأ ؛ ولكنها ترغب بالحديث معك في موضوع خاص .

ـ خيرا إن شاء الله .. فلتتفضل .

ـ خاص خاص .. عائلي!

ـ عائلي .. ماذا تقصدين ؟! دعيها تدخل .. أم هي في الفصل ؟

ـ هي فراغ ليس عندها درس .. معلمة الإنجليزية في فصلها .

ـ دعيها تأتي .. أنا مستغرب للموضوع العائلي .. لم أفهم معنى عائلي!!

خرجت سلمى وعادت بعد قليل بالمعلمة سلوى ، رحبت بها منى كعادتها ، وطلبت منهما الجلوس ، وطلبت للجميع قهوة من شغالة المدرسة أم أحمد ..

وقالت منى : أهلا بك .. الأخت سلمى تقول إنك تريدينني في موضوع عائلي خاص تفضلي

ـ أنت لم تعرفيني؟! أدركت ذلك منذ تقابلنا من أجل العمل معكم ، وكانت معنا المعلمة الفاضلة سلمى .

ـ أجل .. أنا لم أعرفك ؛ لأنني لا أظن أننا التقينا قبل ذلك اليوم .. أتعرفينني أنت قبل تعارفنا هنا ؟!

ـ نعم .. ألا تعرفين مدام اسمها عبير ناصر؟

جفلت منى وتململت في مقعدها وقالت : بلى ! وما زلنا أصدقاء .

تفاجأت الأخرى بالجواب وقالت : أصدقاء ؟!

ـ نعم .. أصدقاء .

ـ لم أفهم بعد ؟!

تبسمت أم خليل وقالت : أنت عرفيني على نفسك ، وسوف أعرفك ما تجهلين أو ما أربكك

ردت سلوى : أنا ابنة خالة عبير!

رددت منى : ابنة خالة عبير ناصر مديرة شركة التجارة العالمية !

ـ آ .

ـ يا أهلا وسهلا بك .. أنا لا أعرفك حقا إلا لما انتسبت لمدرستنا هذه .. وأنا وعبير رغم ما جرى بيني وبين أخيها ما زلنا أصدقاء .. ولابد أنك تعرفين ما جرى بيني وبين السيد حازم .

ـ أجل يا عزيزتي .. أنا لما رأيتك في المقابلة عرفتك .. أنا معلمة متقاعدة ، كما ذكرت لكم سابقا ونحن أثرياء طبعا والعمل هنا للتسلية ولحبي للتعليم .

لم تتكلم منى ، وتابعت سلوى الكلام قائلة : أنا جد فخورة بك يا أخت منى رغم ما سببه ابن خالتي لك من تعاسة ، وهذا أمر مضى منذ سنوات .. فأنا أعرفك عندما كنت تعملين في الشركة مع عبير وحازم .. وذلك عندما كنت أمر على عبير في حاجة ما .. فرأيتك أكثر من مرة ، وربما ألقيت عليك التحية ، فكانت عبير لا تحب لنا الجلوس مع العاملات معها .. وهي أيامها كانت غاضبة ناقمة عليك على ما أذكر لمَ كان بينك وبين أخيها حازم .. فلما رأيتك يوم المقابلة التي رتبتها الأخت سلمى تذكرتك جيدا ، وسامحيني بأن ذكرت للأخت سلمى بعضا من قصتك .

نظرت منى لسلمى وقالت : سلمى أخت عزيزة .. وها أنا أتكلم أمامها ، ولم أطلب منها أن تتركنا .. هذا ليس سرا .. هذا فعل حدث ومضى ، وعشرات من الناس يعرفونه .. ولست أول امرأة تتزوج وتفشل في زواجها ، ثم توفق بفضل الله في زواج آخر .. أليس كذلك يا أخت سلمى ؟!

ـ طبعا .. أنت سيدة رائعة يا منى ! وتفرضين احترامك على الآخرين .. فأنا لا أذكر أنني سمعتك ترفعين صوتك عليّ أو على أيّ معلمة .. وهذا الأمر الذي أحبت أن تكشفه لك الأخت سلوى يا أم خليل ..

فقالت المرأة : ذكرت أنك صديقة لعبير ابنة خالتي كيف ذلك ؟!

ضحكت منى وقالت : هذا ما أربكك إذن .. نعم نحن أصدقاء رغم ما جرى .. وقد التقينا أكثر من مرة بعد طلاقي من أخيها .. ولها شغل خاص مع مكتب زوجي برهان .. زوجي له شركة تدقيق محاسبي ، وله تعاملات مع عبير وبعض أقاربكم أيضا .. بس للأسف لا أعرف أحدا منكم إلا عبير .. وزوجي صديق لها منذ أيام الجامعة .. عندما كانا يدرسان معا .. الزواج حظ يا أخت سلوى ، فإذا الإنسان لم يوفق في جانب ، ربما يوفق في آخر .. فمرحبا بك يا أخت سلوى ، فأنت عزيزة وصديقة أيضا .. بس الذي أرغب أن أعرفه لليوم يا أخت سلوى ! هو لماذا خالتك أم حازم كانت تكرهني وتبغضني؟! مع أنني لم أرها يوما ما ، وهي لم ترني على ما أعتقد زوج خالتك رأيته في الشركة عدة مرات .. ولم يحدث بيننا كلام سوى التحية والسلام !

ـ ونحن صدقيني لا ندري .. نحن تفاجئنا يومذاك من رفضهم الزواج منك ، ولم نعرف السبب وقد تعجبين إذا قلت إن خالتي هي سبب الرفض الرئيسي .. وحتى منعتنا من المشاركة في العرس !

ـ على كل أشكرك ، وإذا عرفت في يوم من الأيام هذا السر الغريب وسبب الرفض فخبريني به فأنا أحب أن أسمعه .

ـ وأحب أن أذكر لك أيتها الأخت الفاضلة .. أن زوجك السابق الأخ حازم هو زوج أختي ولهما بنت طفلة تدرس هنا .. وربما درس بعض أولاده هنا قبل استلامك لأدارتها .

ـ صدقي أيتها الأخت المحترمة .. أنني لا أعرف آباء هؤلاء الأطفال .. ربما القليل .. فالعبء الكبير حقيقة واقع على كتف أو أكتاف الفاضلة ـ وكانت تشير لسلمى ـ سلمى جزاها الله كل خير .. وهذا أمر عادي يا سلوى .. واعلمي حتى بعد طلاقنا وزواج كل منا ، رفضت خالتك

وزوجها تسديد دين كان علينا أيام زواجنا ، وكان مقداره حوالي خمسة وعشرين ألف دينار .. فاتصل بنا حازم وقابله زوجي برهان وتفاهما على تسديد الدين ، ودفعت عبير حصة حازم على أن تخصمها من راتبه الذي تعطيه إياه الذي ينفقه حيث تعلمين

فغضت تلك المرأة من طرفها وتابعت منى قائلة : وسدد زوجي العزيز برهان النصف الثاني وانتهى الأمر بفضل الله .. وكما قالت أختي الصغرى كان باستطاعته طلاقي والزواج بالمبلغ الذي سدده عني .. فليس كل الناس واحد .. ولكن كما قلت لك قبل لحظات .. أنا بشوق لأعرف لماذا خالتك تبغضني وتكرهني بشدة ؟! وعداوة وحقد لماذا ؟!

ـ تأكدي يا أم خليل إذا عرفت شيئا سأحدثك به .. فأنت سيدة رائعة كما قالت الأخت سلمى استمعت الكلام بأريحية وراحة كنت لا أتوقعها منك .. فنحن صحيح أقارب ولكن لكل منا حدوده ، واعلمي بأنني سعيد جدا بالعمل معكم ، وأنا تعجبني مثابرتك ومكافحتك وجهادك للوصول إلى هذه الدرجة من العلم

ـ شكرا .. وأنا سعيد بما أسمع من ثنائك .

خرجت المعلمتان من غرفة المديرة منى ربيع التي نهضت تنظر لصورة ومنظر معلق على جدار الحجرة وتقول : أخت زوجة حازم ! .. وابنة أختها تلميذة هنا .

وبعد أيام يسيرة من هذه المقابلة ، استقالت السيدة سلوى من المدرسة التي مديرتها منى ، وتم سحب الطفلة (سهى) من المدرسة ، فلما تسألت سلمى أمام منى عما حدث قالت لها : الأمر هين يا سلمى!.. الأخت الكريمة سلوى تحدثت أمام أمها عني عن منى ربيع وأمها حدثت أختها أم زوجي الأول جدة الطفلة سهى ، فكان القرار الصارم بأن تترك المعلمة سلوى المدرسة بأي حجة من الحجج .. لا أدري يا أخت سلمى منذ سنوات وسنوات وأنا أتمنى أن أعرف لماذا هؤلاء الناس يكرهونني ؟!

وقصت عليها طرفا من قصتها وزواجها من حازم ابن خالة المعلمة سلوى .. ولما انتهت منى قالت سلمى : أمر محير .. كل هذا الحقد !

ـ مع أنني كما ذكرت سابقا لا أعرف هذه الأم .. وربما التقينا ولم أعرفها ؛ لأن حازما كان يخافها جدا .. وأزعلت أهلي وزوج أمي وتزوجته ؛ ولكنه خذلني ومع ذلك كان الذي حصل خيرا لي فيما بعد فأنا الآن من أسعد الناس بزوجي وأولادي .. الله لا يضيع عباده يا سلمى !

ـ ونعم بالله .. لا إله إلا الله !



سلمى صديقة لسلوى فراس أثناء عملها في مدرسة حكومية ، ولما حصلت على التقاعد عملت مع السيدة نازك إحدى صديقاتها منذ أنشأت مدرستها الخاصة ، فهي قد خدمت في المدارس الرسمية للدولة ما يقارب العشرين عام ، وخلال هذه المدة تعرفت على أعداد كثيرة من المعلمات فكانت تعمل لإشغال وقت الفراغ ، وللصداقة التي بينها وبين السيدة نازك واندمجت معها ، ولما اشترى ـ كما نعرف ـ برهان المدرسة وافق على بقاء الكادر العامل في المدرسة كما هو ، بل زاده وترك أمر التعيين أيضا للسيدة سلمى خليل ، ومنى تمسكت بقوة بالسيدة سلمى كما وضح لنا أيضا ولم تتخلَ عنها ، فهي صاحبة خبرة كبيرة في التعليم والإدارة المدرسية ، مع أنها أمضت حياتها في مدارس الدولة معلمة غير مديرة .. ولأن المدرسة بدأت صغيرة فتمكنت من القيام بدورها بنجاح ، وثانيا منى مشغولة بالدراسة كما هو معروف لقارئ هذا السفر ، وثالثا منى لم تعمل بالتدريس سابقا ، لا في القطاع العام ولا القطاع الخاص مع أن شهادتها الجامعية تسمح لها بذلك .

فكانت السيدة سلمى هي التي تتصل بالمعلمات الزميلات والمعارف أيام العمل في الحكومة لتعينهنّ في مدرسة نازك من قبل وبرهان في الوقت الحالي ، وعندما وسعت المدرسة وأضيفت فصول جديدة تركوا لها مهمة جلب المعلمات العاملات .. وكان لهذه المعلمة تعلق كبير في المدرسة الصغيرة ، وأصبحت جزءا من كينونتها ؛ كأنها ملك لها .

ولما تعينت سلوى كان ذلك بناء على رغبة واتصال من سلمى ، وكانت سلوى سعيدة بالعمل مع عدد من زميلاتها وعلى رأسهنّ سلمى .. ولكنها فاجأت الجميع بعد حين عندما قدمت استقالتها بعد أسبوع من جلستها الخاصة مع منى .. ومنى لم تحاول إخفاء شيء أمام سلمى ولا أمام سلوى .. فكانت سلمى تقدر لمنى ذلك الموقف ، وتجعل ذلك الاعتراف من باب الثقة بها وأنه لا أسرار خاصة وخطيرة في حياتها.. وأحبت منى أن يكون الحديث أمام سلمى قطعا للإشاعات التي ستحدث لو كان الجلسة سرية وخاصة .. وهذه الاستقالة المفاجأة بعد ذلك الاجتماع لو لم تكن سلمى موجودة ربما كثر القيل والقال في وسط المعلمات .. فكان هذا من حس حظ منى .. فإذن الاستقالة كانت صادرة ونابعة من عند تلك المعلمة وحدها ، مع أن منى وسلمى تدركان أن تلك الجلسة وراء وخلف تلك الاستقالة ، ولم يكن استنتاج منى بعيدا عن الصواب .. فكانت سلمى تعتبر ذلك من ذكاء وفطنة منى .. فلو لم تكن حاضرة في الجلسة لظنت أن منى أسأت لسلوى بكلمة ، وهذا سيترك أثره على باقي المعلمات .. ولكنّ الله سلم وأدركت سلمى أن منى محقة في محاولة معرفة سر هذه العداوة والبغضاء ، رغم مرور كل هذه السنوات ، ورغم طلاق حازم لمنى منذ عشر سنوات .. شغلت هذه القضية فكر سلمى ربما أكثر من منى ربيع .. منى كانت مجرد عاملة موظفة في شركة من شركاتهم .. أعجب بها الشاب وأحبها وتزوجها رغم أنف العائلة ، وهذا كثير في العائلات وبين الناس .. وفعلا هذا سر يحتاج لكشف .. ولماذا العداء لليوم ؟ فحازم تزوج أخت سلوى وله بنون وبنات ، ومنى تزوجت ولها بنون وبنات!

فأخذت سلمى على نفسها وعاتقها السعي لمعرفة سر هذه العداوة والبغضاء دون علم منى .. وهذا دفعها لزيارة سلوى فراس في بيتها والحديث معها عن السبب الحقيقي لتقديم استقالتها وبعد حديث طويل وممل بينهما اعترفت المرأة أنه كان هناك ضغط عليها من أمها وخالتها .. ولم تعرف سبب هذا الضغط إلا أنه يتعلق بزوجة حازم القديمة السيدة منى ربيع ، وأن أختها زوجة لحازم .. وحدثتها عن انحلال حازم وسكره الجنوني وعن لعبه القمار ، وأنه أول النهار رهين

البيت وآخره رهين الملاهي والسهرات.. وأنها تخشى عليه الجنون ، وقضاء بقاء عمره في دار المجانين ، وأن الله رحم منى منه وخلصها منها .. وأن أختها تعاني معه من الظلم والعذاب رغم القرابة بينهم ، وأن أكثر أيامها تقضيها في بيت أمها .. ثم بينت لها أن خالتها قوية وعنيدة ، وأنها عملت فترة طويلة محاضرة في الجامعات ، وأن معها شهادات عليا من أمريكا الشمالية .. ولم كبرت وتعرضت لبعض الأمراض وأهمها أمراض في الجهاز الهضمي لجئت للبيت والسكينة ولما سألتها سلمى عن سر عداوتها الغريب لمنى ؟!

همست سلوى بأنها لا تعرف سر هذا العداء ، وأصبح الأمر ماضيا لدى العائلة ، ولم يهتم أحد بالبحث عن السر؛ لأنه لا يهمهم بشيء .. وأكدت لصديقتها أن أمها أخت أم زوج أختها لا تعرف ؛ ولكنها الصغيرة فتسلم لأختها بما تطلب ولا تناقش ، وأبدت لسلمى هي نفسها رغبتها بمحاولة معرفة سبب الضغط عليها ؛ ولكنها لم تتمكن من تحصيل أي معلومة وسبب صريح سوى ذاك الزواج الفاشل وأنه لا يجوز العمل عند امرأة كانت موظفة عندهم ومطلقة من زوج أختها .. وعلقت أن هذا منطق أعوج بالطبع .. وخوفا من المشاكل لها ولأختها فضلت الاستقالة ؛ ولأن زوجها هي أيضا من أقارب ناصر زوج خالتها حتى أنها قالت : تحدثت أنا مع عبير ابنة خالتي أخت حازم عن منى زوجة أخيها السابق وعن المدرسة فقالت لي إن منى فتاة مقاتلة وصبورة وفاضلة ، وإنه لولا أمي لعاشت معنا سعيدة واستفدنا من خبرتها وأحلامها الحقيقة أنها أبدت تعاطفا معها ، مع أنني أذكر قديما أنها كانت تذمها وتعتبرها متسلقة وطماعة ولكن قد يكون هذا تأثرا بأقوال أمها .. وهي الأخرى مسكينة تزوجت مرتين ولم ينجح زواجها، وما زالت من غير رجل وأسرة .. وقالت لي حاولت معرفة سبب عداء أمي الدائم والعنيد لمنى والعنيد بالذات فلم أعرف .. وحدثتني أن لمنى أخا معروفا في عرض البلد وطولها محاميا وصحافيا وحزبيا .. وسردت على مسمعها بعضا مما تكلمت به عبير عن مالك ، وأنه تزوج ابنة نقيب المحامين منذ سنوات الأستاذ الكبير عبد الكريم .. ومع ذلك لم تتغير نظرتها لمنى ، كأن بينهم ثأر .. وقالت معقبة : مع أن الأخت منى لا تعرف حماتها يومئذ ، ولم تجلس

معها ساعة من الوقت قبل الزواج من حازم ولا بعده

وفي الختام أكدت لسلمى أنها ستحاول البحث عن السر الغامض لهذه العداوة غير الواضحة لأحد .

مشت سلمى لبيت خالة سلوى ، ووجدتها في البيت وتظاهرت بالسذاجة ، وأنها جاءت لتستفسر فقط من أم الطفلة سهى لماذا سحبوها من المدرسة ؟ هل لهم أي نقد أو تقصير على المعلمات ، على السائق ، على المدرسة ؟ فأبدت الدكتورة فاطمة أم خالد أنه لا سبب يعيب المدرسة لسحب ابنتهم ، إنما أحبوا أن تذهب مع أختها الأكبر منها ليكونا في مدرسة واحدة .. وأن المدرسة جيدة ، وقد تعلم فيها كثير من أحفادها .. فشكرتها سلمى ، وتأكد لها أن الأمر شخصي للغاية وعجبت في نفسها من ذلك .. فمنى ليست من جيل السيدة فاطمة ، فمنى من جيل بناتها وأبنائها .. ومنى عملت فترة قصيرة في الشركة ثم تزوجت من حازم .. تحدثت مع أم الطفلة وهي أخت سلوى فذكرت نفس حجة خالتها ولزمت الصمت ، ولم تحب سلمى تطوير الموضوع مع ما تجمع لديها من معلومات حول السبب الخفي ، ففضلت الانسحاب من البيت وهي تقول لهم : نحن حريصون على سمعة المدرسة يا أم خالد ويا أم سهى .. فخشيت أن يكون السبب في المدرسة من معلمات وإدارة وسائقي الباصات .. فالحمد لله على ثنائكم .. فالمدرسة وإن لم أكن أنا مالكها فهي ترعرت ونشأت على جهودي .

اضطرت فاطمة أن تكيل المديح لسلمى وإدارتها وكفاءتها وحبها للأطفال وتعليم الأطفال .. وغادرت القصر المنيف وهي حيرى من العداوة بين منى والسيدة فاطمة .

ولما التقت بمنى صارحتها بما فعلت ، فدهشت منى وقالت : والله أنت شجاعة للغاية يا سلمى !

ـ أنا أدركت أن السبب شخصي يا سيدتي منذ انسحاب سلوى .. وخشيت أن يثير انسحاب سلوى وابنة أختها من المدرسة بلبلة لدى الأهالي ، فالكلام يمشي ويقال ويقال .. فبهذه الزيارة نقطع الطريق على الأقاويل .. فسيقال إن الأستاذة سلمى ذهبت تستفسر عن سبب انسحاب

المعلمة المفاجئ والبنت .. وإننا نهتم فعلا بأبنائنا الطلاب .. فالمدارس الخاصة كما تعلمين يا سيدتي تقوم على الدعاية الحسنة .. ثم نحن أصدقاء قدامى منذ كنت معلمة في إحدى مدارس الحكومة .. ولكني شعرت أن السبب هو تعرفها عليك .. فبحسن نية تحدثت مع أمها وخالتها فلما علمت الخالة فاطمة من الأخت سعيدة بأن السيدة منى ربيع مديرة المدرسة طلبت منها الضغط على ابنتها لتقديم استقالتها ممن كانت موظفة عندهم في يوم من الأيام .

فقالت منى : أنا ذهب بي الظن أنني التقيت بها أيام الدراسة في الجامعة قديما ، وعرفتني لما اشتغلت عندهم فلسبب ما رفضتني زوجة لابنها .. فراجعت أسماء المدرسات لي في الجامعة فلم أجد واحدة منهن تسمى فاطمة أحمد ولا حتى سعيدة أحمد .. قلت ربما تعرفت عليهن أيام التعليم فلم يحصل .. وكانت عبير قد حدثتني أنهنّ اشتغلن في الخارج في جامعات خارج البلد.. وعملن هنا بضع سنوات .. ثم مرضت أمها ولزمت البيت .

وقالت سلمى : أما أختها أم سلوى .. ما زالت تحاضر محاضرات متفرقة في جامعات مختلفة .. معها دكتوراه علم نفس .. وهؤلاء قوم يملكون الأموال الكثيرة .. فلهم شركات في الخارج .

فقالت منى : أعرف الكثير عنهم يا أخت سلمى !

كانت سلوى فراس قبل أن تتعرف على منى ربيع منذ أسابيع تعتقد أن خالتها فاطمة رفضت زواج ابنها من منى في تلك الأيام فقط ؛ لأنها فتاة فقيرة من حي برقوقة وأن الحظ ابتسم لها ونالت قسطا من التعليم الجامعي ، والتقت بابنها فأرادت أن تصبح ثرية من قفزة واحدة .. متسلقة كما يقولون .. وأنها غير مناسبة لابنها الغني بغنى والده المليونير صاحب الأموال الكثيرة .. وما هي إلا مجرد موظفة صغيرة تقبع في أحد مكاتب شركاتهم المتعددة ، وأن راتبها يساوي راتب خادم أو شغالة عندهم .. هكذا كانت تعتقد سلوى قبل أن تسمع منى ، وأن هذا سبب الرفض لذلك الزواج .. أما اليوم فإنها ترى أن هناك أسبابا أخرى ، وأن أمرا شخصيا في الموضوع .. لأن منى طلقت وخرجت من حياة الأسرة والعائلة .. وأحد أعمامها تزوج مرتين وطلق ، ولم يعد لنسائهم المطلقات ذكر في العائلة وأهمية .. فلماذا منى يبقى حقدهم عليها لليوم

وقد خرجت من حياتهم ؟! فلماذا طلبت منها خالتها ترك المدرسة تلك ؟ وسحبت حفيدتها منها أيضا ؟.. فهذا لغز محير يدفع الإنسان العاقل للتساؤل والسعي لمعرفة السر؟ حاولت فهم ذلك من أمها ، فلم تجد عندها شيئا إلا أنها كانت زوجة لحازم في يوم من الأيام .. وأنها كانت مجرد عاملة في الشركة ، وهذا سبب كاف لعدم التعامل معها ، والعمل عندها كمعلمة تحت إدارتها .. وخوفا أن يعرف حازم زوج أختها بشيء .. فهو ما زال يكن الود والحب والحنين لمنى في رأيهم ! ولكن سلوى تعلم أن حازما له معرفة بزوج منى ، وأنها أم ولها أولاد ، ولا يمكن أن تفكر أن ترجع لحازم بعدما طلقها من أمريكا وتزوج أختها .. رغم أن حياتها معه تعيسة .. مجرد زوجين وجسدين لا روح بينهما .. وهناك علاقة جيدة بين عبير وزوج منى وأن زوج خالتها ناصر يعلم بهذه العلاقة والعمل .

وأكيد القارئ لهذا السفر يود مثلهم معرفة سر هذا الكره والبغض عن بعد لمنى .. وهذا سنعرفه قريبا إن شاء الله .. ولسوف يعرف أنه ليس لمنى سبب رئيسي في هذا الكره إنما هو هوى نفسي ومزاج لئيم ، وحذرا من تصحيح علاقة انتهت .



الأخت منى ربيع لم تنشغل كثيرا في هذه الحادثة .. فهي قد اعتبرت أن هؤلاء الناس قد خرجوا من حياتها منذ تزوجت زوجها الحبيب برهان محمود الدين ، وكما سمعنا مالكا يقول إنه لم يدع لها فرصة لتقول لا .. وكانت حياتها الزوجية ممتعة جدا وهادئة ، فعلاقتها بزوجها على أفضل ما يرام ، تفاهم كامل بين الزوجين ، وهي تناقش وتتحدث بصراحة ؛ ولكنها مقرة بفضل ورجاحة عقل برهان ، وإنه زوج غير متسلط ويحترم الزوجة .. وعلاقتها بأهله مثيرة للإعجاب مع وجود حماتها وعمها والد زوجها وإخوته الكثر ستة إخوة .. وثلاث أخوات ، فكلهم أسرة واحدة ، ويحبون بعضهم جدا ، احترام الكل للكل ، رغم اختلاف مهنهم وعملهم ، فحتى

أولادهم الذين شبوا وتعلموا يحترمون أعمامهم احتراما كاملا .. وكذلك علاقة زوجها مع أهلها علاقة ود وحب وتعاون يغبطون عليه .. فدائما تسمع أمها تدعو لزوجها بالخير والسعادة وحتى زوج أمها فهو يحب برهان حبا جما ، ويراه صديقه الوحيد في هذه الدنيا رغم ما بينهما من السنون .. فلذلك مرت هذه العاصفة إذا كانت عاصفة من دون حديث يذكر .. وعاد الهدوء ثانية للمدرسة ، وكل يحتفظ بخواطره .. وعادت منى تشغل نفسها بإعداد رسالة الدكتوراه التي كانت تدور حول الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر .. ولما علمت بأن مالكا قد أقام دار نشر ومكتبة مع بعض زملاء الأدب سرت بذلك وأملت بطبع رسالة الماجستير والدكتوراه عندهم .. ووصلتها كتب مالك التي نشرها في بريطانيا من تأليفه ، فعرفت شيئا آخر عن أخيها تأليف الكتب ، مع أنها أحيانا قليلة كانت تقرأ مقالات وخواطر مالك في الصحف التي كان يدخلها برهان البيت أو المكتب .. أما تأليف الكتب فقد فوجئت به وقالت لبرهان وهو يقدم لها هدية أخيها : أصبح الفارس مؤلفا وكاتبا في بلاد الإنجليز.

ـ أتدرين من تترجم له ؟!

ضحكت وقالت: ويك ! إنها زوجته .. أليس هذا المكتوب على الكتاب ترجمة هناء عبد الكريم و ... من هذه ؟!

ـ لقد سألت ؛ إنها ابنة خال هناء .. فتاة تهتم بالترجمة والأدب وقد عملت في بعض الصحف الإنجليزية كمترجمة .

فقالت منى : ولكن الأخ مالكا نسي أن له أختين أيضا تتقنان اللغة الإنجليزية وأنني مترجمة ماهرة .. وسأتصل به وبهناء يا برهان .

ـ وأيضا طبع الكتابان باللغة العربية يا منى ! ولكن أحد الأصدقاء رآهما معي في المكتب فأعرتهما له .

ـ تعني أنه كتبهما باللغة العربية ونشرهما ثم ترجما .. فعلا الأصل بالعربية ثم ترجم هذا منوه به على الكتابين .. فمالك يفهم اللغة الأجنبية ، لقد نسيت فهو يدرس الدكتوراه بتلك اللغة .. يا

لي من مغفلة !

ـ القصة أن مالكا كتبها للجاليات العربية هناك .. فالعرب هناك كثر كما تعلمين .. فشركة النشر طلبت ترجمتها لنشرهما بلغة أهل البلاد .. فقامت هناء وقريبتها بترجمتها بسرعة وهذه هي الثمار .. هذه هي الحكاية هو لم يكتبها باللغة الأجنبية .

ـ متى تحدثت معه ؟ لم أرك تتصل به ؟

ـ ذات زمن مضى تحدثت معه من المكتب بشأن أحد الأصدقاء الراغبين للذهاب لبريطانيا للدراسة .. ويومها سألته عن أخباره وآخر نشاطاته .. فذكر لي ذلك ويبدو أنني نسيت أن أذكر لك ذلك .. وها أنا اليوم

عندما جلبت البريد وجدت طردا لدى البريد ؛ فإذا هو كتب من مالك .

فسرحت في ذكريات قديمة عن مالك ، وعبرت عن افتتانها بأخيها ثانية ثم قالت : لم أكن أتصور هذه القدرات عند هذا الإنسان !.. أنا ما زلت أنظر إليه كأنه طفل صغير ! أضاحكه وأداعبه .. حبيبي برهان .. ما رأيك أن نسافر لندن ؟!

ـ لندن ؟!

ـ نعم .. أنا كما تعلم رسالتي في الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر .. وبريطانيا هي أم الإنجليز .

الدكتورة منى

تحدثت منى مع هناء مباشرة في موضوع سفرها لبريطانيا عدة أيام .. فرحبت هناء بذلك ، وقالت لها : أيام لا تكفي شهر على الأقل .

ووعدتها أن تكلف ابنة خالها أن تهيئ لها أماكن ومراكز الجامعات الملائمة لأهم المراجع الأدبية اللازمة لكتابة الرسالة الجامعية .. فقدمت منى لها الشكر الجزيل وأبدت امتنانها الكبير لحضرتها وحماسها .. ورحب مالك بالفكرة وشجع أخته على الزيارة ، وسعى برهان للحصول على تأشيرات السفر لبريطانيا ، ورغبت منى بالإتيان بأمها للحياة مع أولادها الكبار الثلاثة .. والرابع قررت أخذه معها ، ولكن أهل زوجها وخاصة أخت برهان التي تسكن معهم في العمارة أبدت استعدادها لرعايتهم وإعدادهم للذهاب لمدارسهم خلال فترة غيابهم .. وتطوعت والدة برهان بالمبيت معهم إذا لم يرتاحوا للمبيت عند جدهم وجدتهم .. لقد حلت مشكلة رعاية الأطفال .. ولما جهزت التأشيرات سافر الزوجان والطفلة الصغيرة ولقد كان في انتظارهم في مطار هيثرو الإنجليزي مالك وزوجته ، وتعانق وتصافح الأحباب وإلى شقة مالك انطلقوا فرحين .

وعانق برهان برهان الصغير الذي كبر وصار يمشي على قدميه ويقف ، وكانت هناء قد رتبت رحلة سياحية للضيفين في ربوع الجزر البريطانية أم الاستعمار والتاريخ العريق ، ثم تعاونت مع ابنة خالها علا لإرشاد منى إلى الأماكن التي تهتم بالأدب وتاريخ الإنجليز من دور نشر ومكتبات عامة وخاصة ومتاحف أدبية .. واشترت منى الكثير من الكتب الأدبية.. وسرت من الرحلة العلمية والسياحية ، وشكرت هناء على تعاونها الكبير وعلى المعونة التي قدمتها لها هي وابنة خالها ، وتمنت منى لو أنها قدمت الدكتوراه في بلاد الإنجليز ، فعقب برهان على هذه التمني قائلا : لم يفت شيء اعملي دكتوراه ثانية .

فضحكت وقالت : والله فكرة ..ولكن ليس الآن !

ـ أنا جاهز يا عزيزتي !

ومضى الشهر الجميل كما يقال بلمح البصر ورجع الزوجان إلى أرض الوطن .. وأقبل الأحباب والأصدقاء يسلمون عليهم ويسألونهم عن رحلتهم وعن بلاد الضباب .

خلال سنوات إعداد منى لأطروحة الدكتوراه كان السيد برهان قد تمكن من شراء قطعتي أرض في مكانين متباعدين ، مساحة كل قطعة ما يقارب عشرة دونمات ، واحدة لإقامة مدرسة للذكور عليها ، والثانية مدرسة للإناث .. فبرهان من أنصار الفصل بين الجنسين في التعليم .. وكان يطمع أن تكون كل مدرسة من الصف الأول إلى نهاية التعليم الثانوي .. على أن تكون كل مرحلة شبه منفصلة .. الأساسي الصفوف الأولى في مبنى مستقل ضمن المبنى العام ، والمتوسطة كذلك ، والثانوية كذلك .. فوضعت التصاميم الهندسية على هذا الأساس وحسب المواصفات المحلية والعالمية .. وشكل مجلس إدارة للمدرستين .. وكان قد جمع من إخوة زوجته وزوجاتهم وعديله سعد عن كل شخص عشرة آلاف دينار ، وشارك بعض الأصدقاء والمعارف لإخوة منى في المشروع .. وممن اشترك في هذا المشروع الأستاذ عدنان وزوجته ابنة خالة منى ، وكان السيد عدنان قد أنهى الماجستير وكان يستعد للدكتوراه مثل منى ربيع .. وكذلك يستعد للتقاعد من العمل الحكومي والعمل مع برهان .. وكذلك زوجته التي بلغت سن التقاعد .. ووصلت للمدة التي تسمح لها بالتقاعد .

كون برهان شركة تعليمية خاصة من أصدقائه وأصدقاء العائلة ؛ لأن الأرض كلفت ما يزيد عن المائة ألف دينار .. ولما أنهت منى الدكتوراه ، وناقشت أطروحتها وحصلت على تلك الشهادة ، حتى بدأ برهان وشركاؤه يستعدون لإنشاء المباني ، وقد جمعوا مبلغا يعادل ربع مليون وكانت مدرسة الذكور قد أقيمت مبانيها قبل إنهاء منى للجامعة العليا .. ولم يبق فيها إلا أعمال التشطيب للتسليم للنهائي من قبل الشركة المنفذة للمشروع للانتقال للمشروع الآخر .. وكان مالك أيضا قد أنهى دراسته في بريطانيا ، وقرر البقاء سنتين أخريين لمزاولة العمل على شهادته الأخيرة ، ومحاضرا في إحدى الجامعات لمزيد من الخبرة في القانون الدولي والعالمي .. وكثر تردده إلى أرض الوطن في الإجازات والمناسبات ، فقد أصبح لديه وقت أكثر للحركة .. ودار النشر

التي أنشأها مع ثلة من أصدقائه قد اجتازت مرحلة الولادة ، وأصبحت قادرة على الطباعة والتوزيع .. ولكن حدث للأخ برهان قبل مجيء مالك حادث كاد أن يؤدي بحياته ؛ ولكن الله لطف فيه .. فقد تعرضت سيارة برهان للصدم أثناء توقفه عند إحدى الشركات ليقوم بتدقيق سجلاتها وحساباتها وتقديم تقرير محايد عنها .. وأصيب عموده الفقري من الصدمة .. فعجز عن المشي وأصبح بحاجة لعجلة يسير بها .. وتقبل برهان والقوم أمر الله بالرضا والاستسلام وخضع للعلاج المستمر في البلد ، ثم سافر لبريطانيا مع مالك ، وتعرض للعلاج وكان الأطباء هناك يرون أنه سيتحسن مع مرور الوقت والزمان .. فوجد بعض المشقة في بداية الأمر للتكيف مع الحياة والعلة ؛ ولكنه اجتاز هذه المحنة وصبر عليها.. وكان أصحابه يتابعون المشاريع عنه ، وتابع هو العلاج .. وتم إنشاء المدرستين وهو يعاني من تلك الحادثة .. وخلال هذه الفترة العصيبة من حياته ظهر الحب الكبير من منى لزوجها ورفيق دربها في الحياة ، وأبدت استعدادها للتخلي عن العمل للبقاء بقربه ، ورافقته في رحلة العلاج لبريطانيا .

وعاد مالك للبلاد وكان قريبا جدا من زوج أخته والعمل معه ، وسافر معه إلى ألمانيا للعلاج في إحدى المستشفيات التي علموا عنها .. وتقدم خطوة جيدة في العلاج ، وأصبح يستطيع النهوض والحركة ولكن بشكل بطيء .. واشتروا له سيارة خاصة ؛ ولكنه وجد مشقة في القيادة فعينوا له سائقا يتنقل به بين أعماله .. فهو لم يحب البقاء في البيت فكان العمل حياته رغم رحلات العلاج هذه.. ولما التقى بأحد العلماء فشجعه إلى السفر إلى مكة والحج والاستسقاء من ماء زمزم فوجدت الفكرة رضى في نفسه .. فحج به مالك وبزوجته وأخته منى ، وفرحوا بهذه الرحلة الإيمانية التي زادت من صلابة برهان .. ونشطت منى في عملها وإدارة أعمال زوجها ، واستمرت هذه المحنة على ما يزيد عن خمس سنوات ، ثم تعافى منها السيد برهان وعادت أعصابه تعمل بشكل جيد ، وتخلص من العجلة نهائيا ؛ ولكن الأطباء طلبوا منه أن يبتعد عن الحركات العنيفة .. والابتعاد عن الرياضة البدنية .. فحمد الله على ما وصل إليه من عافية ، وفرح الأهل والمحبون لذلك .. وكان سعيدا بنجاح المدارس التي قام على إنشائها .

ولما هدأ وضع برهان الطبي تركت منى المدرسة الخاصة التي كانت مديرة لها لسلمى ، وكانت قد عرضت إدارتها على إحدى أخوات برهان ، فاعتذرت عن ذلك وأحبت العمل كمعلمة في مدرسة الإناث الكبرى .. والتحقت منى بالتدريس في الجامعات .

وأصبح الأخ عدنان جابر مديرا لمدرسة الذكور بعد تقاعده من مدرسة الحكومة .



ذات نهار والدكتورة منى ربيع في مكتبها في الجامعة في كلية الآداب فرع تعليم اللغة الإنجليزية طرق الباب عليها أحد الطلاب فأذنت له ، وكان معه فتاة فبعد الترحيب تسألت منى عما يريدون فقال الشاب: هذه ابنة خالتي الآنسة حنان !

دهشت منى لهذا التعريف وعادت تقول : وأنت ؟!

ـ ألا تعرفينني يا دكتورة ؟!

ـ لا !

ـ أنا وهي من طلابك ، فأنا حسن حازم سنة ثالثة آداب إنجليزي.

تبسمت منى له ، وقد فهمت ما يرمي إليه ، وقالت مجاملة : تريد أن تقول إننا معرفة سابقة ؟!

تبسم هو الآخر في وجهها وقال : يعني .. لم يشأ الله أن تكوني أمي !

ـ أهلا بك كيف حال والدك اليوم؟ .. أنا لما قرأت اسمك في أحد الكشوف وقع في نفسي أن تكون ابن حازم ناصر زوجي الأول . . وأنا فعلا كنت زوجة لأبيك في يوم ما !

ـ أبي مريض للغاية يا دكتورة ..

ـ مريض!.. شفاه الله .. وهذه الفتاة الجميلة ابنة خالتك لعلها الأستاذة سلوى فراس ؟!

قالت الفتاة : نعم أنا ابنة السيدة سلوى فراس يا دكتورة .

ـ كيف أمك اليوم تعارفنا فترة قصيرة من الزمن ؟!

ـ صح ، وهي التي ذكرت لنا أنها تعرفك .. أنا سنة أولى إنجليزي .. فمرة ذكرت اسمك أمام أمي ، فاستغربت وذكرت لنا أنها تعرفك ، ثم تحدثت مع الأستاذة سلمى تسألها عنك فأخبرتها الأستاذة سلمى أنك تعملين في هذه الجامعة .. وذكرت لي أنها عملت فترة قصيرة في مدرسة الأستاذة سلمى فتعرفت عليك .. وذكرت ذلك لحسن ابن خالتي فاستغرب وسأل عمته عبير عنك ، فذكرت له أنك كنت زوجة لأبيه كما ذكرت الآن ، وحالت الظروف الصعبة تلك الأيام دون بقاء ذاك الزواج .. فسامحينا !

عادت الدكتورة ترحب بالشابين ثم قالت : أنا سعيد بمعرفتكم شخصيا وسلموا لي على أمهاتكم .. وأنت يا حسن كابني .. فلي ولد السنة سينتهي من الثانوية العامة اسمه خليل .. وهكذا القدر يا ولدي .. لم يقدر لي الله أن أكون أمك !

فشكرها حسن على لطفها وعدم تجاهله وعدم جفائها معهم فقال : سامحي والدي يا دكتورة .

ـ لقد سامحته يا بني .. ولما حججت سامحته هناك أيضا .. وهذا الزواج قدر والفراق قدر .. لم نوفق في الزواج ، وأتمنى لكما كل نجاح وتوفيق في هذه الحياة .

فقال حسن بحزن : شكرا يا دكتورة ! والدي حقيقة مرضه صعب .. مرضه في الكبد ، وهو بين الحياة والموت .. لقد دمرته وأهلكته الكحول وحرقته .. فاعف عنه .

ـ قد عفوت وسامحت ، سامحه الله يا حسن .. وحياة سعيدة للجميع وسلمي لي على أمك يا حنان .

وغادر الشابان المكتب وهما مفعمان بالشكر لمنى ربيع ، وأما منى فكأن لم يكن شيء كما قلنا مرارا فقد نسيت حازما ولا تهمها أخبار حازم .. وهل تمنت له الشفاء من أعماق قلبها وبصدق هذا يعلمه الله وحده ؟!

كانت الجامعة تريد أن ترسل عددا من حملة الشهادات العليا لدورة علمية في أمريكا ، ورشحت عمادة الجامعة منى ربيع لهذه البعثة أو الدورة ، ولما تشاورت مع زوجها ذكرها بدراسة الأولاد فلم تجد حماسا لدى زوجها فاعتذرت عنها، وطلبت تأجيلها ، وأبدى برهان اعتذاره لذلك ،

فقالت معتذرة : لا تعتذر يا سيدي أنت عندي أهم وأعظم من الدورة والشهادة .. وإذا كنت تحب أن أترك الجامعة ، فأنا على استعداد .. أنا لا أنسى ، ولا يمكن أن أنسى من هو برهان ؟! وكل هذه السعادة التي ارفل فيها من برهان .

تضاحك برهان وقال : جزاك الله خيرا .. أنا يهمني تقدمك العلمي لحاجة في نفسي .. ولكن الأولاد بدءوا يدخلون المراحل التعليمية المهمة يا منى .. وإبراهيم ابن سنة اليوم .. وخليل على أبواب الثانوية العامة .. فلتكن أي دورات خلال هذه السنوات داخل البلاد .. فبعد سنتين ستدخل زهرة إلى الثانوية العامة .. ثم محمد .. وجميلة .. إبراهيم قد يتأخر فهو وليد .. فجاء الأوان اليوم لأن نهتم بهم فهم حياتنا أو أهم منها .

تبسمت قائلة : صدق أنني مقتنعة بما تقول ، ورفضت السفرة بكل أريحية ورضا مع أنهم كانوا سيسمحون لي بأخذ أفراد العائلة كلها .. ولكن ما هي الحاجة التي في نفسك ؟!

ضحك برهان لحظات وقال : أنسيت أنني وعدتك أن تكوني ملكة .

أخذت بالضحك وقالت : ما أنا يا سيدي ملكة! .. ألست ملكة في بيتي وبين أولادي وزوجي الملك .. اسمع أنا كل أحلام الماضي قد نسيتها .. فأنا أحمد الله ليل نهار عما حصل لنا من الخير والتوفيق والسعادة والحب العظيم بيننا جميعا .

فحمد الله وقال : الحمد لله ، لم تذهب جهودي سدى ، فها هو المكتب الذي دارت عليه أحلامنا الأولى قد أصبح مكتبا كبيرا ومنافسا عظيما في البلاد .. والمدارس التي كانت حلما أصبحت رموزا تربوية وعلمية مهمة في البلاد .. وها هو سهمنا في مصنع عبد الرحيم يدر علينا دخلا كبيرا .. وها هو مصنع الدواء الذي أنشأه ابن أخي يتقدم وننعم بثروته .. ولنا مدرستنا الخاصة فأنت ملكة غير متوجة يا سيدتي .. ولم يبق إلا أن نبني القصر وذلك قريبا

ـ الحمد لله حمدا كثيرا .. ما كنت أدري ما سيصير بي لو لم يضعك الله تعالى في طريقي ؟! .. عندما أتخيل شيئا من تلك الهفوات الكبرى أبكي وتدمع عيناي .. نعم ، لقد يسرك الله تعالى لتنقذني من السقوط والجهل .. الشهادة وحدها لا ترفع الجهل عن الإنسان يا برهان! .. فناس

معهم الكثير من الشهادات ولكنهم غارقون في الشهوات والضلال ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا كنت أرى الحياة قصة فِلم أو أغنية ماجنة !



بعد اعتذار منى ربيع عن الذهاب لأمريكا لمدة سنة في دورة علمية ، بعدها بشهور يسيرة حدثت حادثة عجيبة في حي برقوقة كشفت كثيرا من الأسرار لمنى وبرهان وغيرهم .

وبينما مالك وربيع الأخوان وزوجاتهم وبعض أولادهم يسمرون في منزل خليل أبي أحمد زوج أمهم جميلة ، وقفت على رأس الشارع سيارة أمريكية حديثة جدا ، وهبط منها شابان في العشرين من عمرهما وامرأة وسألوا من وجدوه يقف على رأس الشارع عن منزل خليل أحمد فرفر.. فأرشدهم الناس لبيت الحداد خليل ، فقد أصبح أبو أحمد قصة كبيرة من قصص حي برقوقة فهو قد صنع من الأيتام كما كان يقال أيتام الحداد خليل قصة مشرفة مشرقة للحي وأبناء الحي فيضرب بهم المثل في النجاح والوفاء .. ورغم الشهادات التي يملكها أيتام خليل ظلوا قريبين من الحي وأبناء الحي .

المهم طرق الشابان والمرأة المرافقة لهما بيت الحاج خليل فرفر في ذلك الليل ـ البيت الذي ظل على ما بناه المعلم خليل ، ويرفض إعادة بنائه ـ وجاء أحد الأبناء يقول لهم : يا أبي ! هناك أناس ومعهم امرأة يريدون جدنا خليلا !

فقال خليل الذي سمع الغلام : ضيوف !

رد الفتى : أناس غرباء لم نرهم من قبل ، شكلهم يدل على أنهم ليسوا من هذا الحي !

قال مالك : فلتدخل البنات .. حتى أنظر من هم ؟ .. انتظري يا أمي هنا .. معهم امرأة !

تركت الفتيات بتريث غرفة الجلوس ودخلن حجرة من حجرات البيت ، وكان مالك قد خرج يستقبل ويرحب بالضيوف فقال أحدهم : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته !

رد مالك السلام باسما وقال مرحبا : أهلا وسهلا .. أتريدون الحاج خليل أحمد فرفر ؟!

ـ نعم .. نحن قادمون للقاء السيد خليل فرفر .

ـ تفضلوا .

تبعوا مالكا لغرفة الجلوس فرحب خليل وربيع بالضيوف ورحبت جميلة بالمرأة ، ولما جلسوا قال خليل : أهلا بكم !

تنحنح أحد الشابين وكان العرق يتصبب على جبينه مما أدهش الحاضرين وقال مضطربا : نحن في موقف حرج جدا .. فمعذرة !

دهش خليل وغيره وقال : حرج ! .. لم أفهم يا ابني ولمَ الحرج ؟!

فقال الشاب بغصة : نحن ـ وأشار للشاب الآخر ـ أحفاد أحد إخوتك يا حاج أبي أحمد .. أنا أحمد وذا أخي يوسف !

تغير وجه خليل وحدق بالشابين وتلون لونه واضطرب صوته وعاد يقول : إخوتي أنا !

ـ نعم ، أنا ابن ابن أخيك منير إذا ما زلت تذكره .. وهذه ابنته ـ وأشار للمرأة ـ .. أي عمتي أحلام ..

التفت خليل لابني زوجته جميلة وقال مذهولا : أسمعتم ما قيل أمامي .. أم نحن في حلم ؟!

قال مالك الذي تمالك أعصابه بسرعة كعادته : نعم يا عم سمعنا إنهم يزعمون أنهم أحفاد أخيك منير يا عم خليل .. أهلا وسهلا بكم .. يا مرحبا بكم من جديد .. فنحن ننتظر هذا اليوم بفارغ الصبر.

فقام الشابان يعانقان جدهما خليلا وهما يبكيان ويتنهدان ، وفعلت المرأة مثلهما وقالت : أنا أحلام ابنة أخيك يا عم !.. واعلم يا عم أننا لم نعلم بوجودك وأن لنا أقاربا لا نعرفهم إلا منذ أيام قليلة .. لا نعرف إلا عمنا خالدا وعمتنا فاطمة وعمتنا وسعيدة ..

تكلمت المرأة بما يطيب لها ، وخليل ساكت ، ولما صمتت ، سكت خليل لحظات أخرى ثم قال : غفر الله لإخوتي .. ما الذي ذكرهم بي بعد ثلاثين سنة أو أربعين ربما تنقص سنتان أو ثلاث

عاد أحد الشابين يقول : هذا هو السؤال المهم ؟ نحن نشأنا لا نعرف من أقاربنا إلا ما ذكرتهم لك عمتنا أحلام ..

فقال خليل المبهور: والله يا أولاد ! .. لم يحدثوكم عن صبرية وخليل .. نحن أولاد العتيقة .. متنا عندهم .. يا هلا بكم .. نعم كيف عرفتم أن لكم أقارب يا أحمد.. أنت اسمك أحمد .. ما زال جدك يذكر أن له والدا اسمه أحمد .. قاسم والدي أحمد رحمه الله ..

فقال أحدهم : كيف عرفنا بأن لنا أقاربا ؟! لأنه ـ يا جدي ـ أحد إخوتك على فراش الموت أخوك منير على فراش الموت فطلب رؤيتكم أنت وأخته صبرية .

ـ منير يموت إذن ! .. لا إله إلا الله .. يا خسارة ! عرف وهو يموت أن له إخوة .. أكمل يا بني أكمل .. هذه هي الدنيا !

عاد الشاب يقول والعرق يسيل على خديه : أخذ يلح على رؤيتك ورؤية أخته صبرية ويبكي فلما سألنا عنكم اعترفوا لنا بوجودكم في هذه الدنيا ، وأنكم تعيشون معنا في هذا البلد ، وأنكم أحياء ترزقون ، وترددت العائلة بالوصول إليكم؛ ولكن أمام إلحاح جدي رق له الأولاد وكلفوني وأخي وعمتي بهذه المهمة يا سيدي يا أبا أحمد .

وبكت المرأة المدعوة أحلام ، وذرفت الدمع الغزير بين يدي عمها ليعفو ويصفح عن عقوق أخيه ، فربت خليل على كتفها وقال بعين باكية : هل قال لك أبوك من أدخله الجامعة وأنفق عليه وعلى أخيه الأكبر منه ؟ .. سامح الله أمه كانت تبغضنا مع أن أبي تزوجها على أمي .. واعلموا مع أنني نسيت أخواي وأختاي منذ عقود .. أنا جاهز للمصافحة والمساعدة والمسامحة أليس كذلك يا جميلة ويا ربيع ويا مالك ؟!

كانت دموع مالك تتساقط تأثرا بالموقف فمسح تلك الدمعات وقال : قلبك كبير يا عم ! .. فأنت سيد العائلة شاءوا أم أبوا ولا يصح إلا الصحيح .

وتكلم ربيع بكلام شبيه بكلام أخيه مالك ، وقال مالك : العم خليل صاحب القلب الكبير مستعد لمقابلة إخوته أو أخيه المريض ، وسنذهب الآن بكم إلى بيت صبرية أم علي جدتكم أو

عمتكم ونرجو من الله تعالى أن تقبل الصفح والعفو .. أتذهب يا عمي أبا أحمد معهم أم نرشدهم ؟

فقالت المرأة برجاء : أرجوك يا عمي العزيز يا صاحب القلب الكبير أن ترافقنا .. والله نحن لمنا والدينا لوما شديدا ، وعتبنا على صمت عماتنا وعمنا خالد على هذا الصمت الرهيب .

كان خليل قد تجاوز الستين سنة عند هذا الحدث ، فلم يعد لديه رغبة في العداوة والبغضاء ، فحمد الله على هذه الصحوة وإن كانت متأخرة جدا

وساق الأولاد لبيت صبرية ، وقبل أن ينطلقوا نادى الزوجات والأبناء ليتعرفوا على أبناء إخوته وأحفادهم .. وكان مالك قد قام بالاتصال مع الدكتور عدنان جابر ، وطلب منه أن ينتظرهم في بيت والده وشرح له الأمر بسرعة ، وعاد للمجلس يقول : تحدثت مع عدنان يا عمي يا أبا أحمد ليلتقينا عند والدته .

ـ أحسنت يا مالك .. هيا ربيع .. هيا جميلة .

ذهب الثلاثة إلى سيارتهم ، وانطلق خليل مع أولاد زوجته بسيارة مالك ، وخلال دقائق كانوا يقفون أمام بيت صبرية ، وكان عدنان أمامهم يقف أمام بيت العائلة ، وكان قد تكلم مع أبيه وأمه بالهاتف .

كانت أنوار البيت منارة لم تطفأ بعد ، فالناس ما زالوا في سهر ، زلف خليل وراء عدنان واستقبلهم جابر وصبرية ، ولما جلسوا في صالون البيت الواسع ، تكلم خليل بضع جمل ، ثم قال مالك المحامي : هؤلاء يا عمتي أم علي أحفاد أخيك الأصغر المدعو منير أحمد فرفر .. وهذه المرأة ابنة أخيك .

فنهض الأحفاد ثانية وسلموا على جدتهم ، وقبلوا يدها ، وعادوا لمجلسهم ، وعانقت المرأة الشابة المرأة الكهلة ، وتخلل ذلك بعض الدموع والشهقات ، وتحدث أحمد عن جهلهم بوجود إخوة لجدهم غير الذين يعرفونهم ، وأن جدهم مريض ؛ وربما يكون في أيامه الأخيرة ، فقد أقعده المرض العضال ، وأنه يطلب مصافحتهم ورؤيتهم والصفح عنه لتجاهلهم كل هذا

العمر .. فبكت صبرية وذرفت الدمع ، وشاركتها جميلة البكاء والمرأة الأخرى ، وقال عدنان : نسأل الله العافية لجدكم منير .. وكنا ننتظر مثل هذه الخطوة منذ عشرات السنين يا أخ مالك .. ربما منذ ثلاثين سنة !

فقال خليل : وتعلم صبرية أنني سعيت لهم ، وفعلت مثلي صبرية ؛ ولكنهم هربوا لأمريكا ، ولم يتصلوا بنا بمناسبة وغير مناسبة .. ولما رجعوا اتصلت بهم فطلبوا مني الرحيل من حي برقوقة والحياة معهم وترك الحدادة ، ولما رفضت ذلك غضبوا وأنكروني فزرتهم مرة أو مرتين ثم هجرتهم كما هجروني .. منذ تركوا الحي بأمهم لم يدخلوه نهائيا ، وها هي صبرية تشهد على ذلك ولما كنت أزورهم في بيوتهم كانت زوجاتهم ينظرنّ إليّ ؛ كأنني متسول شحاذ دخل عليهم .. فلما رأيت الجفاء وقلة الاحترام قطعت الزيارة إليهم ومع ذلك لم يسألوا فيّ ..وهم فعلوا ذلك مع صبرية أصلا .. لا أذكر أن أحدهم أو إحدى زوجاتهم دخلت بيت صبرية .. فقد قاطعوها وهم يدرسون ؛ لأنها تزوجت الأخ جابر .. لأنني أنا زوجتها ، ولم أبقها تخدم أمهم مع أن لها بنتين .. ولما تخرجوا من الجامعات أخذوا أمهم ـ رحمها الله ـ وخرجوا من الحي وتزوجوا من بنات الأكابر ورويدا رويدا نسوا أن لهم إخوة ورحم .. وحتى البنات تزوجن من غير مشورة معي ، بل علمت بزواجهن من بعض الناس .. فقد هاجروا للدراسة والعمل ولما كانوا ينزلون البلد لا يتصلون بنا ، ولا نعرف مساكنهم أو الشقق التي استأجروها لنسلم عليهم .. فنسيناهم كما نسونا .. فمأساة يا إخوان مأساة!! أسوأ شيء أن ينسى الإنسان الإحسان والجميل الذي قدم له .. استعروا منا أنا وصبرية .. سامحهم الله يا أولاد .. آ يا أحمد هل عرفت الحق أنت وأخوك وعمتكم ؟!

تمتم الشباب وقال أحدهم : أمر يؤسف له يا جدنا العزيز !! صدق أننا تفاجئنا بهذه الاستغاثة وظننا أن جدنا يهذي ويطلب أناسا ميتين فعلا .. حتى أقرت جدتنا بالحقيقة المغيبة .. فأدركنا الخطأ الشنيع الذي وقع فيه الإخوة بحقكم .

فقال أبو أحمد : أنا ألوم أجدادكم .. وأكثر لومي كان على امرأة أبي .. أظهرت لهم أننا نبغضهم

وأننا أخذنا أموال والدنا دونهم .. فشبوا على كرهنا ، وإنني أنفق عليهم من أموال أبي الحداد المسكين الذي هلك ـ رحمه الله ـ وأنا ابن عشر سنين قد تزيد سنتين .. كانت امرأة سيئة لم تربهم على حبنا أنا وصبرية .. فأنا الذي لم أقصر معهم أيام الجامعة ، وأنفقت عليهم بفضل الله من شغل محددة أبي من عرقي أنا .. أبي لم يترك لنا إلا الشيء اليسير ، وصبرية كانت تدرك ذلك .. والبيت الذي ما زلت أسكن فيه منذ اشتراه والدنا ـ رحمه الله ـ هو نفس البيت الذي تركه الوالد ؛ ولكني جددت بناءه كما تعلمون .. كانوا يتطلعون لفوق فوق .. لا مانع من التطلع والصعود لفوق ؛ ولكن هذا لا يسمح للواحد أن ينسى أهله .. فها هو الشاب البطل ـ وأشار لمالك وهو منفعل ـ محامي كبير ودكتور في القانون الدولي ، ودرس في الخارج في بريطانيا أعظم دولة في أوروبا ؛ ولكنه يعيش معنا في حي برقوقة لم يتكبر علينا .. لماذا لم يجبر أمه للخروج من الحي؟! .. للحياة في حي يليق بمقامه .. ولكن الحداد الفقير خليل زوج أمه لا يريد الخروج .. فقبل الأمر برضا ؛ بل لم يحاول الحياة خارج الحي .. بل تزوج ابنة رجل القانون الأول في بلادنا النقيب السابق عبد الكريم ، وسكن بزوجته ابنة الأكابر في حي برقوقة. ألا تطيب الحياة أيها الناس إلا في أحياء الكبار؟!.. ألا يوجد تعساء في تلك الأحياء؟! وهذا مهندس كبير ومدير شركة كبرى ويسكن في حي برقوقة ـ وأشار لربيع ـ وهذا الدكتور عدنان ابن أختي هذه وابن هذا الرجل الفاضل يسكن في حي برقوقة .. ألا تطيب الحياة إلا في حي رحمات وبركات .

قال مالك : اهدأ يا عم .. راع صحتك .

مسح خليل فمه وحاول الهدوء فقال : أنا أريد أن أقول هذا أمام هؤلاء الشبان الأبطال لينقلوا الكلام لأهليهم .. ويتعلموا هم أيضا .. أنتم يا مالك ويا ربيع ويا ابن أختي فخر الحي فها هو ربيع مدير شركة كبيرة في البلد ، ويسكن في حي برقوقة ، ويبني في حي برقوقة ، ويعيش في بيت متواضع ، ويسهر يوميا مع أمه .. وها هو ابن عمتك يا أحلام الأستاذ الدكتور ومدير مدارس خاصة ، ويستطيع أن يكون أستاذا كبيرا في جامعة أو معهد يسكن قرب أهله في حي برقوقة .. ويا ابنة أخي لو سكن الإنسان في أي حي من أحياء المدينة والدولة ؛ لكن لا ينسى

أهله حتى ولو ظلموه ونهبوه .. أنا متأكد أن أجدادكم لا يعرفون أحدا من عائلة فرفر .. فهم نسوا هذه العائلة منذ نكحوا بنات الأكابر .. فنحن أكثر أقاربنا لا يسكنون هذه المدينة لعلمكم يا أولاد .. نحن أبناء بلدة بعيدة من هنا ، جاء أبي لظروف مرض أمنا .. ومرات قليلة كنت أذهب إليهم للمشاركة في عزاء أو فرح ..

يذكر القراء الكرام أن خليلا ذكر سابقا أن والده أتى به وبصبرية وأمهما لمعالجة زوجته أم خليل بعد ولادتها لصبرية بشهور ثم هلك ، ولما فضفض خليل عن نفسه قال : آ ، يا صبرية ! أتحبين الصلح مع إخوتك بل الذهاب إلى وداع أخيك الذي يموت أم ... ؟

فقال عدنان : لا يا خال أنت صاحب القلب الكبير .. سنذهب جميعا للتعرف على أخوالنا وأولادهم وخالاتنا وأولادهنّ !

فقال خليل ملتفا للضيوف : على كل ها أنتم عرفتم البيوت يا أولاد .. وغدا اتصلوا بمالك حتى يرتب لنا زيارة لأبيكم .

فقالت المرأة : ألا تذهب معنا الليلة يا عم ؟!

ـ غدا يا بنية .. حتى تهدأ أعصابنا ونستوعب القضية .. لا أريد أن أنفعل أمامهم ويحدث ما لا نحب .. فهيئوا النفوس أنتم ، وغدا ترتبون مع مالك أو عدنان وتأتون إلينا ونرافقكم إلى حيت تتفقون ، ويذهب الكبار لمصالحة الصغار .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..

الصلح

انتشر الخبر سريعا ، كان لانتشار هذا الحدث في برقوقة وأحباب برقوقة خبرا مهما ومثيرا ، فتحدث الناس عن ظهور إخوة الحاج خليل فرفر بعد هذه السنوات من الاختفاء ؛ كأنهم جاءوا من كوكب آخر ، والمؤلم أنهم من سكان المدينة الكبيرة ، وليس كما يشاع بأنهم تركوا البلاد والعباد منذ عشرات السنين ، وإن لهم أحفادا وأبناء ، وإنهم ليسوا في أمريكا اللاتينية وغيرها من مدن العالم كما أشيع في بعض الأحيان .. إذن لخليل وصبرية أهل في المدينة !

فهم منذ انقطع عنهم خليل لم يظهروا في حياته .. واستغربت منى لهذا الخبر العجيب ، أخوة يعيشون في مدينة واحدة لا يتصلون ببعض منذ عقود .. واشتغلت الهواتف يمينا وشمالا تنقل هذا الخبر .. ومثل ذلك حدث في قصر السيد منير أحمد وزوجته وبين الأولاد والأحفاد .. وانشغل الجميع بالتهيؤ والاستعداد لمقابلة الأخ الأكبر لهم ، فكان خالد الشقيق الأكبر لمنير على اتصال مع أخيه ليفهم الكيفية التي سيلتقون بها بإخوتهم خليل وصبرية.. وطلب خالد من الشقيقتين فاطمة وسعيدة المشاركة في هذه المصالحة التي ستتم في بيت الدكتور منير .. فأجلتا اللقاء إلى لقاء آخر ، بعد تصالحهما ، فلم يضغط عليهما ، وترك لهما الحرية ..

ورتب مالك وعدنان مع أحمد ويوسف أن يكون اللقاء الأخوي بعد صلاة العصر ، فلما أتى عصر اليوم التالي أقبل الشابان بالسيارة الأمريكية التي أتيا بها ليلة أمس ، وعلى رأس الشارع المعروف لنا انتظرا ، ولما خرج خليل من المسجد اتجه إليهما وحياهما ، فقال أحد الشابين معتذرا : اعذرنا يا جدي ، كان من المفروض أن يأتي جدنا إليك ليقدم لك اعتذاره ولكنا بيّنّا لكم عذره والجد خالد مستحيي من مقابلتكم .. فالبركة فيكم .. وتأكد يا سيدي أن الجد منيرا بشوق كبير لحضرتكم وإلى أخته أم علي .. وكله ندم وآسف وحسرة .

وكان مالك قد ذهب لإحضار عمته صبرية وأمه وعدنان ، فركب عدنان وأمه مع ربيع ، وركب مع مالك المعلم خليل وجميلة .. وانطلقوا خلف السيارة الأمريكية وكانوا قد عرفوا المنطقة التي هم ذاهبون إليها ، وفي أقل من ساعة كانوا يزلفون القصر

الجميل الذي يعيش فيه الدكتور منير أحمد .. وكان بعض الشباب يقفون أمام الباب في انتظارهم .. ولما هبط الضيوف تقدمهم خليل أبو أحمد فصافح الشباب وحيا الفتيات وكان الحفيد أحمد يعلن لهم أسمائهم بصوت مسموع ، وتقدم بعضهم أمام الحداد خليل نحو القاعة التي يجلس فيها المريض .. ولما لمح خليل أخاه المريض تقدم نحوه مسرعا ، وانحنى عليه وعانقه وهو يقول : سامحك الله يا منير .. قطعتم الرحم .. غفر الله لنا.

خرجت هذه الكلمات وهو يقبل جبين أخيه والدموع تتساقط على خديه ولحيته والآخر يقول بصوت واهن : سامحني يا خليل .. ظلمناك بهجرنا ـ وأشار لخالد ـ وهذا أخوك خالد .

انتقل خليل معانقا لخالد الذي يقف مضطربا ووجه شاحب ، وتقدمت صبرية لأخيها العليل تعانقه وتسلم عليه ، وهم يبكيان ، وهو يعتذر لها عن عقوقه لها ونسيانه إياهم ، وإنه ناكر للجميل والمعروف .. فسامحته وهي تذرف الدموع ، وجرى العتاب بينهم بلطف مراعاة لصحة السيد منير .. وتعارف الجميع ، واعتذر خالد لهم عن أخواته وقال : لقد خشين توتر هذا اللقاء خوفا وشفقة على أخيهنّ منير ؛ ولكنهن راغبات بالاعتذار لكم .. وسنحاول الاتصال معهن الآن ونقل لهن أن الأمور تسير على ما يرام .. وأن قلب أبي أحمد قلب واسع ، وسيبقى الأخ الأكبر لأسرة أحمد فرفر .. أخذتنا الدنيا وضيق الأفق يا أبا أحمد وغرتنا الأموال والمناصب .. فسامحونا ونحن بين يديك .. لعنة الله على قسوة القلب والجهل .. فأنت الأخ الكبير وصاحب الفؤاد الواسع فاصفح عنا فنحن إخوتك الصغار الذين كنت تنفق عليهم وتعلمهم !

تبسم أبو أحمد لمداعبة خالد وهكذا فهمها وقال : الحمد لله ، وأقول كما قال النبي يوسف عليه السلام ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ غفر الله لنا ولكم وها هو حبيبي مالك ابن زوجتي الفاضلة أم ربيع بطل ومحامي قد الدنيا في البلد ودكتور عالمي ، ودرس الدكتوراه في بلاد السكسون ومؤلف كتب ويكتب في الصحف ، وتزوج ابنة نقيب المحامين الأسبق النقيب المشهور الأستاذ الكبير عبد الكريم أبو عزمي ، ومع ذلك ها هو يعيش معنا في حي برقوقة ، وبنى بيتا في برقوقة .. ولم يتخلَ عن أمه وزوج أمه .. لم يكبر علينا ، ولم

يقل لأمه أنا رجل كبير في البلد وهذا الحي لا يليق بي لنرحل لحي بركات وغيره من الأحياء الحديثة والراقية.. وذا أخوه ربيع المهندس المعروف ومدير شركة كبيرة في البلد .. يسكن حي برقوقة الحي الغلبان .. وذا ابن أختكم الدكتور عدنان جابر ولد وعاش وكبر في حي برقوقة ومدير مدرسة كبرى ومسؤول في مجلس إدارة مدارس أخرى ، والدكتور عدنان يمكنه العمل في أكبر جامعة في البلد ، وإخوته صاروا ، منهم الطبيب ومنهم المحامي والمهندس ، وإن رحل بعضهم لأحياء أخرى لم يطلبوا من أهليهم الرحيل والحياة في تلك الأحياء.. الناس هي ترفع من مستوى الحي رويدا رويدا ، تطور الحي بالمباني الشاهقة والشركات والمطاعم والخدمات والشوارع .. نعم هذا هو الأصل .... فلو سكن الشخص في حي بركات حي أصحاب الأموال والثروات فلا ينقطعوا عن أقاربهم الفقراء والضعفاء.. هل لأن أخاهم حداد وأمي عيب وعار كان لابد من قول هذه الكلمات لأنفس عن نفسي .. وغفر الله لنا ولكم ولا تثريب عليكم.. كان من اللازم حضور البنات هذه الجلسة .. لم يعد أمامنا من العمر الكثير .. فنحن حضرنا ولم يهتز لنا شارب ولم تنقص لنا كرامة ..

كرر الأخوان الاعتذار من جديد ، واعترفوا بتقصيرهم ، وقدروا شجاعة خليل وجهاده في تعليمهم ، وأنهم غرتهم الدنيا والمال والسمعة ، وشكر مالك فخر عمه بهم ، وتمنى دوام العافية لهم ، وطلب منير الهاتف وتحدث مع أختيه شخصيا وحثهما على المجيء ، وكان بعض أحفاد فاطمة وسعيدة بين الحاضرين والمستقبلين وحاضرين لقاء الصلح هذا، فتطوع بعضهم للمجيء بجداتهم وأعمامهم .. فصاح منير : المهم جداتكم الآن اذهبوا وارجعوا بهنّ بسرعة حتى يرتاح ضميري وأفارق هذه الدنيا وأنا راض عن الجميع ، وقد نلت بركات أخي الكبير خليل وأختي الكبيرة صبرية .

وذهب حفيدان كل بسيارته لجلب جدته وحثها على المجيء ، وفعلا بعد حين يسير كانت الأخوات قد قدمن بدون أزواجهن وحتى أبنائهن ، وتصافحت الأخوات مع الأخوين خليل وصبرية ، وأخذن يبررن هجرهن تبريرات لا تدخل عقل إنسان واع ومدرك ، وإنما كان الهجر

مجرد جحود وهوى، فالعقوق ليس له عذر أو حجة ؛ فإنما حجة نفسية وغضب وكره وحقد خفي ، وبينما الجميع يعتذرون ويتعارفون ويتسامحون دخلت امرأة المجلس وسلمت ، فقالت لها امرأة جالسة في المجلس : تعالي تعرفي وسلمي على خالك الحاج خليل يا عبير وعلى خالتك الحاجة صبرية .

كان مالك قد عرف من هي المرأة عندما زلفت المجلس ، بل هي عرفته لما شاهدته ، وقد تلاقت عيونها ودهش كلا الاثنين ؛ ولكنها تقدمت تصافح خالها المدعو خليل ورأسها تدور بكثير من الأفكار والخيالات ، وهذا عند مالك أيضا ، ولما انتهت من الترحيب والتعرف التفتت لمالك الصامت والناظر إليها بوجه متلون : ألست مالك ربيع ؟!

هزّ رأسه وقال : بلى ، وألست عبير ناصر ؟!

قالت : بلى ! وأشارت بيدها مستفهمة حتى أن أحدهم قال : لعلكم تعرفون بعضا ؟!

نظر مالك للسائل لحظات سريعة وأفكار كثيرة تلف في دماغه وذاكرته ورد: نعم نعرف بعضا ولقد التقيت بالأخت مرة واحدة على ما أذكر في شركة التجارة العالمية .

قالت عبير : أجل ، وكنت يومها مع برهان زوج أختك منى ربيع !

فتمم مالك ساهما فقال : زوج أختي منى ربيع .. منى ربيع ؟!

ولما خيم الصمت على المكان قال مالك : هذه يا عم خليل يا أبا أحمد ابنة أختك ـ وأشار لعبير ـ عبير تكون أخت زوج منى السابق حازم ناصر !

ذهل السامعون ، وغمم خليل وهو كالمصعوق فقال : ماذا قلت ؟!

ـ أقول أن ابن أختك المسمى حازما هو الذي تزوج أختنا في يوم من الأيام !

كانت العيون تتطلع في بعضها البعض استغرابا وقال خليل : أمعقول هذا يا فاطمة ؟!

فقال مالك : بالتأكيد أليس هكذا يا عبير؟!

فقالت : طبعا ، ما دام أنا أخت حازم .. فحازم ابن أخت خليل أحمد فرفر ، والتفتت لأمها الشاحبة اللون كالأموات وقالت لها فجأة: أتعرفين ذلك يا أمي ؟!

طأطأت فاطمة رأسها مقرة بمعرفة هذه الحقيقة وقالت : كنت أعرف! ولما عرفت صدمت ! ومن أجل ذاك حاربت ذاك الزواج بشدة .

تعجب القوم لقسوة قلب هذه المرأة ولؤمها، فقهقه خليل من القهر وقال : دنيا !! ولكن هذا كان خيرا لنا وللبنت .. أنتم لا تستأهلون ظفرا من بنات أم ربيع .

فتدخلت عبير قائلة : والله يا خالي ما كنا نعلم هذه الحقيقة ، نحن أصلا لا نعرفكم .. نحن من قريب عرفنا أن لنا خالا ثالثا وخالة ثالثة .

فرد مالك وبحدة خفيفة : لا عليك يا عبير .. نحن الآن واليوم فهمنا لماذا لا تريدون مصاهرتنا ولكن الحمد لله أن الله تعالى أبدلها زوجا خيرا منه ألف مرة .

فقالت أم حازم : لا أدري ما أقول يا سيد مالك ؟ .. الأمر كله لله ، وتذكر الآن أن المدعو حازما مريض ويوشك على الموت فكبده مريضة .. والأمر لله !

فتمتموا بالدعاء والشفاء له ، وعاد خليل يقول : كان من المفروض يا فاطمة أن تستغلي هذه الفرصة للمصالحة ومعالجة الوضع الخطأ .. قدر الله وما شاء فعل ، يا أخية فقد يسر لها الله الأخ برهان ، رجل مقدام أحببته أنا أكثر منكم ومن أولادي لو كان لي أولاد .. رجل فاضل أعاد لنا الفرح والحب .. مرضت قديما مرة ودخلت المستشفى أول مرة في حياتي ، ومكثت فيه أسبوعا كاملا ، يومها تمنيت لو كان إخوتي حولي .. ذاك الحدث لا أنساه لليوم .. يومها تمنيت لو أن إخوتي وأبناءهم حولي .. ولكن أولاد هذه المرأة الصابرة معي ـ وأشار لجميلة ـ وقفوا معي وقفة لا يمكن نسيانها .. كانوا معي ؛ كأنني أبوهم الحقيقي ؛ كأنهم من صلبي أنا وللأسف يومها كنت أنا وأختكم صبرية على زعل ؛ لأنني على زعل مع زوجها أبي علي .. يومها أحسست بالوحدة في هذه الدنيا .. حتى سعى الابن البار عدنان يومذاك للصلح بيني وبين أبيه .. حتى أن عدنان سعى بعد تصالحي مع والده أبي علي لخطبة منى والزواج منها ، فرفضته أنا قبل أن ترفضه منى التي كانت متعلقة بابنكم يومذاك ، وقلت له يا ابن أختي أنتم كذا وكذا ، ولم أفتح الموضوع مع أم ربيع بطلبه حتى هي فاتحتني به ؛ لأن صبرية تحدثت معها فأبديت أيضا عدم

حماسي لهذه المصاهرة مع أني لست إلا زوج أم للبنت وإخوتها ، وتركنا الأمر للبنت ، فاعتذرت لأنها تدرس إخوتها وتساهم في تدريسهم ، وكان مالك وحنين صغارا يدرسون بعد .. فظهر لنا المدعو ابنك يا فاطمة ابن أختي ولم أكن أعرف هذا .. فجاءني للمحل وتحدثت معه فقلت احضر أهلك وحياك الله .. ثم تبين لي أن متفق مع منى الفاضلة على كل شيء ، وعرفنا أن أهله غير راضين بهذه الزواج ، وأنه يريد الاقتران بها دون رضا أهله ، فظنت منى الطيبة أن ذلك شجاعة وتضحية منه فأحبت أن تجاريه .. وأنا رفضت يومها بشدة .. ولكنها أبت وغلبتها العواطف وموقفه الغريب وما كانت تراه في التلفزيون فأصرت على الزواج منه ، فاضطررت لتطليق هذه المرأة الفاضلة بعد عشرة سنوات.. ورحلوا من برقوقة لإتمام هذا الزواج الشاذ عندي .. ومع ذلك حارب أهل حازم هذا الزواج ورفضوه .. لماذا رفضت يا فاطمة ؟!

سعلت فاطمة عدة سعلات قبل أن تجيب على السؤال وقالت : رفضت لأنني عرفت أن الفتاة من حي برقوقة .. وكان أبغض شيء إليّ ولليوم هذا الحي مع أنني ولدت فيه وكبرت فيه .. كانت عبير تحدثني عن الحب المزعوم والموهوم بين حازم وابنتكم .. ولما عرفت عنوان منى صدمت ولم ارتح لهذا الزواج البتة .. وهذا العنوان موجود في ملفها في الشركة .. ثم عرفت من هي منى عندما سألت بعض الناس .. فصعقت أكثر .. خليل أحمد أخي ابن أبي متزوج أم تلك المنى فزاد رفضي وغضبي .. وقلت نحن ما صدقنا أن ننسى خليلا وصبرية وبرقوقة فحذرت حازما من هذا الزواج ، ودفعت عبير لتحاول دفع منى عن هذا الزواج .. وأظهرت أمامهم أن هذه فتاة طماعة جشعة متسلقة تريد الولوغ في ثروتنا ومالنا .. وما هي إلا مجرد موظفة صغيرة في شركة .. لا يجوز التعلق بها .. وأننا لا نتزوج إلا من بنات الأكابر والأثرياء وليس أي أثرياء وهكذا تزوج أولادي الكبار والبنات ، فاقتنع الجميع بوجه نظري ولم يدققوا عن سبب رفضي الشديد .. أعرفتم لماذا رفضت هذا الزواج ؟! ولكنه عاند وتزوج رغم أنفنا ، ولم أقبل بالهزيمة والخضوع لمَ يسمونه الأمر الواقع .. وطردناه من الشركة ليطلق فكابر وفتح مصنعا فدمره المصنع وسافر هاربا لأمريكا ، وهناك تحطم نهائيا وسقط في براثن المخدرات والكحول بكثرة

وأرسل لنا يريد التوبة والعودة ، فطلبنا منه الطلاق قبل العودة فحصل ذلك .. وأما لماذا كرهتك أنت يا خليل ؟ لأنني كنت أحلم بدخول الجامعة .. وكنت أنت ترفض بشدة .. وكانت أمنا تكرهكم فغرست فينا هذا الكره ، وأشعرتنا أنك تدرسنا من ميراث أبينا ليس من شغلك وعملك .. وإنما تتظاهر بأنك تنفق علينا لتحملنا جميلة ومنّا .. وكانت مشاكلك المتكررة مع أمنا تدفعنا لهذه الكره والحقد والبغض ، ونراك عدوا لنا ولطموحنا ، ولا تنسى شتمك لأمنا وتهديدها بزواجنا بعد الثانوية العامة ووجود العريس على الباب كما فعلت بأختنا صبرية ..فلما تخرج أخوتنا طلبت أمنا الرحيل من برقوقة .. وحصل ذلك بعد عدة مشاجرات بينك وبيننا .. ثم تعرف أخوتنا على زملاء أغنياء وأكابر وتزوجوا من بناتهم .. ولما درسنا زوجنا أخوتنا منهم .. ورويدا رويدا انسلخنا من جلدنا وعشنا ردحا من الزمن في أمريكا ، فنسينا خليلا وصبرية .. وماتت أمنا وهي غاضبة عليكما وكذلك نسينا برقوقة .. ولما عدنا للبلاد كانت الدنيا قد تغيرت ولم نحاول البحث عنكم والسؤال عنكم ، وانشغلنا بالاستثمار والشركات حتى ظهرت لنا السيدة منى ، وعرفت أنا من هي منى ؟! فجن جنوني فحاربت الزواج بشراسة .. فهذا سبب حقدي وبغضي أنا وسعيدة لك يا خليل وراحت صبرية كما يقولون في الرجلين .. لأن أي اتصال بصبرية سيعيد خليل إلينا .. وتزوجت قبل أن نهجرك ونبتعد عنك نهائيا !

ـ حقد اسود ! وبما أننا في جلسة مصافاة وفتح صفحة جديدة .. اعلمي أن طلاق منى كان خيرا لها ولنا .. وأنت لا تستحقين النعمة .. فمنى الآن دكتورة كبيرة في الجامعة .. وأنتم أفسدتم أخلاقها ، والحمد لله الذي نجاها منك ومن زوجك ومن ابنك الساقط .. وكاد المنحوس أن يدمرها ، فساءت أخلاقها وتحطمت أحلامها عندكم.. ولما طلقت وخلصت منكم كنت قد تزوجت امرأة بعد طلاقي لجميلة ثم ماتت ، وقام المهندس ربيع والأستاذ عدنان بتزويجي من جميلة ثانية بعدما ترملت ، وكان عدنان متزوجا من ابنة أخت جميلة .. وعادت جميلة أم ربيع للحياة معي من جديد في حي برقوقة ، وعادت المياه لمجاريها .. ثم ظهر لنا البطل

برهان أبو خليل ، واستطاع أن يعيد منى لحظيرة العائلة بعدما أفسدتموها .. ونحن اليوم أسعد البشر .. فعادت البسمة والحياة الحلوة بزواج منى من برهان محمود الدين .. فمنى اليوم غير منى التي أفسدتموها بكبركم واحتقاركم للفقراء لقد نسيتم من أنتم ؟! الخيرة فيما يختار العلي القدير .

فقالت عبير: والله يا خال ما كنت أعرف أن منى إلا موظفة عندنا ، وأنها استطاعت أن تسيطر على أخي حازم ، وأن علاقتهما كانت في البداية لهو وعبث وإعجاب شباب ببعض.. وكما تعلمت أننا لا نتزوج إلا من أبناء الأكابر والأثرياء فهذا مسحوب أيضا على البنات .. مع أنني رأيت أحد أبناء خالتي سعيدة تزوج من فتاة أقل منا ثراء ومال .. فلتأثري بهذا المبدأ التعيس قنعت مع أمي في رفض الزواج ممن أقل منا مالا وجاها حفاظا على هذا المبدأ الأناني وعلى تقاليد العائلة .. وبما أننا في جلسة مصالحة وفتح صفحة جديدة فأقول أننا أخطأنا في حقكم عن جهل وبصمتنا .. المشكلة أننا لم نسمع بكم إلا منذ مرض خالي منير شفاه الله !

فقال أحد الشبان مداعبا عبير : والله يا عبير أصبحت تحسين الخطابة والكلام .. من أين استجديت كل هذه الشجاعة ؟!

التفتت إليه عبير وتبسمت لهذا التعليق المتهكم ، ونظرت لمالك الصامت كالتمثال وقالت وهي تشير إليه : من هذا الرجل ! من مالك ربيع ! .. ومن الأخ برهان ! فأنتم لا تعرفون مالكا ولا برهان .. فبرهان هذا زوج من كانت زوجة أخي ، إنه إنسان بطل كما قال الخال خليل .. فأنا أعرفه منذ أيام دراستي في الجامعة .. حتى أننا كنا نسميه المصباح أو هو كان يجب أن يدعى بذلك اللقب.. أتدرون لماذا أيها الضاحكون ؟

ـ آ .. آ .. أيتها الخطيبة ؟!

فتابعت تقول غير عابئة بتهكمهم : لأن كثيرا من فتيات الكلية كن يرغبن وتود إحداهن أن يكون صديقها ، فكنا من جماله وحسنه ووسامته نحوم حوله كما تحوم الفراشات حول النار والفانوس.. ومع ذلك لم تسجل عليه أي قصة أخلاقية في الجامعة ومع كثرة صديقاته .. ومع

ذلك لما قصد الزواج هذا الإنسان تزوج امرأة مطلقة ؛ لأنها الوحيدة التي أحبها بصدق مع أنه لم يرها إلا مرات قليلة .. كما قال لي .. أتدرون من هذه الفتاة ؟ إنكم سمعتم اسمها يتردد هنا إنها منى ربيع ربيبة خالي الحداد .. الذي لم يستعر من مهنته لليوم .. فبرهان بطل فعلا كما قال الخال أبو أحمد.. برهان بدأ ومنى في فتح مكتب تدقيق صغير للحسابات والموازنات للشركات العامة والخاصة وللجرد أيضا .. فتذكرته وتعارفنا من جديد والتقيت بمنى ربيع من جديد .. في البداية ظننتها عاملة معه .. لأنني التقيت بها قبل زواجها ثانية في متجر أثاث كبير .. ولما عرفت أنها زوجة لبرهان كانت بالنسبة لي مفاجأة أيها الكرام .. ولما تأكد ذلك عندي أكبرت الأخ برهان .. ترك كثير من الحسناوات ليرتبط بمنى المطلقة .. هذا موقف كبير ، ومع أنه عرف أنها كانت زوجة لأخي استمر بيننا العمل والشغل ، وكان بغنى عن الشغل معنا ، فالشغل لديه يكبر ويكبر فاليوم مكتبه من أكبر مكاتب الحسابات في البلد.. وحاولت أمي أن أبتعد عنه ؛ لأنه زوج منى أو مطلقة أخي ؛ ولكن برهان ومنى الشركاء في المكتب اعتبروا الأمر عاديا وليس بالضرورة أن كل زواج ينجح .. واعلم يا خال خليل أن أخي حازما عندما كان زوجا لمنى وطرد من حظيرة العائلة لتمرده على قانون أمي أخذ قروضا وفتح مصنعا ؛ ولكنه انكسر ، وصفي المصنع بعد حين ، وبيع ما بيع ، وبقيت قروضا عليه وهي باسمه .. اسمه وحده .. سافر لأمريكا آملا بتحقيق الأحلام في بلد الدولار كما حدث لوالديه قديما .. ولكنه سقط في تعاطي المخدرات وشراهة الخمر آملا بنسيان ما هو فيه من ضعف.. الهيروين لا يرحم.. تضايق أولاد العم منه بعد نقله للمستشفيات عدة مرات فأرسلوا لنا ، فوافق الأهل على عودته إذا طلق منى ربيع .. ففعل وتنازل عن حبه وزوجته ، وصفى المحامي قضية منى مع أخيها مالك المحامي الصغير تلك الأيام .. وعاد حازم المريض المتعاطي إلى هنا للعلاج من المخدرات ، وأدخل كما يعلم الجميع لمركز علاج المخدرات والإدمان .. وكانت الأخت منى تسد أقساط الدين التي تركها قبل سفره ، فلما طلقت توقفت عن ذلك .. فلما علمت الشركات بعودته عادت تطالبه بتسديد الأقساط الشهرية .. فسدد بعضها مما يأخذه من راتب من الشركة .. شهر

يسدد وآخر لا يدفع .. ورفض الوالدان التسديد عنه .. وطلبا منه أن يطلب من شريكته أن تسدد عنه .. فهي التي ورطته في المصنع والديون .. فالتقى بالأخ برهان بالبطل برهان ربما الكثير من الأهل لا يعرفون ذلك .. المهم أن برهان تحدث مع مالك ربيع بالموضوع ، وتحدثوا معي بعد أن عرفوا كم بقي للشركات الدائنة ودفعوا النصف مع أن الأوراق والكمبيالات مسجلة باسم حازم .. فيومها عرفني الأخ برهان على الأستاذ المحامي مالك ـ وكانت تشير إليه ـ ودفعوا النصف عن رضى، وهذا النصف يزوج برهان من فتاة أخرى .. وأنا دفعت حصة حازم وأغلقنا الديون القديمة .. وعلى أن أخصم المبلغ من الراتب الذي أدفعه لحازم .. هذا موقف كبير لبرهان ومالك ؛ لأنني علمت من برهان أن الأخ مالكا دفع مساهمة في دين أخته ألفين دينار.. وأنه طلب منه أن لا يذكر ذلك أمام منى.. هكذا الرجال يا خال خليل! .. وظلت علاقتنا ببرهان طيبة وحسنة ؛ ولكنها في حدود العمل فحسب وما زالت .. ثم علمنا فيما بعد بزواج السيد مالك من ابنة النقيب عبد الكريم وهو صاحب للوالد .. وأخذت أقرأ كتابات الأخ مالك بشغف في الصحف الحزبية وغير الحزبية مع أنني لم أره إلا مرة واحدة .. وحدثت الوالدين بهذا الزواج وقلت لهما إن مالكا هذا أخ للسيدة منى ربيع ، وهو يكاد أن يصير من الأكابر .. لم تهتم أمي بذلك الخبر ، ولم تندم حتى أنني بصراحة أقول يومها شعرت أن بين أمي ومنى حقد شخصي وأنا أقول أمام الجميع يا أخ مالك أنا معجبة بك غاية الإعجاب ، وأقرأ كل ما تكتب أو يصل إليّ .. وتعجبني مقالتك النقدية أو التوعوية والتثقيفية .. أنت مبدع ، وكلما التقي ببرهان إلا وتكون أنت محور حديثنا ، وقد أهداني الأخ برهان بعض كتبتك عندما رأى شغفي بما تكتب في المجلات وغيرها .. فأنا بعد كل هذا الكلام تعلمت الشجاعة والخطابة من هذين الشخصين .

فأبدى مالك شكره وامتنانه لما تفوهت عبير ، وقال بنوع من العتب : شكرا .. يا حبذا لو كتمت أمر الدين .

فعادت تقول وهي تهز رأسها : وربما بعضكم لا يعلم أن الأخت منى اليوم دكتورة كبيرة في

الجامعة ، وأمي تعلم أن حسنا ابن حازم يتتلمذ على يديها ، وكذلك حنان ابنة سلوى بنت خالتي سعيدة .. فلما علمت أمي أن سلوى ابنة أختها تعمل عند منى في مدرسة الأطفال قبل سنوات تألمت وتضايقت ، فعجبنا لهذا التشنج ، وأصرت على سعيدة أن تترك ابنتها سلوى المدرسة ، وسحبت ابنا صغيرا لحازم من المدرسة لأن الأخت منى مديرة لهذه المدرسة لماذا ؟ اليوم فقط عرفنا لماذا ؟! وحدثني حسن ابن أخي أنه عرف الدكتورة منى على شخصه ، وأنه ابن زوجها الأول، وأخبرها أن والده مريض .. فلم تتضايق من هذه المعرفة ، بل سامحت والده ، وأخبرته أنها سامحته عندما حجت مع زوجها برهان .. ودعت له بالهداية والشفاء .. وأن هذا تاريخ لا يهرب منه الإنسان! .. في النهاية أقول يا خال هنيئا لك هؤلاء الأيتام البربرة وقد صنعت منهم رجالا أوفياء ، وقد صنعت قبلهم من أخويك رجالا ولكنهم خذلوك .. هنيئا لك هذا الجهاد

فرح خليل بهذا الكلام من ابنة أخته وقال : أنت فعلا شجاعة يا عبير عندما قلت كل هذا الكلام الطيب !

فهمست ثانية : تعلمت الشجاعة كما قلت لكم من الأخ برهان والأخ مالك .. وأنا سعيدة بهذه المعرفة مع أنني أعرفه من الكتابات والمقالات ، فهذا سيعزز الاتصال بيننا يا خال خليل فهذا يوم ممتع أن تعرفنا على خال طيب لنا مثلك .

لزم أخوالها وحتى أمها وخالتها الصمت ، ولم يعلق أحد بشيء على كلام عبير ، وقد تعجبوا فعلا من قدرتها على الحديث بهذا الشكل ..

وقالت أيضا : أنا فعلا سعيدة اليوم ؛ لأننا سنصبح أصدقاء حقيقيين يا أخ مالك يا أبا برهان

فقال لها مالك : بارك الله فيك .. وتشرفنا صداقتك .. وكل من يحبه العم خليل فنحن نحبه فالعم خليل والد الجميع ، ونحن والله نتمنى أن نقدم له شيئا ولو يسيرا لمَ بذله من أجلنا .. والأخ برهان رجل مبارك يا أخت عبير !

فقال أبو أحمد : نعم ، هذا الإنسان الغائب الآن الحاضر دائما بركة لنا جميعا .. أتدري يا أخي يا منير ويا أخي يا خالد أن هذا الشاب عندما ناسبنا وأخذ ابنتنا منى رضي الله عليها ؟ .. فله أخ

طبيب ربما سمعتم به الدكتور عبد القادر محمود الدين .. فمنذ تصاهرنا وتعارفنا وهو يتابعني أنا وزوجتي جميلة دوما ، وعندما نحاول أن ندفع شيئا يزعل ويحلف ويغضب منا .. ويصر علينا أن نمر عليه دائما .. ولما حاول ربيع ومالك نقلنا لغيره رفض وعتب علينا .. هذا أخو برهان فقط .. وهو طبيب كبير .. فالحق أن ابنة أختي عبير أحسنت الكلام ووضحت أشياء قاسية ؛ ولكنها جميلة وتدفع بقوة لفتح صفحة جديدة بيضاء .. والاستكبار والاستعلاء على خلق الله يضر يا إخوان الشخص نفسه .. ما أثرتم عليّ بشيء .. ربما تأثرت نفسيا في بعض اللحظات العابرة ؛ لأن الأخوة كنز كبير .. ولن نعود لدفاتر قديمة وحسابات عتيقة فنحن كبرنا وكلنا على وشك الرحيل .. فلتصفوا القلوب يا فاطمة ونتسامح ونعفو .. ماذا يقول الدكتور مالك ربيع ؟!

التفت مالك لعمه وترك الهمس مع عبير شاكرا لها ما تفوهت به نحوه ونحو أخته وزوج أخته السيد برهان فقال مالك رادا على العم خليل : كما تشاء يا عم فأنت كما تعلم منذ عقود وليس اليوم أن كلمتك أمر .. ونحن ليس بيننا وبين هؤلاء القوم أي مشكلة .. فالزواج كما يقول الناس قسمة ونصيب والأمر كما قالت السيدة فاطمة الأمر كله لله ، وأنا بالنيابة عن أختي منى أقول ومع ما سبب لها من ألم ، وما تعرضت له من الطرد والتجريح في مكتب السيد ناصر إنها مسامحة وغافرة ، وقد أكدت الأخت عبير بارك الله فيها أن ابن السيد حازم تلميذ هو وابن خالته عندها ، فقد أكدا لهم أن الدكتورة قد سامحت وغفرت لزوجها الأول .. واليوم عرفنا سر هذه العداوة والبغضاء العجيبة ، وكما قال والدنا الكبير أبو أحمد لا تثريب عليكم اليوم ولله الحمد والمنة والفضل بيد الله سبحانه .

وتسامح القوم من جديد بالألفاظ المهذبة ، وعلى أمل أن تصفو القلوب كما صفت الأيدي والألسن .

وما انتهى شهر على هذا الصلح المتأخر عند آل فرفر حتى هلك اثنان ، فالسيد الدكتور الاقتصادي منير أحمد رحل وترك الدنيا لعالم آخر ، عالم غيبي ، وبعده بأسابيع لحق به ابن أخته

حازم ناصر بعد أن قضت الكحول والتشمع على كبده ، ولم تعد صالحة في جسمه ، فانتقل هو الآخر من هذا الوجود إلى وجود آخر ، وإلى رحمة الله الواسعة التي وسعت كل شيء علما .

يؤثر الموت على الناس ؛ ولكن تأثيره متفاوت بينهم ، فربما مرّ على أسرة خليل فرفر وجابر مرور الكرام .. على حسب الحب والصداقة يكون تأثير الموت ، فمن الموتى من ينساه الناس بعد موته بساعات أو أقل ، ومنهم بعد أيام ، وبعضهم بعد سنين ..

وشارك خليل وأولاد زوجته بالعزاء كما يليق بهم ، وعادوا للحياة سريعا ؛ كأن لم يكن هذا الحدث .. ولكنهم كانوا وما زالوا بين أنفسهم يستغربون من حقد فاطمة على أخيها خليل.. وكيف أثر هذا الحقد عليها حتى دفعها لتقف أمام سعادة ابنها وزوجته حتى فرقتهما عن بعضهما ومع الصلح الذي حدث وموت ابنها حازم ما فكرت بزيارة أخيها خليل أو زيارة الحارة التي ولدت فيها والبيت الذي استقبل صرختها الأولى في هذه الدنيا .. والسيد خليل مع ذلك لم يهتم بذلك كثيرا ، وشارك في عزاء ولدها ، وقام برفقة صبرية أخته وزوجته جميلة بزيارتها بضع مرات قبل موت حازم وبعده .

وتأثرت الدكتورة منى ربيع قليلا بما علمت من سر عذابها مع زوجها الأول ، والسبب الرئيس لبغضها، ومع ذلك مرّ الحدث بعد كل هذه السنين مرّ سريعا وذكرى ، وشاركت بالتعزية بنفسها وشخصها بالسيد منير وبالسيد حازم ، وتقبلت عذر أمه ولم تقل لها إلا قدر الله وما شاء فعل .. هذا أمر الله .. والخيرة فيما يختاره الباري سبحانه وتعالى ، وكان أكثر حديثها مع السيدة عبير ناصر ، وقد تعرفت على بعض شقيقاتها الحاضرات العزاء ، وإن كانت قد عرفت بعضهنّ أيام عملها معها في الشركة .

وتلقت كذلك أثناء العزاء بحازم اعتذار السيد ناصر الثري المعروف بالبلد ، وتأسف لها عن موقفه ضد زواجها ، وعن موقفه عندما طردها من مكتبه ، وتأسف عن جهله بدوافع زوجته التي عادت وحاربت ذاك الزواج .

فقبلت السيدة منى ربيع عذره واعتبرته من الماضي الذي مات ، وإنه ليس لديها حقد وكره لأحد

فأثنى عليها تلميذها حسن ابن الميت ، وأراد السيد ناصر أن يهديها سيارة من آخر طراز ، فرفضت ورفض زوجها برهان هذا الإهداء شاكرا للرجل ، وقال له : الكلام بلسم للجراح يا سيد ناصر .. وكما قالت الدكتورة منى الأمر لله .

واضح أن هناك علاقة جيدة بين الأسر بعد هذه المصالحة ، وبعد دخول الموت بينهم مذكرا بالآخرة والحياة الباقية .

فكان خليل يقول لجميلة : إنني يا جميلة أتذكر باستمرار الأيام التي كنت أئن منها من بعد وجفاء إخوتي وأولادهم عني .. ما زلت أتذكر تلك الشكاوي .. فها هي الأمور بعد عقود من السنين تعود صافية .. أليس من المؤلم أن نخسر ثلاثين سنة ونحن متدابرون متقاطعون؟! آه منك أيها الإنسان ! .. الحمد لله على كل حال.. الإنسان اليوم يموت قرير العين .. رحم الله سيدنا يعقوب .. كيد أولاده أبعد عنه يوسف أربعين سنة .. كما نذكر ونقول كثيرا .. الصبر جميل .. لقد رفع الأولاد جميعهم منى وربيع ومالك وحنين وبرهان وسعد وعدنان رأسي شامخا يا جميلة .. رضي الله عنهم ، وهم محل فخر كبير لدى أهل برقوقة .

قالت جميلة : هذا من خيرك يا خليل .. ألم تربهم صغارا وتعلمهم شبابا؟ فأنت والدنا وسيدنا وهل ينسى فضلك ؟! ومهما قدمنا فنحن مقصرون ، فأيام الفقر واليتم لا تنسى يا رجل .. لقد كنت لنا خيرا من الأهل والأقارب .

ـ بل أنتم كنتم لي خيرا من الأهل والأقارب.. هل دخل ابن برهان كلية الطب كما سمعنا من منى ؟!

ـ نعم .. لقد تيسر له مقعد في كلية الطب ، يريد أن يكون مثل عمه عبد القادر وبعض أبناء أعمامه الآخرين ، وهو شاب نبيه وابن أبيه .. فسيصير خليل الصغير طبيبا إن شاء الله تعالى !

ـ وابن أمه كذلك يا جميلة !

ـ وأمه يا خليل !

بعد موت الأخ لأب لخليل بشهور قليلة اعتذر خليل من برهان وأخيه المهندس عبد الرحيم

وترك العمل في المصنع ، وبعد إلحاح منه وافق الرجلان على ذلك التقاعد .. ثم بعد ذلك بقليل ترك عمل المحددة الذي ضعف أصلا منذ عمل في مصنع الحديد .

وكانت أيام هذه الأسر تمر هادئة وطبيعية دون مشاكل وهموم تذكر .. الكل في عمله ووظيفته برهان أصبح معروفا بين رجال المال والأعمال ، واشتهر في المدينة بالمحاسب الكبير ، ثم إن صحته بعدما تحسنت كما قلنا سابقا أخذت مشاكله في الجهاز العصبي تعود ويضعف بدنه ، حتى أنه بعد حين ترك مزاولة الأعمال وعكف في البيت يقرأ ويكتب حتى يعود الأولاد من جامعاتهم ومدارسهم .. وفي المساء يذهب للسهر عند مالك أو ربيع أو خليل ، وأحيانا كثيرة يلتقي الجميع في بيت أم ربيع ، ومعهم سعد الدين وحنين ، وأحيانا أخرى يرافقهم الأولاد والبنات .. وقبل أن يتخرج خليل برهان من كلية الطب كطبيب عام رحل السيد خليل أحمد فرفر عن هذه الدنيا ، وأصاب القوم حزن شديد على فراقه ، فقد أحبوه حبا جما ؛ ولكن هذا هو مصير الكائن الحي ، وحتى أن جميلة على أثر وفاته ظهر عليها الكبر سريعا ، وأصرت زوجة مالك على أن تعيش حماتها بقية عمرها عندها ؛ ولكن ربيعا رفض وعارض وقال لهم : أمي أنا أحق بها ، وإن ابنة أخيها عندي .

وقوموا بيت خليل ووزعوا قيمته على الورثة ، فكان من نصيب جميلة الربع لعدم وجود أبناء للسيد خليل ، ووزع الباقي على صبرية شقيقته ، وعلى إخوته وأخواته لأب خالد وفاطمة وسعيدة وتنازلوا عنه للفقراء لأن صبرية رفضت أخذ حصصهم ، وأقام أيتام خليل الحداد عمارة متوسطة مكان البيت ، وسكن فيها ربيع وأفراد أسرته ومعهم الحاجة جميلة من أجل الذكريات التي كانت لهم مع أبي أحمد خليل فرفر أبوهم الروحي راعي الأيتام .

وأما بطلة هذه القصة الإنسانية الدكتورة منى ربيع فقد تربعت على كرسي عمادة كلية الآداب ولما تخرج خليل ابنها من كلية الطب قدمت استقالتها من العمل ، وعكفت قرب زوجها العليل الذي أخذت قواه تضعف يوما بعد يوم وآثرت البقاء معه وحوله وقالت : آن لي أن أتقاعد!

وكانوا قد تركوا بيت العائلة بيت الأسرة الكبيرة ، وأنشئوا قصرا خاصا بهم وبأولادهم في حي

مجاور لحبيبهم ، وقد أقامت منى خلال سنوات البناء حديقة رائعة في جنبات القصر ، وعرائش العنب ، وأحواض الأزهار والورود .. وكان بيتهم قد أصبح محطة للزائرين والمحبين لبرهان .
ورغم العلاجات الكثيرة التي أخذها السيد برهان محمود ، فما كاد يتخرج ابنه محمد من الجامعة بقليل حتى كان يفارق الدنيا تاركا محبيه يبكون عليه الدموع الحارقة .. فقد كان محبوبا لديهم.. بل أصيب مالك بصدمة لم يتوقعها مع أنهم كانوا يرونه يذوب بينهم كل يوم.. وترك العمل أياما حتى استرد أعصابه وهدوءه واستوعب المصيبة .

وأصبحت منى وحيدة القصر وسيدته الأولى.. يذهب الأولاد لعملهم ودراستهم وتبقى وحدها مع الخادمة التي شغلتها عندما رحلت للقصر .. فكانت تتحرك وحدها في البيت والحجرات .. تجلس على كل مقعد كانت ترى برهان جالسا عليه ، وتأخذ بمخاطبته .. تذكر كلماته وأحلامه .. تنتقل للمكتبة الكبيرة التي كانت في وسط البيت ، وتجلس فيها طويلا كما كان يفعل برهان في السنوات الأخيرة .. تقرأ من الكتب ما كان يحب أن يقرأه مرة ومرتين .. تقف إلى الشباك حيث كان يقف ، وتنظر للفراغ والهواء ، وتبقى واقفة تبحلق في الفضاء مقدرة المدة التي كان يقفها وتفعل كما كان يفعل .. لقد أحبت هذا الإنسان من كل قلبها ، وقد شغفها حبا بأخلاقه وكرمه وحبه لها .. فهو الشمعة التي أضاءت لها الحياة بعدما كادت تهوي في دركات الشقاء والفساد والتقليد الأعمى .. كانت تحس أنفاسه حولها ، وهو يبتسم لها ، ويحبب لها الحياة ، وأن المطلقة ليست نهاية حياتها في الطلاق .. المجتمع المعاصر يقسو على المطلقة ، ويجعل كل أسباب الطلاق عليها ويحملها لها .. أو فشل الإنسان في مصنع فهذا لا يعني نهايته فلكل جواد كبوة .. تدور في البيت ساهمة الذهن والفكر سارحة في ذكريات وجلسات.. تجلس في حدائق القصر وتتلفت يمينا وشمالا كما كان يفعل برهان .. وتقطف وردة حسناء وتقول لنفسها : كان يحب قطف الورود ويستنشق عبيرها .. ثم يقدمها لها مع ضحكة وبسمة كبيرة ولفظة حلوة كالشهد .

لقد شعر الأبناء بالفراغ الكبير الذي تركه والدهم في حياة منى أمهم.. وأصابتهم الحيرة بما

يفعلون .. وتحدثوا مع خالهم مالك لحب أمهم له فقال لهم : دعوها إنها تحب برهان .. هي ليست مريضة .. إنما تحب أن تعيش مع تلك الذكريات .. أنتم لا تعرفون برهان كما تعرفه منى ذلك الفارس الجميل الذي هبط عليها من السماء كما كانت تقول .

كانت منى تقرأ كل ما خطه زوجها من خواطر وأفكار ، وكانت تفكر بطباعتها ولكنها قالت لأ .. هي لي وحدي .. وبعدما ألحق به إلى هناك وأموت يفعل بها الأولاد ما يشاءون

تقدم أحدهم للزواج من ابنتها التي تصغر خليل بسنتين .. احتارت في الأمر .. فالبنت كبرت تكاد أن تصل للخامسة العشرين وتحتاج لزوج .. أسرة جديدة .. وتحدث الأولاد مع خالهم مالك لمعرفتهم بقوة محبته لأبيهم وحبه له، ولإعجاب أمهم بأخيها مالك وأنها تقدم رأيه كما عرفوا ذلك من أبيهم.. تحدث مالك أبو برهان معها في شأن البنت والزواج فتركت الأمر له فتحدث مع جدها الشيخ الكبير وأعمامها، وتزوجت من قريب لأبيها يعمل طبيبا ، ورحلت زهرة من البيت .. بعد وقت يسير خليل أيضا تزوج .. امرأة جديدة دخلت القصر وهي أيضا من بنات أحد أعمامه.. منى لا تحس بذلك كانت ترى أشخاصا يدخلون ويخرجون .

جلب لها خليل طبيبا نفسيا وتحدث معها فترة من الوقت ثم قال لزميله في المهنة : لا شيء عندها إنها سليمة الذهن والبدن .. ولكنها تحب أن تعيش على ذكريات الماضي مع زوجها الذي مات لقد كانت متعلقة به تعلقا ملك عليها كل مشاعرها وحواسها ، فهي لم تفكر بأنه سيتركها في يوم الأيام .. فأصابها ذهول أثر على الدماغ .. فهي تشعر أنه لم يفارقها بعد .. وأنها تشعر بفراغ كبير بعد ذهاب بدنه .. فهي تحب العيش مع ذكرياته وحركاته ؛ كأنها لم تفارقه ولم يمت في قلبها بعد .. دعوها فرويدا رويدا ستنسى كل ذلك ، ومع مرور الزمن سيزول الوهم وتعود للواقع والحقيقة .. دعوها مستمتعة بهذا الوهم .. أعتقد أنه لا خطر عليها وعلى عقلها بإذن الله .

كانت منى مدركة للقلق الذي يساور الأسرة من اعتكافها الدائم في البيت ، وإنما تتحرك في الأماكن التي كان يجلس فيها برهان .. وتدرك أن ابنها البكر تزوج وأن هناك زوجة لابنها تعيش معهم في البيت .. وأن ابنتها الكبيرة زهرة قد تزوجت .. تدرك ذلك كله ؛ ولكنها أحبت أن

تعيش على أن برهان ما زال معها .. وإلا هي كانت تدرك أنه عندما تجدد المرض والعلة بدأ يموت ويذوي كالشمعة المحترقة.. كانت ترى ذلك وتشعر؛ ولكنها صامتة حزينة من الداخل لم تحب أن يعرف أنها تعرف أنه يموت ، وأن الطب عاجز عن فعل شيء .. كانت تعيش في سعادة في مثل هذه الذكريات ، ثم ألف الأولاد هذه التصرفات الساذجة .. ووصوا الخادمة أن تضعها تحت مراقبتها وعيونها باستمرار .

كان مالك ربيع يعرف شخصية منى وتكوين منى ، وفهمها منذ الصبا وعرف من هو برهان بالنسبة لمنى التي انهارت أحلامها الكبيرة في أول معركة من حياتها، ولولا ظهور هذا الإنسان في حياتها لربما ضاعت وسقطت .. وكيف ملك جوارح وفكر منى؟ وإن كانت تحاول أن لا تظهر بالضعف أمامه .. فبرهان شيء عظيم بالنسبة لها .. ولما تقدم أحدهم للزواج منها ضحك مالك لهذا العرض مع أن منى قد دخلت على الخمسين وزادت ، ومع ذلك لا يظهر هذا السن عليها ، ويمكنها أن تعيش زوجة من جديد ؛ لكنه يعلم أن منى كانت لا ترى في الدنيا إلا برهان وتحرج من الطلب ، وحدث ابن منى الطبيب عن رغبة الرجل الصديق للعائلة بهذه الرغبة .. فلم يتحمس ويتشجع أولادها لهذا الطلب .. بل تعجبوا ممن سيفاتح منى بذلك .. صحيح أن برهان مات منذ أربع سنوات ؛ لكنها مازالت تناجيه وتعيش ساهمة معه في البيت .. فكر مالك قليلا بعد صمت الأولاد .. فكر أن يضع الأمر بين يدي حنين التي أبدت شكوكها بموافقة منى على الزواج ، ولو كان الزوج صديقا لهم وللأسرة .. وهو عالم أرمل مثل منى.. وأمام إلحاح العائلة تحدثت حنين مع أختها في موضوع الزواج والحياة الزوجية .. ولم تثر منى في وجهها واستمعت لها هادئة ساهمة كعادتها بعد موت برهان .. فتشجعت حنين وأعادت كلامها عن استمرارية الحياة وأن الزواج من عمارة الكون وسمة الحياة .. إنهم كانوا يرون ربما أن يكون زواجها ثانية مخرجا لها من الحالة النفسية التي تحياها .. فظهور رجل آخر في حياتها قد يساعد على عودتها للحياة والعمل من جديد ، فلما سمعت كلام حنين قالت لها منى : أنا أعرف أنكم تظنون أنني مريضة لأنني منذ مات فارسي وسيدي برهان وأنا أعيش على أنفاسه وذكرياته ..

وأعرف أنكم تظنون بزواجي عافيتي .. أنا وحدي أعيش هذه الذكريات والأحلام يا حنين يا حبيبة مني .. وأنا أعرف أن برهان لن يغضب مني إذا تزوجت بعده .. فهو يحب لي السعادة .. فأنا سعيدة بحياتي يا حنين .. أنا غير محتاجة لرجل بحياتي لأنني أحب أن أبقى لحبيبي في الدنيا والآخرة إن شاء الله.. لست بحاجة للرجال أو لرجل ينسيني برهان وأيامه وأحلامنا.. فأخبري مالكا أن يعتذر لصديقه وصديق العائلة .. ودعوني أحيا هذه الأيام الباقية لي بهدوء وسكون كما أحب .

حاولت حنين مرة أخرى ثم عانقت أختها وقالت في النهاية : برهان يستحق أن تلقيه في الآخرة واعذريني لهذه المحاولة .. عيشي في أحلامك وهمساتك مع البطل برهان .. فهو الذي أعطاك الحياة من جديد بعد فضل الله ، رحمه الله رحمة واسعة .

أحلام مالك

لما مات برهان محمود وترك منى ربيع وحدها في القصر قل خروجها منه .. أيامها تتجول داخل حجرات القصر وحدائق القصر ، وإذا جلست مع ضيوفها وضيوف أولادها تجدها صامتة ساهمة تمسك وريقات كتبها برهان أيام عكوفه في البيت .. وإذا تكلمت تكلمت عن أيام برهان ومواقف دارت بينهم .

ماتت أمها جميلة وهي على هذه الحالة بكت قليلا ، ولما انتهى العزاء عادت لبيتها ساكنة هادئة عرض عليها أحد أصدقاء العائلة إدارة جامعة أهلية ، فضحكت للعرض وقالت : أشكرك يا دكتور نزار .. فأنا نسيت التعليم والمحاضرات والإدارة .. أنا لست بحاجة لمال وإشغال وقت فوقتي في المكتبة أقرأ وأكتب !

وهذه المحاولة فشلت أيضا في إعادة منى لحياة العائلة والعمل ، بل شركة المحاسبة والتدقيق التي أنشأها برهان ومنى قام الأولاد ببيع حصة والدهم فيها ، وكان خليل يتفاوض مع أعمامه وأخواله لإنشاء مستشفى خاص حديث ومتطور ، وكف الأهل والأصدقاء من التدخل في حياة منى الخاصة .. ولكنهم كانوا حولها باستمرار يغدقون عليها من حبهم وعطفهم .. فأبناء أختها وإخوتها يترددون دائما عليها ، وفي كل فرصة يجيئون للقصر ويسعدون برؤيتها وسماع حديثها وذكرياتها وكلامها عن برهان زوجها رغم سماعه مرات ومرات .. يسمعون بصمت وهدوء ثم ينصرفون !

وحتى عبير ناصر زارتها وجلست معها عدة مرات ، وكان كل حديثهما حول برهان وأخلاق برهان .. وتتذكر منى أول مرة رأت فيها برهان عندما دخل عليها معرض الأثاث مستنجدا بها طالبا مساعدتها لشراء أثاث مكتب للمكتب الذي كان يحلم بولادته .. كان يقصد التعرف عليها والاحتكاك بها .. فتفرح وتملأ السعادة وجهها .

تراها الخادمة تخاطب الكتب ورفوف المكتبة ؛ كأنها تتحدث مع الزوج الغالي .. رغبوها بالسياحة في الأرض .. نزهة .. رحلة إلى مكة المكرمة والمدينة المشرفة .. اعتذرت عن كل هذا

فمنى كما يعلم القارئ العزيز قد قامت بأداء فريضة الحج والعمرة في حياة زوجها برهان كانت ترغب أن تعيش مع ذكرياته .. كانت سعادتها كل هذه السنوات على هذه الذكريات .

دخلت عليها ابنتها جميلة يوما قائلة : كيف حالك يا أمي الغالية ؟!

ـ بخير يا ابنتي .. أتصدقت عن والدك اليوم ؟

ـ نعم تصدقت بمائة دينار .. وخالي مالك ما زال ينفق على كل الأسر التي كان يساعدها والدنا الحبيب يا أمي الحبيبة .

ـ شكرا لكم جميعا .. مالك مثلي حزين لذهاب برهان كيف أطفالك ؟

ـ بخير يا أمي الغالية .. سيمر زوجي ليجلس معك مساء .

ـ يا مرحبا بكم .. هل عندك كلام ؟؟

ـ نعم يا أمي الغالية .. خالي الدكتور مالك رشحوه لمنصب رئيس الحزب .. وربما يشارك في انتخابات المجلس النيابي .. أحببت أن أقول لك ذلك الخبر .. ويشاع أن الحزب قد يشارك في الوزارة القادمة .

ـ مالك بطل مثل برهان .. ويستحق كل خير .. خالك إنسان عظيم يا جميلة !.. رحمك الله يا برهان .. كنت تحب أن تأتيني بأخبار مالك قبل أن تظهر .. كان أبوك برهان ذا ذكاء نادر .. ويستطيع كشف الأخبار بسرعة ، وربطها ببعض ويخرج بنتيجة تصدق غالبا .. رحمك الله يا برهان .. أسعيدة أنت مع زوجك ؟!

ـ نعم يا أمي الغالية .. أنا في غاية السعادة والحب مع محمد عبد الرحيم .

ـ نعم ، أجمل شيء في الكون الحياة الزوجية السعيدة .. إنها تخفف من مشاق وإرهاق العمل والحياة يا جميلة .. فحبي زوجك واخلصي له .. فأولاد الحاج محمود الدين وأحفاده أناس رائعون وطيبون ويحترمون نساءهم وبناتهم .. لعله يكون كأبيك .. مع أنني لا أرى له مثيلا !

ـ أكيد يا أمي الغالية فأبي فارس ورجل عظيم !

وأخذت تكيل مدح أبيها الحبيب أمام أمها التي تحب سماع ذلك ، والأم تؤكد ذلك ، ثم

انسحبت البنت من عند أمها عندما حضر الأخوة من الخارج ، وذهبت تقول لأخيها الطبيب وهي تبكي بحرقة : يا خليل إنني أخاف على أمي الجنون والهلوسة !

قال خليل : لا تخافي ولا تبكي .. أمك لا شيء فيها .. فقد تحدثت مع عدد من الأطباء والأخصائيين النفسيين وعلماء الأمراض النفسية والعصبية ، كلهم أكد لي أنها طبيعية ، وإنما هي ترى راحتها في هذه الحياة .. وها أنتم ترون أنها تتحدث معنا وتسأل عنا وعن أخبارنا ، وتفرح لما نتحدث عن شيء مفرح ، وتحزن لما نحدثها عن شيء محزن .. وإن يبدو لنا أنها غير متفاعلة معنا كما كنا نعهدها قديما .. إنما الأمر أنها ملت الحياة بفقد برهان وأحست بفراغ كبير بفقده البدني .. فقد كان يشكل شيئا كبيرا في حياتها.. والإنسان عندما يفقد شيئا كبيرا يعز ويصعب نسيانه بسهولة ، فكيف إذا كان زوج مثل أبينا ؟! .. لا جنون هنالك ولا مرض نفسي وهذه الأعراض لا تشكل عليها أي خطر .. ولو كانت حالتها مرضا لزادت مع كل هذه السنوات التي مرت عليها .

مسحت الفتاة الدموع التي تساقطت أسفا وحزنا على أمها ، ودعت لأخيها بالتوفيق وقالت : أرجو ذلك يا أخي .. فأنا أحب أمي جدا .. وابن عمك زوجي محمد قادم الليلة للعشاء معكم والجلوس مع أمي .

ضحكوا وقال خليل : ونحن نحبها مثلك لن نقول أكثر منك .. فالحب هو الحياة ! .. وأهلا بأبي زكريا ..

وقد تزوج أولاد منى ذكورهم وإناثهم إلا صغيرهم إبراهيم ، وهي ما زالت تعيش في صومعتها وذكرياتها الخاصة مع برهان .. وقد تأقلم الأولاد وزوجاتهم على هذا الوضع .. تصمت طويلا ثم حديث عن برهان الميت .. كانوا يستغربون من حب منى للبقاء في البيت ، وكم كانت تكره الخروج ولو بضع ساعات .. حتى عندما تساق للعيادة أو المستشفى عندما توعك تشعر بتعب ونصب حتى ترجع إلى البيت فيعود لها الهدوء ويختفي التوتر.. وتعود الابتسامة ترتسم على وجهها الشاحب السارح .

كانت مسرورة في حياتها مع ذكرياتها .. كرروا عليها العودة للعمل والإدارة ووضعها في منصب رفيع بإحدى الوزارات كأمينة عامة .. فضحكت وقالت : سنة .. سنتان ثم ماذا ؟! لا دعوني في صومعتي ومع كتب وأوراق سيدي برهان .. أنا شبعت من الدنيا .. أليس لي بيت وأولاد وأحفاد وتزوجت مرتين ؟! كفاية .. فلندع الفرصة لغيرنا .. أنا ما صدقت واستقلت من عمادة الكلية .

فيدركون أنها في وعيها الكامل .. فيلوذون بالصمت ، وتختفي الوسائل والمحاولات إلى وقت آخر لإخراجها من تقوقعها في بيتها .

قبل أن نودع أبطال قصتنا الذين عشنا معهم هذه الصفحات والأحداث الشخصية من حياتهم المديدة .. ندخل بكم إلى بيت السيد مالك ربيع أحد أشخاص هذه القصة .. كلنا يعرف مالكا ونعرف نشاطه المستمر منذ وعي على هذه الدنيا ، كانت زوجته هناء تجلس معه في شرفة البيت الحديث الذي أنشأه في حي برقوقة ، وكان والد هناء قد مات منذ أيام قليلة ، فقال لها : رحم الله الوالد يا أم برهان .. كان والدا لي ليس لك فحسب .. كان محبا لأمته ، وكان رائدا وطامعا أن يجعل الحزب حزب الأمة والشعب .. وقد تضايق من فشل الحزب في الانتخابات الأخيرة ، ومن عدم تحقيق الحزب لمقاعد تليق بالحزب العريق .. لقد بذلنا جهدا جبارا ؛ ولكن الناس لم يروا ويقدروا هذه الجهود .

فقالت الطبية هناء الواعية للحس السياسي في البلد منذ نعومة أظفارها لحياتها في بيت تشغله السياسة: هناك أخطاء كان على أبي ـ رحمه الله ـ أن يدركها ويتنبه لها .. فالتغيير متسارع في المدينة والمدنية ، وبين الناس وبين الطلاب والعمال.. فالأجور تتضاءل أمام الاستهلاك الكبير.. فالسلع كثيرة والخدمات أكثر وأصبحت مهمة لحياة الناس ورفاهيتهم .. والأجور لم تعد تغطي الكثير من هذه الخدمات والسلع

ـ ولكننا بذلنا جهودا جبارة في تحسين أوضاع العمال والصناع.. واستيراد مواد رخيصة ونظيفة

ـ وأذكر أن التنافس الحزبي كان شديدا في هذا الموسم .. الخدمات الاجتماعية أيضا أصابها

ضعف وترهل يا مالك .. لا يجب أن تعتمدوا على تاريخ الحزب وماضي الحزب .. التجدد مطلوب بين كل زمن وآخر

ـ هناك عدة لجان قامت لدراسة أسباب الخفوق الكبير في الشارع .. فرحم الله الوالد عبد الكريم لقد أثرت نتائج الحزب على صحته ونفسيته

ـ رحمه الله .. المهم أن لا تتأثر أنت بالهزيمة التي حدثت ، وعليك أن تعيد تقييم نفسك ودورك أنا استغربت لعدم ترشحك في هذه الدورة .. مع أنك أذعت رغبتك بذلك .

قال: للأسف أنا كنت أعرف نقاط الضعف عندنا ، وحاولت من خلال الصحيفة إرسال رسائل لمجلس قيادة الحزب .. لكنهم لم يسمعوا شيئا .. لم يعد بعضنا يقرأ لبعض .. شبعنا أو مللنا من القراءة .. فلذت بالصمت حتى تنقشع هذه الجولة .. ولما خيبت النتائج الآمال ، بعضهم صحي وبعضهم ما زال يكابر .. ثم كان قرار عدم المشاركة في أي حكومة جديدة حتى يعود للحزب حيويته وحضوره الشعبي .. ثم جاء موت الوالد العزيز!

ـ سمعت من نضال أنه سيحدث تغير كبير في قيادة وإدارة الحزب!

ضحك برهان وقال : ولكنه تغيير رؤوس بدون تغيير فكر وأساليب فذا لا يحل الضعف الموجود فينا .. فالحماس وحده أحيانا كثيرة لا ينفع .

ـ تحدث مع نضال فربما استفاد من ملاحظاتك .

ـ تحدثت معه كثيرا .. فأخوك يجب أن يسير على خطى والدك ، وهو إرضاء جميع الأعضاء والقيادات .. وعدم قطع الخطوط مع الشباب والكبار .. وأنا أخشى إذا لم يحدث تغيير جدي في بنية الحزب أن نخسر في الانتخابات القادمة خسارة أكبر وأشد من هذه التي وقعت منذ شهور ، ونفشل فشلا ذريعا إذا بقي الصراع الخفي بيننا .. يستغل البعض مرونة الأنظمة والتعاليم للعبث وتحقيق مأرب شخصية .

اهتزت هناء لم يتفوه به مالك وقالت : الوضع خطير إذن !.. تناقش مع نضال وأخي الأكبر عزمي وغيره من الشباب الصاعد .. فقد زادت الأحزاب في البلد .

ـ أخشى أن يفسر ذلك على غير محله ، وعلى أنه رغبة في الانشقاق والابتعاد .. ولكن سأحاول صادقا وأحاول .. فضعف الحزب موت لنا

ـ إن شاء الله سيتحسن الحال .. فكافأتك معروفة للجميع .

تبسم مالك وقال : الكفاءة جيدة وممتازة ؛ لكن الآخرين أحيانا لا تعجبهم هذه الكفاءة ، ويحبون الإصرار على تحجيم الآخرين .. حتى أن بعضهم لا يحب الانتقاد الذي أعرض به في الصحف والمجلات ويتهمون ويتهمون ..

ـ حاول أيها الحبيب ..أنا واثقة من قدرتك ومن أساليبك الذكية لتحقيق الغايات الكبرى .. فقد سمعت أبي يوما يقول إنك أمل الحزب في المستقبل

ـ أرجو ذلك يا أم برهان .. تحدث معي من أيام ـ أثناء عزاء والدك ـ ابن خالك عماد ..

ـ ما رأيك بأن ندعوه وأخته (علا) وخالي للغداء معنا غدا .

ـ تحدثت معه ومع ابنة خالك بذلك ؛ ولكنهم اعتذروا بأن وقتهم ضيق ، فهم جاءوا لعزاء أمك أولا ثم أنتم .. وأثناء لقائي بابنة خالك طلبت مني كتابا جديدا لترجمته ونشره في أوروبا فتركت هذا الأمر لك لتختاري بعضا من الكتب المتوسطة الحجم التي الفتها لتقوم هي بترجمتها وطبعها ونشرها ..

ـ سأتحدث مع خالي ثانية وأدعوه للعشاء معنا غدا .

ـ افعلي .. فهي فرصة للقاء الأولاد بهم .. فهم يذكرونهم من أيام بريطانيا .. وكثيرا ما يسألني عنهم برهان .

نهضت هناء واتصلت ببيت أهلها سائلة عن خالها ، فلم تجده ولا أولاده ، فقد ذهبوا للفندق فإنه يحب المبيت في الفندق .. اتصلت بالفندق فقيل لها إنه لم يحضر بل خرج مع ولديه في مشوار فتركت هاتف منزلها عند موظف الاستقبال قائلة : إذا سمحت دعهم يتصلون بهذا الرقم !

وعادت للجلوس وهي تقول : عندما يأتون سأحاول أن أقنع ابنة خالي بزيارة الدكتورة منى أم خليل .. كانت منى عندما تقرأ في الكتاب الذي ترجمناه لك قديما تحب أن تتعرف على

مشاركتي في الترجمة ، وتقول ضاحكة : أنا خريجة إنجليزي وقضيت سنوات عمري في الترجمة وللأسف لم أترجم لأخي أي كتابفأضحك وأقول لها الحظ يا أخت الحبيب

قال مالك : والله فكرة ! يا هناء ! لماذا لا أطلب منها ترجمة كتاب .. فأنا لدي كتاب في القانون لم يترجم ولم يطبع !

ـ كتاب في القانون .. ما هو هذا الكتاب الذي لم يطبع ؟!

ـ مجموعة محاضرات كنت قد ألقيتها في إحدى الجامعات .. عن أهمية القانون في حياة الناس وأهمية الالتزام بالقانون لتحقيق العدالة في الأرض .. مع مقارنات فقهية أصولية .

ـ حاول .. إن منى ـ رضي الله عنها ـ لا تحب أن تخرج من حياتها مع برهان رحمه الله .. مع أنها موقنة بموته ورحيله .. تعيش معه لليوم !



إبراهيم برهان

قامت هناء وابنة خالها علا بزيارة الدكتورة منى ، ولما عرفت منى زائرتها انبسطت ورحبت بها ترحيبا حارا ، وقالت : يا سلام ! .. نحن التقينا في لندن على ما أذكر ، وإن كان وقت اللقاء قصيرا ؟!

هتفت هناء فرحة بتذكر منى وقالت : يا الله ! فعلا قد التقيتها ، أنا ظننت أنها أول مرة تلتقيان

ردت منى : لا ، نحن التقينا مرة أثناء علاج برهان في بريطانيا بعد الحادث الذي أتعبه وكان لقاؤنا قصيرا .. فأهلا بمترجمات كتب أخي مالك .

ولما شربوا الشاي نزلت بهم منى إلى إحدى حدائق القصر ، ولما جلسوا ، قالت منى : لقد كان العزيز برهان يحب كل مساء أن يجلس هنا .. ونذهب في تذكر أول أيام التقينا بها !

عزت الضيفة منى بوفاة زوجها ، وإن كان العزاء متأخرا ، فقالت منى : نحن قد تلقينا برقية عزاء منكم ، أنا ما زلت بوعي الكامل يا (أخت علا) ربما أساء أحدهم لي وذكر لك أنني أهذي أو مجنونة !

ضحكن وقال الضيفة : لا ، الكل يحبك يا منى ، ويحبون السيد برهان .. لكني أحببت اللقاء بك ؛ لأنني مسافرة عن قريب ، وقد أخذت بعض كتب أخيك لترجمتها ونشرها هناك ..

هناء قالت هنا : منى يا حبيبتي .. لا أحد يقول عنك كلاما سيئا ، بل كلنا يقدر لك هذا الوفاء العجيب والحب الكبير .. والأخ برهان كنا نحبه في الله ونقدره .. فلا تهتمي بغمز وإشارات الناس .

ضحكت منى وهي ترد : أنا لا أزعل منك أبدا يا هناء ! أنت عزيزة عليّ .. وأنا أحبك في الله أنا كنت أريد أن أقول أن بعضهم يهمس بأنني فقدت عقلي بعد موت زوجي .. فهذا غير صحيح ؛ ولكني زهدت في هذه الدنيا ، وما زلت أعيش مع سيدي برهان بروحه .. فإذا فارقنا الجسد فالروح معي !

وبعد دندنة متفرقة قالت هناء : أختي منى! أبو برهان أخوك المحب لك يريد منك أن تترجمي

له مجموعة من المحاضرات القانونية تذكرك وهو يدفع بعض كتبه لعلا ، ويريد أن نتقاسم العمل أنا وأنت فما تقولين ؟!

تبسمت منى للاقتراح وقالت : على الرحب والسعة .. هاتيها ، أنا عندي وقت فراغ ، فأترجمها وأنت تدققينها .

فرحت هناء وضيفتها بقبول منى السريع للعرض ، وقالت هناء : رائعة أنت ! .. الآن سأتحدث مع مالك .. فهو كان مستحيي أن يفاتحك بهذا الموضوع ، خشي أن تضعيه في غير محله .

ـ مالك لا يرد ولا يكسف يا هناء .. لقد كان حبيب برهان ، وسمى ابنه ببرهان ، فهذا يحسب له .. ولي أيام لم أرَ الشاب .. إنه حبيبي يا هناء وأحب أن أراه دائما !

ـ وهو يحبك ، ويفخر بك ، ويرى أنك أحلى وأكبر عمة في الدنيا ..

تركتهم هناء يتحدثون ، ومشت نحو الهاتف ، وتحدثت مع زوجها الذي فرح فرحا كبيرا ولبى النداء سريعا .

وبالفعل قامت منى بترجمة المحاضرات أمام دهشة محبيها ، وأشرفت هناء على تدقيقها ومراجعتها فوجدتها في أحسن ترجمة، وسعد مالك من النتيجة ، وقال: أرأيت أنها بكامل وعيها ولكنها لا تريد أن تعيش الواقع أحبت أن تبقى في ماضيها .. كأن الزمن عندها وقف أو توقف عند موت الحبيب أبي خليل فقط ، ولم يعد يتقدم .. سأدفع هذه الترجمة للطباعة فورا ، لعل طلبة كليات الحقوق ينتفعون بها فيها .. ولتبق منى تعيش حياتها الخاصة كما تشاء ..

كان أولاد منى أيضا فرحين من ترجمة أمهم لمحاضرات خالهم ، فقد كان هاجس يقلقهم على ذهاب عقل أمهم ، وإنها تتصرف لا إراديا .. ولكن ترجمتها لهذه المحاضرات وتأكيد هناء لدقة ترجمتها أعاد للجميع الثقة والطمأنينة أن ذاكرتها طبيعية وسليمة ؛ ولكن كما قال مالك لا تريد أن تعيش الواقع

ولما سأل مالك أحد علماء الطب النفسي عن هذه النتيجة ، قال له : هذا يؤكد أنها مدركة تماما لم يجري حولها ، وأنها تحب هذا العمل حبا كبيرا ـ أقصد الترجمة ـ وهذا يؤكد ـ كما قلت لك

أكثر من مرة سابقا ـ قدرتها العقلية الكاملة ، وإنما هي ما زالت تعيش لحظات الفراق التي ألمت بها .. لا تريد نسيان هذا الزوج ولو للحظة .. فاطمئن يا صديقي ولا تقلق .



عاد الهدوء من جديد للأسرة ومحبي السيدة منى ، وانشغل مالك بالحزب ومشاكله وانفضاض الكثير من الجماهير عنه .. وكتب عدة مقالات حادة ، ونشر أفكاره وملاحظاته في الصحف العاملة ، ومع ذلك النشاط المحموم تعرض الحزب لنكسة أخرى في الانتخابات التي حصلت ولم يتقدم على الصفوف كما كان في السنين القديمة أيام شبابه .. فبعد أن هدأت عاصفة الانتخابات الأخيرة والنتائج القاسية ، اجتمعت قيادات الحزب الذي ينشط فيه مالك ربيع ، وبعد قراءة تقارير مختلفة قدمت من باحثين وناشطين في الحزب ، تقرر أن تشكل زعامة جديدة للحزب ، وأن تحال وجوه قديمة وكبيرة في العمر على التقاعد .. وفي هذه الثورة الداخلية اعتلى مالك قيادة الحزب وأصبح نضال عبد الكريم نائبه ، وشكل مجلس زعامة من الوجوه الجديدة والناشطة في الحزب ، وكثفت الاجتماعات والأبحاث والدراسات لتجديد نشاط الحزب وعودته للتقدم للإمام أكثر .. وكان الشبان الجدد ينتظرون الانتخابات القادمة على نار ليروا هل لأفكارهم وأعمالهم ومشاريعهم قد وجدت قبولا قويا

داخل الحزب وخارجه .. وقد اتخذ قرار هام في داخل لوائح الحزب أن القيادة الجديدة إذا فشلت بالوصول لمراكز متقدمة بالحزب أن ينسحبوا لوجوه جديدة أخرى .. وأخذ مالك يعد نفسه لترشيح نفسه عن منطقته نائبا وممثلا لهم وللحزب في دائرته الانتخابية .

وقبل أن تأتي الانتخابات العامة المنتظرة للقيادة الجديدة ، حدثت انتخابات نقابية للمحامين ، ودخل ابن المهندس ربيع الأستاذ المحامي زياد الذي أنهى المحاماة كعمه في إحدى قوائم التنافس على مجلس النقابة ، وفعلا حقق فوزا طيبا سر به عمه ووالده وحتى عمته منى اتصلت

به مهنئة وباركت له هذا النجاح على غير عادتها منذ سنوات .

وكانت عائلة ربيع تحب لو تخرج منى لحياتها التي كانت عليها قبل موت برهان وأحب بعض أحفاد منير فرفر مناسبة ربيع ربيع ، فاعتذر لهم ، وناسبوا الأستاذ عدنان ابن صبرية أخت خليل وأختهم .



كان لربيع ساعد بنت ـ وهي الصغرى عنده ـ كان لديه هوى وميل بتزويجها من ابن أخته منى الصغير إبراهيم ، وهو آخر أولاد منى ، فقد تزوج خليل ومحمد وزهرة وجميلة ، ولم يبق إلا هو والذي شارف على إنهاء الجامعة .

والشاب لم يظهر ممانعة لهذه الرغبة التي قالها خاله أمامه كثيرا ، وإن كان هواه أن يتزوج من بنات خاله مالك ، لم يعلمه من حب خاله لوالده ، وحب والده لخاله مالك أيام حياته ، ولم سمع عنهما من الصداقة والإخاء

وكانت منى كما علمنا ذاهلة عن هذه الأمور.. وتركت الشباب يتزوجون كما يحبون ويرغبون ولم تحشر نفسها في شيء من ذلك ، وقبل الأولاد منها ذلك .. فذات مرة تحدث ربيع مع ابن أخته إبراهيم بموضوع الزواج من ابنته ، فارتبك الشاب وقال : لا أدري يا خال .. هلا حدثت أمي بذلك ؟!

ـ سأفعل يا بني !

وكان إبراهيم يعلم أن ابنة خاله لا تريده ، وهي التي صارحته بذلك الأمر دون مواربة ؛ ولكنه لا يريد أن يشعر خاله بأن الرفض منه ، يريد من الفتاة أن تقول لأبيها ، فرد على خاله لما قال سأفعل يا بني قال : يا خال هل شاورت سعاد ربما لا ترغب بالزواج مني ؟!

ضحك ربيع وقال وهو ينظر لزوجته ؛ وكأنه واثق من قبول ابنته: البنات عندنا مع أننا نترك

لهن الحرية في الاختيار يقبلن ما نختاره لهن .. فكذا مرة ذكرت أمامها رغبتي بتزويجك منها ولم تمانع .. ابشر بها إن شاء الله !

بالطبع دهش إبراهيم لثقة خاله بابنته ، فهي التي ترجته أن يعتذر من خطبتها، وهو أصلا لا يريدها ، إنه يحلم بابنة خاله مالك الحسناء هند فعاد يقول : حدث أمي بالأمر والبنت !

فقال ربيع : قريبا بإذن الله .

ولما غادر الشاب بيت خاله تحدث ربيع مع البنت التي ما زالت على مقاعد الدرس مثل إبراهيم فلحظ أنها لم توافق كما تفعل كل مرة فاستغرب ، فقالت لها أمها : مالك ؟!

ـ أنا لا أريد الزواج اليوم ، وأنا وإبراهيم ما زلنا نتعلم .

ـ سيتخرج هذا الفصل ، وأبوك راغب بمد الجذور بيننا وبينهم .

ـ ليس على حسابي يا أمي !

صعق الأب وقال دهشا : هل من عيب في ابن عمتك؟!.. فقريبا سيتخرج من كلية الطب ، ويصبح طبيبا ثم سيسافر لبريطانيا للاختصاص والعالمية في الطب ، وسوف يعمل مع أخيه في المستشفى !

ـ أنا لا أرغبه ولا أحبه ! أنظر إليه يا أبي كأحد إخوتي !

قالت الأم : عجيب يا سعاد! والله يا بنت كنا نحسب ونرى أنك كنت موافقة في الماضي .. هل أغضبك بشيء ؟ أو طلب منك شيئا ؟! حتى أنني دهشت عندما طلب إبراهيم أخذ رأيك .. هل من شيء بينكم اصدقينا الحديث ولن نجبرك على شيء ؟!

ـ لا أريده فقط .. لا أريده زوجا !

ـ لماذا يا بنية ؟ هل قال لك ذلك ؟!

ـ لأ .. هو الأمر إليه عادي ، تزوجني أو تزوج أي فتاة أخرى .

فقال ربيع : ما الأمر يا سعاد قبل أن أتحدث مع أختي أم خليل ؟!

ـ هو أخي فقط فليتزوج غيري !

صاح ربيع مخاطبا زوجته : اذهبي بها ، فسعاد خجلة من الكلام أمامي ، قد يكون لديها كلام خاص فلا تحب أن يسمعه أبوها .

نهضت أم ساعد المستغربة لمفاجأة ابنتها قائلة بغضب خفيف : اتبعيني نحن قبل قليل حدثنا إبراهيم بالزواج منك !

احتار ربيع في تفسير ما كان ، فكان كلما حدثها عن إبراهيم تبدي ابتسامتها وراحتها .. ما الذي جد ؟! هل تعلقت بشاب من شباب الجامعة ؟!



ولما عاد إبراهيم للبيت صعد إلى المكتبة حيث تحب أمه الجلوس فقال لها بعدما حياها ما تحدث به خاله ربيع .. ثم صارحها برغبته بابنة خاله مالك الآنسة هند .

لزمت الأم الصمت ولم تعلق ، هي لم تتدخل في زواج أي ولد من أولادها ذكورا وإناثا .. الأربعة الأكبر من إبراهيم ، فلما لاحظ الشاب صمت أمه انصرف إلى حجرته مستغربا من صمت أمه ولما رجع أخوه من المستشفى تحدث معه في مشكلة ابنة خاله ربيع ، فقال له : عندما يتحدث معنا خالنا ربيع في الموضوع نرد عليه .

ـ أنا تحدثت مع سعاد وقالت مباشرة وجها لوجه أنا لا أريدك زوجا .. وقلت لها وأنا مثلك لا أريدك زوجة .. ولكن خالي الطيب راغب بشدة بهذه المصاهرة !

ـ وهل تكلمت مع أمك بذلك ؟!

ـ نعم ؛ ولكنها لم تقل شيئا.. لزمت الصمت فتركتها .. أتحدث معها ثانية ؟!

ـ علينا الآن بالصمت يا إبراهيم حتى يتكلم معنا أبو ساعد .. لأننا لو حدثنا خالنا مالكا برغبتك قد يرفض أو يترك الرد .. لأن الكل يعرف أن الخال ربيعا راغب بتزويجك ابنته منذ دخلت الجامعة .

ـ حسنا سأصمت !

ـ لأننا نحرج أنفسنا مع أخوالنا .. فما دامت البنت لا تريدك سينتهي الإشكال من عندهم .. دع الحل للأيام والصبر فرج .

ـ سامح الله خالي .. كان من المفروض أن لا يتكلم بمثل هذا الكلام .

ـ هذا من حبه لأمك .. فكلنا تزوج من أقارب الوالد ـ رحمه الله ـ أنا ومحمد وزهرة وجميلة ولم يبق إلا أنت .. فالناس كما تعلم تقوي من الصلات والعلاقات الاجتماعية بالمصاهرة والزواج فكما تزوج ابنه من ابنة عمته حنين ، يريد أن يعطي ابنته لك .. هذا قصد خالك ربيع .. فالمشكلة سهلة ، وهذا زواج وليس لعب عيال .. إذا لم يكن برضى الطرفين ، فستكون الحياة الزوجية صعبة وشاقة .. فإذا عرف خالي برغبتك من الزواج من ابنة أخيه مالك سيفرح ويسر ويصرف نظر عن ابنته .. ولكن وكما تقول إن البنت غير راغبة بالزواج حاليا ستصارح هي والدها أو أمها وينتهي موضوعها .

ـ تكلم معه في ذلك ، قل له سعاد لا تريده .. وإنها صارحت إبراهيم بذلك ..

ـ الله سيسهل ولا تنزعج .

ـ أنا لست منزعجا ؛ ولكن من العيب أن يتزوج الإنسان فتاه لا تتقبله ، فلو لم تقل بلسانها ؛ ربما صمت ورضيت بتحقيق رغبة خالي .

ـ الله يفعل ما يشاء أيها الأخ العزيز .. اذهب الآن واجلس مع أمك ، وسآتيك أنا وزوجتي للجلوس معكم .

ـ شكرا !

زواج إبراهيم

اتصل المهندس ربيع بابن أخته إبراهيم الطالب في كلية الطب ، وطلب لقاءه بعدما رأى رفض ابنته له ، فذهب الشاب على حسب الموعد بينهما ، ودخل فلقي الفتاة في وجهه فحياها باسما وقال مستفسرا : آ يا سعاد أين الوالدان ؟!

ـ إنهم في انتظارك يا ابن العمة الغالية .. أنا ذكرت لهم أنني لا أريدك زوجا .. لا تزعل مني !

ـ أبدا يا سعاد! .. أنا سمعت هذا الكلام منك سابقا .. ولم أسألك لماذا ؟! .. فأنا لا تفكرين أنني مستعجل على الزواج نفسه يا غالية .. إنما أريد الزواج من أجل السفر والدراسة في الخارج كما فعل خالي مالك .. فنساء أوروبا كما يقال مثيرات للغرائز والجنس.. قلت أتزوج قبل السفر .. وأنا لولا رغبة والدك خالي العزيز ما تكلمت معك في الموضوع .

ـ المهم يا ابن عمتي الغالية لا تزعل مني .. والآن ادخل على خالك وأمي ، وسيقولان لك عن عدم رغبتي بالزواج في الوقت الحالي ، ولو تصبر بضع سنين حتى أتخرج ومن نحو هذا الكلام

ـ سلام الله عليك .

ودخلت في إحدى زوايا البيت ، وصعد الشاب إبراهيم برهان إلى المكان الذي يحب أن يجلس فيه خاله ربيع .. وسلم عليه وعلى زوجته أم ساعد ، وألقى نفسه على مقعد مريح ، وأجاب عن أسئلة خاله عن حال أمه وإخوته كلهم، ثم قال ربيع: يا إبراهيم يا ابن أختي العزيزة والكريمة لماذا أنت مستعجل على الزواج ؟! ألا تصبر بضع سنين حتى تعود من أوروبا ؟! وتكون سعاد قد أنهت وخلصت جامعتها ؟!

ورددت الزوجة مثل هذا الكلام ، فتبسم إبراهيم وهو يرد عليهما : يا خال ! ويا امرأة خالي أم ساعد! أنا لما حدثت أخي خليلا عن الزواج ؛ لأنني أريد أن أذهب في طلب العلم وتحصيل الشهادة الخاصة في الجراحة الخاصة والاختصاص الطبي والزمالة البريطانية وأنا متزوج .. والزواج حصن وعفة للرجال الأشراف يا خال .. ولما أنت لمحت لي قديما برغبتك بمناسبة أمي والعائلة ، وأن سعاد زوجة مناسبة لي تقبلت الأمر .. فأنا لا تهمني من تكون امرأتي!! إلا أن

تكون حسناء ، مربية بصورة طيبة ، ومتعلمة ومتدينة .. وتأملت سعاد فوجدت أن ذلك فيها ؛ ولكني لمست في الآونة الأخيرة عدم رغبتها بالزواج.. فلما حدثتني في المرة السابقة طلبت منك الحديث معها قبل أمي !

ـ والله يا إبراهيم أنا أقدر هذا الكلام الجيد منك .. وفعلا من الحكمة وبعد النظر أن يحصن المسلم نفسه بالزواج قبل السفر إلى تلك الديار ، ذا خير وفضل وسد للذريعة .. وفيه المصلحة والخير ، أنا لدي رغبة كبيرة أن تقترب من العائلة لأن كل إخوتك تزوجوا من أقارب والدهم رحمه الله رحمة واسعة .. وغدا عندما نفارق نحن هذه الدنيا ستبتعدون عنا وعن أهل أمكم .. فمن هذا الجانب رأيت أن نكسبك ونعيد التقارب بين العائلتين .. فغدا عندما نهلك أنا ومنى ستضعف صلتكم بأولاد خالك .. فالزواج يقرب هذه العلاقة ويجددها .

ـ وأنا يا خال رضيت من هذا الباب ؛ لأنني فعلا أسعى أن أقترب منكم ، ومن أجل حبي لأمي التي ما زالت تحيا على ذكريات الماضي عافاها الله من كل سقم.. أرغب أن أكون صهرا لكم !

قالت زوجة ربيع : أنت شاب صريح يا إبراهيم ! .. ألا تدري لماذا لا تريد سعاد الزواج منك

تبسم الشاب الدكتور وقال: أنا لاحظت ـ كما قلت قبل قليل ـ تردد سعاد بالقبول بي كزوج فصارحتها بذلك الإحساس والشعور .. فقالت لا تزعل يا ابن عمتي أنا غير مستعجلة على الزواج ، وأنا أقدرك وأحبك وأحب أمك وأبي وأمي وإخوتي.. أحبكم كلكم ؛ ولكن الزواج لست مستعجلة في شأنه فسكت دقائق ثم قلت لها ولكني أنا مستعجل سأتزوج قبل السفر، وتركت الأمر لكما لعلكما تقنعانها بالرضا ؛ ولكنها مصرة على عدم الزواج اليوم.. وأنا آسف يا خالي ويا امرأة خالي، أنا مضطر للزواج من غيرها .. لا أستطيع الانتظار سأتزوج غيرها ..

فقالت : كلامك ممتاز ورائع يا إبراهيم وصريح فعلا .. ونحن لا نغضب منك .. يعني أن سعاد هي لا تريدك ليس أنت .. ليس بينكما اتفاق وإنك لا تريدها ؟!

ضحك إبراهيم لوجهة نظر امرأة خاله وقال : لا ، ليس هناك مؤامرة !

فقالت بصراحة : أتحب سعاد شابا آخر ؟!

ـ أشكرك يا زوجة خالي على سؤالك هذا .. ذكرت لها ذلك ، كنت معها صريحا يا خالي ، وأقسمت لي أنها لا تحب شابا أو طالبا معها في الجامعة ، إنما هي تحب أن تعيش وحيدة حتى حين ، ثم فيما بعد تفكر بالزواج والحب والغرام .. هذا ما أقسمت عليه .. وأنا ليست في حياتي امرأة معينة ، أنا لا أسمح لنفسي بذلك يا أم ساعد !

فقال ربيع : بارك الله فيك يا إبراهيم .. أنت الآن أعدت السكينة لقلوبنا .. نحن نخاف ونقلق من عبث البنات في سنوات الدراسة والجامعة .. فأنا كنت أرى أنها معجبة بك وراغبة بك أهلا لها!

فقطع وقال : وما زالت يا خال! ولكنها لا ترى الزواج في الوقت الحالي ، وهي حرة ، نحن في زمن الحرية كما يقولون ، لم يعد يجدي الضغط على البنات للاقتران بمن لا يرغبن .

وخيم الصمت لحظات على الثلاثة ، فقالت المرأة قاطعة الصمت : أمصر على الزواج يا إبراهيم ولا تريد الانتظار؟ فلربما غيرت سعاد رأيها بعد تخرجها .. فخالك ربيع يحبكم ووضح لك وجهة نظره وغايته من هذا الزواج .. وأنت أيضا بينت وجهة نظرك فمعه حق ومعك حق .. ونحن نثق بأنك ستعف نفسك عن بنات الإنجليز وغير الإنجليز هناك!

ـ هذا أكيد بفضل من الله ؛ ولكني يا أم ساعد راغب في النكاح .. أنا عمري خمس وعشرون سنة يا امرأة خالي .. وأنا ذاهب لهناك لقضاء ربما خمس سنوات فأكثر ، فسوف أتخصص كما تعلمون في جراحة القلب ، وقد أعمل هناك بضع سنين أخرى .. فالحياة الزوجية استقرار وأمان .

فعادت امرأته خاله تقول : ولكن لو تزوجتك سعاد فهي ما زالت تدرس وأمامها سنتان جامعة سوى هذه السنة .

ـ تكمل هناك أو تدرس من جديد وشهادات بريطانيا مقبولة في كل دول العالم !

عندئذ قال ربيع : أنا أعتذر لك يا ابن أختي عما وعدتك به سابقا ، نادي ابنتك يا أم ساعد .. وأنا كان مناي أن تكون صهرا لي وختنا ؛ ولكن الأمر كله بيد الله مولانا عز وجل .

نادت الأم ابنتها سعاد التي أقبلت باسمة وقالت: آ.. ماذا تريدون أن تسمعوني من قرارات ؟!

رفعت أمها صوتها في وجهها وقالت : تعالي اجلسي !

فلما أخذت مجلسها بينهم قال ربيع : لا أعلق على كلامك وتهكمك .. أنا اعتذرت لابن عمتك عن الوعود والكلام الذي أسمعته إياه .. وكما يقال كل شيء بقدر.. وأعاد لي كلامه عنك ثقتي بك ، فأنا خشيت أن تكوني جاهلة وساذجة وتضحين بابن عمتك الطبيب الباهر من أجل تعرفك بشاب في الجامعة ، ووعدك بأحلام وأوهام وسيارات وعمارات .

وقبل أن ترد سعاد قال إبراهيم : اطمئن يا خالي .. الأخت الفاضلة سعاد طمأنتني جدا وأقسمت أمامي أنها ترفضني ؛ لأنها ما زالت صغيرة على الزواج ومسؤولياته .. أليس كذلك يا سعاد ؟!

ـ بلى يا ابن عمتي الكريمة .. فأنا لو رفضت الاقتران من أجل شاب ضحك عليّ وغرر بي لصارحتك يا إبراهيم! وقد أخفي ذلك عن والديّ ولكن عنك لا أستطيع ، إنني أجلك وأقدرك .

قال ربيع وقد تذكر الماضي البعيد : ذكرتموني ببرهان ـ رحمه الله ـ ووالدتك يا إبراهيم .. كانت أختي منى معه امرأة عجيبة .. أنتم لا تعرفون منى قبل أن تتزوج من أبيك ، ربما سمعتم شيئا يسيرا .. ومع أننا لم نسمع أنه رفع صوته عليها في يوم ما ؛ ولكنه سحرها وقلبها رأسا على عقب رأينا منى أخرى .. وكنت أنا ربيع الابن الكبير لساعد أخاف وأتحاشى من مناقشتها ومجادلتها وهي أكبر مني سنا .. ولكن المرحوم ـ رحمه الله ـ جعل منها صورة أخرى اذهب لخالك مالك فهو يستطيع أن يحدث عنها أحسن مني ؛ لأنهما كانا كثيرا الشجار والقتال ، فأقف أنا وأمي ـ رحمها الله ـ حائرين لا حول لنا ولا قوة .. أو اذهب إلى خالتك حنين ، فهي كانت دائما من صف مالك ، وتغضب منى كثيرا ولا تهتم بشعورها وأحاسيسها .. رحمك الله يا برهان .

وبكى الرجل وهو يتذكر تلك الأيام الصعبة ، وتأثر الجميع ، فبكت المرأة فهي تعرف ابنة عمتها منى جيدا ، وذرف الطبيب إبراهيم الدموع ، فقد مات والده وهو طفل صغير لم يغرف من حب

أبيه كثيرا .. ومسحت سعاد دموعها ، وبعد حين قال إبراهيم : رحمك الله يا أبي! .. شكرا لكم على هذا الحب والإعجاب بوالدي .. سأنسحب يا خالي .

ـ لا ، أنا دعوتك على العشاء ولم ننس .. وامرأة خالك لديها عروس أحسن من ابنتنا !

قالت سعاد باسمة: أحسن مني أنا يا أبي! من هي هذه التي هي أحسن مني ؟!

قالت الأم : سعاد أيضا اسمها ابنة أخي حسان .. أتعرفينها يا سعاد ؟!

صاحت سعاد وهي مستغربة لسؤال أمها : وكيف لا أعرفها ؟! ألا أعرف ابنة خالي؟! والله حلوة يا إبراهيم ، وهي على وشك التخرج حسب علمي .. بضعة أشهر وتتخرج ، ويمكنها أن تلحق بك !

ضحك إبراهيم وقال مداعبا : سعاد زوجتني سعاد وسفرتني وألحقتها بي ! .. أنا أحب المزح معك يا سعاد .. اعذرني يا خال واعذريني يا أم ساعد .. أنا سأفرح قلبكم .. أنا كاشفت أخي خليلا ، وذكرت له قبل مجيء إليكم أن ابنة خالي سعاد لا ترغب بالزواج في هذه الفترة مني أو من غيري ، إنها صارحتني بذلك ؛ ولكنه طلب منى الصبر والتريث .. وقال إذا أصرت الفتاة على رفضك سنطلب لك ابنة خالك مالك الآنسة هند .

فصاحت سعاد ثانية : هند! ولكنها صغيرة .. طفلة !

لم يعر أحد ملاحظة سعاد اهتماما ، وقال ربيع كأنه عاد للواقع : والله فكرة يا إبراهيم .. أليس كذلك يا أم ساعد ؟!

ـ فكرة جيدة ! إذا وافقت أمها على زواجها ، فمالك أبو برهان لن يرفض ، فنحن نعرف مقدار حبه لبرهان ـ رحمه الله ـ وسيقدمها لك على طبق من ذهب ، ولكن الأم وابنتها أتقبلان بك زوجا ؟!

فقال ربيع : لا أدري والله يا ابن أختي .. وإذا وافقوا كيف ستتزوجها قبل إنهاء الدراسة الثانوية

قال إبراهيم : الثانوية كما أعلم لم يبق لها إلا شهور ، وأنا بعدي لم أتخرج أمامي أيضا بضعة شهور المهم أن يوافقوا وسأدع خليل يتحدث معك لتتحدثا مع خالي مالك وعائلته .. أنا أحب

أن أقترب منكم يا خال !

قال ربيع متحمسا للفكرة : ابشر .. مالك كما قالت أم ساعد سيسر بهذا النسب مثلي بل أكثر مني .. المشكلة البنت أتقبل بالزواج ؟ فهي في سن صغيرة ؛ فإذا سعاد الكبيرة والناضجة .. تريد الزواج بعد الدراسة والجامعة !

واختلط الحديث والحوار بينهم وقال في نهايته إبراهيم : تركت شأن الحديث في هذا الموضوع بين يديك يا خالي وأخي خليل ..وأنت يا سعاد احذري أن تتكلمي مع البنت قبل أن يفاتحهم أبوك بالموضوع .. والليلة بعد انصرافي سأحدث أمي بذلك وأخي خليلا .

فقال ربيع : الله يتمم على خير .. والله نحن سعيدون لو تم هذا النسب يا ابن أختي.. نحن نحب أن تبقى رائحة برهان الأخ الحبيب حولنا ، فنحن أحببناه ونبجله .. وله محبة كبيرة وعظيمة عند خالك مالك ، وإذا شئت سأتصل به في هذه اللحظة وندعوه للعشاء معنا ونفتح معه الكلام ليقنع ابنته وزوجته .

ـ إذن اتصل مع أخي خليل .. أو أنا أتحدث معه وأشرح له الموقف .

ـ افعل .. وأنا سوف ادعوه لمشاركتنا العشاء .

ضحكت سعاد وهي تقول : مبارك يا إبراهيم .. لا تحقد عليّ !

ـ لا اطمئني ، أنت ستبقين ابنة خالي يا لئيمة !

هند

شرح إبراهيم لخليل على الهاتف التطورات التي حدثت هذا المساء ، ثم تحدث مع أمه منى التي لم تزد إلا أن قالت افعل ما تشاء ، وتحدث ربيع مع ابن أخته خليل داعيا له للعشاء هو وزوجته فوافق ، وتحدث ربيع مع بيت مالك فلم يجده في البيت ، فأعطاه برهان رقم تلفون ، فاتصل به فوجده في اجتماع مع شباب الحزب ، فدعاه للعشاء ، فاعتذر له عن العشاء ووعده بالمرور عليه بعد انتهاء الاجتماع .

قضى الأخوان سهرة ممتعة في بيت خالهم ربيع ، وشارك فيها بعض أولاد الخال ، وتناول الجميع الطعام الذي أعده لهم أبو ساعد وأم ساعد ، ثم أقبل المحامي ابن ربيع عضو رئاسة النقابة السيد زياد وعمه مالك ، فوضعت لهم زوجة المحامي الطعام ، ولما أكلا ذهبا إلى حيث يسمر ربيع مع ضيوفه ، وتحدثوا في السياسة والحروب والأزمات العاصفة في العالم والأمم ، والمواضيع التي يحب أن يجول فيها مالك أبو برهان .. ثم انتقل الحديث للزواج والبنات وسفر إبراهيم لبريطانيا بعد تخرجه للتخصص في جراحة القلب والشرايين والصدر ، حتى وصلوا لبيت القصيد وهو زواج إبراهيم قبل سفره ، وتحدث ربيع عن رغبته بتزويج إبراهيم من ابنته سعاد ولكنها لا تريد الزواج اليوم أي قبل إنهاء الدراسة والجامعة ، وصارح ربيع أخاه مالكا برغبتهم بمصاهرة إبراهيم ابن أخيهم برهان وأختهم منى ، وإن لإبراهيم هوى في ابنته هند .

ضحك مالك ملء فمه وقال : لففتم الشرق والغرب والعالم كله لتصلوا لهذه الجملة .. والله هذا أحسن نسب يا إبراهيم .. أنا دائما أناجي أباك ، لا تفكر أن أمك فقط تعيش مع ذكرياته وأنا مثلها .. ذاك الإنسان حبه كبير في قلبي .. ولا تظن أنني عندما سميت ابني برهان ضعف حبي له .. يا رجل أبوكم جزء من كبدي وقلبي .. سبحان الله! هذا المخلوق أحببناه حبا كبيرا حتى العم خليل ـ رحمه الله ـ أحبه مثلنا .. أمكم كانت قد تورطت في دين كبير قبل زواجها من أبيكم رحمه المولى .. فلما أخبر بذلك الدين لم يتردد ولو للحظة في سده ، ولم يحتج ، ولم يقل لها أنا لا دخل لي بك .. بل قال أنا أسدد عنك .. بل الأصح أنه وافق على التسديد قبل أن يشاورها

بذلك .. وهو مبلغ لم يكن بسيطا في ذلك الزمان ، وكان في أول صعود السلم .. حوالي اثني عشر ألف دينار يا رجل .. حتى الأخت حنين تأثرت جدا وقالت لو كان أحد غير برهان ربما تزوج بهذا المبلغ امرأة أخرى .. وذهبت أنا وإياه للدائنين وراجعنا الدين ، ودفع المبلغ عن طيب نفس .. هذا موقف واحد من مواقف أبيكم معنا .. وأنا أقدر لكم هذا الاختيار .. وأنا أقول أمامك يا ابنة أخي أنك خاسرة يا سعاد ! ولا تفهمي من كلامي أنني أريد تخجيلك لتتراجعي عن قرارك ، وإنني لا أريد أن أزوج ابنتي لابن أختي بل هذا تشريف وفضل كبير لنا كما قال الأخ ربيع .. ونحن مع حرية الاختيار والقناعة بشريك الحياة .. هذه حياة ليس لقاء عابر أو شركة مؤقتة .. وهذا جيد جدا أن يكون إبراهيم من حصتنا .. الليلة إن شاء الله تعالى أتحدث مع هناء التي لن تعارض بالتأكيد ، فهي تعلم مدى صداقتي لوالدكم رحمه الله .. المهم الفتاة يا إبراهيم أن توافق .. فهي ترى نفسها صغيرة بعد .. رغم أن الزواج فطرة .. لكن بنات اليوم يحببن الدراسة والعمل .. سأقوم بدوري ، وأنت عليك دور آخر يا إبراهيم وهو مهم أيضا .

قال إبراهيم : كيف يا خال لم أفهم ؟!

ـ نحن يا خال لا نحب الحديث عن الزواج أمام أبنائنا سواء كانوا ذكورا أم إناثا ، حتى ولو عن مداعبة ومزح .. فنترك الأمر لهم حتى يكبروا .. البنت بالتأكيد ستفاجأ بالأمر .. ولكني سأسمح لك بالحديث معها.. هي في مقاييس زواج هذا الزمان طفلة .. صحيح أنها في آخر سنة دراسية وأنها امرأة بالغ ، ولكن المسؤولية والزواج يبدو لي أن بنات الجامعة لا يستوعبنه بشكل جيد .. حاول الحديث معها مرة ومرتين .

ـ سأفعل يا خالي.. أنا راغب بالزواج قبل سفري ، وأحب أن استقر عاطفيا ؛ لأنني لا أريد أن تشغلني هذه القضية أثناء مكثي هناك الذي قد يستغرق عشر سنوات بين دراسة وعمل .

فقال مالك : بل نحن مسرورون منك ومن تفكيرك السليم .. وكما قلت لكم هذا النسب يشرفنا وكرم منكم يا ابن أختي .

وبعد سهرة جميلة غادرهم مالك نحو بيته القريب في حي برقوقة ، ثم انصرف خليل وزوجته

بسيارته ، وتبعه إبراهيم أيضا بسيارته .. دخل إبراهيم على أمه التي وجدها تجلس في الصالون فقبل يدها وجلس ملاصقا لها وقال بحب : وحدك يا أمي ؟!

ـ قبل قليل انصرف أخوك وزوجته .. ماذا فعلتم مع أخوالكم ؟!

حدثها بكل شيء حدث أثناء الجلسة ، فقالت أمه : ستقبل هند يا ولدي .. وستسافر معك .. ستتركنا يا إبراهيم !

ـ العلم يا أمي عندهم ! في قديم الزمان كان أبناء أوروبا يسافرون لحواضر العالم الإسلامي في إسبانيا الأندلس ومصر والشام.. اليوم نحن نرحل إليهم .. لقد قرأت كتاب خالي مالك القديم عن العلم في الإسلام وهو مترجم أيضا .. كتاب جميل وممتع لو يعيد خالي طبعه سأذكره بذلك ما رأيك يا أمي بأن ترحلي معي؟ .. سأسر بوجودك الدائم معي .. ستملئين عليّ البيت وتشدي من أزري .. بريطانيا بلاد جميلة كما يقال .. إذا تزوجت من ابنة خالي مالك سنلتقي بأقارب أمها فهم متجنسون هناك .

صمتت منى لحظات ثم تكلمت بضع دقائق حتى سمعها تقول : أأترك دار برهان .. وأنفاسه لأعيش هناك في البرد والثلج ؟!

ـ نأخذها معنا يا أمي !

نظرت في عينيه لحظات وقالت بحيرة : كيف نأخذها ؟! هل نأخذ القصر معنا ؟!

تبسم إبراهيم لإثارة أمه وقال : ليس كذلك .. نأخذ الكتب التي كان الوالد يحب قراءتها .. الثياب التي كان يرتديها .. الأوراق التي كان يكتبها .. الأشياء الحلوة الخاصة عنده !

ـ الجدران التي كان يضع يده عليها .. النوافذ التي كان يفتحها .. المقاعد التي كان يجلس عليها كيف سنأخذها معنا ؟!

ـ ستبقى هنا ريثما نعود .. لن تطول غيبتنا يا أمي .. لقد ذهبتم كما أعلم إلى هناك ، مشيتم في شوارع لندن ومعالمها !

ـ لا .. دعني هنا يا ولدي الحبيب .

ـ سأشتاق إليك كثيرا يا أمي ! أنا تعودت على رؤيتك كل يوم .. لا أنام قبل أن أقبل رأسك سأفقد كل هذه اللحظات .. أنا تعودت عليك منذ مات أبي رحمه الله !

ـ مات أبوك .. مات جسده فقط .. أما روحه فهي ما زالت موجودة معنا !

ـ أكيد يا أمي أن جسده فقط هو الذي غادرنا .. والروح معنا وستذهب معنا وتسافر معنا لتبقى معنا .

ـ لا ، الروح ستبقى هنا في هذا القصر ، لن تخرج حتى أموت أنا .

تنهد الفتى وتأوه : آه .. آه يا أمي .. هل نامت أم السعد ؟

ـ انصرفت قبل دخولكم .. أتريد شيئا ؟

ـ كنت أريد .. أن أشرب قهوة أو أي شيء .

ـ لا تزعل ولا تتضايق .. أنا سأصنع لك القهوة .

ـ لا أريد يا أمي .

ـ لا ، ستشرب ، أتظن أنني لا أحسن صنع القهوة ..

ونهضت باتجاه المطبخ ، وقال إبراهيم : سأذهب معك يا أمي .. أنا أعرف أن قهوتك رائعة ، ولا أحد يجاريك في صنعها وأنك ماهرة في غلي القهوة

ودخلا المطبخ معا ، وأنارت الكهرباء وأخذت تعد وتصنع القهوة ، وإبراهيم يتابعها حتى غلت القهوة وملئت الفناجين منها، وجلسا في المطبخ يتحدثان ويرشفان القهوة .



ولما دخل مالك البيت قريبا من نصف الليل وجد أن زوجته هناء مستيقظة ، وتجلس في مكتبة المنزل ، فاتجه إليها ووقف على بابها محييا ومسلما ، ثم قال : ما زلت مستيقظة ؟!

ردت السلام وأجابت باسمة : كنت قد انتهيت من القراءة ، وأردت النهوض فسمعت صوت

سيارتك فانتظرتك .. كيف الأهل ؟!

فدخل المكتبة وجلس وقال : بخير ويسلمون .. اجلسي مالك وقفت ؟!

ـ ألا تريد النوم ؟!

ـ بعد قليل !

ـ أتريد شيئا؟!

ـ أنا تعشيت في بيت ربيع ، وكان هناك خليل وإبراهيم أولاد منى .. وجرى الحديث عن الزواج زواج إبراهيم ابن أخي برهان رحمه الله .. وكان ربيع لديه رغبة بتزويجه ابنته سعاد ؛ ولكن البنت لا تفكر بالزواج منه أو من غيره في الوقت الحالي .. فطلبوا ابنتا هندا .

هتفت بعجب واستغراب : هند!

ـ نعم .. وأنا هذا الطلب الوحيد الذي أرجوك أن لا ترفضيه يا هناء !

وحدثها عن ملابسات الموضوع ، وعن حبه العتيد لبرهان محمود ، وأن هذا النسب سيبقي العلاقة بينا وبين أسرة برهان ومنى ، فكل أولاده تزوجوا من أقاربهم إلا إبراهيم ، والشاب محب لمصاهرتنا قبل السفر لبريطانيا للدراسة والتعليم العالي

تعاطفت هناء مع كلام زوجها وقالت : أنا مثلك أحب منى وزوجها المرحوم برهان .. وإبراهيم شاب ممتاز جدا فكثير ما يتردد علينا ويجلس معنا ولكن هند هل تصلح زوجة ؟! فنحن لم نهيئها لذلك .. ولا تعتقد أني أعارض زواج الشابة الصغيرة .. لكننا نعيش في مجتمع لا يتحمس لهذا الزواج .. فشهادة الجامعة أصبحت إحدى الأوليات المهمة لدينا .. فالدراسة والتعليم والجامعة يا أبا برهان

ـ كل هذه أعرفه وأقدره يا أم برهان .. تحدثي مع البنت في الأمر الخطير ، وبيني وجهة نظرنا بكل صدق وصراحة ، واسمحي لإبراهيم بالحوار معها ، فادعيه للغداء أو العشاء لعلها تقتنع به وبكلامه .

ـ حاضر يا سيدي ! سأفعل كل ما بوسعي ولتقر عينك !

ـ أهي نائمة الآن ؟

ـ سأطرق باب حجرتها .

كان مالك يريد أن ينهي الموضوع بسرعة ليدخل الابتسامة على العائلتين ، وليطمئن قلب إبراهيم وتسكن جوارحه ، قامت المرأة ، وطرقت الباب كانت بناتها الثلاثة يرقدن في حجرة واحدة ومستيقظات ولكن تحت اللحف ـ فقالت إحداهنّ : آ يا أمي خير ؟ الدنيا آخر ليل !

قالت الأم بصوت ضعيف : أنا ظننت أنكنّ في سابع نومة ..

وفتحت الباب وأدخلت رأسها تقول : ما الذي يقلقكن لهذه الساعة ؟!

قالت واحدة منهن : كنا ننتظر والدنا .. فتأخر فأصابنا القلق وطار النوم عن عيوننا .. ولما سمعنا السيارة ارتاحت قلوبنا ، وقلنا الوقت غير مناسب للحديث معه في نصف الليل !

ـ أحسنتنّ يا بنات .. بعد صلاة الفجر عندما يرجع من المسجد تحدثنّ معه .. أما أنت يا هند تعالي إلى المكتبة أريد أن أتحدث معك في موضوع مهم لك .

ضحكت البنات الثلاثة لهذا الطلب ، فتسألت الأم عن سبب هذا الضحك ، فقالت واحدة منهن : موضوع مهم يا أمي ومع هند !

ـ آ موضوع مهم وخاص .

فعدن للضحك من جديد ، قالت الأم لهند التي نهضت من فراشها ولفت نفسها بثوب سميك : لماذا يضحكن ؟!

ـ امشي يا أمي .. هؤلاء .. وسكتت

عادت الأم تتسأل ، فقالت إحداهنّ : موضوع خاص أو مهم معناه يا أمي أن هناك عريسا لهند

صعقت الأم وقالت : ويلكن أكنتنّ تسترققن السمع ؟!

أنكرن هذه التهمة باسمات ، وقالت إحداهنّ مستفسرة : يا أمي أنت دائما تتحدثين معنا كلنا كفريق واحد .. إلا هذه اللحظة .. فماذا سيكون الموضوع إن لم يكن زواج وعرسان ؟! .. من هو حضرة العريس ؟!

فصاحت هند : وهل وافقت حتى تسألن عنه ؟ نمن خير لكن .

فصاحت هناء بدون مواربة : إبراهيم برهان ابن عمتك منى ما دمتنّ تعرفن في مثل هذه القصص

فهتفن متعجبات : أوه !!

وأخذت هناء هندا ، ومشت بها نحو المكتبة التي غادرها مالك، فشرحت لها الموقف بكل صراحة ووضوح ، ثم قالت : الأمر إليك وبين يديك .. هذا مصيرك ، إن طاب لك الاقتران بإبراهيم ودراسة الجامعة في بلاد الإنجليز فحسن هذا وأهلا وسهلا ، وإن رفضت لا بأس عليك ، وكل واحد عند أهله !

صمتت هند فترة ثم قالت: وأنت يا أمي ؟

ـ أنا بصراحة أحب لك أن تتزوجي من ابن عمتك منى .. إبراهيم شاب عاقل وطموح وممتاز جدا .. وبعد شهور يتخرج طبيبا، وبعد الزواج سيسافر للخارج ردحا من الزمن .. وبزواجك منه تذهبين إلى هناك وتتعلمين هناك ، وكذلك تتعرفين على أخوال أمك وخالتك شمسة التي تزوجت من ابن خالي .

ـ أروح لندن مرة واحدة !

ـ ليست جديدة لندن علينا .. عشت أنا وأبوك فيها زمنا .. وأبوك كما قلت أيضا راغب بهذا الزواج وإن كانت سنك صغيرة بعد .. هذا رأينا نحن ، والرأي كما يقال الأول والأخير لك يا حبيبتي .. وأكرر أن الزواج مسؤولية وحمل ورضاع .

ـ والدراسة ؟!

ـ بعد نجاحك في الثانوية سيكون الزواج إذا حكم النصيب ، وبالطبع هناك إبراهيم سيهتم بدراستك الجامعية والماجستير والدكتوراه إذا أحببت المتابعة .

حسم الأمر

طلبت الفتاة التفكير والنظر في الموضوع بعدما تنتهي من امتحانات المدرسة والتقت عدة مرات بإبراهيم ، وشرح لها رغبته الكبيرة بها ، وإن الدراسة ليست عائقا للحياة الزوجية ، ومع كل هذه المحاولات طلبت الفتاة الانتظار حتى تنتهي من امتحانات الثانوية العامة ، ولم تبدِ قبولا صريحا ولا رفضا قاطعا ، إنما ستحسم الأمر بعد الثانوية ، فقبل إبراهيم بالانتظار هذه الأشهر المتبقية للتقدم لامتحان الشهادة الثانوية الذي تعقده الحكومة للطلاب .. مع أن هذا الجواب المرن لم يشجعه ، وخشي أن يذهب انتظاره إلى لا شيء .. ومالك أيضا تضايق من توقف وتردد ابنته في القبول .. كان يريدها أن تقبل وتتم الخطبة ويؤجل الزواج إلى أي وقت يشاءون ، ولكن هندا اعتذرت لأبيها ، وإن أدركت ما تركت في قلب أبيها من ألم ، فهو ربما يحب أولاد برهان أكثر من أولاده .. فهو دائما يذكره ويتحدث عنه .

حاولت هند التخفيف من ردها عن قلب أبيها ، وبعد عتاب أمها لترددها في حسم الموقف ، ورغم الكلام الذي سمعته من أمها قالت لأمها يا أمي أخاف أن أتسرع في مثل هذه القرار ثم أندم ، وأدمر حياتي وحياة الأخ إبراهيم والأسرة كلها .. أنا أعرف محبة إبراهيم لنا، والغاية من الزواج منا وغايته الأخرى من هذا الزواج قبل السفر

فتركتها الأم وشأنها ، ولم تعد تفتح معها موضوع إبراهيم ، وحاولت هند شرح موقفها لوالدها والتخفيف عن قلبه ، فقال لها كلمة واحدة : أنت حرة يا هند .. فاليوم أنت توقفت في حسم الأمر ، وقبل إبراهيم على مضض ، كان يريد جوابا صريحا نعم أم لا .. وغدا نحن قد نتوقف إذا تقدم إليك عريس ولم يعجبنا .

ـ إلى ذلك اليوم يفرجها الله .. وأنا لم أرفض إبراهيم يا أبي! إنما أحببت التأني في الجواب .

ـ الشاب مستعجل ، لو قلت نعم انتهى الإشكال ، هو يصبر ونحن نصبر .. وهو قد جلس معك مرات محاولا سماع نعم ، وأنت تصرين على الانتظار .

ـ أنا حائرة يا أبي يا حبيبي .. أخشى التسرع في القبول ، ثم لا ننسجم معا ويفسد الزواج ، ماذا

سيحل بالعائلتين يا أبي ؟! هذا التصور مخيف !

ـ على كل حال رضي الشاب بالانتظار هذه الشهور .. هو شارينا ونحن نتململ .. أنا حزين له يا هند !

كلما تجلس هند مع أبيها تكرر أسفها واعتذارها له ، حتى تفاجأ ذات يوم وهم يدعونه لحضور خطبة إبراهيم من إحدى بنات عماته ، فصعق مالك وربيع وهناء للخبر حتى أن مالكا ذرف الدمع مما أدمع قلب هند الصغير وأبكاها ، وسألها هل حدث بينكم شيء ؟! فقالت بأسف وبكاء : منذ افترقنا لم يتحدث معي!

ولما التقى إبراهيم بخاله اعتذر له عن عدم صبره وانتظاره أكثر من شهرين .. ، فبكى مالك ثانية بين يدي ابن أخته وقال : كان باستطاعتي إرغامها على الرضا بك يا إبراهيم ! ولكني كنت حريصا على سعادتك وحياتك الهادئة .. فأنت لا تقبل العيش مع فتاة لم تجزم أمرها .

قال إبراهيم : أعرف ذلك وأتمنى لها كل سعادة وتوفيق .. وأنا كنت أحب أن ادخل السرور على قلب أمي بالزواج منكم ، ولكن أقول قدر الله وما شاء فعل .. فالسكينة والرحمة ضروريتان للحياة والسعادة الزوجية .. وصعب عليّ رهن مصيري لشهور ثم أسمع بعد ذلك كلمة آسف

ترك هذا الزواج في نفس مالك شيئا مؤلما وجرحا كبيرا في قلبه ، وأحس بالخجل لفشله بإقناع ابنته من الزواج من ابن أخته وحبيبه برهان .. وفي هذه اللحظة أدرك أن الحبل الذي كاد أن يمد قطع ، وها هم أبناء أخته الخمسة يعودون لحضن عائلتهم العائلة الطيبة ، وقالت هناء مواسية لزوجها الحزين ومخففة من العناء النفسي عنده : غدا لما نزوج برهان نزوجه من أقارب برهان.

ـ لا يصح يا هناء ! فزواج إبراهيم من بناتنا كان أفضل ، ولكننا سنبقى أخوال الأولاد !

ـ أنا أشعر بما أصابك من ألم .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكان المهندس ربيع ساعد أيضا قد شعر بالأسى والخسارة الكبيرة في فشلهم من تزويج إبراهيم الذي رغب فيهم .. وربما كل العائلة تأثرت بهذه القضية .. وأدركوا أن أولاد برهان ومنى ابتعدوا عن حياتهم ، ولسوف يرونهم في المناسبات واللقاءات العابرة .

وقبل أن تنتهي هند من امتحان شهادة الثانوية كان إبراهيم يتزوج من ابنة عمته الطالبة في الجامعة ، وسكن في الفيلا أو القصر الجميل كباقي إخوته .. ولما أنهى الجامعة ، وتخرج منها أرسل أوراقه إلى جامعات الطب الإنجليزية .. ولم يطل الانتظار ، فعندما كانت هند تفرح بنجاحها في الثانوية العامة ، كان إبراهيم وزوجته يغادران أرض الوطن إلى الجزر البريطانية حيث الشهادات العالمية والعلم والعمل .

عندما التقى مالك بمنى عاتبته كثيرا على عدم تزويج ابنته من ابنها ، فبكى بين يديها كالطفل الصغير ، وقال معتذرا : كان بقدرتي إجبارها يا أم خليل ! ولكن خفت أن تجعل حياة إبراهيم شقاء ونكد ، ونندم عندما تحس أننا أجبرناها على الزواج منه .

وذكرته بأيامها الأولى عندما تزوجت حازم ، وكيف كان موقفه حادا ؟ وكيف كان رفضه ومعارضته رغم صغره آنذاك ، فقال : أنا لم أنس ذلك يا منى .. وأنا نبهت ابنتي من هذا الموقف قلت لها غدا ستأتيننا بزوج لا نرضاه ستبكين .. سامحيني يا منى !

ـ ليس لي عندكم شيء ، إنما كان الأمل والعشم ؛ ولكن أرسلت وراءك لأخبرك أنني سأسافر إلى لندن للحياة مع إبراهيم ، إنه يريدني أن أكون بقربه وأنه لا يستطيع العيش بدوني .. وقد تأثرت بدموعه ونشيجه على الهاتف .. فإبراهيم ولدي الأخير وفلذة كبدي .. وأنا أحسست بفارغ كبير لما تأكد لي بعده .. وسأترك حبيبي برهان برهة من الزمن.. فخذ بالك من الأولاد ، وساعدهم إذا واجهوا أي مشكلة أو قضية ، فهم يحبونكم ولكنكم بخلتم عليهم بفتاة .. ربيع لم يستطع إجبار ابنته .. ومالك لم يستطع ذلك .. أنا أعذر ربيعا لم أعرف من شخصيته المسالمة الهادئة الوديعة ، أما أنت يا مالك كنت تعمل نفسك في وجهي بطلا وشجاعا .. لا تبكي انتهى الأمر !

ـ لا تقسي عليّ يا منى !

ـ أنا لا أقسو عليك ، فالولد غير الأخ والأخت !

ـ سامحيني .. أنا لو أنه ضغط عليّ إبراهيم بعض الشيء ولكنه لم يفعل !

ـ أخلاقه لا تسمح له أن يفعل ، كان يريدكم وأنتم رفضتموه .. على كل حال كان لابد لي من معاتبتك فاقبل ذلك مني .. وسأتصل بكم من لندن .

ـ ألا تريدين أن نودعك ؟!

ـ لا داعي فوقتكم ثمين !

ـ منى يا أخية ! لا تقسي علينا !

ـ أنتم قسوتم على أنفسكم ، عندما جاءني إبراهيم وقال لي إنه سيتزوج من ابنتك .. فرحت وبشرته بموافقة هند لم أعلمه من شخصيتك وقدرتك على الإقناع .. تفاجأت لما لم يحدث هذا الزواج .. انظر بنات أخواتهم وإخوتهم يوافقون بدون تردد إذا وافق الأب ، لم يكن للبنت كلمة ومع ذلك لا تجبر .. فأنا الآن عرفت تربية الحاج محمود من تربيتنا نحن .. كان أولاد الحاج محمود كلهم يد واحدة ، عندما كان أحدهم يريد أن يفتح مصلحة يجمع إخوته ويتشاورون ويتفقون أو يختلفون .. تذكرت اجتماعاتهم عند إنشاء المصنع مصنع الحديد .. اجتماعاتهم عند بناء المدارس .. مكتب برهان .. المستشفى .. مصنع الدواء .. وغير ذلك من الاستثمار

ـ صحيح ، هم خير منا وأجمع منا وأوفق منا ، هذا واضح للعيان يا أخية .. معك حق يا منى غفر الله لنا يا أخية .. متى ستسافرين أحب أن أرافقك للمطار ؟

ـ سأتصل بك من هناك .

ـ هذه قسوة وعتاب شديد ، ما زلت غاضبة ؟!

ـ عندما أموت سينتهي كل شيء بينكم وبين أولاد الحاج محمود .

ـ سنبقى أخوال أولادهم .. وسأزوج برهان من فتاة منهم .. سنبقى متصلين بهم .. أنا لا يمكن أن أنسى العزيز برهان مثلك يا منى .. برهان جدد لي حياتي وقوى عزيمتي في الاندفاع للأمام ، كان مستشارا صادقا وشجاعا وأمينا أيضا !

ـ حسنا ! سأقبل عذرك اليوم قبل غد ، اذهب الآن واخطب ابنة مريم أخت برهان ، فزوجها

من العائلة وهو ابن عمها .. فلزوجة إبراهيم أخت توأم !

ـ سأفعل الآن .. بس سامحيني .. وسيتزوج إن شاء الله قبل سفرك يا منى.

مسحت دموعها وهي تعلم أنها قست على أخيها ، وقالت : أرجو أن يوافق ابنك ، ولا يفعل بك كابنتك ، وألا يكون ينظر لفتاة ما .

قبل مالك باحترام يد أخته الكبيرة التي أخذت تمسح دموعه ودموعها حتى أن الدكتور خليلا دخل عليهما ولم يشعرا به وهم في هذا الوضع الغريب ، فقال دهشا : دموع وشهقات .. ما الأمر يا خالي ؟!

قبل مالك يد أخته ثانية وقال : سأفعل كل ما تشتهينه يا منى .. قاتل الله الضعف .. ستعرف كل شيء قريبا يا خالي .

ونهض قائما وقال خليل : اجلس أبا برهان .. اجلس يا خال نتحدث بعض الوقت .

ـ لا يحق لي الجلوس هنا قبل أن أحقق ما اتفقت عليه أنا وأمك سامحيني يا منى .. أمك ستسافر يا خليل إلى لندن ، وأخشى أن لا نرى بعضنا بعد هذه السفرة !

قالت منى قبل أن يتكلم خليل : الأعمار بيد الله يا أخي .. انطلق وافعل ما هممت به !

ترك مالك أخته مهموما مقبوض النفس ، وقال خليل لأمه : ما الذي هم به أخوك ؟!

فتبسمت الأم وقالت : ستعرفه بعد ساعة !

ـ بعد ساعة !.. حسن وما قصة السفر الذي أشار إليه الخال الفاضل ؟!

ـ ألم أقل لك إن إبراهيم يتحدث معي يوميا وهو يبكي ؟! .. صعب عليه فراقي فيريدني معه حتى ينتهي من الدراسة .. وأنا أيضا صعب عليّ بعده عني يا خليل!

ـ رغم أن هذا يؤلمني يا أمي .. أتحمل وأصبر من أجل إبراهيم الصغير! متى يكون السفر ؟ مع أن إبراهيم دائما يتحدث معي لكنه لم يذكر شيئا ، نحن تعودنا على نفسك معنا .. سيحرمنا إبراهيم من هذه النعمة ! تغيير الجو لا بأس به يا أمي

ـ لا يعني هذا أنني سأترك برهان .. لا .. سآخذ كل ما يذكرني به معي إلى هناك .. ولو يحمل

القصر والأثاث لأخذتها معي .

صفن خليل لحظات وقال : افعلي ما تشائين يا أغلى أم .. سنتحدث معكم كثيرا كل يوم إن شاء الله ..

وبينما هما يتناجيان أقبل أخوه محمد وزوجاتهم وأطفالهم والتفوا حول الأم ، وقد استغربوا لما علموا برغبة منى بالسفر المفاجئ .. فهي منذ ترملت لا تحب مفارقة البيت ولو لساعات .. فهي لم تفارق البيت إلا مضطرة لعيادة مريض أو تعزية عزيز أو تهنئة بزواج أو نجاح أو مريضة إلى المستشفى والعيادات .. فهي تريد ترك القصر وذكريات برهان .. رغم فرحهم بهذا التطور المفاجئ .. قلقوا على فراقها .. وبينما هم يعبرون عن مشاعرهم بحرية وصدق ويتحدثون عن أخبارهم وأحلامهم رن جرس القصر معلنا عن ظهور قادم ، ودخل برهان وتقدم من عمته وقبل رأسها ويدها وقال : أرسلني أبي إليك ، وأنا بين يديك يا عمتي الحبيبة

قبلته من خديه ، ودعت له بالخير ثم قالت : برهان ! آه يا حبيبي ! كم فرح زوج عمتك عندما أخبره أبوك بمولدك وتسميتك برهان .. وكم فرح زوج أمي جدتك جميلة العم خليل عندما أخبره برهان بأننا سمينا ابننا خليلا .. سبحان الله! الأسماء مع أنها على أبدان مختلفة لها تأثير وحلاوة على النفوس .. كان أبوك يحب برهان ، فأراد أن يعبر عن هذا الحب فسماك بهذا الاسم العزيز والغالي يا ابن الغالي .. تعال اجلس بقربي أيها الحبيب .

فجلس على الكنبة أو الأريكة التي تجلس عليها فأخذت تداعب وتعبث في شعره وتقول : أهلا بابن الغالي .. وهو يتمتم بكلمات الشكر ، وقالت : أقال لك أبوك شيئا ؟!

قال بحزن : دخل علينا باكيا .. فبكينا ظنّنا أن مصيبة ألمت بنا أو مات أحد .. ثم صرف الجميع وتحدث معي وحدي فقال : اذهب إلى عمتك الدكتورة منى ربيع .. لتزوجك ممن تشاء .. ففهمت القضية .. فجئت إليك سريعا !

ـ أتقبل أن أزوجك كما أشاء يا حبيبي يا برهان !

وضمت رأسه لصدرها وقبلته ، وتساقطت دمعات من عيونها ثم شرقتها وهي تسمع الشاب

يقول: ولو لم أقبل لم آت يا عمتي.. فدموع والدي عزيزة وغالية علينا .. ونحن منذ تزوج إبراهيم ونحن نعيش في حزن وألم وبكاء.. فأنا خفت على والدي من جلطات الدم وغيرها ..

ـ سلامة أبيك ألف سلامة .. جيد قبولك يا برهان ! وعافى الله أباك .. خليل اتصل بزوج عمتك مريم .. وأنت يا محمد اذهب مع أخيك ، وسأركب أنا مع ابن أخي مالك .. سنخطب ابنة عمتكم لابن أخي .. توأم زوجة إبراهيم .

قال محمد : أنت ستخطبين له؟!

ـ نعم أنا!



تعجبت مريم أخت برهان وزوجها من هذه الزيارة ، وممن من منى ربيع ! فحصل استنفار عجيب في البيت ، فمنى تفارق البيت جرا ، وما تصدق أن تعود وتنتهي من حاجتها خارج البيت .. وكان الوقت مساء بعد العشاء بقليل لم يكن بيت مريم بعيدا عن قصر السيد برهان استقبل موسى ومريم أم خليل بالترحاب الحار الدافئ والفرح الواضح ، فهي أيضا حماة ابنتهم منى ، وكانت أخت برهان صديقة لمنى منذ تزوجت شقيقها برهان ، وكان زوجها ابن عمها موسى .. فلما ولدت ابنتيها التوأم سمت واحدة منهما منى ، وهي التي تزوجها إبراهيم وسافر بها إلى بريطانيا.. وجلس الضيوف وأهل البيت في صالة واسعة ، وكان أهل الدار يرحبون بضيوفهم الكرام ، ثم تحدثت منى عن سبب هذه الزيارة المفاجئة ، وأشارت لابن أخيها برهان وطلبت منهم أي فتاة ، وإن كانت توأم منى الآنسة أميرة فذلك خير.. فسر القوم ، وقامت مريم تعانق منى وهي تقول : يا أهلا بكم جميعا .. وأهلا ببرهان سمي أخي العزيز برهان رحمه الله تعالى ..

وقال زوج مريم عندما نظرت إليه زوجته : أهلا وسهلا بك يا أم خليل والله هذا شرف آخر

تقدميه لنا .. فأهلا بك يا برهان .. وعلى الرحب والسعة .. يا مريم تحدثي مع البنت ، وليراها الشاب فإذا راقت له فبها ونعمت .. وإن لم ترق له فلها أختان.

فقالت منى : بارك الله فيك يا أبا أيوب ! .. ستروق له فسنعيد إليكم البرهان الجديد .

ـ شكرا لك يا أم خليل .. مقدارك عظيم عندنا .. كل العائلة تجلك .

قالت مريم : جزاك الله خيرا يا أم خليل .. أنت بركة عائلة الحاج محمود .. سأرسلها لكم لتسلم عليكم وترونها .

سرت منى وأولادها لسرعة إجابة موسى وزوجته لرغبتهم ، وأثنت على أبي أيوب بما فتح الله عليها من الكلام الحسن والامتنان ، وما عادت الأم للجلوس ثانية حتى أقبلت الفتاة المنشودة وقد لبست ثيابها الشرعية .. فهؤلاء الناس ما زالوا يراعون المحافظة وعدم الاختلاط والخلوة فسلمت على زوجة خالها برهان وقبلتها ، وحيت الجميع ، وجلست حيث أشار لها والدها وقال موسى : هذه يا برهان توأم منى زوجة ابن عمتك أم خليل .. وهذا يا أميرة برهان ابن الأخ الفاضل مالك ربيع شقيق الدكتورة منى .. فقد أقبل بعمته وأولاد عمته يطلبونك منا .. فنحن رحبنا بهذا ، والقول الآن لك ؟!

تبسمت الفتاة وقالت وهي تنظر في عينيّ برهان الذي احمر وجهه خجلا : وأنا قبلت يا أبي ! اختيار امرأة خالي رحمه الله .

لم تطلب الانتظار مع أنها طالبة في الجامعة كأختها منى ، فقامت منى جذلة واحتضنت الفتاة مقبلة لها عدة قبلات معبرة عن فرحها وسعادتها بسرعة جوابها وقالت : مبارك يا ابنتي .. ونعمت التربية يا أبا أيوب ويا بنيتي .

ومسحت دمعات تساقطت على خديها مما أدهش العروس وأهلها واعتبروها دموع الفرح ؛ ولكن برهان فهم مغزى هذه الدموع .. وقال موسى : ألف مبارك يا أم خليل .. أميرة قدرت مجيئك شخصيا لطلب يدها لأبن أخيك .. آ ، يا برهان لم تقل شيئا ؟!

تمتم الشاب بخجل وحياء: لا كلام لي يا سيدي .. أنا سعيد بموافقتكم وقبول الآنسة بي .

انتقلت منى لابن أخيها واحتضنه هو الآخر وباركت له وقالت : أنا سعيدة اليوم يا أولاد .. عدنا أسرة واحدة بمشيئة الله ..

وقام خليل بالاتصال بخاله مالك ربيع ، وطلب منه المجيء ليطلب ويخطب لابنه .

وجرت الاتصالات موسى بوالده وبعض إخوته ، ومريم تحدثت مع أخيها عبد القادر وعبد الرحيم ، وكان مالك يتصل بربيع وبأخته حنين وبنضال وعزمي بعض أشقاء هناء ، والتقوا على باب بيت أبي برهان ، ثم انطلقوا إلى بيت أبي أيوب ، والتقى الجميع هناك ببيت ابن عم برهان المحبوب لهم ، وحدثت الخطبة بحضور كبار العائلتين ، وحدثت سهرة كبيرة بين تلك الأسر ، واتفقوا أن يكون الحفل الكبير للإعلان عن الزواج في وقت قريب ، وقبل سفر السيدة منى إلى لندن.. وكانت منى نجمة هذا اللقاء.. فهي منذ عشر سنوات أو أكثر لم تشاهد بمثل هذا الحبور والسعادة والمشاركة كأن العروسين ابناها .

ولما غادروا البيت ركبت منى مع أخيها مالك في سيارته نحو بيتها ، فقال لها وهم عائدون : جزاك الله خيرا يا أختاه ! لقد صنعت لنا عملا عظيما .. لقد أعدت البسمة لقلوبنا .

ـ خسارة يا مالك ! أن نخسر هذه العائلة.

ـ أعرف ذلك .. مع أننا ندعي أننا محافظون على عاداتنا وتقاليدنا فهم خير منا .. فبناتهم كريمات طاعتهنّ لأهلن دون تردد .. همس لي برهان بكل ما جرى وهو لا يكاد يصدق .. بنت في الجامعة ترى الخطيب أول مرة لا تطلب مهلة ما دام والداها وافقوا !

ـ نعم ، لم تطلب مهلة ولو دقائق.. هو وافق وذهبت الأم لحجرة الفتاة وحدها ، لم يقم الرجل من مجلسه لنقول ضغط عليها .. أنا كانت يدي على قلبي أن تتردد وتطلب مهلة أو لما تتخرج من الجامعة كما فعلت ابنة ربيع .. دائما خيرهم كبير وكثير علينا .

ـ والله لا ننسى ذلك يا أخية .. الحمد لله الذي وفقنا لهذه الخطوة الصغيرة لترضي عنا وعلينا .

ـ لا تزعل من كلامي معك مساء هذا اليوم .. أنا من حبي لكم تكلمت بما سمعت مني .. أنا أريد أن يبقى أبنائي قريبين منكم .. النساء تقرب وتباعد .. فبالمصاهرة نبقى قريبين من بعض

أكثر .

ـ أدرك هذا القصد الكبير.. لا تعلمين كما ندمت عندما علمت بخطبة إبراهيم .. صعقت لدرجة أنني أول مرة لم استوعب ما حصل .. ولكنه صار والحمد لله هو وابني عديلان وسنعزز هذه المصاهرة بغيرها يا منى .. فأعطونا برهان الغالي وها نحن أعطيناهم برهان فلذة الكبد .

ـ ابنك رائع ومهذب جدا وأعجبني للغاية !

ـ هو أدرك الألم الذي أصابنا من زواج إبراهيم .. أنا قلت له الأمر ، ثم قلت اذهب لعمتك فقال لبيك يا أبي وأنا تحت أمركم .

ـ أنا هكذا أحب الأبناء.. فلا يجب أن نتأخر كثيرا بالتفكير الفردي والانفلات في الحرية الشخصية .. نحن ما زلنا أسر لديها دين عظيم .. ونعيش في مجتمع لا يمكن أن ينفتح انفتاح الغرب .. ما أخبار حزبك العجوز ؟!

مسح دمعة سقطت على خده وقال : تريدين تغيير الموضوع والحوار .. أنت أختنا الكبيرة اليوم أي أمنا يا منى ، رحم الله الحاجة جميلة .. ورحم الله أبا أحمد .. وأنا وهناء ـ وكانت هناء على ذكرها قد ركبت سيارة أحد إخوتها ، فقد شعرت أن منى ستتحدث مع مالك ، فلم ترغب بحشر نفسها والاستماع ـ نقدر لك هذا الجهد وممتنون لك فعلا .. وأرجو أن لا تسافري قبل زواج برهان .. فبرهان ابنك اليوم .

ـ هذا الولد أحببته منذ ولد .

ـ وما زلنا نحتفظ بالهدية التي أرسلتموها لنا إلى لندن بمناسبة ولادته.. رحمك الله يا أبا خليل فكلما أجلس مع نفسي وأتذكره تبكي وتدمع عيناي يا منى .. لا أقول ذلك نفاقا يا منى .. واليوم ولدنا طيار ماهر في سلاح الطيران العسكري

ـ هل تعلم أنهم لم يسألونني عن عمله ؟!

تبسم وقال : نحن أهل يا منى .. لابد أنهم يعرفون .. فبرهان ليس غريب عليهم .. لقد كان برهان العزيز يصحبه معه كثيرا .

ـ أحسنت !

ـ سنتصل بإبراهيم ونخبره بهذا الخبر السعيد ليصفح عن أخواله .

ـ سيتصل هو .. لقد اتصلت أميرة عروسكم بأختها قبل مجيئك بأهلك ، لابد أنه اتصل هناك ليبارك لهم ، وربما اتصل بكم في البيت ، إبراهيم أكثر أبنائي حبا لكم .. وسيتصل هنا ، ولابد أنه طلب الحديث معي ، سنعرف الآن من زوجات الأبناء .

وقفت السيارة على باب البيت ، ثم تبعتها سيارة خليل ومحمد وبرهان الذي نزل وقال لهما : كنتم تسيرون ببطء شديد .. وكأنكم نسيتم أن الوقت نصف ليل .

قال مالك : لم ننس اذهب بمن معك للبيت سأسهر مع عمتكم .. أنا منذ زمن افتقدت مثل هذه السهرات الرومانسية أو الشاعرية مع الأخت الحبيبة.. انصرف يا ابني وقل لأمك لتنام قد يطول السهر !

تنهدت منى وهي تسمع كلمات مالك ولما سكت قالت : منذ مات برهان !.. نعم منذ مات برهان ! .. تفضلوا .

وبينما هم واقفون جاءت هناء التي كانت في سيارة أخيها نضال الذي تقدم نحوهم ، وشكر بدوره الدكتورة منى ، فتقبلت شكره بحنان وامتنان ، وقالت هناء : لك الشكر يا أم خليل.. وسنظل نشكرك .. فأنت أعدت لنا الصفاء بجهل البنات .. فهنّ لا يعرفن مثل هذه المعاني العائلية الكبيرة والسرور والحبور بين القلوب .

ـ لا بأس يا امرأة أخي .. سامحيني إذا أخذت دورك في الخطبة لابنك .. تفضلوا نحن ظنّنا أنكم عدتم لبيوتكم .

ـ بارك الله فيك الوقت متأخر ..

وركبت هناء في سيارة برهان الذي قال لعمته : السلام عليكم ، سنمر عليك يا عمة أنا وأمي والعروس ، فهي تريد أن تشتري أنت لها الذهب والزينة .

ـ أنا .. أبشر وسأدفع ثمنه أنا إكراما لعيونكم جميعكم .

احتج برهان وقال : لا ، لا .

قال مالك : اسكت يا برهان .. أنا أعرف عمتك ، هي تريد تسديد دين قديم أو تذكرني بدين قديم !

ضحكت منى وقالت : لا والله ! أنا أعرف أنك وضعت ألفين دينار من ذلك الدين ، دين المصنع لا أنسى ، فبرهان صارحني بذلك عند موته .. وخيرك كثير يا مالك .. لقد كانت هداياك لنا كبيرة وثمينة .. ولكن أحب أن أشارككم فرحتكم ، وابنة أختي مريم تطلب ذلك مني .

ولما ابتعدت سيارتي برهان ونضال دخلت منى القصر ، وكان أولادها قد سبقوهما بالدخول ، قالت منى : مع أن الوقت صيف أشعر ببرد في هذا الليل .. فلنجلس في المكتبة حيث كان برهان الحبيب يحب المكث والسمر والإطالة يا مالك

ـ حاضر .

جلس الأخوان في مكتبة البيت ، وأحضرت لهما خادمة البيت أم السعد القهوة .. أخذت منى كتابا كان يحب برهان قراءته وطفقت تقلب صفحاته .

قال مالك بعد صمت : أراغبة بالرحيل يا أخية ؟

ـ أجل أيها الأخ الحبيب .. أنا أحب إبراهيم ، ربما أكثر من إخوته ، وهو حبيبي ، وهو شبيه أبيه صورة وخلقا .. فكلما أراه أحس أنني أجلس مع برهان .. فهذه الشهور القليلة التي غابها عن عيناي آلمتني وأحسستني بفراغ كالفراغ الذي أحسست به عند فقد برهان .. دموعه عزيزة عليّ يا مالك ! .. وكأنه هو الآخر يحس بفقدي ، لقد مات أبوه وهو صغير عشر سنوات تزيد سنتان أو ثلاث على ما أذكر .

ـ كان عملك معنا اليوم كبير ، فالشكر لك يا منى ! ونحن فرحنا بخطبة برهان ، وفرحتنا أكبر بمشاركتك لنا وظهورك في حياتنا من جديد .. كان الكل مشدوه بوجودك معنا .. لقد خاف الجميع على عقلك يا منى .. ومع ما تعرفين عني كان ينتابني بعض الأحيان قلق وتوجس .. الحمد لله رب العالمين على عافيتك .. وعيشي مع حبيبنا برهان كما يطيب لك ، وخذي أوراقه

وكتبه ورسائله ، وسنأتيك نحن لندن .. ونكتفي بسماعكم ريثما تعودون لنا سالمين ظافرين .

وغرق الأخوان يتذكران الماضي ، وأيام زمان ، وسهراتهم مع برهان والعم خليل ونوادر برهان اللطيفة .. وفجأة كأنه تذكر شيئا فقال : أتذكرين عبير ناصر ؟!

ـ وكيف أنساها؟! وهي أول امرأة عملت موظفة صغيرة عندها ، آ.. مالها؟!

ـ اتصلت بي منذ أيام .. ودعتني لحضور حفلة زواج ابنها البكر فهو يستعد للزواج .

ـ تزوجت هي ؟! .. آ ، أذكر أنها تزوجت بعدما تصالحنا مع أهل خليل فرفر .. كأنني أذكر يا مالك أنها دعتنا للحفلة يومذاك !

فقال مالك : ذهبت أنا وعدنان وأمي والعم خليل واعتذرت أنت .. وكأن برهان لحق بنا .

ـ نعم ، نعم ، برهان وحده ذهب .. ما شاء الله ابنها كبر ويريد الزواج !

ـ الأيام تعبر سريعا يا أم خليل .. رحم الله الحاج خليل أبا أحمد .. كان نعم الرجل والأب .. أخونا ربيع يقول إنه يفكر بإنشاء مسجد عن روح خليل زوج أمنا

ـ فكرة طيبة ! .. نعم ، كان لنا نعم الوالد .. فنحن لا نعرف أبانا ساعدا ـ رحمه الله ـ كما عرفنا خليلا ، الوالد مات ونحن أطفال يا مالك .. صورته خيال في ذهني .. أبو أحمد رجل نادر ، ومع ذلك لم يحتاج لنا كثيرا طول حياته .. قل لربيع إنني سأساهم في هذا المسجد .. ما زالت أموال المصنع مصنع عبد الرحيم تهل علينا .

ـ لقد أصبح المصنع عدة مصانع شركة ضخمة .. خلاص سنشترك كلنا ، وسأتحدث مع حنين إذا أحبت أن تساهم بشيء ، حتى لا تغضب علينا إن تجاهلناها .. ويقول الأخ الكبير ربيع إن المسجد قد يزيد بناؤه وأرضه عن مائة ألف دينار .

ـ المال ليس مهما يا أخي .. أموال أمهم لم يحتاج إليها الأولاد ، فحتى

دراسة إبراهيم كانت من أموال خليل ومحمد .. أصروا على دفع أموال الدراسة ، وحتى سفرة لندن هم يمولونها .. فهم يدعون أنهم استفادوا من أموال الوالد ، وإبراهيم لم ينتفع منها كثيرا وتقبل إبراهيم الأمر بطيب نفس ومن غير حساسية .. وطلبوا منه أن يصرف أمواله إذا أحب

على نفسه وزوجته.. فوافق إبراهيم أيضا .. إبراهيم طيب مثل أخي ربيع يذكرني بمسالمته ومسايرته بربيع ساعد .

ـ هم تربيتك وتربية أبي خليل ـ رحمه الله ـ تربية ممتازة يا أخية .. وإبراهيم زاد عليهم بأنه تربيتك أنت خاصة .. والله كان مناي وبودي أن يتزوج ابنتي هند .. لكن الدلع زاد عندنا .. والله يا منى إن هناء تألمت مثلي وزيادة .. وكانت راغبة بهذا الزواج والنسب .. سوى القربى التي تجمعنا كانت راغبة أن يتزوج ابنتها ليكون قريبا من رعاية أخوالها ويعيش معهم براحة .. وخالتها لهند متزوجة منهم كما تعلمين .. ولكن نقول ما علمناه الرسول صلى الله عليه وسلم قدر الله وما شاء فعل .

وبينما هما يتسامران ويتذاكران أيام الشباب وقصص الشباب ، اتصل إبراهيم طالبا الحديث مع أمه ، وشكرها على خطوتها الجميلة ، وتحدثت منى زوجته مع منى أمه ، وأثنت عليها كثيرا وباركت جهدها الخالص بتزويج أختها من ابن أخيها وأبدت شوقها لرؤيتها قريبا كما وعدتهم ولما علم إبراهيم أن خاله يسمر مع أمه في مثل هذا الوقت سر قلبه وطلب الحديث مع الخال ، وبعد التهنئة قال : كنت أرغب أن أكون البطل عندكم ولكن للقدر حكمه ، والله فعال لما يريد.. لن تزعل إنها تسمع ، فهي تعلم أنني رغبت بمصاهرتكم رغبت ببنات أخوالي ورفضنني بحجج واهية.. وأحسنت أمي باختيار أميرة عروسا لبرهان مالك.

أخذ مالك في الضحك لصراحة ابن أخته ، وقال : سأسافر مع أمك ، واعتذر إليك ثانية .

وأخذت منى موسى التلفون من زوجها ، وهنئت الدكتور المحامي المعروف مالك ربيع ، ودعته بحرارة لزيارة لندن مع عمتها فوعدها بتلبية الدعوة .

ولما ترك الأولاد الهاتف قالت منى : ألا تريد العودة لبيتك ؟ فأكيد هناء وبرهان ينتظرونك للتشاور .

ـ ذكرت لهم أننا في يوم تاريخي من حياتنا بعد فقد الكثير من أحبابنا .. قلت لهم سأستعيد ذكرياتي الليلة مع أختي منى ربيع .. فإن سهروا فهم يسهرون بفرحتهم بابننا برهان .

ـ وهل حقا سترافقني في السفر؟!

ـ نعم .. أنا تعبت أعصابي في الفترة الماضية .. وستسافر معنا أم برهان .. ولي أيضا عمل هناك طباعة كتاب .. فقد تحدث معي ابن خال هناء في ذلك .. وأنت شجعتيني .

وظلا سهرانين حتى صليا الفجر ، ثم غادر مالك بيت أخته عائدا للبيت وهو حالم لا يريد النوم مما غمر قلبه من الحبور بما حصل لولده برهان ، ومن رضا منى عليه .. ولما وصل البيت وصعد للطابق الثاني ، وجد هناء ما زالت تجلس في المكتبة ، فخطر له أنها قامت للصلاة ، وجلست تقرأ في المصحف ، لم يخطر له أنها ساهرة مثله ، فسلم وحيا وألقى ببدنه على أريكة ، وقالت :

قبل قليل انصرف الأولاد .. فخشيت إذا نمت أن تذهب عليّ صلاة الفجر .. لعلك قضيت سهرة ممتعة مع أم خليل؟!

- أجل يا أم برهان .. لقد عادت بي الذكريات لسنوات خلت .. كبرنا ومرت تلك السنون مستعجلة.. وقد نسافر مع منى لندن.. رحلة نزهة ما رأيك بمرافقتنا ؟! ونزور أختك وأخوالك .. وأنت تذكرين أن ابنة خالك كتبت لنا عن أحد الكتب التي أعدتها للنشر.. وأنت ذكرت أن ابن خالك تحدث أيضا بهذا الشأن .. فهي فرصة .

- وزواج برهان ؟!

- ستسافر منى بعد زواج برهان .

- إذا تمكنت من أخذ إجازة سأفعل ، وحتى إذا سمح لبرهان بالسفر إلى الخارج لقضاء شهر العسل فنأخذهم معنا فيقضون إجازة عرس في أوروبا .

خلال شهر واحد تحقق زواج برهان مالك على أميرة موسى ، وتم الزفاف المنشود ، وتحقق الفرح للجميع ، ولم تتمكن هناء من السفر مع زوجها ، وكذلك برهان بسبب أنه ضابط طيار وقد فرح أحباب منى وأصدقاء العائلة وأحفادها بمشاركتها لهم العرس ، وبسفرها وترك القصر ولو إلى حين.. فهي منذ هلك برهان وهي معتصمة بين جدران القصر ولا تخرج إلا مضطرة .. أو مجاملة لأقصى درجة .. وقامت ببعض الزيارات ، ودفعت أموالا لربيع للمشاركة والمساهمة في بناء المسجد عن روح خليل أحمد فرفر .

وقضت مع أخيها مالك أياما جميلة في معالم لندن ، ثم عاد مالك مسرورا مطمئنا على صحة أخته وعافيتها .. وسر إبراهيم من وجود أمه معه ، وكذلك زوجته منى ، ولم تنقطع الاتصالات الهاتفية مع أفراد العائلة ، فما يمر يوم إلا وهم يتلقون اتصالا من فلان ، وآخر من فلان مستفسرا عن حالتهم .. وبعد عودة مالك للبلد كانت منى تبقى عاكفة في البيت حتى يرجع إبراهيم من الجامعة ، ومنى من جامعتها ، وزارتها أخت هناء شمسة عدة مرات بناء على اتصال أختها بها وأصبحتا صديقتين غربة .. وكان أخوال هناء يترددون عليهم لزيارتهم والسمر معهم أيضا

بطلب من هناء عبد الكريم .. وكانت بعض نسائهم الكبيرات في السن والمتقاعدات من الوظائف والأعمال يترددن على الدكتورة في الصباح لشرب القهوة والثرثرة والحديث معها ، وجاءتها أنباء الانتخابات لمجلس البرلمان في بلدها ، وقد علمت وهي تقرأ صحف بريطانيا الإنجليزية والعربية بفوز أخيها مالك نائبا عن حي برقوقة والدائرة التابع لها هذا الحي من المدينة .. وكان نجاحه متوقعا للجميع ، ولو شارك في دورة سابقة لحقق مثل هذا الفوز لشهرته في تلك المنطقة.. فهو شخص شعبي أي معروف للعامة والخاصة في الحي ، وقصة نجاحه وخدمته لأبناء الحي معروفة .. في النشاطات العامة والخاصة ومساعدته للناس معلومة فهو شعبي من أيام العم خليل الحداد .. ومكتبه كان متعاونا ومفتوحا للضعفاء قبل الأقوياء .. وكان أهل الحي ينتظرون مشاركته قديما لاهتمامه بالسياسة الوطنية والدولية.. ومع هذا الفوز لمالك فإن الحزب الذي يتزعمه لم يحقق الآمال الكبيرة والخطط التي نفذها ورسمها.. فأمام هذا الفشل للحزب اضطر مالك وغيره من قيادات الحزب عن التخلي عن زعامته لقيادة جديدة كما اتفقوا سابقا ، وبرزت قيادة مشتركة من القدماء والشباب الجدد .

اتصلت منى على أثر معرفتها بالفوز بمالك وهنأته ، ولكنها شعرت بأنه غير سعيد بالنجاح ، ولم يكن مسرورا كثيرا بهذا الفوز الذي كان واثقا منه ، وشكى لها ضعف نتائج الحزب ، فتمنت له التوفيق والبحث من جديد عن أسباب الفشل ، وشكرها الشكر الجزيل على اهتمامها بأخباره وأخبار العائلة ، وسمع منها أخبار إبراهيم وقرينته .



وبعد حين يسير استقبلت خبر نجاح ابن أخيها ربيع المحامي زياد بفوزه بمنصب نقيب المحامين في بلدها بالطبع ، لم تكن المفاجأة كبيرة لها ، ولا لإبراهيم بسبب أن ابن أخيها كان من أعضاء القيادة في النقابة في الدورات الماضية ، فكان الوصول لهذا المقعد متوقعا ، وتحدثت مع

ربيع ومع ابن أخيها وباركت له هذا التقدم وهنأته بهذا الفوز له وللعائلة .

وبعد حين اتصل بها ربيع مخبرا لها أن ابنته سعاد راغبة بالدراسة العليا في بريطانيا ، وطلب مساعدتها بذلك فرحبت بذلك ووعدته خيرا .. وكلمت منى إبراهيم فسعى لها بالحصول على قبول في إحدى الجامعات الإنجليزية العريقة .. واستقبلها هو وزوجته في مطار هيثرو الإنجليزي ، وأسكنها معهم في الشقة الواسعة ، وأحسنت عمتها استقبالها والترحيب بها .. وقام إبراهيم وزوجته بعد استقرارها بتعريفها على أهم معالم لندن وأهميتها في العالم الحديث ، وأن العلم فيها يعادل العلم في أمريكا الشمالية وحواضر العالم الأخرى .



لم تشعر سعاد خلال الشهور الأولى من وجودها في بيت عمتها وابنها إبراهيم بأي وحشة أو غربة .. ولم تشعر من إبراهيم وزوجته منى بأي مضايقة رغم أنها رفضته ذات يوم كزوج وقرين وحتى زوجته التي تعرف بهذه الحكاية لم يحدث بينهنّ أي مشادة أو موقف فيه غيرة وقلق .. وكانت هي قلقة ومتخوفة من هذه الناحية ؛ ولكنها مع الأيام ذهبت واستقر الأمن ، وأدركت أن الأخلاق شيء عظيم عندهم، وشكرت الله على ذلك ، فقد كانت خائفة أن يعاملها إبراهيم بحساسية وانتقام ، وتضطر للحياة بعيدة عن جو الأسرة والأهل .. وعمتها منى كانت تضفي عليها الحنان والحب .. وكانت أمها تتحدث معها باستمرار وكذلك الوالد وكانت تصارح والديها بهذا العطف والحنان لتزيل عنهم ذلك القلق الذي كان عندهم أيضا لموقفهم الضعيف من زواجهما .. فخشي من بغض إبراهيم لابنتهم .. ولكن لما طمأنتهم الفتاة فرحوا بهذه الأخبار فرحا كبيرا وتيقنوا أكثر ما هي تربية منى وبرهان .. مع أن إبراهيم لم يعش من حياته مع والده كثيرا ؛ ولكن تربية العائلة بشكل عام لها تأثير على الآخرين ، فأعجبهم ذلك واطمأنوا على ابنتهم .

كانت حياة الدكتورة في بريطانيا مع ولدها وزوجته هادئة جدا كما كانت في بلدها ومسقط رأسها ، وتأتيها الأخبار باستمرار ، والاتصالات لا تنقطع من أولادها من زوجاتهم أو أزواج بناتها من أبناء إخوتها وبناتهم ، فكانت مطمئنة عليهم ؛ كأنها تحيا بينهم ، حدث حدث يوما ما حرك السكون الراكد في البيت اللندني .. لقد عرفنا أن لهناء أهل مالك شقيق منى أقارب في بريطانيا منذ زمن ، وأن أختا لها قد تزوجت منهم ، وذكرنا أنها كانت تتردد على منى في بعض الأحيان ، على طلب ورجاء من أختها هناء التي كلما تتصل بها تذكرها بزيارة منى والثرثرة معها ، حتى لا تشعر بالوحدة خصوصا في الفترة الصباحية عندما يذهب الأولاد للدراسة والعمل .. وكانت منى تفرح بذلك اللقاء وتشكر هناء في نفسها ، وتدرك أن هذا من حثها ورغبتها بإدخال السرور على قلبها .. ومع أن منى اعتادت على الوحدة والحياة الصامتة منذ هلاك برهان .. الإنسان يحب الونس والحديث والحوار .. وكانت منى تفرح أيضا لمجيء المرأة في أول النهار عندما تكون وحيدة مع الصحف والمجلات والتلفاز .. زارت هذه المرأة الطيبة شقيقة هناء ذات صباح منى كالمعتاد ، ورحبت بها منى واندمجن في الحديث والأخبار والسياسة والاقتصاد والبطالة وقضايا العالم الشائعة في ذلك الحين ، وكانت منى قد أعدت القهوة وأحضرت الفاكهة والمكسرات قبل الجلوس والاستغراق في هذه الأحاديث المسلية .. فهذه ليست أول مرة تلتقيان .. وبينما هنّ مستغرقات في الثرثرة النسائية خرجت سعاد من حجرتها في ذلك النهار ، ولم يكن عندها محاضرات اليوم ، وقد كانت قد سهرت طويلا ليلة أمس على التلفاز ، فاستغرقت في نوم عميق ، لولا أن عمتها أيقظتها للصلاة لما استيقظت وربما صلت وهي نائمة .. سألت المرأة الضيفة منى عن هذه الصبية ، فكأنها أول مرة تصادفها وإلا هي تعرف زوجة إبراهيم ، فقالت منى : هذه ابنة أخي الأكبر المهندس ربيع ..

ـ أوه ما شاء الله ! عروس جميلة يا أم خليل ..ماذا تفعل هنا زيارة .. رحلة ؟!

ـ لا ، يا أم سعيد ، خلصت جامعتها الأولى هناك في البلد ، وأحبت أن تدرس وتحصل الماجستير والدكتوراه هنا ، فأرسلها أخي ربيع ، فجاءت تعيش معنا لتتعلم وتحصل الشهادات

العليا .. أحبت استغلال وجودنا هنا .. ولو لم نكن نحن هنا ما أرسلها ربيع .
كانت سعاد في هذه اللحظة قد غسلت وجهها وحسنت من تسريحتها ، وجاءت وحيت المرأة وعمتها ، وسمعت آخر كلام عمتها .. ثم جلست ، وبعد أن عرفت منى ابنة أخيها على شقيقة هناء أم سعيد التي فرحت بهذه المعرفة .. قالت لها أم سعيد : أمتزوجة أنت يا سعاد ؟!
احمر وجه سعاد ونظرت لعمتها وأجابت المرأة بحياء : لا يا خالتي .
وتحدثت عن امرأة عمها بحديث حسن وطيب ، أفرح وسر منى وأخت هناء ، ثم نهضت واستأذنت لدخول المطبخ لأعداد طعام الفطور لنفسها ، فهي لم تفطر بعد وعرضت على المرأتين مشاركتها الطعام ، فشكرتها أم سعيد وقالت منى : قد أفطرت مع الأولاد .. افطري يا حبيبتي .
ولما اختفت الفتاة في المطبخ قالت أم سعيد : عندي ابن يا منى في سن الزواج وهو من جيل سعاد .. ألا تزوجوننا هذه البنت ولتبقى عندنا هنا في بلاد الإنجليز ؟!
ضحكت منى وقالت : الله يحسن إليك يا أم سعيد أنتم بركة .. ومنذ دخلت علينا هناء لم نسمع بمشكلة بينها وبين أخي مالك .. وسمت ابنها برهان وقبلت به عن طيب خاطر .. والأمر في النهاية للبنت وأهلها أقصد والديها .
وحدثتها بقصة إبراهيم مع سعاد ، فأعجبت المرأة بالفتاة ، وعجبت من حياتها معهم أو في بيت يسكنه إبراهيم الذي رفضته ، وكررت طلبها ورغبتها بأخذها لابنها ، فقالت لها منى : سأتحدث معها في الموضوع يا أختي العزيزة نحن أهل وأقارب ، وتشرفنا كثيرا لما تزوج أخي مالك من ابنة النقيب الكبير المرحوم عبد الكريم والدك الفاضل ، وأصابنا حبور عظيم ، وكان جميل هذا القران وحلم صعب ..
فشكرتها أم سعيد على ثنائها على والدها وإخوتها وأخوالها القاطنين بريطانيا وراحت منى تتحدث عن ذكرياتها وزواج مالك شقيقها من ابنة النقيب عبد الكريم ، فسرت المرأة مما سمعت من ذكريات وهمسات وحب لها ولأسرتها ، وأحست أن الأمر سيكون كما ترغب ، وقامت

تنصرف ولما وقفتا عند الباب ، قالت أم سعيد : كلامك رائع يا أم خليل وزادني ثقة بقبولكم ! شاوري البنت وأنا سأشاور ابني وسأتصل بك الليلة أو صباح الغد .

ولما عادت منى للجلوس أقبلت ابنة أخيها عليها ، قالت وهي تلقي بنفسها على الكرسي : كنتن تتحدثن عني .. ماذا تريد شقيقة هناء ؟!

ـ ألم تسمعي شيئا ؟!

ـ كأنني سمعت أو فهمت ، فكانت تكثر الحديث عن ابنها.. عن ابنها محمد ماذا يعمل ؟ ماذا يعمل يا سعاد ؟ مدير شركة مع والده !

ـ ليس هذا المهم.. المهم أن هذه المرأة أعجبت بحضرتك ، وتريد أن تشاور ابنها ليتزوجك ، وأنا مطلوب مني أن أشاورك !

ـ وأنت ما رأيك يا عمتي الغالية ؟ وعانقتها ضاحكة .

ـ اجلسي .. الرأي لك يا ابنة أخي .. فهؤلاء الناس عرفناهم ، وأختها زوجة عمك مالك ليست غريبة .. ومن يوم دخلت أسرتنا وهي سيدة فاضلة .. ولم نسمع عن أي مشكلة أو مشاجرة بينها وبين عمك .. مع أنها تزوجته وهي طبيبة كبيرة وابنة النقيب وابنة عائلة مهمة وأظن أنك ولدت على يديها فهي قابلتك .. وكثير من بنات أقاربنا الحوامل ترددن عليها ، ولم نسمع أنها أخذت منهن فلسا واحدا ، بل كانت تصرف لهن الدواء على سبيل الهدية ..

ضحكت سعاد وقالت بهدوء : آ ، يا عمتي الحبيبة ! أتريدين تعريفي بزوجة العم الغالي ؟

ـ جميل هذا!.. شاوري نفسك، فإذا كنت راغبة بالزواج كأي امرأة في العالم ، ثم وافق الشاب على اختيار أمه ، سأتحدث مع والدك الغالي يا غالية .. بس اعلمي أنك ستعيشين هنا ، هؤلاء الناس مواطنون هنا ليسوا مثلنا !

ـ آ، يا عمتي !! .. أنا جئت للعلم للدكتوراه ! أريد أن أصير دكتورة مثلك !

ـ يا بنت أنا صرت دكتورة وكان عندي أربعة أولاد ، كلهم إلا إبراهيم ، ولد أثناء مرض أبيه رحمه الله .. واليوم من النادر أن يمنع أحد من التعليم ، وطرق ووسائل التعليم تنوعت وتعددت

ويمكن للعاشق للتعليم أن يتحصل على شهادات ودراسات عليا بقليل من الوقت .. بالانتساب والمراسلة وغير ذلك مم نقرأ عنه .. أنا لم أر الشاب يا سعاد لأبدي رأيي ولكننا نعرفهم من معرفتنا بهناء وأهل هناء .. فنحن نعرفهم قبل هذا اللقاء ..

ـ لا أحد يقدر على مجادلتك يا عمتي الغالية .. سأتحدث مع إبراهيم .

ـ إبراهيم ! .. وما دخل إبراهيم ؟

ـ أحب أن أسمع رأيه .. الزواج هنا يعني البقاء هنا .

ـ أكيد أيتها الطفلة .. ماذا سيقول لك إبراهيم ؟! هل سيقول لا تتزوجي يا سعاد فأولاد البلد والوطن أفضل ؟!

ـ أحب أن أسمع رأي من كان يحلم ويريد أن يتخذني زوجة في يوم ما .

ـ دلوعة.. أنا أعرف أخي ربيعا ، طيب وعنده حنان أكثر من اللازم ، ومتساهل لآخر نفس .. شاوري إبراهيم كما تحبين .

فلما عاد إبراهيم مساء حدثته سعاد بما قالت أمه منى ، ولما انتهت من شرح قضيتها أو مداعبتها قال: أنا أعلم أنك تتحدثين بمواضيع مهمة بطريقة المزح والضحك.. وكما قالت عمتك إنهم أناس قد عرفناهم .. ولا تعتقدي أننا نريد التخلص منك .. أو ضقنا بك خلال هذه الشهور التي تقترب من سنة .. لا أظن أنك رأيت منا تبرما و ...

قاطعته قائلة : نحن أهل يا إبراهيم .. أنا ابنة خالك ربيع وأنت ابن عمتي منى .. صدق أنني قصصت على أبي وأمي عن حبكم لي ، وأنكم تعاملونني كأنني ابنتكم

نهض صائحا متظاهرا بالهياج : يا مجنونة ! أنت ابنتنا .. شئت أم أبيت .. أمي عمتك وأبوك خالي .. أنت منا من لحمنا ودمنا ..

ـ اهدأ !

ـ أنا هادئ .. أنا لا استفز بسهولة .. أنا قلت تلك الملاحظة حتى لا يقع في قلبك أننا متعبون ومنزعجون منك ، ومتضايقون ننتظر اليوم الذي تفارقينا به بشوق وعجلة .. الأمر لا يحتاج

لتفكير طويل وممل .. فإذا راقت لك الحياة والاستقرار في لندن مثل هؤلاء الناس ، ووافق الشاب فتزوجي وادرسي .. أما إذا كنت تريدين أن تتزوجي بعدما تصبحين دكتورة فانتظري وقولي لهم لا .. فالشاب سيتزوج منك أو من غيرك ، ولست البنت الوحيدة في الدنيا !

ـ يا الله ! ما أقسى قلبك !

ـ أنا ؟!

ـ لا ، أنا ! أنت تريد أن تذكرني بموقفي معك عندما أراد والدي تزويجي لك .. تريد أن تذكرني بأنني اعتذرت لك عن الزواج قبل سنتين أو ثلاث .

ـ يا حبيبتي يا ابنة خالي .. أنا لم أعش معك قصة غرام لأبكي على الأيام والليالي التي كنا نضحك بها على بعض .. أنا كنت راغبا يا مجنونة ! لا تزعلي من هذه الصفة .. أنا كنت راغبا بالزواج منكم من بنات أخوالي من أجل خاطر أمي الحبيبة .. كل إخوتي تزوجوا من بنات أعمامهم وعماتهم .. وزوجتي هذه الجالسة الصامتة منذ جلسنا أحسن من مائة واحدة مثلك .

ضحكت سعاد وهي تنظر لعمتها الصامتة لهذا الحوار ، ونظرت لمنى زوجة إبراهيم أيضا الصامتة كالتمثال ؛ ولكنها تبسمت لكلام إبراهيم الأخير وقالت سعاد باسمة : أكيد هي أحسن مني مليون مرة ، أليست زوجتك وستضع لك الابن البكر بعد أيام ؟! إذن أنت ترى أن الزواج مناسب لي وسترة للبنت .. والدكتوراه تأتي فيها بعد .

ـ لازم تسخرين !

ـ كما تسخر أنت مني ، وعامل نفسك رجل عليّ .. صح يا عمتي ! .. صح يا منى موسى ؟!

قالت الزوجة : أنا وعمتي جمهور .. آ ، يا عمتي ؟!

قالت منى ربيع : فعلا نحن جمهور يا ابنة أخي .. نحن سعيدون بوجودك بيننا ، ونحن أهل يا عاقلة.. على كل حال عندما تتحدث معي أم سعيد في الموضوع وتنقل رأي ابنها سأقول لها هات ابنك حتى تراه العروس ، فإن النظر له كلام ، فإن راق في نظرها قبلته زوجا ووافقت عليه قالت سعاد باسمة وهي تنهض معانقة لعمتها : نعم ، هذا هو الكلام المنطقي يا أخ إبراهيم !

رن الهاتف ، كان المتحدث مالك سلم ، وناول إبراهيم السماعة لأمه قائلا : خالنا العزيز مالك!

تناولت الأم الهاتف ، وتكلمت مع أخيها بشوق وحب ، وسمعته يقول بعد ذلك : طلب مني بعض الصحاب الكبار أن أرشحك لكرسي الوزارة !

هتفت بصوت مرتفع ودهش : الوزارة ؟!

ـ نعم ، إنهم يريدون امرأة كبيرة في السن ومعها دكتوراه .. لتكون ضمن تشكيل الحكومة الجديدة .. ماذا قلت فهم مستعجلون على الرد ؟!

ضحكت منى ملء شدقيها وقالت : أنا منى ربيع أصير وزيرة ! .. شكرا يا أبا برهان .. شكرا لك ولجهودك الكبيرة .

تمت

جمال شاهين

١	ليلة العرس	٢	شمس عمري
٣	أيتام الحداد	٤	صديق أمي
٥	الأخ شريف	٦	أستاذ الفرنساوية
٧	غربتي وابنتي	٨	حي أبو خروف
٩	الشقق السوداء	١٠	حياتي قبل الحياة
١١	الحفل بالقط الأسود	١٢	امرأة نزيه
١٣	رهاب الطلاق	١٤	

أيتام الحداد

تفاجأ الأيتام باختيارها لزوجها

فكان طلاق أمها من الرجل

الذي ضحى وجاهد من أجلهم

ومن أجل تعليمهم.

ثم تبين أن زوجها الاول

هو قريب لزوج أمهم ..

هذه سيرة حياة منى ربيع؛

لعلك تستمتع بقراءتها

كما استمتعت أنا براوية أحداثها

جمال

٢٠٠٥

حدائق أمي

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

روايات اجتماعية

جمال شاهين

صديق أمي

جمال شاهين

صديق أمي

الأم شأن كبير للابن والبنت ، كلاهما يراها ملاكا يمشي على الأرض

ينسى الابن والبنت أنها إنسان لها حق الحياة

ولها غرائز كسائر الخلق تشتهي وتختار

لا يريدان لها أن تخطئ ، يريدان لها أن تبقى ملاكا

لأنهما يعتقدان أنها شيء عظيم في نفسيهما

جوهرة نفيسة غالية

فهذه حكاية امرأة عاشت بيننا كأم هاربة من مسئولياتها

وهل تتخلى الأم عن مسئولياتها

هذه قصة عباس مع أمه

أغلى كيان يدب على هذه البسيطة

جمال ٢٠٠٩

الحاج عزام

تبدأ القصة مع أصيل يوم الخميس من شهر أيلول عندما كان الحاج عزام محمد الرّشاد يجلس في محله الكبير في ذلك السوق القديم سوق الليمون المحروق ، فهو سوق معروف ومشهور على مستوى المدينة كلها والقرى حولها .. فهو أول سوق أنشئ في هذه المدينة العربية .. وبجواره جامع المدينة التاريخي .. جامع سيدي محمد صلى الله عليه وسلم .. وتجد في هذه السوق المطعومات كلها والمشروبات كلها .. خضار .. فاكهة .. تسالي .. أدوات طهي كتب عطور .. عطارة .. لحوم .. اسماك .. دجاج .. سوق جامع لكل شيء ..وكان متجر الأخوين عزام ومسلم من أكبر وأوسع المتاجر فيه ، وهم ورثوا المحل الكبير عن أبيهم محمد الرّشاد .. ويعمل بين أيديهم في هذا المحل خمسة أفراد .. ولا يكاد المحل يخلو من الزبائن والرواد .. فهناك بضاعة تخرج ، وبضاعة تدخل من باب آخر للمتجر .. وبين سائل عن سلعة ومشترٍ لأخرى .. حبوب .. حمص .. فول .. ترمس .. زيت .. بهار .. قهوة .. عصير .. طحين .. جبنة .. وفي مدخل المتجر طاولة معدة لمحاسبة الزبائن عند الخروج .. وهي طاولة كبيرة وقديمة .. ويجلس على كرسي قربها الحاج عزام يحاسب المشترين ، ويبعد عنه كرسي آخر يجلس عليه شقيقه الأكبر شريكه يتابع الشغل والعمال والزبائن .. فهما شركاء منذ وفاة والدهم وورثتهم للمتجر ..وقد عملوا مع أبيهم في هذه التجارة منذ وعوا على الدنيا .. فلهم أكثر من ثلاثين سنة يعملون في هذا المتجر .. فهم ورثوا أعمال البقالة والسمانة عن أبيهم ، كما هو ورثها هو عن أبيه .. فحياتهم البيع والشراء .. ولديهم مصالح أخرى ، وتجارات أخرى .

الحاج عزام زاد عمره عن الخمس والأربعين سنة ، وله زوجة ، ولم يوهب إلا ابنة واحدة تخرجت منذ أيام من الجامعة .. وأخوه مسلم يكبره بثلاث سنوات، لاحظ الحاج مسلم ضيق أخيه منذ ساعات الصباح .. واعتقد أن أخاه قد تشاجر مع زوجته ، فلم يحب الحديث في هذا الأمر .. لكنه عند المساء وقد خفت حدة الشغل ، فسأله عن سبب تجهمه ، فقال الرجل ؛

وكأنه كان ينتظر هذا الاستفهام من شقيقه الأكبر البنت يا أخي

فانزعج الشقيق الأكبر وهو يعلم عظم تعلق أخيه بابنته الوحيدة وقال : البنت !! هل هي مريضة ؟ منذ أيام احتفلنا بتخرجها ونجاحها من الجامعة .

تنهد الحاج عزام وقال بأسى : تمنيت لو لم أسمح لها بالدراسة في الجامعة يا أبا مصطفى .

ـ يبدو أن الأمر خطير يا أبا هدى !

ـ فعلا خطير .. خطير جدا .. لا مجال للحديث هنا

قال : شغلت قلبي .. أين سنتكلم ؟

ـ عندما نذهب بعد قليل لصلاة المغرب.. نمكث بعض الوقت في المسجد ، وسأحدثك بكل شيء .. إنني تعبان يا أبا مصطفى .

والتهى مسلم بمتابعة العمل ، وهو مشغول الفكر على شقيقه الذي يفترض أن تغمره السعادة بتخرج هدى وإكمالها جامعتها ، وكان الرجل محبا لأخيه الصغير فتضايق وتوتر لضيق عزام .

بعدما صليا سنة المغرب في الجامع الكبير المجاور لمتجرهما جلسا في زاوية من زوايا الجامع في أحد الأروقة .. فلما تمكنا من الجلوس همس مسلم : أخبرني يا أبا هدى على الذي يشغل مخك منذ الصباح؟

ـ كان من المفروض أن أكون سعيدا بإنهاء البنت جامعتها .. لابد أنك تذكر ذاك الشاب الذي كان يتعلم معها في الجامعة .. وجاءنا يوما خاطبا لها .

قال : أذكر أن ذلك كان قبل سنتين .. ولكني نسيت اسمه .. وأذكر أنك اعتذرت له ونصحته بأن يبحث عن بنت غيرها ..

ـ نعم ، وأمام إصرارها على الاقتران به .. أجلت الموضوع حتى إنهاء الجامعة .. وقبل أيام اتصل بي أخوه .. وذكرني بهذه الكلام .. فأخرته عدة أيام .. وبكل صراحة يا مسلم لن أزوج ابنتي لغريب وخاصة هذا الشاب .. ولولا كلامك وكلام بعض الأقارب ما درست هدى في جامعة .. والآن عليك أن تقنع حسنا بالزواج منها .

ـ حسن !! .. وهل تقبل هي ؟

رفع صوته غضبا وقال : يجب أن تقبل .

فقال مسلم : وأنا أقول أيضا يجب أن يقبل حسن .. متى سيكون الإعلان عن ذلك ؟

ـ اليوم الخميس .. وغدا الجمعة سيكون الإعلان عن الزواج ليلا بعد صلاة العشاء .. أنا لا يمكن أن أزوج وحيدتي لغريب .. فحسن أولى بها يا أبا مصطفى .. سيتزوجها ويسكن معي في البيت .. بيتي بيته .. وكل تكاليف ومصاريف العرس والمهر عندي يا مسلم .. أرجوك ولا كلمة .. المهم أن لا يرفض حسن .

ـ كيف يرفض حسن ؟! .. الليلة سأتكلم معه ـ إن شاء الله ـ وأنقل لك موافقته .. حسن شاب طيب ولين ..

ظهرت سعادة عزام فقال : أنا في انتظار ردك .. حتى أرفض هؤلاء الناس ـ وضحك قهرا ـ ابنتي تحب شابا ، وتريد إجباري على قبوله زوجا لها .. خبت إن قبلت .. نحن في فرنسا والغرب لما علمت هدى قرار والدها ، رفضت الزواج منه ومن غيره .. وهددت بالموت ، فاشتد غضب عزام عليها ، وكاد أن يهجم عليها ليضربها ، لولا تدخل زوجته ومنعه من فعل ذلك واتصل بشقيق الشاب الذي سبب له كل هذا التوتر والألم ، وأخبره برفضه زواج ابنته من شقيقه ، وترجاه أن يختفي شقيقه من حياتها .. وطلب عزام من شقيقه مسلم محمد تأجيل إعلان الخطبة لأيام .

وجاء شقيق الشاب بلال بشفعاء ، فأخبرهم الحاج عزام أنه قريبا سيعلن زواجها على ابن أخيه حسن مسلم ..وترجاهم مرة أخرى أن يصرفوا ابنهم عن طريق ابنته .. وصداقة الجامعة انتهت بانتهاء الجامعة .. وحذرهم من غضبه وسوء العاقبة .

امتنعت الفتاة عن الأكل أمام إصرار والدها على اقترانها بحسن .. وبعد أيام نقلت للمستشفى وحاول أخوالها بعد اطلاعهم على أمرها التدخل ، فأساء لهم الحاج عزام وطردهم من بيته .. وسعوا لدى حسن ليرفض هذا الزواج ؛ لأنه لن يسعد مع أنثى ترفضه وتكرهه ولا تريده زوجا فقال بهدوء : أنا لا رأي لي في هذا الزواج! .. أبي يريد ذلك ، وعمي يريد ذلك ..وأنتم أقنعوها

ببر أبيها في هذه القضية .. وليس عندي كلام آخر .

رغم أن هدى هي البنت الوحيدة للرجل رفض أشد الرفض أن تقترن من شاب عرفته أثناء دراستها في الجامعة ، ولما رأى رفض الفتاة للزواج من ابن أخيه حسن ، قال مهددا : إذا لم تقترني بحسن فلسوف أطلق أمك .

وأثار ذلك التهديد غضب الأم وأهلها ؛ ولكنه واجههم بقوله : لولا تسترها على ابنتها مع ذلك الشاب ما حصلت هذه الفضيحة .

أقسمت الأم بأنها لم تكن تعرف الشاب ، ولا تعرف بصحبته لابنتها إلا عندما جاء خاطبا ليدها قبل عامين .



زواج هدى

لما رأت هدى الخطر المحدق بأمها ، ورأت شدة أبيها الذي كان يدللها أحسن الدلال ، ويقدم لها كل الأشياء قبل معرفته لذاك الطالب بلال .. قبلت برفض زواجها منه ، وكذلك عدم الزواج من حسن .. قبل عزام الأمر على مضض ، وأجل زواج ابن شقيقه لبضعة شهور ؛ ليدبر الأمر كما أعلم شقيقه .

هدأت العاصفة لحين .. خلال هذه الأشهر اختفى السيد بلال من البلاد .. فقد هاجر لكندا في أمريكا الشمالية .. فلما علمت هدى بهذا الهروب أدركت أن الشاب استسلم ويئس منها .. حاولت أن تعرف عنوانه من إحدى شقيقاته .. فترجتها الشقيقة أن تبتعد عن شقيقها .. ولتبحث لها عن زوج غيره .. رغم جرح كرامتها بهذا الكلام سعت إلى معرفة العنوان من إخوته ولكنهم رفضوا التعاون وأخبروها أن والدها هدد بقتله إن لم يبتعد عنها .. وأن المشكلة محصورة بينها وبين أبيها .. وحاولت معهم مرة تلو مرة ، وتجد صدا ونصحا بنسيان بلال .. وكان أبوها أيضا يراجعها بالزواج من حسن ، فترفض وتقول : لا أريد الزواج كله لا من حسن ولا من غيره .

فيرد ساخطا :لابد من الزواج .. أحس بأني سأموت قريبا بسببك .. من ورائك يا هدى .. لابد من زواجك قبل موتي ..

وأمام توسلات الأم وبكائها ، وضغط أخوالها استسلمت هدى لرغبة أبيها .. وخلال أسابيع عقد القران ، وحصل الزواج .. ورحل حسن للحياة مع زوجه في قصر عمه الحاج عزام .. وكان الأب ربما أسعد الناس بهذا الزواج ، وكان حسن يقول لأم هدى : أنا أعلم أن هدى لا تحبني ولا ترغب بي زوجا ..ولا يمكن أن تحبني .. ولكنّ عمي أصر على زواجي منها ، ووافقه أبي .. وكان يرى علاقتها الغرامية بذاك الشاب إهانة لكرامته وثقته بها .. وإهانة لكل العائلة أيضا ، وقد كظم غيظه حتى تنهي جامعتها .. لا تغضبي مني وتكرهينني ، ولا هي يجب أن تغضب مني .. ها هي في النهاية أطاعت والديها .. أرجو أن لا تكرهيني أنت .

ـ لا حرج عليك يا ولدي .. أنا أعرف عمك أكثر منك ، عشرة عمر .. وقد وقع عليك الاختيار فأتمنى لك السعادة والسلامة ، وأرجو الله أن يغير قلبها نحوك .

لم يستطع حسن رغم بساطته وطيبته أن يستولي على قلب وعواطف هدى .. كانت تبغضه وتحتد عليه وتجرحه بالكلام .. وهي تعلم يقينا أن لا يد له بالزواج منها .. حتى لو رفضها لوجدوا قريبا غيره .. أبوها متعصب للزواج من بنات العائلة .. ويحتقر أي شاب أو شابة يتزوج من خارج بنات الأسرة .. مع أن أمها من عائلة غير عائلة أبيها .. ولكنه ذكر لها أن ذلك حدث في ظروف خاصة ، وأن العائلة عندما أراد الزواج لم يكن فيها فتاة صالحة للزواج كلهن كنّ صغيرات ..

مضت الحياة ؛ لأنها لا تتوقف ، ولا تؤثر فيها الحوادث صغيرة كانت أم كبيرة .. أنجبت هدى قبل إتمام السنة الأولى للزواج المولود الأول ، وكان طفلا جميلا سماه عزام عباسا ..

حسن كان مدرسا لمادة الفيزياء في مدرسة صلاح الدين الثانوية .. ولما تزوج هدى كان له سنة واحدة في المدرسة .. فهو يكبرها بشهور فقط وتخرج معها من الجامعة .. وهدى بعد استقرار زواجها رغبت بالعمل كمدرسة ، فلم يرفض حسن هذه الرغبة ، إنما جاء الرفض من أبيها فقال مقنعا لها: أتريدين العمل بعشرين دينارا ؟.. لك مني كل شهر خمسون دينارا .. البيت هو مكان المرأة .. لما أموت تعملين كما تشائين .

ولزمت الصمت ، ولما ولدت مرة أخرى حاولت مع أبيها مرة أخرى فرفض ، فعجبت لرفضه وتعجب للعداوة التي تراه يكنها لها وللعمل النسائي .. لقد نسي الحب الكبير الذي كان يخصها به .. هي تعلم عمق الجرح الذي تركه بلال في قلب أبيها لها وله .. كره جنس النساء من وراء تلك العلاقة .. حتى عداوته لها لم تظهر أيام الجامعة رغم الجفاء الذي كان يظهره لها أحيانا .. وصدمت من إصراره على الرفض والعناد ، فمرضت ومرض المولود الثاني ، ثم مات قبل أن يكمل ثلاثة أشهر .. فحزن عليه عزام وبكاه ؛ كأنه فلذة كبده .. حزن عليه أكثر من أمه هدى ومن تأثره بموته مرض هو ، وأدخل المشفى أياما .

كانت أم هدى تقف على الحياد ، وتجتهد على ذلك الحياد ، فكانت تراقب المشاهد بدون كلمة هنا أو هناك ، وتحث ابنتها على الصبر والرضا بقدرها ونصيبها .

كبر عباس وبلغ أربع سنوات ، ودخل في الخامسة عندما ولدت أمه أخته مريم ، وسماها بذلك الاسم الحاج عزام .. وقبل أن تتم شهرها الأول مرض جدها عزام ، وهلك على أثر عملية في القلب .. وكان يردد في ساعاته الأخيرة إذا زارته ابنته أنت السبب .. أنت السبب ويشير إليها فتنصرف باكية حزينة ، ومع حزنها وألمها من كلمات أبيها كانت تبغضه ولم تطلب منه أن يسامحها ويغفر لها .. وكان في انتظارها بعد موت أبيها مفاجأة قاسية ..وهي أن الأب لم يترك لها بعد الموت الشيء الكثير من الميراث بالنسبة لثروته .. فقد وجدوا أنه تنازل عن أغلب الأموال لحسن زوجها .. وكتب لعباس ومريم الكثير من الثروة ، وترك مبلغا باسم الزوجة ، وسجل القصر كله باسم حسن هبة من عمه لقبوله الزواج من ابنته .. حصلت هدى على خمسين ألف من ثروة أبيها .. وحصلت الأم ثمن الثروة التي ظلت وبقيت على اسم الحاج عزام .. سوى ما كتب على اسمها قبل موت الرجل .. وأخذت أمه أم مسلم التي تسكن مع مسلم سدس الثروة وورث أخوه مسلم باقي الثروة تعصيبا .



الطلاق

بعد انتهاء العزاء بأيام وقبل أن تقبض حصتها من ثروة أبيها طلبت هدى من حسن الطلاق ، فتعجب حسن من العجلة في طلبها الطلاق ، وإلا هذا كان متوقعا رغم وصية عمه ألا يفعل ذلك ، فقال لها متضايقا : كيف يكون ذلك ولحم أبيك لم يبرد ؟!.. أنا أعلم أنك قبلت بي رغم أنفك .. مكرهة .. وولدت لي ثلاثة ، ولم تقبلي بي زوجا ، ولم تطب صحبتي لك لليوم .. أنت لم تقدمي لي كأس شاي مرة واحدة من يدك .. الخادمة تطهو أو أمك .. فصاحت فيه ساخطة : لماذا قبلت بي ؟

ـ الآن تصيحين.. لماذا قبلت بك ؟!.. لمَ لم تصري على الرفض ؟

ـ أنا بنت !!

ـ بنت !! .. كلام فارغ .. أنا كنت على وشك طلب يد ابنة خالتي حسناء .. ولكن أبي أصر على الزواج منك لرغبة عمي عزام بهذا الزواج .. الطلاق لا يمكن ؛ لأنها رغبة عمي .. الهجر ممكن لزمت الصمت فهي قد سمعت من أمها بهذه الوصية .. ولما نقلت لها حصتها المالية حسب الشريعة الإسلامية بعد أشهر جددت الحديث حول طلاقها من حسن مسلم ، وسمعت نفس الرد ، فقالت لاستفزاز رجلها : كيف تعيش مع امرأة تبغضك وتكرهك ؟

ـ هذه المرأة أم الأطفال أم عباس ومريم .. تكرهين العشرة الزوجية .. فأنا مستعد لترك البيت لك .. اما الطلاق فإنه يقلق راحة عمي في قبره ..

صاحت هائجة : عمك ! عمك !.. عمك مجرم !

نهض قائما غاضبا وصاح فيها : عمي مجرم !! نسيت أنك ثلمت شرف أبيك .. أنت المجرمة .

دخلت أمها على صياحهم وسمعته يقول : ألم يوصك أبوك عندما وافق على تقديم أوراقك للجامعة احذري الشباب وقصص الحب ؟ ووعدته أنت بالمحافظة على شرفك وشرف العائلة ووعدته بعدم الوقوع في هذه القصة الفارغة ..

قالت الأم : ما هذا الكلام يا حسن ؟!

صاح فيها هي الأخرى قائلا : تصف عمي أبوها زوجك بالمجرم أرأيت مثل هذا العقوق ؟! تقول عنه مجرم ؛ لأنه زوجني منها .. أيقبل هذا يا سعيدة ؟ .. تريد الطلاق ولحم الحاج عزام لم يبرد بعد ..

قالت الأم جزعا : تريد الطلاق ؟!

صرخ وقد احمرت عيناه : من بعد العزاء وهي تطلب هذا ..

صاحت هدى : إني أكرهك .. طلقني .. وأبغض كل العائلة من أجلك وأجل أبي المجرم

صاح حسن : كل هذا من أجل شاب ضعيف .. قبض من أبيك بعض المال وتأشيرة هجرة فتخلى عنك سريعا ..

ـ هو أحسن منك .. وأنا أحبه .

لطمها على وجهها عدة صفعات ، وخرج من الغرفة ساخطا ناقما .

حاولت الأم أن تخفف من نقمتها وغضبها ، وحاولت إبعاد فكرة الطلاق من رأسها من أجل خاطر والدها ومن أجل الأولاد من أجل البنت الصغيرة ، فهاجت بعد هدوء وقالت : أنا لا يمكن أن أبقى على ذمته! ..أنا لا يمكن أن أبقى في السجن ..ذهب السجان الكبير .. وسأتخلص من السجان الصغير

قالت وهي تبكي : حسن ليس له دخل .. لو رفض حسن لأتى أبوك بعشرة غيره ..أبوك متعصب للعائلة والأسرة ..

ـ أريد الطلاق .. وبعد هذه اللطمة لن أجلس معه في دار

اتصلت الأم بإخوتها ، وتحدثوا مع والد حسن ، وطابت لهم فكرة الهجر ، ورأوها أفضل من الطلاق في الوقت الحاضر من أجل الرجل الميت .

هدى رفضت الحياة معهم إلا بالطلاق الكامل .. ولما رأى الشفعاء أن لا صلح بينهم ، ولم تنفع دعوات اصلاح ذات البين ، ولم ترق فكرة الهجر لهدى ، فذهب القوم لمحكمة شرعية ، وجرى الطلاق بعد خمس سنين من الزواج .

وظل حسن يحيا في القصر ـ فهو باسمه وملكه ، فقد تنازل له عمه عنه بعد ولادة عباس ـ ربما نكاية بهدى وزوجته .. ولكن رأينا أنه ترك لهنّ ثروة كبيرة في تلك السنوات .. وهدى بقيت فيه وبعدما هدأت زوبعة الطلاق أخذ السيد حسن السعي إلى زواج جديد ، وتزوج شقيقة الفتاة التي كانت ستكون زوجته أخت حسناء ، لولا دخول هدى على خط الزواج .. كانت الفتاة اسمها فائزة أخت حسناء .. فحسناء كانت قد تزوجت بعد زواج حسن بشهور وفائزة أحمد هي ابنة خالته ، وأمها قريبة لأبيه أيضا .. ولما تمت الخطبة .. بدأ الاستعداد للعرس.. وأجرى الأستاذ حسن بعض التحسينات في غرفة النوم .. .. ولما جهزت العروس تعين يوم الاحتفال بالزواج .

واعتذرت السيدة هدى من الذهاب لحضور حفلة العرس ..وتقرر أن تقضي بضعة أيام في منزل جدتها أم أمها .. وذهب الناس إلى صالة الحفل للاحتفال بزواج حسن وفائزة كعادة الناس وبعد رجوع العرسان للبيت بيومين أو ثلاثة اتصلت أم هدى ببيت أمها تطلب الحديث مع هدى ؛ لتطلب منها الرجوع للبيت .. بيت أبيها ..

فردت عليها أمها دهشة أن هدى رجعت للبيت ليلة العرس .. تركت أولادها عندها ، وقالت : سأبات في بيتي عند أمي .. وأوصتني على أولادها .

الهرب

كان آل الرّشاد منشغلين بالعرس ، وكانت هدى منشغلة بالاختفاء ، أقسمت الأم أمام العائلة بأنها لا تعلم من تدبير ابنتها شيئا ، ولا من أفكارها الرديئة شيئا ، فقامت الاتصالات والتحركات شرقا وغربا ، ثم وجدوا قصاصة ورقية في حجرتها تعلن فيها بأنها مهاجرة لكندا أو الولايات المتحدة ، وتطلب منهم عدم البحث عنها ، وأنها تبرأت من اسم العائلة إلى الأبد ولما اتصل أحد أقاربها باستعلامات المطار الدولي للمدينة أكد لهم سفرها في رحلة فرنسا ، وقد أصيب القوم بصدمة كبيرة ، وعاد عباس ومريم للحياة في قصر جدهم وأبيهم .

وكان الجميع يلوم هدى على فعلتها الشنيعة بترك أبنائها من أجل ذلك الرجل ، فقد ترك خروجها الخفي جرحا في كل أفراد عائلتها الأعمام والعمات والأخوال والخالات والأقارب .. حتى فكروا بإرسال شخص أو أكثر لجلبها للبلاد ؛ ولكنهم وجدوا الأمر معقدا ، وليس يسيرا فالحكومة الكندية لن تسمح لهم بأخذها عنوة ، ولسوف تكبر القصة ، وتشيع في وسائل الإعلام وتكبر الفضيحة ، فرضخوا للسلم والعافية ، وإن كان لديهم أمل كبير بندمها ، واكتشاف خطئها الكبير في حق نفسها والعائلة الكبيرة ؛ ولربما العودة للحياة معهم .

بكى عباس أياما على اختفاء أمه ، ثم تعود على غيابها شيئا فشيئا ونسيها ، وتعلق بجدته وأبيه وزوج أبيه .

دخل المدرسة وبعده بسنوات لحقت به مريم .. وكانت حياتهم تمضي رتيبة هادئة ، لا تخلو من منغصات الدنيا .. هذا وُلد .. هذا مات .. هذا تزوج .. هذا مرض .. ويأخذ الزمن دورته .. وسنة تلو أخرى وصل عباس لكلية الطب ؛ لتحقيق رغبة الحاج عزام الذي حدد له هذا الهدف يوم حمله بين يديه لأول مرة ، حين ولادته ، قال : هذا عباس سيكون طبيبا في العائلة .. وقد ترك له جده ثروة كبيرة لتحقيق هذا الحلم .. تخرج من كلية الطب ، وكان جرح أمه الهاربة من أجل رجل يحز في نفسه ويثير الشجون في قلبه وكيانه .. ويعجب من تخليها عنه وعن أخته ، وإن عذرها بالتخلي عن أبيه .. فهذا شأنها وحياتها الخاصة ..أما هو ومريم فلا عذر لها في ذلك

فيتألم كلما ذكر هذا الألم .. بل كان يتفوه بكلمات قاسية وجارحة في حقها .. وحق كل النساء ، وقبل أن تتخرج شقيقته كطبيبة مثله ماتت جدته سعيدة .. ثم مات جده مسلم والد أبيه في أقل من شهر .

وكلما حدثه أبوه حسن عن أهمية الزواج في حياة البشر يرفض الاسترسال في هذا الموضوع ، فيقول حسن : لا يجب أن تجعل من قصة أمك عقدة لرفض الزواج .. كانت رغبة جدك عزام ـ رحمه الله ـ رفض الزواج بتلك الطريقة .. ومن ذلك الإنسان .. وأصر على زواجي منها هو وأبي كان من العار عندهم أن تتزوج الفتاة من حبيب لها .. وكانت أمك تبغضني وأعي ذلك ؛ ولكن حكم العائلة والتقاليد لها دور في حياتنا .. فغلب على ظنّنا أنها ستنسى أيام الجامعة .. بعد الزواج وبعد ولادة عباس وأخته مريم .. ولكنها ركبت رأسها كما يقولون .. ورغم أن جدك طلب مني عدم طلاقها بعد موته طلقتها .. فأمام ضغط العائلة ونشوزها قبلت بالطلاق .. ثم خدعتنا بالقصة التي تعلمها ..فلا تدع هذه الأفكار والصور أن تهدم حياتك وتعقدها ، فليس كل النساء يهربن ويعشقن .. وأنا حسب علمي لم أقصر بالعناية بكم وجدكم فعل كل شيء من أجلكم .. وضع المال باسمك في البنك وديعة وقال إذا عاشت مريم ، فليعطها عباس مما كتبت له .. وترك بيتا باسمك، وأجرته تعود إليك وإلى مريم .. وزوجة أبيك لم تقصر معكم .. هي لن تكون مثل الأم بالتأكيد .. والجدة سعيدة احتضنتكم منذ ولدتم .. فهناك نساء طيبات ورائعات يا ولدي .. ففائزة اهتمت بكم كما اهتمت بإخوتك .. فضل .. ومحمد .. راضية .. وسناء .. وعزام .. وقريبا ستتخرج مريم ، وستتم خطبتها لابن أخي محمد الدكتور يوسف .. وهو صديقك ويكبرك بسنة واحدة .. يا ولدي شريكة العمر لابد منها .. وأما فكرة السفر للبحث عن أمك فهي فكرة رديئة ، فهي لابد أنها اقترنت بذلك الفاسد الذي غرر بها ، وهي التي اختارت حياتها بنفسها .. لقد صدف أن التقيت بأخيه الأكبر .. الذي جاء يوما طالبا ليدها أيام الجامعة ، فأقر لي بأن أخاه تزوج منها بعد طلاقها وهربها إليه في كندا .. وأنا لولا ضغط العائلة ما طلقتها ، كنت أريد هجرها ولكنهم خافوا أن تنتحر أو تهرب .. عرضت عليها أن

تبقى لكم ..

كان الدكتور عباس يسمع ذلك الكلام الذي يعرفه ويحفظه عن ظهر قلب .. وهو شارد الفكر فقال : أنا فكرت بالسفر إليها لعلي أستطيع الإتيان بها .. ولكن كما قلت فقد تزوجت ذاك الرجل الماكر .. ولها ذرية منه

ـ إذن علينا أن ننسى أمرها حتى تفوق ، وتعرف حق العائلة والأبناء .. فأسع لزوجة حسناء تقر عينك بها ..وتعينك على حياة الدنيا

تنهد عباس ربما ضجرا وقال : لا تشغل بالك يا أبي بزواجي .. أنا تعقدت حقيقة من النساء بسبب أمي ، وبسبب البنات التي شاهدتهن في الجامعة .. قدمت أوراقي للعمل في طب الجيش

ـ ولكن يا ابني لا غنى لنا عنهنّ رغم عوجهنّ .. فالزواج دين ، وسنة سيد المرسلين ، وأنت سيد العارفين .

قد سمع عباس قصة زواج أبيه وأمه عشرات المرات ، ولم يضع لوما على أبيه حسن ، وإنما كان الشاب يطيع رغبة أبيه وعمه .. وهو ما زال يذكر طيف أمه التي عاش معها أربع سنوات ونصف ..ويذكر ليلة هربها ؛ كأنه يراها اليوم .. وكلما يتذكر تلك الساعات الأخيرة يتمزق قلبه ألما وحزنا وأسفا .. اعتبرها قد خانت الأمومة ، الرسالة الحقيقية للأمهات .. أخذته ومريم بسيارة أجرة لبيت جدتها .. لقضاء يومين أو ثلاثة .. نزلوا من السيارة ، وسمعها تطلب من السائق الانتظار .. وقرعت باب الجدة ، وفتحت الخادم لهم ـ كان ابن الجدة خالها قد ذهب لحضور حفل زواج حسن مسلم ـ وقالت لجدتها من بوابة البيت احفظيهما حتى ارجع .. شاهدها عباس تركب السيارة ، ولوحت لهما بيدها ، ثم اختفت ، ودخلوا البيت حيث قدمت لهما الخادم الشراب والحلوى .

وما زالت يدها تتحرك أمامه مودعة لهما .. هذه الصورة ، وهذا المشهد ما زال عالقا في ذهنه ومخيلته .. ويتسأل : كيف هان عليها فراقنا ؟! لو كان موتا لهان الأمر .. هربت .. هربت من أجل رجل أحبته ..!!

أما شقيقته مريم فهي لا تتذكر شيئا ، كانت ابنة سنة تقريبا .

وكلما يتذكر رغبة والده بتزويجه يهيج ويتضايق ويصرخ في داخله لا زواج .. لا نساء .. النساء شر ثم يتذكر قول بعضهم في ذلك النساء شر لابد منه من وضع هذه العبارة الخالدة ؟!.. ويغرق متأملا صحة هذه الحكمة والعبارة .. شر لابد منه .. لابد من امرأة في النهاية .. ولكن صديقنا الدكتور زاهر قطي يرى غير ذلك .. يرى أن النساء من نعم الله الكبرى على الذكر .. آدم لم يعش في الجنة بدون أنثى .. فخلق الله له حواء .. ويقول النساء ذوات عقول ساذجة .. بسيطة .. لا يحببن التفكير المعقد ..عاطفتهن في عقولهن .. إذا أحبت شيئا كان هو الحياة والدنيا وإذا كرهت شيئا كان هو العذاب والجحيم

عندما يتذكر عبارات زاهر قطي في النساء يقول : هل هناك غاية من النساء غير الإنجاب ؟ .. هل حقا ما يتحدثون به عن المتعة الجنسية والحياة الجنسية ؟! أم خرافات تنتقل عبر الأجيال ، وأصبحت كأنها حقائق ؟.. هل الحيوانات تستمتع بالمعاشرة الجنسية ؟.. أم جماعها للإنجاب وبقاء الجنس والنوع .. هل يختلف الإنسان عنها ؟! .. وفي النهاية مهما فكرت وفلسفت الأمور يا عباس .. لابد من الزواج .. فليكن الزواج في النهاية

هَذَا جنَاهُ أَبِي عليَّ ... وَمَا جَنِيْتُ عَلَى أَحَدِ

ردد بيت الشاعر أبي العلاء مرات .. وقال : سألتحق بالجيش ثم أذهب للتخصص في جراحة القلب على نفقتهم في ألمانيا الغربية .. لعل انشغالي بالعلم والطب يندمل الجرح الذي يمرض قلبي .. هربت وتركت ولديها من أجل شهوة مع رجل .. حبيبها يا له من حب ! .. هل يستحق هذا الحبيب كل هذه التضحية ؟ النساء .. النساء مرض .. لقد سمعت الكثير من التعيير بسببها امرأة تترك أطفالها الصغار لأجل رجل.. يقولون هربت من أجل عشقيها .. عشقته !!..يا الله المرأة تترك الزوج من أجل أولادها .. ألم تفكر أمي بذلك ؟!.. إنها مجرمة ! .. إنها أمي !.. إنها أنانية !.. ألم تفكر بنا ؟ وما سيلحق بي وبمريم من فعلتها تلك ؟ لو ظلت على الطلاق لكان الأمر أهون .. رحماك يا الله .. أخطأت وأجرمت في حقنا !.. نحن في بلاد عربية .. العائلات لها

حقوقها وتقاليدها .. نحن لسنا في أوروبا وأمريكا .. حتى لو أساء رجل للعشيرة والحمولة بحماقة .. لظل الناس في رواية حكايته .. فما أزال أسمعهم يتندرون بحكايات أموات في مجالسهم .. فلان حرامي لص مواشي .. وفلانة تخون زوجها ..حتى لو ضحكوا في وجهك وراعوا مشاعرك .. فهم يتناقلون تلك القصص .. هدى عزام هربت لكندا من أجل صاحبها الذي عرفته في الجامعة .. تركت أولادها من أجله .. الناس .. ويحنا من الناس .. ألم يقل لي ذلك العجوز عندما عرفوه عليّ وابن من أنا أنت ابن تلك المرأة الهاربة إلى الغرب ؟ يا لها من لطمة! كدت أن أثور بوجه العجوز واطرحه أرضا ما ذنبي أنا ؟ هل قلت لها اهربي مع حبيبك وما ذنب مريم ؟!.. الحمد لله ان مريم ستتزوج ابن عمها يوسف .. فهم يعرفون قصة أمنا الهاربة ، ويعرف عقدتنا .. مسكينة مريم كم رأيتها تبكي وتبكي وهي تسمع قصة الهرب الشائن وتردد ألم تفكر فينا ؟ .. لماذا يحمل الأبناء خطأ الأجداد إن حسب ذلك خطأ ؟!

هل أخطأ جدي عزام بإجبارها على الزواج من أبي حسن ؟ أين يكمن الخطأ ؟ كيف يسمح لها الشيخ بالزواج من رجل التقطته في الجامعة والكلية ؟! .. لقد قبل الآلاف الخمسة والهجرة لكندا من جدي عزام ليختفي من حياتها .. إنه ثعبان .. لو اختفى من حياتها ما تورطت بالهرب إليه ظل خائنا يراسلها .. ألم يوجد بعد هربها بضع رسائل في حجرتها ؟ .. رغم تعهده وأخذه المال ظل خائنا .. كان أبي يعرف هذا ويصمت .. صحة الجد قد تعبت ، ولم تعد تتحمل أفعال هدى الصبيانية .. أفعال المراهقين .. حب .. هذا حب !.. أعطاني بعض الخطابات ذات مرة حتى لا أظلمه في يوم ما على طلاقها . وقال يا بني جرحت كرامتي ومشاعري .. ولكن من أجلكم ومن أجل جدكم غضضت الطرف ، وتجرعت كأس السم .. واحتفظت بهذه الخطابات حتى لا يقال يوما أنني اخترعتها لأبرر طلاقي منها .

طبيب في الجيش

تعاقد الطبيب عباس مع الطب العسكري ، وأخذ دورة عسكرية ابتدائية لمدة ثلاثة أشهر ، وأعطي رتبة عسكرية ثلاثة نجوم على كتفيه ، وستقوم الخدمة الطبية بإرساله لألمانيا الغربية لدراسة جراحة الدماغ والقلب أو أحدهما .. وألمانيا قد قسمت بعد هزيمة هتلر لدولتين شرقية تابعة للاتحاد السوفيتي ، وغربية تابعة لأوروبا والغرب .

وسعى حسن غير يائس لتزويجه قبل سفره للعمل في مستشفيات ألمانيا والتخصص الطبي فاعتذر ، وقال : اخترت الطب يا أبي على النساء .. خذ بالك من مريم ، فهي رقيقة المشاعر وتعاني مثلي من فعلة أمي .. لعل الجرح يندمل في قلوبنا مع الزمن .

ـ يا ولدي لا تزر وازرة وزر أخرى .

ـ ذاك عند الله سبحانه يا أبي !

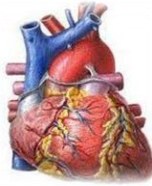
تنهد حسن حزنا ، وقال : سافر وتوكل على الله .. ولنكن على اتصال دائم .. فالغربة مرة .. وهذه آخر مرة أكلمك فيها عن الزواج.. فالزواج والحياة الزوجية في فترة الشباب هي من أجمل سنوات العمر.. والإنسان يضعف مع الوقت والتقدم في العمر ..

ـ سامحني يا أبي على مخالفتي لك في موضوع النساء .. رغم حواراتنا الكثيرة حوله لم استطع نسيان حادثة أمي .. سأدعوك لزيارة بلد هتلر برلين ..

أقام حسن وليمة كبيرة وليمة وداع لبكره ، دعا إليها إخوته وأبنائهم وأبناء عماته وأخوالهم ، ودعا إليها عباس بعض رفاقه الأطباء ، وكانت وليمة وداع يذكرها الأهل لسنوات ، وقد أدخلت هذه الوليمة السرور على قلبه ، ورأى العواطف الصادقة والمزيفة من الأقارب ؛ ولكنه سعد بوليمة أبيه ، وبعد أيام ركب الطائرة مسافرا إلى فرانكفورت في ألمانيا الغربية .

استقر عباس في مدينة ألمانية ، واستقر في سكن معدا سابقا لطلبة البعثات في عمارة واسعة وعديدة الطوابق ، وعين له مستشفى عسكريا كبيرا للعمل فيه والدراسة فيه .. وأخذ يتنقل بين عمليات الجراحة في قسم جراحة القلب وجراحة الدماغ في المستشفى والبيت .. واندمج في

هذه الحياة ، وأحيانا كثيرة كان يقضي الليل في المستشفى في أقسام الطوارئ ، وارتاح نفسيا أثناء ممارسة العمل .. وفي ساعات البيت يتحدث مع مريم والدكتور يوسف زوجها .. ويتصل بوالده وبعض الأصدقاء .. استعان بخادم عجوز تعنى بتنظيف وترتيب بيته أو قل شقته .. كان عليه أن يقضي أربع سنوات على الأقل لينال الاختصاص الطبي ، ويتخلل هذه السنوات إجازات سنوية .. فحياة الاختصاص ثقافة وعمل .. ندوات طبية .. والعمل في المستشفى .. وقد كان الطبيب مجتهدا ومتفوقا .



وبشكل عام يفضل بأن يكون التمويل للطبيب في ألمانيا أو أوروبا الغربية من جهة رسمية منحة أو بعثة ، وليس بتمويل شخصي خاصة لدرجة التخصص الطبي .. ويجب أن يكون الطالب مسجلا في النقابة في المقاطعة التي يعمل فيها .. وبعد مرور الوقت اللازم للتخصص وإنهاء كل الدورات النظرية والعملية المقررة ، واستيفاء شروط غرفة الأطباء الألمانية بالتخصص (تختلف بحسب التخصص) يقوم البروفيسور أو الطبيب المشرف على التخصص بكتابة تقرير نهائي شامل لكل المراحل التي مر بها الطالب ، ويزكى للتقدم لأداء امتحان التخصص ، ودون موافقته لا سبيل لأداء الامتحان .

وهناك من يجري الفحص المحلي والتجريبي لمعرفة القدرة النظرية له من قبل أخصائي المركز الذي يعمل فيه ، وتجرى دورات تدريبية في كل سنة في المراكز القلبية لمدة أسبوع للتحضير النظري قبل التقدم إلى الامتحانات ؛ لتقييم الطبيب قبل أن يتقدم إلى الفحص النهائي.

سوف يقوم طالب الاختصاص بكتابة طلب لتقديم امتحان التخصص مرفقا بتقرير المشرف على تخصصه لغرفة الأطباء التابع لها المستشفى ، وهناك جداول للامتحانات تقوم غرفة الأطباء بعد مراجعة الملف الخاص ، وتقرير المشرف على تخصصه بإعطاء المتقدم موعدا للتقدم لتقديم

الامتحان ودفع رسوم الفحص .

الامتحان هو عبارة عن مقابلة شفهية تتم بغرفة الأطباء ، ويتم من خلالها اختبار المتخصص من قبل أربعة أساتذة مختصين من مناطق مختلفة من ألمانيا أو من الأخصائيين المدعوين من خارج ألمانيا ، ولن يكون من ضمنهم أي ممتحن ممن تعمل معهم أو عملت عندهم .

يتم الفحص باللغة الألمانية ، ويدوم عادة من أربعين دقيقة إلى ساعة ، وبعد نهايته يطلب من المتقدم الانتظار خارجا لبعض الوقت ، ومن ثم ينادونه ليتلون عليه بروتوكول نتيجة الامتحان وأخذ شهادته الموقعة والمختومة من رئيس نقابة المقاطعة التي تنتمي إليها أو تقريرهم عن نقاط ضعفك والفترة الزمنية الإضافية التي تحتاجها لتقديم الامتحان من جديد

بعد الحصول على الشهادة يمكن طلب ترجمتها للغة الإنجليزية من قبل غرفة الأطباء المركزية مجانا بالإضافة إلى طلب تقيميها كأعلى شهادة يحصل عليها المتخصص في ألمانيا ومعادلتها حسب قانون الشهادات الأوربية فشهادة التخصص الألمانية أعلى من الزمالة البريطانية ، وتعادل شهادة إكمال التخصص التدريبي البريطانية ، تحصل على هذه الشهادة من غرفة الأطباء الألمانية ببرلين ومجانا .

ألمانيا هي الدولة الأولى في أوروبا التي تجرى فيها أكثر العمليات القلبية والإجراءات التشخيصية مثل القساطر { جمع قسطرة } أو إجراءات التوسيع بالبالون مقارنة مع جيرانها .

والمختص هو الطبيب الجراح العارف والمتمكن والملم نظريا وعمليا في المعالجة الجراحية لأمراض القلب المكتسبة والتشوهات الخلقية الولادية وأذيات القلب مع معالجة الأوعية المجاورة للقلب والأمراض الرئوية التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع المرض القلبي ، بالإضافة إلى معرفة الإجراءات التشخيصية للمريض القلبي ، ومتابعة المريض أثناء وبعد العمل الجراحي ، إن اختصاص جراحة القلب تغطي معالجة وتشخيص الأوعية الدموية المتواجدة في القفص الصدري فقط ، أما الأوعية خارج القفص الصدري فهي من اختصاص جراحين الأوعية. كان المشرفون على الطبيب عباس معجبين بقدراته ومهاراته ، وقد استوعب

الشاب اللغة الألمانية وخاصة الطبية بسرعة .. وعباس صاحب خلق حسن منذ بداية حياته .. وكان معقدا من البنات والنساء ؛ لذلك كان يتعامل مع الطبيبات والممرضات والمريضات بجدية ورسمية تامة .. لا يحب المزح مع الفتيات عاملات ومريضات .. وحتى التدخين بغض إليه صغيرا ، ولم يشربه إذا صح هذا التعبير .. ألا وهو قولنا شرب الدخان .. لعلهم قاسوه على شرب الخمرة والكحول . كان عباس من هواة المطالعة وبشغف مشهود منذ نعومة أظفاره .. ولعب كرة القدم في أول سنوات الدراسة ؛ لأن هذه اللعبة بدأت تغزو العالم بجمع مكوناته ، وشاعت في المدارس الذكورية ، وقد تعرض لحادث خلال ممارستها ، ثم هجرها بعد شفائه من الكسر الذي أصابه .. وكان يهوى قراءة كتب الفلسفة والفكر والعقائد .. وكان يكره الاختلاط بالجنس الآخر ، ويتجنبه قدر الإمكان .

وكذلك السهرات كان لا يحب الإكثار منها ، وإذا حضرها كان مستمعا فحسب .. فإذا سمع بعض الأصدقاء يصفه بالمعقد .. فيقابله بابتسامة .. كان يلعب كرة الطاولة في الجامعة .. كان مغرما بالعزلة .. بعدما ارتاح للعمل والاختصاص في ألمانيا طلب من والده وشقيقته مريم زيارته والسياحة في بلاد الألمان والجرمان .

اعتذرت مريم وزوجها يوسف لشقيقها عن السفر ، وسافر والدها حسن لمدينة فرانكفورت واستقبله عباس في المطار ، واستقل وإياه سيارة تكسي إلى شقته .

وبعد استراحة لبضع ساعات خرجا للعشاء في أحد المطاعم التي يتردد عليها عباس ، وتجولا في أحد الأسواق القريبة من المطعم ، ثم عادوا للشقة .. حيث أعدت لهم الخادم العجوز القهوة بالحليب .

فقال حسن : أنا سعيد بسعادتك يا عباس العزيز.. شقتك واسعة رغم أن العائلات الألمانية صغيرة وقليلة العدد .. لا يحبون الأولاد الكثر مثلنا نحن الشرقيين .. طفل طفلان فحسب .

ـ الغالب يفعل ذلك ، وهناك عائلات تحب المواليد .. وتشجعهم الدولة أو المقاطعات على الإكثار من المواليد .. لقد عالجت نساء مريضات بالقلب ويحببن الإنجاب كنساء المسلمين ..

والدولة تكفل المواليد بالرعاية والحضانة .. لتشجيع الولادات .. ألمانيا كما تعلم يا أبي خاضت في مطلع القرن العشرين حربين عالميتين .. وفقدت الكثير الكثير من أبنائها ، ولكنهم شعب قوي .. فنهض اقتصادهم وتطورهم بسرعة وعزيمة قوية .. والنساء لهنّ دور كبير بعد الحرب في بناء ألمانيا الجديدة .. وصناعة ألمانيا قوة اقتصادية كبيرة .. رغم بدايتها من الصفر لكن العقول بقيت وعمرت .. فأنا معجب بالشعب الألماني من أيام المدرسة الإعدادية حيث درسنا عن التاريخ الأوروبي .. فهم ينافسون الدول المنتصرة في الحرب الكونية .. لقد كانت الهزيمة حافزا كبيرا لهم للظهور على المسرح العالمي ، ومثلهم اليابان .. نحن العرب رغم كل الإمكانيات المادية المتوفرة في بلادنا ما زال تطورنا ضعيفا ضئيلا .. ألمانيا تصنع الدبابات والطائرات والسفن والصواريخ والغواصات .. علاقة ألمانيا بأمريكا جيدة .. وللأمريكان قواعد عسكرية هنا في ألمانيا منذ انتهاء الحرب الكونية الثانية .

ـ آباؤنا كانوا معجبين بهتلر والنازيين .. وكانوا يحلمون بأن تنتصر ألمانيا على الحلفاء .. ويساعدونا في الاستقلال والتحرر من القبضة الانجليزية .. وهزمت ألمانيا وظهرت دولة إسرائيل ..{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}

لما صمت حسن قال عباس : سمعت أنك تقاعدت يا أبي ؟

ـ أنا أنهيت خدماتي مع الحكومة بعد سفرك بسنة ..وأخوك فضل سيتزوج صيف هذا العام إن شاء الله تعالى ..

ـ هل أنهى الجامعة ؟

قال : على وشك التخرج .. أختي أم مسلم تريده لابنتها .. ابنتها تخرجت من الجامعة ببكالوريوس علوم ..

ـ على بركة الله .. نفس السن هما !

ـ لا ، فضل أكبر منها ، إنما تأخر سنة في الدراسة عندما مرض ، كما تذكر .. مريم اشتغلت في مستشفى خاص .. وأكيد أخبرتك بذلك ؛ لأنها تقول إنها تتصل بك دائما ..

تنهد عباس للحظات وأجاب بحرقة : إننا نخشى الأقارب من فعل أمنا .. فأنا سعيد بزواج مريم من يوسف .. فهو شاب نشيط وصديق عزيز لي .

قال : لا أحد يستطيع لومكم .. بل هم يشفقون أو كانوا يشفقون عليكم .. وأمكم أسأت للجميع .. هي لو اتصلت به ، وطالبته بالعودة ليتزوجها بين أهلها ، لا أحد سيعترض خاصة بعد موت عمي عزام ، قد يعترض بعضهم شكليا .. من يحرم الزواج المحترم ؟! .. اختارت طريقة سيئة لفرض الأمر الواقع .. أصلحها الله يا ولدي ..

قال عباس بحزن يشبه البكاء : للأسف كنت أشعر بالنقص والهزيمة عندما أجتمع بالأقارب

ـ أنت صنعت هذا الخوف .. فليست هي أول امرأة في العالم تفعل هذا .. ولا أحد مسؤول عن غيره إذا بلغ العقل والبدن .. المرء يتحمل مسؤولية تصرفاته وأخطائه .

ـ رغم اندماجي الشديد في العمل والعلاجات .. أحيانا أعيش مع صفحات الماضي .. وإساءة الإنسان لغيره حتى لو لم يقصد ذلك سيئة وجارحة للأحاسيس والعاطفة .. وأصل يا أبي إلى القول لو أنها ماتت لكان ذلك خيرا لنا .. أما تتركنا من أجل شهوة وعاطفة فهذا الذي يحز في النفس ويقلقها .. لليوم لم استطع النسيان .

قال حسن مشفقا ومتألما: كم أود لو تنسى هذه القصة !! لتحلو لك الحياة وتفكر بالأبوة والذرية الصالحة .. الحياة مليئة بالقصص والمآسي .. كان جدك عزام متعصبا للتقاليد والأسرة كان شيئا مستهجنا تلك الأيام .. أن يرى ابنته الوحيدة التي بذل الغالي والرخيص من أجلها تأتيه بعريس من الجامعة .. أما اليوم فيستسيغ الناس مثل هذا الزواج .. التقاليد تتحول وتتغير فلسفة الناس في بعض العادات تتغير .. فاليوم نسمع أن فلانا من الناس تزوج فتاة تدرس معه فتاة تشتغل معه .. فلذلك بدأت تظهر العنوسة في مجتمعاتنا ، وزاد سن الزواج لدى الجنسين .. فكانت صدمة لجدك أن تأتيه ابنته بعريس لها .. فرفضه بشدة وهجّره من البلد .. وفعله كان مقبولا من الناس والعائلة يا عباس .. وشاء الله أن تلدكم أمكم من صلبي أنا.. أدوات منع الحمل لم تكن شائعة كشيوعها اليوم .. كان عمي يرى الأيام دواء للنكبات والمشاكل .. وأمك

أصرت على الطلاق رفضت الهجر .. وتدخل أخوالها خشية أن تحرق نفسها أو تتجرع سما .. أو الهرب .. فاستسلمت لرغبتهم .. قصص الحياة كثيرة .. والعبرة في الذكرى .. والذكرى لا يجب أن تدمر حياتنا ..ونظل نتجرع مرارتها . تنهد الشاب السامع الصامت وقال : ليتني أنسى لقد حملتني الهم منذ الصغر .. لماذا هربت أمك ؟ .. سؤال قاتل ..

ـ قلت لك يا عباس تزوج دعنا نزوجك .. مع الأسرة والأطفال ستنسى .. ستنسى .. أطفال تهتم بهم طعاما ولعبا ومدرسة .. ستنسى ما حملت من غم وهم .. فأنت في مهنة تريك مآسي البشر وآلام الناس .. الغني والفقير .. كيف يبكون ؟ وكيف يضحكون ؟ من يموت مريضهم يبكون ! .. من يشفى مريضهم يضحكون ويسرون ولو إلى حين .. عشرات يتزوجون ولا يوفقون في الزواج .. فسجلات المحاكم الشرعية تؤكد حالات الطلاق الكثيرة أن يظل الإنسان حبيس نفسه فسيدمر حياته كلها .. الأبوة حلوة يا ولدي .

أمضى الرجلان سهرة يقلبان فيها جروح الماضي وآمال الغد ، وكيف النجاة منها بعد مرور كل هذه السنين ؟

أم عباس



ذات ليلة عاد عباس بوالده من زيارة معرض طبي في صالة مشهورة في المدينة.. عرضت الخادم عليهما الطعام ، فأثنى عليها عباس ، وأعلمها بأنهم أكلا في أحد المطاعم ، وطلب منها صنع الشاي لهما ، وجلسا في غرفة المعيشة ، وقدمت لهما الخادم أطايب الفاكهة ..وأخذا يتحدثان عن مشاكل الشرق الأوسط وحرب لبنان ، ثم قال حسن : اقترب موعد سفري .. اليوم أكدت حجزي .. وأريد شراء بعض الهدايا للناس في الوطن .. أنا أعرف أنك غير ماهر في ذلك رغم أن جديك كانا من كبار التجار .. لكن دلني على سوق مهم في هذه البلدة .

قال : سأفعل .. وسأشتري هدية خاصة لمريم وزوجها يوسف ، ولأمي فائزة أم فضل .

رن جرس الباب ، فدهشا ممن يطرق عليهما البيت في الليل، وإن كان في أوله ، وجاءت الخادم تقول والاستغراب باد عليها : امرأة تريد الحديث معك يا سيد عباس !

ـ امرأة .. وما اسمها ؟!

ـ رفضت ذكر اسمها ، وهي مصرة على الدخول .. فالتفت عباس لوالده وقال : عجيب ليس لي صديقات من الجنس الآخر .. لا طبيبات ولا ممرضات !

قال حسن : دعيها تدخل .

وأشار عباس لها بالسماح لها بالدخول ، وخرج لصالة البيت ليرى المرأة ، ولما اجتازت البهو وقفت ، ولما رآها حسن هتفت هي استغرابا : حسن !

فحدق فيها دهشة هو الآخر وهمس : هدى عزام !

ونظر حسن لابنه وقال : هذه أمك يا عباس !

صاح عباس الذي تبع والده خارجا من غرفة المعيشة مذهولا : أمي .. هذه أمي !! وكان يشير إليها بيده مستنكرا .

فقالت بقوة : نعم ، أنا أمك يا عباس !

لم يتقدم نحوها ، وهي جمدت مكانها ، فقال حسن : سلم يا ولدي على أمك .

فقالت : لم أكن أعلم أنك هنا يا حسن .. عباس أنا أمك .

فقال الشاب المذهول وهو يشير إليها بسبابته : أنت أمي ؟! أنت أمي ؟! ولماذا جئت ؟!

فقال حسن مستغربا : ما هذا السؤال يا عباس ؟!

تقدمت هدى منه وسلمت عليه ، وحاولت احتضانه ، فدفعها برفق ، وقال بحدة خفيفة : بعد أكثر من عشرين سنة تذكرت ابنك عباسا .. أن لك ولدا اسمه عباس .. ما ذنب عباس ومريم

ـ هكذا تستقبل أمك يا عباس .. لم يحسن حسن تربيتك .

صمت حسن لم يرد على استفزازها رغم الألم الذي عصر قلبه ، فقال عباس بحدة أشد من الأول : أبي أحسن منك كثيرا ! .. أنا لا أشعر بأي ميل نحوك .. لم أحبك يوما ، ولا أتصور أن أحبك في يوم ما .. ولم أشتاق لك لحظة .. تأخرت يا أمي بالمجيء .

ـ أتريدني أن أنصرف ؟

ـ سيان عندي

قال حسن متدخلا : لا ، امكثي سيهدأ عباس .. ولكن كيف عرفت أنه هنا في هذه الشقة ؟!

ـ كيف حالك يا حسن ؟

ابتسم وقال : دعيك من حالي ..لابد أن أقارب زوجك ينقلون لك أخبار عباس وآل الرّشاد .

فقالت : هو ما تقول .

ـ أنا لم أحرمك من أولادك يا هدى .. أنت حرمت نفسك منهم .. وأنت التي هجرتنا .. رسالة برقية لم نر منك .

صاحت محتجة : حسن .. أنا ما زلت أكرهك .

ـ اكرهيني كما شئت .. عباس سأدخل حجرتي .. تحدث مع أمك ، تعرف عليها

فصاح عباس في وجهها : أرجوك أن تنصرفي .. أمي التي ولدتني ماتت .. أنا لا أحبك .. أنا أبغضك .

فقالت : هكذا ربوك وعلموك .. علموك بغضي .

ـ أنت بغضتيني لنفسك .. أم تترك صغارها لقضاء شهوة في حضن رجل .. مهما كان هذا الرجل .. الحشرة لا تتخلى عن أن بيوضها .. أبي قبل طلاقك رغم وصية أبيك .. ولكنك أنت رميتنا من أجل حبيبك وهواك .. من أجل صديقك .. من أجل شهوتك .

صرخت : عباس .. أرغموني على الزواج من أبيك .

ـ لا يوجد إرغام .. أنت مأساتي يا من كنت أمي .. أرجوك أن تنصرفي .. إني متعب لم أكن مستعدا لهذا اللقاء .. تهربين منا .. مني ومن مريم .. أنت لما هربت لم تكوني على ذمة أبي .. أكرهك !

قالت : سمموك عليّ .

ـ لم يسممني أحد .. أفعالك الدنيئة هي التي سممتني .. لبسنا العار من فعلتك الشنيعة .. خزيتينا أمام العائلة والناس .. أنت زرعت فيّ صورة مؤلمة للأمهات .. بعتنا من أجل شاب طماع .. شاب قبض المال من أبيك ليختفي من حياتك .. ثم نكص على عقبه .. خائن!

ـ عباس لا تسيء لزوج أمك والد إخوتك .. أنا مظلومة ، هم رفضوا زواجنا .

ـ أرجوك الخروج .. أنا لا أم لي .. ماتت في قلبي ، وإن كانت تمشي على الأرض .

ـ ألا تريد معانقة أمك وتقبلها ؟

صاح سخطا : أنت أم ؟! أي أم أنت ؟!

ـ أمك التي حملتك في بطنها شهورا ، واحتضنتك سنوات .

ضحك بسخرية وقال : ثم رمتني عند أقاربها ، وهربت للقاء الحبيب الخائن .. أمي التي قبلت بأبي زوجا ، ولما مات أبوها أجبرته على طلاقها .. اسمعي أنا أعرف تفاصيل حياتك .. أمي التي كانت تتراسل مع حبيبها وهي على ذمة رجل ، وتفعل ذلك من وراء زوجها .

صرخت بشدة : عباس !!

ـ عباس يعرف كل الخزي .. أين احترام خاطر أبيك وزوجك ؟.. أين التضحية من أجل خاطر

الأبناء ؟! .. أنت جنيت علينا .. دمرت حياتنا

ـ ما أقسى كلامك !

قال : قلبي مليء عليك .

ـ أحبك رغم كل هذا الكلام الجارح .

ـ دعيني من كذبك .. الحب تضحية ليس كلاما ..

ـ ألا تريد أن تتعرف على أخويك وزوج أمك ؟

قال هازئا : زوج أمي .. صديق أمي.. أجننت ؟ وهل مات أبي لأفرح بزواجك .

ـ سأغادرك الآن .. جئت من كندا من أجلك ، من أجل رؤيتك يا عباس

ـ لو لم أجئ إلى ألمانيا ما فكرت برؤيتي !

أغلقت الخادم باب الشقة بعد انصراف هدى ، وخرج حسن من حجرته ، وظل صامتا حتى وصل لعباس الذي ما زال قائما يتابع خطوات انصراف أمه بذهول ، وضع يده على كتفه برفق وهمس : عباس .. عباس

التفت إليه عباس منتفضا : ذهبت !

ـ نعم ، ذهبت .. ثم تنحنح وتابع قوله : لم تحسن استقبالها يا عباس إنها أمك وستبقى أمك .

قال بشروده : هذه هي أمي يا أبي! .. التي ولدتني قبل أكثر من ربع قرن .. أمي .. هل تحبني أمي يا أبي ؟!

ـ بالتأكيد أنها تحبك .. إنها أم .

ـ لا ، لا .. إنها تحب ذاك الرجل صديقها رفيق الجامعة .. الذي سافرت إليه وتخلت عنا .. إنها تحبه .. الأم تتخلى عن زوجها من أجل أبنائها .. لو كانت تحبنا يا أبي ما تركتك من أجلنا نحن أنا ومريم .. لظلت ، وبقيت معنا ..

قال حسن مخففا من الضيق الذي أصاب عباسا : بغض النظر عن كل الخواطر السوداء في ذهنك فهي أمك .. والدين عندنا يعظم الأم .. الأم لها حق كبير على الابن ..

وقال مجيبا بشرود في تلك الدقائق التي رأى فيها أمه : ونحن أليس لنا حق ؟

ـ لك حق .. حق الحمل والحياة والحضانة والتربية .. ولكن إذا لم يقم الأب أو الأم بهذا الحق لا يعني أن يذهب حق الأب والأم .. اسمع يا ولدي عليك أن تحسن استقبالها لأنها ستعود .. وهي تخاف من العودة لبلادنا للأفكار السيئة الشائعة في بلادنا عن الشرف والدم والعصبية .. فهي ربما تظن أننا سنفعل بها سوءا ؛ لأنها هربت وعصت الأسرة الكبيرة .. أما هنا فقوانين هذه البلاد يزعمون أنها تراعي حق النسوان أكثر من بلاد العرب والإسلام .. فديننا دين البر والوفاء للأم والبنت والشيخ الكبير .. ولسنا بحاجة لعيد الأم والأب .

لما لم يرد عباس تابع حسن الكلام : أنا مسافر بعد يومين ـ إن شاء الله تعالى ـ فأرجوك أن تحسن استقبالها ..فهي ابنة عم أبيك وابنة الحاج عزام جدك الفاضل .. اغفر لها يا عباس .. تعرف على الأخوة ، وربما تعود وهم بصحبتها .. هم أخوتك قدرا .. الإنسان لا يختار أباه ، ولا أمه ولا عائلته ولا بلده .. لا ضير من التعرف عليهم .. إنما هي سويعات ، وكل ينصرف لموطنه وعمله فهم أخوتك شئت أم أبيت .. وخذ بالك من عملك .

جلس الرجلان وقال عباس : أنت قوي يا أبي ! .. لا تحقد عليها .. ألا تكرهها ؟!

ابتسم حسن وطلب من الخادم صنع القهوة لهما وقال لولده بتمهل : ليس الأمر هكذا يا عباس يا عزيزي .. أنا لم أحبها يوما كزوج وحبيب .. حاولت ذلك ولم أنجح .. إنها كانت قاسية معي لم تفتح لي قلبها أبدا .. أنا كنت حقيقة لأمك مجرد زوج كرغبة أبي وعمي .. ومع ذلك صبرت لم أتزوج عليها .. ولم أفكر بذلك مع أن جدك الحاج عزام رغبني بذلك ، فقد أدرك كرهها الشديد لي ؛ لكني احترمت تضحيته ، وراعيت الجرح الذي سببته له .. وهي طول مدة زواجنا كانت تثيرني وتحثني على الطلاق ، وحتى عندما مرض جدك ذكرت ذلك ، وعند موته كررت الطلب .. كانت تكثر من قول إني أبغضك .. كيف تعيش مع امرأة لا تحبك ؟ تستفزني لأطلقها الحب ليس الأساس الذي تقوم عليه الزوجية .. ربما يكون الزواج مصلحة مالية .. طمع .. لكن إذا زينت الحياة بالحب فهذا يضيف السعادة والبهاء للعلاقات الزوجية .. وقد يأتي الحب

بعد الزواج ، وهذا أفضل من حب قبل الزواج .. وقصص فشل الزواج بعد حب كثيرة ..لأن أيام الحب ليست كأيام الحياة الزوجية .. مسؤولية وبيت وطعام وإنفاق .. فقصصه متكررة وفي كل المجتمعات .. وهذه المحبة أو المحب لو مات أحدهم .. سيبحث كل منهم عن حب جديد هكذا الحياة .. وفي النهاية هدى ابنة عمي .. رحم لي .. عليّ صلتها والإحسان إليها .. وهي أمكم ، كرهنا تصرفاتها ؛ ولكني لا أحقد على شخصها وذاتها .. رغم العار الذي سببته للأسرة والعائلة .. تظل قريبتنا وأمك وأم مريم .. الإنسان يضطر يا ولدي كثيرا أن يعيش مع خصومه وأعدائه ومبغضيه .. لا يوجد المجتمع المثالي النابض بالحب الكامل .. فأوصيك يا عباس أن تحسن المعاملة معها رغم فعلتها القبيحة في حقك وحق مريم وحق أبيها رحمه الله .

كان عباس يسمع وهو مستغرب من كلام والده في حق أمه .. كان يظن لو تمكن أبوه من أمه لخنقها .. لذلك لما صمت الأب ، قال عباس بتأنٍ : إنك أب مثالي .. كنت أتخيل لو أنك قبضت على عنق أمي لخنقتها .. من الألفاظ التي كانت تخرج منك أحيانا تجاهها .

تبسم حسن وأجاب : يا ولدي .. أنا ابن العائلة .. ونحن قوم نحيا على سمعتنا وشرفنا .. قد نتقاتل على شيء تافه من أجل الكرامة والشرف .. وهي أشياء معنوية .. لكن لها قيمة في نفوسنا وأنا لم أسيء لأمك وهي على ذمتي وتحت مسؤوليتي .. راعيت أنها قبلت بي مكرهة مرغمة .. كانت تعاملني باحتقار ؛ كأنني أنا فرضت نفسي عليها .. وكانت تجرح مشاعري بألفاظها المنتقاة.. تفعل ذلك لأغضب وأثور وأطلق .. كانت تنسى أني تزوجتها طاعة للكبار ولحبي للحاج عزام .. فهو الذي اختارني دون أفراد العائلة صهرا له .. فأصبر وأتحمل .. كما نصبر ونتحمل التلاميذ في المدرسة .. في البيت صبر وفي المدرسة صبر ..أمك يا عباس كأس شاي لم تصنعه لي أو تقدمه لي .. كانت الخادمة تصنعه وتقدمه لي أو جدتك أم هدى ـ رحمها الله ـ تقدمه لي .. كانت تجلس معنا على مائدة الطعام خشية وحياء من أبيها .. كنا نعيش كعائلة واحدة .. الخلاصة يا ابني الحياة تجارب ومدرسة عملية .. فأحسن لأمك ديانة مهما أسأت وقصرت في واجباتها .. أحسن إليها ليس لأنها أمك فحسب ، بل لأنها ابنة جدك عزام الذي أحبك كثيرا

كأنك ابنه هو ..وفرح لمولدك فرحا كبيرا .. كان معتقدا أن مولدك سيصحح الأمور في البيت ويذهب النكد ، ويعيد هدى لصوابها وحياتها المرحة ، وتنسى أحلام اليقظة .. ولما رأى الأمور على غير ما يشتهي .. كتب باسمك الكثير من الأموال .. وأحسن إليها ؛ لأنها كانت زوجة لأبيك .

عادت الأم بعد أيام تطرق الباب ، وأخبرته الخادمة أن المرأة التي جاءت من أيام تريد الدخول وكان عباس تلك الليلة وحده ـ لقد سافر والده من حيث أتى ـ فأذن للخادم بالسماح بدخولها وكان مرتبكا فلبس روب المنزل ، وخرج لاستقبالها ، وكانت تجلس على مقعد في صالة البيت حيث يستقبل الضيوف ، فنهضت تسلم على ابنها ، فسلم عليها ببرود ، وحاولت معانقته فردها وقال : تفضلي بالجلوس يا أم عباس ، وجلس قبالتها .

وقالت وهي تجلس مرة أخرى ، وكلها ضيق من برودة الاستقبال: أبوك هنا ؟!

ـ سافر

ـ معي ناس

انتصب قائما وقال : من ؟!

قالت : اجلس .. أخواك

ـ فقط .

ـ وزوجي .. إنه يريد أن يتعرف عليك .

صاح غضبا وضيقا : لست محتاجا لهذه المعرفة .. أستطيع أن أرى أبناءك فقط .. أما زوجك فإني أبغضه للغاية .

ـ إنه زوجي والد إخوتك

ـ أرجوك ! .. أنا أراه وحشا غادرا منافقا خائنا .

ـ والد إخوتك وحش !!

فصاح هائجا : بل هو وغد حقير .

ازداد اضطرابها ، وقالت : ألا ترى أنك تقسو على أمك ؟

رد بكره بين فقال : أمي التي رمتني طفلا .. أهذه أم ؟! ورمت أختي وهي ابنة سنة ، لم تكمل رضاعتها.. أهذه أم ؟!.. هل أنت أم ؟!

ـ اجلس .. إنك تطردني بهذا التجريح

ـ لا أحبك أبدا .. لم أحبك يوما .. هل أنا صادق بعدم حبك أم أمثل وأتصنع ؟.. صورتك في عقلي سيئة سلبية .. أم سيئة .

ـ أعرف أنهم شوهوني لديك ولدى أختك .

ضحك ضحكة قصيرة مغتصبة وقال : الأمر لا يحتاج إلى تشويه .. أنت تخليت عنا من أجل ذلك اللعين .

ـ الأولاد في الشارع ينتظرون الأذن في الدخول

ـ يدخلون إلا فارس الحب ، لا أسمح له بدخول بيتي .

ـ إنه مثل أبيك .

صاح محتدا ومحتجا : مثل أبي! .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. أبي لا مثيل له في الدنيا .. أبي تقارنيه بزوجك الشريف النظيف

قالت بغيظ: سأنصرف إذا لم يدخل بلال زوجي الحبيب

ضحك وقال ساخرا : الحبيب يا له من حبيب ! .. افعلي ما تشائين ، لا يهمني انصرافك .. ليس لديّ عاطفة إليك .. أنت جئت كما زعمت للتتعرفي عليّ .. وها نحن تعارفنا .. ليت هذا التعارف كان في بلدنا وليس هنا

ـ تمنيت ذلك

ـ وما يمنعك ؟ أخائفة من القتل لغسل العار ؟ قومك لا يفعلون ذلك رغم الفعلة التي فعلتيها

ـ أتريد محاسبة أمك ؟

ـ لا ، إنما أذكرك بأنك لم تحبيني يوما ؛ لأنني ابن السيد حسن مسلم .. أمي التي كرهت ولادتي

وتمنت في قرارة نفسها لو أني مت كأخي الذي مات .

ـ ما أقسى قلبك يا عباس !

قال : عجيب أمرك ، أنا قاسي القلب ..!! هل أنا التي تخلت عن أطفالها لتهرب منهم ؟

نهضت قائمة تقول : إلى اللقاء .. بما أنك لا ترغب باستقبال زوجي .. فلا داعي للبقاء هنا .

ـ وأنا لولا وصية أبي باستقبالك لما فتحت لك الباب .. أنا لا أريد أن أعرفك ، لا يمكن نسيان عشرين سنة من الحياة بابتسامة وكلمة .. عشرون سنة قضيتها بغير أم .. دون أم .. لو كانت ميتة لكانت ذكراها طيبة في قلبي .. لكانت رائعة وجميلة في حياتي .. أنا بغضت كل النساء من أجلك .. رفضت الزواج وهجرته من أجل فعلتك الشنيعة .. فعمري ثلاثون سنة لا زوجة ولا ولد

قالت بشك : بسببي !!

صاح بحدة : نعم ، بسببك كرهت الفتيات

ـ لقد حشى القوم رأسك عليّ .. لم يحدثوك عن الظلم والطغيان اللذين مارسوهما عليّ .. لم يخبروك أنهم فرضوا أباك عليّ زوجا بالقوة والغصب والعدوان

ـ كذب .. وما ذنب حسن ؟!

ـ لماذا لم يرفض أبوك حسن ؟

ـ ولماذا لم ترفضي أنت ؟ هل يعصي حسن والده وعمه حتى لا يتزوجك ؟! وحتى ولو فعل سيأتي أبوك بغيره .. هل يعجز والدك الثري بأن يأت بزوج آخر.. حسن المظلوم ليس أنت .. حسن اجبر على الزواج منك .. وحسن لم يتخل عنا من أجل عيون امرأة حسناء .. حسن رفض الزواج عليك في حياة أبيك ؛ لأنه يحترم ويقدر الأهل العم والأب .. لا تشتكي الظلم تركتينا عند الجدة وهربت .. هربت لحبيبك .. أين الحب لنا ؟

قالت مدافعة عن هربها : أحببت بلالا قبل أن أتعرف على أبيك كزوج

ـ ما ذنب أبي !!

قالت : كان عليه أن يرفض الزواج من فتاة لا تريده .

ـ عدت للرفض ، ولماذا يرفض ؟! ألست ابنة عمه ؟ وأبوك اختاره دون غيره زوجا لك.. وأعطاه الكثير من المال حتى لا يحس بالغبن ..

ـ قصدك اشتراه

ـ والحبيب أخذ الآلاف وتأشيرة الهجرة ..أموال أبيك وخان العهد .. ظل يكتب لك رسائل الهوى والغرام .. أعرف كل شيء يا سيدتي .. ما دام لك محبا لماذا قبل الجبان بالهرب ؟!

ـ اصمت زوجي محترم .. ظل وفيا لي حتى لحقت به .. لم يتزوج من أجلي

ـ إذا أحببت الجلوس والحوار فاصبر في زوجك

ـ على كل حال ها نحن التقينا .. وأنا مسافرة قريبا

ووضعت بطاقة تعريف على منضدة صغيرة وقالت : هذا البطاقة عليها رقم فندقنا وغرفتنا فإذا أحببت التعرف علينا جميعنا فاتصل بنا ، ومشت إلى الباب ، وهي تتوقع أن يضعف ويدعوها للعودة وإدخال أولادها وزوجها ، ولما وصلت للباب الخارجي للشقة سمعته يقول : مع السلامة .. لا يشرفني التعرف على هذا الرجل ، ولا أرى صورته

نظرت إليه وقالت بنبرة غاضبة ومتوسلة : عباس

قابلها بنظرة حادة وقال : هذا ما عندي!

لم يشعر بعاطفة قوية وحب وحنان نحو أمه ، بل شعر بنفور وجفاء نحوها ، وإن كان في قرارة نفسه يتمنى اللقاء بها ورؤيتها ، ولما حصل ذلك لم يسعد به ، كان حائرا مرتبكا .

لما انصرفت تلك الليلة لم يحاول أن يتصل بها على ورقة الفندق التي تركتها على المنضدة الصغيرة بل لم ينظر لتلك البطاقة ، وكان يقول لنفسه بعد رحليها لو كان أي رجل غير صديقها تزوجت به .. لربما عذرتها ، وقلت حقها أن تكره أبي ، ومن حقها الزواج .. أما أن تهرب لذاك اللعين .. فهذا إجرام في نظري .. لقد أسأت لرسالة الأمومة أهم رسالة للأم .. كيف تريد مني أن أصافح الرجل الذي أسأ إليّ ولمريم ؟ .. الحمد لله أن مريم لم تحضر مع أبي لن أتصل بها ..

لو فعلت ذلك لفرضت عليّ مقابلة زوجها

اتصلت هي به وقالت : يا ابني أنا أمك .. أمك رغم كل شيء

ـ أنا أعترف بأنك أمي .. أمي التي حملت بي رغم أنفها.. تسعة شهور .. حملتني على مضض الأم التي تحدثت مع طبيبها عن الإجهاض .. وأنك حملت بي كرها .. لقد تحدث طبيبك مرة أمامي .. تحدث صدفة لحسن وهو لا يعرف أنني ابنك عندما تكلم .. تحدث أنك طلبت منه إجهاضك ، وأنك لا ترغبين بالحمل والولادة .. هو قال ذلك على سبيل الذكريات ..

صاحت على الهاتف غضبا : من أخبرك بذلك ؟!

ـ ألم أقل لك حضرة الطبيب تحدث بهذه الرغبة لحسن أبي وأنا بينهم .. كنت على معرض الإجهاض .. لكنه خشي غضب والدك ..والقانون

ـ ذكرت له ذلك على سبيل المزح والتذمر .. وإلا هناك عشرات الأطباء يجرون عملية الإجهاض ولا يسألون عن قانون ولا عن دين

ـ هذا الآن ليس مهما .. ماذا تريدين ؟

قالت : ألا تريد أن تودعني ؟ .. الليلة مسافر لبلدي

قال: بلدك !

ـ آ بلدي .. لقد تجنست بجنسية كندا منذ سنوات .. ألا تفكر بلقائي لوداعي ؟

ـ ليتني أستطيع .. لا أريد رؤية ذاك الرجل .. لقد كرهته أشد الكره والبغض .. لقد دمر كياني لقضاء شهوته .

قالت : قاسي القلب .. ذللت نفسي إليك ، وجئت بهم من كندا لنفتح صفحة جديدة في حياتنا وتلقى أخويك .. أهذه تربية حسن ؟

ضحك باستخفاف وقال : لا تذكري أبي بسوء .. فحسن خير الرجال .. حسن هو أبي الحبيب ورافقتك السلامة .. ولست بحاجة لفتح صفحة جديدة مع زوجك .. أمي الجرح الذي تركتيه في قلبي عميق .. كانت طعنة في القلب .. لا يمكن أن أنسى تلك الصورة وأنت تلوحين بيدك

لنا من سيارة التاكسي .. لليوم لم أنس ذلك المشهد .. ولو كنت محبة لنا كما تزعمين اليوم .. لاتصلت بنا .. كتبت لنا .. زرتنا في سنوات ماضيات .. لكتبتي لهم معتذرة أنك أخطأت بفعلتك تلك .. ودعوت عريس الهنا ليخطبك من أهلك .. أما زواج بدون شهود وولي أهذا نكاح شرعي ؟

قاطعته غاضبة وقالت : مع السلامة يا عباس

ووضعت السماعة ، فسكت عباس ، وقال لنفسه : من المجرم منا ؟!

واستدعى الخادم ، وسألها كوب قهوة شرابه المفضل .. ومشى لمكتبه في الشقة وقال بصوت مسموع : لماذا جاءت ألمانيا ؟! هل حقا لتراني ؟ لتراني بعد كل هذه السنوات الطوال ..هل هذه أم تحب ؟ .. تزوجت مريم ولم تفكر بحضور زواجها أو حتى الاتصال بها لتبارك لها .. وحتى لم تسألني عنها بسؤال واحد .. أينا المجرم أيها الناس ؟



عشاء

كانت مريم ويوسف في زيارة للدكتور عباس العائد من ألمانيا محققا الاختصاص في جراحة القلب وجراحة الدماغ في بعثة خاصة على حساب طب الجيش ، ولما وصل البلاد رفع لرتبة رائد طبي ..وبعد السلام والمعانقة التقليدية قالت : كيف كانت أمك ؟

ابتسم عباس وقال : كما ترينها في الصورة المعلقة في بيتك .. ما الذي ذكرك بها ؟ للأسف إنها يا دكتور يوسف لم تسأل سؤالا واحدا عن مريم .. أنا أتعجب من هذه الأم !

قالت مريم : المهم أنك قابلتها ورأيتها وسمعت صوتها .

قال آسفا: زادتني عذابا يا مريم .. لقد أعادت أشجانا لقلبي كنت نسيتها مع الأيام .. ومنذ قابلتها رغم أنفي وأنا لا أدري لماذا جاءت لألمانيا؟!

تنهدت مريم وقد دمعت عيناها أو ترقق فيهما الدمع ، وقالت : كم أنا بحاجة لرؤية هذه الأم يا يوسف .. لأعرف لماذا رمتنا وهربت ؟! لقد حرمتنا الأمومة وقول هذه الكلمة أمي

فقال عباس : لماذا الحزن والأسف ؟ فقد تعودنا على خروجها من حياتنا .. عمر ومضى .. الأيام التي ذهبت لن تعود .. فلما تقابلنا لم أحاول ضمها لصدري .. لا أستطيع يا يوسف .. كان بيننا جبل هائل .. وفي المرة الثانية سعت لذلك فلم تسمح نفسي بذلك .. حاولت أن أرغم نفسي على استقبالها وزوجها .. لم أستطع تقبل مقابلته ومصافحته .. لو تزوجت رجلا غيره لكان الأمر مقبولا ومتقبلا يا مريم .. لكن تتخلى عنا وتهرب لرجل عرفته في الجامعة ، ورفضه والدها كان هذا سيئا وجهلا كبيرا .. كانت قاسية على طفولتنا

قالت مريم : ستبقى أمنا يا عباس .. أمي .. أمي .. ما أجمل وأحلى هذه الكلمة يا عباس!

وقضى الضيفان وقتا مع الدكتور عباس حسن ، وكان جل حديثهم عن الأم ثم الدراسة .. وفي آخر اللقاء كاشفه يوسف بسعيه للسفر القريب إلى إحدى دول الخليج العربي للعمل هو ومريم وكان عباس لما علم بزيارتهم تحادث مع أحد المطاعم ، وطلب منه إعداد عشاء له ولضيوفه .. لذلك انتقلوا إلى حجرة الطعام فور وصول سيارة المطعم، وانشغلوا بالطعام والمداعبة لبعضهم

بالنكت حول الأكل الشرقي والألماني ، وبعد السهرة غادر الضيفان جناح الدكتور عباس في قصر جده عزام .

وقبل أن يخلع ملابسه الرسمية ويلبس ملابس النوم رن هاتف الشقة ، وكان المتصل والده حسن الذي اعتذر عن مشاركتهم الطعام لظرف خاص به ، وكان الرجل راغبا بالحديث مع مريم قبل انصرافها ، فأخبره عباس بانصرافهم ، وذكر له تعاقدهم للعمل في السعودية العربية في مستشفى خاص في مدينة جدة أو الرياض .

وكان عباس يستعد للرحيل إلى فيلته الجديدة التي أنشاها له والده عندما اقتربت عودته من ألمانيا بناء على رغبة عباس على ترك القصر .. وأصر على بنائها والانتقال من بيت جده عزام .. وقبل أن ينام تحدث مع الخادم الفلبيني وزوجته عن ترتيبات البيت الجديد ، وما يلزمهم من أثاث خاص بهم .. وكاشفه الخادم بمرض زوجته ، وأنها ستعود للبلاد لتموت عند أولادها ، وأن أخته ستقوم بالعمل معه في بيته .. فطلب عباس منه إيقاظه عند صلاة الفجر كالعادة



بعد عودة عباس بأسابيع يسيرة سافر يوسف وقرينته مريم للعمل في دولة العربية السعودية وهي إحدى بلدان الخليج العربي ، بل أكبرها مساحة وسكانا ، وكان عمله في شرق البلاد حيث الخليج العربي ، واستقر طبيبا في أحد مشافي مدينة الرياض ، وفي نفس المكان عملت زوجته .

رغم مرور الأيام والسنين ما زال عباس يرفض الزواج ، وأبدع في عمله ، وأصبح اسمه يبرز في الجراحة سواء في الدماغ وأمراضه أم القلب وعملياته ، واستغرقت الحياة العملية كل وقته ونشاطه ، ووجدت روحه الانسجام من خلال العمل .

كانت تأتيه مراسلات من قبل أمه في المناسبات تطلب منه بعد التهنئة السعي للقاء فلا يرد عليها ولا يعيرها أدنى اهتمام .

كان والده حسن قد علم ودرس إخوته وزوجهم ذكورا وإناثا ، وظل صاحبنا راغبا بحياة العزوبية ويرفض دعوات والده لذلك . فكانت العائلة الكبيرة تتعجب من تركه للزواج وزهده فيه ، وقد قارب الأربعين عاما ، ومات والده حسن ، وكان يموت وهو يدعوه للزواج وهو مشفق عليه أن يغادر الدنيا بدون ذرية .

أم عباس المهاجرة كانت تتعذب من داخلها من عدم زواجه لذلك التاريخ ، وجعلها السبب في ذلك ـ كما أخبرها في لقاء ألمانيا ـ كما كتبت له في مناسبة عيد ، فعقب لنفسه : لو أنك أم صالحة ما هربت من أجل الزواج .. فأنا كرهت هذه العلاقة منك وبسببك .. تهجرين أولادك الأطفال من أجل الزواج .

وبالطبع لم يكتب لها ، بل جاءته رسالة تطلب منه المساعدة في علاج قلب زوجها الذي عاد لأرض الوطن للعلاج في مركز علاج القلب العسكري ، ولما سعى أحد أقرباء الزوج لذلك معرفا له بنفسه ، اعتذر عن الإشراف على شقيقه الذي هو زوج أمه ، بل أخذ إجازة لزيارة السعودية حيث شقيقته مريم وزوجها يوسف ابن عمه ، ومن هناك ذهب لأداء فريضة الحج والعمرة بصحبتهما .

ولما عاد للبلد ، ووجد أن أمه جاءت تبحث عنه ، وتتابع علاج زوجها أخذ إجازة لمدة سنة ، فرّ فيها لأوروبا ، واستغلها في المزيد من الدورات التدريبية في مشافي ألمانيا حيث كوّن صداقات مع عدد مهم من جراحي القلب الألمان حيث تعلم جراحة الدماغ والقلب .

ورغم الرسائل التي وصلته من استياء أمه منه ، ومن هربه من اللقاء بها ، لم يكترث لها ، وأصر على الهرب والبعد عنها ، حتى نقل له أحد الأطباء الأصدقاء موت زوج أمه ، فلم يكتب لها تعزية ، ولم يتصل بها .

لما انتهت السنة عاد للبلد من جديد ، وعاد لعمله في المستشفى العسكري الخاص بجراحة القلب وكان يمارس عمليات جراحة الدماغ في مستشفى آخر تابع للقوات المسلحة العربية .

كانت قصة أمه تشكل له عقدة ، كان يرى تخليها عنه طفلا جريمة كبيرة في حقه ، كان يرى

هربها مصيبة كبيرة حلت به ، لم يستوعب أن تتخلى أمه عنه من أجل الزواج من رجل لا يرغب فيه والدها ، لذلك قبل بالهروب حتى لا يرى هذا الرجل الذي نكح أمه ، ورفض النكاح بسبب هذه العقدة ، فكان يرى بمنظاره الأسود .

ولما مات زوجها رفض التعزية فيه ، ولم يقبل رؤية إخوته منها ، ولم يقبل التعرف عليهم عندما جاءوا ألمانيا ، وكذلك عندما جاءوا البلد لمتابعة علاج أبيهم المريض بالقلب ، والذي أحب الموت في وطنه ، وحتى أنه طلب اللقاء بعباس من أجل المسامحة ، فأخبر الرجل أن ابن زوجته خرج من البلاد .

وحتى أن مريم كانت متعاطفة معه لما علمت بتلك المعلومة ، وكانت تستغرب من عدم سعي أمها للقاء بها بقدر ما كانت ملهوفة للقاء عباس المتعصب ضدها ، ولكنها راسلت ببرقية عزاء لأمها بضغط من يوسف ، والعائلة بشكل عام كانت تعامل هدى بقسوة وتجاهل ، فعمها منذ غادرت البلاد لم يحدث بينهما اتصال ، وكذلك أبناء عمها كانت سيئة عندهم ، واعتبروها خائنة للأسرة وللحاج عزام .



دخل عليه أخوه محمد حسن مكتبه في المستشفى يوما ، وقد أصبح مديرا لقسم جراحة الدماغ والأعصاب وقال : اسمع يا عباس ، لقد تلقينا رسالة من أخيك داود يخبرنا أن أمك عادت للبلد ، وأدخلت مستشفى الأمراض العقلية ، فقد تعرضت لحادث سير في كندا ، وشفيت بدنيا ولم تشف عقليا ودماغيا .. والرجل يترجاك أن تقابل أمك وتهتم بها .

فرد عباس بحنق : يا محمد ليس لي أم ..

ـ العقوق يا ابن أبي !

قال بضيقه : هي بدأت بالعقوق .. ولليوم قصتها مخزية لي ، وأتجنب وأتحاشى الجلوس مع أبناء

العائلة حتى لا يتكلم أحد بسيرتها وجرمها .. أبيت الزواج ، وغضب الوالد مني ، ومات حزينا من أجلي يا محمد .. فأنا اعتبرت نفسي بغير أم منذ هربت لعشيقها وصديقها .

ـ يا عباس هذا الكلام لا يصح في حقها .. نحن كبرنا .. كل الناس تخطيء وتعود ..

تنهد عميقا وقال : مات أبوها ساخطا عليها ، ومات عمي وهو مبغض لخيانتها .. المستشفى لا يخلو من أطباء كبار أفهم مني وأفضل مني ..

ـ السنون ألم تشفِ الجرح ؟

ـ كم هي متلهفة للقائي كما تزعم وتنشر ؟.. فلم تفكر بلقاء مريم ولو لدقائق .. أهذه أم يا محمد حسن ؟! .. يا رجل تترك مريم رضيعة لتتزوج من رجل ! .. أخطأت في حقنا فعليها أن تتحمل عاقبة كرهنا وبغضنا ، أنا لا أنسى زيارتها لألمانيا لتراني زاعمة أنها تخشى المجيء إلى هنا حتى لا تقتل .. أبوها هو الذي أعطى زوجها المال ، وسهل له الهجرة ؛ ليبتعد عنها ، وظلت خائنة لأبيها ولزوجها ويتراسلان .. الجرح عميق لن أقابلها ، فقل لمن يسمون أخوة لي هذا الكلام .. فلست بحاجة لمعرفتهم ، وهم ليسوا بحاجة لمعرفتي ، وها قد عشنا كل هذه السنوات بدون أن نلتقي ونتقابل .

فقال محمد بيأس من تغيير لقناعات عباس : ولا أمل بتغير الأفكار عندك

ـ القضية ليست قضية أمل.. القضية أنني لم أحبها، واعتبرت ما فعلته بي وبأختي مريم وبأبي وبالعائلة شيء كبير لا يتسامح .. فهي لها أقارب زوج ، ولها أولاد من الحبيب الذي هربت من أجله فليهتموا بها هم .. وأقول شفاها الله من سقمها .

ـ ليس أمامي إلا أن أقول لا حول ولا قوة إلا بالله .. وسأكتب للرجل وأخيه بهذه المعاني .. كان والدنا يحب أن تصفح عنها وتنسى ، ولو تحسنت علاقتك بها يا عباس لتحسنت علاقتها بشقيقتك مريم ، ربما هي كانت تريد أن تساوم بورقة مريم

قال ممتعضا : لا أعتقد هذا .. هي تكره مريم أكثر مني ، وتعرف أنها ولدتنا غصبا عنها ، وتعرف أنها تخلت عنها صغيرة يا محمد بنت شهور قريب من العام .. هي أجرمت في حقنا من أجل

رجل .. أنا آسف يا محمد لعدم إبداء أي مرونة نحوها ؛ لأنني حسمت أمري من علاقتي بها

نهض محمد وقال وهو يمد يده مصافحا : إنها الأم

اغتصب ابتسامة خاطفة وقال : أي أم يا رجل ؟ لا اعتبرها أما البتة .. الدابة وهي عجماء غير عاقلة لا تتخلى عن أولادها الصغار مع الخطر المحدق بها وبهم .

ـ أنت رهيب ..وأعصابك شديدة .. إن أمي تبكي من أجلكما .

قال عباس : أمك عاطفتها أكثر من اللازم يا محمد .. حتى لو فكرت بزيارتها ومتابعتها إنما هي دقائق .. لن أطيق أن تعيش معي.. فلتبق مع أولاد الشهد أولاد صديق الجامعة

ـ وأنا أعتقد أنها لا تريد منك أكثر من ذلك .. فأخواك رغم عملهم في الغرب ، فهم متعلمون فأحدهم يعمل مديرا لشركة كان قد أنشاها والده لما استقر في كندا ، والآخر شريكه ، وكلاهما ـ كما فهمت من أحد أعمامها ـ تخرج من الجامعة .

قال : ولماذا تركت العلاج هناك ؟! وأنت تعلم كم رقي الطب في الغرب وكندا خاصة !.. الطب لا يقارن ببلاد العرب .

ـ أنا لم ألتقِ بهما كما تعلم ، وقلت إنما التقيت ببعض الأعمام أيام مرض زوجها بظروف خاصة وهم يقرون بأن شقيقهم تصرف تصرفا ولدانيا بعلاقته بالسيدة هدى عزام ، فما دام قد قبل السفر والآلاف التي دفعها الحاج عزام كان عليه أن ينسى امرأة أو فتاة اسمها هدى .. المهم هذا حديث طويل .

وصافحه ثانية وقال : سامحني يا عباس .. هل ستسافر للسعودية كما سمعت ؟

ـ أنا أحب مريم كما تعلم ، ولا أحب حزنها ، وهي سقيمة ، وأولادها يرغبون برؤية خالهم.



سافر عباس إلى الرياض ملبيا نداء شقيقته ، ووجدها تعاني من جديد من مرض ضربها وهي صغيرة دون العشرين ، وقد اجتازته بصعوبة ونجت منه ، وها هو يعود إليها ، ووقع في قلبه أن نهايتها قد حانت .

ويعرف هذا المرض بداء الذئبة الحمامية ، وهو سقم يصيب الجهاز المناعي بالدم ، ويظهر في فترة

البلوغ ، ويصيب النساء بنسبة أكبر من الرجال . طبيا لا يزال سبب الذئبة الحمراء غير معروف إلا أنه مرض من أمراض اضطراب الجهاز المناعي، ويعرف اختصارا بمرض الذئبة، يعمل هذا المرض على مهاجمة الأنسجة الضامة في الجسم كما لو كانت غريبة، مما يؤدي إلى إصابة أو تدمير أعضاء حيوية كالكلى والمفاصل والدماغ والقلب.

لا يعتبر مرض الذئبة الحمراء من الأمراض الوراثية إذ أنه لا ينتقل وراثيا من الآباء إلى الأبناء إلا أنه من الممكن وراثة بعض الجينات التي تحمل خصائص المرض فتزداد نسبة احتمال الإصابة به.

وربما حدوث اضطراب الهرمونات عند البلوغ أو التعرض لأشعة الشمس أو الإصابة ببعض الفيروسات أو تناول بعض الأدوية من أشهر العوامل التي تؤدى إلى الإصابة بالمرض. ويصيب ذوي البشرة الداكنة أكثر مما يصيب البيض أو ذوي البشرة الفاتحة بمعدل ثلاث مرات تقريبا، وتكون الغالبية العظمى المصابة من النساء في سن الإخصاب (بين الخامسة عشرة والخامسة والأربعين من العمر) ؛ ولكن في الأطفال وقبل سن البلوغ تكون نسبة المرض في الذكور أكثر من الإناث.

هنالك عدة أنواع من مرض الذئبة الحمراء، منها الجلدي، ومنها الدوائي ومنها النوع الجهازي الشامل لجميع أعضاء الجسم أو بعض منها مع إصابة الجلد أو من دونه، وهو النوع الأكثر انتشاراً.. وكثيرون يعيشون حياة شبه طبيعية رغم وجود الأعراض المزمنة.

تتفاوت أعراض المرض بدرجة كبيرة تبعاً لنوع الأنسجة المصابة ودرجة إصابتها، وعادة ما تكون الأعراض الأولية المبكرة للمرض أعراضاً عامة كالحمى والإعياء والآلام الجسدية وفقدان الشهية ونقصان الوزن والغثيان والشعور بالتوعك، ومع مضي الوقت تبدأ الأعراض المميزة أو المتخصصة للمرض بالبروز ، وتكون نتيجة إصابة أعضاء متعددة من الجسم مثل الجلد والذي يكون في صورة طفح جلدي ، حساسية غير طبيعية لأشعة الشمس حتى بعض التعرض المحدود لها ، ويصاب آخرون بقروح في الفم والأنف وتقرحات جلدية تشبه قطع

النقود ، قد تثار أعراض الذئبة في أي وقت ، وتندلع هذه الأعراض غالبا جراء التعرض للأشعة الفوق بنفسجية الصادرة من الشمس، أو نتيجة التعرض لضغوط عاطفية ونفسية، أو الإعياء أو عوامل أخرى.

أكثر مضاعفات الذئبة خطورة تلك التي تشمل ما يقوم به جهاز المناعة من تدمير لأعضاء رئيسية بالجسم كالكلى ، أو الرئتين مسببة التهاباً لبطانة أو غشاء الرئتين، أو تصيب صمامات القلب أو عضلة القلب ذاتها مما يؤدي إلى حدوث هبوط في القلب.

ولما كان الحمل يزيد من حدة المرض فينصح الأطباء مريضات الذئبة الحمراء باستشارة طبيب الروماتيزم قبل الحمل لعدة أسباب منها أن يقرر الطبيب السماح للمريضة بالحمل أم لا في هذه المرحلة، ولعمل الاحتياطات اللازمة قبل السماح بالحمل ، لا يوجد علاج ناجع وجذري للمرض ، وعندما يتم تشخيص مرض الذئبة الحمراء يكون المرض غالباً في أشد مراحل نشاطه، وفي هذه المرحلة يحتاج الطبيب إلى استخدام كمية كبيرة من الأدوية للسيطرة على المرض ومنع تلف الأعضاء، وفي معظم الحالات يكون العلاج ناجحاً ، وتتم السيطرة على المرض الذي يبدأ نشاطه في التراجع، ويتم سحب الأدوية تدريجياً حتى يحتاج المريض إلى جرعات قليلة ، أو قد يتم الاستغناء عن العلاج تماماً.

فتقليل التوتر والموازنة بين الراحة والمجهود وتناول الطعام الصحي والدعم العائلي مما يساعد كثيراً على مواجهة المرض.

وسمعت أن من اجتاز خطر هذا المرض في سنته الأولى قد ينجو من مضاعفاته والموت ، وخطره يكمن في إضعافه أجهزة حيوية في بدن الكائن الحي ، وقد مر ذكرها ، والله هو وحده الشافي حقيقة من كل سقم ، كما جاء حكاية عن سيدنا إبراهيم في قوله تعالى {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٨٠]

أصيبت مريم حسن بهذا الداء الخطير وهي دون العشرين من سني عمرها ، وشفيت منه ، وتحسنت حالها ، والتحقت بكلية الطب تأثرا بهذا البلاء ، واليوم يبدو لهم أنه كمن في بدنها

كل هذه السنوات ، ثم جدد نشاطه عندما اقتربت من الأربعين ، وقد ولدت ثلاث مرات بعد زواجها من ابن عمها يوسف ؛ لذلك لما رآها عباس ، واطلع على تقارير الأطباء ، وتقارير الفحوص الطبية أدرك أن المرض قطع شوطا حادا في التأثير على القلب والكلى .

قضى عباس عشرة أيام عند ابن عمه وأخته ، ورأى المعاناة التي يعيشون فيها ، وأعلمه يوسف بأنه بعد تحسن صحة مريم سيقدم استقالته من المستشفى ويعودان للبلد ، فلم تعد حالة مريم السقمية تتحمل البقاء في الرياض .



زيارة الأم

لما رجع عباس من الرياض علم أن أخوته من أبيه زاروا أمه ، فلزم الصمت ، وتكلمت معه أخته راضية ـ وهي طبيبة أسنان ـ قائلة : عباس أمك تموت ، فاحصل على رضاها ، واغفر لها ماضيها .. فهي فاقدة القدرة العقلية ، فلديها اعتلال دماغي ، وسبب لها تلفا بالدماغ ، وستعيش معاقة إلى حد ما ، وهذا اختصاصك ، وليس لها إلا أنت .. أخوتك لن يأتوا من كندا للحياة هنا فحياتهم هناك ، وهم متزوجون من كنديات ..ورزقهم وتجارتهم هناك .. فوسع قلبك .. وأهل زوجها غير مكترثين .. هم مجرد زائرين وسيتلاشون مع الزمن ، سيملوا لا يربطهم بها شيء ، فبلال وقد مات ، والاولاد هناك .

صفن فيها للحظات ثم قال : ماذا يمكن أن أفعل لها غير ما يقدمه لها الأطباء الآخرون ؟ .. ولماذا لم تبق معهم للعلاج ؟ وأنت طبيبة وتعرفين تقدم الطب في كندا .

ـ عزيزي عباس .. هي تريد عطفا وحنانا .. إنها تردد اسمك .

قال وهو سارح في أفكاره وخياله : تردد اسمي .. ألم تتخل عنا يا أخت راضية ؟ ونحن بحاجة إلى عطفها وحنانها ، ألم تجبر أبي على طلاقها ؟ وخالف وصية والدها ورضخ لضغط العائلة وطلقها ، ولما طلقت هربت خفية .. وذاك الرجل غدر بجدي عزام ـ رحمه الله ـ وأخذ المال على أن يعيش في الغربة .. إنها بكل المقاييس أسأت لنا لي ولمريم وجدي والدها وأبي والعائلة الكبيرة كيف يصفو قلبي لها يا راضية ؟

ـ هذا شأنك يا أخي .. وهذه مشاعرك ؛ لكن كلمها زرها كما يفعل الغرباء.. هل ستبقى في مستشفى الأمراض العقلية ؟ أولئك يدفعون للمستشفى يدفعون ثمن الأدوية والإقامة .. وسيتوقفون .. أترى أيقبل جدك عزام أن تعيش ابنته في هكذا مكان ؟

قال : أين ستعيش يا راضية ؟ .. إذا تحسنت حالتها ستعيش في دار المسنين .. عندي .. أنا لا أستطيع يا راضية .. أنا عندي عمل ووظيفة .. سيكون عندها ممرضة ، وهناك سيكون ممرضات وأطباء .. مكانها المستشفى أو دار المسنين

ـ إنها أمك .

ـ أعرف أنها أمي التي تركتني عند خالي وبيت جدتي وهربت لملاقاة حبيبها وتزوجته بدون موافقة أوليائها .. أمي التي ألبستني ثوب العار .. التي بغضت إليّ جنس النساء .. التي كانت ابنة عائلة محترمة .. عائلة تحترم وتقدر العادات الحسنة .. امرأة تتزوج من غير رضا أسرتها أي حب هذا يا راضية ؟

كان يتكلم بانفعال وتوتر فقال أخته : اهدأ يا ابن أبي .. أنا أدرك ما عانيت من ألم وحزن بسببها ولكنها تظل أمك .

ـ الأم التي لم تسأل عن ابنتها التي تموت اليوم من الحزن والمرض .

قالت بقلق وانزعاج : ما لها مريم ؟

ـ عاد إليها المرض القديم الذئبة ، وقد أثر على قلبها وكليتها فوضعها حرج يا راضية .

ـ لم نسمع

ـ اطلعت على التقارير في زيارتي الأخيرة إليها .. وقد تركت العمل منذ شهور أنهكها الوجع وها هو يوسف ابن عمنا سيقدم الاستقالة ويعود للحياة هنا ..

ـ أحزنتني يا عباس هل يمكن الحديث معها على الهاتف ؟

ـ ترد إذا كانت في البيت ، أما إذا كانت في المستشفى قد لا يسمحون له بالرد

ـ نعود لأمك .

ـ فلتبق أمي حيث هي يا راضية ، وإذا كانت القضية مجرد زيارة فرتبي لي زيارة .

قبلت راضية شقيقها عباس من رأسه وقالت وهي تمسح دمعة : عظيم يا عباس ! أنت أخي بحق !

استحى عباس من كلام وتوبيخ أخته راضية في شأن زيارة أمه ، وخاصة لما علم أنهم قاموا بزيارتها في مستشفى الأمراض العقلية ، فرتبت السيدة راضية زيارة له إلى أمه بمساعدة زوجها المهندس عيسى سليم وهو قريب لهما ، وصديق أحد الأطباء في ذاك المشفى ، دخلوا إلى غرفتها

في المستشفى ، وكانت هدى على علم بزيارة عباس ، وحتى أن المستشفى اهتم بهذه الزيارة ، واستقبل مدير المستشفى بشخصه وعدد من مساعديه الدكتور الأخصائي الكبير عباس ، فهو معروف في الوسط الطبي ، ولأنه ضابط كبير في الخدمات الطبية الخاصة بالجيش ، حتى أن مدير المستشفى استغرب من عدم اهتمامه بقضية أمه وإخضاعها للعلاج في مستشفيات الجيش والعسكر ، ورافقه إلى الغرفة التي ترقد فيها المريضة ، ولما رأته يدخل عليها همت بالنهوض ، ولكن الممرضة منعتها من ذلك فقالت بانفعال واضح : إنه عباس ولدي !

اقترب منها وقال : سلامتك يا أم داود .. أرجو لك السلامة . وصافح اليد التي مدت له وقال : كيف حالك ؟

ـ أما زلت غاضبا على أمك يا عباس ؟

التفت عباس لطبيب ومدير المستشفى الذي أحس أن في الجو شيئا غريبا وقال في اعتذار : أتسمح لي بالمغادرة يا دكتور عباس ؟

ـ لا بأس ، سأشرح لك الموقف الغريب قبل مغادرة المستشفى

ـ أنا آسف يا دكتور .

سلمت راضية على أم عباس، وقبلت خديها ودعت لها بالسلامة ، وسلم عيسى سليم عليها ورحبت بهم المرأة ، ولما انصرف مدير المستشفى غادرت الممرضة المريضة بإشارة منه ، وقالت هدى : الله يغفر الذنوب يا عباس .. ألا تغفر لأمك ؟

ـ القضية ليست قضية مغفرة .. يا أم داود .. القضية أكبر من ذلك .. أنت سلكت دربا وأنا سلكت دربا .. لقد تركتيني من أجل رجل هويته .. وهل هذا فعل يحتاج لمغفرة ؟ أنت رميتنا وإذا كانت مثل هذه الزيارات تحل الإشكال فسأكرر الزيارة .. نحن التقينا كالأغراب في المانيا من سنوات خلت .. لكن الحياة مع بعض فهذا شاق على قلبي .. لقد كللتيني بالعار أمام أبناء العائلة يا أم داود

ـ أنا لا أريد من الدنيا إلا أن أراك.. أمعن النظر فيك .. أنت الابن الأول يا عباس ، رغم كرهي

الشديد لأبيك أحببتك .. ورضعت من صدري يا عباس ..لا أريد الحياة معك .. بس أن أراك أنا أخطأت في حقك .. حكمت الهوى بيننا .

فقال بجفاء : حسنا ، سأخصص لك زيارة في الشهر الواحد لزمن محدود .. أنا لا يمكن أن أنسى الألم المستمر في قلبي وبدني منك .. وها هي ابنتك مريم ستعود للبلد ، وقد لا تعيش طويلا .. لماذا أنت لم تسع للقاء بها ؟ لماذا ؟!

هتفت : لا أحبها ، لا أحن إليها .. ما أحببتها .. لا أدري سبب ذلك !

ـ أليست شقيقتي ؟ أتحسين بالندم لأنك تركتيها رضيعة ؟

ـ لا أدري ..

ـ ولماذا تسعين إليّ ؟ قالت: لا أدري!

ـ حسنا يا أم داود سترتب لنا راضية أخت مريم موعد زياراتي لك .. وضعك الصحي مقبول وربما مع الوقت تتمكنين من العيش حياة طبيعية .. وسيتابعك فريق من أهل الاختصاص .. ولكنهم قد يتابعون علاجك في بيت المسنين ؛ لأن أكثره سيكون علاجا طبيعيا ونفسيا .. وحياتك في بيت صعب عليك .. وداود وأخوه يحيى على اتصال دائم بالمستشفى لمتابعة العلاج ودفع التكاليف ، وهم يدفعون من مالك ليس كرما منهم .

أخذتها موجة من البكاء وهي ترى عباسا ينصرف من الحجرة ، وهو خرج منقبض النفس والروح ويعجب من تعلقها به وكرهها لمريم .. أم هو تأنيب ضمير لتخليها عنها صغيرة ، فهي عاجزة من اللقاء بها .. لقد عقدت حياتها بتصرفها الأرعن .



تلف الدماغ

كان عباس قد مشى لبيت شقيقته مريم التي عادت إلى أرض الوطن وهي في غاية الإنهاك والضعف بسبب مرضها الذي عرفه القارئ وعرفناك بخطره ، وأخذت تتابع العلاج وجلساته في مشافي المدينة ، بل أخذ عباس يقدم أوراقها للمعالجة في مشافي الجيش ، وتيسر ذلك سريعا لعلاقات عباس القوية بمؤسسات الجيش والقوات العسكرية ، وكان هو يتابع بنفسه الإشراف على علة القلب .

رحبت مريم بعباس كعادتها ، وكان الحديث عن صحتها وحالتها المرضية ، فكان يقول مشجعا : عليك أن لا تستسلمي للضعف ، وليبق عندك حبا قويا للحياة .. واعلمي أن الأعمار بيد الله وليست بيد المرض .. وهذا الداء يمكن التعايش معه كما يتعايش مريض السكر والسرطان مع مرضه .. ويحيا العشرات والمئات وهم يعانون مع مرض القلب .

ـ أشكرك يا عباس أنت الباقي لي في هذه الدنيا .

قال : كلنا لك .. يوسف وأولادك وأولاد أبي .. فهم محبون لك ، ويتعاطفون معك كلنا أخوة وأهل .

ـ كيف أمنا يا عباس ؟

ـ مرضها صعب ، ربما أصعب مما أصابك .. وسنها لا تساعد على المقاومة ، والأطباء يقومون بواجبهم ، وهي ترقد في دار رعاية المرضى والكبار في السن قصر الوفاء لرعاية المرضى والمسنين يطلقون عليه هذا الاسم ، هو مكان جيد يجمع بين فندق ومستشفى وحديقة ؛ لأن حياتها في بيت خاص يحتاج إلى خدم وممرضات ورعاية خاصة.

بعد لحظات صمت قالت : أريد أن أقابلها يا عباس .. رغم مرور كل هذه السنوات من الجفاء والبعد .. وعدم سؤالها عني .

ـ عند زيارتي لها في المرة الآتية سنذهب سوية .. لقد سألت عنك المرة الماضية ، وكأني نسيت أن أقول لك ، ولقد دهشت ، .. وربما لأنني كررت زيارتي لها تذكرت أن لها ابنة أيضا

وبعد سكوت ضئيل تابع فقال : أنا حقيقة أستغرب من عدم اهتمامها بك !

قالت معللة مفسرة : إنها تخشى من مقابلتي لها .. أمر نفسي .. فهي تخلت عني طفلة أكثر منك ربما تأنيب الضمير كما يقال .

هزّ رأسه وابتسم وقال : لا أعتقد أن لأمنا ضميرا .. من يتصرف مثلها لا ضمير عنده

ـ أنت تقسو عليها يا عباس

ـ أم تهجر طفليها لغير سبب مهم أيكون لديها ضمير ؟!

ـ الحياة همومها وأحوالها عجيبة .. وكما تقول راضية ستبقى أمنا ، وهي تقول علينا أن نستأجر لها بيتا خاصا .. من المعيب لنا أن نتركها في دار رعاية المرضى .. وهي تلوح بأنها ستفعل ذلك بنفسها .. فهذا معيب لكل العائلة ، فإذا تخلى عنها أبناء الحبيب ، فعلينا أن نقف معها من أجل خاطر المرحوم جدنا الحاج عزام .. تقول راضية : لو كان والدنا حسن حيا ما قبل بهذا الفعل .

فقال متضايقا مما سمع : ما أشد كلام راضية على القلب! .. ماذا سنفعل لها في البيت ؟ إنها مريضة دماغيا ، وتحتاج إلى مراقبة وعلاج طبيعي دائم .. وأخذ يتذكر مرض تلف الدماغ علميا فهو جراح دماغ كما نعلم.

تلف الدماغ هو تدمير خلايا المخ أو تدهورها ، تحدث إصابات الدماغ نتيجة لمجموعة كبيرة من العوامل الداخلية والخارجية ، وهناك إصابة الدماغ الرضية التي تتبع الصدمات الجسدية أو إصابة في الرأس من مصدر خارجي ، ينتج عن إصابات الدماغ في كثير من الأحيان ضعف أو إعاقة تتباين بشكل كبير في شدتها ، في حالات إصابات الدماغ الخطيرة ، يوجد احتمال كبير بحدوث إعاقة دائمة في بعض مناطق الجسم ، بما في ذلك العجز العصبي ، أو مشاكل في الحركة والكلام ، والتخلف العقلي، كما سينتج عنها أيضًا تغيرات في شخصية المريض ، ينتج عن الحالات الأكثر شدة غيبوبة أو حالة أنباتية مستديمة ، حتى الحوادث الخفيفة يمكن أن يكون لها آثار على المدى الطويل أو أن تسبب أعراضًا تظهر بعد سنوات.

يمكن لإصابات الدماغ سواء الناجمة عن السكتة الدماغية، أو إدمان الكحول، أو إصابة الدماغ

الرضية، أو نقص فيتامين ب أن تؤدي في بعض الأحيان إلى ذهان كورساكوف ، حيث يُصاب الفرد بهذيان الأراجيف بمعنى ينطوي هذيان الأراجيف على عدم القدرة على فصل ذاكرة أحلام اليقظة عن الذاكرة الحقيقية .

قد تنخرط عدة مهن في الرعاية الطبية وإعادة التأهيل للشخص الذي يعاني من ضعف بعد إصابة الدماغ ، أخصائيي الأعصاب ، وجراحي الأعصاب ، وأخصائيي العلاج الطبيعي وإعادة التأهيل ، وأخصائي علم النفس العصبي ، ويمكنهم المشاركة في تقييم مدى شدة الإصابة أو عمل استراتيجيات إعادة التأهيل، يمكن أن يشارك المعالجون المهنيون في إدارة برامج إعادة التأهيل للمساعدة في استعادة الوظائف المفقودة أو المساعدة في إعادة تعلم المهارات الأساسية .

يلعب أخصائي العلاج الطبيعي أيضا دورًا هاما في إعادة التأهيل بعد إصابة الدماغ ، وتشتمل العلاجات الأخرى لإصابات الدماغ على الأدوية ، والعلاج النفسي، وإعادة التأهيل العصبية وتعتمد العلاجات على مكان تلف الدماغ، وطبيعته وسببه .



مريم وهدى

بعد مغادرته مكان عمله ، التقى بمريم وزوجها يوسف في صالة استقبال الزوار في دار رعاية المرضى التي تديرها شركة خاصة فهي مؤسسة خاصة ، فبعد التحية والسلام مشى أمامهم طبيب مقيم في الدار قصر الوفاء لزيارة هدى عزام ، والطبيب المشرف هو طبيب نفسي ، وكان عباس حدثه عن هذه الزيارة وظروفها ، وأن هذا أول لقاء بين أم وابنتها منذ أكثر من أربعين سنة . لذلك كان الطبيب قد تحدث مع هدى ، وذكر لها أن ابنتها الوحيدة ترغب بزيارتها ، وهيئها لمثل هذا اللقاء العاطفي ، لم تتكلم وإنما كانت تهز رأسها بالموافقة ، وكان الدكتور قد رتب مع الممرضة المكلفة برعاية هدى الاستعداد لأي طارئ .

ركب الزوار المصعد للطابق الخامس حيث غرفة هدى ، ورحب بهم الطبيب النفسي المشرف عليها ، وكذلك حيتهم الممرضة الخاصة نوال ، دخل الدكتور سعيد ، وقال مخاطبا السيدة المريضة : كيف حالك يا أم عباس ؟ ها هو الدكتور عباس ومعه الدكتورة مريم.

دخل عباس وخلفه مريم ويوسف ، كانت نوال الممرضة قد أجلستها على سريرها ، وأسندت عدة وسائد خلف ظهرها ، كانت تبكي قبل دخول مريم وزاد البكاء والنشيج عند دخولهم ، ومريم تبكي مثلها ، ولما وضع عباس يده على رأسها اقتربت منها مريم وضمتها لصدرها ، وقد زاد نحيبها وارتفع وهي تهمس : أمي أمي أمي حبيبتي يا أمي .

وتلك تردد مريم مريم مع مزيد من الدموع والنهنهات والشهقات ، وعباس يداعب شعرها واستمر البكاء والنشيج والتمتمة لدقائق ، وقال الطبيب المشرف : الحمد لله سارت الأمور على خير ما يرام .. اسمحوا لنا بالانصراف .. وسيكون العشاء حسب توصيتك يا دكتور ..

شكره عباس ، وكانت أمه تقول لمريم : أخطأت في حقك كثيرا يا مريم لقد ظلمتك معي .. استحيي أن أطلب مسامحتك وصفحك .. غلبني الهوى والعناد .. كان والدك أميرا ورضيا ومطيعا.. مريم كنت أخشى اللقاء بك .. تركتك رضيعة هل تسامحيني يا مريم ؟

كانت مريم تضع رأسها على صدره أمها وتبكي بعنف وصوت بكائها عال ، وتتنهد وتشهق

بعمق ، وهي تسمع كلام أمها ، ولم تتكلم ، فأراد يوسف أن يبعدها ، فقالت : دعها يا ولدي لقد حرمتها من هذا الصدر .. غلبني الهوى والعناد .. أنت يوسف زوجها ؟

ـ أجل يا عمتي .. جئت البلاد منذ أسبوع .. شفاك وعافاك المولى .

قالت بحسرة وانكسار : شفائي يا ولدي برضا عباس ومريم عني ، رغم الصداع الذي أحس به ؛ فأنا سعيدة برؤيتي لهما قبل الفراق الأبدي.. لقد أخطأت وقصرت في رعايتهما .. غلبني الهوى والتحدي .. نسيتهما في صراعي مع أبي عزام .. كنت أظن أنني أفهم من أبي وعمي مسلم لقد تعلمت ودرست في الجامعة وهما أميان .

قال يوسف ساعيا للتخفيف من أثر الماضي على هذا اللقاء : ماض وانتهى بحلوه ومره يا أم عباس .

قالت متمنية : ليته ينتهي يا يوسف! إننا ما زلنا ندفع الثمن .. فهذا عباس يذكرني بجرمي كلما أذكر أنه شاب بدون زواج .. يرى أن النساء شر .. سيظل ضميري يعذبني بسبب هذا .

قال عباس : لست راغبا بالزواج يا أم داود ؟

فقالت وهي تداعب شعر ابنتها : دائما يريد تذكيري بالمرحوم أبي داود ، فلا يناديني بأمي أو بأم عباس

فقال عباس بجفاء اعتاد عليه : لم أتعود ذلك بعد .. والجرح لا يشفى سريعا يا أم داود .

قالت مريم وهي ترفع رأسها عن صدر أمها : عباس .. يوسف يجب أن نأخذها لبيتي .. دعونا نعيش ما تبقى لنا معا .

فقال عباس معترضا الرأي : أرأيت المكان يا مريم ويا يوسف ؟.. هذا بيت خاص لرعاية المرضى أصحاب المرض الصعب والذي يحتاج لوقت من العناية والمراقبة .. فهنا الأطباء والممرضات ، هذه ليست دار رعاية المسنين كما يرغب أولادها أولئك.. هذا شيء جديد في بلادنا .. هذا فندق طبي .. وهذه الخدمة تقدم بمال ، وليست صدقة .. هذه الخدمة تقدم في هذه الدار بعد وضع رصيد عشرين ألف دينار في حساب المريض .. وأنت يا مريم صحتك

ليست ولا بد .. وها أنا أقول بكلام غير عاطفي كلما تتحسن صحتك سيأتي يوسف بك إليها وقضاء ساعة أو أكثر معها ، وحتى أخوتك سيرحبون بصحبتك إليها إذا كان يوسف في عمله ومشغولا .. فهنا أفضل من البيت لها ولك .. أليس كذلك يا يوسف ؟.. هنا الأطباء والممرضات وإذا احتاجت لأخصائي ودواء فيوفرون ذلك فهم متعاقدون مع أطباء .. وأنا حصلت لها هذا المكان بصعوبة .. فهذه خمسة طوابق للنزلاء ، وأغلبها مشغول يا يوسف .

ـ أنت أمنت لها هذا المكان؟

ـ صحيح دار المسنين تخدم المرضى وغير المرضى ..وأجرتها أقل ، ولكن هنا أفضل ، وقد حولت إليها عددا من مرضاي الأثرياء .. ويمكن أن يأتي الأطفال لزيارة جدتهم يا مريم .. لا تدعوا العاطفة تتحكم فينا .

فلما رأوا أن المرأة تريد أن تستقر في البلد ، اجتمعت العائلة للتشاور في شأن هدى عزام ، اجتمعوا ليتفقوا على التصرف الأمثل لهم ولسمعة العائلة ، كانت مريم وإخوتها من أبيها يرغبون أن تعيش في بيت خاص لها ، ويشرف عليها طبيب خاص من خارج العائلة صديقا لهم ويقوم على خدمتها ممرضة دائمة وخادمة خاصة لتساعدها في الطعام والشراب والحمام .

وكان من رأي عباس وبعض أبناء أعمامه بقائها في دار رعاية المرضى لتستمر متابعتها صحيا وعقليا ، وأن الدار تقدم خدمة راقية للمرضى مقابل التكاليف المادية العالية .

فقال أحد الأخوة : قد يطول مكثها وتتعبون من الدفع .

فقال عباس مبددا هذا الهاجس: هي التي تدفع من مالها ، وثروتها التي ورثتها عن أبيها ، ولها تقاعد اجتماعي من ضمان كندا .. فلحتى الآن ليست بحاجة لفلس واحد منا .. وأخبرني أخي عزام أن داود ويحيى اخبروه باتصال بينهم أن وضعها المالي جيد ، وقد جمعت مالا أثناء حياتها هناك ، وورثت عن زوجها المال الكثير ، ولها نصيب في متاجرهم .

قالت راضية : القضية يا عباس بعد دار الرعاية عن المدينة .. مرة على مرة سيطرأ علينا الملل والتملص من زيارتها .. وأنت خاصة تعمل في الليل والنهار .

ـ أنا وعدتها بزيارة واحدة كل شهر يا راضية .. أنا لست مدينا لها بشيء .. حتى لو سكنت في شقة خاصة سأبقى على هذا الترتيب .. وأنتم أحرار .. أنا فعلت ما أردتم نحوها ، ومن أجل خاطر حياة أبي وجدي .

فقال يوسف لما رأى توتره : هدأ نفسك يا عباس .. كلنا يدرك الألم الذي يسكن قلبك .. ؛ ولكنها اليوم مريضة وكبيرة وضعيفة ، ونحن نقدم هذا العطف من أجلنا نحن ، ولسمعة العائلة ككل يا عباس .. الزيارات توزع على الجميع ، وبترتيب معين والذي يريد أن يزيد فلا حرج .

عادت مريم تقول وهي تبكي وتمسح دموعها وتضعف عن مقاومتها : الشقة حولنا أفضل لنا فلا يجب أن نعاملها بالمثل يا يوسف .. إذا كانت قريبة يمكنني التردد عليها باستمرار .. لولا مرضي ما قبلت لها الحياة دون بيتي ، فأنا طبيبة ؛ ولكن عندما يهيج المرض عندي أصبح ميتة فأزيد من ألمها .. هي اختارت الحياة هنا ، فعلينا أن نكون عند حسن الظن .

قال عباس بضيق واضح للعيان وعصبية : هم شجعوها للحياة هنا ، فعندهم طب وعلاج متقدم ، وهذا كله تحصله هناك بأسعار زهيدة وعلى التأمين الصحي ، ولكنهم ملّوا منها ، ولا وقت لديهم لرعايتها ، وزوجاتهم سيئات .. هذا كلام ابن عم لهم عاش هناك معهم بضع سنوات ، ثم رجع وكله خيبة ، قال لي وقد التقيت به أيام المستشفى إن حياتهم سهرات ورقص ومجون ، ولا وقت لديهم للاهتمام بها ومتابعتها

ـ هكذا حياتهم هناك يا عباس .. ونحن لا تهمنا حياتهم الخاصة .

عاد عباس ليقول بسخط بين : الآن صار لنا أم يا سادة .. سأترك البلد من أجلها

قالت راضية معترضة : ولماذا تترك البلد يا دكتور عباس ؟ وهل الهروب حل ؟ وهي لا تريد منا شيئا يا ابن أبي .. ليست بحاجة لمالنا .. هي تحتاج لرعاية معنوية وعطف وبعض الشفقة .. ووالدك وصاك عليها يا عباس ليس من أجلها هي .. من أجل أنها ابنة الحاج عزام الجد الذي أحبك أكثر من ابنته ، كما كان يحدث أبونا حسن رحمه الله .

قال بسخط : لا يريد قلبي أن يصفو لها يا عالم .

قال يوسف : الإنسان يزور عدوه وغريمه يا حضرة الدكتور .. أنت لو تزوجت لعرفت الأمومة والأبوة حق المعرفة يا عباس .. ألم تكن تلاحظ أيام الدراسة الفرق بين المدرس المتزوج وله ذرية والمدرس الأعزب ؟ .. فالحنان يتفاوت بين الناس .

ضحك عباس وقال : لم ألاحظ ذلك كنت أيام المدرسة حزينا ، وغارقا في همومي وهرب أمي الشائن ، كنت مخزيا يشار إليّ بالفتى الذي هربت أمه لعشيقها في أمريكا، كانت قصة جارحة خيم الوجوم القاتل على كل الجالسين ، وأدركوا عظم المرارة التي يعيشها الدكتور عباس ، حتى أن مريم ارتفع بكائها وقالت بعد حين : لماذا تذكرنا بمثل هذه المشاهد يا عباس ؟ كانت أياما مريعة .

ـ ليعلم هؤلاء الجالسون من أين تخرج هذه الألفاظ القاسية ؟ هم لم يعيشوا تلك اللحظات المؤلمة .. لقد قتلتنا وعذبتنا طوال سنوات عمرنا

قالت راضية : الزمن لن يعود يا أخي يا عباس .. ويقولون الزمن كفيل بتخفيف المصائب .. ولكن زمنك ما زال يؤلمك ويجرحك ..والأمر محزن لك ولنا ..كان الله في عونك .. وهل نستطيع إعادة دورة الزمان يا دكتور عباس ؟ هل نهرب من مواجهة الواقع ؟ ونترك ابنة الحاج عزام دون أدنى العطف والمساعدة .. نحن نساعد الغريب بالعطف والتواد والدواء والمال ..

قال بحدة : الغريب يساعد للحظات ووقت محدود .. والغريب لم يؤذنا في أنفسنا وحياتنا ..

قالت راضية : العجيب أنك تصلي يا عباس ، وتقرأ في الكتب الإسلامية!

ـ وهل أصير ملحدا ؟ كان أبي يحب أن نصلي ونصوم .. ها هي أمنا منذ طلقت لم تسجد لله .. لما سألتها مريم عن الصلاة ؟ قالت : وهل يذهب أحد للغرب ويحافظ على الصلاة يا مريم ؟ وزادت وأنا تركتها منذ مات أبي .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. أنا كنت أظنها لا تصلي بسبب المرض والحادث .

قضية هدى

استقرار هدى في أرض الوطن بعد هروب استمر أكثر من ثلاثين عاما، وعودتها كمريضة أربك أحفاد الحاج عزام وشقيقه مسلم ، لقد استقر في وجدانهم أنها ستبقى مهاجرة حتى الممات ، هي رافقت زوجها عندما أتى للعلاج عند أهله أو إكمال العلاج في المدينة ، وإذا حصلت الوفاة كان يريد أن يدفن في بلده ، وهذا ما حصل ، ولكنها لم تلتق بفرد من أفراد العائلة ، ولم يسع للقاء بها أحد ، وسافرت بعد هلاكه ورحيله عن الدنيا ، ومضى الحدث ، ولم يهتموا به كثيرا ولا قليلا .

وأما استقرارها بينهم هذه الأيام فقلب حياتهم ، فهي وإن ترملت على زوج غير أبيهم ، فهي أم عباس ومريم ، وهي ابنة جدهم عزام ، وعباس بكرها هو الأولى بها ، وهو ما زال حاملا عليها ، ومتهربا من مسؤوليته الأدبية والدينية اتجاهها .

لذلك كان أشقاء عباس من أبيه بين نارين ، غضب عباس المكبوت والذي يثور بين الحين والأخر نحو وجودها بينهم ، ونار القرابة وأم أخيهم ، ومطلقة أبيهم حسن ، وابنة عم أبيهم وابنة جدهم عزام ، وهم يعلمون أن سبب رفض عباس الاقتران بأنثى هو قصة أمه ورميها لهم صغارا ، والهرب من الوطن للزواج من صديق الجامعة .

لذلك كانت راضية وأشقاؤها كلما التقوا بدون عباس ومريم في بيت والدتهم الأرملة فائزة يتحول حديثهم تلقائيا إلى معضلة هدى وعباس ومريم ، فبعد اللقاء الذي أشرنا إليه سابقا جلس الأخوة يتحدثون عن طريقة لإعادة الحياة إلى طبيعتها بين عباس وأمه ، فهم يعلمون أن أفعاله التي ظهرت لهم كانت ترضية لهم ، وليس من أجل أن هدى أمه ومريضة ، لقد خشي من اهتمامهم بها من دونه فيسبب لنفسه وجع رأس من جديد .

كان عباس بعد استقرار والدته في دار رعاية المرضى يمر عليها في الشهر مرة واحدة وذلك مساء الجمعة ويصحب مريم إذا كانت طيبة وبصحة جيدة ، ويتناول الغداء الذي يوصي عليه المستشفى مع أمه ، ويسألها عن حالها وصحتها ويلزم الصمت ، وهي أحيانا تحثه على الزواج حتى لا تبقى حزينة ومتألمة لتركه سنة الله في خلقه ، فيقول لها بعد أن تردد أفكارها فات الأوان

يا أم داود ويعود الصمت بينهم ، ومرات تسأل مريم عن وجعها وصحتها وتبكيان بضع دقائق وبعد تناول الغداء معها في غرفتها الفندقية يبدأ الاستعداد للمغادرة ، وتعانق ابنتها التي تفعل مثلها ، وتقبل مريم يدها وتلحق بعباس الذي يكون في انتظارها عند باب المصعد منتظرا صعوده .

واعتادت مريم أن تصحب زوجها يوسف في زيارة أخرى ، ولا تطول زيارة يوسف ؛ لأنه لا يتخللها طعام ، إنما يأخذون معهم بعض العصير والحلوى المسموح لها بتناولها ، وتشكيلة من الفواكه الطازجة .

يوسف التحق بالعمل في أحد المستشفيات ، وأما مريم فانشغلت بمرضها ، ورعاية أبنائها الذين شبوا ، وقد التحق أحدهم في الجامعة ليدرس مثلهم في كلية الطب والجراحة .

وكانت الأم تجعل لقاءها بيوسف ومريم حول الضغط على عباس ليقترن بأنثى ويتزوج فيقول يوسف : لقد تعب لسان والده يا عمتي وهو يرغبه في ذلك ، ومات وهو يحثه على ذلك لكنه في هذه القضية حسم أمره .. ورغم تعامله الكثير مع طبيبات وممرضات ومريضات لم نسمع أنه هم بالزواج حتى أننا مرة سمعنا أن له اهتماما خاصا بمريضة بنت أحد الشخصيات المهمة ، وقد زارها في البيت عدة مرات مما أثار دهشتنا ، واعتقدنا أن تغيرا سيحدث لعباس .. هذا نقل لنا ونحن نعمل في السعودية .. ثم انتهت القصة بدون نهاية .

وهكذا كانت زيارات راضية وإخوتها وزوجها وزوجاتهم ، وهي ترجاهم لتحقيق ذلك الهدف .

قضت هدى سنتها الأولى في دار رعاية المرضى أو كما يسميها شركاء الدار قصر الوفاء ، ولم يتحسن وضعها الصحي كما كان مرجوٌ من كثرة العلاجات التي تعرضت لها ، وأسرة حسن مسلم لم تحسم أمر بقائها في ذلك المكان أم الحياة في شقة خاصة وسطهم ، بل عرضت فائزة أم فضل حياتها معها في عمارة والدها الحاج عزام ، العمارة التي ورثها حسن عن عمه عزام أبي والد هدى . أصر عباس على بقائها حيث هي ، فهو يخشى مللهم بعد حين ، فأمراض الدماغ الشفاء

منه إما صعب ، وقد يأخذ وقتا طويلا ، وإما لا يذهب إلا بالموت ، فيخشى أن تخفت فورة العاطفة والشفقة على أمه ويتورط هو معها ، وهو ما زال في نفسه غصة منها .

وهدى نفسها لما لمحوا لها بهذا العرض رفضت بشدة وغضب .. وهو الحياة في بيت والدها القديم حيث ذكرياتها الأولى وحياتها مع حسن ، وتذكرت مشاجراتها الكثيرة مع حسن ، وكذلك ذكرياتها مع أمها التي ماتت ، ولم تشهد جنازتها وأيامها الأخيرة ، رأت أن العودة إليه عذاب سيؤرق كيانها في سقمها ، وصارحت راضية بذلك بعدما رفضت الاقتراح بالعودة لبيت والدها . وبينما هم يتجادلون ويقترحون قدم عباس طلب تقاعد من الجيش ، وقبل طلبه وخلال شهور ترمج كطبيب من الجيش برتبة عميد ، وقد بلغ من العمر خمسين سنة ، وعرض عليه العمل في عدد من مستشفيات القطاع الخاص ، وبعضهم عرض العمل عليه في عيادات متخصصة في طب وأمراض القلب ، وتعاقد مع شركة عالمية للعمل في عمليات خاصة في أي مكان في العالم حسب الطلب ، لذلك بعد قبوله لدى تلك الشركة الطبية العالمية الطبيب الطائر بدأ يتنقل في بلدان العالم حيث يطلب منه السفر ، فمرة يجري عمليات في الهند ، ومرة أخرى في البرازيل ، ومرة ثالثة في جنوب أفريقيا ، فقل وجوده في البلد .

فقالت له مريم : أهذه حياة يا عباس ؟

ابتسم لها وقال : ولماذا الخوف؟ عليّ لا أسرة ولا أولاد.. بل ارتحت من مشاكل أم داود ..

ـ أمك يغمرها الندم يا عباس

ـ وماذا ينفع ندمها عباسا اليوم يا أختاه ؟ ـ إنها في النهاية أمنا.

ـ وماذا نفعل لها ؟ ها هي في مكان من أفضل أماكن الرعاية للمرضى في الشرق الأوسط.. وأطباء أكفاء يهتمون بها ، ونزورها كلما تحين الفرصة .. ماذا نفعل لها أكثر من ذلك ؟ ليس لدي أحفاد وأبناء يلتفون حولها .. حكموا عقولكم يا ناس

قال يوسف : صحتها تتدهور يا عباس

ـ المرض الدماغي ـ وأنتم الأطباء ـ تعلمون أنه من الصعب الشفاء منه نهائيا ، ولا تنسوا السن

التي هي فيها ، ولم تكن الضربة والحادثة سهلة .. بل من فضل الله أن عاشت بعد الحادث .. أنا قرأت كل التقارير الطبية ، وتحدثت مع إدارة المرور في مونتريـال عن تفاصيل الحادث ، ومع المستشفى الذي تعالجت فيه بعد الحادث ، فقالوا إنها اليوم بخير لما أرسلت لهم صور التقارير لقد توقعوا موتها بعد حين يسير ظنا أن التلف سيزداد مع الوقت .

حمدت مريم ربها وقالت : كلما أراها وحيدة أحزن عليها ويتمزق قلبي .

ـ يا مريم العزيزة هي التي شاءت الحياة بعيدة عن العائلة وعنا .. هي بغضت أبي ؛ لأنه تزوجها غصبا عنها .. ولما مات أبوها طلبت الطلاق فور انتهاء العزاء ، وبعد ضغطها وتهديدها لهم بالانتحار وافق أبوك على الطلاق تحت الأمر الواقع .. وهي التي اختارت البعد والهرب عن الأسرة ، وضحت بنا من أجل شهوة حب مزعوم .. ومع ذلك سكت الناس عن فعلتها المشينة للأبد ، وقبلوا التعايش معها وفاء للحاج عزام ولأبي زوجها الأول .. وحتى لو سكنت بيتا سيكون مستشفى لها .. طبيب ممرض طباخة خادمة

ـ أنت تعقد الأمور .. لو كانت تعيش بيننا .. في أي وقت ليلا نهارا نمر عليها .. نسهر معها .. نشد من أزرها .. أنا لولا الناس حولي أولادي أولاد إخوتي وأولاد إخوة يوسف بناتهم نسائهم لانشغلت بمرضي وهلكت قديما

ـ صحيح هذا الكلام بحقك أما بحق أم داود فكل نساء العائلة لم يعجبهن فعلها .. فهل سيأتين ببناتهنّ ليتعلمن تفاصيل قصتها ؟ وإنها أحبت شابا في مقاعد الجامعة وضحت بالعائلة والعادات من أجل الهوى .. لقد أجرمت في حق العائلة المحافظة .



وصية مريم

لقد عمل عباس بعد تقاعده في مؤسسة طبية عالمية تعمل حول العالم ، ونتيجة لهذا العقد أصبح متنقلا بين مدن كثيرة في العالم لإجراء جراحات القلب والدماغ ، وكان يعمل ضمن فريق جراحي عالمي ، ولذلك كانوا يذهبون لإجراء عمليات في مواقع الكوارث العالمية من فيضانات وزلازل وبراكين .

ووجد الرجل راحة نفسية في هذه التجوال رغم مشقة السفر في الطائرات والقطارات والحافلات ، ولم يقصر بالاتصال مع أخته مريم وزوجها يوسف ، فقد صادقه منذ الطفولة ، فلذلك عندما كان يستقر في مدينة فكان أول هاتف يكون معهم ، وكانت تشغله صحة مريم كثيرا .

وبينما هو يوما في مدينة من مدن جنوب أفريقيا يعملون نشاطا طبيا ، وعندما عاد للفندق وقام بالاتصال بمنزل مريم ـ وقد كان له أكثر من أسبوع لم يتصل بهم ـ رد عليه ابن شقيقته محمد طالب كلية الطب ، فنقل إليه خبر وفاة شقيقته منذ يومين ، فاسترجع الرجل ، وترك السماعة وأخذ بالبكاء ساعة من الزمن ، ثم عاود الاتصال واستفصل من زوجها عن لحظاتها الأخيرة ووصيتها ، فقال يوسف بعد تقبله العزاء ورواية أيامها الأخيرة : كانت ترغب برؤيتك وهي تودع الدنيا ، ولم نتمكن من الاتصال بك .. وكانت وصيتها لك برعاية أمك والزواج ..كانت تتمنى أن تراك زوجا وتحضر حفلة زواجك .

وعاود عباس البكاء وقال : سأتصل بك ثانية .. كنت أحبها كثيرا يا يوسف ، كانت هي دنياي وكنت أعطف عليها كثيرا ، في أقرب فرصة تتاح سآمر على البلاد ، وأزور قبرها ، وأتصدق عن روحها العزيزة إليّ .. لقد كانت النور لي في هذه الحياة .. أظلمت الدنيا في وجهي .. صبرك الله يا يوسف ..سلم لي على الأولاد سأكون بينكم قريبا .

أغلق الهاتف وعاد يسكب العبرات على شقيقته التي قضت عمرها في الألم والحزن والمرض ، كان يتذكر دموعها ونشيجها لما تخلو بنفسها ، عندما كبرت وعلمت بهرب أمها وتركتها

صغيرة ، كانت في البداية تظن أن أمها ميتة ، ولما وعت لقضية هربها ، كانت تبكي كثيرا وعباس ينظر إليها حزنا وألما وضيقا .. سخط على الحياة التي اختارت له هذه الأم ، ثم يتوب إلى الله ويستغفره عندما يعاتبه والده بصوت رقيق وهادئ .. كان حسن المدرس يشعر بالألم الذي يعانون منه من تصرف أمهم الأرعن .. ويقول لهم أسوأ الاحتمالات افرضوا أنها ماتت .. وهل هذا الأسوأ يخفف الجرح النازف ؟ وهم يعلمون أنها مهاجرة .. تركتهم للزواج من رجل دغدغ عواطفها ، وأخذ مال جدهم ليبتعد عنها ؛ ولكنه خان العهد ، وظلا يتراسلان من وراء أبيهم الذي تظاهر بالغباء والجهل حتى لا يموت عمه كمدا وحزنا ، ولربما كان الجد يعلم هو الآخر بتلك الرسائل ، وتظاهر بالجهل حتى يدفع حسنا لطلاقها ، ثم مات معلولا بالقلب ، وأحب لعباس أن يكون طبيب قلب .

وها هو عباس يحلق في أجواء العالم ليعالج قلوب البشر ؛ ولكنها قلوب القادرين على دفع المال بل كان يسر سرورا كبيرا عندما يعالج جنديا صغير الرتبة في الجيش أكثر من معالجة كبار الضباط والشخصيات المهمة في البلاد .

شريط الذكريات والأحداث سواء الأسرية أم العلاجية يدور أمام ناظريه ولم يتوقف إلا عندما اتصلوا به للنزول لقاعة الطعام ، فاعتذر وطلب العشاء في غرفته ، وقد ذكر لمدير الحملة التي يصحبها ظرفه الحالي .



قضى عباس ست سنوات مع الفريق الطائر ، ثم عاد ليستقر في بيته الذي شيده في حياة والده حسن ، ولما زاره يوسف ابن عمه الذي تزوج ثانية بعد وفاة مريم بشهور . فقال له : لقد وعدتني بآخر زيارة للبلد بأنك تفكر بتحقيق وصية مريم بالزواج .

فقال عباس متظاهرا بالبلاهة : هل يتزوج المرء بعد الخمسين ؟!

ضحك يوسف وقال : المرء يتزوج على الثمانين يا عباس .. ها أنا تزوجت وأنا في الخمسين وولدت المرأة طفلين ، وعدنا نسمع بكاء الصغار من جديد بعد انقطاع طويل .

ـ كيف عائلتك الجديدة ؟

ـ هي من بنات بنات الخال ماجد ، قبلت بي ، وهي قد أنهت الجامعة قبل زواجنا بسنتين ، فيها عيب خلقي منع زواجها أو قل نفر الشباب عنها .. أختك راضية هي التي حدثتني عنها وسعت بذلك النكاح .. وهي طيبة ومسكينة .

ـ لقد رأيتها وهي فعلا طيبة ومسكينة .

ـ أنت الآن متقاعد فعليا !

ـ تقاعد من الالتزام بعقد أو مستشفى ، ولكني سأقوم بعمليات خاصة مع عدد من العيادات حسب الطلب والاتفاق .. وهل يتقاعد من معالجة الناس ؟! .. التقاعد فقط من الوظيفة .. بل تحدث معي الدكتور سرور لإنشاء مستشفى خاص ، فاعتذرت لا أحب العمل الإداري كثيرا

قال يوسف محمد : جميل هذا الكلام ! .. سأتحدث مع المستشفى الذي اشتغل فيه ليتعاونوا معك في إجراء عمليات خاصة ، ففيه قسم عمليات للقلب ، سواء القسطرة أم القلب المفتوح

ـ حسب الظروف والفراغ .

ـ حسن ذا .. نعود لوصية مريم الغالية على قلبك .

ضحك عباس وقال : الزواج .. وهل من تقبل بهذا الشيخ الذي لم يعرف النساء ؟

ـ أختك راضية تحسن الاختيار ، فهي بحكم عملها طبيبة بمؤسسة اجتماعية ، ولعلاقتها بعدد من الجمعيات ستختار لك العروس المناسبة لرجل يكره النساء ..

قال مادحا لأخته : راضية أخت عزيزة أكثر من أم أسامة .

ـ أولاد وبنات عمي حسن كلهم أفاضل .. هل أتحدث معها أنا ؟

ـ نعم ، وصية مريم غالية على قلبي يا يوسف .. افعل لأنني أنا أستحي أن أحدثها بمثل هكذا موضوع .

تبسم ابن عمه وقال : أعرف ، ومن أجل ذلك تطوعت لفتح الموضوع معها .. وهذا الأمر سيسعد الجميع يا عباس ، وعلى رأسهم أم عباس ـ غفر الله لها ـ فصحتها للأسف في تدهور

هل رأيتها ؟

ـ تعشيت معها ليلة أمس ، وسهرت عندها للعاشرة ليلا.

قال بسرور : تطور رهيب يا عباس .

ـ كانت متعبة ونقلوها لغرفة الفحص ومتابعة القلب ، فاضطررت للبقاء معها حتى انتهت الفحوصات ورسم القلب والدماغ .. من قبل المغرب وهم يتابعونها .. وهي كما قلت تضعف رويدا رويدا ؛ ولكن الدار تقوم بواجبها على خير ما يرام .

ـ ليس مجانا قد دفعتم ربع مليون منذ استقرت فيه .

ـ سندفعها في أي مكان ستكون فيه

ـ نسأل الله لها العافية وحسن الخاتمة ؛ ولكنها لو عادت للصلاة على الأقل .

ـ ضعف الذاكرة والوهن لا يمكنانها من معرفة الصلاة .. الله يلطف بها .

حضر العشاء من المطعم المتعاقد معه عباس ، وقامت الخادمة وشقيقها بتهيئة السفرة في قاعة الطعام ، ونهض إليها الرجلان ، وقال يوسف : كان محمد ابن شقيقتك راغب بالمجيء معي ، ووجد زوجته الحامل عندها صداع فأجل المجيء

ـ كيف زوج فاطمة ابنتك ؟

ـ شاب طيب، وأهله من خيرة الناس ، ويعبرون عن سعادتهم بالتوفيق لاختيار فاطمة يوسف لابنهم .

ـ هو ليس من أقاربنا كما فهمت منك مرة ؟

ـ تعرفت على والده في المستشفى الذي أعمل فيه ، فهو رئيس قسم المحاسبة ، وتعمقت صداقتي به ، ولما تخرج ابنه من كلية الهندسة رغب بمصاهرتي ، فهو قد رأى البنت كذا مرة عندما كانت ترافق أمها للعلاج عندنا .. وبعد موت مريم وانتهاء ابنه من الجامعة كلمني وحصل القدر .. وهو شاب هادئ مثلك ، وها هي قد ولدت منه طفلة جميلة .. ولسوف يأتون للسلام عليك كما اتفقت معهم ، فأنت خالهم الغالي .. وسيف الصغير فهو يدرس في القاهرة كما تعلم .

ـ قابلته مرة أو أكثر هناك ، وقضى معي ليلة في الفندق

ـ وأعطيته خمسمائة دينار ليتبحبح بها .

ضحك عباس وقال: أقال لك ذلك ؟

ـ وهل يستطيع إخفاء ذلك ؟



تلقت راضية رغبة عباس بالزواج بحماس شديد ، وقالت ليوسف مبتهجة : هذا خبر رهيب! عباس يريد أن ينفذ وصية مريم ـ رحمها الله ـ سأهتم بتحقيق هذه الرغبة التي احتاجت لعشرات السنين حتى تتحقق ـ إن شاء الله ـ سنفترض أنه ترمل مثلك .. ولكنك تزوجت صبية شابة بينك وبينها ثلاثون سنة .. أتراه يريد فتاة مثل أهلك ؟ عباس معقد من جهة النساء يا أبا محمد

ـ امرأة فوق الثلاثين ودون الأربعين حتى تنجب له ذرية يا راضية .

ـ اسمع يا يوسف ما رأيك بأخت زوجي الأرملة ؟

ـ نبيلة سليم .. كم ولد عندها ؟

ـ مات زوجها عنها على طفلين سعيد ابن اثني عشرة سنة وخولة عشر سنوات وهي دون الثلاثين سنة .. أصغر شقيقات عيسى كما تعلم ترملت منذ سنتين فقط .

ـ هل لعيسى زوجك كلام ؟

قالت : لا أعتقد أن يعترض عيسى .. فهو يحترم عباسا كثيرا رغم أنه يراه معقدا أو مكبر موضوع أمه أكثر من اللازم .. وهناك والديّ نبيلة أحياء .. وهم من العائلة الكبيرة .

ـ تحدثي مع أخيك بشأنها قبل أن يغير رأيه.. فمريم كما تعلمين كانت شيئا كبيرا بالنسبة لعباس

ـ هذا معروف يا أبا محمد .. سأتصل به الآن وآخذ موعدا معه .

ـ هو أغلب الوقت في البيت منذ عاد من سفره الأخير ، وقد فسخ عقده مع الطب الطائر .. هذا الكلام كان بيننا ليلة أمس ..وذكر لها تعب أمه وقضاء ساعات معها في دار الرعاية .

لما انتهت المكالمة بينها وبين يوسف ، وقبل أن تتصل على عباس قال لها زوجها الذي دخل عليها

وهي تتكلم في آخر المكالمة : أبو محمد الذي كان على الخط ؟

ـ أجل يا أبا سليم .. عرجنا على ذكرك أثناء الحديث

ـ ذكري .. خيرا إن شاء الله !

ـ يقول يوسف إن عباسا يريد تحقيق وصية مريم

ـ وصية مريم أختكم !

قالت : وهل هناك غيرها يا سليم ؟! .. وصيتها له وهي تحتضر بالزواج

ـ تذكرت نعم ، وهل سينفذ الوصية اليوم ؟

ـ يبدو ذلك ، فكان يوسف عنده ليلة أمس ، وحدثه عن تلك الوصية ، فكلفه بالبحث عن امرأة تقبل به في هذا السن ، فقال له يوسف وها أنا تزوجت وأنا بمثل سنك .. لا يهم السن بالنسبة للزواج خاصة الرجال.. وكان يوسف يحدثني بذلك ، ويطلب مني السعي له بذلك فتذكرت نبيلة ما رأيك أنت ؟

ـ أختي نبيلة .. لا أدري يا راضية .. عباس جيد وأخوك ثانيا وقريبي ثالثا.. أيصلح عباس للزواج بعد كل هذه السنين من الهجر للنساء ؟

ـ من ناحية القدرة الجنسية الباءة لا أحد يعلم إلا هو .. هو إنسان له شهوة كغيره من الناس وأختك أرملة وعندها أولاد ، فلو لم تنجب منه لا حرج في نظري ، وسأتحدث معها صراحة بكل هذه المخاوف ..

ـ نعم ، عليك بالحديث معها دون مواربة يا راضية ، وقد عاشت سنوات بدون ولادات .. ابنتها عشر سنوات ، وفهمت منها أن زوجها اكتفى بالاثنين

وأكدت راضية قائلة : وكانت قابلة لذلك يا عيسى .. وسيهتم عباس بأولادها ورعايتهم وتدريسهم .. هي عصبية بعض الشيء كما تعلم ، وأرى أنها مناسبة لعباس ، فعباس من عشاق الصمت .

ـ وهي من عشاق الثرثرة . ـ هل يعترض والدك على عباس إذا قبلته نبيلة ؟

ـ أمي تحب عباسا ، وتتألم لمأساته ، والوالد يحترم عباسا ، ولا تنسي أن نبيلة أرملة.

ـ وأنا فكرت بها ؛ لأنها سيدة أرملة ، وأن عباسا كبير السن ، إنه يقترب من الستين ولم يعرف الحياة الزوجية .. فنبيلة عندها خبرة تستطيع تحمل عباس وظروفه ، وهي تعرف قصة أمه هدى سأتصل بعباس الآن وأرتب معه لقاء.

من قصص عمر

لما أنهت راضية حسن دوامها في العيادة الخاصة بها ، ركبت سيارتها ـ وكانت الساعة قد اقتربت من السادسة مساء ـ وسارت باتجاه بيت أخيها عباس الذي كان في انتظارها على موعد مسبق بينهما ، ولما دخلت الفيلا وجدت عنده بعض الضيوف ، فألقت التحية عليهم وقالت : سأدخل للصلاة فقد سمعته يؤذن للمغرب .

ولما قضت صلاتها ناداها عباس قائلا : تعالي لقد انصرف الزائرون .. إنهم أصدقاء الجيش .

فقالت وهي تغادر حجرة الصلاة : أذكر أنني قابلتهم هنا أكثر من مرة عساهم بخير .

ابتسم لأخته وقال : هم يعرفونك أيضا ، فهم أطباء ، ويهدونك السلام ، لما سمعوا باستقالتي من المستشفى الطائر جاءوا للسلام .. أهلا بالأخت الغالية .. العشاء قادم .

ـ أنت لماذا لا توظف عندك طاهيا بدل طعام هذه المطاعم ؟!

ضحك عباس ورد قائلا : عندي طباخ وأخته.. ولكني أحببت طعام السوق والمطاعم منذ استقلالي بالحياة .. فهم يقدمون الإفطار لي وأحيانا العشاء الخفيف ، أما لما تزورني أم سليم فمن الواجب إكرامها.. وكيف وهي قادمة لي بعروس؟

ضحكت راضية وقالت : أنت عزيز على قلبي ! أنا أحبك يا عباس بحق ! .. وأنت نعم الأخ وأنت وصية أبينا حسن ـ رحمه الله ـ فقد ذهلت لما نقل لي يوسف أخيرا خبر رغبتك بتنفيذ وصية مريم الغالية علينا ـ رحمها الله الرحمة الواسعة ـ وقد عانت كثيرا في حياتها الدنيا ، وستجد ذلك الثواب الجزيل عند الله ..

ترحم على شقيقته مريم وقال : في رأيك أأصلح بعد هذا العمر للزواج ؟

ضحكت وقالت : أكيد لن تكون مثل الشباب .. فالسن له دوره في ضعف الناس ؛ ولكن الرجال يتزوجون ولو بلغوا مائة حتى أننا نسمع حكايات أن بعضهم يتزوج فتيات دون العشرين .. واليوم يستخدم الناس الأدوية والمنشطات ..

دخلت الخادمة تخبر بوصول الطعام ، فنهض الأخوان إلى حجرة الطعام ، حيث كان الخادم

يدخل المواد من سيارة شركة الأطعمة والوجبات ، وكان عباس يعرف الطعام الذي تشتهيه راضية ، ولما جهزت المائدة جلسوا يأكلون ، فقال عباس : أنا لليوم ـ كما تعرفين ـ لم أقرب النساء ، عافت النفس ذلك .. مع أني عشت أيام الشباب عدة سنوات في ألمانيا ، وتعرضت فيها للإغواء أكثر من مرة ، فكنت أرفض ممارسة الجنس مع أن فتياتهم لا يرون ذلك شيئا كبيرا ، كما هي نظرتنا نحن للجنس خارج الحياة الأسرية .. وهم عندهم ـ كما تعلمين ـ ثقافة الجنس أو الزنا الآمن

ـ هذا هو الصح الزنا .. عندهم وسائل الوقاية المتعددة ، ويعتبرون المعاشرة الزوجية كمن يأخذ إبرة بنسلين والعياذ بالله من سخط الله ، ورغم كل هذه الحمايات يا عباس تنتشر عندهم الأمراض الجنسية والعيادة الجنسية .. لا مجال للمقارنة بين نظافة وطهارة الإسلام والأديان الأخرى .. أنت تحسن اختيار الأطعمة يا عباس !

ـ علمتني الحياة ذلك والسفر خاصة ، بعض الناس يسافرون من قطر إلى آخر من أجل أكلة شهية في طوكيو في روما ..

ـ كل الناس تأكل ؛ لكن الأموال أين سينفقونها ؟

ـ هو مالهم ورزقهم ، فلماذا لا يتمتعون به في حياتهم؟ وما الفائدة لتركة للورثة والجمعيات وهو كثير ؟

سكب لهم الخادم الذي كان يقف مراقبا لهم شراب العصير عندما لاحظ أن الدكتور بدأ يمسح فمه ، وتناوله عباسا وجرعه ، وأعاد الكرة وهو يقول : كلي حسب طبعك يا راضية .. أنا تناولت بعض الفاكهة مع ضيوفي الكرام .

شكرته بعينيها ، ولما بلعت ما في فمها قالت باسمة : ألست في بيت أخي الغالي ؟

ـ إني أحترمك جدا يا راضية وأنت تعرفين هذا .. كيف أمك اليوم ؟

ـ إنها بشوق لرؤيتك بعد عودتك هذه .. وعندما تعلم برضوخك لوصية أختنا مريم ستدب فيها الحياة

قال : أمراض المفاصل تتعب الصغار قبل الكبار .. تكلمت معي بالهاتف ، ووعدتها بالمرور عليها .. فانقلي لها شوقي وتحياتي .

وانتقلوا لصالون الفيلا وقد وضعت أمامهم الفاكهة والشاي الأحمر وبعض أنواع من المكسرات التي يحبها عباس، ولما استرخوا على المقاعد قالت راضية : أفهم من كلامك الصريح أنك لم تعاشر امرأة طول حياتك .

ـ أبدا يا راضية حتى أثناء عملي الأخير مع المستشفى الطائر تعرضت لي بعض الطبيبات والممرضات العاملات ضمن الفريق لمثل هذا ، فاعتذرت ، بل استغربن جدا من عدم ممارستي للجنس لذلك اليوم .. لولا معرفتي بتهاونهم في مثل هذه العلاقات لتعجبت من حياتهم البهيمية .

ـ إنما هي ثقافة سائدة عندهم .. لذلك قد تعيش المرأة عندهم مع الرجل سنوات وسنوات بدون زواج وعقد رسمي .. حسنا يا أخي الحبيب أعندك صفات معينة للمرأة التي ترغب بها زوجة لك ؟

ـ حقيقي عندي قلق كبير من الزواج ، ولكن زواج يوسف بعد وفاة المرحومة مريم من فتاة تصغره بزمن كبير رفع من معنويتي للزواج ، وأخشى في نفس الوقت أن لا أنجح في الحياة الزوجية خاصة من ناحية المعاشرة يا راضية فأحطم المرأة التي ستكون زوجة لي ..فالطلاق عليّ سهل إذا لم أعد أصلح لهن .

ـ المشكلة هذه! وهي الضعف الجنسي لدى الرجال ، وهو سبب الكثير من حالات الطلاق في كل بلاد العرب والمسلمين .. وثقافة الأفلام الشائعة تثير الشجون لدى الجنسين ، ويعتقد الرجل أنه مثل الجرذ لديه طاقة كبيرة في مخدع الزواج ، ولما يتزوج يكتشف أنه إنسان ليس حيوان .

ـ أنا أريد امرأة محترمة تقدر أنها تزوجت رجلا كهلا أو شيخا ، ولم تتزوج فتى مراهقا .. لو استطعت أن أقربها في الشهر مرة أن تحمد الله على ذلك .

ـ جيد هذا يا عباس! قرأت أن بعض الفقهاء جعلوا حظا للأنثى في الجماع مرة كل فصل أو أربعة أشهر.

ـ أبحث الفقهاء هذه المسألة يا راضية ؟!

ـ أو ليست من الدين ؟ اسمع هذه القصة التي اطلعت عليها ، وقد سمعتها أكثر من مرة من مرضاي ، يرون أن القاضي كعب بن سور أحد قضاة المسلمين في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعا ، كان جالساً عند عمر بن الخطاب ، فجاءت امرأة تمدح زوجها ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت رجلاً قط أفضل من زوجي ، والله إنه ليبيت ليله قائماً (يصلي صلاة قيام الليل) ، ويظل نهاره صائماً (تقصد صيام النفل) ، فلم يفطن عمر لمغزى مدحها وشكواها ، فاستغفر لها ، وأثنى عليها ، واستحيت المرأة وقامت راجعة .

فقال كعب : يا أمير المؤمنين : هلا أعديت المرأة على زوجها ، فلقد أبلغت إليك في الشكوى .

ففطن عمر فقال لكعب : اقض بينهما ، فإنك فهمت من أمرها ما لم أفهم

قال : فإني أرى كأنها امرأة عليها ثلاث نسوة هي رابعتهن ، فأقضي بثلاثة أيام ولياليهن يتعبد فيهن ، ولها يوم وليلة .

فقال عمر : والله ما رأيك الأول بأعجب من الآخر ، اذهب فأنت قاض على البصرة ، نعم القاضي أنت .

أعجب عباس بقضاء كعب وعقب فقال : لها ليلة من أربع ليال .. جميلة هذه القصة منك يا راضية! .. وهل أطيق ذلك بعد أن كبرت سني ؟!

ضحكت راضية وقالت : أنت تناسبك هذه القصة فاسمعها جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقالت إن زوجها لا يصيبها فأرسل إلى زوجها فسأله ، فقال كبرت وذهبت قوتي ، فقال له : في كم تصيبها ؟ قال في كل طهر مرة (أي في الشهر الواحد) فقال عمر : اذهبي فإن فيه ما يكفي المرأة .

الخطيبة

لما أتمت راضية حسن قصة حكم عمر لتلك المرأة صمتت أو قل اشتغلت بقضم تفاحة ، وكان عباس مبهورا بما سمع فقال بعد صمت قصير : أنت رائعة يا أم سليم! .. لقد أعدت لي الثقة بهذه القصص اللطيفة .. خشية أن أظلم الإنسانة التي سأرتبط بها من تلك الناحية .. الآن ندخل على لب الموضوع ، هل ترين أني أصلح للزواج أم أني تأخرت وفات القطار ؟ عندما يقترب الإنسان من الستين ليس الأمر هينا يا راضية .. معنى ذلك أنه يقترب من سن الضعف والموت

ـ لا أعتقد يا عباس أن الزواج مرتبط بسن معينة .. الرجل لا يستغني عن امرأة في حياته وحتى في أواخر عمره ، ربما المرأة تقبل بالحياة أرملة أو مطلقة أكثر من الرجل .. فهي تقبل في العيش بكنف الأبناء أكثر من الرجل .. القضية الأهم هو اختيار المرأة الملائمة له .. لقد عرفت رجلا تجاوز السبعين عندما ترمل ثم زوجه أولاده ؛ لأنه لم يقبل بحياة خادمة معه .. وتزوج امرأة فوق الخمسين بقليل ، وقد عالجتها أكثر من مرة ، وعرفت قصتها هذه ، وبعد حين افتقدتها ، فأخبرت أنها ماتت .. ماتت قبل الرجل العجوز .. الأعمار بيد الله

ـ أكيد أن الأعمار بيد الله .. أنا أريد امرأة تحب الستر والحياة البسيطة وتعلم من تزوجت .

ـ اسمع عندما حدثني الأخ يوسف عن زواجك اقترحت عليه أن نعرض عليك أرملة أخت عيسى زوجي وقريبتنا أيضا ، فهي قريبة من الثلاثين سنة ، ويمكن أن تحمل إذا لك نصيب في الذرية ، وثانيا هي أرملة وعندها طفلان ولد ابن اثني عشرة سنة وأخته تصغره بعامين يعني لها سنوات لم تخلف لعدم رغبة زوجها المتوفى بذلك .. وهي تعرفك حق المعرفة ، ووالدها وأمها يعرفانك .. وتحدثت مع عيسى ليلة أمس فلم يعترض .. ففكر فيها ؛ فإذا وافقت على الارتباط بها فسأتكلم معها ، فهي أرملة منذ سنتين قد تزيد شهور

ـ إني لا أذكر شكلها .

ـ أتحب مشاهدتها ؟

ـ لا بأس .

ـ حسن هذا ، سأدعوك للعشاء عندي يوم الجمعة القادم ، وأدعوها مع آل عمي سليم

بعد صمت قد طال قليلا قال : أنت ترينها مناسبة لرجل عجوز مثلي .. أليست صغيرة ؟ .. بيننا ثلاثون سنة .

ـ المرأة البالغة بنت العشرين كابنة الخمسين ما دامت تحيض .

ـ خبيرة في النساء!

قالت باسمة : الحياة تجارب يا أخي .

قال : نعم الحياة تجارب كما قلت .

ـ ومن خلال الالتقاء بالمرضى والصديقات نطلع على قصصهم وتجاربهم وهم يحبون نصحهم خاصة إذا وثقوا بك .

ـ كما قلت خبيرة في النساء!

ـ اسمع قال صلى الله عليه وسلم [فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها] * فهذا نص كلام النبي صلى الله عليه وسلم .. ما دامت امرأة صغيرة كبيرة كله من ناحية الجماع سيان .

ـ أنا ازداد بك إعجابا يا راضية.. تحسنين الإقناع .. وهذا كلام عظيم من الرسول صلى الله عليه وسلم .. إذاً علينا رؤية شقيقة عيسى لنتابع المشوار .. أهي راغبة بالزواج ؟

ـ هي مترددة قليلا ؛ لأنني حدثتها بذلك الأمر قديما لزميل لنا في المجمع الطبي .. ربما لأن وفاة

---

* عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ فَقَضَى حَاجَتَهُ وَخَرَجَ وَقَالَ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا قَالَ أَبُو عِيسَى حَدِيثُ جَابِرٍ حَدِيثٌ صَحِيحٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ (ت) *عَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّهُ يُضْمِرُ مَا فِي نَفْسِهِ(د)

زوجها كانت حديثة سنة أو أقل بشهر ..

ـ على كل حال إن قبلت بي .. لا تضغطي عليها يا راضية .. أنا أريد حياة زوجية هادئة ؛ كأنني لم أتزوج .

ابتسمت ابتسامة تشجيع وقالت : ستجد ما يسرك منها .. فأنا أعرف آل عمي حق المعرفة ، لا أذكر أنني تشاجرت مع عيسى مشاجرة يمكن أن تسميها مشاجرة ، فهو يحب الاختصار .. ورغم مرض زوجها في آخر سني عمره كانت راضية بنصيبها وصابرة ، والدليل على ذلك أيضا أنها لم تضغط عليه حسب حدود معرفتي من أجل المزيد من المواليد .. وأنا أراها مناسبة لسنك ولعدم خبرتك في النساء وهمومهن .. وهذا كله في علم الغيب ، وأرجو أن تقبل ، وإذا لم تقبل سأجد لك غيرها إن شاء الله تعالى

ـ سلمت أمري لك في هذه القضية المصيرية ، وأدعو الله أن يوفق ويسهل أمر هذا الزواج .. وأشكرك يا أخت راضية وآسف جدا لإزعاجك .

وانتقل الحديث إلى أخبار أولادها وزوجاتهم وحياتهم ومدارسهم وجامعاتهم ، فراضية ولدت ثمانية من المواليد .

بعد مغادرة راضية بيته شرب المزيد من القهوة ، وهو يقلب محطات التلفزيون الفضائية التي بدأت تنتشر وتزداد في أواخر تسعينيات القرن العشرين ، ولما لم يجد فيها شيئا مهما ـ فأكثرها تبث الأفلام الأجنبية القديمة والأغاني العتيقة وحوارات عقيمة ـ انتقل إلى غرفة المكتبة التي أقامها داخل الفيلا ، وكان قد تعاقد مع أكثر من دار نشر ومكتبات تجارية لتزوده بجديد المصنفات ، فكان بريده يحفل بمراسلات المكتبات وجديد الكتب ، وكان الخادم الآسيوي يذهب لتلك المكتبات في أواخر كل شهر مرة لجلبها من تلك المكتبات التجارية ، ومع الزمن كبرت مكتبته أي كثرت موجوداتها من الكتب .

كانت بعض الكتب منتشرة على طاولات المكتبة ، فقد كان قد طلب من الخادم بألا يعيدها لمكانها في الرفوف .

قضى ساعات من الليل يقلب في بعض الكتب التي يقرأ فيها تلك الأيام ، وتصفح بعض المجلات العلمية التي يتابعها ، ومع أن القراءة هوايته الدائمة والمصاحبة له من عهد الطفولة ظل الفكر مشغولا بمشروع الزواج ، وكان بين الفينة والتي تليها يحدث نفسه سائلا هل يستمر في أمر الزواج ؟ أم يستنكف عنه ؟

ثم يتذكر ابن عمه يوسف القريب من سنه وزواجه ثانية وزوجته الشابة سعيدة معه رغم فارق السن بينهما .. كان هاجس الخوف والقلق من الحياة الزوجية بعدما كبر سنه يؤرقه .. ثم تذكر الأرملة التي تسعى راضية للجمع بينهما والأولاد ، فيقول بعد عصف فكري هل سأرتاح لوجودهم معي في البيت ؟ لم أعتد على الحياة مع الأطفال .. أنا كنت أحب أطفال مريم وأداعبهم وأعانقهم عند أمهم وأبيهم .. كنت أحيانا أسمح لهم بالمبيت هنا عندما كانوا يأتون من السعودية في إجازة .. سأضيف عبئا إضافيا لمارتن ودميانا .. أخشى أن أحطم قلب هذه الأرملة وأطلقها إذا ضقت ذرعا من الزواج .. أو لم ترتاح لي ..ولكنها شقيقة عيسى زوج راضية ستتحملني بحكم القرابة والمصاهرة .. ووالدها رجل فاضل أني أتذكره ، وهو مهندس بترول متقاعد ، لقد عالجته مرة في المشفى العسكري ، بل أذكر زوجته السيدة الفاضلة حليمة محمد أنا أذكرهم جيدا كانت تقول لي كلما نلتقي قلبي معك يا عباس أنت أخ طيب لي .. نحن من أبناء جيل واحد إلى حد ما .. ماتت مريم وهي مشفقة عليّ .. إنها تخشى أن أموت ولا ذرية لي اليوم يا مريم دور العناية بالكبار موجودة وشائعة ومقبولة من الناس .. كان الناس قبل عقود ينفرون من إبقاء الميت في ثلاجة الموتى ، ويعتبر الأبناء هذا من العقوق .. أما اليوم فهو عرف مقبول .. لأن هذه الدور تخدم هؤلاء الكبار نفسيا وصحيا اليوم الأبناء في الوظائف والعمل .. المرأة تعمل والزوج يعمل .. فها هي من تزعم أنها أمي لولا هذه الأماكن ماذا سأفعل لها في البيت ؟ .. سأزهقها من شهر من شهرين من سنة .. هل سأترك العمل للبقاء عندها ؟ كيف كان يعيش الأوائل ؟ .. إنهم سكان أرياف .. فالأقارب كلهم حول بعض البعض ، هذا يرعى هذا ، وهذا يرعى هذه .. وشغلهم حول البيوت .. حياة المدن غير حياة الريف والقرى .. هل

إذا هرمت سأنتظر من ابني أن يبقى بجواري ويترك وظيفته ؟ .. الدنيا تتغير .. نعم الدنيا تتغير



رتبت راضية وزوجها وليمة طعام لحميها وأخت عيسى السيدة نبيلة وأطفالها ، وشاركهم عباس تلك الدعوة ، ولما قضي الأكل انتقلوا لصالة البيت حيث قدمت لهم خادمة راضية أكواب الشاي ، وجلس عباس مجاورا للمهندس المتقاعد سليم ، ودار بينهم حديث مقتضب حول السياسة والأحداث العالمية ، ثم تحدثوا عن أخبار الطب والأجهزة الطبيبة التي طورت الطب من أجهزة التصوير الطبقي والرنين المغناطيسي وأدوات الجراحة الليزرية ، وكانت راضية مندمجة في الحديث مع حماتها وبنت حميها ، وكان زوجها عيسى يلتزم الصمت ، وأحيانا يعقب بملاحظة على كلام أبيه هنا ، وتارة على كلام أمه هناك ، وأما الأطفال فقد انصرفوا للجلوس مع بعضهم في غرف أخرى .

وبعد ساعة قضاها عباس معهم استأذن بالانصراف لزيارة ليلية أخرى ، فسلم وغادر ، ولما عادت راضية وعيسى من مرافقته لباب الفيلا الداخلي قال والد زوجها : كيف حالك يا أم سليم ؟ كيف أنت وعباس ؟

ضحكت راضية وقالت : أولا طمني على صحتك وصحة العمة ، سمعت أنك كنت عند الطبيب اليوم !

ابتسم السيد سليم لكنته : شكرا أم سليم ، أصبحت متعبا ولم استطع تناول الفطور ..فأخذني نافز إلى الدكتور خيري طبيب العائلة ، وعلل خيري ذلك بالبرد ، وأسمع عنه كثيرا ، ولا أعرف ماذا تقصدون وتعنون بالبرد ؟

ـ سلامتك يا عمي الفاضل ، عندما تتعرض الأجسام للجو البارد الطقس البارد يصيبها تعب فالجو يؤثر على الجسم ؛ لذلك نلبس في الشتاء الملابس السميكة الدافئة ، والطعام الذي يكون في جوف البطن كالمعدة والأمعاء يتأثر بحرارة الجو من برودة وحر ، وهناك أناس أجسامهم

محصنة ضد البرد لا يتأثرون بسهولة .. لكن البرد يسبب الكثير من الأوجاع للبدن ، وكذلك الحر الشديد ، وبالجملة الامتناع عن الأكل لساعات يعيد التوازن للجسم ، وربما إذا أخرج الإنسان ما في بطنه ارتاح يقال برد الصيف أحد من السيف

ـ بارك الله فيك يعني البرد هو البرد

ـ نعم ، لذلك يستحسن للإنسان ألا ينام إلا وقد غطى بطنه وصدره والإنسان يمكنه أن ينام بغير غطاء ، لكن لأن الليل أبرد من النهار لاختفاء الشمس ، فالثياب والأغطية تعطي الجسم الحرارة والدفء وحتى عادة يعالج المصاب بالبرد بالتدفئة ورفع درجة حرارة الغرفة والجسم*

ـ لعلي فهمت .. والآن ما مناسبة هذه الدعوة ؟

ـ وهل يكون للدعوة مناسبة ؟

ضحك وقال : خاصة إذا حضرها عباس .. نحن الدعوات قائمة دائما بيننا .

تطلعت راضية في عيني عيسى للحظات فابتسم لها ، فأدركت أنه تحدث بشيء لأهله فردت على عمها فقالت : عباس راغب بالزواج بعد هذا العمر يا عم سليم ، وكما تذكرون ماتت أختي مريم وهي توصي بأن يتزوج عباس .. وكان يماطل بظروف العمل الجوال كما تعلمون فلما عاد وأنهى عقده مع المستشفى الطائر ، ذكره يوسف ابن عمي وزوج مريم ـ رحمها الله ـ ذكره بوصية مريم ورغبتها التي ماتت عليها أن تراه أبا وزوجا ..وأنه أي يوسف ها هو قد تزوج كبيرا .. فطلب منه أن يجد امرأة تقبل به .. وفورا تحدث معي يوسف ونقل لي موافقة

* إصابةُ البرْد : إصابات ناتجة عن البرد ، التعرض إلى درجات حرارة منخفضة، نتيجة عدم قدره الإنسان على التكيف هناك، إصابات البرد الطرفية وهي تعرض جزء من أجزاء الجسم إلى أصابه البرد ، ، أو إصابات البرد لكامل الجسم ، و قد يحدث أحيانا مزيجا من الاثنين معا ، هذه الإصابات شائعة بين الأشخاص الذي يقضون معظم أوقاتهم خارجا في المناخ البارد مثل الجنود. وتصاب الأنسجة لتعرضها لحرارة منخفضة، وليس بالضرورة منخفضة جداً ، وهناك انخفاض الحرارة الذي يحصل عند المسنين ، ويدوم لبضع ساعات.

عباس على الزواج .. فذكرت له العزيزة نبيلة .. فطلب عباس أن ينظرها ، فكانت هذه الوليمة يا أخت نبيلة .

ضحكت نبيلة وأمها وسليم ، وقالت نبيلة : عيسى لم يستطع كتم الأمر .

فقال سليم : شكرا يا راضية أنت أغلى كنة عندي واسألي أم نافز

ـ وأنت عزيز على قلبي يا عم سليم .. أنا لا أريد الإحراج للغالية نبيلة .. كان باستطاعتي الحديث مباشرة مع نبيلة ومعكم .. فعباس ما زال مترددا في أمر الزواج والأولاد ، فأبي ـ رحمه الله ـ مات وهو يوصينا جميعنا على عباس ومريم .

خطيئة أخرى

قضى السيد عباس سهرة عند أحد الزملاء وعاد للبيت بعد نصف الليل ، فوجد مارتن الخادم مستيقظا فحياه ، وقال معاتبا له بلطف : ما زلت مستيقظا يا صديقي؟! .. ألم أقل لك إذا بلغت الساعة الحادية عشرة فارقد ، وإذا احتجت خدماتك أرن عليك ..

فتمم الرجل بأنه مرتاح ، ولم ينم بعد ، وكان يتفرج على التلفزيون في حجرته ، فقال عباس : لا بأس ، ما دمت أنت صاحيا .. فاصنع لي الشاي ومعه بعض المكسرات ، فها أنا سألبس ملابس النوم ، وأسهر في المكتبة يا عم مارتن .

هزّ الرجل رأسه بالفهم ، وقبل أن يستدير ناحية المطبخ قال : أخت حضرتكم اتصلت أكثر من مرة .

ـ راضية ؟

ـ أجل .

قال وهو يمشي لحجرة النوم لخلع ملابسه وارتداء ثياب البيت : إنها تريد معرفة رأيي في نبيلة الساعة تقترب من الواحدة وراضية لا تحب السهر حتى تستيقظ على وقت صلاة الفجر وقيام الليل .. أنا محظوظ بأخت طيبة كراضية .. إنها تحترمني وتعرف حق الأخ الكبير ؛ ولكني أنا مسالم ولا أشعرهم بأني الأخ الكبير .. الأم تحتاج لزيارة ..لي أيام لم أزرها، وقد وعدتها أن أزورها في الأسبوع مرة أو مرتين .. واليوم لا عمل .. لا أدري لماذا أبناء الذي تاجرت به لم يزوروها منذ تركت كندا لهم ؟!.. ولكنهم يدفعون في تكاليف العلاج والرعاية .

ولما دخل المكتبة وجد الشاي والفواكه والمكسرات في انتظاره ، فشكر الخادم وطلب منه الذهاب للنوم ، فحنى الخادم رأسه قليلا ، وألقى تحية المساء واختفى .

سكب لنفسه الشاي الأسود ، وأخذ يرشف ويقزقز البزر الأبيض المالح ، والفستق الحلبي المملح أيضا ، ويفكر بقضية الزواج التي تشغله هذه الأيام ، وقد حدثه صديقه الذي سهر عنده عن امرأة طبيبة عملت معهم قبل سنوات أثناء العمل في طب الجيش ، قد تقبل به عندما

استشاره بزواجه المتأخر ، وتذكرها عباس جيدا ، وهي مثله لم تتزوج بعد لظروف معينة ، وقال الصديق : إذا كنت لا ترغب بالذرية فهي مناسبة .. بل صارحه صديقه بمناسبة الحديث أنها طلبت منه يوما ما أن يسعى لدى عباس بالزواج منها ، ولأنه يعرف وجهة نظره حول الزواج ، لم يكاشفه بهذا ، وزعم لها يومئذ أنه رفض وانتهى الأمر .

فقال لنفسه : نبيلة سليم أصغر منها سنا ، وقد تلد مع أنها كما سمعت من راضية لها زمن لم تحمل بناء على رغبة قرينها الذي اكتفى بالولد والبنت .. والدكتورة حسب ما أذكرها أجمل من نبيلة من جهة البشرة ؛ ولكنها قريبة من الخمسين هذه الأيام .. أنا لا أدري لماذا لم تتزوج ؟ فضلت التعليم والشهادات العليا على الزواج والأطفال حتى فاتها القطار كما يقال .

وبينما هو يقارن بين قريبته نبيلة وزميلته القديمة العانس ، رن الهاتف فلما سمع صوتها قال : أهلا أختي الغالية لم تنامي بعد أم نمت واستيقظت؟

ـ كلاهما .. أنا لما انشغل بموضوع مهم يصيبني القلق حتى انهيه بسلام .. لعلك استمعت بسهرتك .

ـ عرضت عليّ عروسا أخرى .. طبيبة عانس خدمت معي قديما .. ذكرني بها الدكتور مراد عبد الله .. ولكنها قريبة من الخمسين قد لا تلد .

ـ بالتأكيد لن تلد ، هذه يا أخي انقطع الطمث عنها من سنوات ، ولو ما زالت تحيض فحملها صعب يا عباس .. فنبيلة هناك أمل كبير أن تلد لك .. إلا إذا كانت القضية قضية زواج فحسب

ـ وهل أستطيع التربية بعد وصولي لهذه السن ؟

ـ أنت خلّف وأنا أربي لك .. فلي أكثر من خمس أو ست سنوات لم ألد .

لم يعط عباس الموافقة لراضية لتبدأ في ترتيب أمر زواجه من السيدة نبيلة ، طلب منها السماح له ببضعة أيام أسبوع على أكثر تقدير ، وقد أعلمته أن عيسى كان قد كاشفهم بسبب هذه الدعوة من دون علمها ، وأن القوم ينتظرون قراره الحاسم .

لما زار عباس أمه بعد تلك المحاورات وجدها ما زالت في الحال التي تركها عليها آخر مرة

وتحدث مع الطبيب المقيم ، ومع مدير دار الرعاية وقصر الوفاء ، وهو طبيب أيضا متقاعد من وزارة الصحة ، ومع الممرضة القائمة على متابعتها في أغلب الأحيان ، وعلم أن وضعها الطبي مستقر على ما كانت عليه في آخر فحص ، وسيقومون ببعض التحاليل المخبرية للبول والدم ، وستؤخذ لها صورة طبقية للدماغ ، وسيمر عليها طبيب الدماغ والأعصاب بعد التصوير ، وأخبر أن أكلها ضعيف بسبب تعب في الأمعاء .

كانت لا تتكلم ترد عليه بالإشارة خلال الجلسة ، ولما انتهى من متابعة حالتها المرضية ، واقترب موعد المغادرة كاشفها بأمر زواجه ، فلمعت عيناها ببريق خاطف ، وارتسم السرور على وجهها فرحا ، كما بدا لعباس ، ثم قالت بلسان ثقيل : أصحيح ؟

ـ أجل يا أمي، أخيرا سأتزوج بمشيئة الله تعالى .

ـ أسعد خبر سمعته في حياتي ، الآن أحس أنك غفرت لي زواجي من بلال .

ـ الأمر لله يا أم داود .

تقدمت الممرضة القائمة عليها تلك الوردية وأعطتها إبرة تخدير لتنام ،

فسلم عليها عباس ، ولما أغمضت عيناها غادر الحجرة ، ثم نزل لموقف السيارات الخاص بدار الرعاية ، وركب سيارته ، وكان الوقت يقترب من الغروب ووقت صلاة المغرب ، بل أذّن وهو ينطلق في الطريق ، فلما اقترب من أحد المساجد القابعة على طرف الشارع نزل إليه لأداء صلاة الجماعة .

ذهب بعد الصلاة للعشاء في أحد مطاعم المدينة ، وكان على موعد لحضور محاضرة مسائية في أحد الفنادق عن الدماغ لدكتور عالمي من ألمانيا ، وقد تلقى عنده بعض المحاضرات أثناء دراسته لتخصص الدماغ وأمراضه في المانيا ، وكان موعد المحاضرة العلمية التاسعة والنصف بترتيب من جمعية الأعصاب والدماغ .

ورحب به مدير الجمعية وهو يستقبله على مدخل القاعة ، وفي التاسعة والنصف بدأ الطبيب المحاضر محاضرته ، وكان الرجل شيخا هرما ؛ ولكنه بدا نشيطا وواعيا لما يتكلم ويتحدث عنه

وقضى عباس أكثر من ساعتين بين سماع ونقاش بين المحاضر والجمهور العلمي ، وقد رأى عباس الكثير من أطباء الدماغ يستمعون للمحاضرة .

ولما وصل البيت صلى العشاء، وكان قد اتصل من الفندق بمارتن ، وطلب منه وضع ترمس شاي وفاكهة ومكسرات في المكتبة وليرقد ، فلما قضى الصلاة ذهب حيث حجرة المكتبة ، وقبل أن يبدأ بمراجعة أحد الأبحاث العلمية رن الهاتف فأدرك أنها راضية ؛ لأنه من النادر أن يتصل به أحد في مثل هذا الوقت ، فرحب بها وسمعها تقول : سمعت من مارتن أنك ذهبت لزيارة الأم الغالية.

ضحك عباس لكلمة غالية ؛ لأنها تعلم برودة العلاقة العاطفية بينه وبين أمه وقال : نعم ، قال لي مارتن أنك اتصلت ـ وكان ذلك عندما تحدثت معه من الفندق ـ إنها بخير ، ووضعها على ما كانت عليه من أيام ، لم تعد تأكل بشكل جيد ، وهذا طبيا مزعج .. وأنت كيف أمك ؟

ـ تحسنت صحتها بعد تلك الوقعة .. وغدا أو بعد غد ستخرج من المستشفى .

ـ سلامتها يا راضية ، سأزورها غدا ما رأيك أن نتقابل عندها ونتغدى سوية لنتكلم بموضوع نبيلة ؟

ـ هل عزمت أمرك ؟

ـ إلى حد ما .. غدا بعون الله نتكلم بالتفصيل .

ـ أقول مبارك يا عم عباس .

ـ قلت المرأة عرفت أننا تغدينا عندك لرؤيتها

ـ عيسى سليم كشف الأمر

ـ أترين أن لها شروطا معينة ؟

ـ هي لم توافق بعد إلا إذا كان السكوت علامة القبول .

لما انتهت زيارة أم فضل زوجة أبيه حسن أخذ عباس أخته راضية إلى أحد المطاعم التي يرتادها منذ عهد بعيد ، وفي صالة خاصة للأسر تناولوا الغداء كل حسب رغبته، ولما بدأ الأكل قالت

راضية : أنت تعودت على أكل المطاعم منذ شببت يا عباس .. ماذا ستفعل بعد الزواج ؟ هل ستعود لطعام وطهي البيت ؟

ـ الطباخ موجود مارتن .. وهذا يعود لأم غسان .. أهي ماهرة في الطهي ؟

ـ كغيرها من النساء ليست متميزة حسب معرفتي بها .. أغلب وجباتهم صناعة بيتية ، لم يكن زوجها يحب أكل الأسواق ، وإنما يأكله في المناسبات والدعوات ..

ـ على كل سنجرب ذلك ، فإذا وجدناه أحسن من الأكل الخارجي سيقوم مارتن بالتعاون معها باختيار الأصناف .. على كل حال أنا موافق يا راضية على إتمام الزواج من أخت زوجك المهندس عيسى .. فانظري رأيها ورأي أطفالها أيضا ورأي والديها .

ـ العم سليم والعمة أم نافز لا اعتراض لديهم ، بل قدموا لي الشكر والثناء يوم الغداء ذاك .. فانكشف الطابق بعد مغادرتك ..فاكتشفت فورا أن عيسى صارحهم بسبب هذا الغداء والدعوة .. عيسى صريح يا عباس .. فلما سألوه عن المدعوين قال : عباس فقط فاستغرب الحاج سليم ، وقال : ولماذا عباس فقط ؟ فأخوة راضية كثر؟ فاضطر المسكين للإفصاح بالسبب .

ـ حسب معرفتي البسيطة بالدين فالنظر من أجل الخطبة والزواج مشروع ومباح

ـ أكيد هذا الأمر مشروع فعلا حتى ولو لم يقع زواج ، ورد عن الحبيب صلى الله عليه وسلم ـ وقبل أن تذكر الحديث مسحت فمها وشربت قليلا من الماء وتابعت : ـ إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل وهناك حديث آخر فقال النبي صلى الله عليه و سلم انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما .

ـ أنت تحبين حفظ الأحاديث

ضحكت راضية ضحكة قصيرة على بساطة عباس وقالت : احتاج لذلك في المحاضرات التي نقوم بإلقائها في الجمعيات والمحاضرات ، كما تحفظون أنتم أقوال مشاهير الأطباء.. فالنقول ممتعة وترسل بها رسالة واضحة .. اسمع هذه القصة عن النظر إلى المخطوبة

مسح عباس فمه وقد كف عن الأكل ، فهزت رأسها تسأله فقال : شبعت الحمد لله .. هات القصة

توقفت هي الأخرى وقالت : الحمد لله الذي أطعمانا هذا ورزقنيه من غير حول ولا قوة .. أشكرك يا عباس .. أنت نعم الأخ والصديق .

ـ لا شكر على واجب ..

ـ القصة يا سيدي العزيز أن عمر خطب إلى علي ابنته أم كلثوم فذكر له صغرها ، فقال علي : أبعث بها إليك فإن رضيت فهي امرأتك فأرسل بها إليه فكشف عن ساقها فقالت : لولا أنك أمير المؤمنين لصككت عينك ، وقبلها عمر وتزوجها ، وولدت له على ما أتذكر .

قال مندهشا : دائما رائعة يا أخت عباس ! .. كان والدنا حسن شغوفا بقراءة كتب الأحاديث والسنة .

ـ بل كان يحفظ كتاب رياض الصالحين عن ظهر قلب ، ولما صرت أحسن القراءة كان يسمح لي باستظهار حفظه .. إذن نكمل المشوار .. الليلة بعون المولى سأتحدث مع عمي وعمتي وهم يكلمون نبيلة .. وحسب الجو أرى أن نبيلة لا اعتراض لديها ، قلت لزمت الصمت يوم الغداء ذلك .. ولها سنتان أرملة والعلاقة الزوجية تنتهي بانتهاء العدة بين الأرملة والمتوفى ولا أعتقد أن أحدا من إخوتها سيعترض على الدكتور عباس بن حسن حفيد الحاج عزام أقلت لأمك ؟

ـ نعم، ورأيت السرور في وجهها وعينيها ، وقالت : الآن أرى أنك غفرت لي زواجي من المذكور .

ـ مسكينة أمك، للأسف رجعت إلينا وهي مريضة لا حول لها ولا قوة ..

لما غادرت راضية المطعم ذهبت لبيت حميها لقضاء المهمة ، فكانت الفتاة في عجلة من أمرها فهي تريد أن تكسب الوقت أو تسابق الزمان كما يقولون ، فقد مات والدها وكله شوق وحسرة ليتزوج عباس ابنه البكر ، كان كلما يتزوج أحد أبنائه ، يقضي ساعات مع نفسه في البكاء من أجل عباس .. وهذا كله واعية له راضية ، فهي ترتيبها الثالثة من أبناء أمها فائزة ، وماتت مريم

وكانت تتمنى أن ترى لعباس بيتا وزوجة وأسرة ، والكثير من أفراد العائلة رغبوا له ذلك ،
قرعت الجرس وفتح أحد أبناء نافز فهو بكر عمها ، وهو ظل منذ تزوج ببيت الأسرة مع والديه
قدم لها الشاب الصغير خده فقبلته وقالت : أين جدك وجدتك ؟

سمع أمه تصيح : من يا حمزة ؟

ـ امرأة عمي عيسى أم سليم .

خرجت أم حمزة ترحب براضية وتصافحها وقالت : أين عيسى والأولاد ؟

ـ جئت وحدي ، عساك بخير .. كيف نافز أبو صلاح ؟

قالت: كلنا بخير ، كيف أولادك جميعهم ؟ كيف أمك نسيت أن أسألك عنها ؟

ـ الحمد لله ، ربما تخرج غدا تحسنت كثيرا .. الكبار يكبرون ،وتضعف عظامهم ، وهشاشة العظام مرض شائع بسبب بلوغ الناس سنا كان يصعب الوصول إليها إلا بأمر الله .. المداواة والطب بعد تقادير الله رفعت من سن الشيخوخة .

ـ إن شاء الله ربنا يشفيها ويخفف عنها الألم .. أمس ذهبت مع أسرة عمي لزيارتها .

ـ شكرا لكم .. العم والعمة موجودان ؟

ـ عمي مشى للجامع لأنه أذن المغرب قبل قليل .. تفضلي، أكيد عمتي تصلي وإلا خرجت ترحب بك .. فعمتي تحبك ـ كما تعلمين ـ حبا معروفا في العائلة .

ـ شعور متبادل يا أم صلاح ..

تقدمتها أم صلاح لشقة عمها وعمتها ، وفعلا كانت العمة تجلس على سجادة الصلاة تتابع فرضها ، فهي تصلي جالسة خاصة النافلة .

جلسن ينتظرن إنهاء صلاتها ويتحدثن بحديث هامس ، ولما سلمت أم نافز قامت لترحب براضية التي عانقتها ومقبلة ليدها ، فهي منذ أصبحت حماتها وهي تقبل يدها كلما تتقابلان وتدعوان لبعض ، ولما جلسن ثانية قالت أم صلاح وهي تقف : ما تحبين أن تشربي في مثل هذا الجو البارد مع أنه شهر الربيع

ـ نفس الشتاء ما زال فيه .. راضية مغرمة بالشاي مثل حبيبها عباس

ضحكت راضية : أجل يا امرأة عمي .. وأنا كنت قبل قليل أتغدى مع عباس ..

وقصت قصة زيارتها للمشفى حيث الأم ترقد ، ثم الغداء وختمت الكلام قائلة: وأنا جئت إليكم هذا المساء أو الليل من أجل عباس

ـ يا مرحبا بك .. أتريدين الكلام مع أبي نافز ؟

ـ الأفضل يا عمتي .. أيتأخر في بيت الله عزّ وجل ؟

ـ عادة يصلي المغرب ويبقى في المسجد حتى يصلي العشاء.. يتسلى مع الجيران والأقارب خاصة أخوه الأكبر منه محمد من رواد المسجد ..

جاءت أم صلاح بالشاي ، وببعض الكعك ، وقبل أن تجلس طلبت منها حماتها أن ترسل ابنها حمزة للمسجد ويقول لجده سليم أم سليم في انتظاره

سكبت أم صلاح الشاي وقدمته لحماتها وأم سليم ، وخرجت لتكلف ابنها الشاب بالمهمة ، وعادت للجلوس معهم ، وكان جل حديثهم حول عباس وأم عباس ، وعاد الصبي مخبرا أن جده في الطريق ، وذهب ليدرس أو يشاهد التلفزيون ، وتابعت النسوة أحاديثهن عن المرض والصحة حتى دخل الحاج سليم ، فقامت راضية تسلم عليه وتقبل يده كما فعلت مع حماتها ، ولما انتهى الترحيب قال : لماذا تجلسن هنا ؟

ثم انتقلوا لصالون شقة الحاج سليم ، ولما جلسوا عاد الترحيب من جديد ، وذكر لها الحاج أن ابنها عبد السلام كان عندهم اليوم، ثم وضح لها سبب مجيئه .

قالت راضية بعد ذلك : قبل أن يؤذن للعشاء يا عمي كنت العصر مع عباس وتحدثنا في موضوع الزواج موضوع زواجه ، وباختصار الرجل بعد تفكير قد قبل الزواج من الأخت نبيلة ، وهي تعلم بظروفه وقصة حياته ، وطلب مني أن أعلن لكم ذلك ، وأن تشاوروا الأخت نبيلة بموافقة الدكتور العزيز على قلوبنا عباس على الاقتران بها .. وأنا حقيقة من محبتي لكم اخترتها لأخي الغالي عليّ ، كما تعلمون فعباس وصية أبي حسن رحمه الله تعالى .. ولتأخذ نبيلة وقتها وحريتها

في القبول أو الرفض .. هذا زواج ، وحياة قد تكون صعبة مع رجل لم يعاشر النساء إلا في العمل والوظيفة .. فسيكون مضعضعا حتى يتكيف مع الحياة الأسرية وعباس معروف لكم .

أثنى الرجل وامرأته على همتها وأخلاقها ، وأثنوا على عباس الثناء الطيب ، وقال سليم : قومي يا أم نافز البسي لنذهب للبنت ومعنا راضية ، ونعرض عليها الأمر أمام ابنتا راضية .. فهي التي ستتزوج عباسا ولسن نحن .. فبينهم كما تعلمين يا راضية فارقا كبيرا في السن.. والأعمار بيد الله .. وحسب معلوماتي أن صحة عباس ممتازة ، ولم أسمع أنه يعاني من مرض أو سقم خطير هذه حياتها الجديدة ستكون .

خرجت أم نافز لغرفة نومها لتلبس ملابس الخروج ، واتصل سليم بابنته معلنا لها بزيارتهم ، وفي سيارة راضية انطلقوا إلى بيت السيدة نبيلة سليم

كانت نبيلة منذ ترملت تسكن في الشقة المستأجرة منذ حياة زوجها ، وكان والد زوجها هو الذي يدفع إيجارها بدلا عن ابنه الميت ، وذلك من الأموال التي ورثها عن ابنه الميت ، ومن أجل الإنفاق على الطفلين .

رحبت السيدة بوالديها واحتضنت راضية زوجة شقيقها عيسى ، ورحبت بها أحر ترحيب ، وقبل أن يبدأ الحديث ارتفع صوت الآذان في الحي . فقال السيد سليم : لابد من الصلاة .. وغادرهم لمسجد الحي .. وقالت نبيلة لابنها: ماذا قال لك المطعم ؟

احتجت راضية وقالت : قبل قليل أكلت مع عباس في مطعم { الوزة البيضاء } ، وخرجت من المطعم لبيت عمي سليم مباشرة .

ـ نحن لم نتعش يا أم سليم .. نتعشى عادة بعد صلاة العشاء

فقال الولد : قال لي مدير المطعم عند الصلاة ستكون سيارتنا أمام البيت ، وكأنني أسمع زامورها ..

وأسرع إلى الشارع ، وتبعه سليم ذاهبا إلى المسجد ، ادخل عمال المطعم الطعام وانصرفوا ، وقامت النساء للصلاة ، فقد صلت راضية المغرب قبل مغادرة بيت عمها .

وكانت نبيلة تعلم سبب هذه الزيارة ، واطمأنت على أم راضية وعن صحتها ، ولما حضر السيد سليم انتقلوا إلى غرفة المعيشة وأكلوا ما قسم الله لهم ، وعندما فرغوا منه حمدوا الله وشكروه ، وهم يشربون الشاي قال سليم : أنت تعلمين يا نبيلة برغبة عباس بالزواج منك ، وهو من جيل أبيك يا نبيلة ، وهو لم يسبق له الزواج كما تعلمين لأسباب خاصة به ، واليوم غير رأيه أو رضخ لوصية مريم ـ رحمها الله ـ وهو معروف لك ، وشقيق راضية زوجة أخيك وابنتنا راضية رأت أنك مناسبة له لأسباب بينتها لي أولا أنك أرملة ، والرجل لا فرق عنده بين أرملة ومطلقة وعذراء لأنه ليس بالشاب الصغير .. وثانيا أنك أم ولك أولاد وهناك احتمال أن تلدي منه واحتمال ألا يتحقق ذلك .. لن تحتاجي لأولاد إن عجز عن تحقيق ذلك .. وثالثا هو لا يمانع بحياة الأولاد معك إلا إذا أهلهم رغبوا بهم .. ورابعا الزواج سترة والحزن لا يدوم والحياة ستمضي ، والعفة كنز من كنوز الدنيا .. وأنا وأمك لا اعتراض لدينا على هذا الزواج ، والأعمار بيد الله .. فالرجل يقترب من الستين مثلي .. وعباس معروف بهدوئه وصمته ، وهو صورة عن أبيه حسن عليه الرحمة من الله .. ففكري في حياتك جيدا .. ولابد أنك منذ تلك الدعوة عند عيسى وراضية تفكرين .. والأمر بين يديك .

قالت نبيلة : وهاهم أبنائي يسمعون ، وعندهم فكرة عن هذا الزواج .

قالت راضية : فكروا كما قال عمي وتشاوري مع الأولاد بكل حرية

قالت نبيلة : حقيقة أنا تحدثت مع أولادي وهاهم يسمعون ، والفتى لم يرفض ، والبنت لم تحسم أمرها ، فهي مترددة .. والآن صار الموضوع بشكل جدي ، وأنا الأخ عباس أعرفه جيدا ولا أعتقد أن السن يعيق الحياة الزوجية يا راضية

ردت راضية : صحة عباس الحمد لله معروفة ، وهو يهتم بذلك ، ولكن الزمن له دوره يا نبيلة يمرض كما يمرض الناس من أنفلونزا رشح صداع .. حسب علمي وأنا طبيبة أسنان لم يخلع إلا سنا واحدة .. وهو يحب الرياضة ، وله عضوية في النادي الخاص بالضباط ، ولا يدخن ، والكحول لم يعرف طريقها ، هو كما قال عمي سليم ابن أبيه .. ولا أعتقد أن يقف أولادك في

طريق سعادتك .. والزواج فرصة جيدة لك يا نبيلة .. وهؤلاء الأبطال سيتزوجون لما يكبروا وكلما كبرت المرأة قلّت الفرص أليس كذلك يا عم سليم ؟

ـ هذا أكيد يا أم سليم .. لذلك بدأت العنوسة تشكل خطرا في المجتمعات الإسلامية والعربية فقد ارتفع سن الزواج بسبب التعليم وبسبب العزوف عن الحياة الزوجية .

ـ الآن حان وقت الانصراف يا عمي ويا عمتي ، لقد نقلنا رسالة الموافقة من عباس للأخت الفاضلة نبيلة

ـ شكرا لك يا ابنتي العزيزة .. سأتصل بنافز ليمر علينا ، ويتحدث مع أخته في هذا الأمر ونعود معه للبيت .



مضى يومان قبل أن يصل الرد إلى راضية لذلك قالت لزوجها : هل من شيء يا عيسى لتتأخر أختك في الرد ؟

بعد تردد معروف في شخصيته قال : أنا على اتصال بأبي وأمي حتى أثناء العمل .. وأولاد نبيلة الولد يقول لها : افعلي المناسب يا أمي ، والبنت ترفض زواجها ثانية

ـ البنت عاطفية هذا شيء شائع ومفهوم

ـ نبيلة لها رغبة بالزواج .. إنما هي مترددة لسن عباس .. فهو من جيل الوالد .. تخشى أن تترمل ثانية

قالت راضية : قد تموت قبله .. لو فكر الناس بهذه الطريقة لما تزوج أحد يا عيسى .. هناك أناس مرضى بمعنى مرضى أي مرض دائم ويتزوجون ، ولو فكرنا بطريقة السنين لما تزوجت أنثى إلا من يوازيها بالسن .. هناك من يحبذون أن يكون فارق بين الزوجين على الأقل عقد من السنين

ـ اقترحت عليها أمي أن يكتب لها عباس شقة باسمها لعلها تتشجع على الزواج .

قالت : رغم عدم اقتناعي بهذا الاقتراح يا عيسى سأنقله لعباس .. فلو مات عباس قبلها سترث الكثير من ماله ، بل ربما ترث قصره كله .

ـ هم يخشون الطلاق .. وليس الموت ، فالموت أمره لله .. الخوف من عدم انسجام عباس معها فيطلقها .

ـ هذا وارد لا أنكره يا عيسى .. قد لا يرتاح أخي مع الحياة الزوجية فيضطر للطلاق .. وأنا من أجل ذلك سأنقل له رغبة نبيلة بأن تكون شقة باسمها لأنها بمجرد خروجها من شقتها سيسلمها أهل زوجها الميت لصاحبها .. هل هذا شرط أختك نبيلة الوحيد أم هناك أشياء أخرى يا أبا سليم ؟

قال : هذا كلام أمي لتشجعها على الزواج منه وتحسم التردد .. سأتحدث معها أمامك .

واقترب من الهاتف ، وتحدث مع أمه عن موضوع كتابة الشقة باسم نبيلة إذا وافقت على ذلك أغلق الهاتف وهو يقول : ستتحدث أمي معها بصورة جدية .

وبعد ساعة اتصلت به أمه مخبرة له أنه إذا كتبت شقة باسمها ستتزوج من عباس ، رفعت راضية سماعة الهاتف ، واتصلت ببيت عباس ، ولم يكن موجودا في البيت فقالت لمارتن : إذا عاد قبل العاشرة ليلا اتصل على بيتي يا عم مارتن .

تركت السماعة وقالت : ذهب لزيارة أمه ، لقد اتصل به مدير دار رعاية المسنين والمرضى .

العاشرة ليلا اتصل بها عباس ، وبعد التحية والسؤال عن أمه قالت : انتظرنا سنمر عليك أنا وعيسى .

لبست ثياب الخروج ، وكذلك عيسى والذي سبقها إلى سيارته ، وأدار ماتورها منتظرا ، ولما ركبت بجواره قالت : امش وتوكل على الله .

واستغرقت المسافة لبيت عباس نصف ساعة ، وأدخلهم الخادم لصالة الاستقبال حيث كان عباس في انتظارهم والترحيب بهم ، وبعد مجاملات تقليدية وشرب الشاي الذي جهزه الخادم أو أخته قالت راضية : كما تذكر يا عباس أنا تغديت معك قبل أيام ، وأخذت موافقتك على

نبيلة ، وسرت لبيت عمي والد عيسى ، وحدثتهم بقبولك للزواج من نبيلة ، ومشينا أنا وعمي وعمتي لشقة نبيلة ، وذكرنا لها قبولك للزواج منها ، وتركنا الأمر والتفكير لها ولأولادها .. وشرحت له رغبتها بأن يشتري لها شقة وتكتب باسمها .

وأخذت هي وعيسى يذكران تبريرات هذا الطلب ، فقال عباس بعد صمتهم : لست بخيلا ؛ ولكني أرى هذا الطلب في غير محله .. حتى لو قررنا الانفصال وفشل الزواج فيمكن فعل ذلك عند الطلاق ، أما فعل ذلك مسبقا فأنا لا أراه صوابا يا عيسى .. الأصل في الزواج أن يقوم ليدوم ، فالطلاق وارد لكنه بحكم الاضطرار .. وإذا مت قبلها يا سيدي فهذه الفيلا ستكون من نصيبها إلا إذا أكرمني الله بذرية منها ، فسيكونون شركاء فيها وفي غيرها .

ودار نقاش هادئ بينهم ختمه عباس قائلا : إذا كانت ترفض الزواج مني أو من غيري فلتكن صريحة وشجاعة .. لا يجوز أن تخجل من راضية أو من أمها وأبيها في شأن خطير .

قال عيسى : هذا الشرط كان من أمي لتشجعها على الإقدام .

رد عباس قائلا : لا داعي للإغراءات والحوافز لتقبل بعباس يا أبا سليم .. أرجو يا راضية أن يصلني الجواب نهار الغد .

وودعهم إلى بوابة الفيلا ، وتمنى لهما السلامة ، وعاد لمكتبته وهو يقول : لا تريد الزواج تقولها بصراحة ، أما أنها تريد أن يظهر الرفض من غيرها لتبرر موقفها أمام راضية أو والديها .. فهذا غلط .

واتصل بمراد عبد الله وسأله عن صاحبتهم الدكتورة جيهان نادر .



زواج عباس

عند صلاة الفجر اتصلت راضية بعباس واعتذرت له عن زواجه من نبيلة فقال : لا عليك يا أخية .. مري عليّ بعد مغادرتك من العيادة ؛ لنذهب لرؤية الطبيبة التي حدثتك عنها سابقا ، فلما فارقتموني ليلة أمس تحدثت مع مراد عبد الله ، فاتصل بها فورا ، وأخذ لي موعدا معها في بيت أهلها .

ـ اعذرني يا عباس عن هذا المشوار لظروفي وللموقف الذي نحن فيه .

ـ الزواج قدر .. أيتضايق حموك من ذهابك معي ؟!

ـ إحراج إلى حد ما .

ـ شكرا إلى اللقاء .

ترك الهاتف وقال : سأتصل بيوسف لعله يذهب معي وزوجته .

قبل يوسف بعدما سمع قصة فشل زواجه من نبيلة الذهاب معه لمقابلة الطبيبة جيهان وأسرتها ورحب بهم ، وجرى تعارف بينهم ، وقبلت الدكتورة بالاقتران به ، ووافق والداها على موافقتها ، وتحدد بينهم المشي بالزواج حسب عادات أهل المدينة ؛ ولذلك بعدما عاد عباس للبيت ، وتناول العشاء ، اتصلت به راضية تبارك له الزواج ، فقد أخبرها يوسف بما اتفق عليه فشكرها عباس على جهدها معه .

وخلال أسبوع واحد جرت مراسيم الزواج الشرعية من كتابة العقد الشرعي بين يدي القاضي في إحدى المحاكم الشرعية المختصة بمثل هذه الأمور ، وتحدد موعد الزفاف ، ومكان إقامة الحفل في صالة تابعة لأحد نوادي الجيش ، وطلبت أمه منه أن يسمح لها بحضور هذه الحفلة ، فتشاور مع مدير الدار ، فوعده الرجل أن يعمل على ترتيب نقلها لحضور الحفلة والعودة بها ، فشكره عباس ودفع له أجر هذه الخدمة .

وفي الموعد المحدد للحفل توافد المدعون من طرف الفريقين ، وجرى الحفل حسب ما خطط له وقدمت فرقة موسيقية تابعة للنادي نشاطا خاصا ، وتناول الجميع المطعومات والمشروبات من

المثلجات والعصائر ، وقبل نهاية الحفل قدمت سيارة خاصة تابعة لدار الرعاية بأم عباس ، وحملت على عجلة متحركة إلى قاعة الحفل ، وتقدم منها عباس مرحبا وأخذ أقاربه يسلمون عليها ، ويباركون لها بزواج ابنها البكر، وهي تهز رأسها بالشكر بدون كلام ، ثم فعل ذلك أقارب وأهل العروس ، وجاءت العروس في النهاية ، وسلمت عليها وأخذت يدها مقبلة وداعية لها بالسلامة .

ثم عاد المدعوون لكراسيهم ، وعادت الموسيقى تعزف من جديد ، ولما انتهى الوقت المحدد للاحتفال بدأ الناس بالانصراف رويدا رويدا ، ولما انتهى العروسان من توديع ضيوفهم أخبرتهم الممرضة المرافقة للمريضة عن وفاتها ، وهي تدعو لعباس بالبركة والذرية الصالحة ، فنظر عباس لعروسه باسما ، وكذلك نظرت إليه ، وقالت : عظم الله أجرك يا عباس .

ـ شكر الله سعيك رحم الله تعالى أمي ابنة جدي الحاج عزام الرحمة الواسعة إنا لله وإنا إليه راجعون .

تقدم أشقاؤه يعزونه في أمه هدى ويترحمون عليها ، فعانقهم وشكرهم وقال باكيا : هذه لحظة عجيبة من الحياة !

قالت راضية : { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ }

تمت بحمد الله وفضله

١	ليلة العرس	٢	شمس عمري
٣	أيتام الحداد	٤	صديق أمي
٥	الأخ شريف	٦	أستاذ الفرنساوية
٧	غربتي وابنتي	٨	حي أبو خروف
٩	الشقق السوداء	١٠	حياتي قبل الحياة
١١	الحفل بالقط الأسود	١٢	امرأة نزيه
١٣	رهاب الطلاق	١٤	

صديق أمي

أمي

مات والدها قهرا

وهددت بالموت انتحارا

فحصلت على الطلاق غصبا

هربت قبل بلوغ أختي عامها الأول

لتتزوج صديقها

فكانت هذه الرواية

ع .ح

٢٠٠٩

الأخ شريف

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

روايات اجتماعية

جمال شاهين

الأخ شريف

جمال شاهين

الأخ شريف

البركة

البركة مدينة تعتبر محافظة حسب الترتيب الإداري في البلد ، فهي واسعة المساحة، أحياؤها متعددة ، وهي متصلة بعاصمة القطر ، لا تفصلها عنها مدينة أخرى ، ولكن الحداثة والتطور في العاصمة شين أكثر وأسرع .

بدأت الرواية في شارع عمارة ، وهو شارع معروف مشهور في مدينة البركة ، ربما هو أشهر شارع فيها، وهو شارع الفقراء ، وهذا الاسم غالب عليه أكثر من الاسم الرسمي ، ومع شهرته في مدينة البركة لا يخلو من بضع عمارات ضخمة ، وأكثر ساكنيه يملكون قطعة واحدة أو شقة تتكون من حجرتين صغيرتين ومطبخ صغير ومرحاض ، والقليل كما قيل يملك حجرة ثالثة أو صالون ، وأغلب سكانه من العمال حتى اشتهر بين الأحياء بحي العمال ، ويمتد هذا الشارع لثلاثة أو أربعة كيلو مترات ، والبيوت على طرفي الشارع ، وفي منزل في وسطه بدأت قصتنا ، في بيت السيد الفاضل ياسر الكُمن .

ياسر عامل بسيط عامل بناء ، يعمل مع متعهدي ومقاولي الإنشاء والبناء ، يحمل الرمل والطوب والإسمنت وحديد التسليح ، ويأخذ أجرته عادة باليوم عامل مياومة هكذا يقال ، اليوم الذي يشتغل فيه يسجل له ، ويقبض أجرته نهاية الأسبوع ، أو نهاية الشهر حسب سياسة مقاول البناء ، فحياته المعيشية يوم بيوم ، اليوم الذي يقعد فيه عن العمل لا يأخذ عليه أجرة ، سواء كان الترك بعذر كمرض وتعب أم بغير عذر كمطر وبرد أو قلة شغل ، والرجل اعتاد على هذا النظام وهذه الحياة ، ورضي بما قسم له ، وتكيفت حياته على هذا الترتيب كما يقال ، فاليوم الذي يعمل فيه يوسع على نفسه والعيال ، واليوم الذي لا عمل فيه يقل المصروف والقوت . ومن طبيعة وقانون هذا الشغل التنقل بين المقاولين والمتعهدين ، وهو تارة يعمل مع المقاول فلان ، وتارة أخرى مع المقاول علان ، مرة مع حمدان ، ومرة مع زكي أبو سلمان. فهو يؤجر نفسه لساعات نهارية ببضعة قروش ، وربما تصل إلى دينار حسب سخاء وكرم صاحب العمل وحاجة العمل .

ياسر هذا متزوج منذ سنوات ، وكان سعيدا بزوجه حسنة، وكان يراها الدنيا كاملة ، وكانت هي راضية بخط سير حياتها ، فهي عندما تزوجته كانت تعلم مهنته أو وظيفته في هذه الدنيا ، وهي لم تكن ابنة أسرة ثرية ذاقت حلاوة الغنى وتزوجت فقيرا ، إنما انتقلت من أسرة مستورة إلى رجل من أسرة مستورة ، من نفس الطبقة الكادحة ، وعلى مستوى اجتماعي واحد ، فلم تكن تحلم بالعيش في قصر أو شقة واسعة ، لم تشتكِ أمام ياسر يوما من فقره وحاله ، رغم شظف العيش هذا كانا سعيدين متحابين ، ورغم منغصات الدنيا الكثيرة كانا راضيين مسرورين ، ورغم موت الكثير من مواليدهم كانا في حبور وسعادة .

يغادر الزوج البيت مبكرا حيث يعمل في ذلك النهار الذي بدأت فيه مأساة ياسر، ولما ينطلق الشابان ولدا ياسر وحسنة للمدرسة تبدأ حسنة بترتيب وتنظيف البيت ، وأحيانا تبدأ بترتيب الفراش واللحف بداية ، وأحيانا تبدأ بغسل الأواني والأطباق ، ثم تعود لترتيب غرف النوم .

خرج قسيم ابن الثالثة عشرة ربيعا إلى المدرسة ، ومعه شريف الذي يصغره بعام واحد ، شريف ياسر في الصف السادس الابتدائي ، وأخوه في الصف الأول الإعدادي ، كان شريف أذكى من قسيم في المدرسة ، وعندما بدأت هذه القصة كانت المدارس تكاد أن تغلق أبوابها .

حسنة عبد الحميد أم قسيم ودعت ولديها الذاهبين للمدرسة ، وأغلقت الباب خلفهما ، ودعت لهما في سرها ، ورتبت البيت الصغير ، وكنست الغرفتين ، ودخلت المطبخ الصغير لجلي الصحون وأدوات طعام الفطور من إبريق الشاي والأكواب .

وبينما هي تستمع للراديو يدندن في أغاني الصباح كالمعتاد طرق الباب بقوة ، فخفضت صوت المذياع ، فسمعت الطرق ثانية ، فتأكد لها أن الطرق على بابها ، وليس على باب جيرانها .. فتركت ما في يديها ، وأغلقت صنبور الماء حنفية الماء ..ولابد أنها بينها وبين نفسها تقول من يطرق عليّ الباب ؟! فسمعت رجلا يطرق وينادي : يا أم قسيم ! .. يا أم قسيم !.. أنا سلمان .

شقت الباب وأخرجت رأسها ، وقد اضطرب قلبها فجأة ، فسلمان زميل زوجها في العمل وابن شارعها فقالت : وعليكم السلام .. ما هناك يا أبا أحمد ؟!

- آسف لإزعاجك يا أم قسيم .. فالأخ ياسر وقع عليه حجر بناء أثناء الشغل ، ونقل للمستشفى .

فصاحت برعب : مات ؟!

- لأ ، يا أم قسيم ، لكنه مصاب ونقل للمستشفى ، وإذا أحببت أن آخذك إلى هناك .. فقد طلب مني المعلم علي ناشب أن أخبرك وأساعدك بالذهاب للمستشفى .

- حسنا ، انتظر يا أبا أحمد حتى ألبس ثيابي .



كان ياسر وسلمان يعملان مع المتعهد أو المعلم علي ناشب في بناء البيوت والعمارات كعمال يرفعون المواد من تراب وحديد وأسمنت وخلط مواد الإنشاء .. ومن ضمن عملهم حمل حجارة البناء ومناولتها للبنائين .. وكان ذلك الصباح يعمل الرجل مع أحد معلمي البناء فيناوله أحجار البناء والطين المخلوط المجبول .. وأثناء رفعه لحجر بناء مناولا له لمعلم البناء الذي يقف على سقالة بناء سقط عليه ، ربما ظن أو توهم أن الرجل البنّاء تناوله منه ، فوقع ياسر على الأرض وهو يصرخ من الألم ..وكانت ضربة الحجر شديدة على ظهره ، فأصيب عموده الفقري من الحجر ، ومن وقوعه على الأرض على حجر آخر ، فهرع العمال وحملوه للمستشفى وقضى الرجل أكثر من شهر في المستشفى ، ولما أخرج كان معطلا ومشلولا شللا نصفيا ، فعاد للبيت كئيبا حزينا ربما يائسا بائسا .. فهو لم يوفر قرشا لمثل هذا الحال ، لم يوفر قرشه الأبيض ليومه الأسود كما يقول أهل التوفير ، وربما لم يفكر يوما أن يصاب هو ويتعطل عن العمل ، رغم ما يحدث باستمرار من أحداث وإصابات للعمال .. فما كان يقبضه من أجرة ينفقه أولا بأول ، وأيام قلة عمله لا يشتري سوى دخانه مما ادخره أو زاد عن مصروف البيت .

كانت صورة المستقبل أمامه وأمام الأسرة قاسية وسوداء قاتمة ، وأهله لم يكونوا أحسن حالا

منه .. فقبل راضيا مستسلما ليد العون التي مدت إليه من الجمعيات الخيرية ، ومن صناديق الزكاة المنتشرة في طول البلاد وعرضها .. وأصبح الرجل عالة على المجتمع والأمة .. وكان علي ناشب قد مد له يد العون في أول الحادث ، وتكفل بعلاجه ومساعدة الأسرة بالأرز والسكر والشاي والفاكهة والطحين، ثم توقف عن ذلك بعد حين

شقاء الاسرة

شعرت وأدركت الأسرة بالوضع الصعب الذي عصف بها ، فالمريض يحتاج لعلاج مستمر ومتابعة دائمة، والبيت يحتاج لمصروف ونفقات ، فكانت الأسرة تجاهد للحياة والعيش ، نجح شريف في فصله الدراسي وترفع للصف التالي ، أما قسيم فلم يوفق في فصله فعليه أن يعيد الصف مرة أخرى ، فأصبح الأخوان في مستوى دراسي واحد ، فكان قسيم يتذمر من البقاء في المدرسة ، ويظهر امتعاضه من التعليم ، ويضغط على الأسرة لترك المدرسة وتعلم حرفة ، ويعد الأسرة بالعمل والمساعدة في نفقات البيت ، ويدعي أن مساعدات الجمعيات لا تكفي ، وأنه يضيع الأيام هدرا ، وأن مصيره لسوق العمل ، فتسوق له الأم الأمية فضائل التعليم والحصول على شهادة علمية .. والمستقبل الزاهر والحياة الساكنة والوظيفة اللائقة أمام الناس والمجتمع .. وهو يرد عليها بحمية بأن الشهادات ليست ذات أهمية، والكثير من الناس سعداء بالمال والسيارات وليس معهم شهادات ، ويذكر لها بعض الأسماء اللامعة في المدينة أو في التاريخ .. ثم يعود ليبين لها أن وضعهم سيء ويحتاج لمزيد من المال والدخل .. وأن شريفا أذكى وأشطر منه ، وتدريس واحد في الجامعة ليس كتدريس اثنين .. وأحيانا يظهر لهم عجزه عن متابعة الدراسة والاستذكار والحفظ .. وعمله في مهنة تدر عليه بعض المال تخفف من أعباء الأسرة .. وكان يرى بحسه أن هذه النقطة ستدفعهم لقبول تركه المدرسة .. وكان عندما يضيق به الكلام والحال يصور لهم بشاعة أخذ أموال الجمعيات ، وأنها نوع من التسول والشحذة ..

ولما وصل شريف للصف التاسع الثالث الإعدادي استسلمت الأسرة لضعف قسيم ، وأنه لن يتقدم في الدراسة ، وربما مكانه المناسب سوق الحرف المبكر ، وقد تعلم خلال هذه السنوات

شرب السجائر كما علمت الأسرة ، ولم يعد له قدرة على البقاء في المدرسة .. وعلمت الأم أنه يسرق بعض المال الذي تخفيه، وتدخره لأيام الشدة الأكثر ألما وضيقا .. وعلموا أنه يذهب للسينما .. وكان يقسم لها ـ لأمه ـ آلاف الأيمان بأنه لم يسرق ، ولم يذهب إلى السينما .. فرأوا أن يعمل ليعيل نفسه على الأقل ، وصار أملهم الكبير بنجاح شريف الابن المؤدب العاقل .. وأن شريفا كما ترى أمه قد رسم لنفسه هدفا كبيرا .. وأنه ساع بقوة للوصول للثانوية العامة والنجاح بمشيئة الله سبحانه ، وأنه يسعى بصبر لنشلهم من الفقر والمسغبة .. سمح الوالدان لقسيم بالعمل ، وخرج من المدرسة ؛ كأنه حقق هدفا عظيما ،لا مذاكرة ولا حفظ ، ولا عتاب مدير أو أستاذ .

فقسيم كان يرى أن إخراج الأسرة من الفاقة والحاجة بالمهنة والحرفة التي لا تحتاج لشهادة ودراسة، وأما شريف فكان يرى أن الشهادة المفتاح الأول لمساعدة الأسرة ، وتغيير الوضع الماثل أمام عينيه .

قسيم يرى أن السنوات تضيع في المدرسة دون فائدة ؛ لأنه لا يحب المدرسة ، يدرس الشعبة مرتين لينجح تلقائيا دون نجاح حقيقي ، فلما نجح شريف في الثالث الإعدادي انصرف قسيم للعمل الحر كما يقول ، وكان خلال عطل المدارس في فصول الصيف الماضية قد اشتغل في العمل الحر ، مرة مع كهربائي (محترف تركيب وتمديد مواسير وأسلاك الكهرباء المنزلية) ، ومرة مع ما يسمونه السباك (مواسرجي) ومرة مع العمال في تحميل أو تفريغ سيارات الخضار الكبيرة كالبرادات والشاحنات .. ولكن بعد رسوبه المدرسي الأخير ، والموافقة الأسرية على تركه ساحات التعليم .. لم يبق أمامه إلا العمل والثبات على حرفة واحدة .. فاختار العمل مع عمال تركيب المواسير وما يسمى بالتدفئة المركزية .. وبعد شهور يسيرة انتقل للعمل مع بليط ولما وصل شريف لامتحان التوجيهي .. كان قسيم قد اشتغل في ما يزيد عن خمس مهن أو حرف .. ومن ناحية مساعدة الأسرة ـ كما زعم ـ لم تستفد الأسرة من عمله الشيء الكثير .. فما يقبضه ينفقه على ملذاته ، وأحيانا بعد شجار يرمي دينارا على أمه وهو غاضب .. ولم يعد يعلق

يوما على أموال الإحسان التي تنفق على البيت كما كان يعلق عليها قديما.. بل كان يأكل ويشرب من أموال الإحسان والجمعيات ؛ كأن لم يجعلها دافعا لهجره المدرسة .. تناسى الغيرة والحمية التي كانت تجتاحه عندما كان يرى رجال الجمعيات والمحسنين يدخلون على البيت بالمساعدات والصدقات .. وربما لو صادفته اليوم يصاب بفرح وسرور ، ويرى أنهم أزاحوا عن كاهله عبئا كبيرا ؛ كأنه الذي ينفق على الأسرة الجريحة ، وأن الأسرة ما زالت تحيا لم تهلك تجاوز سنه التاسعة عشرة وهو ما زال لم يحترف أي مهنة بعد .. يتنقل هنا وهناك .. لم تلصق به مهنة يشتهر بها بين الصناع .



كانت حسنة في جوف الليل وهي تقف بين يدي الرحمن تبكي لأجله وعلى خيبته، وتدعو الله مخلصة أن يوفق ابنها شريفا وألا يخيب أملها فيه ، كما خاب في ابنها الكبير الذي لا يبالي بوضع أبيه ، بل تراه في بعض الأيام لا يتحدث مع والده أو يسلم عليه ، يخرج صباحا غير مكترث، ويعود في آخر الليل بدون أن يسألها عنه أو يسلم عليه.

كان شريف يدرك ويعي الأمل المعقود عليه نحو أسرته ، ويشاهد خيبة الأسرة بقسيم ، وهو لم يفاجأ بذلك ، فهو يعرف قسيما خير المعرفة ، يعرف أنانيته وطمعه وحبه لذاته ، وضعف شعوره وإحساسه بالآخرين ، وضعف تحمله للمسئولية ، فهو يستعجل السنين لينتشل الأسرة من الفقر ومن هذه الحي المظلم ، وهو اليوم يجاهد ويقرأ ويحفظ لإنهاء الثانوية العامة بسلام .

ولكن قبل أن تأتي الامتحانات حدث أمر مهول بالنسبة لهم ، فبينما الأسرة ذات نهار تجلس حول مدفأة لتخفف للبرد المخيم على الناحية طرق الباب ؛ فإذا هو رجل شرطة يسأل عن قسيم ، وقد تبين لهم أنه متهم بالمشاركة مع بعض فتيان الحي بسرقـة دكان بقالة من أحد الأسواق ،

ولما علم صاحب الدكان حال أبي قسيم وشلله وفقره ، وشاهد بكاء الأم وتوسلها تسامح معهم وأخلت الشرطة سبيله ، ولم ترفع القضية للقضاء .

وغضب الأب على الابن وصاح في وجهه وشتمه وحقره ، وكذلك شريف جرحه وذكره بأقواله وشهامته عندما كان يرغب بترك المدرسة من أجل مساعدتهم .. واحتجاجه على أموال الصدقات .. فتظاهر بالغضب والنقمة ، وقابل العتاب بهجر البيت غاضبا على تجريحهم وناقما عليهم صراخهم وتحقيرهم .. وهذه ليست أول مرة يهجر فيها البيت .. فمنذ أن كبر سنا واشتغل كان يترك البيت أياما زاعما أنه في ورشة بعيدة أو أي حجة أخرى.. ولما يجوع وتذهب الأموال يعود للبيت طالبا العفو والطعام .. وبعد هذه الحادثة عاد للبيت ، وطلب من أمه أن تعينه ببعض مال الصدقة ليتعلم قيادة السيارة .. وأمام ضغطه وصراخه وأنه ابن العائلة وأملها بأن ينصلح حاله .. وخوفها من تهديده المستمر بترك البيت والهروب للعاصمة شين .. وعلينا ألا ننسى حنان الأم أيضا .. ذهبت معه لأحد المدربين ، واطمأنت أن المال وصل للمدرب ، ووعدها الرجل بتعليمه السواقة .. وتأكدت أن المال لن ينفق على الدخان والسينما والملاهي دفعت الدفعة الأولى .

وقد صدق قسيم معها هذه المرة ، وحصل على رخصة القيادة المناسبة ، وأنهى الأخ شريف الثانوية العامة بنجاح وبنتيجة جيدة للغاية أهلته ليختار من الكليات الجامعية ما يشاء ؛ ولكن الشاب أمام الحاجة ووضع الأسرة اختار الالتحاق بالجيش والكليات العسكرية، وخاصة الهندسة العسكرية ، وبمساعدة بعض الأكابر تيسر له ذلك ، ليصبح ضابطا ومهندسا في نفس الآن .

وعادة طلاب الكليات العسكرية يتكفل الجيش والقوات المسلحة بتعليمهم وتدريسهم ، وبعد ذلك يلتحقون للخدمة في صفوف ووحدات الجيش في طول البلاد وعرضها ، وبذلك لم يكلف والديه درهما واحدا ينفق عليه في أثناء الدراسة ، بل يأخذ راتبا وإن كان صغيرا يساعد به نفسه أولا ثم الأسرة .. والأهم من ذلك أنه يحصل لوالديه علاجا طبيا مجانا على حساب الخدمات

الطبية للجيش ، فكان يرى أن ذلك توفيق من الله عز وجل .

وكان ذلك كله مفاجئا للأسرة ، فهم لم يحلموا يوما أن يلتحق ولد لهم بالقوات المسلحة ، فهم ربما كانوا يعتقدون أن الجيش لأبناء الذوات أو العائلات الخاصة ، وشريف نفسه لم يحدثهم يوما عن هذا الحلم والهدف ؛ لأنه ربما كان مثلهم يرى أن العمل في الجيش يحتاج لمميزات خاصة ولما استقر الشاب في الكلية العسكرية أو الجامعة العسكرية ، وأصدرت بطاقة العلاج الخاصة بوالده عرضه على أطباء الجيش من علماء وأخصائيين ، ولكن لطول فترة الرقود على الفراش ، وضعف العناية خلال السنوات الماضيات ، لم يكن هناك أمل كبير في شفائه من الشلل ، فقد ضعف الجسم عن المقاومة .. وأصبح يأخذ العلاجات الثمينة من صيدليات الجيش .. ورفعت الجمعيات الأهلية اسم العائلة من المساعدات والإحسان بناء على رغبة شريف ، وأعلمهم بتحسن الحال ، وأن غيرهم اليوم من الأسر أبدى وأولى منهم ، فأثنوا عليه شكرا ، وتنموا له التوفيق .

واحتج واعترض قسيم على تصرف أخيه شريف ، ومنعه من وصول المعونة إليهم ، وأمام الواقع الجديد من تصدر شريف للقيادة في البيت ، وجه الشاب قسيم وجه نحو العاصمة ، وادعى أن الحياة في مدينة البركة أصبحت سيئة ، وأن البيت صار جحيما ، ولما استقر في المدينة الجديدة استطاع العمل على سيارة نقل ركاب على أحد الخطوط الداخلية .

الهندسة

الزمن يمشي ويسير قدما لا يتأثر بحادث جرى هنا وآخر هناك ، فهو يمضي إلى ما قدر له ، لا يوقفه مولد شخص ولا وفاته ، فكل ميسر لما خلق له ، فنحن نكبر ونزداد عمرا وسوف نهرم ونموت ، وما الأيام إلا أعمار الناس ، هذا يضحك والثاني يبكي ، موت وحياة ، ولكن السعيد من وعظ بغيره في دنيانا هذه .

الفقر معروف لكل الشعوب ، ولا يخلو منه مجتمع ، والناس يتفاوتون في الفقر والغنى والصحة والمرض. فقسيم ياسر منذ فشل في المدرسة وهو يصارع الحياة ، ولا يعرف كيف يستقر على هدف وغاية.. ترك المجاهدة في المدرسة ، ونزل لسوق العمل مدعيا أنه يفعل ذلك من أجل الأسرة الصغيرة، وليكف عنهم أخذ أموال الصدقة ، وحتى لا تبقى يدهم ممدودة كما كان يزعم لأمه .. وهذا مقصد نبيل وشريف ويشكر المرء عليه.

ولكن الشاب احترف أو قل عمل في أكثر من مهنة دون فائدة .. حتى سئم كل الأعمال.. وكبر الشاب ودخل العقد الثالث دون نتيجة مهمة .. وتعلم السواقة من أموال الإحسان التي كان يتظاهر بكرهها ، ويحقد على المحسنين ويقذفهم بشتى السباب .. حقق رخصة القيادة ولكنه لم يفلح بالثبات عند شخص يعمل عنده .. فتقدم لرخصة أعلى درجة تخوله العمل في قيادة مركبات الركاب .. فاستغل تدخل أخيه بوقف المعونة الخيرية عن الأسرة ليهرب أو يهاجر إلى العاصمة .. وكان كل هذه السنوات التي قضاها قبل سفره يتذمر من شظف العيش وضيق ذات اليد.. ويحلم الأحلام الخيالية من بناء شركات وتعهدات .. ولم تخلُ أيامه تلك من عمليات احتيال ونصب.. فالأخلاق الحميدة والطيبة لم يكن لها قيمة وأهمية عنده .. المتعة والراحة أجمل الأشياء في الحياة.. المبادئ والمثل شعارات فقط .. ولا أهمية لها إلا إذا وافقت هواه ومصلحته فحسب .

كان يتردد على مدينة البركة بين الفترة والأخرى ربما في الشهر مرة ، وأحيانا في عدد من الشهور مرة .. ولما تخرج أخوه مهندسا وضابطا ضاقت به الدنيا وحسده، وتمنى ولو أنه ظل يكافح على

مقاعد المدرسة .. ومرات يظهر اللوم على أمه التي تراخت وسمحت له بترك الدراسة .. ولا أحد يعقب على كلامه .. كان حقده على شريف واضحا للعيان ، وكان يزعم أمام أقرانه أنه هو الذي شارك في تعليم شريف مع إدراكه أن كل الناس يعرفون أن الحكومة هي التي علمت شريفا .. فلذلك يصمتون ولا يردون عليه ، وإذا تجاهل أحد هذه المعلومة وناقشه هذا الادعاء صاح : أنا لا أقصد فلوس المحاضرات والتدريب .. أقصد المصـروف وشراء الكتب والملابس المدنية. فيهز السامع رأسه ويلزم الصمت من الحديث مع مدع وأحمق

تخرج شريف ياسر مهندسا ، وتعين ضابطا في قوات الهندسة العسكرية، فقال له والده : الآن يا شريف علينا أن نسعى لتزويج أخيك ؛ لعله يستقر ويعرف المسؤولية .

تدخلت الأم وقالت: أنا أرى الأفضل أن نبني بيتا يليق بالمهندس شريف الضابط .. ويكون هذا البيت هنا لقسيم .

قال الأب مبررا غايته مما اقترح : إن سيرة الولد سيئة لا تعجبني .. وعجزي لم يساعدني على تقويمه وردعه عن فلتانه .. عندما ألتقي ببعض أقاربي وإخواني أسمع عنه كلاما رديئا ومخزيا يا أم قسيم .. وأعلم المرار الذي في حلقك .. فاليوم نحن نعتمد على شريف بعد اعتمادنا الأول والآخر على الله .

شريف يعرف الكثير من مفاسد أخيه وشروره ، فلزم الصمت وترك الحوار والجدل بين الوالدين ، وفي نهاية الجلسة قال شريف : سنفعل كل شيء إن شاء الله .. سنشتري قطعة أرض صغيرة ، وعندما نبدأ البناء ويجهز الطابق الأول نكون خلال ذلك الوقت قد خطبنا لقسيم ولما نرحل يتزوج قسيم بإذن الله .. لعل أحواله تتحسن ويعود للسمعة الطيبة .. ويهجر أصحاب وجلساء السوء .

قال ياسر : بارك الله فيك يا ولدي! .. أنت مفخرة لنا .. نعم الابن يا شريف.. لولا همتك وأخلاقك لمت كمدا من سيرة أخيك السيئة .. استغل عجزي للعيش بلا حياء ولا أخلاق .

وأثنت الأم بدورها على ولدها ، وحثته على الرضا والصبر وتحمل مساوئ أخيه وقصصه ،

فضحك شريف وقال: لي سنون أسمع وأتحمل .. ولا أتدخل في حياته الخاصة إلا ناصحا مع أن الإساءة تلحق بنا جميعا ولا تصيبه وحده .

قسيم

قسيم ابن الربع قرن الممتلئ البدن المتوسط الطول كان مسكنه غرفة صغيرة في أسفل بناية في وسط العاصمة في حي قديم اسمه حي السماعة ، ومسكنه لا يختلف عن مسكن الأسرة في بلدة البركة شارع عمارة .

ربما تجد منازل الكلاب عند بعض الناس أفضل من غرفته وملاحقها ، ووطد نفسه في أول الرحيل أن يعود لزيارة الأسرة في نهاية الأسبوع ليلة الجمعة ، فالعمل ينشط خلال أيام الأسبوع والأهل قد ملوا من إصلاحه كما يبدو فتركوه على هواه ، فكان يستقبل كضيف ويقدم له الطعام والفراش، ولا يطلب منه مالا للمشاركة في مصـروف العائلة، لقد كفاهم الله ﷻ المئونة براتب شريف ، وهو لم يقدم من نفسه شيئا للبيت ، وإنما في بعض الأحيان يلتقط بعض الفواكه التي تباع على أرصفة الطريق بين المدينتين ، وكان يتضايق بشدة من أي نصح وإرشاد يقدم إليه من قبل الوالدين ، وعندما يطلبان منه أن يحافظ على بعض ماله ويدخر منه للزواج وبناء أسرة ، فيدعي أنه قد بلغ سن الرشد والعقل ، ويعرف مصلحته ، وهدفه المنشود ، ويعرف أين المنفعة فلا داعي للنصح والتوجيه ، ومرات يتذمر من الشغل وقلة المال والعطل لتصليح السيارة ، وعندما تنصحه أمه بالصلاة والتوبة يغضب ويبين لهم أن هذه عادات قديمة ، ولم يعد أحد يصلي إلا أمه ، وعلى الإنسان أن يشبع شهواته ورغباته ، وأن الدين للعجائز فحسب ، وربما سمع كلاما قاسيا جارحا من أبيه ، ولائما لأمه في فشلها في تقويمه ، فتأخذ الأم بالبكاء بكاء مرا ؛ ولكنه لا يؤثر في الشاب يوما بل يتظاهر بالغضب والسخط من زيارتهم والجلوس معهم ويغادرهم غير آسف ، ولا يعود إليهم إلا بعد شهر ، وربما أكثر مبديا احتجاجه وعدم رغبته بسماع مثل هذه المقالات .

والواقع أنه أخذ يتعرف على أناس آخرين، وتتسع دائرة معارفه في العاصمة شين، ويجد مكانا

للتسلية والنزهات والمزيد من قضاء الشهوات مع أصدقاء وجلساء اللهو والخمر والقمار .
وهم في أول الأمر كانوا يقلقون على غيبته ، ويسألون أقربائهم الذين يعملون في العاصمة عنه ومع الوقت وبحكم العادة قلّ سؤلهم وتتبعهم لحال ابنهم . وبينما الوالدان يخططان لمستقبل وأحلام العائلة بعد تخرج شريف كما ذكرنا سابقا من الكلية العسكرية قسم الهندسة ،وأصبح ضابطا بنجمتين على كتفه أو ما يطلق عليه عسكريا ملازم أول ، رن جرس الهاتف في المنزل – الهاتف الذي ركبته الدولة في بيت السيد ياسر بعد التحاق الشاب بالوحدات العسكرية المحاربة فأي ضابط عسكري يركب له جهاز هاتف ليتمكنوا من الاتصال به في أي وقت يحتاجونه فيه ؛ وليكون هو أيضا على اتصال مع أسرته – وكالعادة الجديدة قامت الأم حسنة لترد على الهاتف ، فسمعت صوتا متسائلا : أهذا بيت أبي قسيم ؟
ـ نعم !
ـ أنا صديق قسيم في العمل .. نعمل على نفس خط السير ..فالأخ قسيم تشاجر مع ناس .. وضربوه بسكين وهو في المستشفى
صاحت حسنة فجأة وقالت : ماذا ؟! سكين .. مستشفى !
كان شريف موجودا لحظتئذ في البيت ، ويتابع الاتصال ، فلما صاحت أمه أخذ السماعة منها وقال : من يتحدث ؟ أنا شريف أخو قسيم ما الأمر ؟! .. أهلا بك ..في أي مستشفى .. مستشفى الحياة الغالية شكرا أيها السيد .
وضع السماعة وقال بأسف وربما غيظ : حسبنا الله ونعم الوكيل .. مشاجرة على دور التحميل على الخط .. تطورت لضرب وملاكمة ثم سكاكين .. قسيم ضرب أحد السائقين موسا جاء في يديه ، فضرب الثاني قسيما بسكين جاءت في ذراعه .. سننزل العاصمة يا أبي .. هيا أيتها الأم .. يكفي دموعا .. سنذهب لمستشفى الحياة الغالية .. هون عليك يا أبي .. علينا بتزويجه قريبا ـ إن شاء الله ـ لعل الحال ينصلح ويستقيم .. سنستقل سيارة مباشرة إلى المستشفى .
وخرجوا والأب يسب ويشتم ولده الخائب الذي لم يراع أباه ، وما هو فيه من العجز والشلل ،

وها هو يضيف لحياتهم السكاكين والسواطير ، فازداد الغم والهم في قلب الأب الجريح وسمعوه وهم عند الباب يقول : ليته يموت ونخلص منه .

فقال شريف : لأ يا أبي .. لسوف يعقل ذات يوم .. ادع له بالهداية والرحمة .. قل الله يهديه .. هذه مشاكل ومشاجرات السواقين معروفة ومنتشرة في كل البلاد .. فأغلبهم شلل وعصابات فإذا قل الركاب يتشاجرون من الضجر والملل ، وإذا كثر الركاب تشاجر الركاب على الدور ، ويتدخل السائقون فتحصل المنازعات والمشاجرات ..أصلح الله الناس .. هدأ أعصابك يا أبي ولا تمقت نفسك .. ولن نتأخر عليك .. نطمأن على قسيم ثم نعود بإذن الله تعالى

فقالت حسنة : الله يهديك ويصلحك يا ابني يا قسيم.

ومرت أم قسيم على شقيقة زوجها التي تجاورها في الشارع ، وطلبت منها أن تمر على أبي قسيم وتقدم له العشاء إذا تأخرت عليها، فوعدتها المرأة بفعل ذلك لما علمت بالحادث الجديد لابن أخيها وقالت : متى تهدأ يا قسيم من المشاكل ؟.. الله يهديك يا ابن أخي إلى الخير والحق .



غضب قسيم

مع الغروب دخلوا العاصمة وإلى المستشفى الذي يرقد فيه قسيم وصلوا ، وكان قد تم علاجه ولفت ذراعه المصابة بالشاش الطبي، ووجدوه ممددا على أحد الأسرة بعد المعالجة ، وكان وجهه لا يخلو من الكدمات والجروح ، سمح لهم الشرطي القائم على باب الغرفة بالدخول لغرفة المصاب عندما علم أنهم أمه وأخوه ، ولما هنئوه على السلامة ، قال معاتبا لهم كأنهم هم المقصرون في حقه : ألم أقل لك يا أمي اشترِ لي سيارة خاصة ؟.. لو كان لدي تكسي أجرة خاص .. لما تشاجرت مع هؤلاء الأوغاد والمجرمين وما حدثت تلك المعمعة .

قالت وقد مسحت دموعا سالت على خديها : لك سنوات تشتغل يا ابني ! ولليوم لم تدخر ثمن سيارة .. من أين تريد أن نشتري لك ؟!

نظر لشريف شزرا وقال : السيد استغنى عن أموال الجمعيات .. لقد قلنا لا داعي للعجلة .. قلنا متى يتخرج شريف كنا استغنينا عن إحسان الأغنياء .. كبرتم عن أموال الجمعيات والصدقات .

رد شريف محاولا التهدئة من انفعالاته ومتجاهلا غمز أخيه : هناك من أفقر منا يا قسيم .. ولو وضعت قرشك على قرشي لصار معنا حق سيارة صفراء ..ولكن ..

وقبل أن يقول ما بعد لكن صاح قسيم بغضب : اسمع لا تعيرني أرجوك .. أنت لماذا جئت لزيارتي ؟.. أنا لا أريد زيارتك !

ـ لماذا جئت لزيارتك؟ لماذا ؟! أنا جئت مع أمك يا محترم .. أنا أعرف أنك تبغضني .. وأنك تعتقد أنك تركت المدرسة من أجلي كما تشيع بين الناس .. أنت تركت المدرسة لفشلك في المدرسة .. والحمد لله رب العالمين لم استفد منك قرشا واحدا في المدرسة .. الزم حدودك .

فصرخ قسيم محتدا: اسمع أرجوك .. اخرج .. يا شرطي أخرج هذا الرجل من هنا .

ـ حسنا يا قسيم سأخرج .. أنت يجب أن تؤدب من جديد مع احترامي لأمي ..لا تدع أن الظروف أوصلتك إلى هذا ..أنت أوصلت نفسك إلى ما أنت عليه وفيه .

ـ لا أريد أن أسمع .. يا شرطي .. أخرجه من هنا

فقال الشرطي : يا أخ شريف هو مصاب ومتوتر دعك منه وتعال عندي

ـ حسنا.. إني انتظرك يا أمي في الممر .. هو الذي دفعني لهذا الكلام العلقم حتى يعرف حده .. وأننا كبرنا لم نعد أطفالا نأخذ مصروفنا من أهلينا .

ـ يا ليتني أموت .

ـ سوف تموت .. كل حي سيموت .

وغادر شريف الغرفة بعد هذا الانفعال المفاجئ ، وأخذ يتمشى في الممر والبهو، وأخذ قسيم يشكو لأمه قساوة قلب شريف عليه ولؤمه وحقده عليه فقالت : أنت مخطئ يا ولدي !.. فشريف يحبك ، وقبل أن نسمع بالحادث من زميل لك كنا نخطط لتزويجك وتسكينك مكاننا وكيف نخرجك مما أنت فيه من أخلاق سيئة لك وللعائلة ؟

ـ لا أحب الوعظ يا أماه !.. لا أريد أن تزوجوني ، أنا أزوج نفسي.. وتابع بعصبية : ءأنا أتزوج من مال شريف ؟!.. لا يمكن أن يحدث هذا ولو مت أعزبا .. مع السلامة يا أمي .. كلكم تكرهونني .. ألم تطمأنوا عليّ ؟!.. مع السلامة.

ـ نحن نكره أخلاقك السيئة .. هل هناك أم تكره ولدها ؟!

ـ نعم ، أنت أيضا تكرهينني أعرف هذا ..

ـ ويلك من الله !.. أنت ابني .. وقد دعوت الله كثيرا أن يبقيك لي.. لقد مات قبلك الكثير .. ولكنك أعوج .. ولا تعرف أنك أعوج أو أنك تتجاهل عوجك .

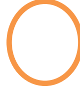
ـ أنا حر .. سلمي لي على أبي .. وأنا بخير.. ولا تسألوا عني .. أنا وحدي مرتاح في هذه الدنيا اللعينة .

ودعت له بالشفاء والسلامة وغادرته غاضبة ، ولم يحاول دعوتها للاعتذار ، وأخذ شريف يخفف من ضيقها وغضبها ، فقد كان يسمع بعض الكلام كلما يقترب من الباب ، وهو يسمعه يتكلم بصراخ وعصبية أزعجت كل من مر من عندهم ، وقال لأمه : لا تحزني يا أماه ! هو يريد أن

يحملنا سبب فشله في هذه الحياة .

وشكر شريف الشرطي الحارس ، وانصرفوا عائدين لمدينة البركة ، ولم يخبروا الأب عن سوء أخلاق ابنه ، وأعلموه أن إصابته متوسطة ، وهي في الذراع ، وسيخرج خلال أيام .

وفي الصباح التالي اتصلت الأم بالمستشفى فأخبروها أنه نائم ، ولا يرغب بالرد على أحد فقالت : لا حول ولا قوة إلا بالله .. الله يصلحك يا قسيم .. ماذا أفعل حتى يتحسن حاله؟! .. صرت خائفة أن أزوجه بنت من بنات الناس فيسود وجوهنا .. رجل لا يعتمد عليه .. فمنذ اختار المهن وترك المدرسة ونحن لم نستفد منه شيئا يذكر ..إنا لله وإنا إليه راجعون .



كان الأخ شريف يتألم من كل كيانه لحال والده وانحباس بدنه بالشلل ؛ وذلك قدر الله ، فعلى المرء أن يقبل قدر الله ويسلم أمره لله ، لقد حاول عندما مكنه الله دخول القوات العسكرية الوطنية أن يستفيد من خدماتها الطبية والعلاجية في معالجة أبيه؛ ولكن تبين له أن الوقت قد تأخر ، ولا مجال عندهم في إزالة هذا المرض .. فاليوم يريد أن يدخل السعادة لوالديه عن طريق المال وإسكانهم في حي أفضل خدمة وحياة من حيهم هذا ، في بيت واسع جديد ، وكانت أفعال أخيه الأكبر تسبب الحزن والألم للأب والأم وله .. ولا خلاص منها إلا بتوبة قسيم وعودة للأخلاق الفاضلة، وترك الزعرنة والفتونة .. ولكن الأمر كما رأينا زاد وأصبح يستخدم السكين والعصا ، ولما لم يعد يتحمل النقد اضطر لطرد أخيه من حضرته ثم أمه .

هذا ما كان يؤرق الضابط الصغير شريف تلك الأيام ؛ لذلك تجده حريصا للعودة إلى البيت فور انتهاء دوامه ؛ ليكون مع الأب الحزين والأم المسكينة ، فكان من النادر جدا أن يسهر خارج البيت أو يذهب لزيارة الأصدقاء وزملاء العمل والكلية وحتى أقاربه في الحي ومدينة البركة ؛ وكأنه ما زال على مقاعد المدرسة الثانوية ، وكان من طبيعة العمل العسكري أن يمكث الضابط بعض الليالي والأيام في معسكرات الجيش للمناوبة والطوارئ .. فكان يقوم بواجبه العسكري تلك الليلة من تفقد الغفارات وأحوال الأفراد والطعام المقدم لهم .

ويبدو أن بعض الزملاء الضباط لم يعجبهم وضع وحال زميلهم شريف بعدم السهر والعبث معهم والتمتع بحياة الشباب ، وبينما هم يغادرون معسكرهم مساء يوم أقسم أحد الزملاء أن يستضيفه عنده ، ويقضي ليلة في بيت أسرته ليزداد بهم معرفة ، وحاول الأخ شريف بكل ما يملك من قدرات أن يتملص من هذا القسم ، وأمام إصرار الزميل على هذه الضيافة له ولزميل آخر لهم وافق على هذه الزيارة ، وكان من عادة شريف أن يتصل بوالدته قبل مغادرة المعسكر لتعد لهم طبخة يحبها ويشتهيها هو أو والداه ، فلما وافق على زيارة الزميل فواز عاود الاتصال بأمه مخبرا بأنه لن يأتي الليلة لسبب طارئ ، وهذا معتاد في الحياة العسكرية ، بل ربما يُتصل به في البيت ليلتحق بوحدته العسكرية .

وقام الضابط فواز رامي بضيافتهم وهم في الطريق في أحد المطاعم الفخمة المعروفة له ، ويتكرر مروره عليها فهو زبون معروف لذلك المطعم ، وكان هذا الضابط يملك سيارة جديدة قدمها له والده حينما تخرج ضابطا ، فهو ابن أسرة ثرية بمعنى الكلمة ، فقبل شريف ياسر وعزمي سامح الدعوة والسهرة ، وكلهم أبناء دفعة واحدة ؛ ولكن مهنهم العسكرية مختلفة، وكلها تصب في الهندسة العسكرية .

فتفريعات الهندسة العسكرية هي نفس تفريعات الهندسة المدنية ، هندسة مدنية معمارية ، كيمياء مكانيك ، كهرباء ، وغير ذلك من التخصصات ، وحتى مدة الدراسة نفس مدتها في القطاع المدني خمسة سنوات على الأقل .

وبعد تناولهم الغداء ساقهم فواز إلى إحدى الحدائق العامة الكبيرة للترفه قبل ذهابهم لبيت العائلة ، ثم نزل بهم بعض أسواق المدينة ، واشترى قطعة من الذهب معلنا لهم أن اليوم عيد ميلاد أخته الأصغر منه .. فهي ستكون حفلة وسهرة بهذه المناسبة المهمة لديهم .. فأحس شريف بالضيق والحرج لهذا التطور .. فقد أدرك الغاية من هذه الزيارة .. وكان شريف يسمع عن مثل هذه الحفلات والسهرات ، وكان يرى ذلك من التقليد الأعمى للغرب ، ويراه من الإسراف والتبذير .

وفكر بالانسحاب ثم أدرك أن الأوان قد فات ، فقد دخل الليل وقد وافق على الزيارة وقبل دعوة الغداء والسهرة ، والسفر للبركة يحتاج لساعات فيزعج الأهل بدخوله عليهم بعد نصف الليل، وقد اعتذر لهم عن المجيء ، فسكت على مضض أو كالمغلوب على أمره ، حتى أن زميله عزميا لاحظ عليه الشرود والتوتر فقال : يبدو أن الأخ شريفا لا يحب مثل هذه الحفلات ؟!

تمهل شريف في الرد لحظات ثم قال : هذه أول مرة سأحضر حفلة عيد ميلاد يا أخ عزمي .. نحن أناس بسطاء.

فقال فواز : هي حفلة بسيطة أيضا يا أخ شريف .. أكل وشرب وبعض الموسيقى وقطع الجاتو والكيك .. وتقديم الهدايا الرمزية لهذه المناسبة والسلام .. عادات تعودنا عليها يا أخ شريف تقاليد وبس !!

ـ غفر الله لنا جميعا

فقال فواز : أنت اليوم ضابط يا شريف .. لازم أن تتغير .. وتحتك بالمجتمع وتتطور وتنفتح على الناس أكثر .. لابد من التغيير .. أنت الآن تمتلك المال والرتبة العسكرية والشهادة الهندسية .. لا تبقَ في عقلية الفقر وحي العمال الذي حدثتني عنه مرة ..أنت لا ينقصك مال يا سيدي الملازم .. سأسعى لتحديثك أنا والأخ عزمي .

فقال عزمي : نعم أيها الزميل .. انطواؤك على أحلامك ونفسك لا يسر صديق .. الآن كما قال فواز خرجت من قمم الفقر .. فأنت بحاجة أن تتغير وتتحضر .

فقال شريف متأوها : آه ! على كاهلي مسؤوليات نحو الوالدين ..أبي كما أخبرتم قديما مريض بحاجة لي .. فكم جاهد وتحمل حتى كبرنا ، فهل في لحظة ضعفه أسمح لنفسي بالانطلاق والانفلات ؟..هذا محال .

فقال عزمي : نحن لم نطلب منك التخلي عن والديك .. وهل نحن متخلون عن أبوينا ؟ .. إنما ندعوك لأخذ حظك من الدنيا .. من المرح واللهو والتمتع .. أنا أدرك المعاناة التي تعانيها .. لقد حدثتني عن نفسك أيام الكلية .. وأخوك عليه واجب من المسؤولية .. لا يجب أن يظل

خاليا منها .. وأنت وحدك تنفق على والديك .. هذه مسؤولية الجميع جميع الأخوة .

فقال فواز عندما رأى شريفا يبتسم من كلام عزمي ولم يعلق بشـيء : الدنيا تتغير يا شريف أنت الآن ابن القوات المسلحة.. وليس ابن حي العمال الحي المأساة كما سمعنا منك .

فقال شريف : أكيد الدنيا تتغير .. ولكن يجب أن أتغير للأفضل والأحسن .. وهل إذا جلست في ملهى أو حانة أتغير ؟! ففي حي العمال حانة خمر هل إذا راقصت صبية تغيرت ؟

فقال فواز : ليس هذا بالضبط قصدنا .. ولكن لابد من المرح والحب والسفر وسهرة هنا وسهرة هناك .. ليست الحياة شغل شغل .. ساعة وساعة .

ـ أحيانا أذهب لنادي العسكر في مدينة البركة .

فقال عزمي: هذا خبر جيد .. تفاعل مع الناس مع الضباط .. فالنوادي تعمل حفلات ونشاطات.. وتحتفي بالمناسبات الوطنية والدينية .. كم مرة ذهبت إليها ؟

فضحك شريف وقال : الحقيقة مرتان فقط ..أنا أقضي أكثر وقتي مع والدي المقعد أيها الأخوة تعودنا على ذلك منذ ابتلاه الله ﷻ بالشلل وأنا على هذا المنوال .

فقال فواز : ولماذا ذهبت للنادي إذن ؟ لابد أن أحدهم كلفك برسالة .. وذهبت إلى هناك من أجل ذلك .

تبسم شريف وقال : أحسنت .. أرجو أن أتغير للأفضل إن شاء الله .

فقال فواز : إنك خائف .. اعتبر هذه السهرة أول مرة وآخر مرة .

فقال عزمي : عليك أن لا تنزعج من مثل هذه اللقاءات يا شريف .. تلتقي بكثير من كبار الضباط في مثل هذه السهرات ..وليس كل سهراتنا رقص وموسيقى .

قال شريف : أنا فعلا مضطرب .. هذه أول مرة لا أكون في معسكري وأنام خارج البيت .. أحس كأنني ارتكب إثما كبيرا .

فقال عزمي : هون عليك .. مرتان أو ثلاث مرات ولسوف ترتاح نفسيا .. ولا تقلق على أمك وأبيك ..وهدئ أعصابك .. ولسوف تسر من سهراتنا وتشكرنا على فعل ذلك أيها الصديق .

عاد شريف للضحك وقال : أسر بالرقص وأعياد الميلاد ؟!.

فقال عزمي :لابد أن تجرب وتخرج من القمم يا رجل ..أنت ضابط ومهندس وغدا ستكون قائد سرية أو كتيبة أو قائد لواء .

مطاردة نسائية

بينما صاحبنا شريف يجلس في مكتبه في الوحدة العسكرية التي عين فيها تكلم معه مأمور السنترال (المقسم) داخل الوحدة قائلا : سيدي .. مكالمة خارجية !

خارجية تعني عندهم من غير وحدات الجيش من المدنيين على اصطلاحاتهم أو رقم مدني ، فردد المهندس : خارجية ! وخطر في باله على الفور أمه فقال لنفسه لعلها أمي !

ثم سمع صوتا نسائيا ، ولم يكن صوت أمه كما ظن ابتداء فقال : نعم .. أهلا وسهلا .. أنا شريف .. أوه الأخت عبير يا مرحبا !! .. فواز لا يعمل في هذا المكتب .. عفوا تريدينني أنا ! وتريدين شكري على حضور الحفلة ، شكرا لك عقبال نجاحك في الجامعة بإذن الله .. تريدين تعريفي على بعض زميلاتك اللواتي أعجبن بي .. كان الوقت ضيقا لتعريفي عليهن ليلة الحفلة شكرا .. أنا حضرت الحفلة صدفة إذا صح التعبير أنا لم أكن مدعوا .. آسف ، اعتذري لهن الوقت ضيق لا يسمح بمزيد من الجلسات .. صدقي أنها أول مرة أحضر حفلة ميلاد وموسيقى أنا إنسان بسيط .. ومتخرج من الكلية منذ شهور .. أشكرك مع السلامة .

وضع السماعة ومسح العرق المتصبب على جبينه وقال ضاحكا ضحكة صغيرة : تريد أن أتعرف على صويحباتها!! ..وتريد أن تتعرف عليّ أكثر .. يا للعجب ! بنات هؤلاء الناس جريئات على مخاطبة الرجال .. يا لها من فتنة ! وماذا نستفيد من هذه المعرفة ؟.. أأتزوج واحدة منهنّ ؟! .. على شاكلتهن .. لقد كنت في انبهار من تبرجهن وسفورهن تلك الليلة .. ظننت نفسي في ملهى ليلي كما نرى في أفلام التلفاز الأجنبية ..لا يمكن هذا .. أنا أتزوج واحدة منهن ..أنا سأتزوج ـ بإذن الله ـ فتاة مثل أمي امرأة صابرة حبيبتي يا أمي ! كم أحبك هل سألقى أنثى مثلك صابرة راضية بقدرها؟! .. زوج حيث لا زوج .. مسكين يا أبي ! البلاء

شديد ولكنّ الثواب عظيم ..يخيل لي لو أنني تزوجت فتاة من صويحبات عبير اللواتي شاهدتهن تلك الليلة ، وحصل لي حادث خطير لهجرتني بسرعة الريح .. هل يقبلن أن يحيين حياة هادئة لا سهرات فيها ولا لهو ولا رجل ؟! اللهم إني أسألك الزوجة الصالحة يا رب يا الله ! حفلات عيد ميلاد . عيد شيطان .. ناس معهم فلوس لا يعلمون أين ينفقونها ؟! يا رب سترك عليّ وعلى والديّ .



وتكرر الاتصال ثانية وثالثة حتى انزعج الشاب انزعاجا شديدا وخشي على سمعته وشرفه ، فطلب من عامل الاتصال أن يعتذر لكل امرأة تتصل به إلا أمه ، وغادر المكتب متوترا ومتجها إلى مسجد المعسكر لصلاة الظهر وهو يقول : أيعلم فواز بهذه المكالمات ؟! هل أعلمه بها وأطلب منه أن يكف أخته عن هذا العبث ؟ ولكن عزمي يقول أتهرب من السعادة والثروة لا تدع الفرصة تفوتك ؟ أي فرصة ؟! .. وهل أنا على قد هؤلاء الناس ؟ يقول عزمي تقضي عشرات السنين في الخدمة ، ولا يجتمع لك ما عند والد فواز من مال .. سأصبح مليونيرا على رأيه .. وماذا سأفعل بالمليونير ؟ .. أين الكرامة والشرف ؟ أنا كنت استعر من إحسان الجمعيات .. وكنت أدعو الله ليل نهار أن أكبر وأتخلص من ذل الصدقة .. مع أنه مال أباحه الله ﷻ للفقراء والضعفاء .. اللهم غناك .. وسترك يا الله.. وهل من الضـروري إذا أصبح الإنسان ضابطا أو مهندسا أن يخلع تقاليده وعاداته الحسنة ؟!

ودخل الصلاة وهو مهموم الفكر قلق من هذه الاتصالات الشيطانية ، وهو حائر من فتاة لا تجد ترحيبا ومع ذلك تعاود الكرة .

وساطة

كان شريف مناوبا في معسكره ذات ليلة ، وكان معه في تلك الوظيفة الليلية المهندس فواز ، وتركا نادي الضباط داخل وحدتهما ليتجولا على العساكر التي تحرس المعسكر ، وأثناء تجوالهما كانا يتسامران ويتناقشان ، وبعد دورتهم التقليدية على العساكر قفلا عائدين لنادي ضباط المعسكر حيث يسهر الضباط ، يشاهدون برامج التلفزيون المحلي ، ويشربون الشاي والقهوة والمرطبات ، ويثرثرون ، وفجأة قال فواز لشريف : يا ملازم شريف اشتكت الأخت عبير منك

تفاجأ شريف بما سمع وهتف : ماذا ؟!

قال : أخبرتني أنك طلبت من مأمور الاتصال أن لا يصلها بك .

قال وهو ما زال مدهوشا : هي قالت لك ذلك ؟!

ـ نعم ، يا شريف .. يا صديقي عليك ألا تأخذ مثل هذه الاتصالات بحساسية ورعب .. نحن في مجتمع منفتح .. فمحادثة الشاب والشابة في بيئتنا أمر طبيعي ..لا يقوم على خيالات وحكايات ؛ ولكنك لم تعتد على مثل ذلك فتخاف وتقلق .. لن يكون هناك قصص حب وغير ذلك إذا تحدثت مع أختي أو قريبتي .. أنت لو درست في جامعة مدنية لشاهدت مثل هذه الأمور في حياة الجامعة .. تصاحب اليوم فلانة وغدا علانة .. فعليك أن تتعامل مع عبير أو صاحباتها كما تتعامل مع الزملاء الذكور .. تتعاون مع هذا وتكره هذا .. الفتاة وزميلاتها أعجبن بك تلك الليلة فيرغبن بالتعرف عليك أكثر ..والحديث أكثر .. فهن أصبحن ينظرن إليك أنك صديق العائلة .. لن يكون هناك زواج وعلاقات خاصة .. صداقة بريئة يا ملازم شريف .

كان شريف يسمع هذا وهو مذهول للأفكار المطروحة ، فلما سكت فواز وطال صمته قال : هذه المخالطة طبيعية في بيئتكم ؟!

قال : طبعا ، هذه مع الوقت أصبحت تقاليد وممارسات عادية لا تشكل أي ضغط نفسي علينا فأنا أدعوك أن لا تعقد الأمور .. وخذ راحتك في الحديث مع عبير وصاحبات عبير .. المجتمعات تتغير يا شريف ..ولما تصبح من كبار الضباط ستأخذ زوجتك لمشاركة الضباط في

حفلاتهم وسهراتهم .. وهذا سيسلم على زوجتك ..وهذا سوف يمازح زوجتك وإلا أصبحت منبوذا وشاذا .. فالأخت عبير تريد أن تخاطبك وتشاركك همومك وتناقش معها مشكلاتها .. لتخرجك مما أنت فيه من السذاجة والحياء الشديد .

قال شريف وهو ما زال مأخوذا بما سمع : أسمع كلاما خطيرا يا فواز .. أختك كما علمت منك أنها في الجامعة .. ألها أصدقاء في الجامعة ؟!

ضحك فواز ورد : هذا شيء طبيعي أن يكون لها أصدقاء من الجنسين .. كما لها أصدقاء من الجنسين في نادي العائلة والحي ..ولليوم ما سمعت أنها علقت بشاب ورغب بزواجها .. أنا أعجب بفتاة من فتيات المعارف وتعجب فيّ .. ولكن ما زلت كما أنا ، ولم أحيا قصة عاطفية ساخنة .. والزواج لم أفكر فيه بعد .. نحن أشراف يا زميلي الفاضل .. لكننا انتهينا من عقدة الاختلاط والخوف من العلاقات الخاصة بين الجنسين .

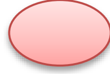
- أي صرتم مثل الأجانب ؟!

- نعم ، فأحيانا نشترك في حفلة شراب .. شراب خمر .. لكن لا نبالغ بتعاطي الخمر حتى السكر البالغ .

- هكذا مجتمعكم !

- نعم ، فلا تتردد في لقاء عبير والحديث معها .. وتقول إني خجلان من الزميل فواز .. نحن غير معقدين .. وإنما إذا اتصلت بك فتحدث معها وناقشها فيما تستشيرك به .. ولا يقع في بالك أنها مغرمة بك وتلف حولك .. فالفتيان حولها كثر .. تذكر هذا .. فهي راغبة في مساعدتك وإخراجك كما قلت لك أكثر من مرة من انطوائك وتقوقعك في عملك وخوفك من النساء كما بدأت لها تلك الليلة حتى لا تعرق وتتوتر إذا وقفت امرأة للحديث معك .. قد بدأت لنا طفلا صغيرا ليلة عيد ميلادها بخجلك واحمرار وجهك وارتباكك الشديد .. فاستأذنتني لتجعل منك رجل مجتمع من الطراز الأول .. لذلك دعوتك لعيد ميلادها .. حدثتها عنك وعن انكماشك .. فطلبت مني أن أدعوك وأعرفك بها لتغيرك .

كان شريف يسمع حديث فواز وهو في غاية الاستغراب والتعجب ، فتاة تطلب من أخيها أن يعرفها عليه لتساعده من الخروج من عالمه إلى عالمها .. اضطرب عقل صاحبنا لهذه المبادئ والأفكار .. وعد فعل هذه الفتاة جرأة في غير محلها.. تطلب من أخيها أن يعرفها على شاب غريب ليتخذها صديقة .. فهم عندما تهوي فتاة للرذيلة يستسيغون الأمر ، ويعتبرون الأمر خاصا بالفتاة وحدها لا يضير أهلها .. أما نحن تنقلب عندنا الدنيا والعشيرة والعائلة لسقوط فتاة في مهاوي الفجور ويصيبنا الخزي أبد الدهر .. الناس عجايب ! أيُّهم الصحيح يا دنيا ؟!



ولم يكد شريف يستوعب حديث فواز حتى فاتحه عزمي سامح قريب فواز بالموضوع نفسه ، وتوسطه بينه وبين عبير ، وأنه يسيء إليها برفضه للحوار معها ، وأنها تُكن له من الود والاحترام الكثير ، وأعاد على مسمعه أن مثل هذه العلاقات والتصرفات بريئة من كل سوء وفساد ، وأن وسطهم الاجتماعي يتقبل مثل هذه الاجتماعات واللقاءات بأريحية كاملة ، وأن هذا الانفتاح بين الجنسين يزيل الكثير من العقد النفسية والاجتماعية والتوترات المختلفة .

فقال له شريف : رغم ما كنت أسمع في حينا وبيئتنا عن مشاكل وعلاقات غرامية بين فتيان الحي وفتياته .. فإني أعجب مما أسمع منك ومن الملازم فواز .

ـ نحن وصلت إلينا الحضارة قبلكم .. هل تظن أننا لا نغار على أخواتنا ؟!.. صدق أننا عندنا غيرة ربما أكثر من رجال حييكم ..

ـ أنا لم أتحدث عن الغيرة .. فالغيرة نسبية وتتفاوت من مجتمع لآخر.. هذا لا يخفى عليّ .. أنا أعلم وأقرأ أن فرنسيا قد يقتل ويغتال عشيقته إذا أحبت غيره وخانته .. لكل أمة طباعها وطقوسها .. ولكننا مسلمون !

ـ ونحن مسلمون ولكنك تقول في نفسك هل هؤلاء حقا مسلمون ؟!

ـ أكيد أنتم مسلمون .. ولكني أرى أن إسلامكم غير إسلامنا أو كما قلت سبقتمونا في التطور والحداثة .. يا أخ عزمي اعلم أنني عشت حياة صعبة مؤلمة.. أنتم لم تعيشوا المأساة التي عشنا

بعض فصولها .. أنا لما تعرض أبي لسقوط حجر عليه في ورشة أو بناية ..كنت يومذاك في الصف السادس .. كنا في فقر مدقع .. كنا نبيت أحيانا كثيرة من غير عشاء .. عندما أصبح الوالد عاجزا يركب عجلة لم يكن يملك سوى عشرات من الدنانير .. لم يكن دخله وعمله يسمح له بالادخار .. والعلاج على حسابنا .. أو قل على حساب الجمعيات وأهل الخير .. الأقارب مثلنا لا يملكون الكثير وكلٌ عنده أحواله .. أنت لم تعرف الجوع والعري .. لم تلبس ثياب الصدقة والإحسان .. البنطال يبقى على جلدك سنة أو أكثر لا تستطيع أن تستغني عنه من الحاجة والفقر.. واقع مؤلم الذي عشته يا أخي .. وعليّ الآن عبء تغييره .. آه لو تعلم كم فرحت عندما قبلت أوراقي في الجيش .. كأني عانقت السماء ..أعدتني للوراء يا عزمي ..كيف يكون شعور المرء عندما يذهب للمدرسة بالثياب المستعملة والبالية ؟! .. ولكن الحاجة تلزمك أن تصمت .. لا أدري كيف يشعر المرء عندما تذهب الأم للعمل عند العائلات الغنية لتوفير الدواء للوالد المصاب؟! .. أقرانك في المدرسة يأكلون الساندويتشات الطازجة .. وأنت تنظر إليهم من بعيد .. وإذا لمحك أحدهم أشفق عليك وعرض عليك طعامه ، أي دم يبقى في وجه الإنسان؟! .. وأنت تتظاهر بالشبع مدعيا أنك أفطرت فطورا تتحدث عنه الأمعاء، وقد تكون بت طاويا على جوع .. ولا أقول لك إنني وحدي من كان يعاني مثل هذه الآلام .. فغيري كثير مر بمثل ظروفي .. ولكن أتصور أن أكثرهم ينسى مثل هذه الصور .. لم تر الحزن والبؤس في وجوهنا عندما يأتي العيد والأعياد.. الكل فرح ومبتهج إلا نحن في ضيق وألم .. وعندما نعود للمدرسة ويتحدث الأغنياء عن الرحلات والملابس وقصات الشعر وأفلام السينما التي تمتعوا بمشاهدتها وحدائق الحيوان التي زاروها .. والملاهي التي لعبوا فيها .. كم من الألم يحدث لنا! هذه حالنا يا سيدي.. أتريد مني أن أصاحب البنات وأسهر مع البنات.. وأسافر معهن؟! .. ولدنا فقراء فعرفنا قيمة القرش والدرهم ..هؤلاء الفقراء عندما يذهب المعيل الوحيد لهم بموت أو مرض يضطرون لأكل وجبة واحدة دسمة في الشهر أو في عيد الأضحى .. ويرتدون الثياب العتيقة .. وبعض الأقران يدرسون في مدارس أهلية يذهبون في الحافلة ويعودون بها .

ـ عقدت الأمور يا شريف .. فهذه الأحوال يجب أن تدفعك لتغيير نمط حياتك .. وتتطلع إلى الغنى بعين جدية .. حتى لا يكرر أولادك مأساتك ..

ـ إنها ترسبات مريرة !.. وهي قد تكون دافعة للخروج من هذا الألم والجرح .. ونحتاج لسنين وسنين وليس ساعات وساعات .. يا عزمي كم كنا نصاب بالقلق والخوف عندما يتأخر المبلغ البسيط الذي تقدمه لنا الجمعيات !.. الدواء.. مصروف الشهر ..الحمد لله .. الحمد لله .. الحسرات لا تذهب من النفس .. عندما تنقل الوالد المشلول للمستشفى .. وأنت لا مال عندك مع أنه مبلغ بسيط تأخذه تلك المستشفيات التابعة للحكومة والدولة .. ولكنه كبير لدى المعدوم تستلف من هذا أو ذاك ..كم فرحت وسعدت عندما أخرجت بطاقة العلاج الطبي من القوات المسلحة ! وحملنا الوالد الصابر للمستشفى العسكري ، ولكن صدمنا بعد الكشف عليه أخبرونا أن الوقت قد فات وأن العلاج قد تأخر .. ذهب الأمل والفرح .. لو تم علاجه في مستشفيات وعناية خاصة قبل اليوم ربما تخلص من المشي على عجلة .. أرأيت يا صديقي مأساة الفقير في بلادنا ؟! .. وليت المأساة انتهت هنا يا أخ عزمي ..

ـ أهناك مأساة أخرى ؟!

ـ لي أخ أكبر مني بسنة ، كان ضعيفا في المدرسة ، يكره المدرسة والتعليم .. وكان يتكرر رسوبه في الفصول .. ولما حدثت مصيبة أبي أخذ يضغط علينا لترك المدرسة ويدعي أنه سيعمل من أجلنا .. وبعد تردد وصبر سمحنا له بترك المدرسة والعمل في سوق العمل الحر.. شاب صغير تملك بعض القروش ففسد وانحرف وضل الطريق فصار عبئا آخر على الأسرة ولكنه منذ فترة قبل تخرجنا من الكلية تعلم السواقة وهاجر للعاصمة وما زلنا نعاني من مشاكله ومتاعبه ..كلي ألم يا عزمي!

ـ مع احترامي لحكايتك وظروفك .. فهذا لا يمنعك أن تبحث عن حياتك الخاصة.. لماذا تدفع الثمن وحدك ؟

قال : أنا لم أدفع شيئا يستحق المكافأة .. لكن وظيفتي في الجيش ردت الكرامة لي وللأسرة ردت

الشرف إلينا.. رفعت من الروح المعنوية لي أنا أولا ثم لأبي وأمي .. كل الناس أو أغلب الناس تعمل عند الناس .. وعمل عن آخر يفرق .. تعمل وأنت عزيز خير من أن تعمل وأنت ذليل أتريد مني أن أترك بيتي وأسرتي وظروفي لأسايركم في سياراتكم ونزهاتكم ؟! .. المال الذي سأنفقه على هذه الأشياء تحتاجه الأسرة .. ألا تحتاج هذه الأشياء لمال؟.. أنت تأخذ من أسرتك وكذلك فواز لا أحد يطالبكم بفلس .. مالك لك .. أما مالي فلي فيه شركاء حتى لو لم يطلبوا بأفواههم ..

ـ الحمد لله إن الكثير من الناس لا تفكر مثلك وإلا أغلقت الملاهي والمقاهي والخمارات و... و

ـ هذه حالتي .. فأخي قسيم الذي حدثتك عنه قبل قليل لم يحسبها هكذا .. ولم يفد الأسرة بقرش .. بل كان يسرق أحيانا أموال المساعدات التي كانت تقدم لنا .. وعمل سائقا ولم يفعل شيئا للأسرة .. ما زال عبئا علينا .. وإن خف هذا بعد رحيله للعاصمة شين ..الناس تتفاوت في الأمور المعنوية .. ها أنتم كما قلت لي تسمحون لبناتكم بمصاحبة الشباب والمعارف في الجامعة أو الحي ولا يثير ذلك فيكم الغيرة والحمية .. نحن في بعض مناطقنا نسمع عن جرائم العرض .. هذا قتل أخته أو أمه ..

ـ نتعجب عندما نسمع عن إزهاق روح بريئة لأمر تافه

ـ في نظركم .. أما عندهم فهو كرامة وشرف ورفع عار .. لأن الموضوع يؤثر على الجميع .. العائلة كلها .. أما في بيئتكم فيكون التأثير على الفتاة وحدها .. فلا يخجل أحدكم عندما يقابل أناسا تعرف حكايته .. أما في أحيائنا .. فالأمر قاس وعار وسبة..

ـ رغم أننا أبناء قطر واحد .. نظرتنا للأمور مختلفة .. نحن أنا وفواز رأينا أنك بحاجة للتمدن والتحدث وترك الانطواء والحزن .. والعيش بحرية وانفتاح ومرح

ـ شعور نبيل أشكركم عليه .. كيف أنسى آلام أمي وهي تعمل في بيوت الموسرين في مدينة البركة من أجل إطعامنا من أجل أن توسع علينا بمزيد من الرفاهية والطعام ؟ .. تنظف بيوتهم ومراحيضهم ومطابخهم .. وتغسل مواعينهم وملابسهم ..وقد يتلف هؤلاء من الطعام الكثير

ويلقى في حاويات ومزابل البلديات .. وقد يذهب بعضه للحيوانات .. أخي عزمي فلنبق أصدقاء وزملاء ودعنا من النساء .

ـ أنا أشعر معك في ظلم المجتمع لكم .. وأنه لم يقدم لكم العون الكافي .. ولكن هذا طبع الحياة والفقر ليس عيبا ؛ ولكن الغنى أجمل وأحسن في رأيي .. والغني قد يصاب ببلية لا ينتفع مما لديه من مال .. فيمنع من طعام معين من سفر ..هذه حياة وهبها الله لكل الخلق .. فعليك أن تمنح نفسك فرصة التمتع والتكيف مع حياتك الجديدة .. لا تنظر للوراء والفقراء فلن تخلو الدنيا منهم .. أنت ضابط مهندس دخلك ممتاز .. ولا تظن أن ملكنا للمال الكثير يعني أننا سعداء ولا مشاكل .. لا يخلو أحد من منغصات ومنكدات ومنازعات .. لكننا نحب الحياة ونسهر ونسكر ونلهو ونحب ونكره .. يجب أن نعيش ونرمي الماضي وراء ظهورنا

وصمت لحظات ثم عاد للكلام فقال : قد يكون صحيح أنني غني بثروة أبي وأمي .. أنا أعترف أن والدي كان يملك أربعة مصانع في البلاد ، ولكنه تعلق بالميسر ولعب القمار فخسرها كلها ثم انتحر في النهاية .. ولولا أموال أمي التي لم يستطع الوصول إليها لبتنا على الطوى كما يقال هكذا الحياة يا شريف .. وأنا وصلت الكلية العسكرية بواسطة والد فواز فبينه وبين أمي بعض القرابة .. ولكني أعيش حياتي وأصاحب الفتيات .. ولا أخشاهنّ .. وأتعامل معهنّ كما أتعامل معك ومع فواز .. والأخت عبير سمعت منا طرفا من حياتك البائسة في نظرنا.. فألحت على فواز أن يعرفك بها لتقوم بتغييرك .. وتنقلك من مجتمع الكآبة إلى مجتمع الفرح والسعادة .

قال شريف معقبا: كلام عجيب !.. النساء فتنة .. وأنا أسمع الكثير من المآسي بسببهن .. وشارعنا لا يخلو من الفتيات .. ولا يخلو من المنحرفات والساقطات .. وكثيرا ما نسمع عن قصة زواج غريبة .. وحكاية عشق غريبة ..ولكني وضعت لنفسي هدفا .. تعويض والديّ عما أصابهما بسبب فقرنا .. والبعد عن النساء وقضاياهن .. ليس حقدا على جنس النساء .. وإنني لن أتزوج في يوم ما .. لا ..لا .. سوف أتزوج بهدوء بدون صخب.. فأنا أحب الحياة الجادة والهادئة.

ـ لا غنى لنا عن صحبة النساء والسمر معهن والتمتع بالنظر لعيونهن وخدودهن وشعورهن ومحاسنهن بشكل عام .. والسرور بمغامراتهن .

ـ هذا عندنا حرام .

ـ وعندنا حلال !

ـ أخلاقنا لا تسمح بذلك .. فاعتذر لي للأخت عبير.. وحدثها ببعض ما سمعت مني عن نفسي وأسرتي ..وليس فعلي هذا عن بخل .. فأنا لا أسمح لنفسي بصرف قرش في غير محله الذي أراه صوابا يا صاحبي .. أمي وأبي أبدى فيه .. أنت لو ترى البيت الذي اسكنه الآن لعذرتني .. بل تعرفه لقد دعوتكم مرة إليه أثناء الكلية .

ـ ألم ترحلوا بعد ؟!.. سمعت مرة أنك سترحل عن الحي .

ـ نعم ، سوف نرحل بإذن الله .. قريبا سأشتري قطعة أرض للبناء عليها



غداء في البركة

رغم كل التبريرات والاعتذارات والحجج التي بينها شريف لزميليه فواز وعزمي كانت عبير تصر على الحديث معه ، وتسعى إلى اللقاء به ، وتكوين علاقة صداقة معه كما تزعم ، فقال له فواز يوما: يا رجل جننتني عبير بكثرة السؤال عنك .. وعن أخبارك .. ولماذا تتهرب من اللقاء بها ؟..وهي تترجاك أن تزورنا في البيت .. لن تذهب بك إلى حديقة أو فلم أو مسرح .. مجرد لقاء من أجل الحوار .. يا سيدي أرجوك أن تجلس معها وتقنعها بأحوالك وظروفك وكفاحك لتكف عن إزعاجي أنا وعزمي .. تتهمنا بأننا نحن الذين نحول بين اجتماعكم .. تقول لك إنها أخت ترغب بالحديث مع أخيها .. أنا أدرك غرابة هذا الطلب عندك .. ولكنه بالنسبة لي شيء طبيعي يا شريف .

ـ هذا غير معقول يا فواز .. أرجوك أن تمنعها وتبعدها عني .. فهي تكثر من الاتصال بمأمور الاتصال سائلة عني وعن صحتي .. هذا أمر محرج لي ولك .

ـ أتوسل إليك أيها الصديق .. أن تلتقي بها وجها لوجه مرة واحدة ؛ لعلها تصدق حججك وأعذارك .. حوار ساعة تنهي فيه الموضوع .. فعندما تسمع منك تصدق أنك مرعوب من لقاء النساء ..سأدعوك في يوم عطلة لغداء ..وسنتكلم كلنا جميعا لن تخلو بها ما دام الاختلاء من وجهة نظرك حرام ولا يجوز ..فأخشى أن تأتي لزيارتك هنا وتسبب لك حرجا كبيرا ..

فقال شريف وهو يتخيل فعل هذا الأمر : لا أستغرب فعلها ذلك !

ـ إذن قابلها بالحسنى .. وبين لها أنك لا تحب التعرف على الجنس الثاني .. وأن أمامك مسؤوليات كبيرة هي التي لا تسمح لك بمثل هذه الصداقات البريئة .

ـ عندي فكرة !!

قال فواز : هذا ما أحلم به .. قلها يا رجل !

خطرت لشريف فكرة عجيبة قد تكف الفتاة عن ملاحقته ومطاردته بغض النظر عن النوايا فقال : ما رأيك بأن أدعوك وأختك الفاضلة لزيارة بيتنا وتقابلان أمي وأبي .. لتر الآنسة بيتنا

وحياتنا على الواقع ؟

ـ إنها قسوة منك يا شريف !.. أتريد أن تصدمها ؟!

تبسم شريف وقال : أريد أن تعرف مجتمعنا وبيتنا وظروفنا .. فالأخ عزمي يعرف البيت .. قد زار مرة البركة فدعوته وشارك الأسرة طعام العشاء ..وإذا وافق هو أيضا على هذه الدعوة فحياه الله .

ـ وإذا رفضت ؟

ـ آمل أن لا ترفض ما دامت تسعى للقائي .. فهي راغبة بمعرفة أسباب تهربي من الرد على اتصالاتها .. والتهرب من أي لقاء بها.

ـ حسنا ، سأنقل لها هذه الدعوة .. لأنني مللت منك ومنها .. مصممة على تغييرك وجعلك جنتلمان .. حقيقة أنا كنت أرى أنك سهل لين .. ولما تتخلص من عقدة الفقر ..ستتلحلح يا شريف .. وترى أنها فرصة للاندماج في المجتمع الراقي .. لننتظر ما يحدث على الطبيعة .. وكيف ستكف عبير عن محاولة إخراجك من القاع إلى القمة ؟!

ـ أي قمة يا رجل ؟! .. عندما ترانا على الواقع والحقيقة ، وترى أمي التي صبرت وجاهدت حتى كبرنا ، وأصبحنا شبابا سترى أن ابتعادي عنهم لا يمكن .. بل هو المستحيل نفسه .. ولا وقت لدي للسهر والسمر والنزهات ..أفضل ساعات اليوم هي التي أقضيها بقرب أبي وأمي

ـ ما شاء الله !.. وفاء وحب كبير .. من يسمعك يظن أن عبير ستتزوجك وتأخذك من حضنهما مع أني أتمنى من كل قلبي أن تتزوج عبير من شاب محترم مثلك .. نحن بناتنا تنكح من أجل ثروة أبي يا شريف .. كل أزواج أخواتي تزوجوهن على طمع ورغبة في المزيد من المال ؛ ولكن هذه طبيعة بيئتنا كما يقال .

ـ وأنا أشرف بالزواج من بيتكم يا فواز !.. ولكن كما قلت الفارق الطبقي يقف حجر عثرة بيننا

هز فواز رأسه وقال : نعم ، عند الزواج الأمر يتعقد ، فليس من السهل أن يوافق أبي على زواج آخر بناته من رجل ماله قليل ..مع الاحترام الكامل لك أيها الأخ .

ـ تعجبني صراحتك يا فواز !.. ولكن كيف يسمح والدك لأختك باتخاذ أصدقاء ذكور لها؟!
ضحك فواز طويلا ثم قال : أنا أعرف أنك تستغرب جدا من هذا الانفتاح والاختلاط .. هو عرف اعتادوا عليه أو تربوا عليه وربينا عليه .. فهو يسمح لنفسه بالجلوس مع نساء وبنات الآخرين ، فلابد أن يسمح لنا ولأخواتنا بذلك .. المعاملة بالمثل ، ومع الأيام سادت هذه الأعراف .. أما الزواج ففيه مال ومطالبات ومصالح ومشاريع .. فالزوج أو الزوجة يجب أن يكون صاحب مال أو صاحبة مال .. للتجارة والعمل وللهو .. أحيانا تقام حفلة ينفق فيها المال الكثير الكثير ..أنت لا تعرف المباهج والسمر والملاهي .
ـ هذا من فضل ربي .. فقد تركت السمر لأخي الأكبر قسيم .. فقد تعرض لاعتداء بالسكاكين منذ حين .. ولما ذهبنا لزيارته والاطمئنان عليه طردنا ، ولم يعد يتصل بنا .. هذه إحدى فوائد السمر والسهر !

صدمة

ـ يا الهي! إنه بيت يكاد أن يسقط .. لا أعلم كيف يعيش فيه صاحبك ؟! .. هل ما زال في بلادنا ناس يسكنون مثل هذه البيوت الآيلة للسقوط ؟!
بهذا الاستغراب كانت عبير تحدث أخاها فوازا وعزميا ، وهم منصرفون من بيت صديق فواز المهندس شريف ، وأدرك الشابان أن الرسالة التي أرادها شريف قد وصلت لعبير ، فقال فواز وهو يتطلع في عيني عزمي ومخفيا ابتسامة : كل هذا الحي ..أو هذا الشارع على هذه الصورة يا عبير .. قوم بؤساء مساكين !
وقال عزمي تحزنا : نعم ، حياة صعبة وبيوت ضيقة ؛ ولكنهم يعيشون .
فعادت الفتاة تقول ربما بألم حقيقي : ألا تساعدهم الحكومات المتعاقبة ؟! ..ألا يمدون لهم يد العون ؟!
فقال فواز : تقدم لهم الدولة مساعدات يسيرة .. فمؤسسات التكافل موجودة .. ولكنه فتات هذه البيوت كلها تحتاج إلى هدم وإعادة بناء أو ترحيل لمكان آخر .. وهذا يحتاج لأموال ضخمة

وقال عزمي مكملا : هذا مشروع وطني يحتاج لجهد كل البلد ؛ ولكن من يقرع الجرس؟ .. فمثل هذه الأحياء تنشأ في أغلب المدن الصناعية .. أناس يتركون قراهم وأريافهم للعمل في المدن الصناعية وحولها ..وهنا تجد الإيجارات قليلة .. وأثمان المنازل أيضا قليلة .. فتتكون مثل هذه الأحياء فتضطر الدولة أو البلديات لتقديم الخدمات لهم من ماء وكهرباء وصرف صحي

فقالت عبير بأسف وعتب : على الحكومة أن تهتم بهؤلاء الناس .. عندما أسمع أو كما قرأت منذ فترة عن سقوط بيت على أهله .. فأستغرب وأعتقد أن خللا في الإنشاء سبب ذلك .. أما مع هذه البيوت .. فسقوطها من الزمن .. إنه لشيء محزن أن يوجد مثل هذه الأحياء في البلاد ونحن نسمع أن الثري فلان خسر ملايين على طاولة خضراء في جلسة واحدة .

فقال فواز : هذا هو قصر صديقنا الأخ شريف !

فقالت : هذا يؤكد فعلا أنه بحاجة لإنقاذ ومساعدة .

قال فواز ساخرا : إنقاذ !

قالت : سأتكلم مع أبي ؛ لعله يقدم له قرضا يعينه على شراء بيت أحسن من هذا .

فقال عزمي : هو يفكر بشراء قطعة أرض .. ليبني عليها شقة .

قالت بضيق : يحتاج لسنين قبل أن يخرج من هذا المنزل الكئيب .. لابد من عمل شيء مهم من أجله .. ما دمنا تعرفنا عليه.. وهو زميل لكم منذ سنوات ..

فقال عزمي : يا عبير الأفضل أن تلزمي حدودك .. وحذار من فعل شيء لشريف ، فهو إنسان عصامي مكافح لن يقبل منا أي مساعدة مالية أو غير مالية.. هو لما قبل في الجيش فبعد أول راتب ذهب إلى الجمعيات الخيرية التي كانت تمدهم بالعون وشكرهم واستغنى عن مساعدتهم التي كانت شيئا يسيرا .

قالت : وضعهم محزن .. قلبي تمزق .. لم استسغ طعامهم مما ألم بي من الألم

قال فواز منتقدا : تصرفك هذا ضايقني ..كان عليك أن تراعي الشاب .. وتتظاهرين بالأكل وكيف تزعمين الشبع وأنت مدعوة لغداء ؟!

ـ لم انتبه لذلك إلا بعد انسحابي ونظرتك الحادة إليّ .. وما كان بالإمكان العودة للمائدة بعد أن أعلنت شبعي ..ومع ذلك علينا أن نحاول فعل أي شيء لصديقنا .

فضحك فواز على إصرار أخته بمساعدة شريف فقال : بماذا يا عبير؟! .. دعك من شريف وصداقة شريف ومساعدة شريف .. أنا استعنت بك وبأفكارك لنفتح له الطريق إلى عالم الأغنياء ومجالسهم .

صاحت : لابد من رد الدعوة كما دعاني سوف ادعوه .

قال فواز بحدة : هو دعاك لتكفي عنه .. وترينّ ظروفه على حقيقتها ، وأنه ليس لديه وقت للهو والسهر .

ـ أترضى لي الفشل ؟.

قال فواز : شريف عنيد .. وكرامته زائدة عن كرامات الناس ..

وحساس من جهة ثانية إلى آخر مثل هذه المصطلحات الفارغة .. حتى أنا أفكر بالابتعاد عنه وأنتقل إلى وحدة عسكرية أخرى .. فهو رجل صحبته مزعجة .. ومثيرة .

فقال عزمي : ولكنه مجتهد .. وكل الضباط يحبونه ويحترمون إخلاصه ونشاطه .

فعاد فواز يقول : أنا أشفقت عليه .. وقلت لو احتك معنا في بيئتنا وحياتنا سيتغير ويصبح ابن مدينة بحق .. ويبتعد عن الانطواء والانكفاء .. وهو زميل منذ أيام الدراسة الأولى .

قالت الفتاة : لم نصل محطة اليأس منه .. فالانتقال من جو إلى جو يحتاج إلى وقت .. ليس كل الناس يتغيرون بكلمة وبسرعة الصاروخ .. رويدا رويدا .. بعضهم يحتاج لسنوات ليتخلص من فكرة ثبت خطئها وانتهاء زمنها .

فقال فواز : أنا آسف .. سأرفع يدي من هذه المهمة .. وها هو عزمي معك في الركض لإنقاذ الرجل .. حقيقة أنني أشعر بالندم لذكره لك لسماع مشورتك .. أنا بعد هذه الزيارة والدعوة لبيته رفعت يدي يا عبير .. أرجوك أن تفكري بالأمر بجدية .. والأيام وقيم المجتمع التي ستجد عليه لعلها تغيره ..وإذا رأينا تعديلا في أفكاره وأفعاله سنفتح له صدورنا.. فعلنا نحوه المناسب

وهو ينفر ويفر .. نحن لن نأخذ منه شيئا .. وهو يرفض مساعدتنا .

قالت بغضب خفيف : أنت اخرج من الملعب .. سأدبر نفسي معه .. ولسوف تراه يجالسك ويسامرك في أكبر ملهى ليلي في بلادنا .. وسيكون أحد أفراد سهراتنا .

فقال عزمي : الأخت عبير ليست سهلة .. فقد ورطتها مع شريف يا ملازم فواز.



أوليات شريف

شريف ياسر يريد البعد عن عبير ، ولا يحب ولا يرغب بمثل هذا الانفتاح الاجتماعي ، فلم يكن يرى من الأخلاق الحسنة مصاحبة الفتيات ، وكان يعرف واجبه نحو والديه حق المعرفة ، ويرى أهمية القرش من أجل نفسه وأجل أسرته .. وكان يدرك إدراكا تاما البون الواسع بينه وبين أسرة فواز وعبير، هم أصحاب مال وشركات وتجارات ، وهو إنسان ضعيف الحال ، ويحتاج إلى زمن ليصبح منافسا لهؤلاء الناس ، وقد فكر حتى ولو غامر وتزوج منهم فسيبقى العنصر الضعيف في مجتمعهم ، ولن يتخلص من همساتهم وجرحهم لكرامته وعرضه .. فسيعتبرونه متسلقا ومستغلا لعواطف ابنتهم اتجاهه .. فكان يرى الأسلم الابتعاد عن مثل هكذا مجتمعات ويخشى من سوء تصرفهم إزاء والديه .. فرأى بزيارة عبير لبيت الأسرة ومعرفة وضعه الاجتماعي على حقيقته ، وحاجة أسرته للبقاء معها بأن يصـرف الفتاة عن طريقه ودربه ، وأن تبقى علاقته بفواز علاقة زملاء عمل .

هذا ما كان يأمله الأخ شريف من هذه الدعوة وتلك الزيارة لبيت الأسرة ، ولكن هل وصلت الرسالة لعبير وقطعت الأمل من زيادة معرفة بشريف ؟!

والأخ شريف كان لا يرتاح كثيرا لصحبة فواز وعزمي ، لولا حياة الكلية أيام الدراسة التي جمعتهم لانتهوا من حياته ، وكذلك عملهم في وحدة عسكرية واحدة فهو لم يكن يعجبه الكثير من أفعالهم الخاصة ، وكان يرى من مسايرتهم أنه لن يجني منهم إلا الشوك أو الحصرم .. فهذه بيئة كرهها من كثرة ما علق في ذهنه من انحلالها ، وضعف غيرتها وتهاونها في المحرمات ومحاكاتهم الغرب في الشهوات والملذات والتشبه .. فمنذ عرف فوازا وعزميا وهو يراهم يتهاونون في أمور الدين ، لا يعرفون الصلاة .. ولا يصومون ، ولا يتظاهرون بالصيام ، بل يجاهرون بالفطر ، وتعاطي التبغ جهارا في نهار الصوم .. ويلحظ استهزاءهم بالمتدينين وبالدين كلما يتاح لهم المجال .. فجل حديثهم عن النجوم في السينما والرياضة وسباق السيارات وإلقاء النكت والسخرية من خلق الله .. وحول المال والأثرياء في البلد والعالم .. والمال فتنة.. وربما

دمار وهلكة على من لا يعرف إدارته والاستفادة منه .. فحياتهم صاخبة بين الموسيقى وشبه الإباحية ، ويتحدثون عن الزنا بكل أريحية وبساطة .. وليس بأنه جريمة واعتداء على أعراض المسلمات .

فلما غادر ضيوفه البيت تنفس الصعداء ، وكأن جبلا أزيح عن كاهله ، فقالت له أمه فجأة :

أترغب بالزواج منها يا شريف ؟!

تطلع الشاب في عيني أمه لحظات وقال :أتزوج من يا أمي ؟!

ـ إنها جميلة !!

أخذه الضحك لحظات حتى التفت إليه والده وقال : مالكم ؟

فرفع شريف صوته وقال باسما : اسمع يا أبي ! ماذا تقول أمي ؟ تسألني هل أرغب بالزواج من ضيفتنا أخت فواز ؟ الأخت عبير .

فقال الأب : والله يا ولدي إنها فتاة حلوة ولطيفة !

ـ حتى أنت يا أبي ! ..لا يا ناس ..ءأنا أتزوج من امرأة كهذه ؟ .. إنها كارثة !!

صاحت الأم دهشة : كارثة !.. لماذا يا رجل ؟!.. جمال.. ومال .. وأخت أصحابك.

فقال : هذه يا أمي تحتاج كل يوم لثوب أو اثنين .. كل سنة سيارة جديدة .. سهرات في نوادي الطبقة الثرية ..خادمة أو أكثر في البيت .. يا أمي نحن ناس على قد الحال .. هذه أبوها مليونير

تبسمت الأم أو كأنها حالمة : ماله ! تصير مثلهم يا ولدي الغالي .. سيارة .. دار .. خدم .. بستان .. وهي عروس حلوة .

قهقهة الشاب وقال : أنا جئت بها لهنا لهذه الدار بالذات حتى تعرف من أنا ومن نحن وتبتعد عن طريقي .. كان باستطاعتي دعوتهم لمطعم فخم .. هذه امرأة لا تصلح لي يا أمي .. وقال بصوت هامس لا يسمعه والده لو أصابني مكروه يوما لأرسلت لي ورقة الطلاق .. وعاد رافعا صوته : المرأة ركن مهم في البيت .. فهي عماد التربية والوفاء.. لولاك يا أماه ما حل بنا أنا وأبي وقسيم.. لربما ضعنا.

فقال ياسر : هذا من رحمة الله علينا يا شريف .. بارك الله فيك كنت نعم الابن .. وعلى ذكر قسيم هل تكلم معك ؟

وقالت حسنة : فعلا هل تحدث معك منذ ذاك الحادث ؟!

ـ يتكلم معي ؟! .. أنا منذ دخلت الكلية العسكرية لم يتصل بي ولو نص تلفون .. ومنذ ذهبت للجمعية وطلبت منهم إيقاف المساعدة ، ودعم من هم أحوج منا بها وهو لا يطيق رد السلام عليّ .. هداه الله ـ يا أمي ـ وأصلحه الله .. اسألي عنه أبناء أعمامنا الذين يعملون في المدينة شين

مشاركات اجتماعية

عندما كانت تدعى أسرة ياسر للمشاركة في مناسبة فرح أو عزاء يذهب شريف إليها تصحبه أمه للقيام بواجب المجاملة الاجتماعي نحو أقاربه وجيرانه ، كان في الحي عرس دعيت إليه أسرة ياسر، وكالعادة أخذ شريف أمه إلى دار العرس ، فتمشي الأم حيث تجتمع النساء يغنين ويفرحن وتشارك النساء فرحهن واحتفالهن سواء كان العرس لذكر أم أنثى ، وأما شريف فيمشى بدوره إلى الخيمة الكبيرة التي ينصبها أهل العرس للرجال يستمعون فيها للغناء الشعبي ويشربون القهوة والشاي والمثلجات ، وفي نفس الوقت يأخذ الضيوف المتجاورون باستماع أخبار وأحوال بعضهم البعض ، فأهل المدن أغلب لقاءاتهم الاجتماعية تكون في المناسبات الاجتماعية لانشغالهم بوظائفهم وأعمالهم ، فكان شريف يتحدث تارة مع الذي عن يمينه ، وتارة أخرى مع الذي عن يساره ، وربما تحدث القوم بآخر الأخبار السياسية أو غلاء الأسعار لسلع معينة ، وفي تلك السهرة جاءت جلسته بقرب أحد أقاربه ، ولما تحول شريف للحديث مع هذا القريب سأله : يا شريف .. ألم تتصالحوا مع قسيم ؟

تأمل شريف عيني الرجل الكبير لثوان وقال : يا عم لحتى الآن لم نتصالح معه فهو حردان علينا عامل زعلان .

ـ هذا ما سمعته من ابني همام أيضا.. فهو كما تعرف يشتغل في العاصمة ، ويلتقي به أحيانا في المقاهي والأسواق .. قال ابني لي: إنه التقى به مرة أثناء ركوبه معه في سيارته ، ولما سأله عنكم

قال له لي أشهر لم أرهم ، فهم محاربونني

تبسم شريف وقال : أنت تعرفنا يا أبا همام ! ونحن لسنا سوى اثنين .. ولسنا متحاربين .. فهذا غير صحيح .. بل بالعكس نحن اليوم نسعى لتزويجه ؛ ولكنه يرفض أن يتزوج عن طريق أمه وأنا أكثر وقتي في الجيش والمعسكر .. وإذا كان ابنك همام عزيزا عليه فليحثه على المجيء لزيارة أبيه وأمه .. ولا داعي لكل هذا التشويه والإشاعات لسمعة أهله .. عامل نفسه مظلوم وضحية

فقال الرجل : فعلا لازم أن يتزوج قسيم يا شريف.. ولما يكون له زوجة لابد أن يلتزم بحق البيت .

ـ ساعدونا في تحقيق ذلك يا أبا همام .. سندع له بيتنا هذا ، ونرحل حتى لا يدفع إيجار سكن بس يقوم بواجباته نحو أسرته .. اسعَ في ذلك يا عم وليقم همام بهذا الأمر ما دام يلتقي بقسيم ويقابله في شوارع العاصمة

ـ سأهتم بذلك .. سأحاول التدخل في شأنكم ، وأسعى في الصلح بينكم .

ـ وأنا أكون ممنونا لك ولشفاعتك.

ـ لا شكر على واجب .. أنتم ناس طيبون .. وأبوك رجل صابر .. والبلاء من الله .. ولابد من الرضا والصبر على قضاء الله وقدره .. وأنتم من الراضين والصابرين .. ولا ينكر صبركم إلا جاهل .. وأنت ابن مبارك يا شريف .

ـ بارك الله فيك يا عم .

ثم تغير الموضوع شرقا وغربا ، ثم استأذن شريف بالانصراف ممن حوله ، ومن أهل العرس ، وكان قد أرسل طفلا يخبر أمه برغبته بالانصراف وبانتهاء المجاملة لجيرانهم وأهليهم .



تلقى شريف رسالة من عبير تحثه في خطابها بالنظر إلى المجتمع نظرة تفاؤلية أكثر مما هو عليه الآن .. وتطلب منه أن يغير من طباعه وتقوقعه في حارته .. وعليه أن ينطلق للحياة الأرحب والأوسع ، وأن يوسع من دائرة معارفه ، ويتغلغل في طبقات وفئات المجتمع ، وتتمنى له أفضل

الأوقات والسعادة .

وبالطبع هو لم يتأثر بهذا الكلام ، وهذه النصائح ، واعتبرها من الكلام الفارغ ، وأنها دعوة للانحلال ، ونبذ القيم الصحيحة والعادات الحسنة .

وبعد حين جاءته رسالة ثانية تدعوه فيها لمقابلتها مع بعض صديقاتها لتطارح الأفكار وتبادل الخواطر ، وأنها تتيح له فرصة للتعرف على الجنس اللطيف ؛ ليتعلم المزح ومخاطبة الجنس الآخر فكان الشاب وهو يقرأ أفكار عبير يستغرب لهذه السخافات ، وهذه الأفكار، وهذه الجرأة التي تصدر منها ، ويعتبرها من قلة الحياء والأدب ، ويتعجب من وجود بنات بهذه الأفكار والأحلام ويرى الانحدار الصاعق التي هوت به فتيات الأمة .

وقد لاحظ منذ تلك الدعوة الخاصة لبيته اختفاء فواز من حياته رويدا رويدا ، ولم يعد يسمع منه أحاديث الانفتاح والتطور والسهرات والمتع والكيف والمستقبل ، والسيد عزمي بدوره أخذ يبتعد عنه أيضا، وإذا التقيا في مناوبة أو في ظرف ما كان حديثهم حول العمل والمناورات العسكرية والمشاكل العسكرية والتسليح والتدريب .. وتمنى لو فعلت عبير مثلهم ..واختفت من حياته .

وخطرت لشريف فكرة الانتقال لوحدة عسكرية أخرى ، قد ضاق ذرعا بمراسلات عبير السخيفة ، وحتى من رؤية فواز وعزمي ، ويحس أيضا أنهم يضيقون منه ، وأن زمالة الكلية العسكرية قد تلاشت وهزلت .. لذلك فلما أعلن عن عقد دورة خاصة في اللياقة والأمن كان أول المنتسبين لها ، ومدة ووقت هذه الدورة شهران ، ومكان تدريب هذه الدورة يكون الصحراء لا إجازات فيها ، وفيها انقطاع عن العالم .. لا رسائل لا استقبالات ولا اتصال بالأهل والأولاد والزوجات إلا سماع خبر وفاة أحد الوالدين أو الأبناء والزوجات هو الذي يسمح به.

استمتع شريف بهذه الدورة العسكرية المهمة ، رغم القسوة في التدريبات ، ساعات ركض كثيرة وطويلة، وتسلق جبال وتلال ، وأحس أثناءها براحة كبيرة رغم قسوتها ، وشعر بأنه تخلص نهائيا من عبير وفواز وعزمي ، وكلما لاح فكره نحوهم كان يستغرب من برودة فواز نحو أخته

وعدم غيرته عليها ، ويتهاون في حديثه عنها معه أو مع غيره .. ويتساءل: هل سأصل ليوم أسمح لأمي أو زوجتي أو حتى ابنتي لتحتك بالرجال بدون ضوابط ؟! إنه ليوم عسير .

فواز كما عرفنا أحب شريفا منذ أن درسا معا في كلية الجيش ، وأحس بحزن لحياة صديقه البائسة وفكر بنقل أفكاره وعاداته للسيد شريف ، وظن أنه إذا تحسن دخله المادي ، وأصبح ضابطا سيتغير وينتقل من مجتمعه وفقره إلى حياة الانبساط والحفلات الصاخبة ، ولكنه قد تفاجأ بعناد شريف وهربه من مثل هذه المناسبات والسهرات التي يراها مهوى كل شاب من سنه ، ورأى أن أخته التي تعاونت معه قد فشلت فشلا ذريعا بجلب شريف لحياتهم ، وأنه لم يتغير ، بل ينظر لعبير نظرة احتقار، وأنها بائعة هوى ، فانسحب من حياته كما أشرنا لذلك سابقا ، ولكن الذي لم يتأمله شريف جيدا وكان يستغربه ، أن الرجل هكذا تربى ، تربى ألا يغار على لقاء أمه وصحبتها لغير زوجها .. وسهرها مع من شاءت من الرجال .. وهكذا رأى إخوته الأكبر منه وأخواته .. تصاحب هذا يوما والآخر يوما ..وعليه أن لا يتدخل في مشاكل أحد إذا لم يلجأ إليه ويطلب مساعدته .. فأصبح هذا طبعا والنظر إليه ببرود وأمر لا يعنيه .

فشريف فشل في الانتقال إلى بيئة فواز ، وأنه استساغ حياة الابتعاد عن النساء والاختلاط في السهرات والمعارف .. وأنه كما يزعم فواز يعيش في مأساته التي ستقضي عليه ويبقى في قاع المجتمع .

وعزمي يتحرك بتحرك فواز ومشاورته ، فلما شاهد قريبه يبتعد عن الالتقاء بشريف ويتجنبه ، ويعمل معه في حدود الرسميات .. هو الآخر أخذ يبتعد رويدا رويدا حتى لا يظهر لشريف أنه مسير وتابع لفواز .. وأنه لمستقل في القرار والحركة .

فهو لم يقطع علاقته بشريف قطعا تاما ، وكلما حاولت الآنسة عبير الحديث معهما عن شريف طلبا منها أن تنساه ولا تفكر به في خيالها ، فأدركت أنهما ناقمان وغاضبان من شريف ويئسا من دمجه في حياتهما .

حاولت بالرسائل المتكررة ، ولكن الرجل لم يرد على أي رسالة ؛ كأنه لا يقرأها ، ولم يحاول مناقشتها في أي فكرة طرحت في هذه الرسائل .

امتعاض

لما قضى الملازم شريف دورة اللياقة والحماية أعطي إجازة ثلاثة أيام ، وقد قضى ستين يوما لم ير فيها أسرته ، فكان في شوق كبير لهم ، وانتهى من عناقهما، وتناول الغداء الذي أعدته أمه وهو يكاد يطير من السعادة برؤيتهما والجلوس معهما ، وكان يشعر بسعادة غامرة بهما ، وهما كانا كذلك يبادلونه نفس العاطفة الدافئة والمشاعر الرقيقة ، فهذه أول مرة في حياته يغيب عنهما كل هذه المدة ، ولكنه تفاجأ في آخر النهار بأن الآنسة عبير قد زارتهم وقدمت لهم بعض الهدايا من الطعام المعلب والثياب الداخلية ، فأصابه الوجوم والضيق والانزعاج فقال معاتبا لأمه : كيف قبلت ذلك يا أماه ؟!

ـ فاجأتني بهذا يا شريف !.. ولم أدر إلا وهي تدخل هذه الأشياء للبيت .. وخجلت من الفتاة وقالت إن شريفا في دورة خاصة فقد تحتاجون لمثل هذه الأطعمة .. وطلبت مني السلام عليك وانصرفت .

فقال بغضب : فتاة وقحة فعلا !

فقالت الأم : إنها تمدحك يا شريف ..وتثني عليك خيرا .

قال وهو يكظم غيظه : لا حول ولا قوة إلا بالله .. يا أمي سامحيني إذا ضايقتك .. أرجوك يا أمي إذا جاءت هذه الفتاة ثانية فاعتذري عن استقبالها .. فهؤلاء القوم من طينة غير طينتنا .. تخيلي يا أمي أنها فتاة تحاول الاتصال بي في العمل لتدعوني للسهر معها في مقهى أو ملهى .. أو لتناول الطعام معها .. لا حياء ولا خجل .. هؤلاء قوم أخلاقهم غير أخلاقنا.. وأنا أتهرب من اللقاء بهم .. وأنا دعوتهم للبيت كما تذكرين ليعلموا حالنا ، وأننا أناس بسطاء ، وأن حياتنا غير حياتهم .. ولا أصلح لمسايرتهم والتكيف معهم .. على كل حال انتهى الأمر .. فاستفيدي من هذه الأشياء أو تصدقي بها على الجيران هل من أخبار عن أخي الكبير قسيم ؟ هل طل عليكم خلال هذين الشهرين ؟

قالت : هون عليك يا ابني .. لا أخبار عن المحترم منذ ذلك الحادث .. كأنه ما صدق أن

يحدث له ما حدث ليخرجنا من حياته .. ذهبت لهمام لما سمعت أنه هنا وسألته عنه .. فاخبرني أنه تحدث معه ورغبه بالعودة لبيت العائلة ومصالحة أبيه وأمه .. فزعل منه وأمره ألا يحدثه بالموضوع ثانية ، وأنه لا أهل له .. وعلم منه أنه تزوج .

هتف شريف متعجبا ومستهجنا : تزوج ! .. كيف تزوج بدون أهل وأقارب ؟!

ـ زواج مخز وعار يا ولدي ! ..فعلينا أن ننسى هذا الولد العاق .

ـ من أين تزوج وكيف؟!

ـ على ذمة أبي همام .. أن هماما قال له : إنه فجر بامرأة ، وعرف أهلها بأمرهما، وأرادوا سفك دمه إلا إذا تزوجها وستر عليها .. هكذا تزوج قسيم أفندي !

صاح شريف بغضب من جديد قائلا : يا للعار!! .. يا للخزي !!

ـ هكذا تزوج يا ولدي .. بل أخبر همام والده أنها حملت منه قبل الزواج .. وهذا ما فضح الطابق .. وأرغموه على الزواج منها .

ـ يا للعار !! أعلم أبي بهذا الخزي ؟!

ـ حدثته بذلك .. فبكى .. ولكن ماذا سنفعل ؟ لزمنا الصمت .

ـ على كل حال علينا أن ننساه يا أماه ! .. لا ينفع الآن أي تقويم وإصلاح إذا صحت الرواية وهذه الأخبار المشينة ..هداه الله وتاب عليه .. وأنا قريبا سأبدأ بالبحث عن قطعة أرض في أحد أحياء المدينة الجديدة .. قد تجمع لديّ بعض المال .

قالت وهي تمسح قطرات دمع سالت على وجهها : حفظك الله لنا يا ولدي ..أتمنى لك التوفيق والخير .

ـ ربما نستأجر شقة يا أمي في مكان قريب من العمل .. فقد حان لنا أن نترك هذا الحي .

ـ وماذا سنفعل في هذا البيت ؟

ـ سنعطيه لأحد الأقارب المحتاجين له .

ـ نبيعه .

ـ لا داعي لبيعه .. ماذا سيكون ثمنه؟! .. ثمن زهيد فأعطيه لأحد الشبان المقبلين على الزواج من معارفنا وأقاربنا .

ـ كما تشاء يا ولدي ! بارك الله فيك وفي قلبك الطيب.

الرحيل

وقبل الرحيل من حي العمال تعرض السيد ياسر سليم لوعكة صحية ادخل على أثرها أحد مشافي مدينة البركة ، وبعد العلاجات الأولية نقل بسيارة طبية إلى أحد مشافي الجيش ، وبعد أيام من العلاج والتداوي فارقت الروح الجسد ، وتلقى الملازم شريف الأمر بقبول واستسلام لقضاء الله وقدره . وشيع الجثمان لمقبرة حي العمال ، وتقبل الشاب وجده سليم الذي يقطن عند عمه الكبير عمران وأعمامه التعازي بوالده من الجيران والأقارب من أعمام وأخوال ، والكل يوصيه بأمه خيرا .. وقام الشاب بما يلزمه من إحسان نحو أبيه ..وتصدق عنه بالمال .. وكان قد سدد كل الديون التي كانت على أبيه منذ وفق للعمل في القوات المسلحة ، وكذلك ديون أمه . وقد شاركه العزاء الكثير من زملائه في معسكره ، وقد تلقى برقية عزاء من مكتب قائد الجيش الأكبر ، وكذلك من زميليه عزمي وفواز وشقيقته عبير .

ولما خفت آلام المصيبة وتبعاتها ، وأصبح ياسر في عالم الغيب عند مليك مقتدر أخذت الحياة تعود إلى طبيعتها ، ويسلو الحزن شيئا فشيئا من قلب شريف ، ولا تبقى إلا الذكريات بحلوها ومرها ، نشط في البحث عن شقة ، فكان يتردد باستمرار على مكاتب بيع وإيجار العقارات والشقق لاستئجار بيت مناسب .

ولما اتصل به أحد السماسرة معلنا له أنه وجد مطلبه ، فذهب شريف للمكتب العقاري وأخذ العنوان الذي هو في أقرب مدينة لمكان عمله ، ثم ذهب للشقة وشاهدها ، واستأجرها من مالكها بعد أن ارتاح لها ووقع العقد ، وما اكتمل العام على وفاة الوالد حتى كانوا يفارقون حي العمال لشقتهم الجديدة ، ويقدمون بيتهم القديم لأحد أقاربهم الذي تقبله مسرورا شاكرا لهم ، وذرفت الأم الدموع الغزيرة على ذكرياتها في حي العمال أو شارع العمارة ..وإن كانت أيام شقاء

وصبر لكنها لا تخلو من أيام جميلة .. من ولادتها فيها وزواج وولادة الأولاد .

رحلت حسنة إلى البيت الجديد ، وأدركت أنها دخلت عالم الشيخوخة ، ولقد أدرك شريف وحدتها حينما ينصرف إلى عمله ، وحينما يضطر للمناوبة في معسكره ، وكان يرى نفسه أنه غير مستعد للزواج ؛ لأنه كان يرى بناء البيت قبل المرأة ، إذا سئل عن ذلك ، وأن أكثر العرسان يسكنون بيوتا مستأجرة يقول لنفسه : لو لم يكن عند أبي بيت ولو كان قنا ، ماذا حل بنا ؟ يوم نستأجر عند فلان ، ويوم عند آخر ..الإنسان لا يعلم الغيب .. البيت يستر العورات والنكبات فحدث أمه بما يؤرقه من تركها وحدها ، وأنه يفكر بالتعاقد مع خادمة تساعدها وتؤنس وحدتها فقالت له أمه : هات لك زوجة يا ولدي بدلا من خادمة !

ـ إن شاء الله ستأتي يا أمي ..عندما يقام البيت الخاص بنا أولا .. فهذه الخادمة أمر مؤقت حتى أكون مرتاحا أثناء غيابي عنك .

عندئذ ذكرت الأم زوجها ياسرا فذرفت العين الدمع ، وأحست بالفراغ ، فقد كان رغم ضعفه ومرضه أنيس وحدتها ، وتسمع صوته وصراخه وتنشغل بشأنه ، أما اليوم فهي وحيدة البيت شريف ينطلق لعمله اليومي .. لذلك كانت تحب كثيرا يوم الجمعة يوم عطلته ..

وسمعت ابنها شريف يقول : سنة الحياة يا أمي الفراق! .. تذكرت أبي رحمه الله ..

قالت : رحم الله أباك ..لا يعوض عنه يا ولدي إلا أنا أرى أولادك حولي

ـ سيكون ذلك بمشيئة الله ..ابكي كما تشائين .. فالدموع تغسل الحزن والألم .

جاءت الخادمة التي لا تفقه العربية بشيء ، إنما كلمات ركيكة تعلمتها من طول خدمتها في بيوتات الناس ، وكان كل هم أم قسيم حث ولدها على الزواج والاقتران بفتاة ليملأ بيتها بالأولاد والصبية ، ثم تقول أحيانا : أين أنت يا قسيم العاق ؟! يموت أبوك ولا تظهر في عزائه هل أنجب أولادا يا ترى ؟!

وكلما يدخل شريف ويجلسان حتى تبدأ تشكو له الوحدة وحاجة البيت لزوجة وأولاد، وأن الخادمة لا تملأ البيت بالأنس ، فلما أكثرت الحديث بهذه الرغبة ، وأنها تحب أن ترى أحفادها

قبل رحليها للعالم الآخر قال : ابحثي لي عن زوجة مناسبة لك أولا يا أمي قبل أن تكون مناسبة لي .. زوجة تحبك ، ولا أقضي ساعات راحتي بسماع شكواها وتدخلك في حياتها .

فتضحك أمه من مداعبته وتقول : وأين ستجد هذه الغادة ؟

وبعد التقاط نفس تقول : وأي بيت لا يخلو من المشاكل يا شريف ..

فقال ضاحكا : مشاكل عن مشاكل تختلف ..مشاكل تحل داخل البيت ليست كالمشاكل التي تحل في خارج البيت وفي المحاكم .

ـ لا تتشاءم كثيرا .. فالنساء خير وبركة .. أخت صاحبك فواز هل تزوجت ؟

فهم مغزى كلامها فتبسم وقال : هل تقبل أن تعيش معك يا أماه ؟..هل ستقوم تتسحر معنا يا أماه ؟ ـ كان زمن هذا التعليق موسم رمضان ـ نحن من طينة وهم من طينة أخرى .. إني أريد امرأة على شاكلتك يا أماه أو قريبا منها .. حسناء صبورة ترضى بالحياة مع أمي الحبيبة أمي هي أمها وزيادة .

ـ طيب ، ما تقول في ابنة الضابط التي أشرت إليها مرة ؟

أخذ الشاب يتذكر تلك الفتاة التي تشير إليها أمه ، وسمع أمه تقول : اسمها أسماء على ما اعتقد

ـ ما شاء الله تذكرين جيدا يا أمي ! .. لم يحدث بعدها شيئا .. كنت يوما في زيارة لقائد المعسكر الكبير .. طلبت الإذن لمقابلة العميد الركن يحيى فأدخلني السكرتير عليه ؛ كأنه نسـي أن العميد يجلس مع ابنته .. ولما دخلت فوجئت بهما يتحدثان .. فحاولت الرجوع معتذرا ؛ ولكن الرجل قال : تفضل يا نقيب شريف هذه ابنتي العزيزة .. كانت قريبة من هذه المدينة فرغبت برؤية أبيها في عمله .. وقال لها هذا المهندس النقيب شريف يا أسماء .

فدخلت يا أمي وأغلقت الباب ، وكلي خجل وقلت : تشرفنا يا آنسة .

فرحبت بي وهي تبتسم : أهلا . فأشار لي العميد قائلا : اجلس يا بني .. قال بني يومها يا أمي فقلت : حاضر يا سيدي العميد .

وأخذت الفتاة بعد لحظات حقيبتها ، وبدأت تنهض ، فقال العميد : أسماء يا نقيب شريف

السنة تنهي دراستها في كلية التربية .

فهززت رأسي وقلت : أهلا وسهلا .. تمنياتي لها بالنجاح يا سيدي العميد ثم تفاجأت بقوله أمامها : أما زلت أعزبا يا شريف ؟

ـ أجل يا سيدي العميد .

ـ فتضاحك يا أمي وقال : ما رأيك بأسماء .. ألا تراها مناسبة لك ؟!

فضحكت وكلي خجل وقلت : والله هذا شرف كبير لي يا سيدي العميد !

وخرجت أسماء ولم تتكلم ؛ ووجهها غرق بالاحمرار والحياء مع ابتسامة صغيرة .. بعدها لم يحدث شيء .. بل انتقل العميد إلى قيادة الجيش الكبرى .

هذه ذكريات تلك الفتاة أسماء .. كل هذه تذكره شريف عندما رددت أمه اسم أسماء

فقال : إنها فتاة لطيفة كما بدأ لي .. ولكن والدها رجل فاضل .. وحسبتها دعابة وجس نبض لي ولها والله أعلم .

ـ اتصل به وذكره بك ربما مشاغله الكثيرة أنسته الموضوع .. والفتاة كانت في سنتها الأخيرة .. أعني ربما أنها غير متهيئة للزواج تلك الأيام.

ـ صحيح يا أمي وما زالت السنة الأخيرة قائمة لم تنته .

ـ حرك الماء الراكد .. أرغب أن أفرح بك يا ولدي قبل أن ألحق بأبيك رحمه الله .. وأنت لازم أن تتزوج من بنات العائلات .. لأنك كبير يا بني .. وستكبر بمشيئة الله .. وتصبح قائدا كبيرا إذا عشنا .

ـ أخشى ألا نوفق إذا تطلعنا إلى بنات الأسر الأرستقراطية .. هؤلاء يا أمي مطالبهم مثيرة وكثيرة .. وأنا أحب الراحة والسكون .. لا أفكر الليلة في مسرحية .. في فلم .. في مهرجان غنائي .. معرض للثياب والجواهر .

ـ لا تخلو هذه الفئة ممن هم على شاكلتنا يا ولدي ..الفقر كفر يا شريف .. الفقر يذل الرجل ويقصف العمر .. ألم تر عندما كنا نحتاج لدواء مرتفع السعر ما يحل بنا من الضيق والحيرة

والبحث عن دائن ؟!.. الحمد الله الذي أخرجنا من الفقر وذل الحاجة وانتظار إحسان فلان وفلان .

الزواج

كان الأخ شريف يشعر ويعي الوحدة التي تعانيها أمه في البيت وحدها مع الخادمة الأعجمية ، وأن جهاز التلفزيون لا يبدد تلك الوحدة ولا المذياع ، ويعلم أن أمه لا تحب الاحتكاك بالجيران كثيرا ، وإطالة الجلسات معهن ، وهو لا يستطيع إزالتها ، ويرى السعادة التي ترتسم على وجه أمه عندما تفتح له الباب ، وهو يعلم الضيق الذي فيها من بُعد ابنها قسيم عنها ، ومن قصة زواجه المؤلمة من فتاة فرضت عليه قسرا بسبب علاقة جنسية آثمة ، ومن عدم تواصله معهم ببدنه وباتصالاته ، كان يدرك أن هذا مؤلم على قلب الأم ، ويسبب لها آلاما نفسية لا تستطيع أن تعبر عنها حتى لا تسبب له ألما وضيقا ، مضت شهور في الشقة الجديدة في مدينة لظ المدينة القريبة من معسكره ، فلما ذكرته أمه بأسماء .. أخذ يفكر بالزواج جديا وتأخير بناء البيت .. فطفقت صورة أسماء تتردد كثيرا على مخيلته ، ويحلم بأنها زوجة لها.. ويفكر بكيفية الوصول إليها .. وأنه شخص لا يحمل اسم عائلة كبيرة وعريقة في البلد مع عائلة كعائلة العميد ، ولابد أن الكثير من أبناء عائلتها ينتظرون تخرجها ليخطبوها ..وليس يملك شيئا مميزا لتقبل به وتفضله على الأقارب سوى شهادته وعمله كضابط .. فالعميد ابن عائلة كبيرة معروفة في البلاد وجل أقاربه من كبار الضباط والرتب العسكرية مثله .. وهل كان سيادة العميد ساخرا وهو يمازحه بهذا الزواج ؟! كيف أعرف ؟ كيف أتصل ؟!

ثم تراه مخاطبا نفسه بصوت عال : لا .. ثم يعود للتفكير والمحادثة مع نفسه : تزوج فتاة بسيطة ثقافتها بسيطة .. تتطلع إليك بأنك زوج وسيد .. وليس بالمثل ..إذا أغضبتها تطردك من البيت أو ... أو ... ربما تريد ابنة العميد أن تشتغل كما تفعل بنات تلك العائلات .. ولكنها ستعمل في قطاع التدريس ..أمي .. إذا عملت ستظل أمي وحيدة حتى ولو تزوجت منها.. الأولاد .. أمي تريد الأبناء لا الزوجة ..أنا بحاجة لزوجة تستقر في البيت .. المرأة العاملة ستسبب لي

المشاكل ولن تستفيد أمي من زواجي إذا أصرت الزوجة على العمل .. يا رب يسر ولا تعسر .. أنا يا رب عبدك الضعيف أعني على تحقيق هذا المأرب.. من أتزوج من أختار؟! أنا قليل الاختلاط بالأسر والعائلات.. وأمي ليس لها رغبة بزواجي من أقاربها أو أقارب أبي لم تحدثني عن بناتهم يوما .. إنها ترغب بزواجي من أسرة ذات اسم في البلد .. لقد رأت وعانت من الشقاء وإن عائلتنا وعائلتها لم تستطع الوقوف معنا أثناء محنة أبي .. كلهم فقراء مصروفهم على قد دخلهم.. وبما أنني تعلمت فعليّ أن أخرج من نطاق العائلة .. الفقر مر وعلقم .. ألم يقال لو كان الفقر رجلا لقتلته؟!.. وأنا أحب أن تكون زوجتي وقرة عيني وأم أولادي بمشيئة الله مثل أمي ..ألم تتحمل مأساة أبي بصبر ورضا ؟.. إنني أسمع عن نساء يتخلين عن أزواجهن عند مرضهم المعيق عن العمل والحياة الزوجية .. وبعضهن تهرب مع عشيق لتجبره على الطلاق .. ليس كل النساء كأمي الحبيبة .

أمي .. مرض أبي وهي صغيرة السن وليس لها سوانا أنا وقسيم .. خلفت اثنين وماتا قبل ولادتنا .. وربما لو هجرت أبي وتزوجت لأنجبت غيرنا ؛ ولكنها رضيت بقسمتها وقدرها وتحملت المصيبة .. ولكنها بعدي لم تلد أحدا .. ولما أصيب أبي كنت ابن اثنتي عشرة سنة .. هناك فترة طويلة بين إصابة أبي وولادتي ، لم تنجب خلالها أمي .. مع أن خالاتي لهن أولاد كثر .. أنا أستحي أن أسالها عن سبب ذلك .. وما زلت أستحي عن مثل هذا الاستفهام ..لابد أن العائق سبب غير شلل الوالد ..آه .. الزواج .. هل عندنا عقم ؟!



ابنة العميد

فكر شريف تفكيرا معمقا مع من يتحدث في موضوع الآنسة أسماء يحيى .. هو يعلم أنها ما زالت على مقاعد الجامعة .. وفي سنتها الجامعية الأخيرة ..هكذا فهم من حديث والدها في ذلك

اللقاء الخاطف .. لقد راوده خاطر بأن تكون أنهت دراستها قبل انقضاء السنة الجامعية .. فاستعرض الأسماء التي يعرفها ويمكن أن تفيده في مثل هذا الأمر .. فلم يرسُ على بر ، ولن يفيده أحد إلا بالحديث مع نفس العميد .. وهذا أمر لا يستطيعه .. فكر أن يعرف مكان سكن العميد ، ويرسل أمه للتعرف على أسرة الفتاة ، والتحدث معهم في هذه القضية الحساسة .. فوجد نفسه لا يعرف أين يقطن العميد يحيى؟ .. ولكنه قال لنفسه : هذا سهل .. مكان السكن أستطيع معرفته بواسطة أحد الضباط الكبار .. آخذ منه عنوانه .

وعاد يساوره قلقه على أمه فيهامس نفسه فيقول : هل هي الفتاة الصالحة لي ولأمي قبلي ؟! هل يقبل والدها بجلوس ابنته في البيت لمراعاة أمي ؟ رغم معرفتي بلطفه وحسن أخلاقه معنا ومع الزملاء الضباط .. فأقول هذا زواج وليس لعبة تنس أو كرة قدم .. الزواج حياة .

ولكنه عزم على معرفة مكان البيت ، وستقوم أمه بهذه المهمة السؤال والتحري .. رفع سماعة الهاتف وطلب من عامل المقسم (السنترال) أن يصله بمقدم له معرفة به أثناء إحدى الدورات والتمرينات العسكرية ، وهو مهندس أقدم منه خدمة ورتبة طبعا .. ورحب المقدم نصار به وتبادلوا التحيات ، وسأله شريف عن عنوان العميد يحيى لأمر خاص ، وتفاجأ النقيب شريف عندما قال له المقدم نصار إنه كان منذ أيام باجتماع ضم العميد يحيى .. وسأله عن شريف ياسر فدهش شريف وقال : العميد سأل عني ؟!

ـ أجل ، وها أنت تسأل عن عنوانه ..أنا أعرف أنه يسكن في مدينة (شين) في الجهة الشرقية ربما في حي ابن زيدون .. في بيت مستقل ليس في شقة .

شكره شريف ودعا له بخير ، ولما سمع السماعة توضع وضع هو الآخر سماعته وقال معقبا : العميد من سكان عاصمة البلاد .. حي ابن زيدون في شرق المدينة في بيت مستقل .. يا رجل هل أنت مناسب لمصاهرة مثل هذا الرجل ؟ الزواج قدر يا شريف .. تقدم ولا توجل .. كله بأمره سبحانه .

وبعد يومين أو ثلاثة من محادثة شريف ونصار رن هاتف المكتب عنده ، وسمع مأمور الاتصال

يخبره بأن العميد يحيى على الخط فرد قائلا : نعم ، يا سيدي العميد أنا شريف ياسر .

ـ أخبرني المقدم نصار أنك كنت تسأل عن عنواني هل من شيء يا بني ؟!

طبعا ارتبك شريف وضاق نفسه مع احمرار وجهه وتمالك أعصابه بسرعة وقال : شكرا يا سيدي العميد على هذا الاتصال .. كنت أفكر بزيارتك يا سيدي .. لأسألك في شأن خاص بي

ـ ألا يمكن الحديث على التلفون ؟

ـ ممكن يا سيدي الكريم ..

ـ تفضل !

ـ أفكر يا سيدي العميد بأن أتقدم لدورة خارج القطر ، فأحببت أن أسمع نصحك ..وأنا أعيش مع والدتي وليس لها إلا أنا .. وأنا راغب بالتدريب في الخارج .. ودورات الخارج مهمة للضباط في أيامنا هذه .

ـ أحسنت ! .. على كل حال يوم الجمعة القادم كن في بيتي بين المغرب والعشاء .. ويمكنني استقبالك يا ابني للحديث معك .

ـ أشكرك يا سيدي العميد .. أشكرك الشكر الجزيل .



نزل شريف العاصمة بعد تناوله الغداء مع والدته.. فالعاصمة تبعد عن مدينة لظ ثلاث ساعات بالسيارة الصغيرة .. وبعد العصر وصل المدينة .. فذهب لأحد المساجد الكبيرة وصلى العصر ولما صلى المغرب بعد تفرج ومشي في شوارع العاصمة الكبيرة استأجر سيارة خاصة إلى حي ابن

زيدون ، واستدل على البيت بحسن السؤال ، وهناك وجد العميد في استقباله ..وأعاد شريف شرح الوضع وغايته من الدورة الخارجية ، وشرح ظروفه وأن أمه تعيش معه وليس لها إلا هو بعد وفاة والده .

فبين له العميد محاسن الدورات في الخارج ، وأنه يكسب خبرة كبيرة مع هؤلاء الأجانب، وهم يتحلون بمهارات وقدرات تدريبية كبيرة ، ولا مجال عندهم للمجاملات أثناء الدورات إلا بحدود ضيقة ، فالاستفادة منهم محققة إذا كان لدى المتدرب رغبة حقيقية في الفائدة منهم ، فيأخذ الطالب خبرة عسكرية جيدة في حياته العسكرية ، وأما الدورات الداخلية فهي مهمة للعلاقات العامة ، وهي تظهر كفاءات الفرد في بيئته، ويتعرف عليه كبار الضباط ، ويطلعون على مواهبه ، ويستفيد الفرد منها في الترقيات العسكرية، وكلما كنت قريبا لكبار الضباط والوزراء فسيراعيك المدربون والمحاضرون لعلهم ينتفعون من قريبك الضابط أو الوزير في يوم من الأيام ، أما في الدورات الخارجية لا يراعى مثل هذا الجانب .. وبين له أن الدورات العسكرية بالجملة مفيدة وبحاجة لها الضابط النبيه .. وفي نهاية البيان قال العميد الركن : وبما أن ظروفك يا بني لا تسمح لك بترك أمك بدون رعاية.. فالأفضل أن تحرص على دورات الداخل .. ويمكنك أن تدرس دراسات عليا في الجامعات المحلية .. في التاريخ العسكري أو الجغرافيا العسكرية.. أو حتى التخصصات المدنية .

ـ أيسمح لنا بذلك ؟

ـ يسمح لك بذلك خاصة كلما ارتفعت رتبتك العسكرية .. ويمكنك التقدم لكلية الأركان العسكرية .. لتأخذ دورة أركان حرب .. المجال واسع .. والأم شيء عظيم.

ـ لا يسعني إلا أن أشكرك يا سيدي العميد على سماعك لي ولنصحك لي

وفجأة قال العميد : ألم تتزوج بعد يا شريف ؟ .. لم تتحدث عن زوجتك أمامي؟

ـ لا ، يا سيدي .

ـ عليك بالزواج .. فربما إذا تزوجت فتاة طيبة تستطيع أن تعتمد عليها إذا اضطررت للسفر إلى

الخارج ؛ لأنه أحيانا يحتاج الجيش إلى إيفاد ضباط لدورات خارجية قصيرة .. وللتدرب على أجهزة حديثة .. فيلزم بعض الضباط بدون اختيار يا بني .. وإذا تعين ضابط لهذه المهمة فليس هناك مجال للرفض .. فالزوجة تهون عليك الأمر أثناء الغياب .

ـ فتيات اليوم تصعب حياتهن مع أمهات أزواجهنّ ..خاصة إذا تزوجت فتاة تحب العمل ومتخرجة من الجامعة .. إلا إذا تزوجت فتاة لم تتعلم في الجامعة .. ربما ترضى بالحياة مع أمي

ـ صحيح هذا الكلام إلى حد ما ؛ ولكن لا تخلو الدنيا من الطيبات ..وإذا تزوج الشاب من فتاة جاهلة وأمية فهذا سيسبب للمتعلم ضيقا وحرجا .. كم عمرك اليوم يا شريف ؟

ـ تجاوزت الخامسة والعشرين يا سيدي العميد .

ـ لي زميل وصديق عنده بنت حلوة مثلك.. سأحدثه عنك لعله يقبلك زوجا لابنته .. ولو كان لديّ ولد لزوجته إياها .

ـ عفوا يا سيدي أليس عندك أولاد ؟!

فقال بحزن واضح للعيان : لا يا بني ، أنا وهبت ابنة واحدة فقط ؛ ولكنها ماتت منذ شهور .

فقال : أسماء ؟! ـ نعم ، أسماء .

ـ كيف ماتت يا سيدي ؟! لم أسمع بذلك .

ـ بعد انتقالي لقيادة الجيش بأيام صدمها أحدهم بسيارته المسرعة .

بدأ شريف متأثرا للغاية ومتفاجئا وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .. والله يا سيدي لم أسمع بهذه المأساة عظم الله أجرك .. وآسف على تذكيرك بها

مسح الرجل دمعة تساقطت على خده وقال : الحمد لله على كل حال .. قدر الله وما شاء فعل هذا حال الدنيا يا بني .

العروس

بعد نصف الليل بقليل وصل شريف البيت ووجد أمه ما زالت في انتظاره ، وهو كان متوقعا لذلك ، فرد السلام وقال باسما : أما زلت مستيقظة يا أمي ؟

الأم كانت تحلم بأن يعود ولدها بعروسه سريعا ، تتمنى لو تفتح عينيها فتجد ابنها مع عروسه وهي تدعو بارئها ليل نهار بأن يسهل أمر زواج فلذة كبدها ، وآخر من تبقى لها في دنياها ، ولما أنارت النور وردت السلام وجلسوا في صالة البيت قالت : أجائع ؟

ـ أكلت في العاصمة يا أمي .

ـ إنك حزين يا ولدي !

ـ أنا حزين ! فعلا أنا حزين يا أمي ..كيف عرفت ؟!

ـ من نبرات صوتك ومن وجهك.. كأنك عائد من مأتم بدلا من عرس

ـ معك حق ؛ كأنني عائد من مأتم ..الدنيا مآسي يا أمي .

ـ ألم تذهب لمقابلة العميد يحيى وترى ابنته ؟!

ـ بلى ، يا أمي .. قد التقيته ويا ليتني ما قابلته !

وضعت الأم يدها على صدرها ، وتنهدت بعمق وهمست باضطراب : رفضك! ولماذا يرفضك

ـ لم يرفضني يا أمي ، بل رحب بي ، وكان يخاطبني بيا بني .. ولكن أسماء ماتت يا أمي !

وبكت العين ، وهتفت الأم بلوعة : ماتت !!

ـ رحمها الله .. صدمتها سيارة منذ شهور وماتت .. وجدتها ميتة.. وأنا لا أعلم .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

ـ أسماء التي رأيتها مرة واحدة وحلمنا بأن تكون زوجا لنا .. ماتت !

قالت: أليس لها أخوات؟

ـ رحمها الله تعالى ..إنها وحيدة أبيها يا أمي .. ليس للعميد يحيى سواها .. لا ذكور ولا بنات أنجبها بعد علاج طويل .

ـ يا الهي كم الدنيا ضيقة ! ..حسبنا الله ونعم الوكيل .. سبحانه يا بني في علاه .. لا يبقى إلا هو .

ـ بعدما انتقل من وحدتنا العسكرية بزمن يسير تعرضت الفتاة لحادث سير أدى إلى موتها بعد أيام على سرير المستشفى .

ـ الدنيا مليئة بالمصائب ، ومن نظر مصيبة غيره هانت عليه مصيبته .

ـ واعتذرت له عن عدم سماعي بخبر موت ابنته .. وتأسفت له عن تذكيري له بها وتجديد الحزن في قلبه .. وقال بصبر هذا قدر الله وإرادته .. وقبلني بكل رضا وقال يا ابني يا شريف هذا أمر ربنا.. وقد حثني على الزواج يا أماه ..وأنه سيسعى لدى صديق له ليخطب ابنته لي .. تصوري يا أمي الشجاعة والإحسان.. وقال لي: لو كان لي ولد لخطبتها له يا ولدي من كثرة إعجابه بتلك الفتاة وبأهلها .

ـ هذا رجل مفضال يا بني !

ـ وحبب إليّ بأخذ الدورات الداخلية حتى أبقى بقربك يا أماه .. مع أنه بين لي أن ميزات الدورات الخارجية أهم وأخطر وأفضل في حياة الضابط .. ولكنه قال من أجل الأم .. تهون كل الدورات .. وحثني على الزواج وعلى الدراسة العليا كالماجستير والدكتوراه في الهندسة وغيرها مما يفسح لي المجال لإلقاء المحاضرات في الجامعات والكليات .

ـ النفس تهفو أن ترى هذا الإنسان وأحيه لمحبته لك يا شريف .

ـ عندما أسمع بمناسبة سأفعل يا أمي حتى تريه وتتعرفي على زوجته المحترمة .. وإذا قدر الله لي الزواج من ابنة صديقه لسوف ترينه ، ونتعرف عليه أكثر، ونحسن صحبته بإذن الله .

زواج شريف

سعى العميد يحيى سعيا جادا في زواج شريف من ابنة صديقه الدكتور سمعان فارس الطبيب العامل في أحد مشافي العاصمة ، ولم يتردد شريف في قبول الدعوة من العميد للتعرف على الدكتور سمعان والتي جرت في منزل العميد يحيى ، وقبل الشاب واسطة العميد بدون أي تردد

ثم قامت أم شريف وشريف بزيارة تعارف لمنزل الدكتور سمعان ، وعلى أثر هذا اللقاء وافقت الفتاة على الزواج من النقيب شريف ، وتبين لشريف أن الفتاة تعمل معلمة في قطاع التعليم والتدريس ، وكان العميد يحيى يقوم بدور الوالد للعروسين .

وأعلن الزواج وحجزت صالة للاحتفال ، ودعي الأصدقاء والأقارب ، وشارك بعض أقارب شريف من حي العمال وغيره وبعض الجيران حفل الزواج ، ودعي فواز وعزمي ؛ ولكنهما اعتذرا لشريف لظروف خاصة .

وكان شريف ياسر يرى أن السعادة قد حلت عليه بزواجه من تلك الفتاة ، وفرحت بها أمه ، وارتاحت لها كثيرا ، وكانا قد ذهبا إلى إحدى المدن السياحية ليقضيا أول أيام الزواج .. فهذه عادة تسربت لبلاد العرب والمسلمين من اتصالهم بالغرب الأوروبي ، ولما رجعا فرحين للبيت في لظ فكانت أول زيارة لهما للعاصمة إلى بيت العميد يحيى ، الذي سر من هذه الحركة اللطيفة وقدم لهما التهاني والدعاء بالتوفيق ، وتمنى لهما السعادة والحياة الهادئة .

وكملت سعادة العروسين وحسنة بولادة يسرا على رأس الحول من الزواج ، ولدت ذكرا جميلا أطلقا عليه اسم ياسر من أجل خاطر أمه وذكرى أبيه .

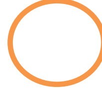
ولا نكاد نصف فرحة أم شريف برؤية حفيدها ياسر ..هي تعلم أن ابنها قسيما متزوج ؛ ولكنها لم تحظ برؤية أحد من أبنائه ، فكانت الجدة تقوم بدور الأم من فرحها بالمولود الجديد وربما كانت عندها أحلى الساعات عندما تخرج أمه لعملها بعد انقضاء إجازة الولادة وتبقى هي ترعى الوليد .

وذات ليلة أخبرها شريف أنه قرر بناء البيت الذي أجله من أجل الزواج .. والذي خطط له منذ حياة أبيه .. فقد اشترى قطعة أرض في مدينة البركة .. ولما بدأ الفتى الصغير ياسر يخطو ويمشي كان الزوجان يتهيآن لبناء البيت بما تجمع لديهم من مال .. وقد وعده الدكتور سمعان بمساعدته وتقديم القروض اللازمة له عند الحاجة والنقص ، وألا يلجأ للمصارف والبيوت المالية ، وكانت يسرا قد أصرت على المساهمة في البناء من مدخراتها ، فقبل شريف ذلك على أن

يكتب البيت باسمهما معا

وعندما ولدت يسرا المولود الثاني كان الطابق الأول قد جهز ، ولم يبق إلا الأثاث والرحيل ، وكانت الأم قد طلبت من ابنها بأن يسمي مولوده الجديد بيحيى تيمنا بمعروف العميد يحيى ، ووجد ذلك قبولا طيبا لدى الزوجين ، ولما أخبر سمعان العميد يحيى بذلك اتصل بالزوجين شاكرا ومهنئا ، وأرسل لهما هدية مناسبة مع والد يسرا سمعان فارس .

وبعد تعافي الأم من آلام الوضع وقد استردت عافيتها ، انتقلت أسرة شريف إلى مدينة البركة في حي الأمل .



عندما ارتقى الأخ شريف لرتبة رائد في القوات الهندسية ابتعث لكلية القيادة والأركان العسكرية ليؤهل أن يكون قائدا لكتيبة عسكرية ، يُمنح عادة الخريجون بعد إتمام الدراسة بنجاح درجة الماجستير في العلوم العسكرية ولقب أركان حرب ، فيقال الرائد الركن للضابط المتخرج من كلية الأركان ، ويكون ارتباط مواد المنهاج بكليات القادة بمهمة الكلية وفلسفتها التعليمية في العمل على تخريج ضابط قادر على العمل بكفاءة في المستويات التكتيكية ، وكضابط أركان حرب عام في كافة المستويات في القوات المسلحة.

ينقسم المنهج الدراسي في كليات الأركان إلى مراحل رئيسية : المرحلة الأساسية تكون بعد تأهل الضابط لهذه الدورة ، وتكون مدتها نحو أربعة أشهر، وتشمل على المواد العامة مثل التنظيم والاستخدام، والتكتيك العام ، والتدريب ، وواجبات الأركان ، والاستطلاع ، والجيوش الأجنبية، والمدفعية، والمهندسين، والحرب الكيمائية، والإشارة السلكي واللاسلكي والشؤون الإدارية، والحرب الإلكترونية، والتأمين الفني .. ويؤدي الدارس اختباراً في نهاية تلك المرحلة .

ثم المرحلة المتقدمة مدتها حوالي ثلاثة أشهر، وتشتمل هذه المرحلة على الدراسة النظرية والتطبيقية لمستوى اللواء في المعارك الهجومية والدفاعية والمسير والمعركة التصادمية ، وجميع

الأحوال الخاصة مثل القتال في المدن والقتال في الأراضي الجبلية، والحصار، وفك الحصار، العمليات الليلية.

ثم المرحلة الراقية ومدتها ثلاثة أشهر كسابقتها، وتشتمل على الدراسة النظرية والتطبيقية لمستوى الفرقة في المعارك الهجومية والدفاعية والمسير والمعركة التصادمية والعمل كنسق ثاني للجيش.. فالفرقة العسكرية تكتل ضخم من أفراد الجيش ، فهي تتكون من عدد من الألوية ، ربما ثلاثة ، دروع أو مشاة ، واللواء يتكون من ثلاث كتائب ، والكتيبة من ثلاث سرايا ، والسرية من فصائل سوى وحدات الإسناد والخدمات الأخرى .

ثم تأتي المرحلة النهائية التي مدتها حوالي شهرين، وتشتمل على مشروع مركز قيادة خارجي مستوى فرقة ، مناقشة البحوث الماجستير ، والاختبار النهائي.

ولما أنهى الرائد شريف دورة الأركان العسكرية عين كقائد إحدى كتائب المشاة العسكرية ، وشارك في مناورة عسكرية أبدع فيها، فعين بعد انتهائها مساعد قائد لواء مشاة ، وأرسل إلى الولايات المتحدة الأمريكية في دورة عسكرية متقدمة ، قضى جزءا منها في ألمانيا ، فأصبح الأخ شريف حينئذ معروفا على مستوى قيادات الجيش العليا وكبار العارفين بشؤون الضباط ، وقد كان مبرزا في جميع مشاركاته، وبعد عودته ألحق فترة بالقيادة العسكرية لبلده للاستماع لعدد من المحاضرات التثقيفية والتوجيهية ، وبينما هو يسمر ليلة في نادي ضباط القيادة مع الزملاء من وحدات الجيش المختلفة ، سأله أحد الضباط القريبين منه من قادة كتائب الدروع : هل لك يا أخ شريف أخ اسمه قسيم ياسر الكمن ؟

لم يرد شريف على الفور بل حدق في عيني زميله متفاجئا من الاستفهام، ثم قال ببطءٍ كأنه يتذكر أن له شقيقا بهذا الاسم : قسيم !! .. قسيم ياسر الكمن.. أين التقيت به ؟!

ضحك الضابط : لم ألتقِ به ، ولم أره يوما .

ـ نعم ، أنا كان لي أخ اسمه قسيم ..

ـ ميت ؟!

قال : لأ ، لي أكثر من عشر سنوات لم أره ..طردني وأنا أعوده في المستشفى المصاب فيه .. تعرض لحادث ضرب من بعض الناس ، ونقل للمستشفى ولما زرته طردني ، وطلب مني أن لا أسعى لرؤيته .. وأساء للأسف لي ولأمي .. في قصة طويلة .. وهجرنا ، ومن ذلك الحين لا نعرف عنه شيئا ..حدثني عنه .

ـ قسيم ياسر الكمن شقيق لك .

ـ نعم .. هذا اسم أخي الأكبر المختفي منذ عهد ليس بالقصير .. أين سمعت عنه يا سيدي ؟!

ـ ربما خمس عشرة سنة لم تروه ؟!

ـ ربما كل هذه السنوات .. لقد نسيناه كما نسينا يا رجل.. مات والده ولم يحضر جنازته ، ولم يشارك في العزاء .. قصة مرة !

ـ على كل حال .. هو الآن في السجن .. متهم في قضية قتل .

بهت شريف وهتف للمفاجأة : قتل !! .. يا الهي !

ـ لي أخ من جيلي ضابط أمن في السجون .. جرى حديث بيننا ، وذكرت اسمك أمامه ذات ليلة فقال لي عندي في السجن شخص اسمه قسيم الكمن.. ذكر لي مرة أن له أخا ضابطا كبيرا في الجيش اسمه شريف الكمن .. فلما ذكرت اسمك أمامه تذكر ذلك السجين .. وذكر ذلك السجين .

ـ كيف جريمته ؟!

ـ لا أدري بالضبط كيف تفاصيلها ؟.. ولكني فهمت من أخي أنها جريمة قتل ، وهو شريك فيها .. وكأن الجريمة قتل زوجته .

ـ زوجته المقتولة !! .. يا الهي ! .. إذا علمت لي تفاصيل الجريمة .. ولم يكن في هذا إزعاج لك فأرجو أن تعرفني بالتفاصيل ، قد أتمكن من مساعدته بشيء أو بمحامي .. وسألخص لك فصلا من سيرته يا رائد سمير لتتضح الصورة لديك .

اختصر شريف قصة أخيه قسيم للضابط سمير الذي قال معقبا على ما سمع : مات أبوك وهو

عليه غاضب!.. هذا عاقبة العقوق يا شريف.. ثم يتزوج بغي!.. معذرة مما تفوهت به .

ـ لا عليك ، هذا هو الصواب .. هذا ما نقل لنا من قريب لنا اسمه همام كان يلتقي به في العاصمة بعد حادثة المستشفى التي ذكرتها لك لم يأت بيتنا في حي العمال .. ولما دخل والده المستشفى طلبت أمي من همام أن ينقل إليه مرض أبيه ..ولم يأت .. ومات أبونا وهو يرفض المجيء لرؤيته وهذه المرة الوحيدة التي أسمع عنه خبرا بعد وفاة أبي رحمه الله تعالى .. وهذا المستقبل الرديء كنت أتوقعه له .. وهذه عاقبة الشر عامة !

أخبار عن قسيم

وفي اللقاء التالي الذي جمع بين شريف وسمير قال الأخير : لقد جاء أخي بملخص القصة يا أبا ياسر .. واعلم أولا أن أخاك له خمس سنوات في السجن ..وهو محكوم بخمس عشرة سنة مع الأشغال الشاقة .. وهو مشارك في الجريمة مع أخوين لزوجته .. وقد قتل معها رجل آخر .. كان موجودا معها في البيت ..أنا آسف .

قال شريف : لا عليك .. هذا نتيجة سوء الاختيار .. هذا واقع حدث فهل نهرب منه ؟.. فأخي فاسد وفاشل .. وقد حاولنا تقويمه وإعادته للأخلاق الحسنة .. لكنه كان معتدا مغرورا بقوله وأفكاره .. تابع

ـ القضية يا سيدي كما فهمت من أخي .. أن زوجة أخيك امرأة فاسدة من قبل الزواج منها .. سجل لها الأمن قضايا أخلاقية قبل لقائها بأخيك قسيم .. ولكن لما كشف إخوتها علاقتها الجنسية بأخيك وكانت حاملا .. ألزموه بالزواج منها وهددوه بالقتل .. وهم معروفون بالشراسة والإجرام .. فرضخ للتهديد وتزوج الفتاة ، وعاش معها كزوجة شرعية .. ومع غيرها من بنات الليل والزانيات .. وقد ثبت عليه أنه كان يأتي بالعشيقات للبيت على سمع وبصر زوجته .. ويطردها ليعاشر عشيقاته في بيتهم .. بل سمح لبعض الناس باتخاذ بيته للدعارة ، كما تكشف ذلك أثناء التحقيق في الجريمة .. بل تكشف أيضا عن دعارة جماعية كانت تحدث في غرفة نومه ..حتى أن بعض إخوة زوجته شاركوا في مثل هذه القبائح والمفاسد .. رياح انحلال

الحضارة الغربية يا سيدي وصلت إليهم في الانحلال والفجور.

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل ، هذا ما يكسبه الناس من مشاهدة أفلام الجنس والإباحية ، التحلل من الأخلاق .. أمر فظيع يثير الاشمئزاز والقرف في النفوس الحية! ثم ماذا أيضا ؟!

ـ وكانت زوجته أمام هذا الواقع المتحلل والوقاحة تتخذ بدورها العشاق وتحضرهم للبيت في فترة غياب رجلها عن البيت .. فهو كما أخبرتني يعمل سائقا على سيارة أجرة .. وهو عندما حدثت الجريمة كان يعمل في نفس هذه المهنة .

ـ صحيح .. مأساة !..فعندما تذهب الأخلاق والمروءة .. فيهون عليه كل شيء .

ـ ثم أحس أخوك أو قد اخبر أن زوجته تفعل ما يفعله من ورائه ، وأنها تخونه في وسط بيته.. فحدث بعض إخوتها بذلك الأمر ، فرفضوا أن يصدقوه وزعموا أن أختهم شريفة مع علمهم بقصة زواجها منه ، وإنما يريد التخلص منها لدعارته وفجوره .. وأكدوا له أنها بعد زواجها هدأت وعقلت وصلحت .. واتفقوا أن يعملوا لها كمينا قبل أن يطلقها كما هدد .. فيبدوا أنه بعد معاشرته لهم عرف نقاط ضعفهم .. فاستقوى عليهم بتهديده ، ووافقوا على خطته .. خرج كعادته في الصباح للعمل ، وبعد ساعة عاد ومعه اثنان من إخوة البنت ، وتسللوا للغرفة فوجدوا المرأة عارية والرجل العشيق مثلها مضطجعين على السرير يأكلون بعض قطع الشوكولاتة أمام هذا المشهد المثير قتلوهما بالسكاكين على الفور.. وسلموا أنفسهم للشرطة.. هذه هي القصة يا أبا ياسر .

خيم الوجوم على شريف والحزن ثم قال : قصة محرقة وكلها خزي!.. هل لأخي أولاد من تلك العاهرة ؟ . . أوصل لمسمع أخيك شيئا من ذلك ؟

ـ نعم ، وتوقعت سؤالك عن ذلك ، وعلمت من أخي أن لهم ولدين فقط .. ولكنهما لم يكونا يعيشان مع والديهم ، كانا عند أم زوجة قسيم .. كان أخوك يضربهما ويسيء إليهما ويتهمها بأنهما ليس منه .. فأخذتهم جدتهما لأمهم ، وهم عند مقتل أمهم كان أحدهما في العاشرة والآخر يزيد عنه بسنتين ..

ـ أيحتاج الأمر لمحامي بعد كل هذه السنوات ؟

ـ الحكم صدر والتنفيذ جارٍ .. وإعادة المحكمة لا تفيد شيئا لأنهم اعترفوا بجريمتهم وأدينوا وهم لم يأخذوا حكم إعدام لأنها تعتبر من قضايا العرض والشرف .. وهم لم يأخذوا حكما مخففا بشكل كامل .. إنما خفف عنهم الإعدام والمؤبد ..

فتبسم شريف وقال كأنه متهكما : أين الشرف ؟! لقد حاولت أمي تقويم هذا الإنسان .. ولكن الدموع لا تقوّم الرجال يا أخ سمير .. حاولت إبقاءه في المدرسة .. ولكنه أصر على الفشل ، وأن الأسرة بحاجة لمن يعيلها ..فأصبحت الأسرة تعيله وتراعيه لعله يعود .. ولكن دون فائدة وهاجر للعاصمة للمال والعمل الأكثر .. حقيقة سيرة لا تسر أيها الصديق .. الحمد لله على كل حال ..لابد من زيارته .

ـ الزيارة مسموح بها وحسب المواعيد المقررة .. وسأحدث أخي ليرتب لك زيارة خاصة .. هل ستأتي أمك معك ؟

ـ لم أحدثها بشيء بعد ولن أروي لها شيئا مما سمعت وبعد زيارته لسوف أطلعها على شيء من قصته .. فهو ابنها لابد أن ترى ابنها العاق .

ـ سأكلم أخي بموضوع زيارتك وأنا آسف لإزعاجك بحديث أخيك .

ـ بل جزاك الله خيرا .. نحن لنا سنوات وسنوات لم نسمع عنه شيئا أكيدا .. فهذه القصة لم نسمعها من أحد غيرك ..هو أخي ولكنه كان بعيدا عن كل معارفه من أهل البركة .. كانوا يلتقون صدفة في السيارة في الشارع في المطعم .. ولو عرفت هذه القصة لأهل البركة لنقلت لأمي من قريباتها .. أو لعلهم عرفوا وصمتوا لخروجنا بعد موت أبي من بينهم .. ولكني أذكر أني تزوجت منذ عهد قريب ..ورأت بعض الجيران فالراجح لي أنهم لا يعرفون .

هم شريف

كانت حسنة أم قسيم تعرف متى يكون شريف منزعجا وقلقا من شيء يخص البيت والأسرة من النظر في وجهه وعينيه؟ فمنذ أيام والرجل يخفي ألما وحزنا ويبدوان واضحين على قسمات وجهه ، وكان يلزم الصمت وهي تنتظر أن يتكلم كعادته التي تعرفها فيه ، وظنت في نفسها أول الأمر أن بين الزوجين مشكلة خاصة ، فظلت محافظة على صمتها حتى طفح الكيل كما يقال ، فقالت لكنتها يوما : إنني أرى أبا ياسر منذ أيام مشغول الذهن يا أم ياسر هل من شيء يقلقه ؟ فقالت يسرا : وأنا مثلك لاحظت ذلك ؛ ولكنه صامت ، وقلت لنفسـي ربما هناك شيء في العمل .

ففرحت الأم بهذا الرد وقالت والسعادة تطل من عينيها : خشيت يا ابنتي أن يكون بينكم زعل شيء .. فلم أحب سؤاله عن ذلك .

ـ أبدا يا أمي .. كسائر الأزواج تحدث بيننا مماحكات خفيفة نسيطر عليها فورا ونتمالك أعصابنا أنا سعيدة جدا بزوجي وهو نعم الرجل

ـ وأنت نعم الفتاة والزوجة .. سعادتك هي سعادتي .. ولسوف أسأله الليلة فأنا أعرف ابني عندما يكون متضايقا من شيء خاص بنا.. بالبيت .. فضيق العمل ومتاعبه اعتاد أن ينساه بعد خروجه من مكان عمله .. لأنه يعتبر ذلك من لوازم العمل مهما كان .. قد لاحظت ذلك منذ أسبوع فاستحييت أن أحشر نفسي بينكم

ـ أبدا ..أنت أم رائعة ! واحشري نفسك بيننا ..عِشرة سنوات يا أمي .. اطمئني ليس من سوء بيني وبين العزيز شريف .. كلنا عيوب .. لا يخلو منها البشر !

ـ أنت بنت فاضلة ، وأنا أقدرك وأحبك كثيرا .

ـ أعلم ذلك الحب يا عمتي .. وأنا سعيد جدا بوجودك معنا .. فأنت نور حياتنا وبيتنا.. ولا أشعر بأي ضيق نحوك ..وأنا لن أجد حماة مثلك .. وأمي وأبي دائما يثنيان عليك الثناء الجميل ويمدحان أخلاقك .

قالت : بارك الله فيك يا بنية ، وبارك الله في أهلك .. وجزى الله العميد يحيى خير الجزاء أن اختارك قرينة صالحة لشريف .

ـ نعم الصديق لأبي .. فكان كلما يراني يقول مبتسما آه ، يا يسرا لو عندي ولد لكنت أفضل زوجة له بإذن الله .. فسر أبي لما رآه يتدخل في زواجي ، وفاجأنا حقيقة باختياره يا أمي .

ـ الحمد لله .. الحمد لله .. بوركت يا ابنتي .. سأتكلم مع شريف ؛ لأنني لا أحب أن أراه منزعجا .. يبدو لي أنه عرف شيئا مزعجا عن أخيه التائه .. وقسيم ليس وراءه إلا الأخبار السيئة هداه الله .

ـ افعلي كما تشائين يا أمي الطيبة .. حتى أحفادك الأعزاء يحبونك أكثر منا .. لقد تعلقوا بك .

ـ حفظهم الله .. إنهم أولادي يا عزيزتي .. أنا حرمت من الذرية قبل مرض أبي قسيم .. حملت مرتين بعد ولادة شريف وأسقطت الحمل بعد شهرين تقريبا من كل حمل .. ثم علمت أن عندي مشاكل داخلية لا تسمح لي بالحمل وتحتاج إلى علاج مستمر والنتيجة غير مضمونة .. فرضينا بقسمة ربنا واكتفينا بشريف وقسيم الذي لا نعرف عنه شيئا منذ سنوات .



اطمأنت وارتاحت الأم حسنة على أن الزعل المرتسم على وجه ابنها لم يكن بينه وبين زوجه ، فقد وضعت في قلبها أن لا تتدخل بين الزوجين مهما حدث ، ومهما سمعت إلا إذا طلب منها الطرفان أن تتدخل ، ولكن الفتاة كانت طيبة وتحسن معاشرتها ، ولم تتبرم يوما من مشاركتها حياتهم ، وتتعامل معها كأم ثانية لها ، لذلك كان الاحترام بينهم متبادلا ، ولم تنظر يسرا لنفسها بأنها ابنة دكتور وعائلة غنية ، فهي تتحمل مسؤوليتها كاملة ، وتعرف لكل ذي حق حقه ومقامه والأم حسنة منذ دخل ابنها شريف الكلية العسكرية اعتبرته رجلا ، ولم تحاول التدخل في خططه وتفكيره إلا إذا فتح لها قلبه وأحب سماع مشورتها فكانت تتكلم وتبدي مشورتها ورأيها ، وشريف كما مر معنا في الصفحات السابقة قد تحمل المسؤولية بقوة ، وعلم المطلوب منه لتسير السفينة بكل سلام وأمان .

وكانت مشاكل الزوجين والحياة الزوجية واختلاف وجهات النظر بينهما تحل داخل غرفة النوم بالتشاور وسعة الصدر ، وفهم كل منهما طريقة تفكير الآخر ، ووعيا قول النبي ﷺ (كلكم راع ومسؤول عن رعيته) .. ولم يتخلل حياتهم لحتى الآن مشكلة معقدة وكبيرة ، ويسرا سمعان استوعبت أم شريف وارتاحت لها .. فمشت الحياة هادئة منسابة كالماء المنهمر في نهر هادئ ، وكانا لا يتحدثان في مشاكل عملهما أمام بعضهما إلا في القليل النادر ، وخاصة شريف لأنه يعمل في مؤسسة مهمة، وليس من المستحسن ذكر قضاياها وهمومها أمام الناس .

لذلك لما رجع ذلك المساء ، وكانت الوجبة الرئيسية عندهم وجبة العشاء ، لأنه في فترة الغداء يكون في عمله ووظيفته ، وهم يحبون الاجتماع على المائدة ، فلما لبس ملابس البيت وصلى صلاة العصر ـ لأن الصلاة تدركه وهو في الطريق ـ التف الجميع حول المائدة المستقرة في المطبخ .. ولما ترفع الصحون والأوعية يتحولون إلى صالة البيت أو ما يسمى الصالون ..فتقدم لهم الخادمة الشاي ، وتضع أمامهم الفواكه ، فإما يتفرجون على برامج التلفزيون ، أو يتحدثون بما عندهم من أخبار الأهل أو ما قرأ أحدهم من خبر مثير في الجرائد .. وعند صلاة العشاء .. يذهب شريف للمسجد القريب إن وجد في نفسه خفة ونشاط بعد وجبة العشاء الدسمة في الغالب .. أو يصلي في البيت إذا كان مثقلا من الطعام .. ثم تقدم لهم القهوة في الصالون .. أو في أماكن تواجدهم لأن الأخ شريفا أحيانا كثيرة بعد صلاة العشاء يدخل المكتبة الصغيرة التي كونها في منزله فيصلي فيها العشاء ويبقى جالسا فيها ، فتأتيه القهوة تحملها زوجته أو أمه أو الخادمة .. فيتحدثون قليلا ، ثم يتركونه يقرأ .. ومكتبته هي مكتبه في البيت .. وتخرج الأم إلى الصالون لتشاهد مسلسلات التلفزيون أو تستمع لمحاضرة أو ندوة .. وأحيانا تجالسها يسرا وأحيانا أخرى تبقى فريدة وحدها لاشتغال يسـرا بتحضير دروس مدرستها أو تصحيح كراسات الاختبارات .

ذاك المساء الذي حسمت حسنة فيه قرارها بمفاتحة شريف بالذي يضايقه فلذلك بعدما انتهى شريف من صلاته وطلب القهوة قالت له أمه هامسة : مالك يا شريف ؟!

ـ مالي !!

ـ لا يخفى عليّ حالك !..أهناك شيء عن قسيم ؟

ـ قسيم !!

ـ نعم ، لي أيام ألحظ حزنك وضيقك وأنت لائذ بالصمت لا تنفس عن نفسك .. والسرحان واضح عليك .. ولما تأكدت من عدم وجود شيء بينك وبين يسرا .. قلت الأمر يهمني أنا .. ولا يهمني في هذه الدنيا إلا أنت وأخوك .

نظر شريف إلى أمه وهو متعجب كما يقولون من حاسة الأم وابتسم ورد : أنا أعلم أنك تحبين الحديث معي من أيام .. عشرة عمر يا أمي .. تهمين بمفاتحتي بأمر ثم تكفين .. وأنا لم يكن لدي المعلومات الكافية .. فمثلك متردد في إسماعك أخبار أخي قسيم .

ـ أشركنا في همك يا ولدي .

ـ الهم يا أمي هو قسيم .

ـ ماله ؟!

قال : وصلني منذ أيام مضت أخبار سيئة عنه .

ـ مات ؟!

ـ أتخيل لو مات لوصلنا الخبر أسرع .. لا ، لم يمت ولكنه كميت يا أمي .. أيحتمل قلبك أخباره يا أمي ؟

ـ سيحتمل ، فقلبي تعود على تحمل المآسي يا شريف .. هكذا حوادث الدنيا بين نعم كبيرة ، ربما لا يحتملها القلب ، وبين نقم ونكبات يحتملها القلب .. تكلم .

قال : آه يا أماه! .. يجب أن أتكلم .. قسيم في السجن منذ سنوات .

ـ في السجن !.. وهذا الذي يضايقك .. وهل هذه أول مرة أسمع أنه في السجن يا أبا ياسر .. رجل عاق لوالديه أين سيكون ؟

ـ سمعنا من قبل مثل هذه الأخبار ؛ ولكنه هذه المرة مسجون بقتل زوجته .. وضعت يدها على

صدرها وتابع شريف كلامه : ألم تسمعي أبا همام يخبرنا يوما أنه تزوج رغم أنفه ؟

ـ سمعت ، قال لي ذلك العم أبو همام .

روى لها شريف ما سمعه من الضابط سمير ، ولما انتهى قالت : لا حول ولا قوة إلا بالله .. هذا يا بني نتيجة المشي في طريق الضلال والزيغ ، والمشي مع أولاد الفجور والحرام والنساء الفاجرات .

لم تبك أم قسيم كما توقع شريف ، ولكنه أدرك الحزن الذي يغمر قلبها ، وتساءل هل مات حب قسيم من قلبها أو ضعف؟ ثم قال بعد فترة صمت : طلبت من صديقي الرائد سمير أن يؤمن لي زيارة خاصة عن طريق أخيه الضابط في السجن .. ولما كلمه الضابط محمود أخو سمير برغبتنا بزيارته ، وأننا قد علمنا بحبسه حديثا ، قال للضابط بغضب : هم لا يعرفون أنني مرمي هنا منذ خمس سنين .. كل البلد تعرف أنني مسجون .. فأكد له الضابط جهلنا ، وأنه لم يرسل رسالة يخبرنا بها ، وأننا لا نعرف عنه شيئا منذ خمس عشرة سنة ..فقال لصديقنا هؤلاء كذبة فجرة .. هم يعرفون كل شيء ؛ ولكنهم يستعرون مني .. لا أريد رؤية أحد منهم .. أنا لا أعرفهم .. فقال له الضابط : استقبل أمك وحدها .. رفض يا أماه .. ولما أخبره الضابط بموت أبيه قال سمعت وسب أباه وشتمنا جميعا .. وما زال الضابط يحاول إقناعه بلقيانا .

ـ لا تحزن يا ولدي .. فقسيم منذ رحل من البركة تغير وقسى قلبه .. كان لا يأتينا إلا إذا احتاج لمال أو لم يجد أحدا يطعمه .. لقد غرق في الفساد وشرب الخمر وارتياد دور البغاء .. يعود إلينا ليس للسؤال عن أحوالنا وحاجتنا ويعطينا .. يطل ليأخذ فأعطيه بعض الدنانير فيعود من حيث أتى .. لقد نصحت وبكيت أمامه وترجيته أن يمشي على الطريق السوي على الصراط المستقيم وأن والده غاضب عليه .. فلم يهتز له شارب ، ويقول إذا لم نتمتع بشبابنا متى سنتمتع ؟!.. عندما نشل مثل أبينا .. فألزم الصمت راجيا ربي تغيير الحال .. لكن الحمد لله ـ ورفعت يديها إلى السماء ـ الحمد لله .. الله عوضني بك خيرا .. وها هو وحده أكرمنا بأم ياسر البنت الحلال الأميرة الرائعة .. اجعلها في بؤبؤ عينيك يا شريف .. قسيم لا تشغل فكرك فيه .. انتهى من

حياتنا كما يحب هو .. دع عنك الحزن يا شريف .. فقد تعودنا على غيابه .. حسبنا الله ونعم الوكيل .

الميراث

سعى شريف بعد فشله بلقاء أخيه للوصول إلى أبناء أخيه بمساعدة الضابط محمود أخو زميله سمير، فسأل الضابط محمود قسيما عن مصير أولاده ، ولماذا لا يأتون لزيارته ؟ فرد قسيم عليه بجفاء إنهم ليسوا أولاده ، وإنهم يحملون اسمه كرها وغصبا عنه عندما كان ضعيفا وجبانا عندما استسلم للزواج من أمهم رغم أنفه ، وذكر له أن المرأة الخائنة إذا خانت مرة استمرأت الخيانة ، وعندما وصل هذه الكلام لأشقاء زوجته المقتولة ، رفاقه في السجن والحكم ، نشب بينهم صراع وتهديد بالقتل داخل السجن ، حتى اضطرت إدارة السجن إلى نقل أشقاء المرأة إلى سجن آخر .

فشل شريف من مشاهدة أخيه ورفضه لزيارته رغم كثرة المحاولات والشفاعات ، ولم يفصح عن مصير أولاده للضابط محمود ، سعى الضابط محمود لمعرفة مصيرهم بواسطة دوائر الأمن الأخرى ، وتبين لهم أنهم كانوا يعيشون مع جدتهم أم البنت المقتولة التي وضعتهم بنفسها في بعض دور الأيتام ، ولما تبين لهم أنهم ليسوا بأيتام أعادوهم للمرأة الجدة ، ولعدم اهتمام الأم والأب بهم أخذتهم جمعية تبشيرية ، وفي الحقيقية تنصيرية ، وقامت على رعايتهم فترة من الزمن ثم أخرجوهم من البلاد بدون علم أحد .. وثبت لرجال الشرطة أنهما لم يقتلا ، وإنما تم تصديرهم لدول النصارى وخاصة أمريكا الشمالية لحياة أفضل من حياتهم هنا بعد أن نبذهم أهلوهم ، وقد غيرت أسماؤهم وأصبحوا نصارى بعد تعميدهم كعادة النصارى .. وإلى هنا وقفت تحريات البوليس ، وتركت للأهل إقامة دعوى طلبهم وإعادتهم ، ولكن الأب يرفض ويصر على البراءة من أبوتهم ، وأمهم هالكة .. فلزمت الشرطة الصمت .. وكان قسيم مسرورا لاختفائهم من حياته للأبد .

وتألم شريف وأمه لهذا المصير السيء للطفلين ، وليس باستطاعتهم فعل شيء أمام عناد قسيم

وسروره بهذا الأمر ، كما أعلن لهم الضابط محمود ذلك .. وما دام الأهل لا يستطيعون تقديم قضية للمحاكم المختصة .. فالحكومة ليست ملزمة في متابعة الموضوع ورفع قضية للمحاكم الدولية .. لأن الأمر سيبدو أمام المحاكم باختيار الوالدين ، ولم تكن هناك عملية بيع .. وصدم شريف من تخلي أخيه عن ولديه بسهولة وقال لنفسه مواسيا : هو أعلم بهم ..وإنهم لا يحملون سوى اسمه .. قد يكون هذا صحيحا !

وبعد حين من الألم والضيق رجع الهدوء لبيت شريف ، ولكن ظل يراودهم الأمل بأن يطلب قسيم لقاءهم والاجتماع بأمه .. وخرج قسيم من السجن بعد قضاء مدة الحبس كاملة ، ولم يحن لصدر أمه ، ولا لأخيه ، وظل مكابرا ومصـرا على عدم رؤيتهم وسماع صوتهم ومعانقتهم.



انتقل الأخ شريف للعمل في قيادة الجيش في قسم إدارة مشتريات الأدوات والمواد الهندسية في الجيش خاصة الوحدات الهندسية ، وكانت الحياة العسكرية تسير على خير ما يرام ، ولا تخلو الحياة بالطبع من المنغصات المعتادة من مشاكل العمل ، ومن موت صديق أو رفيق أو حتى من مرض الإنسان نفسه أو أحد أفراد أسرته .. لابد من هموم وغموم وأحزان هكذا سنة الحياة .. وحتى صاحبنا شريف نفسه دخل المستشفى العسكري عدة مرات لعلاج مرض عارض أو قلع ضرس أو لإجراء فحوص طبية .. ولكن بالمجمل كانت حياته رتيبة وطيبة بفضل من الله ﷻ

وبعد حين يسير من عمله في قسم المشتريات عين مساعدا لمدير القسم الهندسي في القوات المسلحة كلها، وكانت بين يديه صلاحيات وأعمال كثيرة ، منها متابعة التدريبات والصناعات الهندسية داخل مصانع الجيش ومعسكراته ، الحرب الكيماوية ، الجسور الخاصة لسير الدبابات وناقلات الجنود عليها، وهندسة المتفجرات والألغام ، وبعض المحاضرات في كليات الجيش وأسلحته المختلفة.

وعلى حين غرة جاءته رسالة من أخيه قسيم ، وكان قد علم من بعض معارفه في الأجهزة الأمنية والشرطية بخروج أخيه من السجن ، وتفاجأ حقا من خطاب أخيه الذي جاءه على قيادة الجيش وكان فيه إخباره بخروجه من السجن ، وأنه ما زال يكرهه ، ويتمنى له التعاسة والمصائب والموت ، وبين السبب الذي دفعه لكتابة هذه الرسالة وهو المطالبة بميراث أبيه .

ألقى شريف الخطاب أمامه على المكتب ، وابتسم استغرابا وقال : ميراث أبي !! ميراث أبي !! هل ترك أبي شيئا ؟! .. حسب علمي أن أبي مات ولم يترك شيئا .. لم يدع وراءه درهما ولا دينارا ليطالب به هذا المجنون .. من قال له إن أباه ترك ميراثا ؟؟

وعاد وتابع قراءة الرسالة التي وجدها مليئة بالسب والتهديد إذا لم يحصل على الميراث المزعوم وتفاجأ في نهايتها بوجود رقم هاتف يمكنه الاتصال عليه لتسوية الميراث .

أعاد قراءتها ثانية وقال لنفسه : إنه بحاجة لفلوس ..أنا على استعداد لمساعدته إذا تعهد بالتوبة والأوبة .

ورفع سماعة الهاتف واتصل بالرقم الموجود على الورقة ، فوجده محل بقالة صغير في قلب العاصمة ، ولما أخبره الرجل أن أخاه ليس قريبا منه ، وعده بالاتصال ثانية في الساعة الثانية ظهرا ، فلينتظر مكالمته .

وما كاد يترك الهاتف حتى رن فرفعها ثانية وقال : نعم .. أهلا فواز .

فواز : هل صحيح أنه ثبت تخابر لعزمي مع جهة معادية ؟

ـ أنت أدرى يا أخي .. ألست في قسم الأمن العسكري ؟

ـ أنا أختي عبير حدثتني بذلك ، قالت إن زوجها عزميا مشتبه به في قضية أمنية ، وإنها علمت ذلك من قسم الهندسة حيث تعملون ؟!

ـ على كل حال أنا سمعت مثلما سمعتم .. ولكن ليس لدينا أوراق رسمية في عملية تخابر مع جهات معادية لمهندسي القيادة .. هل تحدثت معه ؟

ـ ممنوع الاتصال به .. هو موقوف في قسم مكافحة التجسس العسكري .. لقد توقعت وأملت

أن يكون لديك المزيد من المعلومات .. رغم خطورة ما تحدثنا به .. فمعذرة وشكرا لك .

عندما وضع شريف السماعة عاودته الذكريات القديمة أيام تعرفه على عبير التي أصبحت فيما بعد زوجة لصديقه عزمي ..ورغم معرفة عزمي بأسرار عبير .. فقد تزوجها بعدما تركها زوجها الأول الذي طلبت منه الطلاق قبل أن تكتمل السنة الأولى للزواج .. فتقدم لها عزمي وقبلت به وتزوجا ..

وتذكر أنهم ابتعدوا عنه بعد زيارتهم لبيته أيام حي العمال في مدينة البركة .. وتذكر بعد ذلك أن الأمن العسكري اشتبه بعزمي هو ومجموعة من الضباط بالتخابر مع جهات أجنبية والعمل لصالحها داخل قيادة العسكر .. وهو يعلم أن الأمر لا يعدو سوى تحقيقات أولية .. ولم تكشف كل الخلية .. وقد لا تحدث محاكمات .. فهو يعلم أن بعض الضباط تستهويهم الاتصالات الخارجية للحصول على جنسيات أخرى ، والرحيل لتلك البلاد عند التقاعد والانصراف من حياة الجيش .. للحياة في بلاد الأجانب .. فتراهم يتهاونون في نقل أسرار الجيش وصفقات السلاح لتلك الدول طمعا بجواز سفر أجنبي .

ولما بلغت الساعة الثانية بعد الظهر اتصل شريف بالبقالة وعرف بنفسه ، وسمع البقال ينادي على أخيه قسيم فقال : أهلا يا قسيم .. الحمد لله على السلامة .. السلام عليكم .

ـ لا سلام ولا كلام .. أنت عدو لي .. أنا مضطر للحديث معك .. أريد حصتي من ميراث أبيك ياسر.

ـ رحمه الله .. يا رجل قبل ميراث أبيك ..اسأل عن أمك.. التي ربتك وعانت من أجلك ما عانت وما زالت ، والتي كانت تصرف عليك من المال الذي كانت توفره .

ـ أنا لا أم لي ولا أهل .

ـ ليس لك أم ولا أهل ، ولماذا تطلب ميراث أبيك ؟.. إذا كان له ميراث

ـ أبي لم يقف ضدي ولم يعادني .

ـ أنت عاديت نفسك .. أنت عدو نفسك .. لنتقابل لنعرف هذا الميراث المزعوم الذي تطالب

به .. أمك حسنة رغبتها أن تراك قبل أن تموت

ـ أنا أريد فقط ميراث أبي .

ـ وهل تأخذ ميراث أبيك على الهاتف؟.. تعال على القيادة .. سأنتظرك على الباب وندخل النادي الخاص .. ونتحدث عن ميراث أبيك ..وما هو ميراث أبيك ؟.. ذكرني به ؟

ـ ما زلت لا تعرف الميراث يا حضرة الباشا ؟ .. ميراث أبي يا حضرة الباشا .. الدار .. ألم يترك أبي لنا الدار ؟ .. وقد بعتها لفلان من الناس .

ضحك شريف وقال : بعتها !! .. هكذا قالوا لك .. لابد من المقابلة للحديث بموضوع الدار



أين قسيم

انتظر شريف أسبوعا كاملا ليتصل به أخوه قسيم وآخر ولم يحدث الاتصال ، وكلما تحدث مع البقال أخبره بأنه لم يره منذ حين ، فأخذ منه عنوان البقالة ، وزار المكان وتعرف على البقال ، وسعى لرؤية أخيه أكثر من مرة ؛ ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، ونتيجة لهذا الغموض زار شريف صديقا له من كبار ضباط الأمن والشرطة ، ومن رجال البحث الجنائي ، وفاتحه بموضوع قسيم وأعلمه شريف بأن هذا الرجل شقيقه، وطلب منه أن يساعده باللقاء به ، فأخبره الضابط أن هذا الرجل معروف لدى دوائر الشرطة وأنه سجين سابق.. ولكنه تفاجأ بأنه شقيق له ، فأطلعه شريف على طرف من حكايتهم ، ووعده الضابط أن يسأل له عنه قائلا : إذا عرفت عنه شيئا سأخبرك بك .

ـ اتصل يا سيدي على مكتبي في قيادة الجيش .



كان شريف يعتقد أن أخاه بعد خروجه من السجن بعد كل هذه السنوات خلف القبضان سيعود للطريق السوي ، وأنه أخذ درسا مفيدا من قضائه كل هذه المدة وراء القضبان ، وسيترك الفجور ، ويكف عن الشرور ، ويبدأ حياة جديدة ، فكان يطمح بأن يساعده ماديا ومعنويا ، ويعينه على الزواج من جديد لعل وعسى .. ويصفى قلبه تجاه أمه وأخيه ، وبعد محادثته لقائد البحث الجنائي العام ، تلقى اتصالا من العميد دبور فقال لشريف : بعدما عرفتني بأخيك بل على اسم أخيك .. وبينت لي رغبتك بمساعدته على ابتداء حياة نظيفة وجديدة وإبعاده عن حياة الضياع .. وأنا مهتم بأمره يا سيدي !

ـ لك مني أفضل الشكر ، وجزاك الله خير الجزاء يا سيدي .. أحب أن أخلي ذمتي نحوه .. وهو أخي مهما انحرف وضل .. وتلزمني رعايته إذا تعاون معي ورغب بحياة صافية هادئة.. فهو الآن بلا زوجة ولا أولاد .. ولا مأوى .

ـ جميل منك هذا أيها الأخ الكريم !.. ضابط كبير مثلك يفعل ذلك أو يسعى لذلك فهذا نبل نادر .. فبعض الناس ربما يستعر من ذلك ويخفيه .. المهم أنني قمت بالاتصالات اللازمة والدقيقة .. فتبين لي أنه بعد تاريخ مكالمتك معه خرج من البلد .. قد سافر لجزيرة قبرص.

ـ سافر ؟!

ـ نعم ، بعدما أطلق سراحه وقضاؤه مدة الحكم ، جدد جواز سفره ، وهو غير ممنوع من السفر فقد قضى محكوميته كاملة.. وهو غير مطلوب للإنتربول الدولي ، هو قد كان مجرما محليا وغير متابع دوليا.. وعلمت ذلك من رجالنا في المطار لأنه سافر جوا ، وقد كان بصحبة فتاة اسمها أو تسمي نفسها نبيلة زوف يبدو أنها أجنبية متعربة .

ـ والفلوس ؟!

ـ السجن يا سيدي العميد يسمح للسجناء بالعمل داخله .. ليعيل نفسه وأسرته إذا كان متزوجا ..وفي السجن يتعلمون الحرف والمهن المختلفة حتى إذا خرجوا منه ، وأحبوا الحياة الكريمة يكون لديهم حرفة يعملون بها .

ـ ما العمل الآن يا سيدي العميد ؟

قال : عندما يدخل البلد بإذن الله تعالى سأتحدث معك ، فقد طلبت من رجالنا المساعدة في هذه الخدمة لحضرتكم ..وأنا أقدر شجاعتك وحبك لأخيك رغم سمعته السيئة .

ـ جزاك الله كل الخير .. هذا واجب عليّ .. لا تنسى يا سيدي الاهتمام بهذه المساعدة .

ـ توكل على الله تعالى .

ولما وضع شريف سماعة الهاتف علق قائلا : سافر للخارج !.. ماذا يفعل في قبرص ؟! .. هل ذهب يبحث عن أولاده ؟ وإنما هجروا لأمريكا .. ومن هي نبيلة زوف ؟! .. والله إني راغب في

إنقاذه والوقوف بجانبه ، ما تبقى لنا في هذه الحياة الدنيا !..ألا يحب حياة السكون والحياة الوادعة الطيبة ؟ .. قبرص يا قبرص !! إنها جزيرة في البحر الأبيض المتوسط .. هل سيشتغل هناك ؟

امرأة قديمة

ذات نهار وصاحبنا شريف مشغول الفكر بسفر أخيه إلى جزيرة قبرص التي قسمت إلى دولتين قبرص التركية وقبرص اليونانية ، وما زال الصراع بين تركيا واليونان على تلك الجزيرة التي فتحها المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ أخبره سكرتير المكتب أن امرأة ترغب في مقابلته ، فقال دهشا: امرأة ! .. كيف وصلت إلى هنا ؟

ابتسم السكرتير وقال : زوجة أحد الزملاء .

ابتسم هو الآخر بدوره وقال : آ .. فهمت فلتتفضل .

فلما دخلت المكتب تفاجأ شريف حقا بها ، فهو منذ عهد بعيد لم يرها إنها السيدة عبير أخت فواز وزوجة عزمي ، فنهض عن كرسيه محييا ومرحبا ومشيرا لها بالجلوس على أحد المقاعد ، فلما جلست رحب بها ، وقرع جرسا فدخل عامل الخدمة للمكتب قائلا : سيدي !

ـ حسن .. انظر الأخت الكريمة ماذا تشرب ؟ أنا أعرف أنك تحبين القهوة .

قالت باسمة : لم تنس بعد !

فضحك وقال : وكيف أنساك يا سيدتي ؟!.. وأنت أول امرأة اقتحمت حياتي ..

ـ أول امرأة ! .. ألم تتعرف على فتيات المدارس أيام المراهقة ؟

ـ لم أتعرف .. وكنت أنت أول امرأة تعرض صداقتها عليّ ورفضتها .. أنا لم أعرف هذا الذي يسمونه الحب والعلاقات العاطفية .. أحسبه عبثا يا سيدتي عبثا!.. وعندما درست في كلية عسكرية كانت النساء فيها قلة ، ولا يسمح بالعلاقات العاطفية بين المجندين والمجندات .. وأكثر الطالبات من أبناء كبار الضباط .. ومن الصعب أن يغامر ضابط في تلك الأيام وهو تلميذ مستجد .. أهلا وسهلا

قالها عندما دخلت القهوة ووضعت أمام السيدة ، وانصرف حسن ، ورشفت المرأة رشفة ، ونظرت في عيني شريف الذي كان يراقبها أيضا ، فابتسمت ووضعت الفنجان قائلة : كيف زوجتك المدرسة والأولاد ؟.. لقد نسيت اسمها .

ـ لا حرج ، ليس مهما أن تتذكري اسمها ؛ ولكنها كانت الزوجة اللائقة بشخص مثلي .. يا سيدتي !

ـ والأم الفاضلة ؟

ـ كلنا بخير .. والحمد لله .

ـ رائع يا سيدي! أنا جئت أتحدث إليك بشأن صديق أو أخ لك كان اسمه عزميا.

ـ وما زال صديقا وأخا .

ـ نعم .. رفيق سنوات الكلية والجيش وهو زوجي كما تعلم .

ـ أعلم ، وكان بودي يوم زواجكم أن أشارككم الحضور بشخصي .. لكن كان عندي يومها ظروف شرحتها للزميل عزمي .. أكيد أنك جئت من أجل عزمي.. وليس من أجل رؤيتي.. ماذا تريدين مني ؟

ـ أرجو أن استفيد من هذا اللقاء .

ـ ما الذي ترغبين معرفته عن الزميل عزمي ؟ أنا قد فوجئت حقيقة بزواجه منك يا أخت عبير تبسمت وهي ترد : وأنا نفسي فوجئت بخطبته لي .. وكنت خارجة من زواج فاشل فقبلته على الفور دون تردد .. لا أدري لماذا ؟! كأني خشيت أن أظل أحمل لقب مطلقة .. جئت أسالك أيها الصديق القديم .. هل حقا عزمي جاسوس ؟!

بحلق شريف لحظات في سقف المكتب وقال لها ببطء : وماذا قال لك الأخ عزمي عندما سمحوا لك بمقابلته ؟

ـ وتعرف أنني قابلته ؟!

ـ هذا جيش يا أخت عبير .. والمقابلة مسجلة .. والسماح بزيارة مشتبه به في قضية خطيرة في

الجيش ليس سهلا .. ولولا أخوك فواز .. وابن عم أبيك اللواء المتقاعد ما تمكنت من مقابلته قبل تقديمه للمحكمة العسكرية .. ودخولك عليّ معلوم لأمن الجيش .

ـ نفى أن يكون عميلا لأي جهة .

ـ رغم الخطر في هذا الموضوع هنا ، وحساسية القضية يمكنني أن أقول لك أن الأخ عزميا لم يثبت عليه التجسس لحتى الآن .. هو كان في المكان الخطأ والأصحاب الخطأ .. للأسف بعض ضباطنا لما يكونوا في دورات خارجية يختلطون إلى نساء تلك الأمم .. وبعضهم يتصرف بغير مسؤولية ، ويقع في الشهوات والسهرات غير الآمنة .. ويظن أحدهم أنه قائد الجيش الأعلى والأكبر ..ويعود لبلده ليعمل كمخبر أو عضو في شبكة تجسس .. وهنا يعاد تأهيلهم وإعادتهم للصف الوطني والمخلص للوطن .. وأولئك يجندونهم بذكاء .. فالبعض يجند تجنيدا كاملا للعمل مع العدو .. والبعض الآخر يوهم بأنه مجند لتضليل أمن البلد .. فالأخ عزمي لحتى الآن يا سيدتي لا يعرف موقعه في الشبكة التي قبض على الكثير من عناصرها .. فقبض بالخطأ على البعض في اجتماع سري أم هو مجند حقيقي وأنا لم اطلع على ملفات التحقيق ، وذلك ليس من اختصاصي .. ولكن بحكم مركزي الإداري أسمع .. فأنا لا أستطيع أن أنفي عنه الجاسوسية ولا أستطيع إثباتها .. ولكن عندي أمل كبير أن يكون بريئا .

ـ عندك أمل حقيقي ؟.. أم تريد أن ترفع من معنوياتي يا سيدي العميد !

ـ صدقي يا سيدتي لو كان في هذه القضية مجال للشفعة والوساطة لساعدت الأخ عزميا للصداقة القديمة بيننا .. ولكن في هذه القضايا لا يصلح التوسط قبل إنهاء التحقيق والمحاكمة .. فعليك بالصبر والتحمل ، ولا أقول لك كفي عن السعي في معرفة موقفه وحقيقة دوره مع احترامي للجميع .. فالأخ عزمي كان صاحب شراب وشره في ذلك .. وهذا لا يصلح أن يكون عميلا

وقالت : أشكرك أيها العميد .. وكلامك واستقبالك لي .. وشجاعتك تؤكد لي أن معدنك أصيل ، وأنك أهل للوفاء .. وأبارك للأم التي ربتك ، وسلم عليها أحلى السلام ، وكذلك زوجتك العزيزة .. فأنت خدمتني أكثر من أخي فواز .

ـ لا تعتبي على أحد .. ففواز موقفه دقيق أيضا .. فهو قريب عزمي وأخ زوجة عزمي ..لا تنسي ذلك .

قال : هذا ما ردده أمامي .

ـ كان الله في عون الجميع .

ـ شكرا مرة أخرى .. ونهضت مغادرة ، ووقف صاحبنا محييا ، وقد ضغط جرسا فدخل السكرتير فقال له : أوصلها إلى الباب يا سيدي الرائد .

كان منزل الأخ شريف في مدينة البركة يعج بالأنوار والأعلام والألوان والصياح ، كان الرجل يحتفل بتخرج ابنه الثاني يحيى من الجامعة فرع الآداب متخصصا في اللغة الفرنسية ، ولقد كان المجال أمامه مفتوحا للعمل في محطة التلفزيون الوطنية في قسم البرامج الفرنسية ، والذي شجعه على دراسة اللغة الفرنسية خاله العامل في تلك المحطة والحامل لنفس التخصص ، بل تلقى الشاب وهو في السنة الأخيرة للدراسة عرضا للدراسة في فرنسا للحصول على الدراسات العليا وفي أشهر جامعتها السوربون ، أما الابن الأول فكان يدرس في كلية الطب ولم يتخرج بعد ، فالطب يحتاج لسنوات أكثر من الآداب ، وكانت الجدة حسنة تجلس في الحفل كالعروس بين النساء من قريبات وجيران ، وهي فرحة وتغمرها السعادة والحبور، وهي تتودد لجاراتها القديمات من نساء حي العمال ، ولأخواتها وبناتهن ولقريبات وأخوات زوجها ياسر، وكانت تهمس في أذن أخت زوجها التي كانت تجاورها في البيت القديم ، وتستعين بها لرعاية شقيقها عندما تذهب لعمل ما : كنت أتمنى أن يشاركنا هذه السعادة أخوك ياسر رحمه الله .. لكنه سبقنا إلى رحمة الله .

تساقطت دمعات على خد الأخت وهي تقول : يا ليت !.. لكن كان الموت رحمة الله له .. ما عند الله خير لعباده .

كان شريف رغم المنصب العسكري الذي ارتقى إليه يصل الرحم خالاته وعماته وأعمامه وأخواله وبعض جيرانهم ، ويشارك الناس أفراحهم وأتراحهم كلما تيسر الأمر له ، وإن لم

يستطع بنفسه كان يرسل أمه ، ومرات يرسل معها زوجه ، فالواجبات الاجتماعية كان يجب المحافظة عليها قدر المستطاع ، ويراها من الأعمال الموروثة والطيبة ولا يجب التهاون بها ، وعوّد أبناءه على ذلك .

وهذه الحفلة قام بها رغبة لأمه ولزوجه وبعد تشاور قبل فعل هذا الحفل ، وتم تزيين البيت بالأنوار ودعوة الناس إلى حديقة بيته الكبيرة .. وتم تقديم الطعام والشراب الطيب للناس .. والشاي والقهوة .. وكان شريف يستقبل زواره من الضباط في الجيش والشـرطة والطيران ويرحب بهم أحسن الترحيب .. وكانوا يحيون ليلة من العمر .. فالفرح والسعادة لحظات تعبر في حياتهم يكسبونها من مشاكلهم وأشغالهم في الصراع في هذه الدنيا من أجل التقدم والتطور والمستقبل .. وبعد نصف الليل بساعة انتهى الحفل بنجاح يحيى .. ثم قام العمال المشرفون على الحفل بتنظيف المكان ، وسحب المقاعد وإنزال الأعلام والرايات ، ومع بواكير الفجر اختفى كل شيء كأن لم يكن هنا سهرة واحتفال .. وبعد انصراف العمال دخل العميد إلى حجرته لعله ينام ساعة أو ساعات ؛ ولكنه لم يكد يخلع ثيابه التي كان يستقبل بها ضيوفه حتى ارتفع صوت الأذان في المسجد القريب مناديا لصلاة الفجر .. فاستعد لذلك ، وانطلق لصلاة الجماعة كعادته ولما دخل المسجد وجد أبناءه الثلاثة في صحن المسجد ينتظرون إقامة الصلاة فقال لنفسه : الحمد لله الذي وفقني لتربية هؤلاء الشباب .. ورحم الله من فقدنا من الأبناء .

هو فقدهم أثناء فترة الحمل ، لم يفقدهم بعد الولادة ، وأحس أنه قام بواجبه نحو أبنائه بتوفيق وفضل من الله ﷻ .

بكاء الأم

دخل شريف مساء ذات يوم حجرة أمه داعيا لها إلى طعام العشاء ، ففوجئ بها تبكي وتتنهد فاستغرب وقال قلقا : أمي ما يبكيك ؟!

مسحت الدموع التي أبت الانقطاع وقالت من خلالها : أهلا بك يا شريف يا قرة العين .. تذكرت أباك المسكين رحمه الله .. لو قدرت له الحياة لهذا الحين لرأى ما نحن فيه من نعيم الدنيا وتذكرت أخاك العاق ..

همس شريف متأثرا : رحم الله أبي الرحمة الواسعة .. ما عند الله ﷻ هو الخير كله .. ونعيم الدنيا زائل ومخلوط بالمنغصات والآلام يا أمي .. لا تحزني يا أمي .. دائما الخيرة فيما يختار الله لنا آلاف الناس إن لم يكن ملايين يموتون وهم فقراء.. هذه سنة الله في خلقه.. يولدون فقراء ويهلكون فقراء .. الله هو الذي يقول {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} .. وأما الأخ قسيم أنت تعلمين يا أمي كم سعيت للقياه! .. وقد تمنيت أن يكون بيننا .. توقعت أن يعود من السجن لنا للحضن الدافئ .. حضن أمه ..وكنت أنوي شراء بيت له وتزويجه من امرأة صالحة .. ليبدأ حياة جديدة ..وأن يكون قد استفاد من حياة السجن والحبس .. لكنه كما أخبرتك سابقا خرج من الوطن كله ، هاجر لقبرص مع امرأة روسية أو أرملة روسية .

عادت الأم تتنهد وتمسح العينين وتقول : رغبت برؤيته وأن أعانقه قبل موتي .. أحس أن أجلي قد دنا .. وانتهت رسالتي في هذه الحياة ..

ـ أطال الله بقاءك يا أمي .. حتى تقر عينك برؤية قسيم وأحفاده إن شاء الله .. والأمر لله من قبل ومن بعد .. الهم الذي عندك عليه هو عندي .. هو أخي يا أمي .. ونحن فتحنا له صدرنا منذ عهد بعيد .. ولكنه اختار الدرب المؤلم درب العذاب والشقاء .. ماذا يفعل في قبرص؟

ـ رضي الله عنك يا ولدي الغالي .. هيا بنا إلى الطعام فإنهم ينتظروننا .. كنت أنت العوض يا ولدي أنت البر ..أنت العزيز الغالي على قلب أمك .. مات أبوك وهو سعيد بنجاحك وكبر عقلك ومعرفتك لطريقك .. مات وهو راض عليك كل الرضا .. وكان يقول إذا مت مت

وأنا مطمئن عليك يا حسنة .. فولدك شريف رجل بمعنى الكلمة .. احتضن شريف أمه وذرفت الدموع وهو يقول : أنتم كل دنياي يا أمي .. لقد كان الألم يعتصر قلبي كلما أنظر لأبي الإنسان مسكين عندما يصبح ضعيفا لا حول له ولا قوة .. لولا الإيمان لهلكنا .

ـ سامحني يا بني على لحظات الضعف التي تنتابني ..

ـ ابكي يا أمي كما تشائين .. لو تدمع عيناي على أخي لتركتها تهطل الدمع ليل نهار .. السعادة الكاملة لا تتم إلا إذا اجتمع شملنا بأخي قسيم .. هداه الله .

قالت : رفع الله من مقامك يا ولدي .

ـ بارك الله فيك يا أمي! .. لا تظني أن منصبي يجعلني استعر من عودة قسيم إلينا .. أبدا يا أمي وربما قريبا أحال على التقاعد .. فأنا على وشك إنهاء ثلاثين سنة خدمة في القوات المسلحة .. فقد حان لي أن أستريح فلكل بداية نهاية .. الحمد لله الذي وفقنا وأتم عليّ النعم بالزواج والأولاد والأم العظيمة والزوجة الطيبة .. إنني سعيد بكم جميعا .

ـ ما أخبار والدة زوجك ؟

ـ هي بخير ، وستخرج قريبا من المستشفى ، تعرضت لجلطة قلبية خفيفة .. أو بداية جلطة .. وهي بخير وتسلم عليك وتطلب الدعاء لها منك ومن الأولاد .

ـ وهبها الله الصحة والشفاء .



قلب الأم

كان الأخ شريف يدرك إدراكا تاما أن الأم مهما جفاها ابنها وعقها تُكن له الحب والشوق ، هذه هي الفطرة التي فطرها الله ﷻ عليها {فِطْرَتَ اللهِّ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } وكيف بقسيم وهو ابنها البكر وأول فرحة لها بالأمومة والنضج ؟.. وكان حزينا لضياع أخيه ، ومن ترديه في مهاوي الفسق والشهوات المحرمة ، ومن سلوكه السيئ لنفسه أولا ولوالديه ثانيا .. لقد كان من أعماق قلبه يتمنى أن ترى الأم ولدها القاسي القلب قبل مغادرتها الحياة من فوق الأرض

وكلكم يذكر الجهود التي بذلها لزيارة أخيه في السجن واللقاء به أو بأمه ، وذاك القسيم يرفض بإصرار وعناد ، وخشي أن ينفذ تهديده بالانتحار إن اقتربا من السجن عنوة .

كان قسيم ياسر ينظر إليهما كأنهما سبب شقاوته ومعانته وفجوره ، غير مبال بعاطفة أمه نحوه فهم اجتهدوا وسعوا لمساعدته وانتشاله من أوحال الضياع ، وهو غير حان لأمه ، وغير عابئ بحنان الأم .

هو الذي ترك مدينة والديه راحلا للعاصمة باختياره طامعا بفرص عمل أكثر ومال أكثر.. مع أنه كان بإمكانه العمل سائقا عند أصحاب السيارات وخطوط النقل في البركة .. فأمه هي التي دعمته بالمال المتوفر لديها ليتعلم القيادة بعد فشله في احتراف أي حرفة .

هذا كله أيضا يتذكره شريف بينه وبين نفسه ، ويتعجب من قسوة قسيم ، وكان يتوقع أن يطلب لقياهم وهو يقبع في السجن ، ويفتح معهم صفحة جديدة وحياة جديدة .. وكان يمني نفسه أن يقدم له شيئا ماديا يعيد الصفاء لأمه المهمومة عليه ..عادت به الذكريات لأيام مرض والده وتذرع قسيم بضعف أبيه ورغبته بترك المدرسة ؛ ليكون سيد البيت والمعيل للأسرة .. فعمل نجارا .. وعمل حدادا .. وعمل في تركيب المواسير التمديدات الصحية ..والتدفئة المركزية ومع البنائين .. لم يعرف الاستقرار في مهنة .. ولا حتى مع الباعة .. حتى حصل على رخصة القيادة .. فظن أنه أصبح قائد طائرة بوينج .. ثم هاجر لعاصمة الأحلام .. ولم يرسل شيئا من المال للأسرة القلقة بحجج كثيرة ..ومع ذلك كان يستقبل ويرحب به كأن شيئا لم يحدث وليس

مطلوبا منه شيء .. أين عداوتنا له التي يزعم ؟! .. رفضي لأموال الزكاة لأن حاجتنا إليها انتهت.. ولكن قلب الأم مليء بالعطف والحنان والحب .. مهما فعل الابن .. قد يبدو قاسيا في لحظات معينة ولكنها لحظات خاطفة قصيرة .. وتجلت قسوته عند وفاة أبيه لم يحن لأمه ويشفق عليها تلك الساعة .. يا إلهي رحماك !

وأنا مهما أساء لي لا يهم ، أما أمه وأبوه لا يصح .. يا الله ارحمنا ! .. أبي مات بحسرة .. كان يسأل عنه كلما عاد لوعيه في أيامه الأخيرة .. هل جاء العاق ؟! هل أتى العاق ؟! ..كان يرغب برؤيته وهو يغادر الدنيا .. يراه وهو يحتضر.. ورغم الرسائل التي كانت ترسل إليه من أبناء الحي والأقارب .. كان لا يعيرها أدنى اهتمام ..وها هي الحبيبة التي أحببتها الحب الكبير تردد نفس الأمنيات .. يا الهي لا تحرمها من رؤية الولد العاق قبل مغادرتها دنيا الأحياء .. سأعاود الاتصال بالزميل دبور مدير البحث الجنائي .. يجب يا قسيم أن تأتي لترى أمك .. لتعانقك يا قاسي القلب .. أنت زعلان مني ..أمك لماذا تزعل منها ؟! وتسبب لها كل هذا الألم والحزن .. يريد المجرم أن يرتكب جريمته وبوائقه ولا يعاتبه أحد .. وينكر عليه تلك الأفعال .. يريد أن يقتل ولا يعاقب بالسجن أو الإعدام

بعدما تذكر هذه الصور والمشاهد التي مرت بهم دخل مكتبه واتصل بالضابط دبور مذكرا له بنفسه ، فأكد له الرجل أنه لم ينسه ، وما زال يذكره ، وما زال يتابع وعده، وسوف يعاود الكرة الليلة بالحديث مع زملائه في المطار ، وحتى مع نقاط العبور البرية والبحرية ، فشكره شريف وقال : إنها رغبة أمي العجوز أن ترى ابنها قبل الموت .. واعلم يا صديقي أنني أكون أسعد إنسان لو تحققت هذه الرغبة لنا .. لها أكثر من عشرين سنة لم تره .. ابن عاق جاحد .. لا يعرف ما في قلب الأمهات .

من اجل الأم

كل متابعات العميد دبور كانت نتيجتها سلبية ، فمنذ غادر الرجل البلاد جوا لم يعد إليها بعد ووعد العميد شريفا بالاستمرار في الانتظار ، ووضع اسمه على قائمة المطلوبين لمراجعة الأمن عند دخولهم البلاد ، وتسمي العامة هذه القائمة بالقائمة السوداء ، وذهب شريف بزيارة خاصة لزميله في دائرة البحث والتحري الكبرى ليشكره على تعاونه ومساعدته ، ومن ثم قص عليه بعض قصته مع شقيقه قسيم .

واتفق شريف على دعوة زميله إلى غداء في أحد صالات الفنادق الكبيرة ، ورفض اعتذار الرجل وأصر على ذلك الغداء ، وغادر مبنى الدائرة آملا بسماع أخبار من جزيرة قبرص ، فمدير الدائرة وعده بالاتصال ببعض زملائه في قبرص ، ووفى بوعده فاتصل بالعميد شريف وأخبره أن أخاه قد انتقل إلى اليونان ، وأنه قضى أسبوعين في قبرص فقط ، فاعتذر شريف عن إشغاله صديقه بقضية خاصة، فرد العميد دبور : أتخيل أنني أقدم خدمة لأمي يا أبا ياسر .. الأم غالية عندنا .. فتحياتي لأمك وسلم عليها سلاما خاصا مني .. والأمر بيد الله ﷻ وأرجو أن يعود الرجل وما زالت أمك على قيد الحياة وبصحة جيدة إن شاء الله .

فسر شريف لهذه الكلمات وقال : إنني عاجز عن شكرك يا سيدي العميد

وبعد هذا الاتصال بأسابيع اتصل العميد دبور ليلا مخبرا السيد شريفا بدخول أخيه قسيم قبل دقائق البلاد ، وأنه سمح لشرطة المطار بعدم توقيفه ، وأنه غير مطلوب للبوليس وأن المطلوب مراقبته فقط ، وأخبره أنه قادم من إيطاليا وبصحبة تلك المرأة الأجنبية، وأن رجالنا شاهدوه يركب سيارة أجرة لقلب العاصمة ، ولسوف نعرف مكانه فيها بعد .

ـ شكرا لكم جميعا .. عسى أن نعرف أين استقر ؟ ولسوف أذهب لبيته وأتواجه معه لعله يلين ويرضى بزيارة أمه قبل فوات الأوان .

وفي اليوم التالي لدخول الرجل البلد ، وبعدما قام شريف ببعض واجبات العمل وانتصف النهار تحدث مع ذلك البقال الذي وصله بأخيه يوما .. ولكن البقال خيب ظنه وأخبره أنه منذ

زمن طويل لم يره وعلم أنه مسافر .. فأدرك شريف بأن أخاه لم يمارس مهنته بعد .. وأن عليه أن ينتظر أياما لعله يظهر قبل أن يلجأ للشرطة من جديد .. وتساءل من جديد : من هذه المرأة التي صحبها لأوروبا وعاد معها ؟! هل تزوجها ؟ لابد أنها من غواني البلد .. فالطيور على أشكالها تقع ..أليس هكذا يقول هذا المثل ؟ .. سنعيد الكرة مع هذا البقال .. وأعاد الكرة خلال الأسبوع عدة مرات .. والرجل يؤكد له عدم عودته للعمل على خط السير .. وأن رفاق الخط يؤكدون عدم مجيئه من السفر

فوضع السماعة بحدة وهو يقول : هل يرفض الحديث معي هذا اللعين ؟ فيطلب من البقال إنكار وجوده .. سنعود لرجال الشرطة هم الأقدر على الإجابة .

من أجلك يا أمي سأفعل كل شيء .. ولن اهتم بهذه النجوم المعلقة على كتفيّ .



مهمة خارجية

وبينما السيد شريف يسعى ويجد للقاء أخيه العائد من أوروبا كلفته القيادة بالسفر في رحلة مشتريات للقوات العسكرية ، وبزيارة معارض عسكرية في أنحاء متفرقة من العالم ، وذلك ضمن لجنة شكلت لهذا الغرض ، وهذه اللجنة أحيانا تستغرق شهورا وهي تدور في المعارض العسكرية ، وتتجول في مصانع الأسلحة العالمية لعقد الصفقات ، وتتكون اللجنة من عدد كبير ومتنوع من الضباط للشراء وشحن الصفقات للبلاد .. فرافق الرجل اللجنة مندوبا عن سلاح الهندسة العسكرية .. والرجل متفان في خدمة وطنه وجيشه، ومنفذا لكل ما يطلب منه بدون تردد .. ربما تكون هذه المرة الوحيدة التي تمنى فيها أن لا يذهب في هذه الرحلة الطويلة للمشتريات والتجوال .. وفكر في الاعتذار ؛ ولكنه لم يعتد على هذا التخلف والاعتذار عن أي مهمة توكل إليه .. ولكن حلمه بأن ترى أمه أخاه العاق كان يلح عليه بالاعتذار .. وأمام الواجب الوظيفي ورغبة قائد الجيش على سفره .. رضي بمرافقة البعثة العسكرية ، ولم يبدُ عليه أي اعتراض، وإن بدا مهموما وقلقا على غير العادة التي يعرفه عليها كبار الضباط مما دفعهم عن الاستفسار عن سبب هذا الهم والحزن .. فتظاهر بكبر السن وضعف أمه وخشيته من موتها أثناء هذه الرحلة .

هم يمرون على المعارض التي دعوا إليها ، وقد يعقدون صفقات شراء بعض الأسلحة التي راقت لهم وهم يزورون أيضا مصانع لعقد صفقات توريد أسلحة وقطع غيار .. واستمر هذا العمل ثلاث أسابيع على الأقل في كل دولة قبل أن ينتقلوا لغيرها .. وربما يسبق بعضهم بعضا لمشاهدة عرض في أحد المعارض قبل إغلاقه مع أن معارض الأسلحة ربما تطول مدة العرض فيها عن المعارض الأخرى كالكتب والثياب وغير ذلك .

لقد كانت هذه الرحلة من أصعب الرحلات على نفسية صديقنا شريف خاصة .. ففي الرحلات السابقة كان يصاب بالفرح والسعادة ، وكان أحيانا يسعى إليها بنفسه .. ففي هذه البعثات تغيير روتين .. سياحة في الأرض .. فائدة مالية خاصة ..فيستمتع المكلف بمشاهدة

بلدان العالم وعادات الشعوب المثيرة للدهشة .. ومن عادة السائح التردد على الأماكن المبهجة للنفوس .. ويرون ما صنعه الإنسان على مدى التاريخ ويرون الأنهار العظيمة التي تخترق المدن فيعجبون من صنعة الباري ، ويلحظون التنويع البشـري في ألوان وصور الناس والمخلوقات ، واختلاف الألسن، وكيف يقف الإنسان كالأخرس ليفهم الآخرين بلغة الإشارة .. أو استخدام لغة وسيطة ..ألم يقل الله تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ } [الروم: ٢٢]

عمل غير مريح

وبينما الرجل يتنقل في بلدان العالم مع الفريق بحثا عن جديد الأسلحة أخبره ابنه ياسر عبر الاتصال المتواصل بينهم أن أحد الضباط اتصل بالبيت يسأل عنه ويرغب بالحديث معه، فأخبرته أم ياسر بأنه غير موجود ، ولم تحدثه بسفره ، ولما عاود الضابط الاتصال رد عليه ياسر ، ولما علم بأنه مدير البحث الجنائي في عاصمة الدولة أعلمه بسفر الوالد في مهمة عسكرية خارج البلاد .

لما علم شريف بهذا الاتصال من العميد دبور أعلمهم أنه صاحب له ، وأعلمهم أنه سيتحدث معه ، فاتصل بمديرية البحث الجنائي الرقم المعروف لكل مطالع ومهتم ، فهو ينشـر عادة في الصحف المحلية وأدلة الهاتف .. فهو رقم غير سري .. فرد عليه عامل السنترال (المقسم) فطلب العميد دبور بعدما عرف بنفسه ، فلم يرد أحد من مكتبه ، فحول الاتصال لمساعد المدير الذي رحب بالعميد شريف ، وأعلمه أن العميد دبورا في مهمة .. وأنهى الاتصال ووعد باتصال آخر في وضح النهار .

وقد كان على أعضاء اللجنة في الصباح التالي الانتقال إلى بلد جديد لذلك تأخر الاتصال بالعميد دبور بعض الوقت .

وكان الاتصال كما هو معلوم لنا سيكون حول قسيم شقيق شريف ، فبعد التحية والمجاملات التقليدية أخبره العميد أن شقيقه على وشك فتح وإنشاء نادي ليلي ، وأن سفره لأوروبا كان

للتعاقد مع بعض بنات الهوى للعمل في النادي .. وعلم منه أن السيد قسيما سيكون مدير النادي ومعه شريكته نبيلة زوف ، وهي امرأة أجنبية كانت متزوجة من رجل عربي كان يدرس في بلادهم ، ولما عاد عادت معه ، ثم ترملت عنه .. ولما خرج قسيم من السجن زارها عدة مرات فهي معرفة قديمة له، ويعرف زوجها قبل جريمته ومكثه في السجن .. وهي امرأة بغي خلاصة الكلام .

فقال شريف : هي إذن ممولة النادي الليلي .

ـ مع احترامي لشخصك الفاضل .. فهي تعيش معه كزوجة أو عشيقة مثل الأجانب الذين نسمع عنهم .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ..وماذا سنجني من علاقة شبابنا بالأجانب غير التقليد الأعمى والانحلال ؟!.. أشكرك يا سيدي الكريم على هذه المعلومات التي لا شك أنك تعبت للحصول عليها .. فالنوادي الليلة اليوم من علامات الانفتاح والحداثة في بلادنا .. والخمور اليوم مباحة في أكثر بلاد المسلمين .

ـ نعم يا صديقي.. فالدول اليوم تسمح قوانينها بفتح مثل هذه الأماكن .. والهدف المعلن منها الأجانب ..السياح وسائقو الشاحنات الترانزيت .. ليرفهوا عن أنفسهم ويقضوا شهواتهم الجنسية .. ولكن للأسف أكثر زبائنها من أبناء البلد .. فروادها الشباب الفاسد .

ـ أصبحت بلادنا كسائر دول العالم ..في الترفيه والمجون .. أشكرك أيها الأخ العزيز عندما نعود سأتحدث معك .. وكلي ضيق وألم من رؤية هذا الإنسان وكيف سألاقي قوادا؟! .. مأساة يا سيدي ! كنت آمل إصلاحه وتوبته بعد قضاء أكثر من عشر سنوات في السجن ، مهنة عجيبة في هذه الدنيا.. بيوت دعارة تسمى نوادي ليلية .. أهناك نوادي نهارية ؟!

ـ لو أنك مثلنا في الشـرطة لرأيت وسمعت العجب العجاب .. قضايا أخلاقية كثيرة ومرعبة الانحلال يزداد رغم الجهود التي تبذل للتخفيف والتقليل منه ، وليس القضاء عليه . ووضع السماعة وهو يتذكر عبير وفوازا وعزميا.

الحزن

عندما تخلى شريف عن السماعة صدم أو شعر بصدمة لهول ما سمع .. أخوه أصبح مدير نادي أو ملهى ليلي .. خمار .. بيت للزنا والخمر .. تمنى لو تبكي عيناه كما يبكي قلبه وهمس : يا للعار!.. يا للخزي!.. أصبح أخي قوادا يدير بيتا للدعارة ..إنا لله وإنا إليه راجعون ..أعلم أن أناسا اليوم في بلاد المسلمين لا يستهجنون ذلك .. ويرون ذلك تجارة ومالا وربحا .. بل هناك أناس تستكثر على الصالحين بناء المساجد والمعابد .. إنما هو التقليد للغرب على قدم وساق ، ولا أحد يمنع ذلك التقليد الأعمى بحجة الحرية الفردية .. بحجة الترويج للسياحة والاقتصاد .. أعلم أننا شعوب غارقة في الاستعمار .. وتنهد بحسرة وعمق وقال لنفسه : وأعلم أن حالنا اليوم لا يسر صديق ولا عدو .. دور البغاء في عرض البلاد وطولها

وعاد يهمس بعد صمت وصفون : الدين اليوم في المعابد فقط .. في المجلات الإسلامية والصحف الإسلامية.. في المعاهد الدينية ومدارس القرآن فقط ..ألا نقرأ في الجرائد قصصا يشيب لها الولدان عن التحلل والفجور ؟! ..لماذا المتغربون الأوائل لم يأتونا بخير الحضارة الأوروبية ؟! .. العلم .. المصانع ..السلاح القوي .. الطائرات .. أشياء كثيرة كان عليهم أن يعتنوا بها ..احضروا لنا الترفيه والسخافة .. وينتشر السفه بقوة وسرعة ..أخي ابن أمي وأبي يحترف البغاء والزنا .. ماذا أقول لأمي ؟!.. ابنك أصبح زعيم ملهى دعارة .. يأخذ راتبه ومصروفه من وراء الفاجرات .. وهذا كسب خبيث .. يا إلهي لو تعلم أمي الشريفة بهذا الانحدار لقسيم لخرت هالكة .. يا رب أعني على إخفاء هذا الأمر عنها.. تموت خير لها أن ترى ولدها قوادا .. سافر ليجلب بنات هوى لناديه .. لا يوجد في بلادنا غانيات وراقصات وساقطات .. ربما الأجنبيات يجلبن الزبائن أكثر .. لهذا الماخور .. وهذا بالتأكيد ليس أول مكان لمثل هذه القبائح .

يا إلهي .. هل يمكن إصلاح هذا الإنسان ؟ السجن خمسة عشر عاما لم تردعه عن الفجور وتعيده للدين والإيمان ..هل طبع على قلبه ؟! ..عار لكل العائلة .. وأي عار؟ يا الله .. ليس لنا

خلاص من هذا العار إلا بموته .. بموته ..!! يجب أن يموت هذا الإنسان القذر .. المجرم اللعين.. يموت.. يقتل .. هل نغمس أيدينا بدمه ؟.. لا .. لا .. لا.. إلا القتل .. يقتل الأخ أخاه .. ويح قلبي .. أقول لأمي ابنك أصبح كذا وكذا .. أقول لأولادي عمكم كذا وكذا .. لو كنا في بلاد ضالة .. بلاد لا دين فيها .. لهان الأمر .. فليس بعد الكفر ذنب .. كيف النجاة من هذه الفضيحة ؟ من هذا العار ؟ .. لو كنت من عائلة فواز وعزمي لربما هان الأمر عليّ .. ونظرت إليه نظرة تجارية .. مشروع يدر دخلا .. ولكن هل يقبلون هم مثل هذا العمل ؟ ماذا سيقول عنا أهل البركة ؟!..نحن لا دخل لنا ، نحن ناس أشراف .. وقسيم هجرنا منذ عشرات السنين .. لكنه يبقى أخي.. ولا يهمنا كلام الناس .. ولكن سمعة العائلة ..المهم أمي ماذا سيصيبها لو علمت بمصير ابنها العاق ؟ .. لقد بدأ بتدمير حياته منذ عهد بعيد .. ونحن ضعفاء ماديا نأكل الخبز من إحسان الأغنياء والقادرين ..ألم يكن يرافق الشباب الفاسد إلى مدارس البنات يترصدونهن للعبث ؟!..ويكتب لهن رسائل الحب .. أي حب ؟ الحب الكاذب .. وكان يطير من الفرح عندما تخاطبه فتاة وتسير معه في الشارع .. أو تكتب له رسالة كنا نعتبر ذلك زمن مراهقة .. يومها بدأ فساد قسيم .. نعرف ونسمع أولاد الجيران يتحدثون عنه ونسكت ونعتبر ذلك فعل جهال .. هذا كان أول الفساد .. ولكن ماذا كان بوسع أبي أن يفعل؟ أبي العاجز الضعيف الذي يعيش على الصدقة .. أمي العاملة في بيوت الأغنياء.. ماذا ستصنع لرجل ظن أنه سيد العائلة وحامل مسؤوليتها ؟! .. وأنا .. الابن الصغير .. لا يجوز لي التدخل في حياة الكبير .. عليّ بالصمت.. ألم يتطور الأمر ويعاكس بنات الجيران وبعض بنات الأقارب؟! ..ألم تشكو بعض الأمهات أفعال قسيم لأمي ؟ ويعتذرون بالمراهقة والجهل والصغر وغدا يكبر ويعقل .. فهذه هي نتائج الجهل والمراهقة؟.. ألم يكن داعرا وتزوج من امرأة منحرفة؟.. ألم يتخلَ عن والديه ؟.. ألم يقتل ويسجن ؟.. فالملهى الليلي هو العمل المناسب واللائق به ..

كيف الخلاص ؟! ..الموت.. لا خلاص لنا من هذه الكارثة إلا بالموت .. أعصابنا لا تحتمل

مثل هكذا حياة ..نحن لسنا أبناء أوروبا ..

وبعد لحظات عاد يردد : أنت تكبر الموضوع يا شريف ..ما أنتم طول عمركم لا تسألون عنه.. لماذا أنت مهتم به اليوم ؟.. لماذا أنت مهتم بما يصنع ؟.. ليفعل ما يشاء ..لا داعي أن ترى أمك ابنها العاق.. بعد كل هذه السنين .. فلتمض الحياة كما مضت في السابق ..لا تزر وزارة وزر أخرى أين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! أين التعاون على البر والتقوى ؟! القضية أعقد من ذلك.. هو قد رفض لقاءنا وهو في زنازين السجن .. سلم أمرك لمولاك وادع لأخيك بالتوبة والهداية والنجاة من عقاب الله .. أيكفي هذا ؟ ماذا ستفعل ؟! ..

أمضى صاحبنا شريف عددا من الليالي مهموم الفكر ، ويعصره الألم والحزن على سقوط أخيه السقوط الذريع في الفجور والرذيلة.. وتتنازعه الأفكار المعتمة شرقا وغربا ، ويقارن في بعض الأحيان بين عادات أهل الشرق وأهل الغرب ..كان منزعجا لوضع أخيه .. كان يأمل أن ينتشله بعد ضياع تلك السنوات .. وأن يجعله إنسانا محترما فاضلا يمشي وهو مرفوع الهامة .. فقال : نحن أبناء حضارة عريقة .. تحرم الفاحشة والفواحش ما ظهر وما بطن .. في بلاد الروس ربما مثل هذه الأعمال تجد قبولا بين بعض فئات المجتمع .. ما الحل للخروج من هذه الورطة ؟ .. لقد تأخرنا في علاج الأخ قسيم .. استفحل الداء .. ماذا كان بوسعي أن أصنع له وأنا الأخ الأصغر.. وأب مشلول وأم ضعيفة تسعى لجلب الدواء لأب جريح ؟.. ماذا تفعل لشاب متمرد ولا يحسب حساب أحد ؟ .. شاب ناقم على المجتمع وعلى الأسرة .. وأنا قصرت كثيرا في البحث عنه .. لقد انتهى من حياتنا هكذا اعتبرناه .. ولولا لقائي بسمير .. ما علمت شيئا عن سجن أخي .. ولو كنا معه في أول القضية ربما وجدنا منه صفحا وندما.. تأخرنا.. لماذا لم يكتب لنا ؟ أو يتصل بنا ؟ ..كان يسير إلى الهاوية ونحن غير مكترثين صممنا آذننا عن سماع أخباره .. لقد كنا مسرورين ببعده عنا وإن لم نصرح بذلك.. علنا كنا نخشى من أعماله الخبيثة وسمعته السيئة .. كنت في مطلع الشباب والاهتمام بأبي ورعايته وأمي الأهم عندي.. نسيت قسيما أثناء قيامي بهذه المهام .. الحل أن نسلم الأمر لله وحده .. كنت أرغب بأن أساعده للزواج

من جديد .. وشراء بيت له ولزوجه .. وكنت أحلم أن أفتح له متجرا قرب بيته الجديد .. محل شريف ونظيف.. عليّ بمقابلته وعرض هذه الأشياء عليه .. نعم عليّ أن أسعى إليه ولكنه صديق لامرأة أجنبية يعيش معها كزوج ..وها هي ستفتح له ماخورا !.. وهذا العمل يستهويه عليّ أن أحاول .. أرسل له شخصا شفيعا .. ومن يكون هذا الشفيع بيننا ؟ إني أجهل حياة أخي جهلا تاما .

ومن كثرة الهم والضيق الذي أحاط به من سوء ما سمع عن مهنة أخيه أحس بآلام في صدره مما اضطر اللجنة أن تدخله أحد المستشفيات للمراقبة خوفا من التعرض لجلطة قلبية ..ورغم دخوله المشفى ظل الغم مسيطرا عليه ، بل تدهورت صحته بسبب تفكيره الطويل في القضية ، وترسخ لديه الاعتقاد أنه قصر كثيرا في حق أخيه .. كان عليه أن لا يقاطعه .. ولا يهجره .. والتغافل عنه .. كان يلزمه متابعته رغم زواجه الغريب والشاذ في نظرهم .. وأنه كان ضعيفا وحده أمام أهل تلك المرأة .. وأحس بالندم ولام نفسه .. بل لام أمه.. فقد كان عليها أن تدفعه لإنقاذ أخيه .. فقال صارخا في قلبه : كيف صارت الأمور؟!.. كانت أمي تخشى عليّ الغضب نحوها لكرهي لقسيم .. هل أخطأنا في حقه فعلا ؟ أم أني أضخم القضية ؟.. الظروف التي أحاطت بنا يومذاك جعلتنا نركب رؤوسنا ..وسمعته السيئة جعلتنا نتخلى عنه ونهمله ..

منع الرجل من الاتصال ببلده ، عملوا عليه عزل حتى يسترد الصحة .. فقام الرفاق بالرد على اتصالات الأسرة ..وأخبروهم أنه مريض معلول وطمأنوهم على صحته ..

وبينما شريف يعاني في المستشفى ، وقد ظهرت عليه أعراض الجلطة القلبية .. من الألم الشديد في الصدر .. والتعرق والإجهاد .. فقد أرهقه التفكير أو الندم .



كان هناك في النادي الليلي الذي يديره قسيم وعشيقته زوف تجري السهرات الماجنة ، وتعاقر

الخمور حسب رغبات الزبائن والرواد وحسب ما يملكون من مال .. وكان أصحاب اللذة والفسق يترددون ويلجئون إلى هذه الأماكن لقضاء شهواتهم الجنسية ، ويشـربون الخمور .. وبنات الهوى تملأ النادي .. وأغلب رواد الملهى والنادي سائقو الشاحنات الكبيرة الذين يمرون من البلاد في طريقهم لبلادهم فيتركون سيارتهم في أطراف المدينة ويدخلونها للسكر والعربدة فقد كان مكان اختيار الملهى قريبا من محطات دخول السيارات الكبيرة .. وكذلك الشباب الفاسد من معارف قسيم يرتادون المكان .. وزوف الروسية بائعة الهوى معروفة لطالبي اللذة قبل لقائها بقسيم.

وذات ليلة جاء طالب هوى ، ودخل إحدى غرف الملهى لقضاء الشهوة .. وقاده أحد خدم الملهى إلى حجرة ليمارس الزنا مع إحدى البغايا ..ولما أضاء الحجرة .. لينظر الفتاة المحظوظ بمضاجعتها هذه الليلة .. طار صوابه وصحا من سكره .. فقد وجد أن الفتاة شقيقته.. وهي صاحت دهشة ورعبا كذلك .. فقال بدون وعي : ماذا تفعلين هنا؟!

ولم ترد عليه وظلت صامتة ؛ لأنها مستغربة لسؤاله في مثل هذا المكان ، فأعاد السؤال صارخا فقالت بوقاحة : الذي تفعله أنت ؟ ماذا يفعل الناس هنا ؟

أدرك أن سؤاله سؤال غبي فعاد يقول : ألك زمان تترددين على هذا الوكر؟

فردت بوقاحة الفاجرات : منذ أن فتحه صاحبك قسيم .

ـ إنك مجرمة !

ـ أتحله لنفسك ولا تحله لي ؟!من أنت لتحاسبني ؟!..أنت وأنا سواء ..

ـ ألم أحذرك من ارتياد مثل هذا الأوكار ؟!

ـ أتنفق عليّ ؟!

ولبست ثيابها ، وحاولت الخروج ، ومنعها قائلا : بيننا حساب ، ودفعها بقوة فوقعت على الأرض وصرخت بأعلى صوتها ، فأسرع فتوات النادي مسرعين للحجرة ، ودفعوا الباب دون حياء وهم يصيحون : ماذا يجري هنا ؟

وكان الشاب الفاجر يصرخ وفي حالة هياج ، ويضـرب المرأة بكلتا يديه ، فأمسكوا به ، وأخرجوه ، وهم يضربونه بقوة باللكمات والصفعات ، حتى أتاهم المدير قائلا : مالك يا رجل لماذا تضرب تلك المرأة المسكينة ؟!.. أأنت جئت لتمتع شبابك أم جئت لتعارك النساء ؟

فصاح وهو يعتدل قائما ، وقد توقف الفتوات عن ضربه : يا مجرمون .. يا قسيم يا ملعون .. الملعونة إنها أختي!

ـ أختك يا للهول !.. هذه أختك ؟!

ـ أجل .

ساقه قسيم إلى غرفة خاصة بصحبة فتوات النادي ـ هؤلاء الفتوات يعملون في مثل هذه المواخير لإخراج الزبائن الذين لا يرغب بوجودهم ـ وأخذوا في تهدئته ، وأحضـر له قسيم قنينة خمرة فاخرة على حساب النادي ، وقدم له كأسا وقال : صدق أنني لا أعرف أنها أختك .. فتيات يطلبن العمل فنسمح لهن يا سيدي .. سأطردها وأحذرها من التردد علينا من أجلك هدئ أعصابك يا ابن الحلال .. لو كانت هذه أختي لتركتها تفعل ما تشاء ما دامت قد اختارت هذا الكار .. اذهبوا به إلى ... لينسى همه ويجدد نشاطه .

فصاح الشاب وقد أفرغ الشراب الذي قدم له في جوفه : أختي فاجرة .. أنا أختي فاجرة !!

فقال له أحد الشباب : هون عليك .. هي حرة مثلما أنت حر.. امرأة غير سائلة عن شرفها لماذا تغضب نفسك وتزعل ويحمر وجهك عليها ؟ .. هل نحن في جامع ؟!.. نحن في ملهى.. دعك منها وانس ما يسمونه الشرف والغيرة المزعومة.. وها هو المعلم سيطردها من هنا من أجل شواربك .. بس .. لكن دور الدعارة كثيرة يا زعيم ..

فقال قسيم معترضا : هذه ليست بيت دعارة .. يا رجل .. هذه خمارة .. من أجل سواد عيونه انتهى رزقها عندي .

فعاد الرجل يحملق في الوجوه المحدقة به ويقول : أختي زانية !

فقهقهة بعضهم وقال أحدهم : زانية !.. وهي آتية هنا تعمل ماذا ؟! .. تتعبد .. ما هو أنت

مثلها ، لا تكبر الموضوع .. ستطرد من هنا وستذهب لنادي آخر .. اشرب كأسك ..ومتع نفسك وانس غيرك .. ها هو المعلم سيخسر فتاة من أجلك .. فحيوا المعلم يا شباب .

فصاح الشاب وهو يقذف الكأس على الأرض بعد أن أفرغها في جوفه : أنا مجرم .. أنا نذل .

فسمع أحدهم يقول متهكما: أأنت لليوم لا تعرف أنك نذل وحقير وحثالة المجتمع ؟! كأنك لم تعرف نفسك لليوم .. فكما تحب أن تتلذذ على بنات الناس .. هناك من سيتلذذ على بناتك لا تكن أنانيا يا عم .

وأخذ السكارى بالقهقهة والضحك العالي ، وأخذوا يقرعون آذانه بالنكت والكلمات الجارحة ويتلذذون على مصيبته وذله.. حتى قال المعلم : هي (...) تنتظرك .. انس يا رجل

وأخذ الشاب كأسا من أحد الرجال وشربها على جرعة واحدة ، ثم قذفها على الأرض بقوة مثل السابقة ، وغادر المكان يترنح وساخطا ؛ كأنه يكتشف عهر أخته لأول مرة .. أو أنها تزني أول مرة .. وإنما جاءت لهذا الملهى الليلي بعد أن ملّت من الزنا إذا كان هناك ملال .. بنات الليل يتنقلن من رجل فاسق لآخر من أجل المال .. ورغم وجود الأمراض الجنسية الكثيرة فهن لا يبالين لأنهن استمرأن هذا العمل القذر والتجارة بفروجهن

وفي اليوم التالي عاد هذا الشاب إلى النادي ، وسأل عن أخته ، فأخبره المعلم قسيم أنه صرفها ، وطلب منها أن تبحث عن مكان آخر .

ويبدو أن الشاب لم يصدق قسيما ، فأخذ يدخل حجر البغايا حجرة حجرة حتى صاح فيه المعلم : هذه وقاحة وقلة أدب ..أنا ساكت عليك من ليلة أمس .. وأنا راعيت شعورك .. وأنت عامل نفسك شريف .. وأنت تعلم أن هذه الأماكن لا يرتادها الأشراف .. اسمع المحل في خدمتك وإلا سأدع الرجال يرمونك في الشارع .

فنظر الرجل إليه لحظات وكان يقف أمامه متحديا .. ونظر إلى زوجة قسيم التي كانت تجلس خلف طاولة تدخن السيجار .. وكان بعض الرجال يقفون حولهم يتابعون المهزلة كما يقولون.

وابتعد الشاب الناقم خطوات عن المعلم قسيم ، وخلع معطفه وطرحه أرضا وهم ينظرون إليه

بدهشة، ولا يدرون لماذا يفعل ذلك؟! .. ولكنهم شاهدوه يخرج رشاشا ويطلقه عليهم قبل أن يدركوا الأمر .. وعلا صوت الرصاص والصـراخ والركض وظل الرجل يطلق الرصاص والصياح حتى انتهى مخزن الرصاص .. ورمى الرشاش على الأرض .. وخطف زجاجة خمر وشربها وهو يقهقهه منتشيا بجريمته .. ثم لبس معطفه وغادر الملهى .. ولكنه عندما وصل مدخل العمارة .. وجد رجال الشرطة على الباب .. والناس وأصحاب المحلات متجمهرين أمام البناية

وهرعت سيارات الإسعاف وسيارات الشـرطة .. واعتقل الرجل الغاضب .. فقد اتصل أصحاب المحلات بهم فور سماع الرصاص في الطابق الثالث حيث يقبع الملهى الليلي .

ونقل الجرحى والقتلى إلى المستشفيات .. واعترف الرجل بجريمته ودوافعه للجريمة .. ولفظ قسيم أنفاسه الأخيرة في المستشفى .. وكان يردد وهو يموت : ساحيني يا أمي !.. ساحيني يا أمي !

هذا ما أخبر به أحد المسعفين المرافقين له أثناء نقله للمستشفى لأولاد السيد شريف .. عندما تحدث معهم العميد دبور ناقلا لهم خبر وفاة عمهم قسيم .. ولما علموا بذلك المصاب أخبروا جدتهم بعدما شعرت بما هم فيه من قلق وحزن .. وقالت بصبر: إنا لله وإنا إليه راجعون .. أريد أن أراه .

وبعد تشاور ذهبوا جميعهم إلى المستشفى الذي يرقد فيه الجثمان .. واستقبلهم الضابط دبور عند المستشفى وقدم لهم العزاء ، وقال لأم شريف : كنت أتمنى أن تريه يا أمي وهو حي .. وكنا نسعى أنا والأخ شريف لذلك ولكن سبق السيف العذل كما يقال .

ـ الأمر لله يا ولدي ..

دخلوا إلى حيث ترقد الجثة قبل تشريحها .. وقبلت الأم ولدها وهي تذرف الدموع الغزيرة وهي تقول : لي أكثر من عشرين سنة أنتظر عودته ورؤيته .. ما أقسى قلبك يا ولدي !! إلى رحمة الله إلى رحمة الله

ثم أخذها أحفادها إلى خارج المبنى حيث ينتظرهم صديق والدهم فقال لهم : عظم الله أجركم وأنا حاولت الاتصال بوالدكم للمجيء وحضور جنازة أخيه الذي كان يسعى للقائه منذ سنوات وسنوات .. ولكنه بعافية .. ولسوف يصل قريبا .. واطمأنوا عليه أنه بخير

قدم الشباب الشكر الجزيل للعميد دبور على جهده معهم ، ودعا لهم الرجل ، وقال : أنا أعتز بصداقة أبيكم .. وهو أخ فاضل وأنا في خدمتكم .

أخذ الطبيب ياسر جدته إلى المستشفى للقيام ببعض الفحوصات ومراقبة قلبها بعد هذه الصدمة ، ووجدها بحالة جيدة ، وبعد ذلك عادوا لمدينة البركة للاستعداد لاستقبال الجثة ليجري تشيعيها حيث تريد الأم حسنة .. فهم لم يروا عمهم حيا منذ ولدوا على هذه الأرض ؛ ولكنهم رأوه ميتا مضرجا بدمائه مقتولا بدم بارد .. لذلك كانوا حائرين .. أيحزنون على العم المجهول أم لا يحزنون؟! هم يسمعون أن لهم عما زعلان من أمه وأخيه .. فحتى جدتهم بعدما غادرت المشفى حيث الجثمان لم تذرف الدمع ولزمت الصمت .. وربما كان حزنهم الحق على الحال التي هلك عليها العم قسيم ياسر .



سوء الخاتمة

شيع أهالي حي العمال وجيران شريف في الحي الجديد حي الأمل جنازة السيد قسيم ، وهم يتهامسون بقصة مقتله ومكان موته في ملهى ليلي كما نشرتها بعض الصحف ؛ ولكنّ المحبين متألمون لهذه النهاية ولمكان هذه النهاية ، ويقارنون بينه وبين الذي يموت في ساحات الوغى أو ساحات المساجد .

وأقيمت خيمة العزاء في منزل العميد شريف شقيق السيد قسيم ، ولما انتهى العزاء بأيام دخل عليهم الوالد الحزين قادما من سفره ، واحتضن أمه وهو يبكي كالأطفال حزنا وألما ، وانخرطت هي الأخرى بالبكاء مثله ، وعزاها بولدها البكر وقال : حدثني بعض الزملاء بالأمر وعزوني به .. وتلقيت بعض البرقيات من قيادة الجيش وقادة الجيش .. وكنت طريح الفراش في أحد المشافي الأوروبية ..إنا لله وإنا إليه راجعون .. رحمه الله.. تمنيت أن أراه مثلك يا أمي ولو جثة .. سيبقى الأخ الأكبر لي .. إنه أخي رغم ما جنت يداه .. عفا الله عنا وعنه يا أمي .. لم يقدر لك أن تريه حيا .. حتى وهو في السجن كان يرفض استقبالنا .. لقد كانت آخر نظرة إليه يوم زرناه معا في المستشفى وحدث ما حدث .. وكانت النظرة الأخيرة إليه منك أيضا في المستشفى سامحينا يا أمي .. غفر الله لأخي ..

واستدار مسلما على زوجته وأولاده ثم قال : قمتم بالواجب وأثلجتم صدري المتعب .. كنت أتمنى لو تعرفتم على أخ أبيكم وهو حي يرزق ، وتصافحوه ؛ لكن كما علمنا النبي ﷺ نقول قدر الله وما شاء فعل فأن لو تفتح عمل الشيطان ..

وجلس الجميع وقال لهم وهو يتخذ مجلسا : هذه هي الحياة يا أبنائي .. حبوا بعضكم .. الأخوة كنز عظيم .. عندما يتألم الإنسان يقول آخ .. كونوا أخوة متحابين .. حسرة العداوة تمزق القلب.. مات العزيز أبي وهو يرغب برؤية قسيم .. هذه هي الدنيا يا أمي .. كنت أسعى سعيا حثيثا إليه.. وأتعبت صديقنا مدير البحث الجنائي في البحث عنه ..ولما اقتربنا منه.. خرج من الدنيا ..أنا متعب من السفر لم تعد الصحة كما كانت .. كدت أصاب بجلطة ..ووقف ثانية وهو

يردد : رحم الله قسيما .. سامحيه يا أمي .. الجاهل عدو نفسه .. كنت أتمنى لو كان عمكم فردا صالحا في المجتمع .. ولكنه اختار درب الشقاء والعصابات .

قالت الأم بحزن وغيظ : وهل يمكنني أن أسامحه يا ولدي ؟! وقد مات ياسر أبوك حزينا مغلولا مقهورا منه .. فكان عندما يفيق من الألم ..ألم يأت الابن العاق ؟! .. ألا يأتي لوداع أبيه في ساعاته الأخيرة ؟ .. ومات المسكين وكله أمل بإلقاء نظرة عليه .. رغم كل التوسلات التي أرسلتها إليه مع أبناء الحارة والجيران ..كان يسيء إليهم ويقول أنا لا أهل لي .. أنا مقطوع من شجرة .. ورغم العقوق كله لا أستطيع يا ولدي إلا أن أسامحه.. ولعل قتله كما أخبرتني إحدى الفاضلات كفارة له .. دم تلك المرأة التي كانت تسمى زوجته .. ودم المرأة الأخيرة .. صدقوا يا أولادي منذ سمعت بمقتل زوجته الأولى وأنا ينتابني إحساس بأن ابني سيموت مقتولا .. كان عليه أن يطلقها ولا يغدر بها ..

فقال شريف : كفر عن تلك الجريمة يا أمي خمس عشرة سنة في السجن .. قضاها بين القتلة واللصوص .. سامحك الله يا قسيم .. حاولنا التودد إليك ولكن عجزنا عن الالتقاء بك لإصلاحك وعلاجك .

وبينما هو يواسي أمه ونفسه ليدخل حجرة النوم وضع يده على صدره وقال : انقلوني للمستشفى إنني أحس بتعب شديد في صدري يا أولادي

فقالت حسنة : رحماك يا رب !.. ليس لي سواه بعدك ..

فقال : لا يا أمي ..فهؤلاء كلهم لك .(وكان يشير لأبنائه)

وأدخل مستشفى مدينة البركة ، وخضع للعناية الطبية مرة أخرى ، ثم نقل لمستشفى عسكري ومكث فيه أسبوعا قبل أن يعود للبيت ، ونصحه الطبيب النفسي ألا يفكر كثيرا بأخيه الميت ولكنه قبل أن يصل البيت طلب من أبنائه أن يأخذوه لقبر أخيه .. وبعد تردد وافقوا ومشوا به نحو المقبرة .. ووقف أمام قبر قسيم يناجي أخاه ويدعو له ساعة من الزمان .. ولما خرجوا به من المقبرة .. زار مكتب الزكاة في مدينة البركة ، وقابل مدير المكتب ، وكان بينهما معرفة قديمة

فعزاه الرجل ومخبرا له أن ذهب لبيت العزاء ليقوم بالواجب ؛ ولكنه لم يجده ، وعلم من يحيى بأنه مسافر .. فشكره شريف .. وقدم له شيكا بألف دينار توزع عن روح أخيه .. ثم رجعوا للمنزل .. فوجد والد زوجته وبعض أخوة يسرا في انتظاره .. ومكثوا معه وقتا قصيرا هنئوه فيه على سلامته.. وأدخل الرجل غرفة النوم.. وراح في سبات عميق.

ولما تماثل للشفاء التام عاد لمزاولة عمله في قيادة قسم الهندسة العسكرية.. وظل الزملاء يترددون على مكتبه لتعزيته في موت أخيه .. ويهنئونه على سلامته .. وكان من المعزين العميد دبور قائد البحث الجنائي .. وتعانقا كأنهما أصدقاء منذ عهد الطفولة .

وقضى الصاحب شريف أياما يستقبل معارفه من الضباط في التعزية أو يرد على الهاتف من أجل هذه الغاية .. كان محبوبا من الرتب الأعلى منه ومن الأدنى.. ورغم نصيحة الطبيب النفسي له عندما غادر المستشفى العسكري كان يفكر بأخيه كثيرا ويقول : كأنني كنت أدعو على أخي بالموت !.. ألم أتمنى في قرارة نفسي موته عندما علمت بمشروعه الدنيء؟.. لقد قلت لنفسي لا ينقذنا من سيرته القبيحة إلا الموت .. ولكني كنت أتمنى ذلك من القهر والغل وخيبة الأمل .. يا الله اغفر لي هذه الخطرات القاتلة .. اغفر يا رب .. أحيانا يرى الإنسان أن بطن الأرض خير من ظهرها .. ها هي أمي كانت ترى مقتله منذ مشاركته في مقتل من تسمى زوجة .. فعلا لماذا لم يطلقها بدل أن غمس يده بدمها ؟! بل رتب لها كمينا قاتلا وهو يعرف عنف أهلها الإنسان يتصرف تصرفات شاذة غير منطقية وهو لا يدري ألم يكن طلاق الفاجرة خير من مصرعها ؟! الشيطان يلبس على الإنسان فلا يعرف الاختيار المناسب العار لا يغسل إلا بالدم أليس هكذا يقال ؟! الطلاق أسلم وأحسن لضمير الإنسان وهل لهؤلاء العصاة ضمير حي؟! ضمير يؤنبهم لست أدري إنهم يمارسون الشر كالأكل والشرب واللعب وذاك الشاب القاتل هل حقا قتل غيرة وشهامة ؟! وهو الذي كاد أن يقع على أخته ألا يعتبر بنات الناس أخواته ؟! أي منطق هذا ؟! ما الذي دفعه لقتل كل هؤلاء الأبرياء؟ .. وأخته نجت من الملحمة .. وهو سيحكم عليه بالإعدام .. وهي ستمارس مهنتها بكل حرية .

الفرح

هذه الحكاية بدأت بمأساة منذ وقع حجر بناء في مبنى يُشيد على ظهر ياسر سليم أدى إلى شلل نصفي ثم أوصله للموت بعدما انتهى أجله ، وها هي الرواية أشرفت على الانتهاء بمأساة أخرى بمقتل قسيم ياسر بحادث مرعب في نادي ليلي .. هكذا الحياة .. بين فرح وترح .. موت وولادة .. ليل ونهار.. فرح وبؤس.. سعادة وشقاء.. ورأينا قصة نجاح الأخ شريف ومحافظته على أخلاقه رغم الإغراءات والفتن ، ورغم العمل الكبير الذي يعمله والمكان الكبير الذي يشغله .

فالجيوش كما هو معلوم قديما وحديثا من أهم المؤسسات في كل وطن وكل بلد .. ورجالها محظوظون ومحترمون عند الغني والفقير.. والأخ شريف حقق كل غايات الدنيا المهمة .. البيت.. الزوجة.. الأولاد .. المال .. والجاه المركز الكبير في جيش بلاده .. والأهم عنده أنه حافظ على شخصيته وكيانه من الذوبان في حمى التقليد الأعمى ، والركض حول كسب الثروات من أي مصدر كان .. من نصب واحتيال.. لقد قنع بدخله وراتبه الوظيفي.. واعتبره كافيا ومؤديا للغرض الدنيوي .. من حياة بسيطة .. وهدوء وسكون .. وهو موقن أن الحياة لا تخلوا من منغصات .. والصحة لا تدوم وأن الضعف سيصيب الإنسان مهما أوتي من قوة ، والسن له دوره .. ألم يقرأ في كتاب الله ﷻ { اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } الروم: ٥٤

والتعب والمجاهدات التي أصابته أثناء الدورات والتدريبات والمناورات العسكرية تركت بصماتها على بدنه .. وما أصاب والده لابد أنه ترك شيئا على روحه ونفسه.. وها هو آلمه ما صنع أخوه قسيم وأضعف قلبه.. فلذلك قدم طلب إحالة على التقاعد وإنهاء خدماته من القوات العسكرية .. التقاعد من الجيش الوطني .. ولقد كان القائد العام للجيش قد اطلع على تقاريره الطبية فوافق على تقاعده بعد نظر اللجنة الطبية العسكرية عليه .. وبينما هو ينتظر تقارير اللجان الطبية التي أجرت عليه الفحوص المناسبة تخرج ولده ياسر من كلية الطب والتحق بالعمل في

مستشفيات الدولة ليأخذ بعض الخبرة .. وفرح شريف بولده ياسر الذي سماه على اسم أبيه.. وهذا شيء مهم في حياة أسرة مكافحة .. أسرة خرجت من العدم والضعف والفقر .. وقد ذكرنا آنفا أن السيد يحيى تخرج من كلية الآداب متخصصا باللغة الفرنسية ، وقد انهالت عليه عروض العمل سواء في المؤسسات الإعلامية كالتلفزيون القومي حيث يعمل شقيق أمه في قسم البرامج الفرنسية ..أو الصحف الأجنبية في البلد .. أو شركات الترجمة .. ولكنه فضل السفر إلى فرنسا للدراسة على نفقة الجامعة التي تخرج منها ليدرس الدراسات العليا ثم يعمل في الجامعة محاضرا وأكاديميا .. ولكنه أجل الابتعاث حتى ينتهي شقيقه الأكبر من كلية الطب.

وأما الشاب الثالث محمد فهو ما زال على مقاعد كلية الهندسة ليكون مهندسا كأبيه .. هؤلاء فقط الذين أنجبهم السيد شريف ..

كانت الحجة حسنة سعيدة بأحفادها وسرت بنجاح سمي زوجها بالاسم .. وقالت وهي تعانقه فرحا : لو قدر الله لجدك ياسر الحياة لمثل هذا اليوم لمات من الفرح .. وافتخر بكم كما كان يفتخر أمام أقاربه بأبيكم شريف .. عاش المسكين قبل أن يكبر والدكم حياة الشقاء والبؤس .. ولكن الله عوضنا بكم خير العوض .. الآن عليك بالزواج يا ولدي ليكتمل فرحنا بكم ، ويسعد أبوكم برؤية أحفاده بعد كل هذا الجهاد .. ولخالك حسان ابنة رائعة الحسن والأدب .

ضحك ياسر وقال : هذه العروس جاهزة يا جدتي الغالية!.. هذا كله بدعائك وحبك لنا .. أنت جدة وأم عظيمة .

فقال شريف الذي كان يسمع أمه وهي تهنئ حفيدها الأول : يا ياسر .. من رأيي أن تحقق رغبة جدتك لتكمل فرحتها برؤية أولادك ..وأعتقد أن هذا رأي أمك .

فقالت الأم يسرا : هذا مناي يا أبا ياسر .. ونحن أنا وأمك من زمن قلنا له عن ابنة خاله حسان

ابتسم وقال ياسر : عندما أباشر العمل ـ إن شاء الله ـ سأحقق لكم هذه الرغبة .

فقال شريف : أنت باشر العمل ، ونحن سنباشر السعي في ذلك ، ربما يعتذر خالك أو البنت لا تريدك .

وأظهرت تقارير اللجان الطبية التي عقدت للضابط شريف ياسر سليم أنه بإمكانه مزاولة عمله

والاستمرار فيه ، وهو يعاني من مشاكل في عضلة القلب ؛ ولكن بالعقاقير المناسبة يمكنه العمل لعدة سنوات داخل وحدات الجيش ، وأن لا يتعاطى التدخين والكحول ، وهو لم يعرف التدخين خلال كل سنين العمر التي مضت ، وأما الخمر فهو مبغض لها ، ولمن يشربها ولم يحاول شربها ولو مرة واحدة .. فتم نقله إلى كلية تدريب الضباط لإلقاء المحاضرات على الطلبة العسكريين .. وأثناء عمله في كلية الأركان رفع إلى رتبة لواء ركن ، ولم يمكث عاملا بهذه الرتبة سوى سنة واحدة ثم أحيل على التقاعد ، وكان يعمل آمرا للكلية عندما صدر كتاب تقاعده بعد خدمة تزيد عن الثلاثين سنة في وحدات القوات العسكرية في بلده .

وكان قبل تقاعده واعتزاله الجيش زوج ابنه يحيى من ابنة أحد زملائه القدامى الذين تخرجوا معه من كلية الهندسة العسكرية.. التقى به محاضرا

مثله في الكلية، وعادت بينهما العلاقات الخاصة ، وخاصة عندما تعاونا على تأليف كتاب يدرس في الكلية ..ونتيجة الزيارات العائلية كان زواج الشاب يحيى الذي يدرس في باريس من ابنة الزميل حماد .. وأصبح عندهم في البناية التي كبرت زوجتان .. ودخلت عليهم الأفراح والمسرات برؤية الجدة حسنة أبناء أحفادها، وأنستهم هذه المسرات مأساة عمهم قسيم .. ولما كانت زوجة يحيى تضع مولودها الأول كان صاحبنا شريف يغادر الكلية العسكرية متقاعدا عن العمل بعد قضاء زهرة شبابه بين وحدات وسرايا وكتائب وألوية وفرق الجيش .. وما عليه إلا أن يقوم بتبرئة ذمته من مؤسسات الجيش المختلفة ليحصل على راتبه الشهري التقاعدي .. ويجلس في بيته طالبا للسكون والهدوء وملاعبة الأطفال ومداعبتهم .. والحديث مع أمه التي بلغت من الكبر عتيا ، ولا تكاد تفارق حجرتها إلا للذهاب للحمام .. فهي أصبحت تأكل طعامها في حجرتها ..حتى أن شريفا أحضر خادمة خاصة بها غير الخادمة التي تعمل في البيت وكان أحفادها عندما يعودون للبيت يكون دخولهم عليها والسلام عليها أول أعمالهم في البيت ثم الانصراف لرؤية أمهم وأبيهم ، ثم يصعدون لبيوتهم الخاصة بهم .. وإلى هنا نقف في حكاية السيد شريف ياسر الكمن .



١	ليلة العرس	٢	شمس عمري
٣	أيتام الحداد	٤	صديق أمي
٥	الأخ شريف	٦	أستاذ الفرنساوية
٧	غربتي وابنتي	٨	حي أبو خروف
٩	الشقق السوداء	١٠	حياتي قبل الحياة
١١	الحفل بالقط الأسود	١٢	امرأة نزيه
١٣	رهاب الطلاق	١٤	



حلت بالأسرة الصغيرة نكبة من نكبات الدنيا

المعيل أصيب بالشلل

فهجر الابن الأكبر المدرسة

من أجل أن يعيل الأسرة من فقرها

وضيقا من أموال الزكاة والصدقات والجمعيات

الانسانية التي أعانت العائلة في مصيبتها

فأمسى حاقدا على شقيقه الموفق

ومالكا الملهى ليلي

ذاك أخي قسيم

صديقكم شريف ياسر

٢٠١٠

أستاذ الفرنساوية

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

روايات اجتماعية

جمال شاهين

أستاذ الفرنساوية

جمال شاهين

أستاذ الفرنساوية

فارس محسن

نزل فارس محسن من السيارة الصالون ، وفتح باب الموقف الخاص بها داخل الفيلا ، ثم أدخل السيارة نفسها الموقف ، وأطفأ المحرك ، ونزل منها وأغلقها ، وتفقد سائر الأبواب، ثم ضغط زرا فاغلق باب الموقف أوتوماتيكيا ، وهكذا أغلق باب الكراج ، وهكذا يفعل عادة ، فنظر الرجل الساكن في هذه الفيلا نظرة على ساعة معصمه ، ثم مشى على درب يوصله لمدخل الفيلا فوجد طفلتيه تقفان على مدخل الفيلا في انتظاره ، فصعد درجة واحدة وعانقهما ، ثم رفع الصغيرة منهما إلى أعلى ، وهو يمازحهما كعادته عندما تكونان في استقباله ، ودخل بهما الباب ، وكانت زوجته ترقب دخوله مع الطفلتين ، ولما أصبح في الداخل حيا الزوجة تحية المساء ، وأغلقت المرأة الشابة الباب بالمفتاح ، ولما وضع الطفلة على الأرض ، قالت له الزوجة الحسناء : أين كنت ؟! لقد تأخرت عن الغداء !

خلع الجاكيت وناولها للزوجة وهو يرد قائلا : نعم ، تأخرت يا ثريا .. لقد اتصلت بالبيت ظهرا فلم يرد عليّ أحد ؟!

أمسكت بالجاكيت وأجابت : كنت عند أمي .. اتصلت بي صباحا فهي متعبة متوعكة .

مشت لتضع الجاكيت في موضعها المناسب ، وقد سمعته يتمتم داعيا لها بالشفاء وقال : هل أكلتم ؟

ـ أكل الأطفال بعض الطعام .

ـ هيا بنا للمطبخ إذن .. إني جائع رغم أنهم قدموا لنا بعض الطعام والشاي .. كنا في زيارة لأحد الزملاء المرضى يا أم سلوى .. ذهبنا لبيته .. وبيته خارج المدينة .. في طريق مدينة نصر .. الله يشفي جميع المرضى .. أليس هكذا يدعون في بلادنا ؟

لما رجعا لصالة البيت وجلس فارس على إحدى الكنبات ، قامت ثريا بوضع بطاقة دعوة بين يديه ، فتناولها بإحدى يديه وهو ينظر إليها مستفهما : ممن ؟!

فردت بغير اهتمام : كأنها من أختك خديجة .

فقال كأنه متفاجئ : أختي خديجة !!

وفتح غلاف بطاقة الدعوة وأخرج البطاقة التي تدعوه فيها شقيقته الكبرى خديجة محسن للمشاركة في عرس ابنها عصام مازن ، هذه البطاقات الدعوية اليوم سارت من عادات العرس ويتفنن أصحاب المطابع في صناعتها وأشكالها ، وهي تتضمن دعوة من والديّ العروسين للمدعو لحضور حفلة العرس في مكان ما وزمان ما .

قرأ فارس اسم العروس واسم والدها وعائلتها ، فلم يعرف أحدا منهم ، فتمتم في نفسه بكلمات ، ثم ترك الكرت على منضدة الصالة وقال متبرما : من أحضرها إلينا يا ثريا ؟

قالت : ربما عصام نفسه .. لما رن الجرس لم أكن في البيت كما قلت لك ، كنت عند أمي المريضة وحين عدت من عندها أرسلتها لي جارتنا نهى مع خادمتها .. فاتصلت بها ، فقالت شاب اسمه عصام رن على جرس البيت ، وقال جارتكم أم سلوى امرأة الدكتور فارس غير موجودة فإذا سمحت لو أوصلت لها بطاقة العرس . فأخذتها ، ولما عدت أرسلتها مع الخادمة ..

ـ جميل ! جميل ! ها هي السيدة خديجة تريد تزويج ابنها عصام ، لقد كبر الفتى .. ماذا درس هذا الشاب ؟! .. لم يدرس ، لقد ترك المدرسة ، واشتغل بورش تصليح السيارات .. هل تعلمين أن هذا أول حفيد ذكر لمحسن سيتزوج ؟!

ـ الله يتمم على خير .. من يعش سيتزوج .. هل ستذهب ؟

تبسم بضيق من السؤال : الآن لا أدري لست أعلم .. أنا لي سنوات لم أزر خديجة في بيتها .. الأمور بيننا ليست على ما يرام .

وغرق في ذكرياته مع أخته وزوجها ابن عمه مازن وشقيقته حبيبة .



فارس شاب متوسط الطول ، بشرته خفيفة السمرة ، تعلم في الجامعة دون سائر إخوته الذكور وتعلم في كلية الآداب ، وحصل على ليسانس آداب اللغة الفرنسية ، وأخذ الماجستير

والدكتوراه كذلك بهذه اللغة الأجنبية ، مما ساعده أن يعمل معيدا في نفس الجامعة التي تخرج منها ، ثم ترقى في السلم الوظيفي لعضو الجامعة، فهو محاضر معروف في وسط الجامعات والطلاب ، وهو مغرم بتلك اللغة ، ويتعامل معها بطلاقة وحب أكثر من اللغة الإنجليزية ، ومع ذلك فهو يحسن القراءة والكتابة بها أيضا ، وهو ضعيف في لغته العربية ، فلذلك عندما يحتاج لترجمة بحث للغة العربية يعرضه على مدرسين اللغة العربية لتصحيح الكثير من أخطائه النحوية والإملائية ، وهو يقول عن سبب تعلقه باللغة الفرنسية غرامه بالقصص والروايات الفرنسية أثناء فترة المراهقة ، وكذلك هرب الكثير من الشباب من تعلم تلك اللغة ، وأدرك كذلك أن مجال العمل بها ممكن وكبير .

كان الدكتور فارس يجلس في مكتبه في مبنى الجامعة الكبير ، وبينما هو يشعل سيجارة ـ فقد كان هذا الدكتور من يتعاطون التبغ ـ وقد أخذ عليها نفسا عميقا ، ارتفع جرس الهاتف في الغرفة ، فرد قائلا : نعم .. أهلا ثريا هل من شيء ؟!.. لا وقت لديّ لحضور الحفلات .. لن أذهب .. أرجوك .. صدقي لا وقت لديّ .. إنهم لا يعلمون انسِ لن احضرها .. هم أرسلوا البطاقة بحكم العادة .. جاء المدعو أو لم يجيء .. اذهبي إلى أمك ، وسلمي عليها وعلى الجميع . ترك الهاتف وقال لنفسه : ولماذا أذهب ؟! فخديجة تكرهني .. وزوجها يكرهني أكثر .. لا وقت عندي لحضور الأعراس .

ولم يعد للبيت ذلك اليوم إلا بعد منتصف الليل ، ولما فتحت له زوجه الباب قالت : لماذا تأخرت قبل قليل غادر بيتنا أخي ماهر وزوجته.. كان يريدك في أمر .. ثم يأس من عودتك .. هل ذهبت للعرس ؟

ـ أي عرس ؟!

ـ عرس ابن أختك .

ـ لا ، ألم أقل لك ظهرا لا وقت لديّ ؟

فقالت متمنية : أنا أرغب أن تعود المياه لمجاريها بينك وبين أهلك يا فارس .

فقال غير مكترث بتمنيها : لا تهتمي بهم .. أنا نسيتهم منذ تزوجت ثريا جُد.. كم لنا متزوجون ؟ تسع سنوات على ما أعتقد .. عشر سنوات .. وذلك عندما رفضت العروس التي أرادوا تزويجي منها .. فحقدوا عليّ .. وأعلنوا الحرب الشعواء حرب داحس والغبراء على فارس .. على الدكتور فارس ..واعتبر زوج الأخت خديجة رفضي لأخته جريمة وعارا .. وفضيحة كبرى في تاريخ العائلة ..

وكان خلال هذا الكلام قد خلع الجاكيت وناولها لثريا ، وجلس على مقعد وتابع الكلام : هؤلاء الناس لا يعتبرون مشاعر الإنسان شيئا مهما .. هي صحيح متعلمة وتخرجت من الجامعة بعد زواجنا وأصبحت طبيبة ..ولكنها لم تكن تناسبني .. ولا يعلمون مقدار الحب الذي أحببتك إياه .. سخروا من حبي لك ، واعتبروه حب عيال ومسلسلات وتسالي وروايات .. وأنا خفت حقيقة أن تتخلي عني عندما علمت شدة رفضهم لزواجي منك .. آ.. ماذا يريد الأخ ماهر مني يا أم سلوى ؟

ـ ربما بعض المال .. فهو غارق هذه الأيام في الديون .. المصنع يمر بأزمة ومشاكل حادة كما يقول ، وكما فهمت منه .

ـ يريد مالا !!



السخط

كان والد فارس يقول لولديه محمود وجابر وهم يغادرون قاعة الاحتفال بعرس ابن خديجة : أخوكم فارس لم أره في الحفلة ؟!

فرد جابر بغيظ : ولا زوجته .. لقد كان عندنا أمل أن تتحسن العلاقات بيننا مع هذه الحفلة .. لقد كان أبو عصام يصر على عدم دعوته زاعما أن الرجل متكبر ولا يعتبر أحدا من العائلة له قيمة وأهمية .. وكان لا يقدر أحدا قبل أن يأخذ الدكتوراه ؛ فكيف بعد أن حمل هذا اللقب وأصبح ينادى يا دكتور ..؟

قال محمود : لا تقل ذلك يا جابر عن أخيك ..أنت تعلم سبب زعل مازن من أخيك .. أنتم فعلتم الواجب عليكم وكفى .. حضر المدعو أو لم يحضر .. فهذا لا يؤثر على العرس .

فرد جابر بزعل ظاهر : مهما يكن ، فخديجة الأخت الكبرى وزوجها ابن عمنا.. وابنة عمنا تزوجت زوجا أحسن من مليون فارس .. وهي طبيبة قد الدنيا .. هو كان طامعا بها .. فلما التقى بثريا اللعينة نسي ابنة العم .. لقد تقدم لها الكثير .. فرفض عمي ومازن من أجل خاطر الدكتور فارس ..لا تنس ذلك يا أخ محمود .. ابنة عمنا لم تكن بايرة ..كانت في أول سنوات الجامعة .

ـ تعلمت على حساب الدولة .

ـ ماذا في هذا ؟ ما صاحبك تعلم على حساب الجمعية .. على حساب الدولة على حساب عمك المهم تعلمت وصارت طبيبة .

فقال محسن السامع لهذا الحوار : وأم سلوى لم تحضر ؟

قال جابر : سألت زوجتي هناء ، فأكدت لي أنها لم ترها ، لا هي ولا أحد من أهلها..

فقال الأب محسن : فارس غلطان يا محمود .. المجاملات في مثل هذه المناسبات مهمة فإنها تزيل الكثير من الشحناء والحقد ، وتساعد على تحسين العلاقات .. المفروض بعد كم سنة من العداء أن عاد فارس لحضن العائلة ..أكيد أمكم فاطمة ساخطة عليه وعلى امرأته .. هو الواحد لما يتعلم لازم يكبر على أهله والناس .. عيب .. عيب يا فارس .. أنا متألم منه كثيرا .. هو يعني لما

يتحدث بالتلفون قام بواجبه نحونا .. وإذا أهل على دارنا يقضي خمس دقائق .. كيف حالكم ؟ ما أخباركم .. هيا يا ثريا وراءنا شغل و.. و ...

فقال جابر بغيظه الظاهر: كأنه لم يتعلم أحد في الجامعة في هذه الدنيا سواه .. صحيح نحن لم نساهم في تعليمه .. لأن وضعنا المادي يا رب الستر .. وكثيرون يتعلمون على حساب الجمعيات وأهل الخير والوزارات ..

قال محمود : على كل حال دعونا الآن من فارس .. ولنهتم بضيوف ابن عمنا مازن .

بينما الدكتور فارس يلقى محاضرة على طلابه ، دخل عليه أحد الزملاء الدكاترة مخبرا له أن البيت اتصل أكثر من مرة ، فاعتذر من الطلبة لبضع دقائق فقط ، ولما اتصل بالبيت سمع بكاء ثريا قبل سماعه صوتها ، فاضطرب قلبه وقال : ما الأمر ؟ هل سلوى بخير ؟

لقد غادر البيت وسلوى تعاني من التهاب اللوزتين ، فظن أن مرضها تضاعف وزادت درجة حرارتها .

ولما تمالكت الزوجة أعصابها ونفسها علم منها أن أمه بهدلتها وشتمتها وحقرتها ولعنتها ، وغاضبة عليها لعدم مشاركتها حفل زواج حفيدها عصام مازن ، وحذرتها من المجيء هي وزوجها لبيت العائلة ، وستطردهما شر طردة ، حتى تسمح خديجة لهما بزيارتهم ويعتذرون لها.

فلما سمع القصة فقال: أهذا الذي أزعجك ؟! نحن في غنى عن زيارتهم .. أنا ظننت أن سلوى زاد سقمها وتعبها .. هل أخذتيها إلى الطبيب ؟

قالت وهي تشرق بدموعها وتتنهد بالبكاء : جاءت أختي وأخذتها للعيادة ، وأنا في انتظارهم إن أمك جرحتني ، وأساءت إلى أهلي ، وإنهم لم يربوني ، وشتمتهما يا فارس .

فقال غضبا : سأنهي علاقتي بهم للأبد .. إنهم سيئون وحاقدون .. أنا آسف يا حبيبتي .. اهدئي ولما أرجع سنتحدث في الموضوع إلى اللقاء .

ووضع السماعة وقد أصابه انزعاج شديد وغضب قاتل ، وقال وهو يصر على أسنانه غلا وغيظا : إنهم يكرهونني لا أدري لماذا ؟! موضوع زواجي من ابنة عمي انتهى منذ عشر سنوات .. حفل زواج عصام فتح الجروح من جديد .. أحسن حل الابتعاد عنهم نهائيا .. لماذا لا أغادر

البلاد نهائيا حتى لا أسمع أخبارهم قطعيا ؟ .. كيف السفر؟ لا أستطيع .. نعم ، لا أستطيع من ابتلي بالنساء لا يستطيع .. وقبل أن يغادر لإكمال محاضرته رن على بيت أمه ، فردت أمه وقبل أن يتحدث بشيء، كالت له السباب والشتم والغضب عليه ووصفته بالجبان والمحكوم للنساء ـ تعني زوجته وحماته ـ وأغلقت السماعة في وجهه ولم تسمح له بإكمال جملة ، فازداد حنقا على أمه ، وعاد لمحاضرته ، فوجد الطلاب قد تركوا القاعة ، وأن وقت المحاضرة قد انتهى ، فعاد لغرفته يدخن ويشرب القهوة .

وبينما هو يخطط ويدبر للانتقام من أمه التي مسحت بكرامته الأرض كما زعم ، رن الهاتف من جديد فرد صائحا : أنا الدكتور فارس .. آيا ثريا .. لعلك هدأت .. ماذا قلت ؟! .. أمي ماتت ماتت !! يا الهي قبل قليل كنت كنت ... لا شيء .



ترك فارس الجامعة عائدا للبيت ، فوجد زوجته ثريا في انتظاره ، وقد ارتدت ملابس الحداد السوداء ، فلم ينزل من السيارة ، ضغط على منبهها ، فجاءت وصعدت بجواره وهي تقول لأختها : لن أتأخر يا ريما بعد إخراج الجنازة سأعود ..

دخل فارس بسيارته حي درهم جوهر حيث يسكن الوالد والأشقاء ، فأوقف السيارة أمام البيت ، وقد كان المكان مزدحما بسيارات العائلة من الأقارب والأصهار، وكانت هناك جمهرات من الناس أمام البيت ، فنزل من السيارة تتبعه ثريا ، وقد أشار للناس محييا ، ثم مشى نحو بيت الوالد ، ودفع الباب ليدخل فسمع أحد الناس يقول : لم يأتوا من المستشفى بعد يا دكتور فارس فالتفت للقائل وقد توقف عن الدخول : في المستشفى .. لقد قيل لي إنها ماتت !.. من ؟ يوسف أهلا بابن عمي .. كيف حالك ؟

ومشى إليه مسلما فقال المدعو يوسف : آ ، أما زلت تعرف اسمي يا دكتور فارس .. عظم الله أجرك .. ورحم الله الحاجة فاطمة أم محمود

وتصافحا وتعانقا وقال يوسف : نعم ، هي ماتت .. ولكنهم لم يفرجوا عن جثتها .. ربما يجرون لها التشريح الطبي .

ـ تشريح ولماذا ؟! .. لقد كان عندها أمراض قلب وضغط .

ـ هذا ما نقل لنا يا دكتور ..

ـ الوالد في الداخل ؟

ـ نعم ، وعمك سالم والدي أيضا .

حياه برأسه وتابع دخوله تتبعه ثريا ، وسمع صوت بكاء نساء في إحدى الغرف فأشار لثريا إلى غرفة البكاء على الميت ، وتقدم هو من غرفة يقف أمامها شقيقه جابر وهو الشقيق الأصغر وفارس هو أحد أفراد عائلة تتكون من سبعة أبناء وبنات وأم وأب ، وهم حسب السن خديجة الشقيقة الكبرى لفارس ، وبلغت من العمر عند أحداث هذه الرواية إحدى وأربعين سنة ، وزوجها هو ابن عمها مازن ، والتي تليها دليلة فأمينة ثم محمود وهو أكبر الذكور ، وعمره يومئذ سبعة وثلاثون عاما ، متزوج ولم يوهب الذرية بعد ، ثم فارس وكان ابن خمس وثلاثين سنة ومتزوجا من ثريا زميلته في الجامعة أيام الدراسة ، ثم الشقيق جابر الذي لم يفلح في الدراسة ولكنه صاحب مصنع حلويات ، وهناك حميدة الأخت الصغرى لفارس ، وقد تخرجت من كلية التمريض وتعمل في مستشفى للدولة .

فلما مشت ثريا إلى حجرة النساء لتشاركهن الحزن والبكاء على المرأة التي قضت نحبها تقدم فارس نحو الغرفة التي يجلس فيها والده وأعمامه ، وقد كان السيد جابر يقف أمامها الذي صاح عندما دنا منه : أهلا بالدكتور .. أهلا بالقاتل !

هتف فارس دهشا : القاتل! .. ماذا تعني أيها المجنون ؟!

ثريا التي سمعت كلمة القاتل توقفت عن الدخول والتفتت لزوجها وشقيقه الغاضب ، وخرج بعض أفراد الأسرة لما سمعوا صياح جابر متهما أخاه بالقاتل ، فقال الأب محسن : اهدأ يا جابر ليس الوقت وقت عتاب وشجار .. رحم الله فاطمة .

لكن جابرا ازداد هياجا وغضبا وقال : بل هو القاتل يا أبي ويا عمي .. يا ناس كانت تتكلم معه

بالتلفون عندما سقطت ميتة .. كانت ..

فصاح محمود الشقيق الأكبر : اسكت يا جابر .. اسمع كلام أبيك .. ادخل يا فارس لا تهتم لكلام جابر .

لكن جابرا مسك قميص فارس ولطمه على خده بصفعة عنيفة ، وهو يقول صائحا : اخرج يا مجرم .. ماتت وهي تلعنك أنت وذريتك .

حدث الصفع بسرعة ، قبل أن يتداركهما الناس الذين وقفوا بينهم حينئذ فقال فارس بغضب : ثريا تعالي .. نحن لا أهل لنا.. أنت حيوان وبغل ستنام الليلة في المخفر.

فهجم عليه جابر ثانية وصفعه مرة أخرى ، وهو يقول : أنا بغل يا حقير ! .. يا قاتل .. افعل ما بدا لك .

وارتفع الصياح والهياج وعلا صوت النساء ، وخرجت ثريا من الدار باكية ، وقاد الرجال فارسا لخارج الدار ، وأخذ البعض يلوم جابرا على سوء تصرفه ، وأن الوقت وقت حزن وعزاء وليس وقت تصفية حسابات ، وقد سمعوا وهم يخرجون فارسا من داخل البيت السيدة خديجة التي تركت البكاء وغرفة النساء لتقول : يستاهل .. أسد يا جابر أسد !

فقال محسن : يا عالم .. ما هذا !!



غضب الأب

فور انتهاء عزاء أم محمود فاطمة عبد الرحمن زوجة السيد محسن جابر ، طلب الرجل من ولده جابر الرحيل من بيت العائلة ، فقد كان الشاب يسكن في داره ضمن بيت العائلة الواحدة ، فرفض جابر الانصياع للأمر معتبرا أن هذا بسبب غضبه وزعله منه لصفعه فارس أمام الناس. ولكن الأب صمم على خروجه من بيته ، فاضطر الرجل أمام غضب وتصميم أبيه أن يستأجر بيتا في نفس الحي آملا هدوء والده ونسيان القضية ، ومن ثم العودة لبيت العائلة بعد حين ، ولذلك وسط الكثير من الأقارب والأخوات ليعود ، ولكن الحاج محسن الخباز القديم رفض كل الشفاعات وقال لهم : إن تصالح مع أخيه وجاءا معا لعلي أغير قراري .

ولما رأى جابر أن والده مصر على رفض الصلح رحل إلى حي ياقوت جوهر .. ومع الوقت ضعف اتصاله ببيت الأسرة ، ونسي أمر التفكير بالعودة للبيت الكبير ، وزاد سخطه وحقده ونقمته على الدكتور فارس الذي جعله سببا للعداوة بينه وبين أبيه ، وكان الرجل صاحب مصنع صغير يصنع الحلوى الشعبية .

وهو متزوج كما ذكرنا سابقا ، وقد ولد له البنون والبنات ، وأكبرهم يسمى خضرا وهو دون الخامسة عشرة عندما بدأت فصول رواياتنا هذه ، فجابر هذا قد تزوج قبل فارس بسنوات ؛ لأنه ترك المدرسة قديما وهو في سن المراهقة ، وعمل في صناعة الحلوى في أحد المصانع ، ثم تزوج من إحدى بنات صاحب المصنع .

ولما أصبح صهرا للرجل أنشأ له مصنعا صغيرا ، فكانت حياته هادئة من ناحية العمل ، ولكنه من حبه لأخته الكبرى خديجة يقف معها سلبا وإيجابا ، وكانت قد ساعدته ماديا عند زواجه فحفظ لها هذا المعروف ، فلما رفض فارس قبل سنوات الزواج من ابنة عمه شقيقة زوج أخته مازن محمد ، بعد أن شاع في العائلة أن فارسا سيتزوج حبيبة ، صدم الرجل كغيره من أفراد العائلة الكبيرة ، وكيف يتزوج من فتاة التقطها كما يقولون من الجامعة وفضلها على ابنة عمه ؟! أصيب القوم بالذهول ، ولم يعجبهم اختيار الشاب ، واعتبروه مخادعا لهم ، ومكر بهم وبابنة عمه .

فصف جابر منذ ذلك الوقت مع خديجة وزوجها بالإساءة والتقريع بفارس ، وكانت خديجة غاضبة جدا من شقيقها ، وأشهرت غضبها ونقمتها على فارس ، ولم تشارك في عرسه ورفضت الالتقاء بزوجه ، وعاداه أيضا زوجها مازن ، ووصموه بالغادر الخائن .

وحبيبة تزوجت بعد تخرجها من كلية الطب من أحد الأطباء الذين التقت بهم في أحد المشافي التي عملت فيها ، فقد تزوجت بعد فارس بعام ونصف تقريبا ، وكانت سعيدة بحياتها الزوجية ولم تنظر لفارس بعداء كما فعل هؤلاء .

وكان جابر الحلواني يعلم أخبار الوالد بالذات من شقيقه الأكبر محمود ، فهو يعمل في بقالة صغيرة في الحارة .. وكان قديما يعمل مع أبيه في المخبز .. فلما تخلص محسن من المخبز وباعه فتح لمحمود تلك الدكان الصغيرة ، ومحمود قد تزوج قريبة له ، ولم ينجب منها لحتى اليوم ، وتعالج الرجل عند الأطباء المختصين بأمراض العقم ، ولكن الأمر بيد الله .

عندما عادت ثريا من حفل خطبة ابن زوجة أخيها حمدي ، وقد خلعت الثياب التي ذهبت بها للحفلة ولبست ثياب البيت ، وذهبت للجلوس في صالة البيت حيث يجلس زوجها فارس ، فسألها عن الخطبة والحفلة فقالت : الحمد لله إنك لم تذهب معنا.. رغم أنني غضبت وتضايقت من عدم مرافقتنا يا فارس .. واستأت لاعتذارك.

فقال مبديا الاهتمام والاستغراب : لماذا ؟!

قالت بضيق : أخوك جابر كان في العرس تصحبه قرينته .

فازداد دهشة وقال : جابر .. وما شأنه بعرس ابن زوجة أخيك ؟! هل دعاه أحد من أهلك ؟ أدعاه حمدي ؟!

ضحكت وقالت متهكمة : حمدي يدعو جابرا !.. هزلت .. ربما لا يكره حمدي أحدا في الدنيا ككرهه لجابر شقيقك .. حتى قبل مشكلتنا الأخيرة مع السيد جابر محسن .. فحمدي يبغضه منذ أيام خطبتنا .. كان مستاء منه ولموقفه المعادي لي .. وحمدي صريح .. هو لم يقل ذلك ؛ لكنه كاشفني بهذا الكره .. وحمدي شجاع ولا يحب النفاق .

ـ ولماذا كان الملعون في العرس ؟!

ضحكت ضحكة قصيرة وساخرة وقالت : كان هناك يا سيدي لأن العروس ابنة عم هناء زوجة جابر .. دنيا عجيبة .. صحبة جامعة .. فالعرسان مثلنا تماما يا فارس .. أنت تعلم أن أخي حمديا قد تزوج أرملة صديقه العزيز حسون .. فحسون كان عند حمدي أفضل منا ، ولا يكادان يفترقان ، وذلك منذ أيام المدرسة والجامعة .. وتزوج حسون فتاة من حارتنا .. كانت تعد من أجمل فتيات الحي كما يقال في تلك الأيام .. فعشقها الشاب واقترن بها وهما في أول سنوات الجامعة .. ثم تعرض لحادث سير بعد زواجهما مات على أثره ، وكانت قد ولدت طفلا ، وكانت حاملا في مولود آخر .. وكان أخي حمدي عازبا وتخرج من الجامعة ، وأراد أن يخطب فتاة وقبل الاتفاق النهائي التقى بزوجة حسون .. فترك مشروع الخطبة وتحول للأرملة متظاهرا بشفقته على أولاد صديقه من اليتم .. ومن الوفاء لصديقه رعاية أطفاله ، ولإبعاد الشبهات عن الزوجة إذا ذهب لتفقد الأولاد.. تقدم للزواج منها ، ووافق أهلها وهي على ذلك .. فتزوج حمدي من الأرملة فاتن .. وذلك كان قبل أن أشب وأدخل الجامعة .. وها هي اليوم تخطب لابنها وقد تخرج منذ أيام من الجامعة .

فقال فارس معقبا: أخوك حمدي إنسان طيب وجواد .. وقام بتربية أبناء صديقه .. وحسب علمي لم يقصر بشيء معهم .. بل علمهم في مدارس خاصة .. وها هو يزوجهم أو يزوج مرادا ابن فاتن

ـ وفاتن لم تقصر معهم ، فهي قد ورثت عن زوجها بعض المال هي والأولاد .. فأخي كان كالوصي عليهم .

ـ وها هو جابر أفندي أصبح نسيبا لأخيك حمدي .

ـ ليس بالضبط .. فمراد لا يمت لنا بقرابة .. إنما هو أخ لأم لأولاد حمدي .. وأنا لما رأيت هناء في العرس اضطربت واستغربت، ولكن أختي هند وضحت لي الصورة والسبب .. وعلقت قائلة إن جابرا مع أهل العروس مثل الديك.. تقول كأنه صاحب العرس

ـ ملعون جابر ، دائما عامل نفسه رأس وسيد ـ ووضع يده على خده ـ اللعين صفعني صفعتين كأنني ولد صغير .. لقد كانتا قويتين ظننت أنني سأموت .. اضطررت لفك رباط

العنق .. واللعين ما زال يتحدث أمام الناس بأنني سبب موت أمي بتلك الجلطة .. مع أنها هي أخذت تتكلم بحدة ، ولم تدع لي المجال لقول جملة واحدة .

وكان نحو هذا الحديث يدور في منزل جابر ، بعد عودتها من حفل خطبة بنت عم هناء زوجته فقالت : سبحان الله ! أرأيت يا سيد جابر ؟!

ـ قصدك خطيب رندا ؟

ـ نعم .

ـ نعم ، قد رأيت بعض أقارب ثريا .

ضحكت ضحكة مقتضبة وقالت : العريس يا سيدي ابن زوجة شقيق ثريا السيد حمدي .. وأنت تعرف السيد حمديا .. فحمدي هذا قد تزوج امرأة صديقه حسون والد مراد عندما مات قديما .

ـ الحمد لله تعالى أن فارسا لم يحضر الحفلة .. لو رأيته ربما ضربته أمام الناس ، ونسيت نفسي أنني في عرس وأجرمت فيه .. فلليوم أبي غاضب عليّ من أجله .. قاتل زوجته فاطمة .. قاتل أمي ما زال أبي غاضبا له .. فأكرر الحمد لله أنه لم يحضر وإلا فعلت به الأفاعيل ، ولن يفلت من يدي عندما التقيه سأمسح بكرامته الأرض.

ـ إنه أخوك يا جابر .. وأكبر منك سنا .. ولماذا تحمله مسؤولية موت أمك؟.. أمك ـ رحمها الله ـ كانت مريضة من قبل .. وخديجة ضايقتها جدا عندما عاتبتها عن عدم مجيء الدكتور والهانم لحفل زواج ابنها عصام .. مما دفعها للاتصال بثريا وشتمها ولعنها وقذفها بألفاظ قبيحة .. لا يحتملها بشر .. كان عليكم ويجب عليكم تخفيف وتهوين الأمر .. حتى تهدأ النفوس ثم يجري العتاب .

فضحك الرجل ساخرا وقال : أرى أن زواج ابنة عمك غير أخلاقك نحو ثريا وأهلها .

صاحت به محتجة : أخلاقي كما هي .. أنتم أخوة .. أهل.. وأنت أخطأت بصفعه يوم الوفاة ، ولو كان الرجل عنيفا لأساء إليك ..

فارتفع ضحك جابر وازداد سخرية وتهكما وقال : صار لي أعداء في داخل البيت .. وأنا

متحمض عليه من زمان من أيام رفضه الزواج بابنة عمنا محمد .. وجاءت فرصة لأهانته وتهزئته أمام كل العائلة ذكورا وإناثا صغارا وكبارا ..هو لا أحد أخذ الدكتوراه في العالم إلا السيد فارس .. أنا لم أتعلم ؛ لأنني كرهت المدرسة ، ووجدت مستقبلي في السوق في المهن الحرة .. وكان لقائي بوالدك خيرا ، فعلمني هذه الصنعة والتركيبة ..

فقطعت حديثه قائلة : ولكن يا جابر الجامعة والشهادة شيء مهم .. كان عليك احترام أخيك الأكبر منك وعدم إغضاب أبيك واختصار المشاكل .. ألا تحب أن ترى خضرا في الجامعة ودكتورا مثل عمه ؟!

واشتد النقاش والجدل بين الزوجين ، وكان نهايته أن جابرا نقم عليها وطردها من البيت ، وطلب من خضر أن يوصلها لبيت أبيها .

وكان لجابر منها أربعة أطفال أكبرهم خضر ، وثلاثة فتيات ، فحملتهم الأم جميعهم وغادرت البيت في سيارة أجرة .

الطلاق

غضب والد هناء عندما دخلت عليهم ابنتهم في آخر الليل تحمل أولادها مطرودة من بيت زوجها ، غضب غضبا شديدا ، وحلف يمينا مغلظا أن لا يعيدها له حتى تحفى قدماه من الترجي والندم ، ولما سمع جابر محسن بذلك التحدي واليمين رمى عليها يمين الطلاق .

وحاول شقيقه محمود لململة القضية والسعي في الصلح بينهم ، وهناء لما علمت بيمين الطلاق رفضت الصلح رغم تدخل أهل الخير والإصلاح ، ولما مضت بضعة شهور ، ولم تحل القضية صلحا تفاجأ الجميع بزواج جابر من امرأة مطلقة له بها معرفة ، قد عملت معه في المصنع فترة من الزمن ، ثم فتحت دكانا صغيرا لنفسها .

فعرض نفسه عليها فقبلته فورا ، وقبله أهلها وسكن في بيت في حيها ، وترك بيت حي ياقوت جوهر .

ولما وصل الخبر لوالد هناء قال لابنته : ها هو زوجك اللعين العاق ركب رأسه وتزوج .. ماذا سنفعل بالأولاد ؟

ـ ألم ترفع عليه قضية نفقة شرعية من أجلهم ؟

ـ رفعت ، وهو يدفع ، وهو مستعد أيضا لأخذهم عنده كما قال شقيقه محمود إذا تنازلت عنهم فأخذت بالبكاء ، ثم قالت : كنت أظن أنني أسعد امرأة معه ؛ ولكنه منذ وفاة أمه قد ركب رأسه ، وركبه جيش من الشياطين والأبالسة .. فازداد عصبية .. ودائما يسب فارسا وثريا .. ومرت الأيام وهو يزداد حقدا وكرها .. ولما خطبت ابنة عمي قريب لزوجة شقيق ثريا اشتعلت النار في قلبه أكثر .. جن الرجل يا أبتي !

ـ على كل حال إذا أنت راغبة ببقاء الأولاد معك فلن نقصر معهم .. وسأشتري لك شقة وتعيشون فيها .. وإذا كنت راغبة بالعودة كزوجة ثانية .. فاللعين كما قال محمود جاهز من أجل الأولاد أن يتزوجك ، ويعقد عليك ثانية ، بس بدون معاشرة زوجية زوجة بلا زوج .. وأنا عندي حل آخر

فقالت بلهفة : حل آخر ما هو ؟!

ـ أن تتخلي عن الأولاد ، وأزوجك رجلا آخر من معارفنا وأصدقائنا ؛ لأنه إذا تزوجت سيطلب حضانة هؤلاء .

فقالت بغضب وضيق : لا أريد العودة إليه .. ولن أتزوج آخر يا أبي .. اشتري لي شقة .. وأنا سأعمل فأنا أحمل شهادة متوسطة وأستطيع أن أصرف على نفسي والأولاد .

فقال الأب بحزن وعطف : الخير موجود يا بنيتي .. ونحن نعمل ونجمع المال كل هذه السنين لماذا ؟ لن نأخذ معنا منه شيئا إلى القبر .. أنا تهمني سعادتك وراحتك .. فنحن أهلك .. أيام معدودة بإذن الله عزّ وجل وستكون الشقة هدية مني إليك

وقامت هناء معانقة لأبيها وهي تمسح دموعا تساقطت على وجنتيها أثناء هذا الحوار المفصلي في مستقبل حياتها .

ذات ليلة وبينما الدكتور فارس يهم بمغادرة الفيلا التي يسكن فيها وقفت سيارة صالون أمام البيت ، فلما رأى وعرف من فيها أصابه رعب واضطراب ، ووقف هو وزوجته على الباب ، فنزل من في السيارة أمامه ، وهما أخته خديجة وزوجها مازن ابن عمه فألقيا عليهم السلام ، فتمتم فارس بالرد وبصوت منخفض ليخفي اضطرابه وقلقه ، فقال مازن بصوت مرتفع : نحن على موعد يا حضرة الدكتور .. أتريد الهرب ؟ نحن اتصلنا بالسيدة ..أنتكلم في الشارع أم ندخل ؟

قالت خديجة : آ .. رد يا فارس ..

فقال بصوت ضعيف : نحن على موعد .. ولم نوافق نحن على الموعد على زيارتكم .. أنتم حددتم الوقت بدون موافقتنا .

رد مازن : ليس مهما موافقتكم .. وليس مهما أن ندخل بيت الدكتور .. لسنا مشتاقين لرؤية ابن عمنا وحرمه المصون .. بنت الباشوات .. نحن جئنا لنقول لفارس أفندي.. إن والدك يرغب برؤيتك .. ولقد دمرت حياة أخيك جابر بتكبرك ونفختك ؛ كأنه لا يوجد أحد تعلم في هذه الدنيا إلا فارس محسن جابر .. فيا رجل أختي حبيبة طيبة وأفضل منك .. وأنت لا تستحقها أصلا ..أبوك عادى جابرا من أجل خاطرك .. من أجلك أنت .. من أجل أن تعود إليه .. ومن

يوم الصفعة وأنت لم تره ، ولم تزره يا حضرة الدكتور .. وجعلنا نحن السبب في هجرك له .. وكأننا نحن طلبنا من جابر أن يعتدي عليك أن يصفعك أمام كل العائلة .. أختك دليلة وأمينة وحميدة كلهنّ خاطبنك وترجينك بالحديث مع الوالد محسن والذهاب لزيارته .. والرجل منذ وفاة أمك .. منذ وفاتها بسببك وهو متعب .. وهذا الخباز الذي تستعر منه هو أبوك .. هو باع المخبز من أجلك .. وكل زملائك في الجامعة يعلمون أن أباك كان أجيرا في مخبز ، ثم تملك المخبز ، ثم باعه من كثرة تذمرك .

لم يتكلم فارس بكلمة ظل محدقا بمازن فقالت خديجة لثريا بغيظ وهي تشير إليها بأصبعها السبابة : أنت رأس الفتنة .. أنت إبليس نفسه .. أنت التي تفسدينه على أهله .. تخافين أن نأخذه منك .. حبيبة تزوجت رجلا أفضل منه عشرات المرات .. أنا أخي فارس أعرف أنانيته منذ كان على مقعد المدرسة .. أبوك راغب برؤيتك قبل موته يا نجس .. وبصقت في اتجاهه وقالت : امش يا مازن .. هذا حيوان ونذل .

فقال مازن وهو يلوح بيديه مهددا : يا ويلك إن لم تذهب لوالدك ومات قبل أن يراك .. فأبوك يحملني أنا عقوقك له وهجرك له .. عمي مسكين . وبصق هو الآخر اتجاه الأرض بشدة وانصرفا .

نظر فارس إلى زوجه وبناته وقال : لا داعي للخروج الليلة .. هذه بلدة لم يعد لنا فيها مقام مع هؤلاء الأنذال .



حادث

أخذ فارس محسن يخلع ثيابه بعد أن تعرض لتلك البهدلة والتحقير أمام بيته من قبل زوج شقيقته وأخته الكبرى ، فلما جلس في صالة البيت كانت ثريا قد أدخلت البنات لغرفة النوم وعادت فقالت قبل أن تجلس : هل تشرب قهوة يا فارس ؟

هتف شارد الذهن أو مصدوما: فكرة ! أنا في انتظارها .

وأشعل سيجارة ، وكان يفكر بالتهديد الذي تلقاه من مازن وخديجة فهمس لنفسه : أأذهب وأتصالح مع أبي ؟! أبي وقف معي ضد جابر .. وموقفه الحاد من جابر يدل على أن جابرا تصرف من تلقاء نفسه ضدي .. ولكني تعرضت للإهانة في بيته وأمام أغلب أفراد العائلة الكبرى والجيران .. كانت صفعة شديدة صدمت وشللت منها ..أبي أعتقد أن لا دخل له في ضربي وصفعي .. مازن رجل عنيف .. شرس .. وحش ! هو ابن عمي محمد .. أكبر أشقاء والدي كان لا يحترم أباه وهو حي ..

جاءت ثريا بالقهوة ووضعتها أمامه قائلة : تفضل ..إنك سارح الفكر يا فارس

التفت لكوب القهوة وقال : نعم .. كنت أفكر بتهديد مازن

ورشف رشفة وعاد يحادث نفسه : أنا كنت أتعجب من حياة خديجة معه .. لقد كان يضربها أحيانا كثيرة .. يضربها كما يؤدب الطفل .. ويهينها أمامنا دون أية حياء منا .. ثم يتصالحان ويضحكان ؛ كأن شيئا لم يحدث بينهما .. وعندما نثور ونحتج تطلب منا السكوت وعدم التدخل

رشف رشفة ثانية وأشعل سيجارة جديدة وقال لنفسه : لقد وقع في قلبي أنه سيضربني في الشارع وأمام البنات والمرأة .. لديّ مسدس عليّ حمله من اليوم فصاعدا .. هل أستطيع إطلاق النار ؟ أأنا أستاذ الجامعة استعمل المسدس ؟!

قالت ثريا وهي تضع فنجانها بعد أن شربته : بماذا تفكر؟ هل ستذهب لأبيك ؟

نظر إليها لحظات ، ثم تابع شرب القهوة حتى فرغ الكوب ورد : أفكر بالقتل !

جفلت وقالت بخوف : القتل ! قتل من ؟!

ـ قتل مازن .. ابن عمي .. لقد بصق في وجهي أمامكم .

ـ أرجوك يا فارس لا تقل مثل هذا الكلام .. الحيطان لها آذان .. لو أصابه شر لتهموك به .. فكر بالسفر خارج البلد .. تعاقد مع جامعات خارجية .

ـ أتخافين من القتل ؟ لم يبق لي كرامة .

ـ أرجوك دعنا من الكرامة والشرف .. منذ تزوجنا وأنا أضطرب كلما أراه ينظر إليّ وأشعر بحقده وكرهه لشخصي ..وأحس بأن نارا تخرج من عينيه نحوي .

ـ وأنا أكرهه أكثر منك ..أنا أكرهه منذ صغري .. عندما كنت أشاهده يضرب خديجة .. كنت أكاد أجن ؛ ولكنها تصيح بوجهي : اسكت لقد تعودت على ذلك .. وأبو عصام رجل عصبي المزاج ومتهور ..



ـ إنه وحش يا فارس .. ما العمل بما طلب ؟

ـ لقد كانت صاعقة في بيت أبي .. وكانت تهمة شنيعة .. اتهمني أمام العالم في بيت أبي بقتل أمي ولم يدافع عني أحد ؛ كأنهم مقرون بالتهمة ..أنا سبب موت أمي فاطمة ؟!

وفجأة رن الهاتف فمشى إليه وهو يقول : من يا ترى؟!

فرد وقال : محمود .. أهلا أخي محمود .. نعم مروا عليّ قبل ساعة .. تحدثنا قليلا أمام البيت في الشارع .. أبدا لم يدخلا البيت .. لا أدري أين ذهبا ؟ .. كيف حال الوالد؟ سلم عليه سأزوره قريبا

ووضع السماعة وشرب ما تبقى في كوب القهوة البارد وقال : يسألون عن المجرم .

ـ أحسن واحد في إخوتك محمود .. فهو مسالم وطيب .. ولكنه بغير ذرية .. مسكين !

ـ مريض بالعقم والضعف المنوي .. تعالج ولم ينجح معه العلاج .

ثم عاد الهاتف للرنين ثانية فقامت ثريا وردت ، وكان المتحدث ثانية محمود وأخبرهم أن السيد

مازنا وخديجة قد تعرضا لحادث صدم بعد ابتعادهم عن بيتهم .. وحالة خديجة صعبة فالضربة كانت من جهتها .

بعد انتهاء شهر واحد على حادث مازن وخديجة كانت المرأة قد نجت من الموت ، ولم يكن الأجل قد حان ؛ ولكنها أصيبت بشلل جزئي أضعفها عن القيام بواجبات الأسرة ، وعليها أن تستمر بالعلاج الطبيعي للأعصاب والعضلات .

أما السيد مازن فكانت إصاباته خفيفة ، فتحسن وضعه خلال ذلك الشهر المنصرم ، وكان قد صدم عندما علم أن فارسا لم يذهب لبيت والده ، ولم يكترث لتهديد ، وتعجب من شخص هذا المخلوق ، وقال في نفسه حانقا : لابد أنه سر للحادث الذي أصابني ، ولابد أنه توقع موتي تعجب من عقوق هذا الرجل لأبيه ، وهو يصر على هذا العقوق ولا يبالي بواسطة وشفاعة أحد فقال معزيا نفسه : ولكنه أخبر شقيقه الأكبر محمودا أنه سيتصل بأبيه ويزوره وقد مضى الشهر ولم يتحرك الرجل .

فلما اطمئن على خديجة اتصل بالسيد فارس في جامعته ، ولما سمع فارس صوته أغلق الهاتف فورا بعد أن طلب منه عدم التدخل بينه وبين أبيه .

وكان الرجل فعلا راغبا بزيارة أبيه وبيت الوالد كما أخبر شقيقه محمودا ؛ ولكنه مع حادث خديجة وعلمه بوضعها الخطير جبن وخار عن الذهاب ، ربما توقع الأسوأ لها ، فقد رفع السماعة أكثر من مرة ليتصل بأبيه ، ثم يضعف عن فعل ذلك ، فيسمع همسا في كيانه يقول : إنك متكبر ..إنك ساخط على أبيك الخباز ..لأنه خباز .. ألم تطلب منه أكثر من مرة أن يترك هذه الصنعة ؟ وأنت على مقاعد الجامعة واعتبرتها حرفة مهينة .. ألم تقل له يوما يا أبي لم تعد هذه تناسب وضعنا الاجتماعي؟ .. ولما أنهيت الماجستير باع والدك المخبز ، واشترى لمحمود الدكان يقتات منها ، وجلس محسن في البيت .

وقال لنفسه : لماذا عاد هذا الحوار الآن أيتها النفس؟! .. رغم تركه المخبز من أجلي بخلت عليه بالمال بزعم الدراسة والزواج .. وسكت الأب والأم .. هل أنا مقصر معهم ؟! .. لم يكن أبي بحاجة لمالي ولا حتى مال إخوتي .. عندما أعاد بناء البيت القديم لم أقدم له شيئا .. بزعم أن

جابرا ومحمودا يعيشان معه وهما قادران على المساعدة .. يا الهي !

هل ماتت أمي بسببي حقا كما يزعم ذاك الشيطان ؟ ثريا لم تطلب مني يوما إغضاب أمي أو أبي أو التمرد على قوانين العائلة .. أو تمنعني من زيارتهم .. كنا نزورهم سوية .. صحيح كانت زيارتنا قصيرة .. كنت مشغولا في الدراسة والتدريس .. كان الوقت ضيقا لديّ .. لابد من زيارة سريعة لأبي .. هذا مازن وحش .. سيظل يتصل بي هنا حيث أحاور نفسي الآن .. وفي البيت .. آه ! وتنهد بعمق وقال : لماذا لم يمت في هذا الحادث لارتاح منه ؟وهل الموت يريح الناس ؟!

عاد ليلة متأخرا وكثيرا ما يعود للبيت متأخرا خلال السنوات الأخيرة ، ولما عرضت عليه ثريا العشاء قال : هل أكلت البنات ؟

كان لفارس بنتان الكبرى سلوى ابنة تسع سنوات، والثانية حسناء ابنة أربع سنوات ، فردت الزوجة : نعم، ونمن ، ولا داع لإيقاظهن .. انتظرناك .. ولما أدركنا أنك ستتأخر أكلن بعض الحلوى ونمن على أمل رؤيتك في الصباح قبل ذهابهن للمدارس .

ـ أحسنت ، اذهبي وتعشي ، لقد كنت في ضيافة صديق وزميل في أحد مطاعم المدينة .. وأصر على مشاركتي طعامه.

فردت بجفاء : لست جائعة .. أتشرب الشاي أم القهوة ؟

ـ الذي يناسبك .

فلما عادت بالقهوة وبدأ الشرب فقالت : ماذا فعلت بشأن الرحيل ؟

ـ أنا لست متشجعا إليه كثيرا .. فأنا أحاول الانتقال لمدينة أخرى .. وربما تكون مدينة نصر .. ففيها جامعة مهمة .

قالت كأنها متهكمة : وكم تبعد نصر عن جوهر ؟!

ـ تزيد عن مائتي كيلو متر

ـ وهل يدعنا أهلك بدون منغصات وتلفونات ؟!

فقال ببعض الحدة : يا سيدتي لو سافرنا القمر سيتصلون وسيزعجون .. فكلما ألم وجع بالسيد

محسن أو دخل المستشفى .. أبوك في خطر أبوك سيموت .. يريد أن يراك .. وأنا لماذا لا أريد زيارة أبي؟ حتى لا يعود الحال القديم .. هؤلاء الناس يظنون أن الدكتور في الجامعة وقته فراغ ويظنونه كالمدرس أربع خمس ساعات وفرط الدوام .. لا يدرون أن هناك محاضرة في الصباح وأخرى في المساء

ـ سفر لا يوجد ؟

ـ يوجد ؛ ولكن ليس الآن .. سيكون بعد وفاة الحاج محسن .. عليّ إعداد بحث لمؤتمر قريب وكذلك محاضرة .. فأريد أن اشتغل بهما .. أنت تابعي أفلامك وقصصك .. آ .. ما آخر قصة قرأتيها ؟ ..ألا تفكرين بالعودة للعمل والوظيفة ؟ إذا كنت تشعرين بالملل والضجر .

فردت بملل من الحديث : أنا منذ ولادة حسناء كرهت الوظائف ..

السيدة ثريا هي خريجة كلية الاقتصاد وتحمل شهادة سكرتارية .. وتعرفت على فارس أثناء اشتراكهم ببعض المواد الدراسية ، وكان فارس يسبقها بعام دراسي واحد ، وبعد تخرجها عملت في شركة تجارية ، ولما ولدت ابنتها سلوى فارقت العمل بضع سنين ، ثم استعانت بخادمة في البيت ، وعادت للعمل كسكرتيرة في أحد المصارف ، ولما حملت بحسناء تركت العمل واستقرت في البيت ، وعمر حسناء اليوم فوق الأربع سنوات .. فلما سمعت زوجها يحثها للعودة العمل خشية الملل والوحدة في البيت فقالت : ونعود للمشاكل مع الخادمة .

فقال : قلت إذا عندك وقت فراغ ، ومللت البقاء في البيت وقلّت زياراتك فالعمل لا بأس به .

ـ لقد فكرت بالعمل قبل وفاة والدتك قبل سنة .. ولكني لم أتحمس له .. لديّ رغبة بمغادرة البلاد كنت آمل أن تسافر .. لقد مللت هذه البلد

ـ المشاكل طبيعية .. الحياة لا تنتهي هنا أو هناك يا ثريا .. الأعداء والخصوم لا ينتهون .

ـ أفكر بالحمل يا فارس .. ها هي حسناء تقترب من الخمس سنوات .. ألا يكفي انتظار ؟ ألا تريد ذكرا يحمل اسمك ؟ لديّ رغبة بولد ذكر يا فارس .

ـ قلت لك طفلان فقط .. لا فرق عندي كما ذكرت لك أكثر مرة بين ذكر وأنثى .. سلوى وحسناء وكفى .. أتريدين أن أصير مثل محسن جيش من البنات والأولاد ؟

ـ كلكم سبعة أنفار .

ـ هؤلاء الذين عاشوا .. أمي كانت تتحدث عن موت ثلاثة آخرين .. نحن اتفقنا يا ثريا من أيام حبنا الأول على طفلين فحسب .

فقالت برجاء : بس ولد !!



حبيبة محمد

كانت حبيبة عائدة من بيت أخيها مازن وقد صحبها زوجها خالد موسى في تلك الزيارة الخاصة لأخيها وزوجته المريضة خديجة ، ولما تعشيا العشاء الخفيف كما تعودا ، وأخذت الخادمة الأولاد للنوم جلس الزوجان في صالون البيت ، فقال خالد وهو يترك كوب الماء على منضدة صغيرة أمامه : أخوك مازن ناقم جدا على ابن عمه فارس .. اشتكى منه كثيرا .. كل الجلسة شكوى منه ..

ردت حبيبة قائلة : رغم أننا متزوجون أنا وأنت منذ أكثر من عشر سنوات ما زال أخي حاقدا عليه ؛ لأنه لم يتزوجني .. والكل منهم يقول الزواج قسمة ونصيب وقدر.. مازن كان يعتقد أنني سأكون زوجة لفارس كما أنه زوج لخديجة .. ولما أحب فارس تلك الفتاة التي تزوجها بعد تخرجه من الجامعة ، وعلم مازن بذلك أصابه جنون ، بل لوح بتطليق خديجة إن لم يتزوجني فارس .. كنت أنا أيامها أدرس في الكلية .. لم يكن بيني وبين ابن عمي علاقة خاصة .. كنا كأولاد عم وأقارب وجيران .. كنا نسكن في حي واحد قبل رحيل أبي لضيق المكان فيما بعد .. فلليوم يبدو أن السيد مازنا غير مقتنع أنني متزوجة من حضرة الدكتور خالد

ـ كلها أخبار قديمة والزواج قدر .. والدكتور فارس مرتاح مع زوجته .. وأخوك للأسف يعتبر حادث زوجته خديجة أن سببه فارس ؛ لأنهما كانا في زيارته وتهديده للصلح مع والده .. والرجل لم يستقبلهم الاستقبال اللائق ، بل كان حديثهم على باب الفيلا على رصيف الشارع ويفتخر أنه حقره وشتمه وبصق عليه في الشارع وأمام زوجته وبناته .

قالت حبيبة : أخي مازن عنيف وأخلاقه فيها خشونة .. لا أدري لماذا كل هذه الأحقاد والمشاجرات ؟! .. كل إنسان حر في زواجه وحياته .. وأنا كذا مرة ذكرت له أنه ليس بيني وبين فارس رباط أو كلام في الزواج .. لاعتبره غدر بي أو خانني .. فالرجل اختار .. لم يرفضني أو أنه كان يحبني كعروس الغد .. وإنما هذا كان كلام الكبار .. كأبي وعمي .. وكان الشاب يتردد علينا بحكم القرابة ، وبحكم زواج مازن من شقيقته .. ولم نأخذ كلام الكبار على محمل الجد .. بل لما التحق بالجامعة لم نعد نراه في البيت إلا نادرا .. وكان مازن هو الذي يدندن حول زواجي

من فارس .. فارس لحبيبة وحبيبة لفارس .. فلما لم يحصل النصيب ؛ كأنه تعقد وأحس أن فارسا غدر به ، وأن كرامته سقطت في الوحل .. ووقفت خديجة معه مؤيدة بحكم أنه زوجها ، ولترسخ ذلك في ذهنها ظانّة كغيرها أن الرجل فارس أحلامي ومتلهفة للاقتران به .. وأنا لم يكن بيني وبين الرجل شيء يا خالد .. ولا حتى رسالة أو كلام فارغ ممن يسمونه الحب .. وحتى جلساتنا كانت جلسات عائلية في غاية الاحترام والحشمة .. وكان الرجل ذكيا وحديثه ممتعا ؛ لأنه قارئ نهم وجيد .. فكان يقرأ ويقرأ .. فكنا ننبهر بمعلوماته لصغرنا فهو يكبرني بسنين .. ولما دخل الجامعة قلّت زيارته لبيت العائلة .. ولما دخلت الجامعة مثله زادت ثقافتنا ومعلوماتنا ..

ـ أنا ليتني مرة أقابله، ولا يجعل من عداوته لفارس موضوع حديثنا يا حبيبة ..آه ! إذا كان معنا جابر تحلى الجلسة .

تبسمت وقالت : جابر ..أيضا تعصب لخديجة ومازن .. واعتبر ترك فارس للزواج مني إهانة كبرى للعائلة كلها .. فكان من الجوقة التي اشتد غضبها ونقمها على فارس .. ولكن لما دخلت أنت على الخط خفت الحملة بعض الشيء على فارس .. وما زالت النار مشتعلة للأسف رغم مرور عشر سنوات على زواجي منك .. فالحقد عليه يجمعهم ويربطهم .. وأن إهانة حلت بهم جهل .. جهل .. حقيقة لمت مازنا أكثر من مرة ؛ لأنه هو المتعلم منهم ، فهو متخرج من الجامعة وإن احترف العمل في بيع وتجارة السيارات وتعلق بها من العمل مع أخواله .. ولكن لما اتركه ينسى ما لمته به .. ويعتبر كلامي كلاما في الهواء والفضاء .. والنساء عنده لا شيء حتى لو تخرجن من أكسفورد .

فقال خالد : أنا وربما لاحظت أحب التهرب من لقاءات شقيقك الفردية لكثرة حديثه عن عدوه فارس ورفضه نكاحك.. وهو للأسف ينسى أنه يتكلم مع زوج حبيبة .. ولا يعجبني هذا الكلام .

ـ يا سيدي لا تهتم به .. نحن لولا مرض أم عصام لما زرناهم .. فزيارتي لهم في المناسبات لا مهرب منها .. ولكن يا عزيزي لا أستطيع منعهم من زيارتي والمجيء إلينا بحكم القرابة

وبحكم أننا أطباء .. فأقل الناس تواصلا اجتماعيا مع العائلة هو الدكتور فارس .. فهو للأسف منذ أساء له جابر يوم وفاة امرأة عمي لم يزر والده ، وحتى أسمع أنه لا يحدثه بالهاتف .. هدى الله الجميع وغفر الله لهم .. رغم كثرة الشفاعات فما زال السيد حاملا على أبيه زاعما أنه وراء تطاول جابر عليه وصفعه مرتين أمام الناس .. وأن زعله على جابر تمثيل في تمثيل .. ومشهد مسرحي



اتصلت خديجة محسن بزوجها في متجره معلمة إياه أن والدها وعمها سالما في انتظاره في البيت لأمر هام .

فترك المتجر عائدا للبيت وهو في حيرة من هذه الزيارة في نصف النهار ، فرحب بهما، وتظاهر بالسعادة برؤيتها وهو متوجس خيفة منهما ، وبعد المجاملات التقليدية قال مازن : عسى أن يكون مجيئكم لأمر طيب ؟!

تنحنح محسن ثم قال : أنا يا مازن عتبان عليك .

لم يرد مازن إنما زاد تحديقه في وجه عمه ، فتابع محسن الذي زاد عن الستين سنة من العمر قائلا : هل أنا يا ابن أخي طلبت منك الذهاب لفارس لتهدده ليزورني ويتحدث معي ؟!

فنهض مازن قائما وقال : ويلاه ! .. وهل أنتظر يا عمي العزيز حتى تطلب أنت مني ذلك ؟! الرجل لم يبق عنده ذرة حياء .. هو لم يأخذ أحد الدكتوراه في الدنيا إلا فارس ؟ ذهبت أنا وهذه المسكينة ـ مشيرا لزوجته ـ لنصحه وإرشاده وتذكيره بحقك .. فهو يزعم أنك أنت الذي دفعت جابرا لصفعه أمام العائلة ويتهمه بقتل أمه بالجلطة التي أودت بحياتها .

فلما سكت فقال العم سالم : اهدأ يا ابن أخي .. وعد للجلوس .. نحن نعلم قصدك الشريف ولكن علمنا أيضا أنك أهنته ، وبصقت على اتجاهه في الشارع وهددته .

فصاح مازن معترضا : إذا الواحد رفع صوته على ناس فهل معنى هذا تهديد ؟ أنا ضقت ذرعا

من فعله وهجره لعمي وقد طال الهجر .. قد بلغ العام .. والرجل غير مبال وغير مكترث .. وكثيرا ما أسمع عمي يقول : لماذا لا يأتي فارس ؟ ماذا فعلت له ؟ ألم أغلق المخبز من أجل خاطره ؟ ألم .. ألم ... ؟ فحز هذا كله في نفسي .

ـ والبصق ؟!

ـ لقد رفض دخولنا بيته للمعاتبة .. أنا وأخته الكبيرة .. تصور هذا التصرف ، هذا الموقف اللئيم يا عم .. نحن نحل مشاكلنا في الشارع .. بل كان يسعى للفرار .. لا يريد مقابلتنا .

فقال محسن : يا ابن أخي أنا رجل كبير وبمقام والدك الغالي محمد جابر ـ رحمه الله تعالى ـ فأرجوك وأرجوك لا تتدخل بيني وبين فارس وغير فارس ..

احتد مازن وصاح : هو اشتكى لك ..

فقال سالم : لم يشتكِ أحد يا مازن .. إنما علمنا بهذه المعلومات من ابن عمك محمود .. ومحمود علم ذلك من ابنك عصام .

ـ ما المطلوب من يا عمي ؟ عدم التدخل بين العم وابنه العاق اللعين .. حاضر يا عمي ـ ووضع يده اليمنى على رأسه ـ .. أنا أصلا طول عمري أكره هذا الفارس العاق القاتل لأمه .. سأبتعد عن حياته .. وأنا أشفقت عليك يا عم محسن .. فجابر حردان .. وفارس حردان .. لم يعجبني هذا الحال والكل يتفرج .. اعمل خيرا تلق شرا ..

فقال محسن محاولا تهدئة الوضع : يا عم جزاك الله خيرا على نيتك الصالحة

وقال سالم : يا ابن أخي الزمن كفيل بإصلاح الأمور .. وسعيك مشكور

فقال مازن : على كل حال أنا آسف يا عمي محسن ويا عمي سالم أنتم كبار العيلة ماذا أقول ؟

غضب مازن

بعدما رافق مازن أعمامه حتى باب البيت ، وركبوا السيارة عاد إلى حيث كانت خديجة تجلس وكلها رعب وتوجس فهي أعلم الخلق بسلوك زوجها وعنفه ، فقال بنبرة غاضبة : أرأيت عاقبة السعي في إعادة فارس للأسرة ؟! أرأيت الحسد والغيرة ؟ ألم أقل لك دعينا من فارس وأبي فارس ؟

حاولت خديجة التخفيف من حدة وغضب زوجها ، ولكن لطبعه الخشن صب غضبه ونقمته على زوجته المريضة العليلة ، وهي تترجاه أن يهدأ وأنها تتعهد له بعدم التدخل في شؤون فارس وغير فارس .. ولما احتدم الصراخ والغضب فزع عصام هو وزوجته على الصياح وبكاء أمه .

ولم تجدِ دموع وبكاء خديجة في تخفيف سخطه ، حتى أن الشجار وصل لعصام الذي تلقى صفعة قوية من يد أبيه نتيجة حشره نفسه بينهم ، فاشتد غضب عصام وهدد بترك بيت العائلة فما كان من رد مازن إلا أن قال : مع ألف قلعة .. نرتاح منك ومن المصروف عليك .. هو الكراج الذي تعمل فيه يطعمك خبزا .. اغرب عن وجهي .

عادت خديجة للتوسل والرجاء لتهدئة الحال ، ولكنّ عصاما ركب رأسه وأصر على ترك بيت العائلة ، وأنه ليس بحاجة لقرش منهم .

وكان خلال أيام يغادر بيت العائلة إلى بيت استأجره ، ولم يهتم ويكترث لدموع أمه وتوسلها لخزي الشيطان .

ولما عاد مازن في مساء ذلك اليوم واخبر أن ولده البكر رحل عن البيت قال لخديجة : هذا ما جنيناه من التدخل في شؤون فارس اللعين .. الحادث الذي عطلك عن الحياة الزوجية .. وأبعد الولد عنا .. فاعلمي يا ابنة العم أنني صممت على الزواج .. وعليك أن ترحلي أنت وبنيك للحياة مع السيد عصام ما دام قد صار رجلا ويقدر يفتح بيتا .. وأنا سأبحث عن زوجة جديدة وإذا لم يعجبك هذا القرار فالمحكمة بيني وبينك .. أنا بحاجة لامرأة .. أنا رجل كهل .. لا استطيع الحياة مع امرأة عليلة تحتاج لمن يخدمها .. وامرأة ابنك تخلت عنك .. أريد امرأة أخرى قالت بانكسار : افعل ما تشاء يا ابن عمي .. تزوج .. من حقك الزواج .

بعد مضي أسابيع على خروج عصام من بيت أبيه مازن حتى سمع الناس أن الرجل قد خطب امرأة جديدة قد تخرجت من الجامعة حديثا ، ولما سأل محسن ابنته عن السبب قالت : أنت السبب يا أبي . قال محسن دهشا : أنا ؟!

ـ نعم ، أنسيت لقاءك والعم سالما بمازن ؟ وقد حذرته من التدخل بينك وفارس .. فلما انصرفتما صب جام غضبه عليّ يا أبي .. واعتبرني زوجة غير صالحة مشلولة ، وهو بحاجة لزوجة حتى لا يقع في الحرام .. فتدخل عصام لفض الخلاف بيننا فطرده من البيت وأسكنني محله .. فكل هذا من تحت رأس فارس .. فهو لعنة من اللعنات يا أبي .

ـ لا ، وألف لا ، هو اتخذ ذلك ذريعة للزواج ، فهو كان يلحن ويدندن للزواج منذ أصبت بالمرض .. وهو كان عامل نفسه شيخا علينا يا خديجة .. فلما طلبت منه الكف عن التدخل بيني وبين أولادي .. حسم أمره وتمرد .. على كل حال يا بنتي الرجل القوي لا يستطيع أن يبقى بغير زوجة .. وأنت لا تحبين لزوجك الزنا والفاحشة

ـ الحمد لله يا والدي أنا قبلت ورضيت بنصيبي وقدري .. ولولا وجود الأولاد الصغار لربما طلقني ورماني في الشارع .

ـ بيتنا يسعك يا أم عصام .. هذه الدنيا وتقلباتها .. علينا الرضا بالمقسوم والمقدر ..لا يكمل الإيمان إلا بالتسليم للقضاء والقدر .. فالحلال أفضل وأشرف من الحرام فمازن ليس كأبيك العجوز ليس له رغبة وإرب في النساء .. فتحملي .. وأعود فأقول بيتي بيتك ومالي مالك .. وهو يبقى ابن عمك ووالد أبنائك .. اصبري اصبري واتقي الله .

تزوج مازن واسكن زوجته الثانية في شقة زوجته القديمة ، وقنعت خديجة بالحياة في ظل راجل كما يقال .



خيانة

ذات صباح كان حمدي جُد شقيق السيدة ثريا متجها إلى عمله كعادته ، وكان عليه قضاء مهمة للعمل في منطقة قريبة من سكن فارس قبل أن ينطلق لمكان عمله ونشاطه ، ووجد أن لديه متسعا من الوقت بأن يمر على بيت شقيقته لشرب كوب قهوة أو شاي ، ويتحدث معها ويسمع أخبارها ، وهو يعلم أن ثريا لابد أن تكون في البيت في مثل هذا الوقت الباكر.. لأن الوقت لم يكن وقت زيارات خارجية فما زال النهار في أوله.

ولما اقترب بسيارته من مدخل فيلا فارس شاهد شخصا يدخل الفيلا مرتديا لملابس أنيقة ، فظن للوهلة الأولى أن فارسا ما زال في البيت لم يخرج لجامعته ، فتحمس للدخول أكثر ، فركن السيارة على طرف الشارع ثم مشى نحو الفيلا .. وتطلع حيث الموقف الخاص بسيارة فارس فوجده فارغا .. فدخل ولم يقرع الجرس ، وقد وجد باب الفيلا الداخلي مفتوحا وقال لنفسه متشككا: لم يخدعني بصري رأيت شخصا دخل الفيلا ؟!

فلما دخل الفيلا ونظر الصالة التي تواجه الباب ، فلم ير الداخل ولا فارسا .. فاضطرب وهتف : ثريا ثريا

فجاءت مسرعة مضطربة خائفة وهي ما زالت بثياب النوم فقالت : حمدي .. حمدي .. هل من شيء ؟!

ـ أين فارس ؟

ـ ذهب لجامعته

ـ لقد رأيت رجلا يدخل الفيلا !

ـ لم يدخل أحد .

نظر إليها نظرة حادة وقال : ثريا لست أعمى .. كنت أركن السيارة عندما دخل ظننت فارسا في البيت

ـ لم يدخل أحد .. بصرك خدك

تقدم بجراءة نحو غرفة .. فخرج الرجل وقال : عفوا

فنظر لأخته مستنكرا وقال : من هذا يا ثريا ؟!

فصاحت برجاء : استر يا حمدي استر

ـ أتخدعين زوجك ؟! .. هذا آخر شيء توقعته منك

توسلت إليه قائلة : استر عليّ يا حمدي أغواني الشيطان

صاح بغضب : أي شيطان ؟! أنت الشيطان .. لقد عادى الرجل أهله من أجلك من أجل الزواج منك .. من هذا العشيق ؟

تسلل الرجل هاربا ، وصفع حمدي أخته وقال : ماذا سنقول لفارس ؟ لقد فضحتينا

أخذت تقبل يده وتبكي وتترجى أن يستر عليها وأنها ستتوب

فقال بحدة وغيظ : لا تريدين زوجك اطلبي الطلاق ..أما الزنا وخداع فهذا عمل مشين

فقالت من بين دموعها : لم نزن .. إنما نحن أصدقاء

قهقهة وهو في ذهوله وقال : أصدقاء ؟! صديق يأتي في هذا الصباح بعد خروج الزوج والبنات تقابلين الصديق بهذه الثياب العارية .. يا للعار! أختك يا حمدي خائنة ماذا سأفعل يا ملعونة ؟

فقالت : انس كأنك لم تر شيئا

ـ يا للوقاحة .. ثم ؟

ـ ثم لن ترى مني شيئا

ـ أهو أول عشيق ؟! لا أعتقد هذا .. ماذا ستقولين لبناتك يا ثريا هانم ؟ يا ثريا العفيفة ؟

ـ سامحني يا حمدي .. أنا أخطأت ..استر عليّ .. إن فارسا لم يعد يحبني إنني لم أعد أراه كثيرا .. هذا الذي سمح لي بالتمرد .. يخرج من الصباح ولا يعود إلا في وقت متأخر

ـ هذا لا يبرر الانحراف .. والإساءة ليست لفارس وحده .. العار يلحق أباك وأخاك وأهلك لو الأمر محصور فيك لهان الخطب .. هذا لا يبرر ما رأيت .. ألم تكوني تعايريني من الزواج من امرأة صديقي الميت يا ثريا .. يا للعار !! إني حائر .. ماذا أفعل ؟! أنا لا أرضى لنفسي الزنا فكيف أراه لأختي ؟!

قالت بتوسل : صدق أنني لن أسمح لأحد أن يدخل بيتي من جديد

ـ من جديد ..ألم أقل لك إن هذا ليس أول رجل تخونين زوجك معه ؟! .. أنا لا أحب العنف وأنت تعرفين ذلك .. هذا زوجك المغفل يجب أن يعرف ليقرر

فصاحت : هل جننت يا حمدي ؟ سيقتلني

ـ لن يقتلك .. فهو ليس من الرجال الذين يقتلون .. لقد ضربه جابر وبصق عليه ولم يحرك ساكنا ، فالرجل هادئ يا خائنة .. فارس رجل مسالم وأكاديمي .. ونحن علمنا أن ابن عمه مازنا أساء إليه وتحمل وسكت .. وليست المشكلة في فارس وحده ..المشكلة أمك وأبوك .. ماذا أقول لهم ؟ أأقول لهم ذهبت لشرب فنجان شاي عند ثريا هذا الصباح ووجدتها تستقبل عشقيها في بيت زوجها

ـ هذه حياتي ..أنت تضخم الموضوع .. صدق لم يحصل بيننا أي شيء حرام

ـ لا أدري كيف أصدق ؟!.. ولماذا خرج من غرفة نومك؟ .. جاء يتغزل بك وينصرف .. ثريا ذاكرتي تعود للوراء .. الخادمة التي اتهمتيها بالعشق والهوى منذ سنوات .. وإنك وجدت معها رجلا .. لم أنس دموع تلك الخادمة .. إنها تنظر إليّ الآن .. إني أتذكر بشكل جيد .. إنني أتذكر اتهامك إياها ..ألم أقل إن هذا ليس أول رجل في حياتك ؟.. أنت خائنة رغم أنك أختي .. وصدق يومها زوجك أن الخادمة هي الخائنة وليست أنت .. وأن الخادمة بعد خروجك تتصل بعشيقها .. صدقناك يومذاك .. اليوم أنت وحدك في البيت من ستتهمين ؟ ما الحل ؟

قالت : الحل دعني وشأني .. لما يعرف فارس يفعل بي ما يحلو له من العذاب .. أنت لست زوجي ولا أبي ولا أمي .. وصرخت : أنا حرة .. أنا حرة !!

خرج حمدي في غضب وحيرة من بيت ثريا ، وهو يفكر بماذا يفعل بجريرة ثريا ؟ هل يفضح نفسه وأسرته ؟ هل يصرح لفارس بما عرف ؟ كيف سيكون موقفي أمام فارس اللعين ؟ هل اصمت حتى يكتشف الزوج جريمة زوجته وخيانتها ؟ نحن لن نستطيع أن نكون مثل الغربيين وغيرهم بدون غيرة وشرف .

كتب رسالة صغيرة لفارس زوجتك تخونك

لما قرأها فارس تعجب منها فهتف قائلا : من كتبها من أقاربك يا فارس؟! مازن لا أعتقد ..

جابر .. لا أظن .. كيف تخونني ؟!



بعدما تلقى فارس تلك الرسالة القصيرة والتي فيها خبر خطير وهو أن زوجته تخونه ..أخذ يفكر بمن فعل ذلك وكتب له ؟ فكر بمازن وجابر .. وعادت به الذكريات عندما اشتغلت زوجته في المصرف وإلى ذلك الشاب الذي كان يرافقها ويوصلها للبيت .. وتذكر الخادمة .. والتهمة التي ألصقتها بها ثريا .. لأنها نبهته لدخول الرجل الغريب بيته دون علمه .. وبعد تفكير عميق طلب إجازة لمدة أسبوعين من إدارة الجامعة ..

لما علمت ثريا بهذه الإجازة تفاجأت للوهلة الأولى .. ولم تبد حماسا لبقائه في البيت ، فهو منذ تزوجها فمن النادر أن يأخذ إجازة داخلية لمدة أسبوعين .. وبعد أسبوع وضع أمامها الرسالة القصيرة زوجتك تخونك .. فلما قرأتها تلون وجهها فقال لها : من تظنين كتب لي هذه الرسالة يا ثريا ؟

لزمت الصمت ، وامتقع لون وجهها رعبا ، ثم لما رأته لم يتكلم قالت : لست أدري!! حسادنا كثر كما تعلم .

فقال بهدوء فهو له أسبوع يعد نفسه لهذه الحوار: ولكني مصدق ما في هذه الرسالة هذه المرة .

فصاحت فجأة : أتخونني يا فارس ؟!

ـ لم أنس تلك الخادمة .. لم أنس ذاك الزميل موظف البنك

ـ قلت لك لم يكن بيننا شيء يا فارس .. مجرد زميل يحب توصيلي للبيت ، وأنت تعلم زحمة السيارات .. وهو موظف في البنك

ـ لا تظني أنني صدقتك تلك الأيام .. كنت أخشى الفضيحة .. بعد أن قاتلت بقوة من أجل زواجنا .. من أجل أن تكوني زوجتي يا ثريا .. كانت العائلة ترفض الاقتران بك .. ضغطوا بقوة .. ومع ذلك صممت على الزواج منك رغم تهديدهم أن مازنا سيطلق خديجة إن لم أتزوج

شقيقته .. فاضطررت أن أصدق أنّ الخادمة تكذب وتفتري عليك .. وأن الرجل الذي كان في البيت صديق للخادمة وعشيقها .

فأخذت تقسم وتحلف أنها لم تخنه ، ولما كفت عن الحلف قال : ولكنك تحبينه .. ذهب حبي لك في الهواء .. ذهبت حرارة ودفء الحب الذي كان في ساحات الجامعة مع ولادة سلوى .. أنا مصدق لهذه الرسالة ؛ لأنه لا يكتبها إلا صديق ناصح .. ليس جابر ولا مازن .. فهم لا يعلمون بقصة الخادمة .. وذاك الموظف ماذا كان يعمل في البنك ؟ حسنا سأذهب لمقابلته ، أريد أن ارتاح يا ثريا أم أطلقك ويذهب كل في حال سبيله بدون فضائح .. حياتي وعملي في الجامعة لا تحتمل الفضائح الأخلاقية .. ومن أجل بناتنا عليك الانفصال بهدوء وبغير شوشرة

وعدته بأنها ستحبس نفسها في البيت لن تخرج إلا معه، ولو حتى مات أبوها ، وأن يحضر خادمة لتكون سجانة لها قال : لا ، لا أريد المزيد من الشهود .. علينا أن نفترق بهدوء وبدون شوشرة أنا لا أقبل أن يكون لي شريك في الفراش .. وأنا لا أستطيع ترك عملي لمراقبة تحركاتك وتلفوناتك .. فهذه الرسالة لم تأت من فراغ .. لا تنفع الدموع اليوم .. البنات فكرت بأمرهن ستذهبين لأهلك بدونهنّ ..سأطلب لهن مربية خاصة وأجنبية .. وسأنقل سلوى لمدرسة داخلية

صاحت هائجة : أنت مجرم !

ـ لست مجرما .. أنا أعطيتك كل هذه السنوات كفرصة لتصلحي اعوجاجك وحالك ولكن السماح لم ينفع معك .. ما زلت تغدرين بي ، ولولا أن الرجل الناصح رأى شيئا جديدا ما كتب لي هذه الرسالة.. وإذا رجل البنك محب لك فبمجرد طلاقنا سيتقدم لك حتى لو كان متزوجا كما زعمت أيام تلك الخادمة

بكت بين يديه فقالت : كيف تثق بهذه القصاصة ؟

فقال: وكيف أثق بك أنا بعد هذه القصاصة زوجتك تخونك ؟ أتخشين أن لا يقترن بك بعد زواجنا ..؟

بعد صمت يسير قال الدكتور فارس : ولكن أحب أن أخبرك قبل ذهابنا للمحكمة .. أنني

متزوج عليك يا ثريا متزوج منذ ثلاث سنوات يا ثريا

فقالت مغتصبة ضحكة : لست غبية يا سيد فارس .. فأنا أعرف ذلك لا تظن أنني مغفلة كما تزعم ..فالمرأة تعرف الرجل عندما يعود من عند امرأة غيرها ؛ ولكني سكت ظننتها نزوة عابرة كما نسمع .

فقال : تزوجت لما أصررت على خيانتي .. لم أكن جاهلا سوء أعمالك .. صبرت على أمل أن تعقلي وتتركي ذلك الموظف .. صبرت من أجل حبنا المزعوم فكان حبنا وهما ..فمبارك عليك عشيقك يا مدام .. اسمه حسون .. مبارك عليك حسون .. لما جاءت الرسالة قلت انكشف الأمر .. سوف يشيع الأمر وأنا في غنى عنك وعن خيانتك .. ما أدري ما الذي أعجبك فيه ؟! لزمت الصمت .



وتم الطلاق قبل انقضاء إجازة فارس، ولما قابلت حمديا شقيقها قالت : ارتاح ضميرك . فنظر إليها باحتقار وقال : ماذا تقصدين ؟!

ـ الرسالة التي كتبتها لفارس .

ـ لم أكتب شيئا لفارس .. وإياك أن تدخلي بيتي يا ثريا .. أنا أكره شيء عندي الخيانة الزوجية فليأت عشيقك ويتزوجك .

ـ أنت مجرم أيضا ..

ـ مجرم .. مجرم ، عندما تصبحين امرأة صالحة .. ستعود الأخوة بيننا

ـ لست بحاجة إلى هذه الأخوة .

ـ لو كنت تحترمين الأخوة ما فعلت فعلتك .

وغادر منزل أبيه غاضبا .

الفضول

لما انتشر خبر طلاق فارس لثريا نزل هذا الخبر على مازن وجابر خبرا صاعقا ومثيرا ، والكل يسعى لمعرفة سبب هذا الطلاق لمعرفة السبب الحقيقي لذلك ، فحب الرجل لفتاته كان مدويا في العائلة والجيران ، فقد رفض الرجل ضغط والديه وأعمامه للزواج من حبيبة من أجل الزواج من ثريا ، فكان مازن يقول لجابر بفضول شديد : ألم تعرف شيئا من أمر هذا الطلاق المفاجئ ؟

ـ لقد حاولت بكل قوة ، ولم أعرف شيئا إلا إذا كانت لعنة أصابت أبناء الحاجة فاطمة ..

ـ ويلك ! أنا لم أطلق خديجة إذا كنت تلمح عليّ .. أختك أنت تعلم أنها لم تعد صالحة للمعاشرة الزوجية ..

تعذر جابر فقال : لم أقصد شيئا ..والأعجب تبين أن الرجل كان متزوجا سرا منذ سنوات .. أرأيت يا ابن العم ؟ اللعين متزوج من سنوات.. من قبل وفاة أمنا التي لو كانت تعرف ذلك لماتت سعيدة من بغضها لزوجة فارس .. ليس لها نصيب بالطيبات

ـ هذا الزواج الخفي لماذا كان؟.. فثريا فتاة جميلة وفاتنة .. وتلبس دائما آخر صرعات الموضة .. وحبيبته وزميلته في الجامعة وأم بناته

ـ هذا ما صدمني حقيقة .. لقد قاتل الدنيا بشراسة لينكحها رغما عن اعتراضنا الشديد على شخصها .. لقد دافع عن زواجه منها بكل قوة ، ولم يأبه لأب وعم وخال وأم .. تلك أيام لا تنسى

سأل مازن : هل لمعرفتها بزواجه عليها دخل لطلب الطلاق ؟

ـ هذا الظاهر وهذا ما يشاع .. أمعقول أنها طيلة هذه السنوات الثلاث لا تعرف أنه متزوج عليها يا سيد مازن ؟ .. يقال إن للمرأة حاسة سادسة في مثل هكذا أمور

ـ ربما عرفت وصمتت لبعض الوقت ، ثم لم تعد تطيق الوضع ، وطلبت منه إنهاء الزواج منها فرفض ، فطلبت الطلاق فوافق ما دام قد انتقل حبه لامرأة أخرى .

عاد جابر يقول بعد فترة صمت : لن يهدأ لي بال يا أبا عصام حتى أعلم أسرار هذا الطلاق .. وأنت ما أخبارك مع الزوجة الجديدة ؟ هل عادت بعد حردها الأخير؟

ـ إنها ملعونة .. النساء ماكرات ..آه لو تعلم كيف كانت تقابلني قبل الزواج منها؟! .. كنت أظن نفسي في الجنة وهي عند أهلها ؛ لكن بعد الزواج صارت نمرة .. هذه المرأة ما أن أمد يدي عليها حتى تلم ملابسها وترحل .. لقد ذلتني يا رجل .. لن أجد مثل أختك كانت تتحمل إهانتي وضربي لها دون تبرم .. لقد هممت بطلاقها أكثر من مرة .. لو أن أختك تشفى لطلقتها وخلصت من حردها .. وأنا هذه الأيام أفكر بالزواج مرة ثالثة لعلها تكون مثل أم عصام .

ـ النساء بلاء .. فأنا تزوجت مطلقة كما تعلم وامرأة فقيرة لتسلك معي ؛ ولكنها بعدما ولدت لي الولد الجديد تكاد تطلعني من ثيابي يا رجل .. بدأت تتمرد .. لولا شماتة هناء لطلقتها

فقال مازن : فعلا نساء ماكرات .. عليك يا جابر أن تعرف أسرار زواج فارس السري وأسباب طلاقه لتلك الحسناء .. إنني بشوق شديد لمعرفة ذلك فقد حاربنا بشدة من أجلها .

ـ سأسعى إلى ذلك الكشف .. وسيأتيك بالإخبار بمن لا تزود

ضحك مازن وقال : يا سلام دخلنا على الشعر !

***

اضطر فارس بعد انفصاله عن ثريا أن يظهر زواجه الثاني للعلن ؛ لإخفاء دوافعه الحقيقية لطلاقه لها ، فاعتقد الناس أنها اكتشفت أنه تزوج عليها فطلبت الطلاق ، وزواجه لم يكن سريا بمعنى الكلمة الحرفي لا يعرفه أحد ، كان الزواج معروفا لأهل الفتاة ، فهو كان مخفيا عن عائلته الكبيرة وأسرة ثريا أيضا ، وعن الفضوليين في الجامعة. والزوجة الثانية كانت إحدى طالبته ، ووافقت على الزواج منه وإخفاء الأمر عن الزوجة الأولى والمقربين ، وكان يعدها وأهلها بالصبر حتى يشهره للعلن ، وبعد هذه السنين جاء الوقت ، وعلم القاصي والداني أن الرجل كان متزوجا على زوجته الحسناء ثريا . والزوجة الجديدة قد اعتقدت أن الرجل طلق زوجته أم بناته من أجلها ، وأن ثريا رفضت أن تعيش زوجة أولى ، فوقع ذلك الطلاق ، وأبقى الدكتور هذا الإيحاء لدى أهلها وغيرها .

زهرة ـ وهذا اسم الزوجة الثانية ـ لم تكن طبعا تتوقع طلاق ثريا؛ كانت تظن أن الدكتور يمهد لإخبارها بزواجه الثاني ، فلزمت الصمت والسكون ، فهي أم بناته سلوى وحسناء .

لما أشهر هذا النكاح رحل فارس بزوجه إلى مدينة نصر، وانتقل للعمل في جامعتها ، وهي أيضا جامعة خاضعة للدولة ، وقد استقر في المدينة .

وكان الرجل قد ادخل ابنته سلوى في مدرسة داخلية في جوهر المدينة ، وأما حسناء فأخذها للعيش معه في نصر ، واستعان بخادمة للبيت ، فزهرة فتاة عاملة كانت تعمل بعد تخرجها في جامعة زوجها ، ولما انتقل نقلها معه أيضا . وبعد استقراره في مدينة نصر واجهته مشكلة جديدة كانت مؤجلة لحين ، كان الرجل قد طلب من الفتاة ألا تفكر بالحمل والولادة لريثما تتضح المواقف مع الزوجة ثريا ، ولما صار الطلاق ، وصار الرحيل ، استأذنته في الحمل ، وتوقفت عن أخذ موانع الحمل ، واستسلم الرجل لرغبتها من أجل ولادة مولود واحد ، ومضت الشهور ولم يحدث الحمل ، ترددت زهرة على عيادات العلاج النسائي والعقم ، فاخبروها أنها صالحة للحمل وليست لديها مشاكل جنسية وإخصاب .

ولما أخبرت الطبيب أن زوجها له بنات ، فطلب منها أن يعرض الرجل نفسه على العلاج والفحص الطبي . وبعد جدل عقيم استسلم لرغبتها ثانية ، وأجرى فحصا لجودة حيواناته المنوية ، وبعد عدة فحوص تبين للطبيب المعالج أن عنده ضعفا شديدا في حيواناته المنوية ، وبحاجة لمعالجات قد تستغرق بعض الوقت .

وبدأ فارس على مضض رحلة علاج من أجل بقاء زواجه الثاني عامرا ومستمرا ، وقد بلغت البنية الستة والعشرين سنة وهي بدون ولادة ، وكانت كل عودة من عند العيادة تقول له : أنت السبب .. قلت لك دعنا ننجب من أول زواجنا ، فكنت تقول اصبري أنا لا أحب المواليد الكثر فيحدث بينهم الشجار والصياح والعتاب ، وينام كل واحد منها في حجرة لعدة أيام أو حتى يقترب موعد مراجعة الطبيب المعالج ، وبعد حين من الزمن قال فارس بغضب خفيف : إذا كنت مصرة على الأولاد .. علينا أن ننفصل .. لأنني مللت من زيارة هؤلاء الأطباء والمختبرات الذين لا يفقهون شيئا .

فصاحت غضبا : اشتقت لثريا .. لابد أن هذه الهواتف منها .. اشتقت لحبك الأول .

فقال ساخطا : لم أحن لها .. ولن أرجع لثريا يا زهرة ..ولم تكوني أنت السبب لطلاقي لها .. فقد

كانت تعلم بزواجنا منذ أول سنة .. من روائح العطور التي كانت تعلق بثيابي بعد مغادرتك .. فهي أنثى ولها حاسة شم قوية

ـ لا أصدق ما تقول .. اتصلت بها ، وسألتها عن سبب الطلاق .. فقالت لي أنت السبب يا زهرة .. أنت التي خطفت حبيبي مني .. لن أسامحك يا زهرة

صرخ في وجهها : كذابة

ـ أنت الكذاب يا فارس .. إنني فعلا أفكر بالانفصال عنك .. رفضت أن أحمل .. رفضت أن يكون لديّ أطفال كباقي نساء العالم .. رضيت بالحبس والتنقل بين شقتي وبيت أمي .. وأتحمل الكلام القاسي من أجلك .. أما حياة بدون ذرية ما الفائدة منها ؟!

ـ تركت بناتي من أجلك .. سلوى في مدرسة داخلية .. وحسناء مع المربية في العاصمة يا زهرة وإذا جاءوا هنا الخادمة تقوم على خدمتهم لست أنت .

ـ صحيح ما تفوهت به ولا أنكره .. ورغم صغرهن فهنّ يكرهنني كرها ألمسه من أعينهن وحركاتهنّ .. وسلوى لما تأت إلى هنا تجعل البيت نكدا وشرا وحقدا

ـ أنت السبب ! لماذا لا تشعريهنّ بأنك تحبينهنّ وإنك أم لهنّ ؟! .. لم تعترضي على تعاقدي مع مربية لم تعترضي على وضعي سلوى في مدرسة داخلية .. فكيف سيتعاطفن معك ويظهرن مشاعر الود نحوك ؟! .. وأنا قبلت بهذا الوضع خشية المشاكل المعروفة بين الأبناء وزوجات الأب .. أتحبين أن تعرفي لماذا طلقت ثريا يا زهرة ؟

صاحت : أجل ؟

ـ جيد ! .. إنها امرأة خائنة !!

تفاجأت زهرة بالخبر وقالت : خائنة ؟!

ـ لقد خانتني قبل الزواج منك .. لقد عشقت رجلا غيري .. مات حبنا

العشيق

التقت ثريا بالرجل الذي كان السبب في إفساد حياتها الزوجية ، الرجل الذي صاحبته أثناء عملها في البنك ، كانا يجلسان في حديقة عامة وواسعة ، فقالت له بنبرة فيها غضب وتهديد : حسون لي أشهر في انتظار خطبتي ..وأنا شبعت من تعذرك وتصبرك .

اخرج السيجارة من فمه وقال : أنت تعلمين كم أحبك ؟! لي سنوات غارق في هواك .. ولكن لا أدري كيف سأتخلص من امرأتي هذه الأيام ؟ فهي حامل كما أخبرتك .

ـ أنت قلت لي في المرة الماضية إنك ستدفعها لإسقاط الحمل .. واليوم أسمع كلاما آخر .. يبدو أنك نسيت الكثير من كلامك منذ التقينا قبل سنوات في البنك .. لقد نسيت فارسا من حسن كلامك وهواك فيّ .. خلي فارسا يطلقك اليوم وغدا سأتزوجك أو اطلب يدك .. أنسيت هذا الكلام وغيره ؟.. لي أشهر انتظر قدومك .. الكل حائر لماذا طلقني فارس الولهان في حبي وغرامي ؟ .. لماذا تخلى عن هذا الحب ؟ .. رفض ابنة عمه لأكون زوجته .

ـ ألم أقل لك اطلبي الطلاق قبل أن أتزوج ؟ ولكنك رفضت ورضيت بالعيش معي كصديقة وعشيقة .. فاضطررت للزواج كما تعلمين يا حبيبتي وطلبت مني الزواج فتزوجت .

ـ كنت أظن أن فارسا لن يكتشف الأمر ، ولن يعرف القصة خاصة بعد أن طردنا الخادمة التي فضحتني أمام زوجي الغارق في جامعته ومحاضراته .. وأنت تعلم أن فارسا صدق الأيمان التي حلفتها له .. ولولا مجيء حمدي المفاجئ لما كشف السر .. عليك بتطليق زوجتك بأسرع وقت ممكن .. لم أعد أطيق البقاء في البيت كالمنبوذة .. كما ضحيت بشرفي من أجلك عليك أن تقابل ذلك بالتضحية بزوجتك .. لا أحد يعلم السبب الحقيقي لطلاقي .. عليك بالحركة يا حسون.

بعد صمت قد طال قال : والمولود القادم ماذا أفعل به ؟! إنها ترفض إسقاط الحمل فهي تقول : أنا ما صدقت وحملت به

صاحت غضبا: طلقها بهذا العذر .

ردد قائلا : أطلقها بهذا العذر .. إنه ابني يا ثريا

ـ أنا تركت بناتي من أجلك يا حسون .. فارس لا يمكن أن يعيدني بعدما استقرت الحقيقة في

قلبه .. قبل حدوث الطلاق كانت مجرد شكوك .

ـ لابد من زواجنا إذن . قالت بحدة: لابد .

قال بنوع من التوسل : ألا تتحملين حتى تلد ؟

ـ مللت الانتظار

ـ شهر واحد فقط

تنهدت أسفا وقالت : شهر واحد من أجل حبنا .. اقتربت السنة أن تنتهي منذ فارقت الرجل

ـ شهر واحد .. أنا لا استغني عن حبك .. علينا أن لا نلتقي حتى أنهي علاقتي بزوجتي .

ـ لن نلتقي بالعين المجردة حتى يذهب الشهر ..

بعد هذا اللقاء الذي تركت فيه الفرصة لحسون لترتيب أموره للخلاص من زوجته ، فقد اتصلت بعد أسبوع فطمأنها قائلا : الأمور تسير على خير ما يرام .. المشاجرات والمنازعات اشتدت بيننا .

وبعد أسبوع آخر لم يرد عليها البيت مما اضطرها للاتصال بالبنك ، فقيل لها إنه غير موجود .

وبعد حين اضطرت لزيارة البنك للقاء به ، فجاء الخبر الصاعق إنه ترك العمل .. وربما سافر

صاحت غير مصدقة: سافر !!

ـ سمعنا بذلك وأنهى خدماته عندنا

قضت أياما وهي تتصل بالرقم الذي بينها وبينه ، لا أحد يجيب .. هي لا تعرف بيته ولا حيه ولا زوجته .. تعرفا من خلال البنك ، وكان يصحبها بسيارته ويوصلها لبيتها .. ثم كانت تدعوه لشرب الشاي أو القهوة مع كل توصيلة ..حتى تطور الأمر للحب والعشق والزنا .. وأحيانا يصحبها لغداء في أحد المطاعم .

فبعد فشلها في اللقاء به والعثور عليه استوعبت غدره بها ، وأن دوره انتهى معها .. وأنها دمرت حياتها من أجل سماعها لكلام غزل ناعم .. ذكرها بأيام الحب بين ساحات وأشجار الجامعة .

الصلح

حميدة محسن تعلمت في كلية التمريض وهي تعمل في مشفى حكومي في مدينة جوهر بمؤهلها العلمي ، وهي صغرى ولادات فاطمة وزوجها محسن ، والعمل في المستشفيات يكون مجموعات مجموعات كل مجموعة لها جزء من اليوم والليلة ، ويتادور العاملون على ثلاث فترات عادة تسمى ورديات ، فشهر نهاري وشهر ليلي وشهر بين بين ، والفتاة هذه عندما بدأ سرد أحداث هذه القصة كانت متزوجة من أحد شباب الحي والجيران ، ولها عدد من المواليد ، وهي ما زالت تسكن في نفس حي والدها السيد محسن منذ ولدت وتزوجت ، وكانت حميدة هي البنت الوحيدة التي تعلمت في الجامعة من أسرة محسن ، لأنها أصغر البنات ، وقد تشجع الناس في إرسال بناتهم للجامعات .

كانت تسمع أخبار العائلة كما يسمع غيرها ، طلاق زواج ، كانت تتأثر بما تسمع ؛ ولكنها تلتزم الصمت ، ولا تعلق بشيء ، ولا تحشر نفسها مع أي طرف ، ولم تحاول ذلك .

وبينما هي في العمل ذات ليلة اتصل بها المكتب أن شقيقها يريد أن يراها ، فتركت طابق العمل إلى حيث مكتب إدارة التمريض في المستشفى لتجد فارسا في انتظارها، قد تفاجأت بطلبه ، ولما رأته أدركت أن الأمر لا يتعلق بعلاج ، فهو يتعالج في مستشفى الجامعة التي يعمل فيها لوجود مشفى كبير بين صروحها .

رحبت به وهي في غاية القلق والاستغراب فقال بعد الترحيب : مفاجأة أكيد !!

نظرت إليه قائلة : نعم .. مفاجأة خاصة من فارس !

مشيا نحو المقاعد في تلك القاعة وقال : أنا بخير يا حميدة .. لست مريضا بدنيا .. وإن كنت مريضا نفسيا .. الحياة صعبة .. أريد أن أسألك عن الوالد وأخباره وصحته .. أنا أعلم أنني مقصر في حقه وحقكم جميعا .. إنما الحياة التي أعيشها معقدة يا حميدة .. ومشاكلي لا تنتهي .. فمنذ طلاقي لثريا وأنا أعيش في جحيم .. ما أخبار الوالد ؟

ـ أراه كل يوم بفضل الله ، وهو بكل خير ، وصحته ممتازة .. ماذا تريد منه ؟!

ـ أريد أن أراه .. أراه بعيدا عن الحي وبدون علم أحد .

ـ ولماذا ؟!

ـ إنني بحاجة لدعوة منه .. بحاجة لرضى منه .

قالت : من هذه الناحية هو راض عنك رغم الجفاء منك .

ـ أريد أن أقبل يديه يا حميدة .. رتبي لقاء به

ـ أين ؟

ـ في بيت خالتي أم حسن ..

ـ بيتها بعيد عن بيت أبيك

ـ لا بعيد على السيارة .. فلنبق على اتصال .. وتحدثي مع خالتي أم حسن ومع أبي وردي لي الجواب .

ـ سأفعل يا فارس .. أبي مشتاق لرؤيتك وسماع صوتك يا فارس .

ـ اعرف ذلك .. حياة تعيسة يا حميدة .. لا تظني أنني سعيد بحياتي ..



كلية الطب

نحن اليوم في خريف سنة ١٩٩٥ ، وقد بدأ العام الجامعي الجديد ، وقد دخلت سلوى فارس مكتب والدها وبعد أن سلمت عليه قالت : معي صديق يجب أن تتعرف عليه .

ـ صديقك من ؟!

ـ أحد الزملاء يسبقني بسنة.. طبيب صاعد .

ـ رائع فليتفضل !

فتحت سلوى الباب ، ونادت على زميلها سامر : تعال يا سامر أبي هنا .

دخل سامر المكتب باسما ومرتبكا إلى حد ما وصافح الدكتور وهو يقول : سامر خالد يا سيدي طالب كلية الطب .

ـ أهلا وسهلا .. فارس محسن والد سلوى ودكتور لغة فرنساوية عميد كلية الآداب .. أتدرس مع سلوى في كلية الطب ؟

ـ أجل يا سيدي واسبقها بعام واحد فقط .. وكما تعلم يا سيدي أن هناك محاضرات مشتركة .. فتتيح لنا الالتقاء بزملاء جدد .

قالت سلوى : نعم يا أبي قد تعرفنا في أواخر الفصل الماضي .. والدكتور سامر شاب لطيف وصديق عزيز على قلبي .

تبسم فارس وقال: على قلبك .. أفهم أن هناك أكثر من الصداقة .

تبسمت وقالت : يعني ..

فقال سامر بشجاعة : سلوى عفوا الآنسة سلوى فتاة جريئة يا دكتور فارس .. نحن أصدقاء فحسب لم تتطور الأمور إلى أكثر من ذلك .. وهي رغبت وألحت أن تعرفني عليك ؛ لأنك ـ كما تقول هي ـ أب مثالي ولا تعارض أي صداقة وعلاقة بين الجنسين .

تبسم فارس وقال : حسب الأصول يا ابني نحن شرقيون ..إنما أعني العلاقات البريئة والزمالات الصحيحة.. الحرية جيدة ؛ ولكن لا تتطور إلى علاقات جنسية باسم الحرية .

هتف سامر فقال : نحن أبناء أصول يا سيدي العميد .. أنا والدي طبيب ، وكذلك أمي ، وأنا

طبيب في المستقبل .. ونحترم الأخلاق .. والآنسة سلوى صديقة عزيزة عليّ .. وإنني اقدرها يا سيدي الدكتور

فقالت سلوى ضاحكة : رائع .. رائع يا دكتور سامر !! لقد خشيت أن يغمى عليك وأنت تتعرف على أبي الغالي .

تبسم الرجلان وعاد الدكتور للترحيب بسامر قائلا : أهلا وسهلا .. أتشربون شيئا يا سلوى بمناسبة هذا التعارف ؟

ـ لا ، لم يبق وقت يا أبي لشرب شيء ؛ لكني أحببت أن أجمعك بصديقي سامر الذي كان يتهرب من اللقاء بك ..وكان مستصعبا لهذا اللقاء .. رغم كلامي الكثير عنك ليقتنع أنك لن تغضب من تعارفنا ولقاءاتنا ، وقلت له إن أبي على خلاف كثير من الناس .. المهم الاحترام المتبادل بين الأصدقاء.

فقال فارس : حسنا يا سلوى .. احرصي على نفسك ولا تسيء للثقة التي أوليتك إياها .. أهلا بالدكتور سامر ..أنا سعيد بالتعرف عليك وبصداقتك لسلوى العزيزة .. والبيت مفتوح لك ومد يده مصافحا له ، وقبلت سلوى يد والدها وقبلته على خده وهي تهمس : شكرا أبي !

ولما أغلق الدكتور باب المكتب وراءهم قالت سلوى بفرح : أرأيت والدي العزيز ؟!.. أبي ليس معقدا .. ولا يعني هذا أنه متحرر للغاية .

ـ شكرا آنسة سلوى على إتاحة الفرصة للتعرف على والدك أستاذ الفرنساوية

أمسكت يده وقالت : قلنا كلمة آنسة مشطوبة .. نحن أصدقاء وفي أول طريق الهوى والحب

توقف ونظر في عينيها : أتحبينني يا سلوى ؟

ـ جدا جدا .. كأنك أول رجل أراه في حياتي التي مضت .. أضع رسمك في غرفتي الخاصة .. واليوم سأضعها علنا ..

ـ أيقبلني أبوك زوجا لك يا سلوى؟ .. الصداقة غير الزواج

قالت محتجة : من سيتزوج هو أم أنا ؟

ـ أنت طبعا .. أمك .. عفوا أخبرتيني أنها طلقت منذ سنوات .. هل أخبرتيها بحبك لي ؟

تضايقت وضغطت على يده وقالت : اخبرها ولماذا اخبرها ؟! فهي بعيدة عنا

ـ الأمور بينك وبينها يبدو ليست ولابد .. لماذا انفصلت عن أبيك ؟.. أذكر أنك أخبرتيني أنه تزوج سرا عليها، ولما عرفت بذلك الزواج طلبت الطلاق ، لم تقبل فكرة التعدد .. ثم طلق والدك الزوجة الثانية لعدم قدرته على الإنجاب .. سيء الحظ يبدو والدك

ـ فعلا يا سامر!! .. ولكنه طيب ويحبني أنا وحسناء حبا عظيما بعكس أمنا .. وفكر قبل سنوات بإعادة الكرة ولم يوفق .. فله أكثر من خمس سنوات أعزب حتى ربما أكثر من ذلك .. التقى بامرأة شابة وتصاحبا لفترة .. ولكنها رفضت الزواج منه كما علمنا منه ، ثم تباعدا لم يتم الزواج ولدينا شغالة تهتم بنا في البيت ، ولما ارجع من الجامعة تغادر إلى بيتها وعائلتها .. وفي البيت أيضا خادمة آسيوية دائمة من جنوب شرق آسيا .

ـ أنت درست في مدرسة داخلية ؟

ـ نعم ، طلق أبي أمي ، وأدخلني مدرسة داخلية ، وأحضر لأختي مربية أجنبية ؛ كأنها فرنسية فأبي مغرم بالفرنسيين وحياتهم وتقليدهم وطعامهم ..

ـ أتزورين أمك ؟

قالت بتأن :لا يمنعنا أبي من ذلك ، نذهب في المناسبات والأعياد بالضبط لماذا طلق أبي أمي ؟ لا أحد يعرف .. ورفض أبي بقاءنا عندها عند حصول الافتراق حتى حسناء الطفلة.. وزوجته التي كان متزوجها لم تقبل حياتنا معها .. ولكنهم بعد إعلان الزواج رحلوا لمدينة نصر .. وبعد حين اتفقا على الطلاق بسبب عدم قدرة أبي على الإنجاب بعد محاولات علاج أخذت سنة أو أكثر ..

فقال سامر : وكيف يكون لقاؤكم بأمكم ؟

قالت بضيق : أمي لا تحبنا كثيرا ولا قليلا يا سامر .. يكون اللقاء ساعة أو نصف ساعة وربما أقل من ذلك .. لا أشعر بشوقها لرؤيتنا .. أمي معقدة .. وهي متزوجة من رجل كبير في السن من جيل والدها ، وهو رجل له أبناء شباب وهو أيضا عليل وسقيم .. تزعم أمي أنه يضيق بوجودنا ؛ ولكني لم ألحظ ذلك منه .. فنمكث بعض الوقت ونغادرها غير آسفين على اللقاء يا

سامر .. هناك سر عميق بين أمي وأبي حتى تتضايق من لقائنا وزيارتنا .. أو زوجها الهرم حقا لا يرغب برؤيتنا معها .. وهي لم تنجب منه ، وهي كثيرة لشرب المسكر والدخان

كأن سامرا تفاجأ بذلك : أمك تسكر؟

ـ نعم ، أنا لا أحبها كثيرا يا سامر .. لا أدري لماذا ؟! ولكنها أمي

ـ أنا سعيد بصحبتك يا سلوى .. بس لا تفكري أنني زوج الغد الواعد

ـ لن اسمح لك بالزواج من غيري ..

قال مازحا : قد ألتقي قبل مغادرة الجامعة بفتاة أحلى وأجمل منك ..

ـ أنا أجمل فتاة في الكلية صدق ذلك وربما في الجامعة

تابع ضحكه وقال : عندما أتحدث معك يا سلوى أظن أنك فتاة أوروبية ولست عربية .

فتضاحكت وقالت : ربما ؛ لأنني تعلمت في مدرسة داخلية نظامها أوروبي يا سامر .. ولكنك أنت الحبيب الأول وستبقى الحبيب الأول ـ إن شاء الله ـ .. أتحبني يا سامر ؟!

ـ أنا لا أدري !



جلس فارس في بيته الذي استأجره بعد عودته للحياة في جوهر المدينة الكبيرة ، ووضعت أمامه الخادمة الأجنبية إبريق الشاي وبعض قطع البسكويت الأجنبي ، وطلب منها إرسال سلوى إليه ، فعادت تقول : إنها تتحدث بالتلفون .

فرفع صوته مناديا : سلوى الشاي يبرد .

فردت سلوى : يا أبي إنني أتحدث مع سامر .. سأعتذر منه بعد قليل .. سأشرب الشاي باردا ـ كما تشائين .. أخذ يشرب الشاي ويقرأ في كتاب بين يديه ، حتى أتته سلوى التي سكبت لنفسها كوبا من الشاي وأخذت ترشف الشاي منتظرة كلامه معها ، ولما لزم الصمت ، قالت محتجة : نعم يا أبي .. الآن سيغضب مني سامر .. سامر لا يحب أن أقطع عليه المكالمة ،

يجب أن ينهي هو المكالمة يا أبي الفاضل .

اعتذر الأب لابنته وقال : هذه المرة سماح ..إني أريد أن أسألك عن سامر هذا .. أتثقين بأخلاقه أم هو شاب عابث .. ؟

صاحت بدهشة مستهجنة : عابث! .. كلمة خطيرة يا أبي .. لو سمعها سامر لهجرني وبحث عن فتاة أخرى .. قلة بنات في الجامعة يا دكتور فارس ..

ـ لم تفهمي قصدي

قالت : فهمت قصدك يا دكتور .. سامر يا أبي شاب يصلي .

ـ يصلي .. يصلي ؟!

قالت مؤكدة ما تقصده : ويتردد على مسجد الجامعة ،ويستمع للمحاضرات والندوات الدينية

قال وما زالت الغربة تعتريه : سامر الذي عرفتينني عليه قبل أيام ؟!

ـ أجل ، هو يحب التدين، وإن لم يظهر عليه ذلك .. وهو لا يجلس في الجامعة مع أي فتاة سواي أنا وحدي

ـ سامر خالد ؟!

ـ نعم ، سامر خالد يا أبي ..حتى أنه يحثني على الصلاة والصيام .. فأقول له أنا لا أعرف ذلك في البيت .. نحن لا دين لنا ..لا أذكر أننا تسحرنا ليلة من الليالي .. أو أنني رأيت سجادة صلاة في البيت ..

قال : عجيب ما أسمع يا سلوى .. سامر يصلي ويصوم !

قالت مضيفة : بل أكثر أصدقائه من شباب التيار الإسلامي ؛ ولكنه أحبني .. أو قل أنا أحببته هو لم يصرح بذلك .. ولكن أفعاله وتعلقه بي تدل على حبه لي يا أبي .. وهو جيد في الدراسة ومحبوب من الأطباء

سكت فارس قليلا وقال : ولماذا لا تصلين ؟!

ـ هو يقول الذي يصلي عليه بلبس ملابس حشمة .. فهذه الثياب التي ألبسها سيئة وقبيحة في نظره ..

ـ هو الذي يقول لك ذلك .. عجيب هذا الشاب ! أصادق في عواطفه نحوك ؟!

قال معترضة : وإلا لماذا يصاحبني؟! .. عابث ساخر .. أتظن أنه ممثل طامع بجسدي ؟ .. فكثيرات هنّ اللواتي يهبن أجسادهن للرجل بزعم الهوى والحرية .. لم يطلب مني قبلة واحدة سامر هذا .. يمسك بيدي أحيانا ليعبر لي عما في قلبه نحوي .. ونتصافح كلما نلتقي .

ـ ويصلي الدكتور سامر ؟!

ـ نعم ، هو يعتبرني مخطوبة له .. ويفكر جديا بطلب يدي منك

ـ أتقبلين به يا سلوى زوجا لك في المستقبل ؟

قالت بوله الوله : أنا يا أبي لا خيار لي نحوه .. الخيار له .. إنني أقول هذا بصدق لقد أحببته منذ التقينا .

ـ والصلاة والثياب ؟!

ـ هو لو أمرني بذلك بقوة لفعلت ونفذت يا أبي !

ـ أنا حقيقة معجب بصراحتك يا سلوى .. وأنت فعلا ابنة المدرسة التي تعلمت فيها .. ولكن احذري الغدر .. احذري من الذئاب

ـ سامر ليس ذئبا.. إنني أثق به.. وسيحبني ويخطبني .



فمن طبيعة وتقاليد الدراسة في الجامعات وجود فواصل بين المحاضرات بالنسبة للطلبة والمحاضرين ، فكان يقضي الطلاب هذه الأوقات بين المكتبات والنوادي العلمية والثقافية إذا كانت متوفرة في بعض الجامعات إن لم يكن كلها ، والبعض وربما الأكثر يقضي وقته بالثرثرة مع الطلاب الذكور والإناث ، ويذهب بعض الوقت في المطاعم وأمام آلات بيع الشراب ، والجامعات تتوفر فيها الحدائق والمتنزهات والأشجار .

فكلما التقت سلوى فارس بزميلها سامر في أحد أوقات الفراغ بين المحاضرة والأخرى تشتري

له علبة عصير مثلجة فيتناولها الشاب شاكرا ، ثم يجري التعليق على شيء ما ، فذات نهار بعد أن أخذ منها علبة العصير قال : كأن ثوبك جديد .. هذه أول مرة أراه عليك .

تبسمت وقالت مسرورة : بدأت تهتم بما ألبس ..

ضحك على غمزها وقال : دائما أرى ما تلبسين .. ولكنني لا أفهم كثيرا في الموضة والموديلات أنا أمي جاهل في ذلك صدقي يا سلوى

قالت : اعتراف جميل!! لقد كان أبي يسألني عنك منذ أيام قليلة ..

ـ جميل أيضا!!.. أن يسأل عني الدكتور فارس محسن

ـ أجل تحدثنا عنك في جلسة خاصة بيني وبينه

ـ ماذا يريد أن يعرف السيد الوالد العزيز ؟!

قالت مفكرة للحظات : يريد أن يعرف عن مدى العلاقة التي تربط بيننا .. هل نحن مجرد زملاء ورفاق جامعة .. أم أن بيننا علاقة عاطفية .. أي هل أنت صادق بحبي كما أحبك أنا ؟

ضحك سامر وقال : أحبك ، هل قلت له إنني أحبك .. لم أقلها يوما حسب علمي .. نحن أصدقاء وزملاء كلية واحدة .. أنت التي تظهرين لي حبك ليل نهار .. هل في رأيك هذه اللقاءات علامات الحب ؟

وتسألت : واتصالات الليل ؟!

فأجاب بابتسامة بريئة : الملل يا سلوى الملل .. أنا لا أحب الخروج من البيت كثيرا .. فلما أشعر بالزهق والملل اتصل بك ليزول ويذهب ضجري ومللي .

تبسمت وقالت : تسلية إذن

ـ أرأيت أنّنا تحدثنا يوما جادين عن الحياة الزوجية ؟.. أنت لا تصلين يا سلوى .. وأنت تتبرجين وهذه أشياء قلت لك أكثر من مرة إن أهلي لا يرضونها

ـ المهم أنت

فقال معترضا : وهم رأيهم مهم

ـ أنا إذا تزوجنا سأكون لك وليس لهم .

ـ لي ولهم

قالت : هل تعلم أن والدي تعجب من صلاتك وصيامك وعلاقتك بي ؟ .. أنا التي تلبس على الموضة وتأكل على الموضة .. تعجب جدا من صحبتنا .. فوالدي كما أخبرتك أنه لا يعرف الصلاة ولا الصوم

قال بأسف وحزن : قلت لي ذلك يا زينة .. وهذا الذي قد يعطل مشروع الزواج والخطبة .

ـ دخلنا في الجد .. هل حقا تفكر بخطبتي يا سامر أم تعبث بي ؟

ضحك ساخرا : أعبث بك ؟! .. لقد فتنني حسنك وهدوءك يا سلوى .. رغم أنك ابنة المدنية كما تزعمين .. فأنت ذات أخلاق تؤهلك لأن تكوني زوجتي ..

قالت بحب واضح : أشكرك .. آه كم أنا مفتونة بك !.. ألا يدل حديثك عن الخطبة على اعتراف أنك تحبني ؟!

ـ ليس ذلك شرطا .. كثير من الناس يتزوجون ثم يأتي الحب أو لا يأتي .. رجل يرى امرأة حسناء فتعجبه فيتزوجها قد يسعدان وقد يفترقان بعد حين .. ألم تخبريني عن الحب الكبير الذي كان بين والدك وأمك ؟ .. ثم انفصلا .. الحياة ليس شرط لنجاحها الحب .. ولكن الحب من مكملاتها .. الحب يضمد الجراح والتعب ..

ـ فلسفة إذن

قال : هذا الواقع .. أسباب نكاح المرأة بينها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

فرددت الصلاة على النبي فقد علمها سامر ذلك ، ثم قالت : لم أفهم

ـ أنا أعرف أنك لا تفهمين .. للأسف أنتم تعيشون بين المسلمين بأسمائكم فقط .. لكن ماذا أفعل لقلبي ؟!

ـ قلبك ؟!

قال : المهم .. الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن المرأة تنكح وتزوج لأربعة أسباب .. منها الجمال والحسن

ـ وما هي الأسباب الأخرى ؟

ـ أتحبين أن تعرفي ؟

ـ صدق أنني أحب .. ولا تظن أنني أتضايق عندما تتحدث عن الصلاة والصوم والوضوء .. إنني أتمنى من أعماق نفسي معرفة ذلك

قال فرحا : بشرى خير .. الأسباب الأخرى المال والنسب والدين .. قد يرغب الرجل بالزواج من امرأة لها مال كثير .. أو ابنة سلطان أو وزير .. أو دكتور كأبيك .. أو امرأة متميزة بالدين والخلق العظيم .

ـ جميل !.. أنا عندي جمال ومال ينقصني الدين يا سامر !



دعوة غداء

قال فارس مخاطبا ابنته سلوى ذات ليلة : إن حسناء ستقضي نهاية هذا الأسبوع معنا ما رأيك بدعوة صاحبك سامر لمشاركتنا الغداء لتتعمق معرفتنا به .. ؟

التقت عيناها بعيني أبيها وقالت: هل تظنه يقبل؟ .. علبة العصير يقبلها مني بصعوبة .. فهو يحب أن يقوم بدور الرجل فعلا .. وأن يقدم المشروبات الباردة والساخنة على نفقته الخاصة

ضحك فارس وقال : هذا صاحبك شرقي مائة في المائة .. الراجل يدفع .. والله إن صاحبك عجيب .. يصلي ويصوم ويصاحب البنات !

قال مدافعة عن صاحبها : سامر لم أره يصاحب أي فتاة .. تحية وبس ..لا يصافح أي بنت يا أبي إلا أنا .. وهو يعتبرني خطيبة له .

قال مازحا : خطيبة بدون موافقة الأب !

ـ فتاة حاولت سرقته مني .. أو أرادت إغاظتي .. حاولت الانفراد معه بحديث .. فاعتذر إلا بوجودي .. ولا تنسى أنه متقدم عليّ بسنة دراسية ومع ذلك يحافظ على مشاعري .. لكني سأدعوه على لسانك أقول الوالد يدعوك لمشاركتنا الغداء ولتتعرف على الطفلة حسناء .

قال فارس : افعلي ذلك .. ادعوه باسمي .. رغم أنني لم أقابله إلا تلك المرة .. فإن هذا الشاب يستهويني مثلك يا سلوى .

وبعد لحظات صمت قالت سلوى فجأة : أتخشى عليّ منه يا أبي ؟ إنه يريد خطبتي حقيقة كما قلت من قبل رغم أنني لم أسمعه يقول أحبك يا سلوى ابدأ .. ولكن علاقته بي والجلوس معي والمشي معي تغني عن الكلام ..

ـ يبدو أنه لا يحضر مسلسلات ليحفظ هذه الجملة ..

ـ وأنا فعلا أتمنى الزواج منه يا أبي ..

قال : ولكنكم من سن متقاربة يا سلوى .. ربما يكون فارق السن البسيط من عوامل نجاح الزواج ..كنت أنا وأمك من سن واحدة تقريبا .. وعشنا قصة حب كما يقال وانسجام .. ومع ذلك فشل الزواج أمام العواصف .. فتزوجت عليها ..

فقالت باسمة : لا أعتقد أن السن سبب في تباعدكما .. فزهرة كانت تصغرك بكثير ثم طلقتها

ـ زهرة تريد الذرية .. وأنا لم يبق عندي ذرية

ـ ما هي العواصف التي فرقت بينك وبين أمي ؟

قال بعد تأنٍ: ضعف الحب بيننا ،ومشاكلي مع أهلي وأهلها

ـ جعلتها تتخلى عنا .. لابد أن شيئا أكبر من ذلك دفعكم للطلاق

ـ مشاكل أكبر!.. كانت علاقتي مع أهلي سيئة جدا يا سلوى

ـ وما زالت يا أبي .. من النادر أن أراك تلتقي بقريب .. فحتى جدنا قليلا ما نراه .. لماذا لا يزورنا الجد محسن ؟

قال ساهما : ظروف يا سلوى .. إنهم يتهمونني بقتل أمي أو إنني سبب موتها بالقلب .. أترين أنني يمكن أن أقتل أمي ؟!.. صحيح أنها ماتت على أثر موقف حاد .. فجعل بعض أقاربك أنني أنا القاتل ـ تنهد بعمق ـ مشاكل تراكمت فزاد الجفاء بيننا .. فكان البعد عنهم الحل السليم .. ولكني أقابل أبي من زمن إلى زمن في بيت الخالة أم حسن بالترتيب مع حميدة عمتك حميدة

فاجأته بسؤال : هل تحب أباك يا أبي؟

ـ هل أحب أبي؟! طبعا أحب أبي .. قد يبدو لك أن بيننا برودا فالسبب أنهم يتهمونني بمقتل جدتك أمي .. حتى أن أحد أعمامك يوم موتها صفعني مرتين أمام حشد من الأقارب والجيران لأهلي .. وحقرني وطردني من دار أبي .. واتهمني علنا بمقتلها .. كانت إهانة قاسية وعجزت يومئذ عن فعل شيء .. ولم يدفع أحد الظن عني .. فغادرت كمدا مجروحا ناقما .. علمت فيما بعد أن والدي طرد عمك من بيته .

ـ أي عم ؟ لا أعتقد العم محمودا .. فهو يتحين أيام الجمع ليراك

ـ عمك جابر ، ولا أظنك تعرفينه جيدا

ـ إنه مجرد خيال ..أنا لا أعرفه فعلا .. حتى عماتنا لا نعرفهن معرفة جيدة يا أبي .. العمة حميدة عرفتنا عليها قبل سنوات ..

ـ نعم ، للأسف معرفتكم بعماتكم ضعيفة .. وبعد طلاقي لأمك أيضا خفت علاقتكنّ بأخوالكنّ وخالتكنّ .. ومن أجل المشاكل التي أحاطتني أرسلتكن للمدارس الداخلية لإبعادكنّ عن هذه التوترات والمناكفات .. كننا ننهش في بعضنا نهشا ، نحن ليس لنا من أهلنا إلا العم محمود والعمة حميدة التي تلقينها أحيانا عندما تصحبنني لبيت خالتي أم الحسن لرؤية أبي

ـ لماذا لا تتصالحون يا أبي ؟!

ـ الأمور تعقدت يا بنية .. فعمك جابر طلق زوجته الأولى ، وتزوج أخرى بسبب مشاكل العائلة .. وقد طرده أبي من بيت العائلة الكبير .. ووالد زوجته الأولى اشترى لابنته شقة واعتنى بها وبأولادها .. فشب الأولاد يبغضون أباهم ويعتبرونه مجرما ، وأولاده من أجيالكم .. وسمعت أن خضرا تزوج من عهد قريب ، ولم يدعُ والده أحدا منا لعرسه وزفافه .. وعمتك خديجة تعرضت لحادث هلك نصف جسدها منه ، فأصبحت مشلولة فتزوج عليها ابن عمنا عدة نساء .. وباقي عماتكم لي سنوات لم ألتقِ بهنّ .. فخطوط الاتصال بيننا ضعيفة وربما مقطوعة .. كنّ بعيدات عن مشاكل العائلة فظللن بعيدات .. فمنذ موت أمي تشتت العائلة وابتعدنا عن بعض وكلٌ انشغل بنفسه وحاله ..

بعد فترة صمت عاد يقول : نعود لدعوة سامر فبادري بالاتصال به ، وقدمي له العرض .. وما دام يفكر بالاقتران بك وتعتقدين أنه جاد فليتفضل للغداء معنا

ـ لا أظن أن سامرا يعبث بي وسيغدر بي ويتلاعب بعواطفي يا أبي الحبيب .. فأنت خير من يعلم الفساد في الأماكن المختلطة .. وبائعات الهوى كثر رغم تسربلهن بالدراسة .. فنسمع قصصا تقشعر لها الأبدان إذا كانت صحيحة يا أبي .. فبعض الفتيات تبدل ثلاثة أربعة عشاق في كم شهر .. كأن العواطف لعبة ومهزلة .. وعلى رأي سامر معرض الأزياء دائم ومستمر في الجامعة ..

همس فارس : نعم ، انهزمنا أمام الغرب .. بل انسحقنا للغاية يا سلوى ، أنا وأنت وغيرنا فنحن نرى ذلك هو جمال الحياة .. بل الحياة نفسها.. ما كان أمامي إلا أن أمشي أنا وأنت في درب

التقليد الأعمى والانصياع له .. نحن الأعضاء الضعاف نلهث وراء القوي في كل شيء

ـ هل نحن نادمون؟!

رد حائرا فقال : نادمون ! كيف نندم ؟ نحن لم نصنع ذلك بأيدينا .. الدول القوية هي التي تصدر لنا كل ذلك باسم الحرية .. وكلنا يحب الحرية.. باسم الديمقراطية .. وليس من السهل السير عكس التيار .. فلما انتقلنا من مدارس الفصل بين الجنسين إلى الجامعة والاختلاط بالنساء والفتيات والأفكار وسماع الحكايات والمغامرات ضعفنا.. فهذا شيء مثير ومبهر لشاب مراهق أن يجد نفسه بين عدد من الفتيات السافرات .. يتحدث معهن في أمور حساسة يخجل أن يتكلم بها أمام الفتيان .. فماذا ستكون النتيجة ؟ يوم مع هذه وآخر مع أخرى .. فأصبحت مصاحبة هذه ومصاحبة تلك أمر هين .. بل رأيت من يتلقى عشرات الرسائل من عشرات الفتيات في آن واحد .. انفلات عجيب وماكر .. بل يوصف الشاب الذي لا يصاحب فتاة أو أكثر متخلفا ومعقدا .. والشاب المنتقل من بيئة محافظة والمحروم من مصاحبة المراهقات يجد نفسه في بيئة الجامعة والاختلاط في لهفة وهوس .. والجامعة لابد منها اليوم للدراسة والعمل في المستقبل .. حتى أننا كنا نسمع بعض قصص الشباب في كليات تعتبر محافظة كالشريعة والعربية .. أرى الوضع اليوم أخف من أيامنا .. أو أن الناس اعتبرت الأمر عاديا طبيعيا فقل تناقل مغامرات الشباب والشابات كالسابق .. ها أنت تتحدثين عن صاحبنا سامر بأنه لا يرضى بمخالطة الفتيات والعبث بهن .. أنا أذكر أيام دراستي إذا لم نجلس بين خمس طالبات أصبحت منبوذا .. ولا يعني الجلوس معهنّ خداعهنّ بالحب والزواج والأوهام إنما التسلية والعبث .. السخرية من بعضنا البعض.. والكل يخترع حكايات البطولة

ـ لقد حاول بعضهم جري لمثل ذلك بعدم الالتزام والارتباط بشخص واحد خلال سنوات الجامعة ، فهذه سنوات طوال .. ولكنّ سامرا حذرني من اللعب على الحبال ، وحذرني من كثرة الأصدقاء .. سلام وبس .

ـ وهل أطعته بذلك ؟

ـ لا أستطيع أن أرفض يا أبي .. فسامر شيء مهم كما قلت لك في حياتي .. أنا أثناء المحاضرات

أحيانا أخرج رسمه وأنظر إليه .. أرغب أن أبقى معه باستمرار.. أحاديثه وأحلامه ساحرة وممتعة .. فلو قال شيء عليّ التنفيذ .. لا تزعل مما أصرح به.. أنا مسحورة به .. أرجو ألا تتضايق من حريتي يا أبي .

ـ كيف أتضايق من صراحتك ومن عواطفك الصريحة ؟!.. أنا أحب الصراحة حتى ولو كانت مؤلمة .. نحن في مجتمع مليء بالعيوب والأمراض .. وأنا تأثرت من كلامك مع سامر .. وحبك وميلك العجيب له .. والعجيب أنه يصلي ويصوم ويعترض على ثيابك القصيرة والبنطالات

قالت : هو يريد أن أتخلى عنها بدون ضغط وإكراه ، ولكني عاجزة عن فعل ذلك .. عاجزة للغاية .. تعودت عليها وأصبحت جزءا من كياني .. وهو يعلم أنني عاجزة وضعيفة .. فقال مرة عندما تصيرين خطيبة يمكنني أن اشدد عليك يا سلوى

ـ أتستطيعين الاستغناء عن هذه الثياب ، وهذا اللبس بعد أن تعودت عليها وعن المكياج ؟!

ـ المكياج لم أعد استعمله .. ألم تلحظ ذلك يا أبي ؟ لا استعمل إلا أحمر الشفاه .. حتى العطور الباريسية أتجنبها في الكلية .. استخدم بعض العطور ذات الرائحة الخفيفة

ـ وأين تذهب عطور باريس التي اجلبها لك ؟

ـ استخدمها داخل البيت .. وبعضها في خزانة الثياب .. سامر لا يحبها ، وقال إنها تثير الغرائز وتلفت أنظار الشباب أكثر .. للروائح إثارة حادة .



حضور الدعوة

قبل سامر الدعوة التي قدمتها سلوى بلسانها عن رغبة أبيها بهذه الدعوة ، بل قبلها سريعا دون تردد أو تفكير مما أثار دهشة سلوى ؛ ولكنها لزمت الصمت في مناقشة سامر بسرعة قبوله .

وبعد صلاة الجمعة انطلق سامر إلى الضاحية التي يقطن فيها الدكتور فارس محسن ، ووجد الدكتور منتظرا أمام الفيلا ، وتصافح الرجلان وبعد التحية والسلام قال سامر : خشيت أن أضيع في هذا الحي .. لا يوجد محلات تسألهم عن بيتكم ..أسمع أن أهل مثل هذه الأحياء لا يعرفون بعضهم بعضا !

ضحك فارس وقال : إلى حد ما يا دكتور سامر.. الكل في عمله .. الرجال والنساء في الغالب فهم يحيون بعضهم بالإشارة ؛ لأن أغلبهم يركبون سيارات خاصة .. وهذه ضاحية من فلل مستقلة .. ربما نظام الشقق يسمح للجيران بالاختلاط أكثر.. أهلا وسهلا بك يا سامر.. أنا خشيت من كلام سلوى أن ترفض ..

قال سامر: هذه أول مرة أقبل دعوة مثل هذه من سلوى خارج الجامعة .. لست محبا لدعوات المحافل والمطاعم والسهرات ..

ـ هذا شيء لم تخبرني عنه سلوى .. ألم تخرجا معا للغداء في مطعم أو نادي ؟

ـ لا ، رغم محاولاتها .. حصرت صداقتنا في الجامعة

ـ ولا مسرح ولا سينما ؟

ـ لا أحب ذلك يا سيدي الدكتور .. قبل الجامعة دخلت السينما بضع مرات ، ثم أحسست بالندم والسخافة بعد حضور كل فلم ، وأنني ضيعت وقتا بغير فائدة وعلم ..أنا يا سيدي أحب العلم والقراءة الكثيرة

قال الدكتور : طال الوقوف بنا أمام البيت .. وسلوى وحسناء ينظران إلينا بغيظ .. انظر إليهنّ واعلم أنني معجب بك وبأفكارك .. فأنت رجل بمعنى الكلمة يا سامر

قال بحياء : شكرا سيدي ، وأنا أفخر بسماعي ذلك من شخصك الكريم

دخلا الفيلا وأخذت سلوى وحسناء تعاتبان أباهما على طول مكثهم أمام البيت فاعتذرا لهم

وتابع سامر قائلا : التلفزيون والفضائيات أخذت موقع السينما والمسرح وحتى المعارض

ـ نعم ، الفضائيات عالم جديد في زمننا هذا

فصاحت سلوى: بماذا تتحدثان ؟ .. التلفزيون .. المسرح .. السينما .. ظننت لما رأيتكما تتحدثان أمام البيت أنك تعتذر لوالدي عن الغداء

ضحك سامر وقال : دعوة الدكتور لا ترد ، ولو أردت الاعتذار لاستخدمت الهاتف .. هذه حسناء الحسناء .. كيف حالك يا حسناء؟ .. أنا سامر زميل شقيقتك في الجامعة .

ـ اعرف .. لقد جننتني بالحديث عنك .. أنت إنسان عادي

ضحك فارس وسامر على مداعبة حسناء فقال سامر : أنا بالطبع إنسان عادي ، ولم أنزل من الفضاء .. من كوكب آخر .. مرحبا بك

رحبت الفتاة بسامر وقالت : أنا سعيدة بوجودك معنا يا دكتور سامر .

جلسوا في غرفة الاستقبال ، وبعدما قدمت لهم الخادمة شراب الفواكه قال فارس : لقد ظهر من حديثي مع سامر شيئا جديدا لم تتحدثي به أمامي ؟

نظرت الدكتورة سلوى لوالدها باسمة وقالت : شيء جديد لا أعرفه ؟!

ـ تعرفينه ولم تتكلمي به أمامي .. علمت أنكم لم تتناولوا طعاما في مطعم خارج أسوار الجامعة لم تترافقا في غداء أو عشاء أو سهرة في نادي أو مقهى

ضحكت سلوى وقالت وهي تنظر لسامر مرة ولأختها حسناء مرة أخرى : سامر رجل محافظ يخشى أن يرانا والده .. فتصير فضيحة

تضاحك السامعون على نكتة سلوى ثم قال سامر: أبي يثق بي وكذلك أمي .. ونحن ليس بيننا رباط خاص لنسهر ونتعشى .. وسمعتك مهمة عندي يا سلوى .. وأنا لست عاجزا عن فعل ذلك .. ولست بخيلا يا دكتور فارس .. فأنا أدرس على نفقة الوالدين .. فلن يعجزهما دفع المزيد من المال ..

قالت سلوى وهي تنتقل للجلوس بجواره : أنا امزح .. لا تغضب ..

ـ ابدأ لست غضبان ولا متضايقا .. فالذي بيننا سيكون حياتنا

فقالت : وسامر يا أبي ليس من عشاق المسارح والسينمات .. ويعتبر ذلك سخافة وإضاعة وقت فمسرحنا ساحات الجامعة وأشجارها .. وهو يحب الاستلقاء على الأعشاب .. ونقضي نصف وقتنا إن لم يكن كله .. عن الحديث عن النبات والزراعة وفوائدها .. والحشرات التي تعيش عليها وعجائب أفعالها ... فأخرج من محاضرة إلى محاضرة مع أستاذي سامر .

نهض فارس قائلا : لا بأس .. ها هي بيبيانا تقول إن الطعام قد وصل ..

دخل عمال أحد المطاعم يحملون صواني الطعام والعصائر .. ودخلوا به إلى غرفة سبقتهم إليها الخادمة ، وهم يعرفونها ؛ لأنها ليست أول مرة يقدمون بها لهذا البيت .. فكل مناسبة يأكلون في البيت تحضر لهم شركة صناعة الطعام الطعام للبيت .

فلما خرج عمال المطعم دعاهم فارس للغداء . ثم عادوا بعد طعامهم إلى صالة الجلوس ، فجلس سامر على أحد المقاعد الوثيرة وبجواره فارس وقابلتهما سلوى وحسناء ، ووضع بين أيديهم الشاي ، فسامر من المغرمين بشرب الشاي كما أخبر سلوى ، فلما وضع الكوب أمامه قالت : شاي على الطريقة الفلبينية فخادمتنا فلبينية يا سامر ..

فقال سامر : كلنا أبناء آدم وحواء

فضحك فارس وحسناء وقال فارس : هذا سامر صديقنا يا حسناء

فقالت بحياء : شاب لطيف

فضحك سامر وقال بحياء : شكرا يا حسناء الحسناء .. أنت تتلقين العلم في مدرسة داخلية مثل سلوى قبل الجامعة ..

ـ نعم يا دكتور .

ـ هل أنت مرتاحة فيها ؟

ـ يعني ...

فقال فارس متحسسا: ماذا يعني يا حسناء؟! .. أنت في مدرسة داخلية لظروفنا التي تعلمينها أنا في العمل .. وسلوى في الجامعة .. ولا أم في البيت

فقالت حسناء : أنا أتمنى أن أعرف لماذا تكرهنا أمنا ؟ على غير ما نسمع عن الأمهات !

فقال فارس بضيق : أمك لا تكرهك يا حسناء ، لكل ظروفه وأحواله .. ألا تذهبين إليها كل شهر ؟.. لرؤيتها والجلوس معها

فصاحت بغضب خفيف : إني لا أحب رؤيتها ..

فنظر فارس لسامر وقال : لعل سلوى وضحت لك شيئا من طلاقي لأمهم .

ـ كأنني سمعت بعض الشيء .. لماذا لا تتزوج مرة أخرى يا دكتور فارس ؟! ..أنت ما زلت شابا

رد باسما : سأفعل في الوقت المناسب .. يا حسناء السيد سامر يدرس في كلية الطب مع شقيقتك سلوى ليصير طبيبا في الغد الواعد ..

ـ تشرفنا يا دكتور .. آسف لذكر بعض مشاكلنا وهمومنا أمامك

ـ أبدا يا حسناء .. نحن أهل ، وربما يكون ذلك قريبا إذا وافق الوالد العزيز

ضحك فارس وقد فهم مغزى كلام سامر: أوافق !.. أنت عجيب يا سامر .. اليوم الكلام لكم أنتم .. وهل إذا قلت لا ستقبل سلوى؟ .. سلوى تتحدث عنك أمامي بكلام أشعر بأنها تعبد الأرض التي تدوس عليها ..

قال سامر كأنه معترضا على تعبير فارس : استغفر الله .. استغفر الله .. العواطف في الإنسان عجيبة يا سيدي الفاضل .. أنا كما تعلم أسبق سلوى بعام دراسي كامل .. وقد التقيت بأوانس وموظفات كثر في الجامعة .. ومع ذلك لم اهتم بأي فتاة .. ومع احتكاك عدد منهن بي لتكوين صداقات .. أيضا رفضت أي صداقة بغير حدود المعرفة في قاعة الدرس .. إلى أن كنا يوما في مدرج محاضرة .. فجلست قريبا مني سلوى .. لقد كانت ثيابها جميلة ومثيرة للنظر .. وربما كل من في المحاضرة رآها وتأملها

قالت سلوى : ماذا تقصد بالمثيرة ؟ .. فأنا ألبس مثل كل بنات الكلية .. لا أذكر أني ألبس شيئا مميزا عنهن ..

فقال سامر ضاحكا : مع الاحترام لكم جميعا كنت يومها تلبسين ثيابا من ينظرها يظن أنك بلا ثياب .. معذرة يا دكتور .. لا أعرف أحيانا تلبس الفتيات ثيابا كأنها ليست ثيابا .. ثم تبين لي

أنها موضة جديدة كانت تنتشر في البلد .. وكانت سلوى أيضا تضع عطرا ظاهرا للعيان .. ورائحته قوية وجميلة ونفاذة .. فشدت نظري إليها في ذلك اليوم .. وفوق ذلك كانت جميلة .. المهم انشغلت باختلاس النظر إليها وتحركت غرائز الإعجاب نحو هذه الفتاة .. وأدركت يومئذ أن بعض النساء تفتن الرجال .. إنني أتكلم بصراحة يا دكتور .. فصرت استرق النظر إليها .. والمفاجأة أنها كانت تفعل مثلي .. وكلما تتلاقى عيوننا نتبادل الابتسام .. وتكرر النظر واختلاس النظر بيننا .. بالنسبة لي أنا كانت هذه أول أنثى تثيرني يا دكتور فارس .. اغفر لي هذا الحديث الصريح لأن له ما بعده .. وهي زعمت بعد تعارفنا أنها كانت مهتمة بي من قبل ولكني لم أكن مكترثا .. بملاحقتها .. لما رأتني أحدق بها .. اقتربت مني وأحبت أن تتعرف عليّ .. ووجد ذلك في نفسي هوى .. فرحبت بها وقلت لها صراحة إنني مفتون بك يا سلوى .. وهي أول مرة أضعف فيها أمام هذه العيون ثم صرنا أصدقاء بمعنى الكلمة

وقالت سلوى بسرور بائن : وصرت تغار عليّ .. كأننا عنتر وعبلة.. أو قيس وليلى .. افعلي كذا ولا تفعلي كذا

وقال سامر : وجدتها تعشقني عشقا كنت غافلا عنه يا دكتور .. وأنا عرضت عليها أن أخطبها بسرعة الصاروخ ..

فقال فارس : رغم أن هذا الكلام الصريح صعب على النفوس .. ولكني معجب بك .. ومعجب بأسلوبك الراقي في الحديث وتبسيط القضايا .. ولا تشعر بالحرج مع أنك تتحدث مع والد الفتاة التي خفق لها قلب الشاب .. ومع ذلك لليوم لم تصرح لها بتلك الكلمة الخالدة ـ كلمة عظيمة .. ولكن أهل العبث جعلوها سخيفة .. بعض شباب الجامعة يقولها لخمس فتيات في اليوم الواحد .. أحبك .. أحبك .. فهل هذا حب ؟ إنه لهو ولعب .. كلمة تتردد على الأفواه بشكل متكرر وممج ، ويتغنى بها المغنون والمغنيات حتى صدعت رؤوسنا منها .. الحب يا سيدي الدكتور بالقلب والفعل

فهتفت حسناء معجبة : فعلا أنت مدهش يا سامر ! .. فأنا أرى أنك محب لسلوى أكثر من روميو الذي قرأنا قصته في المدرسة .. فهي من القصص المهمة لوليم شكسبير المسرحي

الإنجليزي والشاعر العظيم .

فقال وهو يشكر حسناء برأسه : وهل يأتي طالب لخطبة فتاة من غير حب ورغبة وإعجاب ؟! طالب .. أتعرفين معنى طالب ؟! يعني عالة على أهله في دفع ثمن المحاضرات والكتب والمصروف .

فقال فارس : إنك كبير يا سامر ! ..أنت مثقف وقارئ جيد جدا .. فأنا كما قلت آنفا لا دخل لي بالموافقة .. الأمر لكما .. ولكن أهلك يا سامر ؟

ـ أهلي .. أهلي يعرفون بصداقتي لسلوى .. ولما وضحت لهم مشروع الخطبة خلال فترة الدراسة ثم الزواج يكون بعد التخرج .. وأخذت بذكر ما أعرفه عن سلوى وأسرتها .. قالوا إنك قد ترفض بشدة

صاح فارس دهشا : أرفض ؟! هو أنا الذي سيتزوج يا سامر ؟!

تبسم سامر وقالت سلوى مستغربة لكلامه : ماذا تقول ؟ أنا التي يجب أن توافق وتقبل !

صاح سامر : أنت موافقة يا سلوى .. هل غيرت رأيك ؟

فخفضت نظرها للأرض وقالت : وهل لي رأي يا سامر ؟!

فضحك فارس وحسناء لخضوع سلوى لسامر وعاد فارس يقول : ولماذا يتوقع أهلك أنني سأرفض ؟!

نظر إليهم سامر ناقلا بصره للجميع ثم قال : لما أخبرت أمي وأبي عن سلوى ووالد سلوى ضحكا ضحكا عاليا حتى ظننت أنني أتكلم بنكتة أو طرفة .. ولما دعتني سلوى لهذا الغداء قلت إنها فرصة للمكاشفة يا سيدي الدكتور

فقال الدكتور : ما زلت في حيرة ؟ هل لوالدك معرفة بي ؟

فابتسم سامر وقال : بل هم أقارب لك .

أطفأ فارس سيجارته للمفاجأة وحدق بعيني سامر وقال : أقارب لي !

ـ أجل يا سيدي الدكتور ، قالت أمي في يوم من الأيام كان أهلها يرغبون بتزويجها منك

وقف فارس دهشا وقال : يا الهي !.. حبيبة محمد .. أمك ابنة عمي.

ـ عرفت من عهد قريب أن أمي ابنة عمك .. فأبي هو الدكتور خالد موسى وأمي من ذكرت فلما تزوجت السيدة ثريا تزوج أبي خالد الطبيبة حبيبة وأنا ابنهم البكر .

وضع فارس ـ وهو يعاود الجلوس ـ رأسه بين يديه وقال: يا الله !



تلقى فارس اتصالا هاتفيا من شقيقته حميدة محسن قالت بعد السلام والسؤال عن الصحة : إن أختك أمينة وأنا ندعوك لحفل زواج ابنها محمد على ابنتي ناعسة

ـ البنت صغيرة يا حميدة !.. أليست البنت الصغيرة ؟

ـ هي صغيرة بالنسبة لبنات اليوم .. فبعد سنة تأخذ الثانوية العامة .. لكن ابن أختي راغب بالزواج منها .. وأبوها موافق ، وكذلك البنت لم تمانع ولم نجبرها يا دكتور ..

ـ ومحمد هذا ماذا يعمل ؟

ـ هو مهندس .. عمره خمس وعشرون سنة .. درس هندسة مدنية .. أنت لا تعرفه .. أولاد أمينة أربعة وبنت واحدة ..هو معجب بالبنت .. وبين والده وزوجي قرابة أيضا .. وأنا يوم الخطبة لم أدعوك لمعرفتي برفضك لمثل هذه الحفلات العائلية كما عودتنا ..وأما اليوم فربما تغير الوضع

ـ تغير لماذا؟

ـ سمعنا أن ابنتك قد تتزوج من ابن حبيبة الدكتور سامر .

تبسم فارس وقال لنفسه لا شيء يُسر ثم رد : حقيقة كانت مفاجأة لي معرفة سامر خالد بسلوى وهو ولد لهلوب وعقله كبير .. أتعرفينه يا حميدة ؟

ـ لأ ، منذ تزوجت حبيبة من الدكتور خالد ، وعلاقتنا ضمن المناسبات الضيقة كعرس أو مأتم والدكتور خالد قليل الاختلاط بنا وبعائلتنا .. وحتى زيارات حبيبة العائلية لا يرافقها فيها كثيرا .. فهو مشغول في عيادته ومرضاه .. وسامر لا أعرفه قطعيا .. ربما كنت أراه صغيرا

ولكني اليوم لا أذكره .. فقط أسمع باسمه عندنا يأتي حديث أولاد حبيبة في أثناء أحاديثنا العامة والعابرة .. وحبيبة كما تعلم طبيبة مثل زوجها وعندها خمس أو ست مواليد .. وهي سيدة فاضلة وتكنى بأم سامر ..

ـ متى حفل زواجكم وأين مكانه ؟

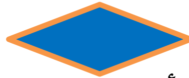
ـ يبدو أنك ستغامر بالمجيء .. فحفل زواجنا سيكون في صالة حفلات عنوانها (صالة الشهد في شارع بهلول الشامي) الساعة التاسعة ليلا يوم الأربعاء

قال مضطربا : إذا جاءتني الشجاعة يا حميدة سآتي ومعي البنات .. هل سيدعى الدكتور خالد لهذا الحفلة ؟

ـ نحن في مثل هذه المناسبات يا فارس ندعو كل بنات العم وأبناء العم وأبناء الخالات .. وحبيبة ابنة عمي محمد .. وأنا وأمينة أهل العروس والعريس .. سندعوهم بإذن الله تعالى .. وسأدعوها بالهاتف أيضا فوق كرت الدعوة .. وأبين لها رغبتك بالتعرف على الدكتور خالد والد سامر .. أليس ذلك جيدا ؟

ـ أنا أعرف ذكاءك يا حميدة .. أنا بالنسبة لزواج سلوى من ابن حبيبة لا اعتراض عندي .. الأمر كله لسلوى وسامر .. فهي التي ستوافق وتتحمل مسؤولية الزواج المبكر .. وأنا ليس في قلبي ضغينة لحبيبة .. أو غيرها .. وأنا لم أقل لحبيبة يوما ما إنني سأتزوجك .. إنما هو كلام الكبار .. تقليدا للعادة التي كانت سائدة قديما لا خيار للبنت .. اليوم الزمن تغير .. والمرأة لها حرية اختيار أكثر .

ـ توكل على الله .. والأمر لله .



قالت سلوى لسامر بهمس: والدي يرغب بأن نزوره في مكتبه اليوم قبل مغادرتنا الجامعة

ـ والدك لم يرفض كما توقعت أمي .

ـ أمك مخطئة .. أبي كما قال رأيي أنا المهم .. وتابعت وهي تبتسم : أنا يا سامر التي ستقبل أو ترفض

فقال متهكما وغامزا : مناي أن ترفضي ..

استمرت في ضحكها وقالت : للأسف لا أستطيع .. لو تتخلى عني يا سامر سأموت كمدا .. رغم وجود الكثير من الرجال هنا .. لم أجد بينهم إلا أنت رغم محاولات البعض معاكستي يا سامر .. جذبتني أنت وحدك

فقال : عجيب أمر القلوب يا فتاتي! ..إنني أسمع صوت المؤذن سأذهب للوضوء لقد فسد وضوئي في إحدى المحاضرات لم اصمد على وضوء الصباح .. ثم سأذهب للصلاة .. هل تعلمت الوضوء يا سلوى؟

تنهدت بأسف وأجابت : أذكر مرة أنك شرحته لي .. صدق سأصلي وأصوم عندما أخرج من بيت أبي .. إني أحب ذلك .. فبيتنا مليء بالشياطين يا سامر

ـ إذا صرت في بيتي فلا أقبل الكسل والتهاون في مثل هذه الأمور .. أمي تغضب عليك وعليّ أنا لما فاتحتهم بأمرك كان أول استفهام لهم كيف هي والصلاة واللباس ؟

ـ مناي أن أرى أمك يا سامر .. التي كان أهل أبي يرغبون بتزويجها من أبي ..

ـ وهي مشتاقة إليك ، وقالت كما قلت الآن المنى والرغبة أن أرى ابنة فارس يا سامر .. القلوب عند بعضها يا سلوى .. إنهم يتعجبون للقدر الذي جمعنا

فهتف سلوى بسعادة : أنا أحب أمك .. أحس أنني أحبها أكثر من أمي رغم أنني لم أرها

أخرج سامر رسما لها وقال : تأملي هذه الصورة للتي ستكون حماتك في وقت قريب .. تأمليها حتى أعود من الصلاة .

استقبل الدكتور فارس سلوى وسامرا ورحب بهم وسألهم عن المحاضرات التي استمعوا إليها هذا الصباح ، وأحضر لهم فراش القسم قهوة وبعد ذلك قال : أريد أن التقي بأسرتك يا سامر إذا لم يكن لديك حرج .. أريد أن أتعرف على والدك الفاضل .. مع أنني لابد التقيته يوم زواج أمك .. في مناسبات مهمة في العائلة لكني لا أذكره جيدا ..

قال سامر : هو أيضا يعرفك بحكم المناسبات التي أشرت إليها.. وهو راغب بالتعرف عليك أكثر .. فأنا قبل ساعات كنت أقول لسلوى إن أمي راغبة بالالتقاء بها .. ومشتاقة لرؤيتها .

ـ أمك حبيبة .. إني أذكرها جيدا يا سامر .. فأخوها مازن خالك زوج أختي الكبرى خديجة ..
قالت سامر بشفقة : هي اليوم نصف مشلولة شفاها الله .. ومازن عدوك اللدود كما تقول أمي هو خالي .. وأمي سعيدة جدا يا دكتور لو حصل هذا الزواج وتعتبره من أعاجيب قدرة الباري وسلوى أغرقتني بالخجل وقد أقرت بأنها تحب أمي قبل أن تراها ..

ضحك فارس وعلق : يا سيدي ابنتي تموت فيك .. ولو أحببت حجرا لأحبته سلوى .. أنا مستغرب من حبها واستسلامها لك يا سامر ..

فقالت سلوى : بل أحبها أكثر من أمي .. التي تخلت عنا

نظر فارس لابنته وقال : ستبقى أمك يا سلوى .. نحن اخترنا الانفصال لظروف أحاطت بنا وهي كانت تضع الزواج ثانية بين عينيها .. وهي لم تتخلَ عنكما ؛ ولكني أنا طلبت حضانتكما ورعايتكما بدون تدخل المحكمة وحكم القاضي .. كنت في أول سنوات المراهقة فأحببت تجنيبك المشاكل والعقد النفسية التي ربما تصدر عن انفصال الأبوين يا سلوى .. وكنت أرى يا سامر أنها لا تصلح لهما أما في ذلك الوقت .

فقالت سلوى : وأنا أحببت أم سامر لأنها أحسنت تربية سامر .. ووهبتني إياه .

فضحك سامر وفارس على طيبة سلوى وسذاجتها

فقال فارس : أكيد يا سلوى .. فسامر مخلوق عجيب ومحترم .. فثقافته وسلوكه وفكره أكبر من سنه ما دام يفهم في النباتات والحشرات والفلك والعواطف والعطور .. الاستقرار العائلي له دوره المهم في سعادة الإنسان وتنشئة الأطفال

قال سامر : هو ما تقول يا دكتور فارس .. والحياة لن تكون صورة واحدة .. التباين والتوافق كل هذه من صور الحياة الدنيا .. وأنا يشرفني أنا أكون عند حسن ظنكم .. وسأرتب لدعوة لكم مع الأسرة .. ولا تنسوا بالطبع صحبة حسناء بمعيتكم للتعرف على أهلي وأخواتي إن شاء الله

ـ شكرا يا سامر .. فحسناء طبعا مبهورة بك .. وقد أغدقت المديح عليك وعلى سلوى لحسن اختيارها لك .. بعد مغادرتك ذلك اليوم .. هناك عرس لابن وبنت شقيقتيّ هل دعوت له ؟

فانتبه سامر وقال : كأنني سمعت بعض الحديث عنه في البيت .. بنت السيدة حميدة وابن شقيقتك أمينة ..

ـ نعم ، دعتني حميدة لذلك ووعدتها بالحضور .. فعلاقتي بحميدة دون أخواتي جيدة يا سامر فهذا العريس الذي اسمه محمد صدق أنني لا أعرفه جيدا .. بسبب مشاكل العائلة القديمة .. ولكن ابنها العريس شاب متعلم ومتخرج من كلية الهندسة .. وللأسف أنني لا أعرف أبناء أخواتي يا سامر .. والعجيب يا دكتور أن العروس تعتبر طفلة لم تأخذ الثانوية .. ما زال بعض الناس يتزوجون بناتا صغارا !

فقالت سلوى : ما زالت في المدرسة إذن

ـ ابنة سبع عشرة سنة .. ولكن الشاب يريدها .



التعارف

تناول الدكتور فارس وبنتاه الغداء على مائدة الدكتور خالد موسى وزوجته حبيبة محمد ، وكان لقاؤهم وديا وعاطفيا ، وقد احتضنت حبيبة بنتيّ فارس وهي تستقبلهما حتى أن دموع سلوى لامست وجه حبيبه وهما تتعانقان حتى أن حبيبة همست في إذنها : ما يبكيك ؟!

فسمعها فارس فرد عنها قائلا: لابد أنها تذكرت أمها

فمسحت دموعها وقالت : أجل يا أبي

وكانت حبيبة تعانق حسناء وتحضنها بعد أن تركت سلوى ، وسمعت فارسا يقول لابنته مؤنبا أو مذكرا : سلوى يا حبيبتي.. ليست كل النساء واحد .. نحن ضيوف

فقال الدكتور خالد : بل نحن أهل يا دكتور فارس .. أنا منذ زواج حبيبة لم أرك يا أهلا وسهلا بك يا أبا سلوى

ـ وأنا كذلك .. سعيد برؤيتكم .

ومع الغداء نسيت حادثة بكاء سلوى ، واندمج القوم بالحديث شرقا وغربا حتى قالت حبيبة : لما حدثني سامر أنه التقى بفتاة معه في الجامعة واستلطفها واستحسنها وأن لديه رغبة بطلب يدها والزواج منها .. طبعا لم نهتم أنا ووالده .. قلنا شاب انتقل من مدارس ذكورية لجامعات مختلطة .. فبعد حين سيغير رأيه ويتعرف على فتاة أخرى كعادة الطلاب والطالبات في الكليات المختلطة .. فنحن أيضا تعلمنا في الجامعات ونعرف مثل هذه القصص يا دكتور

فقال فارس : هكذا كل الأماكن المختلطة سواء الجامعات الحدائق النوادي .. وهي من حياة الجامعة .. فاليوم لا يكترث لمثل هذا القصص من كثرتها وتكرارها .. إلا إذا حدثت كارثة أخلاقية أو قصة فاضحة .. فالناس ما زالت تحب سماع فضائح الآخرين ويتذوقونها .. وتلوكها الألسن ، ثم بعد حين تذهب الحكاية أدراج الرياح ولا أحد يهتم بها إذا ظهر غيرها آ ، يا حبيبة لما أعلمك سامر بعلاقته بفتاة في جامعته

تبسمت حبيبة وقالت : قلت أنا وخالد أمر طبيعي اليوم .. ثم أخذ يكرر الحديث عن إعجابه بسلوى والخطبة لتصحيح الأمر بينهما وعدم الانحراف فقال له خالد لا تتعجل يا سامر .. ربما

تلتقي غدا بفتاة أخرى وتغير إعجابك فأنت في بيئة مفتوحة وهذه سنوات سبع .. وظل سامر يدندن حول الخطبة والزواج ثم حدثنا أنه اجتمع بوالد الفتاة وهو دكتور كبير في كلية الآداب وبعد حديث عرفت أنها ابنتك فدهشت أنا وخالد للتقدير الإلهي حتى أن أبا سامر علق قائلا فارس يهرب من العائلة ، فهل يقبل بزواج ابنته ممن كانت العائلة ترغب بتزويجه إياها؟! .. ثم لما دعوتم سامرا للغداء معكم وأنه سيتحدث معك بموضوع الخطبة والزواج قلت له إن والد الفتاة قد يرفضك ولا يرضاك زوجا لابنته .. فاستغرب للغاية فصارحته بقرابتنا .. وأنك ابن عم لي .. وأن خاله مازنا متزوج من شقيقتك السيدة خديجة .. وسردت على مسمعه رغبة العائلة القديمة بزواجنا وأنك تزوجت امرأة تعلمت معها وأنا تزوجت من والدك خالد .. وذكرت له المشاكل التي ترتبت على زواج فارس من امرأة غريبة عن العائلة

فاستغرق فارس بالضحك ثم قال بعدما سمع بعض التعليق من السامعين : أقدار يا حبيبة .. لم يكن شيء رسمي بيننا يا دكتور خالد .. وكما تذكرين يا حبيبة .. عندما تزوج مازن من ابنة عمه اختنا الكبرى أرادوا أن يجاملوا بعضهم والدي الأصغر من عمي محمد فقالوا لما يبلغ فارس وحبيبة سن الزواج فهما لبعض .. وشاع الأمر في العائلة فارس لحبيبة وحبيبة لفارس . هو كلام ولا رأي لي ولا لك يا حبيبة هو رأي .. سكتنا ابن العم لبنت العم .. ولما دخلت الجامعة صار معي ما صار لسلوى وسامر .. تعرفت على ثريا .. ودراسة شاب فقير من أسرة معدومة تشتغل لتأكل ينتقل للدارسة في الجامعة ، ويجد نفسه في مجتمع منفتح بنات تعرض أجسادهن ونحورهن للشباب بدون حياء ولا خجل .. ولا يعني هذا أن كل الفتيات يفعلن ذلك .. فهناك فتيات وطالبات محترمات لكن تلك البيئة التي وجدت نفسي فيها تساعد على العلاقات غير السوية .. الجامعة تعني الانفتاح .. فإما الانحراف والزنا وإما الحب الصادق .. فكانت ثريا القدر والنصيب .. واستمرت صداقنا حتى تخرجنا ثم كان الزواج لابد منه .. فثارت العائلة ابنة عمك ابنة عمك التي لها سنوات تنتظر .. مع أنك كنت ما زلت على مقاعد الجامعة لم تتخرجي بعد

فقال خالد : العادات .. والتعصب لتلك العادات .. فنحن اليوم نشرف بك يا أبا سلوى

وبمصاهرتك .

ـ ونحن نتشرف بكم .. وأنا قلت للدكتور سامر ..لا أستطيع أن أقبل أو أرفض فالأمر لسلوى هكذا علمتني حياة الحرية والانفتاح .. مع اكتشافي للكثير من الشوائب فيها .. ودارت حياتي الخاصة في أحوال صعبة وسيئة حتى اضطررت للزواج السري لابد أنكم سمعتم بهذا بحكم القرابة بيني وبين زوجتك الفاضلة .. تزوجت من إحدى طالباتي ، ثم اضطررت ثانية لطلاقها لرغبتها في الولادة والذرية .. ولم استطع أن أقدم لها ذلك .. وقد غادرنا للحياة في مدينة نصر لبداية حياة جديدة لكن لرغبتها الشديدة للحمل فشل الزواج .. فعدت أعزبا .. وقد حاولت الزواج أكثر من مرة وبسبب ضعفي في الإنجاب .. يرفضن .. حتى مربية حسناء الفرنسية عرضت الزواج عليها ، ولما صارحتها بعدم قدرتي على الإنجاب رفضت .. وحتى قلت لها سأسمح لك بتبني طفل أو طفلة .. فرفضت وقالت تزوجت مرتين وفارقتهم لرفضهم الإنجاب .

فقال خالد : غريزة الأمومة كما يقال .

ـ تقريبا .. فاستسلمت لقدري والبقاء بغير زواج .. نساء يردن أبناء .. حتى أنني أذنت لزهرة زوجتي الثانية بتبني طفل من ملجأ أطفال فرفضت .. أنا منذ تزوجت بثريا شرطت عليها بمولودين فقط

فقال خالد متحمسا: أترغب بالزواج يا دكتور أم انتهى التفكير بذلك ؟!

ـ حاولت ورغم أن لي سنوات بدون زوجة .. ولكن إذا وجدت من ترضى بي على علاتي سأتزوج .

قال خالد : والبنات ؟

ضحكت سلوى : أنا لا اعتراض لي يا عم خالد .. فمن حقه أن يتزوج .. وهو كما سمعته بحث ولم يجد لحتى الآن .

ـ وأنت يا حسناء .

ضحكت حسناء وقالت : نحن يا عمي نحب لأبينا كل خير وتعودنا على زوجة الأب .. ونحن

لم نعش معها إلا في فترة العطل والإجازات

فعاد خالد ليقول : أنت تريدها متعلمة ومتخرجة من الجامعة ؟

تبسم فارس وقال : أكيد يا دكتور خالد .. حتى نستطيع أن نتحدث ونتناقش في موضوع ونفهم على بعضنا البعض .. فإذا حولك امرأة تراها مناسبة للعيش معي تالي العمر .. فبارك الله فيك ولابد أنك بحكم عملك مع الناس في العيادة .. مرت عليك مطلقات أرامل .. امرأة ليست بحاجة لخلفة .. وبحاجة لزوج فعلى الرحب والسعة يا دكتور .. جئنا نتعرف على أهلنا فصرنا نبحث عن خطيبة لنا .

قالت حبيبة مشجعة : لن يبخل عليك الدكتور خالد بذلك .. ما رأيك في ابنة الدكتور حمزة يا خالد ؟

هتف خالد من توارد الخواطر وقال : والله هي التي وقعت في بالي يا حبيبة .. تزوجت مرتين وطلقت من أجل الخلفة .. فشل زواجها بسبب عدم قدرتها على الحمل والولادة .. بل حاولت عن طريق أنبوب التخصيب ..ولكنها لم توفق .. وهي ليست جميلة يا دكتور لكنها مقبولة وطيبة .. هل أعرفكم بها وأهلها أم أتحدث بك عندهم ؟

فقالت حبيبة مذكرة : بس هي يا دكتور فارس تصلي وتلبس الشرعي .. لا تحب السفور والتبرج

فحك رأسه فارس وقال : هذه مشكلة .. لن تقبل بي .. بصراحة أنا ابن المدنية .. أشرب الخمر بين الحين والآخر .. أنا متحرر للآخر كما يقال عنا من قبل الشيوخ .. وعملي بتدريس الفرنسية وحبي لها يجعلني أقلدهم .. لبسا أكلا شربا سهرا .. فأنا أعيش مثلهم .. لكني لم أعشق الفجور والخلاعة ..والخليلات ..

فقال خالد مزيلا للحرج : على كل حال إذا تذكرت امرأة غيرها تناسبك وتقبل بتقاليدك وعاداتك.. سأتصل بك

الحفل

ذهب فارس وابنتاه إلى صالة حفل زواج محمد وناعسة أبناء أختيه أمينة وحميدة ، وكان ذلك في الوقت الأخير من الحفل ، وجلس على إحدى الموائد بعد أن حيا الجميع رافعا بيده للأعلى ، وقد قدم التهنئة للمهندس محمد ووالده اللذين كانا يستقبلان المهنئين على مدخل القاعة .

وكانت البنتان قد دخلتا القاعة المخصصة للنساء ، وكان الخبر منتشرا بين أفراد العائلة أن ابن حبيبة سيتزوج ابنة الدكتور فارس محسن ، فكانت التهاني تنهال على سلوى من فتيات ونساء لا تعرفهن .. وقدمت إليها حبيبة واحتضنها هي وأختها وكذلك فعلت عمتها حميدة .. وأخذت تعرف بعض الفتيات والنساء على بنات فارس .. حتى أن سلوى جلست على كرسي من كثرة المصفاحات والمعانقات ، واجتازت تلك الحفلة بشق الأنفس ، فلما ركبت بسيارة أبيها تنفست الصعداء وقالت لأبيها : كل هؤلاء أقاربك !

تبسم وقال : أكيد تعبت من كثرة السلام والتقبيل .. أنا لي أربعة أعمام وست خالات وأنا وإخوتي سبعة .. فلابد أننا أنتجنا جيشا من سكان هذه الأرض .. أرجو أن تكنّ سررتنّ بلقاء أقاربنا الأقربين

فقالت حسناء : تعبنا من كثرة السلام والمصافحة والمعانقة ..

ـ لأنكن أول مرة تلتقين بمثل هذه الجمع من تجمعات العائلة .. كان بيننا جفاء وعلاقتنا بهم سيئة .. ولعل زواج سلوى بابن حبيبة سيحسن من الحال وتختفي أو تضعف الأحقاد .. وأنا لولا حسن صحبتي لحميدة أم العروس ما ذهبت .. أكانت أم سامر في الحفل ؟

قالت سلوى : أمي حبيبة أشهرت خبر خطبتنا القريب .. مع أن الخبر معروف بينهم ؛ لأن من كانت تسلم تبارك لي بالخطبة .. مع أننا كما تعلم لم نفعل شيئا رسميا ، وأمي حبيبة امرأة رائعة وطيبة ومحبوبة .. لا أدري لماذا لم تتزوجها يا أبي ؟

ضحك فارس وقال : لو تزوجتها من أين سيأتيك سامر ؟ .. هذا قدر ونصيب

ـ صدقت يا أبي .. إنها حبيبة فعلا .. وكانت تفتخر بنا أمام أهلها .. وسمعتها تقول قدر الله لي أن أتزوج طبيبا .. وها هو ابني سيتزوج طبيبة .. وعانقتنا أنا وحسناء بحنان وحب .. وكل

نساء العائلة يحترمنها ويقدرنها .

فقالت حسناء : حقيقة أنت يا سلوى محظوظة جدا بهذه الأم الطيبة .. إنها تعالج نساء العائلة لوجه الله .. وتشارك في جمعيات لمساعدة الفقراء والمحتاجين .. بل تغضب وتتضايق إذا امرأة من قريباتها لم تتعالج عندها إذا كان المرض ضمن اختصاصها .. فهي طيبة .. ويتحدثن عنها بحب ووفاء .. لقد سحرت بها يا أبي .. لو تجدون لي عريسا عندها

قهقهة فارس وقال : كم عمرك يا حسناء ؟

ـ خمسة عشر عاما

ـ وتفكرين بالزواج ؟

ـ ها هي ناعسة بنت عمتي سبعة عشر عاما وتزوجت

فقال فارس ساخرا : حسنا .. اقنعي حماتك يا سلوى باختيار أحد أبنائها لأختك .. لتتزوجا في يوم واحد ..



كان سامر يجالس ويخاطب سلوى وهما يجلسان على مقعدين في إحدى حدائق الجامعة قائلا : كنت نجمة الحفل .. كيف وجدت حفلة أقاربك يا سلوى ؟

ـ وأقاربك .. أليسوا هم أخوالك ؟

قال ضاحكا : هم أقارب أمي صحيح .. ونعم الأقارب .. ما دامت بينهم سلوى ووالدها فارس ..

ـ لقد تعبت خدودي من القبل يا سامر .. الكل يريد أن يسلم ويعانق .. وجلست على كرسي من الإرهاق ..

ـ قالت أمي إنك وحسناء كنتما نجمتي الحفل أكثر من العروس .. فحضور والدك لهذا العرس كان عجيبا ومدهشا للناس .. كانوا يتوقعون اعتذاره وخاصة لما تأخر عن الحضور

قالت : هذا كان في بال الوالد ، ولكن حميدة عزيزة على قلب الوالد .. فهي صديقته الوحيدة من أخواته الأربع ..

عقب قائلا : عمك محمود علاقته جيدة أيضا

ـ وعمي محمود يودنا ، ويتصل بأبي ، ويزورنا بين الحين والآخر.. وهو عم مسكين لم يرزق البنين والبنات .. أتعرفه يا سامر ؟

ـ التقيت به أكثر من مرة .. سلام وكيف حالك ؟ .. وهو دائم الحزن ؛ ربما كما قلت ؛ لأنه لم يخلف ذرية .. هل التقيت جدك محسنا ؟

ضحكت وقالت : إنني أعرفه يا رجل .. أعرفه طفلة .. ونحن نلتقي به مع أبي في بيت خالة أبي أم الحسن .. أثناء السنوات الماضيات .. لا أدري لماذا لا يذهب أبي إلى بيته ؟!

ـ إذن تعرفين الحاج محسنا .. لربما خشية أن يلتقي برجال لا يرغب برؤيتهم كعمك جابر .. وزوج عمتك خديجة مازن شقيق أمي ..

ـ نعم ، أبي كثيرا ما يذكر هذين الاسمين بغضب ونقمة

قال : حكاية قديمة يا سلوى .. اليوم خالي مازن يشفق عليه

ـ لماذا ؟!

ـ منذ هجره لزوجته خديجة المصابة بالشلل وهو يتزوج ويطلق .. تزوج على أثر مرض عمتك امرأة أنجبت له طفلين .. ثم طلقها بالمعروف .. وتزوج ثالثة .. وبعد سنين طلبت الطلاق ، وكانت قد وافقت على بقاء أولاده من امرأته الثانية معهم ..لأنه قبل طلاق الثانية على شرط بقاء الأطفال معه .. ثم تزوج الرابعة ومشاكله معها لا تنتهي ، وصابر كما يحدث أمي على مضض .. المهم أنك سعدت بعرس ابن وبنت عماتك ..

ـ أعراسكم غير مختلطة .. كنت أحلم بأن نجلس معا .. لا نسلم على بعض فقط .. كأننا أغراب وكم احمر وجهك وأنا أسلم عليك أمام الناس !

ـ الحياء من الإيمان .. كنت على كل حال جليس والدك بعض الوقت .. وكان حديثنا عن خطبتنا .. وعلمت من أبي الذي رافقنا لهذه الحفلة ومن والدك أن أمرنا سيقرر قريبا .

ـ هل تعلم يا سيد سامر إن حسناء وقعت في حب أمك وتريد عريسا منها ؟!

ـ عريسا لمن ؟! لها .. قولي لها أمامها شوط طويل حتى تصل لمرحلة الزواج .. على كل أمي

أحبتها كما أحبتك واعتبرتها ابنة لها ...آه .. البكاء أتبكين ؟ إنني آسف يا سلوى .. أكيد ذكرتك بأمك .. ما أخبارها هذه الأيام ؟

ـ لي أكثر من شهر لم أرها .. إنها من النادر يا سامر أن ترفع التلفون للتحدث معنا زاعمة أنها لا تحب سماع صوت أبي .. ولما نتصل لنرتب للقاء وزيارة تزعم أنها مشغولة وأن زوجها مريض والبيت مشغول .. حجج كثيرة تلقيها في وجوهنا ومرات بضغط من أبي نذهب إليها بدون موعد .. تضطر لاستقبالنا بعض الوقت ..

ـ ألها أولاد من زوجها الآخر ؟

ـ لأ ، هو رجل كبير وعليل .. وهو صاحب لوالدها ترمل عن أم أولاده .. ولم يتقدم أحد للزواج من أمي .. فزوجها الرجل لصديقه .. وهو يسكن في عمارة مع أولاده أو بعضهم .. وربما يكون هو الذي منعها من الحمل ..

وصمت الشابان لحظات ثم عادت سلوى تقول : قلت لي إن كلاما في الحفلة كان حول خطبتنا فمتى ستكون الخطبة ؟

ـ لم يحددوا تاريخا ما .. المهم ـ إن شاء الله ـ قريبا .. وليس فقط خطبة .. بل سيعقد عقد الزواج أثناء الخطبة

فقالت : لماذا لا نتزوج على الفور يا سامر ؟ ..

ـ نحن على مقاعد الدرس يا فتاتي .. وأمامنا سنون .. ثلاث أربع سنوات يا بطلة

ـ إني لا أحب مفارقتك .. أحب أن أبقى معك باستمرار يا سامر .. إنني انتظر ساعات الدوام بهوى وهوس .. انتظرها بفارغ الصبر أيها العزيز .. الشوق غلاب .. كم أفرح عندما يرن الهاتف في الليل ..

فقال سامر : وعندي من الشوق ما عندك .. لا تظني أنني جامد العواطف .. ولكن أحيانا لا استطيع أن أتحدث عن العاطفة التي أكنها لك في قلبي يا سلوى .. أنا اعترفت لك أنك الفتاة الوحيدة التي جذبتني لهذا الذي يسمونه الحب .. وأنا ـ إن شاء الله ـ حبي لك صادق .. وليس لهو ولعب كما نراه من الكثير من زملاء الجامعة .

ـ آه .. ما أجملك لما تعترف بهذا الكلام المقدس عندي ! .. وأنا أصدقك .. بدأت تعترف .. فكلمة الشوق كلمة مثيرة واعتراف خطير

ضحك لكلمة اعتراف وقال : اعتراف!!.. وكل هذه الأيام والساعات التي أقضيها بصحبتك والحديث معك ليس فيها اعتراف واستسلام للقدر الذي ربطني بك .. لقد فتنت بك مذ رأيتك أول مرة لفتي نظري فيها بالمدرج

ـ لقد سبقتك في هذه النظرة .. كنت ألمحك باستمرار .. وأحاول لفت نظرك إليّ ولكنك كالناسك لا ترفع نظرك إلى النساء ..

ـ منذ وطئت قدماي هذا المكان صممت يا سلوى أن لا ادع وقتا للنساء في حياتي .. قررت الصوم عن ذلك حتى أتخرج .. ولكني فشلت عندما وقع نظري عليك .. وقعت في غرامك ضعفت ..

ـ يا سلام .. دخلنا على الغرام بعد الشوق

ـ عندي لك مفاجأة يا سلوى

ـ مفاجأة!! ما هي ؟

ـ قلت مفاجأة .

ـ وكيف اصبر ؟!

ـ أنا اعلم أن صبرك ضعيف .. على كل حال سأكشف لك الخبر .. أأنت متأكدة مائة بالمائة من عواطفك نحوي يا سلوى ؟! وتقبلين بي شريكا لحياتك .

نظرت إليه بدهشة وقالت : أأقبل ؟ ما أسخف هذا السؤال ! وهل بعد سنة تُسئل سلوى هذا السؤال ؟!

فخاطبها بشكل تمثيلي : يا بنت الزواج ليس مثل هذه الجلسات والأوقات نتسلى بها

هتفت بغيظ : نتسلى بها .. نحن نتسلى

قال : الزواج مسؤولية أتعين ذلك ؟

ـ ما معنى مسؤولية ؟

ـ صح ما معنى مسؤولية ؟ .. فعلا أنت لا تعرفين المسؤولية .. الغسيل عند الكوى والصباغ والصحون عند الخادمة والطعام من المطاعم .. عمرك غسلت وكويت نظفت مائدة وأطباقا ؟

ـ أتضحك مني ؟.. ما دام الخدم موجودين لماذا أغسل وأنظف ؟

ـ أترتبين فراشك لما تنهضي من النوم ؟

ـ ولماذا الخادمة ؟! التي يدفع أبي لها راتبا وأجرة

ـ معنى هذا يا حلوة .. أن اجلب لك خادمة معي ..عندما نتزوج .. سلوى وخادمة

ـ لقد رأيت في بيتكم خادمة ؟

ـ عند أمي وأبي خادمة .. صحيح ليس عندي يا سلوى .. عندما احتاج لكوب شاي أو كوب ماء سأطلبه من خادمة أمي وأبي ..

فقالت ببساطة : تعودت على الخادمة منذ طلاق أمي .. وسأتعلم لن أجبرك على التعاقد مع خادمة

ضحك سامر وقال : تتعلمين ماذا ؟ وماذا ستتعلمين ؟ أنا كما تعلمين أهلي ينفقون عليّ وعلى تعلمي في كلية الطب وأنت كذلك .. فهل سينفقون على خادمة إذا تزوجنا ؟.. أرأيت علينا أن لا نفكر بالزواج ونحن على مقاعد الجامعة ونحن عالة على الآخرين ؟

ـ فإذا عمل الشاي سيعطل زواجنا فسأتعلمه بسرعة .. ولا أظن أنني لا استطيع فعله .. صحيح أنا لم أجرب ذلك .. وليس الأمر صعبا ..

ـ والطعام والطهي

ـ يا الهي !.. أشياء لم أفكر بها صدق يا سامر

ـ ألم أقل لك الزواج مسؤولية ؟.. هناك زوج يريد أن يأكل ويشرب الماء والشاي والقهوة ويلبس ثيابا مغسولة ومكوية ..

قالت : أتعلم كل شيء .. مع الوقت أتعلم وأتقن فعل هذه الأشياء .. نحن منذ وجدنا على هذا الكوكب .. نعتمد على الأم والخدم .. وحتى المدرسة الداخلية كان موظفو الخدمة يقدمون لنا الوجبات والخدمات .. أما ترتيب الغرف والملابس كنا نمارسها في غرف المدارس الداخلية ..

كل فتاة لها سرير وخزانة .. وعلينا كنس الغرفة يوميا .. وعاملات الخدمة يدخلن الغرف لنظافتها كل أسبوع مرة .. بالمكنسة الكهربائية ..

ـ ها أنت تحملت بعض المسؤولية

ـ أتعلم يا سامر .. كما أنا أتعلم في كلية الطب .. قل لي المفاجأة

ـ المفاجأة هي رغبة والديّ بزواجنا المبكر .. والسكن معهم في البيت .. وتحمل نفقات بيتنا من ماء وكهرباء واتصالات وطعام وتأثيث البيت .. لكن الخادمة لم اسمع أبي وأمي يتحدثان عنها

قالت بفرح غامر : سأقوم بواجباتي الزوجية كما تحب يا سامر .. المهم أن نتزوج وأن أعيش مع أمي حبيبة

ـ هذا ما سمعت الأسرة تتحدث عنه يا سلوى ؛ ولكن هل يرضى والدك بزواجك قبل التخرج الذي سيبقى له خمس سنوات

قالت متظاهرة بالاعتراض على حشر والدها في أمرها : أبي ؟!.. قلت لك ألف مرة الأمر لي أنا يا سيدي .. آه !.. إني أحب أمي حبيبة لقد أحبتني بصدق !

أم العروس

رن ذات ليلة هاتف منزل فارس وكان المتصل زوجة فارس الأولى ثريا وطلبت الحديث معه :

نعم يا ثريا هانم .. ماذا جد؟! ألا تريدين حضور حفلة زواج ابنتك ؟ هكذا سمعت من سلوى

فصرخت : أنا أمها آخر من يعلم بمشروع زواجها يا فارس

ـ كان الكلام عن خطبة ثم تحول لزواج ، وأنا قلت لها عندما أذنت لهن بزيارتك آخر مرة أن تخبرك بقصة زواجها في صيف هذا العام .. فذكرت أنك غاضبة ولا ترغبين بحضور هذا الزواج فدهشت .. هي لم تخطب بعد ولم يكتب الكتاب .. وهي تعرفت على شاب في جامعتها وتطور الحال إلى زواج

ـ والعريس كما قالت قريب لك .. وأنا أعرف من هي أم العريس ولم أنس هذا الاسم يا دكتور فارس !

ـ هذا يا سيدتي الذي صار .. هل أقف في طريق سعادتها ؟.. فعليك أن تشاركي في حفل الزواج كأم صالحة

غضبت لغمزه وقالت صارخة : أنا لست أما صالحة يا فارس ! .. فلا داعي لمشاركتي في ذلك مبارك عليك بناتك

ـ على كل حال .. الزواج والخطبة في الصيف .. وبيننا وبين الصيف عدة أشهر .. فراجعي قراراتك .. وأنا لا مانع لديّ من حضورك .. فهي ابنتك كما هي ابنتي .. فلست آخر من يعلم فلم يحصل شيء سوى كلام في كلام .. مع السلامة .



وبينما السيدة ثريا في السوق لشراء هدية خاصة لابنتها التي ستتزوج خلال أسابيع قليلة ، وبينما هي تدخل محلا لبيع الذهب وجدت عشيقها القديم حسونا فقالت متفاجئة : حسون .. أنت هنا ! .. كيف حالك ؟

والتفت إليها وبدا مصدوما وقال : ثريا .. يا أهلا وسهلا

تصافحا بحرارة فهما أصدقاء قدماء وقالت: عشر سنوات لم أرك فيها يا حسون !

تطلع حسون في عيني صاحب المحل وقال : ماذا تريدين من الذهب ؟ سنتكلم في الشارع .

حيت صاحب المتجر وقالت : سأعود .. هيا بنا نشرب قهوة

تبعها حسون إلى مطعم في نفس الشارع ، ولما جلسا على إحدى الموائد قال : ما أخبارك لي زمن أبحث عنك منذ عدت من أوروبا ؟!

قالت ساخرة : آ .. منذ عدت من أوروبا .. ماذا كنت تفعل في أوروبا منذ هربت مني ؟!

فقال متظاهرا بالانكسار والأسف : أنا آسف يا ثريا لم استطع طلاق امرأتي الحامل .. ولما صارحتها بحبنا الذي تعرفينه رفضت الطلاق .. وألزمتني بالهجرة .. وخشيت الفضيحة .. فرتبت لي سفرا لليونان .. أنا ضعيف أمامها

ـ وتركتني اكتوي بنار الوحدة وتخليت عني .. أين تسكن اليوم ؟

ـ أين أسكن ؟!

ـ أريد مقابلة هذه الزوجة التي حرمتني منك

ـ لا يمكن هذا ، أنت تريدين تدمير حياتي الزوجية

ـ ألم تدمر حياتي ؟

ـ برضاك يا ثريا ..أنا أعلنت حبي لك أيام عملنا في البنك .. وأنت وافقت على حبنا .. هل أجبرتك على الزنا ؟ .. أنت رضيت بالزنا عن طيب خاطر وقلت إن فارسا مشغول بجامعته وطالباته .. فلننشغل نحن بالحب والعشق

ـ رضيت لأنني أحببتك بحق يا ملعون ، فتحت لك داري وبعت شرفي من أجلك ، ولما أخذت حريتي هربت .

ـ وأنا ما زلت محبا وعاشقا ومستعدا للزواج منك

ـ لقد تزوجت رجلا كبر أبي بعد هربك يا ملعون .. وذلك بعدما يئست من لقياك ومن وجودك

زفاف سامر وسلوى

كان جابر محسن وابن عمه مازن محمد يجلسان على إحدى الموائد في قاعة أحد الفنادق الفخمة قاعة زينت بالأعلام والرايات والأضواء والألوان ، وذلك في حفل زفاف سامر وسلوى الذي أراد والد سلوى أن يكون في أحد الفنادق الكبيرة ذات النجوم الخمسة ، وكان الحفل يشمل ما يسمى بالبوفيه المفتوح للمدعوين ، ورغم اعتراض الدكتور خالد في أول الأمر واعتبر ذلك خروجا عن المألوف في عائلته ، ثم وافق على ذلك بعدما قبل فارس أن يقاسمه نفقات هذا الحفل ، فلان بعد استسلام فارس للمقاسمة .

فكان جابر يقول : والله دنيا يا مازن !.. ها هو فارس وحبيبة يلتقيان من جديد .. ما أصابنا إلا الغم والهم طول هذه السنوات .. وها هم عادوا أصدقاء وأصهار

وضع مازن كوب العصير الذي كان يشربه وقال : صدقت يا أبا خضر .. خضنا معارك ومهاترات مع المدعو فارس .. وها نحن نحضر عرس ابن حبيبة وابنة فارس .. تصاريف القدر عجيبة .. الحياة مدرسة كما يقولون .. فارس الذي حارب الدنيا ليبتعد عن العائلة يعود إلينا من جديد .. لولا إعجاب أختي بسلوى لفسدت هذا الزواج على فارس اللعين .. لكنّ خالدا ليس من العائلة كما تعلم وخجلت من التدخل في زواج ابنه

ـ علمت أن طليقة فارس حضرت العرس

ـ إنها تجلس هناك مع حبيبة.. لقد ذهب الجمال الذي كانت تتباهى به يا جابر.. لليوم لم نعرف لماذا طلقها فارس ؟ الذي كافح العائلة كلها ليقترن بها ..أنسيت ذلك ؟

قال : تاريخ .. وهل ينسى يا ابن العم ؟! طلاقي لهناء كان من وراء قصص فارس وثريا.. فعلا لم تعد بذاك الجمال والرونق والثياب الباريسية التي عرفناها بها .. فهي امرأة رجل عجوز ورغم بحثي عن سبب الطلاق لم أصل لجواب سوى أن فارسا تعلق بحب جديد من إحدى طالبته وتزوجها سرا ، ولما كشفت ثريا أمر الزواج المخفي عنها طلبت الطلاق ، ورفضت أن تعيش ضرة ، وتخلت عن البنات لفارس .. فوافق على ذلك وطلقها

ـ هل تعلم أن أم خضر موجودة هنا ؟

ـ أعرف وسلمت عليها .. أحضرها خضر معه .. وخديجة أم عصام أتى بها ابنك أيضا .. لا أظن أن أحدا من عائلتنا تخلف عن هذه المناسبة .. فحبيبة سيدة كبيرة في العائلة

قال مازن : لقد اشترى الدكتور خالد غرفة نوم لولده لا مثيل لها في البلد .. مستوردة من أوروبا.. أرأيت البذخ والنفاق ؟!

ضحك جابر ضحكة قصيرة وقال : ابن أختك سيصير طبيبا كأبيه ، وسلوى ستكون طبيبة أيضا مثل أختك .. هل يدوم مثل هذا الزواج في رأيك ؟

ـ أختي مجنونة في سلوى .. وسلوى مجنونة فيها .. تحبها أكثر من أمها ، وتعلن ذلك على الناس وعلمت أنها لا تحسن صنع وغلي أبريق شاي أو صنع صحن سلطة

ـ لماذا ؟

قال :طول عمرها معتمدة على الخدم

ـ صحيح .. وحبيبة عندها خادمة.. الزوجات العاملات يحتجن لخادمات .. أرزاق يا دنيا

قال مازن : كنت أفكر بتزويج باسم من إحدى بنات حبيبة ؛ اليوم أفكر كثيرا ..أنا فارس أبغضه

ـ وما دخل فارس بحبيبة وزواج باسم ببنت حبيبة ؟!

ـ سلوى بنت فارس

قال جابر: يبدو أن فارس اليوم ليس كفارس زمان .. لليوم لم يجد امرأة ترضى به زوجا وقرينا لها .



كان حفل زواج سامر مشهودا وأحدث دويا قويا في عائلة محسن وأقاربه ، وكان ذلك بين حاسد ومحب ، وأنفقت فيه الأموال الكثيرة ، وغادر العروسان الفندق إلى المطار فور انتهاء الحفل للسفر إلى صيف سويسرا ، ثم فينا لقضاء ما يسمى اليوم شهر العسل وإجازة العرس .

وكانت السعادة تغمر العروسين ، وهما يصعدان سلم الطائرة المغادرة بعد حين إلى تلك البلاد وكانت سلوى تهمس لسامر : إنني أسعد إنسانة يا سامر بوجودك معي وبقربي .. لقد أحضرت

ملابس الصلاة معي ، ونفذت تعليماتك كما قلت .. وأخبرتني أمي حبيبة أن الثياب الشرعية الجلابيب داخل إحدى الحقائب

ـ رائع يا سلوى !! لم يبق لك عذر بعد الزواج للسفور وترك الصلاة .

ـ حتى أبي قال لي افعلي كل ما تطلبه منك حبيبة وزوجك سامر .. الصلاة سكينة للمرء في هذه الزمن المليء بالأمراض النفسية

قال سامر متحمسا : أحس أن والدك يريد أن يتوب يا سلوى ولكنه ضعيف ..آه لو قبل بالزواج من ابنة الدكتور حمزة تلك المرأة المطلقة مرتين ستساعده بالخروج من التردد والحيرة التي يحيا بها ..لابد أنك سمعت بحكاية تلك الإنسانة .. فربما عاد لفطرته السليمة .. ها نحن في شهر العسل ومع ذلك نصلي ونفرح ونتمتع بهذه الدنيا وجمالها.. عندما نعود للجامعة يا سلوى ستعودين بثياب طويلة وملابس توافق الشرع

فستكونين حديث الطلبة والزملاء ستتفاجأ صديقاتنا بك أليس كذلك ؟

ـ بالتأكيد يا زوجي الحبيب .. هل أنت سعيد يا سامر بالزواج مني ؟

ـ سعيد جدا ! كنت أظن أن الأمر سيطول حتى نتخرج ونعمل .. لكن أسرنا وقفت معنا .. فنحن عندما نتخرج قد يكون بين أيدينا طفلان

ـ أوه يا سامر أمستعجل على الأولاد ؟!

ـ ولماذا التأخير؟ .. أنا لست من أنصار تأخير الحمل .. المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. بل والدك المتعلم عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية والمتفرنس كما يقول همس في أذني أحسن شيء الأولاد في أول الزواج

تبسمت سلوى قائلة : لأنه لما تزوج على أمي زهرة أخر الحمل ، ولما طلقت أمي أرادت الزوجة الحمل ، فوجد أنه لا يستطيع الإنجاب فكان الطلاق .. فهو ملسوع كما يقال

ـ نترك الأمر لصاحب الأمر .. الله وحده هو الوهاب

ـ أنا تحت أمرك .. أنت دنياي يا فارسي الجميل!!

عودة فارس

بعد زواج سلوى وسامر ومغادرتها البلد لقضاء شهر العسل في ربوع أوروبا أخذ فارس يفكر جديا بالزواج ، فقد أصبح البيت خاويا ، وكان يصاحبه السرور في نهاية الأسبوع عندما تعود حسناء لقضاء يوم العطلة في البيت ، فاتصل بالدكتور خالد موسى وتحدث معه عن تلك المرأة التي ذكرها له منذ أشهر فقال خالد : إنك تشعر بالوحدة بعد سفر سلوى

ـ رغم مكثي في الجامعة كما تخبر ، فقد كانت سلوى مهمة لي في البيت يا دكتور خالد .. لها وحشة

ـ أكيد .. أنا من ذاك اليوم وأنا أبحث لك عن امرأة تناسبك وترضى بالحياة معك .. والإنسان لما يعوز شيئا توصد الأبواب وتقفل أمامه ، وعندما لا يريد الشيء تنهال الفرص عليه ..أنا لم أنساك يا أبا سلوى

ـ أنا أسالك عن تلك المرأة ابنة الدكتور .. نسيت اسمه رغم أنك عرفتني عليه يوم عرس سامر وسلوى

ـ تعني الدكتور حمزة صديقي وجاري في مجمع العيادات ..ولكنني ذكرت لك أن ابنته متدينة وتلبس الزي الشرعي .

فقال فارس ضاحكا: يا سيدي إذا قبلت بي وراقت في عيني .. أتدين مثلها

قال خالد بحماس : آه كلام جميل يا فارس !! تنوي ترك الفرنسة

ـ كبرنا يا خالد.. كبرنا .. وأنا قلت لك لست مدمن خمر أو زير نساء .. إنما لا أرى حرمة الخمر كما يراها المتشددون .. ولا أرى الزنا جريمة كبرى ما دامت بالتراضي دون إكراه واغتصاب .. أقول هذا متأثرا بالحضارة الفرنسية .. أنا منذ بلغت وأنا لا أعرف الصلاة والصوم .. كنت أضحك من أمي عندما تأمرني بالصلاة .. وتحاول تشجيعي على الصيام ..

ـ يا سيدي أنت تعلم أن دين الإسلام رحمة وأخلاق .. رويدا رويدا تعود لحضن الإسلام يا دكتور فارس .. التوبة في الإسلام لا تحتاج لقسيس أو شيخ .. دعنا نتقابل .. ما رأيك أن تتعشى معنا الليلة .. أنا أغلق عيادتي مع صلاة العشاء .. ستفرح حبيبة لذلك .. فقد أوصتها

سلوى وهي تغادر عليك .



نهض الرجلان عن مائدة الطعام وهما يحمدان الله تعالى ، وشكر فارس أم سامر على العشاء الذي قدم لهم ، وانتقلوا لمكتبة ومكتب الدكتور المنزلي ، وأخذ فارس يـتأمل في عناوين الكتب قبل الجلوس ، ثم جلس بعد حين مع حضور الشاي وقال : مكتبة جميلة يا خالد ! .. أنا مكتبتي كلها كتب فرنسية وإنجليزية وبعض معاجم اللغة العربية والموسوعات .. مكتبتك زاخرة بالكثير من التصانيف .. طب فلك دين تاريخ .. لغة ..لا أدري يا خالد لماذا أبغض الدين؟! رغم أن والديّ يصليان ويصومان .. وقد حجا بيت الله في مكة .

رد خالد : لقد كنت متأثرا بالغزو الثقافي الغربي والعالمي .. أثر فيك تخلف أو تأخر المسلمين في الصناعة والتكنولوجيا .. فظننت أن هؤلاء أفضل منا وأحسن منا .. لكن الحياة ليست المادة فحسب .. أشبعت الحاجات المادية حتى التخمة اليوم .. الروح لم تقدم لها حضارة الغرب أي شيء .. وأنت شاب صغير قد جرفك تيار التغريب التيار العلماني الذي عشعش في بلادنا .. وزعمتم أن الدين هو سبب ضعفنا ، وليس مصدر حياتنا وقوتنا .. قستم دين هؤلاء على ديننا وجعلتم كل الأديان في سلة واحدة وهي سبب تخلف الأمم .. ولما يتعمق المرء في ثقافة هؤلاء يجدها ضحلة فارغة رغم تشعباتها ..لا تجد عندهم شيئا جذابا إلا الشهوات .. وهي ذات عمر قصير .. وتصاحبها الآلام والأسقام .. فنحن اليوم نرى أهل الغرب يعتنقون إسلامنا ويقرأون كتب علمائنا .. فبعضهم يسلم مثلنا ، وبعضهم يتوقف حائرا مترددا .. لقد شوه المستعمر والغازي القديم دين ورسالة الإسلام .. وتبعهم بعض المرضى في هذه الفرية والدعاية المغرضة وجعلوه دينا ضد المدنية دينا ضد العلم وضد الحرية .. دين الإرهاب كما نرى ونسمع اليوم .. هناك إعلام وأقلام تشوه الدين في بلاد المسلمين .. ولكن اليوم الحمد لله بدأ الوعي الجماعي للإسلام يظهر من جديد .. ومكتبتي يا دكتور حتى أمرك ..

ـ شكرا ، أريد يا سيدي بهذه المناسبة كتابا أو كتابين يثيران في نفسي حب الإسلام والدين من جديد

ـ سأفعل .. والآن لنتحدث عن الزواج فأنت بحاجة لزوجة تسكن إليها بعد فراغ البيت من سلوى

ـ أتمنى لهما السعادة ، ما أخبارهما في أوروبا ؟

ـ ألم يتحدثوا معك؟ .. لقد تحدثا مرة من سويسرا ومرة من فينا .. اقترب الشهر على الزوال .. الأيام تمشي سريعا ، فكيف إذا كانت أيام أول الزواج ؟!

ـ اسأل الله لهما السلامة يا أبا سامر .. نعم ، تلك المرأة كيف سنقنعها بالقبول بي إذا عدت إلى الله

ـ أنا سأتكلم مع والدها بصراحة عنك .. وأقول لهم إن الرجل وعدني بالتوبة وترك الخمر

ـ الخمر تركها سهل واعتبرني تركتها من هذه اللحظة .. تمر عليّ أسابيع ولا اشرب كأسا منها اشربها عند زيارة الأصدقاء وزملاء العمل في مناسبات معينة ..هي من باب المحاكاة لهؤلاء الأجانب .. بس المشكلة يا صديقي في الصلاة والصوم احتاج لوقت للثبات على فعلها .. خمس صلوات قد تكون ثقيلة عليّ .. لكن صدق أنني عازم على ترك الكفر والعصيان .. وأنا سأعتبرك أخي الفاضل مستشاري الديني حتى ارجع إلى الله حقيقة ..

قال خالد سعيدا : حياك الله يا دكتور.. أنا مسرور من أجلك .. ومن التفكير في العودة إلى الدين سأنقل الصورة التي أنتم عليها للدكتور حمزة صديقنا الفاضل بكل صدق وأشجعه على الترحيب بك .. لا أخفي عنك سرا نحن جسسنا نبضها حولك لكنها قالت إنه لا يصلي .. نفرت من ذلك وقالت لحبيبة الصلاة عمود الدين يا أم سامر نحن حاولنا مساعدتك ، لكن تبين لنا أن المرأة مصرة على الصلاة ، ولا مانع لديها من الزواج منك إذا التزمت بالصلاة ، بل قبلت وعدا منك بالصلاة .. ولكن لمعرفتنا بمبادئك العدائية للتدين .. تجاهلنا الأمر يا دكتور ولأنك صارحتنا بالتغير الذي أنت مقبل عليه صارحناك بما جرى بيننا وبين البنت .. والمرأة كسيرة بسبب فشلها في الزواج مرتين وعدم قدرتها على الحمل ..وبما أن عندك نية للتغير والعودة فسنشجعها على الاقتران بك بعد الالتقاء بعضكم ببعض ..

قال فارس : أشكرك وأشكر حبيبة أو السيدة حبيبة على هذا الاهتمام وعلى الجهود التي تبذلونها من أجلي .. وأنا مسلم لست ملحدا يا خالد .. لكني لا أعرف حقيقة الصلاة والصوم والدين لي عمر بعيد عن ذلك .. فقضية وجود الله لم تشغل بالي ؛ لأنني غير مهتم بالإيمان وعلاقة الإنسان بخالقه .. وحتى الفكر الفرنسي الحديث لا يفكر في هذه القضية كثيرا .. فالله موجود عندهم في الكنيسة .. أما في الشارع في البنك في السوق في الوزارة لا دخل له في ذلك .. وغير موجود .. هذه قضية فردية شخصية .. لا أنكر أنني تأثرت فعلا بالفكر والفلسفة المادية ، ودع ما لقيصر لقيصر .. ولم أحاول معرفة الله وصفاته أو صفات الإله الذي أومن به .. إن كان الإيمان بالله إيمان وجود أنا مؤمن به ربا وخالقا .. ولكن لم اهتم طيلة هذه السنوات كيف يعبد هذا الرب ؟! كيف أتقرب إليه ؟ فكل هذه العبادات غير ذات أهمية في حياتي .. ماذا أكل ؟ ماذا أشرب ؟ هذا حرام .. هذا حلال .. ما دام مسموح به في البلد ولا يخالف القانون فأنا اقبله يا سيدي .. فقضية شرب الخمر مثلا .. لم اسأل هل هو حلال أم حرام ؟ تعاملت معها كأمر اعتيادي .. هناك شباب مسلم يقولون لك الخمر حرام .. ولكننا نحبها نشربها .. كذلك التعامل المال والبنوك .. ولما آكل شيئا أقول الحمد لله .. ليس تدينا إنما شكرا لله .. وعادة .. ويتردد لفظ الله على لساني في محاضراتي وكلامي .. لكن لا التزام عندي نحو قضايا الدين .. فأنا محسوب على أصحاب الفكر الحر أصحاب الحرية غير المتدينين العلمانيين .. مع أنني لا أنتمي لحزب معين إلا عضو في بعض جمعيات فكرية علمية لها علاقات مع مراكز فرنسية لتبادل الثقافة والخبرات .. وصراحة بلادنا كما تعلم لا تحكمها العلمانية بشكل واضح .. ولا الديمقراطيات الغربية .. حكم مختلط .. بين ديني وعلماني ووطني .. هل نستطيع التمييز بصراحة يا دكتور خالد ؟

العروس

كانت حبيبة قد شرحت لنبيلة رغبة ابن عمها بالزواج من امرأة عاقر ، وحدثت الفتاة بأن الرجل ليس متدينا ولا مصليا .. واعتذرت الفتاة عن مثل هذا الزواج .

ولما أحس خالد بعد لقائه الأخير بفارس أن الرجل أخذ يعيد حساباته وتفكيره في العودة مجددا لأحضان الإسلام الذي هجره منذ بلغ البلوغ الشرعي ، وتركه نهائيا مع أول يوم في الجامعة .. ولم يعد يكترث لصلاة ولصوم ولمناسبة دينية .. وصلة رحم وعلاقات عائلية ككثير من الذين تيسرت لهم الدراسة في فترة الخمسينيات والستينيات في الجامعات فاعتبروا التمسك بالدين رجعية وتخلف وانحطاط ، وجعلوا الإسلام سبب ضعف الأمة وهوانها .. لكن في فترة الصحوة الإسلامية .. بدأت المعلومات تتغير .. والعودة إلى الإسلام تتجدد .. والإقبال على العلم الإسلامي والفكر الإسلامي كما يسميه البعض تعود .

تحدث الدكتور خالد بعد لقائه الأخير بفارس مع الدكتور حمزة زميله وصديقه في المهنة وفي المجمع الطبي ، ثم زاره في عيادته ، وجلسا يتحدثان بعد أن طلب الدكتور من سكرتيرة العيادة تأجيل المرضى لبعض الوقت .

شرح خالد القصة لحمزة وعن سبب الزيارة ، فدعاه حمزة لزيارتهم في البيت ، وشرح التطورات الجديدة للبنت لعلها ترحب بها جد وتقبل بهذا الزواج .

وفي الليل كان خالد وحبيبة يطرقان بيت الدكتور حمزة ، وبعد الترحيب والمجاملات التقليدية مشى الدكتوران نحو مكتب ومكتبة الدكتور حمزة ، وكان الدكتور قد ذكر لابنته سبب هذه الزيارة فطلب منها أن تتبعه للمكتب والمكتبة قائلا : تعالي يا نبيلة .. فالأمر يخصك كما وضحت لك قبل ساعة ..

وظلت حبيبة جالسة مع زوجة الدكتور حمزة ، وكان كلامهم في نفس المهمة والغاية من الزيارة تبعتهم السيدة نبيلة بصحون الفاكهة ، ولما جلست حياها الدكتور خالد من جديد وشكرها ثم قال : الموضوع القديم يا أخت نبيلة .. موضوع الدكتور فارس محسن .. والد زوجة ابننا سامر وقد حدثتك حبيبة عنه سابقا .

ردت قائلة : أذكر فعلا ذاك الحديث يا دكتور فارس ..أنا وافقت من حيث الفكرة على الزواج منه ، ولكن لما علمت أنه غير مصل اعتذرت وقلت لأبي ذلك .. لقد تضايقت من فكرة الزواج من رجل غير ملتزم يا عمي .. نحن كما تعلم منذ الصغر نحب الجنة والآخرة ، وأن السعادة الحقيقية في الآخرة وليست في الدنيا

ـ لا خلاف عندنا في ذلك .. لكن علينا أن نعيش دنيانا .. وأنها دار الاختبار .. نحن سلوى ابنة الدكتور أخذناها لا تعرف شيئا من الإسلام والوضوء ؛ ولكنّ سامرا طمأنني أنها من أول ساعة وصلوا فيها سويسرا تغيرت وصلت .. ونحن جهزنا لها الملابس المناسبة .. ولا تخرج إلا وهي تلبس الجلباب .. لديها رغبة عظيمة بالتغير .. مع أنهما في شهر العسل يا دكتور حمزة .. لم تقل لما نرجع لما ينته شهر العسل .. هم وجدوا أنفسهم في بيئة لا تعتبر الدين مهما في حياتهم .. فسوف ترون بفضل الله سلوى أخرى .. للأسف هؤلاء الزاعمون أنهم أحرار ودعاة حرية ما هم بأحرار ، بل أسرى التقليد للثقافة والفكر الغربي .. استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير فيعتقدون أن الانفتاح والسفور هو الحياة هو السعادة .. وهذا وهم صاحب استسلامنا للفكر الغاصب .. فسلوى لم تر والدها في يوم من الأيام يسجد لله أو يضع سجادة صلاة ليصلي .. وأمها مثل أبيها .. مسلمون بلا دين وهوية .. ففارس ابن الجيل الذي استقبل الحضارة الغربية بخضوع وانبهار وابن الغرب والغزو الثقافي الغربي .. والذي انغرس فيه أعطاه لذريته .. لكن مع الصحوة وظهور الإسلام بدأت الكهول تعود لدين الله الحق .. فسلوى صبرنا على تركها أمور دينها حتى ترحل إلينا .. ومن أسباب تعجيلي لزواج سامر منها لنقلها لأسرتنا .. نحن نرى أن بيئتنا أصلح من بيئتهم يا دكتور حمزة

ـ أكيد يا خالد .. فحديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل الذي قتل مائة نفس وقد التقى بالعالم الصالح فحثه على الانتقال إلى القرية الصالحة ليستطيع الثبات على توبته

ـ أحسنت يا دكتور حمزة ..البيئة لها دور مهم في تنشئة الإنسان

أثنى الدكتور حمزة على أفكار صديقه خالد ورغبته في إنقاذ الفتاة من الضياع ، ثم قال خالد : والدكتور فارس لمست أن لديه رغبة بالعودة لحياة الإسلام والدين من جديد .. فهو بحاجة

لمنقذ وشريك مساعد فأرى أن السيدة الفاضلة نبيلة تستطيع القيام بهذا العمل لوجه الله ..

وحدثهم عن فارس وسيرة حياته التي يعرف أهمها ثم ختم قائلا : حدثتكم عنه بتفصيل واضح وهو رجل لم يمارس الفجور والزنا .. ولو أراد ذلك فأماكن الفجور موجودة .. هو رجل هوي الغرب وأفكاره وفلسفته ؛ ولكنه منذ تعرفه بسامر أخذ يعيد ترتيب نفسه من جديد .. فأنا عرضت قصتي أمامكم حتى تكوني على بينة وصورة واضحة عن صهرنا .. وأنا حقيقة عندي أمل كبير أن يعود فارس للإسلام الذي عاداه أو تجاهله كل تلك السنوات المديدة، وقد أقر لي أن حياة العلمانية والعلمانيين فراغ ولهو وشهوات ، ووعدني بالصلاة .. لكنه قد يضعف عن بعضها لطول هجره لها .. ومع التشجيع والتذكير قد يثبت ، فهو قال ذلك قد أضعف فاحتاج إلى تشجيع .. فهذه مهمتك يا أخت نبيلة واستعيني بالله .. واستخيري الله ..ما رأيك يا دكتور حمزة ؟

بعد صمت قليل قال حمزة : هي مغامرة عظيمة يا نبيلة !.. وإذا لم تنجحي بمساعدته تستطيعين تركه وطلب الطلاق ، وسنصارحه بهذا صراحة ، وإذا نجحت كان نجاحك عظيما ولك أجر كبير ـ إن شاء الله تعالى ـ وأنا مثل خالد صار لديّ إحساس بأن الرجل راغب بك بعد كل هذه الشهور من الانتظار ، فهو يبحث عن امرأة متدينة تقبل به ليتغير.. وما دام الرجل يرفض الفجور والعشيقات ويرغب بالزواج فهذا يدل على نية صالحة .. وهو راغب بالعودة لحياة السكينة والبيت الدافئ .. لندعها تفكر بكل راحة يا دكتور خالد قبل أن ندعو الدكتور فارسا لشرب الشاي والقهوة

رد خالد متحمسا : أجل أجل أيها الصديق العزيز .. الحياة الزوجية جميلة يا نبيلة رغم ما فيها من بعض المنغصات .. والدكتور فارس ليس كبيرا في السن لم يبلغ الخمسين حسب علمي هو من جيلي تقريبا

فهزت الفتاة رأسها وقالت : سأفكر .. صباح الغد بإذن الله سبحانه سيكون الرد عند أبي .

الصلاة

رجع العروسان من شهر العسل بسلام وحفظ من الرحمن ، وكان وصولهما لبيت خالد الذي كان في استقبالهما وهو عائلته ، وتناولوا الغداء على مائدته ، ثم أخذت اتصالات الأقارب تتالى على البيت ، واتصلت سلوى بوالدها مخبرة له بعودتها ، وأنها مشتاقة لرؤيته وستزوره ليلا ، وهو قد عبر لها عن شوقه وسعادته بسعادتها وهو بشوق لرؤيتها وسماعها وأنه سيكون في انتظارهما .

أخذ سامر سيارة والده لهذه الزيارة ، ولما طرقا الباب فتحت لهما الخادمة التي رحبت بهما ، وباركت لهما زواجهما ، ودعت لهما بالحياة السعيدة ، ولما أصبحت سلوى داخل البيت قالت بصوت عال ومرح : أين أبي ؟

فردت الخادمة : إنه يصلي .. سيأتي بعد قليل .

هتف سامر دهشة : ماذا قلتي يا ..

ابتسمت الخادمة لدهشتهم وأدركت أنهم لا يعرفون أن السيد أصبح مصليا وقالت : نعم هو يصلي العشاء ..

قالت سلوى وهي تنظر في عيني سامر دهشة : أبي يصلي العشاء !.. ما أحلاك يا أبي ! .. الحمد لله .. أنت مبارك يا سامر !

بعد قليل جاء فارس باسما واحتضن سلوى وقبلها وقال : ما أجملك يا سلوى ؟ أنت جميلة وثيابك زادتك جمالا ؟ مرحبا بك يا حبيبتي .. وقرة عيني .. لقد ازددت حسنا .

ثم تركها واحتضن سامرا قائلا : أهلا بولدي وصديقي الحمد لله على السلامة .. إنكم رائعون وفي غاية الصحة والعافية .. ما شاء الله .. ما شاء الله !

ولم ترك سامرا قال مداعبا : أنا خشيت أن تعودوا مكشرين ومتنكدين .. مرحبا بكم .. السعادة تفوح من حناياكم .

ـ شكرا يا عم ، بل السعادة غمرتنا أكثر لما علمنا من الخادمة أنك تصلي .. الحمد لله على هذه النعم

قالت سلوى بفرح طاغ : أبي عندما دخلنا وسألنا عنك أخبرتنا ... أنك تصلي .. تفاجئنا ؛ ولكنها مفاجأة طيبة يا أبي .. لذيذة الصلاة يا أبي ..

قال فارس باسما : يبدو أن حبيبة لم تحدثكم عن توبتي .. أنا أشكرك جدا يا سامر .. لم أكن أتخيل أن سلوى ستكون جميلة للغاية بهذه الثياب

تبسم سامر وقال منشدا : عين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبد لك المساويا

ـ جميل هذا الشعر ..!!

ـ لم يكن أمامنا وقت يا عم لسماع هذه الأخبار الطيبة .. العمات والخالات .. التلفونات لم تنقطع للتهنئة .. ولا تنس أنني أول من يتزوج من أبناء الدكتور خالد وحبيبة.. أنت يعني حقيقة تصلي وتعود للإسلام .. آه ما أحلى الإسلام مع العلم يا عماه !

ـ صدقت يا سامر .. سلوى كيف أنت وهذا الذي تلبسينه ؟

احتضنت أباها ثانية وقبلته من جبينه وقالت : كم أحبك يا أبي !.. سامر رجل عظيم! .. وأمي حبيبة سيدة فاضلة ..إني سعيد بك يا أبي .. وحكاية زواجك صحيحة

ـ أجل يا سلوى سأتزوج امرأة متدينة .. تريد شيخا فهداني الله ، وسأحاول أن أكون شيخا بحق

قال سامر : رائع يا عماه !.. ألف مبارك يا سيدي .. هذا البيت الواسع يحتاج لزوجة تسكن إليها أليس كذلك يا سلوى؟

فردت وهي تترك عنق والدها : طبعا ، نعم ، إن أبي يستحق زوجة صالحة بعد كل سنوات العزوبية التي انقضت .. مبارك يا أبي

ـ شكرا يا سلوى أنا سعيد بكم يا أولاد .. عدتم بكل سعادة وحب

فقال سامر : الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات .. سلوى فتاة ناضجة ، وتعرف حقوق الزوج .. وتحب الطاعة وتكره المشاكسة

قال فارس معترفا : أنا أشكرك يا سامر .. لقد كنت قلقا بل خائفا على سلوى لما انتقلت من المدرسة الداخلية للجامعة .. كنت خائفا جدا عليها ، وإن كظمت هذا الخوف ، ورغم تحرري وزعمي أنني متحرر من الدين والعادات والسمعة .. كنت أخشى أن تصطدم بشلة شباب لا

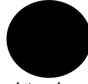
أخلاق لهم ، ولا هم لهم إلا العبث بالفتيات وخداعهنّ وافتراسهنّ .. كما نسمع ونقرأ .. وتستهوي حبيبتي سلوى حياة الانفلات .. فسوف أقف حقيقة عاجزا عن منعها يا سامر ..لأن ذلك سيكون باسم الحرية .. ونحن في بلادنا مهما حاولنا التحلل من القيم .. تبقى قضية الزواج قضية في غاية الأهمية .. لا تستطيع الفتاة أن تعيش في مجتمعاتنا دون زواج وأهل كما يكون الحال في أوروبا والغرب .. هناك لو قضت العمر كله بدون زوج وأهل لا أحد يهتم ويكترث .. والشرقي يصعب عليه الزواج من فتاة كانت تمارس الجنس مع عدد من العشاق .. فهم عندنا في أول زواج لهم يرفضون الزواج من مطلقة أو أرملة .. فكيف بزانية ؟!



قتل

رفع فارس سماعة الهاتف ليرد فسمع صوتا يعرفه قديما أنه صوت حمدي شقيق زوجته الأولى وخال بناته : آ .. يا سيد حمدي مرحبا بك .. تريد لقائي .. أنا في البيت .. أنا في انتظارك .

نظر إلى ساعته فهي السادسة مساء فقال : ماذا يريد حمدي؟ لقد شاهدته في عرس سلوى .. هل يفكر بزيارتها ؟ ويريد أن يصحبني معه .. ثريا .. هل ثريا معه راغبة بزيارة ابنتها بعد عودتها من شهر العسل؟ .. لم يطلب مني لبس ثيابي .. ماذا يريد حمدي نسيبي القديم .. خال البنات ؟



كان وجه حمدي كئيبا حزينا عندما التقيا فاستقبله قلقا متوجسا وقال : حمدي !.. أراك ممتقع الوجه ؟!

ـ صدقت يا فارس .. لقد حدثت جريمة اليوم صباحا .

انقبض قلب فارس سريعا ووضع يده على صدره حيث القلب وقال : جريمة ؟!

ـ نعم ، لابد أن تعرف بها يا فارس .. لأنك والد البنات .. أكيد عادت سلوى من شهر العسل

ـ لها أسبوع أو عشرة أيام .. ثريا .. ما الجريمة ؟! وما دخل البنات ؟

ـ ثريا قتلت اليوم قبل الظهر

قال رعبا واستغرابا : يا الهي !!.. قتلت ؟! ومن قتلها ؟! ولماذا قتلت ؟!

ـ قتلها زوجها .. وقتل معها عشيقها .. حسون الذي تعرفه .

ـ أنا أعرفه!

ـ لا تجعل نفسك جاهلا يا فارس .. أنا أعلم لماذا طلقت ثريا؟ .. أنا الذي كتبت لك تلك الرسالة ؛ لأنني لم استطع فعل شيء .. حسون موظف البنك الذي تحدثت عنه الخادمة قديما .. أنا جئت إليها باكرا فوجدته في بيتك .. فكتبت لك تلك الرسالة .. لتعرف رغم أنها شقيقتي ؛ ولكني أكره وأبغض الزنا والخيانة .. لا أرضاهما لأحد .. وها هي أعادت الكرة مع زوجها الجديد العجوز .. صديق أبي الذي رضي بها بعد ترمله ومن أجل صداقته لأبي .. فلما اكتشف خيانتها أطلق عليها النار وعلى عشيقها النذل .. ومات على الفور .. وهي ماتت بعد وصولها

المستشفى بقليل .. فجئت إليك لنحسن التصرف من أجل بناتك يا فارس .. لا أحد يعلم بعهرها القديم سوانا ..أما اليوم فكل أسرة زوجها يعرفون .. فعلينا أن لا نتحدث عن ذاك الماضي .. على الماضي أن يبقى في صدورنا يا فارس .. ليبقى سبب طلاق أمهن زواجك سرا أتسمع ؟!

ـ إني أسمع يا حمدي .. أنا أقدر موقفك ونبلك القديم والجديد

ـ إذن اخبر بناتك بمقتل أمهن في ظرف مريب .. إنه خزي يا فارس ؛ ولكن علينا التصرف .



بعد تسلمهم الجثة من الشرطة والطب الشرعي جرت مراسم الدفن للسيدة ثريا حسب تعاليم الشريعة الإسلامية ، وأقيم بيت عزائها في منزل والدها ، ولاكت الألسن قصة مقتلها وخيانتها لزوجها الشيخ الكبير الذي ألقي به في السجن ليقدم للمحكمة .

وكان سامر يخفف من آلام الجرح الدامي والنفسي الذي أصاب سلوى من فعلة أمها البشعة فكانت تقول له : ألم أقل لك إني لا أحبها ؟! .. أرأيت ماذا فعلت بالشيخ المسكين؟! جعلت بيته وكرا للفسق والفجور! لماذا قبلت به ما دام كان رجلا كبيرا ؟

ـ يا سلوى هي أمك .. أمرها عند خالقها

فصاحت بحرقة وغل : فظيع ! فظيع الذي فعلته ! كان عليها أن تطلب الطلاق وتتزوج من ذلك العاشق الدنيء ! الخيانة قذرة .. مؤلمة يا سامر

ـ لقد ضعفت أمام الشهوات .. نسأل الله لها الرحمة .. اعلم قسوة الخبر عليك .. ولكن ليس للإنسان إلا ما سعى .. ضلت الطريق .. هدئي من نفسك .. وكما قال والدك لك نحن من سنوات انتهينا من ثريا .. كان عليها أن تحافظ على شرفها وشرف عائلتها

فقالت بأسى : لقد تمزقت قلوبنا من هذه الفضيحة .

كان جابر يحدث مازنا شامتا : أسمعت يا ابن العم قصة مطلقة فارس؟! لقد قتلها زوجها العجوز بعدما ضبطها مع عشيقها في غرفة نومه .. قتل الرجل والمرأة .. ما أفجرها ! أتزني ببيت زوجها وعلى فراشه ؟!

فقال مازن : لقد عرفت التفاصيل الدقيقة .. قريب لزوجها المسكين زبون عندنا .. حدثني بالمأساة .

ـ هات ما عندك يا بطل ؟

ـ القصة يا سيدي .. أنها بعد طلاقها من أخيك ظلت بدون زواج .. ولما ترمل صاحب أبيها قريب زبوننا .. طلبها من أبيها فوافق ، ثم قبلت هي بالزوج الكبير وهو رجل غني صاحب ثروة وعمارات .. وسكنت مكان المرأة الميتة بعد أن أثثت من جديد .. ومنذ أشهر قليلة أخذ يتردد عليها رجل في البيت زاعمة لنساء أولاد الرجل الذين يسكن بعضهم في شقق العمارة أنه قريب لها .. فتحدث الأولاد لأبيهم عن زائر زوجته بعد حين ، فنفى معرفته بشيء وطلب منهم كتمان الأمر .. وقال هناك خيانة .. إني بعد الإفطار لي فترة أو بعض الأيام أشرب قهوة وأنام على غير ما تعودت .. طلب منهم الصمت ليتحقق من الأمر .. فقد أدرك أن زوجته تخونه ، وتضع له المنوم في يوم زيارة عشيقها لها .. ففي ذلك الصباح .. تظاهر أنه شرب القهوة ثم استلقى على الأريكة ونام .. وفعلا لم يمض وقت حتى زلف العشيق وذهبا لغرفة النوم وأغلقت الباب مع أنه لا يوجد معهم أحد في البيت من أطفال أو خدم .. فقام الرجل الشيخ المتناوم ، وكان قد أعد مسدسا خاصا به .. وكان لديه مفتاح الغرفة الثاني .. وفتح عليهما الباب بسرعة ولما رأى المشهد أطلق عليهما النار .. فقتل الرجل الفاجر على الفور .. والمرأة لفظت أنفاسها في المستشفى .. طبعا جاء رجال الأمن والإسعاف .. ووجدوا حبوب المنوم في الشقة .. فهذه قصة مقتل زوجة شقيقك القديمة .

ـ لا حول ولا قوة بالله .. آه .. مكر النساء .. عندما تفجر المرأة لا يردها شيء ، لا شرف ولا زوج ولا أبناء

ـ قل الحمد لله أنها فعلت فعلتها بعد طلاقها من فارس بعد عشر سنوات .. لو تورط معها لقضى وراء القضبان باقي عمره .

وقال جابر بعد تفكير : لقد حدث شوشرة قديما نحو هذه الموضوع بعد ولادة سلوى زوجة ابن أختك .. ثم توقف القيل والقال واستمر الزواج .. أترى أن فارسا طلقها بسبب عهرها ؟

ـ ولكنه كان متزوجا سرا عندما طلقها ، كان له زوجة سرية من سنوات يا جابر .. لا أعتقد أن أخاك وجد عندها رجلا .. ففارس كان تلك الأيام أكثر وقته في الجامعة .. فكيف سيكتشف خيانتها ؟ .. وأنا تأكدت أن سبب طلاقه أنها عرفت بزواجه عليها ، فخيرته بينها وبين زهرة لأنه كان يريد إشهار زواجه .. وها هو اليوم يستعد للزواج مرة ثالثة .

قال : فارس ؟!

ـ نعم ، ربما لولا هذه المأساة لتزوج.. ألا تدري أن أخاك صار مصليا ويرتاد المساجد ؟

صاح جابر استغرابا : فارس ! قال : آ ، فارس

قال متشككا : يا رجل فارس كان كافرا .. كان إبليس .. كان دائما يستهزأ بالصلاة والوضوء والاغتسال .. ولما يدخل البيت ويجد أمه تصلي يشوش عليها ويسخر منها

ـ كان يا ما كان .. سيتزوج ابنة الدكتور حمزة صديق الحاج خالد .. الدكتور خالد زوج حبيبة والعروس شيخة ؛ ولكنها لم توفق بزواجين سابقين بسبب عدم قدرتها على الإنجاب .. علمت كل هذا من أم سامر.. عندما ذهبنا لنبارك للعروسين بعد عودتهما من شهر العسل .. أو شهر النحل ..

ـ والله مساكين بنات أخي بعد هذه الفضيحة المدوية .. قُول سلوى نفقت وجبرها ابن أختك أما حسناء المسكينة من سيغامر ويتزوجها بعد فضيحة أمها

ـ ستجد صاحب النصيب .. ليست أول امرأة تفجر في التاريخ يا جابر .. الزنا معروف منذ أوائل التاريخ .. الناس تنسى مع الوقت .. وقد يأخذها أحد أبناء حبيبة .. سمعت مثل هذا الكلام .. وهي صغيرة بعد لم تتخرج من المدرسة الداخلية ، وعندما تصبح طبيبة أو صيدلانية ستجد عشرات العرسان ، بنات فارس عشن مع أبيهن أو تحت رعايته منذ انفصلت أمهن عن أبيهن، وهن هادئات بطبعهن ، سلوى لا تتكلم مع أحد إلا إذا وجه الحديث إليها مباشرة .. وكلامها مختصر ، لقد صدف أن خاطبتها في بيت حبيبة .. لا تحب الثرثرة كأبيها

ـ صدقت يا مازن بكل تكلمت به .. أصبحت خبيرا يا مازن في أمور البشر

رد متهكما : شبنا يا جابر .. شيبتني النساء .. زواج طلاق .. لم أعد أعرف الأولاد أبناء من

منهنّ

ضحك جابر ضحكا عاليا وقال : معنى ذلك أنك خرفت

ـ خرفت !! يا أبا خضر ألم تجد إلا هذا الوصف ؟! أنا اعتبرك أكثر أبناء العائلة معرفة بي .

ـ وأنا أكثرهم فهما لك يا ابن عمي .



حادثة موت ثريا لم تؤثر كثيرا على فارس ؛ لأنه حذفها من حياته منذ طلقها ، وأراد من بناته عدم الاهتمام بسيرتها وقصتها ، ونحن نعلم برودة العلاقة بين الأم وبناتها ، من يوم أن حصل الانفصال لم تحاول المرأة التمسك بالبنات ، وخاصة حسناء الصغيرة التي كانت بنت أربع سنوات أو خمس ، فنسيت سريعا قبل انقضاء شهر على وفاتها .

وبعد حين يسير عاد الحديث عن زواج فارس ونبيلة التي وافقت على الاقتران به بعد أن وعدها بالبقاء على التوبة ، وأن تستمر في عبادتها ولبس ملابسها الشرعية ، وكان قد أخذ بممارسة الصلاة قبل قبولها ورضاها .

واستقبل السيد حمزة وعائلته الدكتور خالدا وزوجته وفارسا ، ودارت بينهم جلسة تعارف معمقة وفي نهاية الجلسة قال فارس : أنا كشفت لكم أوراقي .. ولا تعتقدوا أن سبب توبتي الزواج من الفاضلة نبيلة .. أنا تبت إلى الله لأنني بحاجة للتوبة .. من يوم أن التقيت بسامر ابن الدكتور خالد فقد أخذت أفكر بالإسلام وتقاليد الإسلام .. وجاء الحديث عن السيدة الفاضلة نبيلة دفعا قويا لعدم التردد واتخاذ القرار الحاسم والقضاء على التسويف .. ففكروا وردوا بنعم أو لا

وأكد الدكتور خالد على أن الدكتور فارسا ترك الخمر منذ عهد قريب .. وأنه يمارس الصلاة حقيقة ، وهو يعود للإسلام شيئا فشيئا .

زارت نبيلة حبيبة وطلبت منها أن تسمح لها بمقابلة سلوى ، وبعد تعارف قالت نبيلة : يا سلوى

أنت طيبة ورقيقة .. أريد أن أسالك عن أبيك واصدقينني النصيحة

ـ أنا تطلبين مني النصيحة ؟!

قالت مشجعة : أنت أعرف الناس بأبيك .. هل يمكن أن تستمر الحياة الزوجية مع والدك ؟

ـ أبي تزوج مرتين ، ولم تستمر الحياة الزوجية في كلتا الزيجتين ، قضى مع أمي بضع سنوات وكذلك مع زهرة .. ولكل زيجة ظروفها وأحوالها .. وهو يبحث عن حياة مستقرة ، وقد كبر أبي يا سيدة نبيلة .. ومنذ وعيت لم أسمع أو أرى أنه اتخذ عشيقة أو خليلة .. واليوم أبي يتغير خاصة بعد زواجي من سامر .. وتبقى الحياة الزوجية نجاحها أو فشلها بيد الله

ـ الصلاة والعبادة هل هو جاد فيها ؟

قالت : أتوقع أنه جاد يا أخت نبيلة .. لا أعتقد أنه يمثل وينافق ليتزوج منك .. فلو لم يجد ويلمس فيك أشياء هو بحاجة إليها لما تزوج وأصر عليك .. وهو ترك زهرة زوجته الثانية لأنها هي التي تريد ذلك .. تريد خلفة وهو ضعيف من هذه الناحية .. الإنجاب سبب الانفصال الثاني .. فحيواناته المنوية ضعيفة .. وحاول الزواج خلال هذه السنوات وبسبب هذا الموضوع وهو الحمل يرفضن ويصرفن نظر .. وكنا يوما في زيارة دار عمي خالد فحدثه بحاجته لامرأة تقبل به وليس لديها رغبة بالحمل أو تحمل أصلا .. فخطرت على بال الدكتور وزوجته .. ولما علم تدينك لم يرفض ؛ ولكنه تردد وفكر هل يستطيع التوبة والثبات عليها ؟ فكأنه تأثر بعمي خالد واتخذه صديقا ومستشارا

ـ أشكرك جدا يا سلوى .. نعم الصديقة أنت.. الله يستر عليك دنيا وآخرة .. الفشل في زواج ثالث سيحطمني يا سلوى .. وأنا رضيت بقسمة الله بعدم الذرية .. والأمر لله وحده

ـ الطب يا نبيلة يتقدم لا يأس مع الحياة .

استقبلت أسرة خالد السيد فارسا وابنته حسناء التي أصرت على زيارة سلوى لتزورا السيدة نبيلة حمزة عندما سمعت والدها يقول إن الأمور في نهايتها

وبعد حين يسير قامت حبيبة بأخذ سلوى وحسناء لزيارة نبيلة بعدما اتصلت بها بالتلفون ، فرحبت بتلك الزيارة ، ولما غادروا البيت قال فارس : حسناء رغم حياتها في مدرسة خاصة

داخلية كما تعلمون قلقة من زواجي .. لا أدري لماذا ؟ بعكس سلوى التي كانت فرحة وسعيدة كأنها هي التي ستتزوج أعندك تفسير يا دكتور ؟

تبسم خالد وقال : هذا سؤال يوجه لطبيب نفسي .. على كل حال هو قلق من المجهول رغم بعدها عنك ، ولا تلتقي بك إلا نهاية الأسبوع والعطل الرسمية .. فهم كما تعلم بعد طلاق أمهم تعلقوا بك لأنك صرت الأم والأب بالنسبة لهم .. ولأن زوجتك زهرة كانت عدوة لهن كما فهمت منك .. فهي قلقة خائفة أن تحرمها الزوجة الجديدة من حنانك وعطفك نحوها .. فهي قد اعتادت أن تقضي إجازتها معك وحدك .. فالآن ستجد شريكا لها .. والسيدة نبيلة سيدة فاضلة لأنها من بيت أصيل يا فارس .. ونحن أصدقاء ونعرف أسرار بعض .. فلن تكون عدوة لحسناء وتمثل الدور السيئ لزوجة الأب .. ولا تنسى أن نبيلة حرمت من الأمومة فسترى حسناء كابنة لها وتفرغ عاطفتها نحوها .. والسيدة امرأة تضع مخافة الله بين عينيها يا فارس .

ـ طمأنتني يا دكتور .. أنتما تعلمان الباطن في نفس حسناء ، إنها لتخزن مأساة أمها ومقتلها وخيانتها للرجل الذي رضي بها زوجة .. وهي تقول إنها تعاني من همسات التلميذات وجلست أكثر من مرة عند الطبيبة النفسية في المدرسة .. وتحدثت مع تلك الطبيبة وطمأنتني أيضا على مشاعر الفتاة وتحملها للصدمة والمأساة ، ولم تؤثر على مستواها الدراسي والتعليمي .

قال سامر الصامت لهذه الجلسة معلقا : طيب هذا يا دكتور فارس .. الحمد لله .

فقال خالد : الحمد لله .. ما آخر أخبارك مع الإسلام ؟

قال : الحمد لله يا دكتور خالد .. الكتب التي تدفعها لي كتب عظيمة ، وبذل مؤلفوها جهودا جبارة وعظيمة لبيان محاسن الدين الإسلامي .. محاسن العقيدة .. محاسن الشريعة .. معاملات أخلاق .. معلومات كنت افتقدها يا خالد .. فرأيت من المؤسف تشبيه الدين الإسلامي بالدين اليهودي والنصراني .. والأديان الأخرى .. لا مجال للمقارنة بينهما .. شكل العبادة عندهم لا يشبه شكل العبادة عندنا .. هناك آثار مجهولة كثيرة في تفاصيل تلك الديانات .. الاغتسال من الجنابة صفة الوضوء .. إنهم يصلون بغير وضوء .. صلاتهم لا ركوع فيها ولا سجود .. أنصبة الزكاة .. صفة صيامهم .. كيف يوحدون الله ؟!

أخذ نفسا وشرب ما قدمته الخادمة وعاد يقول : دين الإسلام يتحدث يا خالد .. في تفاصيل عجيبة .. لم أكن أفكر أن دينا يهتم بها .. دينا يبحث بها .. مثل آداب قضاء الحاجة .. عند الأديان الأخرى عادات .. في الإسلام عبادات .. تدخل بالقدم اليسرى للمرحاض .. تذكر اسم الله وتتعوذ من الشياطين .. كيف تخلع ثيابك ؟ .. تنظف نفسك بالورق والماء .. تخرج باليمين تدعو .. شيء عجيب هذا فعلا يا سيدي .. حتى الجهة التي تجلس فيها لقضاء الحاجة تحدث عنها النبي صلى الله عليه وسلم

قال سامر : جميل يا عمي ! إنك تقرأ بقلب متفتح للإسلام

ـ شكرا يا سامر .. آداب الجماع والمعاشرة الزوجية .. يتحدث عنها الإسلام قبل أن نسمع اليوم عن الحياة الجنسية والثقافة الجنسية والتربية الجنسية .. الذكر عند الجماع ..الاغتسال بعد الجماع الوضوء لتكرار الجماع .. المداعبة وغيرها أشياء يتحدث عنها الشرع .. ونحن كنا نستحي الحديث عنها يا خالد .. عمري ما اغتسلت بسبب الجماع أنا وثريا وحتى زهرة .. ننظف المكان وانتهى الموضوع ..الإسلام يا عالم يتحدث عن سنن الفطرة .. كتنظيف العانة وشعر الإبط .. وقص الشارب والظفر .. هذه قوانين التربية .. أنا عمري ما تأملت في هذه الآداب والسنن .. كان الغرب مهوى قلبي وحياتي .. النوم يتدخل فيه الإسلام .. على المرء أن يبدأ نومه على جنبه الأيمن ويضع يده على خده الأيمن .. ويقرأ الذكر المختار وبعض التعاويذ .. سورة الفلق سورة الناس .. حقيقة أنني دهش لعظمة هذا الدين .

قال خالد مبهورا : إنك تقرأ قراءة جادة وعميقة !

ـ شكرا يا سيدي .. أنا مغرم بالقراءة ، آلاف الكتب الفرنسية والإنجليزية قرأتها بلغة أهلها .. ويستهويني الفكر العميق والبعد عن السطحية .. أنا لا أدري لماذا لم أكن أقرأ كتب العلماء الأفذاذ من المسلمين ؟ .. لمَ غرس فينا كره الإسلام ؟! وإن الأديان سبب تعاسة العالم وسبب الحروب .. نفرنا من قراءة مثل هذه الكتب التي تتحفني بها .. اختياراتك واعية .. وموصلة للرسالة يا سيد خالد .. الدين يهتم بالقلب .. هذه العضلة التي تدير هذا البدن .. وهي في غاية الأهمية من الناحية الروحية .. كالإيمان يجب أن يستقر في القلب وأن يكون مخلصا لله وأنه أسس

العمل وقاعدته المتينة .. عمل بدون إخلاص لله يكون عملا فاشلا باطلا .. صوم بلا إخلاص مجرد ترك طعام وشراب كما تفعل الدواب في سباتها الشتوي .. كالدب القطبي مثلا .. لو اغتسلت مائة مرة ولم تقدر النية في القلب ستبقى جنبا وكأنك لم تغتسل .. ليست قضية انغماس بالماء فحسب .. يجب أن تصحبه نية صادقة متعبدة .. القلب شيء مثير .. يا خالد .. الإسلام ينصحك يرشدك أن تشرب جالسا أن تبول جالسا ، ولكنه لا يمنعك من الشرب قائما .. لا يمنعك من البول قائما .. لكننا نكون قد تركنا الأحسن .. قد يبدو هذا غير معلل وغير واضح ولكنه من الوحي ..

ـ إني أزداد إعجابا بك يا فارس

ـ هذا تعلمته من كتبك العظيمة .. وأنا أعجب من كاتبي هذه الكتب الرصينة المتعوب عليها من قبلهم .. فنحن من نزعم أننا أهل فكر ترتاح قلوبنا للفكر العميق .. وهناك بعض الناس أو جلهم يحتاج لكتب مبسطة وأسهل من التي أعرتني إياها .. حتى أنا من حماسي أخذت أقرأ بعض الكتب الفرنسية والإنجليزية التي تتحدث عن المسلمين وبلاد المسلمين ..

وبينما هم مستغرقون في تذوق الإسلام ومحاسنه ، وقد شربوا الشاي والقهوة وطعموا بعض الفاكهة عادت النسوة من زيارتهن لنبيلة وطرقت حسناء الباب ودخلت تصيح : بابا بابا وألقت نفسها عليه معانقة له ، ثم التفتت لهم قائلة : آسف يا عم خالد .. آسفة يا سامر ..

قال خالد : أنت في بيتك يا حسناء نحن أهل ..آ .. أرأيت السيدة الفاضلة نبيلة ؟

قبلت وجه أبيها وقالت : إنها رائعة يا أبي! .. لقد أحبتني من أول لقاء يا أبي .. اسأل سلوى احتضنتني وقالت أنت حسناء أخت سلوى .. ما شاء الله .. أنت طيبة ورقيقة مثل سلوى أم مشاكسة ؟.. وبعد كلام قالت أنا لم أوافق بعد يا حسناء .. أبوك ترك لي حرية التفكير وعدم العجلة .. وأنا بعد حديثي مع سلوى العزيزة عن والدك ـ نظر الأب إلى سلوى التي ابتسمت له ـ أصبح القبول عندي تسعين بالمائة .. وأنت رأيك إيه ؟

فقال فارس : فعلا أنت رأيك إيه ؟ أنا لم أسمع رأيك بهذا العمل الضخم الزواج من جديد .

فقالت حسناء وهي ما زالت تطوق عنق أبيها قلت لها : أنا أحبك يا سيدة نبيلة .. ولازم

تتزوجين أبي .. أبي مسكين .. وحيد في البيت .. عاوز امرأة طيبة مثلك

ذرفت دموع فارس تأثرا فدفع إليه خالد منديلا ورقيا وقال : رائع جدا يا حسناء ! أنت مائة في المائة تحبين والدك وسعادته .. فنحن الرجال مساكين .. لا نستطيع العيش بدون زوجات ربما النساء يصبرن أكثر عن بعد الرجال .. فأنا ألاحظ أن الرجال إذا ترملوا أو طلقوا يسرعون في البحث عن الشريك المناسب .. أما النساء الكبيرات فوق الخمسين يعزفن عن الزواج من جديد .. ربما تكون خاصية فسيولوجية يا فارس

ـ أنا دكتور لغة .. أنا أحبك يا حسناء يا أميرة .. اجلسي دعي عنقي ..أنا ليس لي في هذه الدنيا سوى أنت وسلوى أمنا الصغيرة ..



زواج فارس

لقد قضي الأمر الذي فيه تستفتيان .. وافقت السيدة نبيلة على الاقتران من حضرة الدكتور فارس بعد تردد وخوف لازماها عددا من الأسابيع .. واحتفل القوم بزواجها .. هو طلق مرتين وهي طلقت مرتين .. واستقرت الزوجة الجديدة في فيلا فارس المستأجرة ، وعادت الحياة الأسرية الدافئة لفارس بعد سنوات من العزوبية والجفاف الأسري .. ووجد الرجل المرأة إنسانة فاضلة وثقافتها الدينية راقية ، وأنها سيدة محترمة ، وأنها تسعى لإسعاده فعلا وحقيقة .. وكانت تتلقى حسناء في إجازاتها كأنها ابنة حقيقية لها .. وكان الرجل يبكي عندما تخلو به حسناء وتحدثه عن أخلاق زوجته وحسن رعايتها لها في أيام الإجازة .. بل من حبها لامرأة أبيها طلبت منه بعد حين بأن ينقلها لمدرسة خارجية ، وبعد تشاور مع نبيلة قالت : إذا كانت هذه رغبة الفتاة فأنا تحت أمرها .. ولا ضيق عندي من وجودها الدائم معنا .. لكن اسمح لي أن أتحدث معها بهذا الموضوع لأتأكد من رغبتها لفعل ذلك ، وأنها مقتنعة بما تطلب يا سيدي الدكتور .

ـ هي التي اعترفت بذلك قائلة ما دام أن الله أرسل لي أما جديدة يا أبي لماذا أظل في المدرسة الداخلية ؟.. أنت تذهب لجامعتك وأنا لما أعود أجد أمي في البيت .. أنا أعترف أمامك أنك أميرة وإنسانة على خلق طيب .. لقد أحبتك الفتاة سريعا رغم أنني لم أكن أتوقع ذلك وبمثل هذه السرعة .. فإن زهرة بعد طلاقي لثريا رفضت بشدة بقاء البنات معنا مع أننا لم يكن بيننا مواليد .. أبت كل الإباء ولو ساعة واحدة يا نبيلة .. لم تكن أما يومذاك .. أنا سعيد بك يا سيدتي الكريمة ، ووالدك راجل فاضل وغانم .. والشكر لله .. أنت كنز عظيم ، ولا أقول ذلك تملقا لك ..أنت أدخلت السعادة على قلبي وقلب حسناء بحبك لنا .. وأنا قررت بمشيئة الله تعالى أن نتعالج أنا وإياك من أمراض العقم خارج البلاد .. فمكسب عظيم أن يهبني الله منك ذرية طيبة .. اليوم كما أسمع وأقرأ العلاج تطور .. وهناك ثورة في علاج أمراض الحمل والعقم سنسعى ولو لطفل واحد

تفاجأت بأفكار فارس فقالت باستغراب : أنا! أنت تعرف أني تزوجت مرتين وطلقت بسب

الإنجاب وتعالجت ، لم يقصر أبي وأهلي في ذلك .. ولكن الأمر لله لا تقلق من جهتي ، وأنا راض بقدري يا أبا سلوى

ـ لا تيأسي يا سيدتي أنا تحدثت مع رجل في الجامعة عن العقم والإنجاب فقال نحن كل يوم نجد جديدا في علم الجينات والطب والعقم وذكر لي أسماء علماء في الإنجاب في لندن وبرلين

تنهدت نبيلة وقالت : نذهب أوروبا

ـ سنذهب بمشيئة الله .. أنت إنسانة تستحق أن يضحي من أجلها الإنسان بكل ماله بكل شيء

مسحت دمعات عن آماق عينيها وقالت : إنك كريم يا سيدي الدكتور!

ـ إن شاء الله في صيف العام القادم أكون قد حجزت لي ولك عند أحد هؤلاء الأطباء العلماء يجب أن يبقى لدينا أمل كبير بالإنجاب .. فأنت تستحقين التضحية .. لقد أدخلت السعادة والإيمان على بيتنا

ـ أشكرك يا سيدي الدكتور .. ما آخر أخبار عزيزتنا سلوى ؟

ـ أيام قليلة وتضع مولوها الأول بإذن الله .. وقررت أن تقضي أيام ولادتها الأولى بعد خروجها من المستشفى عندك يا نبيلة .. إذا كان ليس لديك مانع واعتراض

قالت بدهشة : مانع ! أنا أمهم يا سيدي الدكتور .. هذا الأمر يسعدني

ـ نعم ، أنا قررت قبل مشاورتك .. عندما التقيت بخالد وسامر جرى الحديث حول هذه الأمر فقلت لهم السيدة الفاضلة موجودة دائما في البيت .. فلن ترفض خدمة ابنتها .. وأنا أعرف أخلاقك العظيمة فتبرعت نيابة عنك

ـ اشكر ثقتك بي .. وأنا سعيدة بهذا العمل وعلى الرحب والسعة .. وسلوى ابنتي حقيقة يا فارس .. إني أحبها بصدق .

بعدما تحدثت نبيلة مع حسناء عن رغبتها بترك المدرسة الداخلية ، وأنها ترغب بالعودة للحياة بينهم ومعهم في البيت ، أتم فارس إخراجها من تلك المدرسة ونقلها

للقسم الخارجي الذي يتبع لنفس المدرسة .. فكان باص المدرسة يتولى نقلها من البيت للمدرسة ثم العودة ، واستقرت حسناء في البيت مع نبيلة .. وعاد لها الهدوء الأسري والدف العائلي الذي

افتقدته منذ سنوات وسنوات .. وكانت نبيلة نعم الأم لها .. وأكدت لها أنها أم حقيقية لها .. وكان فارس يرى ويلحظ عمق الصداقة بين زوجته وابنته مما أكد له سعة قلب نبيلة وحسن تربيتها وأخلاقها .. وسر لتعلق حسناء بها ومحبتها لها .. وأخذت حسناء تحافظ على الصلاة ، وتتعلم منها بكل أريحية بدون أن تأمرها نبيلة بذلك .. وأخذت تتوسل لأبيها أن يشتري لها ملابسا كملابس سلوى ونبيلة.. فقال : الذي يلبس هذه الملابس الجميلة سيتحمل المسؤولية كاملة ..لا يرميها بعد أيام أو أشهر .. هذه الثياب الشرعية ستلقي عليك عبئا جديدا .. عندئذ عليك أن تكوني مسلمة حقيقية .. ليس مجرد كلام .

ـ إني أرى سلوى أجمل امرأة وهي تلبسها يا أبي

ـ سلوى أجمل وأحسن فتاة بدونها

قالت بإصرار : بل ملابس سلوى الشرعية جعلتها أجمل امرأة في الأرض .. صدق أنت لا تعرف في الملابس كما أعرف

ضحك فارس ونبيلة وقال : المهم الجوهر والقلب يا حسناء .. أنا فخور بك يا حسناء .. وعلى كل أمك نبيلة ستشتري لك مثلها لتجربي .. جربيها مدة من الوقت

فقالت نبيلة : هي التي ستشتري ملابسها يا سيدي الدكتور .. سنذهب للمتجر وهي تختار ما ترضاه وتقبله .. وتعجب به

فقالت حسناء : لكني لا أعرف شراء مثل هذه الثياب ولا أعرف اختيار الأجمل

ضحكت نبيلة وزوجها وقالت : ستتعلمين يا حبيبتي .. معارض ومتاجر المحلات الشرعية هي كشبيهاتها من محلات ملابس الموضة .. وستختارين من الألوان ما تحبين لا ما أحب أنا .. وسنشتري ثيابا نهديها لسلوى

عانقت حسناء زوجة أبيها وقبلت رأسها وقالت : أنت أم عظيمة أنت أحسن من أمي !

ـ نسال الله عز وجلّ لها الرحمة .. أنت طيبة يا حسناء .. لو ناديتني بنبيلة بدون أم لن أغضب منك أو أتضايق أنت عزيزة على قلبي يا حبيبتي

فقال فارس : ستنجب لك نبيلة شقيقا أو شقيقة بإذن الله يا حسناء

ـ صحيح يا أبي ؟!

ـ إن شاء الله .. سنسافر الصيف القادم إلى بريطانيا للعلاج يا حسناء ، وستسافرين معنا حتى تفتح المدارس وتعودين .. إني راغب بأن يهبني الله ذرية طيبة ستتعالج يا حسناء .. والأمر لله

ـ جميل هذا ـ إن شاء الله ـ الله يرزقك طفلا أو أكثر يا أحلى أم .. يا سلام عندما يحل بيننا طفل صغير ..!

كانت نبيلة تمسح دموعها التي حاولت إخفاءها فقال فارس : لا تستحي من البكاء يا نبيلة .. فهي دموع نبيلة حقا ..أنت أدخلت السعادة علينا والإيمان بيننا .. آه كم كنا نفتقد مثل هذه الجلسات ..!!

فقالت نبيلة : السعادة يا سيدي الدكتور في طاعة الرحمن والخضوع له وحده .. فبخضوعنا للرحمن نحب بعضنا صادقين ونحفظ بعضنا

ـ الحمد لله الذي أكرمني بك .. لقد اتفقت أنا وأمك يا حسناء على بقاء سلوى عندنا عند ولادتها لنطرب على صوت مولودها .. ستخرج من المستشفى إلى هنا لنرى الطفل الجميل وهو يصيح ويصرخ مناديا على سلوى

ـ عظيم ! كم أرغب بأن أسمع صياح طفل يا أمي

ـ ستسمعين يا حبيبتي .. وستكونين في الغد الواعد أمّا عظيمة وتنجبين للأمة أبطالا وعلماء

ـ متى ستلد سلوى يا أبي ؟

قال : قريبا خلال هذا الشهر سيظهر مخلوق جديد على وجه الأرض .. سيغادر الرحم الصغير إلى الأرض الواسعة .. رحلة عجيبة لهذا المخلوق في رحم أمه ..آيات باهرة في خلق الإنسان يا حسناء .. علماء الأجنة يتحدثون عن إعجاز كبير في خلق وتولد الإنسان .. أشياء كنا نراها ونسمعها ونمر عليها مرور الكرام دون تأمل وفكر .. ولما صرنا نقرأ في القرآن عنها يأخذنا الإعجاب والدهشة لحديث مراحل تخلق الإنسان .. وذلك قبل وجود أجهزة التصوير والأشعة والسونار .. القرآن حدثنا عن ذلك قبل مئات السنين .. حقيقة أنني في غاية الإعجاب .. فكلما أقرأ جديدا أرى كم كنت في جهل!.. الجهل غرور يا نبيلة .. اعتقدت أنني بإتقاني الفرنسية

والإنجليزية وعملي في كلية اللغة الفرنسية أنني أصبحت حداثيا تقدميا من علماء الأرض في الترجمة .. فعندما كنت افتح كتابا في تلك اللغة أشعر وأحس أني تقدمت كثيرا في لغة القوم .. الغرور عندما يركب الإنسان يضخم له الأشياء ويصوره أنه فارس الزمان الأوحد بين قومه ؛ لأنه يعرف لغة هؤلاء .. لكني اليوم أحس أنني تافه .. عندما اكتشفت أنني لا أعرف الوضوء والطهارة وأبجديات التوحيد والصلاة .. إني ضحية الغزو الثقافي الذي عظم أولئك وبخس الإسلام .. فلقد خلق التواضع حتى يعلم الإنسان أنه لا شيء ..لا شيء .. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .. هذا الذي نعرفه اليوم فقط من القليل ..



العلاج

قال الدكتور خالد : عظيم يا فارس! إنك تتقدم في العلم الشرعي تقدما عظيما وسريعا .. وفعلا على المرء أن يستغل فورة الحماس قبل أن يعود للسكون .. لقد سمعت أنك ستسافر لبريطانيا خلال أيام

ـ صديق عزيز يا خالد .. لقد فاتني الكثير من صحبتك .. كم تمنيت لو التقينا قديما لأنهل من معارفك ومن هذه الكتب التي تختارها وتملكها ! .. لقد كان هدفي في السنوات الخالية متابعة الصحف الفرنسية .. إصدارات دور النشر الفرنسية .. اليوم زهدت فيها وأنا مبهور بكتب الأفذاذ من أهل الإسلام .. أما بالنسبة للسفر أيها الأخ العزيز .. سنذهب أنا والأخت الفاضلة للعلاج من العقم عند أحد الأخصائيين الكبار في بريطانيا .. فأنا كما تعلم أعاني من ضعف جودة الحيوان المنوي .. والأخت نبيلة عندها عيوب خلقية في جهازها التناسلي .. وهناك أمل كما قال لي أحد الزملاء في علم النساء وطبهن .. وهناك الأجهزة الأحدث تطورا وعندهم جراءة في العلاجات المعقدة أكثر من هنا .. والسيدة نبيلة يا خالد تستحق مني كل شيء .. فهي نور سطع علينا في البيت .. وحسناء تحبها حبا لم أكن أتخيله .. مما أضفى سعادة كبيرة علينا.. وهي في سن يمكنها أن تحمل بعد .. ورتبنا أوراقنا وتقاريرنا الطبية القديمة والحديثة .. بل الرجل العالم لما اطلع على الصور وتقاريرنا قال : الأمل كبير في الحمل الطبيعي وأن امرأتك لم تصل لمرحلة اليأس فهي دون الأربعين واحتمال حملها وارد .. واخبرني أن أمري أسهل مع المنشطات والمقويات للحيوان المنوي .. فشجعنا الرجل للسفر

ـ أنت أصيل يا فارس .. وشهم .. فعلا خسرنا سنوات من الصداقة بسبب القيل والقال .. وجزاك الله خيرا ..وأنا لديّ إحساس بكرم الله عز وجلّ لهذه المخلوقة الصابرة نبيلة

ـ إنها سيدة فاضلة .. ودائما أدعو لك ولحبيبة ولسامر وسلوى على ما أنعم الله عليّ أنا وحسناء على جمعكم لي بهذه السيدة

ـ تقادير الله تعالى .. إذن السفر قريب

ـ وسنأخذ حسناء معنا خلال فترة الصيف للتفرج والسياحة في بلاد الفرنجة كما يسمونهم في

كتب القدماء وأيام الحروب الصليبية التاريخية .

استأذن سامر وسلوى بالدخول وقبلت سلوى وجه أبيها وقالت : مرحبا أبي .. هل تجهزتم للسفر ؟

وجلست بجواره بعدما حيت عمها ، ثم قبل سامر جبين عمه ورحب به وأخذ مكانا في الغرفة وقال : نتمنى لكم النجاح يا عم في العلاج والشفاء .. أتحب أن ترى حفيدك الأول .

ـ لقد استمتعنا بوجوده نصف شهر .. وكانت أحلى الأيام عندنا .. فنحن منذ حسناء لم نسمع صوت بكاء طفل في بيتنا .. المواليد الجدد لهم بهجة على البيوت يا خالد .. عندما تهبط حسناء من الباص حافلة المدرسة تدخل راكضة إلى حيث يرقد محمد .. وتقبله وهي تلهث وتقول : إنه نائم يا سلوى .. ألا يريد أن يصرخ ويبكي ؟

فقال خالد : الأمومة غريزة كبيرة في الأمهات والبنات .. ولولا تلك الفطرة لتركت النساء الحبل والولادة .. رغم الألآم الشديدة التي تعانيها الوالدات ومع ذلك تجد رغبتهن في المزيد من الأولاد .. كانت النساء الأوائل وهن في جيل حسناء أو أقل بين أيديهن مواليد .. واحد أو أكثر .. النساء القديمات عجيبات فعلا .. حمل وزراعة وحطب ورعاية أطفال وأزواج ..

ـ الإنسان ابن البيئة التي يتواجد فيها .. ولادات عقود مضت كانت تتم في البيوت ، اليوم من النادر الولادة في بيت .. فكل مستشفى فيها قسم ولادة .. أين محمد يا سلوى ؟ أكيد مع حسناء

فقال سامر : حسناء لم تر بعد ولادتها مولودا ؛ فلذلك رغبتها أن يبقى محمد عندها .. فسمعتها تساوم سلوى على حضانته

فضحك القوم وقالت سلوى : قلت كيف سترضعينه يا حسناء هذا وليد يرضع من صدر أمه ليس فقط بالقنينة ؟ .. أنا أعطيه القنينة بسب غيابي في الجامعة ..

قال خالد : ليس هناك أفضل للطفل من حليب الأم .. الحليب الإلهي خير غذاء للطفل يا فارس .. والرضاعة لا تكون في الغالب إلا من امرأة متزوجة وفي حالة وضع .. المرأة إذا لم ترضع من صدرها يجف حليبها ولبنها ..

فقال فارس : إن شاء الله نوفق أنا والسيدة نبيلة في رحلة العلاج ونخلف طفلا يكون أخا لهن

بعد غياب طويل

تمتم الجميع بالدعاء .



سافر فارس ونبيلة وحسناء كما رتب للعلاج في البلاد الأجنبية ، والتقيا بالدكتور المعالج للعقم وجرت الفحوصات اللازمة والاختبارات والتحاليل المخبرية والصور الطبقية ، وبعد حين علم الدكتور أن العلاج قد يستغرق وقتا طويلا وليس سريعا كما ظن فارس في البداية .. ووافق فارس على البقاء ومدد إجازته من الجامعة .. وأعاد حسناء ورتب أمر معيشتها مع سلوى وسامر ، وفرحت حسناء ببقائها عند سلوى والطفل محمد ، ثم خيرها بالبقاء معهم أو العودة للمدرسة الداخلية .. فأحبت البقاء معهم ، ورحب الدكتور خالد بذلك واعتبرها كابنته كما قال لفارس ، ونقلت خادمة فارس للعمل في شقة سامر وسلوى .. وكانت حبيبة تغمرها بالمحبة والحنان وتتعشى دائما معهم وليس مع أختها ، وترعاها في دراستها .

وكانت أخبار لندن مطمئنة ومثيرة للدهشة والشكر ، فقد نقلت لهم عبر الأثير أن عملية زراعة حمل قد نجحت ، وأن هناك فرصة أن تلد نبيلة توأما .. ولله في خلقه شؤون .. ثم جاءت البشرى أن الحمل ثبت واجتاز مرحلة الخطر .. وخرجت نبيلة عن الشهر الثالث بسلام .. وغمر الفرح أحباب فارس ونبيلة .. ولما تقدم الحمل سافر الدكتور حمزة بنفسه وزوجته لبريطانيا لزيارة ابنته الصابرة ، ويقدم الشكر لصهره وزوج ابنته وللطبيب المعالج .. والبقاء معهم حتى تلد .. وكان اللقاء شاعريا عاطفيا تخللته الدموع والدعوات والرجاء .. وتأكد لهم تقدم الطب في بلاد الغرب رغم الانحراف العقدي الكبير لديهم (ولا تبخسوا الناس أشياءهم).. وجاءت ساعة الحسم وتمت الولادة القيصرية ، وأخرج الله وحده من رحمها ذكرين كاملين وبصحة جيدة ، وصارت نبيلة أما بعدما يئست من الأمومة الذاتية .. فرحمة الله قريب من المحسنين .. وغمرت الأفراح الأسرات في لندن وفي جوهر ، وكانت حسناء تصيح فرحا

وسعادة لقد صار لي أخوان ولما يتصل بها فارس كعادته منذ سافر تقول بلهفة : ألا أستطيع السفر ؟ .. إني أريد أن أراهما وأقبلهما وألاعبهما .. فيقول مخففا من لهفتها : أيام أو أسابيع لقد صبرنا سنوات .. يريد الطبيب مراقبتهما ومتابعتهما لحين .

بعد ثلاثة شهور من الولادة أذن لهم الطبيب بالعودة لبلادهم .. وكان الأهل في استقبالهم في المطار.. حتى أن والد فارس السيد محسن كان من ضمن المستقبلين ، وبعض شقيقات فارس وأخوه محمود الذي راوده الأمل في السفر والعلاج في أوروبا كأخيه ، ووعده فارس بالمساعدة وكانت الآنسة حسناء تحمل طفلا وسلوى الآخر وتقول : ألا استطيع حمل الاثنين يا أبي ؟

ـ تستطيعين عندما يبدآن الحبو والزحف .

وكان سامر وسلوى قد هيئا فيلا الوالد لاستقبال الضيوف والمواليد .

ولما استقروا في جوف البيت قال فارس : الشكر والحمد لله أولا وآخرا .. مبارك عليك يا نبيلة حسنا وحسينا .

وقالت سلوى : وقد عق والدها عنهما يا أبي

التفت فارس إلى الدكتور حمزة : كيف وقد كنت معنا ؟!

فقال حمزة : أنا أشكرك يا فارس .. جعل الله مقدمهم عليك مقدم سعد وبركة .. أنا اتصلت بالأولاد وأمرتهم بالذبح عنهم .. تأسيا بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم .. هذا بعض الهدية لهما .

قالت نبيلة : شكرا لك يا أبي !





جمال شاهين

١	ليلة العرس	٢	شمس عمري
٣	أيتام الحداد	٤	صديق أمي
٥	الأخ شريف	٦	أستاذ الفرنساوية
٧	غربتي وابنتي	٨	حي أبو خروف
٩	الشقق السوداء	١٠	حياتي قبل الحياة
١١	الحفل بالقط الأسود	١٢	امرأة نزيه
١٣	رهاب الطلاق	١٤	

أستاذ الفرنساوية

رواية أستاذ الفرنساوية

عشق اللغة الفرنسية وأتقنها قراءة وكتابة

فقلد الفرنسيين في كل شيء

لباس طعام شراب طقوس حياة

ثم اكتشف زيف كل ذلك

فأسلم من جديد

عاد للأسرة الكبيرة من جديد

ذاك هو أستاذ اللغة والآداب الفرنساوية

ج. ش

٢٠١١

ليلة عرس

شمس عمري

ايتام الحداد

صديق أمي

الأخ شريف



أستاذ الفرنساوية